مرآة الحقائق

في تفسير بعض الآيات الكريمة بإشارات الوجود المطلق

تصنيف

سيدي إسماعيل حقي البروسوي

ت ١١٢٧ هـ

تحقيق

أحمد فريد المزيدي

الجزء الأول

مرآة الحقائق

في تفسير بعض الآيات والأحاديث والواردات واللطائف

تصنيف العلامة

سيدي إسماعيل حقي البرسوي

المتوفى ١١٣٧ هـ

تحقيق

أحمد فريد المزيدي

الجزء الأول

دار الآفاق العربية

حقي، إسماعيل حقي.....عبد الله المناستري ، 1912
مرآة الحقائق في تفسير بعض الآيات و الأحاديث
و الواردات و اللطائف2/1
تصنيف: إسماعيل حقي البر سوي
تحقيق:احمد فريد المذيدي
ط1 – القاهرة : دار الآفاق العربية 2009
884ص ، 24 سم
تدمك : 7 – 218 – 344 – 977
1- التصوف الإسلامي 2- القرآن-تفسير
3 الحديث-تفسير
أ- المذيدي ، فريد (محقق)
ب- العنوان
ديوى : 415.1
رقم الإيداع : 2008/13753

الطبعة الأولى
1430هـ – 2009

دار الآفـــاق العربيـــة
نشر – توزيع – طباعة
55ش محمود طلعت من ش الطيران
مدينة نصر – القاهرة
تليفون : 22617339 تليفاكس : 22610164
EMIL: Daralafk@yahoo . com
Selimafak@live.com

دار الآفاق العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أوضح الطريق لسلوك عباده إليه، وفتح باب دعوته لدخول أوليائه عليه، واختصهم لحضرته؛ فمن مجالس ومؤانس وقائم بين يديه، كل ذلك ضربا للأمثال ليفهموا، ولا يصل الفهم ولا العقل إليه، تعرف لهم، فبه عرفوه، ووصف لهم ذاته العلية فبالوصف الذي وصفها لهم به وصفوه، وطهر قلوبهم من الأغيار، فما أنسوا بغيره ولا ألفوه، وخرق أسماع قلوبهم خطابه فأسكرهم بلذيذ ذلك الخطاب، وتجلت لهم صفات جماله فذهلت منهم العقول وطاشت منهم الألباب، وأسطلهم الدَّهش، فحاروا وعجزوا عن رد الجواب، فلولا ثبتهم في ذلك المقام وردهم بعد الصحو والاصطلام، فلاطفهم بلطائف ذلك الكلام لصار بناؤهم إلى الانهدام واندرست تلك الرسوم والأعلام، ولسارع على وجودهم الاضمحلال والانعدام.

وبعد ...

فهذا كتاب مرآة الحقائق لسيدي إسماعيل حقي -قدس الله سره- من أعظم مصنفاته بعد التفسير «روح البيان» حيث جمع فيه كاتبه من واردات الشيخ في القرآن والحديث، والخواطر والأحوال، ما عظم أمره، وجلّ قوله.

فكان الشيخ المصنف تابعًا متحققًا بمدرسة الشيخ الأكبر -قدس الله سره- فانطبع ذلك عليه في كتبه، فخرجت يفيح منها المسك الأذفر، ويبدو عليها خاتم الختم والكبريت الأحمر، فكانت نقية صافية لما قبلها صاحب السر الأطهر.

وهذا الكتاب أصوله من محفوظات -دار الكتب المصرية- ويعتبر من نوادر المخطوطات، كانت أوراقه متناثرة، ومبعثرة، وبها الكثير قرابة الربع من الخط التركي وبعض الفارسي، فضلاً عن تداخل الواردات، من قرآن وحديث، فلم تكن مرتبة، ولا منسقة كما يظهر إليك هكذا، وكذلك دقة الخط وغرابة طريقة كتابته، ووجود بعض الألفاظ التركية والفارسية، التي آثرنا عدم إيرادها ليبدو النص عربيًّا، فضلاً عن عدم وضوحها في الأصل كثيرًا.

فقمتُ بالجمع والترتيب للمخطوط كما أمرني بذلك شيخي -قدس سره- وذلك قبل انتقاله بعامٍ ونصف تقريبًا، حيث ترتيب الواردات والإشارات القرآنية على ترتيب المصحف، وبعدها الأحاديث، ثم الواردات.

فبالجملة تم إعادة صياغة وترتيب الكتاب وغير ذلك من أمورٍ تسهم في إفادة النص ومضمونه، وضبطه وتصحيحه قدر المستطاع.

وكذلك إضافة الفصل الأخير من مخطوط كتاب «تمام الفيض» للمصنف، وهو في ذكر بعض الكلمات الواقعة بين المصنف وشيخه سيدي عثمان الفضلي -قدس سره- شيخ السادة الجلوتية-قدست أسرارهم ونفعنا من بركاتهم- وذلك لتعم الفائدة، ويحصل النفع إن شاء الله تعالى.

ثم قمت بالتعليق على بعض إشارات المصنف على بعض الآيات المفسرة، وكذلك على الأحاديث بعد تخريجها، وكذا التعليق على بعض الواردات وشرحها.

توثيق الكتاب:

-أصل الكتاب مخطوطًا بدار الكتب المصرية (متناثر الأوراق).

- ذكره البغدادي في هدية العارفين (١/١٨).

- الإشارات والتصريحات الكثيرة من المصنف بذكر اسمه وكتبه وشيخه وغير ذلك.

وآخرًا نسأل الله حسن هدايته وتوفيقه، وأن يرزقنا الصدق والإخلاص في عبوديته، ومحبة النبي ﷺ وآله وصحابته وأتباعه الصالحين .. آمين.

كتبه

أبو الحسن والحسين

أحمد فريد المزيدي الشافعي المصطفوي

جوال: ٠١٠١٤٦٣٠٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة الشيخ المصنف

هو الشيخ العلامة الإمام الكبير إسماعيل حقي بن مصطفى الإسلامبولي الحنفي الجلوتي، المولى أبو الفداء، متصوف مفسر، تركي مستعرب.

ولد في آيدوس Aidos سنة ١٠٦٣ هـ، وسكن القسطنطينية، وانتقل إلى بروسة، وكان من أتباع الطريقة (الجلوتية) فنفي إلى تكفور طاغ، وأوذي وامتحن، وعاد إلى بروسة، فمات فيها سنة ١١٣٧ هـ -قدس الله سره العزيز.

من مصنفاته:

- روح البيان في تفسير القرآن (مطبوع عدة طبعات).
- تمام الفيض (مخطوط يسر الله لنا تحقيقه).
- الرسالة الخليلية في التصوف.
- تسهيل طريق الأصول لتيسير الوصول في التصوف.
- كتاب التوحيد.
- كتاب النجاة.
- شجرة اليقين في التصوف تركي.
- الفروقات.
- مرآة الحقائق (كتابنا هذا).
- روح الكلام في شرح صلوات المشيشي عبد السلام.
- فرح الروح في شرح المحمدية ليازيجي زاده ثلاث مجلدات.
- شرح الآداب.
- نخبة اللطائف.
- نفائس المسائل.
- نقد الحال.
- نوادر الصوم.

- واردات حقي من سنة ١١١٤ إلى آخر سنة ١١١٥ هـ.
- شرح بند نامة للعطار.
- شرح شعب الإيمان للقيصري.
- شرح الكبائر.
- شرح نخبة الفكر للحافظ ابن حجر.
- الأنوار في شرح منظومة كتاب التوحيد.
- الكنـــز المخفي.
- أسرار الحج.
- التحجي في حروف التهجي.
- تحفة إسماعيلية.
- تحفة خاصكية.
- تحفة خليلية.
- تحفة رجبية.
- تحفة عطائية.
- تسهيل طريق الأصول.
- جامع مهمات الطلاب.
- مزيل الأحزان.
- حاشية على تفسير سورة النبأ للبيضاوي مجلدين.
- الحجة البالغة.
- الحق الصريح والكشف الصحيح.
- ديون شعره تركي.
- الرسالة البرقية.
- الرسالة الجامعة.
- كتاب الخطاب.
- روح المثنوي.
- سلوك الملوك.
- مجموعة الأبرار.
- وسيلة المرام.

وانظر ترجمته:

هدية العارفين للبغدادي (١/١١٨)، إيضاح المكنون (٢/٧٠٢).

مرآة الحقائق

في تفسير بعض الآيات والأحاديث
والواردات واللطائف

تصنيف

شيخ الإسلام العلامة المفسر سيدي إسماعيل حقي البرسوي
المتوفى ١١٣٧ هـ

إعداد وتحقيق ودراسة
الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الأول

(تفسير بعض الآيات القرآنية)

الناشر
دار الآفاق العربية
القاهرة



[illegible]
مما ابداه الله القدير لقلب عبده الفقير الشيخ اسمعيل حقي شرّفه
بالتجلي الحق ومن بالتوفيق ووقع البدء في اواسط سنة

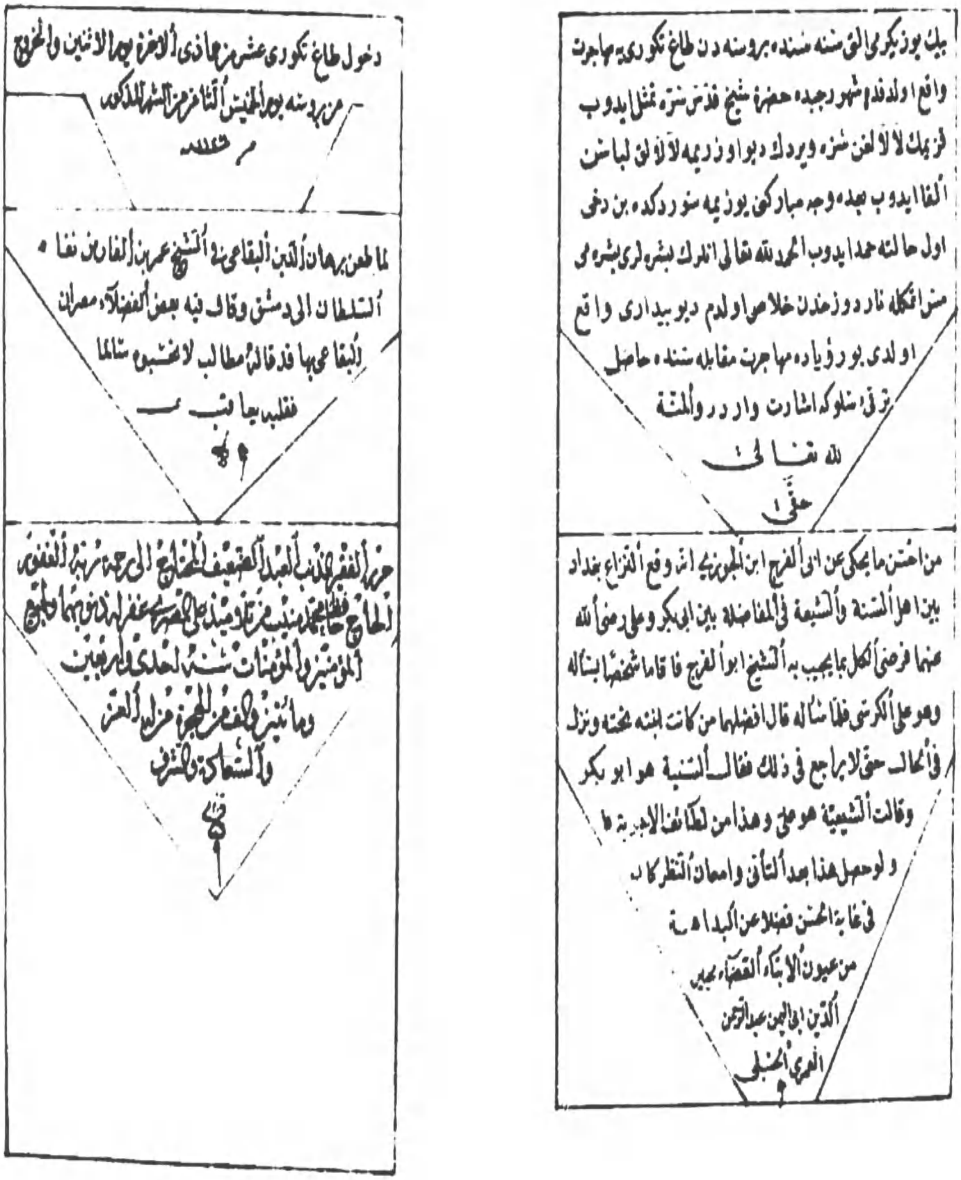
بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله سبحانه وتعالى قل خاطب به النبي صلى الله عليه وسلم
مع ان القايل في الحقيقة هو نفسه تعالى كما دل عليه بعض الاطلاقات
وهو نظير الامر بالعلم في قوله فاعلم انه لا اله الا الله لان العالم
ايضا هو ذاته تعالى ففي كل منهما اشارة الى ذنب مستغفر عنه في
قوله واستغفر لذنبك فلا بد من ازالة النسبة من البين ليظهر
اتحاد العين هو كلمة مركبة لفظا وبسيطة معنى لان المراد بها
الهوية الذاتية الاحدية ولذا جعلوها من الاذكار الغيبية
القلبية واد خلوا عليها الالف واللام فقالوا يا هو ولا مناقشة
في الاصطلاح ووجه التركيب من الهاء والواو ان الهاء من
مبداء المخارج كما ان الواو من منتهاها فكما ان الهواء المتكيف
بكيفية الصوت يمر بالمخارج كلها الى ان ينتهي الى الواو شفوية فكذا
سر الهوية الساري في الموجودات المرتب بعضها على بعض يتجلى
في العوالم كلها الى ان ينتهي الى الانسان فيكون الانسان وحقيقته
اجمع الحقائق كما ان الواو اجمع الحروف من حيث مرورها
بجميع الحروف ومخارجها فصارت صورة الحرف والفعل



والفعل منطابقين فكون لفظ هو ضميرا يدل على الغيب وكونه اسما
يدل على الشهادة لان المراد من الاسماء الصفات وهي من عالم
الشهادة اضافية او حقيقية ولذا كان اجل الاذكار عند
الاقطاب المكاشفين من حيث مكاشفتهم وان كان كلمة الشهادة
خير الاذكار عند المحجوبين من حيث حجابيتهم وفي الابتداء بالهاء
اشارة الى رجوع الكل الى تلك الهوية كما قال واليه ترجعون
فكلها تدور على هذه الهاء كما ان ق والقرآن المجيد ناظر الى
القاف الواقع في هذه السورة لان القرآن صفة الله تعالى وفيها
مجد وجلالة كما ان هذه السورة مما يصرح بذاته العلية وصفاته
الجلية الله اسم دال على الالوهية لكن الالوهية لما كانت مستلزمة
الصفات الالهية اخذت مع الذات وجعلت متضمنة لجميع الصفات
في هذا الاسم لانه علم تنزل الذات من مرتبة الهوية الى مرتبة
الصفات ليكون وسيلة الى سر الربوبية كما قال الحمد لله رب
العالمين وكل متنزل من التنزلات الاسمائية منطبق على ما فوقه ومن
ذلك الهاء في اخر هذا الاسم لان الصفات مشتملة على الذات
كما ان الشجرة مطوية على النواة فكل نهاية راجعة الى البداية بما
اشتمل عليه من الحقيقة سواء كان ذلك الترجيع بواسطة او
بغيرها والعارف يمشي على المراتب صعودا ويجري على التوحيد معنى
فيه السلامة احد اي هو ذاته ومنه احدية السلطان فانه
ممكن والممكن ظل الواجب ولا يكون ظلان لذي ظل واحد واليه
الاشارة بقوله السلطان ظل الله اي ظل الحقيقة الالهية.

الورقة الأولى من المخطوط



[illegible]

من احسن ما يحكى عن ابي الفرج ابن الجوزي انه وقع النزاع ببغداد بين اهل السنة والشيعة في المفاضلة بين ابي بكر وعلي رضي الله عنهما فرضي الكل بما يجيب به الشيخ ابو الفرج فاقاموا شخصا يسأله وهو على الكرسي فلما سأله قال افضلهما من كانت ابنته تحته ونزل في الحال حتى لا يراجع في ذلك فقالت السنة هو ابو بكر وقالت الشيعة هو علي وهذا من لطائف الاجوبة ولو حصل هذا بعد التأني وامعان النظر كان في غاية الحسن فضلا عن البداهة من عيون الانباء القضاء مجير الدين ابي اليمن عبد الرحمن العمري الحنبلي

دخول طاغ تكوري عشر من جمادى الآخرة يوم الاثنين والخروج من بروسه يوم الخميس الثامن من الشهر المذكور

لما طعن برهان الدين البقاعي في الشيخ عمر بن الفارض نفعنا [illegible] السلطان الى دمشق وقال فيه بعض الفضلاء [illegible] البقاعي [illegible]

حرره الفقير المذنب العبد الضعيف المحتاج الى رحمة ربه الغفور الحاج حافظ محمد [illegible] غفر لهما ذنوبهما ولجميع المؤمنين والمؤمنات سنة احدى وأربعين ومائتين والف من الهجرة [illegible] العز والسعادة والشرف

الورقة الأخيرة من المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب مرآة الحقائق في تأويل بعض الأحاديث والآيات مما أبدى الله القدير لقلب عبده الفقير (الشيخ): إسماعيل حقي شرَّفه بالتجلّي الحقي، ومزيد الترقّي، ووقع البدء في أواسط سنة ١١٢٥ هـ.

سورة الفاتحة

قال الله تعالى في فاتحة الكتاب: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ**﴾ [الفاتحة:١].

اعلم أن الحمد في مقام النعمة؛ بمعنى: الشكر كما دلّ عليه قوله ﷺ: «**اللّهم لك الحمد شكرًا، ولك المنّة فضلاً**»(١).

فإن قوله: (**شكرًا**)؛ كالتفسير للحمد، وكذا قوله: (**فضلاً**)؛ كالتفسير للمنّة.

فإن المنَّة قد تكون بمعنى الامتنان، وقد تكون بمعنى الافضال كما في قولهم: المنَّة لله، فإنه بمعنى الحمد لله؛ بل بمعنى الشكر لله، فالفرق بين الحمد والشكر: إن الشكر لا يكون إلا في مقابلة النعمة كما سبق، فيُطلب زيادتها بالشكر، ولا يكون في مقابلة المحنة؛ لأن الشكر في معنى طلب المزيد.

كما قال تعالى: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**﴾ [إبراهيم:٧].

ولا معنى لطلب زيادة المحنة؛ بل هو منهي عنه كما دلّ عليه قوله: «**لا تتمنوا لقاء العدو**»، وقوله: «**واسألوا الله العافية**»(٢)، بخلاف الحمد، فإنه الله تعالى يُحمد على السَّراء والضرَّاء، فيؤل إلى معنى الصبر بمعنى: إن العبد ينبغي أن يصبر على المحنة؛ فإنها من الله تعالى، وفي ظهورها ظهور كمال الله تعالى.

والله تعالى يُحمد على كماله سواء كان في صورة النعمة أو لا، فإن كان الحامد من الأكامل؛ فيجوز أن يكون حمده على المحنة شكرًا؛ لشهوده فيها النعمة؛ بل يكون حمده إظهار الكمال لله تعالى من غير ملاحظة النعمة والمحنة؛ لغيبته عن كل منهما، واستغراقه في الله تعالى.

قال تعالى: ﴿**رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة:٢].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٤٤/١٩)، والبيهقي في الشعب (٩٦/٤).

(٢) رواه البخاري (١٠٨٢/٣)، وأحمد (٣٥٣/٤)، والدارمي (٢٨٥/٢).

لم يقل: الحمد لرب العالمين الله؛ لكون الربوبية تلو الأُلوهية دون العكس؛ فإن الأُلوهية كالسلطنة، والربوبية كالوزارة، فالسلطان مُظهر الاسم الله؛ لكمال جمعيته، والوزير مُظهر الاسم الرب؛ لكونه في مقام التربية للعالمين؛ كالروح والعقل، فإن القوى والأعضاء إنما تقومان بهما، وهما كمال ترتيبهما، فكما أن تعيُّن الروح قبل تعيُّن ما دونه؛ فكذا تعيُّن الألوهية، ونظير ذلك الشمس مع القمر، فإن الشمس أقدم في الوجود؛ كتقدُّم الأب على الابن[1].

والحاصل: إن الأُلوهية باطن الربوبية، فالأولى مظهر الاسم الباطن، والثانية مظهر الاسم الظاهر، وكذا الحق باطن الخلق، والشمس باطن القمر، والأب باطن الابن، والروح باطن الجسم؛ فالظاهر مرآة الباطن في كل ذلك؛ وإنما جعلوا الرب الاسم الأعظم أيضًا، وفي مرتبة الجلال من حيث جمعيته؛ لأن الأُلوهية والربوبية لا تختصان بألوهية بعض دون بعض، وبربوبية بعض دون بعض، وباسم دون اسم، وبلطف دون قهر وبالعكس، فللسلطان الجمال والجلال، وللوزير التربية بكل من اللطف والقهر، فجمعية السلطان إنما تظهر في المراتب التي دون السلطنة فاعرف ذلك[2].

---

(١) قال القطب القونوي: أظهر مراتب الحمد: «مرتبة الأفعال والأسماء» التي متعلقها «مرتبة الفعل»، وهو في مرتبة الصفات وأسمائها يكون مدحًا لا حمدًا، فإن بقيت الصفة فللوجه الجامع الرابط بين مرتبة الصفة والفعل.

والحمد المتعلق بالذات هو حمد الحمد وهو ثناء الصفة بنفسها لمن هي صفة ذاتية له غير مفارقة ولنفسها أيضًا.

وأظهر مراتب الحمدُ مرتبةُ الأفعال والأسماء التي متعلّقها مرتبة الفعل، وهو في مرتبة الصفات وأسمائها يكون مدحًا لا حمدًا، فإن بقيت الصفة؛ فللوجْه الجامِع الرابط بين مرتبة الصفة والفعل.

والحمدُ المتعلّق بالذات:هو حمد الحمد، وهو ثناء الصفة بنفسها لمن هي صفة ذاتية له غير مفارقة ولنفسها أيضًا. وانظر: النفحات (ص٩٨) بتحقيقنا.

(٢) والحمد عند هذه الطائفة إظهار صفات الكمال، ولا كمال إلا للحق تعالى سواء لوحظ بعين

الجمع أو الفرق، وكذلك مظهر لها الكمال جمعًا وفرقًا.

قال النبي ﷺ: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**».

وثنائه تعالى على نفسه هو إظهار كماله بتجليه وظهوره في المظاهر على هذا النمط الكامل والنظام المشاهد، وهو مصدر بمعنى الفاعل أي: الحامدية، أو بمعنى المفعول أي: المحمودية أي: الحاصل بالمصدر أي: الهيئة التي عليها الحامد أوالمحمود عند تعلق الحمد به، أو نفس المصدر أي: النسبة، وعلى التقادير الثلاثة فاللام فيه إما الجنس أو الحقيقة أو الاستغراق.

فالأقسام تسعة حاصلة من ضرب الثلاثة في الثلاثة، فإن كل من لام الجنس والحقيقة والاستغراق يحتمل فيه معاني الحمد الثلاثة، والله علم الذات المجردة عن جميع النسب حتى عن التجريد، أو غير ذلك من المعاني التي سبقت للفظ الجلالة وهذا المعنى أنسب بالمراد، والمعنى الثاني أولى من المعنى الثالث، والله أعلم وهو يقول الحق ويهدي السبيل.

فالمعنى جنس الحامدية، أو المحمودية، أو الحمد على تقدير أن يكون اللام للجنس، أو الحقيقة المطلقة الشاملة لكلّ حامدية أو محمودية أوحمد المعبر عنها بلفظ الحمد على تقدير كونها للحقيقة، أو كل فرد من أفراد الحامدية أو المحمودية أو الحمد من أي حامد صدر، وعلى أي محمود وقع على تقدير كونها للاستغراق خالص مِلكًا واختصاصًا واستحقًا للذات البحت المعراة عن النِّسب والاعتبارات، وقيل: بعدم الفرق بين لام الجنس والحقيقة، ومن لاحظ الحمد بعين الجمع واستهلاك المظاهر في الظاهر لا يقدر أن يُحمِّله على الاستغراق؛ إذ لا تعدد في الجمع، ومن لاحظه بعين التفرقة فيُحمِّله الاستغراق أيضًا بتأويل أنه خالق جميع المحامد ومالكه، وإلا فلا يقول: أن الحامد هو الله، والمحمود أيضًا هو الله في صورة (حمد زيد عمر) لا في مرتبة الإطلاق ولا في مرتبة التقييد، بل في الصورة المذكورة.

يقول: إن الحامد (زيد) والمحمود (عمر)، فلو قال: كلُّ أفراد الحمد مثلاً لله بلا تأويل يلزم أن يكون حمد زيد لعمرو حمد لله لا حمد زيد، ويكون الحامد حقًا هو تعالى لا زيد، وأن يكون المحمود هو تعالى لا عمر، وهو ينسب القائل بهذا إلى الكفر والزندقة، فلا يمكن له الحمد المذكور إلا بالتأويل بأنه تعالى خالق لكلّ أفراد الحمد أو مالك أو صاحب، ومن لاحظه بعين جمع الجمع، وهو أن يرى الوحدة في عين الكثرة والكثرة في عين الوحدة، فلا تحجبه الكثرة عن الوحدة كأهل الفرق، ولا الوحدة عن الكثرة كأهل الجمع، فهو يحمل (ال) على الجنس، والحقيقة والاستغراق بلا تأويل، فعنده الحمد كله لله، وليس كله لله بخلاف من كان في الجمع فإن الحمد كله لله لا غير، ومن كان في الفرق فإنه يقول: بالبعض لله، وبالبعض الآخر لما سواه إلا بالمذكور، فحقًا يكون

قال تعالى: ﴿الرَّحْمَـٰنِ﴾ [الفاتحة:٣] في الظاهر، فيعمُّ رحمته الكافر، والأعضاء والآفاق، فإن كل ذلك داخل تحت حيطة الاسم الظاهر.

قال تعالى: ﴿الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣] في الباطن، فيعمُّ رحمته المؤمن والقوى والأنفس، كما يعمَّهم الرحمة الرحمانية، فللكافر ظاهر دون باطن؛ لأن لا آخرة له، فإن العاقبة للمتقين، وللمؤمن ظاهر وباطن جميعًا فالظاهر مع الباطن أقوى من الظاهر بلا باطن؛ لأن الظاهر بلا باطن محصور كالدنيا؛ لانتهائها دون الظاهر مع الباطن؛ كالآخرة لعدم نهايتها.

وإنما أدخلنا الآخرة في الباطن؛ لأنها قلب الدنيا؛ والقلب باطن بالنسبة إلى القلب، فكما ينتهي حكم الدنيا، ويظهر الآخرة على صورها؛ فيكون الدنيا باطنة، والآخرة ظاهر؛ فكذا يظهر القلب في الآخرة على صورة القالب، فيكون القالب باطنًا، والقلب ظاهرًا، وبه يصحُّ رؤية الله تعالى كما يصحُّ ذلك في الدنيا بالبصيرة، فانظر إلى هذا، وكن على بصيرة من الأمر، فإن الأمر ليس كما يزعمه المنكرون من

=

كمن في الجمع في إثبات جميع أفراد الحمد من حيث الخلق لله لا غير، وكمن في جمع الجمع من حيث إثبات الحمد لغيره تعالى أيضًا.

وفي الحقيقة لاكمال إلا كماله، ولا مظهر له إلا هو جمعًا أو فرقًا، فهو الحامد في كلِّ مرتبة من مراتب الإطلاق والتقيِّد، وهو المحمود لكلِّ فضيلة لا حامد سواه ولا يحمد أحد إلا إياه.

واعلم أن هذا الحمد على لسان الحقيقة إشارة إلى حمده الأزلي نفسه بنفسه؛ لأن كل موجود ممكن إشارة إلى ما كان في الأزل في باطن علمه تعالى، وهو شامل للشكر والمدح أيضًا، فهو الشاكر والمداح أيضًا.

وقال صاحب «مرآة الأرواح»: حمد الله تعالى ذاته في الأزل بالوحدانية، وصفاته بالكمالية وشكر الذات على نعمة الوجود، والصفات على نعمة بذل الوجود بالجود، ومدح الذات بنفي جميع الذوات في الوجود، والصفات على بذل الأوصاف لكلِّ ممكن وموجود، وأفنى بها فيها أي: في صفاتها، وهذا الحمد وإن كان مطلقًا باعتبار إضافته إلى حضرة اسم هو أحدية جمع جميع الأسماء الإلهية وهو الله إلا أن حال الحامد يُقيِّده بحضرة خاصة من حضرات الأسماء الإلهية؛ إذ الحمد لا يكون إلا من تلك الحضرة الخاصة.

المعتزلة وغيرهم، والله رقيب شهيد.

ومن العجائب في هذا المقام أن الكافر باطن المؤمن؛ لأن باطن المؤمن مُظهر الجلال(١)، كما أن ظاهره مُظهر الجمال(٢)، فللمؤمن رحمة لظاهره وباطنه في الدنيا والآخرة، فالكافر لا يقنط من رحمة ربه إلا أن الرحمة له في صورة النعيم في الدنيا كما دلّ عليه قوله: «**الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر**»(٣).

وفي صورة الجحيم في الآخرة كما دلّ عليه قوله: ﴿**لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا**﴾ [النبأ:٢٣]: أي في العذاب في تلك المدة؛ وهو مذهب أهل الحقائق، وله في القرآن شواهد أُخر لا تُذكر هنا، فظن خير، ولا تسأل عن الخير، والله قادر على أن ينبت جرجيرًا في قعر النار، وإن كان ذلك الجرجير ليس من جنس ما ينبت في قعر الجنة؛ إذ ليس في النار نعيم، فاعرف هذه الدقيقة، وكن مع أهل الحقيقة.

---

(١) إن الجلال حضرة لائقة بالمشاهدة لأنه اسم ظهر الله به مخصوصاً بالثنوية وهو تمكين اسم الجميل فتظهر عليه صفة في حال الناظر والمنظور ليحصل له هيبة وخشوع مع محبة فالجميل للمحبة، فلما رفع المحب إلى مقام أعلى من موطن المحبة الذي هو الظاهر. فازداد الاسم صلة بغير زوال عينه، ولما كانت هذه الصفة لائقة بالمشاهدة وهي الجلال خرج الشاهد في شهوده من مقام إلى مقام لأنه لا يتغير عليه صفة إلا بخروجه من محله في شهود واحد، فالجلال مختصة بالله دون الجميل وغيره لكونها تنشأ عن التعظيم وكل تعظيم ناشئ عن عظمة الله تعالى، وإذا حصل للشاهد شهوداً في خلع واحد يكون هذا الشهود أشد تمكيناً من الشهود الواحد، والتمكين عبارة عن الاستعلاء لكن الاستعلاء على ضربين: استعلاء وصف واستعلاء معنى، فالعارف الكامل له استعلاء الوصف ويتعالى عن استعلاء المعنى إذ استعلاء المعنى هو على بني الجنس بشرط الاستقلال لجهة دون جهة، والعارف لا جنس له ولا حصر فيحل عن هذا المقام المعنوي، ولما كان هذا العارف متصفاً بالاستعلاء اتصافاً فأخرج من مقام الشهود إلى مقام الجلال.

(٢) إن الجمال بعد الأرواح تنــزل مناسب بحيث ذكر أرواحاً متعددة والتعدد لائق بالجمال لأن الله تعالى لما أوجد الخلق متكثراً متمايزاً أظهر بالجميل لئلاً يقع النفور من البعض عن البعض، وكذلك في عالم الأرواح، فلما أدرك هذا الشاهد رضوان الله عليه أرواحاً متعددة لحظ الجمال الناشئ بينهم لعدم النفور وهذه القابلية في هذا المحل قد كانت شديدة الصقال، والناظر فيها نافذ النظر حتى شهده صورة الموصوف والأوصاف، لأن الجمال صفة خافية وهمية فلا يدركها إلا من اتصف في حال شهوده بهذه الأوصاف.

(٣) رواه مسلم (٤/٢٢٧٢).

فإن مذهبهم ليس بمخالف لمذهب أهل الشريعة، وإن كان أهل الرسوم يسيئون الظن بهم؛ لعدم وقوفهم على الحقائق، ولنا في هذا المقام كلام عريض لا يقتضي المقام استيفاؤه، واعتقادنا على أن أهل النار مخلّدون فيها، وليس لهم نعيم كنعيم أهل الجنة من أكل، وشرب، ولباس ونكاح، ونحو ذلك، فهم كما قال الله تعالى: ﴿**كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا**﴾ [النساء:٥٦] الآية.

قال تعالى: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ [الفاتحة:٤].

دلَّ نداء على أن اليوم في الأصل كان يومًا بلا ليل، ثم ظهر الليل بحسب الأجرام النيِّرة وغروبها، وكذا هو يوم واحد في الفرع بلا ليل؛ لأن الآخرة لا ليل لها.

وفيه إشارة إلى أن الدنيا والآخرة ملك لله تعالى ليس لغيره في ذلك الملك يد إلا بطريق الخلافة والعارية، فإن الدين المجازاة، وهو جارية في الدّارين، فهو تعالى مالك يوم الدنيا، ويوم الآخرة، ومالك المجازاة فيهما، فظهر إن قيامة العارفين دائمة؛ لكونهم مع الله تعالى في كل نَفس من الأنفاس، ومحاسبون أنفسهم في كل لحظة من لحظات، فهم مملوكون لله تعالى؛ لأنهم أحرار عمَّا سواه تعالى، وقائمون لربهم بالخدمة في كل حين.

قال ﷻ: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة:٥].

أراد بالعبادة المبنية على التوحيد، فإن العبادة بلا توحيد عبادة المشركين، فلا تعود إلى الله، وإنما تعود إلى الآلهة الذين اتّخذوها معبودين من دون الله، دلَّ على هذا تقديم المعمول الدال على القصر، فإذا كانت العبادة مخصوصة به تعالى؛ كانت الاستعانة أيضًا كذلك، إذ لا يستعين المرء إلا بمعبوده].

قال تعالى: ﴿**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**﴾ [الفاتحة:٦]: أي ثبِّتنا على صراط تخصيص العبادة والاستعانة بك.

قال تعالى: ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أنعَمتَ عَلَيهِمْ**﴾ [الفاتحة:٧] في الأزل، فكانوا على شكر النعمة في جانب الأبد.

قال تعالى: ﴿**غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ**﴾ [الفاتحة:٧]؛ هم الذين

استعانوا بغير الله، ولمّا كان أثر الغضب أشدَّ من أثر الضلال؛ قدَّمه عليه.

وفيه إشارة إلى أن غاية الأمر بالنسبة إلى المستعين بغير الله هو الحيرة؛ إذ لا يتم ولو قاسى كل الشدائد، وإنما يتم منه إذا لم يكن ذلك الغير غير الحسب لشهوده الحق في كل مظهر من المظاهر.

وإليه الإشارة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر:١٥][1].

---

(١) فائدة: قال سيدي أبو المواهب الشاذلي قدس الله سره في قوانين الحكم: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥].

تحقيق: حقيقة الفقر في ظاهر الطريقة غير ما هو باطنِ الحقيقة، فالظاهر فقر الزهاد من الأعراض الدنيوية، والباطن فقر الأفراد من الأغراض الأخروية شغلاً بالله عما سواه لمن شهد ذلك ورآه.

تدقيق: تفاخَر الغنيِ مع الفقير.

فقال الغنيِ: أنا وصف الرب الكبير، فما أنت أيها الحقير.

فقال الفقير: لولا وصْفِي لما تميَّزَ وصفك، ولولا تواضعي ما رفع قدرك، فأنا وصْفِي وسِمَ بذلّ العبودية، وأنت وصفك نازع الربوبية، ومن نازع قصِم، ومَن سَلَّم سَلِمَ.

تحقيق: التبس حال الفقير على غير النبيه، فقال: الفقير غير الفقيه، وما علم أن الراء هي الهاء.

إنَّ الفقـــيرَ هـــو الفقـــيهَ وإنمـــا   راء الفقـــيرِ تجمعـــت أطـــرافها

تدقيق: الفقير الفقيه من حَطَّ حمل الرحال على أعتاب الرجال، حتى أرضعته طريَّ لبن الصدور، وأغنتْه عن قديد ميت السطور.

فانتصح يا فقيه القال، واسمع يا فقير الحال، وافْن بالله عن الرسوم، واخرج عن كل معلوم.

يا فقيه الجدال، هذا الجدّ آل أدخل حَانَ أخيارنا، نصيِّرك من أحْبَارنا، ونسقيك صافي الشراب بعد نقيع السراب.

يا فقيه النقل، يا عقول العقل، سَتَر عنك نور الكشف حجاب أنيّتك العقلية، والذوق غيَّر طعمه عندك مرارة العلوم النقليه.

يا فقيه الاسم دون المسمَّى الغلط أوجبه تشابه الأسماء لو عرفت معنى الفقير والفقيه كنت الحاذق النبيه.

الفقيه من فقه عن الله، وفنى به عمن سواه، فلو كنت بهذا الوصف كنت الفقير صدقًا، والفقيه عند الله حقًا.

تحقيق: فضَّل قوم الغني على الفقر، وعكس آخرون الأمر، والحق أن غنى النفس بالأعراض البشرية لا يخرجها عن افتقار صفاتها الذاتية.

تدقيق: مَن ادَّعى الغنى وقع في العنا، بخلاف من أظهر الفقر؛ فإنه خلص من الأمر.

=

أي: سواء كان إحياء حكم إلى السلطان مثلاً في الظاهر، أو إلى مَن دونه،

=

تحقيق: الفقير من اتَّصف بحقيقة الافتقار عن إرادة منه واختيار، لا عن ضرورة ردته لمركز الاضطرار.

تدقيق: من استكبر بوصف الغني على الفقير استوجب حكم العكس من القدير.

ألم ترَ أن الفقر يُرجَى لَه الغنى وأن الغنى يُخشى عليه من الفقرِ

تحقيق: سمة الفقر سمة الأحباب، وحليته حلية العبد الأواب، من لبس اسمًا له كان ذلك وسمًا له في وجود أهل القبول، ولهم من الله نيل المسئول.

وجوه عليها للقبولِ علامةٌ وليس على كلِ الوجوهِ قبولُ

تدقيق: من افتخر على الفقراء بماله، أو تباهى عليهم بجماله؛ افتقر وعاد وقد انكسر.

لا تفخرن بما أُوتيت من نعم على سواك وخف من كسر جبارِ

فأنت في الأرض بالفخار مشتبه ما أسرعُ الكسرِ في الدنيا لفخارِ

تحقيق: جواهر معاني الزمان أنفس من أن تضيعها في الهذيان، فيالله العجب ممن عمره انقضى وذهب في جمع الفضة والذهب، وهو بما جمع فقير ليس له نصير.

ومَن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقرٍ فَالذي فَعَل الفقرَ

تدقيق: من أفقر إلى الله استغنى به عن كل شيء، ومن استغنى عنه افتقر إلى كل شيء، ومن افتقر إلى كل شيءٍ، فقد أوحشه كل شيء، ولم يتعوض عن الله بشيء من كل شيء.

لكلِ شيءٍ إذا فارقته عوضٌ وليس لله إنْ فارقتَ من عوضِ

تحقيق: خاصية مغناطيس فقر الذات هي الجاذبة للعطايا والهبات، فمن كان وصف افتقاره أكثر كان نصيبه أجزل وأكبر.

تدقيق: اختصاص الفقراء بالسؤال خصوصية لهم في الحال والمآل، يعرفها من وجد ثمر المطالب، وقُضيت له الحاجات والمآرب.

تحقيق: اتِّصاف الرب سبحانه بوجود الغنى المطلق، هو الذي أوجب لنا الفقر المحقق، وبهذا الاتصاف حصلت الألطاف؛ لأن من رحمة الغني أن يجود على الفقير، ويجبر المسكين الكسير.

تدقيق: ما أتى باب الغني الكريم فقير فخاب، ولا قصد حماه فغلق دونه الأبواب.

على بابِك الأعلى مددتُ يد الرَّجا ومَن جاءَ هذا البابُ لا يختشى الرَّدى

وهذا الضلال الذي هو الحيرة بالاستعانة بغير الله؛ هو الضلال البعيد، والحيرة المذمومة.

وأمَّا الضلال الذي هو التلوُّن بتجليَّات الله تعالى، والتقلُّب في شهوده وشئونه؛ فذلك حيرة ممدوحة كما عليه الكُمَّل نسأل الله الثبات في مقام الإيمان، والحيرة في مقام الإحسان(١)، اللّهم تفضَّل علينا به في كل حين لِين.

---

(١) قال الشيخ الشعراني: الحيرة في الله من كمال المعرفة به، وهي سارية في العالم النُّوريّ والنَّاريّ والترابيّ؛ لأن العالَم ما ظهر إلا على ما هو عليه من العلم الإلهيّ، وما هو في العلم الإلهيّ لا يتبدَّل، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠].

فما فُطِر العالَم إلا على الحيرة، وذلك لأن المرتبة الإلهية تنفي بذاها التقييد عنها، والقوابل تنفي الإطلاق عنها، ولا تشهد إلا صورها من التقييد.

فهذا هو سبب شدة الحيرة في الوجود، ولا أحد أشدَّ حيرةٍ في الله من العلماء به، ولهذا ورد أنه ﷺ كان يقول: «زِدْنِي اللَّهُمَّ فِيْكَ تَحَيُّرًا»، ومع ذلك فأعلى ما يصل إليه العلماء بالله تعالى من طريق نظرهم مبتدأ البهائم؛ لأنها كغيرها مفطورةٌ على الحيرة في الله ﷻ، والإنسان يريد أن يخرج بما أعطاه الله تعالى من العقل والرؤية وإمعان النظر عن الحيرة التي فُطِر عليها، فلا يصحُّ له ذلك.

وعلى هذا الذي قررناه الإشارة بقوله تعالى في حقِّ قوم: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:٤٤].

فإن التشبيه بالأنعام إنما هو في الحيرة لا في المحار فيه، فليس ذلك نقصًا في الأنعام، والحيرة عَمًى بلا شكٍّ ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٧٢]، أعني جاهلاً بالذات، لاكما هو في الدنيا.

ولذلك كان العارف المحقق عمرو بن عثمان المكي يقول في صفة العارفين: وكما هم اليوم يكونون غدًا، فَعُلِمَ أن من طلب معرفة الذات من طريق الفكر والنظر كان مآله إلى الحيرة، كما أن من طلب الواحد في عينه لم يحصل إلا على الحيرة، فإنه لا يقدر علي الانفكاك من الجمع والكثرة في الطالب والمطلوب، وكيف يقدر على ذلك، وهو يحكم على نفسه بأنه طالبٌ، وعلى نفسه بأنه مطلوبٌ، ومقام الواحد يتعالى أن يحلَّ في شيءٍ، أو يحلَّ فيه شيءٌ؛ لأن الحقائق لا تتغير عن ذاها؛ إذ لو تغيرت لتغير الواحد في نفسه، وتغيير الحق في نفسه وتغيير الحقائق محالٌ.

=

واعلم أن حيرة أهل الكشف والشهود أعظم من حيرة أصحاب النظر في الأدلة؛ لاختلاف الصورة عليهم عند الشهود.

فإن أصحاب النظر والفكر ما برحوا بأفكارهم في الأكوان، فلهم أن يحاروا ويعجزوا، وهؤلاء ارتفعوا عن الأكوان، وما بقي لهم شهودٌ إلا فيه، فهو مشهودهم، فكانت حيرتهم باختلاف التجليات أشد من حيرة النُظّار في معارضات الدلالات، وفي الحقيقة ما في الوجود إلا الله.

ولا يعرف الله إلا الله، فمن وصل إلى الحيرة من المقربين فقد وصل، والسلام.

وسمعت شيخنا ﷺ يقول: العلماء بالله على أربعة أصناف:

صنف: ما لهم علمٌ بالله إلا من طريق النظر الفكري، وهم القائلون بالسلوب.

وصنف: ما لهم علمٌ بالله إلا من طريق التجلي، وهم القائلون بالثبوت والحدود التابعة للصورة.

وصنف: يحدث لهم علمٌ بالله بين الشهود والنظر، فلا يبقون مع الصورة في التجلي، ولا يصلون إلى معرفة هذه الذات الظاهرة بهذه الصورة في أعين الناظرين.

وصنف: ليس واحدٌ من هؤلاء الثلاثة، ولا يخرج عن جميعهم، وهو الذي يعلم أن الله تعالى قابلٌ لكل معتقدٍ في العالم، من حيث إنه عين الوجود، وهذا القسم ينقسم إلى صنفين:

صنفٌ يقول: عين الحق هو المتجلي في صور الممكنات.

وصنفٌ يقول: أحكام الممكنات، وهم الصور الظاهرة في عين الوجود الحق، وكلٌّ قال ما هو الأمر عليه، ومن هنا فشت الحيرة في المتحيِّرين، وهي عين الهدي في كل حائرٍ، فمن وقف مع الحيرة حار، ومن وقف مع كون الحيرة هدًى وصل، ومن وصل لا يرجع، لأن من المحال الرجوع بعد كشف الحجاب إلى الحجاب؛ إذ المعلوم لا يجهله العالم بعد تعلق العلم به.

ومرادنا بالوصول الوصول إلى السعادة الدائمة.

وهو معنى قوله: **«فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه وبصرَه»** الحديث.

فَعُلِمَ أن من أعظم غلطات أهل النظر طلبهم الخروج عن الحيرة بالخلوة والرياضة، وذلك لا يكون لهم أبدًا، لأن التجرد عن المواد يُعقل ولا يُشهد، ولا يُسلم لهم عقلٌ من حكمٍ ولا خيالٍ؛ لأن كل ما سوى الله حقيقته الإمكان، والشيء لا يزول عن حكم نفسه، ولا يتعقل إلا ما كان على صورته، تعالى الله عن ذلك.

وكان شيخنا ﷺ يقول:

من الرجال من زالت عنه الحَيرة في الله ﷻ. فقلت له: كيف ذاك؟ فقال: إذا تجلى الله تعالى للقلب في غير عالم المواد زالت الحيرة، وعلم من الله على قدر ذلك التجلي من غير تعينٍ؛ إذ لا يقدر

سورة البقرة

قال الله سبحانه: ﴿الم﴾ [البقرة: ١].

أشار بالألف إلى المبدأ الذي هو الإنسان؛ فإنه خرج من مخرج الشأن الذاتي الغيبي الذي كان تعيُّن الذات الأحدية في تلك المرتبة بالنسبة إلى سائر التعينات؛ كتعيُّن الحروف بالنسبة إلى التركيبات اللفظية، ثم لمَّا خرج بالحركة المعنوية، والنفس الرحماني من تلك المرتبة؛ مرَّ بمرتبة الأرواح التي هي مرتبة اللام التي تعيَّن مخرجها من الوسط.

فإن الأرواح متوسطة بين عالم العلم وعالم العين، ثم مرَّ بمرتبة الأجسام التي هي مرتبة الميم التي تعيَّن مخرجها من الفم الذي هو آخر المخارج، ولم يتعرَّض لمرتبة المثال، وإن كانت من الحضرات الخمس؛ لكونها ممتزجة بالطرفين؛ فلها وجه إلى مرتبة الأرواح، ووجه إلى مرتبة الأجسام، فإذًا المخارج الكلية ثلاثة: المبدأ الألفي، والوسط اللامي، والآخر الميمي، وما عداها فمخارج جزئية.

وأخبر ذكر هو من بين سائر الأذكار؛ لكون الهاء مادة من المبدأ إلى المنتهى الذي هو مرتبة الواو؛ كالميم فهي آخذة من كل المراتب الجزئية والكلية خاصتها، فكانت بمنــزلة الإنسان الكامل المار بجميع الأطوار، ففي لفظ هو من الجمعية في الإنسان، فمَن غلب عليه الفناء، وجمع الحقيقة؛ فليذكُر بذكر هو هو، ومَن غلب

=

أحدٌ على تعيين ما قد تجلّى له إلا كونه تجلى في غير مادةٍ لا غير، ثم إذا رجع من هذا التجلي إلى عالم المواد صحبه تخيل تجلي الحق تعالى.

فما من حضرةٍ يدخلها إلا ويعرف الله تعالى في تجليها؛ لأنه قد ضبط من معرفته أولاً ما ضبط، فيَعلَم أن التجلي قد تحوَّل في أمرٍ آخر، فلا يجهله بعد ذلك أبدًا، ولا ينحجب عنه، فإن الحق تعالى ما تجلى لأحدٍ هذا التجلي، فانحجب عنه بعد ذلك أبدًا.

فإذا نزل العبد إلى عالم خياله وقد عرف الأمور على ما هي عليه مشاهدةً بعد أن عرفها قبل ذلك علمًا وإيمانًا رأى الحق تعالى في صورة الخيال مقيَّدًا فلم ينكره، لكن لا يسعه إلا السكوت، لأنه حينئذٍ يرى أن لا معلوم إلا الله، وإذا كان لا معلوم إلا الله فلا يدري أحدٌ ما يقول! ولا كيف ينسب الأمور! وانظر: الميزان الذرية (ص٧٣) بتحقيقنا.

عليه البقاء، وفرَّق الشريعة؛ فليذكِّر بذكر لا إله إلا الله، فإن الشارع أخبر أنه أفضل الأذكار؛ لغلبة أهل الفرق وكثرتهم[١]، ولا شك أن لسان الشارع؛ إنما هو لسان الشرع الذي يقتضي التعميم لا التخصيص.

والحاصل: كما أن الإنسان آخر الكائنات؛ فكذا لسان الشرع آخر الألسنة، وفوق لسان الشريعة لسان الطريقة، وفوقه لسان المعرفة، وفوقه لسان الحقيقة، ولكل مقام مقال رجال.

فقد جاء عن ابن عباس ﷺ أنه قال: أبهموا ما أبهم الله، وفصلوا ما فصَّل الله.

ولم يكن أحد من أولياء هذه الأمة مأذونًا لإظهار بعض الأسرار، إلا حضرة الشيخ الأكبر، والمسك الأزفر، والكبريت الأحمر، قُدِّس سرُّه الأطهر[٢]، ومن عداه

---

(١) لكل دائرة من دوائر مراتب الفرق إدراك بحسبها، فلها لذة وألم بحسبها، المجردات لهم ذلك بحسبهم، والمفارقات لهم ذلك بحسبهم، والماديات البسيطة لها ذلك بحسبها، والمركبة لها ذلك بحسبها، والملك بحسبه، والجان بحسبه، والبشر بحسبه، والبهيم بحسبه، والجماد بحسبه، والنبات بحسبه؛ لأن مراتب الفرق متمايزة بالتماثل والتقابل والتناسب والتباين، فتلزمها اللذة بالتناسب والضد بالضد.

ونظام جميع مراتب التقابل والتماثل هو المُسمَّى بدائرة الفرق.

(٢) قال الشيخ الكردي الموصلي في كتابه الانتصار للأولياء الأخيار:

كان من الموقعين عن بعض ملوك المغرب، ثم أنه طرقه طارق من عند الله تعالى، فخرج بالبراري على وجهه إلى أن نزل في قبرٍ فمكث فيه مدة، ثم خرج من القبر يتكلّم بهذه العلوم التي نُقلت عنه، ولم يزل سائحًا في الأرض يقيم في كل بلد بحسب الإذن، ثم يرحل منها ويخلف ما ألّفه من الكتب فيها، وكان آخر إقامته بالشام، ومات بها سنة ثمان وثلاثين وستمائة.

وكان ﷺ متقيِّدًا بالكتاب والسنَّة، ويقول: كل من رمى ميزان الشريعة من يده فقد هلك، وهذا اعتقاد الجماعة إلى قيام الساعة.

وجميع ما لم يفهمه الناس من كلامه إنما هو لعلو مراقيه، وجميع ما عارض من كلامه ظاهر الشريعة الغراء وما عليه الجمهور، فيحتمل أن الحسدة دسوا عليه. كذا ذكره الشيخ عبد الوهاب الشعراني في كتابه: ((اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر)).

وقال الشيخ مجد الدين الفيروزابادي صاحب القاموس: لم يبلغنا عن أحد من القوم أنه بلغ في علم الشريعة والحقيقة ما بلغ الشيخ محيي الدين أبدًا، ولم تزل العلماء مكبِّين على كتابة مؤلفاته بحل الذّهب في حياته وبعد مماته، إلى أن أراد الله تعالى ما أراد من انتصاب شخص من اليمن اسمه جمال الدين بن الخيّاط، فكتب مسائل في درجٍ، وأرسلها إلى بلاد الإسلام، وقال: هذه عقائد الشيخ =

=

محيي الدين بن العربيّ، وذكر فيها عقائد زائغة، ومسائل خارقة لإجماع المسلمين، فكتب العلماء على ذلك بحسب ظاهر السؤال، وشنَّعوا على من يعتقد ذلك من غير تبين وتثبت.

والشيخ عن ذلك بمعزل قال: فلم أدرِ أوجد ابن الخياط تلك المسائل في كتابٍ مدسوسٍ على الشيخ، أو فهمها هو من كلام الشيخ على خلاف مراده!.

قال: والذي أقوله وأتحققه وأدين الله تعالى به أن الشيخ محيي الدين كان شيخ الطريق حالاً وعلمًا، وإمام التحقيق حقيقةً ورسمًا، ومحيي علوم العارفين فعلاً واسمًا.

إذَا تغلغل فكرُ المرءِ فـي طـرفٍ   مِنْ مجْدِهِ غرقت فيـه خـوَاطره

لأنه بحرٌ لا تُكدره الدّلاء، وسحابٌ لا تتقاصر عنه الأنواء، كانت دعواته تخرق السبع الطباق، وتفترق بركاته فتملأ الآفاق، وإني أصفه وهو يقينًا فوق ما وصفته، وناطق بما كتبته، وغالب ظني أني ما أنصفته:

ومَا عَلَيَّ إذا مَـا قلـت معتقـدي   دعْ الجهـول يظـن العـدلَ عـدوانًا

والله والله العظـيم ومـن   أقامـه حجّـة للـدينِ بُرهانًـا

إن الذي قلت بعـض مـن مَنَاقِبِـه   مـا زدت إلا لعلمـي زدت نقـصانًا

وأمَّا كتبه فهي البحار الزَّواخر التي ما وضع الواضعون مثلها، ومن خصائصها أنه ما واظب أحدٌ على مطالعتها إلا وتصدَّى لحل مشكلات الدين ومعضلات مسائله، وهذا الشأن لا يوجد في غير كتبه أبدًا.

وأمّا قول بعض المنكرين أنّ كتب الشيخ لا يحل قرائتها ولا أقراؤها فكفر، وقد قدَّموا إلَيَّ سؤالاً صورته: ما تقول في الكتب المنسوبة إلى الشيخ محيي الدين بن العربي كالفتوحات والفصوص، هل يحل قرائتها وإقراؤها؟ وهل هي من الكتب المقروءة أم لا؟

فأجبت: نعم. هي من الكتب المسموعة المرويَّة المقروءة، وقد قرأها عليه الحافظ البرزاني وغيره، ورأيت إجازة بخط الشيخ محيي الدين على حواشي الفتوحات المكيّة بمدينة قونية، وكتابه طبقة بعد طبقة من العلماء والمحدِّثين، فمطالعة كتب الشيخ قربة لله تعالى، ومن قال غير ذلك فهو جاهل زائغ عن طريق الحق.

ولقد كان الشيخ محيي الدين في زمنه صاحب الولاية العظمى والصديقية الكبرى فيما نعتقده وندين الله به، خلاف ما عليه جماعة ممن مقتهم الله تعالى فحرموا فوائده، ووقعوا في عرضه بهتانًا وزورًا، وحاشا جنابة الكريم أن يخالف نبيَّه ﷺ الذي استأمنه على شرعه، ومن أنكر عليه وقع في أخطر الأمور، وقد رأيت إجازة بخط الشيخ كتبها للملك الظاهر بيبرس صاحب حلب، ورأيت في آخرها: «وأجزت له أيضًا أن يروي عني جميع مؤلفاتي، ومن جملتها كذا وكذا» حتى عدَّ نيفًا وأربعمائة مؤلف.

=

=

منها: تفسيره الكبير في خمسٍ وتسعين مجلدًا وصل فيه إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾ [الكهف:٦٥]، فاصطفاه الله تعالى لحضرته.

ومنها: تفسيره الصغير في ثمانية أسفار على طريقة المحققين من المفسرين.

ومنها: كتاب الرياض الفردوسية في الأحاديث القدسية.

فهل يحل لأحدٍ أن يقولَ لا يجوز مطالعة كتب الشيخ محيي الدين مطلقًا! ما ذلك إلاّ كفر وتعصُّب وعناد انتهى.

قال الشيخ عبد الغفار القوصي في كتاب «الوحيد»: حدَّثني الشيخ عبد العزيز المنوفي عن خادم الشيخ محيي الدين قال: كان الشيخ محيي الدين يمشي وإنسان يسبُّه، وهو ساكتٌ لا يرد عليه فقلت: يا سيدي ما تنظر إلى هذا؟ قال: ولمن يقول؟ قلت: يقول لك، فقال: ما يسبني أنا، فقلت: كيف ذلك؟ قال: تصوّرت له صفات ذميمة فهو يذم تلك الصفات، وما أنا موصوف بها، قلت: قد وقع لنبينا المصطفى ﷺ أن من خلقه العظيم كان يقول لأصحابه الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين: «**ألا تعجبون كيف يصرف الله عني سبّ قريش يسبُّون مذممًا وأنا محمد**».

وكان المشركون قد سموه مذممًا؛ لعتوهم وكفرهم وحاشاه من ذلك ﷺ.

وقد كان الشيخ سراج الدين المخزومي شيخ الإسلام بالشام يقول: إياكم والإنكار على شيء من كلام الشيخ محيي؛ فإن لحوم الأولياء مسمومة، وهلاك أديان مبغضيهم معلومة، وبعضهم تنصَّر ومات على ذلك، ومن أطلق لسانه فيهم بالسلب ابتلاه الله تعالى بموت القلب.

وممن أثنى عليه الشيخ كمال الدين الزملكاني وكان من أجلّ علماء بالشام، وكذلك قطب الدين الحموي، وقيل له لما رجع من الشام إلى بلاده كيف وجدت الشيخ محيي الدين؟ قال: وجدته في العلم والزهد والمعارف بحرًا زاخرًا لا ساحل له.

وممَن أثنى عليه الشيخ صلاح الدين الصفدي في تاريخ علماء العصر، وقال: من أراد أن ينظر إلى كلام أهل العلوم اللدنيَّة فلينظر في كتب الشيخ محيي الدين بن العربي.

وسئل الحافظ أبو عبد الله الذهبي عن قول الشيخ محيي الدين في كتابه «الفصوص» ما نصَّه أنه ما صنفه إلا بإذنٍ من الحضرة المحمدية فقال: ما أظن أن مثل الشيخ محيي الدين يكذب أصلاً، مع أن الحافظ الذهبيٍ كان من أشد المنكرين على الشيخ محيي الدين، وعلى الطائفة الصوفية هو وابن تيمية، وممن أثنى على الشيخ قطب الدين الشيرازي.

وكان يقول: إن الشيخ محيي الدين كان كاملاً مكتملاً في العلوم الشرعية والحقيقية، ولا يقدح فيه قدح من لم يفهم كلامه ممن لم يؤمن به، كما لم يقدح في كمال الأنبياء نسبتهم إلى الجنون، والسمر على لسان من لم يؤمن بهم، وكان الشيخ مؤيّد الدِّين الجندي يقول: ما سمعنا بأحدٍ من أهل الطَّريق اطَّلع على ما اطَّلع عليه الشيخ محيي الدين.

وكذلك كان يقول: الشيخ شهاب الدين السهروردي، والشيخ كمال الدِّين الكاشي، وقالا فيه: إنه

=

=

الكامل المحقق صاحب الكمالات والكرامات، مع أن هؤلاء الأشياخ كانوا من أشدّ الناس إنكارًا على من يخالف كلامه ظاهر الشريعة.

وممن أثنى عليه الإمام فخر الدِّين الرَّازي وقال: كان الشيخ محيي الدِّين وليًّا عظيمًا، وممن أثنى عليه الإمام اليافعي: وصرَّح بولايته العظمى كما نقل ذلك شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في شرحه للرَّوض، وكان اليافعي يجيز رواية كتب الشيخ محيي الدِّين.

ويقول: إن حكم إنكار هؤلاء الجهلة على أهل الطَّريق حُكم ناموسة نفخت على جبل تريد إزالته من مكانه بنفختها، قال: ومن عادى أولياء الله تعالى فقد عادى أنبياء الله تعالى، وإن كان لم يبلغ حدّ التكفير الموجب للخلود في النَّار.

وممن أثنى عليه الشيخ محمد المغربي شيخ الجلال الأسيوطي، وترجمه بأنه مربيّ العارفين، كما أن الجنيد مربيّ المريدين.

وقال: إن الشَّيخ محيي الدين روح التنــزلات والإمداد، وألف الوجود، وعين الشهود، وهابه المشهود الناهج منهاج النبي العربي قدَّس الله سرُّه، وأعلى في الوجود ذكره، وقد صنَّف الشيخ سراج الدِّين المخزومي كتابًا في الرد عن الشيخ محيي الدين، وقال: كيف يسوغ لأحد من أمثالنا الإنكار على ما لا يفهم من كلام الفتوحات أو غيرها، وقد وقف على ما فيها نحو ألف عالم أو أكثر، وتلقوها بالقبول قال:

وقد شرح كتاب الفصوص جماعة من أعلام الشافعية منهم الشيخ بدر الدين بن جماعة، وشاعت كتبه في جميع الأمصار، وقرنت متنًا وشرحًا في غالب البلاد ورويناها في القراءة الظاهرة في الجامع الأموي وغيره بالإسناد، وتغالى الناس في شرائها، ونسخها وتبرَّكوا بها وبمؤلِّفها لما كان عليه من الزهد، والعلم، ومحاسن الأخلاق، وكان أئمة عصره من علماء الشام، ومكة، كلهم يعتقدونه ويأخذون عنه، ويعدّون نفوسهم في بحر علمه كل شيء، وهل ينكر على الشيخ محيي الدين إلا جاهل أو معاند؟.

وكان الشيخ عز الدِّين بن عبد السلام يقول: ما وقع إنكار من بعضهم على الشيخ محيى الدين إلا رفقًا بضعفاء الفقهاء الذين ليس لهم نصيب من أحوال الفقراء خوفًا أن يفهموا من كلام الشيخ أمرًا لا يوافق الشرع فيضلوا، ولو أنهم صبحوا الفقراء لعرفوا مصطلحهم وآمنوا من مخالفة الشريعة.

قال شيخ الإسلام المخزومي: وقد كان الشيخ محيي الدين بالشام وجميع علمائها يتردّدون إليه من غير إنكار، وقد أقام بين أظهرهم نحوًا من ثلاثين سنة، يكتبون مؤلّفاته، ويتداولونها، ويعترفون له بجلالة المقدار، وأنه أستاذ المحققين من غير إنكار بينهم.

قال الشيخ مجد الدين الفيروزابادي بعد أن ذكر مناقب الشيخ محيي الدين: ثم إن الشيخ محي الدين كان مسكنه الشام، وقد أخرج هذه العلوم بالشام، ولم ينكر عليه أحد من علمائها، وقد كان قاضي القضاة الشيخ شمس الدين الشافعي يخدم الشيخ خدمة العبيد.

=

=

وأما قاضي القضاة المالكي فهبَّت عليه نظرة من الشيخ فزوجه ابنته وترك القضاء، وتبع طريقة الشيخ، وأطال في ذكر مناقب الشيخ، ثم قال: وبالجملة فما أنكر على الشيخ محيي الدين إلا بعض الفقهاء الفتح الذين لاحظ لهم في مشرب المحققين.

وأما جمهور العلماء والصوفية: فقد أقرّوا بأنه إمام أهل التحقيق والتوحيد، وأنه في العلوم الظاهرة فريد، قال: ولما جاور بمكة شرفها الله تعالى، وكان البلد إذ ذاك مجمع العلماء أو المحدثين، وكان الشيخ هو المشار إليه بينهم في كل علم تكلموا فيه، وكانوا كلهم يتسارعون إلى مجلسه، ويتبركون بالحضور بين يديه، ويقرؤون عليه تصانيفه قال: ومصنفاته بخزائن مكة إلى الآن أصدق شاهد على ما قلناه.

وكان أكثر اشتغاله بمكة بسماع الحديث واسماعه، وصنف فيها الفتوحات المكية، كتبها على ظهر قلب جوابًا لمسائل سأله عنها تلميذه بدر الدين الحبشي، ولما فرغ منها وضعها في سطح الكعبة المعظمة فأقامت فيه سنة، ثم أنزلها فوجدها كما وضعها لم يبتل منها ورقة، ولا لعبت الرياح بها مع كثرة أمطار مكة ورياحها، وما آذن للناس في كتابتها وقرائتها إلا بعد ذلك.

قال: وأما إشاعة بعض المنكرين عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وعن الشيخ سراج الدين البلقيني أنهما أمرا بإحراق كتب الشيخ محيي الدين فكذّب وزوّر، ولو أنها أحرقت لم يبقَ منها الآن بمصر والشام نسخة، ولما كان أحد نسخها بعد كلام هذين الشيخين وحاشاهما من ذلك، ولو أن ذلك وقع لم يخفَ؛ لأنه من الأمور العظام التي تسير بها الركبان في الآفاق، ويتعرض لذكرها أصحاب التواريخ.

قال الشيخ سراج الدين المخزومي: كان شيخنا شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني، وكذلك الشيخ تقي الدين السبكي ينكران على الشيخ محي الدين في بداية أمرهما، ثم رجعا عن ذلك حين تحققا كلامه وتأويل مراده، وندمًا على تفريطهما في حقه في البداية، وسلّما له الحال فيما أشكل عليهما عند النهاية.

فمن جملة ما ترجمه به الإمام السبكي: كان الشيخ محيي الدين آية من آيات الله تعالى، وأن الفضل في زمانه رمى بمقاليده إليه، وقال: لا أعرف إلا إياه.

ومن جملة ما قاله الشيخ سراج الدين البلقيني فيه حين سُئل عنه: إياكم والإنكار على شيء من كلام الشيخ محيي الدين، فإنه لما خاض في لجج بحر المعرفة، وتحقيق الحقائق عبر في أواخر عمره في النصوص، والفتوحات، والتنـــزلات الموصلية، وفي غيرها بما لا يخفى على من هو في درجته من أهل الإثارة، ثم أنه جاء من بعده قوم عمي عن طريقه فغلّطوه ذلك، بل كفروه بتلك العبارات و لم يكن عندهم معرفة باصطلاحه، ولا سألوا من يسلك بهم إلى إيضاحه، وذلك أن كلام الشيخ تحته رموز، وروابط، وإشارات، وضوابط، وحذف مضافات في علمه، وعلم أمثاله معلومة، وعند غيرهم من الجهّال مجهولة، ولو أنهم نظروا إلى كلماته بدلائلها وتطبيقاتها، وعرفوا نتائجها

=

أُمروا بالسكوت، أو بالرموز لا غير، وكذا فوق مرتبة الإنسان مرتبة المواليد، ثم مرتبة العناصر، ثم مرتبة الطبيعة الكلية، ثم مرتبة الأرواح، ثم مرتبة الأعيان الثابتة، ثم

=

ومقدماتها لنالوا الثمرات من مراده، ولم يباين اعتقادهم لاعتقاده، ولقد كذب وافترى من نسبه إلى القول بالحلول والاتحاد، ولم أزل أتتبع كلامه في العقائد وغيرها، وأكثر النظر في أسرار كلامه، وروابطه حتى تحققت بمعرفة ما هو عليه من الحق الحقيق، ووافقت الجمَّ الغفير المعتقدين من الخلق، وحمدت الله ﷻ إذ لم أكتب في ديوان الغافلين من الجاحدين لكرامته وأحواله انتهى كلام البلقيني.

قال تلميذه شيخ الإسلام المخزومي: ولما وَردتُ القاهرة عام توفي شيخنا سراج الدين البلقيني، وذلك في عام أربع وثمانمائة ذكرت له ما سمعت من بعض أهل الشام في حق الشيخ محيي الدين، من أنه يقول بالحلول والاتحاد.

فقال الشيخ: معاذ الله وحاشاه من ذلك إنما هو من أعظم الأئمة، وممن سبح في بحار علوم الكتاب والسنة، وله اليد العظيمة عند الله تعالى والقدم الصدق.

قال المخزومي: فقوي بذلك يقيني في الشيخ من تلك الساعة، وعلمت أنه من رؤوس أهل السنة والجماعة.

قال المخزومي: ولقد بلغنا أن الشيخ تقي الدين السبكي تكلم في شرحه للمنهاج في حق الشيخ بكلمة، ثم استغفر الله بعد ذلك وضرب عليها، فمن وجدها في بعض النسخ فليضرب عليها كما هو في نسخة المؤلف.

قال: مع أن السبكي قد صنف كتبًا في الرد على المجسمة والرافضة، وكتب الأجوبة في الرد على ابن تيمية، ولم يصنف قط شيئًا في الرد على الشيخ محيي الدين مع شهرة كلامه في الشام، وقراءة كتبه في الجامع الأموي وغيره.

بل كان يقول: ليس الرد على الصوفية مذهبي لعلو مراقبهم.

وكذلك كان يقول الشيخ تاج الدين: وأطال المخزومي في الثناء على الشيخ محيي الدين، ثم قال: فمن نقل عن الشيخ تقي الدين السبكي، أو عن الشيخ سراج الدين البلقيني أنهما بقيا على إنكارهما على الشيخ محيي الدين إلى أن ماتا.

فهو مخطئ، وقال: ولما بلغ شيخنا السراج البلقيني أن الشيخ بدر الدين السبكي شيخ الإسلام بالشام ردَّ على الشيخ موضعًا من كتاب «الفصوص» أرسل إليه كتابًا من جملته:

يا قاضي القضاة الحذر ثم الحذر من الإنكار على أولياء الله تعالى، وإن كنت ولابد رادًّا فرد كلام من رد على الشيخ وإلا فدع انتهى.

وسئل العماد بن كثير عمن يخطئ الشيخ محيي الدين قال: أخشى أن يكون من يخطئه هو المخطئ، وقد أنكر قومٌ على الشيخ فوقعوا في المهالك، وكذلك سئل الشيخ أن بدر الدين بن جماعة عن الشيخ محيي الدين، فقال: ما لكم ولرجل قد أجمع الناس على جلالته.

مرتبة الشئون الذاتية الغيبية، ولا اسم ولا رسم، ولا نعت ولا وصف فوقها.

وبعبارة أُخرى: فوق مرتبة الإنسان الخاص، وهي مرتبة الولاية، وفوقها مرتبة الإنسان الأخص، وهي مرتبة النبوة، وفوقها مرتبة الإنسان الذي هو أخص الأخص، وهي مرتبة الرسالة، وفيما بعد المرتبة الأولى يظهر الإنسان في صورة الحق بالفعل، فهو إذًا حق خلق.

وأما في المرتبة الأولى فهو وإن كان ظاهرًا في صورة الحق، لكن بالقوة لوجود الحجاب والجهل والغفلة، كشف الله من بصائرنا ذلك الحجاب آمين.

قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ**﴾ [البقرة: ٢].

: أي الإنسان الذي هو القرآن الفعلي، المشتمل على حروف الشئون، وكلمات الأرواح، وآيات المثال، وسور الأجسام، كما قال تعالى:

﴿**وَالطُّورِ*وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ**﴾ [الطور: ١، ٢]، فإنه إشارةٌ إلى الوجود الحق، المسطور آثاره في التعيناتٍ كلها.

﴿**لاَ رَيبَ فِيهِ**﴾: أي في كونه كتابًا مسطورًا، وقرآنًا فعليًّا، وتنزيلاً تكوينيًّا عند أهل الفهم عن الله تعالى دون غيرهم، ولذا وقع الغافلون في الجدل والإنكار، ولم يزل الأمر على هذا إلى آخر الزمان، وسيجيء زمانٌ يقولون: والله ربنا ما كنا مشركين، مكذبين منكرين، وما ينفعهم القسم الكاذب إذ ذاك، والله الصادق.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَـذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا**﴾ [البقرة: ٢٦].

يعني: إن ضرب المثل بالبعوضة حقٌّ موافق للحقيقة، وإنما يعلمه المؤمنون الكاملون الذين وصلوا إلى مرتبة شهود الحقائق.

وأمَّا الكافرون الساترون وجود الحق بوجود الخلق، فيستعظمون ذلك بناءً على جهلهم بالحقائق.

ولذا كان ضرب المثل هداية للمؤمنين إلى معرفة الحقائق في مراتبها، وشهود الحق في مرائيه، وضلالة للكافرين حيث زاغوا عن طريق المعرفة، وانحرفوا عن الاستقامة، وذلك أن البعوضة بعض من أجزاء العالم، وكل أجزاء الآفاقي أجزاء

العالم الأنفسي من غير نقصان، فضرب المثل بالبعوضة، ضرب له ببعض أجزائها.

ولا شك أن الإنسان أشدُّ انتقالاً منه؛ لأنه أعرف بنفسه وبأجزائه، وذلك التمثيل لا ينافي عظمة الله تعالى وجلالته؛ لأن له مراتب كثيرة ومجالات متعددة، فقد يظهر سرُّه في صورة الفيل والعنقاء، وقد يظهر في صورة النمل والبعوضة، وأيضًا يظهر في صورة الشمس، وفي صورة الهباء، والله بكل شيء محيط.

فكما أنه غنيٌّ عن العالمين في مرتبة غيب ذاته وهويته بحيث لا يُضاف إليه التعيُّن، ولا تعيُّن؛ لأن كل منهما من الأمور الإضافية التي لا تناسب إطلاقه الحقيقي الذاتي، فيكون إطلاق مثل ذلك عليه كفرًا في الحقيقة؛ لأنه من قبيل التقييد والتجرُّد الذاتي، عالٍ غنيٌّ عنه فكذا إنه تعالى رب العالمين، فأضاف نفسه إلى العالمين بيانًا لارتباطه بهم من حيث التجلّي الأحدي الساري في جميع الموجودات.

فكما أن الأم تربِّي الطفل بلبنها الفائض من بطنها؛ فكذا إن الله تعالى يربِّي العالمين من حيث اسمه الباطن جسمًا يساعده الظاهر، فإن التربية تابعة للمربين المربِّي، فيجيء التأثير من الباطن إلى الظاهر، ويظهر أنواع الأغذية بحسب تأثيره وخلاقيته بحيث ينمو كل شيء إلى أن ينتهي إلى غايته في الكمال الجسماني والروحاني كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] (١).

وهذا الظهور بحسب التجلّي العام: استدعى ألا يستحيي الله تعالى من ضرب المثل بالبعوضة؛ لأن البعوضة صورة من صور تجليَّاته، وداخلة تحت أسمائه وصفاته، وإن كان اسمها من الأسماء الجزئية الداخلة تحت الأسماء الكلية، فكما أن السلطان سلطان، وهو جالس على سريره؛ فكذا أقل خُدَّامه وهو قائم بين يديه، فإن المضاف إلى السلطان سلطان، ولو حكمًا، فإنه صورة من صور أسمائه.

ألا ترى إلى مراتب رجال السلطنة حيث إن ملك المراتب مراتب للسلطان في

---

(١) قال سيدي علي وفا: فالناطق الآدمي مهيمن على كل ناطقٍ كري ربَّاني، والناطق الربَّاني الإلهي مهيمن عليه من حيث كل ناطقٍ ربَّاني كوني، وإن كان هو منهم من حيث هو ناطق ربَّاني إلهي، فناطق أئمة الهدي وجه أحسن الخالقين، كما قال بعض مظاهره: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، فافهم.

في الحقيقة ظهر فيها بصورة أسمائه وخُدَّامه، فإذا كان الله هو المتجلّي نوره في وجه البعوضة في بعض مراتب التنــزُّلات؛ فالتمثيل إذًا بالأصلي والأدنى سواء؛ لأن كل شيء، ففي قولهم: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا﴾ [٢٦] تحقيرًا للممثّل الذي هو نور الله تعالى، وسرُّه العظيم الظاهر في الصورة الحقيرة، فالحقارة راجعة إلى ظاهرها بحسب تعيُّنها لا إلى باطنها بحسب المتعيِّن فيها، فاعرف فإنه من لباس المعرفة، ومَن تنبَّه لأمثاله، وهي لا تُحصى، ومَن انكشفت بصيرته؛ رأى الله في كل شيء قبل كل شيء، ومع كل شيء، وبعد كل شيء، عجبًا من المحجوبين كيف غفلوا عن الحقائق وهي حاضرة لديهم؟.

ألا ترى إلى السلطان مثلاً إذا أحضروا ولده الصغير بين يديه كيف يعامله؟ هل يعامله بحسب مقامه من القبض والهيبة؟ أم بحسب مقام الصغير من الانبساط والأُنس؟ ومَن رأى انبساطه معه: لا يقول أنه سقط عن رتبة السلطنة؛ حيث لا يليق به هذه المعاملة، فإن رتبة الصغير لا تقتضي إلا إياها، فالسلطان سلطان على حاله، وإن تنــزَّل إلى مرتبة الصغير في معاملة الانبساط.

وقد أخبر لسان الشرع عن مثل هذا كالفرح، والضحك، والمجيء، والذهاب والتعجُّب، ونحو ذلك، فمَن أوَّله فقد خرج عن طريق السداد وهم العلماء المحجوبون، فإن الله تعالى بحسب قُدس ذاته، وإن كان لا يتَّصف بمثله لكن إذا أضافه إلى نفسه في بعض مراتب تنــزُّلاته وتجليَّاته وجب أن يُفوِّض الأمر إليه في ذلك، وإبقاؤه على ظاهره من غير تأويل، فإنه قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فله سمع وأبصر بحسب ما يعلمه، ولا يخرجه ذلك عن مرتبة غِناه عن العالمين.

ألا ترى أن جبريل عليه السلام كان قد يظهر في صورة دحية مع بقائه على حقيقته الملكية، فهو ذو لحية، وشعر، وله كلام بشري، ويد، ورجل ونحو ذلك في تلك الصورة، وهو عارضها في صورته الحقيقية، وأمثلة هذا المقام كثيرة؛ لكن لا ينفع العسل للممرور، أذاقنا الله وإياكم حلاوة العلوم، والمعارف، وجعلنا من أهل الحكم، والحقائق، واللطائف.

قال تعالى: ﴿**يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ العِجْلَ**﴾ [البقرة:٥٤].

إشارة إلى القوى النفسانية والطبيعية العاصية، كما دلّ عليه قول الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ**﴾ [طه:٩٠]: أي بعبادة عجل الطبيعة الذي اتخذه سامري الهوى، مع أنه لابد من ذبحه.

كما قال: ﴿**إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا**﴾ [النساء:٥٨]؛ وهي أمانات الأمر والنهي، وأهلها القلب والقوى الروحانية، وبوصولها إليها والحركة بالعمل بمقتضياتها؛ ينكسر سورة النفس والطبيعة، وتموت القوى الفاسدة الحاملة لموت القلب، وحياة النفس.

وعليه قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً**﴾ [البقرة:٦٧]؛ فهذه البقرة باقية في العالم مادام الجهاد باقيًا ماضيًا إلى يوم القيامة، فمَن أهلّ النفس أبقاها، ومَن أهلّ القلب ذبحها، فإنه القوي المتين.

وفيه إشارة إلى أن ما سوى الله تعالى كله فتنة للإنسان؛ ومنه وجوده وما يتبعه سوى سرِّ سرِّه الذي هو مظهر الوجود والإطلاق الغيبي كما ورد: «**سرُّ الإنسان سرِّي، وسرِّي سرُّه**»: أي سرُّه ظاهر سرِّي، وسرِّي باطن سرِّه، فافهم جدًا[1].

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً**﴾ [البقرة:٦٧].

وقال تعالى: ﴿**لاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ**﴾ [النساء:٢٩].

أمر الله تعالى في الآية الأولى من طريق الإشارة بذبح بقرة الطبيعة والنفس؛ لأنهما واحدة في الحقيقة، ومختلفتان ببعض الخصائص؛ حيث إن الطبيعة محلّ الشهوة الجسمانية، واللّذّة النفسانية، والنفس محلّ الهوى، والميل إلى ما سوى المولى، ونهى في الآية الثانية عن قتل الأنفس، والتوفيق بينهما هو أن المراد بالأنفس في الآية الثانية؛ هو الأرواح، ومعنى قتلها المباشر بأسباب تؤدي إلى مفارقتها عن الأبدان، واضمحلال آثارها عنها بالكلية وهو المراد بقوله: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ [الأنبياء:٣٥]، [العنكبوت: ٥٧]: أي مفارقة لبدنها بانقطاع عن ظاهره، وباطنه، والمراد بالنفس في إشارة الآية الأولى؛ هي القوة المخصوصة الباعثة على الهوى، والانقياد إلى الطاغوت

(١) الحديث كشفي، وقال سيدي محمد وفا ﷺ: السر هو ما يخفى في البيان، وحقيقته: معنًى يُعْجِز عن تصور ما هو الفكر البشري، وغايته: وجدانٌ يقوم بالقلب لا يمكن التعبير عنه بوجهٍ من الوجوه.

كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:٢٣]، فالهوى له مطاع بالنسبة إلى أهل الهوى.

ومعنى ذبحها: إزالة شهوات الطبيعة في مرتبة الشريعة، وقطع بلعوم الهوى في مرتبة الطريقة، فظهر من هذا أن الذي يليق بالذبح والقتل؛ هو قوة الطبيعة والنفس دون الروح، فإنه من نفخ الله تعالى.

ولا شك أنه حيٌّ بذاته أبدًا، وكذا محيي لغيره، وما له حياة ذاتية لا يموت، ولا يفنى، ولا يُعذَّب، فإن العذاب هو الروح الحيواني الذي هو مبدأ الحركة والحس وهو الذائق لألم الموت، وعليه يدور سكراته، وكذا جميع الأوجاع المتعلّقة بالبدن في الدنيا، وكذا هو العاصي حتى إن الله تعالى نزع الروح المحمَّدي عن آدم عليه السلام حينما عصى، وذلك أن لكل شخص خصَّة من ذلك النور رُشَّت عليه حينما خلقه الله، فمَن أطاع الله والرسول؛ فقد حفظه، ومَن عصاه، وخالف الرسول، فقد أضاعه، وبقى في ظلمة الروح الحيواني، والظلمة لا تجيء منها إلا الظلمة.

والحاصل أن الروح وإن كان حيًّا بحياة ذاتية ليس عندها موت من قِبل الطبيعة والنفس، لكن لا يظهر ذلك إلا بعد إماتة الطبيعة والنفس، فمن أحياه بقتلهما؛ فكأنما أحيى الناس جميعًا، وهي الحواس الظاهرة في بدن الإنسان، ومَن قتله بإحيائهما؛ فكأنما قتل الناس جميعًا.

وذلك أن الأمر الوجود يدور عليه، فإذا كان حيًّا موجودًا كان الوجود كله حيًّا موجودًا، وإذا كان ميتًا مفقودًا؛ كان الوجود كله كذلك.

فإن قلتَ: قولهم إفناء الروح يدل على أنه حي لابد من إماتته.

قلتُ: المراد ما بذله في طريق الحق بكل ما يمكن من الحركات.

وأمَّا قطع التعلُّق به فإنه حجاب نوراني، ونوره أقل، إذ هو كالشمس في إنارة عام الوجود، ولكن الشمس والقمر ينخسفان يوم القيامة، وتكون الجنة مُنوَّرة بنور ذاته الإلهي، لا يغرب أبدًا، وهو نور السرِّ في الدنيا بالنسبة إلى أهل التجلّي من الكُمَّل، فإنه غير غارب، وهذا المقام يقتضي زيادة البسط لكن اكتفينا بهذا المقدار لِما يقتضيه الوقت والحال، فعليك بقتل نفسك، فإن فيه حياتك، ولك أجر عليه عظيم.

وقال الله عز وجل: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:١٠٥].

هذه الرحمة الاختصاصية غير الرحمة الوجوبية التي كتبها على نفسه بمقابلة عمل عبده، فإن الرحمة الاختصاصية؛ إنما هي من عين المنّة والفضل؛ وهو الإحسان الابتدائي الغير الموقوف على شيء من الأشياء، وعلى سبب من الأسباب، وعلى علّة من العلل، وإن كانت المنح الإلهية، والأعطية الرحمانية كلها من باب المنّة بالنسبة إلى مَن وصل إلى العين، ودخل من الباب، ولم يقف في البيْن، ولم يكن له نسبة كون، ولا أين؛ فله تعالى رحمة وجوبية يرحم بها عباده بإعطاء الدرجات بمقابلة أعمالهم.

وله تعالى رحمة امتنانية يرحم بها عباده؛ بإعطائهم درجات أخرى لا بمقابلة أعمالهم؛ بل من عين المنّة والفضل، ويتصل بها رحمة التوريث في الجنة، فإنه تعالى يرحم بها عباده المؤمنين؛ بإعطائهم مقامات الكفار على تقدير إيمانهم وطاعتهم، فلهم جنات ثلث؛ جنة العمل، وجنة الميراث، وجنة الاختصاص[1].

لطيفة: ومن هنا ورد الخطاب الإلهي لهذا الفقير في سحر ليلة السبت الحادي عشر من شهر مولد النبي ﷺ من سنة ثلاثين ومائة وألف، وأنا في الشام حيث قال لي من غير واسطة بيني وبينه من الوجه الخاص بهذه العبارة: «**ولي مراتب أخرى بحسب كرمي**»[2].

يعني: كما أن للعبد مراتب بحسب استعداده، وسؤاله، وعمله؛ وهي المراتب الكونية؛ فكذا لله تعالى مراتب بحسب إفاضته الاستعداد، وجوده، وكرمه؛ وهي المراتب الإلهية.

فجوده: عطاؤه قبل السؤال؛ وهو الفيض الامتناني الرحماني.

---

(١) والرحمة: هي صفة الله التي يتعطف بها على عبيده؛ فيبلغهم خيره ونعمته، فيبدل الألم باللذة، ويصل اللذة بمثلها، وقد نقول: الرحمة: هي ترك الرحيم حقه للمرحوم، وإعطاؤه من الخير ما لا يجب له عليه، وقد نقول: الرحمة: هي إفادة الرحيم للمرحوم خيرًا لا يستحقه عنده حيث هو، وقد نقول: الرحمة: هي إفادة الحق للعبد وجودًا ليس له، والرضوان هنا بحسب هذا التقييد: هو صفة الخير الذاتي الموجود في ذات الله تعالى، مثل الشيء المطبوع الذي لا يمكن أن يكون الشيء إلا على تلك الصفة، وهو الذي يوجب الرحمة بوجه محتوم لا يمكن أن يعقل المحل المشار إليه إلا كذلك.

(٢) حديث كشفي.

كرمه: عطاؤه بعد السؤال عن طيب نفس لا عن حياء إلا عن تخلُّق إلهي، وطلب مقام رباني، وهو الفيض الرحماني.

وهيبته: وعطاؤه، لينعم خاصته: أي لينعم المعطي له، ويعيش طيِّبًا لا لأمر آخر: أي لا يقترن معه طلب جزاء، وتكليف عِوض مَن شكر باللسان، وعمل بالجنان، والاركان، ووجوب شكر المنعِم؛ إنما هو لأجل العبودية المعطى له، لا لتكليف الواهب؛ فهو من العبد عمله لحق الربوبية، لا للجزاء.

والعطاء، هو هبة الأصل، والمنح، هو هبة المنفعة، والمنح، هو التمليك فقط، والعطاء يعمَّه، والإباحة.

ثم قوله تعالى: (**بحسب كرمي**): إشارة إلى أن المنَّة قد تكون بسؤال لسان الاستعداد الكلّي المفاض من الحق تعالى بحسب الفيض الأقدس، ولسان الاستعداد الجزئي المفاض منه تعالى بحسب الفيض المقدَّس.

فإنه تعالى يقول: «**يا عبدي قد حصل لك مراتب عملك، ودرجات سعيك، وبقيت مراتب جودي، ودرجات كرمي**»[1]؛ التي هي عين المنَّة والفضل، فإن الأُلوهية مما تقتضيه جدًّا.

ألا ترى أن السلطان قد يجود على جنوده، ويعطي لهم عطايا لا بمقابلة أعمالهم من الحرب مع الأعداء ونحوه؛ بل من عين المنَّة، فلهم عطيَّتان؛ عطية هي أجرهم بمقابلة أعمالهم، وعطية هي من باب الفضل.

ولا شك أن الخلق الإنساني الامتناني مأخوذ من الخلق الرحماني الامتناني، فالله تعالى أَوْلى بالامتنان من عبده، فليكن العبد على التسليم، والرضا، والله خير وأبقى، وإليه المنتهى، وما ربك بظلاَّم للعبيد؛ بل هو المحسن المتفضل، ذو العرش المجيد.

في سورة البقرة: قال الله سبحانه: ﴿**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ [البقرة:١٤٩].

أراد بحيث الأماكن المختلفة الصورية شرقًا وغربًا، جنوبًا وشمالاً، فكما إذا

---

(١) لم أقف عليه.

خرج الإنسان إلى جانب القِبلة؛ كانت قِبلته تلقاء المسجد الحرام، فكذا إذا خالفه بالإدبار ونحوه، وذلك الاختيار.

وأمَّا في وقت الاضطراب فيتوجه إلى حيث أمكن، فظاهر الاضطرار، وباطن الاختيار يكون أمرًا واحدًا هو التوجه الوحداني من غير تقيُّد بجهة من الجهات، وسرُّ ذلك أن باطن الاختيار أيضًا اضطرار عند مَن له كشف وشهود؛ لأن الاختيار خبر في الحقيقة، وليس المحرِّك إلا الله تعالى.

وإنما شرَّع التوجه إلى القِبلة في الظاهر؛ لأن الكعبة عندها الهمم، ففيه القوة على أنه من باب الأدب؛ لأن الإنسان من جهة ظاهره مقيَّد بالقيود، فلا بد له من التحديد، وذلك لا ينافي الاطلاق المعنوي.

وقد جعل الله الكعبة المساجد؛ كمدار العالم، فكما أن نقاط الدائرة تتوجه إلى المركز؛ فكذا المساجد تتوجه إلى أُم المساجد؛ لكن التوجه إلى ميزاب الرحمة أقوى من التوجه إلى سائر الجهات؛ لأنه حاله ﷺ في اواخره.

وفيه إشارة إلى الأسفار المعنوية من جهة الأسماء الإلهية من حيث إنه لا بد في تلك الأسفار من التوجه إلى المسمَّى؛ لأنه مدار الأسماء كلها؛ ولكن لمَّا كان المسمَّى من حيث إطلاقه لا يمكن التوجه إليه؛ جُعل القلب في المعنى بمنـــزلة المسجد الحرام في الظاهر؛ فهو مظهر المسمَّى، ومن تلك الجهة يمكن التوجه إليه؛ فهو بيت لله تعالى في الحقيقة، وإليه توجُّهات الأسماء في الأسفار.

كما قال تعالى: «**يا داود فرِّغ لي بيتًا أسكنه**»[(١)].

أراد به قلب داود، وتضريعه قطع تعلُّقاته، وتخلِّيه عن الخواطر ونحوها، ولأن القلب متوجه الأسماء كلها جمالية وجلالية؛ كان أهل القلب أقوى من أهل الروح؛ لأن أهل الروح أهل الجمال فقط، فمَن كان دعوته من مقام القلب؛ كان قومه أطوع، ومَن كان دعوته من مقام الروح؛ كان قومه أعدل، ومَن كان دعوته من مقام السرِّ؛ كان قومه أنكر كقوم نوح عليه السلام، ولذا قلَّ الإيمان مع تمادي مدة الدعوة، وفي كل ذلك حكمة إلهية.

---

(١) أورده سيدي محمد وفا في المعاريج (ص١٩٦) بتحقيقنا.

فكما أن الأنبياء - عليهم السلام - على مشارب مختلفة من الجمال، والجلال، والهيبة، والأُنس[١]؛ فكذا أقوامهم على استعدادات متفاوتة من القبول؛ إذ جميع مراتب الدعوة من الأفعال، والصفات، والذات، لم ينله إلا هذه الأمة المرحومة؛ لكمال استعداد ها، ولكون النبي ﷺ قلب العالم بُعث في مكة التي هي قلب البلاد؛ لكن أُمر بالهجرة؛ ليبقى التوجه إلى الله تعالى، فإن حرم الله لا يشاركه فيه أحد كائن مَن كان.

فاعرف الغيرة[٢] الإلهية، فتقرر أن توجه القلب إنما هو إلى المسجد الحرام؛ لأنه في صورة مسمَّى الله، وأمَّا النبي ﷺ؛ فهو سرٌّ للمسمَّى، فالحجر الأسود يدُ الله صورة، واليد النبوية يدُ الله معنى، وكذا أيدي الورثة الكبار.

الحاصل أن المساجد كلها قبلة، والكل متوجه إلى صورة الكعبة، وكذا أبدان مَن صلَّى فيها ووجوههم، وإن القلوب كلها قِبلة، والكلُّ متوجه إلى سرِّ الكعبة، وهو النبي ﷺ في الظاهر، ومسمَّى الله الأحدي في الباطن، فمَن مشى على المراتب؛

---

(١) قال الشعراني ﷺ في «القواعد الكشفية» في الكلام على الأنس بالله: إن ذلك لا يصحُّ لأحدٍ من الأولياء؛ لما تقدم من الجهل بكنه الذات.

وقد قال الولي الكامل سيدي علي بن وفا رحمه الله: (لا يصحُّ الأنس بالله تعالى لأحدٍ من المحققين، وما أنس إلا بما منه من التقريبات لا بذاته تعالى).

قلت: وقد أجمع أهل الطريق على ما قاله سيدي علي بن وفا رحمه الله تعالى، وقالو: الأنس لا يصحُّ إلا بالمشاكلة والمناسبة، وليس بين الخلق وربهم مشاكلةٌ ولا مناسبةٌ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا اهـ.

ثم قال: إيَّاك أن تقول أنك أنست بالله تعالى عينًا؛ فإن ذلك لا يصحُّ، وقد سمعت مرة هاتفًا يقول: (إذا كان كل شيءٍ خطر ببال عبدي فأنا بخلافه، فكيف يصح له مناجاتي على الكشف والشهود والأنس بي) اهـ (ص٥٨).

وقد قال سيدي محمد وفا ﷺ وعنَّا به في تعريف الأنس: الأنس هو ظهور علامات تشعر النفس بنيل المراد، وحقيقته: مد يد الأطماع إلى اقتطاف ثمر المواصلة، وغايته: تصرف العبد في ملك الرب؛ اعتمادًا على التحقيق بصحة المحبة التي توجب رفع علل المغايرة اهـ.

(٢) **قال سيدي محمد وفا ﷺ وعنَّا به**: الغيرة هي حرصٌ يُوجب صون المخصوص بالمحبة عن إشراف لواحظ الأسباب المؤدِّية إلى بذله، مع عدم الاستحقاق، واستقباح فحش الشركة فيه، وحقيقتها: حميةٌ تستلزمها المحبة؛ لمنع صفاء ما يكدر صفاء العين مع المحبوب انتهى.

لم ينحرف في القبلة لا ظاهرًا ولا باطنًا، ومَن لم يعرف المراتب؛ بقى أعمى عن السمت؛ فهو لا يدري أي صلاة يُصلّي، وأي قِبلة يستقبل[١]، والله البصير، وهو العليم الخبير.

وقوله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [البقرة:١٤٩].

: أي المأمور به الذي هو تولية الوجه إلى الكعبة[٢] وهو الثابت في علم الله تعالى من مقام الربوبية؛ يعني: إن تولية الوجه إليها من باب التربية الإلهية؛ لأنه رب العالمين، واللائق به إيصالهم إلى كمالهم الذي هو المستعدُّون له، ومنعه عنهم إبطال لاستعدادهم، وفي ذلك بُطلان لهم، فظهر أن صورة الكعبة حق، وإن كانت الصورة من باب الخيال، كما قال بعض العارفين: إنما الكون خيال؛ وهو حق في الحقيقة.

وذلك ان الخيال كظل، وهو وإن كان تابعًا لذي الظل في الوجود؛ لكنه له وجود في الجملة، وإلا لما كان تابعًا له، فوجود التابع وجود اعتباري، ووجود المتبوع وجود حقيقي، فإن شئت جعلت له وجوده بالكافي وجوده باعتبار الشهود والجمع، وإن شئت جعلت له وجود في الجملة باعتبار الحجاب والفرق، والكل من باب الحقائق بالنسبة إلى مقامه، فإذا كانت صورة الكعبة حقًا ثابتًا بحيث وجب التوجه إليها بالوجه الظاهري، فكذا سرُّها، وهو القلب سواء كان قلوب الوسائط، أو قلب

---

(١) وروح الاستقبال فيه من الأرواح الفرقانية.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤]، فروح الاستقبال روح وصل بروح توجه إلى الروح الأعظم في هذا الوجه المبارك الذي فيه من أرواح الخليل والأرواح المحمدية ولله أرواح المشارق والمغارب، وكل الجهات وأرواحها فهو الروح الأعظم والرب المالك للأرواح والممالك وساعات الإقبال فيها من أرواح الوصال.

والعلم بروح الوقت روح وصل بروح مراقبة وروح فكر في أرواح الموازين بأرواح الفصل في أرواح الأكوان بأرواح من الزيادة والنقصان وفي ذلك من أرواح التذكر والاعتبار في أرواح الليل والنهار.

(٢) الكعبة ظل البيت المعمور كما السلطان ظل الله في الأرض، ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ [البقرة: ١٢٤].

﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]، ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، يصلي فيه العبد بربه صلة تصوره على صورته، فافهم.

النبي ﷺ حق ثابت بحيث لزم الإقبال إليه بالوجه الباطني، والحق واحد في البين، وإنما التعدُّد باعتبار الظاهر، والباطن، وهو لا ينافي الاتحاد في الحقيقة؛ لأن العين واحدة.

ولذا قال: هو الأول؛ فجعل الكعبة أول بيت وُضع للناس، وهو الآخر؛ فجعل التوجه إليها آخر التوجهات، وهو الظاهر؛ فجعل الكعبة بحيث يراها الأحباب والأعداء، وهو الباطن؛ فجعل السرَّ الذي استمئنت عليه بحيث لا يراها إلا أولوا الأبصار؛ ولذا قال: ﴿**وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾ [الأعراف:١٩٨]: أي لأن الأعمى لا يُبصر في الحقيقة، وهم عُمي القلوب، ﴿**فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج:٤٦]، ولو كان العمى الظاهر حجابًا عن الحق؛ لكان منعه عن مجلس أهل الحق واجبًا، وقد عاتب الله تعالى فيه نبيه حيث قال تعالى: ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّى*أَن جَاءهُ الأَعْمَى**﴾ [عبس:١، ٢].

وقوله ﷻ: ﴿وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤٩].

إشارة إلى أن الله تعالى مع عبده في الصورة والمعنى؛ لأن كلاً منهما مضاف إليه تعالى، فعمل الصورة هو التوجه الصوري إلى القبلة الصورية، وعمل المعنى هو التوجه إلى القبلة الحقيقية، ونفي الغفلة عنه تعالى إرشاد إلى مقام المراقبة(١) الذي هو

---

(١) قال ابن عياد: قال سيدنا الشاذلي ﷺ: أيها السالك بطريق الآخرة بتحصيل ما أمرت به في ظاهرك، فإذا فعلت ذلك فاجلس على بساط المراقبة وخذ بتخليص باطنك حتى لا يبقى فيه شئ مما عنه نهاك وأعطي الجد حقه، وأقلل النظر إلى ظاهرك إن أردت فتح باطنك لأسرار ملكوت ربك فما ورد عليك من خطرات قصدك عن مرادك فاعلم أولاً قرب ربك منك علماً تباشر قلبك بتكرار النظر في جلب منافعك ودفع مضارك وانظر هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض وإن بن الأرض نفسك ومن السماء قلبك، فإذا نزل من السماء إلى الأرض شئ من ذا الذي يصرفه عنك غير الله ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنـزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤]، فأعط المعية حقها بلزوم العبودية له في أحكامه ودع عنك منازعة الربوبية في أفعاله من ينازعه يغلب ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨] نعم الحق ما أقول لك ما نفس من أنفاسك إلا والله متوليه مستسلمًا كنت أو منازعًا لأنك تريد الاستسلام في وقت وتأبى إلا النـزاع وتريد النـزاع في وقت آخر وتأبى إلا الاستسلام فدلت هذه على ربوبيته في جميع أفعاله ولا سيما عند من اشتغل بمراعاة قلبه لتحصيل حقائقه، فإذا كان الأمر بهذا الوصف فأعط الأدب حقه فيما يرد عليك بأن لا تشهد لشئ منك أولية إلا بأوليته ولا آخر إلا بآخريته ولا ظاهرًا إلا بظاهريته ولا =

=

باطنًا إلا بباطنيته، فإن تنبهت لمؤل الأول نظرت لما تأول فيما تأوله، فإن صدر عليك خاطر من محبوب يوافق النفس أو مكروه لا يلائمها مما لا يحرمه الشرع فانظر لما يخلقه الله فيك بآثار ما يخطر ببالك، فإن وجدت تنبيهًا على الله فعليك بالتحقيق، فذلك أدب الوقت عليك ولا ترجع إلى غيره، فإن لم تجد السبيل إلى التحقيق به فعرس بين يديه فهو أدب الوقت عليك ومهما رجعت إلى غيره فقد أخطأت سبيلك فإن لم يكن ذلك منك فعليك بالتوكل والرضا والتسليم فإن لم تجد السبيل إليه فعليك بالدعاء في جلب المنافع ودفع المضار بشرط الاستسلام والتفويض وأحذرك من الاختيار فإنه شر عند ذوي البصائر فإذن هي أربعة آداب أدب التحقيق وأدب التعريس وأدب التوكل وأدب الدعاء، فمن تحقق به حفظ منه ومن عرس عنده كفي من غيره ومن توكل عليه كفي من اختيار نفسه باختيار ربه ومن دعاه بشرط الإقبال والمحبة أجابه إن شاء فيما يصلح له أو منعه إن شاء فيما لا يصلح له.

ولكل أدب بساط البساط الأول: بساط التحقيق إذا ورد عليك خاطر من غيره وكشف لك عن صفاته فكن هنالك بسرك وحرام عليك أن تشهد غيره .

البساط الثاني: بساط التعريس إذا ورد عليك خاطر من غيره وكشف عن أفعاله فعرس هناك بسرك وحرام عليك أن تشهد غير صفاته شاهداً أو مشهوداً وفي الأول فناء الشاهد وبقاء المشهود.

البساط الثالث: بساط التوكل إذا ورد عليك خاطر من غيره ليس مما تقدم ذكره من محبوب أو مكروه وكشف لك عن عيوبك جلست على بساط محبته متوكلاً عليه راضيًا بما يبدو لك من آثار فعله من أنوار حجبه.

البساط الرابع بساط الدعاء فإن ورد عليك خاطر من غيره وكشف لك عن فقرك إليه فقد دلك على غناك فاتخذ الفقر بساطاً فاحذر أن تنـزل عن هذه الدرجة إلى غيرها فتقع في مكر الله من حيث لا تعلم وأقل ما يكون منك إذا تنـزلت عنها أن ترجع إلى نفسك مدبراً لها ومختاراً وأشرقت أحوالك ولا حال لك أن تحملها على الجد والاجتهاد إما في ظاهرك أو في باطنك طمعاً أن تدفع بذلك عن نفسك وما أسوأ حالك إذا كابدت أن تدفع عنها ما أراد الله أن يدفعه عنك فكيف إذا نازعته فيما لم يرد دفعه عنك وأقل ما في هذا الباب دعاوى الشرك، فإنك قد غلبت وما غلبت فإن كنت غالباً فكن حيث شئت ولن تكون حيث شئت أبدًا فدلَّ اجتهادك على عظيم جهلك بأفعال الله وما أقبح عابداً جاهلاً أو عالمًا فاسقًا فما أدري بأي الموضعين أصفك بالجهل أم بالفسق أم بهما جميعاً نعوذ بالله من تعطيل النفس عن المجاهدات ومن خلو القلب عن المشاهدات إذ التعطيل ينفي الشرع والخلو ينفي التوحيد وحاكم الشرع قد جاء بهما جمعًا فأدرج هما جميعًا عن منازعة ربك تكن موحداً واعمل بأركان الشرع تكن سُنيًا واجمع بينهما بعين التأليف تكن محققًا: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣] ثم إن خطر لك أيضًا في مراقبتك خاطر من مكروه في الشرع أو محبوب فيه مما قد سلف منك فانظر ما تذكر به وتنبه وإن ذكرت

=

الله فأدبك بتوحيده على بساط تفريده فإن لم ترد بك رؤية فضله فيما جلا لك من لطائف رحمته وزينك من طاعته بتخصيص محبته على بساط مودته، فإن نزلت عن هذه الدرجة و لم تكن هناك، فأدبك رؤية فضله إذ سترك فيما اقترفت من معصيته و لم يكشف سترك لأحد من خلقه فإن صُرفت عن هذا الباب وذكرت معصيتك و لم تذكر ما تقدم من الآداب الثلاثة فقم بأدب الدعاء في التوبة منها أو من مثلها بطلب المغفرة لها بحسب ما يطلبه الجاني المحاط به هذا في جانب المكروه في الشرع وأما إذا ورد عليك خاطر من طاعته تقدمت وذكرت من أفادك فلا تقرر عينك بها بل بمنشئها، فإذا قرت عينك بغير فقد سقطت عن درجة التحقيق فإن لم تكن في هذه المنـــزلة فكن في التي تليها وهو أن تشهد عظم فضل الله تعالى أن جعلك من أهلها وميزانها أن ترزق خيراً منها بل من علامتها الدالة على صحتها وإن لم تتبوأها وبُوئت فيما دونها فأدبك تدقيق النظر في تلك الطاعة هل هي هي وأنت سالم من المطالبة فيها أم هي بعكس ذلك وأنت مأخوذ بها نعوذ بالله من حسنات تعود سيئات ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧] فإن نزلت عن هذه الدرجة إلى غيرها فأدبك طلب النجاة منها بحسنها وسيئها وليكن هروبك من حسناتك أكثر من هروبك من سيئاتك إن أردت أن تكون من الصالحين .

وقال الشاذلي رضي الله عنه: إذا أردت أن يكون لك نصيب ممـــا لأولياء الله تعالى فعليك برفض الناس جملة إلى من يدلك على الله بإشارة صادقة أو بأعمال ثابتة لا ينقضها كتاب ولا سنة وأعرض عن الدنيا بالكلية ولا تكن مما يعرض عنها ليعطى شيئاً على ذلك بل كن في ذلك عبداً لله أمرك أن ترفض عدوه، فإن أتيت بهاتين الخصلتين الإعراض عن الدنيا والزهد في الناس فأقم مع الله بالمراقبة والتزم التوبة بالرعاية والاستغفار بالإنابة والخضوع للأحكام بالإستقامة، وتفسير هذه الأربعة أن تقوم عبداً لله فيما تأتي وتذر فتراقب قلبك ألا يرى في المملكة شيئاً لغيره، فإن أبيت بها نادتك هواتف الحق بأنوار العز إنك قد عميت عن طريق الرشد من أين لك القيام مع الله بالمراقبة وأنت تسمع: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً﴾ [الأحزاب:٥٢] فهنالك يدركك من الحياء ما يحملك على التوبة مما ظننت به أنه قربة فتلزم بالتوبة والرعاية لقلبك أن لا تشهد ذلك منك بحال فتعود إلى ما خرجت عنه وإن صحت هذه منك نادتك الهواتف أيضًا من قبل الحق أليست التوبة منه بدء والإنابة تتبعها منه واشتغالك بما هو وصف لك حجاب عن مرادك فهنالك تنظر أوصافك، فتستعيذ بالله منها وتأخذ في الاستغفار والإنابة والاستغفار طلب الستر من أوصافك بالرجوع إلى أوصافه، فإن كنت بهذه الصفة أعني الاستغفار والإنابة ناداك من قريب اخضع لأحكامي ودع عنك منازعتي واستقم مع إرادتي برفض إرادتك، وإنما هي ربوبية تولت عبودية فكن عبداً مملوكاً لا تقدر على شئ فمتى رأيت منك قدرة وكلتك إليها وأنا بكل شئ عليم، وإن صح لك هذا الباب ولزمته أشرفت من هناك على أسرار لا تكاد تسمع من أحد من العالمين.

مقام الإحسان والشهود، وفيه وعد للمؤمنين المكاشفين بأن لهم من الله الأجر الأخروي في التوجه الصوري؛ لأنه من عمل البدن؛ فله الجنة ونعيمها، وبأن لهم منه تعالى النور في التوجه المعنوي؛ لأنه من عملِ الروحِ والسر؛ فله الجنة في الجنة ونعيمها؛ وهو كشف الحجاب عن وجهه فعلاً وصفة وذاتًا، وإراءته لهم الحقائق، والملكوت على ما هي عليها.

نسأل الله سبحانه أن يجعلنا من الواصلين إلى العين دون القائمين عند الأثر، والواقفين عند الباب.

وفيه: إن الغافل عن المرتبتين، والتوجه اللائق بكل منهما محجوب عن الحق تعالى صورة، ومعنى جميعًا؛ وهو تارك الصلاة الشرعية، والغافل عن المرتبة الحقيقية محجوب عنه تعالى معنى؛ فهو إنسان في صورة الحيوان؛ لأنه له نعيم جسماني بحسب روحه الحيواني، وليس النعيم الروحاني بحسب روحه الإضافي.

والروح الحيواني بالنسبة إلى الروح الإنساني(١) كالظل بالنسبة إلى ذي الظل،

---

(١) قال سيدنا القونوي: قاعدة كلية تتضمن التعريف بكيفية تدبير الأرواح الأجساد وصورة الارتباط بين كل منها مع الآخر:

اعلم أن الارتباط الذي بين الروح الحيواني، وبين المزاج الطبيعيُّ الإنساني ثابت بالمناسبة، كما أن الارتباط بين النفس الناطقة وبين الروح الحيواني إنما صح وثبت أيضًا بالمناسبة، ولو لا ذلك ما تأتي للنفس تدبير المزاج البدني لما بينهما من المباينة من جهة بساطة النفس، وتركيب البدن، وفرط كثرة أجزائه، واختلاف حقائق ما تألَّف منه.

فالبخار الذي في تجويف القلب، وإن كان جسمًا فإنه ألطف أجزاء بدن الإنسان وأقربها نسبة إلى الأجسام البسيطة؛ وهو كالمرأة للروح الحيواني.

والروح الحيواني: من حيث اشتماله بالذات على القوى الكثيرة المختلفة المنبثّة في أقطار البدن، والمتصرفة بأفانين الأفعال والآثار المتباينة تناسب المزاج البدني المتحصِّل من العناصر، وما يتبعه من الخواص المعدنية والنباتية والحيوانية، ومن حيث أنه قوة بسيطة متعلقة غير محسوسة مجعولة في ذلك البخار القلبي الذي قلنا أنه كالمرآة له تناسب النفس الناطقة؛ وإنه أيضًا كالمرآة لها: أي للنفس.

ونسبة النفس الجزئية الإنسانية إلى النفس الكلية، نسبة الروح الحيوانية إليها من جهة الافتقار إلى المادة، والتقيُّد بها وملابسة الكثرة، ومن جهات غير هذه المذكورة كخواص إمكانات الوسائط من الأفلاك والنفوس والعقول والشئون المعبر عنها بالأسماء.

ونسبة النفس الكلية إلى القلم الأعلى المسمَّى بالعقل الأول، والروح الكلي؛ نسبة النفس الجزئية إلى النفس الكلية، ونسبة الروح الكلي المشار إليه إلى جناب الحق سبحانه نسبة النفس الكلية إليه؛ بل أقل

=

وأضعف هذا وإن كان هذا الروح الكلي الذي هو القلم أشرف الممكنات، وأقربها نسبة إلى الحق، وأنه حامل الصفات الربانية، والظاهر بها علمًا وعملاً وحالاً.

فالسير، والسلوك، والتوجه بالرياضة، والمجاهدة، والعلم، والعمل؛ المحققين المتأصِّلين بأصولِ الشرائع والتعريفات الربَّانية يثمر بعناية الله ومشيئته انصباغ القوى المزاجية بوصفِ الروح الحيواني في الجمع بين خاصية البساطة والتجريد، وبين التصرُّفات المختلفة بالقوى المتعددة في فنون الأفعال، والتصريفات الظاهرة في بدنِ الإنسان بالقوى والآلات.

والروح الحيواني كماله الأول انصباغه بأوصاف النفس الناطقة، والنفس الناطقة الجزئية كمالها الأول تحقُّقهـا بوصـفِ خازن الفلك الأول المسمَّى في الشرائع بـ «اسماعيل»؛ وعند أهل النظر بالفعال، وكمالهـا المتوسط ظهورها، وتحققها بوصف النفس الكلية، واكتساب أحكامها على وجهٍ يوجب لها التعدي منها إلى المرتبة العقلية والروح الكلي.

ثم الاتصـال بجـناب الحق والاستهلاك فيه بغلبة حكم الحقية على الخلقية، وزوال الخواص الإمكانية والتقيـيدية بأحكام الوجوب، وبقهر حكم الحق الواحد القهار كل حكم، ووصف كان يُضاف إلى سـواه، وهـذا القهر يرد على كل ما امتاز من مُطْلق الغيب الكليِّ الربانيّ، وتلتبس بواسطة الأحوال الإيجادية بأحكام الإمكان والتقييدات الكونية المتحصِّلة من الشروط الوسائط.

فيستهلك الجزء في كله، ويعود الفرع إلى أصله، مستصحبًا خوص ما مرَّ عليه واستقر فيه مدة، ووصل إلـيه؛ كماء الورد كان أصله ماء فسرى في مراتب التركيب والمواد، واكتسب بسرايته ما صحبه بعد مفارقةِ التركيب من طعمٍ، ورائحة، وخواص آخر، ولا يقدح شيء منها في وحدته وبساطته.

وإذا عرفـت هذا، فاعلم أنه يتحصَّل بين كيفيات المزاج الإنساني وبين ما يكون قلب الإنسان وذهنه مغمورًا به من المقاصد والتوجهات وغيرهما كانت ما كانت، وبين ما ارتسم أيضًا في نفسه من العلوم، والعقـائد، والأوصـاف، والأخلاق في كل وقت؛ هيئة اجتماعية. تلك الهيئة مع ما ذكرناه أولاً في القـاعدة بالنسبة إلى جناب الحق من جهة عدم الوسائط، وبالنسبة إلى سلسلة الحكمة والترتيب، وما أودع سـبحانه من القوى، والخواص، والأوامر، والأسرار في السماوات العُلا وما فيها من الكواكب والأملاك، وما يتكيَّف به من الأوصاف والتشكُّلات؛ كالمرآة يتعين فيها من تجلِّي الحق، وشأنه الذاتي، وأمره الترتيبي الحكمي العلوي، وما يتبعه جميع التصورات والتصرفات الإنسانية وما ينضاف إلى الحق من الأسماء والصفات والشئون والآثار.

فمنها: أي من الأمور المتعينة المشار إليها: ما هي دائمة الحكم ثابتة الأثر.

ومنها: ما يقبل الزوال؛ لكن ببطء.

ومنها: سريعة الزوال والتبدُّل من حالٍ إلى حالٍ.

ومنها: ما نسبته إلى الحق أقوى وأخلص.

ومنها: ما نسبته إلى الكون أو الإنسان جمعًا وفرادىً من حيث ظاهر المدارك غالبا أحق وأنسب.

=

=

ومنها: ما يفيد معرفة الاشتراك بين الحق وما سواه من إنسان وغيره.

ومنها: ما يقضي بالاشتراك بين الحقِّ والإنسان فقط.

ولست أعني بالإنسان هنا نوع الإنسان؛ بل يُعنى به الإنسان الحقيقي الذي هو بالفعل إنسانٌ كاملٌ الذي من جملة مناصبه مقام النيابة عن الحقِّ، وكونه واسطة بين الحق وما سواه في وصول ما يصل من الحق إلى الخلق في عصره، هكذا كل كامل في كل عصر.

وهذا المشهد لما أريته عرفت منه سرَّ التجدُّد بالأمثال، وبالأضداد، والمتخالفات، وأعني بالتجدد تجدُّد وجود الكون، والخواطر، والتصورات ونتائجها في كل زمان، وظهور الخلق الجديد الذي الناس منه في لبسٍ كما أخبر تعالى. وقوله الحق: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]

ورأيت تعين الوجود المطلق بصورِ الأحوال؛ وهي ذات وجهين، فكلها إلهية من وجهٍ، وكونية من وجه، وصادق على الجهتين باعتبار آخر.

ورأيت تعين الأسماء، والصفات الإلهية والكونية بحسب تلك الأحوال.

ورأيت كيف ينتج بعض الأفعال، والعقائد، والأحوال الإنسانية سخْط الحق ورِضَاه، وأحكامه وتعدد أثره الوحداني مع عدم تغير أمر في ذلك الجناب الأقدس؛ بل رأيت بعض الأفعال والتصورات العلمية والاعتقادية من الإنسان، إذا اقترن بحالٍ مخصوص من أحواله؛ استجلب بحكم علم الله السابق فيه، وتقديره اللاحق؛ تعينًا جديدًا من مطلق غيب الحق يظهر بحسب تلك الهيئة الاجتماعية المتحصلة كما قلنا من التصورات العلمية الروحانية، أو الاعتقادية الذهنية الظنية، والكيفيات المزاجية، والنقوش والتعشُّقات النفسية، والأوصاف والأخلاق الشريفة والدنيئة.

فإن كان أثر ذلك الأمر الظاهر التعين شيئًا موافقًا لما سبق به التعريف الإلهيّ بلسان الشريعة، وما تدرك العقول، والفطر السليمة وجه الملائمة والحسن فيه؛ أضيف إلى الحق؛ بمعنى أن ذلك أثر رضاه ورحمته، وإن كان الأمر بالعكس أضيفَ إلى الحق بمعنى أنه أثر غضبه وقهره، سلمنا الله منهما.

وإن كان الغالب على مزاج تلك الهيئة المتحصلة من اجتماع ما ذكرنا؛ حكم حال الإنسان؛ أعني: الحال الجزئي الحاكم عليه؛ إذ ذاك كان ذلك السخط أو الرضاء أو الحكم الإلهي المتعين في الإنسان بحسب حاله الحاضرة؛ قابلاً لزوال بسرعة، وكان قصير المدة.

وإن كان الغالب على الشخص، والجالب ما ذكرنا حكم العقائد، والعلوم الراسخة، والأوصاف والأخلاق الذاتية الجبلية، والمكتسبة الثابتة؛ ثبت الأثر والحكم أو تماديًا المدد الطويلة شرًّا كان أو خيرًا.

وكذلك إن كان الغالب فيما ذكرنا من الإنسان حكم صورة مزاجه، وقواه البدنية الطبيعية، والأوصاف والأحوال اللازمة للبدن وقواه؛ انقضى الحكم بمفارقة هذه النشأة العنصرية.

وإن كانت الغلبة للأمور الباطنية النفسانية، وما بعدت نسبته من عالم الشهادة؛ بقيَ الأثر، والحكم مصاحبين إلى حين ما يشاء الله.

وإن كان الغالب فيما ذكرنا الأمور الذهنية الخيالية الظنية؛ تمادى الحكم في النشأة البرزخية أيضًا حتى

=

=

يشاهد ما قُدِّر له أن يشاهده ممَّا كان يتصوَّره على خلاف ما كان عليه، وإليه الإشارة بقول الله تبارك تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] وحتى تظهر غلبة أحكام الروح، وعلمه، وحكم صحبة الحق بالمعية الذاتية، وسره على حكم المزاج، وتخيلات صاحبه التخيلات الغير المطابقة لما عليه المتصور.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠].

ثم اعلم أن كل نشأة ينتقل الإنسان إليها بعد الموت، فإنها متولدة عن هذه النشأة العنصرية، وإن في ضمن هذه النشأة ما يدوم ويبقى، وإن تتنوع ظهوره، واختلفت كيفياته، وتراكيبه؛ وفيه ما يفنى بالموت، وفيه ما يصحب الروح في البرزخ من الفاسدة والتصورات الرديئة، والمقاصد القبيحة المستحضرة، والباقي من لوازم ما ذكرنا من صور الأفعال، والأقوال الإنسانية بموجب القصد والاستحضار المذكورين.

وأما النشأة الحشرية فإنها باطن هذا الظاهر فيبطن هناك ما ظهر الآن، ويظهر ما بطن على وجهٍ جامع بين جميع أحكام ما بطن الآن، وظهر وما نتج من هذا البطون والظهور، والجمع والتركيب.

ثم عند الصراط يفارق السعداء ما يبقى فيهم من خواص هذا المزاج، والدار مما هو عنصريٌّ غير طبيعيٍّ، وتبقى معهم أرواح قوى هذه النشأة وجواهرها الأصلية المتركِّبة بالتركيب الأبدي الطبيعي الغير العنصري، وصورة الجمع والتأليف الغيبي الأزلي.

وأهل الشقاء ينفصل عنهم ما قد كان يبقى فيهم من أرواح القوى الإنسانية والصفات الروحانية، وتتوفر في نشأتهم صور الأحوال المزاجية الانحرافية والصفات الرديئة والكيفيات المردئة الحاصلة في تصوُّراتهم وأذهانهم، والتي ترتبت عليها أفعالهم في الدار الدنيا وأقوالهم.

وينضم إلى صورهم ما تحلَّل من أجزائهم البدنية في هذه النشأة، فإن كل ما تحلَّل من أبدانهم يعاد إليهم، ويجمع لديهم بصورة ما فارقهم عقلاً، وعلمًا، وحالاً، وعملاً، وما يقتضيه ذلك الجمع والتركيب الذي يغلب عليه حكم الصورة على الروحانية.

وأهل الجنة بالعكس، فإن أكثر قواهم المزاجية، والصفات الطبيعية، وما تحلَّل من أبدانهم ينقلب بوجه غريب شبيه بالاستحالة صورًا روحانية مع بقاء حقيقة الجسم في باطن صورة السعداء، فالباطن هنا مُطلَقٌ، والظاهر مقيَّدٌ، والأمر هناك بالعكس؛ حكم الإطلاق في ظاهر النشأة الجنانية، وحكم التقييد في باطنها؛ وغالب الحكم والأثر فيما ظهر هناك لما بطن هنا وبالعكس.

والنشآت المشار إليها هنا أربعة:

أولها: هذه «النشأة العنصرية»: وهي كالبذرة لباقي النشآت؛ ولها الإدماج والجمع الأكبر.

وبعدها: «نشأة البرزخ»: وإنها منتشئة من بعض صور أحوال الخلق، وبعض أعمالهم، وظنونهم، وتصوراتهم، وأخلاقهم، وصفاتهم، فيجتمع مما ذكرنا أمور تحصل لها هيئة مخصوصة؛ كالأمر في المزاج

=

فحق النعيم إنما هو لذي الظل، الا فذوقوا من هذا المذاق حتى لا تجدوا الحسرة يوم التلاقي، والله الخلّاق والرزّاق.

وقال الله سبحانه: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٠٩].

اعلم أنَ الزّلل؛ إمّا زلل في الشريعة، وإمّا زلل في الطريقة.

=

المتحصّل من اجتماع الأجزاء التي منها تُركّب ذلك المزاج كان ما كان، فتقتضي تلك الهيئة ظهور النفس في الصورة المتحصلة من تلك الهيئة، وذلك الاجتماع، وصفة الصورة بحسب نسبة الصفة الغالبة على الإنسان حين مفارقة هذه النشأة.

فيظهر بعضهم في البرزخ؛ بل وبرهة من زمان الحشر في صورة أسد وذيخ وطير؛ كما ورد في الشرّ، وشهد بصحته الكشف والتعريف الإلهي، وليس بالمسخ والتناسخ المستنكر، فإن القائلين بذلك زاعمون أنه في الدنيا، وهذا إنما هو في البرازخ بعد الموت، فافهم.

ومن غلبت عليه الأحكام الروحانية وإفراط إعراضه عن هذه الدار وهذه النشأة؛ كالشهداء المقبلين في سبيل الله للجهاد بطيب قلب، وصحة إيمان؛ تظهر نفوسهم في صور طيور روحانية؛ كما أخبر ﷺ: «إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَعَلَّق مِنْ ثَمَرِ الْجنَّةِ تَأْوي إِلَى قَنَادِيلَ تَحْتَ الْعَرْشِ».

وورد في المعنى في الحديث الصحيح:

إن في غزوة أُحُد قال بعض الصحابة لبعضهم معاتبًا له: «أتقعد عن جنةٍ عرضُها السَّمَاوات والأرض، والله إني لأجد ريحها دون أُحُد».

وهذا من بكرة نور الإيمان، وفرط استفراغ الهمَّة حال التوجُّه مع الإعراض التام عن هذه النشأة وهذه الدار، واستشهد صاحب هذا القول يومه ذلك ﷺ.

والمتوسطون من الأولياء المفرطين في الانقطاع عن الخلق والمجاهدات البدنية أيضًا كذلك، وأما الكُمَّل فإنهم لا ينحرفون إلى طرفٍ من الوسائط، بل يوفون كل مرتبة حقها؛ فمنهم تامُّون في عالم الطبيعة، وتامُّون في الحضرات الروحيَّة؛ كربِّهم سبحانه الذي أعطى كلَّ شيءٍ خلقه، فلا تغلب عليهم الطبيعة ولا الروحانية.

ومن سواهم؛ إمَّا: «مغلوب الروحانية، مستهلك الطبيعة».

وإما: «مغلوب الطبيعة المستهلك قواه الروحانية في عرصة طبيعته»؛ كما هو حال جمهور الناس.

و«الكُمَّل المقرَّبون في حاق الوسط»؛ برازخ بين الطبائع والأرواح؛ بل بين المرتبة الإلهية والكونية، فافهم. وأما الباقيان من النشآت: فأحدهما: «النشأة الحشرية».

وثانيهما: «النشأة الاستقرارية في إحدى الدارين».

وانظر: النفحات الإلهية (ص٩٣) بتحقيقنا.

وكذا البينات: أي الشواهد والحِجج.

فزلل الشريعة: وجود المنكرات والمعاصي، فإن وقع ذلك من بعد ما جاء الأوامر والنواهي؛ فإن الله ينتقم منه بالعذاب الجسماني الصوري، إمَّا في الدنيا، وإمَّا في الآخرة، وإمَّا في كلتيهما؛ لأن ما وقع في الدنيا فإنما هو في مقدمات ما سيقع في الآخرة، ومبادئها لا نتائجه وحقائقه.

وزلل الطريقة: وجود الكسل، والفتور، وعدم الرياضات والمجاهدات، فإن وقع ذلك من بعد ما جاء الإشارات، والدَّلالات؛ فإن الله ينتقم منه بالعذاب الروحاني هو الحسرة والحرقة الباطنة التي تفوق الاحتراق بالنار الصورية؛ لأن الروح لطيف، والجسم كثيف، فقد لا يتحمَّل اللطيف ما يتحمَّله الكثيف.

ولذا اشتدَّ الموت الطبيعي على الأنبياء والأولياء على تقدير بقائهم بالبشرية في تلك الحال، فلا بد من الامتثال للأمر الإلهي على ألسنة أُولي الأمر من العلماء، والمشايخ؛ حذرًا عن الوقوع في ورطة الانتقام على أن القيام بالشرائع يُورِّث المعارف؛ لأن مَن عمل بما علم؛ ورَّثه الله علم ما لم يعلم، فمَن تركه؛ عُوقِب بالحرمان عن المعارف الإلهية التي هي الجنة المعنوية.

وإن القيام بالطرائق يُورِّث الحقائق؛ لأن المجاهدات تُورِّث المشاهدات، فمَن لا شريعة له؛ لا معرفة له، ومَن لا طريقة له؛ لا حقيقة له، فلكل مَنـــزل طريق، ولكل طريق سالك، فمَن مشى على طريقه؛ وصل إلى مراده بإعانة الله تعالى وتوفيقه، فظهر أن الآية خطاب إلى كِلا الفريقين عبارة وإشارة، وقد يحصل إلهام من الله في أمر من الأمور بدل فعله، أو تركه، ويحصل له شواهد أيضًا.

فذلك الإلهام يجب أن يعمل به؛ لأنه إلهام ربَّاني وإلقاء رحماني، وإن لم يحصل له شواهد؛ فذلك مما يترك، ولا يعمل به؛ لأنه خاطرة نفسانية، ووسوسة شيطانية، وعلى هذا أجرى أهل الله تعالى في كل عصر، ومصر يعني: عملوا بما أُمروا به؛ إذ ليس للشيطان عليهم سبيل، ولا للنفس الأمَّارة عليهم استيلاء سواء كان المأمور به الهجرة من دار إلى دار، أو غير ذلك من الأمور الشاقَّة على غيرهم.

فإن غيرهم يلعبون بنفوسهم وطبائعهم، فلهم الاستئناس بالأمور البشرية

الحسِّية، ولهم التعلُّق بالأشياء الفانية الصورية ، وذلك الاستئناس والتعلُّق يمنعهم عن التجرُّد والتبتُّل؛ فهو الذي يُقال له: الحجاب.

ولعلماء الرسوم حظٌ وافر من ذلك، فإنهم إذا تقلَّدوا مدرسة في بلدة، أو نالوا غيرها من الحظوظ العاجلة ورأوا أنهم مُفخَمون في عيون الناس، ولهم أحباب وطلبة يتردَّدون إليهم صباحًا ومساءً؛ فهم أعلق بتلك البلدة من علاقة العلقة ببدن الإنسان أو الحيوان، فلا طريق لهم إلى الحق إلا عند الموت، وذلك من جهة الجبر لا من طريق الاختيار، عصمنا الله وإياكم من التعلُّقات الموجبة للانتقام، وشرَّفنا بالقيام بالحق في كل مقام.

وورد أيضًا قوله: **﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾** [البقرة:١٤٩].

يعنى: توجه بقلبك، وقالبك إلى جهة القبلة؛ وهي الشام، فقمة رضاء الله تعالى، ثم دفع الإذن الصريح من جهة الشيخ أيضًا، ولله الحمد على نعمه الجليلة ظاهرًا وباطنًا، فالنعمة الظاهرة وقوع الاتفاق بين أرواح الكُمَّل للإذن بالهجرة، والنعمة الباطنة صدور الإذن من الله تعالى بخصوصه.

ووقع ذلك في أواسط السنة التاسعة والعشرين بعد المائة وألف، فوقوعه في الأواسط يدلُّ على أن خير الأمور أوسطها، وأن لا خير إلا في الوسط، والتسع إشارة إلى الإذن جاء من فوق الأفلاك التسعة، ورمز إلى قوله تعالى: **﴿طه*مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾** [طه:١، ٢].

والعشرون: إشارة إلى العشرة المتوسطة، فإنه تعالى، وكذا حضرة الشيخ في عالم المعنى قال لي: عشر في الدنيا، وفي الشام عيش وسط فإنه خير لك، وأمَّا المائة والألف فتلويح إلى حصول الإمداد من الأسماء خصوصًا وعمومًا، فخصوصها: المائة فإن التسعة والتسعين مع الأحدية مائة، وعمومها: الألف، وليس فوقها إلا المكرر.

وفيه إشارة إلى أن في هذه السنة المباركة إذنًا من الله تعالى، ودعوةً، وفتحًا من جانب جنابه ونصره، فالوقت طيب، والروح صافٍ، والعلم باقٍ، والفيض جار، والله معي، وهو حاضري وشاهدي.

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قدَّم القبض لأنه أكثر(١)، كما في قوله تعالى: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وهو قد يكون قبض المال كما في ظواهر العامة، وقد يكون قبض الحال كما في بواطن الخاصة، وقبض المال للحماية الإلهية، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]، وقبض الحال لتشديد المحنة، وتميز الممكور من غيره، وتحقيق الشكر إذا ظهر المزيد، وتهيئة الاستعداد البسط، وقسْ على هذا البسط(١).

ومنه يُعلم أن كمال الإنسان تدريجي، لا يحصل في الأوقات القليلة، دلَّ عليه أنه تعالى خمَّر طينة آدم، وكمَّلها أربعين سنة، كل يومٍ من السنة ألف سنة على ما

(١) القبض: اعلم أن الزمان في مقام القبض لا يصلح إلا للحال، أو لا تعلق له بالماضي، والمستقبل، والنفس إنما تتعلق بالماضي تأسفاً، وبالمستقبل خوفاً وحذراً.

قال قدس سره: «القبض في الحقيقة تجلي الحق لكل معتقد في صورة اعتقاد» فصار الحق كأنه محصور، ومقبوض عليه بالاعتقادات، وهي العلامة التي بين الله تعالى، وبين عباده العامة، ولا بد له في كونه إلهاً يتصف بهذه الصفة، والعالم متباين الاستعداد، ولا بد من الاستناد إليه، فلا يزال يعبد كل جزء إلهه من حيث استعداده فلا بد أن يتجلى له كل شيء بحسب اقتصار استعداده، ويقع منه القبول، فما من شيء إلا وهو يسبح بحمده.

وقيل: «وارد يرد على القلب من الغيب توجيه إشارة إلى عتاب وزجر، وتأديب، حين يقع السالك في الهفوات الموجبة للتقاعد والفترة».

وقيل: «أخذ وارد الوقت بغشيان أثر الكون على القلب، وانطباع صوره فيه».

(١) البسط: هو عندنا من يسع الأشياء، ولا يسعه شيء إن واسع المغفرة ما ستر عدمية ماهيات الأشياء، وهو الوجود العام المسمى بالرحمة العامة المطلقة، التي وسعت كل شيء، فمن تحقق بها كان رحمة للعالمين، أصالة كالحقيقة السيادة، ووراثة، كمن يكون قلبه على القلب السيادي فيسع الأشياء، ولا يسعه شيء يختص بدقيقة منها، والقلب على الجملة إذا انتهى بسر «وسعني قلب عبدي المؤمن»، حاز مقام البسط، وقيل: هو الرجاء في الوقت الحاضر يقابل كون القبض حال الخوف في الوقت الحاضر، وقيل: «هو وارد في جهة إشارة إلى قبول ورحمة وأنس إما بمنة الحق، أو بأدب وعمل موجب»، والعارف مبسوط في قبضه، مقبوض في بسطه.

وصاحب الحال إذا كان مقبوضاً لا ينبسط، وإذا كان مبسوطاً لا ينقبض، فشأن العارف أن يكون كالمعروف، يجمع بين الضدين.

رحمةً للعالمين، وصلّى عليه بصلاةٍ لم يهتدِ بسرها العارفون، وإن بلغوا غاية القصور في المعرفة.

ومنه يعلم أن بعض الأسرار مخصوص بأهله، لا يتجاوز إلى غيره، فهو على حالة مجهولة، ينتقل من الدنيا، وفي ذلك حكمة خفية، وغيرة من الله تعالى؛ لأنه قد تجلّى بكل مستعدٍ بما يناسب حاله، فلا يجعل طعمة العنقاء للعصفور، وذلك راجعٌ إلى أحوال الشأن الأزلي الذاتي، فمن وجد خلوًّا فليحمد الله، ومن وجد خلاف ذلك، فلا يلومنَّ إلا نفسه، وليصبر وليقف في مقامه المعلوم، كالملائكة وكجبريل، فإنه لا يجاوز السدرة قدر أنملة، فاعرف.

وقال الله تعالى: ﴿**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ**﴾ [البقرة:٢٥٦].

رأيت في المنام: كأن العلماء اختلفوا في أن الفعل أَوْلى أم الترك، ثم لقيت في الطريق بعض مَن يَعدُّ نفسه من الأولياء، فقلت له: الفعل أَوْلى أم الترك؟ فقال: الفعل؛ فأعرضت عنه؛ لأن هذا الجواب مخالفٌ للواقع.

ألا ترى أن الله تعالى قدَّم الكفر بالطاغوت؛ وهو من باب الترك الذي يُقال التخلية بالمهملة؛ فكان الترك أقدم وأَوْلى من الفعل، ومن ثم قال بعض الكبار: ما لم يكن كافرًا؛ لم يكن مؤمنًا، وما لم يكن مؤمنًا؛ لم يكن كافرًا، فعليك بالأول، وإياك والثاني انتهى كلامه.

ومن ثَّم أيضًا قُدِّم التسبيح على التحميد في قوله تعالى: ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾ [طه:١٣٠]، فإن التسبيح الذي هو التنزيه من باب التخلية بالمعجمة، والنفي والتحميد من باب التخلية بالمهملة والإثبات.

ولا شك أن النفي مُقدَّم على الإثبات في كلمة التوحيد.

وكذا قوله تعالى: ﴿**قُمْ فَأَنذِرْ**﴾ [المدثر:٢]، فإنه اكتفى بالإنذار في أول الأمر؛ لكونه أقدم، ثم قال: ﴿**بَشِيرًا وَنَذِيرًا**﴾ [البقرة:١١٩]، فقدَّم البشارة لشرفها لوجود الإيمان بالفعل، والتنزيل أيضًا، فمنكم كافر، ومنكم مؤمن، فقدَّم الكافر؛ لكثرة أهل الطاغوت، فهذه الآيات متقاربة في المعنى.

لكونه أقدم، ثم قال: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة:١١٩]، فقدَّم البشارة لشرفها لوجود الإيمان بالفعل، والتنـــزيل أيضًا، فمنكم كافر، ومنكم مؤمن، فقدَّم الكافر؛ لكثرة أهل الطاغوت، فهذه الآيات متقاربة في المعنى.

وهذا المعنى الذي ذكرناه، عناه مَن قال: وجنة الفردوس للكافر، فخصَّ بالذكر جنة الفردوس التي هي أعلى الجنَّات، ومقام المقرَّبين؛ لأنه لا ينالها إلا أهل الكفر بالطاغوت؛ وهم أقل القليل؛ لأنهم الذين أُشير إليهم بقوله: ﴿**قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾ [الأنعام:٩١].

وبقوله: ﴿**وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً**﴾ [المزمل:٨]، وبقول مَن قال: خُطوتان، وقد وصلت؛ حيث أراد بالخُطوة الأولى: الإعراض الكلي عمَّا سوى الله تعالى الذي هو من باب الترك، بالثانية: الإقبال على الله تعالى الذي هو من باب الفعل.

فهاتان الخُطوتان نوران بينهما نار هي نار العشق، فإنه لا يتم الإعراض والإقبال إلا بهذه النار، فمَن لم يذق من العشق والمحبة شيئًا؛ فهو لم يذق شيئًا من الحلوى، ولم يدر ما هي، فإن مَن لم يذق؛ لم يعرف، فبعض أهل الرسوم تتبَّعوا كتب أهل الأذواق(١)، وضبطوا المقامات بقدر وسعة عقلوهم، كما رأينا بعضهم في الشام وفي غيرها، فشرعوا في التكلُّم من اصطلاحاتهم، ووقعوا في الدعوى العريضة، وهم كما هم على حالهم الأولى لم يذوقوا شيئًا من الحالات أصلاً.

---

(١) قال سيدي محمد وفا ﷺ وعنَّا به: الذوق هو إدراكٌ في القلب، يميز به بين أشخاص أصناف المعاني، هذا إذا صح من علة داء الشرك الخفي، وحقيقته: وجدان حلاوةٍ من التمنِّي في رياض تروض الرضا، وغايته: الاستغناء في تصور معاني الحقائق عن نصب الأدلة والبراهين السمعية والعقلية اهـــ.

وقال البغدادي في شرح الصلاة: هو نور عرفاني يقذفه الحق بتجلِّيه في قلوب أوليائه يفرِّقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب وغيره.

وقد عرَّفه الشيخ الأكبر بأنه: أول مبادئ التجلِّي المؤدي إلى الشرب؛ لأنه إذا كان نفسين فهو الشرب، والوجدان ما يحس به بالباطن كالجوع مثلاً.

واصطلاحًا: ما يجدهُ العارف في قلبه من التجلِّيات الإلهية، فكما أنَّ مَنْ أحسَّ بالجوع باطنًا لا يتردد فيه، ولا يكون لأحدٍ معه، دخل في هذا الإحساس الباطني الخاص، كذلك مَنْ وجد الحق تعالى يكون بهذه الكيفية.

فكانوا علومهم بمنـــزلة الجهل؛ لأنه لا يفيد العلم بلا عمل، والعمل إذا صحَّ على وجه السُّنة، وانضم إليه السلوك؛ أدَّى إلى العلم بالله الذي ذاقه أهل تلك الاصطلامات، وإنما قلنا بانضمام السلوك؛ لأنه لا يصحُّ الكفر بالطاغوت إلا بتسليك المسلك، وبعزِّ مَن ناله بلا واسطة من الوسائط؛ وهم المجذوبون على أن المجذوبين محتاجون إلى السلوك أيضًا، نعم إذا كان المجذوب أُويسيًا؛ فرب العالمين مربيه ومعلمه إلى أن يحصل له التمكين والرسوخ في الطريقة، فعليك بالاعتقاد، ثم بالعمل، كما ذكرنا حتى تنال إلى ما آل إليه الخوص، ومن الله الرشيد التوفيق والاختصاص.

وقال تعالى: ﴿كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

اعلم أن التذكُّر: إنما هو لأولي الألباب، والتفكُّر لذَوي العقول، فإن العقل محجوب، محاط بالأفكار، فلا يحصل المطلوب له إلا بعد التفكُّر، وإحضار الدلائل الكثيرة.

وأمَّا اللُبُّ: فلكونه خالصًا عن شوائب الأوهام، والخيالات، مجرَّدًا عن القشور، والتعلُّقات؛ كان المطلوب حاصلاً له بأدنى التذكُّر، والإشارات؛ وهو صفة الراسخين في العلم المذبذبين فيه.

والحاصل: إن العقول الصافية القدسية يَكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، فكيف إذا مسَّه شرر من ذلك؟ وفيه إشارة إلى قربهم بقبول الدعوة من غيرهم؛ كحال الصديق ﷺ، وغيره هذا، وقد ختمنا الكلام في هذه المجموعة بهذه الآية الكريمة لِما أن الله تعالى ألقاها على هذا الفقير الشيخ إسماعيل حقِّي شرَّفه الله تعالى بمزيد الترقِّي صباح يوم الثلاثاء الحادي والعشرون من شهر المولد النبوي من سنة ثلاثين بعد المائة والألف، إشارة إلى الختم بها، فكان الأمر على السمع، والطاعة، والحمد لله على الإتمام، ولرسوله أفضل التحية والإكرام، وآله وصحبه ذَوي الاحترام.

هذه المجموعة تمَّت في ست سنين، لما أن الأسفار رمَتني من أرض إلى أرض، والأقدار ألقتني إلى طول بعد عرض، فجالت العوائق بيني وبينها، فالله يفعل ما يشاء لا أن كلمات الله نفدت حاشا، والله عليم بذات الصدور.

تتمة:

وجود الإنسان الكامل بظاهره وباطنه؛ كشجرة السرِّ وبأصلها وفرعها، وظاهرها باقٍ لا يتغيَّر بالموت، فإن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، والصدِّيقين، والشهداء، وذلك كفرع «السرو» فإنه لا يتغيَّر بعصوف الرياح؛ بل يبقى على حاله في الربيع والخريف؛ ولذا باقي الفصول، وكذا أصلها ثابت لا ينقعر؛ كسائر الأشجار الضعيفة(١).

ومثله في المتانة والتمكين؛ اعتقاد الإنسان الكامل، ويقينه، فإن اليقين هو الاستقرار؛ ولذا يُقال: علم اليقين إذا استقر العلم في القلب، وعين اليقين إذا استقر المعيَّن في الفؤاد، وحق اليقين إذا استقر الحق في الروح والسر، وليس حال غيره مثله في ذلك.

ألا ترى إلى علماء الرسوم، فإنهم لا يقفون عند حدٍّ، وإن كانوا أعلم أهل زمانهم؛ تكون علومهم مُشوَّبة بالشكوك، وإدراكاتهم مخلوطة بالأوهام، فيناقضون أنفسهم في معلوماتهم، وينتقلون من طور إلى طور، ولو كانوا على علم صحيح لِما تغير حالهم، وإن عاشوا ألف سنة.

وكذا حال أهل الكشف، فإن الكشف ما لم يكن صريحًا؛ لم يأمن صاحبه عن الغوائل، وكم رأينا في عصرنا من أهل الدعاوى حاروا في أمورهم، ورجعوا إلى القدح في الله تعالى حتى خرقوا المصاحف، وتركوا الفرائض ظنًّا أن الله تعالى ما

---

(١) فالإنسان الكامل موجودُ الوجودِ الحق في إحاطته، هو شخص حقيقة الدائرة الرحمانية الرحيمية، الظاهر ظله في مرآة كل استعداد زماني بحسبها، فيكون صاحب ذلك الزمان.

وقال ﷺ في الباب السادس والأربعين وثلاثمائة: إن الإنسان الكل الكامل الكلي لم يزل مع الله، فلا يزال مع الله، فهو باقٍ ببقاء الله، وما عدا الإنسان الكامل، فهو باقٍ بإبقاء الله تعالى.

وهنا مسألة أخرى أذكرها لتعريف الفرق بين الأزلين وهي: إن الموصوفين بالأزل نفيًا، أو إثباتًا لا بتقدم أحدهما على الآخر؛ لأن الأزل لا يصح فيه التقدُّم والتأخُّر، ولكن الفرق بينهما أن أزلية الأعيان هي دوام وجودها بدوام الحق مع افتتاح الوجود عن العدم بكونها من غيرها، وأزلية المبدع نعت سببي ينفي الأوليَّة بمعنى افتتاح الوجود عن العين؛ لأنه عين الوجود، فافهم.

صدق فيما أخبرهم به، ولو كان كشفهم عن عين اليقين، وحق اليقين[1] لما انقلب الحال، وإنما كوشفوا في عالم الخيار، أو أخبرهم الوسواس؛ فظنُّوا ما ظنُّوا.

والله تعالى يقول الحق، ويهدي السبيل، ومَن أصدق من الله قيلاً، فمَن وجد خيرًا؛ فليحمد الله، ومَن وجد خلافه؛ فلا يلومنَّ إلا نفسه، جعلنا الله وإياكم من الراسخين في العلم، والمتمكنين في الكشف، وعصمنا من الغوائل النفس، والشيطان، والتغيُّر في العلم والعرفان، إنه هو الهادي إلى منـــزل اليقين، والسائق على منهل التمكين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لطيفة: قيل لي ليلة الجمة السابع عشر من شهر مولد النبي من سنة ١١٣٠ من الهجرة: الإنسان أصل المبنى: أي الأصل الذي هو المبنى، فإن الأصل هو الذي يُبنى عليه الفرع، كالمبنى الذي يُبنى عليه البناء، وكاللفظ يُبنى عليه المعنى، ونحو ذلك، أو المعنى أن الإنسان هو أصل البناء، فالمبنى مصدر بمعنى البناء، وذلك أن أول الأرواح؛ هو العقل، والروح المحمَّدي، كما أن أول الأجسام؛ العرش، وما يليه إلى أن ينتهي الأمر إلى المولّدات، وإلى عالم الإنسان.

ففي الكلام معنيان:

الأول: إن أُس الكائنات؛ هو العقل الذي ظهر في صورة الروح أولاً، ثم في صورة النفس، ثم في صورة الجسم، ثم في صورة تعيُّنه المخصوص، ودار في العوالم

---

(١) قال الشيخ القاشاني في «لطائف الأعلام»: اليقين هو السكون والاطمئنان لما غاب، بناءً على ما حصل به الإيمان، وارتفع الريب عنه، فإذا حصل السكون والاطمئنان بما غاب بناءً على قوة الدليل بحيث يستغني بالدليل عن الجلاء فذلك علم اليقين، وإذا حصل السكون بالاستغناء عن الدليل لاستجلاء العين بشهود الفعل الوحداني الساري في كل شيء فذلك هو عين اليقين، والإشارة بالمظهر الكوني في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٧]، والرؤية لا تكون إلا في المظهر، فإذا استقرَّ فجر التجليات أولا ثم طلع شمس التجلي الذاتي ثانيًا فذلك هو حق اليقين.

وقال سيدي محمد وفا ﷺ وعنَّا به: اليقين هو تمييز العلم الذي لا يحتمل النقيض، وحقيقته: تصورٌ يُنـــزل المسموع منـــزلة المشهود، وغايته: استغناء النفس عن كل مسموعٍ بما حصل به في داخل الذهن؛ لأن عين الجمع لا يعتبر الخارج؛ لاستغنائه عنه، فلا يفتقر إلى المطابقة، الأول علمه، والثاني عينه، والثالث حقه اهـــ.

دورًا كليًا وجزئيًا؛ ليحرز كمال كل موطن من المواطن، ويتحلّى بجمال كل عالم من العوالم.

والثاني: إن الغرض الأصلي من الخلق: أي ما يدور عليه الحكمة والمصلحة؛ هو الإنسان؛ لأن به يحصل الجلاء والاستجلاء التام لظهوره بحقائق اسم الله الأعظم، فكان نتيجة الظهورات، وثمرة شجرة الكائنات؛ والمراد من إخبار هذا المعنى مع ظهوره؛ تذكير النعمة الإلهية في ذلك، والحمل على الشكر، والترغيب فيما يحصل به الكمال الإنساني من الوسائل، والأسباب، والتنفير عن البطالة، والفتور، والاحتجاب، أيقظنا الله تعالى وإياكم يا أولي الأبصار، وجعلنا من الأنوار، وأهل الأسرار.

لطيفة: وقيل لي ليلة الجمعة السابع عشر من شهر مولد النبي من سنة ١١٣٠ من الهجرة: بالبرِّ يستعبد المعاني، البرُّ هو التوسُّع في فعل الخير؛ لكن أطلق على الاعتقاد، وأكمل فرضًا كان أو نفلاً، وعلى الإحسان إلى الوالدين، ونحو ذلك.

وأُريد به هاهنا نوافل العبادات أينما كانت، فإن بالنوافل يحصل القرب الإلهي: «**وَمَن تقرَّب إليه تعالى شبرًا؛ تقرَّب الله إليه ذراعًا**»[1]، كما ورد في الحديث القدسي.

وذلك القرب[1] عبارة عن الفيض الكثير، وإليه الإشارة بالمعاني في هذا المقام؛

---

(١) رواه البخاري (٦/٢٧٤١)، ومسلم (٤/٢٠٦٧).

(١) قال الشيخ القاشاني في القرب: هو القيام بالطاعة، والقرب: هو دنو العبد من الله تعالى بكل ما يعطيه من السعادة، لأقرب الحق العبد، فإنه من حيث دلالة: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، عليه قرب عام سواء كان سعيداً، أو شقياً، فكل عبد، في كل وقت، تحت حكومة الأسماء الإلهية قرب، من حيث تجلي اسم إلهي وبعد من حيثية اسم آخر، فالقريب من المضل فلا بعيد من الهادي، والعكس، فكل اسم يعطي قربا، فالسعادة ترجع إلى هذا القرب المصطلح عليه، وقد يكون للحق قرب خاص من العبد زائد على قربه العام.

كما قال تعالى لموسى وأخيه عليهما السلام: ﴿قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾، فإن هذه المعية، معية العناية بالحفظ والكلاءة، لا المعية العامة، فقرب العبد من الحق بكل ما يعطي من =

فمعناه: إن الإنسان إذا توسَّع في نوافل العبادات؛ استعبد المعاني، والحكم، وقيد الرقائق، واللطائف، وحكم على عالم الملكوت حسبما يساعد حاله في نوافله.

كما أنه بالبر والإحسان يستعيد الحر: أي يصير الحر بسبب الإحسان؛ كأنه عبد المحسن، والمحسن في الحقيقة؛ هو الله تعالى، فالكل من المحسن، والمحسن إليه من عبيد الله تعالى، جعلنا الله وإياكم من المشغولين بالنوافل، والفرائض، وجعلنا من المقبولين عنده، والفائزين بأسرار ذاته، وصفاته، وأفعاله، والمنوَّرين بأنوار جماله.

اعلم أن كلاًّ من الغيبة، والخطاب، والتكلُّم في هو وأنت وأنا، نسبة من نسب الكلام والكل بمعنى واحد، وإنما التفاوت بحسب المقام الذي يقتضي التخصيص، فقولهم: أنا الحق، وهو الحق، وأنت الحق على نسق واحد في المعنى[1].

=

السعادة يتبع له قرباً خاصاً من الحضرات بالحقية، كما قال ﷺ عن ربه تعالى: «من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعا، ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، ومن أتاني يسعى أتيته هرولة».

والقرب على قسمين: علمي، و عملي.

فالعلمي: أعلاه العالم بتوحيد الألوهية، وهو على نوعين نظرى، وشهودي. والعملي: على نحوين:

قرب بأداء الواجبات: وهو القرب الفرضي كما قال ﷺ عن ربه تعالى: «ما تقرب المقربون بأحب إليّ من أداء ما فرضته عليهم».

وقرب نفلي: كما قال ﷺ عن ربه تعالى: «لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت له سمعاً وبصراً». ومداد العمل المقرب:

إما من الباطن إلى الظاهر، فأعمه وأتمه الإيمان.

وإما من الظاهر إلى الباطن، فأعمه وأتمه الإسلام.

وإما من القلب الجامع بين الظاهر والباطن، فأعلمه وأتمه الإحسان.

فمقتضى القرب النفلي: تجلى الحق للعبد متلبسا القابلية المحدودة.

ومقتضى القرب الفرضي: تجلي الحق له، وظهور العبد بحسب الحق، غير محدود، ولا متناه.

فالتمييز بين قوسي الحقانية والعبدانية في القرب المفرط إن كان خفياً يعبر بـــ «قاب قوسين».

وإن كان أخفى يعبر عنه بـــ «أو أدنى».

ومن هنا قال قدس سره: وقد يطلق على حقيقة: «قاب قوسين»، فالتجلي بحكم هذا القرب، إن كان في مادة وصورة، تتبعها القرب في النسبة المكانية، في مجلس الشهود، وإن كان في مجلس الشهود، وإن كان في غير مادة، كان قرب المنـــزلة والمكانة، كقرب الوزير من الملك .. فافهم.

(١) والحاصل أن أهل طريق الله المحققين قد أجمعوا على تعظيم نواميس الشريعة المحمَّدية وردع مَن

=

=

خالفها من الفرق الضَّالة العنادية، وكلما قدمنا من عباراتهم فهو يسيرٌ من كثير، وغالب من يقع في الشطح من المحققين؛ لكونه أسكره شهود مقام الجمع، وهو عبارةٌ عن شهود حق من غير خلق، فهو سكرٌ وصاحبه سكران، لا يعتد بكلامه؛ لأنه مغلوبٌ مقهورٌ تحت سلطان حاله، فإن الصاحي يعذره ولا يقبل منه، فإنه ربما غلبه شهود الحق، فصار يقول: ما في الكون إلا الله وما في الجبة إلا الله.

ويقول: أنا الحق ولا يرى كثرة ولا تعددًا، ولا يدرك أن ثمَّ خلقًا؛ لنفوذ بصر بصيرته من شهود الخلقيَّة إلى شهود الحقيَّة، ولشدة فرط ظهور هذا المشهد لعينه القلبية ظن اتحادًا ووصلا، فنفى وجوده ووجود الخليقة.

فهذا إذا صحى من سكره رجع مقهقرًا لمقام العبودية، وأقرَّ واعترف بوجود الخلقيَّة وإذا سُئل عن مقالته أنكرها، فإن نفى الخلقيَّة وعدم إثباتها كفر لمخالفة المنكر لنص الكتاب.

فهذا حال المحق، وأمَّا حال المبطل الذي يتشبَّه بمن هذا حاله، وما ذاق منه قطرة وما نظر من نظراته نظرة؛ فهو كلابس ثوبي زور، وقاتله ورادعه ومؤدِّبه مأجور، مع حق أن الأول ولو كان محقًا فكذلك، فكيف مَن يدَّعي مُلك ما ليس له بمالك، نسأل الله تعالى العافية من ذلك، فإن الشرع الشريف ليس له إلا الظاهر، والله يتولى السرائر والغالب على هؤلاء الزنادقة أنهم يدَّعون أنهم لا يشهدون إلا الله ولا يثبتون كثرة أصلاً.

ويقولون: إن الوجود واحد وما ثمَّ إلا واحد، ونحن لا نرى إلا الله مع أنهم يشاهدون الكثرة في أنفسهم والعجز والافتقار، والله تعالى منـــزَّه عن ذلكن ويزعمون أن وجودهم المقدَّر المفروض المحدود ووجود هذه الأشياء من حيث هي أشياء مقدَّرة مفروضة هي وجود الحق تعالى، وتقدَّس جناب الحق تعالى عن صفات الخلق فهذا كفرٌ صريح.

وأمَّا قول أهل الحق القائلين بوحدة الوجود على الوجه الأحق، فإذا قالوا: ما في الوجود إلا الله مثلاً فمرادهم من حيث القيومية فإن به تعالى قيام كل شيء وهو القائم على كل نفس بما كسبت ومن حيث تجلّيه وإمداده وتولّيه، لا أن هذه الصور الحادثة الفانية المقيَّدة المحدودة وجوده، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وتختلف أذواق أهل هذه المشاهد، فمنهم مَن يكون ذوقه صديقيًّا، فيقول: مَا رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله.

فأولاً رأى قيوميَّة الحق وتجلّيه على الشيء، ثم رأى الشيء ولم ينفه ولو نفاه؛ لكان سُكرًا، فكان مشهده كاملاً حيث جمع بين شهود الحق والخلق في آن، لكنه غلب عليه شهود الحق، فرآه أولاً ثم رأى الخلق.

ومنهم: مَن يكون مشهده فاروقيًّا، فيقول: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله فيه: أي متجلّيًا بقيوميته عليه، وهذا المشهد دون الأول من حيث الذوق.

=

=

ومنهم: مَن يكون مشهده مشهدًا عثمانيًا، فيقول: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله معه.
ومنهم: مَن يكون مشهده مشهدًا عَلويًّا، فيقول: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله بعده.
وثمَّ فوق هذه الأذواق أذواق كثيرة لا حدَّ لها ولا نهاية، قد ذاقها الأصحاب والأحباب، ساروا على منهج السنَّة والكتاب.
ولقد سألت شيخنا الهمام سيدي الشيخ عبد الغني حفظ الله وجوده للأنام عن مقام المعرفة الخاصة، هل يكون بدون جدٌّ واجتهاد.
فقال: لا، فقلت: ولا بد فيه من الذوق والوجدان، والقال لا يكفي دون الحال.
فقال: نعم، فقلت: وكيف السبيل إلى طريق الذوق والوجدان.
فقال: (بملازمة الطاعات ونوافل الخيرات والاشتغال بالله والإقبال عليه، كما نصَّت عليه الأشياخ.
فبهذا يحصل الذوق لطالبه أو ما هذا معناه، وسألته عن أهل مقام الجمع.
فقال: أولئك قومٌ سُكارى، فالسكران لا يعول على قوله فإنه يقول: أرى كذا وكذا والصاحي ينكر قوله؛ لعلمه أنِ ما يدَّعيه غير صحيح في نفس الأمر، وإنما تخيَّل لفرط سكره، إن الأمر كما أخبر وليس كذلك؛ بل الأمر كما هو عند الصاحي فإن السكر حال مدهش يُذهب بعقل صاحبه فلا يعتد بكلامه) بما معناه.
فقول السكران: ما في الوجود إلا الله حق من وجه؛ لأن الوجود الحادث قائمٌ به تعالى، فالوجود على الحقيقة له؛ إذ قيام الكل به، لكنه لما أنكر وجود الخلقيَّة بالكليَّة.
قلنا: بسكره، ورددنا قوله: فإنها ثابتة حسًّا وشرعًا وعقلاً، وقد يقول الصاحي مثل قول السكران، لكنه يعني من وجه دون وجه، فمن حيث أن الكل هالك بالنظر لنفسه فإن الشيء لا يعطى لنفسه وجودًا، فإنه معدومٌ بالنظر لها أيضًا، وأمَّا بالنظر؛ لمفيض الوجود عليه فهو ثابتٌ به باقٍ بإبقائه.
فقول سيدي محي الدِّين قَدَّس الله سرَّه: (فلولاك ما كنَّا): أي من حيث أن وجودنا بك، ولولاي لم تكن: أي آثار أسمائك الحسنى، فإن الأسماء تطلب الآثار، فإن المانع يطلب من يمنعه، والمعطى كذلك ولا ظهور للآثار إلا بظهور المؤثرات.
ولهذا لم يكن ظهور الكون إلا عن الأسماء وطلبها، كما ذكره الشيخ في «إنشاء الدوائر»، وفي «عنقاء مغرب».
وأمَّا بالنظر إلى الذات العليَّة المتعزز درك كنهها بالكليَّة؛ فهي مُطلقة غنيَّة حتى عن الإطلاق والكل في قيد وفي وثاق، فلا تعلّق لها بشيء إلا من حيث الإمداد، ولا يتعلق بها شيء إلا من حيث الاستمداد، والأسماء الحسنى هي الوسائط التي لولاها كنَّا من البسائط.
ثم قال: «فكنت: أي كنـــزًا مخفيًّا» ولم تزل على ما كنت عليه إلى الأبد في الأزل وكنَّا بك أعيان ثابتة في العلم ثم أبرزت صورة ما في علمك لا الذي في علمك، فإنه قديمٌ لا تحلّه الحوادث، وهذا

=

وقد قال تعالى من الشجرة أنا الله، والإنسان أفضل منها، فإذا قال أهل التجلّي: أنا الحق؛ فهو في مقابلة أنا الباطل.

ولا شك أن الوجود كله حق، ولا بطلان إلا بالإضافة؛ كبطلان مظاهر اسم المضلِّ بالنسبة على حقيَّة مظاهر اسم الهادي دلَّ على ما قلنا قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾ [الحجر:٨٥].

فالكل؛ هو الحق المخلوق به، وهذا الحق لا يفنى ولا يزول أبدًا؛ لأنه تجلى إلهي أحدي سار في جميع الكائنات كما دلَّ عليه قوله تعالى:

﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص:٨٨]: أي كل شيء من الأشياء

=

معنى قول الشيخ الأعيان الثابتة: أي في العلم ما شمت رائحة الوجود: أي في العين.

ثم قال: والحقيقة لا تدري إلا بمنحة منك وكشف عنها، فهناك يكون الإدراك بك وإذا كان بك فلا إدراك، أو يكون أراد بالحقيقة الحقيقة الإلهية.

وهي كما قال ﷺ: فالأنبياء والمرسلون لايدركون كنه الذات العلية؛ بل عمَّ بالنظر إلى الكنه في حيرة جليَّة، وأمَّا التجليات الواقعة في الدنيا والآخرة فلا تخرج عن رتبة التقييد والتجليات المطلقة، فلا حظَّ للعبد فيها إلا أن رتبة التقييد وإدراك التجلّي المطلق لا يتخلص للعبد على ما حققه الشعراني ﷺ في «ميزان الذرية» إلا عند فنائه لا في حال بقائه مع الحق، وحينئذٍ فما رأى إطلاق الحق إلا الحق فافهم.

قال: وإيَّاك والغلط، فإنه لا حلول ولا اتحاد ولا يلحق عبد رتبة الحق أبدًا ولو صار الحق سمعه وبصره وجميع قواه، فإن الحق تعالى قد أثبت عين العبد معه بالضمير في قوله في الحديث القدسي: «كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»، إلى آخر النسق، فإن قيل أن كلام الحق تعالى قديم.

وقد قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤].

وهذا يُشعر بأنَّا معه في الأزل، كما يقول بذلك الفلاسفة.

قلنا: التحقيق أن العالم قديم في العلم الإلهي، حادث في الظهور.

فشهود الحق في رتبة التقييد، يخص الحق تعالى به أفراد العبيد، ولشهود الحق علامة فمن شهدها في نفسه كان في قوله صادقًا، وإلا كان مبطلاً لدعاويه الكاذبة موافقًا.

قال سيدي محيي الدين ﷺ في باب «**الوصايا**»: «اعلم أن علامة مَن يدَّعي أنه يشاهد الحق تعالى إذا عكس مرآة قلبه إلى الكون؛ يعرف ما في ضمائر جميع الخلق ويصدق الناس على ذلك الكشف».

الموجودة في العين هالك من حيث تعيُّنه الخاص إلا الوجه الذي يلي الحق؛ وهو أحد وجهي الحقيقة الكونية التي هو الإطلاق على ما ذهب إليه أهل التفسير والتأويل، وعلى هذا يدور سرُّ قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥].

وكل من العرش والشرع مقلوب الآخر، فكما أن الرحمة العامة مستوية على العرش المجيد العظيم؛ فكذا الأمر التكليفي الشامل مستوية على الشرع الشريف، ومحلُّه في الحقيقة هو الإنسان الذي هو الكرسي؛ لأن كلاًّ من الأمر والنهي إنما ظهر في العرش إجمالاً، ثم في الكرسي تفصيلاً، والروح[1].

فلك الرحمة والقلب، فلك الحياة، فكل منهما استوى على عرشه، فكان الإنسان صورة العالم من كل وجه، ومَن نازع في الذي ذكرناه؛ فعليه كلامه؛ لأن الإنكار من سوء الفهم؛ وهو حال العقل القاصر، والقلب السقيم، رحمنا الله وإياكم برحمته مطلقًا، وجعل إيماننا وتصديقنا يقينًا حقًّا.

قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَى﴾ [الأنعام:٣٠].

هذه المقولة إمَّا روحانية؛ فتكون بلسان الروح كما في البرزخ بعد الممات، فإن الأرواح تتكلّم في عالم البرزخ باللسان المناسب لها كما في عالم الخيال في الدنيا

---

(١) قال سيدي علي وفا: والاستواء هو التجلّي التام، ومنـزلة الناطقة من هذا الجوهر الروح منـزلة قواه من الجوهر الجسم، فإذا نفخ الروح الحيوان في الجسم، ونفخ الحق الناطق في الروح الحيوان، استوى الرحمن على العرش، وتعلّق كل منفوخ بمحله كما تقدم، لا يتصل بذلك المنفوخ فيه أمر إلا اتصل بالمنفوخ، فلا يحس الجسم محسوسًا إلا أدركه الروح الحيوان تعقُّلاً وتخيلاً وتوهمًا، وأدركه الروح الناطق عقلاً وخيالاً، واتصل بالرحمن كشفًا وتمييزًا، وهذا عروج إلى الرحمن على المدرجة التي نزل من عنده عليها، فلا يظهر محسوس إلا عن تجلّي الرحمن في الناطق، وبالناطق في العرش، وظهور ذلك المتجلى به في القوى.

فما من جسمٍ إلا وللروح به تعلق بحسبه، وللناطق بالروح تعلق مناسب لذلك، وللرحمن في الناطق ظهور مناسب لذلك، وما كان كل محسوسٍ إلا بأن ظهر الرحمن به في الناطق، فظهر به الناطق في العرش، فظهر به العرش في القوى الجسماني، فظهر في الحس الذي هو مرآته، هذا حكم هذا النظام في هذا المقام.

معنوية؛ فتكون تصويرًا لما يدلُّ عليه مقامهم من الإقرار والتصديق.

وإمَّا حسِّية على تقدير التمثيل في صورة الذَّر، فإن الشيء إذا تمثَّل في صورة أخذ حكم تلك الصورة؛ كجبريل عليه السلام كان يتمثَّل على صورة دحيه، فإنه وإن لم يخرج عن حقيقته الملكية حينئذ إلا أنه كان يأخذ حكم البشر في التكلُّم ونحوه.

فالمتروحن يتكلَّم بلسان باد، ضلَّ فيه من الصورة، وقول الملائكة: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا**﴾ [البقرة: ٣٠] الآية[1]، محمول على واحد من المعاني المذكورة الثلاثة، وأيًّا ما كان فقولهم ثابت محقق لا ريب فيه، فيكون عدوًا لهم في الدين عن مقتضاه من غلبة الحجب الكونية، وخروج الطبع عن الاعتدال، وذلك الانحراف أيقن مقتضيًا بمفهومهم الذاتية، وما كلمهم الله فإنه الخلاف.

لما سألوا عنه بلسان الاستعداد، ثم إن السؤال الإلهي كان مبدوء بالهمزة حيث

---

(١) قال سيدي علي وفا: ﴿**قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾ [البقرة: ٣٠]، فإن شئت ذلك فلك الأمر كله، ﴿**وَنَحْنُ**﴾ عبادك ﴿**نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾ [البقرة: ٣٠]، مع جعلك فيها ذلك، فكيف وأنت لا تجعل فيها خليفة، إما منك فيما تفعله من خلف حجاب سببيته، وإما منا ونحن عبادك الذين فطرتهم على طاعتك، وليس بخليفة إلا من قام بحكم مستخلفه.

فكلامهم هذا تفويضٌ وتبرؤٌ من الاعتراض الذي أشعر به إخبارهم، قبل إظهار المخبر به، كما يفعل بمن توطَّن على حصول ما لا يختاره، فمن فهم من هذا الخطاب اعتراضًا أو تعجُّبًا أو نحو هذا، فليرجع عنه لما ذكرنا، فهو أولى بحفظ حرمة المكرمين، ويمكن أن يكونوا تعرضوا بذلك؛ لأن يُجعلوا جنود هذا الخليفة المنوَّه بذكره، ويؤذن لهم في النـــزول معه عن مصافهم السمائية إلى محل خلافته، تعظيمًا لمن عظمه ربهم، فكأنهم قالوا: ما ثَمَّ من يكون جندًا لَه موجودًا إلا الجن الشياطين، وهم مفسدون سُفَّاكٌ للدماء، ﴿**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾ [البقرة: ٣٠].

فتجعل أولئك جنده، أو تجعلنا نحن جنده، ﴿**قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٣٠]، فخلق لَه جنودًا مضافة للفريقين.

وعلى كل تقديرٍ فهم لم يصفوا خليفة ربهم بالإفساد وسفك الدماء، وإنما وصفوا به من يتأتى ذلك منه، وفي الخلافة كف إفساده، وقطع الخصومة الحاصلة بسبب فعله، وكيف يذموا من وقعوا له بأمر الله لهم ﴿**سَاجِدِينَ**﴾، وأنبأهم بأسمائهم التي بها صار لكلٍّ منهم مقام معلوم.

قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] [1] لأنه المبدئ الأول، والجواب الخلقي كان مبدوء بالباء حيث: ﴿قَالُواْ بَلَى﴾ [الأنعام:٣٠]: لأن الباء هو التعيُّن الأول، والنقطة تحتها؛ إشارة إليه للتمييز بين مفيض الجود، والمستفيض؛ ولذا قال مَن قال: «أنا النقطة التي تحت الباء»[2].

---

(١) فأخذ الله الصور من ظهر آدم، وآدم فيهم وأشهدهم على أنفسهم بحضرة الملأ الأعلى والصور التي لهم في كل محل؛ لقوله تعالي: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:١٧٢].

فالإنسان عالم بجميع الأمور الخفيَّة فيه من حيث رَوْحه المدبِّر، وهو لا يعلم أنه يعلم، قال تعالى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

فهو الناسي والساهي، والأحوال والمقامات والمنازل تذكره، وهو رجلٌ يدري ولا يدري أنَّه يدري.

ومن هذا المقام قال ﷺ: «**الحكمة ضالة المؤمن**».

وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥].

(٢) هو سيدنا الشبلي قدس الله سره، كأنه يقول: بي قام كل شيء. فوجوده تعالى بذاته، وصفاته كلها قائمة بذاته كوجود العالم كله علوه وسفله به، وقائم بقيوميته، وتدلُّ أيضًا على بهائه وبلائه لأنبيائه وأحبائه، وفيها وجوه متعددة من الاستعانة والإلصاق، والملابسة والتبعيض، والظرفية والسببية كلها تعطي البقاء.

ولذا قال الشيخ قُدِّس سرَّه: فيها دعوى من حيث بقاء الرسم، ولا تعطي الفناء مثل اللام فإذا قلت: «كتبت بالقلم»، فقد أثبت نفسك كاتبًا واستعنت على الكتابة بالقلم، فالأشياء كلها ظهرت باستعانة الباء، وهو السبب الذي عنه وجدت ومنه ظهرت وفيه بطنت، وإليه إشارة الشبلي قُدِّس سرَّه لـمَّا قيل له: أنت الشبلي فقال: أنا النُّقطة التي تحت الباء، وتعطي الإلصاق أيضًا كما في «مررتُ بالمسجد»، فكما قال الله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة:١٧]، فألصق الذهاب بالنور كإلصاق المرور بالمسجد، والنور هو الباء والباء نور السماوات والأرض وهو الحق الذي قامت به، وتعطي الظرفية كما في «صليت بالمسجد». وكنا صادرون من فوقها، وكنا موجودين فيها قبل وجود أعياننا، وأمَّا إعطائها التبعيض؛ فلأن الذات وإن كانت واحدة لها وجهان الغيب والشهادة، والظهور والبطون، والأول والآخر وغير ذلك، وكل من هذين الوجهين يصح أن يُقال: أنَّه بعض الذات، فإن كشف الذات من حيث الشهادة لا من حيث الغيب، والعلم بها من حيث الغيب لا من حيث الشهادة، فلا يُعَايَنُ من الذات إلا الوجه الواحد الذي يدلُّ عليه الذي ظهر عليه، ويُغيب عنه الوجه الآخر، فلا يشهد شاهد إلا بعض الذات بهذا الاعتبار، وتكون الباء زائدة كما في ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ [النساء:٧٩].

وهو إشارةٌ إلى وجود العبد بما تقتضيه حقيقة العبودية.

ونقل الشيخ ﷺ عن الشيخ أبي مدين قُدِّس سرُّه أنه قال: «**ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الباء عليه مكتوبة**»، فالباء المصاحبة للموجودات من حضرة الحق في مقام كل شيء، فظهر في كل موجود =

[سورة آل عمران]

قال الله سبحانه: ﴿**يَا مَرْيَمُ**﴾ [آل عمران:٤٣].

قوله ﷻ: ﴿**يَا مَرْيَمُ**﴾ [الآية:٤٣]؛ إشارة إلى أن النفس المطمئنة، الصدِّيقة، الراضية، المرضية، الفانية، الباقية؛ ولذا مَن رأى في المنام مريم ابنة عمران؛ دلَّ على أن نفسه تلبَّست بلباس الصدِّيقية التي هو بمنـــزلة الشعار بعد التلبُّس بلباس الصلاح الذي هو بمنـــزلة الدِّثار.

فالأول: لباس الحقيقة.

والثاني: لباس الشريعة.

وكل مَن له اللباس الأول؛ فله اللباس الثاني؛ لأن كل حقيقة ردَّها الشريعة؛ فهي ردٌّ بدون العكس: أي ليس كل مَن له اللباس الثاني متلبِّسًا بالأول بالفعل؛ لوجود الحجاب، وإمَّا بالقوة ففي كل ذرة ما في الكل؛ لأن الأسماء الإلهية يشتمل بعضها بعضًا، وإن لم يكن حكمه ظاهرًا بالفعل.

قوله ﷻ: ﴿**اقْنُتِي لِرَبِّكِ**﴾ [الآية:٤٣].

أراد بالقنوت: دوام الطاعة تطبيقًا للاسم المسمَّى؛ لأن مريم بمعنى العابدة، والأسماء والكنى تنـــزل من صوب السماء، فلها تأثيرات في المسمَّى؛ ولذا نهى عن الأسماء التي يُتطيَّر بها، وتدلُّ على المعاني الخسيسة؛ كالحقير، والمضطجع، والكليب، والمفتون، ونحو ذلك.

=

وهذا سرٌّ ابتداء القرآن بالباء بل ابتداء كل سورة بالبسملة، فافهم.

فالباء ملكوتيَّة، والنقطة جبروتيَّة، والحركة شهاديَّة، وأمَّا الألف المضمرة في بسم الله فهي إشارة إلى الحقيقة القائمة بالكل، واحتجب رحمه منها بالنقطة التي تحت الباء ثم وجدنا الألف المحذوفة في: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ [العلق:١] قد ظهرت، ولو لم تظهر ما علم المثل حقيقته ولا رأى صورته وسؤدته؛ وذلك لأنه تعالى أمر بتنـــزيه المجلى بتجلّي المثل فقيل له: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**﴾ [الأعلى:١] الذي هو مُغذِّيك من المواد الإلهية، فهو ربك ولا طاقة لها على ذلك إلا بالباء.

ولا بد من امتثال الأمر، فلا بُد له من ظهور الألف التي هو الفاعل القديم فيتيقَّظ عن سِنة الغفلة، وافهم فإني أدرجت لك إن كنت لب لب المعارف فيه.

ثم إن دوام الطاعة: إشارة إلى مرتبة الشريعة؛ وهي ما يتعلّق بالظواهر، وما يُعالج بالأبدان، والحواس الظاهرة، وهي ذرائع الكمالات الباطنة.

فكل ما هو وسيلة إلى الكمال في نفسه؛ كعلم الظاهر، والعمل به؛ فإنه وسيلة إلى العلم اللَدني على ما دلّ عليه قوله: «**مَن عمل بما علم؛ ورّثه الله علم ما لم يعلم**»(١).

فمَن لا عمل له بالشريعة على الدوام: أي إلى آخر العمر فهو الذي يُقال له: الملحد، فإن دعا إلى إلحاده؛ فهو مقتول بسيف الشريعة والحقيقة جميعًا؛ لأن الله تعالى ما جعل التجليّات الوجودية إلا للتجليّات الشهودية(٢).

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/١٥).

(٢) ولمّا كانت الشرائع مقدمات علميات وعمليات، وعلمها يفيد معرفة وظائفها، والعمل بوظائفها يزيل الحظوظ النفسانية، ويميت الشهوات البدنية، ويقطع الروابط العادية، ويجرد الإنسانية، ويكشف الحضرة الرحمانية: وهي حضرة الحق، وحضرة الحق: هي الحضرة الجامعة لحقائق الأكوان، وهي بد كل شيء ووجوده، وهي الماهية التي توجد فيها كل ماهية من حيث التقويم والتتميم، قال: فيها نتيجة الشرائع.

وتقول: علم الشريعة: مقدمة العمل بوظائفها، والعمل بوظائفها: مقدمة لرضوان الله يقيم العبد في حضرته، فعلم الشريعة، والعمل بها؛ يقيم العبد في حضرته، فحضرته هي نتيجة الشرائع، وحضرته فيها كل شيء، فهي الحقيقة الجامعة.

ونقول: الشريعة: تحمل لرضوان الله، ورضوانه؛ صفته، والصفة لا تفارق الموصوف، والموصوف: هو الله، فالشريعة تحمل إلى الله؛ فالله هو نتيجة الشرائع بالوجه الذي ذكرنا.

ونقول: الأعمال الشرعية إذا عُمل بها على التمام؛ تفيد التخلق بالأسماء الحسنى، والمتخلق بالأسماء إذا تجوهر بها؛ تكون الأسماء ذاته وروحه، والأسماء صفات الله، وصفاته غير زائدة على ذاته، فالمتخلق بالأسماء ليس بزائد على ذات الله، فالظفر بالحق والاتصال به هو نتيجة الشرائع.

ونقول: أول وظيفة من وظائف الشريعة: هي كلمة لا اله إلا الله، وتتضمن أن لا فاعل إلا الله، فكل موجود في الكون الله أوجده من حيث هو فاعله، والفاعل لا يفارق مفعوله، وهو معه بالإيجاد والإبقاء، ولا وجود للشيء إلا به، فهو الأصل الضروري في وجود كل شيء، ولكل شيء حقيقة، وهو وجوده الذي هو به ما هو ووجود كل شيء، الذي هو به ما هو هو به، ومنه وعنه وإليه، هو حقيقة كل شيء وماهيته ووجوده؛ فالله: هو الحقيقة الجامعة، كما تقدم من قول سيدنا رضي الله عنه.

=

فمَن طلب الثمر بلا شجر، ولا ورق، والسمن والزُبْد بلا حلب، ولا لبنٍ؛ فقد ضرب حديدًا باردًا، وخرج عن حدِّ الحكمة، وصار أكفر من الحمار.

وأورد الاسم الرب؛ لأن الطاعة مما يوجبه الربوبية، فإن الذي يربِّي عبد لا بد وأن يكون مشكورًا، كما قال ﷺ: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»(١).

وقدَّم مرتبة الشريعة التي هي مرتبة الطاعة؛ لأنها مِفتاح باب الحقيقة، فلن يدخل هذا الباب أحد إلا بهذا المِفتاح، وعليه جميع الأنبياء والأولياء مَن طلبه بغيره؛ بقى خارج الباب، ولم يكن على طائل أصلاً.

قال ﷻ: ﴿وَاسْجُدِي﴾ [الآية:٤٣].

إشارة إلى مرتبة الحقيقة؛ فإن السجدة عبارة عن الفناء في الله؛ فكأنه تعالى يقول: يا مريم اعملي عمل الشريعة؛ وهي الطاعة بالبدن، واعملي عمل الحقيقة(٢)

=

فإذا كان هو حقيقة كل شيء، فالأشياء كلها هي به على ما هي عليه، فهو الحقيقة الموجودة في كل حقيقة، وهو الذات المستحقة بذاتها لكل ذات، فهو مع كل شيء بوجوده؛ فلا غيبة ولا حجاب، والغيبة والحجاب: هو الجهل بهذا الاتصال والاستحقاق الذي ذكرناه، والغفلة عن ملاحظته وشهوده في كل شيء؛ بل شهوده ولا شيء معه.

وعلم الشريعة؛ يزيل الجهل المذكور، ووظائفها؛ ترفع الغفلة، وتنبه على الحضور مع الحاضر في كل حضور، فالحق هو نتيجة الشرائع، وعلوم الشريعة بهذا الوجه: هي علوم التحقيق، فاعلم ذلك.

فإذًا حقيقة لا اله إلا الله: ألا موجود إلا هو، وما خلا الله باطل، والوهم يشعر بغيره، والوظائف الشرعية تذكر بالله، وذكره يزيل الوهم، ويمحو خبر الغيرية، ويقيم العبد في الحضرة الحاضرة في حضوره، فالحق نتيجة الشرائع كما قال، وهذا الكلام في نتيجة الشرائع، والحقيقة الجامعة، وعلوم التحقيق قد تخلص، فافهمه.

(١) رواه البخاري (٤/١٨٣٠)، ومسلم (٤/٢١٧١).

(٢) قال السيد مصطفى البكري في السيوف الحداد: اعلم أن الشريعة هي الباب واللباب، التي تهدي إلى صواب الصواب، وأول واجباتها معرفة رب الأرباب على طبق السُّنة والكتاب، وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام: معرفة عوام، وخواص، وخواص الخواص.

فالأولى: معرفة ما يجب وما يجوز وما يستحيل في حقه تعالى، وكذلك في حق رسله، وهذه واجبة على كل مكلفٍ؛ لئلا يشتبَّه عليه الحال فيقع في الخيال، وليسلم من ورطة التقليد في التوحيد.

=

قال صاحب الجوهرة: إذ كل من قلَّد في التوحيد إيمانه لم يخل عن ترديد، وكل من طلب الثانية ولم يحكم الأولى كان جاهلاً بالله؛ فإنها أولى وأولى، ويجب على صاحب هذه المعرفة أن يطلب العلم الواجب في حقّه؛ ليكون ممن يعبد الله على بصيرة، وإلا كان ما يهدم أكثر مما يبني.

ففي الحديث: «ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من غير عالم».

والعالم العامل هو الورع المشار إليه بحديث: «ركعتان من رجلٍ وَرِعٍ أفضل من ألف ركعة من مخلط». رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس.

وإلا فمعً الجهل أين الورع.

والثانية: معرفة آثار الأسماء والصفات، وظهور أنوار تلك الآثار في القلب؛ ليخلص صاحبه من الآفات، وطريقها تسير الأوقات بالعبادات، وتزكية النفس وترك المخالفات، والجلوس على بساط الفقر والانكسار، وشغل القلب بمراقبة العزيز الغفار، والاقتداء بأستاذ شهدت بصحة عقيدته وكماله العارفون، وأقرَّت بحسن منازلاته ومواجيده الواصلون، ليسلك به مقام التعلق، ويرقيه إلى التحقق، ويوصله إلى التخلق، وهناك يدرك الأسرار بطريق المنازلة والذوق، ويأكل لا من تحت الأرجل بل من فوق، وطريق التصوف عند السادة الصوفية، كله تخلق بالأخلاق المصطفوية، فمن زاد تخلقه زاد تصوفه، والتخلق يحتاج إلى السلوك، وهو يفتقر إلى المرشد العارف.

قال الشعراني ﷺ في الميزان: أما سلوكك بغير شيخ فلا يسلم غالبًا من الرياء والجدال والمزاحمة على الدنيا، ولو بالقلب من غير لفظ، فلا يوصلك إلى ذلك، ولو شهد لك جميع أقرانك بالقطبية فلا عبرة بها.

وقد أشار إلى ذلك الشيخ محيي الدين في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات فقال:

«من سلك الطريق بغير شيخ ولا ورع عمَّا حرَّم الله فلا وصول له إلى معرفة الله تعالى، المعرفة المطلوبة عند القوم ولو عبد الله تعالى عُمر نوح ﷺ».

ثم إذا وصل العبد إلى معرفة الله تعالى فليس وراء الله مرمى ولا مرقى بعد ذلك، وهناك يطلع كشفًا ويقينًا على حضرات الأسماء الإلهية، ويرى اتصال جميع أقوال العلماء بحضرة الأسماء، ويرتفع الخلاف عنده في جميع مذاهب المجتهدين؛ لشهود اتصال جميع أقوالهم بحضرة الأسماء والصفات، لا يخرج عن حضرتها قول واحد من أقوالهم.

وهذه المعرفة نتيجة التخلي عن الأخلاق الذميمة، والتحلي بالأوصاف الكريمة، فأثمرت التجلي بالأسرار العظيمة، وفي الحديث: «الأخلاقُ مخزونةٌ عند الله تعالى، فإذا أراد الله تعالى بعبدٍ خيرًا منحه منها خُلقًا». وقال ﷺ: «إنما بُعثتُ لأُتمم مكارم الأخلاق».

قال صاحب عوارف المعارف: «فالصوفية راضوا نفوسهم بالمكابدات والمجاهدات حتى أجابت

=

إلى تحسين الأخلاق، فنفوس العباد أجابت إلى الأعمال وجمحت عن الأخلاق، ونفوس الزهَّاد أجابت إلى بعض الأخلاق دون البعض، ونفوس الصوفية أجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها».

والثالثة: معرفة كنوز أسرار الذَّات العَليَّة، وهذه المعرفة خاصة بأكابر المحققين من الأولياء الرَّاسخين.

وطريق هذه المعرفة لا يكون إلا عن محض المِنَّة، وكرامة صاحبها استقامته على نهج الكتاب والسُّنة.

قال أبو يزيد البسطامي قدَّس الله سرَّه: لو نظرتم إلى رجلٍ أُعطي من الكرامات حتى تربَّع في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة، ولما قصد زيارة ذلك الرجل المشهور بالزهد ودخل المسجد، رمى ببصاقه تجاه القبلة، فانصرف ولم يسلِّم عليه وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأمونًا على ما يدَّعيه، فاتِّباع القدم المحمدي نعمة وأي نعمة، والزيغ عنه نقمة لا يماثلها نقمة، فإن شؤم هلاك الدين لا يعادله شؤم، نعوذ من ذلك بالله الحي القيوم.

وإذا نظرت بعين التحقيق في هؤلاء الزَّنادقة المنابذين لأهل الطريق لم ترَ عندهم غير شقشقة اللسان الخالية عن الدليل والبرهان، وإذا بحثت مع أحدهم أسفر وجهه عن أخلاق البغال بكلام أبرد من برد العجوز؛ لتمثله في وصف النعال.

ثم قال أيضًا: وقد رأيت في بعض الرسائل حديثًا مرفوعًا وهو: «الشريعة مقالي، والطريقة أفعالي، والحقيقة حالي»(.

وعلى تقدير صحته فالشريعة: البيان، وهو بالمقال وما ينطق عن الهوى وبالأفعال، وهو أبلغ فاتبعون يحببكم الله، والحال ما ينتجه البيان فعاد الأمر إليه.

قال سيدي محيي الدين قدَّس الله سرَّه في كتاب «التراجم» في باب ترجمة الشريعة والحقيقة: لطيفة:

يخيل لمن لا يعرف أن الشريعة تخالف الحقيقة، هيهات بل الشريعة عين الحقيقة، وأن الشريعة جسمٌ وروحٌ، فجسمها الأحكام وروحها الحقيقة، فما ثم إلا شرع لطيفة، الشريعة: وضعٌ موضوعٌ وضعه الحق في عباده، فمنه مسموع وغير مسموع، فلهذا من الأنبياء متبوع وغير متبوع، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ [الأنفال:٢١]، كمثل الذي ينعق بما لا يسمع.

وقال في فتوحاته في باب الشريعة: الشريعة من جملة الحقائق، فهي حقيقة لكن تُسمَّى شريعة، وهي حقٌّ كلها، والحاكم بها حاكمٌ بحقٍّ مثاب عند الله؛ لأنه حكم بما كلف أن يحكم به، وإن كان المحكوم له على باطلٍ، والمحكوم عليه على حقٍّ، فهل هو عند الله كما هو في الحكم، أو كما هو في نفس الأمر؟ فمنا من يرى أنه عند الله كما هو في نفس الأمر، ومنا

=

=

من يرى أنه عند الله كما هو في الحكم.

ثم قال بعد كلامٍ طويلٍ: فعين الشريعة عين الحقيقة، والشريعة حقٌّ كلها، ولكل حقٍّ حقيقة، فحق الشريعة وجود عينها، وحقيقتها ما ينـــزل في الشهود منـــزلة شهود عينها في باطن الأمر، فيكون في ذلك الباطن كما هي في الظاهر من غير مزيد، حتى إذا كشف الغطاء لم يختل الأمر على الباطن.

ثم قال: فما ثمّ حقيقة تخالف الشريعة؛ لأن الشريعة من جملة الحقائق، والحقائق أمثال وأشباه، والشرع ينفي ويثبت، فتقول: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وهذا قول الحقيقة بعينه، فالشريعة هي الحقيقة.

وأطال في ذلك. وقال فيها أيضًا: ومن جملة آداب الحق ما نزلت به الشرائع.

وقال: لما كان الأمر العظيم يجهل قدره ولا يعلم، ويعز الوصول إليه، تنـــزلت الشرائع بآداب التوصل؛ ليقبلها أولوا الألباب؛ لأن الشريعة لُب العقل والحقيقة لُب الشريعة، فهي كالدهن في اللب الذي يحفظ القشر، فاللب يحفظ الدهن والقشر يحفظ اللب، كذلك العقل يحفظ الشريعة والشريعة تحفظ الحقيقة، فمن ادَّعى شرعًا بغير عقلٍ لم تصح دعواه، فإن الله تعالى ما كلف إلا من استحكم علقه، ما كلف مجنونًا ولا صبيًّا ولا من خرفٍ، ومن ادَّعى حقيقة من غير شريعة فدعواه لا تصح.

ولهذا قال الجنيد: (علمنا هذا يعني علم الحقائق الذي نجا به أهل الله مقيَّدٌ بالكتاب والسُّنة: أي أنه لا يحصل إلا لمن عمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وذلك هو الشريعة، وقال: إن الله أدبني فأحسن أدبي، وما هو إلا شرع له، فمن تشرَّع تأدَّب، ومن تأدَّب وصل).

وقال سيدي عبد الله بن أسعد اليافعي رحمه الله تعالى في نشر المحاسن:

اعلم أن الشريعة الشريفة المنيفة مشتملة على قسمين: علم وعمل، ثم العلم من حيث الجملة على قسمين: ظاهر وباطن.

والظاهر على قسمين: شرعي وغير شرعي.

والشرعي على قسمين: فرض ومندوب.

والفرض على قسمين: فرض عين وفرض كفاية.

وفرض العين على ثلاثة أقسام: علم صفات القلب، وعلم أصل، وعلم فرع.

وقد مثلت لهذه الأقسام وغيرها من أقسام العلوم، وبيَّنت المحمود منها والمذموم، وأوضحت ذلك في خاتمة كتاب شرح التوحيد.

والقسم الثاني من التقسيم الأول وهو العمل على قسمين: عزائم ورخص. إذا علم هذا فاعلم أن الحقيقة ذات المعاني الرقيقة والعلوم الدقيقة مشتملة أيضًا على قسمين: علم وعمل.

والأول منها على قسمين: وهبي وكسبي.

=

وهي التوجه بالقلب، وداومي على ذلك، فإن أفضل الأعمال أدومها، ويعبِّر عن ذلك التوجه الدائم بالذكر الكثير الذي عليه الكُمَّل.

وقوله ﷻ: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [الآية:٤٣].

كما أنك سجدت مع الساجدين، فإن كلاً من الركوع، والسجود صورة، ومعنى دائم قد قام به في كل عصر كثيرون في عصر هذه الأمة أكثر؛ لأن الأولياء اليوم عدد الأنبياء؛ بل أزيد لكمال استعداد الأمة.

وأشار بالركوع إلى نوع من أنواع الفناء، فإن السجدة إشارة إلى فناء الإنسان، والملك، والجن، والركوع إشارة على انقيادهم، وانقياد كل ذي روح

=

فالوهبي: علم المكاشفة، والكسبي على قسمين: فرض وغيره.
والفرض على قسمين: فرض عين وفرض كفاية.
وفرض العين على ثلاثة أقسام: علم قلب وعلم أصل وعلم فرع، كما تقدَّم في العلم الشرعي.
فهذا العلم الكسبي الذي هو أحد قسمي علم الحقيقة هو علم الشريعة، والقسم الثاني من القسمين الأولين وهو العمل هو القسم الأول من قسمي علم الشريعة الذي هو للعزائم، وهو مشتملٌ على سلوك طريق الحقيقة، والطريقة المشتملة على منازل السالكين تُسمَّى مقامات اليقين، فالحقيقة موافقة للشريعة في جميع علمها وعملها وأصولها وفروعها فرضها ومندوبها، ليس بينهما مخالفة أصلاً.
نعم هنا شيئان من العلم والعمل أحدهما: علم صفات القلب، فأهل الحقيقة لهم به اعتناء واهتمام جدًّا، وسلوك طريقتهم موقوف على معرفته وتبديل صفاته الذميمة، وأكثر أهل الشريعة مهملون ومتهاونون فيه مع كونه فرض عين في الشريعة والحقيقة بلا خلاف.
وأما القسم الثاني من قسمي علم الشريعة وهو الرخص، فأهل الحقيقة من حيث العلم والاعتقاد لا يشكون بأن ذلك حق والعمل به جائز، لطفاً من الله تعالى بعباده، ورحمة بهم في التخفيف، ورفع الحرج عنهم.
وأما من حيث عملهم فلهم طريق في العمل في شواهق الحق على شوامخ جبال عزائم الشريعة الغراء، يسلكون فيها إلى الله تعالى بتوفيقه وعنايته، وجميل لطفه وصيانته وعرة العقاب صعبة الذهاب، منهم من يقيم فيها سبعين سنة، ومنهم من يقطعها بتوفيق الله في سنة، وبعضهم في شهر، وبعضهم في جمعة، وبعضهم في يوم، وبعضهم في ساعة، على حسب معونة الله الكريم وتقدير حكمة العزيز العليم. وانظر: السيوف الحداد (ص٦٠) بتحقيقنا.

أيضًا، فإهم عند العلماء بالله عقلاء، علماء، أحياء.

وأثبت السجود والركوع على معيَّة الساجدين والراكعين؛ لأن للإنسان جمعية الأسماء، فهو يوافق كل مسبِّح في تسبيحه بخلاف قوله: ﴿الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء:٧٩]، فإن الجبال والطير ونحوهما ما وافقت داود عليه السلام إلا في تسبيحه المخصوص بيَّن كون مريم مع الساجدين والراكعين، وكون الجبال ونحوها مع داود.

وحاصله أن الإنسان يشارك جميع الأشياء في أسمائها المخصوصة؛ لجمعية نشأته بخلاف جميع الأشياء، فإن كلاًّ منها إنما يشارك الإنسان في اسم مخصوص بحسب ما يقتضيه مرتبته، فللإنسان ما للكل، وليس لكل واحد من الكل ما للإنسان: أي بالفعل، وإن كان له ذلك بالقوة.

ومعنى القوة أن الله تعالى أودع في كل نوع من الأشياء سرَّ اسمٍ من الأسماء كلية أو جزئية؛ لكن أودع في ذلك الاسم أيضًا أسرار سائر الأسماء؛ لأن المسمَّى إذا كان واحدًا؛ فجميع الأسماء يدور معه سواء كان حكمها ظاهرًا بالفعل؛ كالإنسان الكامل، أو لم يكن كما لغيره من الأشياء، فكل ظهور وبطون إنما هو لله تعالى.

ومعدن كل فعل إنما هو القوة، ولولا القوة لَما خرج إلى الفعل شيء من الأشياء، وبهذه القوة لا يُفضل بعض الأشياء على بعض، فليس للسلطان على أدنى رعية من رعاياه فضل بخلاف الفعل.

ألا ترى أن الصلحاء لا يدركون درجة الشهداء، وهم لا يصلون إلى مرتبة الصدِّيقين، وهم لا يبلغون منــــزلة الأنبياء، ثم المرسلون فوق الأنبياء، وفوقهم أولو العزم، وفوقهم نبينا ﷺ.

وقد يظهر القوة إلى الفعل من غير الإنسان أيضًا؛ كتكلُّم الجماد وتسبيحه على ما سمعه المكاشفون، ومنه يظهر ان كلاًّ من الإنسان المكاشف، والأشياء المسبِّحة يستأنس أحدهما بذكر الآخر دون الإنسان المحجوب؛ فإنه غافل عن تسبيح الأشياء، وربما يحمله على المعنى المجازي الذي هو الدلالة، فمقامه مع الله؛ كمقامه مع الأشياء حيث إن الله أقرب إلى العبد من حبل الوريد.

ويشهد من قريب وبعيد؛ لكن العبد المحجوب لا يشهده، وكذا لا يكاشفه

تسبيح الأشياء، وإن كان مع الأشياء في الظاهر، فالأشياء تشاهد المحجوب، وتسمع تسبيحه، وتستأنس به، وهو غافل عن الأشياء وتسابيحها؛ ولذا كان أضلّ من الأنعام؛ لأنها وجميع الأشياء على صراط مستقيم في سلوكها بخلافه؛ فإنه على تقدير الاهتداء إلى الشريعة، ضالٌ عن الحقيقة، ومما قرر يعرف سرَّ قوله ﷺ:

«**كل مولود يُولدُ على الفطرة، ثم أبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه**»(١) يعني: إنه قبل كونه يهوديًا، أو نصرانيًا، أو مجوسيًا، أو نحو ذلك؛ كان على الفطرة بالفعل؛ وهي الجبلة التي جبله الله عليها في أول إيجاده بحيث لو تركه على تلك الفطرة من غير اعتراض العوارض؛ كان من شأنه التحلّي بالإيمان، وسائر الكمالات الإنسانية(٢).

وأمَّا بعد كونه يهوديًا أو نحوه؛ فقد أفسد تلك الفطرة بالفعل، وبقى الإيمان ونحوه في القوة، وبتلك القوة صحَّ تكليفه بالإيمان، وسائر الأحكام، إذ لولا ذلك؛ لكان التكليف عبثًا، ومنه يعرف سرَّ قوله تعالى: ﴿**لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ**﴾ [التحريم:٦].

فإنه لولا العصيان من شأنهم بالقوة؛ لما أخبره الله عنهم بعدم العصيان ومدحهم به؛ إذ لا يمدح المرء بالممتنع، كما إذا قيل: فلان لا يأكل الحجر، والميت لا يعصي الله، ومعنى إمكان العصيان في حقهم: إنه لولا الامتناع بالغير؛ وهي العصمة؛ لصدر عنهم العصيان كما من عصاة البشر؛ لكن لا يصدر عنهم ذلك؛ لحصول العصمة، ولكونهم طُبعوا من النور، وهي لا يقتضي الظلمة.

---

(١) رواه البخاري (٤٦٥/١)، ومسلم (٢٠٤٨/٤).

(٢) قال الشيخ ابن سبعين: ولا بد من الرجل المطلوب بالفطرة الثانية، فإذا عزمت على لقاء الرجال فاذكر الله ربهم في نفسك، ثم لا تسأل على غيره، فأول شيء تراه رجاله، ثم ملائكته، ثم جواهر الفضائل بالقصد الثاني، واطلب مدركات النوم في اليقظة، والعلم دون النظر، والقدرة بغير عضوها، وأول الوقت يقوم به إلى الله فما يكون فقط، ولكل وقت صلوات، وفي عقبهما ما عينه الشارع ﷺ فقط، إلا إنه يبالغ في التكرار والترتيب إلا إن جاء ما يرد عن ذلك ما هو ألزم.

فمَن قال بعصيان هاروت وماروت فقد عصى الله؛ بل كفر بالله؛ لتكذيبه النص، ويقرب منه القول بعصيان الأنبياء؛ لأنهم معصومون، وما صدر عنهم، فعلى التأويل، وترك الأولى الذي يقال له الزلة، فاعرف.

قال الله تعالى في سورة الزمر: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر:٣٥].

اعلم أن من الأعمال ما هو أقبح؛ وهو الشرك، وما هو قبيح؛ وما عداه من المعاصي صغائر أو كبائر، ومنها ما هو أحسن؛ وهو التوحيد، وما هو حسن؛ وهو الطاعات فرائض أو نوافل.

فإذا كفر الله بسبب التصديق الأسوأ والأقبح فبالحرى أن يُكفِّر السوء والقبيح، فإن الإيمان يَجُبُّ ما قبله مطلقًا ما عدا الحقوق المتعلّقة بالغير، وكذا أعطاهم الأجر بالأحسن، فجدير أن يعطيهم إياه بالحسن؛ لأنه كما أن القبيح تابع للأقبح؛ فكذا الحسن تابع للأحسن لكنه صرَّح بالأسوأ في جانب التفكير؛ إشارة إلى أنه لا اعتداد بالسوء في جنب تفكير الأسوأ حتى يحتاج أيضًا إلى التكفير، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، وقول شريح القاضي: يا رب ليس في صحيفتي شركٌ، وقد وعدت أن تغفر ما دونه.

وصرَّح بالأحسن في جانب الجزاء؛ إشارة إلى أن كل واحد من الأحسن، والحسن معتدٌّ به على حدة، وأنه يجازي الحسن بما يجازي به الأحسن؛ فيكون الحسن في حكم الأحسن فضلاً من الله تعالى وكرمًا، وتصريح العمل في الأول؛ لاستقباحه، والمعنى إشارة إلى أنه مضى ما مضى.

فلا ينبغي أن يعود تصريحه في الثاني، لاستحسانه، وصيغة الاستمرار، والمضارع، إشارة إلى أن لهم عملاً أحسن بعد عمل أحسن على الاستمرار؛ لوقوفهم على حسنه الزائد حيث إنه يزيد في الدرجات، كما أن العلم الزائد يزيد في القرب المعنوي.

وفيه إشارة إلى أن العلم والعمل ينبغي أن يكونا على قدمٍ واحدة بحيث إن

العلم حيث يبلغ يحب أن يبلغه العلم، كما قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]؛ يعني: حيث وصل إليه العلم؛ وصل العمل؛ وهو صفة الكُمَّل؛ لأنهم يطيرون على جناحين، فمَن استهان بالعمل، وقصَّر فيه؛ فلا اعتداد بعلمه، ولو تجاوز العوالم كلها(١).

---

(١) واعلموا جعلنا الله وإيَّاكم من أهل الكشف في الوجود، وجمع لنا بين الطرفين المعقول والمشهود أن العالم كان مَنْ كان على ثلاث مراتب عالم علمه زائد عليه إما موهوب، وإما مكتسب، ولهذه المسألة حكم في الإلهيات، ولها حكم في الكون في بيانه إشاعة بشاعة، وفي محاققته كشف ما لا ينبغي كشفه.

ولكن سأبرز نبذًا من تلك الأسرار إلى إخواني لأنس الغائلة مع تحقيق الفائدة بين التصريح والإلغاز والإخفاف والإغلاق والله المستعان.

فاعلم أن العالمَ الذي علمه عين ذاته في الإلهيات ظاهرٌ، فإن علمه تعالى عين ذاته تعالى، وأما في الكون حين شهود وحدة العالم والمعلوم، والعلم يشهد ذلك فافهم.

وأمَّا العلم الموهوب، والمكتسب بالنسبة إلى الكون فظاهر الدرك هين الخطب.

قال الله تعالى في عبدٍ من عباده: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ [الكهف:٦٥]. وهو علم الإقرار.

وأما العلم الكسبي كالعلوم التي هي نتائج الأفكار، والأعمال المشروعة التي تُورث العلم.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨٢].

وأما هذان العلمان في الإلهيات فصعبا التصور؛ لأنه تعالى منـــزَّه عن ذلك، ولكن قال الله تعالى عن نفسه حتى نعلم، فأنـــزل نفسه في هذه الأخبار منـــزلة مَنْ يستفيد بذلك علمًا وهو سبحانه وتعالى العالم بما كان وما يكون.

وقولنا: إن العلم تابع المعلوم وبحسبه، فأعطي المعلوم من نفسه للعالم به العلم على ما هو عليه، فكل عطاء بلا عوضٍ فهو هبةٌ، فافهم، فإن المقام ليس مقام المحاققة، فتأدب.

قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طـــه:١١٤].

اعلم ثانيًا أن المعلوم كان ما كان حقًّا كان أو خلقًا ما لا يعلم بغيره أصلاً وليس له دليلٌ قاطعٌ عليه سوى نفسه، والبصر له الشهود، والعقل له القبول، وهذا هو التحقيق الأتم، والذوق الصحيح الأشمل الأعم، وغير هذا الذوق تمويه وتمريج.

فمن تطلَّب معرفة الأشياء كما هي بالدلائل الخارجية الغريبة التي ليست عين المطلوب، فمن المحال أن يحصل ذلك، بل استسمن الورم، ونفخ النار بلا ضرم ولا تظفر يداه إلا بالخيبة، فلهذا نصَّ أهلُ الحق رضي الله عنهم، وأهل العقول السليمة على أن الشيء لا يُدرك بما يغايره في الحقيقة، ولا يؤثر =

=

شيء فيما يضاده وينافيه من الوجه المعتاد والمنافي، بل يدرك بغلبة حكم ما به الاتحاد والاشتراك على ما به الامتياز، فافهم.

وبيانه أن إدراك الأشياء كانت ما كانت بكنهها، ولو كان منعذرًا من حيث الفكر والنظر، ولكن لإدراكها وجه آخر يُسمَّى الوجه الخاص، وهو ارتفاع حكم النسب الجزئية والصفات التقليديَّة من العالم العارف حال تحققه بمقام: «كنت سمعه وبصره»، فمن كان الحق سمعه وبصره وجميع قواه فلا يَعْزُبُ عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وفي المرتبة التي فوقها المجاوزة لها المختصَّة بقرب الفرائض، وقد ثبت عند أرباب الكشف أن الأمر كان ما كان ما يدرك منه إلا وجه ما به الاشتراك لا ما به الامتياز، فإذا أراد عالمٌ علم شيء فتوصَّل إليه بوجه المضاهات، وعلم ذلك الشيء بنفسه في نفسه؛ لأن الإنسان الكامل مضاه للحق والخلق، فإنه يتنـــزَّل إلى أسفل سافلين من مقام أحسن التقويم؛ لأنه على الصورة الإلهية، وله الأوليَّة والآخريَّة وذلك لتمكنه في مقام الجمع الأحدي الذي صحَّت له المحاذاة والمحاكات والمطابقات.

وصورته أن الإنسان برزخ بين الحضرات الإلهية والكونية ونسخة جامعة لهما، ولما اشتملتا عليه حرفًا حرفًا، فليس شيء من الأشياء إلا وهو مرتسم في مرتبته التي هي عبارة عن جمعيه، والمتعين مما اشتملت عليه نسخة من وجوده، وحَوْلَهَا مرتبته في كل وقتٍ وحالٍ، ونشأةٍ، وموطن إنما هو ما يستدعيه حكم المناسبة التي بينه، وبين ذلك الحال، والوقت، والنشأة، والموطن، وأهله كما هو سُنَّة الحق من حيث نسبة تعلقه بالعالم، وتعلُّق العالم به، فمهما لم يتخلَّص الإنسان من ربقة قيود الصفات الجزئيَّة الحاكمة عليه على الوجه المذكور، فلا يدرك بها إلا ما يقابلها من أمثالها، وما تحت حيطتها لا غير، فإذا تجرَّد من أحكام القيود، وتخلَّص من زيوف الميول والمجازيات الانحرافية الأطرافية الجزئيَّة، وانتهى إلى مقام الاعتدالي إلى الجمعي الوسطي الذي هو نقطة المسامية الكليَّة، ومركز الدائرة الكبرى الجامعة لمراتب الاعتدالات كلها المعنويَّة والروحانيَّة والمثاليَّة والحسبيَّة المشار إليها، واتَّصف بالحال الذي حررناه، قام للحضرتين في مقام محاذاته المعنويَّة البرزخيَّة، فواجهها بذاته كحال النقطة مع كل جزءٍ من أجزاء المحيط، وقابل كل حقيقةٍ من الحقائق الإلهية والكونية بما فيه منها من كونه نسخة من جملتها، ومع كل شيء له نسبة ثابتة لا جرم فيها ما يقتضي الانجذاب من نقطة الوسط الذي هو أحسن تقويم إلى كل طرفٍ، والإجابة لكل داعٍ، فأدرك بكل فرد من أفراد نسخة وجوده ما يقابلها من الحقائق في الحضرتين، فحصل له العلم المحقق بحقائق الأشياء وأصولها ومبادئها؛ لإدراكه لها في مقام تجريدها، ثم أدركها من حيث جملتها وجمعيتها بجملته وجمعيته، فلم يختلف عليه أمرٌ، ولم ينتقض عليه حالٌ ولا حكمٌ، ولولا القيود الكمالية لاستمرَّ حكم هذا الشهود، وظهرت آثاره على المشاهد على الاستمرار والدوام، ولكن الجمعية التامة الكمالية تمنع من ذلك؛ لأنها تقتضي الاستيعاب المستلزم للظهور بكل وصفٍ، والتلبُّس بكل حالٍ وحكمٍ، فالثبات على هذه الحالة الخاصة المذكورة وإن جَلَّ

=

=

فالمرور عنه أجلّ لأنه يقدح فيما ذكرناه مِنْ الحيطة الكماليَّة والاستيعاب الذي ظهر به الحق تعالى من حيث هذه الصورة العامة الوجوديَّة التَّامة التي هي الميزان الأتم، والمظهر الأكمل الأشمل الأعم، فافهم.

فما ليس كذلك من العلوم والعلماء والمعلومات فليس بالعلم الحقيقي الذي نحن نُصدر بيانه إلا بنسبةٍ ضعيفةٍ بعيدة، ولا يُعدُّ صاحبها عند أكابر المحققِّين عالمًا، فإن صاحب العلم الحقيقي هو الذي يدركُ حقائقَ الأشياء كما هي، ومن سواه إنما يُسمَّى بمعنى أنه عارفٌ باصطلاح بعض الناس واعتقاداتهم، أو صور المفهومات من أذواقهم أو ظنونهم، ومشخصات صور أذهانهم، ونتائج تخيلاتهم ونحو ذلك من أعراض العلم ولوازمه وأحكامه في القوابل، بل باعتبار كمال إطلاق هذا العلم الحقيقي، وتوجهه، وسعة دائرة مرتبته، وانسلاخه من قيود الأحكام؛ لغلبة صفة أُحديَّة الجمع بعظم إدراكه، ومعرفته، وعلمه، وإحاطته بالأشياء التي عَلِمَها من هذا الوجه، بهذا الطريق حكم الحق تعالى في علمه لأحديَّة الأصل، والمرتبة، ووحدة المآخذ.

فافهم أنه تعالى أشار إليه بقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ولكن يبقى هناك فروق أخرى بين العِلمين، فمثل هذا الذوق يُسمَّى علمًا حقًّا، ونورًا صدقًا، فإنه كاشف سرٍّ، ورافع كل شكٍّ وريب، فافهم هذا الباب فإنه لبُّ المعارف الإلهية.

ثم لتعلم قلة جدوي الاستدلال، ونهاية وصول العقل، والوهم، والخيال، وبيانه أن الله تعالى لما خلق النفس الناطقة، وخلق فيها قوة معنويَّة نسبة معقولة وهي عينُ ما اتَّصفت بها في الخارج كالأسماء الإلهية في الإلهيات، فكانت من القوى قوة تُسمَّى مفكرة، إذا استعملها الوهم، وميَّز الحق تعالى لهذه النفس الناطقة الحضرات الثلاثة، وولاها عليها وهي حضرة المحسوسات، وحضرة المعاني الصِّرفة المجرَّدة عن المواد، وإن لم تظهر بعضها في المواد، وحضرة الخيال، وهي حضرة متوسطة بين طرفي الحس والمعنى، وهي خزانة الجباية التي تجبيها، وجعل فيها: أي في حضرة الخيال قوة مصوِّرة تحت حكم العقل والوهم، فيتصرَّف فيها العقل بأمر والوهم بأمرٍ آخر، ويقوى في هذه النشأة سلطان الوهم على سلطان العقل كما هو محسوس لأكثر الناس؛ وذلك لأنه لم يجعل في قوة أن تدرك من المجرَّدات كالصفات التنــزيهيَّة إلا العقل، ومع هذا لم يكن في قوة العقل إذا خاض في الإدراك أن يدركها إلا بتصور ذلك الأمر المجرَّد، وهذا التصوُّر من حكم الوهم ولا بدَّ، وذلك لأن التصور ليس غير الصورة التي لا يحكم بها إلا الوهم، فصار فيما هو به عالم بالنظر والفكر، أسير الوهم مُقيَّدًا بلا شكٍّ، فله الحكم والسلطنة على العقل من حيث التصور، فافهم.

ووجه آخر في ضعف العقل وقصوره، وقلة جَدْوَاه في الإدراك، وهو أن القوة الفكريَّة لو كانت صفة من صفات الروح وخاصة من خواصه، أدركت صفة مثلها، ومن حيث أن القوى الروحانيَّة عند المحققين رضي الله عنهم لا تغاير الروح فصحَّ أن نسلم للناظر أنه عرف حقيقة ما، ولكن من الوجه الذي يرتبط بتلك الصفة التي هي منتهى نظره ومعرفته.

وقد اعترف أستاذ أهل النظر ومقتداهم عند عثوره على هذا السرِّ[1] إمَّا بالذوق وإمَّا خَلف حجاب القوة الفكريَّة بصحة الفطريَّة، أنه ليس في قوة البشر الوقوف على حقائق الأشياء وعوارضها

=

والحاصل أن النبي ﷺ سار ليلة المعراج بالعلم والقدم جميعًا، فمَن أراد السير الروحاني، والمعراج المعنوي؛ فلا بد له من القدم أيضًا، فمَن لا قدم له؛ لا سير له إلا في مرتبة الخيال، لا اعتداد به عند أهل السير القلبي؛ لأنه يصل إليه الممكور وغيره بخلاف السير القلبي، فإن الوحي، والإلهام الصحيح إنما ينـــزل على القلب لا على

=

الذاتيَّة ذكره في القانون في بحث المزاج، بل ولا الذاتيات؛ لأن معرفتها فرع لمعرفة الذات، فمن لم يعرف الذات كيف يعرف النسب المخصوصة لتلك الذات المخصوصة، فلا شفاء في الفكر أصلاً، فلهذا قيل: العقل عقال، والانسلاخ عنه مطالب الرجال.

ولكن إدراك العقل على قسمين غير ذاتي وهو الذي ذكرته آنفًا، فإنه يُدرك بالآلة التي هي المفكرة، وبالآلة التي هي الحسن، فالخيال يقلد فيما يعطيه، والفكر ينظر في الخيال فيحدُّ الأمور مفردات، فيجب أن ينشئ منها صورة يحفظها العقل، فينسب بعض المفردات إلى بعض، فقد يخطئ في نسبة الأمر على ما هو عليه، وقد يصيب فيحكم على ذلك الحد فيخطئ ويصيب، وهذا طريق الفكر الذي هو حرامٌ على المرتدين خاصة، فافهم.

ليسوا من أهل الفكر والنظر، وإنما الفكر لإناث الرجال وهم الفلاسفة، وأهل الأرصاد، فإن قيل: هذا الحكم الذي: ليت تحكم على أحكام العقل أيضًا من أحكام النظر والفكر؛ لأنه ليس من مدركات الحس ولا من البديهيَّات فلم يبقَ إلا النظر، فكيف تُثبت به مدَّعاك.

قلنا: ليس كما تقول؛ بل هو من الإعلام الإلهي والإلهام الربَّاني، فتتلقاه النفس الناطقة من ربها كشفًا وذوقًا من الوجه الخاص، فإذا صورت المسألة بعد الكشف يكون هذا مصداقه.

فإن قيل: إن الله تعالى أمر بالتفكُّر، ومدح التفكُّر، قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٩١] في مقام المدح.

وقال تعالى: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:١٧].

وقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾[الفرقان:٤٥]، وأمثالها من الآيات كثيرة التي تدل على ثناء الاستدلال، واستعمال الفكر.

قلنا: ما ذهبنا إلى أن الفكر ليس له نتيجة، بل وما خلقه الله سُدى، ولكن أهل الله لما علموا أن الفكر يخطئ ويصيب، وأنه غاية علم الرسوم، وأهل الاعتبار من الصالحين، وأنه يعطي المناسبات بين الأشياء تركوه لأهله، واتقوا منه أن يكون حالاً لهم؛ ليلحقوا بالذين فطروا على العلم بالله، والموحي إليهم ابتداءً من الله وعنايةً بهم كالملائكة والأنبياء، والأولياء عليهم السلام هكذا ذكره ﷺ في الباب الرابع والأربعين ومائة، والخامس والأربعين ومائة.

بل قال ﷺ في مواقع النجوم: «إن العلم الكسبي يحصل للنبي والولي من غير فكرٍ واكتساب، بل يعطي الدليل والمدلول ابتداءً من غير نظرٍ وفكرٍ» فافهم. وانظر: مجمع البحرين (ص٦٠) بتحقيقنا.

الخيال، فمَن لا قلب له؛ لا وحي، ولا إلهام له على وجه يُعتدّ به.

ونعم ما قال بعض الأكابر: إن المعارف الإلهية إنما تحصل من طريق العمل الصالح، والسلوك، والتقوى، وكثير من المغرورين الذين لا صحبة لهم مع أهل التسليك وقعوا في الدعوى، وكذّبهم أفعالهم الفاسدة، وأعمالهم الكاسدة، فالله الله، و«**اتقوا فِراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله**[1]» وهي الفراسة الحقيقة الكاشفة عن السرائر لا الفراسة الطبيعية الكاشفة عن الظواهر.

وقد قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ**﴾ [الطارق:٩].

وهذا اليوم: يوم الميعاد بالنظر القاصر، ويوم المعاش بالنظر الكامل.

إن قيمة العارفين دائمة فما ينكشف يوم المعاد لأهل الظواهر؛ فقد كشف الله يوم المعاش لأهل البواطن فسيَّرهم سير على الدوام، وإن لم يقف عليه العوام، والله عليم بذات الصدور، وكذا مَن ارتضى من رسول، ووارث الرسول، وذلك بالتعريف الإلهي دلّ عليه قوله: «**أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري**»[2]: أي مَن اُتصف بالغيرية، وأمّا مَن تخلّص عن شوائب الغيرية؛ فالله لا يُخفى سرَّه عنه.

في الجامع الصغير: كان ﷺ إذا شهد جنازة؛ رؤيت عليه كآبة، وأكثر حديث الكآبة الحزن، وقلب كئيب حزين؛ والمراد: باكيًا.

وحديث النفس: طول التفكُّر، ومن أماراته: إطراق الرأس غالبًا.

فإن قلت: إنه ﷺ كان دائم الأحزان، طويل الفكر، فما معنى رؤية الكآبة عليه وقت شهود الجنازة؟ قلت: لا شك أنه كان متهلّل الوجه عند خروجه إلى أصحابه، فكان لا يُرى عليه أثر الحزن إلا عند موجب قوي، كشهود الجنازة على أنه فرق بين

---

(١) رواه الترمذي (٣١٢٧)، والطبراني في المعجم الكبير (١٢١/٨)، وأبو نعيم في الحلية (٩٤/٤)، (٦/١١٨)، وأبو سعد الماليني الهروي في الأربعين كما في مجموع الأربعين للنبهاني (ص٣٠٥)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٨/١٠)، وحسنه، وكذلك ذكره الحافظ ابن عراق في تنـــزيه الشريعة (٢/٣٠٥)، وسكت عليه الحافظ في الفتح (٤٠٥/١٢)، والحديث من شواهده ومتابعاته تبين أنه لا يقل عن درجة الحسن لغيره.

(٢) ذكره الجرجاني في التعريفات (٢٩٥/١).

حزن وحزن، فحزنه عند شهود الجنازة كان أقوى من حزنه في غيره.

فإن قلت: على ما يحزن ويبكي وهو من أهل الملكوت؟ فلايزال يشهد الأرواح، قلت: قد صحَّ عند أهل الله ان الحزن من المقامات العالية، فهو أقوى في قلوب الأنبياء مما في قلوب الأولياء.

كما أن في قلوب الأولياء أشدُّ مما في قلوبهم من دونهم من الصلحاء، ولكل موطن من مواطن الدَّارين حكم مختصٌّ به.

ألا ترى أن جبريل عليه السلام بكى على فراقه ﷺ حين انتقاله إلى الآخرة مع أنه لا يزال يطوف حوله في عالم البرزخ، وان الإنسان الكامل، وإن كان ممَن يحب لقاء الله؛ لكن قد يكون بحيث يكره الموت بحسب الطبع البشري لا بحسب الحقيقة، فإن الموت تحفة المؤمن، وإن ريحه له كريح قميص يوسف ليعقوب- عليهما السلام-.

والله تعالى يكره كراهته عبده له، وإن كان لا بد له من ذلك، كما ورد في الحديث، والمحقق لا ينظر إلى صورة الموت؛ بل يكاشف حين شهد الميت، ولا يتحقق إلا بتجلّي الأسماء الجلالية؛ كالقهَّار، والقدير، والمريد، والمميت، ونحو ذلك، ولا ريب ان المحققين قائمون في مقام الهيبة، والعظمة، والجلال؛ لقوة شهودهم، وإطلاعهم على الحقائق، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿**وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا**﴾ [الكهف:١٨].

فإن مجرَّد مطالعة أصحاب الكهف من غير كشف الحقائق والسرائر؛ لا يقتضي الامتلاء بالرعب.

ألا ترى أن العوام أثبت عند رؤية الأهوال من الخواص؛ لأنهم مستغرقون في الحسِّ، ليس لهم إطلاع على المعنى، ومن ثم كان ﷺ يقوم للجنازة، ويأمر بالقيام عند شهودها، فإنه قيام لرب العالمين؛ لظهور سطوته وبطشه من تجلّي الاسم القهَّار، والمميت فلا يقوم مَن يقوم إلا للمميت دون الميت، ففي القيام له تهويل للموت، وتعظيم لرب العالمين؛ فإنه فيه سر القيامة الكبرى.

ألا ترى إلى قوله: «**مَن مات؛ فقد قامت قيامته**»(١).

ولا شك أن قيام الساعة إنما هو لإقامة العدل، وهو يقتضي القصاص، والمقابلة، وإعطاء كل ذي حق حقه، فهو ما ينقبض عنه النفس، ويتنفَّر الطبع، ويُعظِّم عند القلب.

وقد رُوي: إن الأنبياء عليهم السلام يجثون على ركبهم في المحشر عند ظهور تجلّي القهر والغضب، فقد حصل من إشارة ما قررنا أنه إذا وجب القيام للميت بالموت الصوري؛ كان ذلك أوجب لأهل الفناء المعنوى، فإنهم أهل الجلال، والهيبة الظاهرة والباطنة بخلاف غيرهم ممَن بقى مع نفوسهم إلا أن يقال: إن المكاشف إذا اطَّلع على الجلال الظاهر في النفوس الجلالية المحجوبة؛ كان من شأنه أن يقوم له، وينحني، فإنه إنما يقوم وينحني في الحقيقة للجلال الباطن في نفسه، كما صدر من بعض أهل الفناء؛ لكن المحققين على المنع من الانحناء؛ لأنه انحناء لنفسه، فلا يقوم به الكُمَّل، ويجرُّون في ذلك مع أهل الشرائع، والأحكام، وفيه السلامة والسلام.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ*وَأَمَّا الَّذينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧].

اعلم أن الإيمان؛ إمَّا إيمان بالقوة، وإمَّا إيمان بالفعل، وكذا الكفر(٢).

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٦/٢٦٨)، وذكره المناوي في فيض القدير (٥/٣).

(٢) **فائدة:** قال السمرقندي في الصحائف: الإيمان في اللغة: التصديق، وفي الشرع مختلف فيه.

فقال المحققون: هو تصديق الرسول بكل ما علم بالضرورة مجيئه به، وإنما قيد بالضرورة لأن منكر الإجتهاديات لا يكفر إجماعاً، ويقرب منه ما نقل عن الإمام الأعظم أبي حنيفة رحمة الله: أن الإيمان هو: المعرفة والإقرار.

وقالت المعتزلة: الإيمان هو: الطاعات.

ونقل عن السلف: أنه التصديق بالجنان، والإقرار باللسان والعمل والأركان، فمن أضل بالتصديق وإن شهد وعمل فهو منافق ومن أضل بالشهادة فهو كافر، ومن أخل بالعمل فهو فاسق وهذا قريب =

=

مما نقل عن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ، وبه قال الشافعي رحمه الله أنه معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان.

وأما الإسلام فهو بمعنى الاستسلام لغة، وفي الشرع: الخضوع وقبول قول الرسول، فإن وجد معه اعتقاد، وتصديق بالقلب فهو الإيمان فالإيمان أخص من الاسلام، ولهذا قال الله تعالى: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ [الحجرات: من الآية١٤] بين أنه ليس في قلوبهم تصديق الرسول، ولكنهم قبلوا قوله، وأظهروا الخضوع مخافة.

وأما الكفر: فهو في اللغة، الستر، وإنما سمي الكافر كافرا لأنه يستر الحق وفي الشرع: إنكار ما علم بالضرورة مجيئ الرسول به.

ولا يكون بين الإيمان، والكفر واسطة إذا فسر الإيمان بالتصديق إما إذا فسر بمجموع الطاعات فتتحقق الواسطة، لأن من صدق الرسول في كل ما علم بالضرورة مجيئه به، ويترك شيئا من العبادات لا يكون مؤمنا حينئذ ولا كافراً.

وسمى المعتزلة القسم منـــزلة بين المنـــزلتين.

وقالت الخوارج: من ترك شيئًا من العبادات فهو كافر فعلي هذا لا يكون بين الإيمان والكفر واسطة أيضاً.

والدليل على أن الطاعات جزء من حقيقة الإيمان لأنه لو كان كذلك لكان تقييد الإيمان بالطاعة تكريرًا، وبالمعصية نقضاً لكنه باطل، لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ [الكهف: من الآية٣٠] وبقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ**﴾ [الأنعام: من الآية٨٢].

ولما صح جعل القلب محلاً للإيمان إذ الطاعات ليست جميعها من أفعال القلوب لكنه باطل، لقوله تعالى: ﴿**كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمان**﴾ [المجادلة: من الآية٢٢]، ولأن من صدق بالله وبرسوله ومات قبل أن يشتغل بطاعة مات مؤمنًا إجماعاً، واحتج الخصم بوجوه:

فالأول فعل الواجبات هو الدين لقوله تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾ [البينة:٥].

وذلك يرجع إلى كل ما تقدم، فكان كل ما تقدم هو الدين والدين هو الإسلام لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾ [آل عمران: من الآية١٩]، والإسلام هو الإيمان إذ لو كان غيره لما كان الإيمان مقبولاً: لقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾ [آل عمران: ٨٥].

=

=

فلزم أن يكون فعل الواجبات هو الإيمان.

والجواب: أن بيان اتحاد الإسلام والإيمان معارض بقوله تعالى:

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ [الحجرات: من الآية١٤] ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ [الحجرات: من الآية١٤] الآية، ولئن سلمنا ولكن دليلكم إنما دل على أن الطاعات يصدق عليها الإيمان.

ولا يلزم من ذلك كونها حقيقة الإيمان لجواز أن يكون صدق الإيمان عليها لكونها متضمنة للتصديق، والاعتقاد.

الثاني: لو كان الإيمان عبارة عن التصديق لكان قاطع الطريق مؤمناً لكونه مصدقاً لكنه ليس بمؤمن لأنه مخزي؛ لأن الله تعالى يدخلة النار لقوله تعالى في حقهم: ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ [الحشر: من الآية٣] وكل من يدخله النار فقد أخزاه لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران: من الآية١٩٢] والمؤمن لا يخزى؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا معه﴾ [التحريم: من الآية٨]، وفيه نظر؛ لأن هذا إنما يصح أن لو كان الواو عاطفة، أما إذا كانت ابتدائية، فلا، ولئن سلمنا لكن المراد: الصحابة، بدليل قوله تعالى: ﴿مَعَهُ﴾ [التحريم: من الآية٨].

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: من الآية١٤٣] أي صلاتكم إلى بيت المقدس.

والجواب: لا نسلم إن كان الإيمان هاهنا: الصلاة لم لا يجوز أن يكون المراد التصديق بوجوب تلك الصلاة.

الرابع – لو كان الإيمان عبارة عن التصديق لما كان قابلاً للزيادة والنقصان، إذا التصديق معنى واحد لا يقبل ذلك لكنه باطل.

واستدلوا على نفي التالي بآيات سنذكرها مع الأجوبة إن شاء الله تعالى

اختلفوا في أن الإيمان هل يزيد وينقص أم لا.

فقال بعض من ذهب إلى أن الإيمان هو التصديق: لا، لأن مسمى التصديق شيء واحد لا يتطرق إليه الزيادة، والنقصان.

وقال آخرون: لا يقبل النقصان، ولكن يقبل الزيادة لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ [الأنفال: من الآية٢]، وقوله: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: من الآية٤]. وقوله:

=

=

﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً﴾ [المدثر: من الآية٣١] ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ [الأحزاب: من الآية٢٢]، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ [التوبة: من الآية١٢٤].

وقال من زعم أن الطاعات داخلة في حقيقة الإيمان: أنه يقبلهما.

واستدل بالآيات المذكورة، وقال الإمام: هذا البحث لفظي، لأن المراد بالإيمان إن كان هو التصديق فلا يقبلهما، وإن كان الطاعات فيقبلهما ثم ذهب إلى التوفيق فقال: الطاعات مكملة للتصديق، وكل ما دل على أن الإيمان لا يقبل الزيادة، والنقصان كان مصروفاً إلى أصل الإيمان، وما دل على كونه قابلاً لهما فهو مصروف إلى الإيمان الكامل هذا ما ذكروه.

والحق: أن الإيمان قابل لهما سواء كان بمعني الطاعات، وهو ظاهر و بمعني التصديق، لأن التصديق بالقلب هو: الإعتقاد الجازم وهو قابل للشدة والضعف، إذ يبتدئ من أجلي البديهيات نازلاً إلى أخفي النظريات.

وصاحب الكبيرة مؤمن مطيع بإيمانه عاص بفسقه وعند المعتزلة: ليس بمؤمن ولا كافر وعند جمهور الخوارج كافر لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: من الآية٤٤].

وفيه نظر؛ لأن ذلك يدل على أن من لم يحكم بما أنزل الله ولم يصدقه فهو كافر ولا نزاع فيه وإنما الكلام فيمن يرتكب معصيه.

وعند الأزارقة مشترك، لأنه يعمل عملاً لله،وعملاً لغيره فصار مشركاً لمخالفته لقوله تعالى: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: من الآية١١٠] وعند الزيدية كافر بالنعمة، وعند الحسن البصري منافق لقوله عليه السلام « آية المنافق ثلاث: إذا ائتمن خان، وإذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب ».

واختلفوا في الكبائر فروى ابن عمر عن أبيه عن النبي ﷺ أنها تسعة: الشرك بالله وقتل النفس عمداً، وعقوق الوالدين المسلمين والسحر، وأكل مال اليتيم، والقتال في الحرم والزنا والفرار من الغزاة عند قتالهم وقذف المحصنة.

وزاد علي كرم الله وجهه السرقة وشرب الخمر وزاد أبو هريرة أكل الربا وقيل الكبيرة ما توعد الشارع عليه بخصوصه، وعيد أصحاب الكبائر من أهل الإيمان منقطع أي يخرجهم الله تعالى من النار إلى الجنة خلافاً للمعتزلة.

لنا: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]

=

=

واحتج الخصم بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٤].

والجواب: أن هذا لا يوجب دوام العذاب، وبقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾ [النساء: من الآية٩٣].

والجواب: أن قوله تعالى« فجزاؤه » يوجب كونه مستحقاً لدوام العقاب والإستحقاق لا يوجب الوقوع). وذهب أبو هاشم، وأتباعه: إلى أن الطارئ يزيل المتقدم بطريق الموازنة أي تقابل أجزاء الثواب بأجزاء العقاب فيسقط المتساويان منهما ويبقي الزائد.

وقال أبو علي، وأتباعه: إنه بطريق الإحباط أي يبقى الطارئ بحالة ويسقط من السابق بقدرة.

وأجمعوا على أن وعيد الكافر المعاند دائم، وأما الكافر الذي بالغ في الاجتهاد، و لم يصل إلى الحق فزعم الجاحظ، والعنبري أنه ينقطع لأنه معذور لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: من الآية٧٨] وأنكر الباقون، وادعوا فيه الإجماع.

والذين زعموا أن الطاعات داخلة في الإيمان فمنهم من جوز الاستثناء مطلقاً وهو قول عبد الله بن مسعود، وقوم من الصحابة، والتابعين، والشافعي رضي الله عنهم، ومنهم من جوز في الاستقبال دون الحال وهو قول جمهور المعتزلة والخوارج والكرامية.

والذين ذهبوا إلى أن الإيمان هو التصديق، فمنهم من جوز الاستثناء وهو قول أبي سهل الصعلوكي وابن فورك، ومنهم من أنكره وهو قول أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله وقوم من المتكلمين.

حجة المجوز من وجوه:

فالأول – هذا للتبرك لا للشك كقولة تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح: من الآية٢٧] وهذا للتبرك لامتناع الشك على الله تعالى.

الثاني – إنه للشك لكن لا في الحال بل في العاقبة؛ لأن الإيمان المفيد هو الباقي عند الموت وكل شاك في ذلك.

الثالث – لما كان الإيمان عندهم مجموع الإعتقاد والقول والعمل والشك في العمل الذي هو أحد أجزائه يوجب الشك فيه فصح الشك في حصول الإيمان.

وقال المانع: أنا مؤمن حقًا لأن الشك في الحال والاستقبال يوجب على ضعف الاعتقاد في الحال ولا نزاع إن كان للتبرك.

=

فالإيمان بالقوة: هو ما كان في علم الله، حيث كانت الأشياء أعيانًا ثابتة فيه، ويُقال له: الإيمان الإمكاني أيضًا، وإن لم يكن في العلم إلا واجب، أو مستحيل على ما يعلمه العلماء بالله.

والإيمان بالفعل: هو ما كان في العين الخارجي؛ إمَّا في مرتبة الأرواح كما في عهد الميثاقي حيث قالوا: بلى، وإن لم يكن هناك إيمان وكفر في الحقيقة؛ لكن لمَّا كان في صورة السؤال والجواب، وفي صورة الذر؛ عُدَّ إيمانًا بالفعل، وامَّا في مرتبة الأجسام كما وقع عين التبليغ والدعوة حيث قالوا: آمنا.

فالخلق متفقون في الإيمان في مرتبة الأرواح، ومختلفون في مرتبة الأجسام، فمنهم مؤمن، ومنهم كافر، ثم الإيمان في مرتبة الأجسام إمَّا أن يتعقّبه الكفر والارتداد أو لا، فإن تعقّبه؛ فالإيمان الميثاقي عارض لا يُعتدَّ به؛ لأنه من وراء الحجاب، وصاحبه شقي شقاوة أزلية، وإلا فهو أصلي مُعتد به؛ لأنه إيمان عياني لا يطرأ عليه ما يضاده، وصاحبه سعيد سعادة أزلية، وإن عُرض له الكفر في البيْن.

فقوله تعالى: ﴿أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [الآية:١٠٦].

إشارة إلى الكفر المستمر في مرتبة الأجسام بعد الإيمان الميثاقي في مرتبة

=

قال أهل السنة: كل من اعتقد أركان الدين تقليداً فإن اعتقد مع ذلك جواز ورود شبهة عليها وقال: لا آمن ورود شبهة تفسدها فهو كافر ومن لم يعتقد جواز ذلك فقد اختلفوا فيه فمنهم من قال: إنه مؤمن، وإن كان عاصيا بترك النظر، والاستدلال المؤدي إلى معرفة أدلة قواعد الدين، وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد والأوزاعي والثوري وكثير من المتكلمين، ومنهم من قال: إنه لا يستحق اسم المؤمن إلا بعد عرفان أدلة قواعد الدين سواء أحسن العبادة عن الأدلة أولا، وهو مذهب الأشعري وقوم من المتكلمين.

ومن لم تبلغه دعوة الإسلام فإن اعتقد وحدانية الله تعالى، وعدله فحكمه حكم المسلمين وهو معذور في جهله بأحكام الشرع وإن اعتقد الشرك والتعطيل فهو كافر، فإن لم تبلغه دعوة نبي آخر لم يكن مكلفاً ولا يكون له ثواب ولا عقاب وإن بلغته و لم يؤمن بها كان مستحقًا للوعيد على التأبيد وإن لم يعتقد شيئاً لا توحيداً ولا كفراً فليس بمؤمن ولا كافر. وانظر: الصحائف (ص١٨٦) بتحقيقنا، دار الكتب العلمية، بيروت.

الأرواح، وإلى الكفر الحاصل بعد الإيمان في تلك المرتبة؛ يعني: إنكم آمنتم يوم الميثاق؛ ثم كفرتم في الدنيا إلى وقت الخروج منها، أو آمنتم في ذلك اليوم، وكذا بعد بلوغ الدعوة في الدنيا، ثم كفرتم، واستمرَّ ذلك منكم إلى وقت الخروج منها.

والكفر أحبط الإيمان، كما أن الإيمان جَبَّ ما قبله؛ لكن لمَّا يعقبه الكفر؛ لم ينفعه ذلك، فكان الكفر مستمر غير مجبوب ومقطوع بالإيمان أصلاً، فظهر إن الإيمان الذاتي لا يتغيَّر بالعارض، وكذا الكفر الأصلي؛ فالإيمان هو الإيمان في علم الله، وفي بطن الأمم، وكذا الكفر.

وأمَّا الإيمان والكفر في لوح المحو والإثبات، وفي عين الخارجي، فلا يُعتدَّ بهما، فإن السابقة واللاحقة على حد سواء، ولمَّا كان الإيمان الذاتي لا يغيِّره الكفر العارض؛ لم يقل في جانب الذين ابيضَّت وجوههم: أكفرتم بعد إيمانكم ثم آمنتم على تقدير توسُّط الكفر؛ لأن الإيمان يُجبُّ ما قبله، وليس على المؤمن توبيخ عليه أبدًا، فوجوههم المعنوية بيضاء في علم الله، ووجوههم الصورية بيضاء في العين الخارجي سواء كان عالم الأرواح، أو عالم الأجسام؛ فهم في رحمة الله أزلاً وأبدًا.

ووجوه أضَّدادهم المعنوية سوداء في العالمين جميعًا علمًا وعينًا؛ فهم في غضب الله أزلاً وأبدًا على ما يقتضيه المقابلة؛ لكن لم يجز في الآية الأولى على سُنن الآية الثانية؛ إشارة إلى سرٍّ دقيق يعرفه مَن يعرف سرِّ قوله تعالى: «**سبقت رحمتي غضبي**»(1)، فالعذاب الذي هو جزاء الكفر مقرر متحقق، وأهله خالدون في النار، لابثون فيها أحقابًا.

وقال في موضع آخر: في أحد الزهراوين: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**﴾ [آل عمران:١٠٦].

ابيضاض الوجوه، واسوادها محمولان على الحقيقة عند أهل الحقيقة؛ لأن الآخرة عالم الصفة؛ فلا يظهر فيها إلا ما هو الغالب على الإنسان في هذه النشأة الدنيوية، وخُصَّت الوجوه بذلك؛ لأنها مرآة الحقيقة الإنسانية، فيظهر سعادته وشقاوته فيها.

---

(١) رواه البخاري (٦/٢٧٤٥)، ومسلم (٤/٢١٠٨).

فمن آثار السعادة: الابيضاض، وفيه بهجة السرور وانشراحه.

ومن آثار الشقاوة: الاسوداد، وفيه انكسار الحزن، وانقباض الخوف.

وهذا الابيضاض حاصل في الدنيا أيضًا؛ لكن لا يشاهده إلا أهل البصيرة؛ لأن مَن تجلّى الله لقلبه؛ كان أحسن وجهًا، وكذا الاسوداد؛ لأن مَن احتجب الله عنه؛ كان أقبح وجهًا؛ وذلك لأن معنى التجلي: إنما هو ظهور الحق تعالى من حيث اسمه النور.

ومعنى الاحتجاب: استتاره من تلك الحيثية، فكلّما ظهر نور الحق في قلب العبد؛ كان ليله نهارًا، وسرى نوره من قلبه إلى قالبه، كما قال تعالى: **﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾** [الزمر:٦٩].

وكلّما اختفى ذلك النور؛ كان نهاره ليلاً، وسرى ظلمته من باطنه إلى ظاهره كما قال تعالى: **﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾** [النحل:٥٨].

لأن الاسوداد أثر الكآبة التي هي صفة الباطن، فتظهر في صورة الظلمة؛ لأن النور والسرور من الجنان، والجنان والظلمة والغم من النيران والطبائع، فالكل إمّا يظهر بحسب صفته الغالبة، وليس ذلك من الخارج؛ ولذلك أُسند الابيضاض إلى الوجوه لا التبييض إلى الله تعالى.

فإن معنى بتبيض الله أيضًا: إظهار آثار ابيضاض الوجوه من حيث ما هي متصفة به في نفسها، لا إظهار أمر خارج عن نفسها، وكذا التسويد، ونكّر الوجوه؛ إشارة إلى كثرتها في نفسها، وإن كانت الوجوه البيض أقل بالنسبة إلى الوجوه السود؛ فهم أكثر بحسب شرفهم وفضلهم، وإن كانت السود أكثر من ذواتهم، كما قيل: الواحد على الحق هو السواد الأعظم، وإن بعث النار تسعمائة وتسعة وتسعون من ألف، وذلك مما يقتضيه الحكمة الإلهية.

ولذا كان القطب في كل عصر واحدًا؛ وهو الإنسان الكامل ومعه تحت لوائه مائة وأربعة وعشرون ألفًا من الأولياء؛ بل أزيد وأما الأعداء فلا يُحصى عددهم.

ثم إن ظهور السعادة إنما كان من خلق الملائكة، كما أن ظهور الشقاوة إنما كان من خلق الشياطين، والجمع بينهما من خلق البشر، وكان العالم في أول خلقته

خاليًا من آثار السعادة والشقاوة، وهكذا في انتهاء أمره فيُرجع النهاية إلى البداية بعد انقراض البشر، ثم يظهر أمر أخر في النشأة الآخرة يعرفه أهله، والعلم عند الله تعالى.

ومعنا كلام آخر في غاية الغموض وهو:

إن الوجوه البيض إشارة إلى الأبرار، والوجوه السود المقربين، كما ورد: «**الفقر سواد الوجه في الدَّارين**»(١).

فهو سواد السيادة لا سواد الفضاحة، فالآية من قبيل الترقي ثم الابتداء بقوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ**﴾ [آل عمران:١٠٦] أي: من قبيل تقديم الأفضل.

فإذا كان الأبرار في رحمة الله وجنته؛ فالمقربون الذين ستروا وجوداتهم المجازية بالوجود الحقيقي في قربة الله، ووصلته؛ التي هي أعذب من الجنة الحسية؛ لأنها جنة في جنته، ولا شك أن الطبقة العليا خير من الطبقة السفلى، $فكن مسودًا بنورًا سود؛ وهو أصل الأنوار، ولا أصل له أصلاً.

وقال الله سبحانه: ﴿**كُنتُمْ**﴾ [آل عمران:١١٠]؛ يا أمة محمد في علم الله تعالى: ﴿**خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمران:١١٠](٢).

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٤/٤٦٤)، والعجلوني في كشف الخفا (٢/١١٣).

(٢) فيه إشاة إلى نور الانفراد: فهو الذي يكشف أنه ﷺ خير متبوع حيث قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ فمتبوعها خير متبوع.

وهو كما قال ﷺ: «**شَرَفُ أُمَّتِي بِي؛ فِبِي يتشرَّفُون، وهُمْ خيرُ أمَّةٌ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ**»؛ فهو أشرف الخلائق الإنسانية بدليل الكتاب والسنَّة، ومجمع الحقائق الإيمانية التي لا تلبُّس فِيها. وأمته أشرف الأمم.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ: «صار حَتَّى بيت المقدس، فنـزل، وربط فرسه إِلَى صخرة، فصلَّى مع الملائكة، فلما قُضيت الصلاة قالوا: يا جبريل، من هَذَا الذي معك؟ قال: هَذَا مُحَمَّدٌ رسول الله، خاتم النبيين. قالوا: أوَقد أُرسل إليه؟! قال: نعم. قالوا: أحياه الله تعالى من أخٍ وخليفة، فنعم الأخ! ونعم الخليفة! ثم لقوا أرواح الأنبياء عليهم السلام، فأثنوا على ربِّهم، وذكر كلام واحدٍ منهم، وهم إبراهيم الطَّيِّلاً، وموسى، وعيسى، وداود، وسليمان عليهم السلام، ثم ذكر كلام النبي ﷺ، فقال: وإن مُحَمَّدًا ﷺ أثنى على ربِّه ﷻ، فقال: كلكم أثنى على ربِّه، وأنا أثنى عليَّ ربِّي، الحمد لله الذي أرسلني رحمةً للعالمين كافَّةً، وللناس بشيرًا ونذيرًا، وأنزل عليَّ الفرقان فيه تبيانٌ لكل شيءٍ، وجعل أمَّتي خير أمةً، فجعل أمَّتي أمَّةً وسطًا، وجعل أمَّتي هم الأولون، وهم الآخرون، =

لم يقل: أُخرجت للأمم مع مطابقته لما قبله؛ لأن الأمة هم المتبعون لنبيٍّ من الأنبياء، ومن بني آدم مَن ليس كذلك، فكان إخراج الأمم لبعض الناس غالبًا، وإخراج هذه الأمة لجميع الناس، سواء كانوا متبعين لنبيٍّ من الأنبياء، أو لا، فالمتبعون للأنبياء من الناس هم أهل الأُنس بالضم، وخير المتبعين هم أهل الوحشة والنسيان؛ ولهذه الأمة يد عليهم كلهم، لِما في استعداداتهم من الكمالات التي ليست هي في غيرهم؛ ولذا كانوا خيرًا منهم؛ إذ الأشياء متساوية في ذواتها؛ ولذا لم يلزم الإيمان بالملائكة من حيث ذواتهم؛ بل من حيث رسالتهم ووساطتهم.

فالخيرية: إنما هي بالشرف في الفعل، كما قال تعالى: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء**﴾ [البقرة:٣١]؛ لأن الأسماء في الحقيقة هي الحقائق المتعيِّنة في هذا العالم، وبتعليمها كان آدم عليه السلام أفضل من الملائكة.

ومن تلك الحقائق: القيام بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كما قال تعالى ﴿**تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ [آل عمران: ١١٠]،

والمعروف: هو الله تعالى.

=

وشرح لي صدري، ووضع عنِّي وِزري، ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحًا وخاتمًا. فقال إبراهيم: بِهَذَا فضلكم مُحَمَّدٌ، وإنه واسطة عقد النبيين ورفِيعهم».

وقال بعضهم: قد يحصل للورثة من هذه الأمة من العلوم التي اقتبسوها من مشكاة نبوته عليه الصلاة والسلام بالمتابعة له والاقتداء ما لم يحصل للأنبياء الماضين عليهم السلام بسبب عدم كونهم من هذه الأمة والورثة من هذه الأمة ما نالوها من جهة أنفسهم وإنما نالوها من نبوة نبيهم ولا يلزم من ذلك تفضيلهم على الأنبياء الماضين؛ لأن حصول العلم من الغير السابق إليه لا تلزم الفضيلة به وإنما الفضيلة لمتبوعهم في حصوله وهو سيدنا محمد ﷺ لأن الحاصل له عليه السلام من نبوته الكاملة.

قال الشيخ سيدي عبد الغني النابلسي في «شرح الفصوص» في الكلام على الفص اليوسفي:

ومن هنا: أي من هذا المذكور وهو أن الورثة من هذه الأمة قد يحصل لهم من العلوم ما لم يحصل للأنبياء الماضين، قول - المصنف- يعني الشيخ الأكبر قدس سره، خضنا بحرًا وقفت الأنبياء بساحله.

كما أن المنكر: هو ما سوى الله تعالى.

والأمر به إرشاد إليه من جهة توحيد الأفعال، والصفات، والذات، ولم يتفق الإرشاد من جهة هذه التوحيدات الثلاثة لغير هذه الأمة المرحومة، لما أن الإرشاد إليها موقوف على التحقق بحقائقها، وقد تحقق بغير توحيد الذات ما عدا أمة إبراهيم عليه السلام.

وأمَّا أمة إبراهيم عليه السلام: فإنهم وإن تحققوا بتوحيد الذات، وقبلوا إرشاد إبراهيم؛ لكن كان ذلك من وراء الحجاب، وبالإجمال بل بالقوة، وإلا كانوا خير الأمم وخاتمتهم، فبقي هذا الكمال بالفعل لهذه الأمة؛ ولذا كانوا خير الأمم وخاتمتهم، إذ لم يبقَ شيء يحتاج الناس إلى دعوته ظاهرًا وباطنًا، قوةً وفعلاً، إجمالاً وتفصيلاً، إلا وهم دعوهم إليه بما لا مزيد عليه، فكان مراتب يقينهم أعلى من مراتب غيرهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ [آل عمران: ١١٠].

مع أن جميع الأمم منهم مَن آمن؛ لكن إيمانهم ليس كإيمان هذه الأمة، فإن إيمان هذه الأمة كشفي عياني، ليس فوقه كشف وعيان يغتبط به ويشرئب إليه، فكما أنه (ليس في عالم الإمكان أبدع مما كان)[1]، فكذا ليس في الأمم أعجب من هذه الأمة وأجمع وأكمل.

وقال تعالى: ﴿**بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا**﴾ [آل عمران: ١١٥].

: أي بسبب إشراكهم بالله آلهة لم ينـــزل بإشراكها حجة؛ والمراد إنه ليس هناك حُجة، ولا تنـــزيلها، فإن القضية السالبة قد تصدَّق بأن يكون الموضوع فيها موجودًا متصفًا بانتقاء المعمول عنه، وقد تصدَّق بانتقاء الموضوع عن أصله فلا يتَّصف بالمحمول راسالات ما لا يكون له موضوع لا يكون له محمول.

فظهر أن الشرك الحقيقي؛ وهو ما كان عن اعتقاد ليس له برهان سماوي إذ لا

(١) هذة المقولة مشهورة عن حجة الإسلام الإمام الغزالي رضي الله عنه ونفع به، وهي محل إشكال عند البعض، وعليها شروح وترجيحات ما بين مؤيد ومعارض، والحق أن الحجة –قدس سره– قد وافق الحق في تلك المقولة.

وجود له في الحقيقة؛ ولذا لا يغفره الله، ولا يستره بخلاف الشرك الصوري؛ وهو ما لم يكن عن اعتقاد؛ بل كان إكراهًا وإجبارًا، فإن له سلطان، كما قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل:١٠٦].

فإذا كان الشرك الإجباري مغفورًا؛ كان العصيان الاضطراري مغفورًا أيضًا؛ كأكل الميتة حال المخمصة، وشرب الخمر حال الغصة ونحو ذلك؛ فإن له برهانًا سماويًا أيضًا، كما عرف في القرآن. وبالجملة: إن ما أُضيف إلى الله تعالى؛ فهو إيمان ولو في صورة الشرك، وما أُضيف إلى العبد فهو شرك ولو في صورة الإيمان، نعم قد يكون إضافة المعصية إلى النفس توحيدًا لما يقتضيه طريق الأدب، وإن كان كل الأفعال صادرة بخلق الله تعالى وتأثيره.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩].

باء السببية وما بعدها: تشير إلى أن رحمة الله تعالى ذاتية أصلية، ليست بجعل جاعل أو بسبب من الأسباب.

أمَّا الأول: فلأنه لو كانت بالجعل، يقتضي تقدُّم الجاعل عليه تعالى، والله تعالى هو الأول والآخر.

وأمَّا الثاني: فلأن كونها بالسبب، يقتضي العلل في الصفات الإلهية، وإلى أن رحمة العبد عَرضية فرعية، لكن هذا يتصور على وجهين:

الأول: أن يكون العبد مجبولاً عليها في الفطرة الأولى.

والثاني: أن يتصور ذلك بحسب الأمور الخارجة عن ذات الراحم.

فرحمة النبوة من الرحمة الأولى الجبلية؛ لأنها وإن كانت عارضة لذاته لاحقة لها من قبل الله تعالى؛ لكنها لَمَّا كانت الذات مجبولة عليها في الفطرة الأولى؛ جُعلت كأنها ذاتية ليس من الخارج أصلاً، وهو المناسب لشأن النبوة.

وإمَّا رحمة غير النبوة: فقد تكون ذاتية، وقد تكون بالممارسة، ورياضة النفوس وتعليمها، والمباشرة بأسباب الرحمة، فظهر أن كون النبي ﷺ ليِّن الجانب لأمته؛ وإنما هو من آثار الرحمة الذاتية التي أودعها الله تعالى فيه لا من آثار الرحمة الفرعية التي

تحصل بالممارسة والإدمان، فإنها على تقدير قوتها في النفس ليست بمنـــزلة الرحمة الأولى، ولذا مُدح العرب بالسخاء؛ لأنه جبلي لهم غالبًا[١].

(١) الرحمة: إجراء الموافق لظاهر الشيء وباطنه، إن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق فقسمه قسمين: شقيًّا وسعيدًا، فالشقيُّ في نقمته، والسعيد في رحمته.

والرحمة رتبٌ، فإن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فتفاوت العباد في رحمته، فلكل مرحوم حظه من الرحمة، تقع منه بوفقٍ إلى حدٍّ وقدرٍ من ذلك العد، ولما كان ﷺ المنتهي فيما يوافقه إلى أعظم الغايات في ذاته وفي آله وفي أهل بيته وفيمن تصل إليه شفاعته من خلق ربه حتى قال له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى:٥]، التي هي عند أهل البيت أرجى آيةً في كتاب الله، كان مناله من الرحمة المنال الأعظم، الذي لم يبق ما خوَّله الله من الوفق محل خلاف، كما قال تعالى: ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ*إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٨، ١١٩]، وهو الذي رحمه ربُّه بالرحمة العامَّة التامَّة فلم يبق عنده خلافٌ، فكان كل أمره وفقًا حتى قالت له عائشة رضي الله عنها: «يا رسول الله، إنَّ ربَّك يُسارع إلى هواك»، وكذلك الأمر في آله كما قال ﷺ في عليٍّ عليه السلام: «اللَّهُمَّ أدر الحقَّ معه حيث دار؛ ليكون كائن الخلق والأمر وفقًا له»، فهو ﷺ المرحوم الرحمة التي انتهت إلى الغاية التي ليس وراءها مرمى ولا منتهى، بما له من كل شيءٍ أحمده، وبما هو المرحوم الكامل الرحمة كانت الموصل إلى الله، كما كان المرحوم في الطامة الأولى عاصمًا من نقمة الله في مضمون قوله تعالى: ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ﴾ [هود:٤٣]، كأنه يقول عليه السلام لابنه: لا يعصمك إلا العبد المرحوم الذي هو نوح عليه السلام، وكان ذلك من أول بوادي الرحمة لما ظهر بها من العصمة، فكان بداية الرحمة عصمةً، وكان كمالها توصيلاً، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب:٧] فكان ميثاقهم التوصل إلى الله، وكان من ميثاقة نوح العصمة من انتقام الله، ولكل نبيٍّ فيما بينهما رحمةٌ تخصُّه، واقيةٌ من سوء، أو مرقيةٌ إلى خير، وهذا التوجيه يدانيها؛ لأن الطوفان أول طامَّة ظهرت في الدنيا، وسائر الطوامِّ في هذه الأمة، كما ذكر أن: «الطوامُّ سبعةٌ»، والرحمة الكاملةُ المحمدية عاصمةٌ من جميعها، قال ﷺ: «المعاقل ثلاثةٌ: فمعقلهم من الملاحم دمشق، ومعقلهم من الدّجال البيت المقدس، ومعقلهم من يأجوج ومأجوج طور سيناء»، كذلك رحمته المحمدية عاصمةٌ في يوم الجزاء إلى ما وراء أمر الدنيا والآخرة، من هذا التوسل المحمديِّ الذي نهايته التوصل إلى الله، والعصمة مما سواه الذي هو النهاية، والحمد لله ربِّ العالمين.

وقال الرصاع: ومعنى نبي الرحمة: أي النبي الذي بعثه الله سبحانه رحمةً للعالمين، ورءوفًا بالخلق أجمعين، فبعثه الله رحمة، وشريعته رحمة، وأفعاله رحمة، وأخلاقه رحمة، وبشارته رحمة، ونذارته رحمة، وجميع ما قاله أو فعله أو تحرَّك به رحمة، وحياته رحمة ومماته رحمة.

=

=

قال ﷺ: «حياتي رحمة لكم ومماتي رحمة لكم».

فشمائله كلها رحمة لعباد الله، ومنُّهُ من الله على خلق الله، وهدايةٌ إلى خلق الله.

قال ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداه».

وقد قيل: الأنبياء كلهم عطيَّة لأممهم، ونبيَّنا ﷺ هديَّة؛ لأن الهديَّة للمحبين، والعطيَّة للمحتاجين.

وقد زيَّن الله سبحانه نبيَّه بالرحمة، فمن نال من رحمته شيئًا؛ فقد فاز في الدارين، ونجا من كل مكروه، وحصل له قرة العين.

ومن رحمته ﷺ أن أمته جُبلت على محبته، وجُبل هو على محبَّتها ورحمتها؛ لأن الله سُبحانه جعله نفسَ الرحمة.

قالت عائشة رضي الله عنها: «قمت ذات ليلة أطلب النبي ﷺ، وقد خرج من البيت، فوجدته في البقيع يقول قائمًا: يا ربِّ أمتي، وراكعًا: يا ربِّ أمتي، وساجدًا : يا ربِّ أمتي، فقلت يا رسول الله: وأين القرآن فهل نسيته لأجل هذه الأمة؟ فلما سلَّم قال: يا عائشة أتعجبين من هذا؟ أنا أقول ما دُمت في الحياة: أُمتي، فإذا دخلت القبر قلت: يا رب أمتي فإذا نفخ في الصور أقول: يا ربِّ أمتي».

فاذكروا يا أمة محمد ﷺ رحمة نبيِّكم بكم ورأفته عليكم، وذكره لكم قبل وجودكم، وشهادته بأخوتكم لإيمانكم، وسترون من رحمة الله في الدار الآخرة إن متُّم على ملَّته ما لا يخطر لكم ببال، ولا يحيطُ به إلا الكبير المتعال.

ومن رحمته لأمته مؤانسته لمنكسري القلوب من الفقراء، ومواساهم والجلوس معهم، وإدخال السرور عليهم، كان أهل الصفة رجالاً فقراء ضعفاء غرباء، آووا إلى رسول الله ﷺ فآواهم ﷺ؛ لرحمته وشفقته، ولم يكن لهم زرع ولا ضرع ولا تجارة، كانوا يحتطبون بالنهار، وبالليل يشتغلون بالعبادة وتعلُّم القرآن، ويصطفون عند باب المسجد، وكان ﷺ يواسيهم، ويحثُّ الناس على مواساهم، ويأمرهم برحمتهم، ويجلس معهم جبرًا لقلوبهم وشفقة عليهم، ويأكل معهم، وكان ﷺ إذا صافحهم لا ينـــزع يده من أيديهم.

ومن رحمته بهم أنه كان يفرِّقهم على أهل السَّعة في المال، فكان رحمة للفقراء، ورحمة للأغنياء في إدخال الثواب عليهم، فيبعث مع واحد ثلاثة ، ومع واحد واحدًا بما يراه من المصلحة في حق أصحابه، وما يظهر الله له من الخيرات في اجتهاده.

وكان سعد بن عبادة يبعث معه ثمانين رجلاً على قدر ما يجد فيه ﷺ من أحوالهم، وما يراه من حمل
=

=

الصدقة في أموالهم.

ومن رحمته بعباد الله وحسن خلقه مساواة نفسه معهم في حالهم، ولم يفت الفقراء بشيء من أمر الدنيا فيختص به عنهم، بل كان رأس الزاهدين فيها امتثالاً لرب العالمين، ورحمة لأمته أجمعين.

يُروى أن جماعة من أهل الصفة أتوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: «يا رسول الله أحرق بطوننا التمر.

فسمع بذلك رسول الله ﷺ فصعد المنبر. ثم قال: ما بال أقوام يقولون: أحرق بطوننا التمر، أمَا علمتم أن هذا التمر طعام أهل المدينة؟ وقد واسيناكم بما عندنا، والذي نفسُ محمدٍ بيده منذ شهرين لم يرتفع من بيت رسول الله ﷺ دخانٌ للخبز، وليس لهم إلا الأسودان: التمر والماء».

ومن رحمته عليه السلام لأمته طلب الألفة بينهم والمؤاخاة لهم قائلاً: «لا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا».

ومن آداب مَن عَلِمَ أنه عليه السلام نبيُّ الرَّحمة أن يكون متخلّقًا برحمته وشفقته، ويعلم أن الرحمة إنما نُزعت من قلوب الأشقياء، وإنما أسكنها الله في قلوب الأتقياء.

ويُروى أن أعرابيًّا أتى النبي ﷺ وكان ﷺ يُقبِّل أحد أولاده.

فقال الأعرابي: «يا محمد إنَّ عندي عشرة من أولادي فما قبَّلتهم قط، فقال النبي ﷺ: وأي شيء أملك لك، وقد نزع الله الرحمة من قلبك؟»».

فاعلم أيُّها المحب المتخلّق بطريقته إن أردت النجاة فكن متخلّقًا بالرحمة لأُمته، فارحم صغيرهم، ووقّر كبيرهم، وعلّم جاهلهم، ورُدَّ ضالهم، وأعطِ مَن حرمك منهم، وصِل مُقاطِعهم، واغفر لمن أساء منهم، وسامح ظالمهم، واستر عورتهم، ونفّس كربتهم، وواسِ فقيرهم، وتواضع لهم، وخالطهم فيما تُطيِّب به قلوبهم، واقبل كلامهم، واظهر لهم أنك لم تمتزْ بشيءٍ عنهم، وحقّر لهم ما عندك في أعينهم، وأخبرهم بأنّكم الكلُّ عبيدٌ، والله يفعل في ملكه ما يريد، هذا يغنيه، وهذا يفقره، هذا يحييه، وهذا يميته، وهذا يعزّه وهذا يذله، هذا يبكيه، وهذا يضحكه، هذا يولّيه، وهذا يعزله، هذا يعطيه وهذا يمنعه، هذا يشقيه، وهذا يسعده. وإذا امتَزتَ عنهم بشيء من هذه الزهرة الفانية فلتظهر لهم تقلُّلها، وأنها عن قريب تفنى زهرتها، وأنك لم تحصل منها على طائلٍ بل على ظلٍ زائل، وأن الفرح إنما هو بفضل الله وبرحمته، عليه يتوكل المتوكلون. قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

ولتكن متشبِّهًا بأخلاق الصحابة الكرام في تخلُّقهم مع رعيتهم ورحمتهم بهم، وشفقتهم عليهم، ومحبَّتهم فيهم لله تعالى؛ ابتغاءً لثوابه وخوفًا من عذابه.

=

كان سراج الجنة الذي أجمع على فضله جماعة أهل السُّنة، الناطق بالصواب أبو حفص عمر بن الخطاب ﷺ من شدة رحمته برعيَّته، لحقته امرأة ذات يوم شابة، فقالت: يا أمير المؤمنين هلك زوجي وترك صبية صغارًا، والله ما يملكون كراعًا، ولا لهم زرعٌ ولا ضرعٌ، وخشيت عليهم الضَّياع، وأنا ابنةُ خُفاف الغفاري، وقد شهد أبي الحديبية مع رسول الله ﷺ فرحمها، ووقف معها ولم يمض، وقال: مرحبًا بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعير كان مربوطًا له فحمل عليه غرارتين ملأهما طعامًا، وجعل معهما نفقة وثيابًا، ثم ناولها بخطامه فقال: اقتاديه فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير، فقال رجلٌ: يا أمير المؤمنين أكثرت لها، فقال عمر: ثكلتك أمك، والله إني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصنًا زمانًا، فافتتحناه ثم أصبحنا نستضيء سُهمانهما فيه ﷺ وأرضاه.

ورأى طلحة ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ دخل بيتًا، ثم دخل بيتًا آخر، فلمَّا أصبح طلحة دخل ذلك البيت، فوجد فيه عجوزًا عمياء مقعدة، فقال لها: ما قال لك هذا الرجل الذي يأتيك؟ فقالت له أنه يتعاهدني في كل ليلة، يأتيني بما يُصلحني ويُخرج عنِّي الأذى.

فتأمَّلوا رحمكم الله رحمة أصحاب رسول الله ﷺ بخَلق الله تعالى، كيف كانت؟ وغرائب أحوالهم وكرمهم في أقطار الأرض، كيف ذاعت وشاعت؟.

وكان هذا السيِّد ﷺ، وأعاد علينا من بركاته يصوم الدهر، فإذا أفطر أفطر على كسور يابسة وزيت، فنحر يومًا جَزُورًا فأطعمها الناس، فأتى أهله شفقةً عليه ورحمةً له، فأخذوا شيئًا من طيب لحمها وطبخوه له؛ ليفطر عليه ويتقوَّى به، فقدَّم له ذلك عند فطره فقال: ما هذا؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين هذا من لحم الجزور الذي نحرت اليوم، فقال: بخٍ بخٍ بئس الوالي عمر بن الخطاب! إن أكلت أطيبها، وأعطيتُ الناس كَراديسها، ارفعوا هذه الجفنة وأعطوها للفقراء، وأتوني بخبزٍ وزيتٍ، فجعل الكسرة بيده وأثرد الخبز وأكل.

هذه صفة الرَّاحمين، وطريقة الخائفين، وأولياء الله المقرَّبين رضي الله عنهم أجمعين.

يُحكى أنَّ الشيخ ولي الله أبا الحسن الشاذلي نفع الله به قَدِمَ على تونس، فدخل من باب المنارة في زمن غلائها، وشدة مسغبتها، والناس يقتتلون على شراء الخبز، والفقراء مطرحون على الأرض من شدة الجوع.

قال: فأخذتني رحمة على عباد الله، فكانت عندي دريهمات، فاشتريت بها الخبز الذي عند الخباز وحزته للفقراء، فنظر الخباز في الدراهم قال: هذه ليست جيدة، وأنتم المغاربة تتعاملون بالكيمياء، قال: فرهنته بُرنسًا في الثمن، فإذا شيخ أحسن ما يكون سمةً وهيئةً قد اجتاز عليَّ، وقال لي: يا أبا الحسن هات الدراهم فأعطيتها إيَّاه، ثم ردَّها، فقال لي: هذه طيبةٌ جيدةٌ، قال: فرفعتها للخبَّاز فأخذها، وأخذت بُرنُسي، ثم طلبت الله أن أعرف ذلك الرجل. فلما كان ذات يوم أتيت المسجد

وقوله: ﴿من الله﴾ يُشير إلى أن ذلك من باب الفضل والامتنان لا من باب العدل في مقابلة العمل المستلزّم لذلك؛.

ولذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٨٥].

فقد أشار بالفضل والرحمة إلى أن وجود النبي ﷺ فضل من الله، ورحمة للخلق، فعليهم أن يفرحوا بذلك، فإن من كان من قبيل الفضل والرحمة؛ لا بد وأن يسري فضله ورحمته في الخلق، ومن جملة ذلك كونه ليِّن الجانب.

قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ [آل عمران:١٥٩].

الفظُّ في الأصل: ماء الكَرِش، وذلك مكروه شربه لا يُتناوَل إلا في أشدِّ ضرورة، فأُستعير للكَريه الخلق.

وقوله ﷻ: ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

عمم الخلق الكريه، ثم أشار إلى منشأه وهو غلظة القلب وجفوته وقسوته، فإن مَن كان قاسي القلب؛ لا يأتي منه خُلق حسن، ولا فعل جميل إلا نادرًا لايُعتدَّ به.

قوله ﷻ: ﴿لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

: أي تفرَّقوا من مجلسك.

وفيه إشارة إلى أمرين:

الأول: إن فرض المحال جائز، وذلك أن كونه ﷺ مُتَّصفًا بالخلق الكريه ممتنع؛ لأنه معصوم، ومعنى: العصمة الامتناع بالغير، فلو خلاه ونفسه؛ لصدر عنه ما صدر عن غيره.

ولذا قال: «**اللّهم لا تكلّني إلى نفسي طُرفة عين، ولا أقل من ذلك**»(١).

=

أُصلي فإذا الرجل، فقلت له سألتك بالله من أنت؟ فقال: أنا أبو العباس الخضر، كنت بالصين أو بالصعيد، فقيل لي: أدرك عليًّا، وقل له: أتتكرم علينا يا عليٌّ، ونحن خَلقنا الكرم والرَّحمة وأنا أرحم الراحمين، وأعلم بمصالح عبادي أجمعين؟.

(١) رواه أبو داود (٣٢٤/٤)، والنسائي (١٦٧/٦).

ومن ذلك قول يوسف الصديق ﷺ: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:٥٣]: أي من شأنها ذلك لولا العصمة.

كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف:٢٤].

والأمر الثاني: إن الله تعالى خلق الخلق برحمته ولرحمته، وجعل الصورة النبوية مظهرًا لذلك، والرحمة من الأمور الجالبة لا من الأحوال السالبة، فإذا ظهر كونه تعالى غفورًا رحيمًا، وكونه ﷺ رءوفا رحيمًا؛ فاعرف هذا السرَّ، فإن الله تعالى لا يردُّ عبده، وهو معه وعنده.

في آل عمران: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [١٦٣]:
(هُمْ): أي متبعوا رضوان الله تعالى بالطاعة، وقسمهم من أهل المعاصي درجات بحذف المضاف: أي ذوو درجات عند الله: أي في عمله وحكمه، كما يُقال: هذه المسألة عند أبي حنيفة كذا، وعند الشافعي كذا؛ بمعنى: إنهم متفاوتون في علم الله تعالى في مراتب الثواب والعقاب.

فالمطيعون لهم درجات بحسب أعمالهم قلة وكثرة، وكذا العاصون لهم دركات بحسب أعمالهم قلة وكثرة أيضًا، فالعمال بجميع الأعمال الصالحة أرفع درجة، كما أن العامل بجميع المعاصي أسفل دركة؛ ولذا قال بعض العارفين: لا تقنع بعفو الله؛ بل أرغب في إحسانه بأن يزيدك هنا عملاً ومراقبة؛ فيزيدك عنده جاهًا وحرمة، والله بصير بما يعملون عالم بإيمانهم ودرجاتهم؛ فيجازيهم بحسبها خيرًا أو شرًا؛ وإنما فُسِّر البصير بالعلم؛ لأنه لا معنى لكونه تعالى سميعًا بصيرًا سوى العلم بالمتبوعات والمبصرات، ولمَّا كان تعلُّق علمه بأعمال الغير مما لا ريب فيه عمل على المجازاة [....(١)].

فعلى العاقل أن يجتهد في أن يكون من أهل الدرجات لا من أهل الدركات، والله تعالى جعل في كل جنة مائة درجة بعدد الأسماء الحسنى، والاسم الأعظم؛ هو

(١) يوجد بتر بالأصل قدر كلمتين.

الناظر لدرجة الوسيلة خاصة، وله في كل جنة حكم كما له حكم كل اسم إلهي؛ ولذا جعل شجرة طوبى في المقام المحمَّدي إذ كما أنه تشعب كل كمال في الدنيا من الحضرة النبوية؛ فكذا ينشعب كل مراد في الآخرة من تلك الشجرة؛ إذ في كل مقام من الجنة غصن مظلل عليه يتكون منه ما يريد صاحب المقام من الُحلل، والحُلى، والبراق، والطيور، والحور، والغِلمان، وجميع الآلاء.

فطوبى لعبد كان نَسبه متصلاً بنَسب النبي ﷺ من حيث الديانة والتقوى؛ ولذا دعا ﷺ بالمغفرة لكل مَن كان صِهرًا له، وكان هو صهرًا له فافهم الإشارة، ولا تُضيِّع القرابة، فأنت النسيب لذلك الجناب العالي، ولك منه عِرق متصل، وأنت لا تدري، فإن كنت تريد شعبة من شعب شجرة طوبى؛ فاحفظ شعبة نوره في الدنيا بمحافظة الأعضاء والقوى.

وقد ثبت أن أبواب الجنة ثمانية على أعضاء التكليف، فلكل عضو باب، والأعضاء الثمانية؛ العين، والأذن، واللسان، واليد، والبطن، والفرج، والرجل، والقلب، فقد يقوم الإنسان في زمن واحد بأعمال هذه الأعضاء كلها؛ فيدخل من أبواب الجنة الثمانية في زمان واحد على ما يليق بموطن الآخرة، فإن الآخرة من عالم اللطافة؛ كالبرزخ، وكباطن الإنسان الكامل.

ومن الأزمنة المباركة شهر الله رجب.

فالراء رحمة الله العامة.

والجيم جمال الله؛ وهي النعمة الخاصة.

والباء برُّ الله تعالى ظاهرًا وباطنًا؛ وإنما كان الجيم إشارة إلى ما ذكرنا لِما أطبق عليه المكاشفون من أن الله تعالى تجلّى لنبيه ﷺ بنور تجلّي الأفعال بعد صلاة المغرب من ليلة الجمعة الأولى منه، فصلّي شكرًا لتلك النعمة الجليلة اثنتي عشرة ركعة؛ لَما أن تقرُّبه إلى الله تعالى كان بالسجدة دائمًا لِما في الصلاة من ذوق المكاشفة والمشاهدة.

فالصلاة حظ القلب فلا يرغب فيها إلا أهل القلوب والأذواق(١).

(١) قال سيدي محمد وفا في المعاريج: فللنفس في منازلها الطورية صلاة تختص بكل منـــزلٍ منها سفلي وعلوي، ملكي وملكوتي، جسماني وروحاني، ظلماني ونوراني، فللجسم صلاة في طوره الجسماني، وللنفس صلاة في طورها النفساني، وللصدر صلاة في طوره الجبروتي، وللقلب صلاة في طوره الملكوتي، وللروح صلاة في طورها الروحاني، وللسر صلاة في طوره النوراني، وللفؤاد صلاة في طوره الرضواني، فصلاة الجسم تشتمل على أوصافٍ من القيام، منتصبًا متوجهًا نحو الكعبة حيثما كان، في بقعةٍ من بقاع الأرض رافعًا يديه في تكبيرة الإحرام، محركًا لسانه بدراسة القرآن، راكعًا رافعًا ساجدًا جالسًا آتيًا بصفات الصلاة الشرعية، ظاهرًا كما صلّى رسول الله ﷺ في ظاهر الأمر الصلاة المشروعة التي أمر بالإتيان بها ظاهرًا، فقال ﷺ: «**صلُّوا كَمَا رأيتموني أصلّي**(١)»، فتلك صلاة الأجساد المكتفى بها في ظاهر الشرع، وأما صلاة النفوس فهي أن تضم لما وصفناه من أفعال الجسم، قراءة ما تيسر من القرآن بعد الإتيان بالفاتحة؛ إذ لا تصح الصلاة إلا بها على رأي أكثر الأئمة الراشدين، كالإمام الشافعي، والإمام مالك، والإمام أحمد بن حنبل، وعامة علماء الدين رضي الله عنهم أجمعين، وينطق بالتكبير قبل القراءة وبعدها في كل أفعال الصلاة من الركوع والرفع منه، والسجود والرفع منه، والقيام، وإن تكرَّر منه ذلك، والتسبيح، والتحميد، والتمجيد، والدعاء، والتحيات بكمالها، والتشهُّد، والصلاة على رسول الله ﷺ فيه، وضم الصلاة على آله؛ للصلاة عليه في التشهُّد الأخير، والنطق بالسلام على أهل اليمين عند الخروج من الصلاة، والسلام على ملائكة اليسار مع المحافظة على إخراج الحروف في تلاوة القرآن؛ إذ ذاك شرطٌ في صحة الصلاة المشروعة، فإذا أتى بجميع ما ذكرناه فقد أدى صلاة النفس مع صلاة الجسم، وأما صلاة الصدر فهي التهيؤ للتسوية والتعديل للانشراح لقبول الواردات، والخروج عن وصفيّ الضيق والحرج، فيضم لما وصفناه من صلاتي الجسم والنفس الانشراح والانبساط، والاستسلام لحقيقة الإسلام، وتلقّي أنواره، وقبول وارداته، فيقوم بنشاطٍ في التوجُّه والبسط لصلاته، فيرتل القرآن ترتيلاً، ويتفهّم ما يتفوَّه به من التنـــزيل، وما ينطق به من التكبير(١) والذّكر والتسبيح والتحميد، فهو بأفعاله في صلاته سالك منهاجه بنورٍ من ربِّه، فلا يضل في طريقه، ولا ينسى القيام بواجب حقه، فثمرة صلاته الانشراح بعد الحرج، والضيق والانبساط بعد الحصر في الفج العميق.

وأما صلاة القلب فهو أن يضم لما وصفناه من الصلوات الثلاث:

حضور النية عند الدخول في الصلاة، ولزوم الأدب، والخضوع، والخشوع، والخوف، والخشية، والتذلل، والتواضع، والتصاغر، والتضاؤل، ولزوم الحضور في جميع الصلاة، وألا يلتفت فيها يمينًا ولا شمالاً، وأن يعلم من يناجي في صلاته، فيضيف لما وصفناه في قراءته تدبُّر القرآن، فيتدبره بعد =

=

ترتيله، فإذا مرَّت به آية فيها تخويف تواضع وتذلل وتصاغر وأناب واستغفر ونوى التوبة عن ذنبه، واعتذر لربه، وأقلع عنه، وأذل نفسه واستحقرها، وقمع أوصاف الكبرياء، والعجب والدعوى، والتعزز والخيلاء، وفرغ محله من السوى، وامتثل ما ورد على لسان الأنبياء عليهم السلام، كقوله على لسان داود النبي عليه السلام:

«**يا داود فرِّغ لي بيتًا أسكنه**» وأن الحق تبارك وتعالى أراد بذلك: فرِّغ قلبك من سواي وملاحظة غيري.

وقول النبي ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم**».

والقلوب أوعية فأتقاها أوعاها للخير، فإذا صلَّى القلب هذه الصلاة تنــزلت عليه لطائف الأنوار، وتنــزلت عليه السكينة، ولبسه الوقار، وكتب فيه سطر الإيمان، واستوى وتعدل لقبول واردات الإحسان، واستغرقته الأنوار الإيمانية، وأشرقت عليه إضاءات الروحانية، وسرى في الملكيات، وعرج في درج الملكوتيات، وأفاق بعد صعقه لسماع كلام رب الأرضين والسموات، فتشرق أنواره على المصلين دونه، فيكسون حلل أنوار جلال وهيبة وكمال، فهم المنعوتون في كتاب الله العزيز بالشهداء.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿**وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ**﴾ [الحديد: ١٩].

وقال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [الحديد: ١٢].

وقال تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ**﴾ [النساء: ٦٩].

فالصالحون هم المسلمون، والشهداء هم المؤمنون، والصديقون هم المحسنون، فهذه صلاة القلوب.

وأما صلاة الروح فهو أن تضم لما وصفناه من صلوات الحقائق الثلاث.

وهم: القلب، والصدر، والنفس، خارجًا عن صلاة الجسم؛ فإن صلاة الجسم مشهودة للأبصار بخلاف الحقائق الثلاث، فصلاة الروح انضمام الفرح والسرور بقدوم أوقات أداء الفرائض؛ إذ هي أوقات التجليات والتنــزلات، وإعلان الداعي بالبشرى، والتهيؤ للحضور للمخاطبات والمكالمات والمناجاة، والتفكُّر بعد التدبُّر في أسرار الآيات المنــزلات، والتسوية والتعديل لنفحة الرحمانيات، والخروج من حصر التعلقات بنيل الجزاء والثواب، وحلول الدرجات، وتلقِّي الإفاضات الرحموتيات بلطائف العلوم الكشفيات، والفهوم الغيبيات، والتنعُّم في رياض الجنات، فيلبس حللاً رضوانيات، ويرقى معاريجًا قدسيات، ويتوَّج تيجانًا ربانيات، ويحل بمقعد الصدق، ويشرف بمكالمة الحق، ويشهد جمال حضرة الربوبية، ويتمحَّض بصفة العبودية، فكلما تلا في صلاته آية وتفكَّر فيها وتفهَّم معانيها عرج روحه النوراني إلى أفقٍ أعلى، ومقامٍ أسنى، ومشهدٍ أضوأ، ومقعد صدق

=

أزكى وأبهى، فيرى في معراجه ذلك أنه بلغ سدرة المنتهى، وألا مقام أعلى من ذلك الأفق الأعلى، فعند انتهائه في نظره وبلوغه في استيفاء رزقه في مرامي فكره تنفهق عليه أنوار الآية التي تلي الآية التي قرأها، وتفكر فيها وتبحَّرها، فيرى ما لم يكن رأى، ويشهد ما لم يكن لَه بمرأى، فيرجع ببصر بصيرته خاسئًا حاسرًا، فعند رجوع بصره كرة ثانية يكشف لَه عن سر معراج الآية الثالثة، فيشهد من انفهاق الأنوار الرحموتية، والأسرار الرهبوتية، ما لم يكن في وسع الصفة البشرية حمل جزئه فضلاً عن كله؛ فيفجأ نظره انفهاق الأنوار، ولطائف الأسرار، فيستغفر الله ﷻ مما كان وقف عند ظنه، وبلغ حده فهمه ووهمه، ووقر في باطنه أنه الغاية القصوى في ذلك المقام، والنهاية في دار السلام، ومحل الأمان والإكرام، فإذا استغرق المصلي في حقيقة هذه الصلاة الروحانية، والحقيقة الرضوانية، واستوفى ما قدر لَه، وقسم من الرزق الروحاني في المقام الرضواني والطور النوراني كملت صلاته الروحية، وفاضت عليه أنوار المقامات الصديقية، وهو مقام الإحسان، فعند ذلك ينتهي في معراجه الروحاني، ومنتهى مقامه الرضواني.

وأما صلاة السر فهي أن تضم لما وصفناه من صلوات العوالم الطورية، واللطائف الظهارية والبطانية دوام المراقبة والحضور للمشاهدة والمخاطبة، فلا تلحقه غفلة، ولا تمسه لفتة، ولا يتعلَّق بعلاقة روحانية، ولا ملكوتية، ولا جبروتية، ولا نفسانية، ولا جسمانية، فيكون دائمًا على صلاته، ذاكرًا لله ﷻ في خلواته وجلواته، قائمًا بمأموراته ومنهياته، مستغرقًا في فكر الآية ونعمائه، حامدًا لله تعالى بجميع محامده ومبتغياته، طالبًا منه نوال عطائه وإفضاله، وتنـــزلات إفاضات رحموتياته، طالبًا للفتح المبين في فهم أسرار آياته، مشاهدًا تصاريف القدرة الربَّانية في براياه ومخلوقاته، مستغرقًا في فهم أسرار ملكوتياته وروحانياته، كاشفًا، ينـــزل الأعمال على لطائف جوارح العباد، وعجائب صنعته في مبتدعاته، ملاحظًا تصريف المشيئة الربَّانية في اللطائف السمائية، والحقائق النورانية، وتنـــزل الأملاك العلوية النورية بإرسال الغيث بالقطر النازل، وافتراق قطراته، وحكمة الحق تبارك وتعالى في إحياء الأرض الميتة بوروده في وقت الحاجة، وكفه عند الاستغناء عنه، وإرسال الرياح بين يديه مبشرات بتنـــزل الغيث، وسوق الماء في البحار والأنهار إلى الأرض الجرز، وما تخرجه من النبات والأقوات، والفواكه المختلفة الطعوم والألوان، وما تشتمل عليه من النفع والضر للحيوان والإنسان، وما يكون منها غذاء لأهل الجنان ولأهل النيران، وما لا يدخل تحت حصر حيطة علم إنسان، ولا ملك ولا جان، ولا يطيق حمل معرفته الثقلان، فسبحان الملك العظيم الشأن، فإذا صلى السر هذه الصلاة الطورية، وقام بها في السرية والجهرية نال مقام العرفان، وشهد محل الرضوان، وكان للأنبياء والرُّسل من خواص الأتباع المحبين الإخوان، تلو العلماء المصطفين من عباد الله المتقين.

وقد كان السلف على مداومة صلاة الغائب في الوقت المذكور اقتداء بالنبي ﷺ، فمَن كان من أهل التجلّي؛ فلا كلام فيه، ومَن كان من أهل الاستتار؛ فتقليده بأهل التجلّي من الأمور الواجبة عند القوم، أو بالتقليد الصحيح يتجلّى أنوار التحقيق، ومن الله الإرشاد والتوفيق.

وقد قالوا: التوبة سبب الرضا؛ لأن الله تعالى يحب التوّابين، ويرضى عنهم، والمراقبة سبب العصمة؛ لأن الحاضر مع الله تعالى لا يُعصى، والخوف سبب الأمن إذ لا يأمن إلا الخائف؛ ولذا يُقال يوم القيامة: لا تخافوا، والرجوع إليه تعالى سبب الصلح إذ الاختيار باقٍ بعد، والاعتذار سبب العفو على ما عليه الكرماء، والندامة سبب القبول، فإذا حصّل القبول أذن للدخول، وإذا أذن للدخول؛ فُتح باب القربة والوصول، وإذا حصل الوصول؛ حصل الرؤية على الوجه المأمول؛ لأن الله تعالى لا

=

فهذه لطيفة من أبعاض صلاة الأسرار، فمن صلّى سره هذه الصلاة المرضية، وقام بحقيقة هذه الأوصاف السنية، وبلغ بفهمه الثاقب، ودركه الصائب، ونوره الساطع، وحسامه القاطع إلى أفق هذا المقام العلي، وسنا برقه البهي، فوقف على باب الرحمة طالبًا إفاضات الفضل الإلهي، والرحمة الربّانية، سائلاً ربه العفو والغفران، والإعانة على الخروج عن التعلّق بحبال الجزاء والثواب، والالتفات لنعيم الجنان ودار الرضوان، فإذا تأدّت هذه الصلاة بكمالها من أقوالها وأفعالها وأحوالها انثالت عليه إضاءات الأنوار الرحمانية البطانية للطور السابع، بعد ختم صلوات العوالم الست، فيبدأ العالم السابع بإتيان صلاته وتمحضه بالخروج عن مقاماته وغاياته، فيرقى في معاريجه الإخفائية، والأفئدة الاصطفائية الاختصاصية، برئًا من حوله وقوته، مجردًا من أثواب إنيته، ممحوًّا رسمه واسمه بين العالمين، حاضرًا بحقيقة الافتقار لأرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، متابعًا للقدم النبوي المحمدي، موافقًا مرافقًا للطيف الأحمدي، عار من كسوة الأغيار، لابسًا حلل الأنوار، غريقًا في بحر الوحدانية، مستهلكًا في زمان الفردانية، معدومًا للأكوان، مشهودًا للرحمن، مسوًّى معدلاً لقبول فيض التنـــزلات الربّانية، والانفهاقات الرحمانية، ثابتًا تحت أحكام الأقدار، فقيرًا من جميع الأغيار، حاضرًا بالله مع الله، شاهدًا لله بالله، سامعًا كلام الله بالله، تاليًا للقرآن بالله، عالمًا بالله، كاشفًا بالله، ذاكرًا لله بالله، مصطلمًا في نور الله، آخذًا بكله كلا من الله، فلا يرى سوى الله، ولا يفوه إلا بالله، ولا يشهد في الكون إلا الله، ولا يرى ضرًّا ونفعًا إلا من الله، ولا قبضًا وبسطًا إلا من الله، ولا ظهورًا وبطونًا إلا لله، ففي صحوه يشهد الله وهو بمقام العبودية، واضعًا قدمه على أثر القدم المحمدي، والنعت الأحمدي، سامعًا كلام الربوبية بحقيقة العبدانية، فَأَرَتْهُ كلامها الرباني، وتنـــزلها الرحماني بالأفق الأعلى.

يحجب ذاته عن أهل الجنة، وهم في الدنيا؛ أهل القلوب.

فعليك بطريقتهم وسيرهم في كل ما يأتون وما يذرون، ومَن لم يكن له أدب؛ لا يصحُّ الاقتداء به، فيُحترم إن كان من أهل الجذبة والحال، فإذا كان تارك الأدب لا يصلح للاقتداء؛ فما ظنك بتارك الأحكام، وقد قال تعالى: ﴿وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة:١٨٩]، وهي الشرائع الظاهرة أولاً، ثم الرياضات والمجاهدات، فعندها ينفتح بيوت المعارف والحقائق على ما هو العادة الإلهية، ومن الأسباب إحياء الليالي؛ إذ فيه شهود مولى الموالي، والوصول إلى أعلى الأعالي، رزقنا الله وإياكم.

وقال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨].

الآثم: اسم للفاعل المبطئة من الثواب، وله حسن موقع مع الإملاء الذي هو الإمداد والإمهال والتأخير.

واعلم أن الله تعالى جعل لكل إنسان أجلاً معلومًا؛ ليبلغ كماله الذي قُدِّر له، فإن كان من السعداء؛ فكماله في الدين، والسير، والسلوك؛ يحصل في مدة أربعين سنة غالبًا، وإن كان له عمر آخر طويل بحسب الإرث المحمَّدي ونحوه.

وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**طُوبى لِمَن طال عمره، وحسن عمله**»(١).

يعني أن طول العمر؛ إنما هو لكسب حسن العمل، وهو للوصول إلى العلم الوهبي كما ورد: «**مَن عمل بما علم؛ ورَّثه الله علم ما لم يعلم**»(٢): أي بما علم من الشرع لا بكل ما عمل آيًا كان.

فإن الفلاسفة، والحكماء المتقدِّمين، وأمثالهم أنفوا عن الاقتداء بالأنبياء عليهم السلام، والعمل بشرائعهم اعتمادًا على عقولهم، وعلومهم، ورياضاتهم، فحرموا عن علم المواهب والإرث، إذ لم يتجاوزوا عن حدِّ ذوق؛ كأفلاطون، وأين هو من أذواق أهل المقامات الخارجين عن طور الكون، والحدوث الروحاني، الداخلين في

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/٧٠)، والديلمي في الفردوس (٢/٤٤٥).

(٢) تقدم تخريجه.

مرتبة الوجوب والقدم الربَّاني من حيث السير؟[1].

(١) قال الشيخ ابن سبعين قدس سره، وهو من أعجب ما قال: حكمة سابعة: ويقال: الفقر هو التجرد عن المواد والاتصال بالذوات المجردة المرسوم عليها في موضوعات الشرائع والمعبر عنها في اصطلاحهم: بالملائكة وعالم الأمر، ثم التجرد عنها والاتصال بالحكيم العليم الذي أمر، الحكيم العليم المبدع الأول الذي أمر الحكيم العليم الثاني، ثم التجرد عن الجملة والاتصال بالحكمة والكلمة، ثم التجرد عنها والاتصال بالحضرة السَّنية التي يظهر فيها الحكيم العليم الأول المذكور أنه من عباد الله، والله أعز من ذلك وهو عزيز؛ لأنه اعتز على العلماء به قبل هذه التي ليست من جنس ما يعلمه الفيلسوف ولا يفهمه بعض الصوفية. وهو علم التحقيق الغريب الذي لم يخبر قط جميع من دون الدواوين كلها عنه، ولا هو من قبيل السهو والعويص ولا في قوة البطيء مع الحريص. فاسمع ما أقوله لك ولا تلتفت إلى ما تخبط فيه شيعة أرسطو، وكونهم يقولون: الحق عز وجل هو المحرك للجرم الأقصى بذاته.

والمتأخر منهم يقول: بل هو الذي فطر الأمر وهو الذي أمر بتحريكها، وهو ثالث رتبة فوق محرك الأطلس.

ومنهم من قال: هو ثاني رتبة، فانظر ذلك في آخر كتاب «المشكاة» للغزال.

وفي كلام ابن سينا والفارابي. وتَحَيَّرَ ابن رشد في ذلك ثم اختار قول الحكيم، وقال به وزال عن الغير.

وتخبط في ذلك ابن طفيل وانفصل عنه بِهَذَيَان لا فائدة فيه للحكيم النبيه. وكذلك مذهب أهل الرواق وشيعة فيثاغورس ومن قال بالمثل المعلقة والحياة السارية في الموجودات، والذي قال بالانتقال وبالأشياء المؤلفة من الفاني والباقي.

وكذلك جميع ما تسمع من بعض الصوفية الذين يقولون: مقام الإسلام والإيمان والإحسان والحق والمطلع والأفعال والصفات والذات.

والذي يقول: الأسماء والتخلق والأسماء التي تتصف ويتصف بها والاسم الفعال والأسماء المتحابة والاسم الذي يتصف، فذلك كله منه ما يصح بوجه ما، ومنه ما لا يصح.

وكذلك قائل: «والحق وراء ذلك كله» فإنه أراد المعلوم المضاف.

وبالجملة: ما عرفوا الله حق معرفته ولا علموه على ما ينبغي له، فعليك بالرجال.

واعلم أن العلم الإلهي منه ما يتعلم، ومنه ما يورث، ومنه ما يُتلقى من صدور الرجال، ومنه ما يوجد حالاً وذوقًا، ومنه ما يظفر به في الجميع.

فقل: أعوذ بالمقصود المعلوم عند معلمي حيث معلمي: من توقف أرسطو وتشتيت مسائله الإلهية خاصة، فإن غيرها من سائر العلوم أحكمها و لم يغلط فيها إلا في القليل، ومن شكوك المشائين،

=

=

وحيرة أبي نصر، وتمويه ابن سينا في بعض الأمور، واضطراب الغزالي وضعفه، وتردد ابن الصائغ، وتـنويع ابـن رشـد، وتلويحات السهروردى مؤلف: «حكمة الإشراق» والتلقيحات بمذهب أفلاطون، وتشويش ابن خطيب الرّي، وتخليط الأقدمين، ورموز جعفر المحتملة معرج التصوف مع الحكمـة من حيث أتباعه، ومن شطحات بعض الرجال في «الرسالة» الذين نطقوا من أحوالهم الأول و لم تحذقهم العلوم ولا الصنائع العلمية ولا حققوا المبادئ وجاوزوا المقدار بأقوالهم وأحوالهم بوجـه مـا يسـلمه بعـض الناس وينكره الأكثر ومن تصريف ابن مسرة الجبلي في الحروف والإطلاقـات في النطق اللاحق للأشياء وإضافته الآيات وفهم أقسام بعض السور والإقدام على الأحكـام واقـتران بعض القرآن ببعض، ومن تهذيب بعض الأسماء والصفات والكون والوجود والموجود والشفع والوتر والتوحيد على مذهب ابن قَسِيّ صاحب «خلع النعلين» ومن الأجناس الجامعـة المتقدمة والتآليف والمذاهب والذهاب والاعتبار المقدر المصرف في جملة الأسماء ومدلولها وفي الصفات الدائرة التي تدور من مدلولها على صيغها، وبالعكس على مذهب ابن برجان، ومن الوصـول المنسوب والوقوف عنده بحسب متعلق الأسماء والصفات والمقامات والأرواح والتلوين والـتمكين والمحـبة والوجود والواحد والوحدة والإضافة المحذوفة والمجردة والشائعة وغير الشائعة بحسب «المواقف» المنسوبة إلى النفرى المعلم الناقل عن المولد على زعمه وغيره.

فجمـيع ذلـك كله لا خلاص فيه متمم ولا إخلاص مكمل، وهو مما يدخله الغلط من الصنائع عند طائفـة، ومـن الأحوال عند آخرين، ومن الاصطلاح عند قوم، ومن الفهم عند آخرين، ومن الرياسة ومن اللذة ومن سوء الفهم عند الأكثر.

وهؤلاء **منهم** من تلذذ بالأنوار والأحوال، وغفل عن الأصل، وفرح بنفسه و لم يكمل، ومنهم من علم المقصود و لم يتحرك إليه بالسلوك وغلبته الطبيعة والأمور الطبيعية والرياسة وحفظ الصيت عليه، ومنهم من بهره حال الاتصال فغلط.

ومنهم: من شك في الأصل ودفع تارة وجذب أخرى.

ومنهم: من كان أوله ضد آخره وبالعكس.

ومنهم: من وصف المقصود و لم يتصف به.

ومنهم: من ضر بكلامه ونفع وتنوع أمره وانتقل.

ومنهم: من ينفع من جهة ما ويضر من جهات. ولولا ما قصدت في هذا التقييد من الاختصار كنت أرسـم لك مقاصدهم من حيث مواضعها والمسألة والجواب ونبين لك شأنهم كله وكيف الأمر فيهم على الإطلاق بالبرهان.

=

فقوله: «**علم ما لم يعلم**»: إشارة إلى هذا العلم الذي هو نتيجة التقوى المأخوذة من الشرع، لا نتيجة الأمور الموضوعة من طريق العقل.

ومن هنا ذمَّ الوضع مطلقًا؛ لأنه عقيم، ومدح الشريعة؛ لأنها ولود، والولود وإن كانت سوداء؛ فحسنة مع أن الشريعة بيضاء صورة، ومعنى.

كما دلّ عليه قوله ﷺ: «**تركتكم على المحجة البيضاء**»[(١)].

والعقيم إذا كانت حسنة بيضاء؛ فقبيحة سوداء؛ ولذا أمرنا بإكثار النكاح؛ لتكثير الذُّريَّة، وبثّ النسل؛ ليظهر كمال الدين، وحقيقة التوحيد، وإمداد السواد الأعظم؛ وهم هذه الأمة المرحومة القاصرة أعمارها في الظاهر ، الكاملة أنوارها في الباطن، فإنهم جاءوا وقت الأصيل، وظل هذا الوقت ممدود فأعرف ذلك.

وإن كان من الأشقياء؛ فإنما يُستكمل له أمره في مدة سبعين سنة غالبًا؛ لأن قعر جهنم إنما يبلغه في هذه المدة، كما عُرف في قصة الهدَّة، وكما أن القصب ينمو أُبنوبًا فأُبنوبًا فكذا الإنسان في باب الخير والشر.

فإن قلت: فقد يكون بحيث لا يبلغ الإنسان إلى المدة التي ذكرت؟.

قلت: إن الله تعالى إنما ذكر الإملاء في حق الذين وصفهم بالخبث الزائد، فلكل من أهل السعادة والشقاوة مراتب مراتب، فطيب وأطيب، وخبيث وأخبث.

وقوله: ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾ إشارة إلى أن الإهانة إنما جاءت في الحقيقة من قِبل الأسباب الخارجية؛ كطول العمر، والغنى، والجاه، ونحو ذلك.

وقد ثبت أن النبي ﷺ خشى على أمته من المال، وسعة الدنيا، وجعل حب الجاه آخر ما يخرج من رؤوس الصدِّيقين، فأمثال ذلك قد تحصل للعبد؛ لكن من

=

وبالجملة: عليك بالحق وفريقه وأهله وطريقه، فإن الرجال إذا تنوعوا دار الأمر بينهم وفيهم وعليهم.

لا زوال للحق ولا شك فيه، ولا يأخذه النقص ولا يختلف ولا يتغير، وهو الذي به هو الشيء وما هو، وهو الشاهد المتفق من جميع جهاته، وهو هو كما تقدم، وكل حائر فمن أجله كانت حيرته وفيه وبه. فافهم. فإنه هو المطلوب وبه يطلب، ومنه الطالب وله ومنه وعنه الكل. وقد خرج بنا الكلام إلى غير الذي قصدناه فنرجع له بحول الله تعالى.

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٤/٥٠٦)، وابن القيم في شرح المختصر للمنذري (١/٨٧).

طريق المكر والاستدراك، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ﴾ [الشورى:٢٧] الآية، وقوله الحق والعمل به واجب، والحذر من المكر لازم، وتفويض الأمر إليه فرض، وطلب الكمال الحقيقي قدم صدق.

في أواخر سورة آل عمران: قال الله سبحانه وتعالى حكاية عن بعض أدعية الأخيار: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣].

اعلم أن المعيَّة في الأصل بمعنى المعية الزمانية، ومن الظاهر أن توفيهم إنما هو على سبيل التعاقب لا على سبيل المعية، فحملها العلماء على المعية، والمقارنة بأحوالهم الشريفة، وصفاتهم اللطيفة، فإن هذا التوفّي كالتوفّي معهم، وبصحبتهم حكمًا في هذا المقام معنى أدق مما ذُكر؛ وهو إن جميع الأبرار كانوا في الصف الأول في عالم الأرواح لم يكن لأحدهم تقدم على الآخر؛ فكأنهم الحلقة المفرغة، ثم لمّا خرجوا إلى العين اقتضى الحكمة الإلهية التدريج في الظهور الخارجي، فكان الزمان قد جرى على أشباحهم، وصورهم الجسدانية لا على حقائقهم، وصورهم الروحانية؛ لأنه لم يكن في عالم الأرواح ليل ولا نهار(١).

---

(١) قال سيدي محمد وفا في العروش: واعلم أن الزمان الأول المنفصل بالوقت، المتّصل بالدهر زمان آدم عليه السلام، وآدم منار الحيطة الطبيعية، ومحمول موضوعها، وبما قام لتدبير هذه الكرة، وتأسيس أحكامها وأقواتها وأوقاتها وأكنانها ووقايتها، ثم تربَّع زمانه في نفسه(١)، فكان ما بين آدم إلى شيث تدبير المساحة والفلاحة، نزل بأحكامها الروح الأمين في حجاب الباء المكين، فحلّ إشكالها، وفتح أغلاقها وأقفالها، وسهَّل نِوالها ومنالها، وأودع في حالها مآلها، ثم الزمان الثاني ما بين شيث إلى إدريسٍ بعث الله الروح القدس من حجاب الستر السرادقي العرشي، فأحكم صنعة اللبوس والبناء، وحجب العيون عن نظر العورة بحجاب القدرة، وخلع خلع الجمال، والزيَن على الأشخاص والأعيان، والدمن.

ثم ما بين إدريس إلى نوح، كان ارتفاع الهمم بالنظر إلى الأفق السماوي، وإعمال الفكرة في حكم التأثير الهوائي والمائي والناري، وما أودع الله في الكواكب والبروج من أحكامٍ وتأثيرات وحركات وتقديرات، فتوجَّهت الهمة الطلبية على الحُجب السببيَّة إلى أن خرقت آفاقها، وفتحت أغلاقها، واستخرجت أسرارها وأعلاقها.

فبالأول: استنتاج أرواح النبات، واستخراج ما فيها من أسرار الأقوات بما قال الله عزَّ اسمه:

=

=

﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ* أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣،٦٤].

وبالزمن الثاني: استنتاج أرواح الستور، وحجب نظر العيون، وتأسيس أحكام الهندسة، ومواد البناء من المُفخَّرة والمُكلَّسة.

وبما قال عزَّ اسمه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٢٦].

وبالزمن الثالث: كان استنتاج أرواح الأوقات، وأحكام الحركات والسكنات والانفعالات، ومعارف مجاري الكواكب، والرصد، والخط، والكتب، والعدد.

وبما قال عزَّ اسمه: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٦].

وبالزمن الربع: ما بين نوحٍ إلى إبراهيم، وقد تمّت الإشارة من علوم الفلاحة، والهندسة والأرصاد والنجارة، فلمَّا تمت الحكمة الدنيا في الأرض والسماء، وبلغ الزمان، وانتهى إعلامه، وتمّت أعوامه وأيامه، وانتصبت أدلته وأعلامه؛ ظهر في نوح عليه السلام بدؤه وختامه، وبما كان نوح آدم الوقت، حذر النقمة والمقت، فتغالبت الحيوانية، وحكمت القوى الترابية، وأبت الأنفس إلا الإدبار، وقويت عصابة الكفّار، وكان ذلك بحكم الحجاب الواقع، والسبب المانع لعدم تنـزيل الخليفة الذي هو مالك عالم الخيال وربُّ الأشباح والأشكال، ولكل زمانٍ دولة ورجال؛ ولأنه ليس بزمان نزوله ولا وقت تجلّيه وحصوله، وذلك من أصل التخليق في الرحم، وتنـزُّل أصول الأرواح بالكلم.

ولذلك قال: ﴿وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ [نوح:٢٧] ومعنى قولنا التخليق في الرحم: إذا كمل استعداد المضغة؛ يكون التنـزيل، والنفخ الروحاني بحكم صاحب الزمان من أي أفقٍ كان، وهذا من أسرار الحُكم للوقت.

فعلم ﷺ أن النفخ الكائن بالكلم في الزمان المنصرم؛ لا يصلح لاستعداد الزمن الثاني ولا هو محلٌّ للتقوِّي الروحاني، فانقضت حكمة التَّمام، حلَّ ذلك العَقد والنظام، ولا بد من نقل الأصول من الحَبِّ والنوى، ونقل الآباء والأبناء.

قال تعالى: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [هود: ٤٠].

وبما كانت النشأة الآدمية من ماءٍ وطين، وكانت الحياة القائمة بالروح الحيواني هي بطانة الماء، والروح بطانة النار، والماء الذي هو ظاهر الحياة ماسكٌ بزمام الرحمة، فلك النار الذي هو بطانة الروح، فلمَّا استجيب الدعوة بسرِّ الحكمة؛ أعرضت الحياة التي هي باطن الرحمة، فانحلَّ الزمام الماسك، ففعلت القوة النارية في الماء الذي تجرَّد عن قوَّته، وخلا مِن مواسك حكمته فسجَّره، وفوَّره، وقطَّره، وفجَّره.

=

فقد توفَّاهم الله تعالى من حيث جسدانيتهم في أزمنة مختلفة، وما توفَّاهم من حيث روحانيتهم إلا في زمان واحد؛ لأن الزمان لا يجري على الأرواح الغير المتحيزة، فكما أنهم كانوا قبل وجود الزمان من حيث أرواحهم؛ كحلقة مفرغة لا يُدرى أين طرفاها؟ فكذا كانوا بعد وجود الزمان من حيث تعلُّق أرواحهم بأبدانهم على هيئة واحدة في الحقيقة، فكانوا كأنهم توفُّوا على وجه المعية، ثم إن قولهم: وآتنا ما وعدتنا على رسلك.

وأراد بمقتضى الوعد يعني: إذا كان لسان الربوبية قد أعطاهم الوعد، فلسان العبودية قد أعطى السؤال، وإلا فالله تعالى لا يخلف الميعاد، ولا حاجة للسؤال عند حضور الكريم؛ ولكن من أفراد يعطون جميع المراتب حقها.

سورة النساء

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:١] (١).

=

ومن هنا يُفهم قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [هود:٤٠]؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح:٢٥].

وبما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود:٣٦]؛ ولأنه دعاهم بالسُّنة الأولى إلى الحكمة الثانية، ولن يعدُ امرؤٌ قدره، ولا يخالف موضوع سرِّه.

وأمَّا الذين آمنوا مع نوح؛ كان لهم مدد من نبوَّته، وخاصية من حقيقته على حكم الندور، ولِما يكون به التأصيل إذا انختم الدور، ثم يدور وإلا فقد هلكت أنعامهم، وأنفسهم وأطفالهم، وغير ذلك مما لا يجري عليه القلم، وقد أُمر نوح أن يحمل معه كل زوجين اثنين، فما خصوصية هذا الإنعام من تلك الأنعام؟ وتمييز كل زوجين من نوعها وجنسها؛ وإنما هي حكمة ربَّانية وسريرة سريانيَّة.

(١) قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[النساء:١]؛ وهي حواء.

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم:٢١].

وما أنشأ الله تعالى من كل شيء زوجين؛ إلا لِيُعرِّفَ الله العالم بفضل نشأة الإنسان الكامل؛ ليعلم أن فضله ليس بالجعل الكامل ليعلم أن فضله ليس بالجعل.

فإن الذي هو الإنسان الكامل ظهر به ازدواج من لا يقبل لذاته الازدواج ما هو بالجعل، فضمن الوجود الإنسان الكامل الظاهر بالصورة، فصار الصورة بالصورة روحين فخلق آدم علي صورته فظهر في الوجود صورتان متماثلتان كصورة الناظر في المرآة ما هي عينه ولا هي غيره ولكن حقيقة الجسم

=

اعلم أن الله تعالى خلق آدم من الطين؛ كإنشاء الفاخوري كوزًا أو نحوه منه، وخلق حواء من آدم: أي من ضلع من أضلاعه اليسرى؛ وهي القُصيري أسفل الأضلاع؛ كإنشاء النجّار شيئًا من الخشب بنحته وإصلاحه، ولمّا كانت حواء مخلوقة من ضلع منحية إنحاء الحاء المفردة في الرسم؛ جُعلت الحاء في اسمها؛ لتدل على الوحدة الواحدية، كما أن آدم خُلق من الأرض البسيطة بساطة الألف؛ جُعلت الألف في اسمه؛ لتدل على الوحدة الأحدية.

فآدم هي النفس الواحدة التي خُلق منها فروعه، كما أن الألف هو المبتدأ الأول الذي تُفصَّل منه سائر الحروف بتغيير الصورة؛ لأن كل حرف من حروف التهجّي رجع إلى صورة الألف؛ بل إلى صورة النقطة في الحقيقة؛ لأن الألف مركب من نقاط ثلث، أو خمس، أو سبع عدد المعاني الثلاثة التي هي التعيُّن الأول الذاتي، والتعيُّن الثاني الصفاتي، والتعيُّن الثالث الأفعالي، أو عدد الحضرات الخمس، أو عدد الصفات السبع، فإذا غيرت صورة الألف المركبة من تلك النقاط؛ صارت: (أ ب ج د) إلى آخر الحروف، فالاختلاف في الصورة لم يقدح في الاتحاد في المعنى؛ ولذا قالوا: أصل العام أمر واحد.

فحواء صورة آدم في المعنى، وإن كانت مغايرة له في الخارج ببعض الكيفيات لأمر تقتضيه الحكمة الإلهية، إذ لا ظهور للحقائق المختلفة مادامت الصور متفقة، ولأمر ما خلق الله آدم أولاً، ثم خلق حواء منه ثانيًا؛ ليظهر الحقيقة الفاعلية والقابلية في أصل واحد، ومن ثم ضلَّ من المفسرين مَن جعل جزاء مخلوقة من بقيءة تراب آدم؛ لأنهما إذًا وإن كانا يرجعان إلى أصل واحد؛ وهو الطين، لكن حينئذ لا يظهر سر حنو أحدهما إلى الآخر؛ لأن خلقتهما من الطين من القرابة البعيدة لا من القرابة القريبة، كما في صورة الخلق من الضلع؛ لأن انحناء الضلع دلَّ على الحق، وكون

=

الصقيل أعطى ذلك، فافهم.

فإنه لب المعارف، فلمَّا أراد سبحانه إيجاد التناسل والتوالد والنكاح الصوري في دار الدنيا للاستئناس؛ فاستخرج من ضلع آدم عليه السلام من أقصره حواء عليهما السلام، فقصرت بذلك عن درجة الرجل.

تلك الضلع ضلعًا من أضلاع آدم؛ دلّ على جزئية حواء لآدم؛ ولذا مال إليها ميلاً كليًا ميل الكل إلى جزئه.

ومنه حُبب إلى رسول الله ﷺ النساء، وظهرت المحبة في آدم دون حواء؛ لأن آدم موطن حواء، والمرء لا يتحد بموطنه اتحاد الكل بجزئه، فاقتضت صفة الحياء المأخوذة من الحي؛ وهو آدم إخفاء المحبة من جانب حواء.

ولمّا ذكرنا من سرِّ الأحدية والواحدية؛ أنزل الله تعالى حروف التهجّي على آدم، فكما أن الألف كانت أول الحروف اللفظية، ثم منها تركّب سائر الحروف على اختلاف هيئاتها. فكذا آدم كان أول حرف معنوي بدأ الله تعالى به سائر الحروف المعنوية؛ فاشتمل على نقطة، وحرف، وكلمة، وآية، وسورة.

فكان في مرتبة الشئون الغيبية نقطة، وفي مرتبة الأعيان الثانية حرفًا، وفي مرتبة الروحانية كلمة، وفي مرتبة المثالية آية، وفي مرتبة الحس والجسم سورة، وكان أوله البسملة والفاتحة المبدوءة بالله، وآخره الناس، ففيه سر الأُلوهية والربوبية مع كونه في صورة الناس، إذ لا اعتبار بالصورة؛ بل بالحقائق، فعليك بالوصول إلى أصلك البسيط ففيه سر اسم المحيط، وعليك بصلة أمك الواحدية أكثر من صلة أبيك الأحدية؛ لأنها الواسطة.

وقال الله سبحانه: ﴿**وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً**﴾ [النساء:٤]: أي أتوا أيها الأزواج مهور النساء اللآئي أردتم نكاحهن، كما قال تعالى: ﴿**أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم**﴾ [النساء:٢٤]؛ حال كون الصدقات عطية من جانب هذا.

أحد الوجوه في الآية: فإن قلت: لا شك أن المهور واجبة على الأزواج فكيف عبر عن إيتائها بالنحلة، وجعلها من قبيل العطية؟ قلت: إن النحلة أخص من الهبة؛ لأنها عطية على سبيل التبرُّع من طيب نفس بلا توقع عوضٍ؛ فأشار بالنحلة إلى أن الإيتاء ينبغي أن يكون عن كمال الرضا، وطيب الخاطر؛ وذلك لا ينافي أن يكون المهور واجبة في نفسها؛ فهي فرض نافلة فأفهم جدًا.

وفيه إشارة إلى أن السنن في حكم الفرائض، فمَن اقتصر على الفرائض، وترك السنن والنوافل؛ فهو لم يأتِ بشيء تقتضيه الحكمة، وذلك أن الفرائض في مقابلة

شكر وجود الواجب، والنوافل في مقابلة شكر وجود الممكن؛ لأن الممكن مرآة الواجب، وللإنسان سرُّ الحقيقة الفاعلية التي تُبنى عن الوجوب، وسرُّ الحقيقة القابلية التي تُفصح عن الإمكان.

فلمَّا كانت نشأته جامعة لهذين السرين؛ اقتضت الحكمة الإلهية أداء الفرائض لأمر الواجب، وأداء الحق الوجود الواجبي، وكذا أداء النوافل امتثالاً لأمر الممكن اقتضاءً لحق الوجود الإمكاني؛ فكانت الفرائض فرائض صورة ومعنى، والنوافل نوافل صورة وفرائض معنى، وللصورة هنا حكم المعنى عند أهل التحقيق يعني: إن للنوافل حكم الفرائض؛ ولذا كانوا يسارعون في نوافل الخيرات، فمَن لم يعرف سرُّ الوجوب في صورة الجواز؛ مال عن هيئته الروحانية، وانحرف عمَّا يقتضيه نشأته الإنسانية.

ثم إن النساء إشارة على النفوس، كما أن الأزواج إشارة إلى الأرواح، والأرواح مزدوجة بالنفوس تحصيلاً لولد القلب الذي هو خليفة الله في أرض الوجود، ولا بد كذلك الأزواج من المهر؛ وهو إعطاؤها حق التزكية، وإلا كان قربانها لها زنا وفحشاً؛ لأنه بغير أمر الشرع لبقاء الرياء والمجازية، وبغير أمر الحقيقة لبقاء الميل إلى الأجانب والأغيار.

ولهذا السرُّ قال ﷺ: «**وُلدت من نكاح لا من سفاح**»(١): أي من نكاح صحيح في تشريفه وتحقيقه؛ ولذا كان كل تولُّد منه من الأقوال، والأفعال، والأحوال، نتائج حقيقية ينبغي التلقي بقبولها، والعمل بها في جميع المراتب، وهكذا حكم الكُمَّل.

وأمَّا مَن له نكاح شرعي دون حقيقي؛ فحاله الموافقة للشرع، ولا ينبغي الاقتداء في كل ما صدر عنه إلا بحسب الصورة الشرعية؛ لأنه صادر عن نفس وشهادة، لا عن قلب وغيب، ومنه يعلم أن التزكية واجبة لكل مكلَّف، كما أن المهر واجب لكل ناكح، فكما أن النكاح بلا مهر زنا، فكذا مقاربة النفوس بلا تزكية فحشًا حقًا؛ فعليك بالتزكية، وإياك والبقاء بتعينات النفس؛ فإنها تعينات

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (١١/٧٦)، وابن سعد في الطبقات (١/٦١).

فاسدة يجب إصلاحها؛ بل إزالتها، فإنه إذا زالت تعيناتها الفاسدة؛ بدَّلها الله تعالى بالتعينات الصالحة؛ وهي التعينات التي يتجلّى فيها بحقائق أسمائه وصفاته؛ فتكون حقه، والحق لا يصدر عنه إلا الحق، كما أن الباطل لا يصدر عنه إلا الباطن، ومن هنا ظهر الحقيقة والمجاز، والوجوب والجواز، والحق والباطل، والله المفضل العادل.

قال في سورة النساء: ﴿أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم﴾ [النساء: ٢٤].

وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

فالمال المفروض في حقِّ الأزواج؛ هو المهر، وكان الإيجاب من الله تعالى، والبذل من الناس، وسُمِّي المبذول مالاً لأن الإنسان يميل إلى المال بالطبع، ويدَّخره لوقت الحاجة، فإنه فقير بالذات، محتاج إلى قضاء الحاجات، وما هو بالطبع لا ينفعك عنه؛ ولذا مال إليه الخواص أيضًا؛ بمعنى أنهم جعلوه من قبيل الوسائل، والخُدَّام، لا من قبيل المقاصد والمخاديم كما دلَّ عليه العوام؛ ولذا ادَّخروه[1].

وأمَّا الخواص فقد بذلوه، وأنفقوه لِما أن الله تعالى جعلهم مستخلفين فيه، ففي

---

(١) قال العلواني: فأرواح الصدقات من أرواح الإيمان. وهي أرواح من الإحسان وأرواح من الشكر وأرواح من قصر الأمل وأرواح من مراقبة الرب وأرواح من الرحمة، فإن الذي يرى روح المسكين في روح المسكنة فيحن له ويواسيه فهو راحم برحمة الله التي عمته وكتبها عليه لكونه على بساط منه.

فويل لروح الغافل عن أرواح التقرب بأرواح الرحمة في أرواح المعروف مع أرواح الحاجات. وأرواح المسكنة وأرواح الفقر إذا كان فيها روح من الطاعة ولو بروح الإيمان المدلول عليه بروح لا إله إلا الله، وبروح الصلاة وبروح الصدقة.

والصدقة روح فيها روح برهان على روح إيمان المتصدق بالمفروض.

وعلى روح يقين المتصدق بالأرواح النقلية والأرواح بالنية روح بيان في روح إحسان ينبغي للمحسن أن يكون في إحسانه روح نية بأن يكون ذلك الروح المحسن به واصلا إلى أرواح والديه الذين ارتحلوا من هذه الدار وصاروا إلى روح البرزخ فهم على أرواح الانتظار إلى أرواح الأحياء، فإنهم على أرواح من الأرواح الصالحة.

والأذن واقعة بإفاضة الجودات على أهل الحاجات من الأحياء والأموات، والله لا يضيع أجر المحسنين. والأرواح كلها لله ولا تقرب إلا على روح من الله. وانظر: الأرواح (ص٥٨) بتحقيقنا.

بذله، وإنفاقه انقطاع عن العلاقة العائقة عن الحق تعالى، ولَمّا كان الاعتدال مما يُغتبط به عند أهل الله تعالى أشار إليه ﷺ بقوله: «**أجوع يومًا وأشبع يومًا**»(١).

فالجوع يومين تفريط، والشبع يومين إفراط، والميزان الاعتدال؛ وهو مساواة الكتفين؛ ولذا كان أكثر أهل الله يفطرون كل ليلة لكن على الاعتدال، ولا يعملون بالوصال إلا أن يقتضيه الحال.

ثم إن البذل وإن كان له متعلّقات كثيرة شرعية فرضًا ونفلاً؛ لكن لَمّا كان النكاح أفضل النوافل عند الإمام أبي حنيفة رحمه الله، وكذا عند أهل الله؛ كان بذل المال له أحبَّ وأَوْلى، وإنما احتاج النكاح إلى البذل؛ لبيان الحرمة، وصيانة المرأة عن الابتذال؛ لأنها مطلوبة، والمطلوب مطلقًا احترام لا يتحقق إلا بالبذل غالبًا، فكان أشرف من المال حتى بُذل له.

ولَمّا كانت المرأة إشارة إلى سرِّه المكنون، وكان حصوله مما يتوقّف على بذل الوجود، وما يتعلّق به الذي يميل إليه الإنسان، ويبخل في بذله؛ فرض الله على طالب الحق أن يطلب ذلك السرَّ المصون ببذل الوجود الذي كان يميل إليه، وهو له علاقة قوية، وحجاب كثيف؛ ولذا قال مَن قال من الأكابر: كل مَن خاف على هيكله؛ لم يرَ الله جهارًا علنًا(٢).

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٣١٠/٧)، وأبو نعيم في الحلية (١٣٣/٨).

(٢) **فائدة جليلة**: -قال العلواني: فصل في روح وصل في أرواح النكاح فإن روح الإرشاد يدخل في كل روح دل لذلك الأرواح الفرقانية ففي روح الإباحة ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء: ٣]

والأرواح على أقسام فأرواح الصالحين الكمل على أرواح النكاح ولهم من ذلك الذرية الطيبة وهي مطلوب أرواح النبوة لما تحرك في أرواحهم من أرواح الذرات المخزونة بروح الأمر إلى أرواح الأجل فإذا جاءت أرواح الآجال جرت أرواح الأسباب وتواصل الأرواح بأرواح المحبة والمودة حتى يكون وروح العقد فيجري أمر النكاح.

وفي الأرواح المحمدية «**لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل**» ليقع روح الفصل بين النكاح وبين السفاح فالسفاح ما كان بلا ولي ولا شاهدي عدل فالشهادة إنما شرعت للوثوق والروح الفاسق لا وثوق بروح شهادته فلهذا الروح قال: الروح المحمدي «**لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل**» وفي روح الشاهد حفظ روح النسب فالشاهد على روح النكاح شاهد ينسب من ولد على فراش الرجل =

من روح تلك المرأة ويكون روح الشهادة على روح النكاح حفظ حقوق الزوجة وحفظ حقوق الولد وحفظ المواريث بين الزوجين وما ولد لهما.

وكل ذلك يحتاج إلى شاهد تثق به روح الأرواح ولا يكون ذلك إلا بروح العدل والعدل روح من أرواح الحق في بلاده بين أرواح عباده فلا قسم لأرواح الوجود إلا بأرواح العدول فحده أن لا يكون قد ارتكب كبيرة عمدا مع وجود العلم بالحرمة وأن لا يصر على صغيرة ولا يكون هذا الروح إلا في روح آمن بالله وكان بروح الإيمان له خوف من الله فلو قدم غريب إلى روح بلد ومعه حرمة وقال إنها زوجته صدقناه وقلت حكم الزوجية بعد ذلك إذا قالت الزوجة مثل ذلك ولا يجوز روح التجسس عليهما بل يتركان فإن ظهر ما هو خلاف الواقع فله حكمه وقد وقع مثل ذلك لروح الإمام عمر فإنه رأى رجلا في طريق يتكلم مع امرأة فقال مالك تكلم هذا المرأة في طريق الناس وضربه بالدرة على روح الظن أنها أجنبية فقال الرجل هي زوجتي يا أمير المؤمنين. فرمى الإمام إليه الدرة وقال اضربني على روح ما ضربتك أو تعفو فقال: عفوت يا أمير المؤمنين.

ولا يكون روح الفصل بين البهائم وبين الأرواح البشرية إلا بعقد النكاح بالولي وشاهدي العدل وبالمهر الذي هو الصداق حتى لو أسقطته البالغة العاقلة قبل العقد بأن قالت للولي اعقد علي لفلان بدون شيء فعقد صح العقد.

فإن دخل بها لزمه مهر المثل فإن أسقطته بعد ذلك كان أبرأ من حق مقدر لها شرعا فمهر المثل يدخل في ملك المستحقة له فهو كالإرث فإنه مقدار شرعا وكل حق ترتب بوجه الشخص على شخص علم ذلك الروح من البشر أم جهل كان ذلك الروح من الأمر من جملة حقوقه فيكون له المطالبة في روح الآخرة بحقه أو يكون من العفو وهيهات في تلك الدار مع وجود الحاجات ومقاسات الشدائد روح من الأمثلة في روح ما ذكرناه.

وذلك مثلان يذكر شخص بين يديك وهو غائب فتقع في عرضه في عرض زوجته في عرض ولده في عرض جده في عرض جيرانه دخلت كرما بستانا طاحونا بغير عرض دار إذا كان بغير إذن ولا علم من المالك ترتب عليك في ذلك حق بعد حق بعد حق فيكون أنت قد أفقرت نفسك وضيعت راحتك وصرت رهين أرباب فملك الحقوق حتى يكون الأخذ من حسناتك إلى روح فراغها ثم يكون الطرح عليك من أرباب المظالم حتى لا يبقى لك روح من الطاعة وتلقى في النار مع أرواح الفجار ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق: ٣٠].

هل عندكم من زيادة ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق: ٣١] أي ذلك الموعود غير بعيد فهو قريب ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج: ٦-٧] بروح الإلزام لأرواح الاحترام.

فمن كان له روح احترام لمحارم الله تعالى كان له روح إكرام منه على ممر أرواح الدهور والجمع والأيام والسنين والشهور فما هي إلا روح صبر ساعة وراحة أرواح الأمد فما روح التقوى إلا روح الصبر على أرواح مسمى المأمورات وروح الصبر عن ارتكاب ظلمات المنهيات وروح الأمر

=

سهل على من سهله الله عليه ومن كان له روح تجريد بروح من أرواح الخيال وصور سراب المحال لا يكون عليه كلفة في أرواح المأمورات ولا في ترك أرواح المنهيات المحال لا لسلامة روحه بروح التجريد من أرواح العقابات وأرواح النفوس المقيمة على سواحل الطبع البشري.

والأصل الطبيعي العنصري فلم يكن في وجوده فلم تصله سر من أسرار التحويل فهو على روح الجهل واقف وعلى سراب القطيعة عاكف وارد من الأسرار بروح من الاعتبار إذا وردت على الروح الإنساني روح الحياة بروح الولي الحميد وهو الرحمة المنشورة وأصل روحه تبرز من روح القلب وتنتشر في روح العالم على روح الإطلاق في سائر الأرواح وأرواحها العنصرية.

وما كان من كل روح ما كان فتكون كل أرواح الوجود تكوينا على روح التجديد بروح الحياة التي هي الرحمة المنشورة في أرواح العالم من روح قلب سر صاحب السر وهو الإنسان الكامل بروح لولي الولي الحميد فروح الولي الحميد لا ينشر الرحمة في أرواح الوجود إلا من روح قلب الإنسان الكامل صاحب سر الحياة.

وهذه هي عين الحضرة المطلوبة لأكابر ولا يعرضها إلا من شهدها وكل ما لم يكن مشهودا فهو في روح الجحود خصوصا إذا لم يقم عليه دليل كالجليل فروح هذا المشهد في الروح الإنساني روح قابض بأرواح التعمير لأرواح الوجود بأرواح الحياة التجديدية وفي الأرواح المحمدية أنه «**ما قرن إلا ويرسل على رأسه من يجدد لهذه الأمة أمر دينها**» وما هو إلا هذا التجديد بروح الحياة.

والمجدد هو الإنسان الكامل الذي أفاض الله من قلبه أرواح الحياة فانتشرت في أرواح الوجود من روح سره الممد من روح الولي الحميد فيكون التجديد في أرواح الوجود من هذا الكامل والإنسان الواصل فما يكون من السحاب والزروع والفروع ودوران الأفلاك إلا بروح الحياة الفائضة المنشورة في أرواح الوجود من روح المجدد المرسل على كل قرن قد درست أرواح حياته وبقي على أرواح من الإنارة من ذلك روح الجهل وأرواح الطغيان.

ومن هذا الروح المنصوب تمد أرواح الدين وأرواح الدنيا فيدوم روح الإسلام بمواصلات أرواح التجديد بالروح الجديد إلا أن روح التجديد الفائض من روح المجدد يكون على أرواح من الزيادة وأرواح من النقص وأرواح من الفترة كما كان يفتر الوحي عن الروح المحمدي.

وكذلك أرواح الولاية لها أرواح من الفترة ومن علامات تلك الفترة وقوع الخلل في أرواح الوجود عند روح الفترة فأول روح يقع من أرواح الخصب وأرواح الحياة إنما يقع في روح الإنسان الكامل ثم منه تنتشر الرحمة في أرواح الوجود وأول روح يقع من أرواح القحط إنما يقع في روح الإنسان الكامل ثم ينتشر في أرواح الوجود وذلك الولي عارف بأرواح هذه التصاريف لا يفوته دقيقة ولا رقيقة من أرواح الرضوان ولا من أرواح السخط ولا من أرواح الفتح ولا من أرواح الغلق فكل روح مسرة في الوجود فضلته فسائر ما يكون في أرواح الوجود على أرواح التفصيل وعلى أرواح الإجمال من كل روح موافق ومن كل روح مخالفة من أرواح فضلاته التي أمده بها

=

=

الولي الحميد فالسر عند هذا الروح الكامل على روح العارية.

وإنما هو روح الحق على روح الصدق ولكن بذلك جرت الأسرار ووقع الإكرام لهذه الأرواح الطاهرة بأرواح هذه الحياة الفائضة في أرواح الوجود على روح الإكرام والولاية لا على أرواح القدرة بروح الأصالة ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ١٥٠]، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، فما ذكرناه إنما ذكرناه إنما هو روح من التعمير لأرواح الوجود بأرواح الحال الفائضة من أرواح الجمال على روح الإكرام فلا يكن منك روح من الغلط فإن أرواح الحق واسعة.

وطبقات أرواحه شاسعة ولسعة أرواح الحق شرعت أرواح النكاح لسعة أرواح التصريف في أرواح - أرواح مختلفة على أرواح مؤتلفة فروح النكاح يشرع فيه روح النظر فهي إلى الوجه وإلى روح الكفير.

وطار طائر الحب فوقع على روح القلب من روح تلك الروح المرئية.

وفصل بروح الوجه وروح القبول وبروح(٢) أرواح الوصول كان ذلك كروح الأساس للحبر المدراس العارف بقواعد التورية وما فيها من أرواح الآيات وأرواح الأنات إنما كانت من الأحرف مركبات فظهرت منها أرواح المعاني بالنظر في أرواح تلك المباني.

وكذلك الناظر في أرواح الوجه والكفين من روح امرأة على روح أن يتخذها زوجة وذلك بروح محمدي على روح من الندب لا على روح الوجوب ولا على روح الإباحة ولا على روح حرمة.

وذلك مثل روح النظر في روح المتاع لروح المشتري حتى يقع روح الشراء على روح الرضا وكل ما كان على روح الرضا كانت عاقبته العيشة الراضية، وما كان على روح الكراهة في البداية كان على روح الكراهة، فلا يصح البيع بدون أن ترى ويصح النكاح بدون أن ترى إلا أنه يكون على روح من الكراهة فلا يقع بعد ذلك أو روح من الموافقة لمخالفة الحكمة.

والأرواح المحمدية التي فصلت عندها أرواح الطبائع وكل أرض يليق بها من أرواح النبات ما يليق وليس السر في روح الأرواح الذاتية إلا لأن تتناهى أرواح النظر في أرواح المحاسن، وأرواح الجمال الظاهر في روح هذا العالم الظاهر فإذا تمت أرواح الأذواق من أرواح طعوم حلاوات كمالات أرواح المحاسن على سائر أرواح تفانينها ظهرت أرواح الذات بأرواح من الإطلاق في أرواح من التجلي لا يبقي معها صورة كمال ولا روح من أرواح الجمال.

فكذلك يكون في أرواح الآخرة للأرواح الإنسانية أرواح من السكر(٢) وأرواح من الغيبة ثم يكون لهم صحو وسكر وشرب وكمال في درجات أرواح شهودهم لإتيانها في روح ظاهر ذلك العالم الذي هو روح باطن هذا العالم فعلى مقدار ما تسلك وتذوق وتشهد في روح السِّر بغير روح من النهاية.

فكذلك في أرواح الآخرة يكون الأمر على روح الظاهر على غير حد ولا روح من أرواح النهاية
=

=

أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وذلك من روح الإجلال لأرواح الكمل بأرواح المواهب على حسب روح أرواح إجلالهم إياه في أرواح عوالم المكاسب فقدموا ما في أيديكم لما بين يديكم ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ [المزمل: ٢٠] فأرواح النكاح أرواح تقدم لما بين يدي أرواح الآخرة فإن من ذلك روح الولد الصالح والأخ الصالح والأخت الصالحة.

وفي ذلك من أرواح التعارف وأرواح القرابة وأرواح الأمومة وأرواح الأبوة وأرواح العمومة وأرواح الأخوال وأرواح الخالات، وأرواح الجدات وكم في ذلك من أرواح المواصلات بأرواح الرحمة بأرواح الدعوات بأرواح الصدقات بأرواح التربية بأرواح الحزن بأرواح البكاء على أرواح الأولاد وليس في ذلك من النقص.

وفي الأرواح المحمدية «**إن العين لتدمع وإن القلب ليخشع وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون**» فالحزن والبكاء المضحك والسرور من كمال الروح الإنساني وبذلك تميز على الروح الحيواني وله خواص تميز بها عن أرواح الملائكة وهي أرواح النكاح المتميز بأرواح عن أرواح نكاح الحيوانات على أرواح من الستر.

وذلك روح من الكمال في الروح الإنساني، وما كان مختصا بروح؟ حمن العلم على روح من الذوق كان أكثر عرفانًا بأرواح الحقائق فكمال الرحمة في الأرواح البشرية بأرواح النكاح فالفخر في الآخرة لأرواح الذرية الطيبة ولو بأرواح الإفراط، فالأرواح الطيبة يشفع بعضها لبعض ويرحم بعضها ويكرم البعض منهم من أجل روح البعض فسر التوالد روح مفصل في أرواح الرحمة ولا يفتر عن أرواح التفصيل في أرواح المواصلات في الأنفس الطيبة وغيرها والكل على ساحل الفقر في ساحة الكرم عند الملك الأكبر فما أرواح الذل في أرواح العز وما أرواح الفقر في أرواح الغنى وما أرواح العجز في أرواح القدرة فما وعزته شرع التوالد إلا لأرواح الرحمة بأرواح العطف وأرواح اللطف.

فيا أيها الروح الغافل تقرب إلى هذا السيد ولو بصلاة ركعتين في روح من ليل أو في روح من النهار فإنه سيدك وإليه مردك فلا تغتر ولو باليسير فإنه الغني يرضى منك ولو بالسير فيقول عبدي ذكرني على أرواح ضعفه عبدي ذكرني على أرواح شغله عبدي ذكرني على أرواح فقره عبدي ذكرني على أرواح حاجاته وعزتي وجلالي إنه العزيز عندي وإن أهنته وإن أذقته من مرارات الفقر ومن مرارات عسر الدنيا فله عندي ما يحب ويرضى فهو عبدي وأنا سيده.

فيأيها العبد لو سمعت صريح الخطاب لتفطرت منك أرواح الألباب لو رأيت المولود وقد قال له الملك الودود: اذهب وخد بيد أبيك وادخل به الجنة لاشتهيت الولد فذلك من رحمة الله بأرواح الوالدين وعزته وجلاله إنه بعباده رءوف رحيم لا يزال يسيرهم على أرواح الجود وعلى أرواح الكرم وعلى أرواح الفضل وعلى أرواح العفو ويا ليت شعري ما الروح الضعيف في أرواح العقوبات.

فيا رحمن أنت صاحب الرحمة الواسعة لا تكل البعض إلى البعض فيشقوا وكن أنت لهم ليبقوا.

=

ولمّا كان النبي ﷺ درجة زائدة على أمته؛ أحلّ الله تعالى له المرأة التي وهبت نفسها له: أي ملّكته بضعها بلا مهر، فكان ذلك خاصًا له من دون المؤمنين من

=
فروح النكاح روح ستر وأرواح أجر وروح تعارف على أرواح البر والتقوى وروح السلامة في أرواح المتابعة فمن رغب عن السنة فهو الناقص بلا منة والتارك عجزًا أو لعذر ليس براغب عن أرواح السنة، ومما يكون من أرواح المعونة خفة أرواح الموعدة.

فلا يتزوج الروح الإنساني بروح شيطاني وهو الروح الكثير المؤنة وقد كانت أرواح جهاز فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين بعد مريم معلومة لأرواح الناس فلم يكن هناك مزركشا ولا مصاغا ولا فرشا وطية ولا شيء من أحوال المترفين.

وفي روح يوم حابسي فطلبت منه فاطمة جارية للخدمة فلم يسمح لها بذلك رسول الله ثم جاءها من الليل فقال لها ولعلي ألا أعلمكما ما هو خير لكما من خادم فعلمهما أن يسبحا ثلاثا وثلاثين ويحمدا ثلاثا وثلاثين ويكبرا ثلاثا وثلاثين ثم يكون الختام لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

فقد كان روح نظره الكريم إلى أرواح الآخرة لا إلى أرواح الدنيا فإن النازل فيها على حد الترحل عنها لا على حد الإقامة روح إشارة فيها كفاية عن أرواح العبارة في روح قوله ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء: ٣] لا تقربوا غير النساء فإن ذلك عليكم محرما كحرمة أن تقربوا النساء بغير حق ولا عقد بشرطه.

وفي الأرواح المحمدية «**يا معشر الشباب تزوجوا فمن لم يستطع فعليه بالصوم**» • كل ذلك حرص من روحه الكريمة على هذه الأمة المرحومة حتى لا تكون على روح من أرواح النقص فتكون كاملة الاعتبار في الأسماع والأبصار بأرواح المشاهدة وأرواح الأخبار ووليمة العرس سنة وتجوز قبل الدخول وبعد الدخول على خلاف ما اعتاد الناس، ولا تفوت بمال فإن وقتها العمر كالعقيقة ففي أي وقت يمكن فعلها والذي يظهر أنها روح من الشكر على روح نعمة التأهل.

فإن التأهل من أرواح النعم الكبار ولذلك شرع أن يكون شكر هذه النعمة وليمة ولو بشاة وإن خير الولائم وليمة العرس التي يدعى إليها الفقراء ولذلك قال أرواح من أهل العلم يستحب أن يطعم الفقراء أولا ثم يشرع في بقايا الناس على أرواح طبقاتهم، وإذا كان النكاح نعمة فلا يكون لها مقابلة إلا بروح الشكر فكيف يصح أن يشكر النعم بالمحارم فلا ينبغي أن تفرش البيوت والحرير إلا أن يكون من فرش المرأة ولا يحل نصب صور الحيوان على أرواح الجدران ومن ترك شيئا لله عوضه خيرا منه وشر الطعام طعام الولائم الذين تأكل منه الأغنياء دون الفقراء فزن واحفظ على نفسك كما تحفظ لها، فإنك ملاق ما أنت له صانع.

أمته الحقيقية والحكمية(١) .

---

(١) قال ابن طولون: واختص ﷺ بإباحة النكاح له من غير إيجاب مهر عليه لا في الابتداء ولا في الانتهاء. عند أبي حنيفة وجمهور الشافعية، وحكى الحناطي منهم وجهًا غريبًا: وجوب المهر، واستدلوا للأول بقوله تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٠]؛ إذ الهبة تغني عن البدل، ولأن المقصود منه ﷺ التوصل إلى ثواب الله تعالى، فوسع عليه الأمر حتى لا يتعذر عليه ذلك.

واختلف العلماء هل كانت عنده امرأة موهوبة أم لا؟ ومبنى ذلك على القراءة في قوله تعالى: (إن وهبت نفسها للنبي) هل هي بكسر إن أو بفتحها؟ فقراء الجمهور: وامرأة مؤمنة: (بالنصب) إن وهبت (بكسر الهمزة): أي أحللناها لك إن وهبت نفسها إن أرادت استنكاحها، فهما شرطان: الثاني منهما في معنى الحال، وهو شرط في إحلال هبتها نفسها، وفي الهبة إرادة استنكاح النبي كأنه قال: أحللناها لك إن وهبت لك نفسها، وأنها تريد أن تستنكحها؛ لأن إرادته هي قبول الهبة وما به تتم، وهذان الشرطان نظير الشرطين في قوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وإذا اجتمع الشرطان فالثاني شرط في الأول متأخر في اللفظ متقدم في الوقوع مالم تدل قرينة على الترتيب نحو إن تزوجتك إن طلقتك فعبدي حر.

والقراءة الثانية: بفتح الهمزة قرأ بها أُبي والحسن والشعبي وغيرهم وتقديرها: لأنْ وهبت نفسها، وهو فعل ماض في أمر قد وقع، وقراءة الكسر: استقبال في كل امرأة كانت تهب نفسها دون واحدة بعينها، وقرأ زيد بن علي: (إذ وهبت) وإذ ظرف لما مضى فهو في امرأة بعينها، وقرأ أبو حيوة: (وامرأة مؤمنة) بالرفع على الابتداء، والخبر محذوف: أي أحللناها لك، وقرأ الجمهور: (خالصة) بالنصب، وهو مصدر مؤكد بمعنى خلوصًا منصوب على أنه مفعول مطلق، وقرئ: (خالصة لك) بالرفع.

قال أبو حيان: الظاهر أن قوله: (خالصة لك) من صفة الواهبة نفسها لك، فقراءة النصب على ما قاله الزجاج: أي أحللناها خالصة لك، والرفع: خبر مبتدأ محذوف: أي خالصة لك: أي هبة النساء أنفسهن مختص بك، لا يجوز أن تهب المرأة نفسها لغيرك، فأجمعوا على أن ذلك غير جائز لغيره إذا علمت هذا فمن قرأ بالكسر وجعله شرطًا مستقبلاً قال: لم يكن عنده امرأة موهوبة، وبه قال مجاهد، ومن قرأها بالفتح وجعله خبرًا عن ماض قال: كانت عنده امرأة وهبت له نفسها، وقد اختلف في تعيينها، فقيل هي أم شريك بنت جابر بن ضباب، وهو قول عروة بن الزبير ومقاتل والضحاك وعلي بن الحسين وغيرهم، أخرج النسائي حديثها عن هشام بن عروة عن أبيه عن أم شريك أنها كانت فيمن وهبت نفسها للنبي ﷺ، وقد اختلف في اسمها ونسبها، فقيل اسمها غزية وقيل غزيلة بضم الغين المعجمة وزاي فيها، وأما نسبها فقيل فيها قرشية عامرية، وقيل أنصارية، وقيل الواهبة: ميمونة بنت الحارث، قاله ابن عباس. وقال الشعبي: هي زينب بنت خزيمة الأنصارية أم المساكين، وقيل: هي فاطمة بنت شريح، وقيل: خولة بنت حكيم، ففي الصحيحين عن عائشة قالت: كانت خولة بنت حكيم من اللائي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ فقالت عائشة: أما
=

وأعني بالحكمية: الأمم المتقدِّمة، والقرون الماضية، حتى يُروى أن الله تعالى جعل مهر حواء - عليها السلام - عشر صلوات على نبينا ﷺ.

فإن قلت: فما فضل الله تعالى وإنعامه على عباده في ذلك إذا كان الكل مطلوبًا بالمال مع أنه ذو الوجود والمنَّة؟ .

قلت: لا شك ان المرأة المنكوحة تُبتغى بالمال، وأمَّا الملك فقد يكون بغير المال، كما إذا كانت الجارية موروثة أو موهوبة، فالله تعالى يهب لَمن يشاء ما يشاء من العلوم الفاضلة، والحقائق الزائدة التي من حور مقصورات في الخيام، فللعبد ما يملكه، ويبتغيه بالمال.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم:٣٩].

وهو في مرتبة الشريعة، والطريقة الحاصلة بالنفس، والقالب وسعيهما، وله أيضًا ما ينال إليه بدونه.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد:١٩].

فإن النور إشارة إلى ما ذكرنا، والله يختص برحمته مَن يشاء.

وقال الله سبحانه: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء:٢٦]؛ فيه إشارة إلى الهداية الخاصة الذي اُختص بها المقربون؛ لأن قوله: ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أُريد به الأفراد الكاملون، وسنن الخواص خاصة اختصاصية من قبل الله تعالى، فكانت الهداية إليها هدايةً خاصةً.

ونظيره قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]: أي اقتدِ بأقوالهم الحسنة، وأفعالهم المرضية، وأحوالهم الشريفة، فإن الأنبياء كانوا صادقين في أقوالهم؛

=

تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل فلما نزلت ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ [الأحزاب:٥١] قلت: يا رسول الله، ما أرى ربك إلا يسارع في هواك.

وهذا يدل على أن قوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾: أي تؤخر من تشاء من الواهبات فلا تقبل هبتها ﴿وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [الأحزاب:٥١]: أي بقبول هبتها، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وانظر: مرشد المختار (ص١٧٥) بتحقيقنا.

ولذا لم يكذّبهم أحد إلا هلك، وعلى هديٍّ في أفعالهم؛ ولذا مَن اقتدى بهم في ذلك؛ اهتدى إلى الدرجات العالية، وارتقى إلى المراقي الصاعدة، وعلى حقيقة في أفعالهم الباطنة.

ولذا مَن اتبعهم على بصيرة في رياضاتهم ومجاهداتهم؛ تشرَّف بأنواع المكاشفات والمشاهدات والمعاينات التي هي نتائج التجلّي الأفعالي، والصفاتي، والذاتي، ومنه التجلّيات كلها حاصلة لجميع الأنبياء، والمرسلين، ومَن تبعهم من الكُمَّل.

وأمَّا أمم الأنبياء فمتفاوتون في الدرجات، وهذه الأمة المرحومة أعلى طبقة منهم أجمعين؛ لأن منهم مَن وصل إلى التجلّي الذاتي بالفعل والتفضيل بخلاف خواص سائر الأمم، فإن الواصل منهم إلى تلك المرتبة الجليلة إنما وصل من مقام الإجمال والقوة، فأين هم من هذه الأمة؟.

ولذلك لا يقتضي نقصانًا لأنبيائهم، فإن الدعوة حاصلة في جميع المراتب؛ لكن لَّما كانت الاستعدادات متفاوتة وناقصة؛ لم يحصل من الدعوة إلا بعض آثارها، فذلك يرجع إلى نقصان في استعدادهم لا إلى نقصان غيرهم.

إذ ليس للداعين نقصان في ذلك أصلاً؛ إذ الدعوة إنما هي بعد الوصول إلى الله تعالى في جميع المراتب، نِعم فرق نبي ونبي، وكذا نبي ورسول، وكذا بين رسول وبين واحد من أولي العزم، وكذا بين نبينا وبين سائر الأنبياء عليهم السلام، كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾ [البقرة:٢٥٣].

ثم إن هدى الأولين إنما يتبع من حيث إنه هدى مأمور به في هذه الشريعة المحمَّدية، قد يكون الخطاب في الآية لَمن جاء بعد الصدر الأول من هذه الأمة إلى يوم القيامة، وذلك من طريق الإشارة والوارد، فيكون أكامل هذه الأمة الجائية عصرًا بعد عصر مهتدين إلى سنن الصدر الأول، وهو أتم من الهداية إلى سنن الأولين؛ لأن الأولين كما عرفت لم يبلغ درجتهم درجة هذه الأمة.

والحاصل: إن هذه الأمة مهدية إلى سنن الأولين، ومع هذا أعطاهم الله تعالى سننًا أخرى من حيث اتباعهم نبيهم الأفضل بما أحرزوا جميع السنن المرضية فعلاً

وتفضُّلاً، ففاقوا على أهل سائر السنن، فلهم الدرجة العليا، والفضيلة الكبرى.

وحسبك دليلاً أن نبينا ﷺ جاوز مقامات الأنبياء ليلة المعراج، وخصَّه الله بمقام الوسيلة الذي لا مقام فوقه، ولا شك أنالتابع يستجلب فضيلة زائدة بالانتماء إلى متبوع أفضل فِرقاء اكامل هذه الأمة يوم القيامة الأنبياء والمرسلون في جنات الفردوس يسأل الله تعالى من فضله أن يفضل وينعم ويفيض.

قال الله تعالى: ﴿**إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾ [النساء: ٣١].

المراد: السيئات الصغائر؛ لأنها وردت في مقابلة الكبائر، جعل الاجتناب عن الكبائر شرطًا وسببًا لتكفير الصغائر، فمن ضرورة وجود الشرط وجود المشروط، كما أنه من ضرورة عدمه عدمه، وإليه ذهب بعض العلماء حيث قصروا التكفير على الاجتناب، وهو مخالف لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾ [هود: ١١٤]؛ لأنه يدل على أن الطاعة أيضًا تكفر الصغائر.

فمعنى الآية الأولى: إن تجتنبوا كبائر الاثم؛ تكونوا خالصين عن الأثم، لأنا نكفر الصغائر بالطاعة، وإلا فيبقى عليكم الكبائر؛ لأنها كبرت فلم تكفر بالطاعة؛ بل احتاج تكفيرها إلى التوبة، أو إلى الفضل الإلهي كما هو مذهب أهل السنة، ودلَّ على المعنى الأول الذي ذهب إليه بعض العلماء ما ورد في بعض الأحاديث من أن: «**الصلاة إلى الصلاة والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»(١).

يعني: إن الطاعة هي المكفِّرة بشرط اجتناب الكبائر، فلو ارتكب الكبائر؛ أكلت كبائر نوافل طاعاته، فلم يبقَ له يوم القيامة إلا الفرائض، ثم الكبائر والصغائر من الأمور الإضافية فتختلفان باختلاف الأشخاص الفاعلين، وبحسب أحوالهم، وكذا بحسب الأوقات والأماكن.

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٣٠٣/١)، وابن حجر في فتح الباري (٣٥٧/٨) بنحوه.

وإليه يشير قول أبي سعيد الخراز ﷺ[١]: «حسنات الأبرار سيئات المقربين»[١]

(١) اسمه أحمد بن عيسى وهو من أهل بغداد، من أئمة القوم وجلة مشايخهم.
قيل: إنه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء.
أخذ عن إبراهيم بن بشار الخراساني ومحمد بن منصور الطوسي، روى عنه علي بن محمد الواعظ المصري وأبو محمد الجريري وعلي بن حفص الرازي ومحمد بن علي الكتاني وآخرون.
وقد صحب سريًّا السقطي وذا النون المصري، قال أبو القاسم عثمان بن مردان النهاوندي: أول ما لقيت أبا سعيد الخراز سنة اثنتين وسبعين فصحبته أربعة عشر سنة.
قال السلمي: هو إمام القوم في كل فنٍ من علومهم له في مبادىء أمره عجائب وكرامات، وهو أحسن القوم كلامًا خلا الجنيد فإنه الإمام.
قال القشيري: صحب ذا النون والسري والنباجي وبشرًا الحافيز
قال ومن كلامه: كل باطن يخالفه ظاهرٌ فهو باطلٌ.
وقال ابن الطرسوسي: أبو سعيد الخراز قمر الصوفية.
وعنه قال: أوائل الأمر التوبة، ثم ينتقل إلى مقام الخوف، ثم إلى مقام الرجاء، ثم منه إلى مقام الصالحين، ثم إلى مقام المريدين، ثم إلى مقام المطيعين، ثم منه إلى المحبين، ثم ينتقل إلى مقام المشتاقين، ثم منه إلى مقام الأولياء، ثم منه إلى مقام المقربين.
قال السلمي: أنكر أهل مصر على أبي سعيد وكفّروه بألفاظه، فإنه قال في كتاب السر: فإذا قيل لأحدهم: ما تقول؟ قال: الله، وإذا تكلم قال: الله، وإذا نظر قال: الله فلو تكلمت جوارحه، قالت: الله، وأعضاؤه مملوءة من الله. فأنكروا عليه هذه الألفاظ وأخرجوه من مصر. قال ثم رُدَّ بعدُ عزيزًا.
ويروى عن الجنيد قال: لو طالبنا الله بحقيقة ما عليه أبو سعيد لهلكنا، فقيل لإبراهيم ابن شبيان: ما كان حاله؟ قال: أقام سنين ما فاته الحق بين الخرزتين.
وعن المرتعش قال: الخلق عيال على أبي سعيد الخراز، إذا تكلم في الحقائق.
ومن كلامه:
قال الكتاني: سمعت أبا سعيد يقول: من ظنَّ أنه يصل بغير بذل المجهود فهو متمني، ومن ظنّ أنه يصل ببذل المجهود فهو مُتعَنّي.
وقال أبو سعيد الخراز: إن الله تعالى عجّل لأرواح أوليائه التلذذ بذكره، والوصول إلى قربه، وعجّل لأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم، وأجزل نصيبهم من كل كائن فعيش أبدانهم عيش الجِنانيين، وعيش أرواحهم عيش الربانيين، لهم لسانان لسان في الباطن، يعرفهم صنع الصانع في المصنوع، ولسان في الظاهر، يعلمهم علم المخلوقين، فلسان الظاهر يكلم أجسامهم، ولسان

=

الباطن يناجي أرواحهم.

وسئل أبو سعيد عن الأنس ما هو؟ فقال: استبشار القلوب بقرب الله تعالى، وسرورها به، وهدوؤها في سكونها إليه وأمنها معه من حيث الروعات، وإعفاؤه لها من كل ما دونه أن يشير إليه حتى يكون هو المشير لأنها ناعمة به، ولا تحمل جفاء غيره.

وكان أبو سعيد الخراز نائمًا فانتبه وقال: اكتبوا ما وقع لي في هذا النوم، إن الله تعالى جعل العلم دليلاً عليه ليعرف، وجعل الحكمة رحمة منه عليهم، ليؤلف، فالعلم دليل إلى الله، والمعرفة دالة على الله، فبالعلم تنال المعلومات، وبالمعرفة تنال المعروفات، والعلم بالتعلم، والمعرفة بالتعرف، فالمعرفة تقع بتعريف الحق، والعلم يدرك بتعريف الخلق، ثم تجري الفوائد بعد ذلك.

وقال أيضًا: مثل النفس مثل ماء واقف طاهر صافٍ، فإن حركته تظهر ما تحته من الحمأة، وكذلك النفس تظهر عند المحن، والفاقة والمخافة، ومن لم يعرف ما في نفسه كيف يعرف ربه؟.

وتوفي رحمه الله تعالى سنة ست وثمانين ومائتين، وقيل: بل توفي سنة سبع وسبعين ومائتين.

انظر في ترجمته: الحلية (١٠/٢٤٦)، وسير أعلام النبلاء (١٣/٤٢١)، وطبقات الصوفية (ص٢٢٨)، وصفوة الصفوة (٤/٢٤٥)، وشذرات الذهب (٢/١٩٢)، والطبقات الكبرى للشعراني (١/١١٧)، والمنتظم (٥/١٠٥)، والبداية والنهاية (١١/٥٨)، وتاريخ بغداد (٤/٢٧٦).

(١) ذكره القاري في المصنوع (١١١)، وفي الموضوعات الكبرى (ص١٨٦)، والشوكاني في الفوائد المجموعة (٧٣٣)، وفي كتابنا أحاديث مشهورة لكنها لا تصح، وعزوه لأبي سعيد الخراز، كما رواه ابن عساكر في ترجمته، وأورده السندروسي في الكشف الإلهي (٣٥١)، وعزاه للزهري.

قلت: وحُكي أيضًا عن ذي النون المصري، وقد عزاه الزركشي للجنيد، (١/٣٠٩)، وانظر: كشف الخفاء (١/٤٢٨).

فـائدة: قال الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني: واختلفوا في الصغائر في حقِّ الأنبياء والكُمَّل والذي عيه الأكثر أن ذلك غير جائزٍ عليهم، وصار بعضهم إلى تجويزها، ولا أصل لهذه المقالة.

وقـال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأول الذي ينبغي أن يقال: إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنـوبٍ مـن بعضهم، ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم، وتنصلوا منها، وأشـفقوا = = منها، وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها، وإن قبل ذلـك آحادها، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على وجه الندور، وعلى وجه الخطأ والنسيان، أو تأويلٍ دعا إلى ذلك فهي بالنسبة إلى غيرهم حسناتٌ، وفي حقهـم سيئاتٌ بالنسبة إلى مناصبهم وعلوِّ أقدارهم؛ إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة.

=

فكم من رجلٍ يُعد صغيرته كبيرة؛ لعلو رتبته، وكم من رجل على خلافه، يعني: يُعد كبيرته صغيرة؛ لقصور رتبته ودناءة حاله، فيُعفى عنه ما لا يُعفى عن الأول، وقس عليه الأوقات الشريفة، فيُقتل مَن أفطر في نهار رمضان عمدًا جهرًا؛ لهتكه حرمة الوقت العزيز، والأماكن اللطيفة فيكتب الخاطرة في الحرم المكي، وإن كانت معفوة في خارج الحرم.

ومن ثَمَّ قالوا: تارك الأدب عند الحضرة، والماشي على البساط؛ أسوأ حالاً من تاركه عند الباب، وفي الخارج، وأكبر الكبائر الشرك: أي الكفر مطلقًا، فلا يُغفر؛ لأنه لا وجود له في الحقيقة، فكيف يُغفر: أي يُستر فكل مَن أشرك فإنما أشرك عن وهم وخيال، فإنها بخلاف سائر الذنوب.

ومن أكبر الكبائر أيضًا حصائد الألسنة؛ لأنها هي التي تُكب الناس على مناخرهم في النار.

ومن أكبرها أيضًا الشهوة الطبيعية؛ لأنها تلحق الإنسان بالبهائم؛ ولذا ذمَّ الله تعالى قومًا بقوله: ﴿**وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ**﴾ [محمد:١٢].

ومن أكبرها أيضًا الهوى النفساني؛ لأنه ما عبد شيء أبغض من الهوى؛ ولذا قال تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاه**﴾ [الفرقان:٤٣].

ومن أكبرها أيضًا الكبر؛ لأنه أعظم الصفات الشيطانية.

ومن أكبرها أيضًا حب الدنيا؛ لأنه رأس كل خطيئة.

ومن أكبرها أيضًا الميل إلى ما سوى الله تعالى، وقد أمر الله تعالى بترك ما سواه كما قال: ﴿**قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُم**﴾ [الأنعام:٩١].

فمَن حصل له في الأنفس الاجتناب عن هذه الكبائر؛ حصل له الاجتناب أيضًا

=

قال: وهذا هو الحق، ولقد أحسن الجنيد حيث قال: «**حسنات الأبرار سيئات المقربين**» فهم صلوات الله وسلامه عليهم وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوبٍ منهم فلم يُخلّ ذلك بمناصبهم، ولا قدح في رتبهم، بل قد تلافاهم، واجتباهم، وهداهم، ومدحهم، وزكّاهم، واختارهم، واصطفاهم صلوات الله عليهم وسلامه. وانظر: تفسير القرطبي (٣٠٩/١).

في الآفاق عن فروعها الكثيرة، وقد كثرت حتى بلغت إلى سبعمائة، على قول ابن عباس –رضي الله عنهما– وإن كان مراده منه التكثير لا تحديد، فكما أن الطاعات كثيرة متشعبة؛ فكذا الخطرات، فعليك بالاجتناب عن الزلّات؛ ليكون جوهر النفس صافيًا عن الكدورات.

وقال الله تعالى: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ**﴾ [النساء:٣٤].

اعلم أن الرجال هم الذين قويت هممهم؛ فاجتهدوا في الله حتى وصلوا إلى الله، سواء كانوا ذُكورًا من حيث الصورة، أو إناثًا؛ ولذا ذكروا النساء العارفات مع الرجال العارفين، وعبَّروا عن الأبدال الأربعين بالنفوس لا بالرجال، لما أن بعضهم من النساء، وأن النساء هم الذين ضعفت هممهم فتقاعدوا حتى لم يصلوا إلى الله سواء كانوا ذكورًا أيضًا من حيث الصورة أو إناثًا.

ولذا جعلوا للكرامات الكونية حيض الرجال؛ فجعلوها من حيث تقيدها بتلك المرتبة في حكم النساء؛ ولذا أسندوا إليها ما أُسند إلى النساء من الحيض؛ فظهر أن المراد بالرجال هم الكاملون أيًّا كانوا من النفوس البشرية الفاضلة، وان المراد بالنساء هم الناقصون أيًا كانوا من النفوس البشرية المفضولة، فإن الأولين جمعوا بين الصورة والمعنى؛ فكانوا إنسانًا حقيقيًا أحياءً ظاهرًا وباطنًا، وإن الآخرين لم يتجاوزوا عن الصورة؛ فكانوا إنسانًا حيوانيًا أحياءً صورةً وأمواتًا معنى، فكما أن الحيوان جزء من عالم الصورة، وأن الميت صورة الإنسان لا حقيقته، فكذا الناقصون، وكمال الإنسان إنما هو بالخلافة؛ لأنها هي الميراث من آدم عليه السلام(١).

---

(١) قال ابن ناصر في مجمع البحرين: قال تعالى ﷻ: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**﴾ [النساء:٣٥] قيام الكل علي الجزء، وللقيُّوم درجة التقدم والشرف.

أمَّا السرُّ الذي خلق منها زوجها إلا من خارج، حتى لا يخرج الأمر منه أصلاً، ويكون الأمر منه إليه؛ كالأصل وغيره منه عليه حتى لا يستأنس بالغير، وهكذا الأمر في الأصل أنه ما أظهر عينا للغير حتى لا يكون للغير عين، فافهم.

هذا سرُّ الحديث المشهور في الغيرة الإلهية أنه قال ﷺ: «**إنَّ سعدًا لغيُورٌ، وأنا أغير منه، والله أغير مني**» فالغيرة صفته كما قال، فافهم.

=

وإنما تقوم الخلافة بعلم الأسماء أولاً كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ﴾(١)

=

قال تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ [النساء:١] فلمَّا كان آدم نفسًا واحدةً وحواء خلقت منها فبثَّ منهما، وأوجد، ونشر بنكاح صوري رجالاً كثيرًا ونساءًا.

قال تعالى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧].

إنما أخَّر النساء؛ لتأخرها في الخلق وفي الرتبة، يقال: نسأت الشيء إذا أخرته، ذكره في الصحاح؛ وذلك لأنها في مرتبة الانفعال، ولها التأخُّر عن رتبة الفاعل، وهكذا الأمر في العالم وإيجاده؛ خلق في نفس واحدة، وهي نفس القلم الأعلى والروح الأعظم الأسنى وهو أول خلقٌ إبداعي نفس النفسِ الكل؛ وهي أول خلق انبعاثي كانبعاث حواء من آدم عليهما السلام في عالم الأجرام؛ ليكون محلاً للولادة المعنوية المحسوسة المشهودة لأهلها، وكانت مما ألقي إليها من الإلقاء الأقدس الروحاني الطبيعة والهباء جميعًا، فكانت أول أم ولدت توأمين، كما كانت حواء عليها السلام، فأول ما ألقت هو الطبيعة أخ وأخت لأبٍ واحد وأمٍ واحدة، فأنكح الطبيعة الهباء، كما كانت في أولاد آدم وحواء فولدت بينهما صورة الجِسم الكُل، وهو أول جسم ظهر في الوجود؛ فكان أبوه الطبيعة والهباء أمه، وهي الهباء جوهرة مثبتة في جميع الصورة أثاثها، وما من صورةٍ إلا هي فيها، وإنما قلنا الذكور والإناث، وأردنا الصورة الفاعلة والمنفعلة؛ لأن الأمر لا يخلو من هاتين القوتين؛ فأول الأباء لعلوية معلوم: أي القلم الأعلى؛ وأول الأمهات السفليَّة شبيه المعدوم الممكن، فهذا أبٌ ساري الأبوة، وهذه أمٌ سارية الأمومة، والنكاح والازدواج سارٍ في كل شيء والأولاد والنتيجة دائمة أبدًا دنيا وآخرة.

فالمولدات أمورٌ مختلفة لا تنحصر أشخاصها الطبيعة والعنصرية أبدًا؛ لأن الله تعالى قد وصفها على أمزجة مختلفة لمعان مقصودة لا تحصل إلا بها، وإنَّا وإنْ كنَّا عن أصلٍ واحدٍ، ولكن جعلنا مختلفين؛ لحكمة لا تخفى علَى الواقفين.

قال تعالى: ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:١١٨]؛ ولذلك خلقهم، فمنَّا الطيب والخبيث الواسع والضيق.

(١) يعني: الأسماء التي هي مبادئ لإيجاد العالم، ومؤثرات في حقائق الأكوان، ومن جملتها الأسماء الإلهيَّة التي توجَّهت على إيجاد الملائكة وهي لا تعرفها، ثم أقام المسمِّين بهذه الأسماء، وهم مظاهر التجلِّيات الإلهيَّة التي هي الأسماء كالمواد الصوريَّة للأرواح.

فقال: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:٣١]، يعني: الصور التي تجلَّى فيها الحق إن كنتم صادقين في قولكم:

﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة:٣١]، كأنه قال لهم: وهل سبَّحتموني بهذه الأسماء التي تقتضيها هذه التجلِّيات التي أتجلاَّها لعبادي؟ وإن كنتم صادقين في قولكم: ونقدِّس ذواتنا عن الجهل بك، فهل

=

[البقرة:٣١]، ثم بالوصول إلى حقائق المسميات، ثم بالترقّي إلى حقيقة الحقائق التي هي المسمَّى الحقيقي بأن يكون ظاهرًا بأسمائه الحسنى، ومتجلّيًا بصفاته العليا، ومتحققًا بحقائقه المثلى، فإن الخليفة لا بد وأن يكون على صورة المستخلف؛ كالوزير مع السلطان، وإليه الإشارة بقولة مَن قال: من أكبر أكابر الرجال سبحان مَن أظهر الأشياء وهو عينها يعني: أظهر آدم وهو عين صورة الحق في الظهور بالحقائق.

ولذا قال ﷺ: «**خلق الله آدم على صورته**»(١): أي على صورته الحقيقية إذ لا صورة لله تعالى إلا من حيث تنـــزُّلاته واسترسالاته، وكذا أظهر الوزير وهو عين السلطان في رتبته وحكمه وظهوره، وذُلَّ هنا قدم مَن قال: كيف يكون الحق عين الأشياء، وهو من حيث وجوب وجوده، والأشياء من حيث إنها حقائق وماهيات ممكنة؟.

وقال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [البقرة:٢١٣]. فالشمس شمس وإن لم يرها الضرير، والعسل عسل وإن لم يجد طعمه الممرود.

والحاصل: إن الكمال الحقيقي إنما هو بالوصول إلى مقام الخلافة والنبوة، وليس ذلك إلا للرجال من النساء دون النساء، فكمالهن كمال إضافي: أي بالنسبة إلى سائر النساء؛ ولذا لم يقل أحد من أرباب الحقائق: بخلافة النساء ونبوءتهن؛ لأن الله تعالى لمَّا جعل الرجال قوَّامين على النساء ببعض الوجوه في مرتبة الشريعة؛ اقتضت الحكمة الإلهية أن يكونوا قوَّامين أيضًا عليهم في مرتبة الحقيقة، وذلك لا ينافي كمالهن الإضافي.

وقد أشار إلى ذلك معنى الآية، فإن ما به التفضيل اثنان: الأول: موهبي؛ وهو

=

قدَّستم ذواتكم لنا من جهلكم بهذه التجلّيات وما لها من الأسماء التي ينبغي أن تسبِّحوني بها؟.
فقامت عليهم الحجة في ادِّعائهم الإلهيَّة، فقالت بعد العلم: ﴿**لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا**﴾ [البقرة:٣٢]، واعترفت بالكمال الذي غاب عنها هذا.

وقد قال تعالى لها: إنه خليفة، فكيف بها لو لم يقل لها ذلك، فلم يكن ذلك إلا لبطونه على الملائكة.

(١) رواه البخاري (٢٢٩٩/٥)، ومسلم (٢٠١٧/٤).

الكمال اللائقة بالرجال، والثاني: كسبي؛ وهو الإنفاق من المال، إذ لا شك أن المتفق عليه يكون من عيال المتفق وجزئياته، والجزء: إنما يقوم بالكل، فالكل قائم عليه قيام آدم على الضلع اليسرى، ثم على حواء؛ لأن حواء كانت ضلعًا من أضلاع آدم، ولمَّا سوَّاها الله تعالى حواء تسوية النجار الخشب لم يكن هناك إلا تبدُّل الصورة، فكان آدم قائمًا عليها على كل حال.

ألا ترى أن الروح بمنـــزلة الزوج، والنفس منـــزلة الزوجة، والقوى الخارجة والداخلة بمنـــزلة الأولاد، والقائم عليها هو الروح دائمًا، إذ لو فارق الجسد؛ لتعطلت وبطلت جميعًا، فهو المنفق عليها، والمقيض، وأيضًا إنها بمنـــزلة الأموال الميل الروح إليه في أوائل حاله، ثم إن ينفقها أيضًا: أي كما ينفق عليها، فيغني عن الكل، ويبقى حقائقها مندرجة في مرتبة الروح، فكما أن الروح هو قُيُّوم الوجود الأنفسي؛ فكذا الرجل الكامل هو قُيُّوم الوجود الآفاقي، والكل كأنه من أجزائه، ولكمال الرتبة في الرجل؛ كانت مريم عليها السلام مع كونها صديقة تصوم يومين، وتفطر يومًا واحدًا بخلاف داود عليه السلام فإنه كان يصوم يومًا، ويفطر يومًا.

وبهذا ظهر إن مرتبة الخلافة إنما هي للرجال، وكذا النبوة العرفية، فإن باب النبوة التحقيقية مفتوح للرجال، والنساء جميعًا، وكذا بقوله ﷺ: «**خذوا ثلثي دينكم من عائشة**»(١).

حيث لم يقل: كمال دينكم؛ لأن كمال الدين إنما هو للرجال، وأمَّا النساء فناقصات العقل والدين، وكانت مرتبتهن الثلاث من الدين لكن لمَّا كانت عائشة رضي الله عنها من سائر النساء بمنـــزلة الذكر من الأنثى؛ كان لها مثل حظ الانثيين.

فإن قلت: إن النبي ﷺ شهد بكمال أربع من النساء: مريم، وآسية، وخديجة، وفاطمة رضي الله عنهن، وأيضًا إن قوله: ﴿**وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ**﴾ [الأحزاب:٧٢] يقتضي أن تدخل النساء في حمل الأمانة الكبرى، قلت: المراد بالكمال المذكور هو: الكمال الإضافي، فهن لا كمال فوق كمالهن بالنسبة إلى سائر النساء.

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٢/٢٦٥).

ولذا كانت كل واحدة منهن من متعلّقات النبي الأكمل الذي هو نبينا ﷺ؛ لأن فاطمة رضي الله عنها بضعة منه، وخديجة رضي الله عنها زوجته في الدنيا والآخرة، ومريم وآسية رضي الله عنهما زوجتاه في الآخرة على ما شهدت به الأخبار؛ ولهذا قال ﷺ: **«أنا وأنت يا علي أبوا هذه الأمة»**[1]؛ فكانت فاطمة من أمهات المؤمنين إلى يوم القيامة فاعرف الإشارة.

وأمَّا المراد بالإنسان فهو: آدم عليه السلام أصالة؛ لأنه هو الذي حمل الأمانة الكبرى أولاً، وأخذ الفيض من الله تعالى بلا واسطة، وقد سبق إن حواء كانت ضلع من أضلاعه؛ فكان حملها تابعًا لحمله.

والحاصل أن آدم هو الحمَّال معنى، وأمَّا حواء فهي الحاملة صورة؛ ولذا لم تزل النساء حوامل الرجال؛ فهن المحمول فيهن في الحقيقة لا الحوامل، فتفطن لذلك فظهر أن الإنسان المطلق هم الرجال، وأمَّا النساء فمن لواحقه وتوابعه وأجزائه؛ كالملائكة والجن وغيرهم.

ثم إن هذا بيان المراتب كل من الفريقين، وإياك وسوء الفهم، فكل أهل كمال من أهل الجمال مطلقًا، كما أن كل أهل نقصان من أهل الجلال مطلقًا.

ثم اعلم أن النساء أمهات، والأزواج آباء، فقد يكون الولد خيرًا منها نظيره في الأفاق هو النبي ﷺ؛ لأنه خير من آدم وحواء ومن سائرهما جميعًا؛ لتحققه بالجمعية الكبرى، وظهوره بالمرتبة العليا، ولا حاجة إلى بيانه في هذا المحل، فالتقدُّم والتأخُّر لا يمشيان في هذا الباب.

وإنَّما يجري الظهور بالخلافة العظمى، ونظيره في الأنفس هو القلب؛ فإنه خير من الروح في نهاية سلوكه، وإن كان الروح خيرًا منه في البداية؛ فالقلب هو خليفة الله في أرض الوجود الأنفسي، أو بكماله الحقيقي صار مَن صار خليفة في أرض الوجود الآفاقي أيضًا؛ بمعنى أنه كان مدادًا لبقاء العوالم بصورها ومعناها بخلاف الملوك والسلاطين؛ فإن قطبيتهم إنما هي لصورة العالم إلا أن يكونوا من الخلفاء؛

(١) لم أقف عليه.

كالخلفاء الاثني عشر الذين أخرجهم المهدي المنتظر ﷺ، فالخلفاء ذو الظل، والملوك الظل.

ولذا قال ﷺ: «**السلطان ظل الله**»(١): أي ظل الحقيقة الإلهية؛ كالصورة المرئية في المرء، ولا شك أنالظل تابع لذي الظل، ومن ثم لم يفلح من السلاطين أحد إلا مَن بايع الخليفة فهم المبايعون فاعرف(٢).

ثم قد يكون النساء من الأقوياء؛ ولكن قوتهن لا تقتضي الخلافة؛ وإنما يقتضيها الضعف، أمَّا الأول: فلأن درجة الأنوثة، وإن كانت نصف الحقيقة في الظاهر؛ لكن قوة الأنوثة قوة مرتبة الجلال.

ولمَّا كان الجلال أغلب وأقهر قال تعالى: ﴿**وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ**﴾ [التحريم: ٤]؛ حيث قابل مظاهرة عائشة وحفصة بمظاهرة هؤلاء؛ ولكن هي في الحقيقة مظاهرة الجلال

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) وقال الشيخ الأكبر في هذا المعنى ﷺ في الباب الرابع والستين وثلاثمائة في معرفة منـــزل السرَّين: لِمَ سمِّي هذا المنـــزل منـــزل السرَّين؟ وهو سرٌّ عجيب أن الشيء الواحد تثنيةُ نفسه لا غيره في المحسوس والمعقول، فأمَّا في المعقول فآدم ثنَّاه ما فتح من ضلعه القصير من صورة حواء، فكان واحد في عينه فثنَّاه نفسه وصار زوجًا، وليست سوى نفسه التي بها قيل فيه: إنه واحدٌ.

وأمَّا في المعقول فالألوهية ليست غير ذاته، ومعقول الألوهية خلاف معقول كونه ذاتًا، فثنَّت الألوهية ذات الحق تعالى وليست سوى عينها فكانت في الحس من آدم ومَنْ ثنَّاه مِنْ ذاته رجالاً ونساءًا على صورة الزوجين.

كذلك بثٌّ من ذات الحق وكونه إلهاً للعالم على صورة هذين المعقولين صور كثيرة، أسماء مؤثرة وأسماء متأثرة ذكورًا وإناثًا، فالعالم لِتوالُدِ أجزائه على صور مؤثِّر ومؤثَّر فيه فاعل ومنفعل، كما جرى في المحسوس فإن الله تعالى ما خلق من آدم وحواء عليهما السلام أرضًا وسماءًا، بل ما خلق منهما الأمثال في الصورة والحكم؛ لأن الأصل واحدٌ وما ثنَّاه سوى نفسه ولا ظهرت كثْرَةٌ إلا من عينه الواحدة، فكان له كل شيء من العالم يدل على أنه واحد؛ فإن الوجود بثٌّ منه صورًا كثيرةً، وهي نسب أحكام الأعيان واستعدادات الممكنات في عين الوجود الواحد، والنِّسب هي صورة الحقائق الأسمائيَّة الفاعليَّة التي كثُرت من نكاحاتها المعنوية في الحقائق الكونية، وكثُرت منها صور النِّسب الواقعة بلفظ النَّسب بفتحتين، وهو مشتق من النِّسْبة، فافهم.

بالجمال، كما لا يخفى على أولي الألباب.

فإن الهُويَّة، والروح، والقوى الروحانية الجمالية لا شدة فيها؛ وإنما الشدة في الصفات النفسانية، ولا شك أن آدم بمنــزلة الذات، وحواء بمنــزلة الصفات؛ فهو منها بمنــزلة النور من النار، وأين النور من النار في الشدة؟ فالنساء مظاهر الصفات الجمالية في الصورة، ومظاهر الصفات الجلالية في المعنى؛ ولذا كن يغلبن الكرام، ويغلبهن اللئام.

وأمَّا الثاني: فإن المراد بالضعف هو الضعف الروحاني الذي به ينكسر سورة الصفات الإنسانية، ويستعذبه الإنسان للخلافة كما قال تعالى: ﴿**وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا**﴾ [النساء:٢٨].

وقد سبق أن المراد بالإنسان هو آدم أصالة، وحواء تبعية.

فإن قلت: فقد اندرجت حواء في الضعف، فهي ضعيفة.

قلت: قد يكون بعض القوى قوية، كما أُشير إليه آنفًا؛ فحواء من هذا القبيل.

والحاصل أن العلويين علويون صورة، وسفليون معنى، وإن السفليين سفليون صورة، وعلويون معنى؛ كالتراب فإنه أعلى الحقائق؛ ولذا أُخذ آدم منه؛ فكان أعلى فيه صورة الكل، وإن حواء أُخذت من الأعلى؛ لكن لمَّا كنت من الضلع القصير قصرت درجتها عن درجة آدم في الحقيقة، وحكمت عليه في الظاهر؛ لأن الضلع قوة متينة، وكان انحناء آدم وحنوه أشد من انحناء حواء حنوها في الصورة، وبالعكس في المعنى، والله أعلم بالحقائق والعلوم، ومنه جلاء كل معقول ومعلوم.

في سورة النساء: قال جلَّ جلاله: ﴿**كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ**﴾ [النساء:٥٦].

المراد بالجلود هي الأبدان عبَّر عنها بها من حيث إن الآثار إنما تشاهد على ظواهر الجلود والبشرة، ولم يقل: لتذوق العذاب على أن يعود الضمير إلى الجلود؛ لأن الذائق في الحقيقة هي النفس الحيوانية بواسطة الجلود.

نعم إن النفس الحيوانية، والجلود في حكم واحد من حيث سريانها في الجلود والأبدان؛ سريان الجمر في الفحم، وماء الورد في ورق الورد؛ لأن مرادنا بالنفس الحيواني غير النفس الناطقة المعبَّر عنها بلسان الشرع الروح الأمري، والإضافي،

والإنساني، والسلطاني والمفارق؛ لأنها غير سارية في الأبدان؛ بل لها تعلُّق بها تعلُّق التدبير والتصرف إذا انقطع ذلك التعلق، وفارق البدن؛ انقطع تعلق النفس الحيوانية أيضًا، وبانقطاعه يقع الموت على الجسد؛ ولهذا لو قُطِّع إربًا إربًا؛ لم يحس الألم.

وإن كان الروح الإنساني لا يخلو عن أذى من حيث أذى جسده وعناصره إذا عرفت هذا عرفان المدرك للعذاب هو الروح الحيواني مع البدن لا الروح الإنساني، إذ مبدأ الحس والحركة؛ إنما هو الروح الأول، فيضاف العذاب، والألم، والثواب، واللذة إليه لا إلى الروح الثاني، حتى أن الروح الثاني من عصاة المؤمنين يبقى عند باب جهنم.

فإذا تمت مدة العذاب، وخرج المعذَّب من النار؛ تعلَّق به، واستصحبه في الجنان أبد الآباد، وإنما لم يكن هو معذَّبًا؛ لأنه مضاف إلى الله تعالى، وله تشريف عظيم من هذه الجهة بخلاف الروح الحيواني؛ لأنه من مضافات الماهية الإمكانية في الحقيقة، ومن شأن هذه الماهية الظلمة، كما أن جهنم أيضًا مظلمة، فلا يليق بالمظلم إلا المظلم.

نعم إن الروح الإنساني لمَّا كان هبوطه إلى البدن؛ لتكميل النشأة، وتعينه فيه تعينًا إطلاقيًا لم يزل من نعيم روحاني، أو عذاب روحاني من الجملة، كما يقتضيه حكم الاتصال بالبدن؛ لأن البدن مضاف إلى الروح الحيواني، وهو مضاف إلى الروح الإنساني، فمضاف المضاف مضاف.

هكذا فهم أهل الله في هذا المقام، وإن كان لا يساعدهم أرباب الظواهر في ذلك؛ لأن المعذَّب عندهم هو الروح الإنساني؛ إذ لا يعتبرون الروح الحيواني اعتبارًا حقيقيًا، ثم أن الكلية المفهومة من قوله: **كلها أبدية لا انقطاع لها**؛ لكن في هذا المقام كلام لا يفهمه إلا مَن فهم معنى أحقابًا في سورة النبأ.

فإياك وسوء الظن بالأكابر؛ فإن علومهم حقيقية مستفادة من علم الله تعالى بلا واسطة، فهم الآخذون عن الله تعالى أخذًا بلا سهو، ولا غلط، إذ لا يحتمل مقام الحضور والمشاهدة ذلك فقول مَن قال: إن جهنم تبقى خالية عن أهلها؛ ليس على ظاهره إذ لا تبقى جهنم خالية عن أهلها أبدًا لا عند أهل الظاهر، ولا عند أهل الحقائق، فنحو فرعون وهامان، ونمرود، مخلَّدون.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ [النساء:٥٩].

أي: إيمانًا شهوديًا عيانيًا بعد ما آمنوا به تعالى إيمانًا رسميًا بيانيًا، قال ﷻ: ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ﴾ من حيث أُلوهيته لا من حيث ذاته البحت، فإن ذاته البحت لا تقتضي الإطاعة واللا إطاعة، ومنه يعلم سر الأُلوهية ارتباط بين الإله والمألوه لو زال؛ لزالت الإضافات كلها، وإلى هذا أشار مَن قلّ، فلولاه

ولولانا لما كان الذي كانَ

ومَن قال أيضًا: إن الربوبية سر لو ظهر؛ لبطلت الربوبية.

قالﷻ: ﴿وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ﴾ أي: من حيث رسالته، فإن ذاته أيضًا لا تقتضي شيئًا من الإطاعة، وعدم الإطاعة، فكما أن الارتباط بين الرب والعبد إنما هو بالأُلوهية التي هي كالسلطنة الظاهرة؛ فكذا الارتباط بين الرسول والأمة إنما هو بالرسالة التي هي كالوزارة الباهرة، ولذا يلي مقام الخلافة مقام المستخلف؛ لأن أحكام الربوبية إنما تجري بعد ظهور حكم السلطنة الحقيقية التي هي الأُلوهية[1].

---

(١) قال ابن ناصر الكيلاني: أشار إلى امتثال قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء:٥٩] وهم الأقطاب والخلفاء والولاة منّا ولهم الأمر فيما هو مباحٌ لهم ولنا، فإذا أمرونا بالمباح وأطعناهم في ذلك أجرنا في ذلك أجر مَنْ أطاع الله فيما أوجبه عليه، وذلك لأنه إذا أمر الإمام المفترض الطاعة بأمر مباح وجبت إطاعته، وارتفع حكم الإباحة، فافهم لتعلم ما منـــزلة الخلافة والإمامة وما أثمرت هذه المرتبة.

فكأنه قال ﷺ: السمع والطاعة للمتحقق بأحدية الجمع، والمتنـــزِّل إلى مرتبة الفرق بالرسالة، والمتلبِّس بخلعة الخلافة والنيابة آمرًا وناهيًا من نبي الله، وأطعته بالانقياد له مع تحقيقي بمرتبة الجمع لتحقيقي بجمع الجمع، فافهم.

وإنما أظهر ﷺ اللام في الرسول؛ ليفصل بين الحق والخلق بإعادة حروف الجر ولم يجمع بين الله والرسول فيه إشارة إلى بُعد الحقائق الخفيَّة والخلقيَّة.

ورد في الخبر الصحيح أنه ﷺ قال لخطيب: «**بئس الخطيب أنت**» لما سمعه قد جمع بين الله تعالى ورسوله في ضمير واحد لا يوحي من الله تعالى ومن يعصمها، وفي قول الرسول ﷺ كفاية لمن أنار الله بصيرته. أما ترى عدم إظهار اللام في قوله ﷺ: وأولي الأمر منّا بلا إعادة لقرب المناسبة والدلالة على أنهم منه ﷺ. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨].

فمن شدة الملابسة حذف اللام في الثاني، ولبعد المناسبة أثبت في الأول؛ ليكون أدل على الفصل فافهم.

ولذا قال (رب العالمين) بعدما قال: (الحمد لله) وأعاد الإطاعة فصلاً لَمن ليس له مثل؛ وهو الحق عمَّن له مثل؛ وهو الحق، وإن كان الخليفة مثل المستخلف في الظهور؛ ولكن أين الحدوث والإمكان من القدم؟

والوجوب أيضًا: إشارة إلى أن طاعة الرسول إطاعة مستقلة؛ لأن للخليفة الأمر والنهي من عند نفسه؛ لفنائه في المستخلف، وبقائه به دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم:٣]: أي لأنه ليس فيه الهوى أصلاً؛ بل فيه الحق والهدى قطعًا؛ فالحق لا يقول إلا الحق، ولَمَّا إن الله تعالى أقام الرسول مقام نفسه؛ أقام الرسول أيضًا خلفاء أمته مقام نفسه، كما قال: «**عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي**»[(١)].

وكما قال: «**رضيت لأمتي ما رضي ابن آدم عبد الله بن مسعود** ﷺ»[(٢)].

وفوق هذا ما قال: «**ما رآه المؤمنون حسنًا؛ فهو عند الله حسن**»[(٣)].

فتدبَّر قوله ﷻ: ﴿وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]؛ وهو العلماء السادة، والمشايخ القادة؛ لأنهم أمراء الأمة قرنًا بعد قرن، فمَن نصَّبه الرسول؛ فهو أمير الرسول، ومَن نصَّبه الأمة بعده؛ فهو أمير المؤمنين، فللمؤمنين حكم التنصب كما للرسول؛ لأنهم مظاهر الأسماء العامة، فلهم السلطنة العظمى من حيث جمعيتهم؛ ولذا كان نصب السلطان بيدأ الرعية، وإن كان الحاكم عليهم هو السلطان، وهذا من الغيةر الإلهية.

ومن هذا الباب: إن الرسول ينال مقام الوسيلة بدعاء الأمة، وإن كان كمالات الأمة كلها بشفاعة الرسول، وعطف أولي الأمر على الرسول من غير إعادة لفظ الإطاعة؛ إشارة إلى أن إطاعة الرسول، وإطاعة أولي الأمر إطاعة واحدة إذ ليس لهم التشريع أبدًا؛ وإنما لهم الإجماع على الحق، والتصرُّف في المباحات التي لا يحكم الشرع فيها بالثواب والعقاب، فإذا أحكموا بالعمل بمباح من المباحات؛ كان ذلك

---

(١) رواه الترمذي (٥/٤٤).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٣/٣٥٩).

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٩/١١٢)، وذكره المناوي في فيض القدير (٥/٤٥٢).

واجبًا؛ لأن الشارع أنزلهم منـــزلة تشبيه في الجملة.

ومن هذا يعلم أن الإلزام إن كان عامًا؛ فالعمل عام، وإلا فهو خاص؛ كالنوافل التي عينها **السلطان محمد الفاتح من السلاطين العثمانية**(١)، ومَن يليه من أولاده؛ لأنْ يصلِّيها الأئمة في جوامعهم، فإنه يجب على الأئمة أن يصلوها بالجماعة في الليالي المعينة، وعلى مَن يقتدي بهم أيضًا في تلك الجوامع، ومَن خرج بعد ما دخل الجامع على عزم الاقتداء مطلقًا، فقد راد وقلَّ مَن فهم هذا المقام من أهل الكشوف فضلاً عن أهل الرسوم.

فإن الإلزام إيجاب على مَن يلتزم، وكذا شروع الملتزم إيجاب على نفسه إلا أنه فرَّق بين الشروع في نفس الفعل، وبين الشروع في شيء من مبادئه، وذلك بالنسة إلى العوام، قال الخواص: أهل العهد والحفاظ بمجرد التعلُّق بشيء من المبادئ؛ كالنية، ودخول، والحضور فيما بين أهل العهد وغير ذلك فاعرف.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ﴾ [النساء:٥٩].

: أي إلى كتابه.

وقوله ﷻ: ﴿وَالرَّسُولِ﴾ [الآية:٥٩].

: أي إلى سنته، وذلك بواسطة الأمراء فإنهم الواقفون على المنصوص عليه منهما.

كما قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

فإن وجدوا المنصوص عليه منهما؛ أرشدوكم إليه، وإلا قاسوا بالمنصوص عليه، فإن ذلك أيضًا هو الحكم عند الله، وعند الرسول.

فالمنصوص عليه من الكتاب والسنة: إمَّا: حقيقي صريح، وإمَّا: حُكمي ليس بصريح.

فما كان غير مصرَّح؛ فهو في حكم المصرَّح إذا اشتركا في العلة، فظهر أن الصريح مقدم على غير الصريح؛ ولذا لم يُخبر أن يقول: المسئول عن المسألة هذا

---

(١) انظر: فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح لعلي الصلابي، وفتح القسطنطينية لمحمد مصطفى، ومحمد صفوت، ومحمد الفاتح الرشيدي، ولعبد السلام فهمي.

رأيي إذا كان النص حاضرًا.

وإن كان ضعيفًا أو ممكنًا إحضاره بالتفتيش، والسؤال من أهل الذِّكر؛ فإن الرأي مضاف إلى العقل والنص إلى الشارع، وليس للعقل الاستبداد بالرأي، وإلا لَمَّا جاء الشرع بمخالفة العقول، وموافقة الحكم، ودخل في هذا الخطاب من حيث الإشارة القوى الروحانية؛ فله إطاعة السر من حيث الحقائق، وإطاعة الروح من حيث المعارف، وإطاعة القلب من حيث الواردات، فلو وقع الاشتباه والالتباس في بعض الأحوال؛ فله نظير البتة في أحوال الكُمَّل فيقاس عليه.

ولذا ورد: «**استفت قلبك**»[1]، فإنه كما أن علم الفتوى لا يعرفه كل واحد من الناس؛ بل لا بد فيه من المراجعة إلى الخواص، فكذا علم الحال لا يعرفه كل واحدة من القوى؛ بل لا بد فيه من المراجعة إلى القلب السليم من آفات الجهل، وسائر الزوائل، والتعلُّق بالموافقات الطبيعية، فإن مثل هذا القلب يدرك حقيقة الحال، فيراجع إلى أهله في المهمات الباطنة، ومن هنا يظهر أن ليس للعارف إلا إظهار ما في نفس الأمر لا إحداث شيء لا يقتضيه المقام.

فإن الله تعالى قد أكمل الدين اليوم بظاهره وباطنه، فمَن لا يرجع في أمره إلى الكتاب والسنة؛ فأمره ردٌّ وإن كان مشحونًا بالحقائق، فإذا عرفت هذا عرفت إن القرآن والحديث لم يتركا شيئًا إلا وقد نصَّا عليه، أو أشارا إليه، فأين تذهبون أيها الضالون المكذِّبون؟ فاحذروا أن تكون بطونكم مملوءة من الزَّقُّوم، وصديد أهل الجحيم بدل النعيم وشراب النسيم، قال تعالى: ﴿**إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾: أي رُدُّوه إلى ما ذكر، إن كنتم تؤمنون بالله أمركم بطاعته، واليوم الآخرة الذي حكم برجوعكم إليهم، فهذا هو حكم المبدأ، والمعاد، ومَن لم يلتزم؛ بقى حائرًا يوم التناد.

وذلك الردُّ خير لكم من عدم الردِّ؛ بل لا خير في عدم الردِّ أصلاً، وأحسن تأويلاً من تأويلكم، فإن تأويلكم بلا ردٌّ، وتأويل عقلي فاسد، وتأويلكم بالردِّ تأويل شرعي صحيح، فخذوا بما أمر الله، وانتهوا عمَّا نهى الله.

(١) رواه أحمد (٤/٢٢٨)، والدارمي (٢/٣٢٠).

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥] فطريق العقل موصول إلى الهلاك، وطريق الشرع موصول إلى النجاة، جعلنا الله وإياكم من أهل النجاة ظاهرًا وباطنًا، ومن أهل العافية أولاً وآخرًا(١).

---

(١) قال سيدي مصطفى البكري: وقال الشيخ ﷺ في شرح اليوسفية عند قول المؤلف: فالزم الباب، ولا تخل بشيءٍ من آداب الشرع أصلاً، فإن أخللت بشيءٍ من الآداب أنت أو غيرك كانت العقوبة إليك سريعة، فالزمْ حلقة الباب، وزنْ حركاتك بميزان الشرع.

يقول لك في وصيته بلزوم الباب وحلقته ما قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة:٢٥٦]، وهو من حلقة الباب، وذلك هو الإيمان، والباب الإسلام، وبالباب وحلقته تكون السعادة للعبد، وإنما قيد الإيمان بالله والكفر بالطاغوت.

فإنه يقول في حق قوم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ [العنكبوت:٥٢] فسمَّاهم مؤمنين، كما قال: ﴿يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ [البقرة:٢٥٦] فسمَّاهم كافرين، كما سمى الكافر بالله كافرًا، فلما وقع الاشتراك في الاسم لذلك قيد بيانًا لغاية الإطلاق.

واعلم أن الآداب جماع الخير، والشرع ما شرع الله، ففي الشرع جماع الخير، فإن الطريق إليه لا يُعرف إلا منه، فإنه ليس لمخلوقٍ أن يحكم فيما يقرب إلى الله إلا بروائح مكارم الأخلاق، فإن الصورة الإلهية تعطي ذلك، ولهذا يجني ثمرتها المؤمن صاحب الجنة والمخلد في النار لا بدَّ من ذلك، ولما كان الأمر كما قلنا لذلك أمرك بالآداب الشرعية؛ لتكون بها في الدار المسمَّاة جنة.

وأما صورة الوزن بين الحكم المشروع وبين أفعال المكلفين، فالعلم بذلك موقوفٌ على العلم بالشرع، والشرع على قسمين:

ثابتٌ يناقضه شرع ثابت، وهو ما وقع فيه الاختلاف بين المجتهدين.

وشرعٌ جامعٌ وهو ما أجمعوا عليه، فالإنسان يحتاط أبدًا، ولا يزال أبدًا يميل إلى ما وقع فيه الإجماع، كالقصر في الصلاة للمسافر، والفطر للمسافر في رمضان، ودخول مكة لمن لا هدي معه بعجزه دون حج، وترك نكاح الربيبة التي ليست في الحجر، وترك شرب النبيذ وأمثال ذلك، وهذا هو طريق العزائم، فأمرك ألا تجنح إلى تأويلٍ مع قدرتك على مثل هذا: أي لا يكون في عملٍ مشروعٍ ينقضه عليه شرع آخر والشارع واحد، وأكثر من هذه النصيحة من هذا الرجل في مثل هذا الأمر لا يكون، والله أعلم.

قال ﷺ في رسالة القربة: «فالله الله. لا تنبذوا حكمًا ولا تعدوا حدًّا من الحدود المعلومة عند علماء الرسوم، وإن اختلفوا في ذلك وحرَّم الواحد عين ما حلله الآخر فلا تقلد هذا الرسمي في شيءٍ من

=

ذلك ولا تخالفه، واعمل بما توجه عليك في وقتك مما فيه سلامتك، واشتغل بنفسك شغلاً كليًّا، واهرب إلى محل إجماعهم، فإن لم تجد إجماعًا فكن مع أكثرهم، فإن لم تجد كثرة فكن مع أصحاب الحديث في تلك المسألة المطلوبة، وقلّ أن يحتاج أهل الطريق إلى مثل هذا؛ لأنهم زهدوا في الدنيا فقلّ الحكم عليهم».

أخبرني شيخنا الشيخ محمد الخليلي حفظه الله تعالى قال: كنت أعمل على مراعاة المذاهب، وأتبع محل الإجماع منها فأعمل به، فرأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله، هل العمل بالمتفق عليه من شريعتك أولى أو المختلف فيه؟ قال: فانتهرني وقال: «لا تسأل».

ففهمت منه أنه لم يرضَ بهذا السؤال، ثم أُلهمت فقلت له: قد فهمت مرادك يا رسول الله، المتفق عليه من شريعتك، والمختلف فيه من شريعتك، والكل من عند الله، قال: هكذا قل...

وما ضلوا به وأضلوا هؤلاء اللئام قولهم: إن الشريعة جعلها الله ستارة على الحقيقة لأجل العوام، وليس المراد من الصلاة إلا الوصلة، والصيام يُراد به الإمساك عن رؤية السوى، والحج: القصد إلى الله، وعرفات يُراد به جبل المعرفة، واستدلوا على ذلك بعبارات العارفين، وهم إنما أرادوا ذكر المعنى الباطني، فإن كل شيءٍ له ظاهر وباطن، فالمتمسك بالظاهر من النصوص فرقة ضالة يُقال لها: «الظاهرية»، والمتمسك بباطنها فرقة أخرى ضالة يُقال لها: «الباطنية».

والجامع بين الظاهر والباطن هم أهل السُّنة والجماعة، الذين فرقتهم لكل خيرٍ جامعة، وكُمَّل هذه الطائفة هم الصوفية الأبرار والسادة الأخيار، فإذا سمعوا قوله ﷺ:

«إنَّ الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلبٌ ولا صورةٌ».

أخرجوا من بيوتهم الكلاب والصور عملاً بظاهر الحديث، وفهموا من إشارته أن المراد بالبيت القلب، وبالكلب الحقد، وبالصورة تصور الغير، فبادروا لطهارة القلب منهما، عملاً بإشارة النص، والإشارة لا تعارض ظاهر العبارة، وليس مرادهم بهذه الخزعبلات إلا مجرد الاحتيال على إسقاط التكاليف الشرعية، وإبطال شعائر الملة المرعية.

قال الإمام العارف السهروردي في «عوارف المعارف»: «ومن أولئك: أي المنتمين للصوفية وليس منهم قوم يغرقون في بحار التوحيد، ويسقطون ولا يثبتون، لنفوسهم حركةً وفعلاً، ويزعمون أنهم مجبرون على الأشياء، وألا فعل لهم مع الله تعالى، ويسترسلون في المعاصي، وكلما تدعو النفس إليه، ويركنون إلى البطالة ودوام الغفلة، والاغترار بالله، والخروج عن الملة، وترك الحدود والأحكام والحلال والحرام.

وقد سُئل سهل عن رجلٍ يقول: أنا كالباب لا أتحرك إلا إذا حُرِّكت، قال: هذا لا يقوله إلا أحد رجلين: إما صديق، أو زنديق؛ لأن الصديق يقول هذا القول إشارة إلى أن قوام الأشياء بالله مع

=

أحكام الأصول، ورعاية حدود العبودية، والزنديق يقول ذلك إحالة للأشياء على الله، وإسقاطًا للأئمة عن نفسه، وانخلاعًا عن الدين ورسمه، فأما من كان معتقدًا للحلال والحرام والحدود والأحكام، معترفًا بالمعصية إذا صدرت منه، معتقدًا وجوب التوبة منها، فهو سليمٌ صحيحٌ، وإن كان تحت القصور بما يركن إليه من البطالة، ويستروح بهوى النفس إلى الأسفار والتردد في البلاد، متوصلاً إلى تناول اللذائذ والشهوات، غير متمسكٍ بشيخٍ يؤدبه ويهذبه ويبصره بعيب ما هو فيه».

واعلم يا أخي سلكك الله بي وبك سبيل التحقيق الموصل إلى أقوم منهج، وأعدل طريق، أن القول بأن ظواهر الأحكام المشروعة للأنام خاصة بالعوام، منابذة للدين وخروج عن الشرع المتين، ويلزم عليه أن طريق الخواص ليس فيه شيء من أعمال البر الظاهرة، وإنما هو على دعواهم أعمال باطنة باهرة.

وهذا القول يناقضه حال أكمل الأنام، وقيامه حتى تورَّمت قدماه من طول القيام، ومكابدة الأصحاب، ومجاهدة الأحباب بما ليس في وسعنا الإتيان ببعض ذلك، وإقرارهم بالقصور والعجز عن الوفاء بحقوق السيد المالك، وما سمع منهم ولا نقل عنهم ما يقول به هؤلاء الأنذال، مع أنهم في الحضيض الأسفل عن منازل أولئك الأبدال.

وهذا القول ألجأهم إلى تمييز الشريعة عن الحقيقة، ودعوى انفصالهما ليجيبوا إذا سُئلوا عن مخالفاتهم، التي هي بالذم حقيقة أن هذه الأمور من خلف ستور الحقيقة، مع أن كُمَّل العارفين لم يفرقوا بينهما إلا بقصد التعريف، فكلما صلح تعريفًا للحقيقة صلح أن يكون للشريعة والطريقة، فإن الحقيقة شريعة والطريقة كذلك، وقد رأيت في بعض الرسائل حديثًا مرفوعًا وهو: «**الشريعة مقالي، والطريقة أفعالي، والحقيقة حالي**».

وعلى تقدير صحته فالشريعة: البيان، وهو بالمقال وما ينطق عن الهوى وبالأفعال، وهو أبلغ فاتبعون يحببكم الله، والحال ما ينتجه البيان فعاد الأمر إليه.

قال سيدي محيي الدين قدَّس الله سرَّه في كتاب «التراجم» في باب ترجمة الشريعة والحقيقة: لطيفة: يخيل لمن لا يعرف أن الشريعة تخالف الحقيقة، هيهات بل الشريعة عين الحقيقة، وأن الشريعة جسمٌ وروحٌ، فجسمها الأحكام وروحها الحقيقة، فما ثم إلا شرع لطيفة، الشريعة: وضعٌ موضوعٌ وضعه الحق في عباده، فمنه مسموع وغير مسموع، فلهذا من الأنبياء متبوع وغير متبوع، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ [الأنفال: ٢١]، كمثل الذي ينعق بما لا يسمع.

وقال في فتوحاته في باب الشريعة: الشريعة من جملة الحقائق، فهي حقيقة لكن تُسمَّى شريعة، وهي حقٌّ كلها، والحاكم بها حاكمٌ بحقٍّ مثاب عند الله؛ لأنه حكم بما كلف أن يحكم به، وإن كان المحكوم له على باطلٍ، والمحكوم عليه على حقٍّ، فهل هو عند الله كما هو في الحكم، أو كما هو

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

=

في نفس الأمر؟ فمنا من يرى أنه عند الله كما هو في نفس الأمر، ومنا من يرى أنه عند الله كما هو في الحكم.

ثم قال بعد كلامٍ طويلٍ: فعين الشريعة عين الحقيقة، والشريعة حقٌّ كلها، ولكل حقٍّ حقيقة، فحق الشريعة وجود عينها، وحقيقتها ما ينـــزل في الشهود منـــزلة شهود عينها في باطن الأمر، فيكون في ذلك الباطن كما هي في الظاهر من غير مزيد، حتى إذا كشف الغطاء لم يختل الأمر على الباطن.

ثم قال: فما ثمَّ حقيقة تخالف الشريعة؛ لأن الشريعة من جملة الحقائق، والحقائق أمثال وأشباه، والشرع ينفي ويثبت، فتقول: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وهذا قول الحقيقة بعينه، فالشريعة هي الحقيقة.

وأطال في ذلك. وقال فيها أيضًا: ومن جملة آداب الحق ما نزلت به الشرائع.

وقال: لما كان الأمر العظيم يجهل قدره ولا يعلم، ويعز الوصول إليه، تنـــزلت الشرائع بآداب التوصل؛ ليقبلها أولوا الألباب؛ لأن الشريعة لُب العقل والحقيقة لُب الشريعة، فهي كالدهن في اللب الذي يحفظ القشر، فاللب يحفظ الدهن والقشر يحفظ اللب، كذلك العقل يحفظ الشريعة والشريعة تحفظ الحقيقة، فمن ادَّعى شرعًا بغير عقلٍ لم تصح دعواه، فإن الله تعالى ما كلف إلا من استحكم علقه، ما كلف مجنونًا ولا صبيًّا ولا من خرفٍ، ومن ادَّعى حقيقة من غير شريعة فدعواه لا تصح.

ولهذا قال الجنيد: «علمنا هذا يعني علم الحقائق الذي نجا به أهل الله مقيَّدٌ بالكتاب والسُّنة»: أي أنه لا يحصل إلا لمن عمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وذلك هو الشريعة، وقال: «إن الله أدبني فأحسن أدبي، وما هو إلا شرع له، فمن تشرَّع تأدَّب، ومن تأدَّب وصل».

وقال سيدي عبد الله بن أسعد اليافعي رحمه الله تعالى في نشر المحاسن:

اعلم أن الشريعة الشريفة المنيفة مشتملة على قسمين: علم وعمل، ثم العلم من حيث الجملة على قسمين: ظاهر وباطن.

والظاهر على قسمين: شرعي وغير شرعي.

والشرعي على قسمين: فرض ومندوب.

والفرض على قسمين: فرض عين وفرض كفاية.

وفرض العين على ثلاثة أقسام: علم صفات القلب، وعلم أصل، وعلم فرع.. وانظر: السيوف الحداد (ص٥٠) بتحقيقنا.

لم يكتفِ بقوله: (فاستغفروا الله) بل ضم إليه قوله: (واستغفر لهم الرسول)[1]؛ لأن الظالم لنفسه كما أنه هاتك لحرمة الله في شريعته؛ فكذا هو هاتك لحرمة رسول الله في حقيقته إذ ليس موجود من الموجودات إلا وفيه شعاع من أشعة ذاته ﷺ، والظلم بظلمته يهين ذلك الشعاع، ويصير سببًا لاستتاره، وانمحاقه؛ فيصل أثر ذلك الظلم المظلم إلى الحبيب المنوَّر بنور العظمة، والجلال، والجمال، والكمال؛ فيكون الظالم مسيئًا في حق الله تعالى، وفي حق الرسول.

فإذا تاب إلى الله تعالى؛ لزم عليه أن يتوسل إلى القبول بشفاعة الرسول؛ لأنه الواسطة بين الله تعالى وبين عباده، وهذا التوسل باقٍ الآن، وإلى قيام الساعة لا يختصُّ به زمان حياه ﷺ، وإن كان يظنه بعض القاصرين؛ لأن حيٌّ الآن بحياة لائقة بمقامه العالي؛ ولذا ندب إلى زيارة روضته، وعلى تقدير الفوت بحسب الموانع، وفقدان الشرائط والأسباب؛ لزم المراجعة إلى وارث مَن ورثته للتوبة والإنابة.

فإن الذين يبايعون الرسول؛ فإنما يبايعون الله، وإن الذين يبايعون وارث الرسول؛ فإنما يبايعون الرسول بوساطة ذلك الوارث، والله تعالى بوساطة الرسول، فالمبايع في الحقيقة هو الله تعالى على أيدي الوسائط.

ويدلُّ على ما ذكرنا: من أنه لا بد من استغفار الرسول إلى قيام الساعة، ولا يختصُّ به زمان دون زمان ما قال ﷺ:

«حياتي خير لكم، ومماتي خير لكم، قالوا: هذا خيرنا في حياتك، فما خيرنا في مماتك؟ قال: تُعرض عليّ أعمالكم كل عشية الإثنين والخميس، فما كان من

(١) قلت: فكان في تسميته نبي التوبة من المعاني والأسرار، والإشارة إلى مقامه عند مولاه في هذه الدار وفي تلك الدار، ما شهدت به الآثار وصحيح الأخبار.
ووجهٌ آخر: وذلك أن الأمم السالفة كانت إذا أذنبت لا يزول ذنبها إلا بأمور شاقة على النفوس، وشرع فيه كُلفةٌ من الملك القدُّوس، فسهَّل الله مِنَّةً منه سبحانه على هذه الأمة زوال ذنوبها بأمر خفيف على اللسان، وسهل استعماله في جميع الأزمان، فكان ذلك رحمة من الله بعباده، رحم الخلائق بها ببعثته إليهم حبيب الرحمن.
ووجهٌ آخر: إن الله سبحانه سمَّاه نبي التوبة إشارةً إلى أنه بعثه الله تعالى لأمة مرحومة، غفر لها مولاها برحمة نبيِّها قبل استغفارها لله، فاستجاب لها وأعطاها، وفضَّلها على سائر الأمم وأكرم مثواها.

خير؛ حمدت الله تعالى، وما كان من شر؛ استغفرت الله»(١)(٢).

(١) رواه الديلمي في الفردوس (١٣٨/٢)، وابن سعد في الطبقات (١٩٤/٢) بنحوه.

(٢) قلت: فهو نبي الرحمة: ألا ترى أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. فكانت حياته رحمة، ومماته رحمة. كما قال ﷺ :« حياتي خير لكم ومماتي خير لكم». وكما قال ﷺ: «إذا أراد الله سبحانه رحمة بأمة قبض نبيها قبلها، فجعله لها فرطًا وسلفًا».

ورحمته ﷺ عامة للجن، والإنس، ولجميع الخلق: مؤمنهم، ومنافقهم، وكافرهم؛ رحمة للمؤمنين بالهداية، ورحمة للمنافقين بالأمان من القتل، ورحمة للكافرين بتأخير العذاب.

وقد علم الله سبحانه قوة شفقته على الخلائق، ومحبَّته في هداية عبيده، وجلب الإحسان إليهم، وأنه أنفعهم إلى خلق الله، وأرأفهم بعباد الله، وأوصلهم نفعًا إلى فقراء الله، وأشدُّهم نصحًا، وجدًا في إيصال الخيرات، وتفريج الكُربات، وتسهيل المصعبات، وفتح أقفال المضيقات.

فعلم العالِم بما في الصدور: إن قلبه، وجسده ﷺ، وجميع دمه، ولحمه، قد جرت الرحمة فيه، وتركَّبت بنيته منها، وبُني أساسه الكريم عليها؛ فلذلك جعله نفس الرحمة: أي أن الرحمة تمكّنت من قلبه، وجرت في لحمه وعظمه.

فذاته رحمة، وحركاته رحمة، وسكناته رحمة، واجتماعه رحمة، وافتراقه رحمة؛ لأن ما من حركة، أو سكون يصدر منه عليه السلام إلا وهو بالله ولله ومن الله؛ لأنه قدوة، وأُسوة للعالمين، ورحمة تعود على الخلائق أجمعين.

وقد نوَّر الله سبحانه به السموات والأرضين، فشفقته، ورحمته ﷺ، وسياسته مع خلق الله لا يحيط بها نقل، ولا يحصرها عقل.

وتأمَّلوا رحمكم الله، وزاد في حبِّي، وحبِّكم لهذا النبي الشريف، وضاعف حبنا فيه الخبير اللطيف، وتذكَّروا قضية الأعرابي الذي جاءه يطلب شيئًا.

ثم قال له: أحسنت إليك؟

قال: لا ولا أجملت!

فغضب المسلمون، وقاموا إليه، فأشار إليهم؛ لشفقته ورحمته: أن كُفُّوا، ثم قام، ودخل منـــزله، وأرسل إليه، وزاده شيئًا، ثم قال له: أحسنت إليك؟ قال : نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا.

فقال له النبي ﷺ: «يا أعرابي! إنك قلت ما قلت، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت، فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك.

فقال: نعم.

فلمَّا كان الغُدو أو العشي جاء، فقال النبي ﷺ: إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه، فزعم أنه رضي، أكذلك هو؟. قال: نعم، جزاك اللهم خير وعشيرة نعمة. فقال ﷺ: مثلي ومثل هذا؛ كمثل رجل
=

وإنما خصَّ عشية الإثنين؛ لأن أبواب الجنة تفتح فيها بحرمة مولد النبي ﷺ تلك الليلة، كما تُفتح في شهر رمضان؛ فكانت ليلة الرحمة المطلقة، والمغفرة العامة، وخصَّ عشية الخميس أيضًا؛ لأن الأعمال الأسبوعية تُعرض على الله تعالى يوم الخميس، فأحب ﷺ أن يستغفر لأمته قبل العرض على الله تعالى حتى لا يبقى لهم سيئة معروضة عليه موجبة للخجل؛ ولذا كان لا يزال يصوم الإثنين والخميس؛ فيبقى سنة لأهل العزيمة من أمته لا يزالون يصومونهما إلى قيام الساعة في السفر والحضر.

وفيه إشارة إلى أنه ينبغي للمؤمن ألا يمر عليه ثلاث ساعات؛ إلا ويجدد فيها التوبة لله تعالى، فإن لم يرجع إلى الله فيها فليجتهد أن لا يمضي ست ساعات إلا وهو راجع فيها؛ وذلك أن أيام الأسبوع وإن كانت سبعة؛ لكن لمَّا كان يوم الخميس يوم العرض؛ فقد بقي لنا ستة أيام هي: أيام الأعمال؛ وهو رمز لطيف لا ينتبه له إلا مَن كشف الله الحجاب عن بصيرته، نسأل الله سبحانه أن لا يُبقي لنا ذنبًا إلا وغفره، ولا تلوينًا إلا وبدَّله التمكين بحرمة مَن جعله وسيلة لجنابه، وشفيعًا عند بابه.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ﴾ [النساء:٦٩].

: أي في أوامره ونواهيه.

وقوله: ﴿وَالرَّسُولَ﴾ [الآية:٦٩].

=

له ناقة شرَدت عليه، فاتَّبعها الناس، فلم يزيدوها إلا نفورًا، فناداهم صاحبها: خلوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم. فتوجه إليها، وأخذ لها من تمام الأرض، ثم أتى بين أيديها، فردَّها حتى جاءت واستناخت، وشدَّ عليها رحْلها وركبها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه، دخل النار».

فتأمَّلوا رحمكم الله هذا الحديث العظيم، وما اشتمل عليه من كمال حسن عشرته، وسياسته مع خلق الله، وشفقته عليهم، ورحمته بهم، ومعاشرته معهم، وكمال الحرص والجد على نفعهم، وتمام ملاطفته للجاهلين لحمله لأذاهم، وتحمله عنهم، فكان ذلك كله ناشئًا عن تمام رحمته وكمال شفقته ﷺ ولا غرابة في أحواله وصفاته لأنه شكور لربه، والشكور لله يكون في غاية الرفعة والكمال في جميع الأفعال، وسائر الخصال.

: أي في سننه ومستحباته، وقوله: ﴿فَأُوْلَـئِكَ﴾ [الآية:٦٩] المطيعون.

وقوله: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [الآية:٦٩].

بحسب استعداهم ومراتبهم، فإنعام بعضهم إنعام إطلاقي، وإنعام بعضهم إنعام إضافي، والكل شاكرون لأنعم الله، مترقّبون للمزيدات دنيا وآخرة.

وقوله: ﴿مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ [الآية:٦٩].

قدَّمهم؛ لأنهم أعلى مَن أنعم عليهم؛ لأنهم منعمون من وجه عام، ومن خاص، وغيرهم منعمون من وجه خاص فقط.

وقوله ﷻ:﴿وَالصِّدِّيقِينَ﴾ [الآية:٦٩].

هم الذين خلصت نفوسهم عن الصفات النفسانية؛ بل عن شائبة الغيرية، وهم مُخبرون عن الله تعالى أيضًا؛ لأن الله تعالى أراهم ملكوت السموات والأرض؛ لكن نبوءتهم نبوءة تحقيقية لا تشريعية كما للأنبياء؛ فإن النبوة التشريعية منقطعة، وما بقيت إلا المبشِّرات؛ ولذا كانوا دون الأنبياء في الذكر والرتبة فاعرف.

وقوله ﷻ: ﴿وَالشُّهَدَاء﴾ [الآية:٦٩].

هم الذين جاهدوا في سبيل الله بالجهاد الأصغر؛ ولذا كانوا دون الصديقين الذين هم أهل الجهاد الأكبر؛ لأن إصلاح الأعمال دون إصلاح الأحوال؛ إذ الظواهر أبواب البواطن، وللصدور رجال في الدور.

وقوله ﷻ: ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ [الآية:٦٩].

هم أهل الاستقامة في الدين بحيث خلصت أعمالهم عن الخلل؛ فسدوا طرق خلل العمل بالصلاح، وهذا الصلاح عام في الحقيقة؛ لكن صلاح النبيين أقوى من صلاح الصديقين كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة:١٣٠].

وقوله تعالى حكاية عن يوسف الصديق عليه السلام: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

: أي بالأنبياء الذين صلحت أحوالهم أكمل الصلاح؛ وصلاح الصديقين أقوى من صلاح الشهداء؛ لأنهم ما بقيت لهم بقية من النفس بخلاف الشهداء؛ إلا أن

الشهداء لمّا بذلوا مهجهم، وأفنوا ظواهرهم؛ التحقوا بالفانين في الله مطلقًا؛ ولذا حفظ الله تعالى أجسادهم عن البلى، والتفسُّخ؛ كأجساد الصديقين، وإن كان بين أجسادهم لطافة ونضارة فرق بحسب سريان بركات النفوس إليها، وصلاح الشهداء أقوى من صلاح مطلق الصالحين؛ لكونهم مباشرين للجهاد الأصغر الذي هو خصوص مرتبة من مراتب الأعمال الفاضلة.

ومعنى المعية المفهومة من الآية: إنهم أهل الحضور والقرب، وإن كانت درجاتهم متفاوتة في العلم والعمل.

فهم: أي المطيعون من هذه الأمة:

إمّا صديقون: فهم مع إخوانهم الصديقين في درجاتهم.

وإمّا شهداء: فهم مع إخوانهم الشهداء في طبقاتهم.

وإمّا صالحون: فهم مع إخوانهم الصالحين في منازلهم، إلا أنه يغيب بعضهم عن بعض، وإن تفاوت درجاتهم، كما لا يغيب خواص السلطان بعضهم عن بعض، وإن اختلفت مقاماتهم، وتقاربت أو تباعدت دورهم وبيوتهم؛ فإن بعضهم ينـــزلون منازل بعض بالزيارة متى أرادوا، فإذا كان لا حجاب بين الأصدقاء في هذا الموطن الكشيف؛ فما ظنك بهم، وهم في الموطن اللطيف.

ولذا قال تعالى: ﴿**وَحَسُنَ أُولَـــئِكَ رَفِيقًا**﴾ [النساء:٦٩].

: أي جوارًا جعلنا الله وإياكم من أهل حسن الجوار بحرمة نبيه المختار.

وفي قوله ﷺ: «**مَن أحب قومًا؛ فهو منهم**»(١).

اشارة إلى ما ذكرنا فإن المراد أنه منهم في الدنيا والآخرة.

امّا في الدنيا: فبالطاعة والأدب الشرعي.

وإمّا في الآخرة: فبالمعاناة والقرب المشهدي، فإن المحبة رابطة قوية بين المحب والمحبوب، وتلك الرابطة تقتضي الموافقة على كل حال.

فالإنسان لا يلحق الأبرار إلا بأعمالهم، ولا يرتبط بالمقربين إلا بأحوالهم:

---

(١) رواه البخاري (٥/٢٢٨٣)، ومسلم (٤/٢٠٣٤) بنحوه.

أي بعد المحبة التي هي أساس الالتحاق، فمَن ظن كفاية المحبة المطلقة بدون موافقة الأعمال؛ فقد ألحق اليهود بموسى، والنصارى بعيسى، والروافض بالمرتضى، فحاشا عن أن يلتحق الملوَّث بالمطهَّر فلا فائدة للأطماع الفارغة، ولو شاء الله لجمع الناس على الهدى؛ ولكن قال: ذلك الفضل من الله يتفضل به على من يشاء وكفى بالله عليمًا بمن يستحق الفضل بحسب استعداده.

كما قال: ﴿اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه﴾ [الأنعام:١٢٤].

وفيه إشارة إلى أن الكسب إنما هو من الأدب، وإلا فكل كمال إنما هو اختصاص إلهي ناظر إلى الشئونات الذاتية الأزلية التي لا مدخل فيها للجعل، فرُبَّ صالحٍ يلحقه الله بمَن فوقه من الأصلح؛ فيكون أصلح، ورُبَّ صادق يرقيه الله إلى الأعلى؛ فيكون أصدق، وإذا كان أصدق؛ كملت مقاماته.

وإن كان السير في الله لا نهاية له أبد الآباد؛ هو الذي قرب من درجة النبوة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:١٠٨]: أي أنا على بصيرة في أمر الدعوة، وكذا مَن اتبعني قولاً وفعلاً وحالاً.

أمَّا القول: فهو صدق القول.

وأمَّا الفعل: فهو صدق الفعل.

وأمَّا الحال: فهو صدق الحال.

فمَن لم يصدق في هذه المراتب؛ لم يكن من أهل الدعوة إلى الله؛ لأن الكاذب لا يدخل على الله، ولا يُدلُّ على الله؛ ولذا قالوا: عين اليقين، فمَن ادَّعى العين؛ فلا عين له فقد ارتكب المَيْن، فكيف يجوز أن يقول الرجل أبصرت ولا بصر له؟ أو علمت ولا بصيرة له؟

فأهل الرسوم إرشادهم إنما هو من الأحكام، وأهل الحقائق دعوهم إنما هي إلى مرسل الأحكام، فكما أن الأحكام لإصلاح الظواهر، فكذا الحقائق لإصلاح البواطن، والظواهر ظروف البواطن فليست البواطن بعيدة من الظواهر؛ لكن العيون الظاهرة لا تبصرها، فيجب أن يكون المرء؛ كالهدهد، فإنه يرى الماء تحت الأرض،

ولا تكون الأرض حائلة له؛ بل هي كالمرآة لِما يراه فيها.

فكما أن الأرواح مع الأجساد ورؤيتها رويتها، فكذا الصور مشاهد المعاني وشهودهبا شهودها، فظهر أن الباصرة إنما هي لرؤية الآثار، والبصيرة لإدراك الحقائق من تلكِ الآثار؛ ولذا جعل الله لكل رجل قلبًا ليتقلّب به في درك الأسرار؛ فيترقى إلى عالم الأرواح، ثم إلى عالم المغاني، ثم إلى غيب الذات؛ وهي سدرة المتهى التي هي آخر السدر؛ لأن لكل عمل وسير سدرة مخصوصة.

والرب تعالى هو المنتهى كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم: ٤٢]: أي إلى ربك المخصوص المعروف الموصوف المرسوم فافهم جدًا، أو لا تكن كالسمك يسكن في الماء، ويجري فيه، ويسأل أين؟ فهذا هو الماء قد أفاض الله عليك، وبالاستفاضة أشار إليك.

وقال الله سبحانه: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ﴾ [النساء: ١٠٠]: أي من بيت بشريته وطبيعته، وفيه إشارة إلى أن السالك الخارج الأجر الآتي، وإن لم يخرج من بلد وجوده المجازي بالكلية، فإن الخروج من بلد الوجود بالكلية، والدخول في بلد الوجود الحقيقي إنما يحصل في الدنيا لواحد بعد واحد.

والله تعالى يمنُّ على عباده السالكين؛ فيوصلهم إلى مقاصدهم، إمَّا في الدنيا، وإمَّا في البرزخ، وإمَّا في الحشر؛ وهو المراد بقولة مَن قال: مَن لم يصل إلى مراده؛ فمراده يجئ إليه، وهذا الإيتاء في قول مَن قال: إن كل كمال لم يحصل في الدنيا؛ فهو لا يحصل في الآخرة.

وذلك فإن عدم الحصول إنما هو لغير السالك، وأمَّا السالك فتدارك بفضل الله سبحانه، كما قلنا آنفًا، وإلى حال غير السالك دلَّ قوله تعالى: «**ومن كان في هذا أعمى فهو في الآخرة**»(١).

وإلى حال السالك أشار قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، وهذا المبحث قد حققناه في كتابنا المسمَّى: «**بتمام الفيض**» بما لا مزيد عليه، والله الموفّق.

(١) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (١٨٦/٤)، وذكره المناوي في فيض القدير (٦٨/٣).

قوله تعالى: ﴿مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ﴾ [الآية:١٠٠] في الحقيقة، وقوله تعالى: ﴿وَرَسُولِهِ﴾ [الآية:١٠٠] في الظاهر.

ودخل فيه وارث الرسول؛ لأن مسكنه المدينة الثانية، وهو نفسه وحسنه من حسنات الرسول؛ فهو الرسول المرسل بالرسالة التحقيقية لا النبي المبعوث بالنبوة التشريعية، فإنه منقطع أبدًا، ولم يبقَ إلا المبشرات، وإنما قال: إلى الله؛ لأن نهاية المعجزة، إنما هي مقام الأُلوهية، وهي منتهى العلم أيضًا.

كما قال تعالى: ﴿فَاعلم أنهُ لا إِلَهَ إلا اللَّه﴾ [محمد:١٩]، وعند هذا المقام يخلص السالك من الحجب الجسمانية الظلمانية، والحجب الروحانية النورانية؛ لأن الأُلوهية ليست مأخوذة من حيث كونها صفة من صفات الله تعالى؛ بل من حيث هويتها أيضًا.

ولا شك أن الهويَّة[1] غاية الغايات لا غاية وراءها، ولا مرمى غير الحق تعالى عن الهُويَّة بالأُلوهية؛ إذ مقام البقاء بالله يقتضي الارتباط بالحق، فالحق إله واحد، والعبد مألوه أبدًا على اصطلاح القوم دلَّ على هذا أن النبي ﷺ لمَّا دخل على الله

(١) والهوية بضم الهاء: يُراد بها عند الحكماء: الحقيقة الجزئية؛ لأن ما به الشيء هو هو، إن كان جزئيًّا تسمَّى بذلك. وإن كان كليًّا يُسمَّى بالماهية، وإن لم يعتبر فيه كلية ولا جزئية كان حقيقة، فهي أعم منها. وهذا المعنى وإن كان صحيحًا في نفسه عند السادة حيث أن الوجود الحق عندهم جزئي لا كلي: أي هو شيء واحد ظهر بكثرة إلا إنهم: أي السادة اصطلحوا على الهوية بأنها الوجود الحق الذي لم يؤخذ بشرط شيء، ولا بشرط لا شيء، فإن الوجود كما قدمنا إما أن يؤخذ لا بشرط شيء، وهو الذات البحت.

وإما أن يؤخذ بشرط شيء ولو كثرة، وهو مقام الجمع المعبر عنه بالواحدية، وإما أن يؤخذ لا بشرط شيء ولا بشرط لا شيء، وهو هذه الهوية السارية بكل شيء، أي شيء كان، وهي الوجود الحق المذكور، والمراد بالسريان الظهور في المظاهر: أي ظهور هذه الهُوية في كل شيء، كما يشاهده العارفون فإنهم صرَّحوا به، لا يكون الكامل كاملاً حتى يرى هوية الحق سارية في كلِ شيءٍ، بل وهويته كذلك؛ إذ هي هي، ولا يظن الحلول بقسميه، بل ولا يتوهم أن لا إثنينية أصلاً، بل شيء واحد تعين بتعينات حسية وغيرها رجعت إلى عدم محض. وانظر: كشف الأسرار لصلاة سيد الأبرار للعطار (ص١٢٥) بتحقيقنا.

تعالى ليلة المعراج قال: «**لا إله إلا الله أنا العبد**»[١]، مع أن ذلك المقام الخطير يقتضي الفناء بالكلية فافهم جدًا.

وقال تعالى: ورسوله، فعبَّر عنه بالرسول؛ لأن ارتباط الأمة بالنبي إنما هو من حيث رسالته، وإلا فهو القائل: «**لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرَّب ولا نبي مرسل**»[٢]: أي لا يدخل فيه غيره، فكل تابع منقطع عنه هناك[٣].

والحاصل أن لكل عبد وجهًا إلى الله تعالى بخصوصه، فهو من هذه الخصوصية لا ارتباط له بغيره أصلاً؛ ولذا يقال: أخبرني ربي، ومن هذا الباب أنه ﷺ لم يُعين الخليفة بعده لَمَّا علم ان من أصحابه وأمته مَن يأخذ عن الله بلا واسطة، ففوض الأمر إلى أهله من كل الوجوه، وهو أكمل الناس وأعلمهم.

قوله ﷻ: ﴿**ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ**﴾ [الآية: ١٠٠]: أي الموت الطبيعي قبل الفناء الكلي المعنوي: بأن يخرج من أرض بلد الوجود بالكلية؛ كما خرج من أرض بيته البشري الطبيعي.

قوله ﷻ: ﴿**فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ**﴾ [الآية: ١٠٠]: أي عُدت هجرته هجرة كاملة أذلاً هنالك، فإنه عبد في سلوكه، وخُذ منه لا أجير؛ لكن الله سبحانه من حيث فضله الواسع يعامل معه معاملة الأجير في الظاهر؛ فيعطيه وجوده الباقي بدل وجود العبد الفاني؛ فهو ثمرة علمه، وما وعده الله في مقابلة فنائه عن نفسه، فإذا هو عند الفناء ساقط على الله؛ ولذا قال: على الله.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٤/٦)، والعجلوني في كشف الخفا (٢/٢٢٦).

(٣) قال سيدي عبد الكريم الجيلي: فالأنبياء والأولياء والملائكة وسائر المقربين من سائر الموجودات ليس عندهم من المعرفة الذاتية ومحمَّدٌ ﷺ الذي هو قلب الوجود هو الذي عنده الوسع الذاتي للمعرفة الذاتية، وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله: «لي وقتٌ مع ربِّي لا يسعني فيه مَلَكٌ مُقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ» اهـ.

وذكر الشيخ في هذا المؤلَف العظيم اتصاف سيدنا ﷺ بجميع الأسماء الحسنى، وجعل يذكر الأدلة على ذلك الكمالات (ص ١١٥، ١١٦)، وانظر: محاسن الأخبار في فضل الصلاة على النبي المختار للأبشيهي (ص٣٦٥) بتحقيقنا.

وفي الحديث: «**لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى؛ لهبط على الله**»[1]، فاعرف الإشارة.

وقوله ﷻ: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ**﴾ [النساء:١٠٠] بوجوده الحقيقي الباقي.

وقوله ﷻ: ﴿**غَفُورًا**﴾ [الآية:١٠٠]؛ ساترًا لوجود عبده المجازي الفاني، وقوله ﷻ: ﴿**رَّحِيمًا**﴾ [الآية:١٠٠] بما يفيض عليه من أنواع فيوض أسمائه وصفاته غير وجوب الوجود، فإن الماهية الإمكانية لا تقتضيه، ولا يجتمع الوجوب والإمكان في صورة واحدة؛ فهو تعالى هو والأشياء أشياء، وليست إلا عكوس الأسماء والصفات.

فمن حيث إن الظل صورة ذي الظل قال مَن قال: أنا الحق، وبينه وبين الحق بون بعيد، فالمتجلّى هو الحق بصور أسمائه وصفاته، والعبد عبد أبدًا ليست له شائبة الربوبية أصلاً، ومَن فهم هذا المقام وتحقق به؛ نجا من ظلمات أهل الإلحاد، والله ولي الإرشاد.

ومنه: نور التئام في المبدأ والمعاد، ولو قال: هو الحق، وأخرج نفسه عن البين؛ لكان أليق بمقام المعرفة والشهود الكامل، ثم إنه ولي الفقر والستر على أن هناك مغفورًا ومستورًا؛ وهو الوجود الإمكاني الاعتباري الظلّي، فهو وجود في الجملة؛ ولذا تعلّق به الستر بخلاف الشرك، فإنه لا وجود له إلا في الوهم.

ولذا قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ**﴾ [النساء:٤٨]؛ إذ الموهوم لا يتعلّق به الستر؛ لكونه لا وجود له أصلاً، ومن هنا قال تعالى: ﴿**لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ [محمد:١٩].

فلو ارتفع الوهم؛ انتفى النفي والإثبات، وبقي الله الواحد بالذات، وحسبك للإرشاد، وقوله تعالى: ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾ [مريم:٦٥] يعني: ليس له سميٌّ وشريك في الاسم لما ليس له شريك في الذات، ووجوب الوجود فظهر أن الشريك باطل صورة ومعنى، والحق حق واحد صورة أولاً وآخرًا، ظاهرًا وباطنًا، قل الله ثم ذرهم فمن لم يقل: الله؛ بل أضاف إليه ما سواه، فهو في خوض يلعب.

---

(١) رواه الترمذي (٥/٤٠٣)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/٥٦٢).

ومَن معه أيضًا في خوض يلعبون، والله الهادي.

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فقد أضاف الأسماء إلى الجلالة، فكما أنه ليس له شريك في الأُلوهية، فكذا ليس له شريك في الأسماء المضافة إلى الأُلوهية، فله ألف اسم وواحد؛ كلها أسماء حسنة إلهية، وله أيضًا ألف اسم وواحد؛ كلها أسماء حسنة كونية؛ لكن الأسماء الحسنة الكونية إنما تضاف إلى المظهر الكوني تأدُّبًا معه تعالى، وإعطاء لكل حقه.

وهذا المظهر الكوني واحد أيضًا، وإن كان له أسماء وصفات كثيرة؛ لأن الواحد لا يقابله إلا الواحد، وفيه قد تحيَّرت العقول، وزلت أقدام أهل النقول ولكن الله تعالى له أفعال وصفات[1].

---

(١) قال ﷺ في الباب الثامن والثلاثين وثلاثمائة من «**الفتوحات**»: أعلم الخلق بالله ﷺ من هذا المقام قال: «**لا أحصي ثناءً عليك**» الحديث؛ لأن الثناء بالأسماء وأسماؤه الحسنى لا تُحصى، فالثناء عليه لا يُحصى، والألسنة تكلُّ فيها وتعيي.

وأمَّا الثناء من حيث التسبيح تنحصر، وتحصى، ولا تكلُّ به الألسنة ولا تعيَ؛ لأنه نفي عن كل وصف لا إثبات فيه.

(**وصفة**) وهي من النِسب التي لا يجوز أن ينسب إليه تعالى في أول الأمر، بل تُنسب إليه بعد نسبة ذلك إلينا.

قال الله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [الصافات: ١٨٠] أطلق و لم يقيِّد بصفة دون صفة، والعزَّة المنع من الوصول إليه شيء من الثناء عليه.

قال الإمام الغزالي رحمه الله في بعض تصانيفه إشارة إلى هذا المقام.

والمعنى: إن الناس ينــزِّهونه عن نقائض الصفات، وأنا أنــزِّهه عن كمالها.

أما ترى أن بعض العلماء تنبَّهوا لهذا المعنى، وإن لم يلم مرضى علماء الرسوم ولكن هو حق من وجهٍ، وذلك أنهم لمَّا رأوا أن المشاركة بين الحق والخلق ما يصح حتى في إطلاق الألفاظ عليه.

فإذا قيل لهم: إنه موجودٌ، قالوا: ليس بمعدومٍ، وإذا قيل: إنه عالمٌ، قالوا: ليس بجاهلٍ.

وهكذا جمع الصفات الثبوتيَّة، فإن الحادث موصوفٌ به ولا مشاركة، فافهم.

قال ﷺ في حضرة الحضرات من «**الفتوحات**» فإن الأصل التعرِّي والتنــزيه والتبرِّي عن الصفات مطلقًا ولاسيَّما في الله.

إذا كان أبو يزيد ﷺ يقول: لا صفة لي فالحق أولى أن يطلق عن التقييد بالصفات لغنائه عن العالم؛ لأن =

فأفعاله مستندة إلى صفاته، وصفاته مستندة إلى أسمائه، وأسماؤه مستندة إلى ذاته، فليس إلا ذات واحدة متجلّية في صفة كلية قد تجلّت هي أيضًا في فعل كلي ظهرت منه الآثار والشواهد ظهورًا وحدانيًا في صورة كثيرة.

ألا ترى أن الكلام صفة المتكلم في ذاته، فإذا ظهر؛ كان قولاً من حيث إنه مقول، وكتابًا من حيث إنه مكتوب، وعلى هذا فقس، فلكل ظهور ثلاث مراتب؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]؛ فالكون الحادث أثره المستند إلى الفعل القولي؛ فإنه اللقاء في الحقيقة فافهم جدًا.

=

الصفات إنما تطلب الأكوان، فلو كان في الحق ما يطلب العالم لم يصح كونه غنيًا عمَّا هو طالبٌ، فافهم.

وذكر ﷺ في الباب الثامن والثلاثين وثلاثمائة من «**الفتوحات**»: فانظر حكمة الله تعالى في كونه لم يحصل له صفة في كتبه، بل نـــزَّه نفسه عن الوصف.

فقال: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف:١٨٠] فجعلها اسمًا، ولم يجعلها نعوتًا وصفاتًا ولكن هي لنا نعوتٌ وصفاتٌ يثني علينا بها.

قال تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨] وأذن لنا بالتخلّق في الأسماء الحسنى وهو عين ما قلنا، ثم أثنينا به عليه؛ لأنه حميدٌ وله عواقب الثناء، فأثنى الله على نفسه بها.

وقال: «**إن الكبرياء ردائي**» وهي صفة عبده وهو رداؤه، فإنه مِن مَنـــزَل ثناء الحق على نفسه بغناه عن خلقه بخلقه، فافهم.

إن هذا عين ما سيقوله ﷺ في المتن بعد سطرين وهو قوله: فما وصفناه بوصفٍ إلا كنَّا نحن ذلك الوصف، وهكذا الأمر لما كان استناد المستند إلى المستند لذاته، اقتضى أن يكون على صورته فيما يُنسب إليه من الأسماء، وهو التخلّق بأخلاق الله تعالى وإحصاء الأسماء الحسنى، وفيما لا يُنسب إليه كالصفات؛ لأنه تعالى جمع له التقييد والإطلاق، كما جمع لنفسه بين التنـــزيه والتشبيه، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١٢].

ومن هذا المقام قال أبو يزيد قُدِّس سرُّه لما قيل له كيف أصبحت؟ فقال: لا صباح لي ولا مساء، إنما الصباح والمساء لمن تقيَّد بالصفة وأنا لا صفة لي، فوصف نفسه بعدم التقيُّد بالصفات، فإذا كانت الصفة قيدًا لا يقبله العبد المقيَّد، فكيف تُطلق على المطلق الحقيقي، وهو ﷺ أشار بهذا إلى التجرُّد الحقيقي، فافهم. وانظر: مجمع البحرين شرح الفصين (ص٣٠٤) بتحقيقنا.

وذلك القول مستند إلى صفة الإرادة المضافة إلى الهُويَّة المضاف إليها الأمر، وإنما قال: أمره؛ لأن الخلق يلي الأمر، كما أن القدر يلي القضاء، ومن هنا إن النتيجة في القياس ثالث ثلاثة، فهذا أمر الوجود أبدًا؛ بل وكل فكر رسُم في القلب؛ فهو من شيئين؛ لأن له وجودًا في الذهن، وعليك بالتأمُّل في الزوجين، وما تبنَّى عليهما من الآثار في الكونين.

وقال الله سبحانه: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء:١٢٣]، ومثله قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧].

: أي يستحق أن يجزى به، ويرى جزاءه.

وأمَّا المؤمن: فالله تعالى يعفو عن كثير من ذنوبه، ويكفِّر ما بقي بما يرد عليه في الدنيا من الشدائد والمحن على ما ورد في الحديث.

ولا يُبقي عليه إلا وزر الكبائر، فإن تاب عنها؛ فقد سقطت في الدنيا أيضًا، وإلا فيستحق أن يُجازى عنها في الآخرة، فقد يدرك العناية والشفاعة؛ فينجو منها أيضًا، وقد يكون معذَّبًا بمقدار؛ وهو ما دون الخلود.

وأمَّا الكافر: فلا بد أن يُجازى على كفره، وعلى سائر أعماله السيئة في الآخرة، وأمَّا في الدنيا فقد يُخفِّف الله تعالى عنه أيضًا بما صدر عنه من صور الأعمال الحسنة، فإنه تعالى رحمن الدنيا؛ فيصل رحمته إلى المؤمن والكافر في الدنيا من غير نكير؛ ولذا جاز أن يدعي له بما يصلح حاله في الدنيا كالغنى ونحوه.

وأمَّا الصبي: فهو كالبالغ إن بلغ حدُّه التمييز، وصدر عنه بعض الأذى، فإن الله تعالى يؤاخذه بعض الشدائد بمقتضى الاسم العدل، وإن لم يبلغ ذلك الحد فما ابتلى به من الشدائد ابتلاء لأبويه ونحوهما، فله كالبالغ قرين من الملك، وقرين من الجن، فالملك يُحرِّكه على ما يسر أبويه من الأمور الملائمة، فيقول كل منهما خيرًا، ويحمد الله؛ فيحصل به رغم الشيطان ومساوءته.

وأمَّا قرينه الجنِّي فقد يحركه على ما يسوء أبويه، ويغضبهما من الأمور الغير الملائمة فيقول كل منهما شرًا، وينسى الله تعالى؛ فيحصل به مساءة الملك، فقد يظهر فضل الله تعالى، وقد يظهر مُدله بحسب كونه رب العالمين، فحال الصبي قبل البلوغ

في المجازاة؛ كحال الحيوانات في القصاص يوم القيامة، وكل ذلك من باب العدل، ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهر الأرض من دابة؛ لشؤم المعاصي، وسريان بعض آثارها في الغير بحكم الجوار ولكن الله تعالى يمنُّ على عباده فلا يؤاخذهم في الدنيا إلا بأقل قليل من شرورهم، ويعفو عن كثير، وما كان يعفوه في الدنيا فلا يعود إليه بالأخذ في الآخرة.

وأمَّا مَن أسلم وجهه لله: بأن جعل نفسه خالصة له تعالى اعتقادًا وعملاً، وهو منتهى ما تبلغه القوة البشرية، فليس له حساب، ولا ميزان، ولا غيرهما مما أُعد للعصاة؛ بل له السلامة، والنجاة، وتضعيف الحسنات؛ فللمطيع وعد، وللعاصي وعيد.

فأمَّا الوعد:

فالله تعالى لا يُخلف الميعاد؛ لكمال وجوده، وسعة غِناه، وعظيم قدرته.

وأمَّا الوعيد:

فهو من باب التخويف والتهديد، وليس كل ما يُهدَّد به العبد العاصي يفعل به، فقد يعفو عنه السيد؛ لكن ينبغي أن لا يغترْ العبد بكرم الله تعالى؛ فإنه بكرمه وجوده خلقه، ثم بحكمته أمره ونهاه.

فالإحسان لا يُقابل بالعصيان، والإكرام لا يُجازى بالإهانة، فعل العبد العبادة، ثم العبودية، ثم العبودة بحسب إلاهية، وألوهية، وألوهته، فإذا وصل إلى غاية هذه المراتب؛ سقطت عنه كلفة التكليف، فكان حاله في التعبُّد في الدنيا؛ كحال أهل الجنة في الآخرة: أي كان حاله لذّة صِرفة، وحلاوة محضة، ومَن سرت اللذّة في باطنه؛ لم يتألم من العبادة في ظاهره، فيبقى إلى اخر عمره وله حياة طيبة من إحياء حقوق الله، وحقوق عبيده، ومن ذلك حقوق أعضائه وقواه.

إذ كل ذلك محلُّ التكليف، وموضع أحد الميثاق، ومواطن المراعات، والمحافظة، ومَن حافظ على أنفاسه؛ فقد حافظ على جميع عمره، والله معه، ومنه يصدر كمالاته، وإليه يصعد كلماته، هذا إذا اعتبر الحضور معه، وأمَّا إذا اعتبر الغيبوبة عنه، وبقي الحق وحده، فالحق يُذكر على لسانه، ويُتعبد على جوارحه، وليس هذه المرتبة إلا للمحققين الواجدين وجدانًا لا فقدان معه.

قال الله سبحانه: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ الآية: [النساء:١٢٧].

بظاهرها تدلُّ على أن الله تعالى هو المفتي، وأن الرسول ﷺ خليفته في ذلك، وكذا الورثة خلفاء الرسول؛ ولذا كان الأصحاب ﷺ يفتون، وكذا التابعون حتى الصوفية المحققون؛ كجنيد البغدادي قُدِّس سرُّه فإنه مع كونه سيد الطائفة[1] كان

---

(١) هو سيّد الطائفتين، أصله من نهاوند، ومنشؤه بالعراق، وكان فقيهًا يفتي على مذهب الإمام أبي ثور صاحب الإمام الشافعي، وراوى مذهبه القديم، صحب خاله السقطي والحارث المحاسبي، ومحمد بن علي القفار، وكان من كبار أئمة القوم وساداتهم، وكلامه مقبولٌ على جميع الألسنة، مات يوم السبت سنة سبع وتسعين ومائتين ببغداد، ودُفن بها وقبره ظاهر يُزار.

كان يقول: الغفلة عن الله أشد من دخول النار.

وكان يقول: إذا رأيت الفقير فلا تبدأه بالعلم وابدأه بالرفق؛ فإن العلم يوحشه، والرفق يؤنسه.

وكان يقول: من أشار إلى الله وسكن إلى غيره ابتلاه الله بالمحن، وحجب قلبه عن ذكره، وأجراه على لسانه، فإن انتبه وانقطع إلى الله كشف عنه المحن، وإن دام على السكون إلى غيره نزع الله من قلوب الخلق الرحمة عليه، وألبسه لباس الطمع فيهم، فيزداد مطالبه منهم مع فقدانه الرحمة من قلوبهم، فتصير حياته عجزًا وموته كمالاً وآخرته أسفًا، ونحن نعوذ بالله من الركون إلى غيره.

وكان يقول: يقول الله تعالى: «لو أن ابن آدم قصدني في أوّل المصائب لرأى مني العجائب، ولو انقطع إليَّ في أول النوائب لشاهد مني الغرائب، ولكنه انصرف إلى إشكاله فرد في إشغاله».

وكان يقول: مكابدة العزلة أشد من مداراة الخلطة.

وكان يقول: من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه وقلبه فليلقِ الناس، فإن هذا زمان وحشة، فالعاقل من اختار الوحدة.

وجاءه مرة شخصٌ بخمسمائة دينار فوضعها بين يديه، وقال له: فرِّقها على جماعتك، فقال: ألك مال غير هذا؟ قال: نعم، قال: أتطلب زيادة على ما عندك؟ قال: نعم، فقال له الجنيد: خذها فإنك أحوج إليها منَّا، و لم يقبلها.

وكان يقول: إذا رأيت الصوفيَّ يعبأ بظاهره فاعلم أن باطنه خراب.

وسُئل عن الإنسان يكون هاديًا فإذا سمع السماع اضطرب، فقال: إن الله تعالى لما خاطب الذرية في الميثاق الأوّل بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] استغرقت عذوبة الكلام الأرواح، فإذا سمعوا السماع حركهم ذكر ذلك.

=

وكان يقول: تنـــزل الرحمة على الفقراء في ثلاثة مواطن: عند السماع؛ فإنهم لا يسمعون إلاّ عن حقٍّ، ولا يقولون إلا عن وجد، وعند أكل الطعام فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة، وعند مجازاة العلم فإنهم لا يذكرون إلا أحوال الأولياء.

وكان يقول: دخلت يومًا على السري فوجدت عنده رجلاً مغشيًا عليه، فقلت له: ما له؟ فقال: سمع آية من كتاب الله، فقلت: تقرأ عليه الآية مرة أخرى، فقرأت، فأفاق الرجل فقال السري: من أين علمت هذا؟ قلت له: إن قميص يوسف ذهب بسببه عينا يعقوب، ثم عاد بصره به، فاستحسن ذلك مني.

وكان يقول: ما رأيت أحد أعظم الدنيا فقرَّت عينه فيها أبدًا، إنما تقر عين من حقرها ولَعرض عنها.

وكان يقول: من فتح على نفسه نية حسنة فتح الله عليه سبعين بابًا من التوفيق، ومن فتح على نفسه نية سيئة فتح الله عليه سبعين بابًا من الخذلان من حيث لا يشعر.

وكان يقول: ما احتشم صاحب من صاحبه أن يسأله حاجة إلا لنقص في أحدهما.

وكان يقول: إن للعلم ثمنًا فلا تعطوه حتى تأخذوا ثمنه، قيل له: وما ثمنه؟ قال: وضعه عند من يحسن حمله ولا يضيعه، وقيل له: ما بال أصحابك يأكلون كثيرًا؟! فقال: لأنهم يجوعون كثيرًا، قيل له: فما لهم لا تهمهم قوة شهوة؟! فقال: لأنهم لم يذوقوا طعم الزِّنا، ويأكلون الحلال، قيل له: فما بالهم إذا سمعوا القرآن لا يطربون؟! قال: وأي شيءٍ في القرآن يطرب في الدنيا، القرآن حقٌّ نزل من عند حق، لا يليق بصفات الخلق عند كل حرفٍ منه واجب، لا يخرجهم منه إلا الوفاء لله ﷻ به، فإذا سمعن في الآخرة أطربهم، قيل له: فما بالهم يسمعون القصائد والأشعار والأنغام والغناء فيطربون؟! فقال: لأنها مما عملت أيديهم، ولأنه كلام المحبين، قيل له: فما بالهم محرومون من أموال الناس؟ فقال: لأنه تعالى لا يرى لهم ما في أيدي الناس؛ لئلا يميلوا إلى الخلق فيقطعوا، فأفرد القصد منهم إليه اعتنائه بهم.

وسُئل: من العارف؟ فأجاب: من نطق عن سرك وأنت ساكتٌ.

وكان يقول: ما أخذنا التصوف عن القالِ والقيل لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات.

وكان يقول: إن أمكنك ألاّ تكون آلة بيتك إلاّ من الخزف فافعل، فكذلك كانت آلة بيته.

وكان يقول: الطرق كلها مسدودةٌ على الخلق إلاّ على مَن اقتفى أثر الرسول ﷺ، واتَّبع سنته، ولزم طريقته، فإن طرق الخير كلها مفتوحةٌ عليه.

وكان يقول: لو أقبل صادقٌ على الله ألف ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة، كان ما فاته أكثر مما ناله.

يفتي في بغداد على مذهب أبي ثور.

سواء قلت انه كان يستر حاله عن الناس، أو لغير ذلك، فإن الاعتبار بظاهر الحال.

ثم لَمّا كان الفتوى، والقضاء، والتدريس، ونحو ذلك من الولايات من المناصب العرفية المتنافسة بين أهل الدنيا؛ امتنع الخواص عن التقلُّد بها مع أنها من الأسماء الإلهية في الحقيقة، فإن الله هو المفتي، والقاضي، ومعلم الناس، وكل ذلك في القرآن، والاعتبار بمذهب التوفيق عند أهل الله بعد مساعدة ظاهر النص، إلا أن يكون هناك إيهام يُوجب الشين، فلا يُطلق عليه تعالى، وليس منه مثل قولنا: السبحان، والسلطان، ولفظ أفندي، ونحو ذلك، فإن أكثر علماء الظاهر، وكذا أرباب الحقائق أطلقوها على الله تعالى لِما فيها من التعظيم.

ثم إن الفتوى ونحوه مما دخل تحت الاسم الظاهر، ولمظاهر الاسم الباطن تحقق بحقائق هذا الاسم حتى قيل في قوله: «**آخر ما يخرج من رؤوس الصدِّيقين حبٌّ الجاه**»[١].

فإن الخروج هنا بمعنى الظهور؛ يعني: يظهر لهم في آخر الأمر حبذَا التحقق بحقائق الاسم الظاهر[٢] ليكمل لهم الأمر في باب الأسماء الإلهية لكن لهذا التحقق

=

وكان يقول: أكثر الناس علمًا بالآفات أكثرهم آفات.

وقال رجلٌ له: مَنْ أصحب؟ قال: من تقدر أن تُطلعه على ما يعلمه الله منك.

وقيل مرة أخرى: مَنْ أصحب؟ قال: من يَقدر أن ينسى ما له، ويقضي ما عليه.

وكان يقول: من عرف الله لا يُسرُّ إلاّ به.

وكان يقول: من نظر إلى وليٍّ من أولياء الله تعالى فقبله وأكرمه، أكرمه الله على رؤوس الأشهاد ﷺ وأرضاه. وانظر: كتابنا الإمام الجنيد سيد الطائفتين.

(١) ذكره السيوطي في شرح سنن ابن ماجه (٢٢/١) بنحوه.

(٢) قال الحجة الغزالي: الظاهر الباطن: هذان الوصفان من المضافات، فإن الظاهر يكون ظاهرًا لشيءٍ وباطنًا لشيءٍ، ولا يكون من وجهٍ واحدٍ ظاهرًا وباطنًا، بل يكون ظاهرًا من وجهٍ بالإضافة إلى

=

إدراك، وباطنًا من وجهٍ آخر، فإن الظهور والبطون إنما يكون بالإضافة إلى الإدراكات، والله سبحانه وتعالى باطن إن طلب من إدراك الحواس، وخزانة الخيال ظاهر إن طلب من خزانة العقل بطريق الاستدلال، فإن قلت أما كونه باطنًا بالإضافة إلى إدراك الحواس فظاهر، وأما كونه ظاهرًا للعقل فغامض؛ إذ الظاهر ما لا يتمارى فيه، ولا يختلف الناس في إدراكه، وهذا مما قد وقع فيه الريب الكثير للخلق، فكيف يكون ظاهرًا فاعلم أنه إنما خفي مع ظهوره؛ لشدة ظهوره، فظهوره سبب بطونه ونوره هو حجاب نوره، وكل ما جاوز حده انعكس على ضده.

ولعلك تتعجب من هذا الكلام وتستبعده ولا تفهمه إلا بمثال فأقول: لو نظرت إلى كلمة واحدة كتبها كاتب لاستدللت بها على كون الكاتب عالمًا قادرًا سميعًا بصيرًا، واستفدت منه اليقين بوجود هذه الصفات، بل لو رأيت كلمة مكتوبة لحصل لك يقين، قاطع بوجود كاتب لها عالم قادر سميع بصير حي ولم يدل عليه إلا صورة كلمة واحدة، وكما تشهد هذه الكلمة شهادة قاطعة بصفات الكاتب، فما من ذرةٍ في السموات والأرض من فلكٍ وكوكبٍ وشمسٍ وقمرٍ وحيوانٍ ونباتٍ وصفةٍ وموصوفٍ، إلا وهي شاهدة على نفسها بالحاجة إلى مدبرٍ دبرها وقدرها وخصصها بخصوص صفاتها، بل لا ينظر الإنسان إلى عضوٍ من أعضاء نفسه، وجزء من أجزائه ظاهرًا وباطنًا، بل إلى صفةٍ من صفاته، وحالةٍ من حالاته التي تجري عليه قهرًا بغير اختياره، إلا ويراها ناطقة بالشهادة لخالقها وقاهرها ومدبرها، وكذلك كل ما يدركه بجميع حواسه في ذاته وخارجًا من ذاته.

ولو كانت الأشياء مختلفة في الشهادة يشهد بعضها، ولا يشهد بعضها لكان اليقين حاصلاً للجميع، ولكن لما كثرت الشهادات حتى اتفقت خفيت وغمضت لشدة الظهور، ومثاله أن أظهر الأشياء ما يدرك بالحواس، وأظهرها ما يدرك بحاسة البصر، وأظهر ما يدرك بحاسة البصر نور الشمس المشرق على الأجسام الذي به يظهر كل شيءٍ، فما به يظهر كل شيءٍ كيف لا يكون ظاهرًا.

وقد أشكل ذلك على خلقٍ كثيرٍ حتى قالوا: الأشياء الملونة ليس فيها إلا ألوانها فقط من سواد وحمرة، فإما أن يكون فيها مع اللون ضوء ونور مقارن للون فلا، وهؤلاء إنما نبهوا على قيام النور بالمتلونات بالتفرقة التي يدركونها بين الظل وموضع النور وبين الليل والنهار، فإن الشمس لما تصور غيبتها بالليل، واحتجابها بالأجسام المظلمة بالنهار انقطع أثرها عن المتلونات، فأدركت التفرقة بين المتأثر المستضيء بها وبين المظلم المحجوب عنها، فعرف وجود النور بعدم النور إذا أضيف حالة العدم إلى حالة الوجود، فأدركت التفرقة مع بقاء الألوان في الحالتين، ولو أطبق نور الشمس كل

وجهان: **الأول**: أن يكون لهم قبول عند الناس حتى يحصل لهم ما أرادوا من المصالح من غير تقلُّد بشيء من الأمور العرفية؛ كالشيخ محي الدين العربي قُدِّس سرُّه؛ حيث كان له قبول عند سلطان حَلَب في وقته، حتى شفع في يوم واحد في الأمور الكثيرة المتجاوزة عن المائة، وجملة الشفاعات كانت مقبولة عند السلطان، فكان في الكل على مراد الشيخ، وكان مراد الشيخ من ذلك إسعاف الحاجات، وجلب المنفعة لبعض، ودفع المضرَّة عن بعض لا أمرًا آخر يتعلَّق بنفسه، فإنه ونحوه مطهر عن مثل ذلك الدَّنس.

والوجه الثاني: أن يكون لهم تقلُّد بمثل ما ذُكر.

فهذا هو الذي يفرُّ منه الخواص في هذا الزمان الأول، وإلا أن يقضي الله أمرًا كان مفعولاً، وكان أمر الله مفعولاً.

فالشيخ لا يكون مفتيًا أبدًا لِما في الفتوى من الغوائل التي تنافي مقام المشيخة

=

الأجسام الظاهرة لشخصٍ، ولم تغب الشمس حتى يدرك التفرقة لتعذر عليه معرفة كون النور شيئًا موجودًا زائدًا على الألوان مع أنه أظهر الأشياء، بل هو الذي به يظهر جميع الأشياء.

ولو تصور لله تعالى وتقدس عدم أو غيبة عن بعض الأمور لانهدت السموات والأرض، وكل ما انقطع نوره عنه، ولأدركت التفرقة بين الحالتين، وعلم وجوده قطعًا، ولكن لما كانت الأشياء كلها متفقة في الشهادة والأحوال كلها مطردة على نسقٍ واحدٍ كان ذلك سببًا لخفائه، فسبحان من احتجب عن الخلق بنوره، وخفي عليهم بشدة ظهوره، فهو الظاهر الذي لا أظهر منه، وهو الباطن الذي لا أبطن منه.

تنبيه: لا تتعجبن من هذا في صفات الله تعالى وتقدس، فإن المعنى الذي به الإنسان إنسان ظاهر باطن، فإنه ظاهر إن استدلَّ عليه بأفعاله المرتبة المحكمة باطن إن طلب من إدراك الحس، فإن الحس إنما يتعلق بظاهر بشرته، وليس الإنسان إنسانًا بالبشرة المرئية منه، بل لو تبدلت تلك البشرة بل سائر أجزائه، فهو هو والأجزاء متبدلة، ولعل أجزاء كل إنسان بعد كبره غير الأجزاء التي كانت فيه عند صغره، فإنها تحللت بطول الزمان وتبدلت بأمثالها بطريق الاغتذاء وهويته لم تتبدل، فتلك الهوية باطنة عن الحواس ظاهرة للعقل بطريق الاستدلال عليها بآثارها وأفعالها. انظر: المقصد الأسنى للغزالي (١/١٣٧).

دون العكس؛ يعني: يكون المفتي شيخًا، وذلك بالتجرُّد والسلوك، فالشيخ إذا كان مفتيًا؛ استبدل ما هو خير بالذي هو أدنى، وخرج من العباء، ودخل في القباء، وذلك مما يُورِث التنـــزُّل لغير الكُمَّل، وأهل التمكين، والمفتي إذا كان شيخًا؛ استبدل ما هو أدنى بالذي هو خير، وخرج من القباء، ودخل في العباء، وذلك مما يُورِّث الترقِّي لطلبه الحق؛ ولذلك كان ابن أدهم قُدِّس سرُّه من أهل التجرُّد والترك، هذا ولا تكن لغير الله حتى يكون الله لك.

قال الله سبحانه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤].

يعني: مَن كان يريد بإرادة المنبعثة عن نفسه الظلمانية الشهوانية ثواب الدنيا ومتاعها وأعراضها؛ فعند الله ثواب الدنيا: أي لا عجز عنده، فيعطيه له؛ لكن ليس له في الآخرة من نصيب: أي ثواب الآخرة؛ لأن الدنيا والآخرة لا يجتمعان بالذات، ولا بالأصالة، وكذا ليس له من الله ذاته أيضًا خلاق؛ لأنه مَن بَعُد عن الآخرة.

فبعده عن الله تعالى بطريق الأَوْلى، ومَن كان يريد بإرادته المنبعثة عن قلبه النوراني الرحماني ثواب الآخرة ونعيمها ودرجاتها؛ فعند الله ثواب الآخرةَ أيضًا؛ لأنه كما خلق الدنيا لأهل الدنيا من غير تحجير، فكذا خلق الآخرة لأهل الآخرة من غير منع وإمساك، فيعطي كلاً منهم ما يريده لكنهم محجوبون بدنياهم وآخرتهم عن الله تعالى.

ومَن كان يريد ثواب الدنيا والآخرة جميعًا لكن يريد ثواب الدنيا بالعرض وقدرًا؛ لبلغه، وثواب الآخرة بالذات وبغير حساب، بأن يجمع بين إرادتي النفس والقلب، وحكمي الروح والجسد، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة جميعًا، فيعطي ذلك المريد ما شاء نفسه بنفسه، وما شاء قلبه بقلبه، وليس له من الله نفسه من خلاق أيضًا.

ومَن يريد الله من الله بإرادته سره الساري في جميع أعضائه وقواه؛ يجد الله، ويجد الدنيا والآخرة أيضًا؛ لأن وجدانهما تابعٌ لوجدان الله تعالى، فمَن وجد الله؛ وجد الكل بخلاف، فإنه قد لا يجد الله، ومن لم يجد الله فوجدان الكل له فقدان،

كما أن من وجد الله، ففقدان الكل له وجدان، فمَن أراد؛ فليرد الله تعالى، ثم ليكن فانيًا عن الإرادة كلها.

كما قال تعالى: ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ**﴾ [آل عمران:٢٨]؛ فيكون المريد إذًا هو الله تعالى، فطوبى لمَن كان مرادًا محبوبًا لم يتحرك إلا بتحريك مراده ومحبوبه، وهو الذي يُوحِّد الله بالله لا بالحضور معه؛ يعني: الله يُوحِّد ذاته لا العبد بحضوره معه، فليفهم وليتذكَّر، فإن اللسان يخترق من مثل نداء، والقلم ينبئ عن بيانه وتحريره، إذ ليس ذلك في وسعه.

واعلم أن العين اليسرى، إشارة إلى الدنيا، والعين اليمنى إشارة إلى الآخرة؛ يعني: كل منهما ناظرة إلى ما خُلقت هي له، فإذا عميت الاحتجاب عن الخلق بالحق؛ فتح الله العين التي هي لنفسه؛ وهي البصيرة؛ ولذا جعل العين متعددة، والبصيرة واحدة، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**﴾ [الأحزاب:٤].

فالذي يفتح عينه إلى الله تعالى لا ينظر إلى ما سوى الله تعالى؛ لأن غيرة المحجوب ترتفع عن ذلك، وتأبى عنه، ومن عدم النظر لا يلزم المكابرة مع الربوبية، إذ لكل جسد ما عمل، ولكل روح ما عمل، فكل من الدنيا والآخرة مطلوبة للكُمَّل أيضًا؛ لكن بلسان المرتبة لا بلسان الحقيقة.

فإن لسان الحقيقة مقصور على طلب الله تعالى، ومَن مشى على المراتب؛ لم يعثر، فلينظر الإنسان إلى طعامه: أي شيء هو طعام الدنيا، أم طعام الآخرة، أم طعام لا يجده واحدًا إلا عند البيتوتة عن الله.

كما قال ﷺ: «**أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني**»[1][2].

---

(١) رواه أبو داود (٢/٣٠٩)، والترمذي (٣/١٤٨).

(٢) قال العطار: وسمى بعضهم هذا المقام، أعني ترك الطعام والشراب مدة تزيد على مدة الصيام من غير فاصل مفطر مع اشتغال من هذه الحالة حالته بالله تعالى بأن يرجع إلى شهود الحق تعالى، ولا يلتفت إلى الأغيار أصلاً، وتكون التجليات القدسية واردة على قلبه بحيث لا يلتفت إلى ما سواها بمقام.

قوله: (بمقام) متعلق بقوله: (قبل) وسمى بعضهم البيات، وهو ﷺ لحق بهذا المقام لهذا الحديث، وما سنذكر بعده وما سواه من الكمَّل يحصل لهم ظل ذلك، كما ورد عن سيدنا عيسى وموسى =

ومنه: يظهر أن الفقر المعنوي يستتبع الفقر الصوري غالبًا؛ لعدم الاعتبار بالدنيا؛ ولذا كان من عيش الكُمَّل الكفاف؛ فإنه رزق آل محمد وعيشه، وقليل مَن يفهمه فافهم، واعلم أنك مع الله تعالى من جميع أسمائه قوةً وفعلاً.

قال الله سبحانه: ﴿**إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا**﴾ [النساء: ١٤٠].

فيه إشارة إلى أن مَن تشبَّه بالكافرين في صفة من الصفات القبيحة؛ فهو منافق، ومَن تشبَّه بالمنافقين في خُلق من الأخلاق السيئة، أو في فعل من الأفعال الرذيلة؛ فهو عاصٍ، والعصا لَمن عصى، وهو المراد بالعقوبة، ثم هذا التشبُّه قد يؤدي به إلى حقيقة الكفر والنفاق؛ لأن المعاصي وسائل الكفر الشرعي.

كما أن الطاعات وزرائع الإيمان الحقيقي، وكل هذا التشبُّه والإنجذاب إنما هو من الطبيعة المشتركة في شهواتها، ومن النفس المتفقة في هواها، فإذا صلحت الطبيعة بالشريعة، والنفس بالطريقة؛ خرجت عن ذلِّ الإشراك مع الأذلاء، ودخلت في عزِّ الإشراك مع الأعزَّاء، فذلك الذلُّ هو الذلُّ المطلق، كما أن هذا العزَّ هو العزُّ المطلق.

وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ**﴾ [النساء: ١٤٠].

إثبات لمودَّة المثل، فإن المثل ينصر المثل؛ لمودَّته له، كما أن الضد يخذِّل الضد؛ لبغضه له، ولَّما كان على المؤمن المخلص أن يكون على ضدية المثل لا على مودة المثل؛ وجب عليه محاربة أعدائه؛ ليزيلهم عن وجه الأرض حتى لا يقع الاختلال في العالم بضديتهم، فإذا أزالهم عن وجه الأرض؛ بقى مع الأحباب الذي يجب عليه أن يحبهم بمودَّة المثل.

ومعنى المثل: هو المثل البشري، ومن هنا ظهر سر قوله سبحانه وتعالى:

=

عليهما صلوات الله وسلامه أنهما صاما أربعين يومًا مع الوصال، غير أن موسى عليه السلام لتغير فيه أخذ قطعة من حشيش ومضغها، فأمر بمواصلة عشرة بعد الثلاثين يومًا التي واصل فيها.

قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، المفسرون على أنه صامها وصالاً. وانظر: كشف الأسرار شرح صلاة الشيخ الأكبر (ص٢١٤) بتحقيقنا.

﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ﴾ [الآية: ١٤٠].

لأن الأعداء مع أمثالهم، وحيثما كانوا؛ فدارهم جميعًا جهنم التي لها البعد غاية البعد من حيث عمقها، كما أن أهلها لهم الضلال البعيد في الدنيا، فما له البعد البعيد للبُعداء، وما له القرب القريب للقُرباء؛ وذلك لأن المؤمنين أيضًا مع أمثالهم، وحيثما كانوا؛ فدارهم جميعًا الجنة الملتف بعض أغصان أشجارها بالبعض، فانظر ما أعجب هذه الحقيقة.

ولمّا كان الإنسان مظهر الاسم الجامع لكونه في الدرجة الأخيرة من المخلوقات؛ أضاف الله الجامعية إلى الأُلوهية، فالسعداء مجموعون يوم القيامة حسبما جمعهم الهدى في هذه الدار؛ فهم الجامعون المجموعون، وكذا الأشقياء مجموعون في ذلك اليوم حسبما جمعهم الضلال في هذه الدار؛ فهم الجامعون المجموعون.

أمّا كون كل فريق من الفريقين مجموعين فظاهر، وأمّا كونهم جامعين، فالسعداء جمعوا بين الأسماء الجمالية بالفعل، وبقيت الأسماء الجلالية بالفعل، وبقيت الأسماء الجمالية في نفوسهم بالقوة، فكل منهم جامعون بين الأسماء كلها، وإن اختلفت تلك الأسماء فعلاً، وقوةً، وظهورًا وبطونًا.

ومن هذا ظهر سرُّ قولهم: الولد سرُّ أبيه؛ لأن معناه فيه ما فيه: أي من الأسماء، فهابيل من أولاد سرّ أبيه من حيث ظهور الجمال، وبطون الجلال، وقابيل سر أبيه أيضًا لكن من حيث ظهور الجلال وبطون، الجمال، فإنه ظهر فيه ما بطن في أبيه، كما أن هابيل ظهر فيه ما ظهر في أبيه، وبطن فيه أيضًا ما بطن في أبيه من سرِّ الجلال، فمَن وُلد هو سيرة أبيه، ومَن وَلد هو صورة أبيه، ثم هذا الأمر يدور مع الآباء والأولاد إلى يوم القيامة.

فقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [يونس: ٣١].

يدور على أربعة أوجه عبارة وإشارة: فالحي المخرج من الميت؛ كإبراهيم عليه السلام من آزر، ومحمد ﷺ من عبد الله.

والميت المخرَج من الحي: كقابيل من آدم عليه السلام، وكنعان من نوح؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦] إذ لا أهلية بين المؤمن والكافر، والحي والميت.

والحي المخرَج من الحي: كهابيل من آدم، وكأولاد المؤمنين إلى يوم القيامة.

والميت المخرَج من الميت: كأولاد الكفار إلى قيام الساعة.

فهذه الأقسام كلها كانت مجموعة في صُلب آدم، إجمالاً حتى أظهرها الله في الدهور، والأعصار تفصيلاً، فكان آدم مبتدأ الموت والحياة، وكانت حياته غالبة على موته؛ ولذا فُوِّض ذبح كبش الموت يوم القيامة إلى يحيى عليه السلام، وخلق الله الموت في ذلك الكبش، وفي الثور أيضًا حين يُذبح عند باب الجنة، كما أنه خلق الحياة في الحوت الذي يُذبح عنده أيضًا، فكما أن الذي يُصلى النار لا يحيا ولا يموت إلى أن يمضي الأحقاب، ثم هو ميت صورة، وحيٌّ معنى.

فكذا الذي يدخل الجنة يحيا أبدًا لِما دلَّ عليه جريان الأنهار فيها، وإنما قلنا: إن الذي يصلى النار هو حي معنى بعد مضي الأحقاب لِما ثبت في بعض الأحاديث: «إنه ينبت الجرجير في قعر جهنم»: أي بعد ذلك المضي، فقَيد النبات بالقعر دون الوجه؛ إشارة إلى ما ذكرنا، وهو سرٌّ عجيب يعزُّ الإلهام بمثله، وفي مقابلته جريان الأنهار، ونبات الأشجار في سطح الجنة؛ فهي دار الحيوان ظاهرًا وباطنًا، والنار دار الحيوان باطنًا وظاهرًا.

وبما قررنا لك تفطَّنت لسرِّ ذكر الحياة والموت في سورة الملك؛ فإنها سورة قطب الأقطاب في كل عصر، ومن عنده يظهر آثار الموت والحياة؛ فهو المحي المميت لا صورة فقط؛ بل ومعنى أيضًا، فالذي صدَّقه واعتقده؛ كان معه تحت لواء جماله، والذي كذَّبه وأنكره؛ كان معه تحت لواء جلاله؛ لأنه كما أن لكل نبي من الأنبياء يُحشر مع قومه المصدِّقين والمكذِّبين جميعًا صدَّقوه أو كذَّبوه، وذلك لأن علماء هذه الأمة كأنبياء بني إسرائيل.

ومن هنا يُعلم أن الولي يكون نبيًّا: أي في حكمه، كما أن النبي يكون وليًّا: أي لا يكون نبيًّا إلا بعد ولايته، فإن نهاية الولاية أول درجات النبوة، وفي هذا المقام زلَّت أقدام كثير من السُّلاك؛ لعدم فهمهم عن الله، وعدم وقوفهم عند الشرائع والحقائق، والموفق.

ثم إن الله تعالى لم يقل في الآية: إن ربك جامع..إلخ[1] لأن الجمع في الحشر، وإن كان من مقام الربوبية لا اتصاله بالبرزخ المتصل بالدنيا؛ وهو رب العالمين في الدنيا؛ فله اللطف لأهلها جميعًا؛ لكن الجمع في النار من مقام الألوهية والقهر، كما أن الجمع في الجنة من مقام الولاية واللطف فاعرف.

فإن مَن كان خصمه في الدَّارين الله؛ فلا نصرة له، ومَن كان وليه في الدَّارين المولى؛ فلا خذلان له، وإلى هذا يشير قوله تعالى: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾** [محمد:١١].

فالله تعالى في حق المؤمنين هو المولى، وفي حق أضدادهم هو المنتقم هذا وههنا نفاق أكبر حقيقي، وكذا كفر حقيقي.

أمّا الأول: فمن تلوينات الأسماء الإلهية، إذ لكل اسم وجه غير وجه الآخر، وذوق غير ذوق الآخر، فلا يذوقه إلا الكُمَّل، ولا يتحلّى به إلا الأعزة النذر.

وأمّا الثاني: وهو الكفر الحقيقي، فيستفاد من قوله تعالى: **﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾** [البقرة:٢٥٦]، فإنه مادام لم يكن المؤمن كافرًا؛ لم يكن مؤمنًا، فعليك بالكفر أولاً، ثم بالإيمان، وإياك والإيمان، ثم الكفر.

ومعنى جمع أهل النفاق، والكفر الحقيقيين في جهنم جمعهم في معنى الاستهلاك في الوجود الحق، والفناء عن التعينات مطلقًا.

فإن الله تعالى إنما خلق جهنم؛ ليذوق الفناء في الآخرة مَن لم يذقه في الدنيا؛ ولذا قال تعالى: **﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا﴾** [النبأ:٣٠]: أي فذوقوا العذاب للفناء إلى انتهاء الفناء، وفي مقابلته البلايا والمحن المتعلّقة بأهل الودِّ والولاء في الدنيا، فأول الحال عذاب، ثم عذب.

في أواخر سورة النساء: قال تعالى: **﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾** [النساء:١٧٢].

فيه إشارة إلى بطلان قول مَن قال: إن المسيح عليه السلام روح مجسَّم، كروح القدس المجسَّم في بعض الأحيان في صورة وحيه؛ وذلك لأن الله تعالى أثبت له العبودية، وقد قالوا: إن العبد هو اسم الروح، والجسد جميعًا، وبه أثبتوا المعراج الجسماني لنبينا ﷺ؛ لأنه تعالى قال: **﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾** [الإسراء:١]،

(١) والآيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾ [النساء: ١٤٠].

ولو قال: بمحمد مقام بعبده؛ لأفاد أيضًا لفظ العبد؛ لأن المحمَّدية إنما تكون من حيث الجسمانية.

ولذا لم يُذكر ﷺ بهذا الاسم قبل الظهور بالعين الخارجي؛ لكن لمّا كان في العبودية شرف عظيم؛ آثر لفظ العبد على لفظ محمد، ويعرف ذلك من قوله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[1]: أي أنا سيد أفراد الإنسان مطلقًا؛ ولكن لا افتخر بالسيادة؛ بل بالعبودية؛ لأن بالعبودية يمتاز الأُلوهية، ففي كل سيادة شائبة الوهية، فاعرف هذا المقام، وكن فانيًا عن نفسك؛ فإن فيه السلم لا تَملْ إلى السيادات، والكرامات فإن فيه الملامَ.

قال ﷻ: ﴿وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢].

وجعله المعتزلة من أسلوب الترقّي فقالوا: بأفضلية الملائكة على البشر؛ فإنهم إذا كانوا أفضل ممَن هو من أفاضل الأنبياء؛ كانوا أفضل ممَن هو دونه، وأصابوا في ذلك؛ لكن لا مطلقًا، فإن صنفًا من الملائكة هم أفضل من البشر لا كلهم؛ وهم الملائكة العالون المهيمون.

فإن قلت: لا شك أن الملائكة العالية المهيمة: أرواح مجرَدَة عن الأجسام مطلقًا: أي أجسام لطيفة كانت كغيرهم من ملائكة السموات، أو أجسام كشفية كالبشر فإنهم مطبوعون من العناصر الكشفية.

وقد سبق منك: إن العبدية اسم للروح والجسد جميعًا، قلت: إن إثبات العبدية للمهيمة على تقديراتهم لا يستنكفون عن أن يكونوا عبيدًا لله؛ إنما هو بطريق المشاكلة على أنهم وإن لم يكن لهم عبادة تكليفية كسائر أهل الملكوت؛ لكن لهم عبادة ذاتية؛ وهي توجهاتهم الأحدية إلى الحضرة الأحدية، واستغراقهم في بحر الشهود والحضور؛ولذا وصفوا بالقرب منه، فإنه لا يقرب من الله تعالى أحد إلا بالكشف والحضور على أنهم أقرب مخلوق إلى عالم الاختراع ليس بينهم وبين أول التجلّيات الإلهية واسطة أصلاً.

---

(١) رواه الترمذي (٥/٣٠٨)، وأحمد (١/٢٩٥).

ومنهم: العقل الأول إلا أن العقل امتاز من بينهم بالسير في عالم الأسماء، والتنـــزُّل إلى مقامات الصفات، فكان هو أفضل منهم أيضًا في جمعية النشأة(١)

(١) قال الصدر القونوي: والنشآت أربعة:

أولها: هذه «النشأة العنصرية»: وهي كالبذرة لباقي النشآت؛ ولها الإدماج والجمع الأكبر.

وبعدها: «نشأة البرزخ»: وإنها منتشئة من بعض صور أحوال الخلق، وبعض أعمالهم، وظنونهم، وتصوراتهم، وأخلاقهم، وصفاتهم، فيجتمع مما ذكرنا أمور تحصل لها هيئة مخصوصة؛ كالأمر في المزاج المتحصِّل من اجتماع الأجزاء التي منها تُركِّب ذلك المزاج كان ما كان، فتقتضي تلك الهيئة ظهور النفس في الصورة المتحصلة من تلك الهيئة، وذلك الاجتماع، وصفة الصورة بحسب نسبة الصفة الغالبة على الإنسان حين مفارقة هذه النشأة.

فيظهر بعضهم في البرزخ؛ بل وبرهة من زمان الحشر في صورة أسد وذيخ وطير؛ كما ورد في الشرِّ، وشهد بصحته الكشف والتعريف الإلهي، وليس بالمسخ والتناسخ المستنكر، فإن القائلين بذلك زاعمون أنه في الدنيا، وهذا إنما هو في البرازخ بعد الموت، فافهم.

ومن غلبت عليه الأحكام الروحانية وإفراط إعراضه عن هذه الدار وهذه النشأة؛ كالشهداء المقبلين في سبيل الله للجهاد بطيب قلب، وصحة إيمان؛ تظهر نفوسهم في صور طيور روحانية؛ كما أخبر ﷺ : «إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاء فِي حَوَاصل طَيْرٍ خُضْر تَعلَّق مِنْ ثَمَرِ الْجنَّةِ تَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ تَحْتَ العَرْشِ».

وورد في المعنى في الحديث الصحيح:

ان في غزوة أُحُد قال بعض الصحابة لبعضهم معاتبًا له: «أتقعد عن جنةٍ عرضُها السَّمَاوات والأرض، والله إني لأجد ريحها دون أُحُد».

وهذا من بكرة نور الإيمان، وفرط استفراغ الهمَّة حال التوجُّه مع الإعراض التام عن هذه النشأة وهذه الدار، واستشهد صاحب هذا القول يومه ذلك ﷺ.

والمتوسطون من الأولياء المفرطين في الانقطاع عن الخلق والمجاهدات البدنية أيضًا كذلك، وأما الكُمَّل فإنهم لا ينحرفون إلى طرفٍ من الوسائط، بل يوفون كل مرتبة حقها؛ فمنهم تامُّون في عالم الطبيعة، وتامُّون في الحضرات الروحية؛ كربِّهم سبحانه الذي أعطى كلَّ شيءٍ خلقه، فلا تغلب عليهم الطبيعة ولا الروحانية.

ومن سواهم؛ إمَّا: «مغلوب الروحانية، مستهلك الطبيعة».

وإما: «مغلوب الطبيعة المستهلك قواه الروحانية في عرصة طبيعته»؛ كما هو حال جمهور الناس.

و«الكُمَّل المقرَّبون في حاق الوسط»، برازخ بين الطبائع والأرواح؛ بل بين المرتبة الإلهية =

=

والكونية، فافهم.

وأما الباقيان من النشآت:

فأحدهما: «النشأة الحشرية».

وثانيهما: «النشأة الاستقرارية في إحدى الدارين» وقد سبق التنبيه عليهما، والله الميسر.

جاء وارد بكتابه في جملته أمر مضمونه: اعمل لي، قلت: اعمل له تصديقًا بوعده، ووعيده، وترجيًّا لفضله المرغب فيه، قالت نفسي: هذا لا يصلح لمقامي، قلت: اعمل له بموجب أمره امتثالاً وانقيادًا، قالت: هذا أيضًا لا يصلح؛ لأني حالتئذ أكون عبدًا لأمره لا عبده، قلت: اعمل له لا نظرًا إلى الأمر؛ بل نظرًا إليه من كونه آمرًا، قالت: إن الوارد يأبى هذا أيضًا؛ فإني أكون عبدًا له من كونه آمرًا؛ لا عبدًا حقيقة، قلت: اعمل له؛ شكرًا على ما أنعم به عليّ، قالت: مقامي يَأْبَاه، قلت: اعمل له؛ ابتغاءَ وجهه الكريم، قالت: وفوقك مع حظك منه، وابتغاء عملك على علة أمرٍ ينافيه كمال المقام، قلت: فاعمل به سبحانه له، قالت: نِعْمَ الآلة، وبئْسَ المستعمل، قلت: اعمل ولا اقصد بعملي أمرًا ما، ولا استحضر حال مباشرتي العمل والشروع فيه نية متعلقة بمطلب معيَّن يكون سببًا لانبعاثي نحو العمل، قالت: لا؛ هذا شبيه العبث، قلت: فكيف العمل؟ قالَ الوارد برسالة النفس: اجتهد ألا تجعل لهمتك وهمك متعلَّقًا غير الحق؛ لكن تعلُّقًا جُمْليًا كليًّا غير محصور فيما علمت منه أو سمعت عنه، بل على نحو ما يعلم نفسه في أكمل مراتب علمه بنفسه وأعلاها، ثم ترى أنه العامل بك لا أنت.

هذا بعد أن يستصلحك فيكسبك وصفه الإطلاقي كما أخبر إمام الكُمَّل ﷺ بقوله: «إِنَّ اللهَ قَالَ عَلَى لسانِ نبيِّه». وفي رواية: «عَلَى لِسَانِ عَبْدِه سمع الله لمن حمده».

وإكساب ذلكَ الوصف هو أن يصدق في حَقكَ حكم التمحُّض المُنَبَّه عليه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] و: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وحكم التشكيك المنبه عليه بقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧].

فمتى صحَّ لك ذلك وراثة محمدية كان قولنا: يعمل بك وأنت وغيرهما من الضمائر إشارة إلى الشأن الذي قيَّد فعله سبحانه المطلق الذي لا وصف له قبل هذا التقييد الشأني، ولا اسم، ولا حكم، ولا رسم، وإنما عرض له بحكم هذا التقييد ظهورٌ بوصف، واسم، وحكم، ورسم، وتبع هذا التقييد الشأني المنبه عليه تقييدات أُخَر كانت مدرجةً ولازمةً للتقييد المنبَّه عليه؛ كقيْد الأزمنة والأمكنة والمواطن والمراتب التابعة لمرتبة الشأن المذكور والنشآت، فإنه؛ أعني هذا الشأن منبع كل ما ذكر ومحتده.

فإذا تحققت بهذا الوصف الإطلاقي من حيث هذا الشأن الجمعي الأُحُديِّ صدرت منك الأفعال، وصدروها من جناب ربك دون غرضٍ ولا استكمال بها، لما ثبت في بعضِ أذواق أمهات

=

والذوق، وإن كانوا أفضل منه مكانةً وخلقةً؛ فإن الملائكة خُلقوا من النور، والبشر من العناصر.

ولذا كان ﷺ يقول: «**واجعلني نورًا**»(١)، فمن أفضليتهم بالرتبة العليا، والخلقة الفضلى لا يلزم أفضليتهم على البشر من كل الوجوه؛ بل هم جزء الإنسان الكامل؛ لأن الله تعالى خلقهم على جناح واحد؛ وهو جناح الجمال؛ وخُلق الإنسان على الجناحين؛ وهما جناح الجمال والجلال على ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿**خَلَقْتُ بِيَدَيّ**﴾ [ص:١٥].

فكما أنه فرَّق بين مَلك ومَلك؛ كملائكة الأرض، وملائكة السماوات، والملائكة المعبَّر عنهم بالمهيمة؛ فكذا فرَّق بين بشر وبشر، فمن البشر مَن هو أفضل من كل البشر، ومن كل الملائكة ولو من بعض الوجوه، فإن الفاضلِ من وجه قد يكون مفضولاً من وجه آخر فاعرف.

والحاصل أن المهيمة وإن كان لهم فضل ظاهر من حيث نورانيتهم الغالبة،

=

المقامات الكبرى أنه سبحانه كمل فأوجد؛ لم يوجد ليكمل، فإيجاده نتيجة كماله، ليس كماله نتيجة إيجاده، فإن كنت مُحْذيًا على صورة حضرته فكذلك فلتكن، فيصدر الفعل المحمود المسمى خيرًا منك؛ لكونه خيرًا؛ لا لغرضٍ يصحبه تَوَخْي حصوله بذلك الفعل.

ومعنى قولي «لكونه خيرًا» ليس بمعنى أن العلم بِخَيْرِيَّتِهِ أوجب صدوره منك؛ بل تصير بحيث لا يمكن أن يصدر منك إلا من هذا شأنه.

وترى فعلك مع هذا الوصف الإطلاقي مطابقًا لأحكام المراتب الشرعية والعقلية، لكن غير منحصر فيها بالنسبة إلى إفهام المحجوبين؛ كما هي الأفعال المنسوبة إلى ربك لا يمكن معرفة أسرار جميعها ولا تنحصر في ميزان معين ولا يستوعب أحد ما يتضمَّنه من الحِكَمِ، ولا توجب الحكمة عليه فعل أمر ما، وإن لم يخل فعله من الحكم البالغة؛ بل يفعله هو عين الحكمة، ولبّ المصلحة، وثمرة الكمال الذي هو أصل أيضًا لكمال آخرَ مستجن في كماله الذاتي الأول الظاهر بواسطة الأسماء وأحكامها.

والعبد على خُلق سيده، وإن جهل أمره ومقصده، فذلك أيضًا عنوان صحة حاله الدال على كمال مضاهاته.

وكفاه ذلك شرفًا وبهاءً ورئاسة تعلو على كل رئاسة وتحكم على كلِّ كمالٍ مقيَّدٍ وحال، والله أعلم.

(١) رواه مسلم (١/٥٢٨)، وأحمد (١/٢٨٤).

وقربتهم الباهرة إلا أن العقل الأول المخلوق في الصورة المحمَّدية له ما لهم مع ما له من فضل باطن زائد على ما لهم.

أمَّا **الأول**: فلأن المهيمة وإن كانوا أنوارًا عالية؛ لكن العقل الأول أيضًا من الأنوار ؛ لأن قوله: و(**اجعلني نورًا**)؛ يشير إلى أن أصله من الأنوار إلا أنه لمّا عارضه العين الخارجي، والتسبيح الصوري؛ دعا بأن يجعله الله نورًا، ويردَّه إلى أصله الأول.

ولا شك أنه مستجاب فيه فهو روح في صورة جسد، وعقل في ذي نفس، ومن هذا قال: «**ينام عينا قلبي**»(١)؛ فإنه يشير بذلك إلى أن الغفلة البشرية لا تطرأ على قلبه؛ بل هو من الاعتدال بحيث إنه قلب الأقالب؛ فكان بهذه الحيثية نورًا عاليًا مبصرًا في الصلاة من جميع جهاته التي تُعطي التقييد لكمال إطلاقه، وأيضًا قربتهم وإن كانت قربة زائدة من حيث إنه لا واسط بينهم وبين الله.

فالعقل الأول له جهتان: جهة الواسطة التي تعطيها الأسماء الجزئية، والجهة التي بلا واسطة؛ وهي التي تعطيها الأسماء الكلية الذاتية.

ولذا قال ﷺ:

«**لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرَّب ولا نبي مرسل**»(٢).

فإنه أشار إلى عدم الواسطة، وتلك الجهة أعلى فيه مما في المهيمة، كما دلّ عليه السلب؛ وهو انه لا يسعه فيه ملك متقرِّب: أي فحاله في ذلك الوقت أوسع من حال مَن عداه أيًّا كان(٣).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) قال سيدي عبد الكريم الجيلي: فالأنبياء والأولياء والملائكة وسائر المقربين من سائر الموجودات ليس عندهم من المعرفة الذاتية ومحمَّدٌ ﷺ الذي هو قلب الوجود هو الذي عنده الوسع الذاتي للمعرفة الذاتية، وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله: «لي وقتٌ مع ربِّي لا يسعني فيه مَلَكٌ مُقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ» انتهى.

=

وأمَّا **الثاني**: وهو إثبات الفضل الزائد له من وجه آخر أنه: أي العقل الأول المصوِّر له مقام الرؤية من جميع حضرات الأسماء دون غيره، فالمهيمة وإن كان لهم شهود تام؛ لكن شهودهم بحسب أسمائهم المخصوصة، ولهم في ذلك مقام معلوم لا يتعدونه، فأين الرؤية الخاصة من الرؤية العامة المحيطة؟ هذا والله الشكور لعبده الشكور.

* * *

=

وذكر الشيخ في هذا المؤلَف العظيم اتصاف سيدنا ﷺ بجميع الأسماء الحسنى، وجعل يذكر الأدلة على تلـك الكمالات (ص ١١٥، ١١٦)، وانظر: محاسن الأخبار في فضل الصلاة على النبي المختار للأبشيهي (ص٣٦٥) بتحقيقنا.

سورة المائدة

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ [المائدة:٦].

أيها السالكون مسلك الإيمان الشهودي بعد الإيمان الغيبي، قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾ [المائدة:٦] إذا أردتم القيام إلى المعراج الحقيقي، والتوجُّه العلوي، والوصل الكلي، وفي ذلك دلالة على أنه لا بد من تحقق هذه الإرادة، فإن سير الإنسان دوري لا مستطيل، فمَن نزل إلى أسفل سافلين؛ وجب عليه أن يصعد إلى أعلى علّيين الذي تحرك منه إلى هذا العالم فكان ذلك كالوطن الأصلي، ولا ريب ان الغريب يميل إلى وطنه.

وأمَّا قوله ﷺ: «**فطوبى للغرباء**»[1]؛ فالغرباء فيه: هم الغرباء الحقيقيون، وهم الذي وصلوا إلى مقاماهم العلوية الأصلية، فكانوا بالنسبة إلىمعارفهم أهل الأوطان، وبالنسبة إلى غيرهم، وهم كثيرون أهل الغربة إذ لا يعرفهم أحد إلا الله، أو مَن عرفه اله أو ألحقه به في مقامه وهم قليلون، فهم بالنسبة إلى أكثر الخلق غرباء؛ لقلة معارفهم؛ بل لا معارف للكُمَّل الندر في أعصارهم، فهم المعلومون المجهولون فافهم جيدًا.

قوله ﷻ: ﴿فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة:٦].

: أي وجوه حقيقتكم، وهويتكم عن أدناس التعلُّقات الروحانية، وأزيلوا عنها الحُجب النورانية اللطيفة بدائها بالأمر بإزالة هذه الحُجب؛ لأنها أول ما احتجب به الحقائق، والهويات في سيرها إلى عالم الخلق، وعند هذه الحُجب خلق كثير محجوبون محبوسون لا طريق لهم إلى خرقها إلا العناية الأزلية.

وفي الغُسل: إشارة إلى محو الهيئات النورانية التلوينية مطلقًا؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٩]: أي لا يسر سر الهُويَّة الذاتية إلا المطهَّرون عن أدناس التعلُّقات مطلقًا.

قوله ﷻ: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦].

---

(١) رواه مسلم (١/١٣٠)، والترمذي (٥/١٨).

: أي أيديكم الكاسبة لفوائد الدَّارين، فإن الدنيا والآخرة حرما على أهل الله، وحدَّد الأيدي دون الوجوه؛ لما إن الدنيا والآخرة محدودتان مقصورتان؛ لكونهما من عالم الخلق بخلاف عالم الحقيقة؛ فإنه لا نهاية له.

فالظاهر وعالم الملك محصور، والباطن وعالم الملكوت غير محصور، وحدَّدها إلى المرافق؛ لأن ما وراءها يُعدُّ من البدن، فتطهيره داخل في تطهير الحقيقة الكلية.

قوله ﷻ: ﴿وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ﴾ [المائدة:٦]، لم يقل: رؤوسكم عطفًا على المغسولين الأولين؛ لأن الرأس إشارة إلى العقل والخيال؛ وهما ممسوحان لا مغسولان، إذ لو غُسلا وأزيل حكمهما بالكلية؛ بطل مرتبة الإنسانية.

فالإنسان مَلك بالعقل، وبَشَر بالخيال؛ إذ لا خيال للمَلك؛ لكونه خارجًا عن الطبع العنصري داخلاً تحت الطبيعة الكلية، وفيه إشارة إلى أن الرأس نازل منزلة المرتبة العرشية، وليس العرش عن عالم الكون والفساد مطلقًا، وكذا مظهره في عالم الأنفس، وكل وارد يُردُّ على القلب، فإنما يُردُّ أولاً من مرتبة الخيال، فإن بقى في تلك المرتبة؛ فهو الشعور: أي الإدراك من وراء الحجاب، وإن تنزَّل إلى القلب؛ فهو علم الأنبياء والأولياء.

ولذا قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ*عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء:١٩٣، ١٩٤].

وقوله ﷻ: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ﴾ [المائدة:٦].

دلَّ التحديد على أن الأرجل مغسولة لا ممسوحة، وغسلها إشارة إلى إزالة اكتسابها الطبيعة، وأعمالها النفسانية؛ لأن الأرجل متصلة بالبطن حقيقة بخلاف الأيدي، وسرُّ التحديد كما سبق؛ لأن ما وراء الكعبين يُعدُّ من البدن: أي عُرفًا، وإن كانت الأيدي لغة تعتبر من الإبط، والأرجل من الورك؛ فهذه الأعضاء الأربعة إذا غُسلت غُسلاً حقيقيًا؛ فقد غُسلت الأعضاء والقوى جميعًا، وأُزيلت التعلُّقات بالكلية؛ لأن الحجاب إمَّا روحاني، وإمَّا جسماني.

فالأول: أشير بغسل الوجوه، ومسح الرؤس.

و الثاني: بغسل الأيدي والأرجل.

فإذا كُشف الغطاء عن وجه الحقيقة من هذين الحجابين؛ لم يبقَ فيما ورائهما إلا حجاب يسير نوراني، كحجاب السحاب الأبيض على الشمس، وهذا هو القدر الذي يتكلَّم فيه، وأمَّا التفصيل فلا يُؤذن لأحد في ذلك إلا لأهله؛ وهم الصدِّيقون الحافظون للأسرار المراعون للأطوار.

قال الله تعالى: ﴿**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ**﴾ [المائدة:٢١].

أي: إذا وجب عليهم دخول تلك الأرض، فكيف يجوز دخول مصر فرعون وهو الأظهر، والمصر البلد العظيم من مصر الشيء يمصره أي: قطعه سمي به لانقطاعه عن الفضاء بالعمارة، وقد تسمى القرية «مصر» كما تسمى المصر قرية، وهو ينصرف ولا ينصرف فصرف هاهنا، لأن المراد غير معين، وقيل: أُريد به مصر فرعون، وإنما صرف لسكون وسطه، أو لتأويله بالبلد دون المدينة، فلم يوجد فيه غير العلمية قال تعالى: ﴿**اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ**﴾ [البقرة:٦٢] تعليل للأمر بالهبوط أي: فإن لكم فيه ما سألتموه من بُقُول الأرض.

قال الله تعالى: ﴿**قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ**﴾ [المائدة:٢٦].

أراد أرض القدرة بقرينة أن الله تعالى غذّاهم في التيه بالمنِّ والسَّلوى، وذلك من عين المنَّة، ومحض القدرة لا بسبب من الأسباب المتعلّقة بعالم الحكمة.

فالتية أرض القدرة، ومِصر أرض الحكمة، والمدة فيما بينهما من حيث القطع والوصول أربعون سنة، فإن الداخل في عالم القدرة؛ وهو أهل الفناء، وإن خرج إلى عالم الحكمة، وهو عالم البقاء، فإن بقاءه لا يكمل له إلا في أربعين سنة، أو في قريب

فالتية أرض القدرة، ومِصر أرض الحكمة، والمدة فيما بينهما من حيث القطع والوصول أربعون سنة، فإن الداخل في عالم القدرة؛ وهو أهل الفناء، وإن خرج إلى عالم الحكمة، وهو عالم البقاء، فإن بقاءه لا يكمل له إلا في أربعين سنة، أو في قريب منها على حسب ما يقتضيه استعداد كل فانٍ وباقٍ، فإن الأكمل استعدادًا قد يقوم له الأمر في أقل من مدة الأربعين سنة فصاعدًا على ما شاهدته في شيخي الإمام الأكمل السيد عثمان الفضلي قُدِّس سرُّه.

فظهر أنه كما أن الدخول في مصر الصورة المتعلّقة بالأسباب لا يحصل إلا مدة أربعين؛ ليأكل منها أنعامهم وأنفسهم الحيوانية؛ فكذا الدخول في مصر الوجود بعد الفناء؛ لا يكمل إلا في تلك المدة؛ ليأكل منها أنعامهم، وأنفسهم الإنسانية، فأنعامهم أنفسهم المزكّاة، وطبائعهم المصفّاة تأكل مما يأكل الناس من الأغذية الصورية، وتكون لهم نورًا في عروقهم، وأنفسهم، وأرواحهم المطهَّرة عن دنس التعلُّقات الفانية تأكل مما لا يأكله الناس من الأغذية المعنوية، فهذا التمتُّع من كلا الوجهين لا يحصل لهم إلا بعد الارتداد إلى عالم البقاء، فإن عالم الفناء قد لا يقتضي الغذاء إذا كان الانجذاب قويًا، والشكر غالبًا.

قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

اعلم أنه كما أن في الآفاق شرائع ومناهج بالنسبة إلى أهل الآفاق بها يتديَّنون، وعليها يَجرون، فكذا في الأنفس شرائع ومناهج بالإضافة إلى أهل الأنفس؛ لأن المشارب مختلفة، ومن عين الرحمة(١) تنوعت التجليّات، واختلفت المشارب.

---

(١) عين الرحمة هو رسول الله سيدنا محمد ﷺ، الرحمة: عطف، وميل نفساني غايتها التفضُّل والإنعام. وجعل ﷺ **عين الرحمة**: أي نفسها إشارة إلى أنها مُزجت بذاته، واستحال انفصالها عنه، حتى كأنه هي، وكأنها هو: أي ركب منها، وطبع عليها، وخُلق منها، كما قال تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾** [الأنبياء:١٠٧] يجوز نصب (رحمة) على الحال على أنها بمعنى اسم فاعل، أو على حذف مضاف: أي ما رحمة، أو مفعولاً من أجله، والعالمون قيل: الجن والإنس وعليه الجمهور، وقيل: الملائكة، وعليه غير واحدٍ من المحققين، ويدل عليه أيضًا: **﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾** [الفرقان:١].

وعلى كلٍّ فهو رحمةٌ للمؤمنين بالهداية والأمان، وللكافرين بتأخير العذاب، ولسائر الحيوانات؛ لأن =

=

بوجهه يستسقى الغمام، وبدعائه ينـــزل مطر السماء فينبت النبات، ويكون لها سقيًا ورعيًا.
وقال ابن عباس: رحمة للبر والفاجر؛ لأن كل نبيٍّ إذا كُذِّب أهلك الله من كذَّبه، وسيِّدنا محمد ﷺ أخر من كذَّبه إلى الموت أو إلى القيامة، وأما من صدَّقه فله الرحمة في الدنيا والآخرة، فعُلم أن ذاته رحمة للمؤمنين والكافرين، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ**﴾ [الأنفال:٣٣].
وروى الدارمي والبيهقي حديث: «**إنما أنا رحمة مُهداة**».
وقال بعضهم: زَيَّنه الله بزينة الرحمة، فكان وجوده رحمة، وجميع شمائله رحمة على الخلق.
وقال أبو العباس المرسي ﷺ: الأنبياء كلهم خُلقوا من الرحمة، ونبينا ﷺ هو عين الرحمة.
لا يُقال: كيف هو رحمة وقد جاء بالسيف واستباحة الأنفس والأموال؟
لأنَّا نقول: إنما ذلك لمن أدبر واستكبر، ولم ينفع فيه وعظ ولا إرشاد، ومن أوصافه تعالى: الرحمن الرحيم والجبار والمنتقم.
وفي الشفاء: حُكي أنه ﷺ قال لجبريل: «هل أصابك من هذه الرحمة شيءٌ؟ فقال: نعم، كنت أخشى العاقبة فأمنت لثناء الله عليَّ بقوله: ﴿**إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ**﴾ [الحاقة:٤٠]».
•ولما شُج وجهه ﷺ، وكُسرت رباعيته يوم أُحد، قيل له: «**لو دعوت عليهم، فقال: إني لم أُبعث لعانًا، وإنما بُعثت داعيًا ورحمةً، اللَّهُمَّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»: أي اغفر لهم هذا الشيء الخاص، الراجع لذاتي لا مطلقًا، وإلا أسلموا كلهم. ذكره ابن حبان.
وإنما دعا عليهم يوم الخندق بأن يملئ الله بطونهم وبيوتهم نارًا؛ لأنهم شغلوه عن الصلاة الوسطى، فكان الدعاء عليهم لله تعالى لا لحظ نفسه انتهى.
وبالجملة: نعمتان ما خلا موجود عنهما، ولا بُدَّ لكل مكونٍ منهما نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، والكل منه ﷺ.
أما الأول: فلأنه ﷺ السبب في إيجاد الجميع.
قال في المواهب: روى الحاكم في صحيحه: «**إن آدم** عليه السلام **رأى اسم محمد ﷺ مكتوبًا على العرش**».
وإن الله ﷻ قال لآدم: «**لولا محمد ما خلقتك**».
وفي حديث سلمان عن ابن عساكر قال: «هبط جبريل على النبي ﷺ فقال: إن ربك يقول لك: إن كنت اتخذت إبراهيم خليلاً فقد اتخذتك حبيبًا، وما خلقت خلقًا أكرم عليَّ منك، ولقد خلقت الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك، ومنـــزلتك عندي، ولولاك ما خلقت الدنيا ».
وصحَّ عن ابن عباس وله حكم المرفوع: «ولولا محمَّد ما خلقت آدم، ولولا محمَّد ما خلقت الجنة والنار، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب، فكتبت عليه: لا إله إلا الله، محمَّدٌ رسول الله، فسكن». وهذا من باب الحكمة، والمصلحة الراجعة إلى العباد؛ لإظهار عظمة سيِّدنا محمد ﷺ، وإشهار كرامته عند الله تعالى بجعل وجوده سببًا في وجود الموجودات.
وأما الثاني: فلأن كل نعمة وصلت إلينا، أو تصل وإن كانت في الحقيقة من الله تعالى: ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**﴾ [النحل:٥٣]، فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل الواسطة في ذلك الذي

=

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الآية:٤٨]: أي على مشرب واحد لا يُعطي إلا فيضًا أُحاديًا؛ لكن الله تعالى لم يشأ ذلك؛ بل كان من الواجب في الحكمة اختلاف المشارب، وتباين التجليَّات، وتفاوت الفيوض، وتكثير الواردات؛ لأنه تعالى واسع لا ضيق في تجليَّاته، ولا حصر في فيوضه، بل يجري

=

تظهر على يده تلك النعمة، وبيده مفتاح خزائنها، سيدنا محمد ﷺ، كما قال ﷺ: «**إنما أنا قاسمٌ والله يعطي**».

وكما قال ابن مشيش قال الشارح: (ولا شيء إلا وهو به منوط).

هذا وما ذكرناه من أن معنى (**عين الرحمة**): نفسها، مبالغة في اتصافه بها، هو أحد احتمالين: ثانيهما: إن المراد بالعين عين الماء: أي مقرّه الذي يجتمع فيه، ثم يتفرق من ذلك المقر سواقي للسقي والانتفاع، فسُمِّي ﷺ عين الرحمة: أي مقرًّا لها؛ لأن الله أبطن فيه ما شاء أن يقسمه لخلقه، وجعله مقرًّا لانصباب كل ما قسمه لخلقه في سابق علمه، كما يأتي في شرح قوله بمركز الفهوم، فهو استعارة تصريحية قربتها الإضافة إلى الرحمة.

تنبيه: قال في الرماح بعد تقرير نحو ما أصلناه من عموم رحمته ﷺ ما نصّه، وهو المُراد بقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]؛ لأن أصله ﷺ رحمة، ولا يلزم من شمول الرحمة عدم وقوع العذاب والوعيد في الغضب؛ لأن ذلك من مقتضيات الكمالات الإلهية، فإن الكريم وإن أُعطي كرمه لولا بطشه وغضبه وعذابه ما خيف جانبه، ولو أمن منه هذا الحال احتقر جانبه، وليست هذه صفة الكريم ولا ينبغي له هذا، فتبيَّن لك أن صفة الكريم الغضب والبطش والتعذيب؛ ليكون جانبه معظمًا مُهابًا، كما كان مرجوًّا لرحمته وعفوه انتهى.

تنبيه آخر: من رحمته ﷺ ترغيبه لأمته في التراحم في الحديث: «**الراحمون يرحمهم الرحمن؛ ارحموا مَن في الأرض يرحمكم مَن في السماء**».

«**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**».

«**مَن لا يَرحم لا يُرحم**».

«**مَن لا يَرحم من في الأرض لا يرحمه من في السماء**».

«**مَن لا يَرحم الناس لا يرحمه الله**».

«**ما نُزعت الرحمة إلا من شقيٍّ**».

«**لا يدخل الجنة إلا رحيمٌ، قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم، قال: ليس رحمة أحدكم نفسه وأهل بيته حتى يرحم الناس**».

تجلّيّاته المتنوعة أبد الآباد في كل موطن ومقام دنياويًا، وأخراويًا، وبرزخيًا، أو حشريًا، أو جنانيًا، أو كثيبيًا.

وإليه يشير قولهم: الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق: أي كل خلق من المخلوق يتنفّس بنفس مخصوص من الأنفاس الرحمانية لا يشاركه فيه غيره، وذلك من باب الغيرة الإلهية حتى لا يطّلع أحد على أحد في طريقه؛ لأنه ليس هناك إلا السير الأحدي حقيقيًا كان أو نوعيًا، فافهم هذا السرَّ جدًا.

فالشرعة هي: شرعة الأعمال التي يردها السالك؛ لتهديه إلى عين الأجر الأخروي، المنهاج هو: منهاج السير الأحدي الذي يرده السائر؛ ليوصِّله إلى عين النور وهو نور السماوات والأرض، وضياء الأجسام والأرواح.

فاختلاف المناهج الشرعية؛ يستلزم اختلاف المناهج السيرية؛ لأن الظاهر عنوان الباطن، والمجاز قنطرة الحقيقة؛ لكن لأكامل الناس أحوال غريبة في شرائعهم ومناهجهم يخفونها عن الناس؛ لأن اختلاف المذاهب ليس من حيث الحقائق؛ بل من حيث الصور، فلهم سير أحدي من حيث الصور والحقائق جميعًا لا يوقعهم في الاختلاف؛ اختلاف الناس.

وإن كانوا يتأدَّبون بالأدب التي نُدب إليها ظواهر الشرائع، كمَن كان متقلدًا بمذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى؛ فإنه يجرى على مذهبه في الصورة من غير إخلال بشيء من اجتهاده وفروعه؛ لكنه ليس بمتقيِّد بواحد من المذاهب في الحقيقة؛ بل يجري سنن واحد في السير على المنهاج النبوي، فله حكم الأدلية، وحكم الصدر الأول.

فإن مرتبة الصحابة رضي الله عنهم باقية إلى يوم القيامة[1]:

---

(١) إن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كلُّهم أنوارٌ ليس فيهم ظلمةٌ؛ لتوهُّج ضياء شمس النبوة عليهم، وكمال محاسنهم، ثم أن الشمس إذا غربت تظهر الظلمة عقيب غروبها ولا تظهر إلا الكواكب الكبار، فكلما تغرب عن الأفق تكثر الظلمة، فتظهر سائر الكواكب إلى أن يظهر فجر الوعيد، وأيضًا الصحابة كانوا أهل حقٍّ، وسُنَّة، وطاعة، وعدل، ومعروف، ثم ظهر بعدهم عكس ذلك من الباطل والبدَع، والمعاصي، والظلم، والمنكر، فبثّ الله تعالى في سائر البلدان رجالاً قلّدهم سيوفًا ماضيات تقطع أعناق المنكرين عليهم.

أي لَمن كان من الخواص لا لَمن كان من العوام، فإن العام إخوان النبي ﷺ، كما أن الخواص أصحابه، ولما كانت مراتب الكشوف متباينة؛ وقع بعض الناس في بعض من أهل البداية والتوسُّط فيما يخالف مرتبة كشوفهم.

وأمَّا أهل النهاية فلمَّا كانت مشاربهم من نهايات المشارب، وكشوف من غايات الكشوف؛ سلّموا الأمور إلى أربابها، وسكتوا عن الطعن، والعراض لما علموا من أن الوصول إلى الحقيقة لا يعطي ذلك، وأن الواصل الحقيق بكل أفراده؛ كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفها؛ فلذا كان كلماتهم مناسبة؛ بل ربما كانت متوافقة لما إنها من عين الجمع الأحدي، وليس وراءه غاية؛ ولذا سلّم بعضهم عن لسان بعض؛ لأن الإنسان لا يطعن في نفسه، فاعرف هذه الإشارة المفصحة عن المراتب وتباينها.

وقوله تعالى: ﴿أَذِلَّة عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٥٤].

يشير إلى أعين العزَّة؛ لأَن الذّلة لأهل العزّة عزة، كما أن التكبُّر لأهل الكبرياء تُواضع.

وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّه الْعِزَّةُ وَلِرَسُوله وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

أي: وللمؤمنين الذين أعزَّهم الله بعزَّة نفسه، وبعزَّة رسوله؛ فإنهم حزب الله الغالبون وإنهم الجند المنصورون، فلهم الفعل الذي هو عين العِزَّة ولأعدائهم الانفعال الذي هو عين الذّلة.

فالمؤمنون في درجة الذكورة، وإن كانوا إناثًا، والمنافقون والكافرون في درجة الأُنوثة وإن كانوا ذكورًا، فعليك بالتشبُّه بالذكور حتى تكون مذكّرًا حقيقيًا.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا جَاءوكُمْ﴾ [المائدة:٦١].

أي: دخل المنافقون بالنفاق الشرعي بمجالسكم؛ ومعنى النفاق الشرعي: إظهار الإيمان، وإبطان الكفر.

قال تعالى: ﴿قَالُوَاْ﴾ [المائدة:٦١]؛ بالقول اللساني بالاعتقاد الجناني.

قال ﷻ: ﴿آمَنَّا﴾ [المائدة:٦١]؛ كإيمانكم المشتمل على الصدق، والإخلاص، واليقين؛ وفيه إظهار الدعوى، وإخلاء القلب عن المعنى.

ولذا قال تعالى: ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ﴾ [المائدة:٦١]؛ الذي هو إنكار الحق؛ كنبوة رسول الله ﷺ، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ﴾ [المائدة:٦١].

يعني: كان آخر حالهم كأوله على حد سواء؛ لأن قلوبهم كالحجارة، وأشدُّ قسوة، فلم ينجع فيها العظة، ولم يحصل من الصحبة إلا النفرة لعدم المجانسة.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾ [المائدة:٦١].

يعني: إنكم تفترون بظواهرهم مما قالوا: آمنا فتظنون أنهم مخلصون في إيمانهم؛ لأنكم إنما تحكمون بظاهر الحال، ولا تعلمون باطنه؛ بل الله يعلم ما يكتمون، ويسرِّون من الكفر؛ فهم مؤمنون عند الناس، وكفار عند الله، وقولهم: آمنا لا اعتداد به في الحقيقة.

هذا وللآية معنى آخر من طريق الإشارة وهو: إن المراد بمجيئهم: دخولهم في عالم العين الخارجي، ووصولهم إلى حدِّ التكليف الشرعي، فهم بسبب أنهم طُبِّعوا على الكفر يقولون: آمنا: أي بالإيمان العارضي؛ لكن لا يُعتدُّ به في نفس الأمر؛ لأنهم قد دخلوا في هذا العالم بالكفر الذاتي الأصلي الذي هو في علم الله بحيث لا يتغير أصلاً؛ ولذا خرجوا من هذا العالم بالموت الطبيعي مع ذلك الكفر؛ لأن السعادة العارضة لا تُؤثِّر في الشقاوة الذاتية بالتغيير، والعبرة بالخواتم، فإذا كانت الخاتمة على الكفر؛ وهي مرآة الفاتحة؛ كانت الفاتحة على ذلك، وإن كانت مكتومة مستورة علينا.

والله أعلم بهذا الأمر المكتوم؛ يعني: يعلم أن سابقتهم الكفر، ولو بالقوة؛ إذ لا إيمان ولا كفر لا في عالم الأرواح، ولا في عالم العلم، وإنما ظهر ذلك في عالم العين الخارجي بأسباب مخصوصة.

فإذا كانت السابقة هي الكفر؛ فليكن الخاتمة أيضًا كذلك؛ لأنه لا يجوز التغيُّر في لوح القضاء والقدر، فظهر إن من الناس مَن هو مؤمن عند الله، وعند الناس، ومنهم مَن هو مؤمن عند الناس لا عند الله، ومنهم مَن هو مؤمن عند الله لا عند الناس، وكذا حال الكفر فاعتبره.

ثم في الآية معنى آخر حقيقي يذوقه المحققون وهو: إن المراد بالنفاق؛ هو النفاق الأكبر الحقيقي، وهو أن يكون للمحقق وجه في كل مظهر من المظاهر، وفي كل مذهب من المذاهب؛ لجمعية نشأته من حيث إنه إنسان أكمل، فهو يقول في الظاهر:

آمنا؛ لكنه يريد به الإيمان الرسمي الحجابي، فيظنُّ الناس إن إيمانه كإيمانهم مع وجود الفروق بينهما، فإن أحدهما إيمان عن عين، والثاني إيمان من وراء حجاب، وقد دخل في عالم العين بالكفر الحقيقي؛ الذي هو الكفر بالطاغوت، وستر الوجود المجازي بالوجود الحقيقي؛ وهو الذي يُقال له: التخلُّص عن شوائب الغيرية، كما هو صفة المخلَص بالفتح.

وقد خرج بهذا الكفر أيضًا، والناس لا يدرون ما إيمانه، وما كفره، والله أعلم بالأمر المكتوم فيه، فعليك بالكفر قبل الإيمان؛ ليصادف الإيمان محلاً خاليًا، وإياك والإيمان قبل الكفر؛ فإنه لا يثبت بحال، فإذا كنت أنت من أهل الكفر، والإيمان الأول؛ كنت منافقًا بالنفاق الأكبر، فلك وجه في كل شأنٍ، ولا يعلم حالك إلا الرحمن.

ومن هذا المقام كان الطائفة الشهيرة بالملامية يحضرون مجالس اللهو ونحوه؛ ليطالعوا سرَّ الغيب، وصور القضاء، والقدر في عالم العين الخارجي، ويطّلعوا على أن العلم ليس إلا على هذا العين، والناس إذا رأوهم في تلك المجالس؛ يظنون بهم ظنَّ السوء، ويقولون: إنهم من أهل الملاهي، وأين هم من ذلك؟

فإنهم غائبون بأرواحهم، حاضرون بأشباحهم، معلومون بصورهم، مجهولون بحقائقهم؛ لأنهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فكيف يدركهم العقول، ويدخل فيهم الشعور؟ ولذا ورد: «**أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري**»[1].

ومن جملة تلك القباب حضورهم في مجالس أهل الغيبة، فإن الله تعالى جعل ذلك من أسباب سرِّهم.

وفي ذلك تلوين التمكين حيث إن الله أراهم على كل صورة في الدنيا من حيث تلوُّن تجليَّاته، وعُرف من ذلك إن أهل السرِّ والبطون أقوى في الحال والمقام من أهل الكشف والظهور، إذ لا يجوز للعبد أن يظهر في صورة الرب لِما فيه من اختلال المراتب، ولم يذقه إلا الندر، فإن الناس لهم حرص عظيم على ظهور خوارق العادات

(١) ذكره الجرجاني في التعريفات (١/٢٩٥).

من قول مَن قال: عقد الخلائق في الإله عقائد، وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوا؛ يستلزم أن يكون اعتقاد المحقق كاعتقاد المقلّد، وإيمانه كإيمانه، وعمله كعمله.

فالعلم يدخل في كل باب من أبواب المساجد والكنائس، والعمل لا يدخل إلا في باب الأول، فإنه ليس للعبد الإطلاق في العمل، وإلا ما جاء الشرع فلا بد من الوقوف عند الشرعي العملي.

وأمَّا الاعتقاد ففرق بين اعتقاد واعتقاد، فالمقلّد يعتقد أن الصنم إله، ويخطئ في نسبة الأُلوهية إليه، والمحقق يعتقد أن الصنم ليس بإله من حيث النسبة التي هي لله تعالى، وإلا كان الإله متعدِّدًا؛ بل يعتقد أن الصنم مُظهر الاسم المضلّ يضلُّ الله به الخلق، ولا جرم أن كل الأشياء أصنام و غيرها موجودات، ولا بد لكل وجود من مُوجد متجلٌ فيه ببعض الأسماء المناسبة بحاله.

وذلك الاسم منسوب إلى مَن له الأُلوهية الحقيقية، فلو عرف عابد الصنم هذا المعنى؛ ما عبده غافلاً عن عبادة الله تعالى؛ بل كان يرفض تلك النسبة، ويطرحها عنه مستغرقًا في شهود الحق تعالى، وقصر العبادة عليه، فإذًا الاعتقاد في الأشياء اعتقاد في الأسماء، والاعتقاد في الأسماء اعتقاد في المسمَّى، والاعتقاد في المسمَّى هو الرجوع إلى التوحيد، ولا يحصل إلا عن علم كامل، فعليك بطريق هذا العلم، وكن واصلاً إليه بلا إلحاد في الاعتقاد والعمل حتى تكون محققًا في هذا الشأن.

والمحقق لا يحمل أمثال هذه الكلمات على الإلحاد؛ بل يعرف النكات فيها، والحقائق المشتمل هي عليها، فيراعي الظواهر والبواطن في مراتبهما، ومن حُرم عين التحقيق؛ فليبتغ الوسيلة كما قال تعالى: ﴿**اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ**﴾ [المائدة: ٣٥].

فانظر كيف قدَّم التقوى على ابتغاء الوسيلة؛ لأنه أصل أصيل في كل شأن؛ والمراد بالوسيلة وهو صاحب التسليك، وهو الذي يقدر على حل مشكلات السالك في كل طور من الأطوار، وقد يكون الوسيلة العِشق – بالكسر – وهو إفراط المحبة، فإنه رابطة قوية بين المحبِّ والمحبوب إلى حين الوصول، ثم عند الوصول يزول ذلك

ويفنى، ولا يبقى إلا المحبة الحقيقية المعتدلة فاعرف[1].

---

(١) قال الصدر القونوي قدس الله سره: اعلم أن المحبوب إنما أحب المحب لكونه سببًا لاستجلاء كماله فيه، ومحلاً لنفوذ سلطنة جماله وبسط أحكامه، فالمحبوب مرآة المحب يستجلي فيها محاسنَ نفسه المستجنة في وحدته قبل تعين المجلي؛ لأن القُرب المفرط والتوحُّد كانا يحجبانه عن ذلك، فإذا استجلى نفسه في أمرٍ آخرٍ بحصول ضربٌ من البُعدِ والامتياز قريبٌ من الاعتدال، ورأى محاسن نفسه في المجلي؛ أحبَّها حُبًّا لا يتأتّى له ذلك بدون المجلي، والامتياز المشار إليهما لما ذكرنا من حجابيه القرب والوحدة.

وأيضًا؛ فنسخة الحقيقة الإنسانية تشتمل على ما تستحق أن يحب كل الحب؛ وعلى ما ليس كذلك؛ بل يقتضي النفرة بالنسبة لما يُضاده من الحقائق ويقابله، فإذا تعيَّن مجلي يتميز به وفيه من الإنسان ما يستوجب المحبة صفةً كان أو فعلاً أو حالات أو أمرًا مشتملاً على جميع ما ذكرت أو بعضه؛ وارتفع حجاب القرب المفرط وغيره من البين؛ ظهر سلطان الحب طالبًا رفعَ أحكام الكثرة والمغايرة بتغليب حكم ما به الاتحاد على حكم ما به الامتياز، فأحب نفسه فيما يغايره من وجهٍ وباعتبارٍ مقتضٍ للتمييز المذكور بالصفة الذاتية التي فيه الطالبة كمال الجلاء والاستجلاء، فإن هذه الصفة هي المستدعية إيجاد العالم.

والمقصود من الإيجاد ليس غير ما ذكرنا، وكل ما ذُكر في ذلك من موجبات الإيجاد فرعٌ وتبعٌ لكمال الجلاء والاستجلاء، فافهم.

فحُكم هذه الصفة؛ أعني كمال الجلاء والاستجلاء مشتركٌ، وسار في كل محبٌّ؛ فيوجب له أن يحب ما ذكرنا، وإن اختلفت الوجُوهُ والاعتباراتُ، وكذلك حكم حجابية القرب المفرط، والإدماج الذي يتضمنه؛ هو أمرٌ مشتركٌ بين المحب والمحبوب من كون كل واحدٍ منهما من وجهٍ محبًّا، ومحبوبًا من آخر؛ كما ذكرنا غير أن بينهما فيما ذكرنا فروقًا متعددة، منها: إن «المحبوب»: مرآةٌ ذات المحب من حيث ما يقتضي أن يحب؛ فهو يستجلي فيها نفسه، ويستجلي أيضًا بعض محاسنها بالتبعية.

و«المحب»: مرآةُ كمالِ جمالِ المحبوب، ومحل نفوذ أحكام سلطنته كما مرّ.

وبهذا الحكم سار في كل محبٍّ ومحبوبٍ دون استثناء؛ وإن شان الحق سبحانه مع خلقه بهذه المثابة، فنحن من حيث حقائقنا التي هي عبارة عن صور معلوميتنا الثابتة في علم الحق أزلاً، مراءٍ لوجوده المطلق الذاتي، وحضرته مرآة لأحوالنا المتكثرة وتعدداتنا، فنحن لا ندرك إلا بعضنا بعضًا؛ لكن في الحق؛ فنحب منا به ما نستجليه فيه، وليس غير الصفات والأحوال؛ وهو يحب فينا نفسه من حيث أن رؤيته لنفسه في مرآة مغايرة له من وجهٍ مخالفٍ لرؤيته نفسه في نفسه لنفسه؛ بل لا رؤيةَ هناك ولا تعدُّد؛ لأن المرآة المغايرة من حيث أنها محل التجلي المتقيّد بها تبدي فيما ينطبع فيها حكمًا لم

وقد بقي في مرتبة العشق كثيرون؛ لأنه مقام قاب قوسين قبل الوصول إلى أو أدنى، فإذا حصل الوصول إلى أو أدنى، وتحقق الرجوع منه إلى قاب قوسين؛ فهو صاحب قاب قوسين أو أدنى جميعًا(١) وله الحقيقة الجامعة، والمشهد الأعلى، والمنظر

=

يكن متعينًا حال رؤية الشيء نفسه لنفسه.

وهذا سرٌّ، مَن اطّلع عليه عرف سر الذوات، والصفات والأحوال، والمرايا والمحال، وإن العالم بحقائقه وصوره مرآةٌ للحق من وجه، والحقَّ من وجه آخر مرآةٌ للعالم، وقد نبَّهتُ على الوجهين، فتذكّر.

ثم اعلم أن أكثر الأولياء، وكثيرًا من الكُمَّل أدركوا الوجه الواحد من الوجهين المذكورين، ورأوه الغاية، ووقفوا عنده و لم يتعدُّوه.

وطائفة منهم وقفوا عند الوجه الآخر؛ وكلا الأمرين أبديُّ الحكم واقع في كل زمانٍ دون توقيت ومناوبة.

وذكر لي شيخنا وإمامنا ﷺ بأخبار من الحق له، ونصٌّ صريحٌ أنه لا أعلى من هذا الذوق، ولا أكمل منه في نفس الأمر؛ فمن منحه فقد أدرك من الحق مالا يمكن أن يدرك وينال أحد أتم منه، فاعملْ الهمّة، وابذلْ المجهود، فعلى مثل ليلى يقتل المرء نفسه.

وقد حصل لنا ذلك بحمد الله ومنه عنايةً وموهبةً، فاجتهد يا أخي في أن يحبك الحق لا غير، فإنه إذا أحب الحق شيئًا ناله وأناله، وأما غيره فقد يحب ولا ينال، وإن نال أمرًا مما يحب فلا يقدر أن يُنِل غيره ما لديه؛ لأنه قد لا ينقل ولا ينقال؛ بخلاف الحق سبحانه فإنه على كل شيءٍ قدير، فافهم، والله أعلم.

(١) النبي ﷺ صاحب قاب قوسين أو أدنى: أي صاحب قرب الله منه ليلة الإسراء، كقرب قاب قوسين بل أدنى من ذلك.

والقاب: ما بين المقبض: أي المحل الذي يُقبض القوس منه، وقوسين بكسر السين وتخفيف الياء: أي محل عقد الوتر بالقوس، وذلك أول الوتر، فلكل قوس قابان، وحينئذ ففي الكلام قلب، والأصل كقابي قوس: أي كقرب أحد القابين من الآخر، والتشبيه بذلك جريًا على عادة العرب إذا أراد، والمبالغة في قرب شيء من آخر.

وقيل: الكلام على ظاهره، والمراد بالقاب: الجنس الصادق بالقابين: أي مقدار ما بين قابي القوس من المسافة.

=

الأجلى، فإنه الذي يجد لذّة النظر إلى الوجه الكريم، والله تعالى لا يُوصف بالعشق؛ لاعتدال صفاته، وقد يُوصف بأشدِّية الحب التي هي في معنى العشق؛ لكنها تُحمل على التأكيد الذي ما له نهاية المحبة.

ثم الناس عاشق، وعارف، ومحقق؛ فالعاشق: قد يكون أدنى حالاً من العارف؛ لأن العشق لا يُعطي بذاته كمال المعرفة التي هي المقصودة بالذات، والمحقق فوق العارف؛ لأن العارف قد يكون غير واصل إلى ما وصل إليه المحقق، فالمحقق أقوى في المعرفة من العارف الغير الواصل؛ لأن المعرفة الحقيقية هي التي تحصل بعد التجلّي العيني إذ لا خيال فيها، وإنما ترد من التجليّات العينية بخلاف التجلّي العلمي، فإن أهله قد يخطئ وقد يصيب.

ولذا لا يجوز له أن يُنصِّب نفسه في مقام الإرشاد، إذ الغائب لا يقدر أن يرشد الغائب إلى الحاضر، وقد كثر أربابه في كل عصر من الأعصار، وباب الدعوى مفتوح، والداخل فيه مجروح.

لطيفة: وقد ظهر لي في بعض المشاهد أن الإمام أبا حنيفة من العارفين(١)

=

فكانت عادة العرب إذا أراد أحدهم عقد المودة بينه وبين صاحبه يمد قوسه، ويوصله بقوس صاحبه، بأن يلصق مقبضه بمقبض الآخر، فيلتصق قابا كل قوس بقاب الآخر، ويكون ذلك عندهم دليل النفع والمحبة، ولم يحصل هذا القرب لأحد إلا لنبينا ﷺ.

(١) وُلد سنة ثمانين من الهجرة، وتُوفي ببغداد سنة خمسين ومائة وهو ابن سبعين سنة، كان ﷺ حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، كثير الكرم، حسن المواساة لأخوانه.

وكان يُعرف بالريح الطيب إذا أقبل وإذا خرج من داره.

وكان يقول: ما صليت قط إلاّ ودعوت لشيخي حمَّادًا، وكل مَن تعلمت منه علمًا أو علمته.

وكان الإمام الشافعي ﷺ يقول: الناس عيال على أبي حنيفة في الفقه، وكان لا ينام الليل، وسمّوه الوتد لكثرة صلاته، وصلّى الصبح بوضوء العشاء أربعين سنة.

وكان عامة الليل يقرأ القرآن كله في ركعةٍ واحدة، وكان يُسمع بكاؤه حتى يرحمه جيرانه، وختم القرآن في الموضع الذي مات فيه سبعة آلاف مرة، وكان نومه دائمًا في الصيف ساعة بين الظهر والعصر، وفي الشتاء ساعة أول الليل، وأخذ العلم عن شيخه حماد، وهو عن إبراهيم النخعي، وهو عن علقمة، وهو عن ابن مسعود، وهو عن رسول الله ﷺ، ولذلك قالوا: الفقه زرعه عبد الله بن

=

وأن الإمام الشافعي(١) من الواصلين، وقد ذكرنا الفرق في غير هذا المحل، وقد توجَّه

=

مسعود، وسقاه علقمة، وخصده إبراهيم النخعي وحماد، وطحنه أبو حنيفة، وعجنه أبو يوسف، وخبزه محمد، والناس يأكلون من خبزه، وقد ظهر علمه بتصانيفه، قيل: إنه صنف في العلوم الدينية تسعمائة وتسعة وتسعين كتابًا.

قال الإمام الشافعي ﷺ: من أراد الفقه فليلزم أصحاب أبي حنيفة؛ فإن المعاني قد تيسَّرت لهم، وثبت أن ثابتًا والده أدرك الإمام علي بن أبي طالب فدعا له ولذريته بالبركة، وصحَّ أن أبا حنيفة سمع الحديث من سبعة من الصحابة، وذكر في المنظومة المسماة بجواهر العقائد ثمانية من الصحابة ممن روى عنهم الإمام أبو حنيفة، وأدرك بالسن نحو عشرين صحابيًّا كما بسط في أوائل الضياء، وسُئل: أيما أفضل علقمة أو الأسود؟ فقال: والله ما نحن بأهل أن نذكرهم فكيف نفاضل بينهم!.

وكان يقول: سمعت عطاء يقول: ما من ملكٍ مقرَّبٍ ولا نبيٍّ مرسلٍ إلا ولله عليهم الحُجَّة، فإن شاء عذَّبه وإن شاء غفر له.

وكان له جار يهودي، وكانت قصبة خلائه تنضح على بيته، فمكث عشرين سنة ولم يعلم اليهودي قط بذلك، فبلغ اليهودي ذلك فبكى ثم جاء إليه وأسلم على يديه، وأُكره على تولّي القضاء، وضُرِبَ على رأسه ضربًا شديدًا أيام مروان فلم يلِ، ولما أُطلق قال: كان عندي همٌّ وغمٌّ من تولي القضاء أشد عليَّ من الضرب.

وكان الإمام أحمد إذا ذكر ذلك بكى وترحَّم عليهم.

ثم أكرهه أبو جعفر المنصور بعد ذلك، وأشخصه من الكوفة إلى بغداد، فأبى وقال: لا أكون قاضيًا، فحبسه وتُوفي في السجن ﷺ.

انظر في ترجمته: الطبقات الكبرى للشعراني (١/٤٥)، وكتب تراجم فقهاء المذهب.

(١) يلتقي نسبه مع النبي ﷺ في عبد مناف، وُلد ﷺ سنة خمسين ومائة من الهجرة، وعاش أربعًا وخمسين سنة، وتُوفي سنة أربعة ومائتين، تفقَّه في مكة على مسلم بن خالد الزنجي، ثم قدم المدينة ولزم الإمام مالك، وقرأ عليه الموطأ حفظًا فأعجبه قراءته، وقال له: اتقِ الله فإنه سيكون لك شأنٌ.

قال الربيع بن سليمان: رأيت على باب الإمام الشافعي سبعمائة راحلة تطلب سماع كتبه.

وكان يقول: وددت أن الخلق تعلموا مني هذا العلم ولا يُنسب إليَّ منه حرفٌ.

وكان يقول: وددت أني إذا ناظرت أحدًا أن يظهر الله تعالى الحق على يديه.

وكان يقول: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

وكان يقول: من أراد الآخرة فعليه الإخلاص في العلم.

وكان يقول: من طلب العلم بعز النفس لم يصلح، ومن طلبه بذلّ النفس وخدمة العلم أفلح.

=

بعض أهل الكمال ممن هو على طريقتنا الَجلوتية – بالجيم – فرأى أن الإمام أبا حنيفة دخل في بحر، فلمَّا توسَّطه؛ رُدَّ إلى الساحل؛ يعني دخل في بحر الحقيقة، إذ ما يُحكى عنه من مشاق العبادات، وحقائق التقوى، وشدائد الأحوال؛ يُعطي الغوص في ذلك البحر، كما ذهب إليه الإمام الغزالي في الإحياء.

وأمَّا أنه لم يصدر عنه كلامٌ يتعلّق بالحقائق، كما صدر عن الشافعي؛ فذلك وهمٌ من الغزالي، وقد ذكرنا طرفًا من ذلك في شرحنا على نخبة الفكر في أصول الحديث.

وأمَّا ردَّه إلى الساحل؛ فردٌّ من الفناء إلى البقاء لإرشاد الناس في مرتبة

=

وكان يقول: تفقّه قبل أن ترأس فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقّه.

وكان يقول: جمال العلماء كرم النفس وتهيئته للورع والحلم.

وكان يقول: ليس العلم ما حُفظ إنما العلم ما نفع.

وكان يقول: الناس في غفلةٍ عن هذه السورة: ﴿**وَالْعَصْرِ*إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾ [العصر:١،٢]، وكان قد جزَّأ الليل ثلاثة أجزاء، يتفكر في العلم في الثلث الأول، والثاني يصلي، والثالث ينام.

وفي روايةٍ: وما كان ينام إلا يسيرًا، وكان يختم في كل يوم ختمة.

وكان يقول: ما كَذِبْتُ قط، وما فزعت من الفقر قط، وما تركت غسل الجمعة قط.

وكان يقول: من أحب أن يختم الله تعالى بخيرٍ فليحسن الظن بالناس.

وكان يقول: ليس بأخيك من احتجت لمداراته.

وكان يقول: من علامة الصادق في اخوته لأخيه: أن يقبل علله، ويسد خلله، ويغفر ذلـــله.

وكان يقول: ليس سرور يعدل صحبة الإخوان، ولا هم يعدل فراقهم.

وكان يقول: التكبُّر من أخلاق اللئام.

وكان ﷺ كثير الأسقام، وكان ﷺ ذا هيبة، وكان أصحابه لا يجترءوا أن يشربوا الماء وهو ينظر إليهم.

وكان يقول: أحب لكل مسلمٍ أن يكثر الصلاة على رسول الله ﷺ.

قال الربيع: دخلت على الشافعي ليلة مات، فقلت له: كيف أصبحت؟ فقال: من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقًا، ولكأس المنيَّة شاربًا، ولسوء أعمالي ملاقيًا، وعلى الكريم واردًا، ثم بكى ﷺ.

انظر في ترجمته: الكواكب الدرية للمناوي (١/ ٤٨٠)، وتذكرة الحفاظ (١/ ٣٢٩)، ومناقب الشافعي للرازي، وللبيهقي، وكتب تراجم فقهاء المذهب.

الاجتهاد، فقد انتفع بعلمه وفقهه مَن عاصره ، ومَن بعده، وكان الناس عياله في ذلك، كما صرَّح به الإمام الشافعي.

ولا شك أن مرتبة الإرشاد أرفع من درجة الوقوف في مقام الفناء مع الله تعالى، وذلك أن تلك المرتبة مرتبة التبليغ؛ وهي مرتبة الأنبياء والورثة، ومن ثم رُجِّح المحدِّثون على الفقهاء؛ لأن الفقيه إنما يستدلُّ بحديث المحدِّث، فالمحدِّث أهل التبليغ، والسلسة، بخلاف أكثر الفقهاء، فظهر أن كون الإمام أبي حنيفة من العارفين؛ إنما كان بعد الوصول لِما ذكرنا من تلك المعرفة بعد الوصول أقوى مما كان قبله.

ولا ينبغي أن يُظنَّ بالمجتهدين الظنَّ السوء، وقد جاء على المذاهب الأربعة الأولياء المحققون، ومن البعيد أن يكون المتبوع أنقص حالاً من التابع، فرئيس الأولياء الحنفية؛ هو أبو حنيفة، وهكذا وإن كان هنا مقال آخر؛ وهو أن التقلد بمذهب من المذاهب أمر صوري، ناظر إلى ظاهر الشريعة، وللمحققين في باطن الحال أمر آخر؛ وهو طريق الإطلاق، والمشي من وجه مخصوص جامع إلى الله تعالى، فذلك لا ينافي التمذهب بمذهب معين في الظاهر.

وقد غفل عن هذا أكثر مَن يُعدُّ من العارفين؛ فظنوا أن الأئمة الأربعة لم يصلوا إلى مقام الحقيقة وأن أهل الحقيقة لا يتقلّدون بمذهب من المذاهب، فذلك الظن من قصور المعرفة، ونقصان الحال.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤].

هذه الآية عبارة عن: إيقاد الكافرين نار الحرب بأيديهم، وإيقاد المنافقين بألسنتهم؛ فيطفئها الله بإزالة الأذى الحسِّي عن ظواهر المؤمنين.

وفيه إشارة إلى الحرب المعنوي الذي يُوقده المؤمنون في بواطنهم؛ وهو الاضطراب والتزلزل في مواقع القهر والجلال، فإن الوقوف معه؛ كالحرب مع الله؛ لعدم الاطمئنان والتمكين؛ فيطفئ الله هذه النار بإزالة الأذى المعنوي عن قلوب المؤمنين بإظهار اللطف والجمال، فإنه تعالى يقبل التوبة؛ بل يقبل على عبده؛ ليتوب، ويرجع إليه، فإنه أرحم به من كل رحيم.

وفي: (كلما): إشارة إلى أنه بين الخوف والرجاء، ولا يزال على تلك الحالة إلى أن يحصل له كمال الرضاء في مقام التمكين؛ فإنه نهاية مقامات الصفات، كما أن التوكُّل نهاية مقامات الأفعال، والفناء نهاية مقامات الذات.

فمَن صحَّ توكُّله ورضاءه، وفناءه، وفي المقامات الثلاثة؛ انطفأت نيرانه، وبردة حرارته، وكان مع الله على كمال رضى واطمئنان، وصفوة بال في كل حال من الأحوال في كل هذا من الصعوبة مال لا يُخفى.

وفي قوله: (نار) إشارة إلى هوى النفس، فإن النار ناران: نار النفس؛ وهي الهوى، ونار الطّبيعة؛ وهي الشهوة، وفي كل منهما حرارة للقلب، والنفس، والطبيعة أية حرارة، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل السلام لا من أهل الحرب، إنه بعباده رءوف رحيم.

قال الله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة:١٠٥].

يعني: واظبوا على خدمة الحق تعالى بأنفسكم، ولمَّا كان لفظ (عليكم) يُقارب في الرسم لفظ عملكم؛ رُسم لي، كذلك في بعض الأسحار، فرأيت عليكم مقروءًا به، وبلفظ علمكم؛ يعني: عليكم علمكم أيضًا بالعمل بموجبه، فمَن لم يعمل بموجب علمه؛ لم يفلح أبدًا، وكذا مَن كفر بما أنزل الله عليه؛ لم يفلح أبدًا.

والمراد: (بما أنزل الله) ما يرد قلوب المكاشفين سواء كان من الآيات القرآنية أو غيرها، فإن المنــزَّل هو الكلام الإلهي في أيَّة لغة ورد.

والمقصد منه أنه لا بد من الاجتناب عن الشكوك، والظنون، والأوهام، والخيالات، فإن الله لا يقول إلا الحق، والموعود يكون البتَّة سواء طال زمانه أو قصر، فلا بد من الصبر، وقد يُنــزِّل بعض الأمور؛ ولكن لا يكون من قبيل المُحكمات؛ بل من طريق المتشابهات، فيحتاج إلى التأويل، ولا يعلم تأويه إلا الراسخون في العلم، وهذا من مذالق الأقدام، كم من قدمٍ زلَّت فيه، ومَن مشى على المراتب؛ أمن من العثار، والله الحفيظ لعباده، والوصل إلى المنــزَّل لا بهداية، وإرشاده والعبد بيده في الصباح والمساء، فعليه بالترجِّي لعلَّ وعسى.

وقال الله تعالى: ﴿**مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ**﴾ [المائدة:١١٧].

لم يقل: ما بلغتهم أنا إلا ما أمرتني به أنت؛ ليحصل الفرق بين قومه، وبين هذه الأمة المرحومة، فإن الله تعالى إنما خاطب قوم عيسى عليه السلام بواسطة عيسى عليه السلام بخلاف هذه الأمة.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾، وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ حيث لم يقل: قل لهم: يا أيها الناس ونحو ذلك.

فشرَّفهم في بعض المواضع برفع الواسطة صورة، وإن كان ذلك مقولاً على اللسان النبوي في الحقيقة؛ فصار كقوله: (يا أيها النبي، يا أيها الرسول) وفي ذلك رفع لمنـــزلتهم، وتنويه بشأنهم، وتلويح لكمال استعدادهم، ورمز إلى أن أكامل الإنسان قد يأخذون من الله بلا واسطة خلافًا للفلاسفة فإنهم ذهبوا إلى وجوب الواسطة؛ لأن ترتيب الكائنات، وسلسلة الممكنات يقتضي ذلك بصورتها، وهو باطل.

كما أشار إليه قوله ﷺ: «**لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرَّب، ولا نبي مرسل**»(١).

وما ورد: «**إن آمن الرسول** إلخ»(٢)، وبعض الآيات نزلت ليلة المعراج بلا وساطة الملك، فإذا ثبت هذا المقام للمتبوع؛ فقد ثبت لبعض التابع أيضًا إذ لا قائل بالتخصيص.

ومنه قوله تعالى للشيخ محيي الدين العربي قُدِّس سرُّه: أكبر مشهدي، فسُمِّي الشيخ الأكبر، وسرى ذلك إلى بعض أولاده المعنوية، فسَمَّى الولد الأكبر، ثم إن المأمور به إمَّا قول، وإمَّا فعل، وكلاهما داخل في التفسير وهو قوله: ﴿**أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ**﴾ [المائدة:١١٧].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٤/١٦٥٢)، ومسلم (١/١١٥).

فإن العبادة الشرعية التكليفية مَنوطة بكلمة التوحيد، والعبادة من الأفعال، كما أن الكلمة من الأقوال، وعليه قوله تعالى في أوائل سورة البقرة: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) وذلك أن القوم كانوا عبدة الأصنام؛ فنهاهم الله تعالى عن عبادها لِما فيها من الشرك، وأمرهم بعبادته لِما فيها من التوحيد.

إذ لا يخفى أن من عبد الله تعالى وحده مخلصًا له الدين، فهو إنما يُبنى ذلك على كلمة التوحيد، وإلا لم يعبده؛ فكأنه تعالى يقول: وحِّدوا الله تعالى، واعبدوه وحده؛ فإنه واحدًا بالذات، فهو المستحق للعبادة، وذلك نظير قول بعضهم:

إن الكفار مخاطبون بالفروع: أي بعد الاتصاف بالأصول، فيعاقب على ترك كل من ذلك، فإن الشيء إذا ثبت؛ ثبت بلوازمه.

ثم إن العبادة: إمَّا تكليفية؛ وهي المأمور بها على ألسنة الرسل، وإمَّا ذاتية؛ وهي العبادة الفطرية، فالثقلان مأمورون بالعبادة التكليفية؛ امتحانًا لهم من الله تعالى لِما فيهم من الدواعي التي تنازعها، فهم المخصَّوصون بإرسال الرسول.

وأمَّا الملائكة وسائر الكائنات من ذي روح وغيره فعبادتهم فطرية ذاتية إذ لا يقتضي ذواتهم التكليف؛ لارتفاع الموانع عن العبادة دلَّ عليه قوله تعالى: **﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ﴾** [الإسراء:٤٤]: أي يسبِّح لله، وينـزِّهه عن التقيُّد بالوجودات الحادثة، فإن الآن على ما كان عليه قبل، وبحمده تعالى على نعمة الوجود، فله التقرُّب إلى الله بكل ما يمكن إلا القربان؛ فإنه مخصوص بالإنسان.

ولذا وجب العقيقة في بعض المذاهب، وقوله: ربي وربكم، إنما لم يكتفِ بالثاني نفيًا للمعبودية عن نفسه، كما زعمها بعض قومه، وإليه الإشارة في هذه الشريعة بقولنا: وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، فجميع الأنبياء – عليهم السلام – عباد الله المرسلون إلا أن بعضهم أقرب إليه كما زعموا؛ وذلك لأن الإله لا يكون مرسَل – بفتح السين – فاعرف.

***

سورة الأنعام

قال الله تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ﴾ [الأنعام:٦٢].

اعلم أن الحكم خطاب الله تعالى في عباده بالأمر والنهي، والثواب والعقاب، ودلّ تقديم الجار والمجرور على تخصيصه به تعالى؛ والمراد بالضمير هو الهويَّة، ولا شك أن الهويَّة الساري سرُّها في العوالم كلها هُويَّة واحدة لا تعدُّد فيها إلا باعتبار تعدُّد الماهيات، والحقائق.

وهذا التعدُّد الاعتباري لا ينافي الوحدة الحقيقية، كما أن نور الشمس نور واحد في الحقيقة، وإن تعدَّد مطارحه، وتفرَّق أطواؤه، وله أمثلة كثيرة لا تُحصى، ولتوحُّد الهُويَّة؛ توحَّد الحكم في العالم روحًا وجسدًا.

أمَّا روحًا: فلأن الله تعالى لمَّا تجلَّى بالنور المحمَّدي، وأظهره من بطون الغيب؛ نصَّبه ملك الملكوت على الأرواح، وكذا دعاهم إلى المبايعة، وكلمة التوحيد، كما يدعو السلطان إلى مبايعته، وتوحيد الكلمة في حقه، فإنه إنما يُضلُّ مَن ضلَّ من التفرُّق.

وقد قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة:٢١٣].

فكانوا أمةً واحدةً في الأرواح بلا تفرُّق؛ إذ لم يكن هناك دواعي الهوى، ونوازع التفرُّق، وكذا كانوا أمةً واحدةً في أوائل خلافة آدم عليه السلام، ثم لم يزل الأنبياء على الاتفاق في الأصول؛ ولذا كان الكُمَّل على آثارهم ظاهرًا وباطنًا؛ لأن المنبع واحد لا يختلف، فظاهره العدل؛ وهو الميزان القسط، وباطنه الفضل؛ وهو الفيض الكلّي.

فكان اتفاقهم بحيث لم يختلف كلمتهم لا في باب العدل، ولا في باب الفضل؛ بل اتفقت الألفاظ أيضًا؛ لرجوعهم إلى أصل واحد بخلاف حال غيرهم ممَن هو دونهم؛ لاختلافهم في الأسماء، وكون أسمائهم من الأسماء الجزئية؛ فكان التجلّي الكُمَّل من حيث أسماؤهم الكلية فوق التجلّي لغيرهم من أهل الأسماء الجزئية؛ ولذا

اتفقت كلماتهم، واختلفت كلمات غيرهم(١).

والحاصل أن المنهل وإن كان واحدًا عذبًا لكن الواردين على مشارب مختلفة، فلم يتغيَّر العلم إلا من المشارب، كما لم يتغيَّر الماء إلا من اختلاف الطريق روحًا.

وأمَّا جسدًا فلأن آدم كان خليفة الله في عصره، ولم يزاحمه أحد في ذلك؛ فهو خليفة الله من حيث المنصب، وخليفة نبينا ﷺ من حيث الفيض؛ لأنه مستفيض من باطن روحانيته كسائر الأنبياء.

وأمَّا التعدُّد في بعض الأوقات كما يُحكى أن نبيًا غير واحد كانوا يدعون إلى الله في عصر واحد؛ بل في بلدة واحدة، فذلك يرجع إلى حقيقة، ودعوة واحدة، فالتعدُّد في ذواتهم لم يكن منافيًا لتوحد كلماتهم، واتفاق دعواتهم، فهم كنبيٍّ واحد، وكلّهم كانوا ورثة الخلافة المحمَّدية لِما ذكرنا من وحدة الأصل(٢).

---

(١) قال سيدي علي وفا قدس سره في المسامع: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣]، مع ما أورده وجودهم الطبيعي بلا فرقان، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ إذ ظهر بنواطقهم حقًّا مبينًا فرقانيًّا، ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، فافترقوا وزال حكم وحدهم.
﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]؛ إذ في ذلك تعبدهم لمن تنـزه عندهم عما به قيّدهم؛ إذ غايرهم، وبمغايرته عقدهم، وانعقد فيما نـزهوا به عنه منه معتقدهم.
﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٩]، فحققهم به بجمعيتهم على ما به فرقهم، فهم أرباب الجمع والفرقان بحقهم المبين، ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩].

(٢) فائدة: قال الشيخ ابن ناصر الكيلاني في شرح الفصين: (**وإن اختلفت الملل والنِّحل لاختلاف الأمم**) قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:١١٨] فما زلنا من الخلاف؛ لأنهم: أي أهل التحقيق قد خالفوا المختلفين، ولذلك خلقهم، فما تعدَّى كل خلقٍ ما خلق له، فالكل طائع في عين الخلاف.
كما ورد الحديث الصحيح، والنص الصريح: «**كلٌّ ميسَّر لما خلق له**» فافهم.
فقال ﷺ: وإن اختلفت وبانت كثيرة ولكن لا تناقض الكثرة الموهومة الأحدية الحقيقية، كما أن كثرة الأعيان الثابتة، والمظاهر الخارجية لم تمنع وحدة الوجود والحال كالحال.
وأمَّا الاعوجاجات الوهميَّة لا تناقض الاستقامة؛ لأن الكل في أحدية صراط الله أخذٌ بناصيةِ كلِ دابة وهو على صراطٍ مستقيم، فأين المفر؟ وهكذا الأمر؛ لأن استقامة القوس في اعْوِجَاجِهِ، فافهم، فإذا كان الأمر هكذا.

=

فهذا السرُّ الوحداني راجع إلى وحدة وجوب الوجود، فكما أن واجب الوجود واحد؛ فكذا المظهر مظهر واحد في الحقيقة، وإن الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد في الصورة، ثم يتفرَّع ذلك إلى فروع متعددة، بذلك صحَّ الحكم بأن الواحد يصدر عنه المتعدِّد، كحال المركز في الدائرة مع النقاط الكثيرة فيها، ثم إن ذلك المظهر إن اُعتبر فيه الوصف الزائد؛ فهو نبي وإلا فسلطان.

فالسلطان أيضاً يجب أن يكون واحدًا بحيث إذا بويع الخليفتان؛ يجب أن يُقتل الآخر، فجميع الملوك الإسلامية يرجع حكمها إلى حكم الملك الأعظم منهم، ولا

=

قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة:٤] فتفرَّقوا بعلمٍ وبينة.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة:٦١].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤] ونحن معه بكونه آخذًا بنواصينا وأنه على صراطٍ مستقيم، فافهم.

وهنا مسألة دوريَّة ذكرها الشيخ ﷺ في «**الفتوحات**»:

وهي أن الشرائع اختلفت لاختلاف النسب الإلهية.

واختلاف النسب لاختلاف الأحوال.

واختلاف الأحوال لاختلاف الأزمان.

واختلاف الزمان لاختلاف الحركات الفلكيَّة.

واختلاف الحركات الفلكية لاختلاف التوجهات.

واختلاف التوجهات لاختلاف المقاصد.

واختلاف المقاصد لاختلاف التجلّيات.

واختلاف التجلّيات لاختلاف الشرائع.

واختلاف الشرائع لاختلاف النسب الإلهية، فدار الدور، وانتهى كلامه ﷺ.

ثم نرجع ونقول: إن اختلاف الأمم باختلاف الاستعدادات والقابليات المختلفة كالماء فإنها حقيقةٌ واحدة تختلف في الطعم باختلاف البقاع، فمنها عذبٌ فراتٌ ومنها ملحٌ أُجاجٌ وهو ماءٌ واحدٌ في جميع الأحوال لا يتغيَّر عن حقيقته وإن اختلفت الطعوم، كذلك أحديَّة الطريق أنها حقيقةٌ واحدةٌ تختلف أحكامها باختلاف القوابل، يَعرفُ ما قلنا مَنْ عَرِفَ وحدة الوجود مع كثرة المشهودة بالذوق، فافهم.

وانظر: مجمع البحرين (ص١٣٣) بتحقيقنا.

اعتداد بملوك الكفار؛ لأن أموالهم وأراضيهم في الأهل الإسلام في الحقيقة، فهم المتغلّبة لا الملوك على أن بعضهم نواب الحق؛ لعدالتهم نحو أنوشروان فافهم جيدًا، اللّهم عافنا من الظلمة ما أهل إليه قطعًا.

ولذا قال الله تعالى: ﴿**ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ**﴾ [المائدة:٦٢].

اعلم أن الاسم الله المعروف لا يُطلق إلا على الله خاصة كما قال تعالى: ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾ [مريم:٦٥].

بخلاف المنكر فإنه قد وقع إطلاقه على غيره كما قال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿**مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي**﴾ [القصص:٣٨].

فالمنكر إله حق؛ وهو الله المعروف، وإله باطل؛ وهو ما يعبدونه من دون الله؛ ولذا ورد: «**لا إله إلا الله**»(١): أي لا إله حقًا إلا الله.

فإن قلت: فإذا كان المعرَّف لا يُطلق إلا على المولى الحق؛ فما معنى الإبدال بالمولى الحق.

قلت: لإرادة التصريح بالحقية؛ ليؤذن بأن مولاهم الذي يعبدونه من دون الله؛ هو المولى الباطل.

والباطل لا يكون مولى، ولا يستحق لأن يُعبد؛ ولذا قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ**﴾ [محمد:١١]؛ يعني أن ما يعتقدونه مولى وناصرًا في الحقيقة؛ لكنه مولى وناصر للمؤمنين؛ لأنهم نسبوا الألوهية إلى مَن هي له، فنسبتهم نسبة غير صحيحة؛ بل فاسدة باطلة؛ ولذا قال: ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ**﴾ [النساء:٤٨]: أي لأن الغفر والستر إنما يتعلّق بالموجود، ولا وجود للشرك إلا في الوهم، فكيف يغفره الله؟ ثم قال: ﴿**وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ**﴾ [النور:٣٩]: أي لأن الوجدان لا يتعلّق إلا بالموجود، والله تعالى موجود أزلاً وأبدًا، فمَن فرَّ منه؛ فلا يجد شيئًا حيث فرَّ إليه إلا الله.

ولذا قال تعالى: ﴿**ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ**﴾ [الأنعام:٦٢]، مع أنهم مردودون إلى

---

(١) رواه البخاري (١٦٤/١)، ومسلم (٣٧/١).

الله على كل حال، وهو تعالى معهم أين ما كانوا؛ لكنهم لا يعرفون ذلك، فيظنون انهم مع غيره، وهو الأسباب والوسائط حتى إذا زال ما في البين، وبدا للعين العين؛ تحققوا انهم مع الله، فهذا إنما ينفع، وهم في الدنيا، فإنهم في الاخرة مكاشفون للحقائق؛ لكن لا ينفع لهم ذلك.

ولذا قال تعالى: ﴿**وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ**﴾ [الأنعام:٢٤]: أي حين ما شهدوا الحق وكاشفوا عنه.

والحاصل: أن التعبير بالردِّ في هذه الآية، وبالرجوع في قوله تعالى: ﴿**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [البقرة:٢٤٥]؛ إنما هو باعتبار الحجاب، والوقوف عند الوسائط لا باعتبار الكشف والوصول، فإن المكاشف يعرف إنه مع الله على كل حال، فكيف يُردُّ المردود، وهو من تحصيل الحاصل؟ ومن ثم قيل: قيامة العارفين دائمة.

وحملوا قوله تعالى: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ [الفاتحة:٤] على اليومين جميعًا؛ لأن الدين هو المجازاة، والله تعالى لم يزل يُجازي عباده في الدَّارين، نعم إنه قدير، والعبد من اسم إلى اسم، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا**﴾ [مريم:٨٥].

فإن المتقين، وإن كانوا محشورين إلى الله في الدنيا؛ لكن حشرهم ذلك قد يكون بحسب الأسماء الجلالية؛ كالقهَّار، والقدير، والمريد ونحو ذلك؛ لأن موطن الدنيا ممتزج بالنور، والظلمة، ومختلط باللطف، والقهر.

وأمَّا في الآخرة فيحشرون إلى الرحمن، وهو اسم لا يقتضي الجلال والقهر؛ بل الجلال واللطف، فهم وإن كانوا مع الله في جميع الأحوال؛ لكن فرق عظيم بين كونهم مع الاسم الرحمن، وبين كونهم مع غيره من الأسماء الجلالة، وبه يظهر صحَّة السفر من الله إلى الله فاعرف.

***

سورة الأعراف

قال الله سبحانه حكاية عن إبليس: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧].

: أي من طرق الأبديات، والأزليات المتعلّقة بالمعاد والمبدأ، فالآخرة داخلة في الأبديات، والدنيا في الأزليات؛ لأن الأولى أبدية نسبية ليست بأبد الآباد، والثانية أزلية إضافية أيضًا ليست بأزل الازال.

قال ﷻ: ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧]: أي الأعمال الصالحة والأعمال الطالحة.

لأن الأولى: مظهر الإيمان؛ ولذا قال تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [التحريم:٨].

والثانية: مظهر الشمائل.

ولذا لم يكن للفجّار، والكفار نورٌ إذ لا يمين لهم آخذة بالطريقة اليمنى للعرش؛ بل لهم شمال آخذة بالطريقة اليسرى له، ويسار العرش أكوان ظلمانية، كما أن يمينه آثار نورانية، فكل فريق يهتدي في الدّارين لطريق السالك فيه، إمّا بإرشاد الله تعالى، أو بإضلال إبليس(١).

---

(١) قال ابن ناصر في شرح الفص الآدمي: و(**إبليس**) وكان اسمه حارث فأبلسه الله تعالى وطرده من رحمته، وطرد رحمته منه، فَسُمِّيَ إبليسًا: أي طريدًا.

(**جزءٌ من العالم لم يحصل له هذه الجمعية**)؛ لأنه مظهر اسم المضل، وآدم ﷺ مظهر لاسم الله الجامع لجميع الأسماء الظاهرة في المظاهر المسمّاة بالعالم، والاسم المضل من جملة تلك الأسماء، واللبس على إبليس حقيقة الأمر لجهله بنفسه، فظنّه أنه الشرف من حيث النشأة العنصرية، ثم ظن أن أشرف الاستقصات النار؛ فرتّب بالفكر الفاسد على هذا الوهم الكاسد الأقيسة الباطلة والمقدمات العاطلة في نفسه وتوهّم منها النتيجة، وامتنع عن السجود حين أمره الله تعالى وما اكتفى بمجرد الامتناع وكان أستر له بل فضح نفسه عند العلماء بإظهار استدلاله، وجمع بين الجهل وسوء الأدب لخفته وطيشه.

وقال تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢].

وهذه أول معارضة ظهرت من ؛ ابس في صنعة الجدال، فإنه جادل ربه وما أحسن في جداله؛ لأنه ما =

قوله ﷻ: ﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الآية:١٧].

: أي على نعمة الوجود وما يتفرع عليها، والأكثر بحسب الكمية، فإن أهل النار تسعمائة وتسعة وتسعون من كل ألف؛ وهم الكفار من الإنس والجن كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ [الأعراف:١٧٩] لكن ترك الشكر قد يكون بترك الإيمان؛ وهو حال الكفار، وقد يكون بترك الطاعة؛ وهو حال الفجَّار، وقد يكون بترك العزيمة؛ وهو حال ضعفاء الأبرار.

فـإن المقرَّبين شاكرون الله تعالى على أبلغ وجه حتى أن بعضهم وقع له الحدث يوم موته سبعين مرة؛ فجدَّ الوضوء في كل عسرة حتى مات وهو على الطهارة، فاعتبر لعلَّك تفلح وتفـوز، ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] فقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف:٤٠].

اعلم أن الآيات إمَّا تنـزيلية؛ وهي القرآن، والذين كذَّبوا بها هم كفار

=

أعطي حقه إن الحق تعالى أراد بقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [صٓ:٧٥]: أي يد تنـزيه وتشبيه، وإن شئت قلت يد وجوب وإمكان، أو يد بخلاف سائر العالم مُلكًا وفلكًا.

قال تعالى: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] فهو بمجموع العالم أجزاءه وله شرف الكلية على الأجزاء، وعلى الأجزاء أن يطيعوه ولا يعصوا له أمرًا، فأمر بهذه الحكم البالغة له سجدة إلا طاعة، والانقياد له إظهارًا لشرفه على الخلق المخلق؛ سيَّما الملائكة عليهم السلام؛ لأنه كل الوجود، فما فهم اللعين هذه المقدمات المطوية والأسرار الوجودية، وحمَّل الخطاب على غير محله حسدًا من عنده؛ فجادل وعارض وتطاول، وذلك أنه لما فهم من لحن المخاطبة والقول إثبات الشرف لآدم، وما علم أيُّ شرف يوجب أن يطاع، وينقاد بهذه السجدة، فادَّعى بطريق المعارضة لنفسه الشرف، واستدلَّ بأنه خُلق من نار، وظنَّ أنه أعلى الاستقصات من حيث المكان، و لم يعلم أن الطين أشرف الاستقصات؛ فإن له الثبات والقرار، وللنار الطيش والتهتُّك والاستكبار، وما أعتبر أن التبن في الماء فوق التبر في المكان، فغفل عن المكانة أو استكبر وعاند واستكثر من الحسد، فعوتب. استكبرت وعاندت أم كنت من العالين في الاحتجاج، ولك حجة في قولك ودعواك، فهذا لسان تبكيت وتعريض، وكان الأمر كما قلنا ظهر من آدم التمكين والثبات والتوجُّه في الأمور والأناة، والتدبُّر وإصابة الفكر والنظر في العواقب، وظهر منه قلة الأدب والجهل والتهتُّك والطيش والخفة، فإنه من مارج وهو نار مختلط بالهواء فله الخفة وعدم القرار والاستكبار.

بالشرائع والأحكام.

وإمَّا تكوينية: وهي الآفاق، والأنفس جميعًا، والذين كذَّبوا بها هم كفار الحقائق والحكم؛ كالمنكرين في كل عصر من الأعصار، فإنهم لاحتجابهم عن شهود الحق من شواهد التوحيد، ومشاهد التكوين؛ وقعوا في أهل الله، وكلماتهم المتعلّقة بحقائق الآيات مطلقًا، فمَن جادلهم في ذلك؛ فقد جادل الحق في آياته، ودخل في المكذّبين بها.

وقال ﷻ: ﴿وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا﴾ [الأعراف:٤٠]: أي عن تلك الآيات: أي بالإباء وعدم القبول، والتصديق لأهلها، فإن أدنى الأمر في ذلك التحلّي بحلية التصديق، وإلا خيف عليه من سوء الخاتمة.

وأهل سوء الخاتمة لا يدخل الجنة، ولا يفيض الله عليهم من مائها؛ ولذا قال تعالى: ﴿لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء﴾ [الأعراف:٤٠]: أي بركات الفيض، فإن الوحي إنما ينـــزل من صوب السماء، وإن كان سرّه يبدو من القلب في الحقيقة؛ إذ هو اللوح الحقيقي، فلا شيء للقلب من الخارج في الحقيقة، وإنما ينـــزل ما ينـــزل من جانب السماء الجهة التشريف، فإن المقامات مختلفة في العُلو، والسفل، والكلّي مراء لتجلّي الصور بحسب موطنها وتعيُّنها.

قال تعالى: ﴿وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف:٤٠]: أي جنة القلب، قدَّم الفتح على الدخول؛ لأنه طريقه، وقد قال تعالى: ﴿وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة:١٨٩]؛ فالقلب الخالي عن الفيض؛ لا يكون جنة؛ ولذا رُجِّحت الجنان الأرضية على غيرها؛ لاشتمالها على الأنهار الجارية.

ولا شك أن الله تعالى جعل من الماء كل شيء حي، فما لا ماء فيه من البلاد؛ فهو كالميت، فكذا ما لا فيض فيه من القلوب[1].

---

(١)قال الإمام الجنيد: «العارف لون الماء لون إنائه» قبل الاتصاف بحسب الأواني من لا صفة له، وكذلك فيما نحن بصدد بيانه؛ لأن الأصل وحدة العين، فقبل الصفات المتضادة، وهي في الظاهر عين الظاهر، وفي الباطن عين الباطن، وفي الأوَّل والآخر كذلك.

فقبل الأضداد، وهي الحرارة والبرودة، والحلاوة والمرارة، وهو ما واحد، وهذا من مدركات العقل لا كلام فيه.

=

قال ﷻ: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، علّق ذلك بأضيق شيء، ودخوله تعليقًا بالمحال.

ولا شك أن المعلّق مُحال، فالفتح والدخول مُحال، وفي ذلك وعيد شديد لأهل الإنكار والإصرار، والواقعين في الأخيار والأبرار بتكذيب كراماهم العلمية، وآياهم العرفانية.

وفيه إشارة إلى أهم كالجمل في الضخامة حيث إهم يربُّون أجسامهم بالشهوات، وقلوبهم بالإنكار، وأرواحهم بالجمل والحجاب، فكما أن الجهل وهو في تلك الضخامة لا يمكن أن يدخل في سَمَّ الخياط، وهو في تلك الدقة والضيف؛ فكذا كفار الحقائق لا يمكن أن يدخلوا في باب الملكوت؛ لضيقه، ولا أن يسلكوا على صراط المعنى؛ لدقته؛ بل أرواحهم المظلمة تبقى بعد الموت الطبيعي في جو الهواء؛ كأرواح غيرهم من الفجرة؛ بل الفجور المعنوي المتعلّق بالقلب أشدُّ من الفجور الصوري بالقالب، وكم من ساقطٍ من أهل الفجور الأول في غاية الأمر، وقائم من

=

فأراد ﷺ بهذا التمثيل تقريب العقول الضعيفةالقول للإمام الجنيد، فالإناء مثلٌ مضروبٌ منه لعقله، والماء مثلٌ مضروب لمعروفه وهو الله.

وقد اختلف الناس في تأويل هذا الخبر من علماء الرسوم، ثم قال: المعرفة من كسب النفس، فالحق قائم بها فالمعرفة نفسية ربانية جنانية.

وقال: بالباء عرفه العارفون، وبزوالها صحَّ الدوام لهم في المعرفة: أي به عرفوه، ولما غابوا عن معرفتهم بمعروفهم صحَّ لهم دوامها، ولو غفلوا عنه بها ثبت لهم نقيضها.

ثم قال: وقال: المعرفة والسرور لا يجتمعان في أحدٍ في الدنيا أبدًا، والمعرفة والحزن لا يجتمعان في الآخرة في أحدٍ أبدًا ما دام الرجل في هذه الدار، فهو على قدم خطر ولو بلغ ما بلغ؛ لأنها دار المكر والتبديل، وقد ذم الفرح فيها لعدم تحقيق أسبابه من جميع الوجوه فإذا انتقلت إلى دار التمييز والتخليص وترآى الفريقان، وانصبغ من انصبغ في الفضل والرحمة، حينئذٍ يحق الفرح وقد أُوتي العبد هنا الرحمة والفضل، ويمنعه من الفرح بهما شغل القلب بأداء الحقوق هنا، وهناك.

أهل الفجور الثاني في نهاية الحال، وقد رأينا في زماننا كلاً منهم.

فقد اشتهر بعض الناس بالتقوى، والعمل بالشرع، وقد صدر عنهم ما صدر عن أبي جهل ونحوه؛ لكون قلوبهم قلوب الذباب، ورأيناهم بعد الموت في البرزخ، والورطة، وكمال الحجاب، واشتهر بعض الناس بخلاف ذلك، ثم صاروا إلى مقام الرضا؛ لكون قلوبهم خالية عن القصد بالسوء والأذى.

فالطائفة الأولى: لعنهم في الدنيا والآخرة؛ لكونهم ممَن أذى الله ورسوله، وورثة رسوله.

والثانية: رحمهم الله في الدَّارين؛ لكونهم ممَن أحب الله ورسوله، وورثة رسوله.

كما قال تعالى: ﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [المائدة:٥٤]، وقد وصل بعض الناس إلى الله تعالى من طريق المحبة، فإن الوصول طرقًا مختلفة.

قوله تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف:٩٦].

: أي في مقابلة الإيمان؛ لأن الفيض إنما ينــزل من العُلو، والقلب عُلوي كما مرَّ؛ فكان المناسب للعُلوي المتصف بالإيمان العُلوي البركات السماوية العُلوية، فكما أن الأرض إنما تنمو بالماء السماوي؛ فكذا القلب إنما ينمو بالفيض العُلوي، واستند الفتح على نون العظمة؛ لأن الأسباب مهيَّئة لا مؤثِّرة؛ فالفاتح هو الله تعالى من فضله.

قوله تعالى: ﴿**وَالأَرْضِ**﴾ [الأعراف:٩٦]: أي في مقابلة التقوى؛ لأن التقوى من شأنه أن يوجد في الأرض كما سبق.

قال تعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣].

: أي قال الله تعالى لموسى عليه السلام حين طلب الرؤية: لن تراني يا موسى وأنت موسى؛ وإنما تراني إذا كنت محمدًا، ولم تكون محمدًا أبدًا؛ لوجوب اختلاف التعينات بالحكمة؛ فهو: أي محمد ﷺ يراني ببصره وببصيرته؛ لأنه لا حجاب له من كون لا جسمًا ولا روحًا؛ لأن اللطيف لطفه، وجُعل نورا محضًا، كما قال: «**واجعلني نورًا**»[1]، وأنت يا موسى تراني ببصيرتك في الدنيا، وأنا رؤيتك ببصرك، فلا تحصل

(١) تقدم تخريجه.

لك إلا في الآخرة، كما لسائر المؤمنين(١).

---

(١) قال الشيخ الشعراني: اعلم يا أخي رحمك الله أن رؤية الحق سبحانه وتعالى لا يعرف حقيقتها إلا من عرف حقيقة رؤية رسول الله ﷺ، أو غيره من الأموات، وأنه مثالٌ ينتجه الله تعالى من تلك الذات المرئية في عالم الخيال، فيرتسم في النفس بصورة المرئي، فليس مراد الرائي الصادق برؤية رسول الله ﷺ في المنام رؤية حقيقة شخصه ﷺ الموقع في قبره الشريف بالمدينة؛ فإن ذاته الشريفة منـــزَّهةٌ عن كُلفة المجيء والرواح من البرزخ إلى مكان الرائي، وربما رآه ﷺ ألف واحدٍ في ليلة واحدةٍ في ألف موضعٍ، وهو في كل موضعٍ على حالةٍ لا تشبه الأخرى، ومثل ذلك محالٌ في العقل، وإن كانت القدرة الإلهية أوسع من ذلك، وهذا هو معنى حديث:

«مَنْ رآني في المنامِ فَقَدْ رآني حقًّا؛ فإنَّ الشيطانَ لا يتمثّل بي».

فليس معناه أنه رأى روح النبي ﷺ ومظهر ذاته، وإنما معناه أنه رأى مثال روحه المقدَّسة، التي هي محلُّ النبوة.

فإن روح رسول الله ﷺ الباقية بعد موته منـــزهةٌ عن الصورة والشكل؛ فافهم.

بخلاف المثال؛ فإنه لا يكون إلا مشتملاً على الشكل واللون والصورة، وهذا لا بدَّ منه في طريق التعريف، وإلا لم يكن يُعرف.

وكذلك القول في رؤية ذات الله ﷻ ، فإنها منـــزَّهة عن الشكل والصورة، ولكن لا يتعقل عبدٌ معرفتها إلا بواسطة تخيل مثالٍ محسوسٍ في الصورة الجميلة التي تصلح أن يُمثَّل بها ذلك الجمال الحقيقي المعنوي، الذي لا صورة فيه ولا لون ولا شكل، ثم يطلق على ذلك المثال أنه حقٌّ وصدقٌ؛ لكونه واسطةً في التعريف.

ويقول النائم: (رأيت ربِّي في المنام)، وليس مراده أنه رأى ذات ربه حقيقةً، وإنما رأى مثال ذاته المتخيلة في وهمه.

فإن قيل: إن رسول الله ﷺ له مِثلٌ، والله تعالى لا مِثل له.

قلنا: هذا كلام من هو جاهلٌ بالفرق بين المِثْل والمثال.

فإن المثل هو المساوي في جميع الصفات، والمثال لا يشترط فيه المساواة.

وتأمَّل العقل؛ فإنه معنًى لا يماثله غيره، وكثيرًا ما يمثل بالشمس وليس بينهما من المناسبة إلا شيءٌ واحدٌ.

وهو أن المحسوسات تنكشف بنور الشمس كما تنكشف المعقولات بالعقل.

وقد ضرب الله ﷻ المثل لنوره بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ الآية.

=

=

وأيُّ مماثلةٍ بين نوره ونور الزجاج والمشكاة والشجرة والزيت.

وكذلك ضرب الله تعالى المثل للحياة الدنيا بالماء النازل من السماء.

وضرب رسول الله ﷺ المثل للإسلام بالقبة.

وضرب المثل للعمل باللبن، وضرب المثل للقرآن بالحبل.

فأيُّ مناسبةٍ بين هذه الأمور وبين الأشياء المضروب لها الأمثال، ولكن لما كان الحبل مثلا يُتمسَّك به للنجاة والقرآن يُتمسَّك به للنجاة صحَّ التمثيل به.

وقسْ عليه، وكل ذلك من باب المثال لا من باب المثل.

فكما صحَّ ضرب الأمثلة لما ذكر صحَّ ضرب الأمثلة لكل عارفٍ لذات الله التي لا مِثل لها لمناسبةٍ معقولةٍ من صفات الله تعالى.

واعلم أننا لو أردنا أن نعرف مسترشدًا سألنا: كيف يخلق الله الأشياء؟ وكيف يعلمها؟ وكيف يريدها؟ وكيف يتكلم؟ وكيف يقوم الكلام بنفسه؟.

لا نقدر نعرفه معنى ذلك إلا بما عنده من صفات نفسه، ولولا أنه عرف نظير هذه الصفات من نفسه لما فهم مثال ذلك في حق الله ﷻ.

قلت: إن المثال جائزٌ، والمثل باطلٌ؛ وذلك لأن المثال هو ما يوضِّح الشيء، والمثل ما يشابه الشيء من جميع الوجوه، وليس شيءٌ في الوجود يُماثل الحق تعالى.

فالمثال هو المرئي في الدنيا والآخرة، كما سيأتي بسطه في الفصول الآتية إن شاء الله تعالى؛ لأنه لا يصحُّ لعبدٍ أن يرى الذات المقدسة؛ لأنها تنفي بذاتها أن يكون في حضرتها سواها.

وهذا المثال هو المراد بقوله ﷺ: «**رأيتُ ربِّي في أحسنِ صورةٍ**» .

وفي روايةٍ: «**في صورةِ شابٍّ**».

وهو المراد أيضًا بقوله ﷺ: «**خَلَقَ اللهُ آدمَ عَلَى صورتِهِ**».

وفي روايةٍ صححها ابن النجار وأيَّدها الكشف: «**على صورةِ الرحمن**».

فإنه لا يصحُّ أن يكون المراد بذلك صورة الذات؛ لأن الذات المقدَّسة لا صورة لها إلا من حيث التجلي بالمثال، كما يشهد لذلك خبر مسلم في التجلي يوم القيامة.

وكما تجلى جبريل لرسول الله ﷺ في صورة دحية الكلبي.

ومعلومٌ أن تَمثُّل جبريل في دحية ليس معناه أن ذات جبريل انقلبت صورة دحية، وإنما ظهرت تلك الصورة لرسول الله ﷺ مثالاً مؤدِّيًا عن جبريل ما أوحى به إليه.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾

=

=

[مريم:١٠]، فإذا لم يستحيل ذلك في حق الملك وأن جبريل كان باقٍ على حقيقته وصفته في حال ظهوره في صورة دحية فلا يستحيل ذلك في حق الله تعالى في يقظةٍ ولا منامٍ؛ لاتفاق جميع المحققين أن المرئي مثال الذات لا عين الذات، كما تقدَّم وكما سيأتي.

ومن فهم الفرق بين المثل والمثال لم يقف في مثل ذلك، وقد أشار رسول الله ﷺ بأن الله تعالى مثالاً يقع التجلي فيه حتى يُعرف بقوله: «**إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ على صورته**».

وذلك أنه تعالى لما كان موصوفًا بالوجود قائمًا بنفسه حيًّا عالمًا مريدًا قادرًا سميعًا بصيرًا متكلمًا كذلك ولو لم يكن الإنسان موصوفًا بهذه الصفات ما صحَّ له معرفة هذه الصفات في جانب الحق تبارك وتعالى، ولا تعقُّلها.

ولهذا ورد في بعض الكتب الإلهية: «**مَنْ عَرَفَ نفسَهُ فَقَدْ عَرفَ ربَّهُ**».

ذلك لأن كل ما لم يجد الإنسان له مثالاً في نفسه يعسر عليه التصديق والإقرار به، ومن شكَّ فيما قررناه فليتعقَّل لنا شيئًا لم يخلقه الله تعالى؛ فإنه لا يقدر قطُّ على ذلك، وهذا يصلح دليلاً لمن منع رؤية ذات الله تعالى لولا ما ورد.

ثم اعلم أن الفرق بين الحق تعالى والإنسان أن الحق تعالى يتقلَّب في الأحوال، والإنسان تتقلَّب عليه الأحوال؛ إذ يستحيل أن يكون للحال على الحق تعالى حكمٌ.

قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

فوقعت المشاركة في الأحوال كما وقعت في الأسماء، فافهم هذا الفرق؛ فإنه من أوضح الفروق وأجلاها، فَعُلِمَ أنه ليس المراد بالصورة المخلوق عليها آدم أنها ذات سبع فقط؛ لأن الحيوان كذلك له ذاتٌ، وهو حيٌّ عالمٌ مريدٌ قادرٌ متكلمٌ سميعٌ بصيرٌ، ولو كان المراد ذلك لكان يبطل وجه الخصوصية للإنسان، فإن هذه الصفة إنما جاءت له على جهة التشريف له.

فإن قيل: فما هذا التغيير الواقع للإنسان في نفسه وصورة الحق تعالى لا تقبل التغيير؟

قلنا: الله تعالى يقول: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن:٣١].

ورسول الله ﷺ يقول: «**فَرِغَ ربُّك مِنْ ثلاث**».

وفي حديث التجلي الأُخروي يتجلى لهم الربُّ في أدنى صورةٍ، ثم يتحوَّل عند إنكارهم إلى الصورة التي عرفوه فيها بالعلامة.

فهو تعالى هو الذي أضاف إلى نفسه هذا المقام، وهو عريٌّ عن مقام التغيير بذاته والتبديل، ولكن التجلي في المظاهر الإلهية على قدر العقائد التي تحدث للمخلوقات مع الأنات، وإذا كان الأمر على ما ذكرنا وكذلك هو ارتفع الاعتراض الوهميُّ، تعالى الله عن ذلك.

=

=

وقد قررنا غير ما مرة أنه ينبغي للإنسان أن يعلم ميزانه من الحضرة الإلهية، فإن الجود الإلهي قد أدخله في الميزان، فيوازن العبد بصورته حضرة موجده ذاتًا وصفةً وفعلاً، ثم لا يلزم من الوزن الاشتراك في حقيقة الموزونين.

فإن الذي يوزن به الذهب أو المسك هو صبخة حديد، فليس يشبه في ذاته ولا صفته ولا عدده، فلا يوزن بالصورة الإنسانية إلا ما تطلبه الصورة الإنسانية بجميع ما تحتوي عليه بالأسماء الإلهية التي توجهت على إيجاده، وأظهرت آثارها فيه.

وكما لم تكن صَبخة الحديد تُوازن الذهب في حدٍّ ولا في حقيقةٍ ولا صورةٍ ولا عينٍ كذلك العبد وإن خلقه الله تعالى على صورته فلا يجتمع معه في حدٍّ ولا حقيقةٍ؛ إذ لا حدَّ لذاته تعالى، والإنسان محدودٌ بحدٍّ ذاتيٍّ، لا رسميٍّ، ولا لفظيٍّ.

فالإنسان أكمل المخلوقات وأجمعها من حيث نشأته ومرتبته.

فإذا وقفت يا أخي على هذا الميزان زال عنك ما تتوهمه في الصورة من المشاركة للحق في الحقيقة؛ فإن الله تعالى هو الخالق، وأنت العبد المخلوق، وكيف للصنعة أن تعلم صانعها! إنما تطلب الصنعة من الصانع صورة علمه بها لا صورة ذاته، وأنت صنعة خالقك، فصورتك مطابقةٌ لصورة علمه بك، هكذا كل مخلوقٍ ولو لم يكن الأمر كذلك وكان يجمعكما حدٌّ واحدٌ وحقيقةٌ واحدةٌ كما يجمع زيدًا وعَمْرًا لكنتَ أنت إلهًا، والأمر كذلك على خلاف ذلك.

فاعلم بأيِّ ميزانٍ تزن نفسك، فإنك صبخة حديدٍ يوزن بها ما لا ثمن له، وإن اجتمعت مع الموزون في المقدار فما اجتمعت معه في القدر ولا في الذات.

تعالى الله عن ذلك، وإنما قال فيما تقدَّم: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّه»، ولم يقل: (فقد عرف ذات ربه)؛ لأن الذات لها الغنى على الإطلاق، وأنّى للمقيَّد معرفة المطلق الذي هو الله، بخلاف الاسم الرب؟! فإنه يطلب المربوب بلا شكٍّ، ففيه رائحة التقييد.

ولذلك أمر الله تعالى العبد أن يعلم: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الأنعام:١٩]؛ لأن الإله يطلب المألوه، بخلاف اسم الذات الخصيص، فإنه غنيٌّ عن الإضافة.

وهنا أمرٌ ينبغي التفطُّن له، وهو أن معرفتنا بالربِّ لا تكون إلا فرعًا عن معرفتنا بالنفس؛ إذ هي الدليل.

وإن كان وجود الربِّ هو الأصل ففي مرتبةٍ يتقدَّم فيكون له الاسم الأول، وفي مرتبةٍ يتأخر، فيكون له الاسم الآخر، فيحكم له بالأصل من نسبةٍ خاصَّةٍ، ويحكم له بالفرع من نسبةٍ أخرى، كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢] هذا يعطيه النظر العقلي.

=

=

وأما الذي تعطيه المعرفة الذوقية فهو تعالى ظاهرٌ من حيث ما هو باطنٌ، وباطنٌ من حيث ما هو ظاهرٌ، وأوَّل من عيَّن ما هو آخرٌ، وآخر من عيَّن ما هو أولٌ، وإزار من نفس ما هو رداءٌ، ورداءٌ من نفس ما هو إزارٌ، ولا يتَّصف بنسبتين مختلفتين أبدًا كما يقرره ويعقله العقل، من حيث ما هو ذو فكرٍ.

فافهم تعلم أنه لا يكلف الإنسان بمعرفة أخصِّ وصف لله تعالى؛ لأنه ليس لذلك الوصف الأخص في المبتدعات والمخلوقات مثالٌ، وكل ما لا مثال له فلا علم للإنسان به ولا اسم له عنده ولا علامة.

ومن هنا قال من قال: (لا يعرف الله إلا الله)، أعني أخصَّ وصفه وكُنْهَ معرفته، كما سيأتي بسط ذلك في الميزان إن شاء الله تعالى.

وعلم أيضًا أن مشاركتنا للحق في مطلق الصفات لا تشبيه فيه؛ لأن شرط التشبيه إثبات المشاركة في الوصف الأخصِّ، وهذا لا يصحُّ.

كما أن من قال: (إن السواد عرضٌ موجودٌ، وهو لونٌ، والبياض عرضٌ موجودٌ وهو لونٌ) لا يكون مشبِّهًا السواد بالبياض، فتأمَّل ذلك؛ فإنه نفيسٌ.

ورؤية الحق تبارك بعين البصر في هذا الدار ممنوعةٌ لغير سيِّدنا محمدٍ ﷺ، وما بقي لغيره إلا الشهود بالقلب دون الرؤية بالعين، ومن لازم ذلك الحجاب.

وإن تفاوت فيه الناس، ويسمَّى حجاب العظمة ، الذي لا يرفع عن وجه الذات أبد الآبدين ودهر الداهرين.

كما أشار إليه: «**وليسَ بين العبادِ وبين أن يَرَوا ربَّهم إلا رداءُ الكبرياء على وجهِهِ في جنَّة عَدْنٍ**».

فجميع التجليات الواقعة للعباد في الدنيا والآخرة لا تخرج أبدًا عن رتبة التقييد؛ إذ التجلي الذاتي في غير مظهرٍ ممنوعٌ بين أهل الحقائق، كما سيأتي بسطه في الميزان.

وأنشدوا:

لَــمْ يــبدُ مِــنْ شمسِ الوجودِ ونورِها ... عَلَــى عَــالمِ الأرواحِ شيءٌ سِوَى القرصِ

ولــيسَ تــنالُ الــذَّاتُ فِي غيرِ مظهرٍ ... ولــو هَلَــكَ الإنســانُ مِنْ شدَّةِ الحرصِ

وإيضاح ذلك: هو أن رؤية الباري جلَّ وعلا من أكبر النعيم، والحجاب عنه من أكبر الجحيم، ولا يصحُّ لنا نعيمٌ قطُّ ولا عذابٌ في غير مظهرٍ؛ لأن غير المظهر كحالة الفناء لا لذة فيه ولا ألم، فإذا وقع التجلي في المظاهر وقعت اللذات والآلام، وسرت في العالم، فلا حكم للنعيم والعذاب (في) البسيط في الوجود أبدًا، وإنما يوجد في المركب.

ومن هنا كان أبو يزيد البسطامي رحمه الله يقول: أهل أحدية الذات لا نعيم عندهم، ولا عذاب.

=

=

وكان يقول: ضحكت زمانًا، وبكيت زمانًا، وأنا اليوم لا أضحك، ولا أبكي.

ثم اعلم أن التجلي الإلهي لا يكون إلا للاسم (الرب) وللاسم (الإله)، فلا يكون للاسم (الله) ولا للاسم (الأحد) أبدًا.

ولذلك قال السامري: (هذا إلهكم وإله موسى)، ولم يقل: (هذا الله الذي يدعو إليه موسى)، فإن كل مشارٍ إليه ذو جهة، والله والأحد لا جهة لهما، وهما عينان لا يطلبان أحدًا، فمن تعبَّد وتذلل للاسم (الأحد) فقد تعبَّد نفسه في غير[معبود]، وطمع في غير مطمعٍ، وعلم في غير معملٍ؛ لأن الأحدية لا تقبله، ولا يصحُّ له معرفتها؛ لمنافاتها وجود العابد، بخلاف الربِّ؛ فإنه أوجد العبد، فهو يتعبَّد له ويتذلَّل.

وكذلك الإله يطلب مألوهًا، كما سيأتي إيضاحه في فصل ارتباط العالم بالحق من بعض الوجوه.

ثم لا يخفى أن التجلي في المظاهر الإلهية لا يكون أبدًا إلا بصورة استعداد العبد، وغير ذلك لا يكون، كما أشار إليه قوله ﷺ: **«المؤمنُ مرآةُ المؤمنِ»**، الذي هو[الحق] **(مرآة المؤمن)** الذي هو[الخلق]، فافهم.

فإذن العبد ما رأى في المرآة [الإلهية] إلا صورة نفسه، وما رأى الحق ولا يمكن أن يراه مع علمه أنه ما رأى صورته إلا فيه، كالمرآة في الشاهد إذا رأيت المنطبع فيها لا تراها إلا مع علمك أنك ما رأيت الصور أو صورتك إلا فيها، فأبرز الله تعالى ذلك مثلاً نصَّبه لتجليه المظهري؛ ليعلم المتجلَّى له من الخلق أنه ما رآه.

وأنشدوا:

جميلٌ ولا يُهوى جَليٌّ ولا يُرى ... وتشهدُهُ الألبابُ من حيثُ لا تدرِي

وما ثَمَّ محبوبٌ سواه وإنما ... وإنَّما سلمى وليلى والربائب للسترِ

وما ثمَّ مثالٌ أقرب ولا أشبه بالرؤية من هذا الذي ذكرناه.

واجهدْ في نفسك عندما ترى الصورة في المرآة أن ترى جرم المرآة، لا تراه أبدًا ألبتة.

ولكن إن قلت: إن المنطبع في المرآة صورتك صدقت؛ لأنها نشأت من مقابلتك، وإن قلت: إنها غير صورتك صدقت؛ لأن صورتك لم تنتقل، فافهم هذا؛ فإنه من أعظم ما قدرنا عليه في العلم.

ومن ذاقه فقد ذاق الغاية التي ليس فوقها غايةٌ في حقِّ المخلوق بالنظر للمرئي لا للرائي، فإن الناس متفاوتون في كثافة الحجب وصقالة المرائي، فلا تطمع يا أخي ولا تتعب نفسك في أن ترقى إلى أعلى من هذا المرقى، فما هو ثَمَّ أصلا، وما بعده إلا العدم المحض، فهو تعالى [مرآتك] في رؤيتك نفسك، وأنت [مرآته] في رؤيته أسمائه، ثم لا يخفى أن من المحال أن يكون لعبدٍ [الرب] كله.

=

=

كما أن من المحال أن يكون لعبدِ القرآن كله، فلكل مخلوقٍ [ربٌّ]؛ فافهم.

وذلك هو الجزء والمدبر فيه لا غير، ولو اجتهدت أن تأخذ لنفسك من المرآة فوق ما يخصُّ صورتك لم تقدر؛ وذلك لأن الله تعالى واسعٌ عليمٌ، وتأمَّل المرآة إذا كانت كرةً وقُوبلت بالعالم العلوي والسفلي وسعته، وارتسم كله فيها، فلذلك قررنا غير ما مرة أن الحق تعالى قد تعرَّف إلى كل مخلوقٍ بوجهٍ لا يشاركه فيه غيره، فما أحاط به أحدٌ من كل وجهٍ، ولا جهله أحدٌ من كل وجهٍ.

حتى المعطل فإنه لا بدَّ أن يستند في وهمه إلى موجدٍ يلجأ إليه في الشدائد.

وغاية تعطيله أنه نفى صفةً أثبتها غيره لا غير؛ لقصورِ مطمح بصره وضعفه، فلم يحط بصفات الحق كلها، فما ثَمَّ لنا من يعتقد تعطيلاً على الإطلاق أبدًا.

فوجوه المعارف على عدد الخلق، والسلام.

وجميع من تكلَّم في العقائد إنما تكلَّم في عقيدة نفسه الناشئة من التجليات، لا يتعداها أبدًا، ولا يصحُّ له أن يوصل حقيقتها إلى غيره.

فعُلِمَ مما قررناه أن الحق تعالى لم يزل مجهولاً من حيث الوجوه التي لم يقع للخلق التجلي فيها أبد الآبدين ودهر الداهرين، ومن يراه منَّا في الآخرة لا يرى عين ذاته الحقيقي.

وإنما هو كشفٌ صحيحٌ خياليٌّ مثاليٌّ، صرحت به الأخبار الصحيحة، وإلا فجلَّت ذات الله أن يُحاط بها.

وكان شيخنا الشيخ عليٌّ الخوَّاص ﵁ يقول كثيرًا: ما عرف الحق تعالى أحدٌ من حيث ما يعرف الحق تعالى نفسه أبدًا؛ لأن الأرواح المدبرة إنما ظهرت بصورة مزاج القوابل، فلا تتعدى في التدبير ما تقتضيه الهياكل، ولا يمكن أن يظهر الحق تعالى فيها إلا بصورة ما تقبله، وما هي على صورة الحق في الحقيقة، وإنما المدبر على صورة المدبر؛ إذ لا يظهر فيه منه إلا على قدر قبوله لا غير، «خلق الله آدم على صورته».

فلا يعلم من الحق ولا يرى منه إلا ما هو عليه الخلق، فمن اعتمد على العالم من هذا الوجه فقد اعتمد على أمرٍ محققٍ لا يتغير دنيا ولا أخرى، فليس الحق إلا ما هو عليه الخلق من العلم به، وهو تعالى في نفسه على ما علم، وله في نفسه ما لا يصحُّ أن يُعلم أصلاً، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

فالقدر الذي حصل تدبيره فيك هو [ربك الذي عبدته]، ولا تعرف إلا هو، وهو العلامة التي يعرف الحق تعالى بها في الآخرة، وهي في الدنيا في العموم على الغيب، وفي الآخرة على الكشف، فالعامة في الدنيا يعلمونها من أنفسهم، ولا يعلمون أنها المعلومة لهم.

=

=

ويقول فيها أحدهم: (ما عوَّدني الله إلا كذا وكذا)، وهذا العلم الذي نبَّهتك عليه من العلم بالله ما أظهرته باختياري، ولكن حكم الجبر حكم به عليَّ، فتحفَّظ به، ولا تغفل عنه؛ فإنه يعلِّمك الأدب مع الله تعالى.

وإذا فهمت هذا علمت أن الحق تعالى إنما هو معك بحسب ما أنت عليه وما أنت معه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤].

ولم يقل قط: (وأنتم معه)؛ إذ لا يصحُّ أن يكون أحدٌ مع الله، فالله مع كل أحدٍ بما هو عليه ذلك الواحد، ولا يصحُّ التجريد عن التدبير أبدًا؛ لأنه لو صحَّ لبطلت الربوبية، وهي لا تبطل؛ فالتجريد محالٌ، فلا تعقل إلهك إلا مدبِّرًا فيك، ولا تعرفه إلا من نفسك، فنفسك عرفت، والسلام.

وقد قال أبو بكر الشبليُّﷺ: إني لا أشتهي رؤية الله تعالى. فقيل له: لِمَ؟ فقال: **أُنزِّهه** عن رؤية مثلي. فقال له بعض العارفين ﷺ: نفس شهودك أنك أنت الناظر أقبح من عدم تنـــزيهك، ويا ليت شعري! أيُّ نظرٍ لك من ذاتك حتى تنظر به، وهل ينظره تعالى إلا هو!.

وذكر الشيخ الشعراني بعض الهواتف الربانية:

(جهلني عبادي فلم يعرفوني، وكيف يدَّعون معرفتي وأنا لا جسم ولا معنى؟! ولو عرفوني في الدنيا ما أنكروني حين أتجلى لهم في القيامة، فهم لعلامتهم عابدون لا لي، ولعين ما أنكروه مقرُّون، فمن قال منهم أنه عبدني فقد كذب) انتهى.

ولا يخفى أن ذلك في حق الضعفاء من المؤمنين، أما العارفون فلا ينكرون الحق تعالى في تجلٍّ من تجلياته؛ لاطلاعهم في دار الدنيا على المرآة الكبرى الجامعة لسائر الصور، المتفرع منها كل معرفةٍ في العالم، فهم يوم القيامة واقفون لا يتكلَّمون، ولا يستعيذون منه كما استعاذ غيرهم، حتى تنقضي جميع التجليات.

وقد علموا من الله تعالى أنه لا يريد منهم أن يعرِّفوه لأحدٍ من المنكرين في ذلك اليوم العظيم؛ ليجنوا كلهم ثمرة اعتقادهم في دار الدنيا.

وأما قوله ﷺ: «**إنَّكم ستَرَون ربَّكم كما تَرَوْنَ القمرَ ليلةَ البدرِ**».

وفي رواية: «**كَمَا تَرَونَ الشمسَ فِي الظهيرةِ لَيْسَ دُونَهَا سحَابٌ**».

اعلم أن النور الذي يتجلى الحق تعالى فيه في الآخرة إنما هو نورٌ لا شعاع له، فلا يتعدى ضوؤه نفسه، ويدركه البصر في غاية التجلي والوضوح.

فمعنى قوله: «**كما ترون القمر ليلة البدر**»: يعني إذا كُشِفَ ليلة بدره؛ لأن عند ذلك يدرك البصر المثال المشبَّه بالقمر إدراكًا محققًا.

=

=

ويؤيده قوله ﷺ لما قيل له: كيف رأيت ربَّك يا رسول الله؟ قال:

«**نورٌ أنّي أراه**»، فما رأى ذلك النور، وهو نورٌ شعشعانيٌّ، والأشعة تذهب بالأبصار، وتمنع من إدراك من تنشقُّ عنه عند تلك الأشعة.

واعلم يا أخي أنه لم يبلغنا أن أحدًا رأى ربَّ العزة بعين رأسه في الدنيا غير رسول الله ﷺ وأما رؤيته تعالى في المنام فوقعت لكثيرٍ من الأمة ولرسول الله ﷺ.

فروى الطبراني وصححه عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رأيتُ ربِّي ﷻ اللَّيلة فِي صورةِ شابٍّ له وفرةٌ، وفِي رجليه نعلان من ذهبٍ، وعلى وجهه فراشٌ من ذهبٍ، وعلى رأسه تاجٌ يلتمع البصر**» انتهى.

وقد استنكر بعض العلماء هذا الحديث، وما كان ينبغي له الاستنكار، وذلك لأن للحق تعالى تجليًا في خزانة الخيال في صورةٍ طبيعيةٍ، بصفاتٍ طبيعيةٍ، فيرى النائم في نومه تجسد المعاني في صور المحسوسات، هذه حقيقة الخيال، فيجسد ما ليس من شأنه أن يكون جسدًا، لا تعطي حضرته إلا ذلك، فحضرة الخيال هي أوسع الحضرات؛ لأن فيها يظهر وجود المحال، فإن الله تعالى لا يقبل الصور، وقد ظهر بالصورة في هذه الحضرة، كما قبلها في تجلّيه يوم القيامة في صور المعتقدات، فقد قَبِلَ محال الوجود الوجود في هذه الحضرة، وفي هذه الحضرة أيضًا يرى الإنسان الجسم الواحد في مكانين في آنٍ واحدٍ، كما رأى رسول الله ﷺ موسى عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء في السماء في حال كونه في الأرض، وقال: «**رأيت موسى**».

وما قال: (رأيت روح موسى)، ولا (جسد موسى)، ونظير ذلك رؤية الإنسان في منامه جسمه في مدينةٍ أخرى، وعلى حالةٍ أخرى، يخالف حاله الذي هو عليه في بيته، وهو عينه لا غيره لمن عرف الوجوٍد على ما هو عليه، ونظير ذلك أيضًا مشاهدة المقتول في المعركة في سبيل الله، وهو في حال رؤيتك عند ربِّه حيٌّ يُرزق ويأكل.

وقد رأيت في واقعة وقعت لي طيرًا أبيض طويل العنق، أقبل، فابتلع الوجود العلوي والسفلي، وابتلعني من جملة العالمٍ، فصرت أراه من خارجه، وأنا في جوفه، وما بقي له قرارٌ ينـــزل إليه ليستقرَّ، ولا سقفٌ يصعد إليه، ثم جاءت بعوضةٌ، فابتلعت ذلك الطائر بما حواه، ثم غابت عن العين.

وهذا نظير رؤية آدم في حديث القبضتين، حين قيل له:

«**يا آدمُ، اخترْ أيَّهما شئت، فقال: اخترتُ يمينَ ربِّي، وكلتا يديه يمينٌ مباركةٌ، فلما بسط الحق تعالى يده فإذا فيها آدم وذريته**» الحديث.

فآدم في هذه القصة في القبضة، وهو عينه خارجٌ عنها، فانسخ يا أخي حكم عقلك، حتى تجمع بين الضدين، وتصدق رسولك ﷺ فيما أخبرك به مما أحاله عقلك؛ لأنك لا تتعقل شيئًا قط من ذلك، وميزان العقل موجودٌ معك، ولولا أن حضرة الخيال تقبل المحال ما قدر العقلاء على فرض المحال؛ لأن العاقل لولا صوَّره في نفسه ما قدر على فرضه، وإنما صحَّ لنا رؤية الحق تعالى في المنام مع

=

ولذا قال: «**وأنا أول المؤمنين**»[1]: أي بوقوع الرؤية في الآخرة لا في الدنيا، وبالبصيرة لا بالبصر.

فإن البصر قيد؛ والقيد لا يزول، لقوة العناصر والأركان، وأنا محمد ﷺ، فبصره ليس بقيد له؛ ولذا كان يرى من جميع الجهات، وهو في الصلاة؛ للمجازاة

=

الضدين، وتصدق رسولك ﷺ فيما أخبرك به مما أحاله عقلك؛ لأنك لا تتعقل شيئًا قطُّ من ذلك، وميزان العقل موجودٌ معك، ولولا أن حضرة الخيال تقبل المحال ما قدر العقلاء على فرض المحال؛ لأن العاقل لولا صوَّره في نفسه ما قدر على فرضه، وإنما صحَّ لنا رؤية الحق تعالى في المنام مع حديث: «**إنَّكم لَنْ تروا ربَّكم حَتَّى تموتوا**».

لأن النوم أخو الموت، فلما كان الموت يطلق على النوم بضربٍ من التشبيه قلنا بصحة رؤية الحق تعالى فيه، وكذلك لما تجلى الحق تعالى للجبل خرَّ موسى صعقًا، وصار الجبل دكًّا، فما أطاق موسى الكلام حتى صُعق، وتحلل التركيب منه.

وكان الدكُّ للجبل بمنـــزلة الموت له، حتى أطاق سماع الخطاب؛ إذ السماع[2] لمن لا مثل له كالرؤية لمن لا مثل له سواء. فهذا هو السبب المجوِّز لرؤية الحق تعالى في الحياة الدنيا في المنام.

وكان أبو يزيد ﷺ **يقول**: الحقيقة تأبى أن يكلم الحق تعالى غير نفسه، أو يسمعه غير نفسه؛ فإنه تعالى إذا أراد أن يكلِّم عبدًا لا بدَّ أن يحبَّه، وإذا أحبَّه كان سمعه وجميع قواه، فما سمعه تعالى حقيقةً إلا هو. ومن المحال أن يطيق حادثٌ سماع كلام القدير أو يتعقَّله، ولم يكن الحق تعالى لسانه عند النحوي، ولذلك كان ﷺ مع كماله يغيب عن نفسه وإحساسه عند الوحي.

واعلم أن حقيقة النوم أنه برزخٌ بين الموت والحياة، فالنائم لا حيٌّ ولا ميتٌ، فله وجهٌ للموت ووجهٌ للحياة، فهو أخو الموت من وجهٍ واحد، لا من الوجهين.

قال الله تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا** ﴾ [النبأ:٩]: يعني راحةً لكم، ولتألفوا حالكم في البرزخ بعد الموت، فإن حالكم فيه كالنوم في الصورة.

قال شيخنا ﷺ: ومحل النوم ما تحت الكواكب، ومقعر فلك القمر خاصَّةً، فالملك لا رؤيا له؛ لأن نشأته غير عنصريةٍ، هذا حكم الدنيا، وأما في الآخرة فمكان الرؤيا ما تحت مقعر فلك الكواكب الثابتة، ولذلك كان أهل النار ينامون في بعض الأوقات، نسأل الله العافية.

(١) رواه البخاري (١٧٠٠/٤)، والحاكم في المستدرك (٦٣٠/٢).

الإلهية، والله تعالى وجه كل لا قفا فيه، فكذا محمد؛ لأنه مظهره التام، ومجلاه الكامل؛ وهو القمر ليلة البدر إن عُكس إليه نور الشمس الذات؛ فامتلأ به.

وأمَّا النجوم؛ فقد أخذت أنوارها من القمر بقدر استعداداتها وصفائها في جرمها، ودلَّ على هذا الكمال قوله ﷺ يوم القيامة: «أُمتي أُمتي»[1]؛ لأنه لا حجاب له أصلاً، وأمَّا غيره فيقولون: نفسي نفسي.

ولمَّا كان كمال المتبوع ساريًا في التابع؛ كان أكامل الأمة أيضًا كذلك؛ لأنهم أيضًا أهل التجلِّي الذاتي، ولا يلزم منه فضلهم على الأنبياء؛ لأن مرتبة النبوة أعلى من مرتبة الأولياء والحال لا تُوصف، ولسان الشرع لا يدور إلا بهذه القدر، ولا يجري إلا على مقتضى استعداد أهل العصر.

فظهر أن الله تعالى مشهود أبدًا؛ لكن من مرآة رداء الكبرياء الذي هو وجود العبد، وبعد شهوه، فالمشاهدون على تفاوت الدرجات في ذلك حسب تفاوت درجات البصر في الظاهر، فشهود بعضهم أقوى من شهود البعض؛ لكونه بالبصر وبالبصيرة جميعًا، كما لحضرة النبوة.

ولمَّا كان كل من الحجاب والكشف يُورِّث الحيرة؛ كان المحجوب في حيرة؛ هي حيرة ممدوحة؛ لكونها حيرة تلوين بعد الكشف والتمكين، فبين الحيرتين تفاوت عظيم، كما بين التلوينين.

ومنه يُعلم سرُّ قوله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:١٩٨].

حيث عبَّر عن شهوده ﷺ بالرؤية؛ فإنه أهل الرؤية سواء نظر إلى الأحباب، أو إلى الأعداء، وأمَّا هم؛ فهم أهل النظر الحسِّي لا من أهل الإبصار الحقيقي، ولو كانوا من أهل الإبصار الحقيقي؛ لِما جعلهم الله في حكم العمي؛ فهم رأوا محمدًا بصورته لا بمعناهو ويقرأ في الحيرة المذمومة حيث استبعدوا النبوة في البشر والحق في صورة

(١) تقدم تخريجه.

بني آدم، وقد قال: «**إن الله خلق آدم؛ فتجلّى فيه**»(١): أي بذاته وأسمائه وصفاته.

والمراد منه: آدم الحقيقي الذي هو محمد ﷺ، فإن الغاية القُصوى من الكون من إيجاد أبو البشر داخل في محمد لا بالعكس، فإن الله لمّا كان النور المحمّدي من نوره؛ جعل نور أبي البشر في نوره، فما ظهر إلا بنور محمد كما أن محمدًا ما ظهر إلا بصورة أبي البشر، فكان روح آدم تابعًا لروحه، وجسمه متبوعًا لجسمه، ولمّا كان الشرف الحقيقي، والكمال الإنساني للروح في الحقيقة؛ ما نقص متابعة محمد لجم آدم من كماله شيئًا.

ومنه: قال: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم**»: أي إلى ظواهركم؛ «**وإنما ينظر إلى قلوبكم ونياتكم**»(٢): أي إلى بواطنكم، فانظر واشهد لعلّ الله يعطيك رؤيته بالمنّة لا بالجهل.

قال الله سبحانه في أواخر سورة الأعراف: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**﴾ [الأعراف:١٧٦].

معنى هذه الشرطية أن إخلاده إلى الأرض كان سببًا لعدم مشيئة الله رفعه، فلو لم يكن الإخلاد الاختياري؛ لشاءه، فلو شاءه مع الإخلاد؛ لكان ذلك من قبيل الجبر، والله تعالى لا يجبر أحد على ما لا يقتضيه استعداده؛ ولكنه يُجبر على حكم قابليته، ومن ذلك الاسم الجبّار.

وعلى هذا نحو قوله: ﴿**وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة:٢٦٤]: أي لأنه لو هداهم مع اختيارهم الكفر؛ لكان جبّارًا بما لا يقتضيه عالم العلم، والحكمة، فإن قلت: قوله تعالى: ﴿**وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ [الإنسان:٣٠]؛ يدلُّ إن مشيئتهم تابعة لمشيئته تعالى؛ فيكون جبرًا، قلت: هذا راجع إلى ما هم عليه في عالم العلم، فإن الله تعالى إنما شاء في العين الخارجي ما شاء لكون ذلك مما يقتضيه حال المعلوم في العلم؛ فهو عليم حكيم؛ يعني: إن حكمته تابعة لعلمه.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه مسلم (١٩٨٧/٤)، وابن ماجه (١٣٨٨/٢).

وحاصله: إنهم ما يشاءون في العين إلا أن يشاء الله في العلم، وما شاء الله في العلم إلا ما شاءه المعلوم، فارتفع الجبر، وجاء إلزام الحُجة؛ لأن الله تعالى خلاّق جوّاد فما يعطي إلا ما شاء له ألسنة الحقائق والماهيات؛ فهو مجيب لسؤال كل سائل، فليس للسائل إنكار سؤاله، وإن المعطي له ليس عين السؤال.

ألا ترى أن مَن أمر غيره بأن يخرج له من كيسه دينارًا فلسًا؛ فليس له أن يعارضه في ذلك بأن يقول له: قد أمرتك بإخراج الدينار لا بإخراج الفلس، فإن للمأمور إن ما وجدت في الكيس إلا الفلس؛ فهو عين ما طلبت في الحقيقة في صورة طلب الدينار؛ إذ الإخراج والإعطاء إنما هو من الموجود لا من المفقود.

ولله الحُجة البالغة، فأين تذهبون؟ والكل على صراط مستقيم لا يخطئه، ولا ينحرف عنه؛ لأن الله أخذ بناصيته، فطوبى لَمن سلك على طريق الهدى، وويلٌ لَمن سلك على طريق الهوى؛ ولذا ذمَّ الله مَن اتَّبع هواه في هذا الموضع، وفي غيره إذا لم يقبل الهدى، وكان أمره فرطًا، فأنَّى يفلح الإنسان إذا لم يقبل الإرشاد، وكيف يقبل الإرشاد، وقد طُبِّع على الضلال، ولم يطبع عليه إلا بأمر غير مجعول، فليلم نفسه، أو ليسكت غريقًا في بحر الحيرة.

فهذا عالم القضاء والقدر، ولا يبحث عنه فوق ذلك، وسرُّه ظاهر؛ وهو الأحوال الواقعة في العالم خيرًا وشرًا، والكل مُيسر لما خلق له، إمَّا ابتداء، وإمَّا انتهاء، فإنه الاعتداد بالسعادة العارضة، ولا بالشقاوة العارضة.

ودعوة الأنبياء من جملة القضاء، فلا تُترك؛ لعدم إيمان المدعو، وبهذا وقعوا في الحيرة، وأشار بالرفع إلى أن مَن قبل الآيات؛ فكأنما رُفع إلى السماء، ومَن ردَّها؛ فكأنما وُضع في سجِّين، فكلٌّ رُفع ووُضع، فهو إنما يكون في الدنيا معنى، وفي الآخرة صورة، فترى أهل الملكوت السماوية في علّيين، وأهل الشهوات الأرضية في سجِّين.

فمَن كان من أهل الأرض؛ فليجتهد في الارتفاع إلى السماء؛ فإن السماء محلُ التنـــزُّه والإطلاق، كما أن الأرض محلُّ الانقباض والانحباس؛ فإنها سجن، كما ورد:

«**إن الدنيا سجن المؤمن**»[(١)]، نسأل الله تعالى أن يخلِّصنا من هذا السجن بالسير في الملكوت، ثم يرفع منــزلتنا إلى عالم الجبروت واللاهوت.

قال الله سبحانه في سورة الأعراف: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ**﴾ [الأعراف: ٩٦].

: أي بالله الذي على العرش رحمانيته، وبملائكته الذين أُسكنوا في ملكوت سماواته، وبالرسل الذين أجسامهم في الأرض، وعقولهم، وقلوبهم، وأرواحهم في علّيين، وبالكتب التي أُنزلت في خزائن العرش من المحلّ المكين الأمين؛ وهو: أي الإيمان أصل السعادات، ويُحرَّم دخول الجنات العالية إلا به، ومحلُّ القلب العُلوي الذي كان تعيُّنه في عالم الأرواح؛ وهو فوق العرش عند أهل الحقائق خلافًا للحكماء؛ فإنهم ذهبوا إلى أن فوق العرش لا خلاء، ولا ملأ إلا أن يُقال: إنهم أرادوا بذلك سلب التحيُّز وهو كذلك، فإن الأرواح ليست بمتحيِّزة؛ لتجرُّد جواهرها بخلاف الأجسام؛ ولذا جعل العرش محيطًا بالعالم، ومدارًا له فهو الخير كله.

قوله ﷻ: ﴿**واتَّقَوْاْ**﴾ [الأعراف:٩٦]: أي عن الكفر والمعاصي التي لا وجود لها إلا في الأرض السفلية؛ لأن الملائكة في السماء لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

وأمَّا الذين في الأرض، فإنهم وإن كانوا مكلَّفين ببعض التكاليف لكنهم في ذلك تابعون للإنس من حيث مشاركتهم في المكان، فهم في عدم العصيان؛ كالملائكة السماوية.

وأمَّا ما روي عن ابن عباس: من أن طائفة من الملائكة لم يسجدوا لآدم، فأرسل الله إليهم نارًا؛ فأحرقهم، فإنما أراد بالملائكة الجن؛ لأن كلاًّ منهم مستورون عن أعين الناس؛ لكونهم داخلين تحت الاسم اللطيف، وأيضًا إن الملك مَن أُرسل في أمر من الأمور، وأُمر بشيء من الأوامر؛ كالجن، فكل ملك روح وجن، وكذا كل جنِّي روح وملك، وأمَّا كل روح فليس بملك، وهو الذي ليس له جسم أصلاً؛ كالأرواح المهيمة، فهو لا يقتضي الإرسال والأمر؛ لكونه مشغولاً بربه، ومستغفرة في بحر شهوة لا شعور له بالعالم، وبما يتعلَّق به من المصالح.

---

(١) رواه مسلم (٤/٢٢٧٢)، والترمذي (٤/٥٦٢).

سورة الأنفال

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣].

المراد بالتعذيب الأول هو: التعذيب الدنيوي؛ لأن وجود النبي ﷺ أمان للمذنبين، وعبارة الخطاب له ﷺ، وإشارة لاصطفاء أمته؛ فيكون كقوله: «**لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك**»(١)؛ فإن المراد به: لولاك ولولا ما هو شعبة من شعب أنوارك لِما خلقت العالم من العرش، والكرسي وغيرهما(٢).

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (٢/٢١٤).

(٢) قال الشيخ جعفر الكتاني: وفي «شفاء الصدور» لابن سبع قال الله تعالى: «يا محمد وعزتي وجلالي لولاك ما خلقت أرضي ولا سمائي ولا رفعت هذه الخضراء ولا بسطت هذه الغبراء».

وفي خبر قدسي ذكره فيما تقدم «شارح المشارق» وعلي القاري في «شرح الشفا» والقاشاني في «لطائفه» والجيلي في «كمالاته» كما ذكره غيرهم وهو «أن الله تعالى قال لسيدنا محمد ﷺ: لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك» قال بعضهم: والمراد من الأفلاك فيه جميع العالم إطلاقًا للبعض وإرادة الكل، وهذا الخبر وإن طعن فيه بعضهم ونفى عنه الثبوت فالأحاديث قبله تشهد له وتؤيده معناه وبها كلها تعلم صحة قول البوصيري في بردة المديح:

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من ... لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

وقول ابن الفارض:

لولاك يا أحمد المحمود ما طلعت ... شمس ولم تخرج الدنيا من العدم

وقوله أيضاً في تائيته الكبرى على لسان الحضرة النبوية:

ولا تحسبن الأمر عني خارجاً ... فما ساد إلا داخل في عبوديتي

فلولاي لم يوجد وجود ولم يكن ... شهود ولم تعقد عهود بذمتي

فلا حي إلا عن حياتي حياته ... وطوعي مرادي كل نفس مريدة

ولا قائل إلا بلفظي محدث ... ولا ناظر إلا بناظر مقلتي

ولا منصت إلا بسمعي سامع ... ولا باطش إلا بأزلي وشدة

ولا ناطق غيري ولا ناظر ولا ... سميع سواي من جميع الخليقة

=

=

وفي عـــالم التركيـــب في كـــل صورة   ظهــرت بمعــنى عــنه بالحســن زيــنتي

وفي كـــل معـــنى لم تبـــنه فظاهـــري   تصــــورت لا في هيـــئة هيكلـــية

إلى آخر ما قال ﷺ.

قال القاشاني في شرحها: وإنما لم يوجد وجود إلا به لأنه صورة الروح الأعظم وهو رابطة الإيجاد، انتهى.

وقول القطب سيدي علي بن وفا في داليته المشهورة:

روح الوجـــود حـــياة مـــن هو واجد   لـــولاه مـــا تم الوجـــود لمـــن وجـــد

وقول الآخر:

لـــولاك مـــا خلقـــت شمـــس ولا قمر   ولا نجـــــوم ولا لـــــوح ولا قـــــلم

والآخر

لـــولاه مـــا كـــان لا ملـــك ولا ملك   ....

إلى غيرها مما يطول ذكره من كلام المادحين وتعلم أيضاً أن هذا المعنى وارد في السنة في عدة أحاديث، وإن قال بعضهم معترضا على قول القائل:

لـــولاه مـــا كـــان لا ملـــك ولا ملك   ....

مثل هذا يحتاج إلى دليل و لم يرد في الكتاب ولا في السنة ما يدل عليه انتهى.

فإنه قصور عظيم وإن توقف فيه أيضاً جماعة من الشارحين كالشيخ أبي عبد الله محمد الأليورى الأندلسي في «شرحه لبردة المديح» قائلاً ما نصه: وبيت الناظم - يعني السابق — يعطى أن الدنيا خلقت من أجل نبـــينا صلوات الله عليه وسلامه وقد أكثر الناس في هذا المعنى وأطالوا وأطنبوا وصرحوا بأن الله ﷻ إنما أخرج الدنيا وأبرزها من العدم إلى الوجود من أجل هذا النبـــي وبسببه كرامة له وعناية به وتعظيماً لأمره وتفخيما لمنصبه الرفيع وقدره، إلا أني لم أقف على صحة ما أرهن فيه الناظم ولا رأيت فيه توقيفا استند إليه ولا نقلاً أعتمد عليه إلا ما وقفت عليه في كتاب «انتقال النور» وغيره من الكتب التي لا أصل لها في الصحة، ثم قال: ولو صح أن الدنيا خلقت من أجل هذا النبـــي الشريف، لم يكن فيه مقال لقائل إذ ليس في ذلك ما تحيله العقول ولا ما يرده حديث منقول فلا يستعظم في ذلك الجناب العلي النبوي ذلك كله لاسيما، وليس في الشرع ما يعارضه ولا عثر في السنة على ما يقدح في صحته وينازعه ولا هو مستحيل في العقل انتهى منه بلفظه.

=

=

وقال: غيره من بعض شراحها إن هذا المعنى غير صحيح والأخبار به مطعون فيها وقد علمت أنها بانضمامها يتقوى ولا يقصر معناها هذا عن درجة الحسن إن لم تقل أنه يبلغ درجة الصحة ومما يشهد له زيادة على ما سبق حديث جابر عند عبد الرزاق في مصنفه وعمر عند أبي مروان الطيبي في فوائده وقد تقدم وأيضاً فإن العلماء العاملين والصوفية المخلصين وأولياء الله المفلحين كلهم أو جلهم شرقاً وغرباً قد تلقوا معناها بالقبول والتسليم وتداولوه في مصنفاتهم وأشعارهم وكتاباتهم جازمين به من غير تردد ولا بحث والمعنى، إذا تلقى بالقبول حكم بصحته وإن لم يكن له إسناد ولا دليل ظاهر لأنهم يحملون على أنهم وقفوا له على شواهد تثبته وإن لم تصل إلينا و لم نعلمها.

وقد ذكر الشيخ الأكبر في أول الفتوحات من خطبة خطبها بين يديه ﷺ في حضرة الجلال ومعه جميع الإرسال، إن أول اسم كتبه القلم في اللوح المحفوظ أني أريد أن أخلق من أجلك يا محمد العالم الذي هو ملكك.

وفي حاشية العارف بالله القطب أبي زيد عبد الرحمن الفاسي على «دلائل الخيرات» لدى قوله فيه: والسبب في كل موجود ما نصه: قال في شرح الشفا على قوله لولاه ما خلقتك والخطاب لآدم ما نصه: هذا أدل دليل على ما هو المعهود الصحيح أنه ﷺ سبب الوجود وأنه لولاه لم تكن الأكوان والعجب ممن يتكلم في مثل هذا وأخذه في الكلام فيه ويبحث عن الأدلة في ذلك ومن أين يؤخذ وهل وجد في الحديث ما يدل عليه وكان يتوقف عليه قول البوصيري في قصيدته البردة:

لولاه لا تخرج الدنيا من العدم ....

ويقول من أين أخذه وفي هذا الحديث أقوى دليل عليه والحمد لله، انتهى.

قلت أي قال العارف: وبيت البوصيري وإن توقف فيه بعض شراحه وقد سبقه إلى مثله ابن الفارض في قصيدة له تشاكل صدر البردة في ما هو من نفس المحبة:

لولاك يا أحمد المحمود ما طلعت شمس ولم تخرج الدنيا من العدم

هذا وقد وردت أحاديث تقتضي بصحة ما أشار إليه كقوله عليه السلام «أول ما خلق الله نوري ومن نوري خلق كل شيء» وكقوله: «أنا يعسوب الأرواح» يعني أصلها ورئيسها الكبير ومنه يعسوب النحل لأميرها وكقوله: «كنت نبيـاً وآدم بين الماء والطين أو الروح والجسد» يعني قبل أن يكون وأحدا منهما وعلى ذلك نبه ابن الفارض بلسان الترجمانية عنه عليه السلام بقوله:

وأني وإن كنت ابن آدم صورة فلي فيه معنى شاهد بأبوة

وأفصح بذلك سيدي عبد السلام بن مشيش بقوله في صلاته: ولا شيء إلا هو به منوط إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط، وقد تقدم لنا التنبـيه على أن هذا ومثله قد تحققه الصوفي من

=

=

حيث كشفه وحظ غيره منه إنما هو التصديق لما ورد من الخبر في ذلك وقد تقدم ما فيه كفاية وغنية، والله أعلم انتهى منه بلفظه.

وفي الوصية الصغرى للعارف بالله الشهير الغوث الكبير سيدي عبد السلام بن سليم الأسمر الفيتوري ما نصه: ويجب عليكم أن تعتقدوا في حق رسول الله ﷺ أنه لا يفضل عليه شيء لا رسول ولا ملك، ولا ولي ولا عالم، ولا الجن ولا الإنس، ولا غير ذلك بل هو أفضل مما خلق الله تعالى وكيف يفضل عليه شيء ولولاه ﷺ ما أوجد الله تعالى شيئا من جميع المخلوقات انتهى منه بلفظه.

وعند الصوفية الحق المخلوق به قال القاشاني في لطائفه: يعنون به الإنسان الكامل قال: بالمعنى أنه المخلوق بسببه المشار إلى ذلك بقوله: «لولاك ما خلقت الأفلاك».

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الجاثية:١٣] فما يسخر الشيء إلا لأجله، فإنه هو العلة الغائية من وجوده ولهذا جاء في الزبور وغيره من الكتب الإلهية، يا ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك وخلقتك من أجلي، فقالوا كل ما سوى الإنسان خلق للإنسان، انتهى المراد منه بلفظه(٢).

وقال أيضاً في الكلام على عين العالم ما نصه: وقال الشيخ في كتاب فصوص الحكم وإنما كان الإنسان هو عين الحق، لأنه تعالى نظر به إلى العالم فرحمهم، يعني بإفاضة الوجود عليهم من أجله إذ لولا الإنسان الكامل، لما وجد العالم المشار إلى ذلك بقوله: لولاك لما خلقت الأفلاك.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الجاثية:١٣] انتهى المراد منه بلفظه أيضاً.

وقال الشيخ العارف أبو العباس أحمد التجاني: في «شرحه لجوهرة الكمال» لدى قوله فيها (**عين الرحمة الربانية**) ما نصه: لولا هو ﷺ ما خلق شيء من الأكوان ولا رحم منها لا بالوجود ولا بإفاضة الرحمة والجود ولا يقال إن هذا تعجيز للحق سبحانه وتعالى، بأنه لا يقدر أن يخلق شيئا إلا به ﷺ فليس هذا الوهم هو المراد في هذا الكلام، كما يظنه بعض من لا علم عنده، بل تحقيق ما قلناه: إن الله سبحانه وتعالى لو سبق في علمه ونفوذ مشيئته أن لا يخلق محمداً ﷺ لسبق في علمه ونفوذه ومشيئته، أن لا يخلق شيئا من المخلوقات، فمن هذه الحيثية إن وجود كل موجود من الأكوان يتوقف على سبقية وجوده ﷺ لذلك الوجود فإنه ﷺ كلية مراد الحق وغايته من الوجود فإنه ما خلق الكون إلا من أجله ﷺ ولا أفاض الرحمة على الوجود إلا بالتبعية له ﷺ فوجود الأكوان كلها مناط بوجوده ﷺ وجوداً وإفاضة انتهى المراد منه بلفظه.

قال بعضهم: وهذا يعني خلق الله العالم من أجله ليس لغيره من نبـي ولا ملك:

ومـا عجـب إكـرام ألـف لواحد ... لعـين تفـدى ألـف عـين وتكـرم

=

ومَن ذَهل عن هذه الدقيقة؛ وهم الفقهاء المحجوبون؛ منع صحة تلك المقالة، وزعم أن فيها تحقيرًا لسائر الأنبياء - عليهم السلام -.

وأمَّا قول المرتضى كرَّم الله وجهه: كان في الأرض أمانان، فرُفع أحدهما، وبقى الآخر، فأمَّا الذي رُفع؛ فهو رسول الله ﷺ، وأمَّا الذي بقى؛ فالاستغفار.

وقرأ بعده هذه الآية.

فالمراد به: الأمان الكامل، فإنه لا شك مرفوع عن هذه الأمة، وبقى ما دونه من بعض الأمان؛ وهو ما حصل بوجود الورثة في كل عصر حتى أنه قد يحصل لبعضهم التألُّم من وجود بعض المصرِّين، فيقال له: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم.

وقد يرتفع الأمان حسبما اقتضته المشيئة الإلهية، كما ارتفع من أهل بغداد حين استولى عليهم هولاكو الكافر الجنكيزي حتى استأصَّلهم مع وجود كثير من الورثة فيهم على أنهم استشهدوا أيضًا، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، فلهم في ذلك رفع الدرجات، وتكميل مراتب المحبية، والمحبوبية، ولَمن فعل بهم ذلك من الدركات، وتنزيلهم في أسفلها؛ لأنه اشتدَّ غضب الله على مَن قتل نبيًا، أو قتله نبي.

وأولئك الأصفياء من حيث ورثتهم في حكم الأنبياء؛ ولذا يغضب الله لهم كما يغضب الأسد لشبله، فقد يكون الرحمة في صورة الغضب، وقد يكون الأمر بالعكس، نسأل الله لطفه وكرمه.

والمراد بالتعذيب الثاني هو: التعذيب الأخروي الذي دخل فيه التعذيب الروحاني، وذلك ان الاستغفار طلب ستر النفس بالأنوار الروحانية حتى لا يلحقها عذاب من الظلمات الطبيعية، فكل عذاب جسماني أو روحاني؛ فإنما يلحق المعذَّب به من جهة نفسه المظلمة المنكدرة، فإذا استنارت النفس بالأنوار القلبية الروحانية؛ خَلُصت من العذاب مطلقًا.

=

قال وهذا من باب الحكمة والمصلحة الراجعة إلى الخلق بإظهار عظمة هذا النبي الكريم وإشهار كرامته عند المولى العظيم، فجعل وجوده سببا في وجود الموجودات ونيل جميع الكرامات انتهى وانظر: جلاء القلوب (بتحقيقنا).

فظهر أن العذاب من النار، وكما أن النعيم من الجنة، فنار عاجلة وآجلة، وكذا النعيم.

وإلى ما قلنا أشار قوله: ﴿إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:١٠].

فإن حال الحضور ليس كحال الغيبة، فإذا فنى العبد عن نفسه، وبقى بالله تعالى؛ استراح كحال أبي يزيد البسطامي قُدِّس سرُّه؛ ولذا كان لا يقطعه السيف، وهو مع الله تعالى في حال غيبته عن الحسِّ.

فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللّهُ﴾ [الأنفال:٣٣] إلخ.

كيف جُعل الوجود النبوي، وحصول الاستغفار سببًا لارتفاع العذاب، وباعثًا على الأمان؟ فالأول: من الأسباب الآفاقية، والثاني: من الأسباب الأنفسية، فكما أن الورثة خلفاء الرسول ﷺ ونوابه، وبهم يحصل من الأمان ما يحصل به، وإن كان دونه؛ فكذا القلب بمنـــزلة الوجود المحمَّدي في عالم الوجود بشرط أن يظهر على الصفة النبوية من التوجه إلى الله تعالى، والتبتُّل إليه.

فـــإذا بالإنسان الكامل وبظاهره؛ يحصل الأمان لظاهر العالم وصورته، وبقلب الإنسان الكامل ونفسه؛ يحصل الأمان لنفسه، فهو أمان مطلق من الله تعالى في حق نفسه، وفي حق غيره.

فإن الله تعالى معه مع استمالة الجمالية؛ لكونه خارجًا عن دائرة الغضب، كما أشار إليه غير المغضوب عليهم ولم يبقَ الجلال إلا في باطنه بالقوة، وقد يظهر ذلك الجـــلال في أولاده بصـــورته وحقيقته، نسأل الله تعالى الأمان من العذاب، والجلال مطلقًا في حق النفس، وفي حق صورها من الأولاد.

* * *

سورة التوبة

قال الله سبحانه: ﴿**قَاتَلَهُمُ اللَّهُ**﴾ [التوبة:٣٠].

دعاء عليهم بالقتل؛ لكن أشار بالمفاعلة إلى أنهم كالمحاربين مع الله تعالى من حيث جسارتهم على عصيانه، كما صرَّح بذلك في قوله: ﴿**إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾ [المائدة:٣٣].

فإن محاربة المخلوق بلا وجه شرعي؛ كمحاربة الخالق، أو أن الخالق لمّا ظهر في صورة المخلوق بأسمائه وصفاته؛ كانت المحاربة محاربة معه لا مع الخلق، فالأول باعتبار الفرق، والثاني باعتبار الجمع.

وإليه الإشارة بقوله: «**يا ابن آدم استطعمتك؛ فلم تطعمني**»(١).

وبقوله: «**حتى يعلم**»(٢): أي حتى يعلم مَن لا يعلم، أو يعلم مَن يعلم في صورة العين بعد ما علم في صورة، وكلا العلمين بالنسبة إليه تعالى علم واحد، وحال المعلوم مشهود له إلا إن تعلّقه بالمعلوم الخارجي؛ إنما كان في العين، فأشار حرف الغاية إلى التفاوت بين العلمين بحسب العلم والعين، فاعلم ذلك.

ثم إن القتل اُستعمل في العُرف بمعنى اللعن؛ فمعنى قوله ﷻ: قاتلهم الله: لعنهم الله، وذلك أن اللعن بمعنى الإبعاد عن الرحمة والقتل، وإن كان معناه إزالة الحياة بمباشرة القاتل إلا إن فيه معنى اللعن أيضًا.

فإن المقتول من حيث كونه مقتولاً؛ يبعد عن الرحمة، فإن الرحمة تمنع التعرُّض بشيء من الأذى فكيف القتل؟.

فإن قلت: لا شك أنه فرَّق بين الإخبار باللعن في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**﴾ [الأحزاب:٥٧]، وبيَّن الدعاء عليهم به في هذه الآية ونحوها، فإن الدعاء من شأن العاجز عن الانتقام، والله تعالى عزيز ذو انتقام، فيغلب ولا يُغلب، فلا يبقى حاجة إلى الدعاء.

---

(١) رواه مسلم (١٩٩٠/٤)، وابن حبان في صحيحه (٢٢٤/٣).

(٢) رواه البخاري (٤٩/١)، ومسلم (١٥٤٤/٣).

فما سرُّ ذلك؟ قلت: إن ذلك راجع إلى التشريع، وتعليم العباد.

وقد كان رسول الله ﷺ يلعن ذكوان، وعصية، وبني رعل إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء:١٠٧]، فكان من شأنه أن يقول: «**اللّهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون**»(١).

إلا أن يكون ذلك بإذن من الله تعالى في مادة مخصوصة، وفي نسمة معلومة، كما لعن العقرب حين لدغته وهو في الصلاة، وقد كان بعض الأولياء لا يلعن الشيطان اكتفاء بلعنه الله إياه، والأَوْلى الاقتداء بالله في حال الفرق دون الجمع؛ لأن لعنة الله في حكم لعنته، فلا حاجة إلى لعنة أخرى؛ هذا هو لعن الشيطان، ومَن في حكمه من الكفار، فإنهم مبعدون عن رحمة الله تعالى، ومقرَّبون إلى الغضب، كما دلَّ عليه قوله: ﴿**غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ**﴾ [الفاتحة:٧]، وقوله: ﴿**مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ**﴾ [المائدة:٦٠].

وأمَّا لعن المؤمن فيرخَّص فيه إذا فرَّط في المعصية لأنه إذًا يكون في حكم الكافر، وقد ألحق الله بعض المفرطين من المؤمنين بالكفار، فأغلظ عليهم بنحو ما أغلظ على الكفار؛ حتى حكم بخلودهم في النار ونحوه.

ومن ثم لَعنوا «يزيد» لغلوِّه وإفساده في الأرض، ولو لعنوا الحجَّاج الغشوم، وتمرلنك الأوزبكي؛ لجاز لهم ذلك أيضًا، فإن كلاًّ منهما خرَّب البلاد، وقتل الأخيار، وأباح ما حرَّم الله، فلعنة الله على الظالمين.

وفي هذا المقام جواب آخر دقيق يرجع إلى الحقيقة وهو أن دعاء الله عليهم، وإن كان لا يصحُّ في مرتبة العماء الإلهي لكنه يصحُّ في مرتبة العماء الكوني(٢)؛ لأنه

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال سيدي علي وفا في المسامع: جاء في الحديث: «كان ربنا في عماء، ما فوقه هواء، **وما تحته هواء، وكان عرشه على الماء**».

هذا العماء هو صورة كون الإنسان التي بالتعلق العقلي تعين فيها الرب الرحمن، وغاب في ذلك التعين بالتنـــزيه الفرقاني عن أعين عقول الفرقان، وتلك الصورة الآدمية هي عرشه الكائن على ماء النطفة المنوية، وهذا العماء في شخصيته المفارقة الخيالية ما فوقه هواء وما تحته هواء: أي ليس تحته =

تعالى في هذه المرتبة يتَّصف بصفات المخلوق؛ كالتعجُّب، والفرح، والضحك، والتبشبش، والمجيء والذهاب، ونحو ذلك على ما جاء في الآيات والأخبار.

فالواجب في ذلك ترك التفحُّص عن كيفيته، وإبقاؤه على أصله على ما يعلمه الله، ويريده من ذلك بلا تشبيه، ولا تقييد؛ لكن مشرب أهل الرسوم مالح فلا يذوق العذب، وضيق فلا يسعه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢]: أي المنكرون، فظهر إن إنساء الأجل ليس بالمدة الصورية المعلومة عند الناس؛ وهي الحياة الدنيوية الطويلة، فإنها وإن كانت طويلة مادامت الأرواح العالية فيهم، فإذا لم يحضروا؛ جاء الخذلان، ومن هنا وجب على السلطان أن يبايع خليفة من خلفاء الله، فإنه على تقدير انتقاله من الدنيا، فهو مع السلطان مادام في الحياة؛ لأن عطاء الله غير محدود، وإن الذي يحصل به المدد؛ وهو الروح سواء كان مع جسده أولاً.

كما قال تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات:٥].

أمرًا، والناس عنه غافلون، فيعدُّون الأحياء الحقيقية أمواتًا، ويجعلون انتقالهم؛ كانتقال الأحياء الصورية.

وقد ورد: «**المؤمنون لا يموتون؛ بل ينقلبون من دار إلى دار**»[1]؛ فإن المراد منهم: المؤمنون بالإيمان الحقيقي العياني الكامل لإطلاقه، ولا شك أن المطلق مصروف إلى الكامل.

كما في قوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

فإن المراد هي: العاقبة الكاملة الحميدة التي هي الجنة، فالكفار وإن كان عُقباهم النار؛ لكنهم لا عُقبى لهم في الحقيقة؛ لكونها عُقبى ذميمة.

=

شيءٌ، ولا فوقه شيءٌ، فلا فوقه ولا تحته، وفي شخصيته الإحساسية هو كما ترى، فـــ (ما) بالمعنى الأول نافية، ونافية أيضًا إذا كان (هوى) بمعنى: سقط، وبالثاني موصولة، وهواء بمعنى: فراغ، أو جوهر هباء، وكلٌّ صحيحٌ في حكم عالمه ودائرة حاكمه.

(١) لم أقف عليه.

ثم هذا الربط سواء كان بالتأييد الملكوتي مع وجود السبب في الظاهر، كما في الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٢]، أو مع عدمه كما في قوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف:١٤]، فإنه كربط قلوب سحرة فرعون حين توعَّدهم فرعون بالصلب، والقتل؛ كل ذلك من العناية والتوفيق الخاص الذي يعتني بشأنه، وفي ذلك إشارة إلى ضعف الإنسان في نفسه أيًّا كان؛ ولذا قال الأنبياء عليهم السلام: ﴿مَتَى نَصْرُ اللّهِ﴾ [البقرة:٢١٤] مع اعتمادهم على الله تعالى ووعده، وانه لا يُخلف الميعاد.

وقل: مَن سلم عن التزلزل من غير ربط القلب؛ فإن موارد القضاء، ومواقع القدر يصعب الورود والوقوع فيها بحساب الغافلين؛ لكن مدَّهما كلمح بالبصر عند العارفين، فلا اعتبار بها عندهم، ولمَّا كان كل من بسط الرزق، وتأخير الأجل مرغوبًا عند الناس، فإنه لا حياة مع الفقر، وإن كانت طويلة، ولا أثر للغنى مع قصر العمر، وإن كان خزائن قارون.

وأشار النبي ﷺ إلى أن مَن أراد رزقًا واسعًا، وحياة طويلة؛ كان عليه أن يصل الرحمن: أي يصل إليه بدوام الذكر والطاعات حتى يرد عليه ما قصده من ذلك، فإن مَن كان الله بظاهره وباطنه؛ كان له بجميع فيوضه ورحماته.

قال الله تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال:١١].

هذه الآية في حق أهل بدر، وقال في حق أصحاب الكهف:

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: ١٤].

أورد الأولى باللام؛ لأنها بعد بيان السبب الذي هو إنزال الماء من السماء وقت الضرورة القوية، وكانوا ضعفاء من جهة البدن والقلب؛ لقلة العدد، والعدد، وكثرة المشي، والعمل بخلاف أصحاب الكهف؛ فإنهم كانوا أقوياء من جهة البدن، والقلب؛ فاحتاج كل من هاتين الطائفتين إلى التقوية، والتأييد الملكوتي؛ فكان سبب النصرة في الحقيقة الضعف والذلة، كما قال الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، وقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣].

وقال ﷺ: «**إنكم تنصرون بضعفائكم**»[١]، فكما أن وجود الضعف نفسه جعل من أسباب التقوية والتأييد؛ فكذا وجود الضعيف في المعركة، ومحلُّ الخوف إمَّا بجسده أو بتوجّهه وهمته؛ ولذا مازالت العساكر منصورة مادامت من غير إعانة الهيئة؛ ولذا حلّ للمبتلي أن يحادث الآخر في صورة الشكوى؛ لأن المحادثة مما يهون الأمر عليه؛ فهي من قبيل الإعانة الإلهية، وإنما قلنا في صورة الشكوى؛ لأن لسان العارف لسان الحكاية لا لسان الشكاية، فهذا لا ينافي الصبر، كما قال أيوب عليه السلام: ﴿**انِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ [الأنبياء:٨٣].

وذلك أن المذموم هو الشكاية إلى الخلق لا إلى الحق، فلو ترك الشكاية على الحق؛ كان ذلك مكابرة مع ربوبيته، ولا طاعة للعبد أن يقاوم الله تعالى في بلائه، فعرض حاله على الله من كمال عبوديته، إذ لا يتمُّ العبودية إلا بإظهار العجز والافتقار؛ ولذا شُرِّع الدعاء، وأمَّا الشكاية إلى الخلق؛ بمعنى المحادثة والحكاية؛ فذلك أيضًا من قبيل العرض على الحق؛ لأنه صادر عن المكاشف لا عن المحجوب.

* * *

---

(١) رواه البخاري (٣/١٠٦١)، وأبو داود (٣/٣٢).

سورة يونس

قال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ﴾ [يونس:٩٩].

إشارة بالاسم الرَّب إلى أن ما بعده من قبيل القرينة، امَّا بالنسبة إليه ﷺ فبالعلم، وامَّا بالنسبة إلى قومه، فبإبقاء بعضهم على حاله من الجهل والمعصية، وعبارة الخطاب له ﷺ وإشارته لكل مَن هو بصدد التبليغ من الورثة.

قوله ﷻ: ﴿لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ﴾ [يونس:٩٩].

أراد بمَن في الأرض: الأنس والجن، كما دلَّ عليه كلمة مَن، فإنهم هم المكلّفون: منهم المؤمنون، ومنهم الكافرون.

وأمَّا مَن في السماء، وما في الأرض من الملائكة، وما عدا الإنس والجن؛ فهم مؤمنون مسبِّحون، باقون على فطرته الأصلية، لا يحتاجون إلى الدعوة والتبليغ.

قوله تعالى: ﴿كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:٩٩]: أي مجتمعين في الإيمان؛ كاجتماع الملائكة في سَجدة آدم، واجتماع بعض القبائل والطوائف على الإيمان، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر:٢].

فإن بعض الناس إذا دخلوا في دين الله مجتمعين بمشيئة الله تعالى؛ فكلهم من شأنهم الدخول فيه كذلك؛ لكن الله لم يشأ ذلك لحكمة تقتضيه؛ وهي كون الموطن موطن الجمال والجلال، وظهور آثار الأسماء الإلهية مطلقًا، فلو آمن كلهم؛ لبقى بعض الأسماء بحيث لا حكم له في العين، وذلك ينافي جمعية نشأة الإنسان.

فإن قلت: فقد آمنوا في عالم الأرواح، فلِمَ لم يظهر أثر ذلك الإيمان في العين، وعالم الأجسام. قلت: لا شك أن ذلك العالم لا يقتضي الإيمان، والكفر في الحقيقة، وإنما إيمانهم فيه إشارة إلى الفطرة الأصلية؛ هي القابلية الذاتية، وهي لا توجب الاتفاق على الإيمان في عالم العين، لما قال ﷺ: «**ثم أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[1]: أي يصيران سببًا لظهور ما في القابلية من الكفر أيضًا، وهذا أَوْلى بما قال بعضهم: إنهم آمنوا من وراء حجاب.

---

(١) تقدم تخريجه.

فإن الأرواح كانت صفوفًا أربعة:

الأول: صف الأنبياء.

والثاني: صف الأولياء.

والثالث: صف المؤمنين.

والرابع: صف الكفار.

على أن كُمَّل الأولياء من الصف الأول أيضًا على ما دلَّ عليه كلمات بعض الأكامل، فلا يتجه ما ذكره من التربيع.

قوله تعالى: ﴿**أَفَأَنتَ**﴾ [يونس:٩٩] يا محمد، ويا مَن هو وارثه في مقامه من الدعوة والإرشاد: ﴿**تُكْرِهُ النَّاسَ**﴾ [يونس:٩٩]: أي تجبروا الناس الناسين أنفسهم؛ فنسوا الله والإيمان به؛ لأن نسيان النفس سبب لنسيان الله، كما أن ذكرها سبب لذكره، دلَّ عليه قوله: «**مَن عرف نفسه؛ فقد عرف ربه**»(١)؛ فمعرفة النفس أصل، ومعرفة الرب فرع؛ لذلك كما أن المحبة عكس ذلك كما دلَّ عليه قوله تعالى: «**فأحببت أن أعرف**»(٢).

قوله ﷻ: ﴿**حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ**﴾ [يونس:٩٩]: أي بالإيمان الشرعي؛ فإن الإيمان إنما يكون عن تبليغ؛ كالطاعة؛ إنما تكون عن أمر، وفي حكم الإيمان الشرعي التوحيد الذاتي، فإن بعض الناس ممَن جاء في الفترة، أو كان في أقطار الأرض القاصية، أو في شواهق الجبال لم يدرِ ما الكتاب، ولا الإيمان إلا أنه عاش على الفطرة من غير أن يُخلَّ بشيء من الأصول، فهو غير مخلَّد في النار أيضًا.

وفي الآية إشارة إلى أن سرَّ القضاء والقدر لا يعرفه الإنسان بكنهه؛ بل يعجز عن دركه؛ فهو بحسب نشأته الجامعة، ورحمته الشاملة الواسعة، وإن كانت له همة عالية في إيمان الناس كلّهم بحيث لو أمكن؛ لأجبرهم عليه لكن الله يأبى إلا أن يجعلهم مختلفين بالإيمان والكفر لِما ذُكر، والله الموفّق والمرشد والهادي.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٢٠٨/١٠).

(٢) لم أقف عليه.

سورة هود

قال الله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود:٧٦].

دلَّت هذه الآية: على أن القضاء المبرَم لا يُردُّ؛ وهو القضاء الغير المعلَّق، وإليه الإشارة بقوله تعالى أيضًا: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ﴾ [البقرة:٢١٧]؛ فإن مفهومه أنهم لا يستطيعون أن يُردُّوا المخلصين الراسخين عن دينهم، وإن ركبوا في ذلك، مَتْن كل صعبٍ وذلول، لِما إن الله كتب في حقهم السعادة فلا يتغيَّر بحال من الأحوال.

وأمَّا القضاء المعلَّق فبخلاف ذلك، وتحقيقه أن كلاً من السعادة والشقاوة؛ إمَّا أصلية أو عارضة.

فالأصلية لا يُعارضها عارض، وإن عارضها، فالمآل إلى السعادة والشقاوة؛ لأن الأبد مرآة الأزل، فلا تزال صورة الأزل منعكسة في مرآة الأبد.

فالمؤمن الأصلي لا يضرُّه الكفر العارضي فإنه مكتوب في علم الله أنه مؤمن، وكذا في بطن الأم؛ فإن بطن الأم ناظرة إلى علم الله، فهما لوحان متوافقان، وكونه مكتوبًا في اللوح المحفوظ: إنه كافر لا يضرُّه؛ لأنه لوح المحو والإثبات.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:٣٩]، وعالم الحسِّ، والخارج ناظر إلى هذا اللوح؛ فهما لوحان متطابقان أيضًا.

فهذه أربعة ألواح: لوح العلم، ولوح البطن، ولوح زائد البطن، ولوح المحو، ولوح العين الخارجي، فالأولان من باب واحد في عدم التغيُّر.

وكذا الكافر الأصلي: فإنه لا ينفعه الإيمان العارضي، فإنه مكتوب في اللوحين: بأنه كافر، وإن كان مؤمنًا في اللوحين الآخرين، فالمؤمن الأصلي مؤمن عند الله في حال كفره، وكافر عند الناس في تلك الحال، ثم يزوال تلك الحال عنه؛ فيكون مؤمنًا عند الناس أيضًا.

وكذا الكافر الأصلي: فإنه كافر عند الله في حال إيمانه، ومؤمن عند الناس في تلك الحال، ثم بعد زوال تلك الحال عنه، ويُسمَّى كافرًا عند الناس أيضًا، فالقضاء المبرِم لا يتغيَّر أصلاً بخلاف القضاء المعلَّق؛ فإن عُلِّق عمر أحد مثلاً بعمل من الأعمال بمعنى أنه إن عمله كان عمره ثمانين، وإلا كان ستين، فإن قضى في حقه أنه يعمله؛

فهو يجري على ذلك القضاء، ويكون عمره ثمانين، وإن كان ذلك غير مقضي في حقه؛ فإنه لا يعمله، ويكون عمره ستين.

فالمعلّق يرجع إلى المبرم في الحقيقة، وقول مَن قال بالفارسية: أوليا راهشت قدرت ازاله تير حسبة بازكر داندزرآه، راجع إلى المعلّق الصوري، والمبرم الحقيقي، فإن السهم الذي قضى انه يرجع بتصرُّف بعض الأولياء فلاشك في وقوع ذلك.

وأمَّا الذي قضى خلافه فلا يقع أبدًا، وإن اجتمع عليه ألف همة، وتصرُّف، ومنه إيمان أبي طالب، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**﴾ [القصص: ٥٦] ؛ يعني: وإن علمت فيهمَ همة، وتوجه قلبي، وتصرُّف نفسي[(١)].

فالأسباب موجودة في الخارج، معدومة في نفس الأمر، ومن ذلك كل كمال، وكل نقصان في الدنيا، فالمحجوب يتوهَّم أن حصوله أو عدمه؛ إنما هو لأجل المباشرة بالأسباب أوعدمها، والمكاشف يعلم ان الأسباب ليست بمؤثّرة، وإن كان طريق الأدب يقتضي التلبُّس بها، فقد قتل قبل مَن لا لعلة، وردَّه مَن ردَّ ولا لعلة فاعرف هذه الجملة؛ فإنها تنفعك في الصورة والمعنى، وعليك بالأدب، فكلّ ميسّر لِما خُلق له.

(١) قال سيدي ابن سبعين قدس سره: وجميع من قال: وجدت الاستغناء عن الله أو رأيت في الوجود غير الله قل له: هذا من جهة العادة فقط، أو من كونك لا تعلم إلا المحسوسات، أو من كونك توهمت أحوال المؤمن والكافر، وكونك تقول الضرورة لا يختلف فيها أحد. وأي منفعة للعلم إذا كان الله في غاية الوضوح! وهذا كله محض الأوهام والحرمان. وبعقد هذا كله بصناعة التحليل والتركيب في الشيء الواحد يظهر لك مدلول قولي. لاشيء أغرب عندي من رجل يقول الله بلسانه ثم يحرره بقلبه، ثم يطبقه على توجهه، ثم يجده في جملته ثم في خارج ذهنه ثم في الجميع من حيث ذلك الإجماع، ثم من حيث ينـــزع إليه، ويفتقر ثم يشعر ويشتغل، ومع هذا تبدده مع ذلك خطرات نفسانية ووساوس شيطانية. ومع هذا لا يعلم عنها وبغفلته عن تفقد محاربتها يكون منها أهلاً وسهلاً بشبوب الهمة على مضافها. وسلام الله ورحمته على ذواتها! بأي دليل أو بأي حجة أو بأي عذر يصح الخروج عن قصد الله الصحيح! وما أحسن روحًا يقرأ عقب التفكير في المؤمن إذا نـــزع الوهم بينه وبين قصده بلسان حاله: ﴿**إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء**﴾ [القصص:٥٦] : أي من رضى عنه كانت الترهات تستطاب قبل ظهور الأخرى والأولى، بل كانت الحكمة العلوية تعطى قبل الإلهية، بل كانت السعادة تستعظم قبل معرفة التوحيد المعتبر الذي لا تلتفت السعادة معه والموحد في حاله، فإن ذلك يجر إليه الشرك لكونه يقسم بساطته وإن لم يركبها، فإذا زال عن ذلك لا أنه زال بمعنى مفهوم كان، وإنما ذلك مما يشعر به في مدلول حد ورسم ووصف أو في قوة ذلك بلا شئ إلا محض الوجود.

في سورة إبراهيم

قال الله سبحانه: ﴿هَـٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:٥٢].

أي: هذا القرآن العظيم[1] تبليغ دعوة الله تعالى على لسان الرسول ﷺ إلى الناس الناسين أنفسهم الحاضرين، والذين يأتون من بعدهم إلى ساعة القيام، وهذه الدعوة كانت مندرجة بالإجمال في الميثاق حين قال تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى﴾ [الأعراف:١٧٢].

فإن الربوبية تابعة للألوهية، وهي لكونها مرتبة جامعة تشمل على عبودية الناس بأنواع العبادات؛ لكن التعيين بحسب اختلاف الأمم والأزمان مُفوَّض إلى الله تعالى، فجاءت الرسل في الأعصار المختلفة مبلِّغين عن الله تعالى دعوتهم إلى جنابه بالتوحيد، وما يليه من شعب الإيمان، وإنما احتاجوا إلى هذا التبليغ؛ لاحتجابهم بالغواشي البشرية، والحجب الكونية عن التفكُّر والتذكُّر؛ لعدم كفاية العقول والإدراكات في ذلك.

وقد ثبت عند أهل الله تعالى: إن لله تعالى مواثيق مختلفة كليات وجزئيات.

أمَّا الكليات: فقبل يوم الميثاق في عالم الأرواح.

---

(١) إن المراد بالقرآن، الدعوة والذكر، والقرآن كله هو الذكر الأعلى، وهو أجلُّ معجزات النبي ﷺ فإنه صفة «ذات» الله ﷻ، وما عداه من المعجزات صفة «فعل» الله، وهو من المعجزات الباقية، وغيره من المعجزات الذاهبة بذهاب وقتها، وهو معجزة كانت وبقيت، ومن فضائله أنه هو الذي يُطْلَب بعد الموت وفي المواضع الضيقة وفي وقت الخاتمة، ومن جملة جلالته أنه في الحيوان العاقل وغير العاقل، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤].
وأمَّا من أثبت نطق الموجودات فأمره أعظم في حق الذكر، وأمَّا من أنكر ذلك فقد أُلْزِم ذكر لسان الحال، ومن فضيلته ثبوته بعد الأعمال في الجنة، وإن كان غيره من المقامات يثبت مثل ثبوته، ومن فضيلته كونه في كل مقام بالقوة؛ لأنه يمشي ويتصل حيث تتصل النية لأنها هي القصد، ومفهومه الخبر الصادق، والعزم الثابت، والتصديق الخالص، ونحن قد ذكرنا أنه ينقسم إلى ظاهر وباطن، والكلام هو المعنى القائم بالنفس، وهو الدائر في الخلد بحسب مذهب ما، وكل كلام هو لله أو من أجله أو يذكر به أو بوظائفه فهو ذكر.

وأمَّا الجزئيات فبعده في عالم المثل والأجسام.

والكليات منحصرة في ستة، ولا غاية للجزئيات، وكما أن الرسول مبلِّغ عن الله تعالى هذا القرآن بظاهره وباطنه، وكذا ورثته بعده إلى يوم القيامة: ﴿**لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾ [النساء:١٦٥] ورثتهم.

وما من أحد من علماء الرسوم مَن أعلم أهل زمانه إلا وسلَّط الله عليه أحدًا من علماء الحقيقة من أعراف أهل عصره؛ لإلزام الحُجة، فأنف مَن أنف، وبقى على حجاب العلم، وتبع مَن تبع، فكان العلم له نورًا وهدى، فخرج بسببه من الظلمات البشرية إلى الأنوار الروحانية كما قال تعالى: ﴿**لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ [الأحزاب:٤٣] (١).

---

(١) قال سيدي علي وفا: العلم مبدأ التمييز، والإرادة مبدأ تخصيص معلومٍ ببعض المعلومات الممكنة لَه دون بعض، والكلام مبدأ نسبة بعض المرادات إلى بعضٍ، بحيث يصير أحدهما دالاً على الآخر، فكل ما في التمييز ماهيات مجردة، وكل ما في التخصيص ماهيات محددة هي أعيان، وكل ما في الكلام ماهيات دلالية هي أسماء.

فإذا تصورت مثلاً: (زيد قائم) فذلك علم من حيث التمييز، وإذا خصصت (زيدًا) بالقيام حتى كان قائمًا، فذلك إرادة من حيث التخصيص، فإذا حكمت بأن زيدًا قائم حتى ميزه العلم كذلك، فذلك كلام، وحينئذ (زيد قائم) في العلم من حيث التمييز، و(زيد قائم) في الكلام من حيث الحكم، لا يختلفان إلاَّ بالتعلُّق العلمي والكلامي، وهو بالأول مُسمًّى للثاني، وبالثاني الاسم للأول.

فحقيقة الاسم والمُسمَّى واحدة، والتعلُّق الذي يكون به الاسم عين التعلُّق الذي هو به مُسمًّى، فهنا يختلف النظر باعتبار وجهته في أن الاسم عين المُسمَّى أو غيره، فمن نظر إلى التغاير النسبي بتغاير التعلقين قضى بتغايرهما، وصحَّ لَه ذلك، ومن نظر بحقيقتهما الواحدة قضى بوحدهما، وصحَّ لَه ذلك، والثاني أقوى مأخذًا، والأشعري لما رأى زيدًا في الكلام النفساني اسم حُكمي، يتعين ماهية علمية تكون به مُسمًّى في التمييز، حَكَم بأن الاسم عين المُسمَّى، ولما كانت عنده الصفات والتعيُّنات ليست غير من قامت به؛ لأن المغايرة عنده استقلال كل من شيئين عن الآخر بنفسه ووجوده، حكم بأن الاسم عين المُسمَّى لا غيره، يعني في العلم، ولما رأى العلم متعلقًا بالمعلوم الخارجي نفسه مع ذلك؛ إذ المعدوم عنده ليس بشيء، والمعلوم شيء، فهو الموجود حكم بأن الاسم عين المُسمَّى الخارجي، ولكن من حيث هو حكمٌ علمي على ما تقدَّم لا أن لَه ماهية غائبة، زائدة على ماهيته الخارجية، منفصلة عنها، يُسمَّى بها معلومًا، فتأمَّل.

فكما أن الرسول مبعوثٌ لهذا الإخراج؛ فكذا الوارث، ولا فرق بين الدعوتين إلا بالنبوة والولاية، فشأن النبوة: إلقاء الوحي على لسان الملك المخصوص من الوجه العام.

وشأن الولاية: إلقاء الفيض على لسان ملك من الملائكة أيًا كان من رسلهم، وذلك من ذلك الوجه العام أيضًا، ونعني بالوجه العام؛ ما يكون بطريق الواسطة لِما يقتضيه ترتيب الكائنات من القلم الأعلى، والعقل الأول إلى آخر المولّدات، ويقابله الوجه الخاص؛ وهو ما كان بلا واسطة سواء كان الموحى إليه، والملهم نبيًا أو وليًّا.

فظهر أن للعبد طريقين إلى ربه؛ طريقًا بواسطة سلسلة الكائنات، وطريقًا بلا واسطة بينهما؛ وهو التجلّي الإلهي المفاض على الكل على حد سواء، فإنه لا اختلاف فيه، وإنما التفاوت في الظهور بحسب القابلية في المحال، والمجال، ولولا ذلك لِما ظهر الفرق بين نبي وولي، وعُلوي وسفلي، فهو من تدبير العزيز الحكيم بحسب الأسماء المختلفة الجمالية، والجلالية الناظرة إلى التعينات، وما تحتويه من القابليات فاعرف، ولينذروا به خصَّ الإنذار لِما أنه أول الأمر في باب الدعوة؛ لعدم قابلية المخاطبين للبشير كما دلَّ عليه التصريح بالناس، فإنه أكثر ما يُطلق على أهل مكة المشركين.

فإن قلت: هذا الإنذار داخل في البلاغ؛ فهو تكرار.

قلت: إن البلاغ إنما هو بالنسبة إلى الأحكام العملية الداخلة تحت الأوامر الإلهية، والإنذار بالنظر إلى المنكرات الداخلة تحت النواهي؛ لأن الإنذار إعلام وتخويف، ولا تخويف إلا حيث العصيان، وفعل المنهي.

والمخوَّف به؛ هو العذاب الجسماني والروحاني، وأمَّا الجسماني بإحراق النار الصورية، وأمَّا الروحاني فهو بإحراق النار المعنوية؛ وهي تجلّي الجلال، ومن آثاره؛ البعد والقطيعة.

فكما أن أهل الجمال مقرَّبون؛ لينظروا إلى الجمال الإلهي؛ فكذا أهل الجلال مبعدون؛ ليُحجبون عنه كما قال تعالى: ﴿**كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ**﴾ [المطففين: ١٥].

ثم هذا البعد اعتباري؛ لعدم ظهور آثار القرب، وإلا فالله قريب من عباده أينما كانوا، وأمَّا هم فمنهم قرباء، ومنهم أقارب، ومنهم أباعد على طبقات مختلفة بحسب كشفهم، واحتجاهم، ودخل تحت التبليغ، والإنذار دعوة الجن، وإنذارهم أيضًا.

والفرق بينهم، وبين الإنس: ان الإنس مُبشَّرون، كما أنهم منذرون.

وأمَّا الجن: فمنذرون فقط، دلَّ عليه قوله تعالى حكاية: ﴿**وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الأحقاف:٣١] حيث خصَّ الإجارة بالذكر، وطوى ذكر الإدخال في الجنات.

فإن قلت: إذا كانوا من أهل التبليغ؛ فللمؤمن منهم ثواب وأجر، كما للمؤمن الإنس، فأين يستوي أجره، ولا دار للثواب إلا الجنة؟.

قلت: هذا أمر سكت عنه بعض أهل الله؛ لعدم الكشف له فيه، وستره بعضهم، وإن وقع له الكشف فيه متابعة لَمن سلف من أهل الستر، وقد حققناه في محلٍّ أخر حسبما ساعدنا الإلهام في ذلك، وعيّنا أجورهم ومحالها، وسترنا في هذه المحلّ متابعة للسلف في الجملة، والله العليم الخبير المحيط، ليعلموا إنما هو إله واحد خصَّ التوحيد بالذكر؛ لعلو شأنه بالنسبة إلى سائر الأحكام؛ لأنه الأصل الأصيل، والأُس المتين، وما عداه فمتفرِّع عليه ومبني.

ولم يقل: إن الله إله واحد؛ بل أتى بضمير الهويَّة؛ إشارة إلى مقام التنـــزيه، والتقديس الذي يقتضيه غيب الهُويَّة، ولأمر ما ورد: «**سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»[1]؛ حيث بدأ بالتسبيح الذي يلي علم الغيب، وعاد إليه أيضًا ببيان الكبرياء الذي هو عين التسبيح.

ولا شك أنه أول الأمر كالإنذار؛ ولذا كان أكثر الأنبياء، وأعين قومهم إلى الله تعالى من هذا المقام إلى أن جاء إبراهيم عليه السلام.

فكسا الذات الإلهية كِسوة الصفات الثبوتية؛ ولذا كان أول مَن يُكسى يوم القيامة، وإلى أن جاء نبينا ﷺ إنه جاء بشريعة جامعة للتنـــزيه والتشبيه جميعًا كما

---

(١) رواه البخاري (٦/٢٤٥٩)، ومسلم (٤/٢٠٧٢).

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].
وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].
وقال: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٧].
وتمم مكارم الأخلاق بمقتضى كونه خاتم الأنبياء[1] ودعا أمته إلى توحيد

---

(١) ومعنى خاتم النبيين: أي ختامه وتمامه، وآخره المتمِّم له.
فكذا نبينا، ومولانا محمد ﷺ هو آخر النبيين ، كمَّل الله تعالى به النبوءات، وتمَّم ببعثته الرسالات.
وأغلق الله جلَّ جلاله باب السموات؛ أن ينـــزل منها وحي إلى الأرض بعد موته.
فكان كما قال ﷺ : «**أنا أول الأنبياء في الخلق، وآخرهم في البعث**». وقال ﷺ: «**لا نبي بعدي**».
ومن أسمائه: العاقب، والحاشر، وأنه يُحشر الناس على قدمه، وكونه ﷺ خاتم النبيين أمر مقطوع به لا يرتاب في ذلك أحد، ولا يتشكَّك فيه إلا ملحد.
ومن المعلوم أن عيسى عليه السلام: ينـــزل إلى الأرض في آخر الزمان؛ فهو حقٌّ إلا أنه يكون من أمة سيدنا محمد ﷺ.
وقد قال ﷺ: «**وإمامكم منكم؛ لأنه لا نبي بعدي**». أي لأنه لا يبعث الله نبيًّا بعد رسول الله ﷺ؛ بل بعثته عليها تقوم الساعة. وإنما ينـــزل عيسى عليه السلام إلى الأرض؛ لإقامة شريعة نبينا محمد ﷺ، وهو حينئذ واحد من أمته. وإنما قال تعالى: خاتم النبيين، ولم يقل: خاتم المرسلين؛ لأن الرسول أخصُّ من النبي، وإن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً لأن أنبياء الله تعالى مئة ألف نبي، وأربعة وعشرون ألف نبي.
والرسل منهم ثلاث مئة، وثلاثة عشر، أو أربعة عشر.
فإذا كان ﷺ خاتم النبيين؛ كان ﷺ خاتم المرسلين قطعًا.
لأن معنى قوله: خاتم النبيين: أي لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده؛ فلا رسول بعده.
بخلاف ما لو قيل: خاتم المرسلين، فإنه لا يلزم من نفي الرسول نفي النبي.
قال بعض العارفين في قوله تعالى: خاتم النبيين: إشارة إلى أن ختام الشيء الحسن تمامه، وأن هذه الدائرة العظيمة، والشجرة الكريمة: شجرة الأنبياء، ودائرة الأصفياء؛ إنما ختامها، وتمامها سيد العارفين، وتاج أنبياء الله، وأولياء الله المتقين، ورافع لواء الحمد بين الحامدين، ومَن نوَّر به مولاه السموات والأرضين، ورحم بوجوده العالمين.
فكان ختامًا مسكًا لتمام دائرة النبيين، وفيه إظهار منـــزلته الكريمة، ورتبته الجسيمة.
وإنما جعل مولانا سبحانه الأنبياء الكرام مقدمة بين يدي ظهور بدر التمام، فذكرت أخباره، وفخاره، =

=

وصفته، وآثاره، وشوّقت المحبين إلى لقائه، وأخذ الميثاق على أنبيائه في التصديق بوجوده، وبعثته، وفضّله على مَن في أرضه، وسمائه، وفي كونه خاتم النبيين من العناية الربّانية لدى الحضرة القدسية عند الملك الحق ما يعلمه كل مدرك مع سلامة الذوق.

وفيه أيضًا الكرامة من الله تعالى بأمته لأجله، ورفع قدره؛ بأن بعثه سبحانه آخر الزمان، فسرد عليه، وعلى أمته أخبار الأمم السالفة مع قومها، وبيان حالهم مع حالها، وتسليته ﷺ بأخبارها، وستر عيوب هذه الأمة على أن يسمع ذنبها، وأن يرى ذلك غيرها، وفيه التسلية لرسول الله ﷺ الذي جعله الله تعالى نفس الرحمة لِما علم منه سبحانه من كمال حرصه على إيمان الخلائق، وأنه لم يصل إليه سابق ولا لاحق.

فسمَّى الله تعالى أمره في كتابه، وقصَّ عليه القصص السابقة لسالف الأنبياء والرسل قبله، وسرد ذلك عليه قصة قصة، تفضُّلاً عليه من الله أكرم الأكرمين.

فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]: أي ولقد علمت يا محمد يا رحيم القلب ما علمت من أخبار الأنبياء قبلك، فلا تهلك نفسك حسرةً على إيمانهم، فإنهم كذلك جرت عادتهم مع أنبيائهم فصبروا وظفروا، وأنت رأس الصابرين، وإمام المتقين، فدُمْ على صبرك، فإني أنصرك عليهم، كما نصرت مَن قبلك من الأنبياء، فكيف لا وأنت إمام الهدى، والحبيب لمَن اهتدى

فكان من كون هذا النبي العظيم الذي جعله الله خاتم النبيين من كمال المبرَّة، والإكرام ما ظهر للسامعين، وما خفي عن الخلق من ذلك مما أكرمه الله تعالى به من الكرامات ما يعجز عن التعبير عنه علم الأولين والآخرين.

ولقد ضرب ﷺ مثالاً في كون الله تعالى تمّم به الأنبياء، وختم ببعثته رسله الأصفياء.

فقال ﷺ: «مثلُ ما بعثني الله به من الهدى والنور؛ كمثل رجلٍ بنى دارًا، وأحسن بناءها، فبناها بلبنة من ذهب، والأخرى من فضة، وقد كملت الدار، فنظر الناس فيها فقالوا: ما أحسن هذه الدار، وما أجملها، لولا أن فيها موضع لبنة لو بُنيت فيها لم يُرَ مثلها، وبها يحسن جمالها، ويضيء شعاعها، ويتمُّ كمالها».

فكانت هذة اللبنة العظيمة الشأن التي بها تمّ حسن الأعالي، والأركان هي لبنة المصطفى صاحب البرهان ﷺ في كل وقت وأوان.

فإن الله سبحانه كمَّل به، وختم حسن هذا العالم العظيم الذي خلق فيه ما خلق من كمال مصنوعاته،

=

وعجائب مخلوقاته، وشيَّده ببعثة الرسل، وإنباء الأنبياء الدَّالين على عبادته.

فما زال سبحانه يزيده جمالاً إلى جماله، وكمالاً إلى كماله حتى أتمّه بخيرةِ خلقه، وسرٍّ كونه، وإنسان عينه، وبعثه في أشرف بعثة، وخير أمة، فضَّلها الله سبحانه على سائر الأمم، وهداه إلى الطريق الأقوم ﷺ وشرَّف وكرَّم.

ومن آداب مَن علِم أن محمدًا ﷺ خاتم النبيين، وأن الله تعالى كمَّل ببعثته محاسن المقربين: إن يكون خاتمًا لمحبته فيه باتِّباع محاسن أعماله، وكثرة ذكره، ومتمِّمًا لحسنها وقبولها بالصلاة عليه ﷺ وعلى آله. فإذا كنت في طاعة فتمِّم حسنها، وبناءها بالثناء على حبيب القلوب.

وإن كنت في عبادة فأقم قواعدها بالصلاة على مَن بعثه علاَّم الغيوب.

وإن كنت داعيًا صلِّيت على خاتم النبيين، وختمت الدعاء بالصلاة على ختام العالمين، فإن دعاءك موقوف بين السماء والأرض حتى تصلِّي على خير المرسلين.

وإن كنت في مجلس طاعة، فطيِّب مجلسك بذكر الطيب الطاهر، واستنشق طيب محاسنه، وعرف نسيمه العاطر، وآخي قلبك بسماع نوره الزاهر.

ولذا كانت عائشة رضي الله عنها تقول: إذا أردتم بمجلسكم أن يطيب؛ فاذكروا محاسن عمر بن الخطاب.

وإذا كان هذا لعمر ﷺ فكيف لا يتمسَّك مجلسنا بذكر ختام الرسل، وحبيب الملك الوهَّاب، وإذا كان المجلس يطيب بذكر الفاروق، فكيف لا يطيب بذكر الصادق المصدوق؟

ولكن عائشة رضي الله عنها إنما ذكرت عمر بن الخطاب وخصَّته بذلك؛ لعلمها أن ما من مؤمن، ولا مؤمنة، ولا مسلم، ولا مسلمة تمرُّ عليه ساعة، أو مجلس إلا ويطيب مجلسه، وتزهر محاسنه بطيب ذكر المصطفى، وبسيرة أهل الصدق والوفا.

ولعل في كلامها اقتضابًا؛ لأن في طريق آخر: زيِّنوا مجالسكم بكثرة الصلاة على رسول الله ﷺ، وبذكر عمر بن الخطاب ﷺ.

وهكذا كانت الصحابة رضي الله عنهم، وأحوالهم مع حبيبهم في ذكرهم له، وكثرة اللهج به، فإذا سُئلوا عن أفضل الناس، وأطيب الناس، ومَن تطيب بذكره الصدور، وتُفرَّج به صنعاب الأمور، فلا يخطر ببالهم إلا زين العابدين، وإمام المتقين.

بعث عمر بن الخطاب ﷺ بعثًا، وفيهم أربعة آلاف فارس، فحاصروا قلعة، وكانت فيها امرأة حسنة قد طلعت على أعلى السور، ونظرت إلى العسكر، فرأت شابًا من شباب العرب، وكان فارسًا ضاربًا بالسيف، طعَّانًا بالرمح شديد البأس ﷺ.

=

فلمَّا أبصرته المرأة قالت: أوَّاه !!

قالت لها جاريتها: ما لك؟

قالت: إن الحصن هذا قد فُتح.

قالت لها: وكيف ذلك؟

قالت لها: سترين ساعة أخرى.

فأرسلت الجارية إلى الشاب الذي استحسنته.

وقالت له: هل إلى أحد إليك من سبيل، فتكون معي ولي؟

قال لها الشاب: نعم، شرطُ ذلك أن تُسلِّمي الحصن البرَّاني لنا، والحصن الدَّخلاني إليه، وعني بذلك التسليم لقضاء الله تعالى، والتفويض لأمره.

فأجابته على لسان الرسول: ما أدري ما قلت.

قال: تُسلِّمين قلبك لله، وتقرِّين بوحدانيته.

فأرسلت إليه، وقالت: قد فتحت لكم الباب، فلمَّا دخل عرض على الجارية صاحبة الحصن الإسلام.

قالت: يا شاب اعلم أني امرأة كبيرة ملكة من ملوك الأرض، لي همة عالية، هل في عسكركم مَن هو أكبر منك في قومك حتى أسلم علي يديه؟

فقال لها: نعم، عبد الله بن عمر بن الخطاب، فقصدته، فلمَّا عرض عليها الإسلام، قالت له: هل أحد أكبر منك.

قال: نعم، أبي عمر بن الخطاب.

قالت: احملني إليه حتى أسلم على يديه.

فجاءت مع العسكر، ومعها أموال جمة، فدخلت على عمر.

وقالت له: هل ها هنا مَن هو أكبر منك؟

قال لها عمر بن الخطاب: بل هنا مَن هو أكبر من أهل الأرض كلها، وهو أكبر من ملئ الأرض من عمر، ومَن هو أعلى من عمر، هنا محمد رسول الله، وهذا قبره.

قالت: لا أسلم إلا على يديه.

فأتت قبر المصطفى ﷺ، وجلست عنده.

فقالت: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك محمد رسول الله، ثم بكت.

فقالت رضي الله عنها: خرجت يا رسول الله من ديار الكفر، وأنا أخشى إذا أسلمت أن أقع في المعاصي، وقد أسلمت، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك محمد رسول الله فاسأل ربك يا محمد

=

الأفعال، والصفات، والذات، وأجيب في كل ذلك؛ فجاء من أمته رجال أكامل لا يُقرأ بالألسنة كمالاتهم، ولا يُحرَّر بالأقلام مقاماتهم ﷺ، وألحقنا وإياكم بأولئك الآباء الكرام، والأجداد العظام.

وفي قوله: (هو) مع عدم مرور ذكره تعالى في هذه الآية؛ إشارة إلى تعيُّنه، وحضوره في الأذهان الحاضرة، وإن غاب عن الأذهان الغافلة، ومن مقام التعيُّن والحضور؛ كان ذكر الصوفية هو هو، ففيه عمل بهذه الآية ونحوها، وطعنهم في ذلك طعن بلا فائدة، فإنه يشعر بالاحتجاب عن الحق الحاضر، والغفلة عنه في الباطن والظاهر.

والفرق بين ذكر: لا إله إلا هو، ولا إله إلا الله أن الأول يدلُّ على مقام الغيب والتنـــزيه؛ وهو حال أهل الفناء.

والثاني يدلُّ على مقام الشهادة والتشبيه من حيث اشتماله بالنفي على عالم اللا تعيُّن، وبالإثبات على عالم التعيُّن، ولذا كان أفضل الأذكار على ما ورد في الحديث؛ وهو حال أهل البقاء، وعلّق العلم بالألوهية المخبر بها عن الهُويَّة لِما إن مرتبة الهُويَّة الأُلوهية؛ هي متعلّق العلم ومبلغه، إذ لا إسم، ولا رسم، ولا وصف، ولا نعت، ولا حكم فوقها؛ فهي خارجة عن المدارك؛ ولذا أمرنا بذكر الله، وذكر آلائه، ونهينا عن البحث عن ذاته؛ إذ هي من حيث تجرُّدها عن النسب، والإضافات لا تُدرك أصلاً.

وقولهم: التوحيد إسقاط الإضافات؛ إشارة إلى الرجوع إلى الأصل الذي هو

=

الذي أرسلك بالحق أن يقبض روحي قبل أن أعصيه، فوضعت خدَّها على حائط القبر، وخرجت روحها.

فقال عمر بن الخطاب ﷺ: ما رأيت امرأة من العجم أعقل منها، وصلّى عليها.

ثم قال: طوبى لَمن مات، وأحشاؤه من المعاصي مستريحات.

هكذا تطيب مجالس القلوب بحبيبها، وتحيى الأماكن الميتة منها بذكر طيبها.

صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم أفضل التسليم، صلاة تقربنا منه، وننال بها من الله التعظيم.

عالم القُدس، والوحدة الذاتية المجرَّدة عن اعتبارات شواهد الأنفس، والآفاق التي هي مقام الواحدية الصفاتية.

وفي قوله: (إنما هو) إشارة أخرى؛ وهي أنه تعالى ذكر الهُويَّة طوى العامل حيث لم يقل: إنه إله واحد؛ لأن مرتبة الهُويَّة مرتبة التأثير والعاملية، لا مرتبة التأثير والمعمولية بخلاف مرتبة الأُلوهية؛ فإنها من النسب، كما قال مَن قال من الأكابر: فلولاه ولولانا لما كان الذي كانا، وقال مَن قال أيضًا: للربوبية سرٌّ لو ظهر؛ لبطلت، ولَّما كان الإله المنكر يُطلق على غير الله أيضًا كما قال: ﴿**مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي**﴾ [القصص:٣٨]، وصفه بالوحدة؛ للتمييز والتعيين.

وفي هذا المقام أسرار لا تُحصى لا يفي الأوراق ببيانها، فعليك بالذوق التام، والشهود العام؛ لتحيط بها خبرًا.

* * *

سورة الحجر

قال الله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢].

اعلم أن (رُبَّ) [1] مثقلة أو مخفَّفة إذا دخلت على المضارع تكون للتقليل، فقال المفسرون: معنى قلة، ودواهم أنهم كالسكارى من ورود الشدائد الكثيرة المتعاقبة، فإذا صاروا إلى أنفسهم، ورجعوا إلى عقولهم، تمنوا ذلك، وإلا كان من شأنهم أن يتمنوا ذلك في جميع أوقاتهم، لا في بعض الأحيان.

ولي فيها وجهان آخران:

إن قلة الودادة راجعة إلى الزمان الأخروي، وذلك بعض من مطلق الزمان، فإن الدنيا يوم، والآخرة يوم، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].

فهم إنما يتمنون ذلك في الآخرة، وزمانها بعض من مطلق الزمان، كما ذكرنا آنفًا، وكأنه تعالى يقول: إنهم لا يقصدون الإيمان في الدنيا؛ لانغماسهم في الغفلة، واستحبابهم الحياة الدنيا، فإذا كانوا في الآخرة التي هي كالغد للدنيا تمنَّوا ذلك، فيكون (ربَّ) للتقليل بالنسبة إلى اليوم الثاني.

فإن قلت: كيف يكون يوم الآخرة قليلاً مع أنه أطول من يوم الدنيا؟

قلت: المراد البعض مطلقًا، أو هو راجعٌ إلى معنى آخر يعرفه أرباب الحقائق.

والوجه الثاني: إن (رُبَّ) هاهنا بالتحقيق لا بالتقليل، وإن دخلت على

---

(١) قال الأزهري: قرأ نافع وعاصم: ﴿رُبَمَا﴾ مخففة مفتوحة الباء ، وقال الأعشى عن أبي بكر عن عاصم: ﴿رُبُما﴾ بضم الباء مخففة، وقرأ الباقون: ﴿رُبَّما﴾ مفتوحة الباء مشددة، وقال علي بن نصير: سمعت أبا عمرو يقرؤها على الوجهين جميعًا: خفيفًا وثقيلاً.
قال أبو منصور: العرب تقول: رُبَّ رجل جاءني ، ويخففون فيقولون: رُبَ رَجل.
ويقولون : رُبَما ورُبَّما ، مخففًا ومثقلاً ، ولغة أخرى لا تجوز القراءة بها: ﴿رُبَّتَمَا﴾ و ﴿رُبَّما﴾ و ﴿رُبَمَا﴾ يوصلان بالفعل، و ﴿رُبَّ﴾ و ﴿رُبَ﴾، يوصلان بالأسماء ، تقول: ربَّ رجل أصبتُ، وربُمَا جاءني زيد، وإنما زيدت (ما) مع (رُبَّ) ليليها الفعل، وكل ذلك من كلام العرب أنه أخبر بذلك عن إخبار الله بالفعل عن نفسه، ونصب الملائكة بتعدي الفعل إليهم. وانظر: معاني القراءات (ص٢٣٩) بتحقيقنا.

المضارع، وذلك أنها إذا دخلت على المضارع الذي يقتضي الزمان فحكمها حكم ما دخلت على الماضي.

كما في (قد) الواقعة في قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ [النور: ٦٣]، [الأحزاب: ١٨]، فإن الله تعالى لا يجري عليه زمانٌ، فعلمه ليس بمقيَّد بواحدٍ من الأزمنة، بل هو عالم في جميع الأزمنة على سواء على التحقيق، وكذا الآخرةً لا يُجرى عليها زمان؛ لأنه لا ليل ولا نهار هناك إلا بالاعتبار، فهما الليل والنهار حكمًا لا حقيقةً.

فـــ(رُبَّ) هاهنا كـــ(قد) الداخلة على المضارع الذي لا يقتضي الزمان، فيكون المراد تحقق وداوتهم لا تقليلها، وفي إيرادها على المضارع نوع تهكم بهم، كما يقتضيه الذوق الصحيح.

ودلَّ على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور: ٦٤]، فإنهم إذا كانوا مستمرين على ما هم عليه، فعلمه تعالى به مستمرًّا أيضًا على أن العرب يقول في صورة الأطماع ربما يكون، فإنه يوده في صورة الاحتمال، والمراد القطع.

ويظهره قوله تعالى: ﴿اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]، فإنه جعل العدل أقرب للتقوى من سائر الصفات مع أنه من نفس التقوى؛ لأن في العدل حذرًا وتوقيًا عن الظلم، وكذا في سائر الطاعات، فإن فيها كلها احترازًا عن المعاصي، وقولهم يشبه أن يكون هذا من هذا الباب من ذلك القبيل ونحوه قول المعجم شادمان: إذ ليس المقصود التشبيه، بل الإخبار عن الفرح والسرور، وربما يكون المراد بالاحتمال الإشارة إلى عدم الوقوع إذا كان هناك قرينة، كما إذا كان القائل غير معروف بالكرم وصدق الوعد، وأما الوعيد فهو عند أهل التحقيق يجري فيه الخلف، وإن كان بطريق القطع والتحقيق؛ لأنه من باب الكرم عند العرب، بخلاف الخلف في الوعد، والفرق أن في خلف الوعد ضرر الجانب الموعود، وأما في خلف الوعيد فنفع للمتوعد، والله يفعل ما يشاء.

وقد قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، فرُبَّ خصمٍ يجد الخصم مصالحًا يومئذٍ، ورُبَّ منكر عمله على الإقرار ما بدا له من خلاف عقيدة في الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠].

اعلم أن الشيطان كاذب؛ لأنه كافر، والكافر لا يتحاشى عن الكذب غالبًا إلا في هذا المحلّ ونحوه، فإنه صَدق فيه من جهة معرفته أنه لا بد له على المخلصين؛ وهم عباده المضافون إلى الكاف في هذه الآية، وإلى الياء في الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٢].

وفي هذه الإضافة تشريفٌ لهم جدًا من حيث إنهم عباده تعالى لا عباد الشيطان والنفس، والهوى، والدنيا، ففيه إشارة إلى أن مَن اتَّبع خُطوات الشيطان؛ فإنه في حكم عبد الشيطان.

وكذا مَن آثر الحياة الدنيا، فقد ورد: «**تعس عبد الدرهم والدينار**[1]»[2] وكذا مَن اتَّبع هواه كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥]: أي الهوى، والدرهم والدينار، وسائر متاع الدنيا المرغوب عند أهلها؛ لأن في كل ذلك ميلاً وانحرافًا عن الظاهر إلى المظهر لاسيما المظهر الذي يُضلُّ الله به الظالمين؛ ولذا قال تعالى: ﴿لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر:٨٨]، وإنما نهاه عن مدة العين إلى زهرة الحياة الدنيا؛ لأن ذلك من الذرائع إلى دخول حبٍّ ما

---

(١) رواه البخاري (٣/١٠٥٧)، والترمذي (٤/٥٨٧)، ابن ماجة (٢/١٣٨٥).

(٢) أي: محبهما، فعبر عن المحبَّة بالعبودية. فلا يكون عبدًا خالصًا صِرفًا، ولا يخرج عن حسِّه أحد من الآحاد إلا العبد الذي استخلصه الله ذلك العبد واختاره واصطفاه لنفسه، فوَجَّهه بقلبه إلى نفسه، وقطعه عن جميع التعلقات الكونية فوحدَّ عزيمته، وأدام جمعيته، فهو فانٍ عن حسّه، ولا يرى لنفسه محسوسات ولا مدركات ولا معلومات ولا معقولات بإفناء الله تعالى إيَّاه حيث تجلَّى عليه بصفة من صفاته، فبظهور صفة من صفاته تضمحل مكنوناته؛ لأنه إذا قورن الحادث بالقديم تلاشى الحادث في القديم لغلبة سلطانه، فالعبد إذا رأى قلبه منقطعًا عمَّا سواه مستقلاً بالله، مستغرقًا في ذِكر الله ومشاهدته، فليعرف بأنه ممن أصطفاهم الله، واختارهم لنفسه فهو موفق، ومن أهل العنايات الإلهية، فليحمد الله على ما هداه، وليشكره على ما أعطاه.

سوى الله في القلب، وتمكُّنه فيه، فلا بد من سدِّها بعض العين، وعدم الالتفات إلى الدنيا وزخارفها.

وقد ابتلى أكثر الناس في هذا الزمان بعرض الزين، وكذا بمدِّ العين، فضلُّوا وأضلُّوا، وكانوا من أعوان الشيطان، ونوَّابه في إضلال مَن يستحب الحياة الدنيا على الآخرة بخلاف غيره؛ وهو مَن يستحب الآخرة على الدنيا؛ وهم أهل الآخرة الذين كانت الدنيا حرامًا عليهم؛ أي منعوها عن أنفسهم منع الحرام، وكذا مَن يستحب الله تعالى عن الدَّارين؛ وهم أهل الله الذين كانت الدنيا والآخرة حرامًا عليهم؛ بمعنى انهم عملوا لله بأبدانهم؛ لكن اُشتغلوا بربهم عن الالتفات إلى أعمالهم، فإن الشيطان لا يحوم حولهم.

والحاصل: إن عباد الله منهم المخلِصون بكسر اللام؛ وهم الصادقون؛ بمعنى انهم تخلَّصوا عن شوائب النفسانية في أعمالهم وأحوالهم، وهم على خطر في الجملة لبقاء شيء من نفوسهم.

ومنهم المخلَصون بالفتح؛ وهم الصدِّيقون؛ بمعنى أنهم تخلَّصوا عن شوائب الغيرية، كما تخلَّصوا عن شوائب النفسانية.

فهم فَانون عن نفوسهم، باقون بربهم لا يد للشيطان عليهم أصلاً؛ لأن الشيطان إنما يخدم النفس؛ لأنها الأصل في الفساد، فإذا كانت حركات عن صفاتها الرذيلة؛ عزل الشيطان نفسه عن تلك النفس المطمئنة؛ لأن النور والظلمة لا يجتمعان.

ولقد غلبَ عاصم على غيره من القُرَّاء في قراءة الفتح، ولله درّه معرفة، فإن المستثنى من العباد؛ إنما هو هم لا غيرهم، وإن كان غيرهم أيضًا ممَن يتذكّر ويُبصر؛ لكن أين المخلط من غيره، فإنه ما دامت بقيَّة من النفس؛ فصاحبها غير محفوظ بالكلية، وقد عُرف بين الأولياء إن الكُمَّل محفوظون؛ بل معصومون إلا أن العصمة تُقال في الأنبياء، والحفظ في الأولياء فرقًا بين المقامين.

قال الله سبحانه: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [الحجر:٦٥].

يُشير إلى لوط: الروح، وأهله: قواه، فإن المؤمن يستأنس بالمؤمن، والجنس إلى الجنس يميل، والليل إشارة إلى ليل الجلال المقتضي للفناء المنتهى إلى الجمال المستلزَم

للبقاء، وفيه إن الأرض تُطوى في الليل، كما ورد: «**عليكم بالدلجة**»[(١)]؛ فإن الأرض تُطوى في الليل.

والدلجة: السير في الليل، ومن ذلك كان عبادات العباد في الليل أكثر، وكانوا يستحلُّونها لما يُورثهم النسيم الرحماني في الأسحار، والنفخ الروحاني في طلب الأوقات من اللّذات والنشاط.

وفيه أن الأهل: وهي المخدّرات ينبغي أن يكون خروجهنَّ من البيت لحاجة ضرورية في وقت الظلمة؛ لأنه أستر لهنَّ، وأهل الحرمين الشريفين يعملون بهذا إلى الآن، فإن نساءهم المستورات لا يخرجن بالنهار ألبتَّة؛ بل بعد المغرب، أو في وقت الشافعي حتى أن العروس تُزفُّ إلى بيت زوجها بعد المغرب حين ينقطع الأقدام من السكك، والأسواق.

وقوله ﷺ: «**واتبع أدبارهم**»[(٢)]؛ إشارة إلى حال رئيس القوم فإنه يسوقهم من ورائهم سوقًا لطيفًا، أو لو خلاَّهم وطبَّعهم مالوا إلى بعض الأمور الطبيعية الشهوانية، فينقطعون عن الطريق، ويحلُّ بهم غضب الله تعالى كما يحلُّ بالمنقطعين؛ لأن الوقت لا يقتضي إلا الإسراع، كما قال تعالى: ﴿**وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ [آل عمران:١٣٣] أي: إلى أسبابها، ومن ذلك السير المأمور في الليل.

وقوله ﷻ: ﴿**وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ**﴾ [الحجر:٦٥].

أي: في سيره إلى ورائه، كما كان حال النبي ﷺ؛ فإنه كان لا يلتفت إلى يمينه وشماله، ولا إلى جهة من جهاته، ولو بدا له، لم يلو عنقه؛ بل التفت بكله ليكون التوجه أحديًا، وهذا إذا كان الالتفات مما لا يضرُّ، ولم يكن منهيًّا.

وأمَّا إذا كان مضرًا منهيًّا؛ فلا التفات أصلاً كما كان ليلة المعراج، وفيه إشارة إلى حال السالكين، فإنهم إذا كانوا محققين، وفي سيرهم مجدين محفين، فهم لا يلتفتون عن السمت أصلاً؛ بل أخرجوا، كان خروجهم بالله.

---

(١) رواه أبو داود (٣/٢٨)، والنسائي (٦/٢٣٦).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١٢/٩٣)، (١٤/٤١، ٤٢).

ومن ثمرة هذا الخروج أن الخارج ينقطع تعلّقه عن مخرجه بالكلية فلا يقصد إلا السمت، فإذا حصل المقصد بالوصول إلى المنــزل؛ فالأمر بيد الله تعالى أيضًا، فإن هو ردَّه إلى حيث جاء؛ فقد انقطع عن ذلك المنــزلة بالكلية، وكان سيره إلى المخرج الأول؛ كأنه سير أوَّلي ابتدائي.

فالسالك العارف لا بد له من هذه المعرفة؛ وهي أن يجعل سيره سيرًا أحديًا لا يخطر بباله في سيره ذلك رجوعه إلى مخرجه أبدًا، ثم إذا رجع؛ رجع بتلك الأحدية بحيث لا يُشوِّش خاطره بالتعلُّق بذلك المنــزل، ويجعله عنده نَسيًا مَنسيًا؛ فهذا هو السير بالله، وليس فيه حكم طبع ونفس أبدًا.

وقوله ﷻ: ﴿وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر:٦٥].

: أي مضيًا مقطوعًا، فإنكم مأمورون، والمأمور لا يفعل أمرًا بطبعه؛ بل بربه وهُداه، ومن هذا المقام نُبِّه داود النبي عليه السلام لمَّا خرج إلى محاربة جالوت: ألا يخرج معه أحد من أهل التعلُّق: أي تعلُّق كان، فإن ذلك يقطع طريقه، وطريق مَن معه من حيث لا يحتسب، ولم أجد في زماني هذا من أهل هذا الباب، والله أعلم.

* * *

وفي سورة النحل

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٠].

نكر العلم والشيء؛ إشارة إلى أن العارف بالله إذا وصل إلى الله، كان علمه علمًا واحدًا، هو علمه بالله تعالى، فهو أجلُّ العلوم، كما أن الله تعالى أجلُّ المعلومات يعني: إن أجلَّ العلوم هو ما تعلّق بأجلِّ المعلومات، وأمَّا ما عده مما تعلّق بغير الله تعالى؛ فدونه.

فظهر أن علم التصوُّف أجلُّ العلوم، ولأنه باحث عن ذات الله تعالى وصفاته، وأفعاله من طريق الكشف لا من طريق العقل(١) كما عليه أهل الحكمة البحثية

---

(١) قال الشيخ القونوي في سر العلم الذاتي وأوليته: اعلم أن لأولية علم الحق الذاتي سرَّين:

حكم أحدهما: علمه بنفسه باعتبار وحدته وإطلاقه معًا؛ وإنما قلت معًا من أجل أنه ليس في محض الإطلاق علم ولا يتعلق به حكم ولا يتعين له اسم، ويتعقّل تعين الوحدة له؛ ينفتح باب مطلق العلم؛ لكن من حيث أن العلم والعالم والمعلوم واحد. والسر الآخر من السرَّين المشار إليهما: هو اعتبار علمه سبحانه بما في نفسه من نفسه؛ فإنه متأخِّر الرتبة عن اعتبار علمه نفسه بنفسه على نحوِ ما ذكر.

وله: أي لهذا السر العلمي الذي قلنا أنه الثاني حكمان:

متعلق أحدهما: علمه سبحانه بما في نفسه من شئونها، ولوازمها القاضية بظهور العالم من العلم إلى العين؛ والمقتضية ظهوره أيضًا متعددًا متنوعًا فيها؛ وما يستلزم ظهوره في كل شان منها بحسبه مما لا ينضاف إليه دونه.

والحكم الآخر متعلقه: علمه سبحانه بما في نفسه من حيث تعقُّل كل ظهور من ظهوراته في كل شأنٍ من شئونه؛ جمعًا لا فُرادىً، وهذا هو أصل علم الحق بالأعيان الممكنة.

والفرق بين هذين التصورين بين فإن حكم التعقُّل الأول يقتضي علم كل شأن مفردًا، وعلم الظهور من حيث ما يخصُّ الحق ويضاف إليه، وهذا التعقُّل الآخر متعلقه المجموع؛ أعني تعقُّل نفسه بنفسه في نفسه، وتعقُّل نفسه ظاهرًا في كل شأن بحسب الشان ظهورًا لم يكن من قبل، فإن رؤية الشيء نفسه بنفسه في نفسه ليست كرؤية الشيء نفسه بنفسه وبغيره في أمر يكون له؛ كالمرآة لما يظهر من حكم المرآة في الأمر الذي ينطبع فيها مما لم يمكن ظهوره على ذلك الوجه قبل ذلك الانطباع.

وإذا عرفت هذا فنقول: لمطلق العلم عموم الإدراك لنفس المدرك وما فيها؛ فمتى أُعتبر استجلاء العالم لما في نفسه من شئونه المتعددة القاضية بتعدُّد ظهوراته في الأعيان؛ فهو عبارة عن علم الحق بالعالم =

ونحوهم، وكذا العلوم الكشفية إذا لم تكن سفلية متعلّقة بالأكوان؛ بل كانت عُلوية

=

وحقائقه؛ متعينًا وغير متعيَّن؛ أي متناهيًا وممتازًا عن غيره وغير متناه ولا ممتاز؛ إذ أعيان الممكنات غير متناهية؛ فلو استجلاها العلم متناهية متعينة محصورة في عددٍ معلوم؛ لم يكن ذلك علمًا، فإن المعلوم ليس كذلك، واستجلاؤه لبعض شئونه على التعيين مع بعض ظهوراته في أمرٍ جامعٍ مستوعب؛ هو حقيقة العقل الأول؛ وأنه الذكر المشار إليه بقوله: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ**﴾ [الأنبياء: ١٠٥] فمرتبة العلم كما بيَّنا أول، ويليه الذكر الذي هو الحضور مع ما قصد العالم استجلاؤه على التعيين من بين معلوماته ليبرزها، وإن شئت قلت: ليظهر متعينا فيها، والزبور هنا هو اللوح المحفوظ، فالتعقُّل هو الاستجلاء، والحضور مع ما يستجليه بعد حفظه وقصده؛ لإفرازه من بين باقي المعلومات بالذات والاختيار جمعًا؛ هو ذكره لذلك؛ وتصوره لتلك الجملة في أمر جامع لمراتب تعين كل ذلك هو الكتابة المتعلقة السابقة على الكتابة الظاهرة المرموقة في ذلك الأمر الجامع، والمادة الجامعة لكل ما ذكرنا صورة من صور العماء، والعلم الذاتي هو المحيط نحو ما ذكرنا، فافهم.

وبعد تقديم هذه القاعدة الكلية، فاعلم أن ارتسام المعلومات في ذات كل عالم كان من كان إنما يكون بحسب نفس العالم، فإنه كالمحل لما يرتسم وينطبع فيها كما أشرت إليه في غير هذا الموضع من كتبي؛ أن كينونة كل شيء في أمرٍ ما وتعينه إنما يكون بحسب المحل، وسواء كان المحل معنويًا، كما ذكرناه الآن في شأن المعلومات مع نفس العالم، أو كان محسوسًا؛ كحال المرآة مع ما ينطبع فيها، وهذا السر قد يتفطَّن له أهلُ الفطر السلمية بأيسر تأمُّل؛ وإن لم يكونوا من أهل الذوق والاطلاع.

فإذا وضح لك هذا مع استحضارك ما وقع عليه الاتفاق من أن حقيقة الحق مجهولة؛ وإن حقيقته من حيث محض ذاته ممتازة عن حقيقة كل ذات، عرفت أن تعين حقائق العالم من حيث ارتسامها في علمه الذاتي مخالف لاتسامها وتعينها في علم كل عالم سواه؛ ومن البين أيضًا أن الحق لا يتجدد له علم بشيء ولا يقوم به الحوادث.

فثبت أن الأعيان الثابتة المسماة عند الحكماء بالماهيات باعتبار تعينها في علم الحق غير مجعولة كما مر بيانه، وهي بعينها من حيث تعينها وارتسامها في علم من سواه مجعولة؛ لأن علم من سواه علم حادث انفعالي عارض بتبعية الوجود المستفاد من فيض الحق، وعلم الحق علم ذاتي أزلي فعلى غير عارض ولا مستفاد، فتعقلاته سبحانه للأشياء تعقلات أزلية أبدية على وتيرة واحدة لا يقبل التبدل والتغير أصلا لما مر بيانه.

فمتى أمعنت النظر في هذا الأصل؛ عرفت سبب غلط الناس في هذه المسألة؛ القائلين منهم بأن الأعيان الثابتة غير مجعولة مطلقًا والقائلين بجعلها؛ وتحققت أنها باعتبار تعينها في علم الحق غير مجعولة باعتبار تعينها في علم من سواه مجعولة، فافهم والله المرشد. وانظر: النفحات (ص١٢٨) بتحقيقنا.

متعلّقة بما ذكر من ذات الله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله؛ وهي عين العلوم التي تُذكر في كتب التصوُّف؛ لكنها من قبيل العين والأذواق، وما في كتب التصوُّف فرموز، وإشارات، ورسوم[1].

وإنما نُكِّر الشيء؛ لأن الأشياء أيضًا في الحقيقة شيء واحد، والوجود والعالم من جوهر واحد، فإذا اتَّحد العلم؛ اتَّحد الأشياء، ولمَّا لم يكن الأشياء ذاتية أصلية باقية على حالها، وإنما خُلقت كتلوِّن زوال، وشواهد اضمحلّت عند حصول الفناء، فكان علم الفاني في الله العلم بالله لا العلم بالأشياء والأشياء[2].

---

(١) **فائدة خاصة**: قال الشيخ ابن سبعين: واعلم أن جميع ما دون في التصوف والحكمة وغير ذلك مما يجر إلى هذا الشان وجميع ما سمعت من العلوم المضنون بها والحكمة الإشراقية وسر الخلافة ونتيجة النتائج كل ذلك في الوجه الأول من وجوه التصوف.

والتصوف تسعة أوجه، وبعدها حبل التحقيق. وبعد الحبل نبدأ بعالم السفر، وبعد السفر تقرع باب التحقيق والنور المبين، والهرامسة خاصة عَلِموه، والكتب المنزلة أفادتهم وأما الفلاسفة بأجمعهم ورؤسائهم من المشائين ورئيس المشائين أرسطو وأتباعه من غير ملة الإسلام: ثامسطيوس والإسكندر الأفرودسي وفرفريوس القبرسي وأرسطاليس الصقلي وأتباعه من ملة الإسلام مثل الفارابي وابن سينا وابن باجه المذكور في آخر « القلائد » والقاضي ابن رشد في بعض أمره، والسهروردى مؤلف «حكمة الإشراق» والتلقيحات والنبذ في أكثره، والغزالي بوجه ما، وابن خطيب الرَّي في بعض صنائعه، وجميع النبهاء فإنهم لم يصلوا إليه لقصورهم عنه، ولأن علومهم وصنائعهم دون ذلك كله والله على ما نقول وكيل.والصوفية كذلك، إلا السلف الصالح أعني صحابة سيد السادات محمد ﷺ فإنهم علموه، ومعلمهم هو العظيم الذي إذا نظر العارف في شأنه وتتبعه وتصفحه وتأمله على ما ينبغي ويجمل به ويصح في حقه علم أن أهل الحق كلهم نقطة من ذكره وذرة من قفره. وانظر: الرسائل (ص٦٧) بتحقيقنا.

(٢) قال سيدي علي وفا: العلم مبدأ التجرُّد وصبغته، والإدراك مبدأ التحدُّد وصبغته، الأول: صفة نفس الواجب الوجود، والثاني: صفة نفس الممكن الوجود، أو لازمه، والإدراك في العلم من جملة متعلقاته المجردة، والعلم في الإدراك من جملة متعلقاته المحددة، فلا معلوم إلا مجرد بما هو معلوم، ولا مدرك إلا مشخص بما هو مدرك، وكل مجردٍ واجب، وكل مشخصٍ متحدد من حيث أنه مشخصٌ، والوجود الذات واحد يجرد من نفسه لنفسه بنفسه أمورًا يحققها ويتعيَّن بها، فهي موجوداته، وثم يرتبها فتدور دوائر وجوباته ودوائر إمكاناته واستحالاته في مشاهد نفيه وإثباته، =

وفي سورة الإسراء

قوله ﷻ: ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء:١٦]؛ المراد من تدمير القرية: تدميرها، وتدمير أهلها؛ لأن تدميرهم تابع لتدميرها.

ألا ترى أن الله أمر جبريل بقلب قرى قوم لوط، فقلّبها، وهم فيها؛ فهلك، وهلكوا جميعًا، وكذا أصحاب القرية المذكورة في سورة يس.

وأطلق التدمير؛ لكون كل منها مدمَّرة مخصوصة حسبما اقتضتها أعمال أهلها؛ كالطوفان بالنسبة إلى قوم نوح، وكالقلب بالنسبة إلى قوم لوط، وكالريح بالنسبة إلى قوم هود، وخصَّ المترفين: أي المنعَّمين؛ لأن الفقراء تبعٌ لهم، والناس على دين ملوكهم.

والسمك يتغيَّر من الرأس كما هو المشهور، فإذا عصى رؤساء القوم؛ لا يبقى لهم، ولأتباعهم حرمة أصلاً على أن الأتباع إن كانوا عصاة أيضًا؛ فهم أُسوة لهم في الهلاك، والأسرى الهلاك إليهم بحكم الجوار، وبحكم المداهنة، أوالسكوت عن الحق.

وفيه إشارة إلى قرية القالب ومترفوها هي: أشراف الأعضاء، والقوى؛ كالسمع والبصر، والقلب، فإن الجسد تابع لها، فإن صلُحت؛ صلُح الجسد، وإن هلكت؛ هلك؛ وهذا هو الهلاك المعنوي، والفساد الحقيقي.

وقد قال تعالى: ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]، وقال: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

فالفاسد المفسد، الهالك المهلك لا يلحقه إلا الفساد والهلاك؛ لأنه جزاؤه، وصورة عمله، والله تعالى نسأل أن لا يهلكنا بسوء الأعمال، ونتوب إليه من رديئات الأحوال.

=

ودوائر إمكانه أصل شهودي لدوائر وجوباته في دائرته النظرية والخبرية، وهما إدراكيان، ودوائر وجوبه أصل وجودي لدوائر إمكاناته في الإدراك والعلم، فالواجبات تتعلّق بالممكنات تعلُّق اليقين، والممكنات لا تتعلّق بها إلا تعلُّق الظن؛ لأن الأولى عالمة بذاتها، ومدركة بإدراكٍ مجرَّد، والثانية مدركة بنفسها، وعالمة بعلم مشخص يحتمل النقيض بالتجرُّد عن ذلك التشخص؛ إذ التشخص بقاؤه في حفظ تشخصه، وإمداده بذلك إبقاؤه، والمجرد مستغنٍ عن ذلك.

قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢].

قدَّم الشفاء؛ لأنه إشارة إلى سورة الفاتحة، والآيات المتعلّقة بالأدعية.

لطيفة وفائدة: قد صحَّ أن الفاتحة شفاء من كل داء، إذا قُرئت ونفخت بحضور القلب، وكذا إذا كُتبت في إناء، وغُسِّل الرسم بماء مطلق، أو بماء الورد، وشربه المريض، أو مَن في حكمه، وكذا إذا كُتبت، وعُلّقت على الأعناق والصدور، فكما لا بد من حضور القلب في جانب القارئ والكاتب؛ فكذا لا بد من حسن الاعتقاد، وحسن الظنِّ بالله في جانب المقروء عليه، والمكتوب له إذا كان من شأنه ذلك.

ولذا قُيِّد بكونه شفاء للمؤمن؛ فإن غير المؤمن لا يجده شفاء بحسب اعتقاده، وإن كان هو في نفس الأمر شفاء، كما أن التوحيد حاصل في نفس الأمر سواء عرفوه أم لا، وإنما الكلام في كلمته، والاعتقاد له، فمَن لم يتكلّم بكلمته، ولم يعتقده؛ لم يكن التوحيد حاصلاً بالنسبة إليه: أي بالفعل كمَن عنده عسل، وهو يُنكر حلاوته؛ لغلبة الإصفرار على مزاجه، أو كان الضرير يُنكر نور الشمس، وهو ظاهر.

والحاصل: إن القصور، والهمم، والنيَّات مؤثِّرة جدًا غالبًا، وإنما قلنا: غالبًا؛ لأنه قد يتخلّف التأثير بحسب بعض العوارض، والموانع.

ألا ترى أن بعض الأنبياء تجيء يوم القيامة، وليس معه أحد؛ لغلبة الظلمات على نفوس أمته، فكانوا بحيث لا يتأثّرون من كلامه، وإن كان كلامه جَد مقرونًا بالهمة القوية، وقد جدَّ نبينا ﷺ في إيمان عمه أبي طالب، واهتم بذلك؛ لكن لم يعقبه التأثير، والله يفعل ما يشاء.

والرحمة؛ إشارة إلى ما في القرآن من الوعد والبشرى نحو قوله تعالى:
﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].
وقوله: ﴿لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٥٣].
وقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، ونحو ذلك؛ فهي رحمة خاصة تحصل للمؤمن في الدَّارين.

فإن قلت: فهذه الرحمة لكونها مقيدة بكونها للمؤمنين ليس للشيطان نصيب منها.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] فيقتضي خلافه لعمومه.

قلت: هذه الرحمة أيضًا خاصة ليس للشيطان نصيب منها؛ لأنه كافر، فصار كالممرور المذكور الذي لا يجد حلاوة العسل، فينكره، فالمانع ليس من جانب المرسِل؛ بل من جانب المرسَل إليه.

ألا ترى أن نور الشمس إنما يدخل في البيت إذا كان له كُوة، وأمَّا المطبق الغير النافذ فليس له نور، وإن كان النور حاصلاً في نفس الأمر، فانظر إلى تفاوت الناس في استعداداتهم؛ فأعلى، وأوسط، وأدنى.

فالأعلى: هو المؤمن الكامل المنوَّر بنور الحق تعالى بالفعل من جميع جهاته.

والأوسط: هو المؤمن الناقص المنوَّر بالفعل من بعض جهاته.

والأدنى: هو المسدود عليه باب ذلك النور.

فالأعلى المقرَّبون، والأوسط الأبرار، والأدنى الأشرار.

ثم إن المنـــزَّل عليه، هو قلب النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ*عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وذلك من طريق الأصالة(١).

وقد ينـــزل على قلب الوارث؛ لأن القلب واحد في الحقيقة؛ وإنما ظهر له

(١) اعلم أن الله ﷻ لما أبدى خلقه وأمره بين نهايتين: نهاية علوٍّ فيما تعرف به وطرف دنوٍّ ممن تعرف إليه من خلقه جعل بين ذلك العلوِّ العلا وبين ذلك الدنوِّ وصلةً منه وإيحاءً من لدنه، فكان خافية وصلته تنـــزيلاً إلى الطرف الأدنى المالكة الروحية التي نـــزَّلها إلى الروح القدسيِّ والروح الأمين والملائكة والمرسلين، ونـــزَّلهم بما نـــزل إليهم، وكان ظاهر وصلته الرسالة البشريَّة الآدميَّة بما نـــزل به ملائكته المرسلين والروح الأمين وروح القدس إلى ما وراء ذلك من اصطفاء التكليم إلى تفضُّل الرؤية، فكان موقع الاختصاص في الرسول لبشرى فيما بينه وبين ربِّه نبوَّةً، وبلاغ المرسل من ذلك الاختصاص حظًا عامًّا لمن دون النبيِّ في ذات اختصاصه رسالةً، ولما جبل الخلق عليه من إباءٍ عن قبول ما ينـــزل عليهم ساق النبوَّة والرسالة تسلط من المرسل عليهم على المرسلين في ابتداءٍ أو إلى انتهاءٍ، وإقامة قسطاسٍ، وإظهار سلطانٍ، وموافاة نقماتٍ على الآبين نجاةً للمرسلين.

شعب بالنسبة إلى اختلاف أرباب القلوب، وذلك من طريق المتابعة، ولا يزيد على المنـــزل الأول من حيث الأحكام، وإلا كان وسواسًا، أو خيالاً، وكذا من حيث النظم، والمعنى، والحقائق، إنما التفاوت بالنسبة إلى المنـــزَّل عليه، فقد يحصل لبعضهم من المزايا لم يحصل لغيرهم فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، فخفى على قوم، وبدا لآخرين، وبذلك جُعلت الطبقات مختلفة، فأين علوم المؤمنين عامة من علوم الأولياء؟ وأين علوم الأولياء من علوم الأنبياء، والمرسلين، وأولي العزم؟ فاعرف ذلك.

وقال المصنف في موضع آخر: قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ [الإسراء:١٦].

من القرى، وبلدة من البلاد، وموضعًا من المواضع، والإرادة تخصيص أحد الجانبين من الوجود، والعدم بالوقوع؛ والقدرة هي القوة على الإيقاع، ولا تعلّق بالإهلاك والإعدام في الحقيقة؛ بل بالإنشاء والإيجاد، فإن إهلاك الشيء بحسب موطنه إيجاد له في موطن آخر، ونظائر الآية كثيرة نحو: ان يشأ يذهبكم، أيها الناس: أي يذهب صوركم من هذا الموطن، ويظهركم في صورة أخرى في غير هذا الموطن، فإذا الأمر إعدام، وإيجاد؛ والوجود هو متعلّق الإرادة، والقدرة لا العدم، وإن كان المقدور معدومًا لا موجودًا.

ثم أشار إلى سبب الإهلاك فقال الله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ [الإسراء:١٦]؛ هو الأمر الإرادي لا الأمر التكليفي، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر والفسوق والعصيان، وإن كان ذلك مما يشاء؛ كأنه قال: يتعلّق أمرنا وإرادتنا بفسقهم الذي جُبلوا عليه على ما علمنا من استعداداتهم الغير المجعولة.

فالعلم تابع للمعلوم، والمعلوم لا يتعيَّن في العين الخارجي إلا في وقت معلوم، والله تعالى هو الخلاّق المظهر لكل شيء في وقته المعيَّن بحسب ما يقتضيه استعداده الأزلي، وقابليته القديمة حين كونه شأنًا ذاتيًا فعلى ما كان ذاتيًا على ما يقتضيه استعداده أن يريده ويخلقه، فهذا ودع القيل والقال.

فإن أهل التفسير ذهب كل منهم في هذه الآية إلى نوع من المقال، والذي

ذكرناه هو حقيقة الحال، والحق الذي لا محيد عنه بحال من الأحوال، وماذا بعد الحق إلا الضلال!.

وقال الله سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤].

عطف قوله: ومن فيهن على نفس السماوات والأرض، ويدلُّ على أن التسبيح ليس بمخصوص بمَن فيهن من ذَوي العقول؛ بل هو عام لِمَن فيهن لأجزائهنَّ؛ كأنهنَّ وإن كنَّ في صورة الجمادات؛ لكن الله تعالى خلق الأشياء كلها بحيث يصحُّ منها التوحيد والتسبيح لِما أنها من ذَوي العلم والحياة في الحقيقة؛ ولذا قالوا: العالم كله سماع: أي يسمع منه التسبيح بالنسبة إلى المكاشف.

وأمَّا المحجوب: فلا يرى التسبيح إلا من ذَوي العلم، والحياة الظاهرة الحسية؛ فيُحمل تسبيح ما عداهم على معنى الدلالة على ما عليه أهل الظاهر، ويكذّبهم الآية؛ ولأجل تأكيد ذلك المعنى قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]؛ يعني: كل موجود وقع له التجلّي الروحاني والجسماني؛ فهو مسبِّح لربه وحامد.

فإن كل مخلوق خاضع لخالقه، فإن قلت: قد نرى الكفار، انهم لا يسبِّحون؛ قلت: امَّا إنهم من حيث ذواتهم فدائمون على التسبيح؛ بل كل نَفسٍ من الأنفاس الإنسانية يخرج من الفمِّ على صورة؛ هو رمز إلى الهُويَّة الذاتية، وأمَّا من حيث صفاتهم؛ فغافلون عنه.

ومن ثم بعث الأنبياء - عليهم السلام - لأنهم يدعون الخلق إلى كلمة التوحيد، والتنــزيه لا إلى نفس التوحيد والتنــزيه، فإنه متحقّق في العالم بأسره سواء قال بكلمته أهله أو لا.

ومن هنا يعرف أن الله تعالى ليس بمحجوب عن الخلق؛ لأنه متجلّ فيهم بأسرار ذاته، وأنوار صفاته بخلاف الخلق؛ فإنهم محجوبون عنه تعالى إلا المؤمن الكامل، ومن ثم وقع الجحود، والكفر، والشرك، فلو كُشف الغطاء؛ وهو غطاء البشرية، وما يتبعه لم يظهر إلا التسبيح؛ وهو التسبيح الصفاتي الموافق للتسبيح الذاتي، فانظر إن الإنسان في صورة الموافقة في عين المخالفة.

قوله ﷻ: ﴿وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، لم يقل: ولكن لا تسمعون تسبيحهم مع ظهوره؛ لأن المقصود الأصلي من سماع التسبيح هو: فقه معناه، والوصول إلى معرفة الحقائق، وإذ لا فائدة في مجرَّد السمع والبصر بدون الإدراك الحقيقي خص الفقه بالذكر، ومن هذا القبيل ما قال تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:١٩٨]؛ يعني: إن صورة النظر لا تقتضي حقيقة الإبصار.

فالنبي وغيره مشتركان في صورة الإبصار والإحساس؛ لأن الكل من حيث صورته، ومَن ناظر إليه من حيث حقيقته، فالناظر بالنظر الأول؛ أهل الحجاب، والناظر بالنظر الثاني؛ أهل الكشف، وقد فرَّق الله تعالى بين صورة النبي ومعناه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف:١١٠].

فإن البشرية مما يلي جانب الخلق، والوحي مما يلي جانب الحق، فالخلق ظاهر، والحق مستور عند المحجوب، والأمر بالعكس عند المكاشف.

ولذا قال في كل حال: لا إله إلا هو، اللّهم اجعلنا من الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر، والمبصرين للصورة.

وقال تعالى: ﴿وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الإسراء:٥٨].

أشار بالقرية إلى قرية القالب الإنساني التي يسكنها القلب؛ فإنها تُخرَّب بالموت الطبيعي الذي هو القيامة الصغرى قبل أن تقوم القيامة الكبرى، كما تُخرَّب القرية بما هو في حكم الموت من الآفات، وهذا الخراب لا يقبل العمارة أصلاً؛ لأنه لا حياة بعد الموت.

وبالنسبة إلى العادة الإلهية كما قال حكاية عن عزير ؑ: ﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِـي هَـذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩]؛ ومعنى العذاب إصابة الشدائد، ومسُّ المحن والمكاره، فإن ذلك في حكم العذاب الأخروي، فكما أن العذاب الأخروي لتخليص الجوهر عن الكدورات؛ فكذا الابتلاء الدنيوي، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١].

فالعذاب الأدنى هو: العذاب الدنيوي، كما أن العذاب الأكبر هو: العذاب الأخروي دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿**إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ**﴾ [الغاشية:٢٥] بعد قوله: ﴿**إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ**﴾ [الغاشية:٢٣، ٢٤].

فلا رجوع عن الكفر والمعاصي بعد الوقوع في العذاب الأكبر؛ بل إنما يتحقق ذلك في العذاب الأدنى، فإن تحقق؛ فذلك رحمة في صورة العذاب، وإلا فذلك رجزٌ وغضبٌ من الله؛ كالطاعون حيث كان رحمةً وشهادةً للمؤمن، وغضبًا وإهانةً للكافر، فهذا العذاب ليس في حكم الخراب بالكلية، فقد يرفعه الله بعد تمام الابتلاء؛ فيكون القالب والقلب معمورين على حالهما.

وفي الآية إشارة أخرى، وهي: إن خراب القالب عبارة عن خراب القلب بالفناء الكلي؛ لأن المراد بالفناء هو زوال التعلُّق بالتعينات، وتعيُّن القالب أظهر من تعيُّن القلب بالمعقولات؛ وهذا حال الكُمَّل فإنهم بعد إصلاح الطبيعة بالشريعة، وإصلاح النفس بالطريقة؛ عرجوا إلى درجة المعرفة، والحقيقة بإصلاح الروح، والسرِّ بقطع العلائق عن الكون.

وأمَّا التعذيب فحال مَن دونهم من أهل السلوك الذين شدَّدوا على أنفسهم بأنواع الرياضات والمجاهدات لكنهم لم يصلوا إلى الموصول إليه الكُمَّل من الفناء الكلي؛ بل بقوا في بعض مواطن السلوك إلى أن انتقلوا بالموت الطبيعي من هذه النشأة، فحصول مرادهم بيد الله تعالى؛ لأنه تعالى قال: ﴿**وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللَّهِ**﴾ [النساء: ١٠٠].

فكما أن المتوفَّى في طريق الحج المعنوي؛ فإنه يلتحق بالكُمَّل من حيث قصده، فإن الذُّرِّيَّة الصالحة يلتحقون بآبائهم على ما نطق به الكتاب، وهم أشرف الذُّرِّيَّة؛ لكون نسبهم نسب التقوى.

وقد ورد: «**كل حسب ونسب ينقطع إلا حسبي ونسبي**»(١).

---

(١) رواه الخطيب في التاريخ (٥/٢٦٦).

فالنسب الذي لا ينقطع، هو نسب التقوى وأهله، وهو الهاشمي حقيقة[1]،

(١) فائدة: اعلم أن إمام المتَّقين: أي قائدهم إلى الصراط المستقيم، ودالُّهم على آثار الدين القويم؛ لأن المتقين كلهم: أولهم وآخرهم لائذون بسُنَّته، متمسكون بطريقته؛ لأنه ﷺ أخشى الخلق إلى الله وأتقاهم، وأشدَّهم يقينًا، وعزمًا، وأقواهم، هو النبي ﷺ.

وأصل الإمام: المتَّبع، والهادي لِمَن اتَّبعه، والمتقدِّم بين يدي القوم، والشافع لِمَن خلفه.

والمتَّقي: هو الذي جعل وقاية بينه، وبين النار ينجو بها في دار القرار.

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: التقوى: ألا يراك مولاك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك.

فمَن امتثل المأمورات، واجتنب المنهيات؛ فهو المتقي؛ وهذه هي التقوى الخاصة، ولا يصدق ذلك حقيقة إلا على مَن عصمه الله من أنبيائه أو حفظه الله من أوليائه، فإنهم صلوات الله عليهم كلهم مطهَّرون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

فهم المتَّقون حقًّا المطيعون لله، وإمامهم، وخاتمهم، وواسطة عقدهم هو: نبينا، ومولانا محمد ﷺ؛ فإنه أشدُّ الخلق حفاظًا على أوامر مولاه، وأبعد الخلق عن الذي حذره الله عنه ونهاه.

قالت عائشة رضي الله عنه: ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين شيئين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه.

فكان ﷺ لشدة تقواه لله تعالى، وإمامته للمتقين، قد حاز منها ذروتها، فانفرد بها عن الوجود مرتقيًا في أعلى عليين.

فهو أشدُّ الخلق خوفًا من ربه، وأقواهم معرفة، وعلمًا به، وأمكنهم طاعة لله، وأجدَّهم عبادة لمولاه مع قوة، وأدب، ووقار، وحسن سمت، وتؤدة، وبلوغ مروءة، وتمام هُدى، وزهد، وتمكن خوف، ونظر في عاقبة، ومشاهدة للمغيبات، وبكاء، وخشوع في سائر الأوقات.

قائلاً ﷺ : «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيرًا**».

وفي رواية: «**ما تلذَّذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله**».

قالت عائشة رضي الله عنها: كان عمل رسول الله ﷺ دِيمة، وأيُّكم يطيق ما كان يطيق؟

قالت: كان يصوم حتى تقول لا يُفطر، ويُفطر حتى تقول لا يصوم، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلِّيًا إلا رأيته مصليًا، ولا نائمًا إلا رأيته نائمًا.

قال ابن أبي هالة ﷺ: كان ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة.

وقال علي ﷺ سألت رسول الله ﷺ عن سنَّته، فقال: «المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحبُّ أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كنـــزي، والحزن رفيقي، والعلم سلاحي، والصبر ردائي، والرضا غنيمتي، والفقر فخري، والزهد حرفتي، واليقين قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حسبي، والجهاد خُلقي، وقرة عيني في الصلاة».

=

=

وفي رواية: «**وثمرة فؤادي في ذكر الله، وغمّي لأجل أمتي، وشوقي إلى ربي**».

وقد روى كعب الأحبار، وعبد الله بن سلام رضي الله عنهما في صفة رسول الله ﷺ في التوراة، فذكرا فيها صفات وصفه بها ربه جلّ جلاله.

ثم قال في آخرها مولاه، وخالقه، ومانحه: أسدده لكل جميل، وأهب له كل خلق كريم، ثم أجعل السكينة لباسه، والبرَّ شعاره، والتقوى، والحكمة معقوله، والوفاء طبيعته، والعفو، والمعروف خُلقه، والعدلِ سيرته، والحق شريعته، والهدى هامته، والإسلام ملّته، وأحمد اسمه أُهدى به بعد الضلالة، وأُعلم به بعد الجهالة، وأُرفع به بعد الخمالة، وأُسمي به بعد النكرة، وأُكثر به بعد القلة، وأُغني به بعد العيلة، وأُجمع به بعد الفرقة، وأُؤلف به بين قلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأمور متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أُخرجت للناس.

فبتحقق هذة الصفات فيه كان نبينا ﷺ إمام المتقين، وبناء ضميره عليها، استحقَّ التَّقدمة بين يدي الكاملين، وبجدّه في طاعة مولاه؛ سمَّاه سيد المرسلين، هذا مع كون الله تعالى شرح له صدره، ويسَّر له أمره، ورفع ذكره، وأخبره، وبشّره أنه مغفور له ﷺ، وعلى آله وشرَّف وكرَّم.

وكان عليه ﷺ من كمال الخوف المزعج، واتّباع الطريق الأنهج، وشدّة قواه لله تعالى، وتحذيره من النار للمُهج. قائلاً في خطبه ﷺ: «أيُّها الناس! اتقوا الله حق تُقاته، وسارعوا في مرضاته، وأيقنوا من الدنيا بالفناء، ومن الآخرة بالبقاء، واعلموا لما بعد الموت، فكأنكم بالدنيا لم تكن، وبالآخرة لم تزل.

أيُّها الناس! إن مَن في الدنيا ضيف، وما في يده عارية، وإن الضيف مرتحلٌ، والعارية مردودة، ألا وإن الدنيا عرضٌ حاضرٌ، يأكل منها البرُّ والفاجر، والآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر، فرحم الله امرأ نظر لنفسه، ومهَّد لرمسه، ما دام رسنه مُرخي، وحبله على غاربه مُلقى، قبل أن ينفد أجله فينقطع عمله».

ومن آداب مَن علِم أن نبينا ﷺ إمام المتقين: إن يكون ساعيًا في حضور التقوى، جادًا في طاعة ربه قبل أن يندم في دار البلوى؛ لأن مَن دخل حزب المتقين، ووُسم بسمات شعائر الصالحين، كان المصطفى إمامًا له، وقائده إلى ثواب رب العالمين.

والتقوى الخاصة إذا حصلت للمؤمن كان وليًّا، وصدق في تقواه صدقًا مرضيًا، وكان من المتقين هم الصادقون.

قال الله في كتابه العظيم: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

=

=

فانظروا رحمكم الله هذه الآية الكريمة، كيف فسَّرت الصادقين في أعمالهم، والمتقين في أحوالهم، وهم الذين يؤمنون بالله، واليوم الآخر، ويُقيمون الصلاة، ويُؤتون الزكاة، ويُوفون بعهدهم، ويصبرون على ضررهم.

وبالجملة: بالتقوى تجمع امتثال كل مأمور به، والمحافظة عليه، واجتناب كل مُنهى عنه من التلبُّس به، والقرب إليه، فلا تطمع أن تكون متقيًا حتى تكون حسن المعاشرة، كريم الصنيع، ليِّن الجانب، باذلاً للمعروف، مُطعمًا للطعام، مفشيًا للسلام، عائدًا للمرضى، مشيِّعًا للجنائز، محسنًا للجوار، موقرًا للكبار، راحمًا للصغار، عفوًّا عن الزلاّت، مصلحًا بين الناس، كريمًا سمحًا، مبتدئًا بالسلام، كاظمًا للغيظ، جامعًا لخصال الخير،تاركًا لخصال الشر، معرضًا عن الباطل، والغناء، والأوتار؛ تاركًا للكذب، والغيبة، والغش، والخديعة، والشحِّ، والجفاء، والنميمة، وسوء الظن، وقطيعة الأرحام، وسوء الخلق، والتكبُّر، والفخر، والعجب، والاختيال، والمزاح، والفحش، والحقد، والحسد، والطيرة، والبغي، والعُدوان والظلم، والرياء، والسمعة.

فإذا علمت هذه المأمورات وفعلتها، وعرفت هذه المنبهات واجتنبتها، رجوت من مولاك أن تكون عنده متقيًا، ومن عقابه في الدار الآخرة ناجيًا.

ولقد حذَّرنا نبينا ﷺ من هذه المنهيات، وحثّنا على فعل هذه المأمورات.

قال أنس بن مالك ﷺ: فلم يدع رسول الله ﷺ نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها، وأمرنا بها، ولم يدع غشًا، ولا عيبًا إلا وحذَّرنا منه، ونهانا عنه.

وقال معاذ بن جبل ﷺ: أوصاني رسول الله.

قال لي: «يا معاذ، أوصيك: بتقوى الله، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجار، ورحمة اليتيم، ولين الكلام، وبذل السلام، وحسن العمل، وقصر الأمل، ولزوم الإيمان، والتفقُّه في القرآن، وحب الآخرة، والجزع من الحساب، وخفض الجناح.

وأنهاك: ان تشتم حليمًا، أو تكذِّب صادقًا، أو تطيع آثمًا، أو تعصي إمامًا عادلاً، أو تفسد أرضًا.

أوصيك: بتقوى الله عند كل حجر، ومدر، وشجر، وأن تُحدث عند كل ذنب توبة، السر بالسر، والعلانية بالعلانية».

هذه صفات المتقين، وشعار الصالحين، وطريقة أولياء الله المتقين، وسلوك القوم الناجين.

فمع تحقق هذه الصفات في النفوس تحقق الكرامة، ومع ثبوتها، ودوامها تظهر الاستقامة، ونحن فينا من التقوى طريق به يُقتدى، ولا ما نرجو به النجاة إلا حب النبي محمد ﷺ.

وقد وعد مولانا جلَّ جلاله على مَن حصل منَّا التقوى أن يصلح لنا أعمالنا، ويغفر لنا ذنوبنا.

فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

=

وأهل البيت حقًّا كما أشار إليه قوله: «**سلمان منَّا أهل البيت**»(1).

ولن يتشرف بهذا المقام على حقيقته إلا مَن أذهب الله عنه الرجس، وطهَّره تطهيرًا، فلا يطمع فيه الطامعون إلا من طريقه، فإنه طمعٌ فارغٌ، ولشرف هذا المقام؛ قدَّم الله القرية الهالكة على القرية المعذَّبة؛ لأن المقصد من التعذيب هو التخريب.

وقد قال بعض الكبار: كل مَن خاف على هيكله؛ لم يرَ الله جهارًا علنًا؛ يعني:

=

ورتَّب سبحانه على حصول التقوى في عبيده أن يجعل لهم من أمرهم مخرجًا، ويدر عليهم رزقه، ويُدخل عليهم من حيث لم يحتسبوا فرجًا.

فقال جلَّ جلاله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢،٣].

وإذا صدق العبد من تقواه؛ نجَّاه الله مولاه من بلواه.

وتذكَّر قضية الثلاثة الذين أووا إلى غارٍ فانطبقت عليهم الصخرة على باب الغار، فلم يجدوا مسلكًا للخروج، ويئسوا من زوالها، وانقطعت العلائق، وذهبت عنهم حيلها، فما بقي لهم إلا الوثوق بمفرِّج الكربات، وقاضي الحاجات عند الشدائد والأزمات، فألهمهم مولاهم بجوده وكرمه، فتذكَّروا أحسن الأعمال التي أخلصوها، وتدَّبروا في الفضائل من التقوى التي عند الله ادخروها، فقالوا: تعالوا نتوسل إلى الله سبحانه بأرجى أعمالنا، ونتعلق بباب الكريم، ونسأله في خلاصنا.

فقال أحدهم: اللّهم إنه كان لي أبوان نائمان، وحضر طعام، فكرهت أن أنال منه قبل أبويَّ، وكرهت أن أوقظهما من نومهما، والصبيان يتضاغون، وكرهت أن أقدمهم عليهما.

اللّهم إن كنت فعلت هذا لأجلك، فافرج عنا فرجةً نرى منها السماء، فقبل الله تعالى دعوته، وتحركت الصخرة عن فم الباب بمقدار يسير.

ثم دعا الآخر المولى جلَّ جلاله وذكر أن أجيرًا كان عنده، وأمسك أجره، ونمَّاه له بقرًا وغنمًا، فطلبه الأجير فقال له: كل ما رأيت من البقر، والغنم فهو لك.

ثم قال: اللّهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا، فانزاحت الصخرة أيضًا شيئًا يسيرًا.

فقال الثالث: اللّهم إنه كانت لي ابنة عم كنت أحبها، فخلوت بها، وتمكنت منها.

فقالت لي: اتَّقِ الله يا عبد الله، ولا تفض الخاتم إلا بحقه فتركتها.

اللّهم إن كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك فافرج عنا، ففرَّج الله تعالى عنهم، وزالت الصخرة عن فم الغار حتى خرجوا.

فتدبَّروا رحمكم الله كيف جعل الله تعالى التقوى سببًا في خرق العوائد، وفرجًا، وفتوحًا لباب الفوائد، وكذلك هي كرامات أولياء الله نشأت عن أعمال، وفضائل وخصال.

(1) رواه الديلمي في الفردوس (٢/٣٣٧)، والطبراني في الكبير (٦/٢١٢).

لابد من تخريب الهيكل الذي تعيُّنه أشدُّ من سائر التعينات، وتخريبه إنما هو بالرياضات الشاقة بحيث تفنى الطبيعة والنفس عن الشهوات والهوى؛ بل الروح عن الميل إلى المعارف، والتغيُّر عن الالتفات إلى شيء مما سوى الله تعالى.

وقال الله سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥].

اعلم أن الروح نصفه تركّي، ونصفه عربي، هكذا أثبت عند أهل الله.

معناه: إن البحث عن نصفه متروك؛ لأنه من عالم اللطائف، فلا يحرر بالقلم، ولا يقرر باللسان؛ بل يحال على الذوق، وإليه الإشارة بالأمر؛ لأن عالم الأمر عالم الإبداع، والاختراع من غير مادة، ولا في مدة.

ونصفه مُعرب عنه؛ لأنه من عالم الكثائف، فيحرر بالقلم، ويذكر باللسان، ولا يحال على الذوق، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ﴾، وقدَّم الخلق على الأمر حيث قال: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]؛ لأن عالم الخلق يلينا، ففيه ترقٍ من الأدنى إلى الأعلى؛ ولذا قال: ﴿تَبَارَكَ اللّهُ﴾ [الأعراف:٥٤]؛ إشارة إلى الأمر، ثم قال:﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]، إشارة إلى الخلق؛ لأن أُلوهيته ناظرة إلى عالم الأمر، كما أن ربوبيته ناظرة إلى عالم الخلق.

والحاصل أنه أسند التبارك إلى الأُلوهية؛ لوقوعه قرب الأمر، ثم وصفه بالربوبية نظرًا إلى بعد الخلق، فكان الروح أول عالم الإبداع، وأسبق تجلياته سبحانه، وكان له تعين في ذلك العالم، وهو التعين الروحاني، فدار في عالمه يومًا واحدًا من الأيام الإلهية، وهو ألف سنة وهو عالم القلم والعقل، ثم تنــزَّل إلى عالم الأرواح فدار في عالم اللوح أيضًا يومًا واحدًا من تلك الأيام، ثم تنــزَّل إلى عالم الخلق؛ فكان خلق الروح أقدم من خلق الخلق بألفي سنة على ما ورد في بعض الأحاديث الصحيحة.

وكان مرتبة الروح مرتبة الحياة والعلم؛ لأنه حيٌّ بالأسماء الإلهية، وتنفست من مضايق كون الغيب. وتنــزَّل العلم من الثبوت إلى الوجود، ويشير إليه لفظ الروح؛ لأنه من الريح، وهو النفس الرحماني المفاض عليه، وكان مرتبة الخلق مرتبة القدرة

والإرادة كما قال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]؛ فإن فيه إشارة إلى أن تكون الأشياء الخارجة مبني على القدرة والإرادة، وأن المكوَّن بالفتح يدور مع المكوِّن؛ لأن تعينه تابع لقوله تعالى: أي لقائه فافهم.

فكان ظهور الروح في كل مرتبة من مراتب التكوين بحسب قابليتها واستعدادها؛ لأن نور الشمس لا ينعكس إلى البيت إلا بقدرٍ وزنته، ففرَّق بين الصحراء والبيت.

ولَّما كان مرتبة النفس أنزل من مرتبة الروح؛ قالوا: النفس الجمادي، والنفس النباتي، والنفس الحيواني، والنفس الإنساني، ثم ظهر كلياته في النفس المحمَّدي، فكانت الأشياء بصورها وأرواحها مرآة للصورة المحمَّدية، والروح المحمَّدية، فسألوه لا غيره عن الروح؛ لأن روحه عليه السلام أبو الأرواح، وكان واقفًا على جليِّة الحال في أمر الروح؛ لأن الله تعالى خلقه على أحسن تقويم، وأعدل مزاج، فلم يخف عليه شيء من الأشياء إلا ما استأثر الله تعالى في علمه؛ وهي الممتنعات الغير المتجليِّة بصورة من الصور الخارجية أية صورة كانت، فبقيت في العلم الإلهي أبدًا.

فقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] (١). تعريف له: بأنه من

(١) فـ (عالم الأمر) هو عالم الغيب الذي هو الأسماء الذاتيَّة، ويليها أمهات أسماء الألوهيَّة وتوابعها، وكل واحدٍ منها حجابٌ عن الآخر، وصف نفسه تعالى باعتبار هذين العالمين: أي الظاهر والباطن، أو الغيب والشهادة بأن له الْحُجُب النوريَّة التي هي الأرواح، والظلمانيَّة التي هي الأجسام، فكل واحدٌ منهما حجابٌ عن الآخر، فإذا اعتبرهما خلقًا وأمرًا، ولطيفًا وكثيفًا؛ إنما اعتبرهما من حيث الأسماء، وهي سلسلةُ الترتيب والوسائط المتكثِّرة.

فبهذا الوجه يكثر الوجود؛ وهو ظاهر الخلافة التي منه تكثر، وأمَّا إذا اعتبرهما؛ أي العالمين الخلق الأمر، وإن شئت قلت: عالم الغيب والشهادة حقًّا؛ أعني من الوجه الخاص زالت الكثرة وارتفعت الوسائط، وذلك باعتبار أن (الاسم) عين المسمَّى، و(الذات) هي السارية في الكل؛ كتعيُّن الأسماء من حيث عدم التَّغاير، فاتَّحدّ الكل من حيث إن الساري في الكل هو الذات، فهذا باطنُ الخلافة، والتجلّي منه تجلٍّ أقدس.

وعلى هذا صحَّ أن القرآن غير مخلوق من حيث ارتفاع الوسائط، ومن حيث الإضافة إلى الاسم الذي عين المسمَّى، فصحَّ له الوحدة مع تكثُّر الألفاظ والحروف والآيات والسور، وبذلك تكثر في
=

عالم الأمر لا من عالم الخلق؛ لكنه لَمّا تعلَّق بعالم الخلق؛ وهو مرادنا من قولنا: إن نصفه عربي معرب عنه؛ اشتبه على الخلق أنه ما هو، ولم يعرفوا أنه هو الأمر الإبداعي الذي لم يكن له تعلُّق بالأشياء المنفوخ هو فيها؛ لكمال تجرُّده في نفسه؛ لأنه العقل المحض إلا تعلُّق التدبير والتصرف، وهو المراد بالظهور في قول: مَن قال: سبحان مَن أظهر الأشياء، وهو عينها، ولذا لم يقل: سبحان مَن خلق الأشياء؛ وهو عينها.

ومن ثَمَّ زلت فيه بعض الأقدام، وقال ما قال من أسوء الكلام، ثم إن هذا التعلُّق لا ينقطع أبدًا من الأشياء؛ لأن التجليَّات لا تنقلب العدم البتة، وإن دارت في الأطوار المختلفة مثلاً: إن الروح متعلِّق بالإنسان مادام حيًّا، فإذا مات؛ تعلَّق بعناصره

=

وحدته ولم يوصف بالمخلوقيَّة مع التكثُّر؛ لأنه ظهور الذات في المراتب بلا كيف.

فالعالمان؛ الغيب والشهادة أو الخلق والأمر إذا أُضيفا إلى الذات بلا واسطة بطريق الوجه الخاص فهما واحد، وإذا أُضيفا إلى الأسماء؛ فالشهادة: الخلق، والغيب: الأمر، فبهذا الاعتبار قلنا: إن الإنسان الكامل له الأخذ من الله تعالى بواسطة؛ باعتبار الإضافة إلى الاسم، وبلا واسطة؛ باعتبار الأخذ من الوجه الخاص، وإنما قلنا: الوجه الخاص؛ لأنه مخصوصٌ بالإنسان الكامل من دون الموجودات؛ كالملك وغيره، فإن له الإطلاق في الأخذ وغيره لكل منهم مقامٌ معلومٌ لا يتعدُّون مقاماتهم؛ وذلك لأن الإنسان الكامل كل الوجود، فافهم.

فلمَّا أراد تعالى ظهورنا بالصورة: أي بصورة الحق ولها الغيب والشهادة، فأوجدنا ذا غيبٍ وشهادةٍ؛ ذا جسمٍ وروحٍ؛ فعالم الجسوم شهادتنا، وعالم الأرواح غيبنا؛ فالكون كله جسمٌ وروحٌ وبهما قامت نشأة الوجود، فالعالم للحق؛ كالجسم للروح فلا يُعرف الحق إلا من العالم كما لا تُعرف الروح إلا من الجسم.

فإنَّا لما نظرنا فيه، ورأينا صورته مع بقائها؛ تزول عنها أحكامٌ كنَّا نشاهدها من الجسم وصورته من إدراك المحسوسات والمعاني، فعلمنا أن وراء هذا الظاهر معنى آخر هو الذي أعطى أحكام الإدراكات معرفتنا غيبنا بشهادتنا، وسمَّيناه روحًا لهذا الجسم الظاهر، وكذلك ما علمنا أن لنا أمرًا يحرِّك أرواحنا كما كانت الأرواح تحرِّك أجسامنا؛ وهو روح الأرواح يحكم فيها بما يشاء حتى نظرنا في أنفسنا، وعرفنا منها وبها ربَّنا.

إلى أن ينشئه الله ثانيًا، وإنما تمنّى الكافر أن يكون ترابًا؛ لأن التراب أبعده عن الحضرة من حيث إنه من عالم القوة والإنسان أقرب منها من حيث إنه من عالم الفعل، ولا شك أن العذاب على مَن كذب وتولى لا على مَن أعطاه الله خلقه فهُدي فافهم جدًا.

ثم إنه ﷺ إنما توقف في الجواب، وانتظر الوحي الإلهي مع أن علمه حاضر عنده، وهو مرئي له ملكوت السماوات والأرض، كما أن الجواب عن أمر الله أقوى من الجواب عن أمر نفسه؛ لأن الوجه الخاص تابع للوجه العام؛ فاقتضى الأدب الإلهي ألا يتكلم إلا بالحق من كل الوجوه؛ فظهر من هذا التقرير سرُّ قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٨٥].

وهو أنهم لو كانوا أوتوا من العلم كثيرًا؛ لما احتاجوا إلى السؤال عن أمر الروح؛ فعلم أنهم جاهلون به لاحتجابهم بالغواشي البشرية.

أنه ﷺ عالم به لأنه أقوى روحًا من عيسى عليه السلام؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء:١٧١]: أي أن عيسى روح مبتدأ من روح محمد ﷺ [1] بل من الروح

---

(١) اعلم أن النبي ﷺ روح الحق: اسم من أسمائه ﷺ. وقيل: إنه هو معنى ما ورد في الإنجيل أن اسمه البارقليط. وقيل: معنى البارقليط أنه: الذي يفرِّق بين الحق والباطل فيكون روح الحق.

والمفرِّق بين الحق، والباطل: اسمان متغايران صادقان على ذاته الكريمة، ونشأته العظيمة.

فالروح: هو قوام الأجساد والأشباح، فلا اعتبار لوجود الأجساد، ولا يعبأ بها لولا وجود الأرواح.

فمعنى روح الحق في حق نبينا ﷺ يحتمل وجوهًا من الحُسن عديدة، ومعاني موجودة في حقه ﷺ فريدة.

فالحق يُحتمل أن يراد به: الإيمان الذي بعث الله به جميع الشرائع والأديان.

فيكون معناه: روح الإيمان: أي إن الإيمان إنما ظهر في أرض الله، وانتشر في قلوب خلق الله بوجود سيد المرسلين، وبعثة من شرف الله به الأولين والآخرين.

فلولا هذا الروح الكريم، والمحبوب لله العظيم لتلاشى وجود الإيمان، ولم يظهر له أثر في العيان.

وقد يكون الحق: المراد به في الهدى والنور الذي بعثه الله به، والحكم الشرعي على الذي جاء به، فهو ﷺ نور الهدى، والنور الذي نوَّر الله تعالى به وجود العالم بأسره، وبه حياته؛ لأنه ما خُلق إلا من أجله.

ويُحتمل أن يكون الحق، أُطلق على وجود الأكوان؛ لأنها خلقت مصحوبة به، فكان روحًا لها في جميع الأزمان.

=

الأمين؛ لأنه هو النافخ، ومن ثم كان الحضرة النبوية جَدًّا للحضرة العيسوية، فاعرف جدًّا.

فعرف أنه قلة العلم إنما هي بالنسبة إلى السائلين ونحوهم لا بالنسبة إلى المجيب،

=

قال الله العظيم في كتابه الكريم المسمَّى بالحق: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨].

وسر هذه الأكوان وروحها: هو رحمة العالمين، وحياة الواجدين الذي خرجت الدنيا من العدم إلى الوجود من أجله في أعين الناظرين.

فيكون معنى روح الحق في حقه ﷺ: إن رفيع الشأن: هو روح الأكوان، وحياة الأزمان الذي هو للعام أمان.

ولعل ولي الله، نفع الله به؛ الشيخ سيدي أبو الحسن عليّ بن الوفا رحمه الله أشار إلى هذا المعنى بقوله في قصيدته:

رُوْحُ الوجـودِ حـياةُ مَن هُو واجِدٌ   لَـولاه مَـا تَـمَّ الوجُودُ لَمن وُجِدْ

فأشار رحمة الله إلى أن الأجساد خلقها الله تعالى، وأودع فيها أسرارًا، ولطائف من علمه، روحانية خص بها أهلها لا يعلم كنهها ولا يحيط بها إلا خالقها.

فكذلك هذا العالم خلقه الله تعالى وأودع فيه سرًّا عظيمًا، ونبيًا رحيمًا، وخصه بخصائص لا يعلمها إلا مانحها، وأودع فيها من الحسن لطائف لا يحصيها إلا باذلها، فجعل هذا الكون العظيم العلوي والسفلي قالبًا لظهور نوره، وصورة لإبراز روح سره.

ويحتمل أن يكون الحق المراد منه: ضدُّ الباطل وأن الحق لا يكون محكومًا به إلا إذا كان موافقًا لحكمه، ولا يتقرر له وجود إلا إذا وقف على شرعه.

وإلى هذا المعنى يرجع هذا الاسم الآخر في حقه المفرق بين الحق والباطل، ويحتمل وجوهًا غير هذه يطول جلبها، ونشر ذكرها، فأقربها أن يكون الحق اسمًا من أسماء الله تعالى، أطلق على الله، والروح المضاف إليه من إضافة المخلوق إلى الخالق إضافة تشريف، وإظهار تعريف.

فيكون معنى روح الحق في حقه ﷺ وتسميته به، كما كان ذلك في حق عيسى رسول الله، وأنه روح الله ﷺ.

ويكون المعنى: إن الله تعالى أضاف روح هذا النبي العظيم إلى نفسه من بين سائر الأرواح؛ لأنها مخلوقة من أجله موصولة بوصله؛ لأنه إنسان عينها، وإكسير المحامد بأسرها.

فكانت علومهم وعلوم جميع الخلق علوًا وسفلاً بالنسبة إلى علمه المحيط؛ كقطرة من سبعة أبحر؛ فكأنه قال: أوتيتم من العلم قليلاً، وأوتي محمد ﷺ كثيرًا؛ فهذه إضافة علمية بالنسبة إلى الخلق، كما يقتضيه المقام، ويستدعيه السوق.

وأمَّا علم الله تعالى فلا يعتبر فيه الإضافة أصلاً؛ لأنه علم الخالق، ولا شك أن المخلوق إنما يستفيد العلم من الخالق؛ فهو مصدر العلم المطلق منبعه فلا يضاف إلى علمه علم إلا وهو يجنيه؛ كقطرة من سبعة أبحر، أوكأمر معلوم لا وجود له.

فانظر أن الله تعالى هو العليم الخبير فلا يخبر عن الغيب إلا هو، ولا يظهر على غيبه أحدًا إلا مَن ارتضى من رسول؛ وهو الرسول المطلق المظهر بجميع الحقائق الأسماء الإلهية على التفضيل المظهر للحكم، والعلوم للمستأهلين بقدر قابليتهم الأولية، واستعداداهم الأزلية، وعلى أثره يمشي مَن اتبعه على بصيرة في جميع المراتب، والله تعالى خير المطالب.

* * *

سورة الكهف

قال الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف:١٨].

إشارة إلى حال الغفلة؛ فإنهم نائمون في صورة المنتبهين، فمَن نظر إليهم ممَن هو مثلهم في الغفلة عن الله تعالى يراهم متيقّظين، ومَن نظر إليهم من أهل المكاشفة والمشاهدة؛ يراهم نائمين، فإن الاعتبار بحال الباطن لا بحال الظاهر.

وإمَّا إلى حال أهل اليقظة، فإنهم لا إحساس لهم بما يتعلّق بعالم الملك؛ لفنائهم عنه، وبقائهم بالله، والباقي بالله لا ينظر إلا إلى الله تعالى، والجاهل المحجوب يظن أنهم منغمسون في الحسِّ، وأنهم مشتركون معه في ذلك، وليس الأمر كذلك بل فرق كثير بين مَن حضر مع الحق في كل حاله، وبين مَن غفل عنه في كل حاله، أو في بعض حاله.

فمَن حضر مع الحق، يشمُّ منه رائحة المسك في صورة الدَّم كدم الشهداء، ومَن لم يكن كذلك، كان صورته ومضاء دمًا، فالاشتراك في الدموية لا يوجب أن يكون بينهما أصلاً؛ ولذا قالوا: إن رجال الله أكثر نكاحًا من غيرهم لِما أن الدم في عروقهم يستحيل نورًا: أي يرجع إلى قوته.

والنور أقوى من الدم؛ لأنه من عالم البقاء، والدم من عالم الفناء، فما بينهما كما بين الدنيا والآخرة، فإذا عرفت هذا؛ فاحذر أن تقيس أهل الله في أحوالهم على غيرهم؛ فهو كقياس الغائب على الشاهد، وذلك لا يصحُّ جدًّا، وقد رأيت في عصري مَن هو خارج عن القياس بحيث لا يعرفه إلا رب الناس، جعلنا الله وإياكم من المحققين بهم، والقائمين بنحو مطالبهم؛ إنه هو البرُّ الرحيم، والزم.

لطيفة: واعلم أن من عادة الله سبحانه مع هذا الفقير الشيخ إسماعيل حقي شرَّفه الله لمزيد الترقّي أن يرقيه إلى أعلى ما كان فيه من المراتب، وأن يفيض عليه من علمه ما لم يكن عنده قبل، وذلك في كل سبع سنين من سني العمر لكن لمَّا كان الترقّي موقوفًا على المنحة والمحنة، وإن كانت لا تنتج شيئًا؛ لكن الصبر عليها، والرضا بها مما له عاقبة حميدة، والمحنة أيضًا على صور شتَّى بحسب الاستعدادات؛ فكانت صورة ابتلائي بالسفر من دار إلى دار، والهجرة من أرض إلى أرض؛ فكان أول ما

قضى الله علي من السفر؛ الحركة إلى بلدة الأسكوب من البلاد الرومية، ثم بعد سبع سنين ابتليت بالهجرة إلى جانب بلدة برونية، ثم بعد سبع سنين ابتليت بالسفر القبريسي، ثم بعد سبع سنين ابتليت بالغزو، ثم الحج، وموت الأولاد في البيْن، ومُقاساة شدائد المعارك، وفي طريق الحج حتى انسلخت عن جميع ما بدا من الكتب الجليلة، والأموال النفيسة، وسُلِّمت الروح إلى الله تعالى حتى كان، ثم بعد سبع سنين وقعت الحركة إلى جانب مسقط الرأس؛ لزيارة قبر الأبوين، ثم بعد سبع سنين وقع سفر الحج الثاني، ثم بعد سبع سنين أُمرت من الجانب الإلهي بالهجرة ببرسه إلى الشام، فانسلخت عن جميع المتعلِّقات، ووقع ذلك في التاسعة والعشرين بعد المائة بعد الألف.

فهذه السنون تزيد على الأربعين، ثم الله تعالى يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه، ولا رادٍ لقضائه، وكل ذلك كان بإشارة من الله تعالى لا بالاختيار من جانبي، فإن الحركة الاختيارية نفسانية لا تنتج شيئًا، فالعاقبة الحميدة ما يعقبها الأمر الإلهي لا غير.

وأمَّا البلايا الأخر فيما بين هذه الأسفار ولا تُعدُّ ولا تُحصى؛ لكثرتها، وقد ورد في الحديث: «**ما ابتلي أحد من الأنبياء مثل ما ابتليت به**»[1].

ففي الابتلاء جلاء القلوب، وصقالتها، وجعلها متَّسعة؛ لتجلِّي الحضرة الإلهية، فإن التجليَّات مَنوطة بغير الملائم غالبًا؛ ولذا كان أشدُّ البلاء على الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل، ثم إن فوق هذا الابتلاء ابتلاء آخر؛ وهو الدعاء للقوم الغلاظ الشداد بالرحمة والهداية.

كما قال: «**اللّهم اهد قومي؛ فإنهم لا يعلمون**»[2]: أي ليس لهم معرفة بالله تعالى، ولو عرفوه وقدَّروه حق قدره لِما صدر عنهم ما صدر من الأذى والجفاء، ورد الدعوة، والتجاوز عن المقاولة باللسان إلى المطارحة بالسيئات، وكان الأنبياء قبله مأذونين بالدعاء على قومه.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٤٨/٣).

(٢) تقدم تخريجه.

ألا ترى إلى نوح عليه السلام كيف قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦]؛ وفيه شفاء للقلب، ورفع للغيظ.

وأين هذا من الدعاء بالهداية؟ فقد قابلهم النبي ﷺ بالدعاء لهم؛ وهو من الإقبال عليهم لما عُرف أن بينه وبين أمته رقيقة من الروح الإلهي؛ فكان روحه روح جميع الأرواح، كما أن أجسادهم جسده، والكل لا يقبل على الجزء إلا بالمرحمة، إلا أن يقتضي الحكمة الغضب عليه، كما إذ ألبست الجبة عضو من الأعضاء، أو ظهر فيها من الأكلة فإنها تُقطع، وذلك القطع، وإن كان نقصاناً في الظاهر لكنه كمال في الباطن، فالقضاء يُردُّ بالقضاء، ومَن عرف الله تعالى، يُخبر في أمره، ودار في البلاد، وسافر من اسم إلى اسم إلى أن يقضي الله أمره، وكان أمر الله مفعولاً.

اعلم أن شيخي وسندي في جميع المنال والأطوار الشيخ السيد عثمان الفضلي الإلهي قُدِّس سرُّه: نفخ الروح في قلب هذا الفقير الشيخ إسماعيل حقي غُفر ذنبه ووجوده، وأنا ابن ثلاث وعشرين سنة، وذلك في سورة الفاتحة التي هي جامعة الجميع الحقائق، ثم لمَّا مضت عليه سبع عشرة سنة، وناهزت الأربعين، وقرب انتقاله من هذا الموطن دعاني، ودعا لي وقال لي: لم يتعلّق قلبي بمَن سواك من خلفائي، وهم كثيرون قدر مائة وخمسين كلهم من أهل العلم، وهذه علامة لميراثك، ثم وضع مسبحته على فمه.

وقال: هذا النفس ينتقل مني بعدي إليك، فقبَّلت ذيله واستبشرت.

فكان كما قال بإذن الله حتى أني لقيت حضرة الخضر عليه السلام في حطيم الكعبة، فقال لي: يا هو! أنا الخضر فما مرادك؟ فقلت: مرادي خير الدعاء منك فقال: جعلك الله من الأنفاس، ثم غاب، والأنفاس باب من أبواب «الفتوحات المكية» فليطالع هنالك.

وكذا نفخ في فمي حضرة الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه الأطهر، وسرُّ نفخه مذكور في شرح التجليَّات خلفائه، ومرادي في هذا المقام بيان أن النهاية راجعة إلى بداية حيث كان أول ما وقع من شيخي المقدَّس روحه النفس، وكذا آخره، فدار العَود على البدء دورًا مع زيادة كيفية في العود حسبما يقتضيه الحركة الدورية في

السلوك إلى الله تعالى، فإن السلوك دوري لا خطي، وكذا جميع اللواحق مع السوالف، وإن خُفي على العامة.

والله تعالى نسأل أن يردنا إليه وهو راضٍ عنا، وأن يلبسنا وجودًا حقانيًا حين أخذ الفاني منا بحرمة المصطفى ﷺ، وبجاه آله وأصحابه، وكُمَّل أمته، وهو الواسع رحمته، والعام بركاته.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ**﴾ [الكهف:٢٨].

: أي شأنهم الدعاء في غُداة الأزل والعلم، وفي عشي الأبد والعين، دلَّ عليه قوله فيما بعد: ﴿**وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا**﴾ [الآية:٢٨] إلخ.

فالدعاء في العلم بالقوة، وفي العين بالفعل، والفعل ناظر إلى القوة؛ لأنها مَعذبة، فلو لم يكن القوة لم يكن الفعل، فهذه القوة في حكم الفعل؛ ولذا بدَّل سيئات العاصي بعد التوبة حسنات، وجُعلت حسنات الكافر الواقعة في زمان كفره مقبولة بعد إيمانه، وفيه إشارة إلى أن النظر إلى السوابق في الحقيقة لا إلى اللواحق، وإن القلب بمنـــزلة الحقيقة، واللسان ترجمانه لإظهار الفعل؛ ولذا جُعل سكوت الكامل نطقًا؛ لأن باطنه على الحركة دائمًا؛ وحركته المشي إلى الله تعالى، والتوجه إليه؛ بل وقوعه في عين العين، وخرقه قاب قوسين إلى وحدة أو أدنى.

قوله ﷻ: ﴿**يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾ [الأنعام:٥٢].

: أي وجه ربهم؛ لأن ربهم ربَّاهم بلبن العناية والتوفيق، فلم يظهر منهم بعد البلوغ في عالم الجسم إلا التوحيد، ومتابعة الرضا، وإيثار الموافقة على المخالفة، وكيف يخالف الموافق؟ وإنما يخالف المخالف، ثم إن هذه الإرادة إرادة أزلية، وإنما الإرادة الأبدية تابعة لها؛ فهي إرادة واحدة في الحقيقة؛ كإرادة الله تعالى يظهر تعلُّقها في علم العين.

قوله تعالى: ﴿**وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ**﴾ [الآية:٢٨].

أي: عين الأزل، وعين الأبد[1]، وآثر عدم العدِّ، وحبس النفس معهم: أي الصحبة بهم في عالم الحسِّ؛ لأن هذه الصحبة أثر صحبة الروح، فإن أرواح المؤمنين فائضة من نور محمد ﷺ؛ فهي كالأولاد له.

ولا شك أن الآباء والأولاد متصل بعضهم ببعض؛ فهم في صحبة واحدة في المعنى، والصورة فافهم جدًّا.

قال تعالى: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الآية:٢٨].

أي: لا تنظر إلى الحسِّ والصورة؛ بل إلى المعنى والحقيقة، فأهل الذكر زينتهم زينة الآخرة، والباطن، وأهل الغفلة زينتهم زينة الدنيا، والظاهر، والباطن أرجح من الظاهر؛ لأنه الأصل المرجوع إليه.

قوله ﷻ: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الآية:٢٨].

أسند الإغفال إلى نفسه تعالى؛ والمراد إظهار الغفلة التي جُبل الغافل عليها في الأزل، فإن الاستعدادات والأقضية التي تُجرى عليها ليست بمجعولة، فلا جبر من الخالق للخلق.

وقوله ﷻ: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الآية:٢٨].

هذا الاتِّباع هو أثر ما جُبل عليه في الأزل خيرًا وشرًّا، ومن هنا قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام:١٤٩].

فما من أحدٍ من أهل الهوى إلا وهو داخل في العذاب وسجنه؛ لكن بعد الإلزام لا قبله.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [الآية:٢٨].

تتميم لاتِّباع الهوى؛ أمر قصدي أولاً، ثم أمر فعلي ثانيًا؛ كالإرادة والدعاء بالنسبة إلى الذكر؛ لكن قُدِّم الفعل هناك؛ وهو الدعاء إشارة إلى الحكمة، وأخر هنا إشارة إلى العلم، فتفطَّن لهذه المقام، والله العلاَّم.

---

(١) قال سيدي محمد وفا ﷺ: الأزل في الأبد سر في علن، ومعنى في الكلام الذي ما ورد في الأسماء الحسنى لأنهم في نظامه، والمسميات في نظام قيوميته قيامه في كل كلمة من كلامه على كل نفس من تجلياته أقام فيه دوائر وجوه حضرات عين إجماع مرأى قوابله، وهذا هو الوجه الباقي في العين القائم عرش الإحاطة مربع بوجوه الحضرات.. وانظر: كتاب الأزل لسيدنا قدس سره (ص٨٤).

في أواخر سورة الكهف: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

نفى هنا أن يكون لهم الوزن يوم القيامة، وأثبت في قوله: والوزن يومئذ الحق؛ لأن المقصود من نفيه بيان ألا يكون لهم قدر عند الله كما للمؤمنين، وهو لا ينافي الوزن في الحقيقة دلّ عليه أنه تعالى حكم بكون الوزن حقًّا: أي ثابتًا، والثبات إنما يكون بالرزانة والثقل؛ وهو لا يكون إلا للمؤمنين، فمَن ثقلت موازينه؛ فله وزن عند الله ومقدار، مَن خفّت موازينه؛ فلا قدر له عند الله تعالى؛ لأن القدر إنما هو بالاعتقاد والعمل، وقد عدمهما الكفار.

واعلم أن الإنسان في أول حاله يطلب أن يكون كالذّرة المرئية في شعاع الشمس عند انعكاسه من الكوة، فإن وجوده، وإن كان وجودًا موهومًا في الحقيقة؛ فإنه خيال وظل بالنسبة إلى الوجود الحقيقي؛ لكنه لمّا تعيَّن بتعينات مختلفة؛ حصلت له منه الثقلة الطبيعية والبشرية، والكثافة الجسمانية الصورية، ورزانة التعلّقات الكونية المعنوية المانعة عن الحركة من الحضيض إلى الأوج، فهو دائمًا يطلب خفّة، كخفّة الذّرة، والخلاء لا من التركيب والتعلّقات؛ ليتم له أمر التجريد(١) والتفريد(٢)، فيكون من المفردين السابقين، ثم أزال الأمر إلى هذه الخفّة بالغناء التام، وتأدِّية الأمانات إلى أهلها، وحصلت الثقلة بالبقاء، والتلبُّس باللباس الحقاني زال الطلب المذكور؛ لأن

(١) قال سيدي علي وفا: التجريد الوجودي التحقيقي إيجابي، والتجريد البياني اختياري، فلا تطلب في الأول ما تطلب في الثاني من مقارنة القصد والتعمل، وقسْ على هذا كل أمرٍ وقع في دائرة الإيجاب تارة، وفي دائرة الاختيار أخرى، ولكل مقامٍ مقال، ولكل مجالٍ رجال.

(٢) قال سيدي محمد وفا: التفريد هو صفة توجب تمييزًا لا يصح حكم الاشتراك فيما بين المتغايرين؛ لنفي المماثلة في صفات نفس، أو هو تميز بسلوب من كل واجبٍ للتمييز في المراتب، فتميزه سلب التمييز، ولا يُقال على موصوفه: موصوف بزيادة؛ لما فيها من فحوى الثنوية وإن لم يكن تكثيرًا في الذات، بشرط إثبات وجود خارجي، فهو كثرة معقولة في داخل الذهن، وتصور الخارج مجاز كل شيءٍ، فلا يُقال بالذات؛ لأنه لا يقدر صفة نفسه إلا بالذات، فذاته توجب ذاتيات لا يُقال عليها غير لامتناع الاستقلال فيها، ولا مثل لشمول الوحدة الحقيقية عليها، ولا هي صفة؛ لأن الصفة مشروطة بموصوفها عند تقدير الوجود، فهي شيء يُلحظ بملاحظة المعجوز.

الأكملية إنما هي في تلك الرزانة الحقيقة التي من تحمُّل الأمانة الكبرى.

وقد أشار إليها بقوله ﷺ: «**اللّهم اقض عني ديْني**»[(١)]؛ لأنه يُقال: ركبه الدَّين، ولا شك أن المركوب تحت ثقلة الراكب، فكلّما الحط أكمل من المركب وانحلّ حصل له الخفّة والنشاط، وكذا كلّما قُضي الديْن؛ جاء النشاط.

ولا شك أن الأمانة الكبرى؛ هي التي لم يحملها السموات والأرض والجبال، وأشفقن منها، وحملها الإنسان؛ فهو حامل لتلك الأمانة الثقيلة أبدًا، وفيه كمالها أكملية، فهو حين يطلب خفّة؛ كخفّة الذّرة؛ فيقول له الذّرة: أين أنت من الفهم؟ إنك تطلب خفّتي، وأنا أطلب ثقلتك، وقد امتلأت بك السماوات والأرض، وأمّا أنا فوجودي الموهوم لا يسدُّ شيئًا أصلاً، فلا كمال لي قطعًا.

وذلك أن كل ذرة، وإن كان فيها ما في الكل؛ لكن ذلك فيه بالقوة لا بالفعل، وإلا لكان مساويًا مع الإنسان في الدرجة.

وإمّا أن يطلب الإنسان كونه؛ كطير على شجر، أو كشجر على رأس جبل، أو نحو ذلك، فذلك إنما هو من ضجرته البشرية الواقعة في بعض الأحيان، وأسبابها كثيرة، وإلا فهو يعرف ان الإنسان أكبر قدرًا من سائر الموجودات، وأعلى شأنًا من جميع الكائنات، وان مَن يموت في صباوته حين ما كان معصومًا عن المعاصي؛ ليس بأفضل من الذي يموت بعد البلوغ إلى الكَمالات بالفتح في مَدته، وإن كان قد يعرض له بعض الزّلّات؛ فذلك معفو منه ومغفور، وسعيه في طلب الحق مشكور.

فعليك أيها الولدُ بطريق الكبار البالغين إلى غاية الغايات، لا بطريق الصغار القاصرين في تكميل المراتب والدرجات، وقُلْ عند وقوع الزّلّات كما قال أبوك قبلك: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [الأعراف:٢٣]، فإنه يغفرك ويسترك بنوره، ويزيل عنك الظلمة بتجليه وظهوره.

ومما قررنا يُعرف أن الوقار الظاهر مما يُرغب فيه أيضًا؛ لأنه من آثار الوقار الباطن، فإذا تمكّن الوقار الباطن في القلب من تحمُّل الأمانات، والتحقق باحكام

---

(١) تقدم تخريجه.

الأسماء والصفات؛ تمكّن الوقار الظاهر في القالب من تحمُّل الشرائع، والأحكام، والعمل بما يقتضيه كل حال ومقام؛ فهذا الوقار مطلقًا هو المقبول، وأمّا وقار الأغنياء والملوك في الظاهر بتغيير الأوضاع والأطوار عند أهل العُرف والعوام من غير أن يكون لهم تقوى في القلب، وعمل بأحكام الأجسام، فذلك غير رائج في سوق الحقيقة، فإن النظر إلى المعنى لا إلى الصورة.

فإن قلت: هَب أن الوقار لا بد منه للمؤمن في كل حال ومقام وأن الطيش والخفّة من سيرة الجهلة والأنام، فما بال الحق تعالى يصف نفسه بالاستهزاء في قوله تعالى: ﴿اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:١٥].

ولا شك أن العبد متخلّق بأخلاق الله، وذلك الاستهزاء من الخفّة، وهي لا تليق بالله الجليل العظيم، ولا بعباده الذين ظهروا على صورته في خُلقه الكريم.

قلت: إن الله تعالى غني في ذاته عن العالمين، وأوصافهم، فليس عليه أثر من الكون، وما هو عليه أصلاً؛ لكن ذلك الاستهزاء ونحوه من الفرح، والضحك، والتبشبش، والمجيء والذهاب؛ كله من أحكام العماء الكوني؛ لأن الله تعالى يتّصف في تلك المرتبة بما يتّصف به العباد ،فذلك من خصوص المراتب.

وقد يُقال: إنه من طريق المشاكلة كما قيل: كما تُدين تُدان، وبالكأس التي تُسقي تُسقى.

والحاصل أن ذلك ليس من قبيل الطيش والخفّة في الحقيقة، وإنما هو من قبيل أجزية الأعمال، والله أعلم بحقيقة الحال، فعليك بمراعاة المراتب كلّها إن كنت من أهل الأهوال.

***

في سورة طه

قال الله سبحانه: ﴿فَرَجَعْنَاكَ﴾ [طه: ٤٠] يا موسى: ﴿إِلَى أُمِّكَ﴾ [طه: ٤٠].

: أي إلى التراب الذي حقيقته المسكنة، والسكون، والسكوت.

وكذلك رددناك يا موسيّ القلب إلى أصلك الذي هو الروح، وشأنه الفناء في المعرفة، والانقطاع عن تعلُّقات الذات والصفة.

وقوله ﷻ: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [القصص: ٤٠].

قر العين هنا إشارة إلى قرار الذات.

فإن الأصل لا يستقر إلا بجذب الفرع إليه، وكذا الفرع لا يزال يبكي إلى أن يدخل تحت ذيل الأصل، فالكل قالبًا وقلبًا ينجذب إلى ما يشاكله.

وفيه إشارة إلى أن الإقبار المفهوم من قوله تعالى: فأقبره رمز إلى دخول الفرع في الأصل، وحصول الجمع بعد الفرق، وأي لذّة أعظم منها، فلا تخف من التراب، وسره الذي هو الفناء، فإن انضمامك إليه قرير عين لك.

وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ٤٠].

تأسيس في صورة التأكيد، فإن قرار العين إشارة إلى سكون القالب، وعدم الحزن إشارة إلى راحة الروح.

فالحزن من صفات الروح؛ وهو من المقامات العالية في الحقيقة، وعليه جرى الأنبياء والأولياء، فإن قلت: فإذا كان الحزن من المقامات العالية، فما معنى نفيه؟ قلت: إن الإنسان الكامل محزون وغير محزون.

أمَّا عدم حزنه: فلأنه لم يفت عنه شيء من المقامات؛ بل قد وصل إلى ذُروة الحالات والكمالات.

وأمَّا الحزن: فلأنه من أحكام البشرية، والروح في ذلك تابع للقالب، فإن القالب له حجابية في الجمل، وإن تلطّف فوق الغاية؛ ولذا ترى أكمل الناس في كل عصر محترقًا أشدّ الاحتراق مع أنه في عين الوصل لا يزال يشرب من كأس الجمع العذاب البارد.

وتدَّبر في قوله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤].

فإن العجلة محمودة إذا كان المقصود الرضا، والله المعين في كل الأحوال.

قول الجلوتية – بالجيم – أن السير بالخلوتية بالخاء المعجمة في البرزخ؛ معناه: أن الجلوتية بالجيم لا يشتغلون بالأسماء؛ بل سلوكهم بالتوحيد والمجاهدة، كما هو طريقة الأصحاب.

فالمجاهدة والرياضة تُصفّي المحلّ، وتهيّأه للتجلّي والتوحيد تجلّي الموحَد بالفتح في المحلّ، فهناك ثلاثة أمور: المحلّ، والسبب، وظهور المسبَّب في المحلّ، وليس في ذلك برزخ وواسطة أصلاً.

والحاصل أن مقصود السالك ظهور الموحَد بالفتح له، وهو الموحِد بالكسر من غير واسطة، وذلك إنما يحصل بالمجاهدة والتوحيد.

وأمَّا الخلوتية بالخاء المعجمة؛ فسلوكهم بالأسماء الإلهية؛ وهي درجات متفاوتة إلى المسمَّى، فإن منها نازلة، ومنها عالية، والكل برازخ المسمَّى.

كما قالوا: احتجت الذات بالأسماء؛ وهي بالصفات؛ وهي بالأفعال.

فالأفعال: حجاب على وجه الصفات؛ وهي حجاب على وجه الأسماء؛ وهي حجاب على وجه الذات.

فالذات: من حيث نفسها عارية عن الحجب، وأمَّا من حيث المراتب والأطوار؛ فمحتجبة بما ذُكر، ولا حجاب بالنسبة إلى الله تعالى؛ لأن الأسماء أسماؤه، والصفات والأفعال أفعاله.

ولا شك أن أسماء الشيء مثلاً ليست بحجاب عليه، كما أن القناع ليس بحجاب على وجه العروس بالنسبة إليها بخلافه بالنسبة إلى غيرها.

فالعبد لا يزال في حجاب مادام في سير الأكوان، وفي سير الأفعال والصفات والأسماء؛ لأنها كلها برازخ للمسمَّى، فإذا وصل إلى الذات؛ خلص عن الحجاب، فكان من أمره التواضع، كما أن النبي ﷺ لمَّا تجاوز عن مقام قاب قوسين، ودخل على الله في مرتبة أو أدنى قال: أنا العبد لا إله إلا الله.

فطوبى لِمَن كان جامعًا بين الفناء والبقاء بحيث لم يحتجب بأحدهما عن الآخر؛ وهو معنى شرح الصدر في الحقيقة؛ وهو الذي طلبه الكُمَّل؛ وهو الاستغراق الدائم

بعد الرجوع إلى سِدرة الكثرة، وسترة قاب قوسين؛ وهو الذي أشار إليه الحديث: «**وأسألك لذّة النظر إلى وجهك الكريم أبدًا دائمًا سرمدًا**»[1].

فإن اللّذّة لا تكون في الفناء الصِرف؛ بل في البقاء، فالمحقق في الشهود الدائم أبدًا؛ لأنه لا حجاب له أصلاً؛ لأن مقام قاب قوسين؛ كالمرآة له، ولا شك أن المرآة ليست بحجاب للمرئي والرآئي.

فالخلوتية إذًا - بالمعجمة الفوقانية - ناقصون؛ لوقوفهم في البرزخ، وقصر سيرهم على الأكوان، وآثار الأسماء التي هي طرائق المكون والمسمّى.

قلت: لا شك أن أصحاب الطرق الحقة كلها كاملون بعد الوصول على الحق سواء كان وصولهم من طريق الأسماء، أومن طريق غيرها، كما أن مَن قصد الحج من البرِّ، ومَن قصده من البحر، متفقون في الوصول إلى الكعبة، وإن كان سيرهما مختلفين متفاوتين بالقرب وبالبعد، وبالسهولة وبالمشقة.

وأمَّا قبل الوصول فلا شك أن كمالهم إضافي، وربما يكون سالك أَوْلى من سالك من حيث قوة السلوك، وتوثيق سببه، وعلو وصوله، فإن كم من فرق بين واصل وواصل، كما أنه من فرق بين سالك وسالك، فإن قلت: كيف هذا التفاوت، ولا تفاوت في النظر إلى الكعبة؟ قلت: هذه دعوى لا يقوم عليها دليل، فإن الأنظار متفاوتة، وكشف الحقائق لا يتجلّى لكل بصيرة، والحق وإن كان وجهًا لا قفا فيه، فله وجوه مختلفة تنظر إليها نظرًا متفاوتًا من الجهات، وعلى هذا أهل الاجتهاد، كالأئمة الأربعة فإنهم وإن كانوا كلهم واصلين إلى الله لكن أحوالهم متفاوتة في ذلك تدبَّر تدبُّرهم.

قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ﴾ [طه: ٩٠].

أي: قال الله تعالى على لسان هارون عليه السلام لبني إسرائيل: الذين عبدوا العجل من بعد غيبة موسى عليه السلام؛ لأجل إتيان التوراة.

فظهر أن الإنسان صورة الحق، والله تعالى يقول على لسانه ما يقول، ويفعل ما

---

(١) تقدم تخريجه.

يفعل؛ لأن الاتِّباع الآتي، وكذا الإطاعة؛ إنما هو .

وقال: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

ولَمّا لم تكن هذه المعرفة حاصلة لبني إسرائيل؛ فرَّقوا بين مظهر ومظهر، فقالوا: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه:٩١]. ولم يعرفوا أن ما سيقوله لهم موسى هو عين ما قال لهم هارون من قبل.

ومنه يعلم أن الأولياء من حيث أنهم ورثة الأنبياء على هُدىً من الأمر، فإرشادهم عين إرشاد الأنبياء، فمَن أطاعهم؛ فقد أطاع الأنبياء، ومَن عصاهم؛ فقد عصى الأنبياء، دلَّ عليه أن الله أخبر بكفر مَن قال: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء:١٥١].

واعلم بإيمان مَن قال: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة:٢٨٦].

فإن الرسول قد يكون رسولاً عرفيًّا، وقد يكون رسولاً لُغويًا، وإن كان لا يجوز إطلاق الرسول مطلقًا على مَن لم يكن رسولاً عُرفيًا إلا بالإشارة الضمنية المفهومة من الآية، فإنه إطلاق بالتبعية، وبطريق التغليب لا بالأصالة وبطريق الحقيقة، ومَن لم يمشِ على المراتب؛ عُثر وزُّل؛ فضلَّ وأضلَّ، ومن الله الهداية لمعرفة المقامات والأطوار، ولحسن الأدب في العبادة مما يتعلّق بحقائق القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ [طه:٩٠].

أي: لا العجل، فإن صرفتم عن عبادته؛ يرحمكم بالقبول، وأثره الاتِّباع كما قال: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ [طه:٩٠]، اتِّباع شريعة بإصلاح ظواهركم، واتِّباع حقيقته بإصلاح بواطنكم.

فإن الدعوة لا تنحصر في الشريعة سواء كانت من بني آدم، أو من ولي؛ بل تعمُّ الحقيقة وبل الشريعة إنما هي للوصول إلى الحقيقة فلا بد من محافظة الوسيلة؛ ليتم الوصول إلى المقصود.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه:٩٠] في النهي.

عن عبادة العجل المذكور، فإنه أمر الله ظهر في صورة أمري، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، وكذا المبعوث من قِبله.

فإن قلت: لِم خلق الله الإنسان، وجعله مفتونًا بما سواه مع أنه يعلم من حاله أنه لا يصبر على الشهوات والهوى.

قلت: ذلك لإظهار استعداده الذي هو عليه في الأزل؛ لئلا يكون على الله حُجة بعد الرسل.

فحاصل ذلك إلزام الحُجة؛ ليُحيي مَن حيَ عن بيِّنة، ويهلك مَن هلك عن بيِّنة، فإنه تعالى إذا ابتلاه في الدنيا، وكشف عن شأنه الذاتي في الآخرة؛ لا يبقى له مقال فيما حكم الله به عليه، وهذا السرُّ إنما يتحقق للمحجوبين يوم القيامة.

وأمَّا قيامة العارفين المكاشفين فدائمة؛ فهم الآن يجرون على سرِّ القدر في أنفسهم، ويُطالعون في الأنفس والآفاق؛ ولذا كان من شأن الملامية الحضور في مواضع القدر؛ ليطَّلعوا على ما في علم الله تعالى من الأقضية المبرمة التي لا محيد عنها؛ وهذا من غوامض الأسرار ،ولا يجوز البحث عنه أكثر من ذلك[1].

---

(١) قال الشيخ الأكبر في الفص الآدمي: [ومن هؤلاء من يعلم أن علم الله به في جميع أحواله هو ما كان عليه في حال ثبوت عينه قبل وجودها، ويعلم أن الحق لا يعطيه إلا ما أعطته عينه من العلم به وهو ما كان عليه في حال ثبوته، فيعلم علم الله به من أين حصل، وما ثمة صنف من أهل الله أعلى وأكشف من هذا الصنف؛ فهم الواقفون على سرِّ القدر.
وهم على قسمين: منهم من يعلم ذلك مجملاً، ومنهم من يعلمه مفصلاً، والذي يعلمه مفصلاً أعلى وأتم من الذي يعلمه مجملاً، فإنه يعلم ما في علم الله فيه إما بإعلام الله إياه بما أعطاه من العلم به.
وإما أن يكشف له عن عينه الثابتة وانتقالات الأحوال عليها إلى ما لا يتناهى.
وهو أعلى فإنه يكون في علمه بنفسه بمنــزلة علم الله به لأن الأخذ من معدن واحد هو العين المعلومة.
إلا أنه من جهة العبد عناية من الله سبقت له هي من جملة أحوال عينه الثابتة يعرفها صاحب هذا الكشف إذا أطلعه الله على ذلك.
فإنه ليس في وسع المخلوق إذا أطلعه الله على أحوال عينه الثابتة التي تقع صورة الوجود عليها أن يطلع في هذه الحال على إطلاع الحق على هذه الأعيان الثابتة في حال عدمها لأنها نسب ذاتية لا صورة لها.
فبهذا القدر نقول: إن العناية الإلهية سبقت لهذا العبد بهذه المساواة في إفادة العلم.
=

=

ومن هنا يقول الله تعالى: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] وهي كلمة محققة المعنى ما هي كما يتوهمه من ليس له هذا المشرب.

قال شارحه ابن ناصر: (ومِنْ هؤلاء) من للتبعيض، ويظهر بالقدرة ما قضي ورفعت الدواوين وجف القلم مَنْ يعلم (أنَّ عِلم الله به في جميع أحواله) وهو ما كان عليه في حال ثبوت عينه قبل وجودها، وهو من أهل الحضور بالعلم والشعور وتفصيل الأمور مع نوع من الإجمال ويعلم أنَّ الحق لا يعطيه إلا ما أعطاه عينه: أي بالاستعداد الذاتي من العلم به بنفسه، وهو ما كان عليه في حال ثبوته: أي في عدمه لا زائدًا ولا ناقصًا، فإذا علم نفسه وعرفها كما هي هي، فيعلم علم الله به: أي بالعلم بنفسه.

وقد ورد في الخبر: «ومن عرف نفسه فقد عرف ربه»، فيعلم تعلق علم الله به من أين حصل، وهذا غاية العلم بالله وبالنفس.

ذكر الشيخ ﷺ في كتابه المسمَّى بالمشاهد أنّه تعالى قال له في بعض المنازلات: أنت الأصل وأنا الفرع، انتهى كلامه.

وهو محتمل لوجوه شتى منها أنْ يعلّمه بنا منّا لا منه، وعند أكثر النُّظار منه لا منَّا، والكشف يعطي كما قلنا.

ذكر ﷺ في «الفتوحات» في الباب الثامن وخمسمائة: لمّا سألني عن هذه اللفظة محمد بن أبي الضيف نـــزيل مكة المشرفة ومفتيها، فقلت: إنَّ علْمَنا به فرع علْمِنا بنا، كما أنَّ وجودَنا عند فرع عن وجوده، فهو أصل في الوجود فرع في علْمِنَا بنا وهو مدلول هذا اللفظ أيضًا، ففرح بذلك لأنّه كان هذا قدره لا إيمان كامل ولا العلم والنظر السليم، وكان بحّار فأعطيناه ما يلائم مزاجه وعقله وهو صحيح؛ فإنّه ما في الوجود كلام إلا وله وجه صحيح، فافهم.

و(ما ثم صنف من أهل الله أعلى واكشف من هذا الصنف)؛ لأنّهم أحاطوا بالعلم الإلهي بعلمهم بأنفسهم.

قال تعالى: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، علّق الإحاطة بالمشيئة ما شاء الله، كان قد أحاط الله بكل شيء علمًا.

(وهم الواقفون على سر القدَّر) والقدَّر توقيت ما عليه الأشياء في عينها من غير مزيد من حضرة المقيت؛ فأنّه يُقدر أوقات الأوقات صورية ومعنوية، فما حَكم القضاء قدْره هذا الاسم تقدير العزيز الحكيم وهذا هو عين سر القَدَر.

فهَمَّ الواقفون الحاضرون لهذا التوقيت على مقتضى الاستعداد، والمطلعون على أصله وفرعه، ولهذا

=

=

المقام إجمال وتفصيل، منهم من يعلم ذلك تفصيلاً.

فقال ﷺ: مُريدا لإظهار مراتبهم (وهم على قسمين)؛ منهم من يعلم ذلك مُجمَلاً: أي يعلم سر القدر على الإجمال، ومنهم من يعلمه مُفصَّلاً والذي يعلمه مفصَّلاً أعلى وأتم من الذي بعلمه مجملاً؛ فإنَّه يعلم: أي بذلك العلمي التفصيلي ما في علم الله فيه: أي في نفسه وذاته.

(إما بإعلام الله تعالى إياه بما أعطاه عينه من العلم): أي بنفسه فهذا العلم: أي الذي يكون بالإعلام يسمَّى: العلم التعليمي؛ فإنَّه من تعريف الله إياه بإلقاء روحي أو قلبي أو كلاهما هذا دون الكشف في النتيجة والشرف.

(وإما بأنْ يكشف له عن عينيه الثاقبة وانتقالات الأحوال عليها إلى ما يتناهى) هذا علم التَّجلِّي بكشف الساق يعني: كشف الغيوب على القلوب، وهو أعلى: أي الذي بالكشف أعلى من الذي بالإعلام والتعريف.

كما قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦].

فإنَّه: أي العلم بالكشف يكون في علمه (بنفسه منــزلة علم الله به لأن الأخذ من معدن واحد) والمعدن هو العين الثابتة؛ لأنَّ الحق سبحانه يأخذ منها وهي تعطي العلم على ما هو عليه، فإذا رجع العبد إلى عقبه فقهري بالتجلّيات التحليلية المعروفة عند أرباب السبك والتحليل برجعته إلى أصله وإطلاقه، فيكشف له عن ساق فيرى أحواله على ما هو عليه بلا زيادة ونقصان فيجاري علمه علم الحق لهذا الوجه، ولكن هنا فرق آخر لطيف أشار إليه الحديث أيضًا؛ وهو «ومن عرف نفسه فقد عرف ربه» أنَّه اتبع العلم به تعالى بالعلم بالنفس، فجعل العلم بالنفس هو الأصل في المعرفة وهو أصل معروف غير متكرر.

كما ذكر الشيخ ﷺ في المشاهد وقد نقلته سابقًا بعبارته ﷺ التي ذكرها في بعض المنازلات، وذلك لأنَّه وإنْ كان الأخذ من معدن واحد ولكن للعبد ذاتي أصلي؛ لأنَّه عينه ما جاء من خارج بل قرة عين أخفيت له فيها.

(إلا أنَّه من جهة العبد): أي ذلك الأخذ من جهة العبد يسمِّي عناية من الله سبقت له الحسنى من الفيض الأقدس، فلما قال ﷺ: إنْ أخذْ العبد من عينه كأخذْ الله من عينه وأنَّ الآخذين من المعدن الواحد؛ وهم المساواة، فاعتذر بأنْ أخذ العبد بالعناية، وهي أنَّ تلك العناية أيضًا.

(من جملة أحوال عينه يعرفها صاحب هذا الكشف): أي الذي كشف له عن عينه الثابتة رأى العناية ذاتية له بلا جعل الجاعل.

(إذا أطلعه الله تعالى على ذلك): أي على أحوال عينه أنَّه يُشاهد أنَّ العناية ذاتية له من جملة أحوال

=

=

عينه، وأمَّا إطلاعه وعلمه ما في علم الله فيه من حيث أنَّها شئون ذاتية لا من حيث أنَّها أعيان لا يكون إلا بالعناية كقوله تعالى: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وتلك المشيئة عين العناية التي سبقت، (فإنَّه ليس في وسع المخلوق إذا أطلعه الله على أحوال عينه الثابتة): أي من حيث أنَّه عين ثابتة لا من حيث أنَّه حق وإنَّما قلنا ذلك؛ لأن الأعيان لها اعتباران.

اعتبار كونه عينًا من الأعيان الممكنة وحقيقة من حقائقها، واعتبارٌ آخر من حيث أنَّها صور علمية بلا شئون ذاتية، وهي بهذا الاعتبار عين الذات لا صورة لها في الوجود ولا في العلم بخلاف الأول، فإنَّها صورة علمية ولها في الخارج صور خارجية يتعين بها في الخارج إذا ظهرت في الخارج.

(وهي التي تقع صورة الوجود عليها) وذلك لا يكون إلا من حيث أنَّها أعيان ثابتة لا من حيث أنَّها شئون ذاتية للحق سبحانه.

فإنَّها عين الذات فليس في وسع العبد (أنْ يطلع في هذا الحال): أي حال كونه مطلعًا على عينه ومقيدًا بهذا الاطلاع الجزئي أنْ يطلع كليًا على اطلاع الحق على هذه الأعيان الثابتة في حال عدمها؛ لأنَّها: أي لأنَّ الأعيان الثابتة في حال عدمها.

(نسب ذاتية) مجرَّدة عن الأسماء والصفات لا صورة لها، يدرك غير الذات ولا تَميُّز ولا فرق بينها وبين الذات بل هي نسب وخصوصيات لحضرة الذات تسمى باصطلاحهم شئون ذاتية، وهي عين ذاتها فإذا اطلع العبد المُعتني به على الأعيان الذاتية من حيث أنَّها شئون، فيرى شئونًا ذاتية لا صورة لها في ذاتها، بل يرى أنَّها عين الذات.

(فبهذا القدر): أي بقدر هذا الاطلاع على الذات وما فيها (نقول: العناية الإلهية سبقت في الأزل)؛ لهذا العبد الفرد كاشف عينه الثابتة وأخذ العلم بنفسه في نفسه بهذه المساواة في إفادة العلم؛ أنَّه يفيد من حيث أفاد الحق سبحانه ويفيض من عين ما أفاضه تقدَّس وتعالى.

وإنَّما قلنا سبقت له بسبب هذه المساواة التي هي الأخذ من المعدن الواحد في الإفادة؛ وهي العلم بما في علم الله فيه، وهي العناية المختصة بالفرد؛ لأنَّه فوق مقام عينه بل هو في إطلاق الذات ولا عين له في الأعيان كالحق تعالى.

ومن هذا المقام والمشهد من يشهد الحكم ويراها قبل أن يكون الحق فيها، وهو الذي يشاهدها في حال عدمها كما يشهدها الحق، وهو أعلى المدارك وأسناها وأشرفها.

قال الشيخ ﷺ الصديق الأكبر ﷺ أشار في قوله: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله إلى هذا التجلي: أي التجلي في لا شيء وما فيه أحد فيما وصل إلينا على هذا الوجه، وما يتكون منه في قلب المعتكف على شهوده إلا أبو بكر الصديق ﷺ.

=

=

ذكر الشيخ ﷺ في الباب السادس والتسعين وثلاثمائة من «الفتوحات»: وذلك لأنَّ الإدراك بهذا النمط للمكن ممكن.

وهو إدراك في حال عدمها فإذا جاء الأمر الإلهي بالتكوين لم يجد إلا وجود الحق فظهر فيه لنفسه، فرأى الحق قبل رؤية نفسه فلما ألبسه وجوده تعالى رأى نفسه عند ذلك، فقال: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله: أي قبل أن يتكون فيه فيقبل الحق صورة ذلك الشيء وهذا من مقام التحلي؛ لأنَّه رأى الحق قبل الكون فيرى صدور ذلك منه تعالى وتقدَّس.

(ومن هنا يقول الله): أي مِنْ أنَّه يعلم أنَّ الحق لا يعطيه إلا ما أعطَته عينه من العلم به؛ فإن الأعيان عالمه مفيدة معطية والأسماء مستفيدة، فالله تعالى العالِم أزلاً وأبدًا؛ لأنَّه تعالى عين الكل.

(حتى نعلم وهي كلمة محققة المعنى). كما ورد في الخبر: «إنَّه ينـــزل إلى سماء الدنيا ويقول هل من مستغفر». وهذا عين ما قررناه في هذا المقام، وكيف لا؟ ومِنْ أسمائه المؤمن ومِنْ معقوليته المؤمن؛ فإنَّه المصدق بالغيب أنْ يكون هناك غيب.

فنبَّه تعالى عليه في قوله: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

وأيضًا ورد في الخبر حديث: «المؤمن فإنَّه المصدق بالغيب أنْ يكون هناك غيب مرآة المؤمن» رواه ابن أبي عاصم، والطبراني في الأوسط، والضياء المقدسي عن أنس ذكره في جمع الجوامع.

فالمؤمن الحق مرآة المؤمن الخلق فيرى فيها نفسه وذاته بحكم المرآة، وكذلك صفاته كالعلم في القديم قديم، وكذلك المؤمن الخلق فيرى فيها نفسه وذاته بحكم المرآة وكذلك صفاته كالعلم، فظهر من هنا حكم حتى نعلم، فافهم.

فإنَّ من أعجب العجاب في الوجود؛ أنْ يكون من أعطاك العلم بنفسه لا يعلم نفسه إلا بك؛ لأنَّ الممكنات أعطت العلم بأنفُسها الحق، ولا يعلم شيء منها نفسه إلا بالحق، فإنَّه يعلم بك كما تعلم به فهو حسبك، لأنَّه الغاية وأنت حسبه، لأنَّه ما تم بعده إلا أنت ومنك عملك وما بقى إلا الحال، وهو عين العدم المحض، فافهم.

(ما هي كما يتوهمه) أنَّه لو جعلنا حتى نعلم على ما به بصرافته، فيلزم الحدوث في العلم بحصول علمه بعد إنْ لم يكن، وذلك ذوق (من ليس له هذا المشرب) ولم يعلم صاحب هذا المشرب أنَّ العلم ولو كان إحدى الصفة ولكن من حيث هو هو.

فإنَّه نِسْبة من النسَب الاعتباري، فلا معدوم ولا موجود ولا قديم ولا حادث، وأمَّا بحكم المتعلق فيحدث له أحكام، حتى يقول فيه أنَّه في القديم قديم، وفي الحادث حادث، كالوجود.

فلهذا قيل: إنَّ التعلق حادث وحدوث التعلق ما جاءه إلا من حدوث المتعلَّق؛ لأنَّه لو كان المتعلق قديمًا

=

قال تعالى: ﴿قَالُوا﴾ [طه:٩١].

أي: القوم مصرون على عبادة الهوى.

وقوله تعالى: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ﴾ [طه:٩١].

أي: لن نزال مقيمين على عبادته من حيث الطبع.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه:٩١].

علّقوا رجوعهم عن ذلك بالمحال الذي هو رجوع موسى من الطور، فإنهم كانوا على اعتقاد أن موسى قد مات في الطور؛ ولذا ارتدُّوا عن دينهم، وتغيروا عن حالهم.

ومن ذلك قول بعض الصحابة: تغيرت قلوبنا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا لم يُدفن بعد، ثم لمَّا دُفن وتقادم الزمان، رجع بعض الناس كفارًا، وهكذا الأطفال بلا آباء، والتلاميذ بلا أساتيذ، والمريدون بلا شيوخ قبل التربية.

فإنه لا رجوع بعد الوصول، كما قيل: لو وصلوا ما رجعوا: أي أن الرجوع إنما يكون عن الطريق لا عن المنـــزل.

وفيه إشارة إلى قوى الروح، فإنه كلّما كانت آثاره باقية بين قومه، فهم بذلك أحياء القلب، وإذا اندرست خرجت القوى، وخرجت عن نظامها، وصاروا في صورة الأموات.

وفيه رمز أيضًا إلى أن حُبَّ الهوى إذا استحكم في القلب بَعد الحيرة عن القوى؛ كالميت إذا بلى وانفسخ؛ فإنه لا يرجع إلى حاله الأولى، بخلاف المريض فإن بقاء الروح سبب لعمارة البدن.

نسأل الله العصمة من الإصرار، والبقاء مع النفس، ونرجو منه الإنابة، والأدبة واستشمام روائح الأُنس، إنه المعطي على الدوام، ويُديم الفيض على الأنام.

=

فتعلق العلم به قديمًا فلا يكون صفة القدم للعلم إلا بقدم المتعلق كالعلم بالذاتيات والأسماء الإلهية وصفة الحدوث لها بحدوث تعلقه وحدوثه بحدوث المتعلّق، كما أنَّ في القديم قدم التعلُّق لقدم المتعلّق، فافهم.

في سورة الأنبياء

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٢٩].

فورد على الفرض والتقدير، وذلك لا يقتضي الوقوع، كما نهى عن الشرك في قوله: ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٤].

وأوعد في قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥] بطريق الإلهاب والتهيُّج، وكذا غيره من المواضع؛ فكانت الآية نظير قوله: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٦].

فإن إقامتها إنما تكون بالإيمان والتقوى، فمَن آمن؛ أكل من فوقه، ومَن اتقى؛ أكل من تحته؛ يعني: إن الفوق إشارة إلى السماء، ومحلّ الفيض، والتحت إشارة إلى الأرض، ومحلّ الكسب.

وقوله ﷻ: ﴿وَلَـكِن كَذَّبُواْ﴾ [الأعراف:٩٦] بترك الإيمان والتقوى.

وقوله ﷻ: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦]: أي بسبب عملهم السيئ؛ وهو التكذيب، فكان سوء الحال ظاهرًا وباطنًا سببًا للأخذ والانتقام، ولا يحصل كل نفس إلا ما زرعت كما قيل: يداك أو فوك نُفخ، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، فإنه لا يحب الظلم والظالم، كما قال: ﴿وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧، ١٤٠].

وقال تعالى: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

هذه حكاية كلام يونس ﷺ؛ وهو في قعر البحر في بطن الحوت، فجعل كلامه معه تعالى من طريق الخطاب لا من طريق الغيبة؛ إذ لا غيبة بالنسبة إليه تعالى؛ فإنه هو المتجلّي في كل شيء بحسبه: أي بحسب ذلك الشيء لا بحسبه تعالى، فإنه تعالى لا يسعه شيء إلا بالاعتبار، وبعض الوجوه، فيونس إنما خاطب الله المتجلّي فيه

كما قال ﷺ: «**إن الله خلق آدم؛ فتجلّى فيه**»(١)؛ يعني أنه تجليه الأحدي سار في آدم عليه السلام، ومن ذريته المندمجة في ظهره الظاهرة على الترتيب إلى يوم القيامة، فلكل واحد منهم خصّة من ذلك التجلّي الأحدي بقدر استعداده، كما أن لكل بيتٍ من بيوت الناس خصّة من نور الشمس بقدر روزنته.

فكما أن البيت قد يكون فاقد الروزنة، فيبقى مظلمًا محجوبًا عن نور الشمس؛ فكذا الإنسان إذا كان محجوبًا بالحجب الكونية، فاقد البصيرة؛ يبقى محرومًا عن وصول نور التجلّي إليه بالفعل، فليس الكلام في النور الإلهي، فإنه لا بخل فيه، ولا إعراض؛ وإنما الكلام في المحلّ، فلا بد من القابلية جدًا، فإذا حصل القابلية بالفعل؛ وجد القابل ربه تعالى عنده، فيخاطبه بحسب مقامه.

ومن هنا بان أن الله سريع الحساب يوم القيامة إذ لا يشغله شأن عن شأن، وهو مع كل عبد من عباده يُخاطبه، ويُقرر ذنوبه، ويُعامله معاملات أخرى، ومَن شاهد هذا المقام؛ لم يُشكل عليه فهم معنى قوله تعالى: ﴿**وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا**﴾ [البقرة:٢٥٥]، ونحو ذلك.

والحاصل أن خطاب يونس، وهو في تخوم الأرض؛ كخطاب نبينا ﷺ، وهو في المستوى، وذُروة العرش حيث قال: «**لا أُحصي ثناء عليك أنت؛ كما أثنيت على نفسك**»(٢).

فإذًا كل من المقامات العُلوية والسفلية؛ مقام الخطاب، والسماء على أنه لا سفل بالنسبة له إلى الله تعالى؛ ولذا شرّع التسبيح والتكبير في انتقالات الصلاة؛ تقديسًا له تعالى عن التقيد بمرتبة من المراتب الكونية بحسب قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾[آل عمران:٩٧].

فظهر من هذا التقرير: إن كلٌ من الخطاب، والغيبة، والتكلّم؛ نسبة من نسب الكلام معتبرة بحسب المقام.

---

(١) تقدم تخريجه بنحوه.

(٢) رواه مسلم (٣٥٢/١)، وأبو داود (٢٣٢/١).

فقد يقتضي المقام الغيبة كما في قوله تعالى: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣]؛ إشارة إلى مقام الهُويَّة الذاتية التي هي أول التعينات الإلهية، فكون هذا المقام غيبًا؛ إنما هو بالنسبة للعبد لا بالنسبة إلى الله تعالى؛ لأن الحقائق والأعيان كلّها مشهودة له تعالى أزلاً وأبدًا من غير تفرقة بين مرتبة العلم والعين إلا باعتبار.

وقد يقتضي المقام التكلُّم كما في قوله تعالى: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾ [طه:١٤]، كما سمع ذلك من شجرة موسى عليه السلام.

وقد يقتضي الخطاب كما في قصة يونس عليه السلام.

فإذًا كلٌّ من التكلُّم، والخطاب، والغيبة: كلام مطلق بحسب الحقيقة غير متعيِّن بنسبة من النسب إلا بحسب المقام.

فقول المنصور قُدِّس سرُّه[1]: أنا الحق؛ كقوله هو الحق، وأنت الحق؛ لكن أهل

---

(١) قال الشيخ يوسف بن الملا عبد الجليل الموصلي: واختلف قوم فيه كالاختلاف في المسيح عليه السلام فقيل: هو ولي الله، وقيل: هو ساحرٌ، والتمس حامد بن العباس الوزير من الخليفة المقتدر تسليمه إليه، فكان يخرجه في مجلسه ويستنطقه، فلا يظهر منه ما يخالف الشريعة، وحامد مجد في أمر ليقتله حسدًا وبغيًا وعدوانًا لأولياء الله تعالى، ثم أنه رأى له كتابًا حكي فيه أن الإنسان إذا أراد الحج و لم يمكنه أفرد من داره بيتًا نظيفًا من النجاسات، ولا يدخله أحد، وإذا حضر الحج طاف حوله، وفعل ما يفعله الحاج بمكة، ثم يجمع ثلاثين يتيمًا، ويعمل أجود طعام يمكنه، ويطعمهم في ذلك البيت ويكسوهم، ويعطي كل واحدٍ سبعة دراهم، فيكون كمن حج، فأمر الوزير بقراءة ذلك قدام القاضي أبي عمرو، فقال القاضي للحلاَّج: من أين لك هذا؟ قال: من كتاب الإخلاص للحسن البصري، و لم يعلم الحلاج ما دسّوه عليه، فقال القاضي له: كذبت يا حلال الدم، قد سمعناه بمكة وليس فيه هذا، فطلب الوزير خط القاضي بقوله حلال الدم، فدافعه القاضي فلم يندفع، وألزمه فكتب بإباحة دمه، وكتب بعده من حضر المجلس من العلماء، فقال الحلاَّج: ما يحل لكم دمي، وديني الإسلام، ومذهبي السنة، ولي فيها كتب موجودة، فالله الله في دمي، وأرسل الوزير الفتاوى بذلك إلى المقتدر، فأذن له بقتله، فضرب ألف سوط، ثم قُطعت يده ثم رجله، ثم قُتل، وأُحرق، ونُصب رأسه ببغداد.

قال الفاضل العمري: ولعمري أنها مظلمة مُظلمة، وقضية ظالمة، ارتكبها الوزير لهوى نفسه، وأظهر أنها حماية للشريعة المؤيدة.

=

التمكين اختاروا الثاني والثالث؛ لما ليس فيهما من الإيهام؛ إذ الناس يظنون بالله ظنَّ السوء، ويجمع الكل قوله: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [الصافات:٣٥]؛ فإن الله؛ هو الحق، وأنت الحق، وأنا الحق، فافهم كلام هذا الفقير حقًا.

* * *

= وفي شرح الجوهرة للقاني: فمن تكلم في أئمة الدين، وهداة المسلمين من الرؤساء المجتهدين، لا يلتفت إليه ولا يعول في شيءٍ عليه، ومقت الله والسقوط من عينيه منجذب إليه، كما أنه لا التفات لمن رمي الجنيد وأصحابه من جملة الصوفية بالزندقة عند الخليفة جعفر المقتدر، حتى أمر بضرب أعناقهم، فأمسكوا إلا الجنيد، فإنه تستر بالفقه، وكان يفتي على مذهب شيخه أبي ثور، وبسط لهم النطع، فتقدم من آخرهم أبو الحسن النوري، فقال له الجلاد: لِمَ تقدمت؟ فقال: لأوثر أصحابي بحياة ساعة، فبهت السياف، وأنهى الخبر إلى الخليفة، فردَّهم إلى القاضي، فسأل النوري عن مسائل فقهية فأجابه، ثم قال: وبعد.. فإن لله تعالى عبادًا إذا قاموا قاموا بالله، وإذا نطقوا نطقوا بالله... إلى آخر كلامه. فبكى القاضي وأرسل يقول للخليفة: إن كان هؤلاء زناديق فما على وجه الأرض مسلم، فخلى سبيلهم، ثم قتل من الصوفية الحسين الحلاج في سنة تسع وثلاثمائة بما لم يتأمله مَنْ أمر بقتله انتهى.

وقال أيضًا: ورُوي أنه لما قُدِّم لتقطَّع يداه قُطعت اليد اليمنى أولاً، فضحك، ثم قُطعت اليسرى فضحك ضحكًا بليغًا، فخاف أن يصفرَّ وجهه من نزف الدم، فكبَّ بوجهه على الدم السائل، ولطَّخ وجهه بدمه. ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: يا مولاي، إني غريبٌ في عبادك، وذكرك أغرب منِّي، والغريبُ يألف الغريبَ.

وقال أيضًا: وفي مشكاة الأنوار للإمام الغزالي فصل طويل في حاله يعتذر فيه عمَّا صدر عنه مثل قوله: (أنا الحق.. وما في الجبة إلا الله)، وحملها على محامل حسنة، وقال: هذا من شدة الوجد مثل قول القائل: (أنا من أهوى ومن أهوى أنا).

وقال السيد الجليل الشيخ عبد القادر الجيلاني: عثر الحسين الحلاج فلم يكن في زمنه من يأخذه بيده، ولو كنت في زمنه لأخذت بيده. وانظر: الانتصار للأولياء (ص٣٩، ٥٨٤) بتحقيقنا.

في سورة المؤمنون

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنـــزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٩].

قوله: منـــزلاً مباركًا بضم الميم، وفتحها بمعنى: موضع إنزال، أو موضع نزول؛ وهو السفينة النوحية ههنا؛ لأن الخطاب لنوح ﷺ، فكان السفينة منـــزلا مباركًا له، ولَمن معه من المؤمنين حيث نجوا منها من الطوفان، كما أن البَر كان منـــزلاً غير مبارك لَمن عصاه من المشركين حيث أُغرقوا من فيه بالطوفان، وذلك لأن دخول السفينة كان بإذن الله تعالى؛ فكانت منـــزلاً مباركًا يستتبع نفعًا كثيرًا ظاهرًا وباطنًا، والإباء عن دخولها بإضلال الشيطان، وتسويل النفس؛ فكان عاقبته شرًا محضًا، وهلاكًا صرفًا.

فكما أن دخول السفينة كان خيرًا محضًا؛ لكونه امتثالاً لأمر الله تعالى، فكذا الخروج عنها بعد ما كان أمر الله مفعولاً؛ فكان الأرض أيضًا منـــزلاً مباركًا لهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ﴾ [هود:٤٤]؛ لأنها مع الماء المستوعَب لا يُنتفع بها.

والحاصل أن كلاً من السفينة والأرض؛ كان منـــزلاً مباركًا في وقته؛ لأنه كان فيه نوح المبارك، وما كان مستصحبًا للمبارك؛ كان مباركًا، فنعم المنـــزل ما سكن فيه الأخيار، ووضع فيه قدمه الأبرار.

ولمّا كانت السورة مكية؛ كان من إشارتها أن يدعو نبينا ﷺ بهذا الدعاء لنـــزّله الله المنـــزَل المبارك الذي هو المدينة المنورة؛ فكانت المدينة مباركة ببركة قدمه ﷺ، كما كانت مكة المكرمة مباركة بقدمه، وبأقدام سائر الأنبياء أيضًا عليهم السلام، فكلٌّ منهما منـــزَل مبارك لَمن أراد أن يكون في جوار الله تعالى، وجوار سيد المرسلين.

وفيه إشارة إلى أن الدنيا من المنازل الرفيعة حيث استدعى لسان الروح النـــزول إليها، وكذا البدن الإنساني ذلك الروح الإضافي، وإن لم يكن حالاً فيه؛ بل متعلّقًا به تعلّق التدبير والتصرف؛ لكنه كان كالمنـــزل له، وإنما كان مباركًا؛ لأن الروح إنما يترقّى إلى الكمالات، ويضع القدم في المعراج، والمصاعد بإعانة البدن له

بمزاولة الأعمال الصالحة.

فكان للروح خير كثير من جهة البدن، كما أنه كان للبدن نفع، وفيه من جهة تأثيرات الروح، ومن ثم كانت أبدان الكُمَّل محترمة مباركة طيبة؛ بل ما يتعلّق بها أيضًا من الألبسة بسبب الاتصال، فإذا كان للألبسة والأكيسة شرف زائد بسبب ذلك التعلُّق؛ فما ظنك بحال المتعلّق بهم تعلُّقًا حقيقيًا.

ولذلك كانت دوائرهم وبقاعهم من المنازل المباركة أيضًا، فمَن وفّقه الله تعالى للنــزول فيها، والتردُّد إليها غُدوًّا ورواحًا؛ كان عبدًا مباركًا نافعًا للعالمين، فطوبى لَمن تشرَّف بهذا الشرف العظيم، وويلٌ لَمن وقع في الذُّلّ والعذاب الأليم بدخول دويرات المبتدعة، والفسقة الخارجة عن الصراط المستقيم.

ومن المنازل العالية: القلب الإنساني؛ لأن الواردات الإلهية تنــزل فيها، وله برزخية جميع الكمالات الإنسانية، ومَن دخله؛ كان آمنًا من برد الطبع، وحرِّ الشهوة، سالمًا من آفات الشكوك والظنون، متصفًا بالصفات الإبراهيمية، والمحمَّدية، وسائر الكُمَّل الندر.

قوله ﷻ: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥٣].

ثم إن الإلقاء من الله، ومن الملك، ومن الخضر، ومن المشايخ أمر واحد في المعنى؛ لأن الشيخ إذا كان خليفة الرسول في المعنى، والرسول خليفة الله في الحقيقة؛ فإلقاؤه عين إلقائه، ولا يلقى المحل إلا بقدره، اللّهم إلا أن يقال: إن نفخ خاتم الأولياء أقوى من نفخ المشايخ؛ لأنه ملك ملوك المشايخ؛ فهو أغنى منهم؛ كالسلطان فإنه أغنى من الوزير، وهو ممَن دونه، ولا شك أن الأخذ من الأغنى لاسيما إذا علّق ذلك به؛ كان أنفع، وقد يجتمع الإلقاءات، فيلقى الشيخ في بداية الأمر، ثم خاتم الأولياء في وسط الحال، ثم الروح المطهَّر النبوي في نهايته، ثم الله تعالى في نهاية النهايات.

وقد يتقدَّم إلقاء الله تعالى إذا كان المحل أقبل وأكمل استعدادًا، ويكون النفخ من طريق الفاتحة، ومن غيرها، وله صور مختلفة؛ لكن النفخ أقوى لقوله تعالى:

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩] [1]، فصورة النفخ أقوى من سائر الصور، وقد يكون بحيث يمصّ السالك فم الشيخ، أو الخضر، أو النبي، أو يأكل السكر من يده، فذلك إشارة إلى كثرة الفيض، ولذّة المعرفة، وقوة الحقيقة، وهنا كلام آخر لا نذكره.

وقال الله سبحانه: ﴿وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون:٩١].

: أي كما يعلو الذكر على الأنثى؛ فيظهر بينهما التأثير؛ فيكون أحدهما فاعلاً، والآخر قابلاً؛ والقابل لا يكون إلهًا؛ لذلك قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣]؛ فإن الأحدية ينافيها الازدواج؛ لتأدِّيته إلى التكثُّر، والصمدية ينافيها الاحتياج؛ لتأدِّيته إلى الذلّة المنافية للإلوهية [2].

وقوله ﷻ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤].

في ذاته وصفاته وأفعاله نحو قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

فالإله ذات واحدة لا تُكثّر أصلاً، وصفته الخاصة به هو: وجوب الوجود إذ ما عداه إنما نشأ منه، فليس له إلا الإمكان، وأمّا الوجوب للغير؛ كوجوب الوجود للأرواح المهيمة فلا ينافي وجوب وجوده تعالى؛ لأن وجوداها قائمة به تعالى؛ فهي

---

(١) قال سيدي علي وفا: اسمع: الروح الحكيم العليم هو وجه الملك المعبود، فله لا لغيره يجب السجود على جميع الجنود، قال هو سيدي ومولاي:

لسَاقِهِ القيومِ مِن غَيْبٍ ... فمجّد الرّاكعُ والسَّاجِدُ
أحَاطَ الكُلّ بِهِ وهُوَ فِي ... جَد وإلَيْهِ مَقْصد القَاصِد

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

(٢) قال سيدي محمد وفا في النفائس: الأحدية نعت الذات المطلقة، وهي التي لا تقبل الثنوية مطلقًا بوجه من الوجوه، «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان».

والوحدانية أصل الكثرة بالتجلّي، ومنشأ العدد بالفعل، والفرادنية هو تمييز الواحد الأول، بالمرتبة الخاصة المخصوصة بالنعوت الإلهيَّة الربَّانية والصمدانية، هو الذي لا منه شيء، ولا هو من شيء، ولا في شيء. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ*لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ*وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١: ٤]. فالأحدية نعتٌ لله، والوحدانية نعتٌ للرحمن.

وإن كانت أبدية لكنها ليست بأزلية، كما أن الأجسام ليست بأزلية ولا أبدية.

وأبدية أجسام الكُمَّل إنما هي من سريان بركات نفوسهم القدسية؛ فهي في حكم الأرواح، ثم إن قوله تعالى: لم يلد ولم يولد مرتبة فوق مراتب جميع التعينات؛ فإن الله تعالى: ﴿غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩] في مرتبة ذاته، ولمَّا كان لنبينا ﷺ مرتبتان: مرتبة التهييم؛ لأن العقل الكل من عدد الأرواح المهيمة.

وهذه المرتبة لا تقتضي الولادة، وإليها الإشارة بعائشة الصديقة رضي الله عنها؛ فإنها بمنـــزلة النفس المطمئنة القدسية الراضية المرضية الصافية للنبي ﷺ؛ ولذا كان حبُّه لها أشدَّ من حبِّ غيرها إذ لم تلد أصلاً، والحبُّ لذّة روحانية، وإنما تصفو في حال الوصل التام الذي هو الفناء المطلق؛ وهو حال أبي يزيد البسطامي(١)،

---

(١) ذكره الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء وترجمه فأحسن، وقال: ومنهم التائه الوحيد القائم الفريد البسطامي أبو يزيد تاه فغاب، وهام فآب، غاب عن المحدود وآب إلى موجد المحسوسات والمعلومات، فارق الخلق ووافق فأيد بإخلاء السر وأمد باستيلاء الذي إشاراته فانية، وعباراته كامنة لعارفيها صائنة، ولمنكريها فاتنة.

اسمه طيفور بن عيسى بن شروشان وكان جده مجوسيًا فأسلم وكان سبب إسلامه على ما ذكره شيخ المشايخ أبو عبد الله محمد بن علي الداستاني البسطامي قدس الله روحه أنه كان يخالط شروشان ولد إبراهيم الذي ورد بسطام في أول الإسلام فلام إبراهيم ولده وأنكر عليه صحبة شروشان، وقال له: رجل مجوسي تصاحبه؟ فقال لوالده: هو رجل مرضي الخصال لا يرد السؤال عن السؤال سخي وفي وإنما أحبه لذلك، فقال له والده: قل له: إن أبي يجيئك ضيفًا، فأخبره فقال: نعم إن فعل فعلي الهدية والكرامة، فلما حضر إبراهيم وأحضر شروشان الطعام. قال له: لا آكله حتى تعطيني مرادي وتقضي حاجتي. قال: وما ذاك؟ قال: أن تسلم. قال: أفعل وكرامة، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده رسوله، فكان هذا سبب إسلامه. وقد كثر اسم طيفور في قبيلته وقومه في يومه وغير يومه، وفي الأجانب من كل جانب كانوا يسمون باسمه ويكنون بكنيته تبركًا واستسعادًا، ولكن هو ذلك الطيفور الذي هو نور على نور، ولا زال المشايخ المتقدمون في عصره يزورونه ويتبركون بدعائه وهو عندهم من أجل العباد والزهاد وأهل المعرفة بالله. قد فاق أهل عصره بالورع والاجتهاد ودوام الذكر لله تعالى حتى بال الدم من خشية الله تعالى.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السُّلمي رحمه الله: مات أبو زيد عن ثلاث وسبعين سنة، وهو من قدماء مشايخ القوم له كلام حسن في المعاملات، ويحكى عنه في الشطح أشياء منهـــا مالاً يصح ويكون مقولاً عليه يرجع إلى أحوال سنية وفراسة حادة ورياضة لأصحابه حسنة. مات سنة إحدى وستين =

=

ومائتين، وقيل: أربع وثلاثين ومائتين.

ذكر معنى أقواله المشهورة عنه في الشطح: «سبحاني سبحاني ما أعظم شاني».

قال الشيخ أبو النصر السراج رحمه الله: وقد قصدت بسطام فسألت جماعة من أهل بيت أبي يزيد عن هذه الحكاية فأنكروا ذلك، وعلى تقدير صحة ذلك، فنقول: قوله سبحاني سبحاني على معنى الحكاية عن الله ﷻ أنه يقول: سبحاني سبحاني لأنا لو سمعنا رجل يقول:

لا إله إلا أنا فاعبدني، لا يختلج في قلوبنا شيء غير أنا نعلم أنه هو ذا يقرأ القرآن، أو هو يصف الله بما وصف به نفسه، وكذلك لو سمعنا دائما أبا يــزيد وغيره وهو يقول: سبحاني سبحاني، لم نشك أنه يسبح الله ويصفه بما وصف به نفسه.

وكذا قال: الشيخ شهاب الدين السهروردي في العوارف: وما يحكى عن أبي يــزيد قوله: سبحاني حاشا لله أن يعتقد في أبي يــزيد أنه يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله تعالى.

قال: وهكذا ينبغي أن يعتقد في الحلاج قوله أنا الحق.

قيل لأبي القاسم الجنيد قدس الله روحه إن أبا يــزيد يسرف في الكلام، وقال: وما بلغكم عن إسرافه في كلامه؟ قيل يقول: «سبحاني سبحاني ما أعظم شأني». فقال الجنيد:

إن الرجل مستهلكٌ في شهود الإجلال، فنطق بما استهلكه لذهوله في الحق عن رؤيته إياه فلم يشهد إلا الحق تعالى فنعته، فنطق به ولم يكن من علم ما سواه ولا من التعبير عنه ضنًا من الحق به، ألم تسمعوا مجنــون بني عامــر لما سئل عــن اسم نفسه؟ فقال: ليلى، فنطق بنفسه ولم يكن من شهوده إيــاه فيه، وقيل لــه: من أنت؟. قال: أنا من ليلى ومن ليلى أنا.

وأما ما حُكي عنه قوله: «ضربت خيمتي بإزاء العرش» فإن صح عنه أنه قال ذلك فهذا غير مجهول أن الخلق كلهم والكون وجميع ما خلق الله تحــت العــرش، أو بإزاء العرش يعني: وجهت وجهي نحو ملك العرش، ولا يوجد في العالم موضع إلا وهو بإزاء العرش، فلا سبيل للمتعنت إلى هذا الطعن.

وأما ما حُكي عنه أنه قال: «خضت بحرًا وقف الأنبياء بساحله» فقد تكلم الناس على مقالته هذه بأشياء على قدر أذواقهم، ونذكر هنا ما قاله الشيخ الكبير أبو الحسن الشاذلي قدس الله روحه فإنه أقرب إلى أفهام الناس.

قال: إنما يشكو أبو يــزيد بهذا الكلام ضعفه وعجزه عن اللحاق بالأنبياء عليهم السلام، ومراده أن الأنبياء خاضوا بحر التوحيد ووقفوا من الجانب الآخر على ساحل الفرق يدعون الخلق إلى الخوض، أي: فلو كنت كاملاً لوقفت حيث وقفوا.

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله: وهذا الذي فسربه الشيخ كلام أبي يــزيد هو اللائق بمقام أبي يــزيد.

وقد قال: إن جميع ما أخذ الأولياء من ما أخذ الأنبياء كزق مُلئ عسلاً، ثم رشحت منه رشاحة فما في

=

=

باطن الزق للأنبياء وتلك الرشاحة هي للأولياء.

وقال: والمشهور عن أبي يـــزيد التعظيم لمراسم الشريعة، والقيام بكمال الأدب.

وحُكي عنه أنه وصف له رجل بالولاية فأتى إلى زيارته وقعد في المسجد ينتظره، فجاء ذلك الرجل وتنخم في حائط المسجد فرجع أبــو يـــزيد ولم يجتمع بـــه، وقال: هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة كيف يؤمن على أسرار الله، وما جاء عن الأكابر أُولي الاستقامة مع الله سبحانه من أقوال وأفعال يستنكر ظاهرها أوّلناها لهم لما علمناه من استقامتهم وحُسن طريقتهم، وقد قال ﷺ: «ولا تظنّنّ بكلمة برزت من امرئ مسلم سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً» انتهى كلامه قدّس الله سرّه العزيز.

وأما قوله في بعض كلامه: رفعني وأقامني بين يديه، يعني: أشهدني ذلك وأحضر قلبي لذلك؛ لأن الخلق بين يدي الله سبحانه لا يذهب عليه منهمَ نفس ولا خاطر ولكن يتفاضلون في حضورهم لذلك ومشاهدتهم له، ويتفاوتون في صفائهم عجب من كدورة ما يحجب بينهم وبين ذلك من الأشغال القاطعة والخواطر المانعة، والله تعالى أعلم. وأما قوله: قال لي وقلت له، فإنه يشير بذلك إلى مناجاة الأسرار وصفاء الذكر عند مشاهدة القلب لمراقبة الملك الجبار في آناء الليل والنهار.

واعلم أن العبد إذا تيقن بقرب سيده منه ويكون حاضر القلب مراقب الخواطر فكل خاطر يخطر بقلبه كأن الحق سبحانه يخاطبه بذلك، وكل شيء يتفكره بسره فكأنه يخاطب الله به إذ الخواطر وحركات الأسرار، ما يقع في القلوب بدؤه من الله تعالى وانتهاؤه إلى الله.

فهذا على هذا المعنى، والله أعلم. وفيما ذكرته كفاية وهذا الباب واسع، وقد شرح الشيوخ ما نُسب إليه من الكلام المغلق على أفهام بعض الناس كسيد الطائفة الجنيد والشيخ أبي النصر السراج وغيرهما قدس الله أرواحهم.

قال الجنيد قدّس الله روحه: الحكايات عن أبي يـــزيد مختلفة، والناقلون عنه فيما سمعوه متفرقون، وذلك لاختلاف الأوقات الجارية عليه بما فيها والاختلاف بالمواطن المتداولة بما خص منها فكل يحكي عنه ما ضبط من قوله، ويروي ما سمع من تفصيل مواطنه.

وقال الجنيد أيضًا: وكأن كلام أبي يـــزيد رحمة الله عليه بقوته وغوره وانتهاء معانيه مغترف من بحر قد انفرد به، وجعل ذلك البحر له وحده.

وقال الجنيد أيضًا: كل الخلق يركضون فإذا بلغوا ميدان أبي يزيد هملجوا.

وقال أبو الحسين: ولعمري لقد كان يبدو منه الشيء بعد الشيء على سبيل الغلبة لا يجوز أن يتخذها الإنسان دعوى يدعيها. وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت علي بن بندار، يقول سمعت أبا بكر بن محمود يقول: بلغني أن أبا حفص قدم على أبي يزيد، فقال له: يا أبا يـــزيد: يبلغنا عنك في كل وقت أشياء منكرة، فقال: إنما يخرج الكلام مني على حسب وقتي، ويأخذه كل

=

ونظرائه -قَدَّس الله أسرارهم.

والمرتبة الثانية: مرتبة التفضيل؛ وهي عبوره ﷺ من مرتبة التهييم، وتولده بالنكاحات المعنوية من الآباء العلوية، والأمهات القدسية إلى أن ظهر في صورة تعيُّنه الخاص؛ ليكون مظهرًا لسرٍّ تولُّد الأسماء والصفات.

فهذه المرتبة تقتضي الولادة؛ وإليها الإشارة بخديجة الكبرى -رضي الله عنها- فإنها كالنفس الكلية للعقل الأول، ولذا ولدت فاطمة رضي الله عنها؛ فتسلسلت سلسلة النبوة منها إلى آخر الزمان؛ وهو زمان المهدي المنتظر ﷺ؛ فإنه من سلسلة فاطمة رضي الله عنها، وختم الولاية الخاصة المحمَّدية.

وبتلك المرتبة، وظهوره ﷺ فيها؛ كان قطب الأقطاب؛ كالوزير الخارج من حرم السلطان بمرتبة الوزارة؛ فعلم منه أن ندماء السلطان بمنـــزلة الأرواح المهيمة، وأن وزير المتفضِّل منهم بمرتبة الوزارة، بمنـــزلة العقل الأول.

فالوزير، وكذا العقل الأول، وقطب الأقطاب كلهم من [أهل الاختصاص] أولاً لكن بعد التقلُّد بمرتبة الوزارة، ومرتبة التفضيل، ومرتبة القطبية؛ ليس لهم حكم عليهم إذ ليسوا من أهل الأمر والنهي؛ لأنهم مستغرقون في مطالعة جمال السلطان، فالأمر والنهي يشغلانهم عن مراتبهم، وحِماهم عليه من الشهود المحض، فلهم المكانة العظمى، والمرتبة المثلى؛ لكنهم عقيم عن توليد الحقائق من تأثيرات الأسماء الحسنى.

والصفات العليا للوزير، والعقل الأول من حيث مروره على المراتب، والأطوار، ولقطب الأقطاب فضيلة تامة ورتبة عامة بهم ينتفع الأسماء، والصفات، ومظهر الذات، وتجلّيات مختلفة، فهم أهل الترقّي في صورة التنـــزُّل، كما أن مَن عداهم على الكِلْس، ومعنى تنـــزُّلهم الابتلاء فافهم.

=

بحسب وقته ثم ينسبه إليَّ، والله أعلم.

وانظر في ترجمته: حلية الأولياء (١٠/ ٣٣، ٤٠)، الرسالة القشيرية (١٧)، طبقات السلمي (٨)، ميزان الاعتدال (١/ ٤٨١)، الكواكب الدرية (١/ ٢٤)، مرآة الجنان (٢/ ١٧٣)، نفحات الأنس (٥٦)، الطبقات الكبرى للشعراني (١/ ٨٩)، طبقات الأولياء (١٠٨)، جامع كرامات الأولياء (٢/ ٤٠)، نتائج الأفكار القدسية (١/ ١٠٤)، رشحات عين الحياة (١٤)، وروضة الحبور في مناقب الجنيد البغدادي وأبي يزيد طيفور لابن الأطعاني (ص١٨) بتحقيقنا.

في سورة الفرقان

قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:٤٤]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩].

اعلَم أن الإنسان: إمَّا إنسان حقيقي، وهو الذي لهم قلوب يفقهون بها، ولهم أعين يبصرون بها، ولهم آذان يسمعون بها، فمتعلق فقههم هو العلم الإلهي، ومتعلق أبصارهم آثار الله، ومتعلق أسماعهم كلام الله، سواء كان بطريق الخطاب الغيبي، أو بطريق الخطاب البشري، أو بطريق غيرهما.

وإمَّا إنساني: وهو بعكس مَن ذُكر، وإنما قيل له: إنسان حيواني؛ لأنه إنسان من حيث حيوان من حيث السيرة؛ ولذا شُبه بالأنعام؛ لأن الأنعام لا تتجاوز الحس، والملك إلى عالم المعنى والملكوت.

فالإنسان الحيواني: ليس له روح إنساني، وقلب، وسمع، وبصر بحكم غلبة الحيوانية، فمَن قال: إن الروح الإنساني مشترك فيه دون القلب ونحوه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق:٧]، فهو ذهل عن الآية المذكورة، وفرَّق بين القلَب والرَوح؛ بل القلب، والعقل، والروح جوهر واحد في الحقيقة.

وإنما الاختلاف بحسب الاعتبارات، فالقلب محل الشهود، والعقل محل الإدراك، والروح محل المعرفة، فإذا كان الإنسان خاليًا عن الشهود، والإدراك الحقيقي، والمعرفة الإلهية كان حيوانًا حكمًا، وإن كان إنسانًا صورة بحكم المرتبة، فالاعتبار ليس بالمرتبة؛ بل بحقائقها، وأحكامها الظاهرة بالفعل، فاعرف جدًّا [(١)].

---

(١) **فائدة:** قال سيدي محمد وفا: الرحمن رئيس عالم القدرة، ومفيض عقوله الإلهيَّة، المتَّصفة بالصفات الربَّانية، وهي حقائق قادرة على التجلّي والتأثير، وهي ألسنةٌ تكوّن كل كون في عالم الإمكان، إلا الإنسان فإنه كلمة الرحمن، ورئيس عالم الأكوان، وله سجد الساجدون، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض أجمعين، خلق الله آدم على مثل صورة الرحمن، وكلمة الرحمن انتجت في عالم الإمكان الإنسان، وهي كن، وكلمة الإنسان تنتج في عالم الإيجاب، الرحمن وهو لا إله إلا الله، والله حقيقة كل حقٍّ، ونور كل أمر، وخلق لا فيه غيره، ولا معه سواه، الأبد والأزل في حقه سواء، ولله الأسماء الحسنى والصفات العُليا، يستتر ويتجلى، يظهر كيف شاء ويخفى، ويتنـزل ويترقَّى من العرض الأدنى إلى العرض الأقصى، قال تعالى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:٥٠].

في سورة الشعراء

قال الله سبحانه: ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى﴾ [الشعراء:٦١].

أي: بنو إسرائيل ذلك حين وصلوا إلى بحر القُلْزُم[١] وهو الصحيح.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١] بفتح الراء على المفعول، يعني: أدركنا فرعون وقومه، وذلك من ضعف اليقين.

ولو قال: إِنَّا لَمُدْرِكُونَ بكسرها على الفاعل، يعني: واصلون إلى المراد يومئذ، وهو النجاة لأصابوا، وجعل ذلك من كمال رشدهم، وتمام معرفتهم، وذلك لأن البحر نار كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦].

والنار لا تحرق الأحباب؛ بل الأعداء؛ ولذا قال تعالى: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح:٢٥]، وقال: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦].

ومن ثَّم كانوا يعيشون على هياكل طير سُود داخل البحر، وتخرج بالغُدو والعَشي، وهذا بخلاف أصحاب محمد ﷺ كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢].

فانظر كم من فرَّق بين القومين، وقد أشار موسى أيضًا إلى ضعف قومه في اليقين حيث قال: ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢]، فإنه لم يقل: إن معنا ربنا سيهدينا، فقطعهم عن الشركة، وأفرد نفسه بالذكر؛ لأن مكاشفة سرِّ المعية؛ إنما كانت له لا لقومه، فلم يستحقوا النصرة والهداية إلا بمتابعة موسى، فإنه منصور البتَّة بالوعد الإلهي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر:٥١].

وموسى رسول صاحب كتاب؛ بل من أُولي العزم، ولكون قومه نازلين في الاعتقاد واليقين؛ زجرهم بقوله: (كلا) يعني: إنكم من أهل البداية؛ لأن ذلك كان أول ما صحبوا موسى، ولا شك أن أهل البداية أهل التلوين، ولن يخلص كمال اليقين إلا لَمن زال عن وجه قلبه الهيئات الظلمانية؛ بل النورانية أيضًا.

---

(١) انظر: لسان العرب (١٢/٤٩٢).

ولذا قال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢].

وهو ما تقدَّم على فتح كعبة القلب من الهيئات التلوينية الظلمانية، وما تأخَّر عنه من الهيئات التلوينية النورانية، فإن نور التمكين يسترهما جميعًا.

ولذا كان لا ينتقض وضوؤه بالمنام؛ لصفوة مرآته، وقوة حضوره مع نور الأنوار الذي لا ظلمة معه أبدًا، ولا تلوين اللّهم إلا أن يكون التلوين الممدوح الذي هو الحيرة الحاصلة من أنواع التجليَّات.

وفي هذا المقام سرٌّ قوله: ما بينكما ما بين كلاميكما؛ فإن موسى قدَّم نفسه حيث قال: (إن معي).

ومحمد ﷺ قال: ﴿اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠] فكما قدَّم الجلالة؛ عمَّم المعية، وذلك لخروجه عن نفسه بالكلية، كما دلَّ عليه قوله يوم القيامة: «**أمتي أمتي**»[(١)]، حين يقول الأنبياء عن آخرهم: نفسي نفسي، وقال موسى: (**سَيَهْدِينِ**) فخص الهداية بنفسه.

وقال نبينا ﷺ: «**اللّهم اهدِ قومي**»[(٢)]؛ لأن الله تعالى أرسله رحمة للعالمين، فنجَّى أمته من المهالك، وقد أخذت قوم موسى الصاعقة ونحوها، فأين هم من هذه الأمة المرحومة؟ وقال موسى: (ربي).

والاسم الرب قد يستدعي القهر والجلال بخلاف الجلالة في المقالة النبوية؛ لأن الله تعالى خصَّصها في البسملة، فقال عقبها: الرحمن الرحيم تصريحًا للرحمة التي تضمنها الجلالة[(٣)] فكأنه قال: إنك إذا ذكرت الله تعالى؛ فقد ذكرت الرحمن العام

---

(١) رواه البخاري (٢٧٢٧/٦)، ومسلم (١٨٥/١).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس (٤٣٢/٣)، والطبري في تفسيره (١٦١/٢٢).

(٣) فنقول في (الجلالة) أي: لفظ الله؛ لأنه مسمّى بها عند الطائفة، يراد بها عندهم إمَّا الذات المطلقة المجردة عن جميع النِّسب والاعتبارات حتى عن قيد الإطلاق والتجريد، أو المرتبة الإلهية أي: أحدية جمع الأسماء الفعليَّة الوجوبيَّة، أو أحدية جمع جميع الأسماء الفعليَّة والانفعاليَّة والوجودية والإمكانية، كذا قاله الجامي في: «شرح الفصوص» رحمه الله.

وهو على ما قاله الشيخ محيي الدين ابن العربي قُدِّس سرَّه: «بمنـــزلة الذات للأسماء، ففيه يندرج كلُّ =

رحمته في الدنيا، والرحيم الخاص رحمته في الآخرة.

=

اسم، ومنه يخرج وإليه يعرج، وهو عند المحقّقين للتعلق لا للتخلق، بل هو دليل الذات فقط، وله ظهور فيما ليس للذات التجلّي فيها من المراتب الكثيرة، فالجلالة تعطي من المعاني المحتوية عليها ما يعطي ذلك الاسم الخاص من الأسماء به، فتكون نائبًا عن ذلك الاسم، وفيه يكون شرفه فالمذنب إذا قال: يا الله اغفر لي، فإن وقعت الإجابة فلا يجيبهم إلا الاسم الغفار، والجلالة هنا نائبة منابه، وله شرف في هذا المقام لقيامها لهيمنتها على جميع الأسماء مقامة وهي محتوية على أربعة ظاهرة في الرقم (ألف) الأولية، و(لام) يد الغيب المدغمة، و(لام) يد الشهادة المنطوق بها و(هاء) الُهوية، وعلى خمسة ظاهرة في اللفظ».

وحَكَمَ الشيخ بعدم ظهور اللام الأولى في اللفظ، وحَكَم بوجود حروف أخرى فيها ليست بظاهرة لا في اللفظ ولا في الرقم، وهي(واو) (هو)و (واو) (الهوية) إذا الهاء تدل عليهما، فالواو مدلول عليها، وبالجملة فحروفها من كلّ التقادير لا تزيد على ستة وهي هذه (أ لَ ل أ ه)، فالألف الأولى إمَّا ألف الأولية، أو ألف القدرة، أو الأحادية المقتضية للانعدام، والألف الثانية في اللفظ دون الخط إشارة إلى الكمال الذاتي، فبثبوتها لفظ تدلُّ على تحقق وجود نفس الكمال في ذاته تعالى، وبسقوطها خطًا تدل على عدم نهاية الكمال؛ إذ المسقط لا يدرك فذلك الغير المتناهي، أو تدل على الذات البحت الذي كان فيه العماء ليس فوقه (هوا) ولا تحته (هوا) من غير اعتبار شيء فيه حتى الأحادية، واللامين إشارة الجلال والجمال المقدم إلى الجلال؛ لأنه أسبق إلى الذات من الجمال لعزّته المتقدمة والمؤخر إلى الجمال المطلق الساري في المظاهر أو (اللام) الأولى للمعرفة؛ لأن (الألف) لكان الله ولا شيء معه، و(اللام) الثانية لام الملك، فإنه لو زالت صورة الألف واللام الرقمية يبقى له، و(الهاء) كناية عن غيب الذات المطلقة باعتبار أن (الهاء) أول الحروف ولها المبدأ وهو غيب في الإنسان وأقصى الغيب، أو أنه كناية عن صفة الباطن، وحتى يكون الألف كناية عن صفة الظاهر، فإن الأول للإضمار، والثاني للإظهار.

وقال الشيخ الجيلي قدس سره: استدارة رأس الهاء إشارة إلى دوران رحا الوجود الخفي والخلقي على الإنسان الكامل، فإن في عالم المثال كالدائرة فإن شئت قلت: هي خلق وجوفها حق أو بالعكس أو قلت: بأن الأمر فيه مبهم دوري بين أنه خلق فله العبودية والعجز والافتقار، وبين أنه على صورة الرحمن فله العز والكمال، فهي الحقيقة البرزخية التي هي للكُمَّل والجمع مع الفرق، ويجوز أن يُقال أن اللامين تدلان على النعمتين المتحركة على الظاهرة والساكنة على الباطنة؛ لأنهما متفقتان في الجنسية كاللامين. وانظر: شرح الحكم الأكبرية للبابي (ص٣١) بتحقيقنا.

ومن ثم سمَّى أمته الأمة المرحومة.

وهكذا شأنه ﷺ مع شأن الأنبياء في غير هذا الموضع، وكذا شأن أمته مع أممهم؛ ذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء، والله يختصُّ برحمته مَن يشاء والله ذو الفضل العظيم؛ ولذا قال ﷻ: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣] فافهم جدًا.

* * *

في سورة النمل

قال الله سبحانه: ﴿قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [النمل:٥٧].

اعلم أن الله سبحانه قدَّر الدنيا: أي قضى حصولها ووقوعها، وعلّق ذلك بوقت معين، فخلقها قبل الآخرة باللعنة متطاولة، وسمَّاها دنيا؛ لدنوِّها وقربها، وسمَّى الآخرة آخرة؛ لتأخُّرها عن الدنيا، و لم يعكس؛ لأن الآخرة ثمرة الابتلاء والتكليف، فاقتضت الحكمة تقديم دار الابتلاء عليها؛ لتكون من الهالكين، وتأخير دار الثواب؛ لتكون من الخالدين.

فحصل لنا من هذا ان كلاًّ من الهالك والناجي كثير؛ لكن الهالك؛ إنما هو الصورة؛ كصورة السماوات السبع، والأرضين السبع، وصورة الإنسان الناقص بعد الموت، وصور سائر الأشياء التي لا تُحصى.

وأمَّا الناجي: فهو الصورة والمعنى جميعًا؛ نحو الكرسي، والجنة ونعيمها وأهلها، والعرش، والأرواح، والقلوب، وصور الكُمَّل بعد الموت، ونحو ذلك من مواد الأشياء، فإن الهالك صورة ناجٍ مادة ومعنى؛ لأن الوجود لا يُفنى بالكلية، وإلا كان التجلّي به عبثًا، كما أن المقطعات والمتشابهات ليست بمجهولة رأسًا، وإلا ما أنزل الله بها.

فقوله تعالى: ﴿قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [النمل:٥٧].

المراة التي هي صورة الدنيا إجمالاً، كما أن آدم إجمال العالم؛ لكن لَمَّا كانت الشهوات والزين من الأمور السالفة الدنيَّة؛ قيل للمرأة: صورة الدنيا بإضافة الصورة إلى الدنيا، ولَمَّا كانت المعالم والشواهد من الأمور العالية الشريفة؛ قيل أن آدم صورة العالم؛ لأن أصل العالم علم، ثم أدخل ألف الإشباع؛ وهو علم لوجود الله تعالى على أن العالم أعم من الدنيا؛ لأن الدنيا؛ إنما هي عالم الكون والفساد الذي مبدؤه مقعر السماء السابعة، ومنتهاه نهاية الأرضين.

وأمَّا العالم: فيشمل الأجسام كلها التي حواها العرش؛ بل الأرواح المهيمة؛ لأنها أول علامة على وجود الله تعالى ووحدته وقدرته وإرادته؛ لكونها أول المبدعات، ففي التعبير بالعالم من الشريف والتعميم ما ليس في التعبير بالدنيا،

وجُعلت المرأة من أحسن الأشياء صورة؛ بل نفس الدنيا؛ لأنها بزينتها شابهت الدنيا لقوله تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا**﴾ [الكهف:٧].

فجعل ما على الأرض زينة لنفس الأرض؛ لكن لمَّا خلق الأرض لمنافع الإنسان وابتلائه؛ كان ما على الأرض زينة للإنسان أيضًا، ولكون الزين ومتاع الدنيا مما لا ينبغي لأهل الآخرة وأهل الله التلبُّس بها قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ**﴾ [طه:١٣١]، وقال تعالى: ﴿**وَزُخْرُفًا**﴾ [الزخرف:٣٥].

وأن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا، وإنما قلنا: إن المرأة من أحسن الأشياء في الصورة؛ لأنها من أشرف الأشياء في المعنى، ولها العزَّة والقوة التي ليست في الرجال، وبها يغلبنَّ عليهم، فدرجة الأنوثة أقوى في المعنى؛ لأن الرجال يطلبون الإناث بدون العكس، والمطلوب أعزُّ وأقوى من الطالب، والملائكة المخلوقة من أنفاسهن أقوى من الملائكة المخلوقة من أنفاس الرجال.

فانظر إلى أن الانفعال قد يكون فعلاً في المعنى وبالعكس، أو أن الانفعال من وجه لا ينافي الفعل من وجه، وكذا الفعل، ولولا سر الأنوثة في العالم لما نشأ شيء من المواليد، والله الفعَّال لما يريد، والمؤثِّر في العتيق الجديد.

***

في سورة القصص

قوله ﷻ: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ [القصص:٤٠].

وهي النفس الحيوانية، وبقرة الطبع، وذلك بالرياضة والمجاهدة التي هي أشدُّ من السيف الماضي الصارم.

والتنكير: يُشير إلى التهويل، فإن حقيقة النفس لا يعرفها كل أحد، ولا يقطع عرقها كل مجتهد؛ فهي أشدُّ من الثُّعبان، ونسأل الله العفو على قتلها.

قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ [القصص:٤٠].

: أي من غمِّ حياة النفس؛ فإن حياتها باعث الغموم، وسبب الهموم إذ ما من تنـــزُّل وسقوط إلا وببطشها يحصل، وما من تلوين واضطراب إلا وبتسويلها يتمكَّن، فما دامت النفس حية؛ فهي حية تسعى، ولا يُؤمن شرها.

وقوله ﷻ: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [القصص:٤٠].

أي: قبل هذا؛ لأن باحتمال الشدائد، يحصل النجاة، وبمقامات المحن؛ يوجد المنحة، ويمكن أن يحمل الفتون والاختيار على ما بعد نجاة القلب من أثر النفس والقالب، وذلك لأن النبوة، وكذا الولاية التي تقتضي البقاء؛ تقتضي التبليغ الذي لا يخلو من معالجة الناس ومعاملتهم؛ وهم هم في الركون إلى الشهوات، والميل إلى الأمور الطبيعية، والمعارضة بالمخالفات النفسانية، وذلك من حكم الاسم الظاهر، وإن صفا الباطن، وزال الكدورة عن مرآة القلب.

والحاصل: إن الأسماء الجلالية لا ترتفع أبدًا، كالنار، فالقالب في النار، والخليل سالم، فعليك بهذه المرتبة حتى تكون أكمل الناس وأسعدهم، وعلى كل حال، فالمحقق يأكل السُّم، والحنظل، والعارف يأكل الحلوى.

وقد فسَّره ابن عباس -رضي الله عنهما- بقوله: وطحنَّاك طحنًا، كان الإنسان الكامل كحبة القمح لا يزال يُطحن تحت حجارة القهر والجلال، وذلك من أحكام هذا الموطن.

وأمَّا موطن الآخرة: فليس هنا للأكامل إلا اللطف، والجمال قالبًا وقلبًا، ظاهرًا وباطنًا، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم:٦٠] فلا خلف فيه أبدًا.

قال الله سبحانه: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ﴾ [القصص:٦١].

الوعد الحسن: هو الوعد بالجنة.

والوعد الأحسن هو الوعد بالرؤية.

والموعود له من المؤمن بالإيمان الرسمي، فهو لاقيه يوم القيامة؛ لأنها جنة غير معجَّلة، والموعود له هو المؤمن بالإيمان الحقيقي فهو لاقيه في الدنيا؛ لأن قيامة العارفين دائمة، وهذا الوعد مطلقًا مما يقتضيه استعداد كل من الأبرار والمقرَّبين، فلا يتخطَّى أحدهم حدَّ الآخر بحكم اسم العدل دون الفضل؛ لكن فرق بين حالة وحالة.

فإن الأبرار، وإن كانوا يرون ربهم؛ لكن ذلك في الآخرة لا في الدنيا، وكذا في الأسبوع مرة لا في كل لحظة، كما هو شأن المقربين؛ لأنه لا حجاب لهم أصلاً، كما دلَّ عليه قوله: «وصنف لا يتستر الرب عنهم، وذلك من نتائج شهودهم في الدنيا بالبصيرة».

وقوله ﷻ: ﴿كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [القصص:٦١]؛ هو كفار الرسوم، وكفار الحقائق.

أمَّا الأول: فبمقابلة المؤمن الرسمي فلا وعد له أصلاً بل له وعيد هو النار الحسِّية.

وأمَّا الثاني: فبمقابلة المؤمن الحقيقي، فليس له الوعد الأحسن بل له وعيد هو النار المعنوية وهي نار البعد والقطيعة.

فإن المحجوب في الدنيا محجوب في الآخرة؛ إذ الكمال الأخروي تابع للكمال الدنيوي، وكفار الحقائق أشدُّ من كفار الشرائع؛ لأن عذابهم في الروح، وعذاب كفار الشرائع في الجسد.

والروح أشدُّ تأثُّرًا بالنسبة إلى الجسد؛ لكمال لطافته؛ ولذا اشتدَّ الموت على الصبيان ونحوهم، وإنما لم يقل: كمن وعدناه وعدًا قبيحًا أو أقبح؛ لأن فعل الله تعالى

لا يُوصف بالقبح، والشر لا يُنسب إليه قطعًا، كما ورد في الحديث.

والمراد بقوله ﷻ: ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [القصص:٦١]؛ هو ما يتمتع به الروح الحيواني، حياته حياة دنيَّة، ولا شرف للإنسان إلا بالروح الإنساني؛ لأنه هو المنفوخ فيه من قِبل الله تعالى، وبه حصلت التجليَّات لأبي البشر، وأولاده الكُمَّل؛ وهو أهل الإيمان والطاعة.

وأمَّا الروح الحيواني فهو مبدأ الحس والحركة والإيمان، ولا طاعة له إلا بتبعية الروح الإنساني، فمن الإيمان له، ولا طاعة؛ فهو نازل منـــزلة الحيوانات؛ بل كان أنزل منها من حيث إنه أمر بهما فعصى، ولا عصيان للحيوانات؛ بل تسبيح ذاتي؛ كالجمادات لها حياة حقيقية، وإن لم يكن لها حياة حسِّية، فالميت حي عند أهل الحقائق، جماد عن أهل الرسوم(١).

---

(١) قال سيدي محمد وفا ﷺ في الشعائر: اعلم وفّقك الله أن العوالم الثلاث: وهو عالم العقل وبما فيه من أسرارٍ ذاتية، لاهوتية وصفات قدوسية واجبة، ومعان نورانية، هي أقوية التفرد والتحكمات. وموضع إبداء الأسرار والصفات بالتجليات.

كان هذا عالم الجبروت، مفارقًا لما سواه بذاته وصفاته وإياه، وبما تنـــزّه عن الزمان والمكان، والأين والمثل والكيف، والإطعام والأذواق، والألوان، وكانت النفس الناطقة وهي العالم القريب بالتجريد من صفاته المحققة بالتوحيد، هي عرشه وفرشه، وحضرته وقدسه، وهي عالم الملائكة العظام، والحجب المقدسة الكرام، ثم إن عالم الكون والفساد والطباع الأربعة الأكوان، وبما انحصروا في القوة الحيوان، ولذلك كان النتاج من حيث هذه الروح الحيوانية عن الكل بالجزء، تبرز نوادرًا من القوة للفعل، ثم تتطور وتنتقل من الاستعداد المعدني، ثم استعداد النبات، ثم استعداد الحيوان، ثم تـتـــنـــزل الروح من العالم المشترك البرزخي، الذي هو الفصل بين العالمين، والوصل بين المتباعدين، عالم الروح الأمين بالاستعدادات الإنسانية إلى الكُمَّل من الأشخاص الحيوانية، وبما نزفت الممكنات الكونيات بتـــنـــزل الواجبيات الآمريات، حكمةٌ كحكمة، وسنةٌ كسنة.

واعلم أنه ما خلف حجاب هذه الأكوان الحيوان غير عالم الجان، ونهايتها الإنسان، كما أن غاية الإنسان الرحمن، وما بين الإنسان والرحمن إلا الملائكة المقرَّبون، والأرواح القدسيون المكرمون، وما نزفت من الأرواح الحيوانية تكون بالملائكية، وإن عكست انتقلت إلى الشيطانية، ومهما نزفت من الإنسانية إلى الملائكية فإلى النبوية، فإن أحجمت وقفت مع الملائكية، وإن نفدت فإلى الحضرات الرحمانية.

=

قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص:٦١].

أمَّا كفار الشرائع: فإحضارهم للعذاب الجسماني والروحاني جميعًا، فإنهم أضاعوا الروح الحيواني والإنساني جميعًا، فلهم في مقابلة كل منهما عذاب مخصوص.

وأمَّا كفار الحقائق: فإحضارهم للعذاب الروحاني فقط؛ لأنهم إنما أضاعوا الروح الإنساني من حيث إنهم لم يبلغوا به إلى كماله اللائق؛ فوقعوا في نار الحسرة، وإن نجوا من النار الحسِّية باستعمالهم الأعضاء، والقوى الحسية في الأعمال الصالحة المبنية على الإيمان في الجملة؛ وهو الإيمان الرسمي.

وإنما قُيِّد بيوم القيامة مع أنهم من المحضرين الآن؛ لأن كثافة نفوسهم منعتهم من إدراك العذاب في الحال، كما دلَّ عليه قوله: «**الناس نيام فإذا ماتوا استيقظوا**»[1]؛ فتيقُّظ الموت الاضطراري الطبيعي في الآخرة، وتيقُّظ الموت الاختياري السلوكي في الدنيا، فمَن تيقَّظ في الدنيا؛ أُلهم فجور نفسه وتقواها، ومَن تيقَّظ في الآخرة؛ علم الحال عندما لم ينفعه علمه، أيقظنا الله، وإياكم أجمعين.

* * *

=

هذا فيما يُعطى الترقي والتلقي مع الجاذب الملكي، والدليل النبوي.

وأما فيما تُعطى التنـــزلات الربَّانية بالبطانات السريانية، فتخصيصٌ لا يُعقل سره ولا يُدرك كنهه.

واعلم أن الاسم الذات المتَّصف بجميع الصفات بالذات يتجلَّى على أسماء الصفات الذات الوجودية، فيستغرقها في الذات، فإذا صارت ذوات وكلمات تامات تجلَّت على ما يليها من أسماء الأفعال، فرقتها إلى مقاماتها التي عنها انتقلت، فإذا كانت الأفعال صفات للذات نقلت المفعولات بالتجليات إلى مقام الأفعال، ثم يبرز الحيوان من أفلاكه الأربعة الطباع لإحكام الترتيب للأوضاع، والأمر كذلك ولا نهاية لذلك، أسرارٌ تـتنـــزل بالإلهية إلى الحيوانية، وتترقَّى بالروحانية إلى الرحمانية، وما بين هذا التنـــزل والترقِّي فقعرات سجينيات أرضيات، ودرجات رضوانيات سماويات، وحضرات وغير حضرات، وعوالم مفترقات، فسبحان من لا يُدرك كنهه، ولا يُبلغ شأوه، ولا ينفد أمره.

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٥٢/٧)، وذكره العجلوني في كشف الخفا (٥٢٥/٢).

في سورة الروم

قال الله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠].

اعلم أن وجه الإنسان عند مسِّ الهمِّ، ووقت الغمِّ؛ كوجه الأرض في الشتاء حيث إن كلاًّ منهم يتغيَّر عن حاله؛ وهو موته، ثم يحييه الله برحمته التي هي المطر بالنسبة إلى الأرض، والسرور بالنسبة إلى القلب، وأثر تلك الرحمة؛ الخضرة في وجه الأرض، والانبساط في البشرة، فقد أشارت الآية بأن ذلك الموت ليس بمستمر؛ بل يتعقَّبه الحياة على ما يقتضيه الأسماء الإلهية الحاكمة على هذا العالم، المدبَّرة في الأنفس، والآفاق المؤثِّرة في الظاهر والباطن.

ولمَّا كان ذلك موقوفًا على النظر الصحيح؛ قال: فانظروا، ونظير ذلك الليل والنهار والنوم واليقظة، والسحابة على وجه الشمس، والانكساف والكدورة للماء وصفوته، ثم الموت والحياة المذكوران، وإن كانا مجازيين عند أرباب الظاهر؛ لكنهما حقيقتان عند أهل الباطن.

فإن للأرض روحًا نباتيًا، كما أن للإنسان روحًا حيوانيًا بل للإنسان روح نباتي أيضًا به يشتهي الأكل والشرب، وبه تربيته في بدنه لا بالروح الحيواني، وإن كان الروح الحيواني مبدأ الحسِّ الحركة.

فالفرق بين الأرض والإنسان: أن للأرض روحًا نباتيًا وروحًا [جماديًا].

فالأول: يدركه العامة.

والثاني: يدركه الخاصة.

وإن للإنسان روحًا نباتيًا وروحًا حيوانيًا بالفعل، وروحًا حقانيًا بعد مفارقة الروح الإنساني، فالميت جماد في الصورة حيّ في المعنى بالحياة الحقانية، فإذًا لا موت للعالم بالكلية وإنما هو باعتبار.

ومن ذلك يعرف أن المحجوب يحمل كلام الجمادات، وتسبيحه على معنى الدلالة.

وأمَّا المكاشف فعلى الحقيقة؛ لأن المحجوب لا يسمع تسبيح الأشياء مطلقًا؛

فالحياة عنده إنما هي في ذي الروح فقط، وأمَّا المكاشف فيسمع ذلك، فالحياة عنده ليست بمقصورة على ما في ذي الروح؛ بل هي سارية لجميع أجزاء العالم من عالية وسافله.

فهو تعالى يُحيي الأرض بالحياة اللائقة بها؛ وهي حياة حقيقية، وكذلك يُحيي سائر الأشياء بما يناسب كلاً منها، وهذه هي الحياة في هذا العالم.

وكذلك الحياة في البرزخ، فإن للميت هناك حياة لائقة به مع سمع وإبصار وكلام كل ذلك بحسب المقام البرزخي، وسينكشف لك الأمر بعد الانتقال بالموت(١)، وليتك كنت من قوم قيل فيهم: (المؤمنون لا يموتون؛ بل يُنقلون من دار إلى دار) فإنه أفاد أن المؤمن الكامل، وهو الحي بحياة الإيمان والعرفان كالمنتقل من دار إلى دار في هذه النشأة، فكما أن انتقاله ذلك لا ينافي حياته؛ فكذا انتقاله بالموت.

فالموت عبارة عن مفارقة الروح الإنساني عن البدن، وعبَّر عنها بالذوق في قوله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ [الأنبياء:٣٥].

كما أن الروح الحيواني لا يخلو عن إحساس الألم وقت الانتقال، وتلك المفارقة لا تقتضي الموت بالكلية؛ فإن الروح حيٌّ قائم بنفسه، محيي للبدن الدنيوي أو البرزخي الذي هو على صورة عمله، فاعرف جدًّا.

---

(١) قال سيدي علي وفا: الموت حالة يبطل بها تصرف النفس المدركة المتصرفة بالبدن الذي كان لها أن تتصرف به، أو هو بطلان ذلك، فمن مات انقطع عمله بذلك البدن، إلا أن جهة التعلق بآلة يصح بها التصرف، لا تعطل من النفس المتصرفة، فإذا فارقت آلة تعلقت بآلة يقتضيها لها وجودها، كما أنها إذا فارقت بدنها بالنوم ترى لها بدنًا آخر، إما هو بمثاله أو مثله أو خلافه، فيكون لها في التعلُّق الثاني تصرفات بحسبه، وأعمال تناسب استعداده، ومن ثَمَّ يلتحق بالعقلاء من مات غير عاقلٍ، هذا شأن النفوس الحاصلة في قيوم حدود دائرة الدنيا والبرزخ، إذ لا موت إلا للدنيوي والبرزخي، وموت البرزخي نومي للدنيوي.

في سورة الأحزاب

قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٤١].

اعلم أن الذّكر الكثير هو: ما كان بالقلوب، والأعمال، والأحوال، كما كان النبي ﷺ يذكر الله تعالى في كل الأحيان، فإن مَن كان مع الله تعالى في جميع حالاته؛ فهو ذاكر له تعالى سواء قارنه الذكر اللساني أو لاَ.

فالكثرة هنا عبارة عن: الاستيعاب والإحاطة بجميع الأوقات والحالات، كما أن القلة في قوله تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء:١٤٢] عبارة عن العدم: أي لا يذكرون الله تعالى إلا ذكرًا هو ليس بذكر عنده تعالى؛ لأنهم إنما يذكرون باللسان فقط، والذكر اللساني المجرَّد عن اعتقاد الجنان وإخلاصه قليل معدوم بالنسبة إلى الذكر القلبي؛ لأن المقصود عمارة الباطن لا عمارة الظاهر، فظهر أن الخلوص بمنزلة الإكسير الخالص في القلب.

ومن هنا كان يرفع لبعضهم في يوم واحد عمل أهل الأرض كلها؛ بل عمل أهل السماء؛ لأن الكامل منا إنما يذكر الله تعالى بكل أسمائه بخلاف الملائكة؛ فإن ذكرهم مخصوص بأسماء مخصوصة؛ ولذا قالوا: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات:١٦٤]؛ وهو مقام الروحانية بحسب أسماء الروح إذ ليس لهم الترقّي إلى مقام السرّ، وسرّ السر.

ولذا ذهب بعضهم إلى أنه ليس لهم مقام الرؤية، والظاهر أن لهم ذلك من مرتبتهم الروحانية؛ فهم يرون الله تعالى بأبصار الأرواح لا بأبصار الأسرار، وأبصار الأسرار أكشف وأجلى من أبصار الأرواح؛ لأنه كلما حصل الترقّي؛ ازداد التجرُّد، وكلّما ازداد التجرُّد؛ حصل كمال الوصول؛ بل الحصول فافهم جدًا، واعبد ربك إلى أن يأتيك اليقين الذي ليس فوقه يقين.

وقال الله تعالى: ﴿قُل﴾ [الأحزاب:١٦].

يا صاحب الفناء، والبقاء على الوجه الأكمل، كما دلّ عليه شرح صدره: ففيه الرتبة العلياء، والفضيلة العظمى، والجمعية، قال ﷻ ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ﴾ [الأحزاب:١٦].

أيتها القوى الطبيعية، والنفسية التي بها قوام ظاهر الوجود من الموت الذي يحصل بالجذبة الإلهية بسبب سماوي خفي لا يدركه أكثر العقول وهو الفناء عن الأنيَّات الناطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠].

فإنه يشير به إلى الفناء عن أنيَّات القوى الظاهرة والباطنة جميعًا، واسم هذا المقام هو الجلالة إذ لا نفي هنا أصلاً، وإذ لم يكن نقي لم يكن إثبات؛ لأن الفاني المستغرق لا نفي له، ولا إثبات.

أو القتل: وهو ذبح بقرة الطبيعة، وكبح النفس بالرياضات الشاقة، والمشاهدات الغالبية، فهذا الموت موت إرادي، اختياري، مبني على الكسب، والموت الأول أيضًا كذلك؛ لكن مبني على الجذب الإلهي بلا سبب ظاهر من طرف الفاني.

وقال ﷻ: ﴿وَإِذًا﴾ [الأحزاب:١٦] : أي حين الفرار من واحد من الموتين، كما قال تعالى: ﴿لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء:٧٧] وهو العمر الفاني وإن كان ألف سنة مثلاً.

وذلك أن في الموت بأحد الوجهين حياة معنوية طيبة باقية دلَّ عليه بقاء الآثار، وعدم انحلال الصورة إلى يوم الحشر والنشر، وفي البقاء بالحياة الصورية موت معنوي في الحياة الدنيا، وإلى آخر الأعصار؛ لأنها حياة فانية لا اعتداد بها أصلاً عند الحياة الباقية، وإن امتد زمانها.

والحاصل أن في الموت بالموت الاختياري حياة باقية، وإن قلَّ زمان الحياة الصورية، ولا حياة في الموت بالموت الاضطراري، وإن كثر زمان العيش الصوري؛ لأن الاعتبار بالباقي بالفاني، وفي الآية ترغيب إلى الموت بالموت الإرادي؛ ليحصل العيش الباقي، وترهيب عن البقاء بالحياة الصورية، فصاحب الأول إنسان حقيقي، وصاحب الثاني إنسان حيواني، ونسبته إلى الإنسانية نسبة الميت إلى الإنسانية؛ إذ لا إنسانية بعد الموت إلا صورة.

فكما أن الميت إنسان صورة فقط، فكذا الإنسان الحيواني، فهما مشتركان في الخلو عن أثر الحياة، وفيها أيضًا رمز إلى أن الإنسان الحيواني محبوب عنده الحياة الصورية؛ لانحصار نظره في آثارها، فلا يحب الموت والفناء عنها بخلاف الإنسان

الحقيقي؛ فإنه يعلم أن الباقي بدلٌ عن الفاني؛ فيختار الباقي على الفاني، فيجتهد في الأسباب، ويتمسَّك بتوفيق رب الأرباب.

ثم إن الهارب عن الموت إنما هو هارب عن الحق؛ لأنه موصِّل إليه، فإذا بعد عن الموت؛ بعد عن الحق؛ لكنه قد يخلّي ونفسه؛ فيزداد بعدًا إلى بعد، وقد يدركه التوفيق؛ فيقبل الحق إليه، فيمنعه عن الهرب؛ فيكون طالبًا للحق بعد ما كان هاربًا منه.

وإليه الإشارة بقوله: «**عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل**[1]» فقوم يُقاد إلى الجنة نفسها بالإيمان والطاعة، وقوم يُقاد إلى رب الجنة بالعشق والمحبة، وكلٌّ يجري على ما قضاء الله تعالى، فطوبى لأهل الإقبال، وكل الخسارة لأهل الإدبار، ومَن يُضلل الله فما له من هادٍ، اللّهم ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لَدُنك رحمة إنك أنت الوهَّاب».

قال الله سبحانه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

في هذه الآية إشارات:

الأولى: إنه تعالى سلب أبوَّة محمد ﷺ للأمة؛ رعايةً لظاهر المقام؛ فإن أبا البشر؛ هو آدم عليه السلام؛ فهو أبو محمد، وأبو الأنبياء، وأبو الأمم كلهم إلى قيام الساعة، فمَن كان منهم أبًا؛ فهو أب اعتباري لا حقيقي؛ كنوح عليه السلام، فإنه الأب الثاني من حيث إن تناسل البشر منه بعد الطوفان؛ كتناسلهم من آدم بعد الهبوط، ولمَّا كان لكل مرتبة حكم مخصوص؛ نفى الله تعالى الأبوَّة عن محمد صراحة، وأثبتها لآدم ضمنًا.

والثانية: إنه تعالى نفى الأبوَّة عن محمد لا عن أحمد؛ فإن أحمد أبو الأرواح، كما أن آدم أبو الأجسام؛ ولذا صرَّح بالرجال، فإن الأبوَّة الجسمانية؛ إنما هي للرجال، ودخل فيها النساء.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢/٣٠٢).

وأمَّا عالم الأرواح فليس فيه الذكورة والأُنوثة؛ بل لا أبوَّة فيه ولا بنوَّة بتقديم الباء، وكون أحمد أبا الأرواح بالنسبة إلى ظهور أنوارهم من نوره، وكذا نبوته كما قال: «**كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين**»[1]، فإنه أشار به إلى صدارته في ذلك العالم من غير أن يكون هنا أمر ونهي، وتبليغ نِعم دعوة روحانية، وبذلك سُمِّي نبيًّا.

ومن ذلك ان الله تعالى لَمَّا خلق النور المحمَّدي، وأظهره بالتجلّي النوري البرقي، وكساه كِسوة روحانية؛ لئلا يحترق مَن رآه من الأرواح، قال: لا إله إلا الله، فقال الله تعالى: محمد رسول الله، فكانت نبوته ورسالته في ذلك بمنــزلة صفات الله تعالى قبل خلق الكائنات، وكذا توحيده توحيدًا روحانيًا فطريًا لا يتعلّق بنفي شرك ونحوه.

إذ لا نفي، ولا إثبات هناك إذ لا إيمان، ولا كفر؛ لأنهما إنما ثبتا وظهرا بعد الدعوة في عالم الأجسام؛ فهما من أحكام هذه العالم لا من أحكام عالم الأرواح، وما ذهب إليه بعض المحققين من أن نبوته في ذلك العالم كانت بالفعل حيث دعا الأرواح إلى ذلك التوحيد لا بالقوة كما لسائر أرواح الأنبياء؛ فإنما هو تصوير لتقدُّم نور الأحمدي، وكونه مبدأ سرِّ التوحيد والتبليغ؛ فإن هذه المبدائية له كانت بالفعل، وقول الله: محمد رسول الله يدلُّ على أن البقاء بالله أفضل من الفناء في الله، وإن المحمَّدية صورة الحق في صورة الخلق، فمَن نالها؛ كان ذا جناحين؛ جناح الكون، وجناح الوجوب.

والثالثة: إنه صرح بالرجال وليس ذلك لإخراج النساء؛ بل لأن القصة إنما وقعت في حق زيد ﷺ، وهو من رجالهم.

تقول عائشة -رضي الله عنها: «أنا من رجالهم لا نسائهم»، أخذًا من قوله تعالى: وأزواجه أمهاتهم، فإنما هو بناء الأمر على الظاهر، وإلا فهي وسائر المطهَّرات من الأزواج، وأمهات المؤمنين والمؤمنات، ومعاوية خال المؤمنين والمؤمنات، وكذا نحوه صرَّح به حضرة الشيخ في الفتوحات المكية؛ وهو الذي يقتضيه الذوق.

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١٦٩/٢)، والقاري في المصنوع (١٤٢/١).

ويدلُّ أن الزهراء - رضي الله عنها - تشفع لعصاة المؤمنات يوم القيامة؛ لأنها أمها وأم المؤمنين.

فتخصيص المؤمنات ليس لإخراج المؤمنين؛ بل للاعتناء بشأنهنَّ؛ فهي بالنسبة إليهنَّ كالنبي بالنسبة إلى الرجال، فاعرف هذا السرَّ السرِّي، واعمل به.

قال تعالى: ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب٤٠].

يعني أن رسالته لا توجب الأبوَّة التي يدعيها القوم؛ إنما توجب الأبوَّة التي يقتضيها قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦].

فإن كون أزواجه أمهات؛ يستدعي كونه أبًا، فهو ﷺ، كما أنه أبو الأرواح؛ فهو أبو هذه الأمة: أي أبو مَن كان من إله حقيقة؛ وهم الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهَّرهم تطهيرًا؛ ومنهم سلمان ومَن التحق به في معناه رضي الله عنهم؛ وذلك لأن لا نَسب بينه، وبين أهل الشرك والمعصية؛ لعلو مقامه؛ وإنما كان نَسبه التقوى.

فالهاشمي المشرك ليس منه حقيقة، وكذا مَن في حكمه؛ بل لو كان أبا للعاصي؛ فهو من وجه دون وجه بخلاف المتقي، وإنما كان من وجه دون وجه؛ لأن العاصي أمات النور المحمَّدي الذي أودعه الله فيه، ولو في الجملة، فكأن الله أخرج الميت من الحي.

ولا شك أنه لا مناسبة بين الحي والميت، وأمَّا المناسبة بين الحي الصحيح والمريض؛ فجزئية، فعلى المؤمن أن يصحح النسبة بالتقوى، ويزيل المرض الباطني من سوء العقيدة، والأخلاق الساري إلى سائر الأعمال في مرتبة التقوى.

قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

هذا من قبيل التكميل، وهو لا ينافي كونه فاتحًا لهم؛ فإن الخاتمية بالنسبة إلى عالم الأجسام، والفاتحية بالنسبة إلى عالم الأرواح؛ فهو في خاتميته أبو القاسم ونحوه صورة أبو؛ لأنه معنى، وفي فاتحيته أبو آدم، وأبو عيسى، وأبو جبريل ونحوهم؛ لأنهم كلهم مخلوقون من نوره.

وصرَّح بالنبوة بعد الرسالة؛ لأنها عامة، فكونه خاتم النبيين يستلزم خاتم الرسل

بخلاف العكس؛ لأنه قد يجئ نبي بعد رسول؛ كأنبياء بني إسرائيل؛ ولذا قال ﷺ: «**لا نبي بعدي**»[1]: أي لا مشرِّعًا كموسى وعيسى ونحوهما، ولا متابعًا كأنبياء بني إسرائيل.

وكونه خاتم النبيين من قبيل التشريف؛ لورثة الأمة حيث إن الله جعلهم بمنــزلة الأنبياء، وأقام بهم العدل كما أقام بالأنبياء.

فمَن ادَّعى نبوة بعض الآل؛ كالحسين تأييدًا لنبوته ﷺ؛ فهو لم يدرِ معنى النبوة والولاية، والسرِّ الكمالي في هذه الأمة ؛فضلٌ وأضلٌ، فكان في الدَّارين مع الهالكين، نعوذ بالله من قصور المعرفة من الحور بعد الكور.

قال تعالى: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ**﴾ [الأحزاب: ٤٠].

: أي الجامع لجميع الأسماء والصفات التي جعل الأنبياء مظاهرها، وجعل خاتم النبيين مظهرًا لها بالفعل من حيث الإجمال والتفصيل.

قال تعالى: ﴿**بِكُلِّ شَيْءٍ**﴾ [الأحزاب: ٤٠].

: أي من الأشياء التي من جملتها؛ الرسالة والنبوة، وأهلهما بتقديم النون، وكذا الأبوَّة والنبوة بتقديم الموحدة.

قال تعالى: ﴿**عَلِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ولذا خصَّ محمدًا ﷺ بأبوة الأرواح، وجعله خاتم النبيين في الأجسام، وخصَّ آدم بأبوَّة الأشباح، وجعله أول النبيين في الأجسام.

فمن علمه الكامل المحيط بكل شيء؛ يجعل رسالته حيث يشاء، ويجعل ولايته حيث يشاء، ويجعل آباء وأبناء، وصورية أو معنوية، كما يقتضيه أسماؤه الكلية الجامعة، وأسماؤه الجزئية المحصورة؛ لأن عالم التسخير والحكمة يقتضي المتبوعية والتابعية، وتفاوت المراتب، وتباين الدرجات، والله عليم بالكليات والجزئيات، والإطلاقات والإضافات.

---

(١) رواه البخاري (٣/١٢٧٣)، ومسلم (٤/١٨٧٠).

قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٦]، وقد سبق في هذه السورة قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب:٤٣] (١).

---

(١) **قال الشيخ أحمد العلواني في الأرواح**: وما بعد روح لا إله إلا الله وروح محمد رسول الله إلا روح الصلاة والسلام عليه وفيها الوصل والفصل والحركة والسكون.

روح فرقاني في روح الصلاة والسلام على رسول الله: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، فقد وصلنا بروح الأعلام بأرواح صلاته وبروح الثناء على ملائكته؛ بأنهم يصلون على هذا النبي الكريم مع روح الأعلام حتى يكون لنا روح من العلم وأرواح من الإيمان بعلو شأن هذا الروح المحمدي النبي الرسول ﷺ على التعميم الحبيب المحبوب الرءوف الرحيم روح محمد به في روح الصلاة عليه الصلاة على نور.

والمصلي على هذا الروح المحمدي له من الله روح وصل بروح نوراني يفصل عنه من كل روح ظلماني، فتقع حركاته في الخيرات وسكناته في البركات، هذا من حيث روح الحق. ومن حيث الروح المحمدي يكون لروح المصلي أرواح وصل بأرواح حب من الروح المحمدي، وله من الروح المحمدي أرواح فصل تفصل بينه وبين الأرواح الانتقامية والروح الفاصل هو روح الشفاعة روح بيان من الروح المحمدي في روح الصلاة عليه.

«من صلى علي في أول نهاره عشرًا وفي آخر نهاره عشرًا أدركته شفاعتي» ولا بد في روح الصلاة والسلام على هذا الروح الأعظم في أرواح المرسلين من صورة حركة اللسان وسكن الجنان إلى هذا الروح الأمري والنور الفرقاني والنور الذي هو روح فائض من روح الصلاة على هذا النبي الكريم والرسول العظيم روح إحساني بروح من البيان من الروح المحمدي في روح الصلاة عليه «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فأكثروا من الصلاة علي فيه فإن صلاتكم معروضة علي».

روح بيان بروح من الإحسان قد أمر الروح المحمدي بعرض الحال وهو روح حال المؤمن من أمته في روح الصلاة والسلام عليه فأرواح الصلاة عليه تقع في صور من المواهب على روحه الكريمة في صور أرواح مختلفة الروائح والذكاوة كريح الورد وماء الورد والمسك، والعنبر، والياسمين، وأنواع الرياحين وما في الوجود من روائح الأطياب.

لكن بزيادات كثيرة على ذكاء هذه الأطياب والرياحين وروح الدليل من الروح الفرقاني فروح وريحان وجنة نعيم بروح التسليم.

وقد كان في الدنيا يحب الطيب ومهما قلت في صلوات الحبيب فقل نفي الروح الفرقاني ﴿ **وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ** ﴾ [الضحى: ٥] ومن عادات الفقر أنهم لا يتقربون إلى الأغنياء إلا بالروائح الطيبة كالورد والياسمين والزنبق والنسرين والريحان الفارسي فأرواح صلواتهم على هذا الروح الأعظم في المرسلين والروح الأكرم في المقربين تكون في صفة الرياحين وما في الأرواح الإلهية فوق ما في النية فإذا عرضت عروض الصلوات وأرواح التسليمات حسن الروح المحمدي =

فأفاد أمرين:

أحدهما: إن الله صلّى عليهم أولاً؛ لئلا يقولون: إن الله تعالى صلّى على النبي ولم يُصلِّ علينا، فأزال بتقديم الصلاة عليهم هذا الاضطراب، فإن أكثر الناس واقفون عند باب العطاء.

ونظيره قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة:١].

حيث لم يكتفِ بإخبار كونهم عدوًّا لله؛ بل أخبر بأنهم عدوّهم أيضًا، حتى يقولوا: إنهم إذا لم يكونوا عدوًّا لنا؛ فلما ضررٌ في اتخاذهم أولياء.

فانظر ما أعجب حال الإنسان في عدم المروءة؛ حيث لا يراعي جانب الحق تعالى بأن يقول: إن كونهم عدوًّا لله؛ كافٍ لنا في عدم اتخاذهم أولياء سواء كانوا عدوًّا لنا أو لا، وذلك من الجهل بالحقائق؛ وهو حال أكثر الناس.

والثاني: إن المراد بصلاته تعالى عليهم: هو إخراجهم من ظلمات الطبع، والنفس إلى أنوار القلب والروح؛ لكن نور كل أحد بحسب حاله؛ كنور الشمس، ونور القمر، وأنوار سائر النجوم؛ ولذا قالوا: إن صلاة الله تعالى على النبي غير

=

إلى أربابها وحزن للمحزون.

واستغفر للمكدر المفتون وفرح بالمستقيم الكامل بالأرواح الإلهية ثم ينشر من أرواح رحمته على أرواح المصلين فيعود ناقصه كاملا، وأقصاهم واصلا، ويفتح في أرواحهم من أرواح الإيمان ومن أرواح الإحسان ومن الأرواح الرضا،ومن الأرواح التي توصلهم بالروح الأعظم، والسر المحيط الطلسم بكل روح إنساني وما فيه من كل الأرواح.

وبكل أرواح الموجودات وأرواح العناصر والطبائع ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨] وهو القاهر فوق عباده بروح الإحاطة وقلم التفصيل، وسر التحويل، فتقرب إلى هذا الروح المحمدي بكثرة الصلاة عليه فإن صلاتكم معروضة عليه وهي عرض الحال ولا تكون إلا مقبول، فيقع التوقيع الرفيع بقضاء الحوائج ورفع كل روح ظلماني من الروح الشيطاني، والفلك السفلاني، فيقع روح الحال بأرواح الجمال الفائضة من الأرواح المحمدية والأرواح الإلهية، فالروح الإلهية يعطي والروح المحمدي يقسم العطاء فهو المتصرف بأرواح المواهب والقائل لأرواح من المكاسب وهي أرواح الصلوات والتسليمات وهي أرواح الوصل والفصل لأرواح الاستغفار وهي من الأرواح الفرقانية. وانظر: كتاب «الأرواح» (ص١٧) بتحقيقنا.

معلومة، وإن كانت من قبيل النور كما قال: «**واجعلني نورًا**»[١]، فإنه فرَّق بين نور ونور كما قلنا؛ والمعنى أن الله يُصلّي على النبي في مرتبة الذات الأحدية بالنور البرقي الذي ليس فوقه نور؛ ولذا كان ﷺ يرى من جانب وجهه، ومن طرف قفاه على السواء، وهذه اللطافة الزائدة النورانية لم تحصل لأحد غيره، سواء كان في حال الصلاة، أو في خارجها.

وكذا الملائكة يُصلُّون على النبي بحصول النور الصفاتي في مرتبة الذات الواحدية؛ لأن مرتبة الملائكة مرتبة الأرواح، وتعيُّن هذه المرتبة؛ إنما هو تعيُّن الصفات، ثم تنـــزل من مرتبتهم إلى مرتبة الأجسام، فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [الأحزاب:٥٦]: أي صلُّوا عليه بحصول الحفظ؛ لوجوده الظاهري، وقوة التبليغ، وانتشار الشريعة والإيمان الحقيقي المتعلّق بمرتبة المعرفة[٢].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) فائدة: اعلم أنه اختلف في معنى الصلاة عليه ﷺ، فقيل: معناها الرحمة والرضوان من الله تعالى، والدعاء والاستغفار من الملائكة والناس.

وقيل: صلاة الله مغفرته، وصلاة الملائكة الدعاء، وكأنه يريد الدعاء بالرحمة.

وقيل: إن معنى صلاة الملائكة الدعاء بالبركة.

وقيل: الصلاة من الله رحمة مقرونة بالتعظيم، ومن الملائكة استغفار، ومن الآدميين تضرُّع ودعاء.

وقيل: صلاته على أنبيائه الثناء والتعظيم، وصلاته على غيرهم الرحمة.

وقيل: صلاة الله على نبيه ﷺ تشريف وزيادة تَكرمة، وعلى من دون النبي رحمة.

وفرق بين صلاته تعالى على نبيِّه ﷺ في سورة الأحزاب، وبين صلاته على سائر المؤمنين في السورة المذكورة، ومعلوم أن القدر الذي يليق بالنبي ﷺ من ذلك أرفع مما يليق بغيره.

وقال الحليمي في الشعب: الصلاة على النبي ﷺ تعظيمه، فمعنى قولنا: اللّهُمَّ صلِّ على محمدٍ: عَظِم محمدًا، والمراد تعظيمه في الدنيا بإعلاء ذكره، وإظهار دينه، وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بإجزال مثوبته، وتشفيعه في أمته، وإبداء فضيلته بالمقام المحمود، وعلى هذا فالمراد بقوله تعالى: ﴿**صَلُّوا عَلَيْهِ**﴾ [الأحزاب:٥٦]: ادعوا بالصلاة عليه انتهى.

ولا يعكر على هذا عطف الآل والأزواج والذرية عليه؛ لأنه لا يمتنع أن يُدعى لهم بالتعظيم؛ إذ تعظيم =

=

كل أحد بما يليق به، لاسيما وهم منسوبون إلى النبي ﷺ، والدعاء لهم واقع بالتبع له.

وقال أبو العالية: صلاة الله على نبيه: ثناؤه عليه عند ملائكته، وصلاة الملائكة عليه: الدعاء.

وقال ابن حجر: وهذا أولى الأقوال، فيكون معنى صلاة الله تعالى عليه: ثناؤه وتعظيمه، وصلاة الملائكة وغيرهم طلب ذلك له من الله.

والمراد طلب الزيادة لا طلب أصل الصلاة.

وقيل: المراد بالصلاة الاعتناء بشأن المصلى عليه، وإرادة الخير له، وهو الذي ارتضاه الغزالي، واستحسنه الزركشي. انتهى من مطالع المسرات.

وقال في «الرِّماح»: اعلم أن الصلاة في حق الله تعالى على نبيِّه ﷺ وصفٌ قائمٌ بذاته تعالى على الحدِّ الذي يليق بعظمته وجلاله، وهو أمرٌ فوق ما يُدرك ويُعقل، فإن الوصف الوارد في حق كل موجودٍ وإن اشترك في اللفظ والاسم، فالحقيقة متباينة في حق الموجودات.

فالصلاة في حقِّنا عليه ﷺ هي الألفاظ البارزة من ألسنتنا بالدعاء، والتضرُّع إلى الله، فيما ينبئ عن تعظيم نبيه ﷺ، وليست كذلك صلاته تعالى على نبيِّه ﷺ، فهي فوق ما يُدرك ويُعقل، فلا تُفسر بشيءٍ، بل نقول: يصلي على نبيِّه ﷺ ولا تُكيف صلاته.

ألا ترى إلى السجود في حق الموجودات لله تعالى، فكلها ساجدة لله سبحانه، وليس السجود المعهود في حق الآدمي لله تعالى يماثل سجود الجمادات والحيوانات والأشجار فردًا فردًا؛ فإن لكل واحدٍ من تلك الأفراد سجودًا يليق بحاله، فالسجود في حق جميعها مماثل في الاسم والإطلاق والحقيقة، مفترقة في جميعها، وسجود كل واحدٍ غير سجود الآخر.

وأما صلاة الملائكة على النبي ﷺ فتعقلها في حقِّهم كتعقلها في حقِّنا.

وإنما أُسندت الصلاة إلى الله تعالى مع أن الله تعالى أمرنا أن نصلِّي عليه نحن؛ لأن صلاتنا عليه إنما هي الدعاء له بأن يصلى الله عليه كما مرَّ؛ إذ ذاك غاية مقدورنا، وفي ذلك تنبيه على أن له علينا حقوقًا عظيمة نعجز عن مكافأته بها، فوجب أن نرجع في ذلك إلى المولى القادر عليه الكريم، الذي بيده خزائن النعم، فنطلب من الله أن يصلِّي عليه: أي يزيده شرفًا وإعظامًا مجازاة له عنا.

وقد أرشدنا ﷺ إلى ذلك حين قالوا له: أما السلام عليك فقد عرفنا فكيف نصلِّي عليك؟ فقال: قولوا: **«اللَّهُمَّ صلِّ على محمدٍ، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم»** رواه الشيخان.

والسلام لغة الأمان، وسلامُ الله على نبيه، قال في شرح الصغرى: هو زيادة تأمين له، وطيب تحية وإعظام.

فلكل واحد من أهل الإيمان الحجابي، والكشفي لسان على حدة يدعو الله تعالى، ودلَّ التسليم على التسليم المطوي في الألواح كأنه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٦].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦]، افعلوا أنتم كذلك اقتداءً بالله تعالى وبالملائكة، وفيه تفضيل الملائكة في المرتبة؛ لأنهم من نور، وإن كان الإنسان أجمع كمالاً، وأزيد فضيلة، وإشارة إلى أن فعل المتبوع وسيلة لفعل التابع؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب:١]، فإنه إذا كان التقوى من شأن النبي؛ فأَوْلى أن يكون من شأن أمته.

وفيه تأديب الصغير بالكبير؛ وهو من باب الحكمة الإلهية، فعليك بالتأسِّي بأخلاق الله، وأخلاق الملائكة والأنبياء والأولياء؛ حتى تفوز بالشرف الزائد الذي ناله الأصفياء.

* * *

في سورة الملائكة (فاطر)

قال الله سبحانه ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [فاطر: ١١] (١).

: أي ابتداء خلقكم من التراب في ضمن خلق آدم منه؛ لتكونوا متواضعين؛ كالتراب ساكتين تحت الأقدار.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الآية: ١١].

: أي ثم خلقكم من نطفة خلقًا تفصيليًا؛ لتكونوا قابلين لكل كمال؛ كالماء الذي هو سرُّ الحياة، ومبدأ العناصر الأربعة.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الآية: ١١]؛ أصنافًا أحمر وأبيض وأسود، وذكرانًا وإناثًا.

وعن قتادة: «جعل بعضكم زوجًا لبعض» وهو المناسب لقوله تعالى: ﴿وَمَا﴾ [الآية: ١٦] وما نافية، وقوله تعالى: ﴿تَحْمِلُ﴾ [الآية: ١١].

قال تعالى: ﴿مِنْ أُنثَى﴾ [الآية: ١١] وهو فاعل تحمل، ومن مزيدة لاستغراق النفي وتأكيده.

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَضَعُ﴾ [الآية: ١١] كون تلك الحامل والوضع ملتبسة بعلمه، تابعة لمشيئته، فقوله: ﴿إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ حال من الحامل دون المحمول؛ لأن العلم بالحامل والواضع يتضمَّن العلم بالمحمول والموضوع، فيعلم تعالى مكان الحمل، ووضعه، وأيامه، وساعاته، وأحواله، وأحواله من النقصان والتمام، والذُّكورة والأُنوثة، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ ما نافية، والتعمير عُمر، وهو مدة عمارة البدن بالحياة، والمعمِّر مَن أطيل عمره.

وقوله: (مِن مُّعَمَّرٍ): أي من أحد، ومن زائدة لتأكيد النفي، وسُمِّي معمَّرًا باعتبار مصيره؛ فهو من باب تسمية الشيء بما يؤل إليه؛ والمعنى وما يُمدُّ في عمر أحد.

---

(١) كتب بالأصل: [نقل تفسير هذه الآية في ليلة البراءة سنة ١١٢٥ هـ].

﴿وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ من النقص؛ وهو متعدٍ؛ بمعنى: كم.

والضمير للمعمَّر على الاستخدام، فيراد بضميره ما؛ مَن شأنه أن يُعمَّر: أي ولا ينقص من عمر أحد؛ ومعنى، (لا ينقص من عمره) بعد كونه زائدًا؛ إذ العمر لا يزيد، ولا ينقص؛ بل على معنى لا يجعل من الابتداء ناقصًا.

قوله تعالى: ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ [الآية:١١].

: أي اللوح، أو علم الله، أو صحيفة كل إنسان؛ لأن الملك يكتب والمولود في بطن أمه سعادته وشقاوته، وأجله ورزقه، فلا يتغيَّر ذلك؛ لأن بطن الأم لوح العلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الآية:١١].

لاستغنائه عن الأسباب؛ فكذا البعث، فمَن آمن به على هذا الوجه؛ سلم من الاعتراض، والإنكار، واتَّبع الهدى والحكمة في كل الأفعال والآثار.

فإن قيل: إذا كانت الآجال والأرزاق مقدَّرة لا تزيد ولا تنقص؛ فما وجه قوله ﷺ:

«مَن سرَّه أن يُبسط له في رزقه، وينسأ في أثره؛ فليصل رحمه»(١).

وهو كل ذي رحم محرَّم من الآباء والأمهات، والأبناء والبنات، والأخوة والأخوات، والأخوال والخالات، والأعمام والعمَّات، ونحو ذلك؛ وذلك بالإكرام، والإنعام، والسلام، والزيارة، وغير ذلك قلنا: وجهه أن الأشياء قد تُكتب في اللوح المحفوظ متوقفة على الشرط، كما يُكتب إن وصل فلاَنٌ رَحِمه، أو تصدَّق بصدقة؛ فعمره سبعين سنة، وإلا فخمسون.

والدعاء والتشبث ببعض الأسباب قد يكون من جملة تلك الشروط؛ فيمحوا الله ما يشاء بالنظر الظاهري، وحصول الشروط، وإن كان لا يتغيَّر ما في لوح علم الله تعالى.

أو يُقال: المراد منه البركة في رزقه، وبقاء ذكره الجميل بعده؛ وهو كالحياة الثانية، أو يُقال: الحديث صدر في معرض الحثِّ على صلة الرَّحم بطريق.

---

(١) تقدم تخريجه.

يعني: لو كان شيء يُبسط في رزق رجل وأجله؛ لكان صلة الرحم.

وكذا الصدقة كما في بعض الأحاديث، ويجوز فرض المحال إذا تعلّق به حكمة، وفيه بيان؛ لزيادة فضل صلة الرحم والصدقة من بين سائر الطاعات؛ لأن الصلة يصل العبد إلى الله تعالى، فيمتدّ حياته؛ لأنها حياة حقانية طيبة، وبالقطع ينقطع عن الله تعالى، فلا يجد بركة عمره، وإن طال كأعمار الأمم السالفة.

كما قال ﷺ: «**الرحم معلّقة بالعرش تقول: مَن وصلني؛ وصله الله**»: أي إليه. وقوله: «**ومَن قطعني؛ قطعه الله**»[1].

وبالصدقة يظهر صدقه في دينه؛ فهي برهان له، والصدقة كالضوء الممتد الغير المنقطع.

ألا ترى إلى حال الصبح الصادق؛ فإنه لصدقه يزيد ضياء إلى أن يطلع الشمس بخلاف الصبح الكاذب.

لطيفة:

واعلم أن وفاية الأعمار ليلة النصف من شعبان، وصحائف الأعمال تُنسج من اللوح المحفوظ، وتُدفع إلى الملائكة الموكّلين ليلة القدر من تلك السنة، فلا يظهر في الخارج من الموت والحياة إلا ما قدّره الله تعالى.

فإن لكل شيء أجلاً مُسمًّى لا يتجاوزه، وكل ذلك مشتمل على حكمة جليلة، ومصلحة حميدة، فإن كان لا يعرفها الإنسان؛ بل ينكر فيكفر حيث يقول: أخذ الله عسى هذا الولد مثلاً، وقطع عمره، وما أبقاه لي مع أنه ليس بمقطوع العمر؛ بل إن الله تعالى جعله على عمر ناقص، فلا يزيد على ما هو عليه، ولو فديت بالدنيا وما فيها.

فالصبر والسكون من آثار اليقين، والاطمئنان.

والجزع، والاضطراب من علامات الشك والإنكار.

فإن كان لك جزعٌ؛ فليكن على نفسك، فإنك لا تدري على أي حال تؤتى

---

(١) رواه مسلم (١٩٨١/٤)، والديلمي في الفردوس (٢٨٦/٢).

صحيفتك، وتُوضع على يد الملك، فجائز أن يكون فيها ما تكرهه من الأحوال، وليكن جلَّ همتك مغفرةٌ من الله ورحمة.

فإن العبد إذا كان مع الله تعالى، وأهلٌ لمغفرته ورحمته؛ فلا ألم له من الموت؛ فإن الموت في حقه انتقال من سجن ضيق إلى روضة فسيحة.

وقد صحَّ أن الله تعالى لا يغفر الشرك، ويغفر ما دون ذلك لِمَن يشاء، والمرء لا يدري هل دخل فيمَن يشاء أم لا؟ بل قد يكون الإصرار سبب الردِّ كما ورد:

«إن الله يغفر لجميع المسلمين في تلك الليلة إلا لكاهن، أو ساحر، أو مُشَاحن، أو مُدمن خمر، أو عاق للوالدين، أو مصرٍّ على الزنا»[1].

وبجميع هذه الأخلاق ونحوها الظلم، فمَن وقع في ظلم النفس وظلم الغير؛ فليبكِ على نفسه؛ فإنه إذا كان محرومًا عن المغفرة، مطرودًا عن باب الرحمة في الأيام والليالي المباركة، فمتى ينالهما وقد أُعطي لرسول الله ﷺ جميع الأمة هذه الليلة إلا مَن شرد على الله شراد البعير.

ومن عادة الله في هذه الليلة أن يزيد فيها ماء زمزم زيادة ظاهرة.

وهي إشارة إلى العلوم النبوية التي ورثها علماء أمته؛ وهم علماء الآخرة، فهي تزيد زيادة ظاهرة في تلك الليلة في قلب مَن كان مستعدًا لها من أخيار أمته، وهذا إلى يوم القيامة في كل عصر من الأعصار؛ بل ويزيد في تلك الليلة للموتى أحوالهم الحسنة إن كانوا منعَّمين، وينقص آثار أفعالهم السيئة إن كانوا معذَّبين.

فإن للأرض من كأس الكرام نصيبًا.

وقد مرَّ رجل بمقبرة، فصلَّى على النبي ﷺ، وكان في المقبرة خمسمائة وستون إنساني في العذاب، فنُودِيَ: ارفعوا العذاب عنهم ببركة صلاة هذا الرجل على النبي ﷺ.

فلو كانوا في الدنيا أهل صلاة وصيام، وقيام وذكر، ودعاء على ما ينبغي لم يكونوا في العذاب، ولكانوا أحسن حالاً ببركة دعاء الأحياء وأمدادهم.

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (١٢/١٦٧) بنحوه.

وقد ورد: «**القبر روضةٌ من رياض الجنة، أو حفرة من حُفر النيران**»(١)(٢).

---

(١) رواه الترمذي (٤/٦٣٩).

(٢) قال سيدي حسن الحمزاوي: اعلم أن القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار.

قال الحافظ الجلال: وهو أول منازل الآخرة.

قال: أخرج البيهقي وابن أبي الدنيا عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار».

قال: وأخرج الترمذي مثله، وأخرج بن منده عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن في قبره في روضةٍ خضراء، ويرحب: أي يوسع له قبره سبعون ذراعًا، وينوّر له كالقمر ليلة البدر».

وأخرج ابن منده عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُفسح للغريب في قبره كبعده عن أهله».

وفي بعض روايات للإمام البخاري، أنه يفسح له سبعون ذراعًا في سبعين ذراعًا، وللإمام القرطبي في حديث البراء بن عازب: مد البصر. وفي رواية للسيدة عائشة رضي الله عنها: أربعون ذراعًا.

قال القرطبي: ولا تعارض بين هذه الروايات؛ لأن هذا يختلف باعتبار الأشخاص باعتبار أعمالهم.

قال الإمام القرطبي: قال كعب الأحبار: إذا وُضع العبد الصالح في قبره احتوشته أعماله الصالحة، فتجيء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول: الصلاة إليكم عنه، فيأتون من قبل رأسه فيقول: الصيام لا سبيل لكم عليه، قد أطال ظمأه لله ﷻ في دار الدنيا، فيأتون من قبل جسمه فيقول: الحج والجهاد إليكم عنه، فقد أتعب نفسه، وأتعب بدنه، وحج وجاهد لله ﷻ، لا سبيل لكم عليه، فيأتون من قبل يديه فتقول الصدقة: كفوا عن صاحبي، فكم من صدقةٍ خرجت من هاتين اليدين، حتى وقفت بين يدي الله تعالى ابتغاء وجهه، ولا سبيل لكم عليه، قال: فيُقال: نَمْ هنيئًا، طبت حيًّا وميتًا.

قال الإمام المذكور أيضًا: قال بعض العارفين: هذا لمن أخلص لله في عمله، وصدَّق الله في قوله وفعله، وأحسن نيته في سرِّه وجهره، فهو الذي تكون أعماله حجة له ودافعة عنه، ومن نعيم القبر أيضًا فرشه.

قال الجلال في كتابه: «بشرى الكئيب»: أخرج أبو جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في تفاسيرهم، وأبو نعيم في الحلية عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم:٤٤]، قال: في القبر.

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في الآية، قال: يسوون المضاجع انتهى.

وأما التعذيب الدائم فللكافرين والمنافقين.

قال القطب الشعراني: رُوي عن علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه قال: كان الناس يشكون في عذاب القبر حتى نـــزلت هذه السورة: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ

=

=

كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٤،٣،١، ٢].

الأول: إشارة إلى عذاب القبر، وتعلمون. الثاني: إشارة إلى عذاب يوم القيامة.

ورُوي أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون فيمن أنـــزلت هذه الآية؟ فإن له معيشة ضنكًا، ونحشره يوم القيامة أعمى، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هي عذاب الكافر في القبر، والذي نفسي بيده إنه ليسلط عليه تسعة وتسعون تنينًا، أتدرون ما التنين؟ تسعة وتسعون حية، لكل حيةٍ تسعة أرؤس تنفخ في جسمه، وتخدشه إلى يوم القيامة، ويُحشر في قبره إلى الموقف أعمى».

وروى الحافظ الوائلي رحمه الله عن ابن عمر قال: فبينما نحن نسير بجبانة بدر إذ خرج رجلٌ من الأرض في عنقه سلسلة يمسك طرفها أسود فقال: يا عبد الله اسقني، فقال ابن عمر: لا أدري أعرف اسمي، أو كما يقول الإنسان لأخيه: يا عبد الله، فقال لي بعض من معي: لا تسقهِ فإنه كافرٌ، ثم اجتذبه فدخل الأرض، قال ابن عمر: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «أو قد رأيته ذاك عدو الله أبو جهل بن هشام، وهو عذابه إلى يوم القيامة» انتهى.

فتحصل مما سبق أن النعيم لا يكون إلا دائمًا، وأما العذاب إما أن يكون دائمًا أيضًا وهو عذاب الكفار وبعض العصاة، أو منقطعًا وهو لبعض العصاة.

ولذلك قال العلاّمة الدردير في خريدته: العذاب قسمان: إما دائم وهو للكفار ولبعض العصاة، أو منقطع وهو لبعض العصاة ممن خفت جرائمه، وانقطاعه إما بسبب كصدقة أو دعاء، أو بلا سببٍ بل بمجرد العفو والتعذيب للروح مع البدن، ولو لم يقبر فالتعبير بالقبر جرى على الغالب.

قال العلاّمة المذكور: إذ لا مانع من أن يخلق الله تعالى في جميع الأجزاء أو بعضها نوعًا من الحياة قدر ما يدرك ألم العذاب ولذة النعيم، وهذا لا يستلزم أن يتحرك أو يضطرب أو يرى أثر العذاب عليه، حتى إن من أكلته السباع أو صُلب في الهواء يُعذّب، وإن لم نطلع على ذلك انتهى.

وقال في محلٍّ آخرٍ: ومن عذاب القبر ضغطته، وهي التقاء حافتيه حتى تختلف أضلاع الميت وتختلف باختلاف العمل حتى إن الصالح تضمه ضمة الأم الشفوقة على ولدها انتهى.

ويرتفع العذاب عن سائر الخلق ليلة الجمعة ولو كفارًا، ثم يعود على الصحيح.

قال العلاّمة النفراوي: وقيل: إنه بعد ارتفاعه عن المؤمن ليلة الجمعة لا يعود أبدًا، قال: وحينئذٍ من مات قبل الجمعة بيومٍ لا يكون عذابه إلا يومًا، وبه قال بعضهم انتهى.

قلت: وهو مردودٌ بما أفاده الإمام السيوطي حيث قال في شفاء الصدور: إن عدم العود لا دليل عليه، فلم يرد في هذا حديث صحيح ولا حسن.

قلت: وما قاله الإمام السيوطي فهو في غاية الظهور؛ لما تقدم لك من حديث البخاري ومسلم السابق

=

=

في الجريدتين، بقوله: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا».

وفي روايةٍ لأبي داود: يهوّن عليهما ما دام من بلولتهما شيء، فهذا التقييد منه ﷺ ظاهر فيما قاله السيوطي، ولا يلتفت لغيره، لا سيما في مجالس الفجرة المتجاهرين بالفسق، والتعذيب يكون على الفروع، كما يكون على الاعتقادات.

ويدل عليه ما قاله الإمام القرطبي قال: روى الطحاوي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «أمر بعبدٍ من عباد الله ﷻ أن يُضرب في قبره مائة جلدة، فلم يزل يسأل الله ويدعوه حتى صارت واحدة، فامتلأ قبره عليه نارًا: أي من الواحدة، فلما ارتفع عنه أفاق، قال: علام جلدتموني؟ فقيل: إنك صليت صلاة بغير طهور، ومررت على مظلومٍ فلم تنصره».

وقوله: «بغير طهور» بضم الطاء: أي الفعل للوضوء والفتح الماء، وحديث البول.

قال القطب الشعراني في مختصره: قال العلماء: ويختلف أحوال العصاة في العذاب باختلاف معاصيهم كثرة وقلة.

قال: روى الشيخان: «أن النبي ﷺ مرَّ على قبرين فقال: إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبيرٍ بلى إنه كبيرٌ، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من البول».

وفي روايةٍ لمسلم: «لا يستنـــزه من البول»، وفي روايةٍ: «لا يستتر من البول».

قال العلماء: وفي هذا الحديث دلالة على أن الاستبراء من البول، والتنـــزّه عنه واجب؛ إذ لا يُعذب الإنسان إلا على ترك الواجب.

ثم قال العارف: وكذلك إزالة جميع النجاسات قياسًا على البول.

قال العلاَّمة الأمير: ما ورد من قوله: «استنـــزهوا من البول، فإن عامة عذاب القبر منه» محمولٌ على قول بعض أصحابنا القائلين بسنية إزالة النجاسة على بقاء البول داخل القصبة، فيؤدي لبطلان الوضوء بعد انتهى.

ثم قال المحقق المذكور: وفي بعض الكتب الإلهية أوحى الله تعالى لبعض أنبيائه، تذكر أنك ساكن القبر، فإن ذلك يزهدك في كثيرٍ من الشهوات، ومما يدل أيضًا على التعذيب في القبر على الفروع ما ذكره العارف في مختصره قال: روى البيهقي وغيره في حديث الإسراء: «أنه ﷺ مرَّ ليلة أسري به على قومٍ تُرضخ رؤوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت، لا يفتر عنهم شيء من ذلك، فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة، ثم مرَّ رسول الله ﷺ على قومٍ على أقبالهم رقاع، وعلى أدبارهم رقاع، يسرحون كما تسرح الأنعام في الضريع والزقوم ورضف جهنم، يعني الحجارة المحمات، فقال: ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: الذين لا يؤدون زكاة أموالهم، وما ظلمهم الله، وما الله بظلامٍ للعبيد، ثم مرَّ رسول الله ﷺ على قومٍ بين أيديهم لحم في

=

=

قدرٍ نضيج، ولحم آخر خبيث، فجعلوا يأكلون من الخبيث ويدعون النضيج الطيب، فقال: يا جبريل، من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الذين يزنون وعندهم النساء الحلائل الطيبات، فيأتي أحدهم المرأة الخبيثة فيبيت معها حتى يصبح، ثم مرَّ رسول الله ﷺ على قومٍ تُقرض شفاههم بمقاريض من نارٍ، كلما قُرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك، فقال: يا جبريل، من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء خطباء الفتنة، ثم أتى رسول الله ﷺ على حجرٍ يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثور يريد أن يدخل من حيث خرج فلا يستطيع، فقال: يا جبريل، من هذا؟ فقال: الرجل يتكلم بالكلمة فيندم عليها، فيريد أن يردها فلا يستطيع، ثم مرَّ رسول الله ﷺ على قومٍ بطونهم كأمثال البيوت، كلما نهض أحدهم يقوم خرَّ على وجهه، والناس يطئونهم وهم يضجرون إلى الله ﷻ، فقال: يا جبريل، من هؤلاء؟ فقال: هم الذين يأكلون الربا من أمتك، لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، ثم مرَّ رسول الله ﷺ على قومٍ مشافرهم كمشافر الإبل، فيفتح أفواههم، ويلقمون الجمر ثم يخرج من أسفلهم، وهم يضجرون إلى الله ﷻ، فقال: يا جبريل، من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء من أمتك الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا، إنما يأكلون في بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا، ثم مرَّ رسول الله ﷺ على نساءٍ متعلقات بثديهن، وهن يضجعن إلى الله ﷻ، فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الزناة من أمتك، ثم مرَّ رسول الله ﷺ على قومٍ يُقطع من جنوبهم اللحم فيلقمونه، فيقال لأحدهم: كُلْ كما كنت تأكل لحم أخيك، فقال: يا جبريل، من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الهمَّازون من أمتك، اللمَّازون».

وفي روايةٍ لأبي داود: «ثم مرَّ يعني ﷺ بقومٍ لهم أظفار من نحاسٍ يخمشون وجوههم وصدورهم، فقال: من هؤلاء؟ قال: الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم».

فائدة: قال العلاَّمة القرطبي: ومن التنعيم أو التعذيب، وعندنا المثال في الدنيا، وذلك كمن عُرض عليه القتل، أو غيره من العذاب، أو ما يهدد به من غير أن يرى الآلة.

قال: ويدل له ما جاء في التنــزيل في حق الكافرين قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، فأخبر تعالى أن الكافرين يعرضون على النار، كما أن أهل السعادة يعرضون على الجنان، ويدل للعرض العام ما أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يُقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة».

قال بعض العارفين: هذا خاصٌّ بغير الشهداء، أما هم فأرواحهم في الجنة كما في مسلم اهـ.

قلت: لا مانع من العموم؛ لما في بعض الروايات من رجوعها إلى أجسادها بعد سروحها في الجنة، وذلك لا يمنع من العرض عملاً بالحديثين، وسيأتي محله في مستقر الأرواح إن شاء الله.

=

وهو يدلُّ على أن الإنسان يجد بعض ثواب علمه يوم القيامة؛ لأنه الله تعالى أخَّر المثوبات إلى الآخرة؛ لأن الدنيا مع سعتها لا تسعها، والله تعالى يرحمنا وإياكم أجمعين بفضله وكرمه.

***

=

قال العلاَّمة القرطبي: وهل العرض لكل مؤمنٍ؟ فقيل: مخصوص بالمؤمن الكامل، ومن أراد الله نجاته من النار، وأما من أنفذ الله عليه وعيده من المخلصين الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، فله مقعدان يراهما جميعًا، كما أنه يرى عمله شخصين في وقتين، يعني أحدهما قبيحًا والآخر حسنًا، ويحتمل أن يُراد بأهل الجنة كيفما كان، ثم قال: فإن قلت: هل ذلك العرض على الروح وحدها أو مع جزء من البدن؟ ثم قال: قال بعض المحققين: يحتمل أن يكون ذلك للروح مع جزءٍ من البدن، ويحتمل أن يكون لها مع جميع البدن، فتُرد إليه الروح كما تُرد عند المسألة حين يقعده الملكان، ويُقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة اهـ.

قلت: هذا الجواب لا يلاقي المستفهم عنه كل الملاقاة، وذلك لأن المستفهم عنه العرض على الروح وحدها، أو مع جزء من البدن، ولكن ربما يُقال: لما كان العرض على التحقيق نوع من التعذيب، وكان القياس أن ذلك للروح مع الجسد كله على الصحيح، لم يعبأ بالقول بأن العرض للروح فقط، قياسًا على القول الضعيف في كون التعذيب للروح فقط، غير أن قياس المحقق العرض فترد الروح لجميع البدن، كما ترد عند المسألة خلاف ما اعتمدوه من أنها تُرد عند المسألة للنصف الأعلى فقط، وأما التعذيب فيكون للبدن كله على التحقيق مع الروح، ويدل له ما ذكره المحقق السبكي، وكذا الحافظ السيوطي، وكذا المحقق القرطبي نفسه في محلٍّ آخر.

قال: أخرج ابن منده عن ابن عباس ﷺ قال: لا تزال الخصومة بين الناس فتقول الروح للجسد: أنت فعلت، فيقول الجسد للروح: أنت أمرت، أنت سولت. فيبعث الله لهما ملكًا يقضي بينهما فيقول لهما: إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير وآخر ضرير، دخلا بستانًا، فقال المقعد للضرير: إني أرى ها هنا ثمرة، ولكن لا أصل إليها، فقال الضرير: اركبني، فركبه فتناولها، فأيهما المتعدي، فيقولان: كلاهما، فيقول لهما الملك: إنكما قد حكمتما على أنفسكما اهـ.

ومعنى الحديث أن الجسد للروح كالمطية وهي راكبة، فهي تدل وتسول لكن لا تصل إلى ما تريد إلا بالجسد، نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة، وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

وانظر: مشارق الأنوار (ص٨٣) بتحقيقنا.

في سورة يس

قال الله سبحانه: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس:١٤]، خصَّ الثالث بالذكر، واكتفى ولم يقل أيضًا برابع وخامس، فإن للإنسان ثلاث مراتب:

مرتبة الحس، ومرتبة الخيال، ومرتبة العقل؛ فكل من الرسل الثلاثة قائمٌ على مرتبة من تلك المراتب.

فالأول: يدعوا إلى الله تعالى في المرتبة الأولى؛ لأن الحسّ أول الباب، والغالب على الإنسان قصر نظره عليه، فلا بد من تحويله عنه في أول الأمر؛ ليدخل فيما وراءه من المرتبتين.

والثاني: يدعوا إليه تعالى في مرتبة الخيال؛ يعني يجتهد في تحويل المدعو عن التقيُّد بتلك المرتبة، وإن الخيال يدعو الإنسان إلى أمور موهومة لا حقائق لها؛ وهي مرتبة الشعور لا العلم الحقيقي.

والثالث: يدعو إليه تعالى في مرتبة العقل؛ فإن العقل؛ كالعقال يُعقِّل المرء عن الحركة إلى إدراك الحقائق، كما أن العقال يُعقِّل البعير عن الحركة إلى الوصول إلى الحسِّيات، ولذا هو عقل متعلّق بالمعاش لا عقل قدسي متعلّق بالمعاد؛ ولذا ذمَّ الله الكافرين بأنهم لا يعقلون مع أنهم عقلاء، إذ لو كان لهم عقل قدسي لتنـــزَّهوا عن ألواث الشرك والمعاصي الحاصل عن متابعة الخيال، والحسِّ.

فمَن تخلَّص عن التقيُّد بهذه القيود الثلاثة بدعوات ثلاث من القلب، والروح، والسرِّ؛ دخل في عالم الإيمان والإيقان؛ بل في عالم الشهود والإحسان، وبما قررنا من السرِّ الخفي؛ يظهر وجه التثليث في نحو الدعاء، والنفخ والنفث؛ فعليك بالعمل، فإن التعزيز إنما هو في التثليث، والأمر التكويني يدور عليه، ويُرجع كل أمر إليه.

في آخر سورة يس: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣].

الملكوت هو(١): الملك العظيم على ما يقتضيه الزيادة التركيبية؛ كالعظموت

(١) للعلماء في تفسير الملك والملكوت عباراتٌ حاصلها أن الملك هو: التصرف في الأمور، وفي تحقيقه =

بمعنى: العظمة الزائدة.

والرهبوت بمعنى: الرهبة الشديدة.

والرحموت بمعنى: الرحمة الغالبة، وعلى هذا.

والمراد بالملك العظيم هنا هو: ملك الروح؛ لأنه أعظم من ملك الجسد؛ لأن الجسد من عالم الصورة، والروح من عالم المعنى، والمعنى أوسع من الصورة، وإن كان كل من الروح والجسد مخلوقين على ما دلّت عليه النصوص.

نعم: إن الروح يلي الحق تعالى؛ فهو من عالم الأمر: أي من عالم الاختراع بلا مادة، ولا في مادة، والجسد يلي الخلق؛ فهو من عالم الخلق: أي من عالم الإيجاد من مادة في مدة.

والمراد باليد القابضة هاهنا هي: اليمنى المضافة إليها الملكوت العليا، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧]؛ وذلك لأن الأرواح من العلويّات فهي مقبوضة باليد اليمنى، والأجساد من السفليات؛ فهي مقبوضة باليد اليسرى.

كما قال تعالى: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر:٦٧]: أي مقبوضه تعالى بالشمال على ما يقتضيه ما قبله، وإن كانت كلتا يديه تعالى يمينًا مباركة في الحقيقة على ما جاء في بعض الأحاديث الصحيحة؛ فاليد اليمنى بيد رب

=

كلامٌ يطلب من محله، والملكوت: عظم الملك؛ لأنه مبالغة فيه كالرَّهَبُوت، ولهذا فسر الملك بعالم الشهادة، والملكوت بعالم الغيب، وهو عالم الأمر، وقيل: الملك: ما يدرك بالحس، والملكوت: ما لا يدرك به، وذكر بعضهم عبارةً أبسط من هذه فقال: عالم الملك: عالم الشهادة، ويقال: عالم الخلق، وهو عالم الأجسام والجسمانيات، ويكون بقدرة الله تعالى بعضه من بعض، وبتضمنه التغير، وعالم الملكوت عالم الغيب، ويقال له: عالم الأمر، وهو عالم الأرواح والروحانيات، وهو ما أوجده الله تعالى بالأمر الأزلي بلا تدريجٍ، وبقي على حالةٍ واحدةٍ من غير زيادة ولا نقصان، والجبروت عالم الأسماء والصفات الإلهية، يعني صفات العظمة والعلو، وقيل: هو عالمٌ بين العالمين يشبه أن يكون في الظاهر من عالم الملك، فجبر بالقدرة الأزلية بما هو من عالم الملكوت.

الناس، واليد اليسرى بيد ملك الناس، كما أن اليدين جميعًا بيد إله الناس، فاعرف جدًا.

وأشار العموم في كل شيء إلى أن الحياة سارية في كل شيء، فما من شيء إلا وهو حيٌّ عالم متكلّم مسبِّح على ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ﴾ [الإسراء:٤٤]، وإن كان ذلك خفيًّا عن إدراك العوام؛ لأن نظرهم مقصور على الظواهر، وأكثر الأشياء في الظاهر جوامد؛ لكن أين الجمود في جنب تجلّي الرب المحمود؟

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣]؛ إشارة إلى ردِّ الفرع؛ وهو الروح إلى الأصل؛ وهو الله تعالى، وإن كان الجسد أيضًا مردودًا؛ لكن ردَّه إنما كان إلى المحشر للمحاسبة ليس إلى الله من حيث ذاته، دلّ عليه: إنه ﷺ ترك تركيبه ليلة المعراج في المستوى، وسار بالروح إلى حيث لا أين، ولا حيث؟

فلكل من الروح والجسد مرجع يرجع إليه بحسب حاله ومقامه، فمَن ردَّ الحشر النفساني الجسماني؛ فقد غفل عن حكم الجسد.

ألا ترى أن الله تعالى حين أحيا عزيرًا الطَّيْلاَ أحيا حماره أيضًا؛ لأنه مركبه، ولا شك أن الجسد مطيَّة الروح، وإن كان الروح الإنساني ليس بداخل ولا خارج بالنسبة إلى الجسد؛ وإنما له تعلُّق من حيث التدبير والتصرُّف، وبدأ الآية بالتسبيح، وللتنـــزيه إشارة إلى أن الله تعالى، وإن كان بيديه ملكوت السماوات وملك الأرض لكنه في الحقيقة غنيٌّ عن العالمين، وإنما له تعلُّق بالعوالم من حيث إلوهيته وربوبيته، فكل شيء مألوه له، ومربوب.

دلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]، فالله تعالى أظهر كل شيء من حيث تجليّاته، وأخفى كل شيء من حيث غيب هويته، وقراءة يس عن المحتضر؛ إنما هي للملكوت الناظرة إلى الغيب.

***

في تفسير الصافات

قوله ﷻ: ﴿فحَقَّ عَلَيْنا﴾ [الصافات:٣١]: أي على إهلاك تلك القرية.

وقوله: ﴿قَوْلُ﴾ [الصافات:٣١] الأزلي، والحكم الأَولى الذي أوجبه الله على نفسه قبل أن يخلق الخلق، وهذا يُنادى على ما ذكرنا من الحق الصريح، فإن الله لا يتغيَّر، وحكم الله لا يتبدَّل كما لا يتبدَّل ولا يتغيَّر الاستعداد الأزلي.

فالإرادة قديمة؛ كاستعداد الفسق لكن على ما قالوا: تعلُّقها بالفسق حادث كحدوثه.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات:٣٥].

اعلم أن هذه الكلمة جامعة لمراتب التوحيد؛ وهي قوله: لا إله إلا هو، ولا إله إلا أنا، ولا إله إلا أنت؛ ولذا لم يقل: إذا قيل لهم: لا إله إلا هو يستكبرون، فإن ضميرهم كان منحصرًا في شيء واحد؛ هو معبودهم الذي تقيَّدوا به، فشركهم يقتضي التقييد لا الإطلاق(١).

والله تعالى منــزَّه أن يتقيَّد بشيء دون شيء؛ ولذا قال سبحانه وتعالى:

---

(١) قال الشيخ ابن سبعين: أول وظيفة من وظائف الشريعة: هي كلمة لا اله إلا الله، وتتضمن ألا فاعل إلا الله، فكل موجود في الكون الله أوجده من حيث هو فاعله، والفاعل لا يفارق مفعوله، وهو معه بالإيجاد والإبقاء، ولا وجود للشيء إلا به، فهو الأصل الضروري في وجود كل شيء، ولكل شيء حقيقة، وهو وجوده الذي هو به ما هو ووجود كل شيء، الذي هو به ما هو هو به، ومنه وعنه وإليه، هو حقيقة كل شيء وماهيته ووجوده؛ فالله: هو الحقيقة الجامعة، فإذا كان هو حقيقة كل شيء، فالأشياء كلها هي به على ما هي عليه، فهو الحقيقة الموجودة في كل حقيقة، وهو الذات المستحقة بذاتها لكل ذات، فهو مع كل شيء بوجوده؛ فلا غيبة ولا حجاب، والغيبة والحجاب: هو الجهل بهذا الاتصال والاستحقاق الذي ذكرناه، والغفلة عن ملاحظته وشهوده في كل شيء؛ بل شهوده ولا شيء معه.

وعلم الشريعة؛ يزيل الجهل المذكور، ووظائفها؛ ترفع الغفلة، وتنبه على الحضور مع الحاضر في كل حضور، فالحق هو نتيجة الشرائع، وعلوم الشريعة بهذا الوجه: هي علوم التحقيق، فاعلم ذلك.

فإذًا حقيقة لا اله إلا الله: أن لا موجود إلا هو، وما خلا الله باطل، والوهم يشعر بغيره، والوظائف الشرعية تذكر بالله، وذكره يزيل الوهم، ويمحو خبر الغيرية، ويقيم العبد في الحضرة الحاضرة في حضوره، فالحق نتيجة الشرائع كما قال، وهذا الكلام في نتيجة الشرائع، والحقيقة الجامعة، وعلوم التحقيق فافهمه.

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر:١٥].

وقال مَن قال من الكُمَّل: عقد الخلائق في الإله عقائد، وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوا.

فالمشرك يُقيِّد الحق في مرتبة واحدة، والتجلِّي الجمعي الساري في جميع الكائنات يأبى ذلك.

فإن قلت قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ﴾ [البقرة:٢٥٦]؛ ينافي ما ذكرت، وأيضًا الاعتقاد العام المذكور يقتضي تداخل الكفر، والإيمان، وذلك لا يصحّ أبدًا.

قلت: المراد معرفة الحق تعالى من حيث تجليه العام، وذلك لا يقتضي العمل بضدِّين؛ لأنه محجور من قِبل الله تعالى، فالإيمان الكامل؛ هو الكفر بالطاغوت، وما سوى الله تعالى جميعًا، والاعتقاد الأحدى في كل شيء، والعمل بما حدَّ الله تعالى في الشرع من الأمرَ والنهي.

ومن هنا يظهر الفرق بين أهل الإلحاد، وأرباب الحقائق؛ فإن الأولين يعملون بما يعلمون من كل ضدٍّ، وذلك كفر صريح، فحكم المساجد في باب العمل غير حكم الكنائس فيه، وأمَّا الآخرون فيعملون بما أمر الله به أن يُعمل لا بغيره، فيقفون عند حدِّ الشرع لِما أنهم يعلمون أن الله تعالى حكيم، وله حكم ومصالح فيما أطلق وفيما حجر حتى لو قيل لهم من قِبل الله: اشربوا الخمر لا يشربون؛ مراعاةً للعهد الأول، وعملاً لذلك القول على الامتحان، فإن كل أمر وارد ليس بإرادي؛ بل قد يكون التكليف للاختيار، كما أنه تعالى أمر أبا جهل ونحوه بالإيمان، وإن كان قد علم منهم خلافه، فالمأمور يتخلَّف عن الأمر دون المراد عن الإرادة، وإلا يلزم العجز تعالى الله عن ذلك.

ثم إن المراتب: مَن أنا، وهو، وأنت؛ مراتب التوحيد مطلقًا.

ومعنى التوحيد: مطالعة نور الوحدة في الآثار، والشواهد، ونفي الكثرة عن ذات الله تعالى؛ فإن الله تعالى ليس له شريك، وإن وحدته ليست عن عدد؛ وإنما

قولنا: واحد، ووحدة؛ للتنـــزيه عن أن يكون معه غيره، وللتفخيم أيضًا حيث يشعر بالاستغناء، وعدم العجز لا للدلالة على مفهوم الوحدة المقيس بالكثرة.

وقولنا: نفي الكثرة؛ لدفع التوهُّم وللتفهيم، وإلا فبعد إثبات أنه الحق هو الوجود الفائض على الموجودات لا حاجة إليه.

فإن قلت؛ فعلى هذا يلزم أن يصحَّ للكل أن يقول: لا إله إلا أنا، وأنا الحق؛ كما فعله الحلاَّج ونحوه.

قلت: لا شك أن للإنسان وجهين: وجه الإطلاق، ووجه التقييد.

فالوجه الأول: يلي جانب الحق، وبه يدركه، ومَن يدركه.

والثاني: يلي الخلق، وبه يتقيَّد بالأحكام مَن يتقيَّد.

وذْلك أن الأول: ظهور التجلِّي في المظهر بحسبه، وبحسب المظهر المتجلَّى له، لا بحسب المتجلِّي، فإنه غير محصور في محلٍّ واحد؛ لعمومه واتساعه، فهذا الوجه يقتضي أن يكون الساجد والمسجود، والعابد والمعبود واحدًا، وذلك لا يصحُّ من طريق الحقيقة.

وأما الثاني: هو المحلّ، والتعيُّن الخاص، وهذا الوجه يقتضي التغاير بين المتجلِّي والمتجلَّى له في الجملة، وبه يصحُّ الأمر والنهي، وكون الحق آمرًا معبودًا، وكون الخلق مأمورًا عابدًا، فمَن خلط بين المرتبتين؛ فقد زلّ، وخرج عن الحكمة.

ولذا كان الأكمل من الناس مَن غُلب على حاله لا مَن غلبه الحال.

فإن الأول: لا يجري عليه لسان ذنب بخلاف الثاني؛ فوجب أن يكون الوجه التقييدي جنة على الوجه الإطلاقي؛ حتى إذا غلب عليه المناسبة الذاتية؛ أمسك العنان، وجرى على ما جرى عليه الكُمَّل من العمل بالوجه التقييدي؛ صيانةً لظاهر الشرع، وحفظًا للحدود؛ حذرًا عن الاختلال، وضبطًا للاعتدال.

ولهذا قال تعالى في مرتبة الجمع الإحاطي: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى**﴾ [الأنفال:١٧].

فجمع بين رميه ﷺ الذي يلي جانب الوجه التقييدي، وبين رميه تعالى الذي جانب الوجه الإطلاقي، فهذه هي مرتبة الجمع بين التخصيص والتشكيك، فغير

العارف إذا شاهد هذا الرمي عن يد النبي ﷺ؛ أسنده إليه، وذلك شرك جدًا[1].

وأمَّا العارف الغير الكامل فيسنده إلى الله تعالى، وذلك إلحاد قطعًا.

وأمَّا الكامل فيسنده الظاهر إلى الظاهر، والباطن إلى الباطن.

فإن تأثير الرمي في الخارج لم يكن من الحقيقة الكونية التي تلي جانب الخلق؛ بل من الحقيقة الوجوبية التي تلي جانب الحق، فإذا كان النبي ﷺ جامعًا بين مرتبة الخلقية الكونية التقييدية، وبين المرتبة الحقية الوجوبية الإطلاقية؛ فصحَّ إنه هو الرامي من وجه، وإنه غير الرامي من وجه.

فهذا الأدب الإلهي نظر إليه الكُمَّل فحافظوا على المراتب، ولم يقولوا: أنا الرامي، أو أنا الحق مثلاً؛ بل جعلوا المرتبة الواحدية جنة على المرتبة الأحدية، فستروا المناسبة الذاتية الأحدية في المغايرة الصفاتية الواحدية؛ فسلَّموا الأمر إلى الله تعالى، وسلموا عن الغوائل، رزقنا الله تعالى وإياكم حلاوة هذا المقام من طريق الذوق والشهود، لا من طريق العلم والشعور فقط.

والحاصل أن مرتبة: لا إله إلا أنا مرتبة موسى عليه السلام؛ لأنه هو المنادى به من صورة الشجرة.

ومرتبة: لا إله إلا أنت مرتبة يونس عليه السلام كما قال في بطن الحوت:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

---

(١) قال الشيخ الأكبر في كتاب «الجلالة» ومن هذا الباب باب الحيرة الإلهية.

قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧]، وافعل يا عبدي ما لست بفاعل، بل أنا فاعله ولا أفعله إلا بك؛ لأنه لا يمكن أن أفعله بي، فأنت لا بد منك، وأنا بدّك اللازم، فالزم بدّك، ولا بد مني، فصارت الأمور موقوفة عليَّ وعليه فحرت وحارت الحيرة وحار كل شيء، وما ثمَّ إلا حيرة في حيرة، وأنشدهما وغيرهما وقال، ومع قولي هذا كله قيل لي: افعل من باب الحيرة الجامعة لجميع النسخ. ثم قال في آخره: فاعلم سرَّ قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق:٢٩]، فالعاقل يعمل على إمضاء الحكم وإنفاذه، ولا مردَّ له؛ لقوته والمحقق يأخذه من باب الحيرة، وأنه لا يمكن إلا هذا، وإلا فكما وصلت الخمسون إلى خمسة لم يمكن أن ينقص منها، كذلك لم يمكن أن تبقى الخمسون أصلاً لما سبق به القول.

ومرتبة: لا إله إلا الله مرتبة محمد رسول الله ﷺ.

وكذا مرتبة: لا إله إلا هو، فإن هذه المرتبة: أي مرتبة: لا إله إلا هو، وإن كانت مرتبة هود عليه السلام كما قال: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود:٥٦] فعبَّر عنه تعالى بالهُويَّة الغيبية السارية؛ لكن كونها مرتبته؛ إنما هو من طريق باطن الهُويَّة، وكونها مرتبة نبينا ﷺ؛ إنما هو من طريق ظاهرها وباطنها.

فظاهرها: لا إله إلا الله.

وباطنها: لا إله إلا هو.

فانظر كيف أُدِّب النبي ﷺ في التوحيد حتى قال ليلة المعراج حين ما دخل عليه تعالى:

«أنا العبد لا إله إلا الله»، فأثبت العبودية والأُلوهية جميعًا، ومَن مشى على طريقة هذا الاعتبار؛ أمن العثار.

* * *

وفي سورة الزمر

قال سبحانه حكاية: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣].

اعلم التوحيد واقع في العام، ومتحقق في نفس الأمر سواء عرفه الإنسان، أو لم يعرفه، وتكلَّم بكلمته، أو لم يتكلَّم.

فإن الله تعالى لمَّا خلق العقل الأول؛ كان أول ما تكلَّم به: لا إله إلا الله، فشرَّفه الله تعالى بأن يقول: محمد رسول الله، وبقى أمر الوجود على هذا التوحيد إلى قيام الساعة، وإلى الأبد، ولمَّا أخذ الله الميثاق؛ كان أول مَن تكلَّم بقوله بلى هو العقل الأول[١] لأنه رئيس أهل التوحيد لا قبل البعثة، ولا بعدها؛ لأن اللاحقة عين السابقة، والأبد مرآة الأزل، والنهاية صورة البداية، والآخر سرُّ الأول، وكل مَن وقعت له المناسبة الذاتية بذلك العقل الأول؛ كان حاله في التوحيد حاله؛ لأنه تعيُّنه هو عين تعيُّنه، والكل في الصف الأول بهداية الله تعالى وعنايته.

فقولنا: لا إله إلا الله؛ صورة التوحيد لآدم وذريته في سبعة آلاف سنة.

وقولنا: محمد رسول الله؛ صورة التصديق لهذه الأمة المرحومة في ألف سنة؛ بل وقد يكون من هذه الأمة مَن له الجمعية الإحاطية؛ فيحصل له من التوحيد والتصديق في العمر القليل حكمهما في تمام دور السنبلة، فإن الله تعالى إنما جعل هذا الدور سنبليًا؛ لأجل المضاعفة المقصودة لهذه الأمة لا لغيرها من الأمم السالفة، فظهر أن المعبود بالحق من الأزل إلى الأبد؛ هو الله تعالى وأن الرسول هو محمد ﷺ؛ لأن مَن عَداه من الرسل المتقدمين؛ إنما هم من شعبه وصوره[٢].

---

(١) العقل الأول من الحقيقة الحقيَّة التي هي الوجه الخاص له من جانب الحق، وبها زاد على جميع المخلوقات، فلم تظهر الصور الحقيَّة إلا به، فالعقل مع عظمته جزء من الصورة وهكذا كل موجود إنما هو في البعضيَّة فافهم.

(٢) فائدة: فإن العقل الأول روحه الأعظم، والنفس الكلية نفسه الشريفة، وكل الأرواح والنفوس والعقول الغير المنطبعة اندرج في ذلك، وكذلك النفس المنطبعة في الجسم الكل هي خياله ﷺ، وجميع النفوس المنطبعة مع ما فيها من عالم المثال مندرجة في تلك النفس، بل ما من شيء في العالم إلا وله في جميع ما ذكر صورة على حسب عالمها، سواء كان روحًا أو نفسًا أو مثالاً، وذلك =

والمشركون جعلوا الأصنام معبودات كما دلّ عليه قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ [الآية:٣]؛ وذلك باطل جدًا، وإن كان مرادهم من ذلك؛ هو التقرُّب إلى الله تعالى كما دلّ عليه قولهم: ﴿إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الآية:٣].

وذلك أن التجلّي الأحدي سار في جميع الموجودات، فإذًا كل الأشياء دليل عليه لا شريك إذ لا شريك أصلاً؛ لأن الوجود واحد، والشيء لا يُقرِّب نفسه إلى نفسه؛ وإنما يُقرِّب غيره، والغير هنا هو العبد العابد، ومنه قرب النوافل، وقرب الفرائض.

ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦]؛ لأن المعدوم لا يكون مغفورًا مستورًا، وشريك الله تعالى ممتنع فلا وجود له أصلاً.

وكون الأصنام شركاء له؛ إنما هو باعتبار الوهم، والتصوُّر الباطل، فبطل التقييد، وظهر سرُّ الإطلاق.

ألا ترى أن الشمس إذا طلعت؛ فنورها يعمُّ الدنيا، ويدخل في الكوَّات جميعًا، فكل شعاع منعكس من أشعتها؛ فهو دليل عليها، إلا أن شمس مثلها، فالشمس واحدة، والأشعة مختلفة متعددة بحسب اختلاف الكوَّات وتعددها، وكل الأشعة إذا اجتمعت؛ فهي الشمس، فمَن حصرها في شعاع من الأشعة؛ فقد جهل الأمر في الخارج، ونفس الأمر، فكما أن هذا التقييد من الجهالة؛ فكذا تقييد نور الإلهية بواحد من المألوهات، أو أكثر جهل وشرك عظيم، فتنبَّه لهذا الأمر العظيم، واجتنب من الإلحاد والشرك والكفر، فلا تعبد إلا الله.

=

المذكور مندرج تحت المرتبة الإمكانية، فما من ممكنٍ إلا وهو مندرجٌ فيه: أي في نشأة البشرية، وكذلك اندرج في باطن نشأته كل اسمٍ له تعالى، حيث أن الظاهر في نشأته الاسم (الله) وهو رب الأرباب، فبجمعه الأسماء كلها شمل المرتبة الوجوبية مرتبة الأسماء والصفات، وبجمعه آثارها شمل المرتبة الإمكانية مرتبة الحوادث المقابلة للأولى صورته العلمية.

والحاصل: إذا تأمَّلت ما تقدَّم تجده راجعًا إلى قصد أنه هو الكل، وأن كل مخلوق إنما خُلق لأجله ﷺ؛ لكمال العبودية فيه والله الهادي، وفي هذه الجملة من الاصطلاحات النشاء الشامل لمرتبة، وقوس الأسماء ومرتبة، وقوس الأعيان الثابتة وما نــزل عنها، المعبر عنهما بالوجوبية والإمكانية.

في سورة غافر
حم المؤمن

قال الله سبحانه: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥] (١).

اعلم أن الفيض الإلهي للقلب؛ كالروح للبدن، فكما أن البدن لا يتحرك إلى جانب الخلق إلا بالروح، وبه حياته؛ فكذا القلب لا يتحرك إلى جانب الخلق إلا بالفيض والجذب، وبه قوامه.

فالقلب بلا فيض ميت؛ كالبدن بلا روح، وبه يعرف أن إيمان المقلِّد وإن كان صحيحًا في الظاهر؛ لكن لا يرتسخ ذلك فيه إلا بالاستدلال، فأدنى الفيض هو الاستدلال، فإن الإيمان إنما يتقوَّى به، والاعتقاد لا يتمكن في القلب إلا به، وفوقه الكشف، فإذا نزل المؤمن عن هذين الوصفين، وكان إيمانه بمجرَّد التقليد لأبويه أو لأهل بلده؛ فهو كالميت، ويُوشك أن لا يُفتح باب السماء لروحه بعد موته؛ لعدم انفتاح قلبه، وعدم تنوُّره بالنور الحقيقي، ولو بمقدار السهم.

ثم إن الفيض الذي يُحيى به القلب، ويقال له: الروح أيضًا، إمَّا أن يلقيه الله تعالى بلا واسطة؛ وهو أعزُّ وأندر، وإمَّا أن يلقيه بواسطة ملك من الملائكة كجبريل، فإنه ملك ملوك الأرواح، وروح القدس؛ وهو عزيزٌ ونادرٌ، وإمَّا أن يلقيه بوساطة شيخ من المشايخ الكاملين، ورئيسهم الخضر عليه السلام في الإفاضة والإلقاء؛ وهو كثير شائع، وذلك لأن الصحبة الجسمانية مؤثِّرة، والأخذ من المجانس المصاحب أغلب.

وأمَّا الأخذ من الملك: فيحتاج إلى تنوير المحل؛ لأن الملائكة خُلقوا من نور، فلا بد في الأخذ من المجانسة النورانية.

---

(١) فأول ما ألقاه: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، فكأن الروح هو الملقي إلى قلوب العباد من أمره، ويكون ذلك الروح عين الرسالة، وعين الرسول، وعين المرسل، فارتفعت الوسائط إن كان عين الوحي هو عين الروح، وكان الملقي هو الله لا غيره، فهذا الروح ليس الملك، بل عين المالكة هي الرسالة فافهم.

وعُلم من هذا أن الأخذ من الله أصعب من الأخذ الملكي؛ لأنه نور الأنوار، والنور الشعشاني الخاطف للأبصار، فلا يتيسر للعبد الضعيف المرائي الظلماني المناسبة به إلا بهيئة المحلّ، وهو السرُّ وذلك بتفريقه عمَّا سوى الله تعالى بالكلية، فإنه لن تنكشف الحقائق، والمحل مشغول بشيء من ذلك، ولم يحصل إلا الواحد بعد واحد، فإن أكثر المعارف الدائرة بين السالكين من قبيل لوازم الحقائق نفسها، وإن كان يظن بعض الظّن: إنها من المعارف العالية، وإن أهلها من أكامل الأرواح الطيبة، وأخصِّ خواص الإنسان.

قال الله تعالى: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الأعْمَى وَالْبَصِيرُ**﴾ [غافر:٥٨].

إنما لم يستويا؛ لأن البصير على نور ظاهر من ربه بخلاف الأعمى، وكذا المؤمن والكافر، فإن المؤمن على نور باطن من ربه بخلاف الكافر، وكذا حال المحسن والمسيء والمطيع والعاصي.

والفرق بين المحسن والمطيع أن المحسن أخصَّ لأن باطنه منوَّر بنور الإحسان والشاهدة، فكل محسن مطيع دون العكس، فظهر أن الآية بعبارتها تدلُّ على عدم المساواة بين الأعمى والبصير الحسِّيين، وإشارتها تدلُّ على عدمها بين الأعمى والبصير المعنويين.

وقوله تعالى: ﴿**فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج:٤٦]، يدلُّ على أن أعمى الباطن أشدُّ من أعمى الظاهر؛ بل العمى الباطن لا نسبة بينه، وبين العمى الظاهر إلا من حيث الاشتراك في الاسم، وقد كان بعض الأنبياء عليهم السلام أعمى؛ كشعيب فلم يضرَّه ذلك في كماله؛ لكونه في حكم البصير.

لطيفة:

قد كان لي أخٌ صغيرٌ؛ هو من أخس الناس، وأبخلهم في زمانه مع سعته وثروته، فتوفى فرأيته في المنام؛ كأنه متهيئ للوعظ، فلمَّا رآني عند الكرسي أدبر وقال: إني لا أقدر على الوعظ، وهو حاضر، فقيل لي: إن اسمه يوجد في دفتر العُمي عند السلطان فليتتبع هناك، فلمَّا اطّلعت على ذلك الدفتر؛ وجدت أكثر أسمائه

النساء، فأعرضت عنه، وخطر ببالي قوله تعالى: ﴿**وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى**﴾ [الإسراء:٧٢]؛ يعني أن مَن كان مجبولاً على العمى؛ فلا يفيده العلاج.

وأمَّا العمى العارض: فقد يزول بسبب من الأسباب، وكذلك حال الذي سلك طريق الحق، وكان مطمح نظره ما انتهى إليه نظر الأخصَّاء، فإنه يكشف الله عماه، إما في الدنيا، وإمَّا في الآخرة.

وأمَّا غير السالك: فيبقى على حاله، ونظيره القاعد عن الحج، والخارج له، فإن الخارج الغير الواصل إلى المقصد؛ كان أجره على الله بخلاف القاعد فظهر أن في الحركات مطلقًا بركات كثيرة.

* * *

وفي سورة فصلت

ورد صباح الثلاثاء الرابع عشر من شهر المولد النبوي سنة ثلاثين ومائة وألف قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء﴾ [فصلت:٤٤].

الضمير للقرآن؛ يعني أن الله تعالى هدى مَن استعد للإيمان إلى الإيمان بسبب القران، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]؛ والمقصد هداية الله تعالى بسببه، فوصفه بصفته؛ لقوته في السببية.

وكذا قوله سبحانه: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس:٢]، و﴿الذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:٥٨]؛ فإن الحكيم في الحقيقة؛ هو الله تعالى لكن لَمّا اشتمل القرآن والذكر على حكم الله وحكمه، وحقائق ذاته وصفاته؛ وُصف به.

ثم إن كون القرآن هداية إنما هو في مقابلة الضلالة؛ وهو الخروج عن الطريق المستقيم.

كما أن الهداية هو الدخول فيه، وكونه شفاء؛ إنما هو بالنسبة إلى الأمراض الباطنة؛ كالكفر، والنفاق، والجهل، ونحو ذلك.

فإن المؤمن في أول دخوله في دائرة الإيمان يهتدي إلى الحق، ويتخلّص عن الأمراض المذكورة العائقة له عن الحق، ثم إنه يزداد هداية وشفاء بأن يترقّى إلى مرتبة الإيقان والإحسان والولاية الخاصة الأكملية، ويتخلّص عن التلوينات والحجب الحاصلة في مرتبة الروحانية؛ وهي الحجب الكونية اللطيفة الرقيقة النورانية(١).

---

(١) قال سيدي محمد وفا في المعاريج: واعلم أن الحجب النفسانية والروحانية النورانية والظلمانية ما كثف منها وما لطف راجع إلى أوصاف تلبسها النفوس والأرواح من الأقوال والأعمال، والأحوال، والأفعال، والنيات، والضمائر، والاعتقادات، وهواجس النفوس، وخطرات الأرواح والضمائر، والفكر، والتعقُّل، والتصوُّر، والتذكُّر، والتدبُّر، والعقد، والإصرار، والندم، والأسف، والإنابة، والزُّهد، والصبر، والرِّضا، والحمد، والنظر، والاعتبار، والخشوع، والخضوع، والإسلام، والاستسلام، وحقيقة الإيمان، والإحسان، وتحقيق العرفان، وما يجري مجرى هذه الأوصاف المعنوية، وأن جميع ذلك وصف من اللبس والتحلّي والمساكن والمطالب والمراغب والقصور والحور والولدان، والمقامات الحسان، وعجائب غرائب العطايا الحسان من أنواع النعيم، وأفضال الكريم، =

=

الملك الديان، فالروح لَه العروج والارتقاء وقبول إفاضات الأنوار الرحموتية الكشفية، وتلقيات العلوم اللدنية، وتنـــزلات الروحانية، والفتوحات الربَّانية، وخرق الحُجُب النورانية، واتِّباع الأقدام المحمدية للوصول للدخول والحضور بين يدي الحضرة الإلهية، وتحقيق القرب والمشاهد لجمال الوجهة الربَّانية الصمدانية، والتجريد، والتفريد، والتخلُّق، والتشبُّث، والتعلُّق بأذيال المحمدية؛ لبلوغ المقصود من الإفاضات الرحموتية، والإضاءات النورية لشهود رب البرية لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

وأما حجابيات النفوس فبالعكس مما ذكرناه من المهابط الدركية، والمسالك الظلمية، والمهالك النارية، والمساكن الدنية، والمنازل الحصرية، والمطاعم الزقومية، والمثاوب الحميمية، والملابس النيرانية، والسرابيل القطرانية، جزاء الأعمال الكفرانية، والأعمال الخسرانية، فجزاء الحسنات أنوار روحانية، ولطائف ضيائية، وجزاء السيئات ظلم حجابية، ولبس جسمانية نفسانية نارية كثائف أرضية.

قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين:١٥-١٧].

فأشد عذاب أهل الحجاب الطرد والإقصاء والإبعاد عن باب كرم الله، والإياس من رحمة الله، والوقوع في عين غضب الله، وأدناه الوقوع في عين الجهل بالله، والشرك في العمل لغير الله، والغفلة عن القيام بحقوق الله، والالتفات لمطامع النفوس بالتوجُّه لغير الله، وطلب الرزق من غير الله، وجلب قلوب الآدميين إليه بما لا يرضى الله، والغفلة عن الإنابة بالرجوع إلى الله، والانهماك في طلب الدنيا حرصًا عليها، وجمعها لغير الله، وإكثار ما تدخره النفس لضعفها عن الثقة بالله، فالمتصفون بهذه الصفات محجوبون حجبًا نفسانية دون الحجاب الأول، ولكل وصف منهم عذاب يناسبه كثيف لكثيف، ولطيف للطيف، فحجب النفوس يُعذَّب به الأخسرين الظالمين، والفاسقين الكافرين، وحجب الأرواح ينعهم فيها الصالحون، والشهداء، والصديقون، والأولياء.

فأما الأنبياء والمرسلون فلما كانوا معصومين من الكبائر برءوا من حجابيات النفوس، وأما الصغائر فمن ناله بارقٌ منه، أو لحظة خاطر، أو يسمع لَه لامع، أو سنح لَه خاطر، أو خطر له وهمٌ، أو عدل به فهمٌ، أو وقف عند دعوى، أو شكى نزول بلوى، أو لفت لغير ربه، أو ذهل عن استغفار ذنبه، فإن كل ذلك لطائف حجابيات، تنعم فيها الأرواح في رياض الجنات، مع أنها مشتغلة عن الغرق في لجج بحر التوحيد، ومقام التفريد، وحسناتهم لا تُحصر عددًا، ولا تبلغ مددًا، وسيئاتهم حسنات

=

=

الأبرار أهل اليمين؛ فإنهم المقرَّبون بحضرة رب العالمين.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٨٨-٩٦].

فالأنبياء المرسلون هم خواص المقرَّبين، والأنبياء غير المرسلين مفضولون بالمرسلين، وكل متفاوتون في درج القرب والتكريم، فقريب وأقرب.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فالمقرَّبون من المرسلين والأنبياء والمصطفين والأولياء المجتبين أصحاب قدم صدق وتمكين، ونفوس تشرف على نفوس الخلق أجمعين، فهي تقية نقية، زكية، بهية، شريفة، علية، سنية، قدسية، خالصة عن الشرك، بريئة من الشك، فهي تتصرَّف من الحجابيات، ولا تُحجب بالحجابات، فإن الحُجب النورانية مقامات عليَّات، ومنازل درجات، ومساكن طيبات، ومقاعد صدقيات، فالمقرَّبون حاكمون عليها، وهي حاكمة على من دونهم في المراتب من الأبرار وأهل اليمين، فالأولياء الأبرار تحكم عليهم المقامات، وتتصرَّف فيهم الواردات؛ لضعفهم عن حمل أثقال النبوات، وأعباء الرسالات، وتظلهم أنوار المقامات، وتسلبهم الأحوال بأسرار أثقال الأقوال المنـــزلات.

قال الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

فمن كان ضعيفًا عن حمل ما يتنـــزل، لابسًا صفته البشرية، فهو في حصر المقامات وأحكام الحجابيات، فالجسم لا يطيق حمل تنـــزل اللطائف الجبروتية إلا بواسطة حمل النفس، والنفس لا تستطيع حمل واردات القلب إلا بواسطة شرح الصدر، والصدر لا يطيق حمل واردات الروح إلا بواسطة القلب، والقلب لا يستطيع حمل واردات السر إلا بواسطة الروح، والفؤاد لا يطيق حمل واردات الفيض الإلهي إلا بواسطة قبول السر، والسر لا يقبل مشاهدة الحضرة الإلهية وسماع الكلام الربَّاني إلا بواسطة الرحمة، فالرحمة تنـــزلت بسر الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، فالأسماء حُجب الذات، والصفات حُجب الأسماء، والأفعال حُجب الصفات، فالحجب تحجب بعضها بعضًا، فحجب الأجسام من نسبتها، وحجب الأرواح من نسبتها، فالنفوس الطبيعية مخلوقة عن لطائف طبيعية عنصرية، فالهياكل الجسمانية واللطائف الإنسانية

=

=

حجابيات لها، ومظاهر تظهر فيها بتصريفها من حركاتها وقيامها وقعودها وصلاتها وسعيها ودوائها ودائها، والأجسام اللطيفة حجابيات لا لطف منها، فالنفوس حجابيات الصدور الجبروتية، والصدور حجابيات القلوب الملكوتية، والقلوب حجابيات الأرواح الروحانية، والأرواح حجابيات الأسرار العقلية، والأسرار حجابيات الأفئدة النورية، والأنوار حجابيات الصفات الرحموتية، والصفات الرحموتية حجب أسماء الربوبية، وأسماء الربوبية مظاهر صفة الألوهية، وأسماء الألوهية سماء ذات الصمدانية الأحدية الفردانية، جلّ ربنا وتقدّس عن تشبيه المشبهين، وزيغ الزائغين، ووهم قلوب القوم العمين، وتبارك الله رب العالمين، فتنـــزلات أسماء الألوهية لظهور الربوبية، وتنـــزلات الربوبية لظهور الرحموتية، وتنـــزل الرحموتية لظهور النورية الروحية، وتنـــزل الروحية النورية لظهور الروحانية، وتنـــزل الروحانية لظهور الملكوتية، وتنـــزل الملكوتية لظهور الجبروتية، وتنـــزل الجبروتية لظهور النفسانية، وتنـــزل النفسانية لظهور الجسمانية، وظهور كل حقيقةٍ من سمائها إلى أرضها لظهور تصريفها في عوالمها، فلا يظهر تصريف النفس إلا بواسطة الجسم، ولا يظهر تصريف الصدر إلا بواسطة النفس، ولا يظهر تصريف القلب إلا بواسطة الصدر، ولا يظهر تصريف الروح إلا بواسطة القلب، ولا يظهر تصريف السر إلا بواسطة الروح، ولا يظهر تصريف الفؤاد إلا بواسطة السر، وكل حجب نورانية ونارية، فالحجب السمائية نورانية، والحجب النارية ظلمانية، فالنورانية حجب الأرواح، والنارية حجب النفوس، فالحجب بأسرها ترجع إلى حجابين:

نوريًّا، وناريًّا، والعالم بأسره علويه وسفليه، أرضيه وسمائيه في ضمن هذين الحجابين؛ إذ العالم السفلي بأسره جسمانيًّا ظلمانيًّا.

والعلوي بأسره روحانيًّا نورانيًّا، والإنسان جمع فيه خلاصة العالمين، وحقيقة الكونين، فهو كثيفٌ جسمانيٌّ، ولطيفٌ روحانيٌّ، فلطيفه روحًا لكثيفه، وكثيفه جسمًا للطيفه، فبفضل كثيفه للطيفه تظهر روحانيته، وبظهور روحانيته تبطن جسمانيته، وذلك في يوم قيامته، وتبديل أرضه غير أرضه، وسمائه غير سمائه، وظهور روحانيته وبطون جسمانيته، وفي دار دنياه تظهر جسمانيته وتبطن روحانيته، ولذلك لما كان الإنسان في دار دنياه محجوبًا بحجبٍ شتى نارية ونورانية حُجب عن سماع كلام الله، وعن مشاهدة جمال الله، فإن صفة البشرية حجاب مانع، وحسام للطريق قاطع.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١].

=

=

فالأجسام والنفوس والصدور والقلوب والأرواح والأسرار والأفئدة النورانية كل حجب لله على عباد الله، فالعباد محجوبون بأنفسهم عن مشاهدة ذات الله ﷻ، ويفترقا الحجابان إلى سبع حجب، ثم إلى سبعين، ثم إلى سبعين ألف حجاب من نورٍ وظلمةٍ، وأصلهن حجاب واحد ناري أو نوري، فمن دخل في ميم المحمدية، وحاء الحقيقة الحنيفية، وميم الملكية، ودال الديمومية، وألف الإحاطية، وحاء الأحمدية، وميم الملكية العبدانية، ودال العبودية، زُج زجة تبعية محمدية أحمدية، فخرق الحجب النارية الجسمانية والنورية الروحانية، ولحق بالإمامة المحمدية، والسيادة العبدانية، وتحقق بالخصوصية لسيد البرية إمام الملكية في الروحانية والآدمية في الإنسانية، فكثرة الأعداد في الحجب بكثرة التباس الأوصاف، والوقوف عند أحكام الصفات، فكل وصفٍ تُوصف به النفس حجاب كل صفةٍ تتصف بها الروح حجاب، فالحجب النورانية تجذب الروح للتنعُّم بها، والحجب النارية تجذب النفس لتتنعم بها، في نعيم الروح دون النفس عذاب النفس، وفي نعيم النفس دون الروح حجاب الروح، فنعيم الأرواح رفع الحجب الملكوتية، وكشف الأغطية الروحانية، وإيضاح الدرجات النورانية، وكشف أسرار الآيات الفرقانية، وتبيان العلوم الغيبية، وإيضاح اللطائف الفردوسية، وارتقاء المقامات العلية، وتلقيات العلوم اللدنية، وقبول الإفاضات الرحموتية، والإضاءات العرشية، وكشف الأغطية الحجابية عن البواطن النورية، ومعرفة الأرواح القدسية في العوالم البهائية قبل التنـــزل لمشابكة الجثمانية والبطون عن العوالم الروحانية، والظهور تحت أحكام الصفات البشرية والآدمية الإنسانية، ونعيم النفس دون الروح ببلوغ أغراضها الدنيوية الدنية، ومطالباتها الشهوانية، ولمحالها الدركية، وآمالها البعدية، وأخلاقها الرذيلية، وأعرافها الأخسرية، ومطامعها الأقسامية، وتشوفاتها البهيمية، وكل ذلك بعد عن مقامات الروحانية النورانية، واستغراق في الحجابيات الظلمية، والمؤمنون تحرق أنوار إيمانهم كثائف حجابياتهم، وتخرق سهام أنوارهم حجابيات نفوسهم، فيمرقون من حجابياتهم كما يمرق السهم الثاقب، فتنعم نفوسهم وأجسامهم بتنعم أرواحهم، فتنعم جملتهم نفوسهم وأجسامهم وصدورهم وقلوبهم وأرواحهم وأسرارهم وأفئدتهم ظواهرهم وبواطنهم، كثائفهم ولطائفهم، دقائقهم ورقائقهم وحقائقهم، فينال كل جزءٍ وفردٍ من ذرات أجزائهم الظهارية والبطانية الجسمانية والروحانية أوفى نصيب، وأزكى حظ من أنواع النعيم، فكل رقيقةٍ لحقيقة ودقيقةٍ لرقيقة تشهد في ذاتها من نعم الناعمين ما لم يبلغه أحدٌ من رقائق ذاتها لأحدٍ من العالمين، فتشهد الرقائق في ذواتها ترادف ازدياد النعم في كل زمن فرد متجدد، فترى أن الجنة بأسرها لها، وأن المزيد وارد عليها دون من عداها، وأنه لم يبلغ أحد

=

فإن قلت: فإذا كانت روحانية نورانية؛ فما معنى التخلّص عنها؟.
قلت: أمّا الروح فلا كلام في كونه مخلوقًا كما دلّ ﷺ:
«**أول ما خلق الله روحي**»(١).
والخلق حجاب على وجه الحق بالنسبة إلى الخلق، فإن الله تعالى لا يحتجب إلا بصفاته، فلا حجاب له.

=

في نعيم الجنة ما بلغت، و لم يعط أحد ما أعطيت، فتفوّه بالحمد لله رب العالمين، والثناء والشكر لأكرم الأكرمين. قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].
وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].
وقال: ﴿وَقَالُوا الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ المُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].
فالأبرار أهل اليمين، أدنى نعيمهم اشتغالهم بالتنعُّم في دار النعيم، وأعلاها كشف حجب التنعيم لمشاهدة البر الرحيم، وأما المقرَّبون فدائمون بمحاضرة الوجهة الجمالية، والحقيقة الرحمانية، والذات الصمدانية، والصفة الألوهية، فهم بين حجاب رحماني وكشف لاهوتي رباني، فبكشف الحجاب اللاهوتي يغرقون في بحر الوحدانية، ويفنون عن الأنانية، ويمحون من بين الملكية والإنسانية، فتُمحى آثارهم، وتُطمس أخبارهم، فتحرقهم أنوار اللاهوتية، وتصطلمهم سبحات الربوبية، فيفنون من بين الأكوان، وتستغرقهم حقيقة كان، قال رسول الله ﷺ: «كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان».
وكتب في الذّكر كل شيءٍ حتى الكيس والعجز فمن أحرقته سبحات الوجهة الإلهية، ومحقته أنوار الحقيقة الصمدانية، تحقق بالدخول تحت ظل ميم المحمدية، وشهدت له الحقيقة الربّانية بخصوصية العبدانية.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩].
وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].
وهو تعالى يختص برحمته من يشاء، ويؤتي ملكه من يشاء، ويؤتي الحكمة من يشاء، وما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وهو تعالى الفتّاح العليم، ذو الفضل العظيم، لا إله إلا هو رب العرش الكريم.

(١) لم أقف عليه.

ومعنى الحق: اقتران الوجود بالماهية، فالوجود؛ هو الوجود الأول الذي هو وجود الحق، ولا يعتريه الخلقية؛ وإنما المخلوق هو الماهية؛ وهي تعيُّن خاص بالنسبة إلى ما في علم الله تعالى من الثبوت.

ومن هذا السرِّ قال تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص:٨٨]، فجعل الوجه الذي يلي وجه الحق غير هالك؛ بل الحقيقة الإنسانية جامعة لوجهي الإطلاق والتقييد، فوجه الإطلاق؛ هو وجه عين وجه الحق في الحقيقة، ولولا هذا الوجه؛ ما عُرِف الحق؛ إذ لا مناسبة بين الحق والخلق أبدًا[١].

ومن هنا ورد: «**لا يعرف الله إلا الله**»[٢].

وقالوا: إن البسيط لا يدركه إلا البسيط؛ إذ لا مناسبة بينه، وبين المركب، وعلى هذه فابحث جميع الموجودات، فما من كثيف إلا وله جهة لطافه بها يدركه اللطيف، ومن هنا يدخل الروحاني من الجدار الغير النافذ.

وأمَّا النور فمعنى حجابيته: كونه في مقابلة الظلمة، ولا شك أن ما كان في مقابلة الظلمة؛ فهو في حكم الظلمة، كما أن الوحدة المقابلة لكثرة في حكم الكثرة؛ ولذا لا يُوصف الله تعالى؛ وإنما يُوصف بالوحدة الحقيقية التي هي مبدأ الوحدة الاعتبارية، وكذا لا يُوصف إلا بالنور الذي هو مبدأ النور المقابل للظلمة؛ وهو النور الذاتي الأصلي الحقيقي الذي أُشير إليه بلا ليل ولا نهار؛ لأن النهار المقابل الليل؛ هو النهار العارض، والنور الطارئ.

وما يُقال: إن الله تعالى يتجلَّى في ليلة القدر؛ فالمراد به النور الذاتي الذي ليس

---

(١) فكل شيء موجود نشاهده حسيًّا، ونعلمه عقلاً، وليس بهالك، فكل شيء بوجهه ووجه الشيء حقيقته، فما في الوجود إلا الله، وإن تنوعت الصور، وذلك أحكام التجلي لا المتجلّي؛ فإنَّه ورد في الحديث أنه يتنوع فيعرف وينكر؛ لأنه كل يومٍ هو في شأن، فنكر للعموم والشمول، فذلك قال (له الحكم وإليه ترجعون): أي مَن يعتقد أنَّ كل شيءٍ جعلناه هالكًا، وما عرف ما قصدناه من الآية إذا رآه ما يهلك منه، ويرى بقاء عينه بالهلاك، فهو وجهي، فعلم أن الأشياء ليست غير وجهي، فإنها لا تهلك، فردها إلَيَّ حكمًا.

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (١/٢٦٤).

في مقابلة الظلمة، فنور ليلة القدر؛ نور ذاتي أصلي حقيقي لا يُقاس عليه إلا نور الصفاتية، ومن نور القمر والكوكب ونحو ذلك، فإذا عرفت هذا؛ فاجتهد ألا يكون نورك نورًا آفلاً حاصلاً من بعض التجليَّات الصفاتية؛ بل نورًا ثابتًا باقيًا دائمًا حاصلاً من التجليَّات الذاتية، والله الهادي إلى نوره.

قولهم:

تعلّم يا فتى، فالجهل عار

صرح بالفتوة؛ لأن المتعلّم أيَّاما كان شابًا أو شيخًا، إذا كان من أهل الفتوة؛ فهو لا يستحيي أن يأخذ العلم ممن هو أعلى منه وأدنى.

دلّ عليه قوله ﷺ: «**الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها**»(١)؛ لأنه ﷺ لم يشترط أينا واحدًا متعينًا للأخذ إذا كانت مشتملة على الحكمة؛ وهو العلم، وأكثر ما يطلق على باطن العلم؛ وهو الوقوف على حقائق الأشياء كما هي(٢).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [البقرة:٢٦٩]، وما كثره الله تعالى لا يدخله قلة وامتن على نبيِّه وخليفته داود ، وعلى نبيِّنا ﷺ بأن أتاه الحكمة وفصل الخطاب، وهو من ثمرة الحكمة أو الحكمة نفسها، وهو إيجاز البيان في موطن الإطناب والإسهاب في الآخر على ما يقتضيه المقام والحال، وأوتي صاحب جمع الجمع ﷺ ما لم يؤتوا وهو صدق قوله: «**أُوتيت جوامع الكلم**» وهو من أكبر فصول الخطاب جزء من أجزاء هذا الكتاب.

وعلى لسان رتبته ﷺ قال وليٌّ من أوليائه: «يا معشر الأنبياء أوتيتم اللقب، وأوتينا ما لم تؤتوا».

ذكره في «**الفتوحات**» عن قطب وقته وفرد عصره عبد القادر الجيلاني قُدِّس سرُّه.

والحكمة علمٌ خاص والفرق بين الحكمة والعلم المطلق أن لها الجعل والتحكم بخلاف العلم فإنه تابع المعلوم، فالحكيم مَنْ قامت به الحكمة فكان الحكم لها.

قال تعالى إشارةً إلى هذا المقام: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:١٢]؛ لأنها مقتضى الحكمة.

قال الشيخ الأكبر في الاسم الحكيم: إنَّ العارف يقدم الحكيم على العليم، فالحكيم خصوص والعليم عموم، ولذلك ما كل عليم انتهى كلامه .

وذلك لأنه ثبت عند أهل الكشف الأتم والتحقيق الأوسع الأعم أن الترتيب ثابت في الأعيان الثابتة في الحال بثبوتها في معدنها، وتعلق العلم الإلهي بحسب ما هي مرتبته، وما ترتبت إلا بالحكمة؛ لأنه ما

=

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان:١٢].

يشتمل على كل من الحكمة الطيبة، والحكمة الإلهية الذوقية، فالإعراض عن ملك سلميان ﷺ كما يفهم من كلمات المشايخ؛ ليس كالإعراض عن حكمة لقمان عليه السلام، فإن الملك من قبيل ما سوى الله، وكل ما سوى الله؛ فهو مخلوق، فلا يصحُّ للتعلُّق به إلا بتحميل الله تعالى؛ كالتحبيب في قوله ﷺ:

«حُبِّب إليَّ من دنياكم ثلاث... إلخ»[1].

وأمَّا العلم مطلقًا؛ فهو صفة شريفة إلهية، فلا معنى للإعراض عنه حتى قيل في قولهم: العلم حجاب، إن معناه إن العلم حجاب عن الجهل، فليتنافس فيه المتنافسون، فالقائل بخلافه جاهل عار عن الكلية الإنسانية الكمالية.

ثم إن النبي ﷺ إنما حرَّض على أخذ العلم من جميع الأينيَّات؛ لأن العلم والتجلِّي الأحدي والنفس الرحماني واحد عند علماء الحقيقة، فالكل من شأنه العلم؛ كما أنه من شأنه نفخ الروح.

=

من ممكن مضاف إلى ممكن أحوالاً ويمكن إضافته إلى ممكن آخر لنفسه مع قطع النظر عن أمرٍ آخر، لكن الحكمة اقتضت هكذا وهو ذاتيٌّ لها، والظاهر في العالم الشهادي ظلٌّ ذلك العالم المعنوي على ترتيبه.

وقال الشيخ رضي الله عنه: هذا هو العلم الذي انفرد به الحق، وجهل منه فافهم، فظهرت به الحكم في الوجود بالوجود على ترتيب أعيان الممكنات في حال ثبوتها قبل وجودها روحًا وصورةً، فبان لك الفرقان بين العلمَين العلم والحكمة.

قال الحكيم العليم: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق:٢٩]؛ لأنه مخالف الحكمة وهي تأبى التبدُّل الخارج بخلاف النسخ فإنه من الحكمة البالغة.

قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة:١٠٦] فافهم.

فالعلم بالحكمة المنـــزلة تخفيفًا أو تثقيلاً إمَّا بكشف سبحات الوجه حتى يرى ما في العين الثابتة، فإنها حكم مرتبة من حكيم عليمٍ، هذا الإنسان عين صفاء خلاصة الخاصة، وامَّا ما يكشف الغطاء عن البصر والبصيرة، أو بتعريفٍ إلهي حتى يرى أو يعلم ما في الوجود من الحكم المرتبة ترتيب عليمٍ حكيمٍ.

(١) تقدم تخريجه.

فإن قلت: إذا كان أهل العلم مطلقًا ممَن يليق أن يؤخذ منه؛ فلِم لا يقتدي إلا بأهل العمل، ومَن يرعى أدب الشريعة، قلت: عموم التجلّي بالعلم اقتضى الأخذ الكل؛ لشرفه وفضله، وهو لا يقتضي الزيغ والانحراف عن الصراط السوي بخلاف العمل، فإنه حجر عن متابعة مَن لم يعمل بعلمه رسميًا أو حقيقيًا حتى أنه المجذوب، إذا لم يكن له أدب الشريعة لا يُقتدى به، وإن كان من أهل الحال؛ فإذا حُجر عن اتِّباع مثل هذا.

فكيف الحال في الذي لا علم له، ولا أدب له، ولا حال، وقد امتلأت الدنيا في عصرنا هذا بأهل الجهل والمكر والاستدراج؛ فهذا مرض لا يقبل المداواة والعلاج؛ لأن النهاية عادت إلى البداية، وكاد يقرب التجلّي أن يُردَّ إلى أصله.

ومن علاماته؛ نزول عيسى؛ فإنه الفجر الأول ليوم القيامة، وطلوع الشمس من مغربها؛ فإنه الفجر الثاني له.

أعاذنا الله وإياكم من الشرور، والفتن، وخفف عنا أحمال البلايا والمحن.

فإن قلت: ما معنى التكليف؟ قلت: إزالة الإطلاق.

فإن قلت: ما معنى إزالة الإطلاق؟ وقد قال تعالى عن لسان هود عليه السلام:

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود:٥٦].

قلت: ذلك لسان الإطلاق العام من حيث العلم الشامل، وذلك لا يوجب العمل.

ألا ترى أن اليد اليمنى أقوى من اليد اليسرى مع اجتماعهما في محلٍّ واحد؛ وهو الكتف، والعنق، والوجه أفضل منهما مع اتصاله بالعنق، فهذا التفاوت في الأعضاء الأنفسية يُشعر بالتفاوت في القوى الآفاقية، فإذا حجرك الله عن شيء؛ فاجتنب عنه، فإنه وإن كان من قبيل التضييق في الصورة لكنه من قبيل توسعة التجلّي في المعنى؛ لأن القائم مع أمر الله قائم مع الله، والقائم مع الله؛ هو المتجلّي بكل اسم من الأسماء الداخلة تحته بخلاف القائم مع غير الله، فاعلم ذلك وأيضًا.

فاعلم أن العلم المرغب في تحصيله وأخذه، إنما هو العلم الموافق للحق، والحق أحق أن يُتبع به، وأمَّا غيره فمهجور جدًا، ونحوه من العلوم التي ليست نتيجة التقوى، والعمل الصالح، فتنبّه ذلك.

قولهم: مَن تعطَّل أيام التحصيل؛ تحصَّل أيام التعطيل، هذا بالنسبة إلى حالة الدنيا، فإنه ما دام البقاء فيها؛ فإنه يُرجى للطالب تلافي ما فات، إلا أن يكون بالفاء إلى أرذل العمر، وزمان العنه والفند، فإنه إذا لم يساعد الأسباب والآلات؛ فكيف يتحصَّل الملكات.

ألا ترى إلى قولهم:من فقد حسًّا؛ فقد فقدَ علمًا فقدان حسٍّ من الحواس إذا كان سببًا لفقدان علم من العلوم، جميع الحواس يوجب فقدان جميع العلوم، نعم إن شباب الزمان أعون على تحصيل المرام من زمان الكهولة والشيخوخة.

ومن هنا ورد: «**العلم في الصغر؛ كالنقش في الحجر**»[1]؛ وذلك لاجتماع الحواس والقوى إذ ذاك.

وقد صحَّ إن بعضهم تحصَّل في أيام الشيخوخة أيضًا؛ لاعتدال مزاجهم، واجتماع قُواهم سواء كان المتحصِّل من قبيل الرسوم كما وقع للإمام القُدروي، وأبي بكر الفضل الشاشي، أو من قبيل الحقائق كما وقع للجارية البصْرية وغيرها.

وإمَّا بالنظر إلى حال الآخرة؛ فكل كمال لم يحصل في الدنيا؛ لم يحصل في الآخرة؛ لمضي زمان التكليف والكسب، إلا أن يكون الكمال الغير الحاصل لَمن سلك، ولم يُكمَل له الأمر بعد؛ فإنه من أهل الترقِّي في جميع المواطن، فالابتداء إذا كان على السلوك والخروج من بيت الطبيعة؛ فالانتهاء على الترقِّي، فإن الأجر واقع على الله، والله لا يضيع أجر المحسنين، والرحمن ما عنده حرمان، جعلنا الله وإياكم من الواصلين.

* * *

(١) رواه البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١/٣٧٥)، وذكره العجلوني في الخفا (٢/٨٥).

وفي سورة الشورى

قال الله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

اعلم أن أمر الوجود دائرة واحدة؛ لكن جُعلت نصفين باعتبار الوجوب والإمكان، فقوله: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) إشارة إلى النصف الوجوبي[(١)].

وقوله: (السَّمِيعُ البَصِيرُ) إشارة إلى النصف الإمكاني.

والنصف الأول: كتاب الوجود الحقيقي الذي آياته محكمات بلا متشابهات؛ لأنه كتاب الغيب، واللا تعيُّن، والإطلاق.

والنصف الثاني: كتاب الوجود الظلّي الذي آياته متشابهات بلا محكمات؛ لأنه كتاب التجلّي، والتعيُّن، والتقيُّد؛ فهما بحران بينهما برزخ لا يبغيان، فلا يبقى بحر الوجوب والمحكمات على بحر الإمكان والمتشابهات برفع حكمه، واعتباره، وإلا لبطلت الحقائق ومراتب الأسماء والصفات، وكذا لا يبقى بحر الإمكان والمتشابهات على بحر الوجوب والمحكمات برفع تأثيره، وفعله، وإلا انقلبت الحقائق والأعيان.

فالربُّ لا يكون عبدًا، كما أن العبد لا يكون الربَّ أبدًا، وإنما يظهر سرُّ

---

(١) قال سيدي علي وفا: اسمع: إن قيل لك المثل بكسر الميم وسكون الثاء وبفتح الميم والثاء واحد، فكيف الجمع بين قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وبين قوله: ﴿وَلِلَّهِ المَثَلُ الأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠] وبين قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور: ٣٥]؟.

فقل: وما توفيق العبد إلا بالله سيده ومولاه: إن كانا واحدًا لغةً فالمثل قد أُثبت للحقيقة التي هي الهوية بقوله: ﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى﴾ [الروم: ٢٧]، ولاسم الجلالة بقوله: ﴿وَلِلَّهِ المَثَلُ الأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، ولنور الله بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ [النور: ٣٥].

ونُفي عن مثل الهوية بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وأثبت المثل للنور بقوله: (مثل نوره) هذا المشكاة أمرٌ وهميٌّ ليس غير؛ لأنه في الحس فراغ متوهم وخلاء، والخلاء ثابت وهمًا فقط، فهو في الحس والكون لا شيء، فلا يلزم من كونه كائنًا أن يكون ذلك الأمر شيئًا. وإنما قال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور: ٣٥]؛ ليثبت أنه ليس له مثل حقيقي؛ إذ الظاهر منه في المظاهر هو بالحقيقة، ومثاله بالوهم ليس إلا كالذي تراه منك بواسطة المرايا الصقيلة، ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ [النور: ٣٥]: أي يبين الله الأمثال للناس، فافهم.

الوجوب في مرآة الإمكان؛ ليحصل كمال الاستجلاء، فكون الإمكان مرآة الوجود، وكذا كون الوجود مرآة أحوال الأعيان؛ لا يوجب الانقلاب والاستحالة؛ لأن العين واحدة، والنسب مختلفة، فإذا غلب الفناء؛ ظهر سرُّ الوجود الباطني، وإذا غلب البقاء؛ ظهر سرُّ الوجود الظاهري؛ لأنه هو الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، وأول بحر الإمكان من حيث اعتبار الكون؛ وهو الوجود العيني القلم الأعلى، والعقل الأول؛ وهو بحر العماء الكوني الذي هو مبدأ الكثرة بالفعل؛ ولذا يقال له: بحر العماء الصفاتي التفصيلي، كما أن ما قبله؛ هو بحر العماء الذاتي الإجمالي الذي هو مبدأ الكثرة بالقوة.

فالأول؛ كبدن الشجرة، والثاني؛ كالنواة، فوحدة بدن الشجرة وحدة اعتبارية إضافية، ووحدة النواة وحدة حقيقية أصلية.

ولمَّا كان أمر الوجود دوريًا لا خطيًا؛ ظهر النواة في صورة الشجرة، والأغصان والأوراق، والثمرة، وكان الانتهاء إلى النواة، فعاد الأخر على الأول مع كمال الظهور في المراتب، فكما أن النواة؛ وهي الغيب والمحكم لا تأويل فيها أصلاً؛ فكذا الشجرة بجميع ما تشمل عليه لا تأويل فيها أصلاً؛ لأنها شهادة ومتشابه معتبرة في مقامها على حدِّها، وعلى هذا فجميع المراتب من القلم الأعلى إلى آخر المولّدات، ومرتبة الإنسان لا تحتاج إلى التأويل؛ لأنها حقائق لا مجازات، وإنما يُقال لها: مجازات باعتبار إنها محلُّ الجواز، والعبور إلى الأسماء، والصفات، والذات.

فكما أن القرآن الفعلي برئ عن ذلك التأويل؛ فكذا القرآن القولي.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]؛ معناه[1]:

---

(١) قال الشريف الرضي: فبين العلماء فيه اختلاف: فمنهُم مَنَ جعلَ الوقف عند اسم الله تعالىٰ واستأنف قوله سبحانه: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾، فمَنْ ذهبَ إلى هذا المذهبْ منهم يُخرج العلماء عن أن يعلموا كُنْه التأويل وحقيقته، ويطّلعوا طلعه ويستنْبطوا غوامضُه، ويستخرجوا كوامِنُه، وحطّهم بذلك عن رتبة قد استحقوا الإيفاء عليها واطّلاع شرفها، لأنّ الله سبحانه قد أعطاهم من نهج السبيل وضياء الدليل ما يفتتحون به المبهم ويصدعون المظلم، وكل ذلك بتوفيق الله إيّاهم ونصب منار الأدلة لهم، فعلمهم بذلك مستمدٌ من علم الله سبحانه، فلا =

=

معنى للوقوف بهم دون هذه المنــزلة، والإحجام عن إيصالهم إلى أقصى هذه الرتبة.

وأمّــا الذين يجعلون الوقف عند قوله تعالى: ﴿وما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ فيوفّون الاســتثناء حقّــه بإدخــال العلماء فيه، ويجعلون لهم مَزْية العلم بتأويل القرآن، ومعرفة مداخله ومخارجه، وسلوك محاجّه ومناهجه، وهذا القول مرويٌّ عن ابن عباس ومجاهد والربيع.

فأمّــا المحققون من العلماء فيقفون في ذلك على منــزلةٍ وسطى وطريقةٍ مُثْلى، فلا يخرجون العلماء هاهــنا عنْ أنْ يعلموا شيئًا من تأويل القرآن جملةً، ولا يعطونهم منــزلة العلم بجميعه، والاستيلاء على قليلهِ وكثيرهِ، بل يقولون: إنّ في التأويل ما يعلمه العلماء، وفيه ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى، من نحــو تعيين الصغيرة ووقت الساعة، وما بيننا وبينها من المدة، ومقادير الجزاء على الأعمال، وما أشبه ذلك.

وهذا قول جماعةٍ من متقدمي العلماء: منهم الحسن البصري وغيره، وإليه ذهب أبو عليّ الجُبّائيّ؛ لأنّه يجعل المراد بالتأويل في هذه الآية مصائر الأمور وعواقبها، كقوله تعالى: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ**﴾ [الأعراف:٥٣]: أي مصيره وعاقبته؛ لأنّ أصل التأويل من قولهم: آل يئول، إذا رجع، ومّما يؤكّد ذلك أن مجاهدًا قال في قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾ [النساء:٥٩]: إنّه سبحانه أراد بالتأويل هاهنا الجزاء على الأعمال، فهذا المعنى يلامح ما نحنُ في ذكرِه؛ لأنّ الجزاء إنّما هو الشيء الذي آلوا إليه وحصلوا عليه.

وقد قيل أيضًا: إنّ المراد: وما يعلم تأويله على التفصيل إلا الله تعالى، أو لا يعلم تأويله بعينهِ إلا الله؛ لأن كثيرًا من المتشابه يحتمل الوجوه الكثيرة، وكلّها غير خارجٍ عن أدلة العقول، فيذكر المتأولون جميعها، ولا يقع القطع منهم على مراد الله تعالى بعينه منها، ولايعلم ذلك إلا الله؛ لأن الذي يلزم المكلــف مــن ذلك أن يعلم في الجملة أنّه سبحانه لم يردْ ما يخالف أدلة العقول، ولأنّه ليس من تكليفنا أنْ نعلم أنّ المراد من ذلك بعينهِ، وإن كان العلماء يعلمونُه على الجملة وعلى الوجه الذي يمكن أن يعلم عليه.

وفي قــول الراسخين في العلم: ﴿**آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا**﴾ [آل عمران:٧] دلالة على استسلامهم فــيما لم يعلموا من تأويل المتشابه، وما استبدّ الله بعلمه من قبيل ما ذكرنا: كوقت القيامة وتميز الصّــغائر من الكبائر، إلى ما أشبه ذلك، فقد بان أنّ في تأويل المتشابه ما لا يعلمونه، وإن كانوا يعلمون كثيرًا منه، وقال قاضي القضاة أبو الحسن بعد ذكره طرفًا من الخلاف في هذه الآية : "وما يقوله من حمل العطف على حقيقته وجعل للعلماء نصيبًا من علم التأويل على تفصيله أو جملته إمّا

=

=

أنْ يكون المراد بذلك عنده: وما يعلم تأويله إلا الله وإلا الراسخون في العلم، ومع علمهم بتأويله ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾، أو يكون المراد أنّهم يعلمون تأويله في حال قولهم: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾، ومَنْ قال بذلك استدلّ بظاهر العطف، وأنّه يقتضي مشاركة الثاني للأول فيما وُصِفَ به الأول وأُخْبِرَ به عنّه، وقال: إذا أمكن ذلك وأمكن حمل قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ على الحال أو على خبرٍ ثانٍ وَجبَ القول بذلك، ولِكلا الوجهين مسرحٌ في طريق اللغة، وإنّما ينبغي أنْ ننظر من جهة المعنى، فإنْ ثبتَ بالدليل صحة أحد المعنيين قُضِيَ به، وإلاّ لم يُمْتنع أنْ يرادا جميعًا إذا لم يقع بينهما تنافٍ".

قلت أنا: وهذه طريقةٌ لأبي علي فيما ورد من القراءات متغايرًا فإنّه يقول: "إذا كان يمكن حَمْل الكلام على القراءتين المختلفتين فإنّهما جميعًا مرادتان، إذا صحّت القراءة بهما جميعًا، نظير ذلك قوله سبحانه: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف:٨٦]، وقد قُرِئَ (حامية)، فيقول: إنّه يجب أن تكون العين على الصفتين معًا، فتكون حمئة من الحمأة، وحامية من الحمْي، فتكون هناك حرارة وحمأة، وإلاّ كان يجب ألاّ تجوز إحدى القراءتين؛ لأنّ من أصله أنّ كل كلامٍ احْتمل حقيقتين و لم يكن هناك دَلالة على أنّ المراد به إحدى الحقيقتين دون الأُخرى فواجب حمل الكلام عليهما جميعًا حتى يكونَا مرادين بذلك، ومتى لم يكن حمل الكلام عليهما جميعًا فلا بُد من أنْ يُبيّن الله تعالى مراده منهما بدلالة، وإلا خرج من أنْ يكون فيه فائدةٌ.

فأمّا من قرأ حمئة من الحمأة، فإني قرأت بذلك على شيوخ القراءة لابن كثير ونافع وأبي عمرو وحفص عن عاصم، وأمّا من قرأ حامية من الحمْي فإني قرأت به لحمزة والكسائي وأبي بكر بن عياش عن عاصم وعبد الله بن عامر، وقد ظن بعض الناس أنه لا يجوز إلاّ أنْ يكون تمام الكلام ومقطعه عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]، وأن الواو للاستقبال دون الجمع، قال: "لأنّها لو كانت للجمع لقال: ويقولون آمنا به فيستأنف الواو كما استأنف الخبر"، واحتج على هذا القول مَنْ قال بالقول الأول، بأن قال: "هذا جائز، وقد وُجد مثله في القرآن وهو قوله تعالى في معنى قسم الفيء: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر:٧]، ثم أعقب ذلك بالتفصيل وتسمية من يستحق هذا الفيء، فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ

=

=

وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمان مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾ [الحشر:٨،٩،١٠]، وهؤلاء لا شك داخلون في مستحقي الفيء كالأولين، والواو هاهنا للجمع، ثم قال سبحانه: ﴿يقولون رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾ [الحشر:١٠]، ومعناه قائلين: ربنا اغفر لنا ولإخواننا، فكذلك قوله سبحانه: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ يكون معناه: والراسخون في العلم يعلمون تأويل ما نصبت لهم عليه الدلائل، ونحيت لهم إليه المذاهب من المتشابه قائلين: آمنا به، ومن الشاهد على ذلك قول يزيد بن مفرّغ الحميري لما سامه عبّاد بن زياد أن يبيع عبده بردًا في دَين لزمه، وحديثه في هذه القصة طويلٌ، وهو بعد مستفيضٌ:

وشَريتُ بردًا ليتني ... من بعدِ بردٍ كنتُ هامهْ
فالرِّيحُ تبكي شَجْوَهَا ... والبرقُ يلمعُ في الغمامهْ

وقوله: "وشريت" يريد: وبعتُ، وهو من الأضداد، وقوله: "والبرق يلمع" يريد والبرق أيضًا يبكي شجوه لا معًا في الغمامة: أي في حال لمعانه، ولولا أن المراد هذا لما كان لقوله: "والبرق يلمع في الغمامة اتصالٌ بقوله: فالريح تبكي شجوها، بل كان بعيدًا منه قصيًّا وغريبًا أجنبيًّا.

واذا كان ذلك سائغًا في اللغة وجب حمله على موافقة دلالة الآية في وجوب ردّ المتشابه إلى المحكم، فيعلم الراسخون في العلم تأويله إذا استدلوا بالمحكم على معناه، ولو كان العلماء لا يعلمون شيئًا من تأويل المتشابه ألبتّة ما كان لما روي أن رسول الله ﷺ علّم أمير المؤمنين عليه السلام التفسير معنًى، لأن معنى التفسير والتأويل إنما يكون لما غمض ودقّ ولم يعلم بظاهره، وهذه صفة المتشابه، وأمّا المحكم الذي يعلم بظاهره فلا حاجة بأحدٍ إلى تعليمه؛ لأن أهل اللسان فيه سواءٌ، ولولا أن الأمر على ذلك لما كان لدعاء النبي ﷺ لابن عباس بأن يعلمه الله التأويل معنًى؛ لأنا نعلم أنه لم يرد عليه السلام تعليمه الظاهر الواضح، فلم يبق إلا الغامض الباطن.

ومن وجه آخر: أن حقيقة الواو الجمع، فوجب حملها على سنن حقيقتها ومقتضاها، ولا يجوز حملها على الابتداء إلا بدلالة، ولا دلالة هاهنا توجب صرفها عن الحقيقة، فوجب حملها على الجمع، حتى تقوم الدلالة، وكان أبو حاتم السجستاني يقول: "إن الوقف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]؛ لأنه قد حذف من الكلام أمّا، وكأنه تعالى قال: وأما الراسخون في العلم فيقولون آمنا به، وزعم أنه إنما جاز حذفها؛ لأنه قد جرى ذكرها وهو قوله تعالى:

=

مايؤول إليه من الحقائق، فإن ذلك محتاج إلى الكشف الصحيح، ومن ذلك يعلم أن علماء الرسوم أساءوا الأدب فيما حاولوا من التأويلات الزائغة؛ وإنما عليهم أن يضيفوا الأمر إلى الله، فإنه يعلم تأويله، وكذا الراسخون في العلم بقدر ما علمهم الله تعالى، فالله تعالى هو السميع باعتبار كونه رب العالمين، وكذا سائر النعوت الكونية؛ فإن الله تعالى يتّصف بها كلّها في بحر العماء الكوني، وهو: ليس كمثله شيء باعتبار غناه الذاتي، وقُدسه، ونزاهته؛ فهو تعالى مرئي، ومشهود بالاعتبار الأول، وغير مرئي مشهود بالاعتبار الثاني، إذ لابد للشهود من مثالي، ولا مثال فوق التجلّي العيني.

نعم! إن الله تعالى يُدرَك في مرتبة تجريد التوحيد والتفريد؛ لكن بوساطة الإطلاق الذي هو أحد وجهي الحقيقة الإنسانية؛ لأنه هو الجهة الجامعة بينهما؛ إذ الواحد المطلق بالإطلاق الحقيقي لا يراه إلا الواحد، كذلك فإن عين الكثرة لا تنظر إلى الوحدة، وكذا عين التقييد لا تُدرك المطلق، ومن ثم يُقال: إن المانع لإدراك العين في الدنيا؛ هو قيدها حتى أن الله تعالى لو رفع قيدها؛ لأمكن الإدراك.

=

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧]، قال: و(أما) لا تكاد تجيء في القرآن مفردة حتى تثنى أو تثلث أو تُزاد على ذلك، كقوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ [الضحى:٩]، ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ [الضحى:١٠]، وكقوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ [الكهف:٧٩]، ﴿وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ [الكهف:٨٠]، ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ﴾ [الكهف:٨٢]، فلما قال سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران:٧]، قدّرنا أنّ "أمّا" مرادة مع (الراسخين في العلم)، فكأنه تعالى قال: وأما الراسخون في العلم.

وكلام أبي حاتم في ذلك غير سديد ولا مطرد؛ لأنه قدّر في الكلام حذف (أمّا)، وذكر أنها تقع في القرآن كثيرًا مكررةً، ولعمرى إن الأمر كما قال من وقوعها مكررة في القرآن، وما علمناها جاءت فيه مرادةً محذوفةً، وكان ينبغي أن يُرينا من القرآن موضعًا هي فيه مرادة وقد حذفت ليكون شاهدًا على ما ذكره، فأما أن يستشهد بتكريرها على حذفها فذلك غير مستقيم، ولو كان الأمر على ما قال لكان وجه الكلام أن يقول تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران:٧]. وانظر: حقائق التأويل (ص١٦٦) بتحقيقنا.

كما يُعلم ذلك: من أنه ﷺ كان يرى في الصلاة من خلفه(١) لوقوع المحاذاة

---

(١) **قلت**: كان ﷺ يبصر من خلفه كما كان يبصر من أمامه.

وأخرج مالك في الموطأ في العمل في جامع الصلاة وأحمد والشيخان عن أبي هريرة مرفوعًا: «أَتَرَوْن»، وفي رواية قال: «هَلْ تَرَوْن قِبْلَتِي هَا هُنَا -: أي مقابلتي ومواجهتي في جهة القبلة فقط - فَوَاللَّهِ مَا يَخْفَى عليَّ خُشُوعُكُمْ وَلا رُكُوعُكُمْ، إِنِّي لأَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي».

وأخرج مسلم واللفظة له النسائي وابن خزيمة في صحيحه عنه أيضًا قال: «صلّى بنا رسول الله ﷺ يومًا ثم انصرف فقال: يا فلان ألا تحسن صلاتك، ألا ينظر المصلي إذا صلى كيف يصلي، فإنما يصلي لنفسه، إني والله لأبصر من وراء كما أبصر من بين يدي، ولفظ ابن خزيمة في آخره: «إنكم ترون أني لا أراكم: أي والله لأرى من خلف ظهري كما أرى من بين يدى».

وأخرج عبد الرزاق في جامعه والحاكم في المستدرك، وأبو نعيم من حديثه أيضًا مرفوعًا: «إني لأنظر إلى ما ورائي كما أنظر إلى ما بين يدي».

وأخرج أحمد وعبد الرزاق بسندٍ صحيحٍ من حديثه أيضًا: «والذي نفسي بيده إني لأنظر - زاد في رواية في الصلاة - إلى من ورائي، كما أنظر إلى من بين يدي فسوا صفوفكم، وأحسنوا ركوعكم وسجودكم». وفي رواية لأحمد: «إني أنظر - أو قال: إني لأنظر - ما ورائي كما أنظر ما بين يدي..» الحديث.

وأخرج أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا: «إني أراكم من وراء ظهري».

وأخرج أحمد والشيخان والنسائي عن أنس مرفوعًا: «أَتِمُّوا الرُّكُوع وَالسُّجُودَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه إِنِّي لأَرَاكُمْ مِنْ بَعْدِ ظَهْرِي إِذَا مَا رَكَعْتُمْ وَإِذَا مَا سَجَدْتُمْ» هكذا ذكره السيوطي في الجامع عازيًا له لمن ذكر.

وقد أخرجه البخاري في مواضع منها في باب الخشوع في الصلاة ولفظه فيه وهو لمسلم أيضًا: «أقيموا الركوع والسجود فوالله إني لأراكم من بعدي»، وربما قال: «من بعد ظهري إذا ركعتم وإذا سجدتم».

ومنها في باب عظة الإمام الناس في إتمام الصلاة، وذكر القبلة، ولفظه فيه عن أنس بن مالك قال: صلّى بنا النبي ﷺ صلاةً ثم رقى المنبر فقال في الصلاة وفي الركوع: «إني لأراكم من ورائي كما أراكم يعني من أمامي».

ومنها في باب إقبال الإمام على الناس عند تسوية الصفوف ولفظه فيه حدَّثنا أنس قال: أقيمت الصلاة فأقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: «أقيموا صفوفكم وتراصوا فإني أراكم من وراء ظهري».

وقد عزى في الجمع هذا اللفظ للبخاري والنسائي، وابن حبان في صحيحه عن أنس.

ومنها في الترجمة قبل هذه ولفظه فيها: «أقيموا الصفوف فإني أراكم خلف ظهرى».

=

=

وأخرجه أيضًا مسلم في الصلاة بألفاظ منها قوله عن أنس أن نبي الله ﷺ قال: «أتموا الركوع والسجود، فوالله إني لأراكم من بعد ظهري إذا ما ركعتم وإذا ما سجدتم». قال: وفي حديث سعيد: «إذا ركعتم وسجدتم».

ومنها قوله عن أنس قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، فلما قضى الصلاة أقبل علينا بوجهه فقال: «أيها الناس إني إمامكم فلا تسبقوني بالركوع، ولا بالسجود، ولا بالقيام، ولا بالانصراف، فإني أراكم أمامي ومن خلفي. ثم قال: والذي نفس محمد بيده لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيرًا، قالوا: وما رأيت يا رسول الله، قال: رأيت الجنة والنار».

رؤيته عليه السلام لأصحابه من وراء ظهره رؤية حقيقية، ثم الرؤية المذكورة في هذه الأحاديث مذهب الجمهور، وهو الصواب المختار أنها على ظاهرها، وأنها رؤية حقيقية، وإدراكٌ حقيقيٌّ، اختص به ﷺ، انخرقت له فيه العادة، وعلى هذا عمل البخاري، فإنه أخرج هذا الحديث في علامات النبوة، وكذا نقل عن أحمد وغيره خلافًا لمن حمل الرؤية فيه على الرؤية القلبية، وهي رؤية البصيرة، وإن صح أو على العلم إما بوحي بأن يوحى إليه كيفية فعلهم، وإما بإلهامٍ بأن يلهمه الله تعالى حالتهم وهيأتهم، فإن ذلك بخلاف ما تظاهرت عليه الظواهر التي لا يحيلها عقل، ولا يعارضها شرع، ولو كان المراد العلم لم يقيد بقوله: (من وراء ظهري).

ومنهم من حملها على أنه كان يلتفت يمينًا وشمالاً التفاتًا يسيرًا، لا يلوي فيه عنقه، يدرك به حال من وراءه، ولا يخفى ما فيه من التكلف والعدول عن الظاهر بلا موجبٍ مع ما فيه من ارتكاب ما لا يليق بالمقام، وقد أنكره أحمد على قائله، والظاهر أنها كانت من غير عضو ولا مقابلة، ولا شيء مما جرت به العادة بناء على مذهب أهل الحق، وهم أهل السُّنة من أن الرؤية لا يشترط لها عقلاً عضو مخصوص، ولا مقابلة، ولا شعاع، ولا تتوقف على ضوءٍ، ولا على قربٍ، كما لا تتوقف على الآلة المخصوصة التي هي العين، وإنما هذه أمورٌ عاديةٌ يجوز عقلاً حصول الإدراك مع عدمها، ولذا حكموا بجواز رؤية الله تعالى في الدار الآخرة، خلافًا لأهل البدع بوقوفهم مع العادة.

وجوز بعضهم كونها برؤية عينية، وإنه انخرقت له فيهما العادة أيضًا، وصحَّح آخرون كونها بعين خلف ظهره يرى بها من ورائه، لا يحجبها الثياب ولا غيرها، وبعض المتكلمين أن تكون بإدراك خلق له في القفا أعم من كونه في بنية أم لا أخذًا من قوله في بعض الروايات: «إني لأبصر من قفايا كما أبصر من بين يدي».

وقيل: كان بين كتفيه عينان مثل سم الخياط يبصر بهما، لا يحجبهما أيضًا ثوب ولا غيره، قاله مختار بن محمود الحنفي الزاهدي شارح القدوري من الحنفية.

ورده أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني قائلاً هذا مع ما وصف به من كمال الخلقة يشين، ولو أن إنسانًا كانت له عينان في قفاه لكان أقبح شيء، وخيال غيره هو قول مرغوب عنه بل ساقط،

=

ونازع بعضهم فيه، وفي القولين قبله بأنها تحتاج لتوقيفٍ من الشارع. ورواية: (من قفايا) ليست نصًّا في المراد. وقيل: بل كانت صورهم تنطبع في حائط قبلته، كما تنطبع في المرآة، فترى أمثلتهم فيها فيشاهد أفعالهم، ورد بأنه يحتاج أيضًا إلى توقيف، وظاهر الحديث أن ذلك يختص بحالة الصلاة.

ويؤيِّده ما أخرجه الحميدي في مسنده، وابن المنذر في تفسيره، والبيهقي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩]، قال: كان النبي ﷺ إذا قام في الصلاة يرى من خلفه كما يرى من أمامه.

ويحتمل أن يكون ذلك واقعًا في جميع أحواله ﷺ وهو الظاهر، ومذهب أهل الباطن، ومحققي أهل الباطن، ونُقل عن مجاهد أيضًا وعن جمعٍ من المتقدمين، وعللوه بأنه إنما كان يبصر من خلفه؛ لأنه كان يرى من كل جهة؛ لأنه كان كله نورًا، وقد ثبت مثله لكثيرٍ من خواص أمته، وما ذاك إلا بما أمدَّهم الله به من نور مشكاته المفاض عليهم.

وفي الفتوحات في الباب التاسع والستين في معرفة أسرار الصلاة وعمومها ما نصه:

اعلم أن النبي ﷺ كله وجه بلا قفا، فإنه قال ﷺ: «إني أراكم من خلف ظهري»، فأثبت الرؤية لحاله ومقامه، فثبتت الوجهية له، وذكر الخلف والظهر لبشريته ﷺ، فإنهم ما يرون رؤيته ويرون خلفه وظهره ﷺ، ولما ورثته ﷺ في هذا المقام، وكانت لي هذه الحالة:

كنت أصلِّي بالناس بالمسجد الأزهر بمدينة فاس، قلت: وهو المعروف الآن بمسجد عين الخيل، قال: فإذا دخلت المحراب أرجع بذاتي كلها عينًا واحدًا، فأرى من جميع جهاتي كما أرى قبلتي، لا يخفى على الداخل ولا الخارج، ولا واحد من الجماعة حتى إنه ربما يسهو من أدرك معي ركعة من الصلاة، فإذا سلمت ورددت وجهي إلى الجماعة أدعوا أرى ذلك الرجل يجبر ما فاته فيخل بركعة، فأقول له: فاتتك كذا وكذا، فيتم صلاته ويتذكر، فلا يعرف هذه الأشياء، ولا هذه الأحوال إلا من ذاقها، انتهى منها بلفظها.

وفي نـــزهة الزاد وبغية الحاوي للعارف بالله القطب سيدي المختار بن أحمد الكنتي في الباب الخامس في بدء الوحي والإسراء ما نصه: ثبت عنه ﷺ أنه لما حمل على الرفرف والتمع بصره جعل يرى بجميع بدنه، فيرى من أمامه كما يرى من خلفه، وكما يرى عن يمينه وشماله، وذلك بأن صار كله بصرًا، فحينئذ تأهل أن يرى ربه لما أمدَّه به من وضع يده بين كتفيه حتى وجد بردها على فؤاده، فعلم بذلك علومًا شتى، ثم قطرت نقطة العلم على قلبه وفؤاده، فازداد علمًا على علم، انتهى المراد منه بلفظه.

وقال العارف الحفني في حاشيته على الجامع الصغير في الكلام على رواية: أتموا الركوع والسجود ما نصه: قوله لأراكم أي: رؤية إدراك وكشف قلبي، فلا تتوقف على وجود البصر، ولا على وجود

=

الضوء، فهو خرقٌ للعادة.

قال: وهذا الإدراك حاصلٌ له ﷺ من حين رأى ربه ليلة الإسراء بعين بصره، وما قيل: (كان له ﷺ حدقتان في ظهره) رد بأن ذلك مشوه للخلقة، وقد كان سيدنا موسى يرى النملة السوداء في الليلة الظلماء مسيرة عشرة أيام، وقيل: فراسخ من حين كلّمه الله تعالى، ثم قال: فذاك الإدراك ليس بحدقتين في ظهره، كسم الخياط لا يحجبهما الثياب، كما قال بعضهم فإنه لا أصل له؛ إذ هو مشوه، وليس هذا خاص بالصلاة انتهى.

وفي فيض القدير في حديث: «أتموا الصفوف» ما نصه: قال في المطامح في أبي داود عن معاوية ما يدل على أن هذا كان في أواخر عمره.

ولذا قال عياض: كان ذلك له بعد ليلة الإسراء كما كان موسى يرى النملة السوداء في الليلة الظلماء من عشرة فراسخ بعد ليلة الطور، انتهى منه بلفظه.

قال الشيخ جعفر الكتاني: وعياض ذكر هذا في الشفا في فصل وفور عقله ﷺ من الباب الثاني فراجعه.

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنهما أنها سُئلت عن هذا الإدراك، فقالت: «زيادة زاده الله إيَّاها في حجته»، وهو بضم الهاء، يعني في معجزته.

وضبط بعضهم لها وهو بفتحها على أن معناه أن هذه الزيادة إنما وقعت له في آخر عمره في حجة الوداع، غير صحيح.

مراقبة النبي ﷺ لأصحابه، وقد ذكروا من جملة فوائد هذه الأحاديث مراقبة النبي ﷺ لأصحابه في حالة الصلاة، كما أنه كان يراقبهم في غيرها من الأحوال سرًّا وعلانيةً، ظاهرًا وباطنًا، غيبةً وحضورًا، وقد كان على قدمه في هذا كبار العارفين والأولياء، حتى كان الشيخ عبد القادر الجيلاني ﷺ كثيرًا ما يقول لأصحابه على كرسيه: إني أراكم كالزجاجات.

وكم من مريدٍ أراد أن يرتكب بعض المحرمات وهو غائبٌ عن شيخه، فخرج عليه ومنعه من ذلك، وقضاياهم في هذا كثيرة: منها: إنه وقع لعارف أن مريده أراد الزِّنا بامرأةٍ، فلما همَّ سمع صوت شيخه من بلاد بعيدة يقول له: هكذا تفعل يا فلان، ففرَّ هاربًا.

ووقع لآخر مع مريده في نظير هذا أنه ما شعر إذ هم إلا والشيخ قد لطمه لطمة أذهبت بصره، فخرج وأمر من جاء به إلى الشيخ، فقال: ادعُ الله لي أن يرد بصري، فإني تائبٌ إلى الله تعالى، فقال: نعم، ولكن لا تموت إلا أعمى، فدعى له فردَّ عليه بصره، ثم عمي قبل موته بثلاثة أيام.

ووقع للشيخ أبي الغيث بن جميل اليمني أنه كان له تلميذ بالعجم فهمَّ بالزنا بامرأة فضربه الشيخ بقبقابه مع زجر وغضب بحضرة الفقراء، فلم يدروا ما الخبر، حتى قدم الشخص العجمي بقبقاب الشيخ بعد شهر تائبًا.

أمدَّنا الله تعالى بمدد أوليائه، ومنَّ علينا بسلوك سبيل أصفيائه آمين.

=

=

وقد حكى بقي بن مخلد عن عائشة أنه ﷺ كان يبصر ويرى في الظلمة، كما يبصر ويرى في الضوء، وهذا أخرجه عنها البيهقي، وابن عدي، وابن عساكر، وإسناده ضعيفٌ.

وأخرج البيهقي أيضًا في الدلائل عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يرى بالليل في الظلمة كما يرى بالنهار في الضوء، وهو أيضًا ضعيف ضعَّفه غير واحد، لكنه حسن بشواهده، وما اشتهر من خبرٍ لا أعلم ما وراء جداري.

قال الحافظ ابن حجر فيما نقله عنه في فيض القدير في الكلام على حديث: «أتموا الصفوف» لا أصل له.

قال في الفيض ويعرض وروده: فالمراد به أنه لا يعلم الغيب إلا باطلاعه تعالى. انتهى وراجع ما تقدَّم في هذا الخبر، والله الهادي والمرشد بمنِّه.

وأخرج أحمد والشيخان والترمذي وقال: حسنٌ صحيحٌ، والنسائي، وأبو عوانَة، وابن حبان في صحيحه عن جابر مرفوعًا قال: سَمِعْتُ النَّبِي ﷺ يَقُول:

«لَمَّا كَذَّبَنِي قُرَيْشٌ قُمْتُ فِي الْحِجْرِ، فَجَلَّي اللَّهُ لِي بَيْت الْمَقْدِسِ فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ».

وفي هذا انكشاف الأشياء لــه ﷺ عند التوجه والالتفات إليها بحقائقها وأحوالها ومتعلقاتها، ونظره بعين البصر والبصيرة إليها بحيث لا يغيب عن نظره شيء منها، وهذا واقع لغيره من أولياء الله تعالى، فكيف به ﷺ الذي كل نوال من نواله، وكل خير وفضل في العالمين منه، ومن أياديه وأفضاله.

وأخرج الطيالسي وابن أبي شيبة وأحمد والحميدي والبخاري في مواضع منها علامات النبوة، ومسلم في الفتن، والعدني، وابن حماد في الفتن، وأبو عوانة، والحاكم في المستدرك، عن أسامة بن زيد، قال: أشرف النبي ﷺ على أُطُمٍ مِنْ آطَامِ الْمَدِينَة فَقَال: «هَلْ تَرَوْن مَا أرى إِنِّي لأَرَى مَوَاقِع الْفِتَنِ خِلاَل بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ». وفي رواية: «إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كموقع القطر».

وفي أخرى: «إني أرى الفتن تقع خلال بيوتكم مواقع القطر».

فائدة: يجوز رؤية الشيء وسماعه قبل وجوده للأنبياء والأولياء.

قلت: وبهذا الحديث ونحوه استدلَّ الصوفية على جواز، بل وقوع رؤية الشيء وسماعه قبل وجوده للأنبياء والأولياء، بناء على ما هو المتبادر من هذا الحديث أنها رؤية بصرية، وقضايا الأولياء في رؤيتهم بل وسماعهم للأشياء قبل وجودها لا تنحصر كثرة، ومن ثم أطبقوا على رؤيته تعالى، وسمعه للمعدوم الممكن الذي علم أنه سيوجد مخالفين في ذلك للمتكلمين في قولهم: إن السمع والبصر إنما يتعلقان بالموجودات، والمراد بها كل ما له تحقق في الخارج فقط، ولا يتعلقان بالمعدوم ممكنًا كان أو مستحيلاً.

=

=

ومن أدلَّة الصوفية في هذا قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة: ١].

فإن قولها إنما كان فيما لا يزال، وتعلق سمعه وبصره إنما هو في الأزل.

وقد قال العلاَّمة ابن زكري في بعض تقاييده التي قيَّدها على الصغرى للسنوسي:

ما قاله الصوفية هو المتعين؛ لأن تعلقهما تعلق انكشاف، فيلزم على تخصيصه بالموجود حال وجوده بعده في الأزل انتهى.

نقله الشيخ جسوس في شرح عقائد الرسالة، وفي بعض أجوبة الشيخ أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي، لما ذكر له اعتراض بعض المتأخرين على ما وقع لأبي طالب المكي: أي في «قوت القلوب» من التصريح بتعلق سمع الله تعالى وبصره بالموجودات والمعدومات قبل وجودها، وإن مثله وقع في المواقف النفرية الصوفية: أي ووقع أيضًا للشيخ الجليل القصري مؤلف: «شعب الإيمان في شرح الأسماء» قال: لا يخفى على ما في اعتراضه على هذا الولي من سوء الأدب، بل الواجب التسليم لأولياء الله تعالى فيما خفي علينا علمه من كلامهم؛ إذ ليس يستوي من ينظر في النور ومن ينظر في الظلمات. انتهى نقله العارف الفاسي في حواشيه على شرح الصغرى.

وأخرج أحمد والترمذي في أبواب الزُّهد وقال: حسنٌ غريبٌ، وابن ماجه والحاكم في المستدرك، والضياء المقدسي في المختارة، وأبو الشيخ في العظمة، وأبو نعيم، وابن منيع عَنْ أَبِي ذَرٍّ رفعه قَالَ: قَال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي أرى مَا لا تَرَوْن، وَأَسْمَعُ مَا لا تَسْمَعُون، أَطَّت السَّمَاءُ، وَحُقّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعِ إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّه، لَوْ تَعْلَمُون مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ على الْفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إلى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُون إلى اللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَد».

وأخرج الطبراني في الكبير، والضياء، وابن أبي حاتم في التفسير، وأبو الشيخ في العظمة، وأبو نعيم عن حكيم بن حزام، قال: بينما رسول الله ﷺ في أصحابه إذ قال لهم: «أتسمعون». وفي لفظ: «هل تسمعون». وفي آخر «تسمعون ما أسمع؟ قالوا: ما تسمع من شيء، قال: إني لأسمع أطيط السماء وما تلام أن تئط ما فيها موضع شبر». وفي رواية: «قدم إلا وعليه ملك ساجد أو قائم».

وأخرج ابن منده، وابن عساكر عن عبد الرحمن بن العلاء بن سعد عن أبيه مرفوعًا: «هل تسمعون ما أسمع أطت السماء، وحق لها أن تئط ليس منها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد».

وتقدَّم من حديث سيدنا العباس عند البيهقي وغيره أنه ﷺ كان وهو في المهد يسمع وجبة القمر: أي سقطته حين يسجد تحت العرش. ذكره السيوطي في خصائصه وغيره.

وفيها أيضًا أنه ﷺ كان يسمع حفيف أجنحة جبريل وهو بعد في سدرة المنتهى، ويشم رائحته إذا

=

=

توجَّه بالوحي إليه، وذكر ذلك أيضًا الشعراني في «كشف الغمة» ناقلاً له عن خط شيخه جلال الدين السيوطي.

قلت: وهذا أعني رؤية الإنسان للأشياء البعيدة عنه جدًّا في الأرض برًّا وبحرًا، وفي السماء أو ما فوقها، وسماعه لها وشمه لرائحتها لا يُنكر، فإنه واقعٌ لأولياء الله كثيرًا، فكيف به ﷺ.

وفي «الفتوحات» في الباب الثاني وثلاثمائة ورد في حديث نبوي صحيح عند أهل الكشف وإن لم يثبت طريقه عند أهل النقل لضعف الراوي، ولقد صدق فيه، قال رسول الله ﷺ: «لولا تــزيد في حديثكم، وتمريج في قلوبكم، لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع[1]» انتهى.

قلت: وهو طرفٌ من حديث أخرجه أحمد، وابن جرير الطبري، ولفظ ابن جرير فيه: «لولا تمريج قلوبكم، وتــزيدكم في الحديث، لسمعتم ما أسمع». وتقدم لفظ أحمد وما في الحديث من الكلام.

وفي المواهب اللدنية من خصائصه ﷺ أنه كان يبلغ صوته وسمعه ما لا يبلغه صوت غيره ولا سمعه، قال شارحها: فقد كان يخطب فتسمعه الهواتف في البيوت، ويسمع أطيط كما السماء مر بسط ذلك في شمائله انتهى.

وانظر إلى ما أخرجه البيهقي وأبو نعيم عن عائشة أن النبي ﷺ جلس يوم الجمعة على المنبر، فقال للناس: اجلسوا، فسمعه عبد الله بن رواحة، وهو في بني علم، فجلس في مكانه وفيه معجزة وكرامة، وكأنه فهم أن الخطاب عام في حق من بلغه الصوت، ولو كان خارجًا عن المسجد النبوي، ولو بعيدًا منه، ولذلك جلس امتثالاً وأدبًا، وكأن القرينة على ذلك بلوغ الصوت له بطريق المعجزة الخارقة للعادة، وإن لم يظهر لجلوسه هو في مكانه فائدة، فقد تكون موجودة ولا يطلع عليها؛ إذ قد تخفى في بعض الأوامر والنواهي، ولذلك يحكم الفقهاء على ما خفيت فيه بأنه تعبدي، والله أعلم.

وانظر أيضًا إلى ما ورد من قول سيدنا عمر بن الخطاب أثناء خطبته يوم جمعة لسارية ابن زنيم الدؤلي، وكان قد أمره على جيش وسيره إلى فارس، وذلك سنة ثلاث وعشرين من الهجرة، فرآهم من المدينة وهو يخطب، وقد جعل العدو عليهم كمينًا على يسار الجبل: يا سارية الجبل، الجبل، يعني خذ طريق الجبل واحذر كمين العدو، ورفع صوته فألقى الله ذلك في أسماع سارية وأصحابه، وكانوا بنهاوند بلد بأقصى العراق جنوبي همدان، بينها وبين المدينة أكثر من مسيرة شهر، فعدلوا إلى الجبل، ففتح الله عليهم وهي قضية مشهورة، أخرجها الواقدي وسيف في الفتوح، والبيهقي في الدلائل، واللالكائي في شرح السُّنة، وابن الأعرابي في كرامات الأولياء، وابن مردويه، وغيرهم.

راجع الإصابة في ترجمة سارية المذكور. وفي لطائف المنن: إن القطب الحلبي الحافظ أفرد لطرقها جزءًا.

قال بعضهم: وكان هذا في حياة سارية، فلما مات في مصر دُفن أيضًا في قلعة الجبل، فكأنه امتثل قول عمر بعد وفاته أيضًا. راجع الرحلة الكبرى لسيدي عبد الغني النابلسي.

=

الصحيحة، وقد صحَّ عند أهل الله أن الحاسة يمكن أن تدرك ما تدركه الحاسة الأخرى؛ كالأذن فإنها يمكن أن ترى، وكذا البصر فإنها يمكن أن تسمع، وهكذا جميع الأعضاء، والقوى، وذلك إنما يكون بحسب التجلّي الخاص على أن الله تعالى من شأنه أن يجمع الأضداد، وفي حالة واحدة، وكذا الإنسان إذا كان مرآة له بالفعل؛ فإن مرتبته جامعة؛ كمرتبة الأُلوهية.

فإذا عرفت فاعلم أن جميع الأشياء الموجودة بالوجود الخارجي من الأول إلى

=

وفي العهود المحمدية في عهد الاستعداد لوقوف عرفة ما نصه: إن لله تعالى رجالاً يسمعون كلام من بينهم وبينه مسيرة ثلاثين ألف سنة، وراثة إبراهيمية قال: وقد وقع لي في ابتداء أمري أني كنت أسمع كلام من في أقطار الأرض من الهند والصين وغيرهما، حتى إني كنت أسمع كلام السمك في البحار المحيطة، ثم إن الله حجب ذلك عني، وأبقى معي العلم كي لا أنكر مثل ذلك على أحد.

وكان سيدي أحمد بن الرفاعي يتكلم على الكرسي بأم عبيدة، فيسمعه من حوله من القرى، والله على كل شيءٍ قدير انتهى.

وقد ذكر بعض الكبار أنه انخرق لسمعه ﷺ وبصره وشمه وإدراكه ولمسه وسائر حواسه جميع الكون، وسائر المملكةِ الربَّانية، وأنه يرى منها ما شاء متى شاء، ويسمع ويُسمع ويشم ويُشم ويلمس ويتناول، ويأخذ ويعطي، كذلك ويحول ويتصرف، ويفعل ما شاء على الوجه الذي شاء، وأذن له فيه، ولا ينحجب عنه شيء، أو يمتنع منه أيًا كان، إذا أراده على أي وجهٍ كان، وأي وصفٍ في المملكة كلها عمومًا.

قلت: والأحاديث والآثار الواردة في هذا الباب والحكايات المنقولة عن أهل الله تعالى تشهد بذلك، وتأمَّل ما تقدَّم عن الشيخ عبد السلام الأسمر أن الله تعالى أطلعه على جميع الكائنات، وكشف له عن ملكوت السماوات والأرض والجنة وما فيهما ظاهرًا وباطنًا.

وعن سيدي أحمد بن الرفاعي من أنه صحب ثمانمائة ألف أمة ممن يأكل ويشرب ويروث وينكح، وأنه لا يكمل الرجل حتى يصحب هذا العدد، ويعرف كلامهم وصفاتهم وأسماءهم وأرزاقهم وآجالهم، ولا تستقر نطفة في فرج أنثى إلا وينظر إليها، ويعلم بها، وأمثال هذا عن الأولياء كثير، وهم قطرات أو جداويل من بحار علمه ومعرفته، وما أطلعه الله عليه وأراه إياه، بل ما نالوا ذلك إلا منه، ولا اغترفوه إلا من بحره الطام الذي لا حدَّ له ولا نهاية، والعقول كلها لا تتسع لإدراك ماهيته وحقيقته، والله ذو الفضل العظيم والمن على ما يشاء من خلقه، لا رب سواه سبحانه وتعالى. وانظر: كتابنا (شرح أنوار النبي ﷺ ص١١٢).

الآخر مشتركة في كونها من المتشابهات، والله تعالى كما أن له أسماء إلهية كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فله أسماء كونية كما أشار إليه قوله ﷺ: «**إن الله خلق آدم على صورته**»(١)، فأسماء الله؛ هي أسماء آدم، وكذا العكس؛ لكن هذه المتشابهات بعضها فوق بعض باعتبار القرب من عالم الاختراع، والبعد عنه، فكل ما قرب منه؛ فمتشابه لطيف؛ لقلة التركيب، وكل ما بعد عنه؛ فمتشابه كثيف؛ لكثرة التركيب.

واللطيف وإن كان من عالم الخلق؛ فبلطافته يُعدُّ من عالم الأمر؛ كالقلم، والروح، والعرش، والكرسي، بخلاف الكثيف كالطبيعيات، والعنصريات، والتوليديات، والإنسان السالك إذا غلب عليه حكم الوجوب من حيث الوجه الخاص؛ فالكثيف لا يكون محجابًا له عن الله تعالى؛ لشدة التأثير في الأسماء الإلهية الذاتية الكلية، فحجابه الظلماني في حكم الحجاب النوراني، وحجابه النوراني كلاٌّ حجاب بخلاف مَن غلب عليه حكم الإمكان فإنه ليس كذلك؛ لضعف تأثير الأسماء الصفاتية الجزئية.

ويُعلم الفرق من أن الأول روح كلي مخلوق قبل تسوية طبيعته العنصرية، والثاني روح جزئي مخلوق بعدها، وإن كان كل منهما مستفادًا من الروح الكلي الأولى، فأين رتبة مَن يتأخَّر من رتبة مَن يتقدَّم؟ وكذا أين حال مَن حكمت عليه الأحوال المختلفة من حيث كثرة الوسائط من حال مَن ليس كذلك؟

«**فمَن وجد خيرًا؛ فليحمد الله، ومَن وجد خلافه؛ فلا يلومنَّ إلا نفسه**(٢)» فإن الشر ليس إلى الله، وإنما هو من مقتضيات الاستعدادات الغير المجعولة، فانظر فأنت المحكم، وأنت المتشابه، واعتبر، وعليك بمراعاة المراتب.

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: ١٩].

هذا الإطلاق يدل على أن العباد كلهم ملطوف في الحقيقة، وإن كانوا ملابسين لصور القهر.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه مسلم (٤/١٩٩٤).

فإن ذلك راجعٌ إلى استعداداتهم، فليس ذلك قهرًا خارجيًا عن اللطف، وإليه الإشارة بالاسم القهار؛ إذ لو قهر الله عباده بما كان خارجًا عن استعداداتهم، لكان ذلك ظلمًا منه، وهو منـــزهٌ عنه.

ومنه يعلم أن رحمته سبقت غضبه: أي لأن الرحمة التي هي الخير مقتضى بالذات، وهو مقتضى ذاته تعالى، والغضب الذي هو الشر ليس بمقتضى بالذات، وإنما من آثار العوارض التي تلبس بها العباد في ثاني الحال، بمقتضى استعداداتهم في عوارض بالنسبة إلى ثاني الحال، وشئون ذاتية بالنسبة إلى أول الحال، والله تعالى هو الخلاق على الدوام في الدارين، فهو لطيفٌ بهم، ولا يقهرهم إلا عن سؤال لسان الحقيقة، فلله الحجة البالغة، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط منه، وليس إلا حصائد ألسنتهم وأيديهم، فأعمالهم.

فكذا ذواتهم، منها قائم إن كانت من المحكمات، ومنها حصيد، إن كانت من المعلقات، فطوبى لمن كان قائمًا من الأزل إلى الأبد، لا يذروه الرياح، ولا ينسفه الواصف، وويل لمن كان حصيدًا بيد القهر والجلال، إلا أن يكون ذلك من قبيل الفناء؛ لتحصيل البقاء والكمال، فالأول غضب صورة ومعنى، والثاني غضب صورة ورحمة معنى، وعلى هذا جرى عباد الله وصبروا على الأقضية والبلايا؛ انتظارًا للمنح والعطايا.. الفقير حقي، حرره الشامي.

* * *

وفي سورة الزخرف

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف:٥٤].

يعني: إن فرعون وجد قومه خفيفًا؛ ولذا مالوا إليه بالإطاعة؛ لأن الخفيف إلى الخفيف يميل، ومال الخفيف إلى النار، كما قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ*فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة:٨، ٩].

ولا شك أن خفة الموازين من قلة الأعمال، وهي من خفة القلب المائل إلى الهوى، وفيه إشارتان:

الأولى: إن القلب إذا كان خفيفًا؛ فالقوي أيضًا كذلك؛ لأنها تابعة له كما أن الرعايا تابعة للسلطان، كما قيل: الناس على دين ملوكهم، وثقله، ومتانته، إنما هو من خوف الله تعالى، فإن الخائف من الله لا يميل إلى المنكرات؛ بل يثبت عندما عُيِّن له من الشرائع، وبقدر الخوف والعمل بمقتضاه، يُعرف مقادير الناس، ومراتبهم في التقوى.

والثانية: إن الملوك لا بد لهم من الرزانة، والوقار، والحياء في الصورة بلا تقليد، وتلوين، ورياء، فإن ذلك مما يدلُّ على ما في قلوبهم من المعاني والحقائق، وقد طلب بعض الأولياء من الله تعالى أن يلقي في قلوب الناس هيبته في حقه؛ لكون ذلك أقرب لقبول ما عنده من الحق؛ فكأنه طلب أن يُلقى ذلك في قلبه، فإنه إذا كانت حقائق الصفات والأحوال في باطن الإنسان؛ فظاهره يكون أهول وأهيب.

ولذا ترى ملوك الزمان وأمراءه يتكلّفون في الأوضاع، ويرون من أنفسهم ما ليس في قلوبهم، ومن ثم لا يعدُّهم الناس في جملة المراجيح الرزان؛ بل يسخرون بهم في خلواتهم، والمتحققون المتشيِّخون، فما اشترى العارفون ذلك منهم بفلس؛ لفرقهم بين الجيد والرديء، والطيب والخبيث.

فإن الأقوال والأعمال تُنادي على المراتب مطلقًا، وقد استخفُّوا بعض الناس من أخفاء الأحلام، فوضعوا على رءوسهم التيجان، وألبسوهم الخرق والمرقّعات، فما جاء مصداقهم كلهم إلا قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥] أي: قوالبهم الظلمانية في حال حياتهم والقباب المضروبة عليهم بعد

مماتهم، فكانت مساكن بلا سكان، وقوالب بلا قلوب، وصورًا بلا معان، وخيالات بلا حقائق، فلعنة الله على الظالمين الذين وضعوا الأشياء في غير مواضعها، وخرجوا عن الحكمة إلى حدِّ العبث.

وقد قال تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا**﴾ [المؤمنون:١١٥].

يعني: إنا خُلقنا بالحق للحق، فمَن كان؛ فليكن ما صنعه بالحق، وإلا كان من اللاعبين، كما قال تعالى: ﴿**أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ**﴾ [الأنبياء:٥٥]، ولمّا سمعه الشبلي قُدِّس سرُّه ترك الدور، والرقص مع قوة حاله خوفًا أن يكون من اللاعبين.

ثم إن قوله: (قومه) يُشير إلى أن أحدًا لا يُستخفُّ إلا إذا كان من أهله، ومن جنسه، فالشقي يستخفُّ الشقي لا السعيد، فإن الله مع السعيد، والله لا يأمر بالفحشاء.

ألا ترى أن الشيطان استخفَّ قابيل، وبرصيصًا، وبلعم ونحوهم؛ فأطاعوه فيما أمر به، فقتل قابيل أخاه هابيل، وأرتدَّ برصيصا، وبلعم عن دينه، ولم يقدر على إضلال المتقين لقوله ﷻ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾ [الأعراف:٢٠١].

وهو أحد التأويلات في قوله: «**إذا أحبَّ الله عبدًا؛ لم يضرَّه ذنب؛ لأنه لا ذنب من حيث الحفظ، والعصمة فلا ضرر**»(١)، وعلى تقدير صدور الذنب، فالله يحب التوَّابين.

فالمحبوب لا يكون مُذنبًا إلا على خطأ وتأويل، ولا يصرُّ على ذنبه، وإلا لم يكن محبوبًا، فعلى العاقل أن يسعى، ويجتهد حتى لا يكون من حزب الشيطان؛ فإنهم الخاسرون؛ بل يكون من حزب الله؛ فإنهم المفلحون، ونسأل الله الالتحاق بالصالحين في أعمالهم، وأحوالهم إلى أن يأتي اليقين.

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (٢/٣٤٩)، وأبو نعيم في الحلية (٤/٣١٨) بنحوه.

في سورة الأحقاف

قال الله تعالى: ﴿**يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الأحقاف:٣١].

إنما اقتصر على مغفرة الذنوب، والإجارة من العذاب، وطوى ذكر إدخال الجنات، والإثابة بالنعيم؛ لأنه كقوله تعالى: ﴿**قُمْ فَأَنذِرْ**﴾ [المدثر:٢]، وذلك لا يقتضي ألا يكون للجن نعيم ورؤية، فإن أول الدعوة الإنذار للنجاة من النار، ثم التبشير للفوز بالنعيم، كما هو مقتضى الإيمان.

ودخل في النعيم الرؤية؛ لأنها أعلى النعيم الإلهية؛ ولذا ورد: «**وأسألك لذّة النظر إلى وجهك الكريم**»(١).

حيث أثبت اللذّة للنظر؛ لأن الرؤية من اللذات المعنوية، والنعم الروحانية، فظهر من هذا أن المؤمنين من الجن؛ كالمؤمنين من الإنس في الإجارة والإثابة؛ لأن كلاً منهم داخلون تحت التكلُّف والدعوة، فمشاركتهم في ذلك تقتضي مشاركتهم في النعيم مطلقًا.

نعم فرق بين نعيم الملائكة، والجن، والإنس.

أمَّا الملائكة: فنعيمهم روحاني لا غير؛ لأنهم خُلقوا من النور، وغلبت عليهم اللطافة الروحانية؛ فصاروا في الأجسام اللطيفة؛ كالأرواح؛ ولذا كانت موتتهم غشية لا كموتة مَن عداهم؛ وهي مفارقة الأرواح من الأجسام الطبيعية كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ [الأنبياء:٣٥].

ثم إن نعيمهم الروحاني؛ هو حضورهم مع الله بقدر مراتبهم، وأمَّا ثواب أعمالهم فللمؤمنين كما ورد في النصوص.

وأمَّا الجن: فنعيمهم جسماني وروحاني جميعًا؛ لأنهم وإن شاركوا الملائكة في دخولهم تحت الاسم اللطيف؛ لكنهم فارقوهم من حيث إنهم خُلقوا من مارجٍ من نار، فإنه ثبت لهم الأكل الجسماني، فلهم بعض الكثافة من حيث خِلقتهم، وكونهم

---

(١) تقدم تخريجه.

من أهل الأكل الجسماني، وإن كان مأكولهم عَظْمًا ونحوه.

ولا شك أن مَن يأكل، ويشرب، وينكح في الدنيا؛ فله ذلك في الآخرة على تقدير إيمانه؛ لأنه لا نعيم للكافر في النار؛ بل طعامه الزقُّوم، وشرابه الحميم والصديد، ومَن كان له نعيم جسماني في الدنيا؛ فله نعيم روحاني فيها أيضًا؛ لأن نفخ الروح لا يختصُّ بمؤمن، ولا كافر؛ ولذا صحَّ بعض الأحوال الروحانية للكافر أيضًا في الدنيا كما حُكي عن بعض الفلاسفة، وأهل الرياضات، ومَن كان من أهل النعيم مطلقًا في الدنيا، وهو مؤمن؛ فله ذلك في الآخرة أيضًا، ومن جملة ذلك الرؤية.

نعم فرق بين نعيم المؤمن من الإنس، وبين نعيم المؤمن من الجن؛ لأن الإنس أكمل في العلم والعمل من الجن، فنعيمهم صورة ومعنى بقدر حالاتهم ومراتبهم؛ كالملائكة، وأمَّا الإنس فلهم النعيم مطلقًا، ونعيمهم أكمل من نعيم الجن؛ لكمالهم في باب العمل، وبلوغهم الغاية القُصوى في المعرفة الإلهية، وذلك لجمعية نشأتهم.

وكذا نعيمهم الروحاني أكمل من نعيم الملائكة؛ لأن الملائكة على جناح واحد إذ ليس لهم ما للإنس من الجمعية، فأين ذو الجناح الواحد من ذي الجناحين؟ وإذا عرفت هذا؛ عرفت أن الله بين الملك، والجن، والإنس صورةً، ومعنى، فمَن قصد إدخال الجن في جنس الملائكة، وجعل سعداءهم وأشقياءهم؛ كسعداء الإنس وأشقيائهم؛ فهو لم يعرف حقيقة الحال، وجهل بالمقام، وإن كان له شأن بالأمر.

وقال المصنف في موضع آخر:

قوله تعالى: ﴿**يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الأحقاف:٣١].

قال حضرة الشيخ: صدر الدين القونوي قُدِّس سرُّه في تفسير الفاتحة:

وأمَّا الجن فنحن لا نشك إنهم يجازون على أفعالهم؛ لكن لا نتحقق إنهم يدخلون الجنة، وإن المؤمن يجازى على ما عمل من خير في الآخرة، فإنه لم يرد في ذلك نص، ولا نعرف من جهة الذوق في هذه المسألة ما يوجب الجزم، فقد يجنون ثمرة خيرهم حيث شاء الله تعالى انتهى.

وقال شيخي، وسندي السيد عثمان الفضلي قُدِّس سرُّه في شرح التفسير المذكور: وقد عرفت من جهة الذوق حيث يجنون ثمرة عملهم الخير بإذن الله وفيضه؛ لكن لم أكشفه؛ بل أكتمه بتعيُّنه لَمن كتمه، ولم يكشفه انتهى.

يقول الفقير: أفاض الله عليه سجال فيضه الكثير: هذا من المسائل التي تَوقَّف فيها أكثر الأئمة والعلماء لِما أن ظاهر قوله تعالى: **(وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)**، يدل على أنهم لا يدخلون الجنة، وإلا لنصَّ الله عليه بعد ذكر الإجارة؛ كما فعله في حق المؤمنين من البشر في مواضع من القرآن.

والظاهر أن الاقتصار على الإجارة؛ كالاقتصار على الإنذار في نحو قوله تعالى: **﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾** [المدثر:٢]: أي قم فأنذر الكفار بعذاب النار، فإن إجارتهم منه موقوفة على إنذارك، وانتفاعهم به؛ وذلك لأن التخلية بالمعجمة قبل التحلية، وذلك لا يقتضي انحصار حالهم في الإجارة.

فكذا في حق الجن فإنهم إذا كانوا تابعين للبشر في الأحكام، والتكاليف؛ كان حكمهم حكم البشر في كل من الإجارة، والإثابة موطنها المبشر به الجنة، هذا وكأنهم أخرجوهم عن حكم البشر في ذلك لأمرين: الأول: قصورهم في باب الأعمال، والمعارف الإلهية بحسب نشأتهم النارية، والثاني: إنهم داخلون تحت الاسم اللطيف؛ كالملك؛ لغلبة الروحانية عليهم؛ ولذا كان غذاؤهم الاسترواح، والاستشمام، ونحو ذلك لا على نحو الغذاء البشرى.

فلمَّا كانوا على جناح واحد من الأمر؛ فإنهم جلاليون فقط، كما أن الملائكة جماليون فقط، وكان الغالب على نشأتهم الروحانية؛ اقتضى الذوق أن يكون نعيمهم غير النعيم الحسِّي؛ بل الخيال المتصل بعالم المثال المطلق، وذلك في مقام الأعراف؛ فإن الأعراف كما أنه سور بين الجنة والنار؛ باطنه في الرحمة، وظاهره من قبله العذاب الناري بحسب نشأتهم النارية؛ فكذا عالم الخيال المقيَّد، والمثال المطلق؛ برزخ بين العالم الروحاني، والجسماني، فنعيمهم روحاني من حيث تجرُّدهم، وخيالي من حيث تلبُّسهم بالجسم اللطيف؛ كالملك.

كما أن نعيم البشر روحاني، وجسماني حسِّي من حيث تعلُّقهم بالجسم الكثيف، وإن كان أجسامهم تتلطَّف هنالك بتلطيف العناصر، والخيالي غير الحسِّي؛

فإن الحسي أقوى منه.. هذا ما أُلقي في البال، والله أعلم بحقيقة الحال.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

أخبر التعليم عن الأتقياء إشارة إلى أن العلوم الحقيقية، والمعارف الحقّانية؛ هي التي تنشأ عن التقوى، فما عداها علوم، ومعارف نفسانية شيطانية.

فالعلوم والمعارف الحقّانية الرحمانية؛ هي التي ألقاها الله سبحانه في قلب عبده المتَّقِي من الشرك، والمعصية، والتعلُّق بما سوى الله تعالى.

والعلوم والمعارف الغير الحقّانية؛ هي التي ألقاها الشيطان في قلب الشخص المنحرف عن الله، وسوَّلت له نفسه.

فالأولى من باب الكرم، والثانية من باب المكر الذي هو قلبه وعكسه.

فالعلم الصحيح: هو الذي يُلبسك التقوى؛ وهو زينة الله تعالى لك في الدنيا والآخرة، فإن العلوم الحقيقية تبقى مع العالم في كل موطن ومقام؛ فتنتقل معه إلى حيث ينتقل؛ وهي الزينة المحلّلة.

التي أشار إليها قوله: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١].

وأمَّا العلوم الغير الحقيقية: فقد وقع الذّم عليها؛ لكونها من زينة الحياة الدنيا المحرَّمة، وأعني بالعلوم الغير الحقيقية؛ ما لم يكن من نتائج التقوى، والعمل الصالح، والسلوك، والعلوم مطلقًا، فإن بعض الرسوم فيما يلحق بالحقائق.

ومن هذه الآية يُعلم حال مَن أباح الدخان في هذه الزمان[1]، وكتب في حقه من المساوئ ما لا يحتاج إلى البيان؛ وذلك لأن المباح إذا كان فيه موافقة النفس، والميل إليها؛ كان ذلك من قَبيل المعصية، وحظ النفس.

ولا شك أن الدخان من الأمور الخسيسة الطبيعية التي لا يرتكبها إلا الأخسَّاء، والأسافل من الناس، وقد صحَّ عند الله أن الأمور الخسيسة مما يحتجب به الروح عن العروج إلى المقامات العلوية، ومثل هذه الوسائل مما لا شك في خباثتها على أن الخبيث عند أهل النفس الطاهرة الطيبة حرام كما دلَّ عليه قوله تعالى:

---

(١) قلت: في مسألة إباحة الدخان، وتحريمه وكراهته، أقوال لأهل العلم، فممن أباحه: الشيخ الأجهوري، والشيخ عبد الغني النابلسي، والشوكاني، وغيرهم.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وقد سمعت عن بعض الأقطاب: إن شارب الدخان، ومبيحه؛ نفساني شيطاني، وأيضًا: إن الذي يستعمله؛ يستثقل أمر الله تعالى وطاعته.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، فما أدّى إليه حرام خبيث بلا شبهة، وأيضًا أن النبي ﷺ كان قد حبب إليه الطيب؛ تأنيسًا للحقائق الإلهية، والأرواح الملكوتية؛ لأن العناصر البشرية لا تخلو عن الكثافة، والرائحة الكريهة كما قال تعالى: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦، ٢٨، ٣٣].

فإذا كان إزالة هذه الرائحة الجبلية مما يحتاج الإنسان فيها إلى التبخير؛ فما ظنك بالروائح العارضة الكريهة، فإن ادَّعى مُدَّعي إنه يستعمل السواك في عقب شربه فيزيل رائحته؛ فذلك من الأكاذيب التي لا تصغى إليها أصلاً؛ لأن رائحة الدخان سارية في لحمه، ولباسه، ومقامه حتى تسري في محلِّ سجدته في المساجد والجوامع، وقد قالوا: لو أنه لا معنى للتطهير بعد التجنيس؛ بل الواجب البقاء على الطهارة الأصلية، وكذا دعوى المنفعة مما لا يُسمح، فإن الأصل في الأشياء، وإن كان الإباحة، إلا أن المراد؛ هي الأشياء النافعة لا مطلقًا.

كما دلَّ عليه في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم﴾ [البقرة:٢٩]، ولا يرتاب عاقل في أن شاربه لا يستعمله لنفعه، أو يستعمله بقول طيب، خبيث، مريض مثله، وقد كان مُدَّعـــي الشـــيخوخة في هـــذه الزمان لا يصوم؛ لإكبابه عليه، أو لا يفطر في شهر رمضان إلا عليه، فسُحقًا لأصحاب الشهوات، قاتلهم الله.

في سورة محمد ﷺ

قال الله سبحانه: ﴿فَاعلم أنهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد:١٩].

أمر تعالى بالعلم مع أنه هو العالم، كما أنه هو الشاهد في قوله: ﴿شَهِدَ اللهُ﴾ والرامي في قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ إشارة إلى ذنب الوجود المغفور؛ ولذا قال عقيبه: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد:١٩]، وهي نسبة الوجود التي بها أُضيف العلم إليه، فإذا غفر وستر؛ كان الوجود وما يتبعه لله تعالى؛ وإنما أمره بالعلم مع أن هذه الشهادة أول ما صدر منه ﷺ، وهو في مرتبة العقل الأول، إشارة إلى الفرق بين مرتبتي الروح والجسد، فمرتبة الروح لكونها مرتبة التجرُّد؛ لا تحتاج إلى التذكير والأمر بالعلم، وأمَّا مرتبة الجسد فكونها مرتبة التعلُّق؛ تحتاج إلى ذلك.

ولذا لَمَّا خلقه الله تعالى، وهو أول المبدعات قال: (**لا إله إلا الله**)، ولم يقل: وأنا العبد؛ لأن تلك المرتبة ليست مرتبة العبودية؛ بل مرتبة الحامدية بلسان الروح[1].

ولَمَّا وقع المعراج، ودخل على الله تعالى قال: (لا إله إلا الله أنا العبد) فأثبت العبودية حينئذ لِما يقتضيه الموطن، فلكل من المواطن اعتبار غير اعتبار الآخر.

ولَمَّا كانت الأُلوهية من الإضافات؛ لأنها تقتضي إلوهية العبد؛ وقع عليها العلم الذي هو نسبة من النسب أيضًا، وليس فوق مرتبة العلم والأُلوهية إضافة أصلاً؛ لأن ما فوقها ذات بحت لا اسم هناك، ولا رسم، ولا وصف، فإلى مرتبة الأُلوهية ينتهي علوم العلماء، ومكاشفة المكاشفين، ومن ثَمَّ حكم على العالم؛ بل المكاشف أيضًا بالحيرة لكنها هي الحيرة الممدوحة الناشئة عن علم وتجلّي، لا عن جهل واحتجاب، والله الهادي إلى عين ذاته.

(١) ذكر المصنف –قدس سره– أن السيد الأعظم ﷺ هو أول المبدعات أي أول موجود أوجده الله.
قلت: ولقد تكلم في تلك المسألة– مسألة أسبقية النور المحمدي – كثير من العلماء الأعلام، واعتقدها من علمها من المتبعين الكرام، وشهدها من شهدها ممن يجدد الله بهم دينه الإسلام، من ورثة رسوله عليه من ربه أزكى الصلاة والسلام، وإليك طرفًا من هذا المقام ليجلي عن عين قلبك غين الأوهام، وتعلم جزءًا مما لنبيك من عظيم القدر وعالي المقام ﷺ.

وفي سورة الفتح

قال الله ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:٢٩].

واعلم أنه قد اجتمع حروف المعجم التسعة والعشرون في كل من الآيتين المذكورتين.

وأول الحروف في الآية الأولى: الثاء المثلثة في ثم، وآخرها: الصاد المهملة في صدروكم.

وأولها في الثانية: الميم في محمد، وآخرها: الصاد أيضًا في الصالحات.

وليس في القرآن آية حَوت الحروف كلها غيرهما، ومَن دعا الله تعالى بهما؛ استجيب له. والمراد: من قرأهما، ودعا عندهما؛ استجيب له؛ لأنهما لجمعهما الحروف كلها؛ كانت بمنـــزلة القرآن كله. وقد صحَّ أن الدعاء مستجاب عند ختم القرآن، ولمَّا كانت هذه الحروف مما أنزله الله تعالى على آدم عليه السلام.

وكان آدم قد تكلَّم بسبعمائة ألف لغة على ما جاء في بعض الروايات: كان مَن تكلَّم بتلك الحروف؛ كمَن تكلَّم بتلك اللغات كلها؛ لأن كلاًّ منها مشتملة على تلك الحروف، وقد ضم إليها الحروف الأربعة الفارسية التي هي: الباء، والجيم، والزاي، والكاف المعجمة التي تكلَّم بها بعض القبائل؛ ولذا كانت اللغة الفارسية ملحقة باللغة العربية؛ فجُعلت كل منهما لسان أهل الجنة.

ثم إنه نقل حفص بن غياث عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه: أن أبا حنفية رضي الله عنه صلَّى صلاة الفجر بوضوء العشاء الأخيرة أربعين سنة، فقال له يومًا: يا أبا حنيفة سألتك بالله ما الذي قوَّاك على ما أرى منك من طاعة الله تعالى، فقال أبو حنفية: إني دعوت الله تعالى بأسمائه على حروف المعجم ثلاث: أي على ترتيب حروف المعجم

كلها التي اجتمعت في آل عمران، وسورة الفتح؛ والمراد ترتيبها على ما وقع في الآيتين: مَن دعا الله بها؛ استجيب له دعاؤه.

قال في الضياء المعنوية(١): قراءة هاتين الآيتين؛ للنماء، والبركة، والشدة، والقوة، والحراسة من كل آفة للرجال، والنساء، والأطفال، ومَن أكثر من قرأهما؛ وجبت له إجابة الدعوة، والخروج من الضيق إلى السعة، ويكون له أعوان ينصرونه، ويعينونه على الخير، ويُرزق خير الدنيا والآخرة انتهى.

والظاهر ما ذُكر من حكاية الإمام: إن قراءة كل واحدة من الآيتين المذكورتين، وإن كانت نافعة بمجردها حسب اشتمالها على الحروف كلها؛ لكنها إذا انضمت إليها الأسماء الحسنى، وأحصاها على الترتيب الذي يليق، كان أحسن، وأدعى للإجابة، وقد نُقل عن الإمام تفصيل الترتيب.

وأنا أذكر لك ما هو ترتيب حروف التهجِّي بقدر الضبط، فاعمل على كل منهما. وأقول: ينبغي للداعي أن يقول: اللّهم:

(**أ**): يا الله، يا أول، يا آخر، يا أحد.

(**ب**): يا بَرُّ يا بارئ يا باعث(٢) يا بديع يا باقي، يا باسط، يا باطن، يا بصير.

---

(١) هو للغزنوي الحنفي، وللسيد علي بن عبد الله البقردي، وقيل: القبردي، نزيل الشام المتوفى في حدود ١٠٥٥ هـ، كتاب المصابيح الأخروية شرح الضياء المعنوية في الفروع.

(٢) الباعث: هو الذي يحيي الخلق يوم النشور، ويبعث من في القبور، ويحصل ما في الصدور، والبعث هو النشأة الآخرة، ومعرفة هذا الاسم موقوفة على معرفة حقيقة البعث، وذلك من أغمض المعارف، وأكثر الخلق منه على توهمات مجملة، وتخيلات مبهمة، وغايتهم فيه تخيلهم أن الموت عدم، والبعث إيجاد مبتدأ بعد عدم، مثل الإيجاد الأول فظنهم أن الموت عدم غلط، وظنهم أن الإيجاد الثاني مثل الإيجاد الأول غلط، فأما ظنهم أن الموت عدم فهو باطلٌ؛ بل القبر إما حفرة من حفر النيران، أو روضة من رياض الجنة، والميت إما من السعداء، وأولئك ليسوا أمواتًا؛ قال تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ* فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِه﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠]، وإما من الأشقياء، وهم أيضا أحياء، ولذلك ناداهم رسول الله في وقعة بدر وقال: «إني وجدت
=

=

ما وعدني ربي حقًّا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا، ثم لما قيل له: كيف تنادي قومًا قد جيفوا؟ قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، لكنهم لا يقدرون أن يجيبوا»، والمشاهدة الباطنة دلت أرباب البصائر على أن الإنسان خُلق للأبد، وأنه لا سبيل عليه للعدم نعم تارة يقطع تصرفه عن الجسد، فيقال مات، وتارة يُعاد إليه فيقال أحيي وبعث: أي أحيي جسده، وكشف ذلك بالحقيقة مما لا يحتمله هذا الكتاب.

وأما ظنهم أن البعث ليس إيجادًا ثانيًا، وهو مثل الإيجاد الأول فغير صحيح، بل البعث إنشاء آخر لا يناسب الإنشاء الأول أصلاً، وللإنسان نشآت كثيرة. وليست هي نشأتين فقط. ولذلك قال تعالى: ﴿وَنُنشِيءكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١]، ولذلك قال بعد خلق المضغة والعلقة وغير ذلك: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾ [المؤمنين: ١٤] بل النطفة نشأة من التراب والعلقة نشأة من النطفة والمضغة نشأة من العلقة والروح نشأة من المضغة ولشرف نشأة الروح وجلالته وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥]، ثم خلق الإدراكات الحسية بعد خلق أصل الروح نشأة أخرى، ثم خلق التمييز الذي يظهر بعد سبع سنين نشأة أخرى، ثم خلق العقل بعد خمس عشرة سنة وما يقاربها نشأة أخرى وكل نشأة طور ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ [نوح:١٤]، ثم ظهور خاصية الولاية لمن رزق تلك الخاصية نشأة أخرى، ثم ظهور خاصية النبوة بعد نشأة أخرى، وهي نوع من البعث، والله سبحانه وتعالى باعث الرسل كما أنه الباعث يوم النشور.

وكما أنه يعسر على ابن المهد فهم حقيقة التمييز قبل حصول التمييز ويعسر على المميز فهم حقيقة العقل وما ينكشف في طوره من العجائب قبل حصول العقل فكذلك يعسر فهم طور الولاية والنبوة في طور العقل فإن الولاية طور كمال وراء نشأة العقل كما أن العقل طور كمال وراء نشأة التمييز والتمييز طور كمال وراء نشأة الحواس وكما أن من طباع الناس إنكار ما لم يبلغوه ولم ينالوه حتى إن كل واحد ينكر ما لم يشاهده ولم يحصل له ولا يؤمن بما غاب عنه فمن طباعهم إنكار الولاية وعجائبها والنبوة وغرائبها بل من طباعهم إنكار النشأة الثانية والحياة الآخرة لأنهم لم يبلغوها بعد ولو عرض طور العقل وعالمه وما يظهر فيه من العجائب على المميز لأنكره وجحده وأحال وجوده فمن آمن بشيء مما لم يبلغه فقد آمن بالغيب وذلك هو مفتاح السعادات.

=

(ت): يا توّاب[1] تب علينا فإننا بشر ما عرفناك حق معرفتك، يا مَن تعاليت ذاته وصفاته عن أن يحيط بهما وصف الواصفين؛ بل علم العارفين، يا مَن توالت آلاؤه، يا مَن تتابعت نعمائه.

(ث): يا ثابت، يا مَن ثناؤه فوق كل ثناء لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، يا مَن قال: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً﴾.

(ج): يا جميل، يا جليل، يا جبَّار، يا جامع، يا جوَّاد.

(ح): يا حيٌّ، يا حميد، يا حكيم، يا حكم، يا حق، يا حليم، يا حفيظ، يا حسيب، يا حنَّان، يا حبيب القلوب.

(خ): يا خالق، يا خافض، يا خبير.

(د): يا ديَّان، يا دائم، يا دافع، يا مَن دلَّ على وجوده ووحدته آثاره

=

وكما أن طور العقل وإدراكاته ونشأته بعيد المناسبة عن الإدراكات التي قبله فكذلك النشأة الآخرة بل أبعد فلا ينبغي أن تقاس النشأة الآخرة بالأولى وهذه النشآت هي أطوار ذات واحدة ومراقيها التي تصعد فيها إلى درجات الكمال حتى تقرب من الحضرة التي هي منتهى كل كمال وتكون عند الله عز وجل بين رد وقبول وحجاب ووصول فإن قبل رقي إلى أعلى العليين وإلا رد إلى أسفل السافلين والمقصود عدم المناسبة بين النشأتين إلا من حيث الاسم، ومن لم يعرف النشأة والبعث لم يعرف معنى اسم الباعث وشرح ذلك يطول فلنتجاوزه.

تنبيه: حقيقة البعث ترجع إلى إحياء الموتى بإنشائهم نشأة أخرى والجهل هو الموت الأكبر والعلم هو الحياة الأشرف وقد ذكر الله سبحانه وتعالى العلم والجهل في كتابه العزيز وسماهما حياة وموتا ومن رقى غيره من الجهل إلى المعرفة فقد أنشأه نشأة أخرى وأحياه حياة طيبة فإن كان للعبد مدخل في إفادة الخلق العلم ودعائهم إلى الله تعالى فذلك نوع من الإحياء وهي رتبة الأنبياء ومن يرثهم من العلماء. انظر: المقصد الأسنى للغزالي (١/١٢٣).

(١) أي الموفق للتوبة، أو الذي يرجع على كل مذنب بالتوبة، ويكثر ذلك منه لهم مع كثرة عصيانهم، أو القابل للتوبة من العباد.

والتقرُّب بهذا الاسم تعلُّقًا بسؤال التوبة منه عليك، وتخلُّقًا بالتوبة إليه في كل حال.

وخاصيته: رفع الظلم، وتحقيق التوبة منه عليك، فمَن قرأه إثر صلاة الضحى ثلاثمائة وستين مرة تحققت توبته، ومَن قرأه على ظالم عشر مرات تخلَّص منه إن شاء الله تعالى.

وشواهده، ودار بذكره وتسبيحه وتحميده ألسنة الأشياء كلها على ما حكم به شاهده.

(**ف**): يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا القوة المتين، يا ذا البطش الشديد الذي لا يُطاق انتقامه، يا ذا العرش المجيد، يا مَن ذلّت أعناق الجبابرة، وطأطأت له رؤوس القهاهرة، يا ذا الفضل والجود منك الوجود، ولك السجود.

(**ر**): يا رحمن، يا رحيم، يا رزّاق، يا رافع، يا رقيب، يا رشيد، يا رب العالمين.

(**ز**): يا مَن زالت ظلمة العدم برش نوره، وزُلّت قدم مَن لم يتأدّب بحضوره، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر عند سطوان قهره.

(**س**): يا سلام، يا سميع، يا سبُّوح، يا مَن سرُّه الإنسان، يا مَن سُرَّ بإحسانه البال، وزال البلبال.

(**ش**): يا شَكور، يا شهيد، يا مَن شأنه عال مما شأنه سبحانه سبحانه.

(**ص**): يا صمد[1]، يا صبور، يا صادق الوعد، يا مَن صلّى على النبي الأمين، وعلى المؤمنين.

---

(١) هو الذي يُصمد إليه في الحوائج: أي يُقصد فيها.
وقيل: الذي لا يطعم. وقيل: معناه السيد. وقيل غير ذلك كما مرَّ.
والتقرُّب بهذا الاسم تعلُّقًا بالرجوع إليه تعالى بالرغبة في عموم الأوقات والحالات، وتخلُّقًا على المعنى الأول أن تكون عونًا للعباد على حوائجهم، وملجأ لهم بأي وجه أمكن.
وعلى الثاني: أن تستعمل الرياضة حتى تنتفي عنك شهوة الطعام والشراب قدر الطاقة، وعلى الثالث: أن تأتي بفعلٍ جميل، فإن السؤدد بنية الإعمال في رضا الخلق.
وخاصيته: حصول الخير والصلاح، فمَن قرأه عند السَّحر مائة وخمسة وعشرين مرة؛ ظهرت عليه آثار الصدق والصدِّيقين، ومَن يذكره لا يحس بألم الجوع ما دام يذكره.
وفي «الأربعين الإدريسية»: (يا صمد) من غير شبيه، ولا شيء كمثله، مَن غلب عليه الفسق ولم يقدر على التنصُّل منه فليصم الخميس والجمعة والسبت، ويجتنب في ذلك أكل ما فيه روح، ويذكره في كل يوم مائة مرة، فإن الصلاح يظهر منه بأثر ذلك، وإن كتبه في إناء صيني، وسُقي الزوجين؛ اصطلحا وتآلفا.

(**ض**): يا مضل، يا مَن ضلّ عقول العلماء في بدأ مرفته، وضاق نطاق كشوف العرفاء عن إحاطته.

(**ط**): يا طيب لا يتبل إلا طيبًا، يا مَن طابت بذكره القلوب، وطهّرت الأرواح لمسِّ الأسرار، ومشاهدة الغيوب، يا مَن طلع نوره عن مشرق التجلّي والظهور، وطاشت عن بروق ذاته بواطن الرجال، وظواهر الجبال.

(**ظ**): يا ظاهر للبصائر، يا ظهيرًا للمؤمنين في الماضي والغابر.

(**ع**): يا عزيز، يا عليم، يا عدل، يا عظيم، يا عفوّ، يا عليّ.

(**غ**): يا غفور، يا غفّار، يا غافر، يا غني، يا غزير الإحسان للإنسان، يا غيُّور ومن غيرته حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

(**ف**): يا فرد، يا فعَّال، يا فتَّاح، يا من فضله ورحمته؛ فرح المؤمنين، يا مَن قال: فرُّوا إلى الله فلا ملجاء ولا منجّي منه إلا إليه.

(**ق**): يا قهَّار، يا قادر، يا قاهر، يا قوي، يا قيُّوم، يا قُدُّوس[1]، يا قابض، يا قدير، يا قريب، يا قديم، يا قائمًا بالقسط.

(**ك**): يا كريم، يا كبير، يا كفيل، يا مَن كلامه شفاء لِما في الصدور، يا مَن كلّت الإلسنة عن وصفه، يا مَن كره الكفر والفسوق والعصيان، وحبب الإيمان والطاعة، يا مَن كان، ولم يكن معه شيء، يا مَن كان لَمن كان له، يا مَن خلق

---

(١) من القدس وهو الطهارة، والتقديس: التطهير، ومنه الأرض المقدَّسة، والمراد به: المنـزَّه عن التقائص والآفات باستحقاق نعوت الكمال، وإنما ذُكر هذا الاسم بعد اسم المَلك لما يُعرض للملوك من تغير أحوالهم بالجور والظلم، والاعتداء في الأحكام، وفيما يترتب عليها، فأفاد أنه سبحانه وتعالى لا يعرض لملكه ما يُعرض لملك الملوك.

والتقرب بهذا الاسم تخلُقًا وتعلُقًا أن تنـزِّه عقائدك عما سوى الله تعالى تنـزيهًا ، وتنـزيه رسله – عليهم الصلاة والسلام– وذوي الاختصاص من عباده، وقلبك من التعلق بسواه، وجوارحك عن مخالفة أمره ونهيه.

وخاصيته أن يُكتب: (سبوحٌ قدوسٌ رب الملائكة والروح) على خبز إثر صلاة الجمعة، فمن أكله فتح الله عليه باب العبادة وسلم من الآفات، وذلك بعد ذكر عدد الاسمين بالجمَّل.

الأشياء بالكاف والنون، يا من كل فعله جميل.

(**ل**): يا لطيف لطف بعباده فوق اللطفاء بالله للمسلمين الداعين بالتضرُّع، والافتقار، يا مَن له ما في السماوات، وما في الأرض، يا مَن لزم ببابه كل اسم من الأسماء.

(**م**): يا مؤمن، يا مهيمن[1]، يا متكبِّر، يا مصوِّر، يا منَّان، يا معزٌّ، يا مذلٌّ، يا مُقيت، يا مجيب، يا مجيد، يا مقتدر، يا مُقدِّم، يا مؤخِّر، يا متعال، يا منتقم، يا ملك، يا مليك، يا مالك الملك، يا مُقسط، يا مُغني، يا مُعطي، يا مانع، يا ماجد، يا مُبدئ، يا مُعيد، يا مُحصي، يا مُحيي، يا مُميت، يا مَتين.

(**ن**): يا نافع، يا نور، يا مَن جعل النقطة تحت الباء إشارة إلى الإنسان، يا مَن قال: ن والقلم وما يسطرون، يا نصير.

(**و**): يا ودود[2]، يا وكيل، يا ولي، يا واجد، يا واحد، يا والي، يا وهَّاب،

---

(١) المهيمن: معناه في حق الله ﷻ أنه القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم، وإنما قيامه عليهم باطلاعه واستيلائه وحفظه، وكل مشرفٍ على كنه الأمر مستول عليه، حافظ له، فهو مهيمنٌ عليه، والإشراف يرجع إلى العلم، والاستيلاء إلى كمال القدرة، والحفظ إلى الفعل، فالجامع بين هذه المعاني اسمه المهين، ولن يجتمع ذلك على الإطلاق والكمال إلا لله ﷻ، ولذلك قيل إنه من أسماء الله تعالى في الكتب القديمة.

تنبيه: كل عبدٍ راقب قلبه حتى أشرف على أغواره وأسراره، واستولى مع ذلك على تقويم أحواله وأوصافه، وقام بحفظها على الدوام على مقتضى تقويمه، فهو مهيمنٌ بالإضافة إلى قلبه، فإن اتسع إشرافه واستيلاؤه حتى قام بحفظ بعض عباد الله ﷻ على نهج السداد بعد اطلاعه على بواطنهم وأسرارهم بطريق التفرس، والاستدلال بظواهرهم، كان نصيبه من هذا المعنى أوفر وحظه أكثر.

انظر: المقصد الأسنى للغزالي (٧٢/١)، والأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (٢٥٣/٢٤٤/١).

(٢) هو كثير الودِّ لعباده، والتودد لهم بتوافر النعم، وصرف النقم، وإيصال الخيرات، ودفع المضرَّات.

وقيل: هو الذي يحب الخير لجميع خلقه، ويحسن لهم وإن أعرضوا.

والتقرُّب بهذا الاسم تعلُّقًا أن يطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، لا لعلة ولا لسببٍ، كما في الأثر: إن الله يقول: «**إن أود الأوداء إلي من عبدي لغير قول؛ لكن ليعطي الربوبية حقها**» .

وفي الكتاب العزيز: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾ [مريم:٩٦]،
=

يا وارث، يا واسع[1].

(هـ): يا هادي هدى العالمين إلى توحيده، وهدى العالمين إلى تجريده، وهدى العارفين إلى تفريده، يا مَن هزَّ عطف المحبين إلى اتِّباع صاحب الهرواة، يا مَن هرب إلى كنفه الخائفون.

(لا): يا مَن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، يا مَن لا إله إلا أنا، يا مَن لا إلا إلا هو، يا مَن لاذ ببركة طلبه إلا منِّه حسبما يدعوهم لا إله إلا الله لا معبود، ولا مقصود، ولا موجود إلا هو.

(ي): يا مَن يعلم أيدينا، وما خلفنا، يا مَن يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، يا

=

قيل: فيما بينهم وبينه، وقيل: بينهم وبين عباده انتهى.

وتخلُّقًا أن تكون ودودًا للمؤمنين، بل لكل الخلائق، بأن تحبب للكافر الإيمان، وللعاصي التوبة، وللصالح الثبات، ولجميع العباد الخير جملةً وتفصيلاً.

وخاصيته: ثبوت الود لاسيما بين الزوجين، فمَن قرأه ألف مرة على طعام، وأكل مع زوجته؛ غلبتها محبته، ولم يمكن سوى طاعته.

ومن خواصه أيضًا: إن مَن داوم على تلاوته لا بُدَّ أن يوده الودود بالود الإلهي، والانعطاف الروحاني يجبر خاطره على حسب استعداده، فإن كان من السالكين فهو له مفتاح لحضرة القرب، ومصباح لإنارة ظلمة القلب، وبه تشرق أشعة شمس الروح على ساحته، فتنشرح الصدور، وإن كان من غير السالك فلا بُدَّ أن يوده الحق بما يُصلح به شأنه من أمر الدنيا والدين. ولذا كان بعض المشايخ يأمر المبتدئ بتلاوته.

(١) الواسع: مشتقٌّ من السعة، وهي قد تُضاف إلى العلم إذا اتسع وأحاط بالمعلومات، وقد تُنسب إلى التفضيل والإحسان إذا عم بالمخلوقات، فالواسع المطلق ليس إلا هو جل مجده؛ لأنه أن لوحظ إلى علمه فلا انتقاص لبحر معلوماته بل تنفذ البحار لو كانت مدادًا لكلماته، وإن نظر إلى إحسانه فيداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء لمن يشاء.

وقيل: هو الذي وسعت رحمته كل شيء فمن اتسعت أخلاقه وعطاؤه حتى لا يضيقها خوف الفقر، وغيظ الحسود وغلبة الحرص وغيرها من الصفات المذمومة فهو ذو حظ من ذلك الاسم.

الخواص: هذا الاسم جمالي، فمن أكثر من ذكره وسَّع الله تعالى رزقه، وبسط في خلقه وعلمه وشرح صدره، ولا يحصل له ضيق المعيشة، ويجعل له من كل أمرًا فرجًا ومخرجًا.

مَن يسأل عنه كل شيء، ولا يسأل هو عن شيء، يا مَن ينـــزل إلى السماء الدنيا في الأسحار، ويفتح أبواب البركات، ويجيب الدعوات.

نسألك أن تنصرنا على أعدائنا الظاهرة والباطنة، وأن تجعلنا آمنين سالمين غانمين، وأن تقضي حاجتنا، وأن تفيض علينا ما هو خير لنا في الدَّارين، وأن تعصمنا مما يهتك العصم، أو يُغيِّر النعم، أو يوجب النقم، أو يحبس غيث السماء، أو يدين علينا الأعداء بحرمة الأنبياء، والمرسلين، والملائكة المقرَّبين، وعباد الله الصالحين، آمين بجاه النبي الأمين.

هذا بعض ما في الحروف من التفصيل، وقد يزيد على هذا عند أهل الذوق السليم، فإن الأسماء والصفات، وإن كانت توقيفية مضبوطة محدودة عند بعض أهل الشرع؛ لكن كما لا نهاية لذات الله تعالى، فكذا لا نهاية لأسمائه وصافته دلّ عليها شؤونه المختلفة الغير المتناهية كما قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

وأمَّا ترتيب الإمام: فقد وقع على غير ترتيب حروف التهجِّي؛ بل على ما وقع في آية الفتح من الميم إلى الصاد، كما قال حفص بن غياث الذي هو من معاصري الإمام، ومات سنة أربع وتسعين ومائة هـــ: سألت الأمام: أن يعملني الأسماء التي يدَّعي بها المرتبة على ترتيب ما في سورة الفتح فأملاها على نسق الآية فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

(**م**): اللّهم أنت منَّان، مجيب، مؤمن، مهيمن، ملك، متكبِّر، مصوِّر، مليّ، معطِ، مانع، مالك، مليك، متعال، مسبِّح، ماجد، محي، مميت، معزٌّ، مُذلٌّ، مُقتدر، قادر، متين أسألك رضوانك والجنة.

(**ح**): اللّهم حيٌّ، حنَّان، حيّ، حليم، حميد، حكيم، حق، حفيظ، حسيب، أسألك رضوانك والجنة.

(**د**): اللّهم أنت دائم، ديَّان، دافع، أسألك أن تدفع عنِّي شر ما أحذر من الدنيا والآخرة، أسألك رضوانك والجنة.

(ر): اللّهم أنت رحمن، رحيم، رب، رءوف، راحم، رزَّاق[١] فارزقني من حيث احتسب، ومن حيث لا احتسب، أسألك رضوانك والجنة.

(س): اللّهم أنت سلام، سميع، سامع تسمع دعائي، وتعلم سرِّي وعلانيتي فلا تعرض عني، وسلّمني من الشر كله، أسألك رضوانك والجنة.

(و): اللّهم أنت واجد، ول،ي ودود، وارث، وهَّاب، أسألك رضوانك والجنة.

(ل): اللّهم أنت لطيف ترزق مَن تشاء بغير حساب، فارزقني مغفرة من عندك، واجعلني من عبادك الصالحين، أسألك رضوانك والجنة.

(أ): اللّهم أنت الله، الأول، والآخر، وفقني لِما تحب وترضى، وجنبِّني عمَّا تسخط وتغضب منه، أسألك رضوانك والجنة.

(هـ): اللّهم أنت هادٍ فاهدني بهداك، وأخرجني من الظلمات إلى النور، أسألك رضوانك والجنة.

(ذ): اللّهم أنت ذو الجلال والإكرام، ذو القوة المتين، ذو العرض المجيد، ذو

---

(١) الرزاق: صيغة المبالغة من الرزق بالكسر بمعنى: ما ينتفع به هو الذي خلق الأرزاق والمرتزقة، وأوصل إليهم بخلق أسباب التمتع بها، والرزق إما ظاهري هو لحصول قوة الجسد إلى مدة قريبة الأبد، أو باطني هو للقلب كالمعارف المفضية إلى حياة الأبد.

ومن ها هنا قيل: هو الذي رزق الأشباح موائد إحسانه والأرواح عوائد عرفانه، وحظ العبد منه ألا ينتظر الرزق إلا منه، ولا يتوكل فيه إلا عليه ويرزقه الله تعالى علمًا هاديًا ولسانًا مرشدًا يكون سببًا لوصول الأرزاق الشريفة إلى القلوب بأقواله وأعماله، ولا أقل من أن يصير واسطة في إيصال الرزق الظاهر بين الرزاق المطلق وعباده.

الخواص: هذا الاسم جمالي، فمن نقشه على خاتم وتختم به، وأكثر من ذكره في ليلة النصف من شعبان يسَّره الله تعالى القوت الطيب من الرزق المقسوم، ولا يداوم عليه أحد إلا يجمع الله له أسباب الخير ظاهرًا أو باطنًا، ومن قرأه قبل صلاة الفجر في كل زاوية من الزوايا الأربع له من حجرة عشر مرات كانت محفوظة من نقب السراق، ولا يفتقر صاحبها أبدًا لكن يشترط أن يشرع عن جانب اليمين، ولا يتحول وجهه عن الكعبة المشرفة حين القراءة من كل زاوية، ويصلح ذكره لمن كان اسمه عبد الرزاق.

الفضل العظيم، ذو المنِّ الجسيم، ذو الطول العميم، أسألك رضوانك والجنة.

(**ك**): اللّهم أنت المكون يكون منك كل شيء، وما كان فهو منك، كنت قبل كل شيء، وتكون بعد كل شيء، أسألك رضوانك والجنة.

(**ن**): اللّهم أنت نور السماوات والأرض، ومنوِّر النور وخالقه، وخالق كل شيء، أسألك رضوانك والجنة.

(**ع**): اللّهم أنت عليّ، عظيم، عليم(1)، عزيز، عفوّ، عدل، فاعفُ عنِّي ما سلف من ذنوبي، ووفقني فيما بقي من عمري لطاعتك، أسألك رضوانك والجنة.

(**ش**): اللّهم أنت شاكر، مشكور، شاهد لا تغيب، شهيد تشهد سرَّي وعلانيتي، تعلم ضميري قلبي، لا يُخفى عليك شيء من أموري، أسألك رضوانك والجنة.

(**ي**): لم يأتِ الإمام بشيء من الأسماء التي أولها الياء المنشأة؛ ولكن جاء بها

---

(١): بمعنى العَالم، والعالم مَن قام به العلم، وهو صفة بمعنى متعلّقها المعلومات واجبة وجائزة ومستحيلة، فهو تعالى يعلم ذاته وصفاته وأسمائه، ويعلم ما كان وما يكون من الجائزات، وإنه إذا كان كيف يكون ويعلم المستحيل، كشريكه من حيث استحالته وانتفاء كونه، وما يترتب عليه.

إذ لو كان لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢] **والتقرُّب به من جهة** التعلُّق في الاكتفاء بعلمه دينًا ودنيا، ومن جهة التخلُّق تحصيل العلم لإفادته للمحتاجين إليه كما هو شأنه سبحانه وتعالى في عباده.

وخاصيته: تحصيل العلم والمعرفة، فمن لازمه عَرف الله حق معرفته على الوجه الذي يليق به.

وفي شمس المعارف: مَن انبهم عليه أمره في كشف سرٍّ من أسرار الله فليدم عليه؛ فإنه ييسِّر له ما سأل، ويعرف الحكمة فيما طلب، وإن أراد فتح باب الصفة الإلهية فُتح له باب من العلم والعمل.

وذكر في اسمه: (**علاَّم الغيوب**): من دوام ذكره بصيغة النداء: (يا علام الغيوب) إلى أن يقلب عليه منه حال فإنه يتكلم بالمغيبات، ويكشف ما في الضمائر، وترقى روحه إلى أن يرقى في العالم العُلوي، ويحدِّث بأمور الكائنات والحوادث.

وفي «كيمياء السعادة» للحليمي: (يا علام الغيوب الغيب والشهادة) مَن داوم عليه دُبر كل صلاة مائة مرة صار صاحب كشف إيماني.

وفي «الأربعين الإدريسية»: يا علاّم الغيوب، فلا يفوته شيء من علمه ولا يؤده، وإدامته لقوة الحفظ وزوال النسيان، والله أعلم.

بعد الكاف: اللّهم كاف كريم كبير، كفيل تكفلت برزق العباد، وزرق كل دابة، فكفيتهم، فاكفني شر نفسي، وشر الإنس والجن، أسألك رضوانك والجنة.

(**ف**): اللّهم أنت فردٌ، فعَّال لِما نشاء، فتَّاح بالخيرات، فافتح لي أبواب فضلك ورحمتك، أسألك رضوانك والجنة.

(**ب**): اللّهم أنت برءٌ، بارئ، بريء، باعث، باقٍ، بديع ابتدعت ما شئت، وكل شيء بعدك، أنت الباقي بعدهم، أسألك رضوانك والجنة.

(**ت**): اللّهم أنت توَّاب ترى ولا تُرى، وأنت بالمنظر الأعلى، تب عليّ توبة نصوحًا، أسألك رضوانك والجنة.

(**ج**): اللّهم أنت جبَّار، جميل، جوَّاد فجد علينا برضاك، أسألك رضوانك والجنة.

(**غ**): اللّهم أنت غفّار، غفور، غافر، غياث، غني استغيث عنّي وعن العباد، وافتقرنا إليك، أسألك رضوانك والجنة.

(**ض**): اللّهم أنت المضيء بك الضوء، تضيء مَن تشاء، وتُضلُّ مَن تشاء، وتهدي مَن تشاء، فلا تضلّني بعد إذ هديتني، أسألك رضوانك والجنة.

(**لا**): اللّهم لاحق الخير بالشر، والشر بالخير، لا تلحق خيري شرًّا، وأخرجني من الظلمات إلى النور، أسألك رضوانك والجنة.

(**ث**): اللّهم أنت ثابت فثبتني في طاعتك، ولا تخرجني منها، وثبتني بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، أسألك رضوانك والجنة.

(**ز**): اللّهم أنت زاجر، زجر زجرت البحر عن البحر، وزجرت الشياطين عمَّن شئت فازجر عنّي شياطين الإنس والجن، أسألك رضوانك والجنة.

(**خ**): اللّهم أنت خالق، خبير خلقتني، وكل شيء خلقك، بيدك الخير، فاختم لي بالخير، والسعادة، والشهادة، أسألك رضوانك والجنة.

(**ط**): اللّهم أنت طاهر، طاوٍ، وتطوي السماوات كطي السجل للكتب، طوقني للعمل بطاعتك كما طوقت الكروبيين، وحملة عرشك، أسألك رضوانك والجنة.

(ظ): اللّهم أنت ظاهر ظهرت فلا تُرى، وبطنت فلا تُخفى، وأنت المنظر الأعلى تب علي توبة نصوحًا، أسألك رضوانك والجنة.

(ق): اللّهم قيُّوم[(١)]، قائم، قدير، قريب، قاهر، قهَّار وامنن عليّ بخير القضاء والقدر، أسألك رضوانك والجنة.

(ص): اللّهم أنت صمد، صادق تصدَّق عليّ بالجنة، واعتقني من النار، وأسألك رضوانك والجنة.

اللّهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقِنا عذاب النار انتهى.

وهذا ما أملى الإمام، على ما في الضياء المعنوية، ولا يخفى أن ما ذكره الإمام بعضها الأسماء الشهيرة، وبعضها الصفات بحسب المناسبات، ومنه يعلم أن الأسماء عنده ليست بتوقفية.

---

(١) وقال سيدي عبد الله الشرقاوي: هو القائم بالأشياء؛ إذ لولا إمداده لها ما بقيت وما وجدت.
وقيل: هو القائم بنفسه الذي لا يفتقر إلى غيره، وهو القائم به غيره من خلقه، أو القائم على الأمور أولها وآخرها، ظاهرها وباطنها.
قال تعالى: **﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾** [الرعد:٣٣].
وخاصيته: حصول القيام والقيومة ذاتًا وصفاتًا، قولاً وفعلاً، فمَن ذكره مجردًا ذهب عنه النوم، ومَن ذكره مع الحي بأن قال: يا حيٌّ يا قيُّوم من مبادئ طلوع الفجر إلى طلوع الشمس وجد في نفسه من الخفة، والنهضة، والتوفيق ما لا منَّ الله عليه.
ويُقال: إن بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام حين دخلوا البحر عن اسم الله الأعظم، فقال لهم: قولوا: أهيا؛ يعني: يا حي، شراهيا؛ بمعنى: يا قيُّوم، فقالوا ذلك فنجوا من الغرق، فإذا دعا به مَن في البحر نجّاه الله من الغرق.
وعن أبي علي الكتاني رضي الله عنه **قال**: «رأيت رسول الله ﷺ في المنام قلت: يا رسول الله ادعُ الله ألا يميت قلبي، فقال: إن أردت أن يحيي قلبك، فقل في كل يوم أربعين مرة: ياحيُّ يا قيُّوم لا إله إلا أنت».
وانظر: شرح ورد الستار (ص٩٤١) بتحقيقنا.

وفي سورة الطور

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

جمع العين الكثرة عيون الأسماء الحافظة، على أن وجود الحق وجه كله، والوجه عين كلها، ومن ثمة كان النبي ﷺ عينًا كله، وهو في الصلاة المقتضية للمحاذاة الإلهية، ولذا كان يرى من قدام ومن خلف، فالحضرة الواحدة إذا كانت محفوفة بالعيون الكثيرة فلا يمسها الأيدي وإن تطاولت، ولذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، أراد بالجلالة الأعين، وأسماء القدرة والإرادة، وقد يعبر عن الأسماء الجزئية بالأيدي.

كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس: ٧١]، فإن المقصود توجه الأسماء الجزئية لخلق الأنعام المتنوعة، ولذا جمعها.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] في حق أبي البشر، فإن التشبيه فيه إشارة إلى الجمال والجلال، واللطف والقهر، والتنـــزيه والتشبيه، فكل منهما يد كلية، متوجهة لخلق آدم الذي جمع الله تعالى فيه الجموع.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

فإنما أفرده؛ لأن ذلك راجع إلى الذات، وهي واحدة بخلاف الصفات، والمراد بالروح؛ النفس الرحماني؛ لأن كل ذي روحٍ إنما يتنفّس بالروح؛ لكن إضافة إلى نفسه؛ لأن المراد به الروح الإنساني الذي هو مظهر سرِّ الإلهي، لا الروح الحيواني الذي هو مدار الحسِّ والحركة، فإن ذلك من شعبه.

ويشارك الإنسان فيه جميع الحيوانات بخلاف الروح الإضافي، والملك وإن خُلق من نور؛ لكن ليس له من الروح ما للإنسان منه؛ ولذا أضافه تعالى إلى نفسه؛ لأن الإنسان هو الذي صار خليفة الله، وجمع جميع الأسماء على جناح الجمال فقط، والجن على جناح الجلال فقط، وسائر الأشياء دون ذلك في الأسرار بالفعل، وإن كان في كل ذرة ما في الكل.

***

في سورة النجم

قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ [النجم:١٣].

: أي وبالله لقد رأى محمد جبريل - عليهما السلام - على صورته الحقيقة؛ وهو باسط ستمائة جناح يتناثر منها الدرُّ والياقوت.

قال تعالى: ﴿نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [الآية:١٣]: أي مرة أخرى من النـــزول؛ لأنه كان للنبي ﷺ ليلة المعراج عرجات لمسألة التخفيف من إعداد الصلوات المفروضة، فيكون لكل عرجة نزلة، فرأى جبريل في بعض تلك النـــزُّلات عند سِدرة المنتهى ظرف للرؤية.

وسِدرة المنتهى؛ مقام جبريل، وقد كان بقى هناك عند خروجه ﷺ: أي مستوى العرش، وقال: لو دَنوت أنملة؛ لاحترقت: أي لأن لكل من الروحانيين مقامًا معلومًا ظاهرًا وباطنًا لا يتجاوزه؛ ولذا ذمَّ المدَّعي والشُّطح.

وسُميت المنتهى؛ لأنه ينتهي إليها ما يهبط من فوقها من الأحكام، ويصعد من تحتها من الآثار؛ كالأعمال، وهذا بالنسبة إلى العامة.

أمَّا الخواص فلهم سِدر الانتهاءات بحسب خلوصهم وشهودهم، فيقف بعض الأعمال في سِدرة المنتهى، وبعضها يتجاوز إلى اللوح، وبعضها إلى القلب، وبعضها لا يعلم مكانها إلا الله تعالى.

وكل ذلك مدَّخر لصاحبه؛ لينتفع به يوم القيامة، ولتلك الأعمال صور مجسَّدة تُرى على إيمانهم يوم القيامة طريقًا تسلكها، فتأخذ بها تلك الطريق مشاهدة أصحابها، فيتخذها العاملون مراكب تحملهم إلى مستقر الرحمة.

وأمَّا أعمال الأشقياء فتقوم لها طرق متداخلة عن يسارهم لا تعرف: أي طريق تمشَّى بها أصحابها، فترجع من الحيرة إلى الله بالذكر.

فمنها لا يهتدي إلى صاحبه أبدًا رحمة من الله تعالى، ومنها ما يهتدي إليه فيتعلَّق به فيقول: أحملني فقد تعبتني في طلبك؛ فيجبر العامل على حمله إلى أن تناله رحمة الله تعالى، ثمنه ما من قصر ولا طاف في جنة الأعمال إلا وغصن من أغصان السِّدرة داخل فيه، وفي ذاك الغصن من النبق؛ وهي ثمرة السِّدرة على قدر ما في

العمل الذي هذا الغصن صورته من الحركات، وما من ورقة في ذلك الغصن إلا وفيها من الحسن بقدر ما حضر هذا العبد مع الله تعالى في ذلك العمل، وأسعد الناس بهذه السدرة أهل بيت المقدس، كما أن أسعد الناس ﷺ أهل الحرم المكي، كما أن أسعد الناس بالحق أهل القرآن(١).

---

(١) ومن اجتباء الله تعالى لهذه الأمة، جعلنا الله منها ما رُوي عنه ﷺ: أنه قال: «إذا كان ليلة القدر أمر الله جبريل أن ينـــزل إلى الأرض، ومعه سكان سدرة المنتهى سبعون ألفًا من الملائكة، ومعهم ألويَّة من نور، فإذا هبطوا إلى الأرض ركّز جبريل لواءه، والملائكة أوليتهم في أربعة مواضع: عند الكعبة، وعند قبر النبي ﷺ، وبيت المقدس، وطور سيناء، ثم يقول لهم جبريل عليه السلام: تفرَّقوا، فيتفرقون، فلا تبقى دار ولا حجرة ولا بيت فيه مؤمن ولا مؤمنة إلا دخلته الملائكة إلا بيت فيه كلب أو صورة أو خنـــزير أو جنب من حرام، فيسبحون ويقدسون، ويهللون ويستغفرون لأمة محمد ﷺ حتى إذا كان وقت الفجر يصعدون إلى السماء، فيستقبلهم سكان سماء الدنيا.

فيقولون: من أين أقبلتم؟

فيقولون: كانت ليلة القدر لأمة محمد ﷺ،

فيقولون: ما فعل الله بأمَّة محمد؟

فيقول لهم جبريل عليه السلام: غفر الله لصالحيها، وشفع صالحيها في طالحيها، فترفع الملائكة أصواتها بالتسبيح شكرًا لله تعالى وكرامة لهذه الأمة المحمدية، ثم تبقى كذلك الأصوات من سماءٍ إلى سماءٍ حتى تنتهي إلى السماء السابعة، ثم يرجع كل من الملائكة إلى محلّها، وسكان كل سماء إلى سمائها، ويرجع سكان سدرة المنتهى إليها، فتقول سدرة المنتهى لسكانها: أين كنتم البارحة؟ فيقولون: كانت ليلة القدر لأمة محمدﷺ، فتقول: ما فعل الله بحوائج أمة محمد؟ فتقول الملائكة: غفر لصالحيها، وشفع صالحيها في طالحيها، فترفع السدرة صوتها بالتسبيح والتهليل شكرًا لما أعطى الله تعالى هذه الأمة من المغفرة والكرامة، فتسألها جنة المأوى، فتخبرها، فما يزال ذلك التسبيح حتى ينتهي إلى العرش.

فيقول لها العرش: أيتها الأحبة لم رفعتم أصواتكم؟

فيقولون: كانت الليلة ليلة القدر لأمة محمد ﷺ،

فيقول العرش: ما فعل الله بحوائجهم؟

فتقول الجنان: غفر الله لها، وشفع صالحيها في طالحيها.

فيقول المولى جلّ جلاله، وتقدَّس، وتنـــزَّه عن سِمات المحدثين، وتعالى عن صفات المخلوقين: يا
=

قالت رابعة العدوية: سبَّحت ذات ليلة بتسبيحات من السَّحر ثم نمت؛ فرأيت شجرة خضراء نضرة لا يُوصف عظمها وحسنها، فإذا عليها ثلاثة أنواع من الثمر لا أعرفه من ثمار الدنيا؛ كثدي الأبكار؛ ثمرة بيضاء، وثمرة حمراء، وثمرة صفراء؛ فهن يلمعنَّ كالأقمار والشموس في خلال خضرة الورق فاستحسنتها.

فقلت: لَمن هذه؟

فقال لي قائل: هذه لك بتسبيحاتك آنفًا.

قالت: فجعلت أطوف حولها، فإذا تحتها ثمرة مستنشرة على الأرض في لون الذهب.

فقلت: لو كانت هذه الثمرة مع هذه الثمار على هذه الشجرة؛ كانت أحسن.

فقيل لي: قد كانت هناك إلا أنك حين سبحت تفكّرت هل تخمر العجين أم لا، فانتشرت؛ فهذه عبرة لأولي الأبصار، وموعظة لأهل الأذكار.

ثم إن ابن برجَان من أفاضل أهل التفسير ومكاشفيهم أرجع ضمير رآه إلى الله تعالى، وجعل الإسراء مرتين؛ مرة وهي الأوْلى بالفؤاد مقدَّمة، وهذه بالعين، ولمَّا كان ذلك لا يتأتَّى إلا بتنـــزُّل يقطع مسافات البعد التي هي الحجب؛ ليصير به بحيث يراه البشر.

=

عرشي لم رفعت صوتك؟ وهو العليم الخبير، السميع البصير.

فيقول: يا ربِّ أنت أعلم، وأنت العالم الخبير، يا إلهي بلغني أنك غفرت البارحة لصالحي أمة محمد ﷺ، وشفعت صالحيها في طالحيها.

فيقول المولى الكريم؛ البر الرحيم؛ لكمال إحسانه وجوده، وإفضاله واجتبائه لنبيه: يا عرشي صدقت، ويا سماواتي، وسكانها صدقتم، إن لأمة محمد حبيبي من الكرامة والخيرات في دار البقاء؛ ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﷺ وعلى آله ما طلعت شمسٌ وقمرٌ، فابشروا يا أمة محمد ﷺ بهذه الخيرات، واعلموا أن الله تعالى فضَّلكم على سائر الأمم، واجتباكم، وأنزل عليكم البركات، وجعل نبيكم أشرف أهل الأرض والسماوات، واكثروا من حبِّه وذكره، وأخِّروا عنده التسليم عليه والصلوات؛ فلقد شَهِدت بفضله عند ربه جميع الخلائق، وأنه أفضل المخلوقات». ذكره الرصاع في تذكرة المحبين (ص٢٢٦).

عبَّر بقوله: ﴿نَزْلَةً أُخْرَى﴾ ليُكمل له الأمر مرة في عالم الكون والفساد، وأخرى في المحلِّ الأنزه الأعلى، وعيَّن الوقت بتعيُّن المكان، فقال: ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى﴾ كما في تفسير المناسبات: ولا يلزم إثبات المكان والجهة لله تعالى؛ إمَّا لأن المتقيِّد بالعندية؛ هو الرائي، ولا يلزم من كونه عند سدرة المنتهى حين الرؤية كون الحق تعالى عندها، وإمَّا لأن المرء عندها وإن كان هو الحق تعالى إلا أنه لَمَّا كان متجلِّيًا بصفته وذاته محتجب بها؛ لم يلزم أن يكون متقيِّدًا بالعندية من حيث هو: أي في مرتبة ذاته، وقد رآه ﷺ في بعض سكك المدينة أيضًا؛ وهي مرتبة تجمع المرتبتين؛ مرتبة قاب قوسين، ومرتبة أو أدنى.

وفي الآية إشارة إلى شرف بعض الأمكنة؛ كالسِدرة، والكعبة وغير ذلك، وبعض الأزمنة؛ كليلة القدر الواقع فيها المعراج يقظة؛ ولذا ترى الخواص يرغبون في الأيام والليالي الفاضلة، والأماكن والبقاع المتبركة لِما أن الإمداد الإلهي أكثر فيها؛ لكون باب الرحمة مفتوحًا للعوام والخواص بحسب قابلياتهم.

فإذا كان العبد في وقت شريف، ومكان لطيف، وقلبه أصفى، وروحه أجذب، وسرِّه أقرب؛ فلا بعد من كرم الله تعالى أن يتجلَّي له تجلِّيًا أفعاليًا أو صفاتيًا أو ذاتيًا لاسيما إن المرء في الأوقات المباركة، والأماكن المتبرِّكة جليس الملائكة.

ولا شك أنهم ينـــزلون ليلة القدر، فبقدر المجالسة يحصل الأنس، وينجذب الباطن، ويُردُّ الفيض الإلهي، والحمد لله تعالى.

لطيفة: في سنة ١٢٢٩ هـــ كنت أتفكَّر ليلة العيد الفطري في أمر الدار؛ فإني كنت أسكن بعد دخول الشام بطريق الكراء فور.

***

في سورة الرحمن:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [الرحمن:١٩].

هما بحر الوجوب، وبحر الإمكان.

والبحر في الحقيقة؛ هو بحر الوجوب؛ لاتساعه، لا بحر الإمكان؛ لضيقه إلا أنه لمّا جمع معه في محل واحد عبَّر عنه بالبحر، نعم إن الوجوب، وإن كان أوسع من الإمكان؛ لكن ظهور الشيء في الشيء؛ إنما هو بقدر قابلية المحلّ، فيكونان سواء دلّ عليه إنهم جعلوا دائرة الوجود نصفين، وجعلوا الخط المتوهِّم فاصلاً بين القوسين، فالوجود؛ كالقوسين أحدهما: قوس الوجوب، والآخر قوس الإمكان؛ وإنما جعلوا الخط متوهِّمًا لا محققًا؛ لأن الوجود الإمكاني اعتباري مفروض؛ لتمييز الحقائق، والمراتب، فإنه لولا الاعتبارات؛ لبطلت الحقائق.

قوله تعالى: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن:١٩].

التقاء الروح بالجسم؛ لأن الروح في الحقيقة بحر الوجوب، والجسد بحر الإمكان، وإن كان مخلوقًا كما ورد: «**أول ما خُلق روحي**»(١).

إلا أن الخلق لمّا كان بمعنى اقتران الوجود بالماهيات؛ عدَّ الروح قديمًا؛ لأن ظهوره بالتجلّي النوري لا يخرجه عن حقيقته؛ ولذا قالوا: إن الوجود ليس بأمر زائد على الماهية؛ بل الوجود والماهية أمر واحد في الحقيقة، وإنما قيل للماهية: وجود باعتبار ظهورها في الخارج باجتماع لوازمها.

فالروح هو النفس الرحماني الذي تروَّحت به الأسماء، وتنفّست به الماهيات والحقائق، فالنفي بالجسد؛ ليظهر في كون واحد حقيقتان الحقيقة الواجبة الفاعلة المؤثرة، والحقيقة الممكنة القابلة؛ لأن الحقيقة الأولى حقيقة عُلوية، والثانية حقيقة سُفلية.

ولا شك أن التأثير إنما يجيء من العُلو، وعلى صورهما خلق الله السماوات والأرض، فالمرض مثلاً في البدن من أحكام الجسد، والوجع الحاصل منه من أحكام الروح الحيواني المستند إلى الروح الإنساني، فكل تأثير إنما هو من الجانب العُلوي

---

(١) لم أقف عليه هكذا، والمشهور: «نوري».

الذي هو جانب الروح، وكل تأثُّر إنما هو من الجانب السُّفلي الذي هو جانب الجسد، فانظر إلى هذا الامتزاج بين الحقيقتين الداخلتين في وجودك إذ لا خارج عنك، فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]؛ إشارة على ما قلنا، فإن القول هو اللقاء، والاقتران الذي به يظهر الوجود المشار إليه بقوله: (كُنْ فَيَكُونُ).

قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ [الرحمن:٢٠]: أي بين البحرين المذكورين: ﴿بَرْزَخٌ﴾ [الرحمن:٢٠] من القدرة الإلهية: ﴿لاَّ يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن:٢٠] بحيث يكونان بحرًا واحدًا.

فإن الواجب لا يكون ممكنًا أبدًا، وكذا الممكن لا يكون واجبًا أبدًا؛ إذ لا وجود له بالنسبة إلى وجود الواجب، فهو هو، وأنت أنت، ولقد كشف هذا الغطاء مَن قال: ليس من الله على الكون أثر، ولا من الكون على الله أثر؛ ولذا قال بعض الأكابر: كُنْ عبد الرب، ولا تكُن رب العبد، وذلك بإظهار الخوارق، فإن الحديد، وإن كان محميًّا على صورة النار؛ فإن جوهره على أصله من غير استحالة، وكثير من السالكين ضلُّوا في هذا المقام، فما رجعوا إلى الطريق إلا بتوفيق الله، الملك، العلاَّم.

فتفكر يا ضعيف خُلقت ضعيفًا، ومعك قُوى بقلبك حيث شاء لا حيث شئت، فإنه ليس لك مشيئة إلا بمشيئة الله كما قال: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠] لكن الله إنما شاء ما سأله لسان الاستعداد، فقد لزمك الحُجة فاسكت، واصبر في مواضع القضاء، ومواقع القدر، فإن الأمر لا ينقلب، والحال لا تتبدَّل، [.....] والله المعين.

وقوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن:٧٢].

أي: أسرار خفية محبوسة في خيام القلوب والأرواح، والأسرار لا يَطَّلع عليها إلا أهلها؛ كالنساء اللائي تحت خيام الدنيا لا يظهرن إلا على أزواجهنَّ، وكل من هذين النداءين مستمر إلى آخر الزمان إلا أن النداء قلَّ مَن يُجيب له؛ لأن الأسماع مسدودة، والأفواه مقفولة، والقلوب مختومة غالبًا.

واقتضت الحكمة الإلهية غلبة أحكام الإمكان على أحكام الوجوب في كل زمان، فلم يحصل على الحق إلا واحد من الألف، كما يقتضيه الاسم الأعظم الحاكم

على ألف من الأسماء الجمالية والجلالية، فعليك بالتأمُّل في هذا المجلس، والاعتبار من الشيطان الذي هو مُظهر اسم المضلّ في مرتبة الشريعة.

ومن النفس التي هي مظهر ذلك الاسم في مرتبة الطريقة، ومن الجلال الذي هو المتسلّط على الخلق في مرتبة الحقيقة، واجتهد أن تخرج من عالم الشيطان، والنفس والجلال إلى عالم الرحمن والروح، والجمال فإن الله تعالى إنما خلقك؛ لتكون مرآته الجمالية بالفعل، ويده الجلالية بالقوة فاعرف.

قال الله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ*تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٧٧، ٧٨].

اعلم أن التعينات: إمَّا تعينات باطنة؛ وهي تعينات القوى الروحانية.

وإمَّا تعينات ظاهرة؛ وهي تعينات الأعضاء والجوارح، ولكل منها فناء وبقاء، فإذا فنيت التعينات الباطنة يعني عن تعلّقاتها الفانية، واستخلّت عنها بالكلية سرى فناؤها في التعينات الظاهرة، فكانت هذه التعينات أيضًا فانية عن أحكامها وتعلقاتها فلا يبقى شيء في ظاهر الوجود وباطنه إلا وهو فانٍ في الله، وباقٍ بالله.

وكما أن الله تعالى يبقى وجهه أبدًا؛ وهو ذو الجلال من حيث الظاهر، وذو الإكرام من حيث الباطن؛ لأن ظاهر الوجود وآثاره من عالم الجلال وباطنه، وأحكامه من عالم الإكرام والجمال، وكذا ما يضاف إلى وجهه الكريم. باقٍ أبدًا، ومن ثم لما أحيا الروح بالحياة الإلهية؛ سرت بركاته في الجسم، وما يتبعه؛ فكان الجسم مصونًا من الإنفساخ والانحلال، فكان الوجود بظاهره وباطنه باقيًا بربه؛ وهو وجود الخواص الكُمَّل من الناس، وكون ظاهر الوجود فانيًا متلاشيًا؛ إنما هو بالنسبة على وجود العوام النقص إذ لم يكن لهم روحانية سارية؛ كروحانية الخواص الكُمَّل؛ لكن لَمَّا كانت روحانيتهم مضافة إلى الله تعالى، منفوخة منه؛ بقيت بقاء وجه ربها؛ لأنها باطن الوجود من عالم الملكوت، وهو من عالم البقاء بخلاف ظاهر الوجود، فإنه من عالم الملك، وهو من عالم الفناء(١).

---

(١) قال سيدي محمد وفا ﷺ وعنَّا به: الفناء هو اضمحلال كل متعرضٍ متوهمٍ لا ينتهي إلى غاية محقّقة، وحقيقته: صدق العدم الذاتي على كل موجودٍ بالعرض في المجاز، وغايته: صادقٌ من العلم يمحق كل كاذبٍ من الوهم وهو الهلاك الحقيقي.

في سورة الواقعة:

قال الله سبحانه: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة:٦١].

اعلم أن الآخرة يقال لها: عالم الصفة؛ لأن الإنسان يظهر فيها على الصفة الغالبة عليه في الدنيا، فمَن كانت الصفة الإنسانية غالبة عليه في هذه الدار؛ فحشره عليها يوم القيامة، ومَن كانت الصفة الحيوانية غالبة عليه؛ فحشره عليها أيضًا يومئذ؛ لكن الحيوانات أجناس مختلفة.

ولذا جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨].

فإن بعض الناس يأتي على صورة الخنـــزير، وبعضهم على صورة القرد، وبعضهم على غير ذلك؛ كل ذلك بحسب المناسبات الصفاتية، وتلك الصفات مستورة في الدنيا بالصورة البشرية لكن الله تعالى قد يتجلّى بصورة القهر والغضب، فيأخذ بعض عباده من طريق العدل على حسب سرِّ قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤].

فيبدِّل صورهم، ويمسخهم كما فعل بأمة داود، وعيسى؛ فإنه جعلهم قردة وخنازير، فذلك من إظهار الصفة الغالبة عليهم في هذه النشأة، فإن الله لا ينظر إلى الصور والظواهر؛ بل إلى القلوب والسرائر؛ فهو من قبيل العقوبة المعجَّلة، وتلك الصور هي التي لا يعلم الظالم لنفسه أن الله ينشئه فيها في هذا العالم، ولا يخطر ذلك بباله؛ لكمال غفلته وغروره، فلا يُعاين حقيقة الحال إلا بعد وقوعها، وذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها.

ثم لا يزال الإنسان يتقلَّب من طور، وهو لا يدري أي طور يدخل فيه بعد هذا اليوم لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ﴾ [الأحقاف:٩] فقد يدخل في مرض طويل يكون يائسًا من رحمة الله التي هي عود الصحة، ثم ينتقل إلى طور الصحة، وهو الذي لا يعلم أن الله ينشئه فيه، وقس على هذا سائر الأطوار المختلفة؛ كالغنى بعد الفقر، والأمن بعد الخوف، والإقامة بعد السفر، وقضاء الدين بعد ركوبه، وحصول السكنى بعد فقده، والنفع بعد الضرر، والجبر بعد الكسر، ونحو ذلك.

فيجب على المؤمن أن يسأل الله تعالى في أن يربط قلبه حتى لا ييأس من رحمة الله الواسعة، ويكون على توقُّع سعة بعد ضيق أي ضيقٍ كان، فقد قال تعالى:

﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥، ٦]؛ يعني: إن اليسر مقارن للعسر فيتعقبه، وقد يكون في العسر سرُّ اليسر، ولا يشعر به المعسور.

والحاصل: إن الآية وعد لمتوقع الخير، ووعيد لفاعل الشر، والله عند حسن ظن عبده به لكن العبد وجب عليه أن يلاحظ قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾** [الانفطار:٦]، فإن عبد الكريم لا بد وأن يكون كريمًا لا لئيمًا.

ثم في الآية إشارة إلى أن إنشاء المذكور لا يستلزم الاستحالة؛ وهو قلب الحقائق، فإن الإنسان لا يصير خنـــزيرًا مثلاً أبدًا، وإنما يظهر في صورته، وكذا لا يصير ملكًا وإن كان ظاهرًا بصورته؛ كجبريل في صورة شاب، أو في صورة دحية، أو نحو ذلك من الصور الحسنة، وكذا الجن والمتروحنون.

ومن ذلك الكيمياء فإن الإكسير لا يقلب النحاس ذهبًا حقيقة؛ وإنما يقلب صفة النحاس، فيظهر في صورة الذهب، ثم لا يرجع إلى أصله أبدًا كما أشار إليه قولهم: لو وصلوا ما رجعوا، وقد نازع فيه بعضهم من لا خبرة له بحقيقة الحال، وقس على هذا سائر الاستحالات؛ فإنها استحالات صورة لا حقيقة، وإن زعم بعضهم الحقيقة في كل ذلك.

***

في سورة الحديد

قال الله سبحانه: **﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾** [الحديد:١٣]: أي بين أهل الجنة الذين هم أهل الروح والسرِّ، وبين أهل النار الذين هم أهل النفس والطبيعة.

قال تعالى: **﴿بِسُورٍ﴾** [الحديد:١٣]: أي بحجاب القدرة.

قال تعالى: **﴿لَّهُ بَابٌ﴾** [الحديد:١٣]؛ هو باب القلب.

قال تعالى: **﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾** [الحديد:١٣]؛ وهو الروح والسرُّ، وآثارهما وأنوارهما.

قال تعالى: **﴿وَظَاهِرُهُ﴾** [الحديد:١٣]؛ وهو النفس والطبيعة وظلماتهما.

قال تعالى: ﴿مِن قِبَلِه الْعَذَابُ﴾ [الحديد:١٣]: أي الجلال؛ لأنه كما أن الرحمة من قبيل الجمال؛ فكذا العذاب الذي هو الغضب من قبيل الجلال، وجعل الروح والسر من جانب الباطن؛ لأنهما يليان عالم الملكوت واللاهوت، والنفس والطبيعة من جانب الظاهر؛ لأنهما تليّان عالم الملك والناسوت.

ولا شك أن الملكوت باطن الملك كما أشار إليه قوله: ﴿بِيَدِه مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون:٨٨]، فهو بمنـــزلة الروح من الجسد، فكما أَن الجسد مرآة الروح؛ فكذا الملك مرآة الملكوت، إذ لا يقبل المجرَّدات الصور في نفسها؛ لعدم تحيُّزها؛ وإنما تحيُّزها تابع لتحيُّز المتحيِّزات فلا تُقبل الرؤية إلا من المرآة، وكذا اللاهوت والناسوت، فعلم أن القلب كالأعراف في كونه برزخًا بين ما فوقه، وما تحته، وله حظ من كل منهما؛ ولذا جعل جامعًا للضِّدَّين، وأفضل من كل من الطرفين.

والكامل إنما يدخل الجنة باعتبار الطرف الفوقاني لا باعتبار الطرف التحتاني؛ فإن طرف التحتاني قدم الجبار، فيُوضع الأول في الجنة، والثاني في النار، فهو في الدنيا نفس وطبيعة في الظاهر، وروح وسرٌّ في الباطن، وفي الآخرة روح وسرٌّ في الظاهر، والباطن جميعًا ليس معه نفس وطبيعة؛ لأنهما قد بقيتا في الدنيا بعد التزكية، والتي يُعبَّر عنها بالقدم؛ هي صورتهما الممثَّلة في الآخرة، ولا تُعلَّق لهما بالجنة(١).

---

(١) قال سيدي محمد وفا في العروش: كل موضوع لمحمول إمَّا مفصول عن عين تجلّيه، أو مخلوع عن عين تنـــزُّله وتدلّيه الأول بالقوة، والثاني بالفعل، وهو عرشٌ لاستواءاته، وفُلك لوسع حمل صور موضوعاته بحيث جعله، وكتاب مكنون كلمات قلم نثره ونظمه، وحجابٌ لغيب بطونه عن مشابهة مِثله، وعين حق لتجلّي قوَّته بفعله، وكرسي لموضع قدمي مفصولة بتخصيص رحمته وعدله، وحفظ ترتيبه في موضوع تعاقب موضوعاته في تولّي بعدِه وقبله، ولوح لتعيين مولّدات كون تكوين قلَم تسطيره وتصويره، فالكرسي فصل عن وصل، والعرش فصل في وصل.

فجبروتٌ ملكوت وملكوت مُلك، وكل مجعولٍ في حضرة عرشيه جنة فردوس لا يقابلها جحيم، ولا عذاب أليم، ولا غير أليم، وكل مخلوقٍ تحت كرسي؛ إمَّا في مادة قدم صدق؛ فجنة نعيم، وإمَّا تحت حصر قدم الجبار؛ فجحيم وعذاب أليم.

وهذه من حقائق القدمين والقبضتين، والحشر مع القرينين، والحافظين الكاتبين، وهو بحسب ما يعطي الأخلاق والتخلُّقات من لباس تلبيس الصور بالتصوُّرات، وبها يكون تفاوت الدرجات =

=

والدركات؛ وهو الكتاب المرقوم في علّيين، والكتاب المرقوم في قعرة سجين.

واعلم أن حَمَله الموضوع أنوار المحمول؛ وهي السبع المثاني، وكيفية حملها؛ كحمل المادة بالهيولي للصورة، والحروف بالمنطوق للمفهوم، فهم صفاتٌ عظام أزلاً، وحملة كرام أبدًا، فالمحمول حقيقة الموضوع وباطنه، والموضوع حق المحمول وظاهره.

فالعرش جبروتي؛ وهو كتاب للأسماء الإلهية، مرآة للتجلّيات الرحمانية.

والكرسي وهو مرآة للتمثُّلات الروحانية، والتنـزُّلات بالأسماء الربَّانية.

واللوح ملكي وهو محلُّ التعينات الكونية، والتشكلات الخلقية.

فالعرش بموضوعه ومحموله وحملته محمول في الكرسي على حُكمه وحِكمته، والكرسي بموضوعه ومحموله، وحملته محمول في اللوح على سنَّته ونسبته.

فالأول: روح القدس أصل الأرواح المحمَّديَّات.

والثاني: روح القدس أرواح المليكات.

والثالث: روح القدس أصل الأشباح البرزخيات.

فمحمد وجبريل وميكائيل بالأول والثاني، والثالث في التفصيل والتحميل، ويُقال لهم في جمع جمع الفرق، وعين نسخة موضوع الحق: وهو آدم القدم الصدق، ومنارة الفصل في الوصل والفتق في الرتق، قلبٌ وروح وسرٌّ في المحمَّديَّة الجبروتية، وعقلٌ ونفسٌ وتصوُّر في الملكوتية الجبريلية، وإدراكٌ وحسٌّ وتخيُّل في ملك الميكائيلية.

وبما كانت النقطة المائية المجتمعة بالقوة من اللطائف الهوائية الحاملة للدرة التي هي قائمة بعالم القدرة، قد فرضت من الدهر الزمان، ومن الهواء المكان، وبقوة التجلّي الأشكال والأعيان، وكانت بأسرار السبعة الأنوار المثاني في أوضاع الأعيان والمعاني؛ قامت كل صفة منها بمائة من الأسماء الحسنى، وكل اسمٍ بألفٍ من التجليَّات العُلا، وتمثُّلات روح قدس الحياة، فكان منها سبعمائة ألف رقيقة، ولكل زمان ومكان وشكل واسم؛ وهي حكمة الدقائق والحقائق؛ فالرقائق ملكية، والأسماء ربَّانية، والدقائق كلية: أي كل دقيقة منها جامعة على انفرادها؛ لمجموع الدقائق والرقائق والحقائق بكمالها؛ وهي من نمط انحصار الأنواع في الأشخاص؛ وهو ما قاله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا**»، وقال ﷺ: «**إن لله مائة رحمة**»، وقال: «**إن في الجنة مائة درجة**». وهذا بالدقائق والرقائق والحقائق.

واعلم أن قيام هذه السبعمائة ألف بالزمان والمكان، والدقيقة والرقيقة الحقيقة؛ كان في دفعة واحدة لا

=

واعلم أن الإنسان الكامل ظاهره باطن الكافر، وباطنه ظاهره، وذلك أن ظاهره هو اللطف والجمال، وباطنه هو القهر والجلال، وقد كان حال الكافر في الظاهر؛ هو الجلال الباطن في الإنسان الكامل، كما إن حال الإنسان الكامل في الظاهر؛ هو الجمال الباطن في الكافر، فظاهر الكافر من قبله العذاب، وباطنه فيه الرحمة؛ فيكون الإنسان مظاهره وباطنه مرحومًا إن كان مؤمنًا؛ لأنه لا أثر للجلال الباطن في الظاهر؛ لأنه مطروح في المال كما سبق، أو بباطنه مرحومًا فقط إن كان خلافه؛ لأنه لا أثر للجلال الظاهر في الباطن أيضًا.

وإنما قلنا: إن باطن الإنسان الكامل؛ هو القهر والجلال؛ لأنه وإن كان مُزكّي من الصفات بالرؤية لكن النفس أمارة بالسوء، ولو بالقوة، وإلا لبطل التكليف، ولما حصل الترقّي إلى أن يأتي اليقين، فالاعتبار بالقوة لا يستدعي الحقيقة بالفعل، وقد غفل عنه أكثر السالكين؛ بل أغلب المكاشفين.

=

متعاقبة ولا متفاوتة، وهذه الكثرة في الوحدة، فإذا قدرت بروز هذا المجموع بالتعاقب في الوضع، والتلاحق في النسل بالبعد، والقيل؛ فقدِّر بالحيثية الزمانية سبعمائة ألف سنة، وتكون دقائقها التي ائتلفت منها ساعاتها وأيامها، وجمعها وشهورها، وسنينها في تقدير تكثيرها، وتعددها نهاية في العدد، وغاية في تكثير المدد: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَداً * وَكُلُّهُمْ آتيه يَوْمَ الْقيَامَة فَرْداً﴾ [مريم:٩٤، ٩٥]. فإذا انتهى هذا العدد، ونفد هذا المدَد؛ عاد الأمر، وتجدَّد حتى تَكمُل أحكام أيام السبع المثاني، والقرآن العظيم، ويُختم الأمر عند تجلّي إحاطة بسم الله الرحمن الرحيم، يكون ذلك وقت الفراغ والانصرام، والقيام الأكبر في يوم الملك الحي القيُّوم العُلا، وهذا من سرِّ الوحدة في الكثرة، وقد تقدَّم أن الأيام الستة التي كل يوم منها بألف سنة؛ هي أعمار الأجسام، ودور ما دار في ترتيب النظام، وإن الستة الحواس العقلية التي كل يوم منها بثمانية آلاف سنة؛ وهو نظم اليوم الكلي الذي هو خمسون ألف سنة، فتكون هذه العقلية برازخ لتلك الحسِّية، وأعمار أشباحها، كما تلك أعمار أجسامها.

واعلم أن الزمن الفرد؛ كالنقطة الفرد لا يحتمل الفوق ولا التحت، ولا القبل ولا البعد، ولا ظرف زمان ولا ظرف مكان، وثم تتحقق حقائق العارفين، وترسخ أقدام الواصلين؛ وهو اليوم الربَّاني الإلهي، ومرآة التجلّي الرحماني العياني، وإنما التنـزيل بالتبارك حيث تبارك ستر ما هنالك: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٧٨].

فظنوا أن سلوك الأنبياء، وأكمل الأولياء من النفس الراضية المرضية الصافية، فإن هذا السلوك لا ينافي أمارية النفس في الحقيقة؛ لأن الكلام في الفعل لا في القوة، ولم يظهر من الأنبياء آثار الجلال بالفعل؛ فهم كالملائكة في صورة البشر، ويدلُّ على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ به وَهَمَّ بهَا﴾ [يوسف:٢٤].

وقوله: ﴿إنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوء﴾ [يوسف:٥٣].

وقوله: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهلينَ﴾ [يوسف:٣٣]، فاعرف هذه الجملة، والله أرحم الراحمين، وبيده نواصي العباد أجمعين.

* * *

في سورة الطلاق

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣] صدق الله العظيم.

هذه الآية الشريفة جامعة لأنواع التوكُّل، وأضاف الحاجات؛ فإن اسم الله تعالى جامع لمراتب الأسماء التي لا يتجاوزها حاجات الناس مع اختلاف مراتبهم، وتفاوت طبقاتهم، فمن ذكر كان أو أنثى، عبدًا كان أو سيدًا يتوكَّل على الله الرزَّاق في أمر الرزق؛ فهو حسبه فيه.

ومعنى التوكُّل: أن يجعل الله تعالى وكيلاً له، كما قال الله تعالى: ﴿فَاتَّخذْهُ وَكيلاً﴾ [المزمل:٩].

ولذا قالوا: التوكُّل كله الأمر كله إلى الله تعالى؛ وكذا مَن يتوكَّل على الله الشافي في باب الشفاء عن أمراضه الجسمانية والروحانية؛ فهو حسبه فيه، وكذا مَن يتوكَّل على الله الجامع في خصوص الجمع لما تشتَّت منه، وتفرَّق؛ فهو حسبه، وكذا مَن يتوكَّل على الله الغني في مغني الغني، ودفع الافتقار بكل وجه من الوجوه غير الافتقار الذاتي، فإنه لا يرتفع أبدًا؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكَّل على الله العزيز في دفع ذلَّة الذي هد يُعطر ذُلَّ اليهود؛ فهو حسبه فيه.

ومَن يتوكَّل على الله المكرم في إزالة إهانته الموجبة لهوانه بين الناس المقتضية للاستيحاش عند الاستنباش؛ فهو حسبه، ومَن يتوكَّل على الله القوي؛ لرفع ضعفه الحاصل له من مرضه أو منْ غيره إلا الضعف الخلقي الذي أشار إليه قوله تعالى:

﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكّل على الله المعين القادر في رفع عجزه وسلبه، وجلب إعانة له في حصول مطالبه؛ فهو حسبه.

ومَن يتوكّل على الله المقسط في دفع وجوده، الموجب لحوره بعد كوره؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكّل على الله القاهر في قهر أعدائه الظاهرة والباطنة، وانتقامه منهم في سرِّه وعلانيته؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكّل على الله الولي النصير في تولّي أموره، ونصرته على الجند المخالف له أي جند كان؛ فهو حسبه، ومَن يتوكّل على الله النافع الضار في إيصال النفع، وإبعاد الضر؛ فهو حسبه فيه.

ومَن يتوكّل على الله النور في تنوير ظاهره بأنوار السراج، وباطنه بأنوار سرِّ المعراج؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكّل على الله البصير في كشف العمى عنه، وإراءة الطريق الموصِّل إليه، وهو الهدى الذي يحصل نوره في قلبه، فيفرِّق به بين الحق والباطل؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكّل على الله السميع في حصول السمع له حتى يسمع خطابات عالم الملك، والملكوت، والجبروت، واللاهوت؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكّل على الله المتكلّم في إعطاء القدرة له في التكلُّم حتى يتكلّم من جميع المراتب، ويحصل من جانبه الهداية لجميع أرباب المطالب؛ فهو حسبه.

ومَن يتوكّل على الله الحي في قتل نفسه، وإحياء قلبه حتى يجد حياة طيبة باقية؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكّل على الله الحكيم في حصول الحكمة العظمى لقلبه، وجريان ينابيعها في باطنه، وجريان الرحيق، والنسيم، والسلسبيل، والكوثر في الجنة؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكّل على الله الهادي في أمر ضلَّ فيه، فلم يهتدِ، و لم يجد لدفع خيرته سبيلاً؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكّل على الله الرشيد في أمر إرشاده إلى أمره، ولو بلا واسطة؛ كأمر أُويس القرني؛ فهو حسبه فيه، ومَن يتوكّل على الله الباقي في إفناء وجودياته، وإزالة تعيناته؛ فهو حسبه فيه، وهكذا فمَن اكتفى بالله؛ كفاه الله في كل مؤنته، ودفع عنه كل ضرورته.

قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧].

: أي بعد عسر الدار يسرها كما يقتضيه المقام، وعسر الدار ضيقها، وكونها مستعارة، أو بطريق الكراء، ويسرها سعتها، وكونها بطريق الملك، وإن كان الملك

في الدَّارين لله تعالى، والعبد هو الخليفة في التصرُّف كما هو الخليفة في الإنفاق كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧].

فالزكاة في الحقيقة[1] إنما هي من ملك الله لا من ملك العبد.

---

(١) قال الشيخ العلواني: فصل في روح وصل في أرواح الزكاة: وهي أرواح من الإحسان على أرواح معلومة بروح القرآن جاءها روح الأمر على الوجوب لتحصيل أرواح الجبر في أرواح الكسر بأرواح الفقر، وأرواح المسكنة والأرواح الكاتبة من أرواح المسكنة، أو من أرواح الفقراء، وأرواح الغزاة أرواح كسر وإن لم يكن فيها أرواح فقر.

وابن السبيل على روح من الكسر وإن لم يكن على روح عام من الفقر بأن يكون له في روح بلده روح من المال. وأرواح مما يصلح بها أرواح الحال فله روح فقر في روح سفره وبهذا الروح استحق من أرواح الزكاة لأرواح إصلاح حاله حتى يصل إلى أرواح ماله. فهذا الروح من الأرواح الرحمانية في نعيم الأرواح الإحسانية ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] في أرواح الزكاة فهي روح وصل بأرواح فضل تفصل من أرواح الحاجات عن وجوه الأرواح وجوه الانكسار وتوصلها بأرواح السرور بأرواح الفضل.

وبروح الراحة من روح الهم المتعلق بروح الرزق، فيفيض من أرواح السرور وأرواح الشكر على هذه الأرواح الإحسانية للأرواح الرحمانية، والروح الأعظم، الروح المالك، والروح المحمدي المرسل بهذه الأرواح الرحمانية بالأرواح الفرقانية وروح الغارم من أرواح هذا الروح الإحساني كالروح المؤلف على روح الإسلام، وروح العامل له من هذا الروح على روح العمل فتكون من الأرواح المالكة لأرواح المال أرواح طهرة من أرواح الحرص.

ومن أرواح الشح، ومن أرواح البخل وفي ذلك أرواح محو من الأرواح الردية، والأرواح الظلمانية من الأرواح الشيطانية. وفي ذلك الروح أرواح تقليل من أرواح حب الدنيا التي هي الروح الأصلي في أرواح البعد عن الأرواح الإلهية فتخفف من الأرواح الموحشة في طريق روح سيرك الروح الأعظم بروحك الأكرم المقدم بأرواح الطاعات.

وأرواح الطهارات وأرواح المجابرة بأرواح المال لإصلاح روح الحال في الأرواح المنكسرة والأرواح المفتقرة.

وقد كفرت أرواح في أرواح هذا الزمان بأرواح الزكاة، وروح الزكاة طهارة من حدث أكبر وهو روح حب الدنيا. فأرواح الدنيا من أرواح اللعن إلا ما كان فيها من أرواح العلم ومن أرواح العلماء العاملون على أرواح من القرب، وأرواح من الحب لأرباب الأرواح القاسية بأرواح حب وبأرواح الميل إلى الباطل، وبأرواح التعصب مع الاتباع على أرواح من الباطل وذلك لا يليق من روح الجاهل إذا كان له روح من أرواح الإيمان، وروح المتعلم لأرواح الاهتداء لأن يكون له =

روح تقرب من الروح الأعظم لأرواح الجاه وأرواح المال، فإن ذلك الروح داخل في أرواح اللعن، لأنه من الأرواح المتعلقة بالأرواح الشيطانية وأرواح الذكر وأرواح الذاكرين بروح الإخلاص، وبأرواح الحب وبأرواح العبودية خارجة من أرواح اللعن وروح الحديث الذي هو روح محمدي «**الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله أو عالم أو متعلم**» فالأرواح المالية التي لم يكن فيها أرواح زكاة على الأرواح الفرقانية هي أرواح لعن وأرواح خبث لتعلق الأرواح الإلهية وهي أرواح الفقر أو أرواح من الفرقان فيها أرواح من الوعيد ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٥]، فهذا جزاء من أحب الدنيا في الدار الآخرة ومنعته أرواح حبها عن الإنفاق منها في سبيل الله والروح الظاهر أن الذي يحمى عليه من أرواح الذهب والفضة روح المقدر الواجب، فإن الله حكم عدل. فروح العذاب بالروح المحبوب بغير وجه وروح شرعي الذين يكترون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله في أرواح الخير من الأرواح الواجبة بالأرواح الفرقانية، فسبيل الله أرواح الفقراء والمساكين والعاملين والغارمين والمؤلفة والمكاتبين والمغازي في سبيل الله وابن السبيل فبشرهم أي: الأرواح المانعة لحقوق الله من أرواح الأموال بعذاب عظيم أليم وعظيم من أرواح التنوين.

ولما إن كان الروح الكانز حامي المال عن أن يصل إليه الأرواح المستحقة له حمي له فكان روح الجزاء من روح العمل فما حما على الأموال إلا أرواح نيات الكانزين، وما النار إلا نار المخالفة. وروح العزم على عدم روح الطاعة شددوا في أرواح المنع شدد الله عليهم في أرواح العذاب.

وفي الروح المحمدي: «**إن مال الرجل الذي لم يخرج روح حق الله منه يمثل له شجاع أقرع**»[1] أي حية عظيمة جرداء، فنعوذ بالله من أرواح فيها أرواح من الكفران بأرواح الفرقان: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [فصلت: ٦، ٧] لولا أرواح من الأرواح الكفرانية في الأرواح الإنسانية لما منعت أرواح الحقوق عن المسير في أرواح الحاجات وفي الأرواح المحمدية أنه: «**يأتي على الناس زمان لم يبق من الدين إلا اسمه فيقال دين الإسلام، وفلان مسلم**» وليس من أرواح الإسلام روح ولم يبق من القرآن إلا رسمه أرواح حروف مسطورة في أوراق محفوظة في الصدور ليس فيها من أرواح عمل بها وأرواح اعتناء بشأنها.

فانظر في أرواح القرآن كم نسخ منها روح من أرواح الناس فلم يعلم به كأرواح آيات الرياء وأرواح آيات الاغتياب والنم، وأرواح آيات الأمانة التي ضاعت روحها من أرواح الناس فلا ترى روحا إلا على أرواح من الخيانة.

وذلك من أرواح قيام الساعة فأرواح الوجوه، إنما قوامه بأرواح الأمانة فإذا ذهبت أرواحها مالت الأرواح الطاهرة بعدها أي الارتحال فارتحلت وإلى الراحات، وصلت ولم يبق إلا أرواح الخيانة.

=

وعليهم تكون أرواح النفخ بأرواح الشيطان حتى لا يكون فيهم إلا أرواح من الطغيان وأرواح من الكفران فينفخ في الصور فلم يوجد أحد إلا صار إلى القبور فيعمهم روح القهر وأرواح الهلاك فلا يكون لهم أرواح خلاص من أرواح تلك الشباك فيما بها الروح المتبصر شمر وعن المسير في آثار الأرواح المحمدية لا تقصر واعتبر القرآن وإياك ثم إياك من إخوان الشيطان الذين أباحوا ما حرم الله في أرواح الفرقان.

وما أولئك إلا أرواح بعد عن الله وأرواح صد عن سبيل الله فشر البشر الروح الضال المضل لأرواح عباد الله بأرواح التأويل.

وذلك عين التبديل فتأويل أولياء الله أرواح دلالة على الله بأرواح من التوحيد وأرواح من الكشف عن أرواح الشيطان، وأرواح الخذلان والمولي المفتون الفاتن من أباح بتأويل محرما وأذل محترما بأرواح غوايته وإشراك دعايته، ولا بروح للسالك من أرواح المهالك إلا بروحه في روح التوجه إلى الروح الأعظم، فهو روح الأرواح والوصول إليه بروح التعلق به وبأرواحه الفرقانية وأرواحه المحمدية فروح النجوة في روح المتابعة للأرواح الإلهية الفرقانية.

والأرواح الإلهية المحمدية، فإنه الأخذ عن الله فلا روح له ولا روح عنده إلا من الله وأرواح الإذن له واقعة في أن يحكم بما أراده الله فلا يكون منه روح إلا بأرواح هداية فهو روح أرواح كل هاد ومهتد سيد أهل الطهارة، والخالي من أرواح الشيطان بإخراج حظه منه لما شق جبريل صدره وأخرج علقة سوداء.

فقال هذا حظ الشيطان وفي روح محمدي: «**ما من أحد إلا وله شيطان**، قالوا: وأنت يا رسول الله! قال: **وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم**» فروح الكمال في أرواح الكمل ولا روح للسالك إلا بأرواح الاقتداء بالأرواح الكاملة من أرواح الحق.

ومن أرواح سيد المرسلين الروح الأعظم والسيد الأكرم فمن أراد روح الطهارة فليخالف روح الشيطان وروح النفس الأمارة وليخرج أرواحًا من المال لإصلاح الحال مع الله، وليسأل عن أرواح الفرائض فإن الله له أرواح مسائلة في أرواح الآخرة لمن لم يكن له أرواح محاسبة لأرواح نفسه في دار الدنيا. فهو الروح الرقيب على روح العدو والحبيب، فلا يغتر بالله إلا روح لم تعرف أرواح عظمته، وأرواح مكره وأرواح استدراجه فهو الروح المطلق عن أرواح الظنون.

وما أباح محارم الله إلا كل مخذول مفتون لا يؤمن بيوم الحساب وما له روح معرفة بأرواح العذاب، وفي المال أرواح نافلة تطهر من الأدران كأرواح الصلاة والصيام وفيها من أرواح البيان في الأرواح الفرقانية: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان:٨].

﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ﴿ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ﴾ [آل عمران: ١١٥].

=

وكونها من ملك الله لا يقتضي أن يكون نفقها عائدًا إلى جانب الحق كما لا يُخفى على الخبير.

ثم الآية عامة كقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣].

فإن مَن توكّل على الله تعالى في أمر الدار، وغيرها من الأمور الجزئية الغير المحصورة؛ فالله تعالى كافيه في تسهيلها وتحصيلها.

ومن العسر: الفقر، والاحتياج، والمرض، وموت الأولاد، وهجوم الغموم من الأعداء، وشدائد الهجرة، والذّلّة، وأذى الجار وإهانته، وعسر الولادة للنساء، وعسر البول، وغير ذلك مما يشتمله.

ومن اليسر: الغنى، والسعة، والصحة، وحصول الخلف الخيِّر، وتدمير الأعداء، وسكون النفس إلى الدار، وعزُّ النفس، واندفاع الأذى، والإنفراج بعد الشدة كما ورد: «**اشتدي أزمة تنفرجي**»[(١)].

ودرّ الماء كما قال أبو هريرة ﷺ: اللّهم اجعل لي ضرسًا طحونًا، ومعدة هضومًا، ودبرًا نثورًا.

فإن الدبر والقبل في حكم واحد؛ كالأكل والشرب؛ ولذا قد يكتفى بذكر أحدهما، ويُطوى ذكر الآخر.

وقد ادّعى سمنون المجنون[(٢)] في محلّ الدلال بتحمُّل كل بارد من الله تعالى من

=

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٤٢٦/١)، والعجلوني في الخفا (١٤١/١).

(٢) هو سمنون بن حمزة ويقال: سمنون بن عبد الله، كنيته أبو القاسم.

صحب سريًا السقطي ومحمد بن علي القصاب وأبا أحمد القلانسي، ووسوس.

وكان يتكلم في المحبة بأحسن كلام، وشدة وَجْد، وهو من كبار مشايخ العراق، مات بعد الجنيد.

قال الخطيب: سمعت أبا نعيم الحافظ يقول: سمنون هو بن حمزة الخواص أبو الحسن.

وقيل: أبو بكر. بصري، سكن بغداد، ومات قبل الجنيد، سمى نفسه سمنونًا الكذّاب بسبب أبياته التي قال فيها:

فليس لي في سواك حظٌّ فكيفما شئت فامتحني

=

القضاء؛ فابتلاه الله تعالى بعسر البول فعجز وتضرَّع إلى الله تعالى في رفعه عنه، وهكذا أمر سائر العباد؛ فإن الإنسان خلق ضعيفاً، والضعيف لا يتحمَّل الحمل القوي؛ ولذا حثَّ النبي ﷺ على سؤال العفو والعافية، ورد قوله: «**اللّهم إني أسألك العفو والعافية، والمعافاة في الدين والدنيا والآخرة**»[1]؛ وكل من الثلاثة الأخيرة ناظر إلى الأول.

وفي الحديث: «**اللّهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من**

=

فحصر بوله من ساعته فسمى نفسه سمنون الكذّاب.

وقيل: كان سمنون في هيجانه يشطح وينشد:

ضاعف عليَّ بجهدك البلوى ... وأبلغ بجهدي غاية الشكوى

وأجهد وبالغ في مهاجرتي ... وأجهر بها في السر والنجوى

فإذا بلغت الجهد فيَّ فلم ... تترك لنفسك غاية القصوى

فانظر فهل حالٌ بِيَ انتقلت ... عمَّا تحبُّ بحالة أخرى

قال: فعوقب على ذلك بقطر البول، فرأى في منامه كأنه يشكو حاله إلى بعض المتقدمين الصالحين، فقيل له: عليك بدعاء الكتاتيب، فكان بعد ذلك يطوف على الكتاتيب وبيده قارورة يقطر فيها بوله، ويقول للصبيان: ادعوا لعمكم المبتلى بلسانه.

ومن كلامه:

قال أبو الحسن بن زرعان: كنت عند سمنون فشهق شهقة ثم قال: لو صاح إنسان لشدة وجده بحبه لملأ ما بين الخافقين صياحًا.

وقال سمنون: إذا بسط الجليل غدًا بِساط المجد دخل ذنوبُ الأولين والآخرين في حاشية من حواشيه، وإذا أبدى عينًا من عيون الجود ألحق المسيء بالمحسن.

وقال سمنون المحب: لا يعبر عن الشيء إلا بما هو أرق منه ولا شيء أرق من المحبة فبم يعبر عنها؟

وسئل سمنون عن الفقير الصادق؟ فقال: الذي يأنس بالعدم كما يأنس الجاهل بالغنى ويستوحش من الغنى كما يستوحش الجاهل من الفقر.

انظر في ترجمته: حلية الأولياء (٢٣٨/١٠)، وتاريخ بغداد (٣١٤/١٤)، والبداية والنهاية (١٢٦/١١)، وصفوة الصفوة (٨٤/٤)، وطبقات الصوفية (٦)، وشذرات الذهب (٤٢٥/٢).

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٤٩/١)، والطبراني في الأوسط (٢٠١/٨).

عقوبتك، وأعوذ بك منك»(١).

ولَمّا كان حصول الرضا على طبقات الصفات؛ قدَّمه على ما كان من الأفعال؛ وهو حصول المعافاة، وإن كانت الأفعال أقدم في الاعتبار، وذلك إنه إذا حصل الرضا؛ حصل المعافاة؛ إمَّا رأسيًا؛ وهو أندر، وإمَّا بمعنى عدم التأذِّي بالمكروهات الطبيعية النفسانية؛ وهو حال الكُمَّل، فإنهم لَمّا كانوا منغمسين في بحر الرضا؛ كان حقائق الصبر والشكر عندهم أمرًا واحدًا؛ حيث تلذّذوا بالبلايا؛ بل فنوا عن كل من اللّذّة والألم، واستغرقوا في الله، ودخل في العسر عسر القبض، والهيبة، والوقوف، والتفرقة، والتلوين، ودخل في اليسر يسر البسط، والإنس، والجمع، والتمكين.

فلا بد من الصبر في كل مقام من مقامات الابتلاء، فإن السين في قوله تعالى: ﴿**سَيَجْعَلُ اللَّهُ**﴾ [الطلاق:٧]، وإن كان للاستقبال والتسويف؛ لكنه للقريب، وقد قيل: كل آتٍ قريب، والدنيا ساعة؛ بل لمحة، وقول الأنبياء عليهم السلام: متى نصر الله؛ إنما هو من شدة المقام لا ينافي ذلك كونهم في مقام الصبر والرضا.

* * *

---

(١) رواه مسلم (١/٣٥٢)، وأبو داود (٢/٦٤).

في سورة التغابن

قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

اعلم أن الهداية هداية أولى، وهداية ثانية.

فالهداية الأولى: هي الهداية إلى الإيمان.

والثانية: هي الهداية إلى حقائق الإيمان.

كما دلّ عليه التصريح بالقلب، فإن هداية القلب؛ إنما هي إلى الحقائق، إذ كل منهما من عالم الملكوت، كما أن هداية النفس إلى المقاصد الحسِّية، إذ كل منهما من عالم الملك، فللمؤمن نصيب من الهدايتين؛ لأنه اختار الإيمان أولاً؛ فهداه الله إليه، وخلقه الله فيه، واختار حقائق الإيمان ثانيًا؛ فهداه الله كذلك؛ لأن قلب المؤمن لا يزال من حيث استعداد يطلب الترقّي إلى عالم اليقين.

فمن هداياته تعالى له: أن يقذف نورًا في قلبه؛ يُفرِّق به بين الحق والباطل.

ومن هداياته: كشف الغطاء عن بصيرته؛ ليريه ملكوت السماوات والأرض.

ومن هداياته: أن يوصِّله إلى سرِّ الحقيقة؛ وهو كون العين واحدة في مرائي متعددة؛ وهو سرُّ التوحيد.

ومن هداياته: أن يقبضه عن الآفاق، ويهديه إلى السرِّ المودع في الأنفس؛ وهو التجريد.

ومن هداياته: أن يقطعه عن الأنفس أيضًا، ويهديه إلى ذاته في مقام التفريد.

وكل ذلك وأمثاله له، ومن هدايات القلب وكمالاته، وليس للكافر نصيب من الهدايتين؛ لأن الهداية الثانية متفرِّعة من الهداية الأولى، فإذا لم يكن له نصيب منها؛ لأنه اختار الكفر على الإيمان، كما صرَّح به في مواضع من القرآن؛ لم يكن له نصيب من الثانية، فكل هداية؛ فهي للمؤمن بقدر استعداده، وكل ضلالة؛ فهي للكافر على حسب استحقاقه، والله الهادي للمؤمنين إلى مراتب الإيمان، والإحسان، والتمكين.

في الحديث عند القضاعي: «**الدعاء هو العبادة**»(١):

---

(١) رواه أبو داود (٢/٧٦)، والترمذي (٥/٢١١).

وفي بعض الروايات: «**الدعاء مخ العبادة**»[1]:

يعني: كما أن العظم، وما يتعلَّق به من اللحم ونحوه؛ إنما هو بالمخ؛ فكذا العبادة إنما تقوم بالدعاء ؛وهو طلب الحاجة من الله تعالى بالقلب، وسؤالها منه باللسان.

فإن قلت: معنى العبادة، والتذلُّل، والخضوع، وكذا معنى الدعاء، فأحدهما يغني عن الأخر؛ قلت: العبادة حال البدن، والدعاء حال القلب، واللسان، وليس كل تذلُّل يقتضي الالتجاء إلى الله تعالى في المهام، والمصالح.

وفيه إشارة إلى أن حال القلب أقوى، وأتم من حال اللسان والبدن لكن مَن انفرد بأحدهما؛ لم يُعتد بحاله؛ لأن الله تعالى جعل الظاهر مقام الشريعة، والباطن مقام الحقيقة، ومَن تحقق بمقام الحقيقة؛ لا بد له من مقام الشريعة؛ إذ كل إناء يترشَّح بما فيه، فظهر من هذا زيغُ مَن انخلع عن لباس الشريعة، وقصور مَن لم يتلبَّس بلباس الحقيقة، مع إمكان الجمع بينهما؛ لجمعية نشأة الإنسان، وإلى الله السُّكنى من أهل عصر يسجدون الله تعالى، ثم إذا رفعوا رؤوسهم؛ قاموا إلى حوائجهم من غير رفع الأيدي إلى الله تعالى.

نعم لأهل الحقائق مقامات، فدعاؤهم في كل مقام بما يليق به؛ لأن الله تعالى أطاعهم في إرادالهم كما دلَّ عليه قول أبي طالب: ما أطاعوك ربك يا محمد.

وقوله ﷺ له: «**وأنت يا عم لو أطعته؛ أطاعك**»[2]، فمراعاة الصورة والمعنى من آثار الصالحين، ومحافظة الظاهر والباطن من آثار المحققين، فعليك بالوقوف عند آثارهم، والاستنارة بأنوارهم، والوصول إلى أسرارهم.

* * *

(١) رواه الترمذي (٥/٤٥٦)، والديلمي في الفردوس (٢/٢٢٤).

(٢) ذكره ابن حجر في الإصابة (٧/٢٣٦).

في سورة المعارج

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِلا الْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج:٢٢، ٢٣].

اعلم أن دوام الصلاة لا يمكن بالصورة؛ بل بالمعنى؛ وذلك أن مَن سَجد قلبه لله تعالى سجدةً حقيقيةً، وخضع خضوعًا تامًا؛ فإن عبادته لله تعالى مستمرة سواء كان على اليقظة، أو على النوم؛ لأن النوم إنما يجري على صورته لا على قلبه.

كما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «**ينام عيناي ولا ينام قلبي**»[(١)(٢)].

فإذا كان قلب الرجل يقظانًا، سرى ذلك في جميع أجزائه وقواه؛ فإن القلب أصل القوى والجسد، فإذا صلح؛ صلح القوى والجسد كلها، كما أنه إذا فسد؛ فسد القوى والجسد كلها.

ومن هاهنا قيل: إن نوم العالم عبادة، ونفَسه بفتح الفاء تسبيح؛ والمراد بالعالم هوالذي فوق العارف؛ وهو مَن كانت نسبته إلهية، والعارف مَن كانت نسبته ربَّانية، فالنسبة الأولى من عالم الأمر، كما أن النسبة الثانية من عالم الخلق، والعالم هو المشاهد المعاين، والعارف هو المطَّالع المكاشف.

وقوله: «**مَن عرف الله؛ كلّ لسانه**»[(٣)]؛ إشارة إلى الفناء.

قوله: «**ومَن عرف الله؛ طال لسانه**»[(٤)]؛ إشارة إلى البقاء.

فإذا كانت المعرفة تامة حقيقة إلهية وجوبية؛ فهو العلم بالله، وهو العلم اللدني،

---

(١) رواه أبو داود (٥٢/١)، والترمذي (٥١٨/٤)، وأحمد في المسند (٢٢٠/١).

(٢) فهو ﷺ نائمٌ حسًّا ليس نائمًا معنى كما أن موته كذلك، وهذا مقام ما ناله بالهيئة الكاملة هذه بشرٌ سواه، مع أنه ببشريته قد وقع له تخلل بهذا المقام دون روحانيته.

واعلم أن الكامل إذا تخلق بالأسماء الإلهية وتحقق بها يصير ملحوظًا من جانب الأزل محفوظًا بالكلية عن أن يلم به الخطأ أو يعرض له الزلل لكونه تخلق في جميع حركاته وسكناته بأسماء الحق، وتحقق في ذاته وصفاته بطهارته عن أحكام ما سوى الحق بحيث لم يبقَ له فعل سوى فعل حق بحق لحق.

(٣) ذكره القاري في المصنوع (١٨٩/١)، والعجلوني في كشف الخفاء (٣٩٤/٢).

(٤) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

وهو علم الإرث والموهبة، ووسيلته العمل الصالح على مقتضى الشرع، فإن المعارف الإلهية إنما هي نتائج السلوك، والتقوى، والعمل الصالح، فمَن لم يسلك من هذا الطريق؛ فمعارفه معارف شيطانية نفسانية لا خير فيها في الدَّارين، وأهلها مُلحق بالفلاسفة والرهابنة.

فإن قلت: هل فرق بين الصلاة والطواف؟.

قلت: نعم؛ لأن الصلاة إطلاق[1]، فصورة القيد والطواف إطلاق صورة

---

(١) فائدة ولطيفة: قال الشيخ العلواني الشاذلي:

فصل في روح وصل بأرواح الصلاة أولها: روح النية مع روح التكبير فروح النية روح وصل بأرواح الصلاة فهي الروح الفاتح في روح التكبير روح الصلاة.

وفيها روح فصل للأرواح التي لم تقصد لروح الصلاة ومن أرواح السنة يتحرك بها اللسان وإن يسكن عن روح العمل بضدها الجنان روح فرقاني في روح النية:

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ [البينة: ٥]، أي بأرواح الصلاة بأرواح الصوم بأرواح الإحسان.

﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ﴾ فلا يكون في أرواح حياتهم غير أرواح الدين والدين الخالص بالأرواح المحمودة من أرواح العلل بروح الروح في روح الإطلاق بأرواح الربط بروح الإحاطة فالله أكبر روح من أرواح العموم بأرواح التصريف وأرواح الإفاضة لأرواح القوابل ولكل روح واصل إلى أرواح القوابل بأرواح الكمال وما فيها من أرواح الجمال وما أرواح الظلال في الروح الأعظم إلا كأرواح المحال فروح الفصل في روح التكبير أن ما سوى الروح الأعظم من الأرواح كلا مع سراب وهو إن لم يخل من الأرواح الحقبة والأسرار الروحية فلا يشابه الشراب فما عند السراب إلا الظمأ.

وما عند الشراب إلا أرواح الري وأرواح الطهارة والنظافة والنضارة فهل يستوي الروح الفارغ بالروح المملوء من أرواح الرحمة وأرواح المواهب فروح التكبير روح وصل بروح التعظيم العام يرويه روح الإطلاق بأرواح القهر فوق كل روح من أرواح الخيال أو الظلال.

وفيه روح فصل لكل روح لم يؤذن له أن يدخل في أرواح الصلاة فهو الروح الجامع لأرواح الصلاة المفرق لأرواح العادات، وفيها روح حركة اللسان وروح سكون إلى أرواح الصلاة بأرواح الجنان ومن بعد روح التكبير أرواح مسنونة من أرواح المناجاة بأرواح خاصة من الروح المحمدي.

وذلك روح التوجه في روح قولك:

﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ بأرواح النشر ﴿ وَٱلْأَرْضَ ﴾ بأرواح الكثافة حينما برح

=

الإقبال مسلما لأرواح الجمال.

وما أنا من المشركين بأرواح الشهود ولهذا الروح الأعظم ﴿ إِنَّ صَلَاتِي ﴾ بأرواحها ﴿ وَنُسُكِي ﴾ بغيرها من أرواح الحج ﴿ وَمَحْيَايَ ﴾ بأرواح إمداده بأرواح الحياة الفرقانية ﴿ وَمَمَاتِي ﴾ في عين حياتي عن كل روح ردية ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ في روح من الأرواح.

وبذلك الروح ﴿ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٣] على كل حال للروح المالك الذي ما سواه في أرواح عظمته هالك ومن يعد هذا الروح روح التعوذ فأعوذ بالله من روح من أرواح اللبس بأمر من الأرواح الشيطانية الفائضة من أرواح الشيطان الرجيم.

وبعد هذا الروح روح ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ أرواح المفاتيح بأرواح البركات وروح ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ سيد أرواح الثناء ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ مفتاح الغنى ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ روح أعظم من أرواح التذكير ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ روح إقرار بكمال العبودية ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ من أرواح المسير على روح نوراني ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾. روح من أرواح الاسترشاد ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ روح تلذذ بأرواح ذكر الأحباب ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ بروح الحجاب ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ من أرواح العبودية بعدم شهود أرواح الربوبية ومن أرواح الندب روح أمين ومن أرواح السنة بعد روح الفاتحة أرواح من الفرقان على روح من التيسير على أرواح من التفصيل ثم بكون بعد روح القراءة في روح القيام على القادر روح الركوع.

وله روح جد من الأرواح الواجبة والأرواح المندوبة ففي الركوع روح فصل عن روح القيام وروح وصل بروح من أرواح التواضع والخضوع لله وفي روح الركوع روح حركة في روح من أرواح العبودية.

وروح سكون في روح التعظيم ومن بعد روح الركوع روح الاعتدال وهو من أرواح الشكر على روح الإطلاق من روح الفقر ومن أرواح الذلة ومن بعد روح الاعتدال روح السجود وفي الروح المحمدي: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فليسأل الله ما شاء من خير الدنيا».

ومن أرواح الآخرة وفي روح السجود من أرواح السنن:« سبحان ربي الأعلى» كما أن في روح الركوع: «سبحان ربي العظيم» فروح الركوع روح تعظيم، وروح السجود من أرواح التقديس لأن روح السجود من أرواح الغنى.

ومن أرواح السقوط عن رتبة الوجد فالساجد في روح سجود لا يحمد بأجل أرواح المحامد ليس الحمد كله بأرواح القول بل منه ما يكون بإشارة الأرواح ورفع روح الخيال لرفعة الروح الأعظم عن

=

ومعنى، وإنما قلنا في الصلاة: إنها إطلاق في صورة القيد؛ لأن ظاهر المصلّي وإن كان مقيدًا بالتوجه إلى القبلة؛ لكن باطنه مطلق عن القيود كلها؛ بل متوجه إلى الله الذي له الإطلاق الحقيقي الذاتي.

=

أرواح العجز المبسوطة في أرواح السجود الذي هو روح الساجد الحامد بأجل المحامد بالإشارة الروحية في روح الهوية فروح السجود من أرواح الإطلاق في روح من الحجاب الرقيق.

ولذلك الروح كان أقرب من روح الركوع ومن روح القيام ومن روح القراءة فأرواح الصلاة بعضها فوق بعض في درجات القرب لاختلاف أرواح الحجب فلا بد لكل عابد من روح حجاب يليق بحاله في أرواح أقواله وأرواح أفعاله، وفي أرواح النيات، وفي أرواح الإشارة الروحية بإسقاط أرواح السر. فيعم روح الإطلاق في أرواح من الرقة وفي روح السجود من أرواح السنن: «اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله ظاهره وباطنه سره وعلانيته سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين».

ويكون روح السجود على سبعة أرواح روح الجبهة واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا بد فيه من روح السكون كالركوع والاعتدال فإن أرواح الصلاة أرواح وصل وفصل وحركة وسكون وبعد روح السجود الأول روح الجلوس بروح من السكون،وهو روح بعث من روح الغيبة في أرواح التقديس.

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ ﴾ [طه: ٥٥]، بروح السجود الأول جاءت إشارته وبروح الجلوس بين السجود كانت عباراته ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ بروح السجود الثاني، ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ بروح الجلوس الأخير لأرواح التحيات، وأرواح التشهد وأرواح التسليمات والصلوات.

فالجلوس الأخير جامع لأرواح كثيرة لأنه المبعث الأكبر وبأرواح اللقاء عند أرواح التسليم ترتفع أرواح التكاليف وهي من أرواح العفو روح من أرواح الآثار.

قال رجل لأبي هريرة: «إني أخاف من الموت فقال له: أتصلي الصلوات الخمس في جماعة؟ فقال الرجل: نعم، فقال: إذا كنت على هذا الأمر فمت في أي وقت شئت فلا بأس عليك» روح بيان في هذا الروح ألا ترى.

وذلك أن أرواح الجماعة فيها أرواح الدرجات وأرواح الصلاة فيها أرواح الكفارات، وفيها من كل الأرواح الإلهية وختام الصلوات بأرواح الدعوات والبركات بأرواح الأذكار، وأرواح الاستغفار.

وانظر: كتاب الأرواح (ص٤٥) بتحقيقنا.

فإن قلت: قد ثبت: «أن الله في قبلة المصلّي[1]». ولذا يوضع اليد على الصدر بعد الرفع إلى نداء المنكب بالنسبة إلى النساء، كما أنه تعالى هو القاهر فوق عباده؛ ولذا يوضع اليدْ تحت السرَّة بعد الرفع إلى ما فوق الصدر؛ وهو الإذن وذلك بالنسبة إلى الرجال، قلت: ذلك تعظيم لوجه المصلّي.

وقد ثبت عند أهل الله: إن الوجود الحق وجه كله، فلا قيد لله تعالى على كل حال، وللمصلّ قيد في خارج الصلاة، وإطلاق في داخلها، كما أومأنا إليه آنفًا، فإن قلت: هل فرق بين أركان الصلاة؟ قلت: نعم؛ فإن السجدة هي العمدة منها؛ لأنها إشارة إلى فناء ذات المصلّي في ذات الحق تعالى.

ولذا قال: ﴿**وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾ [العلق: ١٩]؛ يعني أن الاقتراب الحقيقي المعنوي إنما يحصل بالسجدة؛ ولذا كان معظم أركانها.

ولمّا طلب بعض الناس جواره ﷺ في الجنة قال: «**أعنِّي بكثرة السجود**»[2]؛ وذلك إشارة إلى أنواع الفناء من فناء الأفعال، والصفات والذات،.

وسجدة القلب أزلية أبدية بالنسبة إلى الكُمَّل؛ ولذا كانوا على صلواتهم دائمين من الأزل إلى الأبد. وأمَّا غيرهم فليس لهم سجدة القلب؛ بل سجدة القالب، ولئن سلَّم، فكم من فرق بين سجدة وسجدة، فأين استسلام الخليل عليه السلام ونحوه، وأين استسلام غيره، فعليك بسجدة الفناء حتى تصل إلى اللقاء.

قال الله تعالى: ﴿**مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾ [ص: ٧٥].

: أي تسجد لآدم الذي خلقته مشتملاً على التنـــزيه، والتشبيه، واللطف، والقهر، والجمال، والجلال[3].

وهي الصورة الإلهية؛ لأن أسماءه تعالى منها جمالية، ومنها جلالية، ومن صفاته

---

(١) ذكره ابن قدامة في المغني (١/٢٦٤)، والشوكاني في نيل الأوطار (٢/١٥٨)، وابن ناصر في مجمع البحرين شرح الفصين (ص٣٣٥) بنحوه.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢/٢٤٥)، وذكره ابن حجر في الإصابة (٦/١٢٥).

(٣) ومعنى الآية: أي يدي تنـــزيه وتشبيه، وإن شئت قلت: يدي وجوب وإمكان، وقِدَم وحدوث.

التنـــزيه والتشبيه، ويؤيد ذلك ما قال ﷺ: «**إن الله خلق آدم على صورته، وعلى صورة الرحمن**»(١).

وقال في الغزو: «**وإذا قتلت فأحسن القتلة، واجتنب الوجه؛ فإن الله خلق آدم على صورته**»(٢).

وفيه إشارة إلى أن الوجه أُدخل في الصورة؛ لأن الوجود الواجبي وجه كله.

ومن هذا ورد في الأثر: «**إن الله تعالى ما بعث نبيًا إلا حسُن الاسم، حسُن الوجه، حسُن الصوت**»(٣).

فأشار بالأول إلى حسن التعيُّن؛ لأن الاسم هو التعيُّن في عُرف القوم، وحسن التعيُّن تابع لاعتدال المزاج، ثم النقوش تابعة للتعيُّن؛ والمراد بالنقوش نقوش البدن، والوجه المراد بها الهيئة الإنسانية، فمَن كان تعيُّنه حسنًا؛ كان هيئته حسنة.

وأشار بالثاني إلى مقام الرؤية ومحلِّها، فإن الرغبات إنما تتوفر في مُطالعة الحسن والجمال لا مطلق الوجه.

فكم من فرق بين وجه ووجه، وهيئته وهيئته، ولا يُفرِّق بينهما إلا أهل النظر الصحيح، والشهود الكامل، وأشار بالثالث إلى مقام التبليغ، والصوت الحسن أبلغ فيه كما كان لداود عليه السلام.

فالأنبياء – عليهم السلام – وكُمَّل الأولياء – قَدَّس الله أسرارهم – كانوا على هذه الأوصاف الثلاثة؛ لأنها أمور مُرغبة، وغيرها أمور مُنفرة، والحكمة لا تقتضي إلا أسباب الترغيب؛ ليدخل عباد الله في دائرة قبول الدعوة، والانقياد إلى الأوامر والنواهي.

والمراد بالسجدة: الانقياد الباطني لا مطلق الانقياد الذي السجدة الصورية صورة من صوره، فإن المنافقين انقادوا في الظاهر من غير انقياد في الباطن، فلم يكونوا على طائل من الانقياد دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿**وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى**﴾ [التوبة:٥٤].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه مسلم (٤/٢٠١٧)، وأحمد (٢/٢٤٤) بنحوه.

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات (١/٣٧٦)، وذكره ابن حجر في فتح الباري (٧/٢١٠).

فإن الكسل في الظاهر إنما هو من آثار الفتور الباطني، وعدم الجدّ والعزم في القلب، فالصورة تابعة للمعنى بخلاف العكس في بعض المواقع دلّ عليه قوله ﷺ حين رجع من غزوة تبوك: «**إن أقواما خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا، حبسهم العذر**»(١).

فيكون المراد من قوله تعالى: ﴿**وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً**﴾ [النساء:٩٥] أي: من هو قاعد بعذر؛ فهو مع المجاهدين حكمًا كما دلّ عليه الحديث، فظهر من هذا أن السير: إمّا سير بالظاهر، والباطن جميعا، وإمّا سير بالباطن فقط، ومن ذلك عدم خروج بعض الأولياء إلى الغزو، والحج الصوري؛ فإنهم المعذورون المتوقّعون لأمر الله، فمجاهدتهم مع نفوسهم أعظم من مجاهدتهم مع أرباب النفوس، وكذا حجّهم ربّ البيت أقوى من حجهم البيت، على أن البيت قد يزورهم، وهم في مقامهم قائمون، وهذا لا يلزم منه ترك الأمر في الشرع.

فإن المأمور صورة أو معنى لا بد له من الأمثال، وخفى أحوال الخواص على العوام: بل على أهل الخصوص في الجملة، فطعنوا فيمَن هو فوقهم من غير شعور بحقيقة الحال، فعليك أن تسجد وتنقاد للإنسان الكامل في أقواله وأفعاله؛ فإنها شرعٌ كلها، ومَن كان سلطانًا؛ فله قول وفعل يكون له قانونًا، فكيف حال مَن كان سلطانًا للسلطان؟ فإن السلطان الظاهر إنما هو ظلّه، ومَن خرج عن هذا الانقياد ولو كان سلطان؛ فسوف يلحقه ذلّ لا مدفع له، ومن الله العصمة، ومن الزّيغ والضلال في كل حال.

***

(١) ذكره المنذري في الترهيب والترغيب (٢٥/١).

وفي سورة نوح:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [نوح:١].

أشار بنوح إلى الروح، فإن (ن) أربع مرات راء، وذلك من حيث المراتب الأربع التي حصلت للروح من حيث أولية، وآخرية، وظاهرية، وباطنية، فالروح نوح: أي سابق على قومه من القوى الروحانية، والأعضاء الجسمانية، وإذًا الفاعل قبل القائل، وقد أرسله الله إلى قومه؛ فهو المؤثِّر فيه لا غيره تعالى؛ لأنه لا غير هنالك حتى يكون هو المباشر للإرسال.

وكذا كل الإرسالات الواقعة في الدنيا؛ فإنها كلها مضافة إلى الله تعالى، فإن الإرسال إمَّا من الشيخ المرشد؛ فذلك مضاف إلى الإلهام الإلهي، وإمَّا من الجناب النبوي؛ فذلك مضاف إلى الوحي الربَّاني، والكل؛ لكن المظاهر متعددة بحسب المقامات والأطوار، وقد يترقَّى السالك في بعض المواطن إلى حيث يأخذ الإذن من الله تعالى بلا واسطة، وذلك لا يلزم منه ترك الوساطة، فإن ذلك بشفاعة الواسطة، أو باستهلاك الكل في عين الجمع، وليس هناك إلا الله تعالى.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]، فأثبت المخاطَب بالفتح، والمخاطِب بالكسر.

وقد سمعت عن شيخي، وسيدي الشيخ الإلهي الفضلي أن شيخه أرسله إلى بعض البلاد بالخلافة، فلم يقبلها؛ بل اختار الإقامة مع الشيخ في مقامه إدامةً لخدمته حتى رأى الله تعالى تلك الليلة؛ وهو مناوله المصحف، وقال: هذا كلامي فخذه، وادع إليّ عبادي.

وكان من أمري أيضًا أن حضرة الشيخ قُدِّس سرُّه: أمرني بالهجرة من أرض إلى أرض حتى لَمَّا أقمت ببلدة برونة قريبًا من خمس وثلاثين سنة، وظهرت الاختلافات الآفاقية بين الخلق لاسيما بين أهل الإيمان، وأهل الحرب، فوقعت الإشارة الأكبرية والخضرية بالهجرة إلى طرف الشام، ولم أكن أتردَّد في ذلك أصلاً؛ لكن أردت الإذن الصريح من جهة حضرة الشيخ أيضًا فور تلك الليلة.

هذه الآية وهي: (إنا أرسلنا) يعني: إنَّا أمرناك بالهجرة، وأرسلناك إلى جانب الشام، فلا حاجة إلى الإذن الصريح من جهة الشيخ؛ لأن إذنه مستهلك في أُذني.

* * *

وفي سورة المطففين

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] لا يقتضي الحجاب مطلقًا، فإنه يُقيَّد بيوم القيامة، فقد ينكشف عنهم عماهم، وإن كان ذلك دون انكشاف بصائر أهل النعيم؛ لأن محلّ أهل النعيم؛ وهو الجنة، وكذا أبدانهم لطيف قابل لكل نور ذاتي، ونعيم صفاتي.

وأمَّا محلُّ أهل الجحيم؛ وهو النار، وكذا أجسامهم، فكثيف ليس بمقابل لذلك، فليس لهم نعيم صفاتي أصلاً من المطعم، والمشرب، والمنكح ونحوها.

وأمَّا النعيم الذاتي فبقدر تصفية ذاتهم وصفاتهم؛ وإنما: قلنا النعيم الذاتي من طريق المشاكلة، وإلا فلا نعيم هناك أصلاً؛ لأنه عالم الفناء عن الحسِّ، وليس عنده ذوق، وبرد وسلام فاعرفه، واجتهد أن تكون من الذين ابيضَّت وجوههم في جميع العوالم، فإن النور الدائم لا يلحقه الظلمة.

واحذر أن تكون من الذين اسودَّت وجوههم في كل المواطن، فإن الظلمة الدائمة لا يلحقها النور، فالحبشي لا يكون أبيض بالصابون من حيث عينه الخارجي، وكذا الرومي لا يكون أسود بالقار من حيث جسده الصوري.

وأمَّا القلب فأبيض وأسود من غير نظر إلى اللون الخارجي.

وقدَّم الله الذين اسودَّت وجوههم؛ لأنهم جلاليون ذاتيون، وأخَّر الذين ابيضَّت وجوههم؛ لأنهم جماليون صفاتيون؛ ولذا كان لهم خطرًا، وزمن الرؤية لكون بَعْدهم بعدًا صفاتيًا متوسطًا.

والأحدية الذاتية قبل الواحدية الصفاتية في مرتبة التجلّي.

وقولنا: صفاتيون لا ينافي كونهم ذاتيين أيضًا، فكونهم ذاتيين يظهر في مقام الكثيب، وكونهم صفاتيين يظهر في باقي المقامات على ما يعرفه أهل التجلّيات، فأهل قاب قوسين بعد العود من معراج، أو أدنى أفضل ممَن لم يكن وعودًا، ولم يكن له عروج، جعلنا الله، وإياكم منوَّرين بنور ذاته وصفاته.

وفي سورة القارعة

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ*فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ*وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ*فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ*نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦: ١١].

اعلم أن ثقلة الموازين عبارة عن: وجود الأعمال الرزينة لها التي لها وزن عند الله، وقدر دلّ عليه العيشة الراضية؛ لأن عيشة الرجل في الجنات؛ إنما هي بأعماله؛ لأن درجاتها ونعيمها مقسومة بقدرها؛ فهو إنما يدخل بثقل الموازين جنة الأعمال.

وخفة الموازين عبارة عن: عدم الأعمال المقبولة دلّ عليه قوله: فأمه هاوية؛ لأن الله لا يقيم لَمن خفت موازينه يوم القيامة وزنًا ومقدارًا؛ فيهوى في النار التي هي أصله؛ لأن كل ظلمة، وظلماني؛ إنما هو من النار، كما أن كل نور، ونوراني؛ إنما هو من الجنة.

وفيه إشارة إلى أن الأعمال تتجسَّد يوم القيامة؛ فيكون لها ثقل وخفة، كما ذهب إليه أهل الشرع؛ لأن الأعراض لا تُوصف بذلك، وكان الظاهر أن تكون ثقلة الموازين بسيئات الأعمال؛ لتهبط بصاحبها إلى النار التي في الأرض السافلة، وأن يكون خفتها بصالحات الأعمال؛ لتصعد بصاحبها إلى الجنة التي في السماء العالية؛ لكن أُعتبرت الثقلة بالصالحات، والخفة بالطالحات؛ لأن الجسم هو الذي يتّصف بالثقل، والخفة، فوجود الصالحات مما يقتضي جسامتها، ووزنها، وقدرها، وصعودها ليس من حيث وجودها، وثقلها في نفسها؛ بل من حيث حال عاملها.

فإن العامل لا بد وأن يكون مخلِصًا بالكسر؛ بل مخلَصًا بالفتح، والمخلص لا وجود له في نفسه؛ لأنه فانٍ عن أعماله، والتعلّق بها، فاجتمع ثقيل؛ وهو العمل، وخفيف؛ وهو حال العامل؛ فارتفع ميزانه إلى جانب العُلو؛ كالروح مع الجسد؛ فإنه لولا الروح لم يكن للجسد قيام بنفسه.

والحاصل: إن روح العمل؛ كروح الجسد، فلا يقوم إلا به، وأمَّا وجود الطالحات فهو عدم الصالحات، والعدم وإن كان لا يقتضي الثقلة والخفة لكن صاحبه أثقل الثقلاء؛ ولذا كان ضرس الجهنَّمي كأُحد، وبدنه مقدار مسافة ثلاثة أيام؛ لغِلظة

حجابه، وكانت تلك الغلظة معنوية في الدنيا، ثم تكشَّفت صورة في الآخرة، فاجتمع أيضًا ثقيل وخفيف، فغلب الثقيل فأهوى بصاحبه إلى السافل الذي هو السجِّين.

والحاصل: إن ثقلة العمل، وخفة الروح مقبولتان، وأمَّا عكس ذلك بأن يثقل الروح، ويخفُّ العمل فغير مقبول، فخفة الروح وثقلته هما عاملان في الإصعاد والإهباط لا خفة العمل وثقلته، فإن ذلك تابع لخفة الروح وثقلته؛ وإنما لم يكتفِ بإخبار أن أمه هاوية حتى وصفها بكونها نارًا حامية؛ لأن مجرِّد الهوى والسقوط لا يقتضي النار الحامية، وعلى تقدير استلزامه للتعذُّب بالنار، فالنار قد تكون شديدة، وقد تكون خفيفة، فوصفها بالحامية؛ ليدلُّ على شدِّتها كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]، فلو عذَّبوا نفوسهم في الدنيا بنيران الحرارات، وزادوا فيه بأنواع الرياضات؛ والمجاهدات، لَمّا زاد الله عذابهم في الآخرة؛ بل لم يعذِّبه، فإن المعذَّب لا يُعذَّب مرتين، وفي العذاب معنى آخر من طريق الذوق، العذاب يعرفه أهله.

وفي وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ [القارعة: ١٠]؛ إشارة إلى أن بعض الأمور خارجة عن الدراية، وعلى تقدير دخولها فيها، فقد تختلف بالشدة والضعف بحيث لا يهتدي العقل إلى درك حقيقتها، وقد صحَّ أن الله، وإن كان لا يكلف نفسًا إلا وسعها لكن فرَّق بين كيفية، وكيفية، فاعرف.

* * *

سورة الإخلاص

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ﴾ خاطب به النبي ﷺ مع أن القائل في الحقيقة هو نفسه تعالى كما دلَّ عليه بعض الإطلاقات وهو ينظر الأمر بالعلم في قوله: ﴿فَاعلم أنهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ﴾ [محمد: ١٩]؛ لأن العالم أيضًا هو ذاته تعالى، ففي كل منهما إشارة إلى ذنب مستغفر عنه في قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾، فلابد من إزالة النسبة من البين؛ ليظهر اتحاد العين(١).

---

(١) **قلت**: معاذ الله أن يقصد المصنف اتحاد الذوات كما يتوهم من ظاهر العبارة فإن عقيدة السادة الصوفية رضي الله عن جميعهم ومنهم المصنف بريئة من ذلك - والله يعلم — فما استخدم المصنف هذا التعبير إلا اصطلاحًا، ومعلوم أن لكل أهل علم من العلوم اصطلاحات يخرجون بها عن المعنى اللغوي للكلمة المستخدمة فكلمتي الصلاة والسنة – مثلاً — يختلف معناهما بين أهل الأصول والمحدثين والفقهاء وأهل اللغة فلفظ الاتحاد حيث جرى في كلام القوم لايكون المقصود به المعنى اللغوي بل أمر آخر هو ما أذكره لك من خلال نقل كلامهم في بيان تلك المسألة (مسألة الحلول والاتحاد ووحدة الوجود) فقد كثر فيها الكلام من العالم والجاهل، وتخبطت الآراء، وتنازعت، ونسبها ظلمًا وعدوانًا الكثير من الجهلة قديمًا وحديثًا إلى سيدنا الشيخ الأكبر وأكابر الأولياء: كالشيخ سيدي عبد الكريم الجيلي، والشيخ القوني، والشيخ ابن سبعين، والشيخ ابن الفارض، وغيرهم رضى الله عن جميعم، وتبعهم على ذلك أتباعهم من المتأخرين، وإن شئت قلت: أعوانهم في تلك الجهالة، وكان مدخلهم إلى هذه النسبة وتلك الاعتراضات وتَجرؤهم على ما يجهلونه من علوم الأولياء نظرهم إلى علوم القوم باعتبار أنها علومٌ فلسفيةٌ، مصدرها الفكر والعقل، وكأنهم لم يسمعوا قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، ولا قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥]، ولا قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨]، ولا قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾ [آل عمران:٧٩]، ولا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ﴾ [السجدة:٢٤] ، ولا ما روي- وصح - عن أبي جحيفة قال: سألت عليًّا ﷺ: هل عندك عن النبي ﷺ شيءٌ سوى القرآن؟ فقال: «لا، والذي خلق الحبة، وبرأ النسمة إلا أن يؤتي الله عبدًا فهمًا في القرآن وما في هذه الصحيفة».

=

=

قلت: وما في هذه الصحيفة؟ الحديث، ولا ما روي في البخاري: حدثنا إسماعيل قال: حدثني أخي عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: (حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم)، و لم يبلغهم مما ورد في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ مما يقرر اختصـــاص الحق سبحانه لمن شاء من عباده بما شاء من عطاياه، سواء كان المُعطى محسوسًا أم معنويًا كالعلم بالله والفهم في كتابه، فراحوا ينكرون كل ما يجهلونه، وكأنهم أحاطوا بما عند الله، أو تحكموا على الله في ألا يعطي أحدًا من خلقه إلا بعد أن يستأذنهم، ولا يُفهِمُ أحدًا في كتابه إلا بما فَهِمُوه هم – بفهمهـــم السقيم- لا غير، فسبُّوا ولعنُوا أولياء الله، ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]، وأغفلوا ما أوردوه القرآن في حق صلحاء بني اسرائيل من العجائب والكرامات، وحرموا- وما حـــرموا إلا أنفســـهم — من ذلك صلحاء ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، شهداء لله وللرسل عليهم الصـــلاة السلام على الأمم، الأمة الوسط —وهوالاعتدال والكمال- ألا وهى أمة خلاصة الخلق على الإطلاق وأفضلهم أعلمهم بربهم سيدنا ومولانا أحمد -صلى الله عليه كما صلى على سيدنا ابراهيم- الأمة المحمدية ، فما أسخف وأقبح تلك العقول والقلوب المنكرة على أولياء وصلحاء الأمة المحمدية ! حيـــث أثبتوا لصلحاء اليهود النصارى مالم يثبتوه لصلحاء خير الأمم مع ورود القرآن والسنة المطهرة المشـــرفة باثـــبات ذلـــك العلم والفضل لهم ، وجعل هولاء المنكرون يستشهدون بأقوال أهل الكفر المستشرقين-الذين ما أرادوا بالإسلام والمسلمين خيرًا قط- على أئمة الهدى المسلمين، فينسبون العلم اللـــدني الوارد ذكره في كتاب الله وفي سنة رسول الله تارةً إلى المسيحية، وتارةً إلى الفلسفة اليونانية، وأخـــرى إلى الاســـتنباطات العقلية، تبعًا لهؤلاء المستشرقين، الذين أدركوا حقيقة علوم أولياء الأمة المحمديـــة بـــربهم وبنبيهم — عليه الصلاة والسلام- والمتمثلة أو المسماة بعلوم التصوف، وما لها من العظمـــة؛ بحيـــث يعجز غير المسلمين عن الإتيان بشيءٍ منها؛ وكيف لا وهي من السيد الأعظم ﷺ مـــتلقاةٌ، وأن التصوف الإسلامي منذ عهد الصحابة إلى الآن السبب الأقوى والفعَّال في دخول جموع الـــناس في دين الله أفواجًا، وهذا ما يشهد به التاريخ، فراحوا ينسبونها إلى أنفسهم أو إلى عقلٍ وفكرٍ كمـــا مرَّ؛ محاولين بذلك التقليل من شأن العلم في قلوب المسلمين، ولكن هيهات هيهات: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الصف:٨] ببعضٍ من النظريات الـــتي يكذبهـــا التاريخ، وتأباها عظمة الدين الخاتم، وهم في ذلك من ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

=

=

ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤]، فترى دافع المتقدمين الجاهلين بعلوم العلماء بالله- كابن تيمية- إلى الإنكار : الحقد، والحسد، وحب السمعة، و دافع المتأخرين: الجهل الذي ملأ قلوبهم، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:١٧٩] ، فتراهم ينقلون أقوال إخوانهم الذين يمدونهم في الغي دون أدنى معرفةٍ بالدليل الذي استند إليه العلماء بالله، ولا يستبرئ لدينه؛ فيبحث عنه، بل أخذوا يكررون ويرددون الأقوال المنكرة في حق سادات الأمة المحمدية ورثة الأنبياء -رضي الله عن جميعهم- تلك الأقوال العارية بالطبع عن دليل القوم، وكان الأحق بهم قبل أن يؤذهم الله بمحاربته بإيذائهم لأوليائه أن يأخذوا العلم من أهله، وخصوصًا أن علوم القوم موضوعها العقائد المتعلقة بمعرفة الله ورسوله ﷺ، وتلك أمورٌ محلها القلب، فلا اطلاع عليها إلا لصاحبها. ولا تظن يا أخي أن علوم القوم خاليةٌ عن تأييد الشرع، أو عاريةٌ عن الدليل، كما صورها هؤلاء الجهلة للعامة من المسلمين ، أما علماء أمتنا ومفكريها -المتقيدين بالحق والشرع- فإنهم يدركون للمرة الأولى عند سماع علوم القوم أن لهذا الكلام صولة ليست بصولت باطل، بل الحق الذي لا مرية فيه أنه لا توجد عقيدةٌ قررها القوم في كتبهم إلا وهي محاطةٌ بالدليل الشرعي، والمتتبع لأقوالهم -نفعنا الله بهم- يجدها مصحوبةً بالدليل.

فتبرأ لدينك يا أخي، وإيَّاك أن تعترض على أحدٍ من العلماء بالله بجهلك في أمرٍ جهلته من كلامهم، أو أن يكون لك أيُّ نسبةٍ تربطك بهذا الاعتراض، فالأمر جدٌّ وليس بالهزل.

وانظر كيف نسبوا إلى الله في تسميتهم؛ بل وحقيقتهم في قول: أولياء الله، أو العلماء بالله، أو العارفين بالله، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، فما عاديت في الحقيقة إلا ما نُسب لله، فانتبه من رقدتك.

واعلم أني ما ذكرت لك تلك المقدمة في هذا الموضع إعلامًا منِّي بأن واحدًا من العلماء بالله يقول بالحلول أو الاتحاد معاذ الله، ولكن لأوضح لك حقيقة الخلاف، والله يتولى هداك، وهو حسبنا ونعم الوكيل. وإليك نصوص ما ذكره ساداتنا العلماء بالله في نفيهم للحلول والاتحاد المتوهَّم في حقهم الشريف، فأقول وبالله التوقيق: **قال سيدنا في «الفتوحات» في باب الأسرار**: من قال بالحلول فهو معلولٌ؛ فإن القول بالحلول مرضٌ لا يزول، ومن فَصَلَ بينك وبينه فقد أثبت عينك وعينه، ألا ترى قوله: (**كنتُ سمعَه الذي يسمع به**)، فأثبتك بإعادة الضمير إليك، ليدلك عليك، وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول؛ فإنه أثبتك حالاً ومحلاً، فمَنْ فَصَلَ نفسهَ عن الحق فنِعْمَ ما فَعل.

=

=

وقال في باب الأسرار أيضًا: الحادث لا يخلو عن الحوادث، لو حلَّ بالحادث القديم لصحَّ قول أهل التجسيم، فالقديم لا يَحلُّ ولا يكون مَحَلا، ومن ادعى الوصل فهو في عين الفضل اهـ.

وقال في هذا الباب أيضًا: أنت أنت، وهو هو، فإيَّاك أن تقول كما قال العاشق: (أنا من أهوى، ومن أهوى أنا)، فهل قدر هذا أن يرد العين واحدةً، لا والله ما استطاع؛ فإنه جهلٌ، والجهل لا يتعقلُ حقًّا، ولا بدَّ لكلِ أحدٍ من غطاء ينكشف عند لقاء الله.

وقال في الباب التاسع والخمسين وخمسمائة بعد كلامٍ طويلٍ: وهذا يدلك على أن العالَم ما هو عين الحق، ولا حلَّ فيه الحق؛ إذ لو كان عين الحق أو حلَّ فيه لما كان تعالى قديمًا ولا بديعًا انتهى.

وقال في الباب الثاني والتسعين ومائتين: من أعظم دليلٍ على نفي القول بالحلول والاتحاد أنك تدرك عقلاً أن الشمس هي التي أفاضت على القمر النور، وأن القمر ليس من نور الشمس شيئًا مشهودًا؛ لأنها لم تنتقل إليه بذاتها، وإنما القمر محلا لها، فكذلك العبد ليس فيه شيءٌ من خالقه، ولا حلَّ فيه اهـ.

وقال في الباب الرابع عشر وثلاثمائة: لو صحَّ أن يرقى الإنسان عن إنسانيته والملك عن ملكيته ويتحد بخالقه تعالى لصحَّ انقلاب الحقائق، وخرج الإله عن كونه إلهًا، وصار الحق خلقًا، والخلق حقًّا، وما وثق أحدٌ بعلمه، وصار المحال واجبًا، فلا سبيل إلى قلب الحقائق أبدًا انتهى.

وقال في الباب الثامن والأربعين: لا يصحُّ أن يكون الخلق في رتبة الحق تعالى أبدًا، كما لا يصحُّ أن يكون المعلول في رتبة العلة انتهى.

وقال سيد الطائفة الجنيد رضي الله عنه: التوحيد إفراد القدم- يقصد الحق سبحانه وتعالى وما يجب لذاته المقدسة المنزهة - عن الحدوث-يقصد العالم-.

وقال سيدي عبد القادر الأمير-قدس سره- في الموقف الثلاثون: قال لي الحق: «أتدري من أنت؟ فقلت: نعم، أنا العدل الظاهر بظهورك، والظلمة المشرقة بنورك. فقال لي: عرفت؛ فالزم، وإيَّاك أن تدعي ما ليس لك؛ فإن الأمانة مؤداةٌ، والعارية مردودةٌ، واسم الممكن منسحبٌ عليك أبدًا، كما هو منسحبٌ عليك أزلاً».

ثم قال في شرح حديث (كنت سمعه): وإنما هي الأحكام العدمية التي ظهر الوجود الحق بها لا غير، ولا اتحاد كما يفهمه العميان، ولا تأويل كما يقول صاحب الدليل والبرهان اهـ.

وقال في الكلام على حديث (ما وسعني..إلخ): قلب العارف الكامل المحقق الواصل يصير عين معروفه، وعين ما حققه، مع بقاء التمييز: إلهٌ ومألوهٌ، ربٌّ وعبدٌ اهـ.

=

=

وقال سيدي عليُّ بن وفا نفعنا الله به: إنما كانت القلوب السليمة تحنُّ إلى التنــزيه أكثر من التشبيه؛ لأن التنــزيه هو الأصل، والتشبيه إنما هو تنــزُّلٌ للعقول، ومن شأن الذات الإطلاق لذاتها، وتساوى النسب لصفاتها، فاعلم ذلك، ونزِّه ربَّك عن صفات خلقه اهـــ.

وقال سيدي أيضًا: المراد بالاتحاد حيث جاء في كلام القوم: فناء مراد العبد في مراد الحق تعالى، كما يقال: بين فلان وفلان اتحادٌ، إذا عمل كل منهما بمراد صاحبه، ثم أنشد:

وعـــلمُك أنَّ كـــل الأمـــر أمـــري ... هـــو المعـنـى المســمَّى باتحـاد

وقال سيدي أيضًا: الاتحاد لفظٌ يطلق، ويراد به أعلى درجات قرب العبد من الرب اهـــ.

وانظـــر يا أخي رحمك الله إلى ما قاله هؤلاء السادات في الحلول والاتحاد؛ كي تعلم حقيقة مرادهم بتلك اللفظة، على فرض وقوعها في كلامهم، هو استخدام اللفظ ليس إلا، ودليلي فضلا عمَّا ذكرته من نفي القوم لذلك قال سيدي عليٌّ ﷺ وعنا به: (إن الاتحاد لفظٌ)، ولم يقل معنًى أو حقيقةٌ، فاعلم تلك الأقوال، وعضَّ عليها بالنواجذ، واجعلها أساس تحمل عليه كلام القوم.

وانظر قول سيدي عبد الوهاب الشعراني -قدس سره- : وعندي أن هؤلاء القائلين بالاتحاد كلهم لم يصحُّ لهم اتحادٌ قطُّ إلا بالوهم، وانظر كلامهم تجده من أوله إلى آخره لا يبرح من الثنوية، فإنه لا بدَّ من مُخاطب ومخاطَب اهـــ.

وقـــال أيضًا في ميزانه: وإيَّاك والغلط، فإنه لا حلول ولا اتحاد ولا يلحق عبد رتبة الحق أبدًا ولو صار الحـــق سمعه وبصره وجميع قواه، فإن الحق تعالى قد أثبت عين العبد معه بالضمير في قوله في الحديث القدسي: «كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»، إلى آخر النسق.

وفي كلامـــه ﷺ ما يغني عن التعليق من نفي تلك الاعتقادات المتوهمة، وقولى المتوهمة إنما هو بالنظر للمـــنكر؛ فإننا إذا أمعنا النظر في كتابات المعترضين على أقوال الكُمَّل رضي الله عنهم نجدها منصبَّةً حول معنًى غير مقصود بالمرة للقائل، ولو ذكرت للقائل معنى تلك المقولة بتفسير المنكر لها؛ لكان من أول المنكرين لها، وأشدَّ الناس اعتراضًا عليها، فإذن تلك العقائد المعترض عليها ليس لها وجودٌ إلا في عقل المنكر؛ فإنه اعترض على ما فهمه هو، لا على حقيقة المراد باللفظ.

فـــإذن الخـــلاف ليس في المعاني، وإنما هو خلافٌ نشأ عن استخدام تلك الألفاظ، ودليلي في ذلك ما ذكرته لك من أقوال هؤلاء الأئمة، فخذ تلك القواعد واحكم عليهم بمقتضى قولهم تجدهم جميعًا أقرب الخلق إلى الله وإلى رسوله ﷺ، وأعرفهم بالله ورسوله ﷺ. وأشدهم تمسكًا بكلام الله وسنة رسوله ﷺ

فإن قلت: فكيف العمل في تلك الأقوال الكثيرة المشحونة باستخدام تلك الألفاظ الموهمة؟!

أقول لك: بعد ما تقدم ذكره من القول إن لم تستطع قبول تلك الأقوال ولم تفهم المعنى الموافق للشرع **الذي هو يقينًا مراد القائل فتأولها بما يوافق الشرع؛ فإن الكتب الفقهية والشرعية مليئةٌ بالتعارض والترجيحات وتأويل الأقوال والأدلة المتعارضة، فقس على ذلك، وإن لم تستطع فلا تعمل إلا بما وافق الشرع وفوض أمر ما صعب عليك إلى الله، والله هو الموفق.**

واعلم يا أخي أني لم أذكر لك جميع كلام القوم في نفي الحلول والاتحاد ووحدة الوجود المتوهمة وإنما ذكرت لك طرفًا منه؛ فإنهم نبَّهوا عليه كثيرًا، فاختر يا أخي لنفسك، **﴿وما تشاؤن إلا أن يشاء الله﴾،**

=

قوله تعالى: (هو) كلمة مركبة لفظًا وبسيطة معنى؛ لأن المراد بها الهُويَّة الذاتية الأحدية؛ ولذا جعلوها من الأذكار الغيبية الليلية، وأدخلوا عليها اللام فقالوا: عالم الهوى ولا مناقشة في الاصطلاح، ووجه التركيب من الهاء والواو؛ إن الهاء من مبتدأ المخارج، كما أن الواو من منتهاها.

فكما أن الهواء المتكيِّف بكيفية الصوت يمرُّ بالمخارج كلها إلى أن ينتهي إلى الواو شفوية؛ فكذا سر الهُويَّة التأدِّي في الموجودات المرتب بعضها على بعض يتجلَّى في العوالم كلها إلى أن ينتهي إلى الإنسان؛ فيكون الإنسان وحقيقته أجمع الحقائق.

كما أن الواو أجمع الحروف من حيث مرورها بجميع الحروف ومخارجها؛ فصارت صورتا الحرف والفعل متطابقتين، فكون لفظ هو ضميرًا يدلُّ على الغيب، وكونه اسمًا يدلُّ على الشهادة؛ لأن المراد من الأسماء التعيُّنات؛ وهي من عالم الشهادة إضافية، أو حقيقية؛ ولذا كان أجلُّ الأذكار عند الأقطاب المكاشفين من حيث مكاشفتهم، وإن كانت كلمة الشهادة خير الأذكار عند المحجوبين من حيث حجابيتهم.

وفي الابتداء بالهاء؛ إشارة إلى رجوع الكل إلى تلك الهُويَّة، كما قال: وإليه ترجعون، فكل هاء تدور على هذه الهاء كما أن قوله تعالى: ﴿**ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ**﴾ [ق: ١]، ناظر إلى (قُلْ) [الإخلاص: ١] الواقع في هذه السورة؛ لأن القرآن صفة الله تعالى، وفيها مجد وجلالة، كما أن هذه السورة مما يصرِّح بذاته العليَّة، وصفاته الجليَّة.

قوله تعالى: (الله) اسم دال على الأُلوهية؛ لكن الأُلوهية لَمَّا كانت سنام الصفات الإلهية؛ أُخذت مع الذات، وجُعلت مستجمعة لجميع الصفات، ففي هذا الاسم دلالة على تنــزُّل الذات من مرتبة الهُويَّة إلى مرتبة الصفات؛ ليكون وسيلة إلى

=

ووالله لا ينسب القول بالحلول أو غيره من القبائح إلى القوم بعدما ذكرناه من كلام إلا معاندٌ مكابرٌ، فحمل كلامهم على مرادهم لا غير، ولا تقلد الجاهل -المتحكم على الله- في إنكاره، لأن الموطن موطن جرح وعقائد محلها القلوب، والسلامة مقدمة على الغنيمة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، والسلام.

سرِّ الربوبية كما قال: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة: ٢].

وكل منـــزَّل من التنـــزُّلات الأسمائية منطبق على ما فوقه، ومن ذلك الهاء في آخر هذا الاسم؛ لأن الصفات مشتملة على الذات، كما أن الشجرة مطوية على النواة، فكل نهاية راجعة إلى البداية بما اشتملت عليه من الحقيقة سواء كان ذلك الرجوع بواسطة أو بغيرها، والعارف يمشي على المراتب صورة، ويجري على التجريد معنى، ففيه السلامة.

(**أحد**): أي في ذاته؛ ومنه: أحدية السلطان فإنه ممكن، والممكن ظل الواجب، ولا يكون ظلان لذي ظل واحد، وإليه الإشارة بقوله: «**السلطان ظل الله**[(١)]»: أي ظلٌّ الحقيقة الإلهية، فانطبق المرآتان، واستبان سرٌّ قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى: ١١].

فهنا رب وعبد فقط، كما أن هناك ظلاً، وذا ظل لا غير، فإذا كانت الهُويَّة أحدية في ذاتها؛ كانت الأُلوهية وصورها أيضًا كذلك، وإلى هذا أشير بما ورد: «**إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما**»[(٢)]، وإنما أمر بقتل الأخر وإزالته؛ لأن الشركة إنما نشأت منه، فإذا قتل، رجع الأمر إلى وحدته.

ومنه: كلمة الشهادة نفيًا وإثباتًا، فاعرف.

ثم إن التصريح بالأحدي؛ إنما هو لأزالة الأوهام، وإبطال الخيالات، وإلا فلا وجود في الحقيقة إلا لموجود واحد؛ لأن الظل تابع لذي الظل، فلا وجود له في نفسه إلا صورة، والصورة لا تزاحم المعنى، كما أن البدن لا يتعدد مع الروح، إذ ليس هنا إلا ذات واحدة؛ وإنما التعدد مبني على الاعتبار؛ ولذا قال مَن قال لنا: (**من أمره**) روح وجسم؛ حيث جعل كلاًّ من الروح والجسم من الأمر مع أن الجسم من الخلق إذ لا يختلف الأمر من اختلاف الخلق؛ بل هما متحدان بالذات، وإن كانا مختلفين بالصفات.

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (١٥٣/٤)، والبيهقي في الشعب (١٦/٦).

(٢) رواه مسلم (١٨٤٠/٣)، والبيهقي في الكبرى (١٤٤/٨).

ومن هنا قالوا: أصل العالم أمر واحد، فإذا تقرر هذا عندك؛ عرفت أن كلاً من الأسماء الثلاثة؛ وهي: (**هو**)[1]، و(**الله**)، و(**أحد**) ذكر على حدة مشتمل على حقيقة من الحقائق، وإن كان الكل يرجع إلى حقيقة الحقائق من حيث لا تعيينها، فمن كان محجوبًا؛ كان (**هو**) عنده ضميرًا؛ لأنه غائب عن الحقائق، وتجلياتها غيوبية الضمير.

ومَن كان مكاشفًا؛ كان (**هو**) عنده اسمًا؛ لأنه عند الحقائق وحاضر لديها؛ فهو (عنده)[2] بمنـــزلة (**الله أحد**) فكن عندك، وخذ بما لك، ولا تتعد إلى حاضر غيرك نفيًا وإثباتًا، وإلا فأنت جاهلٌ بالحقائق، ذاهلٌ عن الحق الصريح، وإن كنت من أهل التقليد الحقيقي، فأنت إذًا غائب حاضر، فأفعل بذلك فلا ضير والله الهادي إلى جنابه.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:٢]: كُرر الاسم؛ لأن الأول راجع إلى الذات، وهذا ناظر إلى الصفات؛ ومعنى الصمد: المصمود إليه.

ومنه: حال السلطان الظاهر في صورته؛ لأن الخلق من حيث كونهم رعاياه محتاجون إليه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ﴾** [فاطر: ١٥]: أي إلى الله الفرد الذي هو الحقيقة الجامعة لجميع الحقائق، فإنه مبتدأ أول لجميع التأثيرات الواقعة في الأكوان، وكذا إلى القطب الفرد الذي هو المظهر الأولى لتلك الحقيقة من حيث الاسم الباطن، وكذا إلى السلطان الفرد الذي هو ظل ذلك المظهر من حيث الاسم الظاهر.

فما من اسم من الأسماء إلا وفيه معنى الصمد؛ لكن فرق بين اسم واسم، ومن هنا ظهر التفاوت بين الخلق، فكان الرجوع إلى السلطان في المهمات أولى من الرجوع إلى مَن دونه من أهل المراتب، كما أن الرجوع إلى القطب من حيث

---

(١) للشيخ النابلسي -قدس سره- مؤلف في الكلام على بعض معاني هذا الاسم، وبيان مواضع وروده في نصوص الشرع، أسماه: (تنبيه من يلهو على علمية الاسم هو). وإن شاء الله سيطبع قريبًا ضمن بعض مؤلفات نادرة لسيدي عبد الغني رضي الله عنه ونفعنا به آمين.

(٢) بالأصل (عند)

مظهريته على وجه أتم؛ أعلى من الرجوع إلى السلطان الظاهر؛ ولذا كان العلاج الروحاني أنفع من العلاج الجسماني في أكثر المواد.

وقس على ذلك الرجوع إلى الله تعالى في مقام التفريد، وأن ذلك لكل محجوب مرتبط بالأسباب والوسائل؛ ولذا قلّ استجابة الدعاء؛ فالمقصود إنما في جانب الداعي فبقدر حضوره في مشهده؛ يجد المطلوب، ويصل إلى المراد.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ [الإخلاص: ٣].

لأنه لو كان والدًا؛ لكان متعلّقًا، ولو كان متعلّقًا؛ لجرى عليه الحل والحرمة، ومن ثمة قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فكان الحبيب من أهل هذا المقام، وهو لا ينافي كونه أبا الأرواح، كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

فالروح والد (الجسد) [1] بواسطة، ووالد الروح؛ هو النور الإلهي بلا واسطة، كما أن والد القمر؛ هو الشمس، ووالد الشمس؛ هو ذلك النور؛ لأن نور الشمس من نور الله تعالى لا بواسطة بخلاف سائر الأنوار.

قال تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣].

لأن الولد نتيجة، والنتيجة فرع الأصل؛ فكان آدم أبو البشر عليه السلام من أهل هذا المقام؛ لأن الله تعالى خلقه لا عن أبوين، فكان على صورة خالقه؛ ولذلك كان مسجود، أو ليست السجدة إلا لله تعالى؟ ومن هنا قالوا: ظاهر الكون خلق، وباطنه حق، ومَن صفا قلبه؛ كان كأنه لم يلد ولم يولد، وإن كان والدًا ومولودًا.

قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤].

إذ لا أحد هنا غيره حتى يكون كفوًا له؛ إذ الموجودات كلها مظاهر أسمائه، ومجالي صفاته، وههنا كلام آخر رمزنا إليه بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] كما سبق، فتفطّن فإن المقام من المزالق، ومن الله التثبيت والتمكين.

---

(١) بالأصل : (الجد)

قال الله سبحانه: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣].

اعلم أن العبد على صورة المولى وسيرته.

أمَّا الأول: فقد دلَّ عليه قوله ﷺ: «**إن الله خلق آدم على صورته**»[١]؛ وهي الصورة الحقيقية المعنوية المدلول عليها بالصفات السبع المرتَّبة.

وأمَّا الثاني: فدلَّ عليه قوله ﷺ: «**إن الله خلق آدم؛ فتجلَّى فيه**»[٢]: أي ظهر فيه بكمالات هَوِيَّته.

ولذا ورد: «**تخلَّقوا بأخلاق الله**»[٣]: أي اظهروا تلك الأخلاق والأوصاف التي أودعها الله فيكم حين التجلِّي؛ وذلك بالمجاهدات.

كما قال: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ [العنكبوت:٦٩]: أي سبل المعرفة والمشاهدة؛ فإن المشاهدات تُورِّث المشاهدات.

ولا شك أن المشاهدة موقوفة على المعرفة الصحيحة، فظهر إن المجاهدة لها ثمرتان؛ المعرفة الإلهية، والمشاهدة: أي إذا كانت مجاهدة من طريق السنة كما دلَّ عليه لفظة: (**في**)، فخرَّج مجاهدات الفلاسفة ونحوهم؛ لأنها من طريق العقول، والتصرُّفات النفسانية لا من طريق الذِكر، واتِّباع الأنبياء وسننهم، فليس لها ثمرات يقينية مفيدة.

ولذا ضلُّوا في طريقهم، ورُدُّوا إلى أول منازلهم؛ وهو منـــزل الطبيعة التي لا نفع منها؛ فكانت رياضاتهم بمنـــزلة الاشتغال بالمأمور الخسيسة الطبيعية، فكما أن هذا الاشتغال حجب أربابه عن الوصول الروحاني؛ فكذا الرياضة المذكورة، فاعتبر من هذا إن كان لك عقل سليم.

ثم إن الإنسان الكامل الذي هو العبد الحقيقي لم يكن والدًا ولا مولودًا في الحقيقة؛ لكونه على صورة مولاه، وإنما قيل: له مولود؛ لقوله ﷺ: «**أنا من الله**»[٤]،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) ذكره الجرجاني في التعريفات (٢١٦/١).

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره (٢٢/١).

فأورد كلمة من؛ إشارة إلى مبدأ الظهور، فليس هناك الأخفاء دلّ عليه قوله: «**كنت كنـــزًا مخفيًا**»(١)، وظهور دلّ عليه قوله: «**إن الله خلق آدم؛ فتجلّى فيه**»(٢)؛ وهو التجلّي النوري البرقي.

وإنما قيل: له والد؛ لقوله ﷺ: «**يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة**»(٣)، فإذا كان أبًا لهذه الأمة؛ كان أبًا لمن قبلها أيضًا؛ لأن هذه الأمة؛ هم الآخرون السابقون كما ورد في الحديث: «**والغمدة في الأمة؛ هم الذين كانوا من إله الحقيقي، وأهل بيته المعنوي**»(٤).

كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿**لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ [الأحزاب:٣٣].

ومن هذا المقام كان سلمان ﷺ من أهل البيت، والتحق به المطهَّرون جميعًا؛ لأنهم الذين مسُّوا القرآن الحقيقي، كما قال: لا يمسه إلا المطهرون: أي من دنس التعلُّقات بما سوى الله تعالى مطلقًا، ودلّ على ما قلنا قولهم: الولد سرُّ أبيه؛ معناه فيه ما فيه، فمَن لم يكن سرَّ أبيه؛ لم يوجد فيه ما فيه، فهو لم يكن من أولاده، ورحم الله أكامل الناس حيث قدَّموا الأولاد المعنوية على الأولاد الصورية الذين تجرَّدوا عن المعنى.

ومن ثم قسموا الهاشمية على أقسام، فإن كان الإنسان الكامل على هذه الصفة التي قررناها؛ فالجهل بحقائقه أقرب من العلم بها، فلا يعلم ما الله إلا الله، ولا يعرف الإنسان الكامل أيضًا إلا مَن كان في طبقته من المظاهر الكلية، فإن العوام والمحجوبون من هذه المعرفة؟ وهي أعمق الأشياء، وأغرب الأحوال.

ثم قال المصنف في موضع آخر:

قال الله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١].

---

(١) ذكره الجرجاني في التعريفات (٢١٨/١٠)، والقنوجي في أبجد العلوم (١٥٩/٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) لم أقف عليه.

لطيفة: قيل لي في المنام ليلة الاثنين الثلاثين من شهر رمضان سنة ١١٢٩ هـ: إن (هو) مبهم ما لا تعيُّن له في الخارج؛ بل عهديته في الذِّهن، وإنما يُريد إبهامه ما بعده من تفسيره؛ وهو الله أحد، فهو قبل التفسير مبهم في الخارج، ومفسٌّر في نفس الأمر، وإنما جاء الإبهام من حيث المراتب، ففيه إشارة إلى قوله تعالى: «**كنت كنزًا مخفيًّا، فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف**»[1]، فإنه تعالى كنزًا مخفيًّا قبل خلق الخلق، فكان ظهوره بذاته في ذاته؛ فكان خلق الخلق كالتفسير له بحيث كان ظاهرًا لغيره أيضًا.

فالأول: مرتبة الجلاء.

والثاني: مرتبة الاستجلاء.

فمَن قصر نظره؛ لم يرَ العالم إلا كالضمير المبهم، ومَن كاشف عن حقيقة الحال؛ لم يكن عنده مبهم، فإن الحق تعالى كشف عن ذاته وصفاته وأسمائه؛ ولذا قال: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ [آل عمران:١٨].

فالهَويَّة كانت ظاهرة للحق قبل خلق الخلق، وباطنة للخلق، وبعده كانت ظاهرة للخلق أيضًا، فباطن الحق ظاهر الخلق، وبالعكس على هذا نفس الإنسان الكامل؛ فإنه بمنزلة ضمير هو في إبهامه وتفسيره، وليس تفسيره إلا الكرامات العلمية المتعلّقة بحقائق الذات، والصفات، والأفعال؛ وهو القرآن الفعلي، والضمير المفسَّر، والهَويَّة الظاهرة بآثاره، والباطنة بحقائق ذاته.

ومَن أنكره؛ فقد أنكر القرآن، ومَن أنكر القرآن؛ فقد أنكر الحق بذاته وصفاته، فإن القرآن ذات وصفة، فإن الصفة لا تقوم إلا بالذات، ولا تنجلّي إلا بالمحلّ؛ فلذا قال بعض الأكابر: أنا القرآن والسبع المثاني، ففيه أسرار الحروف والكلمات، والآيات والسور، فإنه حرف عملي روحانية، وآية مثالية، وسورة جسمانية.

وهذا مراد مَن قال: مَن أراد أن يجلس مع الله تعالى (واصطنعته لنفسه) وجعله

---

(١) تقدم تخريجه.

مجلى لصوَّر كمالاته، فمَن رآه فقد رأى الحق، ومَن عمي عنه فقد عمي، وكم ترى في كل عصر مَن يُقبِّل المصحف صباحًا ومساءً بناءً على أنه كلام الله، ويستحقر الإنسان الكامل مع أنه سرٌّ ذلك المصحف، ولو كان عالمًا به فاستحقره؛ لمُسخ مسخ الأمم الأولى؛ لكن قد يعذر بالجهل، وذلك من رحمة الله تعالى بعباده؛ ولذا ستر الله الأقطاب في كل عصر إلا عن أهل المعرفة.

فالمحجوب ينظر إليهم وهو لا يبصرهم؛ وإنما يبصر البشر، والمكاشف ينظر إليه ويبصرهم على أنهم صورة الحق تعالى.

وليس لله تعالى تجلٍّ إلا في مرائيهم وعلى صورهم، ومن ينظر إلى الله وهو مجرَّد عن النعوت، فقد طلب المحال، كما أن مَن أرد أن ينظر إلى الروح بدون توسُّط مرآة البدن؛ فقد ضرب حديدًا باردًا، فإنه لا يتيسَّر إلا بالمرآة، ومرآته الجسم.

ومن هذا ظهر أن الإنسان الكامل رداء الحق، فهذا الرداء لا يزول عن المرتدي أبدًا، وهو ليس بحجاب له، كما أن المرآة كذلك مع القناع.

فعليك بفهم هذا المقام، وكُن مع أهل العافية والسلام.

واعلم أن الله ليس منه أثر على الكون في الحقيقة، وكذا الكون ليس منه أثر على الحياة في نفس الأمر، وهو غنيٌّ عن العالمين(١).

***

---

(١) انتهى الجزء الأول وهو الخاص بالآيات القرآنية، وإليك الجزء الثاني وهو الخاص بالأحاديث والواردات واللطائف، والله الموفق والمعين.

مرآة الحقائق

في تفسير بعض الآيات والأحاديث والأوراد واللطائف

تصنيف العارف

سيدي إسماعيل حقي البروسوي

المتوفى ١١٣٧ هـ

تحقيق

أحمد فريد المزيدي

الجزء الثاني

الآفاق العربية

مرآة الحقائق

في تفسير بعض الآيات والأحاديث والواردات واللطائف

تصنيف العلامة

سيدي إسماعيل حقّي البرسوي

المتوفى ١١٣٧ هـ

تحقيق

أحمد فريد المزيدي

الجزء الثاني

دار الآفاق العربية

حقي، إسماعيل حقي.....عبد الله المناستري ، 1912
مرآة الحقائق في تفسير بعض الآيات و الأحاديث
و الواردات و اللطائف2/1
تصنيف: إسماعيل حقي البر سوي
تحقيق:احمد فريد المذيدي
ط1 – القاهرة : دار الآفاق العربية 2009
884ص ، 24 سم
تدمك : 7 – 218 – 344 – 977
1- التصوف الإسلامي 2- القرآن-تفسير
3 الحديث-تفسير
أ- المذيدي ، فريد (محقق)
ب- العنوان
ديوى : 415.1
رقم الإيداع : 2008/13753

الطبعة الأولى
1430هـ – 2009

دار الآفـــاق العربيـــة
نشر – توزيع – طباعة
55ش محمود طلعت من ش الطيران
مدينة نصر – القاهرة
تليفون : 22617339 تليفاكس : 22610164
EMIL: Daralafk@yahoo . com
Selimafak@live.com

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح بعض الأحاديث
بطريق الحقائق

١- **في المتفق عليه:** قال رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»[1]:

هذا بإطلاقه شامل لجميع الأعمال وسائل كانت؛ كالوضوء، والسَّعي إلى الجمعة ونحوه ذلك، أو مقاصد، كالصلاة، واستماع الذّكر يوم الجمعة وغير ذلك حتى أن التوحيد من حيث إنه ذكر لساني، وعمل خارجي لا بد له من النية، وقال العلماء: ما كان من قبيل الوسائل لا يحتاج إلى النية، فلو لم يُنوَ عند الوضوء لرفع الحدث، وإقامة الصلاة؛ صح وضوءه بخلاف ما كان من قبيل المقاصد؛ كالصلاة فإنه لا بد من النية؛ ليكون صحيحًا مقبولاً.

فصحة الصلاة المستصحبة بالنية مستلزمة لصحة الوضوء، ونيتها سارة لنيته؛ بمعنى أن نيته الشرط والمشروط نية واحدة.

وقال العرفاء: لا بد من استحضار الحق تعالى في مباشرة العمل المشروع فيه مطلقًا؛ فإنه روح ذلك العمل وسره، فكما أن البدن لا يقوم إلا بالروح، فكذا العمل لا يقوم إلا بالنية، واستحضار الحق على أن قد يدخل الرياء في العمل، فلا بد من النية؛ ليخلص لله تعالى.

وللعارفين شأن عجيب في باب النية: فإن نيتهم دفعية كلية سارية في مراتب جميع الأعمال، فليس لهم عمل بلا نية أصلاً، إذ هو ذهول عن الحق، وكيف يذهل عن الحق مَن ودُّوا حقه، والذين هم في صلواتهم دائمين، فدوام الشهود يغنيهم عن استصحاب النية الخاصة في كل خاص على أن الوضوء قد يكون قربة مشروعة مستقلة، كما دلّ عليه ﷺ: «**دُمْ على الطهارة، يُوسع عليك الرزق**»[2].

فقد يلزم الطهارة في وقت، والصلاة غير مشروعة فيه، فعليك بالقربات، والدرجات، والصعود إلى المراتب العالية بخلوص النيات.

---

(١) رواه البخاري (٦٥/١٢)، وأبو داود (٢٦٢/٢).

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٢٧٣/٤).

واعلم أن متعلّق نية الخواص: هو الحق تعالى؛ فهم محسنون متقون مقربون، ولهم النور التام يوم القيامة.

وإن متعلّق نية العوام: هو فضل الله ورحمته، فهم عاملون أبرار مقربون، ولهم الأجر التام يوم القيامة، ومقام الأولين: جنة عرضها السماوات والأرض؛ لاتساعهم وانشـــراحهم قلبًا وصدرًا، ومقر الآخرين: جنات تجري من تحتها الأنهار؛ لمتابعتهم العلوم أو سالتهم الدموع، فأين الأجير المحجوب من المحسن المحبوب؟ فعليك بإعراب المطلوب[1].

(١) قال الحكيم الترمذي: «باب في شأن النية»: حدَّثنا صالح بن عبد الله، حدَّثنا يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال يومًا: «هل تدرون مَن المؤمن» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «المؤمن مَن لا يموت حتى يملأ الله مسامعه مما يحب، ولو أن عبدًا اتَّقى الله في جوف بيتٍ إلي سبعين بيتًا، علي كل بيتٍ بابٌ من حديد، ألبسه الله رداء عمله، حتى تتحدث الناس به ويزيدون» قالوا: وكيف يزيدون يا رسول الله؟ قال: «إن اتَّقى، لو استطاع أن يزيد في برِّه لزاد، وكذلك الكافر يتحدَّث الناس بفجوره ويزيدون، لو استطاع أن يزيد في فجوره لزاد».

وكان ثابت إذا حدَّث بهذا الحديث يقول: فبلغني أن رسول الله ﷺ كان يقول: «نيَّة المؤمن أبلغ من عمله».

حدَّثنا عمر بن أبي عمر عن نعيم بن حماد عن عبد الوهاب بن همام الحميري قال: سمعت وهبًا يحدِّث عن ابن عباس أن رجلاً قال: يا رسول الله ما أفضل الأعمال؟ قال ﷺ: «النية الصادقة».

وحدَّثنا عمر بن عمرو الربعي عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: لم نية المؤمن خير من عمله؟ قال: نية المؤمن لا يكون فيها رياء فيهدرها».

وحدَّثنا عمر عن فهد بن مالك بن دينار قال: رأيت رجلاً بمكة يقول: اللهم قبلت حجَّاتي الأربع، فاقبل هذه الحجة فتعجبت منه، وقلت: كيف علمت أن الله قبلها منك؟ قال: أربع سنين كنت أنوي كل سنة أن أحج، وعلم من نيتي، وحججتُ من عامي هذا وأنا خائف أن لا يتقبَّل مني، فيؤمئذ علمت أن النية أفضل من العمل.

قال أبو عبد الله- رحمه الله-: وجدنا من طريق الاعتبار عندما مثلنا بين النية والعمل أن العمل منقطع، والنية دائمة.

وتصديقه في حديث ثابت عن أنس: «والعمل علانية والنية سرٌّ».

=

٢- **في الحديث الصحيح:** «**حُبِبَ إليّ**»[1]: أي بالتحبيب الإلهي؛ ولذا لم يقل: أحببت؛ لأنه شيء عن حب اختياري، وذلك غير مقبول[2].

ومن هذا المقام قالت امرأة العزيز: ﴿**ذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ**﴾ [يوسف:٣٢]؛ إذ العدل لا يجري في غير الاختياري، والله يفعل ما يشاء

(**من دنياكم**): أي الأمور الحاصلة في دنياكم، فحصل الجواب عما قيل: من أن الثالثة -وهي الصلاة- ليست من الدنيا، وسيتضح في محله، وأضيف الدنيا إلى ضمير المخاطب؛ إشارة إلى أن النبي ﷺ ليس من الدنيا في الحقيقة؛ بل تربة طاهرة مأخوذة من تراب الجنة.

ومَن لم يكن من الدنيا؛ فلا تعلُّق له بالدنيا إلا قدر ما أمر الله بالتعلُّق به؛ وهو تعلُّق حقيقي لا يكون إلا بالله، لا تعلق نفسّاني، فظهر أن الدنيا صورة الآخرة لَمن هو من أهل الآخرة، فلا يضر التعلُّق بها إذا كان معه تعالى.

(**ثلاث**) أنثها باعتبار أن أكثر المعدودات مؤنث، أو باعتبار الدنيا ونحو ذلك.

وبما فسرنا قوله: من دنياكم خرج الجواب عمَّا ذهب إليه الزركشي ونحوه: من أن لفظ ثلاث ليس من الحديث، وزيادته مخلّة بالمعنى؛ فإن الصلاة ليست من

=

وتصديقه في حديث عطاء: «**أعمال السر مضاعفة**»، والعمل سعي الأركان إلي الله- تعالى- والنية سعي القلوب إلي الله، والقلب مَلك، والأركان جنوده، ولا يستوي سعي الملك وسعي جنوده، والعمل يوضع في الخزائن والنية عنده؛ لأنه الذكر الخفي، والعمل موقوف علي نهايته والنية لا تحصي نهايتها، والعمل بتحقيق الإيمان، والنية فرع الإيمان، بمنزلة الشجرة فيه منصوبة، فبظهور ورقها هي شجرة وليس للورق نمو، وإنما هي زينة الشجرة، والثمر من الفرع، والفرع سقياه من الأصل.

وذلك قول الله- تبارك وتعالى- في كتابه: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤] فالأصل هو الإيمان الذي في القلب، والنية هي فرعها الذي في السماء والعمل هو للأكل. وانظر: منازل القربة (ص١٧٨) بتحقيقنا.

(١) رواه النسائي (٢٨٠/٥)، والطبراني في الكبير (١٥٢/٤).

(٢) فأشار إلى أن ذلك بتحبيب الله لأسرار وحكم ومصالح أرادها الله لا بحبه هو.

الدنيا؛ كالنساء والطيب؛ هو ما له رائحة طيبة، وإنما حبب الطيب إليه ﷺ؛ لأن فيه ذوق الأنس والمفاخرة؛ وهو حظ الروح، وظهر منه أن غير الطيب حظ النفس، والأنبياء والأولياء معصومون محفوظون عمَّا لا يستطاب؛ لأن نفوسهم طيبة طاهرة؛ ولذا كانت الطيبات للطيبين، والخبيثات للخبيثين، فطوبى للطيبين، والغبطة لأخلاقهم الطيبة، وويلٌ للخبيثين والنفرة عن أوصافهم الذميمة.

وجه التحبيب في النساء: إن فيهنَّ ذوق القربة والوصلة، وإن كُنَّ من حيث الظاهر حظ الجسم، فما كل ما هو من حظ الجسم ساقطًا عن درجة الاعتبار بالنسبة إلى الأرواح العالية، فربما يكون للشيء وجهان يختلف باعتبارهما.

ألا ترى أن الله تعالى جعل النساء من الشهوات في قوله: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ**﴾ [آل عمران:١٤]، وقدمهنَّ على ما عداهنَّ؛ لأنهنَّ من شهوات نفسانية بالنسبة إلى النفوس الخبيثة، وشهوات حقانية بالنسبة إلى النفوس الطيبة.

لأن يُقال: نور المحبة، ثم نار العشق، ثم حرارة الشهوة؛ فيه إشارة إلى أن حقيقة حرارة الشهوة الحقانية؛ إنما تظهر بعد ظهور نار العشق الحقيقي، فمَن لم يكن عاشقًا؛ لم يكن أهل شهوة حقيقية.

ولا شك أن نبينا ﷺ رئيس المحبين، وسلطان العاشقين؛ ولذا أعطاه الله قوة أربعين نبيًا، ولذا كان لا يشبع من النساء على ما ورد في بعض الأحاديث.

ومن عجائب المقام: إن حروف النساء حروف الناس، فزين أحدهما للآخر؛ لأنه ليس هنا إلا ذكورة وأُنوثة ونتيجة، والأنوثة مستنبطة من الذكورة، كما أن النتيجة مستفادة منهما، والشيء يحنّ إلى جزئه وجنسه لا محالة، فإذا كان التزيين من الله من حيث اسمه الجميل؛ كانت الشهوة حقيقية، وإذا كان منه من حيث الجليل؛ كان نفسانية؛ لأنه امتحان محض يجب التحرز عنه، ولم يقل: (والمرأة) بدل (**والنساء**)؛ لأن النسء بمعنى التأخير، ووجود حواء متأخر عن وجود آدم تأخر القابلية عن الفاعلية.

ولفظ المرأة لا يدل على هذا، وإن كان يقال في وجه التسمية بالمرأة: إن ذلك

لكونها مأخوذة من المرء؛ وهو شخص آدم، إذ كل أخذ لا يدل على التأخر عن المأخوذ منه؛ بل قد يكون مقارنًا له، فسبحان مَن صور وجعل الأشياء أزواجًا، وجعل بينهم المودة والرحمة؛ ليسكن بعضهم إلى بعض مع رجوعهم إلى أصل واحد.

قال ﷺ: «**وقرة عيني في الصلاة**»[١]: أي سرور قلبي، وفرح روحي في حال الصلاة لا في إقامتها؛ لأن مجرد الإقامة لا يستلزم السرور والراحة.

وقد قال ﷺ: «**أرحنا بها يا بلال**»[٢] أي: أذِّن وأقم حتى ندخل في الصلاة المشروعة التي هي قرينة الزكاة فنستريح؛ لأن الصلاة حظ القلب، وفيها ذوق المكاشفة والمساهمة؛ ولذا حرص النبي ﷺ على مرتبة الإحسان، ولو كان أدناه؛ وهو شهود الخيال، فمَن لا شهود له في الصلاة، ولو في الجملة؛ كان ساقطًا عن رتبة المناجين، فظهر أن الصلاة من الأمور الأخروية، وإن كانت حاصلة في الدنيا على أنها تحتاج في الظاهر إلى حركات الأعضاء؛ وهي من الدنيا، وعالم الشهادة، وإن كانت باعتبار التوجه القلبي ونحوه من الأمور الدينية، وعالم الملكوت[٣].

---

(١) رواه النسائي (٥/٢٨٠)، وأحمد (٣/٢٨٥).

(٢) رواه أبو داود (٤/٢٩٦)، والطبراني في الكبير (٦/٢٧٧).

(٣) قال الحكيم الترمذي: وأمَّا علة الصلاة: فإن القيام تسليم النفس إلى الله تعالى لأنه لَّما أغفل جواره انتشرت في شهواتها ومُناها بما لم يؤذَن لها فيه، فجاء بها ليجدِّد تسليمًا؛ لأن الإسلام هو قبول العبد من ربه - تعالى - العبودية، وتسليم النفس إليه طواعية له فيما أمر به حفظ العبودية.

وهي ميثاقه الذي واثقه به، وواثق به جوارحه السبع وهي: السمع، والبصر، واللسان، والبطن، والفرج، واليد، والرِّجل؛ ولذلك سمي نبذة بالأعجمي؛ لأنه أوثقه عمَّا حرَّم عليه، وأمره مع ذلك بأداء الفرائض.

فلما قبل العقد هذا من ربه، كان قد سلم نفسه إليه: فهو الإسلام، ثم اقتصاه الوفاء بذلك إلى انقضاء أجله، فلمَّا مرَّ في شهواته فيما لا يُحل له؛ احتاج إلى أن يجدِّد التسليم، كما أنه لو نقض الأصل فارتد إلى شهوة عبادة الأوثان؛ احتاج إلى أن يجدِّد الإسلام، فكذلك لَّما ارتدَّ إلى شهوة المعاصي؛ احتاج إلى أن يجدِّد تسليم النفس طواعية له، فجاء مصليًا، والتصلية تذل النفس.

=

=

وانتصاب العبد بين يديه، فجاء فوقف بين يديه ممسكًا عن جميع الشهوات جامعًا لهذه الجوارح بين يديه؛ كهيئة العبد الذي يريد أن يفي بما ضمن من التسليم، وأن يتدارك ما فُرط منه فلمَّا فُرط منه ما فُرط مضى على تسلميه قلبًا وفعلاً؛ ولكنه لَمَّا فرَّط في الوفاء؛ احتاج إلى أن يقف بين يديه معتذرًا مِمَّا فرَّط مُسلِّمًا نفسه إليه.

ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: «**جدِّدوا إيمانكم** قالوا: بماذا يا رسول الله؟ قال: **بلا إله إلا الله**».

وعنه قال ﷺ: «**قال ربكم الأعلى: لو أن عبادي أطاعوني لأمطرت عليهم بالليل ولأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولم أسمعهم صوت الرعد**».

فإنما احتاجوا إلى تجديد الإيمان؛ لأنه قد خلق بوله القلوب إلى الأسباب؛ لأن من صدق الإيمان أن يكون ولَهُ القلوب إلى الله – تعالى – الذي أوله الخلق إليه، فإذا ولهت إلى شيء دونه ذهبت قوة الإيمان وطراوته فاحتيج إلى تجديده.

وقال رسول الله ﷺ: «**الإيمان حُلو نزه فنـــزهوه**».

وكذلك قال رسول الله ﷺ لسلمان﷛: «**قل اللهمَّ إني أسألك صحة في إيمان، وإيمانًا في حسن خلق، ونجاحًا يتبعه فلاح، ومغفرة منك ورضوانًا**».

فلا يُسأل الصحة في الإيمان إلا من سُقم، فإذا تعلق القلب بأسباب دونه افتتن وتعلق بغير معلقه، وكان ولهه إلى غير مَن هو إليه صائر.

فإن قوله: **لا إله إلا الله**، هذه مقالة من قلب خلق وإيمان سقيم؛ فلذلك قال: «**جدِّودا إيمانكم**»، وكذلك الإسلام.

كما أمر هاهنا بتجديد الإيمان قلبًا، كذلك أمر بتجديد الإسلام نفسًا في أن يقوم إليه معتذرًا، وقد جَمعت له جوارحك المنتشرة في شهواتك التي لم يؤذَن لك فيها فتجدِّد تسليمًا، ولم يكن انتشارك هذا نقضًا للعقدة: عقدة التسليم؛ ولكن كان نقضًا للوفاء: وفاء التسليم.

فإن هذه الجوارح السبع كانت عندك بأمانة وأُمرت بحفظهنَّ، فتوكُلِّت برعايتهنَّ، والراعي إذا أهمل غنمه؛ حوسب وعوقب وغرم، فإذا أصبحت انتشرت كلُّ جارحة منك ترعى في واديها، فالسمع في وادي الاستماع للأصوات، والبصر في وادي النظر إلى الألوان، واللسان في وادي المنطق، وكذلك كلُّ جارحة.

وفي هذه الأودية سموم قاتلة من المراعي، وذئاب ضارية، وأجراف هاوية فعلى الراعي أن يحفظ
=

وبطل ما ادَّعاه أكثر العلماء من أن الحديث من قبيل الطي، وإن الثالثة ليست معطوفة على ما قبلها؛ بل هي كلام مبتدأ، وقوله: إنه من قبيل الطي؛ معناه: إنه ﷺ لَّما ذكر الأولين؛ سقط في يده، وأعرض عن الالتفات إلى أمر دنياه، فطوى ذكر الثالثة فابتدأ بأمر هو من الأمور الدينية والأخروية هذا كلامهم؛ وهو كلام قطعي جدًا خارج عن الأدب قطعًا.

بل لفظ الثلاث من الحديث نفسه وزيادته ليست بمخلّة بالمعنى؛ لأن الصلاة من الأمور الحاصلة الواقعة في الدنيا، وقوله: «**وقرة عيني في الصلاة**»[1] معطوف على ما قبله، وبه يتم الثلاث لا منقطع عنه.

والكلام ليس من قبيل الطي؛ لأنه وصف للنبي ﷺ بالذهول والغفلة والندم

=

غنمه حتى يخلصها من هذه الآفات، فاحتال لها بما يحتال بمثلها حتى يخلصها، وكذلك هذا الموكَّل بجوارحه يجنبها الآفات، فإن أصابته آفة عمل في تخليصها بالتوبة والاستغفار؛ كما عمل الراعي بأغنامه السبعة، فإن أصابها كسر جبَّر الكسر، وإن رعت في مراعي السموم سقاها البَادَزْهَر والترياق، وإن وقع الذئب بها أرسل الكلاب في استلابها منه، وميَّز شربها من مرعاها؛ كيلا تعطش فتهلك.

فالمواعظ للنفوس كالشراب للأغنام؛ لأن العلم حياة القلب والنفس، كما أن الماء حياة البدن والروح، فإذا عطشت النفس عن التذكرة هلكت الجوارح، والصلوات الخمس تكفّر السيئات.

ألا ترى إلى قوله – تعالى –: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ*وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [هود:١١٤، ١١٥].

وقوله – سبحانه وتعالى –: ﴿**إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾ [النساء:٣١].

قيل: بالصلوات الخمس: ﴿**وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا**﴾ [النساء: ٣١].

قيل: الجنة، فهذه علتها. وانظر: إثبات علل العبودية (ص٣٣) بتحقيقنا.

(١) تقدم تخريجه.

على ما قال حاشا عمَّن هو في أعلى منصب النبوة أن يتكلم بغير رؤية؛ بل عن اتفاق على ما عليه أكثر العامة، وأن يندم على ما قاله، وهو في مقام الحضور مع الله بحيث لا ينطق عن الهوى، وإنما كل كلامه حكمة محضة، ومعرفة حقة، وحقيقة مطلقة، وكيف ذهلوا عن صبغة التفضيل في قوله: «**حبب**» حتى تفوهوا ما تفوهوا، فإن الشيء إذا كان محبوبًا بالتحبيب الإلهي؛ كيف يكون من الدنيا حتى يندم عليه النبي ﷺ؟

فإذًا يكون النادم؛ هو الله تعالى فحاشا عنه؛ لأنه حبب إليه تلك الثلاث، ثم خذله عن ذكر بعضها لمَّا بدا له، فنحن نستعيذ بالله تعالى عن مثل هذا الاعتقاد في حقه ﷺ على أن شهواته كلها كانت من قبيل التشريع، وفي حال انجذابه القوي إلى عالم القدس، فإذا كانت شهواته بهذه المثابة فما ظنك بما صد عنه في مقام محوه وتمكينه؛ وهذا هو الحق الصريح، ولا يحيد عنه إلا أهل الباطل القبيح، فطوبى لَمن نبَّهه الله على خطئه، وسامح الله مَن مضى عليه، و لم يبلغ قولي إليه، ومن الله الإرشاد والتوفيق بسم الله علينا الإحسان.

٣- **في الحديث الصحيح: «من أبطأ به عمله لم يُسرع به نسبه»**(١):

العمل إشارة إلى الصفات، كما أن النسب إشارة إلى الذات.

والأول: إنما يشاء من الأسماء الحسنى الدالة على الصفات العليا.

والثاني: من نسبة قوله: « **وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي** ».

ولا شك أن نفخ الروح مشترك بين الكل؛ ولذا لم يتميز العارف من غيره إلا بما فوق الروح من الكمال الخصيص بالسر بخلاف الصفات الإلهية؛ فإنها مختصة بالمؤمن المطيع المتقي حق الاتقاء، فمَن لم يستكمل من حيث الصفات الإلهية؛ لم ينفعه مجرَّد كونه منفوخ الروح؛ لأن المعتبر في الكمال أن يكون بالفعل لا بالقوة، فكان هذا نظير الشخص الحسن من حيث هيئات وجوده، مع اللباس القبيح، والصفة إذا كانت غالبة: يستحيل الذات إلى صورة الصفة، فيكون الذات والصفة قبيحين.

---

(١) رواه مسلم (٨/١)، وأبو دواد (٣١٧/٣).

أمَّا الذات فبحكم الجوار، وأمَّا الصفة فظاهرة، والأول نظير الشخص الحسن من تلك الحيثية مع اللباس الحسن، فإن للحسن مع الحسن شرفًا زائدًا على الحسن مع القبيح فاعرف.

ألا ترى أن غير الهاشمي أُلحق بالهاشمي من حيث صفاته الحسنة التي عُمدها طهارة الباطن، فكان من أهل البيت تحقيقًا، والهاشمي أُلحق بغير الهاشمي من حيث صفاته القبيحة التي أعظمها خبث الباطن فخرج من عداد أهل البيت.

ومن هذا ظهر أن الصبيان ساقطوا عن درجة الكمال؛ لأن نسبتهم إلى الذات أقوى من نستهم إلى الصفات، ومن ثم كثر فيهم الأمراض والهلاك؛ إذ ليس لذواتهم قوة صفاتية، فهم كفرع ينجذب إلى الأصل بأهون شيء من الأسباب، وهو الاستحالة الناشئة عن قوة الانفعال وعدم الاستمساك، وتبين أيضًا أن حكمة الخروج من العدم إلى الوجود؛ إنما هي تكميل مرتبة الصفات، فمَن كان محرومًا عن هذه المرتبة؛ لم يكن على شيء.

ومن هنا نفع طول العمر إذ الكمال الإنساني تدريجي؛ وإنما جعل عمر هذه الأمة بين الستين والسبعين؛ لأن حقيقة التوبة والإنابة إنما تظهر في هذه المدة، كما يشير إليه كون ما بين مصراعي باب التوبة مسافة سبعين سنة؛ وهذا من كمال استعداد هذه الأمة؛ ولذا جعل مدة بقائهم ألف سنة، وأمَّا الأمم السالفة فقد دل طول أعمارهم، وامتداد مددهم على أنهم من أهل الإبطاء لا من أهل الإسراع.

٤- **في الحديث الصحيح: «مَن أخذ شبرًا من الأرض ظلمًا؛ طوقه إلى سبع أرضين»**(١)

وفي بعض الأحاديث: «خسف به»(٢).

اعلم: أن الأرض لله تعالى يورثها مَن يشاء؛ لأن نماء الأرض إنما هو بالماء، والله الذي أنزل من السماء ماء فسالت أودية، فملك الأرض إنما هو لصاحب الماء

---

(١) رواه مسلم (٣/١٢٣١)، وأحمد (١/١٨٨).

(٢) رواه البخاري (٢/٨٦٦)، وأحمد (٢/٩٩).

في الحقيقة؛ ولذا لا تنكح الحاملة؛ لأن فيه سقي زرع الغير بماء الغير، فمَن غصب أرض الغير؛ فقد غصبها بمائها، والماء لا يكون مغصوبًا؛ لأنه سيال غير قار فلا يجوز على أنه جار مرة ومنقطع أخرى.

وكذا الروح ممد الحياة، وبه ينموا الجسد ويبقى وهو منفوخ من الله تعالى، وأرضه هو الجسد، وآثاره، فالقبض الذي يحصل من جانب الروح إنما لصاحب ذلك الروح؛ فالغير إذا ادعاه لنفسه؛ فكأنه أضاف الزرع المتبقى بماء غيره إلى نفسه؛ وذلك ظاهر البطلان، فالأرض لا تملك إلا بمائها؛ ولذا كان بيع الحر من أكبر الكبائر؛ إذ لا يجري فيه الملك إلا لله تعالى، فكل من التطويق، والخسف جزاء وفاق، فالتطويق باعتبار استعلاء الطبيعة عليه، والخسف باعتبار توغُّله في الأمور الطبيعة.

ولَمَّا كان الظلم وضع الشيء في غير موضعه؛ كان جزاؤه من جنسه، فوضع الأرض على عنق الظالم؛ وهي ليست محلها الموضوع لها، وخسف بالأرض، وقد كان مقرُّه وجه الأرض وظاهرها، فالقلب من الظاهر إلى الباطن إلى عدم علمه بظاهر الأمر في تلك الغير.

(وسبع أرضين):

إشارة إلى طبقات الوجود، وقاراته السبع مع أنه منطوٍ على أعضاء سبع هي مفتاح الأبواب السبعة للنار التي تحت الأرضين؛ وهي: السمع، والبصر، واللسان، واليدان والرجلان، والبطن، والفرج.

وأمَّا القلب: فمن سماء الروح لا من أرض القلب، وكذا هو مشتمل على عناصر الأربعة، الجسد، والنفس النامية، والنفس الحيوانية.

وكل ذلك مما يلي ظاهر الوجود، فلمَّا اشترك هذه السبعة في المعصية؛ جوزيت بالسبع فكان المنتهى هو السجين؛ وهي الطبيعة الشاغلة، وفي الحديث نهي عن التعرض إلى الغير إلا بحقه؛ كالقصاص وسائر الحدود.

* * *

٥- في الحديث الصحيح: «مَن أدرك ماله بعينه عند رجل أفلس، أو إنسان قد أفلس ؛ فهو أحق به من غيره»(١):

فيه إشارة إلى أن «**الحكمة ضالة المؤمن إينما وجدها أخذها**»(٢)، إذ بتلك الحكمة يتموَّل ويستغني.

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾[البقرة:٢٦٩] (٣).

وفي قوله: (**عند رجل أفلس**): إشارة إلى قوله: «**خذوا العلم من أفواه**

---

(١) رواه البخاري (٢/٨٤٦)، ومسلم (٣/١١٩٣).

(٢) رواه الترمذي (٥/٥١)، وابن ماجه (٢/١٣٩٥) بنحوه.

(٣) تفسير الحكمة على خمسة وجوه:

فوجه منها:الحكمة: يعني المواعظ التي في القرآن من الأمر والنهي، فذلك قوله في البقرة ﴿وما أنزل عليكم من الكتاب﴾ [يونس:٢٦]، يعني القرآن، ﴿والحكمة﴾ يعني المواعظ التي في القرآن من الأمر والنهي والحلال والحرام،كقوله في النساء: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [النساء:١١٣]، يعني القرآن، ﴿والحكمة﴾، يعني الحلال والحرام الذي في البقرة، نظيرها في آل عمران: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران:٤٨]، يعني المواعظ التي في القرآن من الحلال والحرام مثلها في آل عمران، كقوله عن يحيى في سورة مريم: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:١٢]، يعني الفهم والعلم.

والوجه الثاني: الحكمة: يعني الفهم والعلم، كقوله عن لقمان: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢]، يعني الفهم والعلم، وقال في الأنبياء: ﴿وَكُـلا آتَيْنَـا حُكْمـًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء:٧٩]، يعني الفهم والعلم، وقال في الأنعام: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ﴾ [الأنعام:٨٩]، يعني الفهم والعلم.

والوجه الثالث: الحكمة: يعني النبوة، فذلك قوله في النساء: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء:٥٤]، يعني النبوة، وقال في ص: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ [ص:٢٠]، يعني النبوة ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾، وقال لداود في البقرة: ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُـلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾(٣) [البقرة:٢٥١]، يعني النبوة.

والوجه الرابع: الحكمة: يعني تفسير القرآن، فذلك قوله في البقرة: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

والوجه الخامس: الحكمة: يعني القرآن، فذلك قوله في النحل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ [النحل:١٢٥]، يعني القرآن. وانظر: الوجوه والنظائر لمقاتل (ص٢٦) بتحقيقنا.

الرجال»[١]؛ وهم الرجال الذين أفلسوا عن نفوسهم، ومالها؛ فأغناهم الله تعالى بذاته، وماله.

كما قال: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ [الضحى:٨].

: أي وجدك خاليًا عنك فملئك به نفسه، والمال العين؛ إشارة إلى العلوم الحقيقة التي لا اختلاف فيها، بخلاف غيره من المال؛ فإنه علوم غير حقيقية متغيرة بحسب مشارب أهاليها، فالمطلوب بالذات؛ هو العلوم الإلهية اللَدنية، وبالتبعية وهو العلوم النظرية الاستدلالية.

وأمَّا العلوم الشيطانية، والمعارف النفسانية فليست بمال أصلاً فلا تُطلب قطعًا؛ بل (تحرهما) وأصحابها فضلاً عن الطلب، وأمَّا قولهم: مال أهل الحرب في المسلمين؛ فإنما هو في الرابح، فخذ ما صفا، ودع ما كدر فأنت المصيب.

٦- **في الحديث الصحيح: «مَن اقتنى كلبًا لا يغني عنه زرعًا ولا ضرعًا؛ نقص من عمله كل يوم قيراط»**[٢]:

أشار بالكلب إلى النفس، وبالزرع إلى حرث الآخرة؛ وهي الأعمال الصالحة الظاهرة.

كما يُقال: الدنيا مزرعة الآخرة، وبالضرع إلى الفيض الإلهي الجاري من ضرع القلب والروح، وبالنقص إلى قوله: «**مَن استوى يوماه؛ فهو مغبون**»[٣].

فالفائدة في النفس الإنسانية التي النفس الأمَّارة الكلبية قوة من قواها أعمالها في تحصيل الكمالات الظاهرة والباطنة.

كما قال تعالى: « **لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم** » [المائدة:٦٦] أي: من طريق الكسب والوهب، فإذا عطلت جاء الغبن والخسارة.

كما قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأنعام:١٨].

فالنفس: هي البضاعة وبها التجارة والربح، فمَن أعلمها، ربح، ومَن أهملها؛ خسر.

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في الكفاية (١/١٦١)، وذكره المزي في تهذيب الكمال (١٠/٣٣٦).

(٢) رواه البخاري (٣/١٢٠٧) بنحوه، ومسلم (٣/١٢٠٣).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/٣٥)، والديلمي في الفردوس (٣/٦١٨).

وأول الخُسران: عدم الإيمان، والاعتقاد، ثم العمل، ثم الحال، ثم المقام؛ وفيه إشارة إلى أن الكلب إذا كان نافعًا؛ خرج عن الكلبية، وإن كان صورة الكلب الضار، كما أن الإنسان إذا كان ضار؛ أُخرج عن الإنسانية، وإن كان في صورة النافع، فالاعتبار بالمعنى لا بالصورة.

٧- **في الحديث الصحيح: «مَن أكل البصل والثوم والكرات»**[1]:

(والكرات): كرتان على ما في القاموس بقل من البقول يقال له بالفارسية: كندان الرائحة الكريهة، ودخل في هذه الثلاثة كل ما يشاركها في الرائحة، وذلك بطريق الدلالة والإشارة، وإن لم يساعدها اللفظ والعبارة؛ فلا يُنفى التخصيص بالثلاثة ما عداها، ونظائره غير واحدة.

قال ﷺ: «**فلا يقربن مسجدنا**»[2]: أي مواضع العبادات في وقت حضور الجماعات: أي موضع كان من حرم مكي، أو مدني، أو سليماني أو غيرها، فلو حضر مواضع العبادات في وقت غير العبادات وحضور الجماعات؛ كان خارجًا عن النهي كما يقتضيه قوله: «**فإن الملائكة تتأذّى مما يتأذّى منه بنوا آدم**»[3].

لم يقل: فإن الملائكة تتأذّى منها إشارة إلى أصل العلة؛ هي تأذّي لكامل بني آدم وخواصهم من كل ما له رائحة كريهة، فإنهم إذا تأذّوا منه، وهم في الصورة أجسام كثيفة؛ كانت الملائكة أَوْلى به؛ وهم أجسام لطيفة على أن التأذّي من مثل ما ذكر صفة الروح والأرواح العالية مشاركون لخواص البشر في تلك الصفة وخواصها، وقد ثبت إنه ﷺ حُبب إليه الطيب كما حُبب إلى الملائكة، ومن ذلك سُن تبخير المساجد يوم الجمعة؛ لحضور ملائكة الرحمة فيه.

فظهر أن المراد بالملائكة هم الملائكة الحاضرون في أوقات مخصوصة في مواضع مخصوصة، وأمَّا الملائكة الملازمون في الأوقات كلها؛ كالكاتبين ونحوهم؛ فإنهم وإن كانوا يتأذّون مما ذكر أيضًا؛ لكن أمرهم أهون؛ لقلتهم بالنسبة إلى الحاضرين في

---

(١) رواه مسلم (١/٣٩٥).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

الأوقات المخصوصة في المعابد.

إذ لا بد لابن آدم من أكل ما هو مباح الأصل، وإن كان في بعض الأقات على أن العزيمة الترك مطلقًا؛ ولذلك كان ﷺ لا يأكل البصل ونحوه بتًا، وإن لم يقرب من المسجد؛ لكثرة نزول الملائكة عليه وحضورهم لديه.

فإنه إذا كان ظاهر المسجد لا يحتمل ما ذكر، فكيف باطنه؛ وهو القلب المطهَّر المبخَّر بالروائح الأنسية الغيبية، ومن هنا يعرف حال الضَّب ونحوه، فإنه –عليه الصلاة والسلام– لم يمنع العامة عن أكله مع أنه لم يأكله، ففرق بين الرجال الحاضرين محاضر الأنس والقرب، وبين الغائبين عنها.

ولمَّا أُهبط أبو البشر آدم عليه السلام إلى الأرض؛ أُغشي عليه من رائحة الدنيا المنتنة؛ لاعتياده بروائح الجنة العطرة، فإذا كان حال ما هو مباح الأصل هذا، فما ظنك بغيره؟

وإن كان يستطيبه أكثر العوام فإنه ليس الكلام معهم؛ بل مع الخواص؛ فإنهم هم الذين يعتبر استطابتهم واستخباثهم؛ ولذا عَدُّوا مَن استعمله ممَن هو في ذي المتصوِّفة شيطانيًا نفسانيًا؛ لأن الإسراف يوجب الحرمان من المناجاة، فكيف الإسراف في المحرمات والمشتبهات؟! وكل ما هو حجاب عن الله تعالى فهو حرام.

فإن قلت: أليس الله تعالى هو القائل: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ**﴾ [البقرة:٢٩].واللام للمنفعة.

قلت: بل اللام للعلة في الحقيقة: أي هو الذي خلق لامتحانكم كما قال: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ [الكهف:٧]، مع قوله: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ**﴾ [الأعراف: ٣٢]، على أن قولهم: إن الأصل في الأشياء الإباحة؛ معناه في الأشياء النافعة لا في الضارة، ومن الضارة شرب الدخان؛ كأكل التراب، والفحم المحروق ونحوها مما فيه ضرر بيِّن للبدن الذي يقوم أمر الطاعة، وخدمة العبادة.

وأقوى أدلة حرمة الدخان قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات:٥٦]، وذلك أنه لا شك عند أهل العقول السليمة أن المعتاد

لشربه لا يزال يستثقل الصوم والصلاة ونحوهما من العبادات، واستثقال العبادات المشروعة كفر، فالمؤدي إليه الدخان ونحوه حرام لا محالة وخبيث لا شبهة.

وقد جعل الله الطيبات للطيبين، والخبيثات للخبيثين، فليختر الخبيثون لنفوسهم بنفوسهم ما شاءت نفوسهم، كما أنه ليختر الطيبون لنفوسهم بربهم ما شاء ربهم، فمَن لم يعرف القمح من الزّ من الزّوان؛ وقع في العناد والحرمان، وترك العمل بالآية والحديث؛ أذية لله ورسوله.

وقد قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب:٥٧].

والنفس السليمة تفرق بين الطيب والخبيث فلا تقرب من الخبيث، فكيف إذا أيّدها النصوص والشواهد والبينات؟! فإن من فقد شَمُه؛ استوى عنده الخبيث والطيب، ولأمر ما أمر الشارع بالسواك، فإن كنت من أهل الفهم؛ طهّرت الفم والفؤاد؛ فإنه لا يمس المراد إلا المطهَّرون من الأدناس والأوضار، ولا يليق بالمعاني إلا أهل الحقائق الأخيار.

٨- **في الحديث الصحيح: «مَن أنظر معسرًا»**(١):

أي أخَّر مطالبته ذي عسرة؛ وهو المديون الفقير.

قال ﷺ: «**أو وضع له**»(٢): أي حطّ عن دينه بعضه أو كله.

ولمّا كان في هذا إزاحة الغم عن القلب، وإراحة الروح عن الهم؛ جعل جزاءه الاستراحة الأخروية، كما قال ﷺ: «**أظله الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله**»(٣).

فإن الإظلال في الحقيقة(٤): عبارة عن الإراحة سواء كان هناك ظل حقيقة أو

(١) رواه البخاري (٧٣١/٢)، ومسلم (٢٣٠٢/٤).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٣٣/٢)، وابن حبان في صحيحه (٤٢٤/١١).

(٣) رواه البخاري (٥١٧/٢)، ومسلم (٧١٥/٢).

(٤) قلت: (يظلهم الله تعالى في ظلّه) إضافة الظل إليه سبحانه وتعالى إضافة تشريف، (كناقة الله)، والله تعالى منـــزّهٌ عن الظل؛ إذ هو من خواص الأجسام.

=

لا، كما قال ﷻ: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾[النساء آية: (٥٧)]، وإنها رغبة في إمهال المديون في باب الأموال عملاً بإمهال المديون في باب الأعمال، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧].

فالفقير إذا فُتح له في مدته؛ يجب عليه أن يقتضى دينه حتى يستريح، وإلا كان مسجونًا، وسجن الله تعالى هو جهنم في الآخرة، والطبيعة في الدنيا.

فالعاصي مسجون في الدنيا والآخرة، وهو لا يشعر بحاله في الدنيا؛ لأنه نائم **فكما أن النائم لا يستيقظ إلا عند الصباح، فكذا الغافل لا ينتبه إلا عند الموت**؛ والموت طبيعي واختياري، والثاني هو المقبول المشار إليه بقوله ﷻ: (وإليه ترجعون) [البقرة:٢٤٥] على قراءة الفتح من الرجوع، لا على قراءة الضم من الرجع.

٩- في الحديث الصحيح: «مَن أنفق زوجين في سبيل الله؛ دعاه خزنة الجنة كل خزنة باب»[1]:

أي كلهم، المراد بالتشبيه كثرة الأزواج لِما دلّ عليه عموم الدعوة من جانب الخزنة؛ إذ لكل عمل من الأعمال الصالحة خصوصية في دخول باب من أبواب الجنة على ما تقتضيه الحكمة، فمَن له مع التوحيد كل عمل، وكل خلق؛ فهو يدخل الجنة من كل باب من أبوابها دفعة واحدة، فيكون له شرف زائد على غيره، ممن يدخلها من بعض أبوابها؛ لأن المطلق أعظم من المقيد.

فإن قلت: كيف يتصور الدخول الدفعي، ولا إمكان له في عالم الدنيا؟

قلت: لا يقاس النشأة الأخروية للطافتها، على النشأة الدنيوية لكثافتها، على أن الدنيا عين الآخرة للمتروحنين المطورين؛ ولذا تراهم يحضرون في وقت واحد في

=

فالمراد ظل عرشه، كما في حديث سلمان عند سعيد بن منصور بإسناد حسن.

وقيل: ظل طوبى أو ظل الجنة، وهذا يرده قوله: (يوم لا ظل إلا ظله)؛ فإنه المراد يوم القيامة، وظل طوبى أو الجنة إنما يكون بعد الاستقرار فيها وهذا عامٌّ.

والحديث يدل على امتياز هؤلاء على غيرهم، وذلك لا يكون في غير القيامة؛ حين تدنو الشمس من الخلق، ويأخذهم العرق، ولا ظل ثم إلا للعرش.

(١) رواه البخاري (١٠٤٥/٣)، ومسلم (٧١٢/٢).

مجالس متعددة من غير تكثر في ذواتهم، ويدخلون البيت من غير الباب والكوة، ولا يدرك حقيقة هذا الأمر إلا مَن ولج ملكوت السموات، والله الهادي.

١٠- **في الحديث الصحيح: «مَن بنى لله مسجدًا»**[(١)]:

أفاد الكلام الإخلاص، وأخرج ما بُني رياءً وسمعةً، وأخرج المسجد معابد الكفار، ثم أكدَّ معنى الكلام بقوله:

«**يبتغي به وجه الله**»[(٢)]؛ فإنه يراد به الإخلاص؛ إذ وجه الله ذاته ورضاؤه عبر به عن الذات؛ لأنها أشرف الأعضاء، وعن الرضا؛ لأن أثر الرضا؛ إنما يظهر في الوجه، وفيه إشارة إلى أن ما بُني بطريق الرياء، ولأهل البدع والأهواء في حكم الكنائس؛ إذ هو عمل محبوط رأسًا؛ كعمل الكفار.

«**بنى الله له مثله في الجنة**» أي في الجنة الصورية الحسية في الآخرة، وأعاد له إشارة إلى المكافآت، والجزاء الوفاق إذ لا معنًا لبناء المسجد في الجنة، ودلّ المثلية على مراتب الإخلاص[(٣)]، فإن كان الإخلاص في مرتبة القلب التي هي مرتبة العشرات؛

---

(١) رواه الترمذي (٢/١٣٤)، وابن ماجه (١/٢٤٣).

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٢/٨٤)، وابن كثير في تفسيره (٣/٢٩٣).

(٣) قال الشرقاوي: قيل لسهل بن عبد الله ﷺ: أي شيءٍ أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص، وكم أجهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت فيه على لون آخر.

قال أبو طالب ﷺ: والإخلاص عند المخلصين: إخراج الخلق من معاملة الخالق، وأول الخلق النفس.

وعند المحبِّين: ألا يعمل عملاً لأجل النفس، وإلا يدخل عليه مطالعة العوض، أو تشوف إلى حظ طبع.

وعند الموحدين: خروج الخلق من النظر إليهم في الأفعال، وترك السكون والاستراحة بهم في الأحوال انتهى.

فإذا حمل العبد في نفسه وألزمها التواضع والمذلّة، واستمرَّ على ذلك حتى صار له خلقًا وحيلة بحيث لا يجد لضعته ألمًا ولا لمذلته طعمًا زكت نفسه واستنار بنور الإخلاص قلبه، ونال من ربه أعلا درجات الخصوصية، وحصل أوفى حظ ونصيب من المحبة الحقيقية، فهذا لا يكره الذم من الخلق؛ لوجود النقص في نفسه ولا يحب المدح منهم؛ لفقد القدر والمنـــزلة في نفسه، فصارت الذلة والضعة صفة لازمة له، لزوم العرض للجوهر، فإن كان مع الله تعالى بالذل طلبه واستحلاه، كما يطلب المتكبر العز ويستحليه إذا وجده، فإن فارق ذلك الذل ساعة لغيَّر قلبه لفراق حاله، كما أن =

فله بمقابلة مسجد واحد عشرة بيوت جنانية لا يقادر قدرها؛ لأنها من الجواهر، وبيوت الدنيا من الأحجار ونحوها.

وإن كان في مرتبة الروح التي هي مرتبة المئات؛ فله بمقابلة مسجد واحد مائة بيت من البيوت الفردوسية لا يكتنه كنهها؛ لأنها من الدرر واللآلئ الصافية، وإن كان في مرتبة السرِّ التي هي مرتبة الألوف؛ فله بمقابلة مسجد واحد ألف بيت من البيوت العدنية المبنية على الأنوار، وإن كان فوق ما ذُكر؛ فله أجر بغير حساب على أن مَن بنى مسجدًا في الدنيا فإنما يبنيه لإقامة الصلاة، التي هي محلُّ المناجاة والمكاشفة

=

المتعزز إن فارق العز ساعة تكدر عليه عيشه؛ لأن ذلك عيش، فإذًا لا بدَّ للمريد إسقاط جاهه وإخمال ذكره، وفراره عن موضع اشتهاره وتعاطيه أمورًا مباحة تسقطه من أعين الناس، كقصة السائح الذي سمع به ملك زمانه فجاء إليه، فلما علم بذلك السائح استدعى بقلاً وجعل يأكله أكلاً عنيفًا بمرأى من الملك، فلما رآه على تلك الحالة استحقره واستصغره فانصرف عنه ذا ماله.

وقد بالغ بعضهم في مداواة علة الجاه الذي علِقَ في القلوب، حتى استعملوا في ذلك أشياء منكرة في ظاهر الشرع، ورأوا فعل ذلك جائزًا لهم ولغيرهم، وذلك مثل قصة الرجل الذي دخل الحمام ولبس من فاخر ثياب الناس، بحيث تظهر ومشي بذلك متمهلاً بحيث يُرَى ويُظَن بذلك السرقة، فلما رآه الناس أخذوه وصفعوه، ورموا الثياب عنه واشتهر عندهم بالسرقة، حتى كان يعرف عندهم بلص الحمام، فحينئذ وجد قلبه.

ومثل ما يُروى عن أبي يزيد ﷺ في قصة الشاهد، الذي أمره بحلق رأسه ومخلاته مغلقة في عنقه أيضًا، وإعطائه من ذلك لمن يصفعه من الصبيان، وطوافه على تلك الحال في المحافل والمحاضر ذكر ذلك أبو حامد الغزالي ﷺ وغيره.

وإذا جاز لمن غصّ بلقمة حلال أن يسيغها بالجرعة من الخمر إذا لم يجد غيره، مع أن تحريمه مقطوع به ولا يفوته بترك الجرعة إلا حياة فانية، فلأن يجوز مثل هذا إذا تعين عليه أولى؛ إذ يفوته بترك المنكر في ظاهر الشرع الحياة الباقية والقرب من الله تعالى، فإذا التزم العبد هذه الطريقة من الرياضات ماتت نفسه، وحيا قلبه وقرب من حضرة ربه، واجتنى ثمرة غرسه على غاية الكمال والتمام.

وتلك الثمرة أخلاق الإيمان، التي تكيفت بها نفسه وصارت كصفاته ذاتية له، وهي نتيجة الحكمة التي أنبتها الله في قلوب عباده المتواضعين.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [البقرة:٢٦٩].

والمشاهدة، فاقتضت الحكمة الإلهية أن يُبنى له في الجنة بمقابلته بيوت لطيفة، هي محل التجليات الإلهية، إذ الجزاء من جنس العمل، ومماثل له، وفيه إشارة إلى بناء بيوت القلوب؛ فإن هذه البيوت أعظم من المساجد؛ لأنها منظر الحق سبحانه ومسكنه.

على ما ورد في الخبر القدسي الداودي عليه السلام: «فمَن طيَّب خواطر أهل الله، وقلوب أولياء الله؛ طيَّب الله خاطره، وعمَّره بما لا يخطر بباله من أنواع التطيُّب والعمارة».

فالقلب بيت الله وعرشه وسريره(١) وهو من الجنان المعجَّلة في الدنيا، فطوبى لعامره وداخله، وويلٌ لنادمه والخارج.

وفيه رمز أيضًا إلى أن بناء المسجد من المقامات الإبراهيمية عليه السلام؛ لأن الكعبة أول بيت وضع للناس في الآفاق، كما أن القلب أول بيت وضع لهم في الأنفس.

وإنما جُوزي إبراهيم بأمثال الكعبة في الملكوت من حيث إنه لم يكن طبقة من

---

(١) القلب الذي قواه ربَّانية ملكية تكشف وتبين الأحكام الحكمية الروحانية هو بيت الله المعمور في السماء، والمرتبة السيادية، والنفس البشرية التي في مداركها تظهر أعيان معاني تلك الأحكام، وبقواها تصور أكوان صورها، هي الكعبة التي على حيال البيت المعمور في الأرض التبعية.
وقال أيضًا: القلب كتاب: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢].
والقلب بيت الرب يزين فيه عرائس الإيمان، ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:٧]، والبيت سكن الساكن، فالسكينة روح كونه سكنًا، ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، فالسكينة روح الخلافة الربَّانية، فصاحب البيت سلطان بيته، ولذلك ما نزلت السكينة إلا حفَّها الجنود، ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾ [الفتح: ٤] إلى قوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [الفتح: ٤].
فهي روح العلم والحكمة الإلهية الربَّانية، فالطمأنينة استواء القلب حتى صار مستوًى، والسكينة استواء ساكنه عليه، والاستواء هو الظهور التام في كل مقامٍ بحسبه، وباستواء الساكن يحيا السكن، حتى قيل: وإنما الناس نفوس الديار.

طبقات السموات إلا وفيها بيت معمور، ومثل الكعبة في حيالها جُوزي مَن اتبعه في ملّته التي من جملة آثارها بناء المسجد بمثل ما جُوزي إبراهيم من البيوت الملكوتية الجنانية؛ فانطبق الفرع على الأصل، وفيه تلويح إلى أن العمدة في خلق الإنس والجن هي العبادة التكليفية؛ ولذا رفعت بيوتها كما قال تعالى: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ**﴾ [النور:٣٦]: أي ذكرًا مطلقًا في ضمن الصلوات المشروعة أو غيره.

وعلم من ذلك أن الوسائل ملحقة بالمقاصد في التعظيم والإجلال؛ ولذا يُعظَّم أبدان الخواص، و توقرَّ أشباح الأولياء؛ لشدة تعلُّق أرواحهم الطيبة بها، وسريان بركاتها إليها، فمَن حقَّرهم في ظواهرهم؛ فقد حقَّرهم في بواطنهم؛ والباطن هو الحق المسجود له؛ لأنه تعالى قال: ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾ [الحجر:٢٩]: أي خلق آدم فتجلّى فيه، فمَن أراد إطفاء نور الله تعالى؛ أطفأه الله، وكان من الكافرين؛ كإبليس عليه ما يستحق، والله الحافظ لعباده.

١١- في المتفق عليه: قال رسول الله ﷺ: «**مَن ترك صلاة العصر؛ فقد حبط عمله**»[1]:

يعني: عمل اليوم؛ إنما يهتم بصلاة العصر؛ لأنها خاتمة فرائض النهار، فإذا لم توجد الخاتمة؛ كان العمل أبتر، وفي حكم الحبوط والبطلان، ووجه التشديد اشتغال أهل البلاد الحارة في ذلك الوقت بأمور المعاش؛ فكان ذلك من مظان ترك صلاة العصر، كما كان عليه المنام في ليالي الصيف في البلاد الرومية الباردة من مظان ترك صلاة الصبح.

وفيه إشارة: إلى أن ترك توبة القلب الأوسط؛ كترك الصلاة الوسطى، فمَن حُرِمَه؛ فكأنما حرم الصلاة الوسطى؛ لأن العمل إنما يتم بتوجه القلب وخلوصه؛ فهو مدار تمام الأعمال، وسبب نمائه؛ ففيه حث إلى الترقّي من الطبيعة والنفس إلى مرتبة القلب، وأيضًا فإن العصر هو الوقت كله من أول العمر إلى آخره، فمَن فات منه

---

(١) رواه البخاري (١/٢٠٣)، والنسائي (١/١٥٣).

الوقت، فقد فات الوصول، وأتمّ ما يوجد صلاة العصر في الأقطاب، فمَن (لم) [١] يلتحق بواحد منهم؛ فقد بطل حاله.

١٢- **في الحديث الصحيح**: «**مَن تطهَّر**»[٢]: أشار بالتطهر إلى الانفصال عمَّا سوى الله تعالى، وهو صفة القلب؛ ولذا قال:

«**في بيته**»[٣]: أي بيته المخصوص به الذي لا يكون إلا واحدًا ليتسع واحدًا.

كما قال تعالى: ﴿**مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**﴾ [الأحزاب:٤].

«**ثم مَشَى إِلَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ كَانَتْ خَطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً وَالأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً**» أي: بعد تَطهُّر القلب عن دنس التعلُّقات يعني: حتى يقدم الخلوص، والإيقان، والشهود إلى بيت من بيوت الله أي: إلى مقام من مقامات المعنوية، كالاتصال، فإنه يجمع بين المناجاة والقربة، والشهود، والوصول، فيحصل الجمعية بعد التفرقة، والحضور بعد الغيبوبة، والتعبير بالبيت للمشالكة، أو للتعظيم، أو لأن المراد من دخول المساجد؛ إنما هو الصلاة المشتملة على المناجاة المقتضية للمجالسة مع الله وهي في البيت؛ والبيت في الحقيقة هو القلب؛ لأنه هو الذي فرع لسكنى ستر الله العظيم فيه.

ولمَّا كان الصوفية المحققون من أهل القلوب المتجلّية بأنوار الغيب قيل: مَن أراد أن يجلس مع الله، فليجلس مع أهل التصوف: أي؛ لأن الله معهم في جميع المشاهد؛ بل هي متجلّى في صورهم، وإن جحدهم جاحد؛ ليقضي فريضة من فرائض الله، إشارة إلى قوله ﷺ: «**اللّهم اقضِ عني ديني**»[٤] وهي الأمانة الكبرى التي حملها الإنسان، وهي الوصول إلى الله تعالى، والأخذ عنه بلا واسطة، وذلك فرض على القلوب والأرواح والأسرار، فإنه الهدى الذي أتى إليه من الحق تعالى، فمَن تبع ذلك الهدى، خلص عن البرازخ كلها، ووصل إلى أعلى المنازل المحمودة، كانت خطوتاه.

---

(١) زيادة لتمام السياق.

(٢) رواه مسلم (٤٦٢/١)، وابن ماجه (٤٥٣/١).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره (٥٢/٤).

أحدهما: تحط خطيئته؛ وهي خُطوة الانفصال؛ لأنها تحط خطيئته؛ هي ذنب الوجود إذ لا يتخلص السالك عن هذا الذنب إلا بعد الفناء التام الحاصل بطهارة الباطن عن دنس التعلُّقات، ووسع للمغيبات، ولوث الإثبات.

والأخرى: ترفع درجة؛ هي خُطوة الاتصال؛ لأنها ترفع درجة؛ هي درجة الظهور بالوجود الحقيقي في عالم الوحدة، وإلى هاتين الخطوتين الإشارة بالوضوء والصلاة، وكذا بالقدمين.

فإن الإنسان لمَّا كان أجمع من الملك، وكان اجتهاده بالأمر والنهي؛ جعل له القدمان بدل أجنحة الملائكة؛ فالإنسان سائر بالقدمين في الظاهر، وطائر بالقلب والروح في الباطن، وأمَّا الملك فطائر بالأجنحة في الظاهر بدون طيران في الباطن؛ لأنه ليس له قلب بل روح فقط.

ولذا قيل للملائكة: الأرواح، كما قيل لأفاضل البشر: أهل القلوب، فربَّ طائرٍ ليس له مشي، كما أنه ربَّ ماشٍ له طيران؛ كالإنسان، فإن بعض الأبدال كما أنهم يمشون في الأرض فكذا يطيرون في الهواء على صفة الطيور.

ومنه: يعرف: إن اللطيف في صورة الكشيف؛ كالإنسان أعلى من الكشيف في صورة اللطيف كالملك؛ لأن الملك لا يعرج إلا ما يعرج إليه الإنسان؛ وهو في الظاهر ذروة العرش، كما وقع للحضرة النبوية ليلة المعراج، وفي الباطن الهُويَّة الذاتية [تصدر] من العرش منتهى عالم التركيب والكثرة.

وغيب الذات: هو منتهى عالم الفردانية والوحدة، والإنسان الكامل مشرف بهذين السرين؛ لأن له اليدين والقدمين، والملك لا قدم له في هذا الشأن؛ بل له السير في المقامات الجزئية، وإليه الإشارة بكثرة الأجنحة، فافهم جدًا.

وكن من أهل الوضوء(١) والصلاة الحقيقيين بعد أن تكون من أهل الوضوء

---

(١) قال الحكيم الترمذي: وأمَّا علّة الوضوء فإن الوضوء: من موضع الحدث من بلة أو ريح يخرج من الجسد، وذلك أن آدم - صلوات الله عليه - كان منــزهًا معصومًا من أن يجد الشيطان إلى جوفه سبيلاً؛ إذ هو في الجنة، فلما افتتن آدم - صلوات الله وسلامه عليه - بالتناول =

والصلاة الشرعيين؛ لأن تجليات الحقائق إنما هي تحت تجليات الأحكام والشرائع، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

فمَن عصى في الشرائع؛ خرج عن حد الملك، ومَن عصى في الحقائق؛ خرج عن حد الإنسان الحقيقي، وبقى مع الحيوانات، فإن قلت على الملائكة: شرائع، قلت: أمَّا الملائكة السماوية فلهم أوامر يتعبدون الله تعالى بها؛ لأن مرتب مقامهم لا يقتضي النواهي، وأمَّا الملائكة الأرضية فلهم أوامر، ونواهٍ كالإنسان، وذلك من حيث اتصالهم بمرتبة الإنسان المأمور بكل من الأمر والنهي.

لكن الإنسان في مرتبة الأمر والنهي أقوى منهم، كما أن هذه الأمة المرحومة

=

من الشجرة ولم يؤذن له، فإنما تناولها بخدع الشيطان، فوجد إلى جوفه سبيلاً مع تلك الأكلة التي نهاه الله – سبحانه – عنها، فاستقرت المعدة في موضع الفضول، فأنتن ذلك الموضع باستقرار هذا الرجس النجس هاهنا، فصار ذلك وراثة في ولده.

فهناك مستقرة في جوف الآدمي، فإذا خرج ريح الفضول أو بلة؛ فإنما يخرج من مستقره، وإن طريق إبليس من مواضع الحدث؛ فلذلك صار موضع الحدث؛ لأنه طريقة وليس له سبيل من قبل مخرج التوحيد والقرآن، فصار ذلك الطريق موضع حدث، فما خرج منها لزمها التطهير؛ لأنه ينجَّس بنجاسة الشيطان وكفره.

ولذلك قال أهل المدينة في الدم: إنه لا يجب فيه الوضوء، ولا في الرعاف ولا في القيء، من هاهنا أخذوه.

وقال أهل الفقه من أهل الكوفة: هذا كله نجس من طريق، فمن طريق النجاسة التزموه، ومن أجل هذه العلة صار نجسًا.

ألا ترى أن ما خرج من النصف الأعلى، والقيء إذا كان من الفمّ من النخامة والقيء والبلغم ليس بنجس، والدم والعذرة والبول هو من مستقرّه ومحله وهو نجس بنجاسته، فأينما خرج الدم فهو حدث، ولا يُنظر من أين خرج؟ إنما ينظر إلى نفس الشيء من أين جرى؟ هذا قول أهل الكوفة، وهو أشبه عندنا وأليق، فهذه علّة الوضوء.

أقوى من سائر الأمم في مرتبة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وكذا في مرتبة الإيمان كما سبق، فكما أن الملك كجزء من الأجزاء الإنسانية؛ لأنه بعض قوى الإنسان التي تلي الملكوت، فكذا الأمم السالفة كعضو من الأعضاء بالنسبة إلى هذه الأمة.

فإن كمالاتهم بعض كمالات هذه الأمة؛ ولذا لم يكن خير الأمم إلا هذه الأمة، كما أنه لم يكن ختم الأنبياء إلا نبينا ﷺ؛ لأنه مبعوث للتكميل والتتميم، ولا شك أن المكمِّل بالكسر هو المكمَّل بالفتح، ولهذا المعنى دلائل، وشواهد كثيرة من القرآن والحديث لا تخفى على العالمين والعارفين.

فليحمد الملك على غناه التام كما قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ**﴾ [محمد:٣٨]، وقوله ﷻ: ﴿**وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ**﴾ [البقرة:٢٤٥].

وقوله ﷻ: ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ [الأنعام:١٢٤].

وقوله ﷻ: ﴿**يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ**﴾ [البقرة:١٠٥].

١٣- **في صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «مَن تطهَّر في بيته»:**

إشارة إلى التطهُّر القلبي عن لَوث الأغراض الفانية، وذلك لا يحصل إلا بإخلاص النية؛ التي هي الأساس في جميع المراتب.

فالتطهُّر الجسد الذي هو التوضؤ والاغتسال؛ إنما هو صورة التطهُّر الباطني الروحاني، فما لم يكن حقيقة؛ لم يكن شريعة، وما لم يكن شريعة؛ لم يظهر حقيقة، فمَن تطهَّر في باطنه بالنية؛ فلا بد له من التطهُّر في ظاهره بالوضوء ونحوه، ومَن تطهَّر في ظاهره؛ فلا بد من أن يبنيه على ما يقتضيه مقام الحقيقة، وإلا فيبقى طاهرًا ونجسًا.

وقوله ﷺ: «**ثم مضى إلى بيت من بيوت الله؛ ليقضي فريضة من فرائض الله**».

: أي ليؤدي حقًا من حقوق الله الواجبة عليه.

وفيه إشارة إلى أن أداء هذا الحق؛ هو الذي بعثه على التطهُّر أولاً، ثم على المشي ثانيًا، وأضاف البيوت إلى الله؛ لأن الطهارة لا تقتضي المشي إلى بيوت الغير؛

لأنها بيوت شيطانية مُتلوِثة بألواث الزوائل، وبيوت نفسانية متنجِّسة بنجاسات القبائح؛ فالأصل إذا كان طيب؛ لا يثمر إلا الطيب، وكذا إذا كان خبثًا؛ فلا يظهر منه إلا الخبيث.

ألا ترى إلى النفقة التي تُوضع في الطين؛ فإنه ليس لها فائدة من الطين الطبيعة، وما كان من مقام الطبيعة؛ فلا يتجاوز إلى مقام القلب والروح؛ الذي هو السماء العلوي المعنوي، فبين السماء والأرض بَوْن بعيد؛ إلا أن يكون بينهما علاقة روحانية، فإن تلك العلاقة تُجرُّ العمل من الحضيض الأسفل، وترفعه إلى الأوج الأعلى.

قوله ﷺ: «**كانت خطوتاه أحدهما: تحُط خطيئة، والأخرى: ترفع درجة**»[1]؛ إشارة إلى خطوتي الجسد والروح، فالخطيئة المضافة إلى الجسد مُنكرات الشريعة، فبالحركة الجسدية تنمحي تلك المنكرات؛ لأن أعمال الشريعة مضافة إلى الجسد، والدرجة المضافة إلى الروح مستحسنات الحقيقة، فبالنيَّة الروحانية؛ ثُبِت تلك الحسنات؛ لأن أعمال الحقيقة مضافة إلى الروح.

والحاصل: إن الخطيئة المخطوطة سبب خطها عن الجسد وحركته؛ لأن الجسد منبعها، والدرجة المرفوعة سبب رفعها عمل الروح وحركته؛ لأن الروح مبدؤها، فالخطوة الظاهرة تحطُّ ما يناسبها، وكذا الخطوة الباطنة ترفع منا يناسبها، كل يعمل على شاكلته.

فمَن أراد أن يتطهَّر من الألواث؛ فليكن على حسن النية أولاً، وعلى عمل الشريعة ثانيًا، فحسن النيَّة يجر العمل الشرعي إلى مقام القبول، وعنده الوصول، ومَن عمل بما علم: أي بشرط حسن النيَّة؛ ورَّثه الله علم ما لم يعلم؛ وهو علم اللَدني؛ لأنه نتيجة ذلك، فلا بد لتحصيل هذا العلم العزيز من تقوى، وسلوك، وعمل صالح.

وفي الحديث إشارة أخرى وهي أن بيوت الله هي قلوب أوليائه؛ لأنها مسكن الأنوار، ومقر الأسرار، وزيارتهم، والدخول في قلوبهم، وخدماتهم من كل وجد حق

---

(١) رواه مسلم (٤٦٢/١)، وابن ماجه (٤٥٣/١).

واجبٌ في ذمة السالكين؛ لكن لا بد من التطهُّر قبل الزيارة، والخدمة؛ وهو ألا يبني ذلك على الأغراض، كحصول الجاه الدنيوي أو الأخروي أو نحو ذلك؛ بل يجعله خالصًا عن الشوائب النفسانية، فإنهم مظاهر الحق تعالى، وجلساؤهم جلساء الحق تعالى، وجليس السلطان لا يطلب من السلطان إلا نفسه؛ بل يُلاحظ قوله تعالى: **﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾** [آل عمران:٢٨].

فيطلب منه أن يفني من الطلب عن أصله، وبتلك الزيارة والخدمة تُحطُّ التلوينات، وتحصل التمكينات، ولا درجة فوق اليقين، والاطمئنان، والتمكين، كما قال تعالى: **﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾** [الحجر:٩٩]: أي حقيقته وكماله.

١٤- في حديث مسلم: «مَن توضأ فأحسن الوضوء؛ خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره»(١):

اعلم أن الوضوء عبارة عن: الانفصال عمَّا سوى الله تعالى؛ وهو الخطوة الأولى، كما أن الصلاة عبارة عن: الاتِّصال بالله تعالى؛ وهو الخطوة الثانية؛ ولذا قيل: خطوتان، وقد وصلت: أي إذا حصل الإدبار والإقبال؛ حصل الوصول والوصال.

وإحسان الوضوء عبارة عن: تكميل مرتبة الفناء، والتبتل، والانقطاع، فإذا كان السالك محسنًا في وضوئه؛ خرج أصل خطاياه كلها؛ لأن فروع المعاصي تابعة لذلك، وإنه أصل فيمتلئ الوجود إذًا من الحسنات.

وأسمى الحسنات كلمة التوحيد، وإلى هذا الخلق، والاعتلاء الإشارة بقوله تعالى: **﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾** [الأنفال:١٧].

وبقوله ﷺ: **«يقول الله على لسان عبده: سمعَ الله لمنْ حَمدَهُ»**(٢).

وقوله ﷺ: **«ومَن مسَّ الحصى يوم الجمعة؛ فقد لغا»**(٣)؛ لأنه مسٌّ للعناصر، والأركان عند مقام الجمعية والفناء؛ فهو لغو، وصاحبة أهل لغو لا كمال لجده في

---

(١) رواه مسلم (٢١٦/١)، وأحمد (٦٦/١).

(٢) رواه مسلم (٥٨٨/٢) بنحوه، وأبو داود (٢٧٦/١).

(٣) رواه مسلم (٤٠٣/١).

مرتبة فنائه، ومَن توضأ؛ فلينشتر: أي على نية إخراج الخيالات عن الدماغ، ومَن استجمم؛ فيؤثر؛ لأنه لا بد من الطهارة في مرتبة الأفعال، ومن النقاوة في مرتبة الصفات، ومن النظافة في مرتبة الذات.

فإذا حصلت هذه الطهارات الثلاث؛ حصل مسٌّ مصحف الوجود، وأسراره، وحقائقه كما قال تعالى: لا يمسه إلا المطهرون، وإنما قال ﷺ: «**حتى تخرج من تحت أظفاره**»[1]؛ لأن تابع الحي حي، والمتصل بالمذنب مذنب، وأول ما اتصل به الروح؛ هو الدماغ، وأول ما ينقطع عنه ذلك؛ هو الظفر، فكما سرى من الدماغ إلى الأظفار ينجذب من الأظفار إلى الدماغ واللسان، فلا يبقى إلا الجسد الخالي صورة المملوء بالروح معنى، وما يعقلها إلا العالمون، وإلى الله المصير لكل قليل وكثير.

وفي بعض الأحاديث: «**لا يحدث فيهما نفسه**»[2]:

يعني: أن الركعتين اللتين لا يحدث المصلّي فيهما نفسه باختياره، وصرف توجهه بسبب لمغفرة ذنوبه بخلاف، فإذا كان الحديث وارد باختياره؛ فإنه معذور فيه، فقد لا يقطع عليه الصلاةو ولا ينقص ثوابها إن لم يكن متماينًا فيها، فإن كان متماينًا فيها؛ فلا بد من نفيه؛ لأنه امتحان، وإن كان بخلقه تعالى، وهو من قبيل؛ لأن الصلاة لا تسع غير المناجاة؛ وهي ما كان بين العبد وبين ربه.

فإذا توسَّط في البين ما كان بين العبد وبين غير ربه؛ خرج العبد عن مقام المناجاة، ودخل في الحجاب، والله تعالى في قبلة العبد، فإذا احتجب العبد عما قبلته؛ كان كأنه قد تحوَّل عن القبلة لما أن ظاهر وجهه إلى القبلة، وباطن وجهه إلى غير القبلة؛ ولذا شُرط الإحسان في الصلاة؛ وهو مرتبة المكاشفة وأدناها المكاشفة الخيالية؛ فهو سبب القبول والشفيع، وبه يزول الشرك، ويرتفع البين، ويظهر العين.

١٥- **في أحاديث البخاري: «مَن حجَّ لله»**[3]:

: أي قصده قصدًا صحيحًا معنويًا لا انحراف فيه أصلاً لا إلى الأجسام، ولا

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه البخاري (١/٧١)، ومسلم (١/٢٠٤).

(٣) رواه البخاري (٢/٥٥٣)، والطبري في تفسيره (٢/٢٧٧).

إلى الأرواح، ولا إلى ما فوقهما من المراتب العلمية الشهادية، والطبقات الشئونية الغيبية[1].

---

(١) قال سيدنا العلواني: فصل في روح وصل في الحج(١): روح فرقاني في روح الحج: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران:٩٧].

وفي روح آخر: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾.

فالحج فيه من أرواح الفصل وهي أرواح المفارقة لروح البلد والوالد والولد فروح الحاج روح مفارق لكل عائق عن أرواح الوصل وله أرواح وصل على قدر المراحل والمنازل، وعلى مقدار أرواح الخطوات، وأرواح الحركات والسكنات فكل حركة وسكون ووصل وفصل في أرواح الحج أرواح قرب من الله وبذل الأموال والأنفس أرواح حب لله وأرواح تعظيم لله ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢].

روح بيان في روح الأركان في أرواح الحج الإحرام وهو روح نية الدخول في الحج بأن يقول نويت الحج وأحرمت به لله تعالى أي قصدت الدخول في أعماله.

الروح الثاني: من أرواح أركانه طواف الركن ثم الثالث: من الأركان السعي بين الصفا والمروة ثم الرابع: من أركانه الوقوف بعرفة ثم الركن الخامس: الحلق.

وبه يكون التحلل من الإحرام مثل ما أن التحلل من الصلاة بالسلام وروح الحج روح تجريد من الأرواح المكروهة فلا رفث أي فلا روح فحش في قوله ولا عمل ولا فسوق وهو ارتكاب الكبائر وإصرار على الصغائر ولا جدال ولا خصام في الحج ليكون روحا مجردًا لله.

وروح البسط في أرواح الحج طويل وروح القصد من روح الحج تجريد الروح لله مع روح التوجه إلى إقامة أرواح المناسك على الأرواح المحمدية ومن أرواح السنن الزكية كثرة أرواح الطواف فإن أقل شيء يجده العامل في كتاب أعماله يوم القيامة.

ومنها مشاهدة روح الكعبة وشرب ماء زمزم، والنظر في روح البئر وكل روح من أرواح الصلوات المفروضات في الحرم بمائة ألف صلاة وزيادة الروح المحمدي من أرواح الندب فلا يترك زيارته مع روح الاستطاعة إلا من أراد الله أن يحرمه من روح الأنس وقد يحرم من أرواح الشفاعة فعلى ذلك الروح الأطهر (ألف، ألف، ألف، ألف) روح من الأرواح إلا قمر والنور الأحمر.

والحج فيه روح كشف عن الروح الإنساني من أرواح الكبائر فيكون له بذلك روح من الخفة فيخف في سيره إلى الله وروح الهداية وأرواح العناية من الله.

ولذا قال: «**فلم يرفث**»[١]: أي بالميل إلى الأمور الطبيعية، وقال ﷺ: «**ولم يفسق**»[٢]: أي بالنـــزوع إلى الأمور النفسانية؛ فانقطعت علاقته عن طبيعته الأصلية، وشهواتها، وعن مزاجه الفرعي وهواه، فلم يبقَ له إلا أن يتوسل إلى وصول رب بيت الوجود من قلبه وروحه وستره.

قال ﷺ: «**رجع كيوم ولدته أمه**»[٣]: أي ولدته أم هويته التي هي فيض نور الله تعالى؛ لأنه لم يكن وقتئذ تعلّق إلى شيء مما سواه تعالى، فكان هو والربّ.

فهذه الأم هي آدم الأول الحقيقي الذي خلق الله حواء الطبيعة منه، وما ينتشئ من ازدواجهما من الأشياء، أو ولدته أم طبيعته وعناصره؛ وهي آدم الثاني.

إذًا كان الإنسان وقتئذٍ محمول الملائكة مقرَّبًا عند الله تعالى، منتشأ كنشأة الجنان حتى إذا خُلقت حواء من ضلعه الأيسر، ووضع في موضع الضلع الشهوة؛ كان منه الميول بحسب المراتب إلى أن اصطفاه الله تعالى.

وهذا الاصطفاء أكمل من المرتبة الأولى؛ ولذا قال في الحديث: (**رجع**)، فمَن رجع إلى الله، فليرجع بكليته، وليطف بالبيت كما طاف آدم يعني: إن الحج الأكبر المعنوي مخصوص بآدم؛ ولذا أُضيف إليه طواف البيت أصالة، وإلى غيره تبعية؛ بل هو الباني الأول للبيت إشارة بطوافه الدوري إلى التوجه الإطلاقي الذي لم يذقه إلا الأكمل، والله القاصد وهو المقصود، وإليه يرجع أمر كل موجود.

١٦- في صحيح البخاري: «من حجَّ لله، فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه»[٤]:

قوله: (**لله**): إشارة إلى إخلاص النية؛ لأنها أساس الأعمال.

وقوله: (**ولم يرفث**): إشارة إلى إصلاح اللسان الذي هو ترجمان الجنان.

وقوله: (**ولم يفسق**): إشارة إلى إصلاح الأركان، ففي إصلاح النية إصلاح

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) رواه البخاري (٥٣/٢)، وأحمد (٢٤٨/٢).

الدين من حيث الحقيقة والمعرفة، وفي إصلاح اللسان والأركان إصلاحه من حيث الشريعة والطريقة.

فإذا كان الحج على وصف الإخلاص والإصلاح؛ رجع الحاج إلى بيته الصوري الذي هو مقر جسمانية، وإلى بيته المعنوى القلبي الذي هو مقر روحانية؛ بل مسكن الحق الذي أُمر بتفريغه لسكون سرِّه.

وحكمته كيوم ولدته أمه، وهي أم طبيعته المزدوجة بروحانيته، فالروح إذًا تعلّق بالجسد؛ تعلّق الزوج بالزوجة، حصل منه ولد القلب وقواه، كما حصل من ازدواجهما طفل الجسد وقواه: أي الطفل الجسداني الحامل للقوى الحسية الحيوانية الطبيعية، وذلك اليوم مطلقًا يوم فارغ عن المنازع الذي يحصل منه البعد، والردى؛ فظهر أن مَن حجَّ لله، إلى الله، بالله، في الله؛ خرج عن ذنوبه المبعدة له عن ربه، وأعظمها ذنب الوجود؛ وهو إثبات الوجود لنفسه، ورؤية الوجودين؛ فإنه مُنافٍ للتوحيد الحقيقي.

وفيه إشارة إخرى وهي: إن اليوم الذي ولدته أمه هو الآن الغير المقسم الذي تجلّى الله فيه للأشياء بالأسماء خصوصًا باسمه النور في النكاح، الحاصل بين عالم المعاني والأرواح، وذلك اليوم يوم ملكي روحاني لم يهب فيه ريح بشرية جسدانية، ولم يظهر فيه سلطنة اسم جلال، وقهر إلا بالقوة، فمَن حصل له الوصول إلى ذلك اليوم بالرجوع إلى المقام الروحاني بعد العبور من عالم الحس والبشرية، الذي هو عالم الغزو والجهاد، فقد خرج عن ذنبه، الواقع في عالم الأكوان الحسِّ؛ الذي يُوجب الشرك الحقيقي بإثبات الوجودين في الصورة(١).

---

(١) قال الحكيم الترمذي: وأمَّا علّة الحج: فإن الله - تعالى - جعل للعباد مَعلمًا في أرضه، ولقلوبهم مظهرًا يسيرون إليه بقلوبهم ويسيرون نحوه؛ فالمظهر: العرش، والمَعلم: الكعبة.
لمّا ارتفع بخار الماء فصار سماء ظهر فوق الماء بياضٌ كالقبة فحمد، ثم مُدَّت الأرض من تحتها؛ فالبياض مَعلمه، وهو موضع البيت، فملك الأرض شرقًا وغربًا عباده، ولم يُملك ذلك الموضع أحدًا فهو عتيقة أعتقة مَن أن يملكه أحدٌ سواه؛ فلذلك سُميّ البيت العتيق، ثم دعا العباد إلى أن يؤمنوا به قلبًا، ويسلّموا له نفسًا فيما يأمرهم به، فأجابه الموحدون بمنّه =

ورحمته، ثم جعل لقلوبهم طريقًا إلى مظهره؛ لينظروا بقلوبهم إلى عظمته وجلاله، فيعظِّموه به ويجلو أمره وشأنه، وجعل لهم فجاجًا وسبلاً إلى مَعلمه؛ ليحجوا بيته، ويحطُّوا به الأوزار والذنوب، فيطوفوا حوله ويلوذوا به.

فإن ذلك البياض خفي عن أعين الخلق، وبقي هواء، فبنى على حد ذلك الهواء بنيانًا يعرفه الخلق؛ فهو مَعلم لِمَن قصد إلى الله - سبحانه وتعالى - بدنًا، والعرش مظهرًا لِمَن قصد إلى الله - تبارك وتعالى - قلبًا، فجاءت شهوات النفس فأظلمت الصدور، فحالت بين عيني الفؤاد، وبين عين السير إليه، والنظر إلى جلاله، وتشبثت النفس بهذا الطَّلل، فحالت بينه وبين السير إليه ظلمة، ولا يتخلص من النفس إلا مَن يُجاهدها في الله حق جهاده، فوعدَ المجاهدين الهداية إلى سبيله.

فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

ففتح لهم السبيل إليه بعدما أدَّى حق المجاهدة، وصدق الله - تعالى - فيها، وقد بيَّنَّا شرح هذه المجاهدة في كتاب «صفة القلوب ومنازلها»، والَّذي ترك السير إليه متأخرٌ عن مظهره، والذي ترك السير إلى مَعلمه منقطع من رحمته، فدعا العباد إلى إتيان مَعلمه ليسلِّموا إليه أبدانهم بالعبودة، فيتخذهم عبيدًا ويغفر لهم، ويُنيلهم الكرامات، ويُنجح لهم الحاجات، فأول مَن أجابه أبونا آدم ﷺ، ثم لَمَّا ذهب رسم البيت زمن الغرق، ابتعث الله - تعالى - خليله ﷺ وأمره ببناء الرسم؛ ليُعلم العباد موضعه، وأمره أن يؤذِّن في الناس بالحج، فأجابه بالتلبية، فكل مَن أسلم واستطاع إليه سبيلاً، أوجب عليه أن يأتيه ويُظهر إسلامه عند مَعلمه.

والإسلام هو: تسليم النفس إلى الله - تعالى - انقيادًا وعبودةً؛ ولذلك قيل: حجة الإسلام، فإذا حجَّ مرة بعد أخرى، فإنما يجدِّد في كل مرة تسليمًا إلى الله - تعالى - لأنه كلما أذنب دخل الخلل في تسليمه إليه.

فالعاكفون والطائفون حول بيته بدنًا، والعاكفون حول مظهره قلبًا، والوالجون بيته ندبًا، والوالجون مجالس ملكه قلبًا، فدلَّ العباد على تجديد الإسلام كلما أخلق بالذنوب، وانتقضت عُراه، وأمر خليله ﷺ بإظهار رسمه، ثم أمره أن يُؤذِّن في الناس بالحج، ثم جرت السُّنة والسنة الصورة: صورة الإتيان واللوذان، فجعل من دونه ميقاتًا من كل ناحية إذا أتاه لباه، فإذا لباه صار محرمًا، وأمر أن يخرج من زينته وهو اللباس؛ لأنه قد قال ﷻ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١].

=

فاللباس زينة الإنسان مُخرجٌ من زينة إلى ما لا بد منه، وهو الإزار والرداء يستتر بهما، فإن كان حرٌّ أو بردٌ رُدَّ في الاستتار من الحرِّ والبردِ، وأُمر بأن يجتنب إلفه، والإلفُ: كل أنثى من حرَّة أو أمة؛ لأن النساء سكن الرجال، وإلفهم هكذا خُلقن، فأُمر بأن يفارق سكنه وإلفه في المباشرة؛ لينفرد إلى الله – تعالى – فيوحِّد مَن خلقه، وتفرَّد بمننه، وأن يخرج من زينة اللباس؛ ليكون بين يديه كهيئة العبد الأسير الذي لا يدري ما يُعمل به، يريد أن يتقدَّم إلى مولاه ليتخذه عبدًا.

ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: «**إن الله اتخذني عبدًا قبل أن يتخذني رسولاً**».

والاتخاذ هو الافتعال مأخوذ من الأخذ أي: يأخذه، فإذا أخذه أقبل عليه بالعطف وأسباب السعادة، ولبَّى من الميقات إجابة لدعوته، ولا يؤدي روحانيًا إلا بحق؛ لأنه في تلبية مولاه قد دعاه، فأجابه حتى تنتهي الدعوة منتهاها، فسُميت هذه الحال منه إحرامًا؛ لأنه أحرم عن كل ظلم وأذى بغير حق وعن الزينة والأليف، فأمر أن يأتي مكانًا خارجًا من الحرم تجاه البيت فيقف به متنصلاً معتذرًا يُسلِّم بدنه إليه طاعةً وعبودةً معترفًا إليه بذلك في ذلك المكان، فسُميت عرفات، فهو يقف موقف الاعتذار مستأذنًا له في إتيان معلمه واللوذان به، حتى إذا غربت الشمس وجب الإذن فأفاض والإفاضة سرعة القلب وإنصابه كفيض الماء قاصدًا لمعلمه، فحسبته مظالم العباد؛ لأنه اعتذر إلى الله – سبحانه وتعالى – في هذا المقام فقبل عذره وغفر له، وبقيت تبعات العباد، فمضى حتى بلغ المشعر الحرام وهو: المزدلفة، وسُميت مزدلفة؛ لأنه ازدلف إلى ربه زلفة.

والزلفة: القطعة، أي: تقرب إليه قطعة من المسافة التي كانت بينه وبين معلمه، ومعني المشعر:شعور القلب بربه في هذا المكان الذي وقف به ثانيًا إلى طلوع الفجر، فاعتذر وتضرَّع ورفع إليه فقره وقلة حيلته في شأن التبعات، فغرها له على أن يرضى عنه أهل التبعات، فتلك مغفرة أعم من الأولى، فمضي على إذنه بالأمس، وإنما حبسه تبعات العباد هاهنا حتى احتاج إلى وقفه ثانية بمَعلمه يوم النحر، فلمَّا تخلص من الذنوب ومن تبعات الناس تخلص من الأدناس، وأسرع في إتيان مَعلمه، فلمَّا أتى المضيق وجد العدو، وقد سدَّ عليه الطريق حسدًا وغيرة، فأُمر أن يرميه ليخسأ، ففي كل حصاة يرمي ويكبر يخسأ أرضًا أرضًا حتى يبلغ به سبع تكبيرات وسبع حصيات الأرض السابعة، لم يبقَ في الطريق إلى مَعلمه مانع، وإلى هذا الموضع كان ممنوعًا من مَعلمه مرة بالذنوب، ومرة بالتبعات، ومرة بالعدو، فإلى هذا الموضع أمر بالتلبية، فلمَّا رمى قطع التلبية؛ لأنه لم يبقَ مانع.

=

ثم إذا ترقّى من ذلك المشهد إلى عرفات الغرب، والوصال بالسير الواجبي، والسلوك الحقيقي، والمعرفة التامة التي ليس فيها إلحاد في الأسماء، والصفات والأفعال؛ فقد خرج عن ذنبه الواقع في عالم الأرواح، الأرواح الذي هو عالم الكون الموجب المعنوي للشرك الحقيقي بإثبات الوجودين في المعنى، وبذلك يتمُّ حجه ووقفته في: مقعد صدق عند مليك مقتدر، ويكون مظهرًا لسرِّ قوله تعالى: ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؛ فما تقدَّم من ذنبه هو الوجود المضاف إلى روحانيته الموجب للأثنية في عالم العقل، وما تأخَّر من ذنبه هو الوجود المضاف إلى جسدانية الموجب للإثنينية في عالم الحس.

فإذا كان هذا الذنب مطلقًا مغفورًا مستورًا بنور الروح؛ بل بنور القدس والوحدة؛ خرج العبد عن البشرية، وفنى عن الجسدانية، وبقى مع الرب الباقي؛ بحيث لا بقاء هناك، ولا معية في الحقيقة، وإنما هو وجود واحد، ونور مطلق يتلألأ أضواؤه للعوالم، فانظر هل وقع لك حج مثل هذا الحج إلى هذا اليوم؟ فإن لم يقع؛ فانظر إلى كلام القوم، واعمل بالصوم، وترك النوم.

=

وهاهنا كان رسول الله ﷺ يقطع التلبية في أول حصاة يرميها؛ لأن العبد قد أُذن له، وقد ذهبت العلل والموانع، فقيل له: ضع عنك هذا الشين والدرن والدنس، وتطّهر وخذ الزينة: أي اللباس، وأنت مَعلم ربك ولُذْ به وحجه، فيأخذ من أظفاره ويحلق رأسه، ويلبس ثيابه، فقيل له: طفْ بالبيت أسبوعًا واحدًا، فكذلك لا يستحب أن يطوف بالبيت زيادة على أسبوع واحد؛ وذلك طواف الزيادة، والزيادة الميل إلى - الله - تعالى وإلى مَعلمه، قد تم حجة، ثم أمر أن يأتي مِنى لحال الذكر، فيقم بها ثلاثًا، ويرمي الجمرات غيظًا للعدو، وإن وجد قربانًا فقربه كان أفضل، وإن لم يجد فليس عليه شيء.

ومن هاهنا قال علماء السلف - رضي الله عنهم -: إذا لم يقف بعرفات فقد فاته الحج؛ لأنه قد فاته الإذن، وإذا وقف بعرفة و لم يطف طواف الزيادة لم يفته الحج، ولو أتى البيت بعد سنين كثيرة فطاف طواف الزيادة أتم حجه، وعليه بدنة لتأخره ذلك، ومَن طاف فقد أجزأته حجته. وانظر: إثبات العلل (ص١١١) بتحقيقنا.

١٧- في الحديث: «مَن حلف فقال في حلفه: باللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله»[(١)]:

أشار باللات إلى الشيطان؛ لأنه كان صنمًا لأهل الطائف؛ والطائف هو الشيطان، كما قال تعالى: ﴿**إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ**﴾ [الأعراف: ٢٠١]، وأشار بالعزى إلى النفس؛ لأنها لكمال عزّتها تدَّعي الألوهية والعزة، وقد قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [المنافقون: ٨]: أي وللروح العزة؛ لأنه مظهر كمالات العزيز الحكيم، ولرسوله الذي هو القلب لا مرسل إلى القوى؛ كالسلطان إلى الجند.

ولا بد للخليفة من العزّة الذاتية والإضافية، ثم إن الحلف؛ إنما هو عمل اللسان، وهو مرتَّب على عمل القلب؛ إنما هو بالشرك كما أن فساد اللسان؛ إنما هو بقول الشرك، والحلف بالشيطان، والنفس عبارة عن تعظيمهما، ومن المقرر أن تعظيمهما كفر، والكفر لا يزول إلا بالتوحيد[(٢)].

---

(١) رواه ابن المنذر في الأوسط (١/٢٣١).

(٢) قال الشيخ أبو المواهب: قال الله تعالى: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ [محمد:١٩]:

حقيقة: أحدية الذّات غيب في الأزل ووحدانيتها ظهور في الأبد، والواحد القديم ما لا أول له ولا آخر.

دقيقة: عمَلُ التوحيد علْمُه، وعلمه عمَله، لذلك مَن علمه عَمَلٌ، ومَن عَمَل، ومَن عَمِل به عَلِم.

وَمَـا عَمَـلُ التوحـيدِ عندَ محقّقٍ ... سـوى فـافهم لحكمـةٍ وحـدةٍ

تُشـاهدُ أنـوارَ تلـوح وتجتـلي ... وكـثرتها تـبدو مِـن الفردِ فأثبت

حقيقة: توحيد هو تعداد، وتوحيد أنا إفراد.

فإنْ أردت أنْ تستغرق في بحر الإفراد، وتقف على الساحل مع الأفراد، فاجعل توحيدك هو بلا هو، فهناك تذهب بينونة البين، برفع نقطة الغين عن العين بلا أين، في حضرة الغيب والحضور، ويقابل البطون الظهور.

دقيقة: ليس بتوحيدك يتوحَّد الواحد؛ بل هو على كل حال واحد، كما أن العالم عالم كذلك[(٢)].

ما وحَّد الأحَدَ أحد، سبحانك من حيث أنت ما وحَّدك حقيقة إلا أنت، سبحانك لا نحصي ثناء عليك كل ذلك منك وإليك.

=

=

راحَ الموحَّـــدُ والتوحـــيدُ حين فَنِي وصـــفُ الموحَّـــدِ والتوحيدِ بالأحدِ

حقيقة: توحيد الذات في الأزل بشهود الأحدية.

لا تشهد حقيقة بمشاهد أبد الواحدية؛ لأن بالأحدية كان التجلّي الأوَّل في حضرة أحدية الجمع، وبالواحدية كان التجلّي الثاني في تعين فرقها؛ لذلك اختلف الشهود لتباين المشهود.

دقيقة: التجلّي الذّاتي غير التجلّي الصفاتي؛ لهذا كان في أحكام التجريد لكل حقيقة ما يخصها من التوحيد.

حقيقة: وجوب الذّات، هو وجوب الصفات، وتعدادها لا يوجب تعديد الذات بذوات، نعم لا هي عَيْنُها، ولا هي غيرها، فقد اتحد المسمَّى، وتعددت الأسماء.

مَــا فى التَّكـــثرِ في الأوصافِ مِن بـــلْ كونهـــا عبنها مع ماترى عجبَ

دقيقة: تعداد الأسماء يدل على تنـــزيه المسمَّى، حيث تكثر أسماؤه في حضرات سبحانه، وهو موحد في غيب قدس ذاته.

حقيقة: تجلّي ذات الحق تمحق الكائنات، وتجلّي صفاته توجب لها الثبات؛ لذلك لم تُطَقْ رؤية الذات بالأبصار، ولا يدرك كنهها بالعقول والأفكار، كيف وأنّى لجائز حادث سقيم أن يثبت لوجوب الوجود القديم؟!

كـــلُّ المعـــارفِ والعـــوارفِ أغرقت في بحـــرِ إجـــلالِ الوجـــوبِ الأولِ

يـــا طالـــبا لجـــوازهِ بجـــوازه هـــذا الجـــوازُ قـــد استحال بمعزلِ

دقيقة: القديم غير الحادث، فإذا اختلفت الحقائق، فقد تعسرت الطرائق.

كـــيفَ الوصـــولَ إلى سعادِ ودونها قـــنن الجـــبالِ ودونهـــن حـــتوفٌ

الـــرجْلُ حافـــية ومـــا ليَ مرْكـــب والكـــفُّ صـــفرٌ والطريقُ مَخُوفٌ

لكن إذا أراد وصولك إليه أفناك عنك، فتراه به كما هو حقيقة يراك.

ومخطوبـــةُ الحسْـــنِ محجوبـــةٌ فـــلا تـــألفَنَّ سِـــوىَ ألفهـــا

إذا مَـــا تجلّـــت عـــلى عاشـــق وأهـــدت إلـــيه شـــذى عـــرفَها

تغيـــب الصـــفاتُ وتُغـــني الذواتُ بمـــا أبـــرزَ الحُسْـــنُ مِـــن لُطفِهـــا

فـــإنْ راه عاشـــقُها نظـــرةً لم يســـتطع إذ عـــلا وصـــفها

=

=

أعارتـــــه طرفًـــا رآهـــا بــــه فكـــان البـــصيرُ لهـــا طرفهـــا

حقيقة: لما تنـــزَّه الواحد بكل وجه عن النهاية انتفى الضدُّ والندُّ عند الغاية.

لا تنتــــهي فيــــه النُّهـــى لنهايـــةٍ مَن شَاء يُطنبُ فيــه أو لا يُطنــب

دقيقة: نفي السلوب وإثبات الوجوب هما حضرة التنـــزيه، فيما عليه سبحانه استحال من جائزات المحال.

حقيقة: توحيد الهوية، لا يدرك كُنه الماهية، فوحَّده من حيث هو بما هو على ما هو تكن ممن وَحَّد، ولا في الحقيقة أُلْحد.

دقيقة: إشارة هو في التوحيد خاص للخواص، كما أنَّ الإثبات بعد النفي عام للعوام؛ لذلك كانت تلك الإشارة في حضرة محاضر العيان، وهذه العبارة في مقام الدليل والبرهان.

حقيقة: الواقف مع رتبة الدليل بالكائنات محجوب عن عيان المشاهدات قانع بالقشر عن اللباب وإن كان من أولي الألباب.

ألا ترى أنه شتان بين واقف بالباب وبين من هو أهل لكرامة فحوى الخطاب.

ومـــا البحـــثُ في الآثـــارِ إلا مبعـــد عن المقصِد الأسْنَى مِن الغايةِ القـــصوى

فــــلا تقـــنعنْ بالقـــشرِ دون لبابـــه ولا تحتجب بالبابَ عن حضرةِ النجوى

دقيقة: شقائق أبحاث الجدال أوهام في مهام الخيال لا تفيد صاحبها غير قعقعة اللسان، مع خلو من الجنان مَن قنع بها زلَّت به القدم، ومَن وقف معها أورثته الندم.

لعمرى لقد طفتُ المعاهدَ كلها وسرحت طرفي بين تلك المعالِم

فلمْ أرَ إلاَّ واضعًا كف حائرٌ على ذقنه أو قارعًا سنَّ نادمِ

حقيقة: كل حقيقة أخذها عن الغير، ودلتك على سواء في السير فهي لك حجاب في الحال والمآل هذا، وإن دققت أفكار الأنظار فطيْر العناء في جو الخيبة بك قد طار، فاترك العقل المعقول، وكثرة الأبحاث والفضول.

عقـــلُ عقلـــك بالأوهـــامِ معقـــولُ قد قلَّب القلبُ منك القـــال والقيـــل

هِيمُ في مهمه الأوهـــامُ مـــن ولـــه أفـــاده فيـــك معقـــولٌ ومقـــولُ

نحت بـــالفكرِ معبُـــودًا وقلـــت بـــه وذاك عقد بكـــفِّ الحـــقِّ محلـــولُ

=

=

قــد عشـــتَ مثلك دهرًا في مكابدةٍ ولي فــؤاد بهـــذا الــداءِ معلـــولُ

دقيقة: ما شهد الحقَّ من استدلَّ عليه، وما وصل إليه من زعمَ أنه يسير إليه؛ إذ لو شهده لكان برؤيته في طرب، ولو وصل إليه لزال عنه التعب.

حقيقة: الموحِّد من فنيت رسومه في حضرات التوحيد، وأنسَ بالواحد في مقامات التفريد غلب عليه الشهود بمرايا الكائنات، وجلّى ما تجلّى له فيها من حقائق الأسماء، والصفات، فأنشأ لسان تحقيقه في مسالك طريقه.

هــذا الوجــودُ وإن تعــدَّد ظاهرًا وحــياتكم مـــا فـــيه إلا أنـــتم

دقيقة: علامة الموحِّد يا قوم وجدانه في اليقظة والنوم.

جمـــالُك في مُخـــيلتي وطـــرفي مقــيم لــيس يخفــى بعد كشف

إذا اســتيقظت كــان بك ابتدائي وإنْ أغفيــت كــان علــيك وقفي

حقيقة: وجود المعارف في أهل العوارف تكسبهم إدراك لحقائق الذوقية، بل العنايات الكشفية وغيرهم ليس له هذا الاتِّصاف ولا خلق الإنصاف.

لو شئتَ أنصفت والإنصاف محمدٌ عــند الــرجالِ بنورِ الحقِّ كالقبس

باشـــرْ بعقلـــك هـــذا الأمر مجتليًا مـــنه حقــيقة حــق غير ملتبسِ

دقيقة: شهدت شواهد التوحيد لمن استدلَّ به عليه، وانجلت حضرات التغريد لمن إليه، فطوبى لمن رُفعت عنه الأستار، واستغنى عن الجدال والانتظار.

رفعـــت لـــنا عـــن وجهها الخِباَ أهـــلاً وســـهلاً بالحبيبِ ومرحبًا

حقيقة: غلبة نور الظهور هو الذي أوجد الستور: أيْ ستور النور بالنور.

ومـــا احتجبـــت إلا برفع حجابها ومـــن عجـــب أنَّ الظهور تسترُ

دقيقة: ما من شيء إلا دلَّك عليه لكنك لا تدري كيف تسير إليه دلت مصنوعاته على وحدانيته، وبرهنت آياته على فردانيته.

وفي كـــلِ شـــيءٍ لَـــه آيـــة تـــدلُّ عـــلى أنَّـــه الواحـــدُ

حقيقة: قيام القيومية بالمخلوقات هو الذي أوجد لها قيام الصفات، فلو انمحى من عينيك خبال الخيال شهدت في الكون من لم يزل ولا يزال.

=

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

دقيقة: إذا عظم نور المشهود عزَّ إدراكه في الشهود.

ألا تـــرى الخفـــاشَ في الحـــسِّ لا يطـــيقُ رؤيـــةَ الشـــمسِ

مـــثل الـــنهارُ يزيد أبصار الورى نـــورًا ويعمـــي أعـــين الخفـــاشِ

حقيقة: ظهور تجلِّي الحقيقة الإلهية، إذا تجلى للحقيقة الإنسانية محا منها ثنوية الناسوت، وأثبت فيها فردانية اللاهوت.

تجلَّـــى لي الـــرحمنُ في كـــلِ ذرةٍ مِـــن العالِم العلوي إلى العالِم السفلي

وقـــال كمـــالي حـــيَّر الـــناسَ جملةً وأعجـــز مَـــن ينشي الكتابةَ أو يملي

فإيـــاك لا تشـــهدُ لغـــير جمالـــه وقُدســـه إجـــلالاً عـــن البعدِ والقبلِ

دقيقة: صنعة الفنا هي التي أوجبت لبعضهم النطق بأنا.

حقيقة: تجلِّي وصفه الباقي أوجب فناء العالم والمعالم، ولسان فردانيته في الإفراد حيَّر المتعلم والعالم.

دقيقة: من الفاعل بالاختيار كانت البداية، وبوصف قيوميته قامت الأكوان إلى غاية لها ونهاية.

فالحظْ بنظر بصيرتك أيها الملحوظ، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ * بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظ﴾ [البروج: ٢٠، ٢١، ٢٢].

حقيقة: حيطة حضرة ذاته محيط بصفاته، وحيطة صفاته محيطة بسبحات أسمائه، وأسمائه فعالة في الكائنات بما أودعها من بدائع التجلّيات.

دقيقة: من حكمته ستر ظهور الذّات بحجاب مظاهر الصّفات، واختفي بما به ظهر من الكائنات، وغاب بما به حضر، وحاضر من التعرفات.

حقيقة: حضور العبد حضور العجز عن محاضرته في حظيرة مشاهدته، ومطالعته هو نهاية من اعترف وذاق الشراب واغترف.

والعجـــزُ عـــن دركِ الإدراكِ شمـــسٌ جـــرت بهـــا فـــوق جو الشكِ أفلاكُ

دقيقة: العجز سلب، والإدراك وجود، فكيف جعل الصديق ذلك غاية المقصود؟!

نعم تفهمه إذا أدركت حقيقة الفنا، وتتحقق به إذا تجلّت به لك الحسنى بأسمائها الحسنى.

حقيقة: تجلّي الحقيقة الإلهية للأكوان يتفاوت بحسب الاستعداد والإمكان، لذلك من القوم من يملك الحال، ومنهم من يملك المقام، ومن يملك المقام؛ يثبت له التجلّي على الدوام.

فمَن تعلّق بشيء مما سوى الله؛ فقد أشرك بالله، وحط درجته عن درجة القربة والوحدة، فعليه بالتوحيد القلبي؛ لأن القلب هو الذي يشاهد ربه بالوحدانية والربوبية.

وأشار بالأُلوهية إلى أن الشرك؛ إنما هو خطأ النفس بالميل إلى الصفات المختلفة، فلو مالت إلى الصفة الحقيقية لله تعالى، وهو صفة الأُلوهية التي انفرد بها عن الخلق؛ كانت مستقيمة في طريق الحق لا منحرفة، فكان خطؤها في صفة الذّاتية خطأ منها في الذّات الأحدية، فسرى الشرك من الصفات إلى الذّات، ومن ثم لم يكن الشيطان من أهل الذّات قطعًا، وكذا النفس إذ لو كان من أهله كان مؤمنًا، ومَن كان مؤمنًا في مرتبة الذات؛ خلص من الإلحاد في مرتبة الصفات، وإنما عُدَّ الحلف

=

دقيقة: لما تجردت الحقيقة الذاتية عن الاتّصاف تكون معناها في القابل لها من الأوصاف، لون الماء لون إنائه، يسقي بماء واحد ونُفضل بعضها على بعض في الأكل.

على قدرِك الصهباءُ تعطيك نشوةً ... ولست على قدرِ السلاف تُصابُ

ولو أنها تعطيك يومًا بقدرِ ما ... لضاقت بك الأكوانُ وهي رحابُ

حقيقة: تجلي الحال في المشاهد بحسب ما أعطِى المشاهد، فالعوام لا يشهدون غير مشهد حسن الصورة الحسية، والخواص رفع لهم الستر عن صورة الحسّ المعنوية. التي تجلّى بها اسمه تعالى الظاهر في جميع الأكوان بكل المظاهر.

تراه إن غاب عني كل جارحة ... في كل معنى لطيفٍ رائقٍ بهجِ

في نغمةِ العودِ والناي الرخيمِ إذا ... تألّفا بين ألحانٍ مِن الهزجِ

وفي مسارحِ غُزلانِ الخائلِ في ... بردِ الأصائلِ والإصباحِ في البلجِ

دقيقة: المزاحم على برقشة الجمال السفلي محجوب عن شهود الجمال العلوي، فاترك المضايقة في طريق المركز الأدنى، وارق همتك إلى الأوج الأعلى.

وما نحنُ إلا خطوط وقعت ... على نقطةِ وقعِ مستوفزِ

محيطُ العوالمِ أولى بنا ... فماذا التزاحمُ في المركزِ

وانظر: قوانين حكم الإشراق (ص٢٠) بتحقيقنا.

باللات والعزى شركًا منافيًا للتوحيد.

وقد أقسم الله تعالى بغير ذاته وصفاته في مواضع كثيرة من القرآن؛ مثل: **والشمس، والضحى، والتين والزيتون، والعصر** ونحو ذلك؛ لأن ذلك قسم من المتعين بتعيناته الواقعة في طريق الهدى.

وأمَّا القَسم بما في طريق الضلال فلم يرد؛ لأن القَسم من قبيل القول، والقول من قبيل العمل، وفرق بين عمل الشيء، ومعرفته على ما هو عليه، ومن ثم قالوا: إن أهل الحق لا يفرقون بين شيء وشيء: أي في العلم بخلاف العمل، فإن الحكمة تقتضي الوقوف عند الشرائع الظاهرة لا عند الحقائق الباطنة، ثم إن كلمة التوحيد طُويَ عنها النقطة؛ لأن النقطة للتمييز: ﴿**وَقَد شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ**﴾ [آل عمران:١٨].

ودلَّت الآيات التكوينية والتنزيلية على وحدة الوجود الواجبي والإمكاني(١).

---

(١) قال الشيخ الكتاني: ذكر المتكلمون على وحدة الوجود أن هاهنا وحدات ثلاثًا:

الأولى منها: وحدة كل موجود على انفراده ومعناها أن كل فرد من أفراد الموجودات الظاهرة والباطنة من حيث هو له من الله تعالى وجه خاص يلقي إليه منه ما يشاء لا يشاركه فيه أحد وله منه أيضًا وجهة معينة وصفة مخصوصة لا تكون لغيره بها يتميز عن غيره من سائر المخلوقات وهذه الوجهة هي حقيقته المختصة به وصفته المخصوصة.

قال في «الفتوحات» في الفصل الخامس عشر من الباب الثامن والتسعين ومائة ما نصه: وأما الله تعالى فهو مع كل شيء فلا يتقدمه شيء ولا يتأخر عنه شيء وليس هذا الحكم لغير الله تعالى ولهذا له إلى كل موجود وجه خاص لأنه سبب كل موجود وكل موجود لا يصح أن يكون اثنين، انتهى.

يشير إلى هذه الوحدة وإن شئت زيادة بيان لها فقل إنه ما من عين مخلوقة إلا ولها من الله خاصية وعلامة تميزها عن غيرها من كل ما خلقه الله من الأعين من ابتداء الوجود إلى انتهائه كما أن لها منه مادة مخصوصة لا يشاركها فيها عين أخرى، وإن قلنا: إن هذه العين مثل هذه كزيد مثلا مثل عمرو أو هذه الحبة من البر أو غيره مثل هذه فما هي مثلية حقيقية إذ كل واحد منهما لابد له من مميز يدرك ذلك من خالطه المخالطة الخاصة أو تأمله كذلك أو فتح الله عين بصيرته وذلك المميز هو وجهه المختص به وهو حقيقته الخاصة وصفته المخصوصة فهذه هي وحدة كل موجود.

الثانية: وحدة جميع الموجودات الكونية من حيث جملتها وهي وحدته ﷺ ومعناها أن العالم كله من =

=

أوله إلى ما لا نهاية له منه شيء واحد بالذات أعني نورانيته واحدة وحقيقة متحدة متضمنة لجميع الحقائق وهي نورانيته ﷺ وحقيقته المفاضة من الذات العلية فيضانا متحدا بالفيض الأقدس أولاً في العلم ثم بالفيض المقدس ثانيًا في العين والخارج وما لها من التفاصيل والوجوه والقيود والاعتبارات والخيالات العارضة لا يعددها ولا يكثرها كالذات الواحدة الإنسانية فإنها حقيقة واحدة لا يكثرها ويعددها ما لها من الأعضاء والحواس الظاهرة والباطنة وإن كانت متعددة، وهذا معنى ما بلغنا عن بعضهم من أنه كان يقرر وحدة الوجود فيه ﷺ وكان بعض أشياخنا ممن جمع بين الظاهر والباطن يومـــئ إليها فيقول: إذا رأى إنسانا مقبلاً عليه أي إنسان كان مرحبا بالنور المحمدي حتى صار يلقب بهذا اللقب فيقال له: النور المحمدي وكان يشير بذلك إلى أن الأكوان كلها إنما هي مظاهره ﷺ وأنـــوراه المتحدة بالذات، وإن تعددت بالاعتبارات، وأن وجوده إنما هو بوجوده ﷺ وإمداده المستمد من الحضرة العلية التي هي حضرة الأحدية.

وفي «الجامع» لأبي عبد الله محمد بن المشري نقلاً عن شيخه أبي العباس التيجاني قال: الحقيقة المحمدية هـــي الكون بأسره فلو رفع الحجاب لم تر إلا الحقيقة المحمدية بارزة وحدها عليها أفضل الصلاة والسلام انتهى.

يـــريد أنها سارية فيه كسريان الماء في العود الأخضر بحيث لو زال هذا السريان لصار عدما محضًا في الحال قبل المآل ولو زالت هذه المظاهر التي هي الحاجبة عنها لم تر إلا هي بارزة وحدها وإلى هذه الوحدة يشير في «الفتوحات» عقب ما مرَّ عنه في الوحدة قبلها بقوله: وهو واحد فما صدر عنه إلا واحـــد فإنـــه في أحديـــة كل واحد وإن وجدت الكثرة فبالنظر إلى أحدية الزمان الذي هو الظرف، فإن وجود الحق في هذه الكثرة في أحدية كل واحد فما ظهر عنه إلا واحد، فهذا معنى لا يصـــدر عـــن الواحد إلا واحد ولو صدر عنه جميع العالم لم يصدر عنه إلا واحد فهو مع كل واحد من حيث أحديته، وهذا لا يدركه إلا أهل الله، وتقوله الحكماء على غير هذا الوجه وهو مما أخطأت فيه، انتهى منه بلفظه.

وقد ذهب الأشاعرة والمتكلمون إلى جواز استناد آثار متعددة لمؤثر واحد بسيط لأنهم قائلون بأن جميع الممكنات المتكثرة كثرة لا تحصى مستندة بلا واسطة إلى الله تعالى مع كونه منـــزها عن التركيب والحكماء منعوا هذا أعني جواز استناد الآثار المتعددة إلى المؤثر البسيط الواحد الحقيقي من جميع الجهات، وقالوا: إنه لا يجوز أن يستند إليه إلا أثر واحد، وقالوا في معنى ما صدر عن الواحد إلا واحد أن الحق تعالى ما خلق إلا واحدًا وهو العقل الأول، والعقل الأول أوجد الفلك الأول بمادته وصورته ونفسه الناطقة المدبرة له وأوجد العقل الثاني ثم العقل الثاني أوجد فلكه ومادته وصورته ونفس والعقل الثالث، وهكذا إلى العقل العاشر، ثم خلق العقل العاشر العناصر الأربعة، والمواليد الثلاثة بأنواعها الكثيرة ونفوسها وقواها، وغير ذلك إلى ما شاء الله. هذا ما قالوا.

=

=

وحمل الأكثرون كلامهم هذا على الظاهر من إثبات فاعل ومؤثر غير الله تعالى عما لا يليق به وحقق المحقق الدواني في بعض رسائله أن تحقيق مذهبهم أنه لا فاعل في الوجود إلا الله تعالى وبين ذلك بالبيان الشافي فلينظر.

وأهل الله تعالى يقولون معنى ما صدر عن الواحد إلا واحد أن وجوده تعالى في أحدية كل واحد وأنه مع كل واحد من حيث أحديته كما قاله الشيخ الأكبر، أو أنه ما صدر عن الحق تعالى إلا واحد وهو الوجود المفاض من الذات العلية فيضانا متحدا والعقل الأول وغيره من سائر الموجودات سواء في هذا الوجود المفاض كما قاله غيره.

وقال العارف الجامي في «الدرة الفاخرة الملقبة بحط رحلك» في ترجمة القول في صدور الكثرة عن الوحدة: الظاهر أن الحق ما ذهب إليه الحكماء من امتناع صدور الكثرة عن الواحد الحقيقي ولذا وافقهم الصوفية المحققون في ذلك لكن خالفوهم في كون المبدأ الأول كذلك فإنهم يثبتون له تعالى صفات ونسبًا تغايره عقلاً لا خارجًا كما سبق فَيُجَوِّزُون أن يصدر عنه باعتبار كونه مبدءا للعالم كثرة من حيث كثرة صفاته واعتباراته وأما من حيث وحدته الذاتية فلا يصدر عنه إلا أمر واحد من تلك الصفات والاعتبارات أي وهو نسبة العموم والانبساط للوجود المفاض المعبر عنه بالعما قال وبواسطته يلحقه سائر الاعتبارات وبواسطة كثرة الاعتبارات كثرة وجودية حقيقية انتهى منه بلفظه.

وقال صدر الدين القونوي في رسالة «مفتاح الغيب» في ترجمة فصل شريف يشتمل على علم غزير خفي لطيف ما نصه: الوجود في حق الحق عين ذاته وفي من عداه أمر زائد على حقيقته وحقيقة كل موجود عبارة عن نسبة تعينه في علم ربه أزلا وتسمى باصطلاح المحققين من أهل الله عينًا ثابتة.

وفي اصطلاح غيرهم ماهية والمعدوم الممكن والشيء الثابت ونحو ذلك والحق سبحانه من حيث وحدة وجوده لم يصدر عنه إلا واحد لاستحالة إظهار الواحد غير الواحد وإيجاده من كونه واحدًا أكثر من واحد لكن ذلك الواحد عندنا هو الوجود العام المفاض على أعيان الممكنات ما وجد منها وما لم يوجد معًا سبق العلم بوجوده وهذا الوجود مشترك بين القلم الأعلى الذي هو أول موجود عند الحكيم المسمي بالعقل الأول وبين سائر الموجودات وليس كما يذكره أهل النظر من الفلاسفة بأنه ما ثم عند المحققين إلا الحق والعالم، والعالم ليس بشيء زائد على حقائق معلومة لله تعالى أولاً كما أشرنا إليه من قبل متصفة بالوجود ثانيًا فالحقائق من حيث معلوميتها وعدميتها لا توصف بالجعل عند المحققين من أهل الكشف والنظر أيضًا؛ إذ المجعول هو الموجود فما لا وجود له لا يكون

=

=

مجعولاً، ولو كان كذلك لكان للعلم القديم في تغير معلوماته فيه أزلاً أثر مع أنها غير خارجة عن العالم بها، فإنها معدومة لا نفسها، لا ثبوت لها إلا في نفس العالم بها، فلو قيل بجعلها لزم إما مساواتها للعالم بها في الوجود، أو أن يكون العالم بها محلاً لقبول الأثر من نفسه في نفسه، وظرفًا لغيره أيضًا، وكل ذلك باطل؛ لأنه قادح في صرافة وحدته سبحانه أزلاً، وقاض بأن الوجود المفاض عرض لأشياء موجودة لا معدومة، وكل ذلك محال من حيث أنه تحصيل للحاصل، ومن وجوه أخر لا حاجة إلى التطويل بذكرها فافهم، فثبت أنها من حيث ما ذكرنا غير مجعولة، وليس ثمة وجودان كما ذكر بل الوجود واحد، وهو مشتركٌ بين سائرها مستفاد من الحق سبحانه وتعالى.

ثم إن هذا الوجود الواحد العارض للممكنات المخلوقة، ليس بمغاير في الحقيقة للوجود الحق الباطن، المجرد عن الأعيان والمظاهر، إلا بنسب واعتبارات، كالظهور والتعين والتعدد الحاصل له بالاقتران، وقبول حكم الاشتراك، ونحو ذلك من النعوت التي تلحقه بواسطة التعلق بالمظاهر انتهى المراد منه بلفظه، وقد نقله ببعض حذف منه الجامي في «الدرة الفاخرة».

وفي «لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام» في الكلام على الأمر الوحداني ما نصه: هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وأمره الواحد عبارة عن تأثيره الوحداني بإفاضة الوجود الواحد المنبسط على الممكنات القابلة الظاهرة به، والمظهرة إياه متعددًا متنوعًا بحسب ما اقتضته حقائقها المتعينة في العلم الأزلي، وذلك لأن الحق من حيث وحدة وجوده لا يصدر عنه إلا واحد؛ لاستحالة إيجاد الواحد من كونه واحدًا ما هو أكثر من واحد إلا أن أرباب النظر العقلي من الفلاسفة، يرون أن ذلك الواحد هو العقل الأول، وعلى قاعدة الكشف هو الوجود العام، وينبغي أن تعلم أنه ليس المراد بالعموم أنه كلي، لا يمنع تصور مفهومه من وقوع الشركة فيه، فإن ذلك مما لا يصلح أن يكون موجودًا في الأعيان، بل المراد بالعموم اشتراك جميع الممكنات في أنه هو المفاض عليها، المضاف إليها ما وجد منها، وما لم يوجد مما سبق العلم بوجوده، وهذا الوجود مشترك بين القلم الأعلى الذي هو أول موجود المسمى بالعقل الأول، وبين سائر الموجودات؛ إذ ليس ثم إلا الحق والعالم، العالم ليس بأمر زائد على حقائق معلومة الحق أولاً متصفة بالوجود ثانيًا انتهى منه بلفظه.

وقد تعرض في «جواهر المعاني» في الفصل الثالث من الباب الخامس نقلاً عن شيخه أبي العباس التجاني لإيضاح هذه الوحدة، وبيانها على مذهب القوم، وإبطال ما قاله أهل الظاهر من إحالتها، وإبطال ما ألزموه لمن قال بها، وهو أنها تستلزم تساوي الشريف والوضيع، واجتماع المتنافيين والضدين إلى

=

=

غير ذلك مما قالوه.

وحاصل كلامه: إن العالم الكبير كذات الإنسان في التمثيل، وهي إذا نظرت إليها وجدتها متحدة مع اختلاف ما تركبت منه في الصورة والخاصية، وما ذكروه لا يلزم؛ لأنه وإن كانت الخواص متباعدة، والأحكام مختلفة، فالأصل الجامع لها ذات واحدة كذات الإنسان، سواء بسواء، وأيضًا فلوحدته وجه ثان وهو اتحاد ذاته في كونه مخلوقًا لله تعالى، وأثرًا لأسمائه وصفاته، فلا يخرج فرد من أفراد هذا العالم عن هذا الحكم، وإن اختلفت أنواعه، فإن الأصل الذي برز عنه واحد، ووجه ثالث، وهو اتحاد وجوده من حيث فيضان الوجود عليه من حضرة الحق فيضانًا متحدًا، ثم اختلفت خواصه وأجزاؤه بحسب ما تفصل ذلك الوجود، فإنه يتحد في عين الجملة، ويفترق في حال التفصيل. راجع كلامه، وراجع أيضًا كتاب «الجامع» لابن المشري، فإنه تعرض فيه أيضًا لهذه الوحدة وبيانها نقلاً عن شيخه المذكور.

الثالثة: وحدة الوجود الذي به يتحقق حقيقة كل موجود، وهي وحدة الحق سبحانه، ومعناها أن الوجود من حيث هو حقيقة واحدة، وهي لله تعالى وحده لا مشارك له فيها، فهو الموجود على الإطلاق، ووجود هذه الكائنات إنما كان باستنادها إليه، واستمدادها منه، واستنشاقها لروائح الوجود من وجوده، وإشراق شعاع وجوده عليها، فهي موجودة بهذا الوجود الذي له تعالى لا بوجود آخر ثان، فلم تكن غيرًا من كل وجه؛ لأن الغير في عرفهم هو الذي يكون له الوجود من ذاته، ويتصور أن يكون له بنفسه قوام، وهي وجودها ليس من ذاتها، ولا يتصور أن يكون لها قوام بنفسها.

وقد قال الشيخ الأكبر في كتاب «التحليات» له: من لم يكن له وجود من ذاته فمنزلته منزلة العدم، وهو الباطل قال: وهذا من بعض الوجوه التي بها يمتاز الحق تعالى عن الخلق، وهو كونه موجودًا أعني وجوده من ذاته انتهى.

كما أنها ليست عينًا لما بين التقييد والإطلاق من تقابل التضاد، وعليه فإثبات الوجود لها توهم؛ لأنه يتوهم الجاهل بحالها، وحقيقتها أن لها وجودًا وفي الحقيقة ونفس الأمر ما ثم إلا وجوده تعالى؛ لأن به ظهرت الأشياء كلها، ولذا قيل:

هذا الوجود وإن تعدد ظاهرًا ... وحياتكم ما فيه إلا أنتم
أنتم حقيقة كل موجود بدا ... ووجودها ذي الكائنات توهم
في باطني من نوركم ما لو بدا ... أفتي بسفك دمي الذي لا يعلم

=

=

ولــو أنــي أبــدي ســرائر جودكم قــال العــواذل لــيس هــذا مسلــم

وفي «الإحياء» في كتاب التوحيد والتوكل في الكلام على قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ما نصه: أي كل ما لا قوام بنفسه، وإنما قوامه بغيره، فهو باعتبار نفسه باطل، وإنما حقيقته، وحقيقته بغيره لا بنفسه، فإذًا لا حق بالحقيقة إلا الحي القيوم الذي ليس كمثله شيء، فإنه قائمٌ بذاته، وكل ما سواه قائم بقدرته، فهو الحق وما سواه باطلٌ انتهى.

وقال القاشاني في «لطائفه» في مبحث التحقيق ما نصه:

التحقــيق هو رؤية الحق بما يجب له من الأسماء الحسنى، والصفات العلى، قائمًا بنفسه، مقيمًا لكل ما ســواه، وأن الوجــود بكمالات الوجود: أي التي هي القوى والمدارك، إنما هو له تعالى بالحقيقة والأصــالة، ولكل ما سواه بالمجاز والتبعية، بل تسميته غيره غير أو سوى مجاز أيضًا؛ إذ ليس معه غير، بل كل ما يُسمّضى غيرًا، فإنما هو فعله، والفعل لا قيام له إلا بفاعله، فليس هو بنفسه، ليُقال فــيه غيرًا وسوى، فكان مرجع التحقيق أن ليس في الوجود إلا عين واحدة، قائمة بذاتها، مقيمة لتعيــناتها، الــتي لا يتعين الحق بها؛ لاستحالة الانحصار عليه أو التقييد، فهو تعالى الظاهر في كل مفهومٍ، والباطن عن كل فهمٍ، إلا عن فهم من قال: إن العالم صورته وهويته، فلهذا صار صاحب التحقــيق، لا يثبــت العــالم ولا ينفيه: أي لا يثبت العالم إثبات أهل الحجاب، ولا ينفيه نفي المستهلكين، فافهم. انتهى منه بلفظه.

فهــذا المعنى هو مراد أهل الله بوحدة الوجود، وبالوحدة المطلقة وغير ذلك من العبارات التي يذكرها العــارفون مــن أهل التحقيق، وليس مرادهم المعنى الفاسد الذي عند أهل الزندقة والإلحاد، وقد أنكــرته عليهم علماء الأمة، وقد كشف عن هذا الشيخ عبد الغني النابلسي في رسالة له سمَّاها: «إيضاح المقصود عن معنى وحدة الوجود».

وفي «الحكم العطائية»(1): الكون كله ظلمة: أي عدم صرف بالنظر إلى أصله، وحقيقة ذاته، قال: وإنما أنــاره يعــني أظهره، وأزال ظلمة العدم عنه ظهور الحق فيه: أي تجليه عليه أولاً بأنوار الإيجاد، وتوجهه إليه ثانيًا بما يقوم به، ويدوم به وجوده من أنواع الإمداد، فلم يكن وجوده لنفسه وذاته حــتى يعــد وجودًا مستقلاً، وإنما كان وجوده تعالى، وبظهور هذا الوجود في الأشياء ظهرت، وبإشــراق شعاعه عليها أشرقت على حسب ما تقتضيه طبائعها وقابليتها، واستعداداتها الثابتة في العــلم، ثم قال في الحكم، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده أعوزه وجود الأنوار، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار يعني أن من نظر إلى الكون، ولم يشهد الحق

=

تعالى ببصيرته فيه، أو عنده أو معه كما هو حال أهل التوسط الذين يرون الله في الأشياء، أو عندها أو معها ويقولون: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله فيه أو عنده أو معه أو يشهده قبله، كما هو حال أهل الشهود والعيان الذين يرون الأشياء بالله، ويقولون: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله قبله أو يشهده بعده، كما هو حال أهل الدليل والبرهان الذين يرون الله بالأشياء، ويقولون: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله بعده، كان معدودًا من أهل الظلام، محجوبًا عن الله تعالى بسحب الكون أو الجهل والغفلة والآثام، ومن شهده في كل شيء أو عنده أو معه أو قبله أو بعده أو فيه، وعنده ومعه وقبله وبعده كان من أهل الأنوار، وممن لم تنحجب عنهم شموس المعرفة بسحب الآثار، ومن زال عنه الوهم والعناء، وكان في مقام المحو والفناء، وغلب عليه شهود الوجود الحق الحقيقي، الذي به كل شيء موجود يرى الله وحده، ولذا ينفي ما عداه، ولا يثبت شيئًا سواه، ويقول: ما رأيت شيئًا سوى الله.

ومن قول بعضهم في الدار غيره ديار وقول آخر سوى الله والله ما في الوجود ويقول عما سواه أنه ظل، وأنه خيال، وأنه سراب، وأنه هالك، وأنه مضمحل زائل أو لا وجود له أصلاً، وهو صادق في ذلك كله؛ لأن وجود ما سوى الحق إنما هو بالفرض والتقدير، أو الوهم والتخييل، والوجود الحق الحقيقي إنما هو وجوده تعالى، ووجود ما عداه بوجوده لا بوجود آخر، مما عداه ليس له من نفسه وجود أصلاً، فهو بالنظر إلى نفسه عدم صرف، وبالنظر إلى إشراق شعاع الوجود المطلق عليه كالظل له تابع له، والتحقق بهذا المعنى هو زبدة التوحيد، وعمدة أهل التفريد، وفي ذلك يقول قائلهم:

الله قل وذر الوجود وما حوى	إن كنت مرتادًا بلوغ الكمال
فالكل دون الله إن حققته	عدم على التفصيل والإجمال
واعلم بأنك والعوالم كلها	لولاه في محو وفي اضمحلال
من لا وجود لذاته من ذاته	فوجوده لولاه عين محال
فالعارفون فنوا ولما يشهدوا	شيئًا سوى المتكبر المتعال
ورأوا سواه على الحقيقة هالكا	في الحال والماضي والاستقبال

وقد حُكي عن الصديق ﷺ أنه كان يقول ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله قبله.

وعن عمر ﷺ أنه كان يقول: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله بعده.

وعن عثمان ﷺ أنه كان يقول: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله معه.

=

وعن علي ﷺ أنه كان يقول: لا نعبد ربًا لم نره يعني لم نشهده.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ قال: «كان الله ولا شيء معه، وكان الله وحده بلا شيء».

وفي «الإحياء» في كتاب المحبة والشوق في ترجمة بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى ما نصه:

وأما من قويت بصيرته و لم تضعف منته: أي قوته، فإنه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى، ولا يعرف غيره، ويعلم أنه ليس في الوجود إلا الله تعالى، وأفعاله أثر من آثار قدرته، فهي تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة دونه، وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها، ومن هذه حاله فلا ينظر في شيءٍ من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل، ويذهل عن الفعل من حيث أنه سماء وأرض وحيوان وشجر، بل ينظر فيه من حيث أنه صنع الواحد الحق، فلا يكون نظره مجاوزًا له إلى غيره، كمن نظر في شعر إنسان أو خطه أو تصنيفه، ورأى فيها الشاعر والمصنف، ورأى آثاره من حيث أنه أثره لا من حيث أنه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف، وكل العالم تصنيف الله تعالى، فمن نظر إليه من حيث أنه فعل الله، وعرفه من حيث أنه فعل الله وأحبه من حيث أنه فعل الله، لم يكن ناظرًا إلا في الله، ولا عارفًا إلا بالله، ولا محبًّا إلا لله، وكان هو الموحد للحق الذي لا يرى إلا الله، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه، بل من حيث أنه عبد الله، فهذا هو الذي يُقال فيه: إنه فني في التوحيد، وإنه فني عن نفسه أيضًا، وإليه الإشارة بقول من قال: كنا بنا ففنينا عنا، وبقينا بلا نحن. انتهى منه، وقد نقله السيوطي أيضًا في «تأييد الحقيقة العلية».

وفي كلام بعض العارفين أبى المحققون أن يشهدوا غير الله، لما حققهم به من شهود القيومية، وإحاطة الديمومية.

وقال بعضهم: لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع؛ فإنه لا غير معه حتى أشهده معه.

ومن كلام مولانا عبد السلام بن مشيش لوارثه أبي الحسن الشاذلي: حدد بصر الإيمان تجد الله تعالى في كل شيءٍ، وعند كل شيءٍ، ومع كل شيء، وقبل كل شيءٍ، وبعد كل شيءٍ، وفوق كل شيءٍ، وتحت كل شيءٍ، وقريبًا من كل شيءٍ، ومحيطًا بكل شيءٍ بقرب هو وصفه، وبحيطة هي نعته.. إلى آخر ما قال.

وقال بعض العارفين: الحق تعالى منزَّهٌ عن الأين والجهة والكيف والمادة والصورة، ومع ذلك لا يخلو منه أين ولا مكان ولا كم ولا كيف ولا جسم ولا جوهر ولا عرض؛ لأنه للطفه سار في كل شيءٍ، ولنورانيته ظاهر في كل شيءٍ، ولإطلاقه وإحاطته متكيف بكل كيفٍ، غير متقيدٍ بذلك،
=

=

ومن لم يرَ هذا و لم يشهده فهو أعمى البصيرة، محروم من مشاهدة الحق انتهى.

ومن كلام القطب سيدي علي وفا ﷺ:

هو الحق المحيط بكل شيء — هو الرحمن ذو العرش المجيد

و النور المبين بغير شك — هو الرب المحجب في العبيد

هو المشهود في الأشياء يبدو — فيخفيه الشهود عن الشهيد

هو العين العيان لكل غيب — هو المقصود من بيت القصيد

جميع العالمين لَه ظلال — سجود له في القريب وفي البعيد

وهذا القدر في التحقيق كاف — فكف النفس عن طلب المزيد

واعلم أن الإيمان بالله هو التصديق الجازم بوجوده أولاً، وبوحدانيته ثانيًا، وباتصافه بصفات الكمال اللائقة به ثالثًا، وبتقديسه عن سمات الحوادث رابعًا، وهذا التصديق له مراتب ذكر في «القوت» و «الإحياء» أنها ثلاثة وهي في الحقيقة تسعة لأن كل مرتبة من المراتب الثلاث منقسمة إلى ثلاثة، وذكر الغزالي في آخر كتابه: «إلجام العوام» ستة منها وهي أقسام المرتبتين الأوليين، وأما المرتبة الثالثة فذكرها بأقسامها في كتابه «مشكاة الأنوار»، ونحن إن شاء الله تعالى نذكر خلاصة المرتبتين الأوليين مع التوسع في المرتبة الثالثة؛ لأنها المقصودة هنا.

فنقول المرتبة الأولى: مرتبة إيمان العوام، وهو إيمان التقليد المحض.

وفيها ثلاث مراتب لأنه:

١- إما أن يكون مستندًا إلى السماع ممن حسن فيه الاعتقاد بسبب كثرة ثناء الخلق عليه كالعلماء والأولياء.

٢- أو إلى أمارة يظنها العامي دليلاً كالقرائن الشاهدة له.

٣- أو غير مستند إلى شيء أصلاً كأن يسمع القول فيناسب طبعه وأخلاقه فيبادر إلى التصديق به لمجرد موافقته لطبعه.

وهذه أضعف التصديقات لأنه فيما قبله استند إلى دليل ما وإن كان ضعيفا.

المرتبة الثانية: مرتبة إيمان المتكلمين وهو الإيمان الممزوج بنوع من الاستدلال وفيها أيضًا ثلاث مراتب لأنه:

١- إما أن يكون حاصلاً بالبرهان المحرر المستقصي لشروطه بأصوله ومقدماته.

٢- أو بالأدلة الرسمية الكلامية المبنية على أمور مسلمة مصدق بها لاشتهارها بين أكابر العلماء وشناعة إنكارها.

=

=

٣- أو بالأدلة الخطابية التي جرت العادة باستعمالها في المحاورات والمخاطبات الجارية في العادات.

المرتبة الثالثة: مرتبة إيمان العارفين، وهو المشاهد بنور اليقين وفيها أيضًا ثلاث مراتب.

الأولى: مشاهدة أن الوجود كله لله وأنه لا شريك له فيه أصلاً لأن كل ما سواه إذا اعتبرت ذاته فهو من حيث ذاته لا وجود له بل وجوده مستعار من غيره، ولا قوام لوجود المستعار بنفسه بل بغيره ونسبة المستعار إلى المستعير مجاز محض فإذا انكشفت هذه الحقيقة للعبد بنور اليقين علم أن الوجود كله له تعالى لا مزاحم له فيه أصلاً وأن نسبته لغيره مجاز لا حقيقة.

الثانية: ترقى أصلها من حضيض المجاز إلى ارتفاع الحقيقة واستكملوا معراجهم فرأوا بالمشاهدة العيانية أن ليس في الوجود إلا الله وأن كل شيء هالك إلا وجهه أزلا وأبدًا لا يتصور فيه إلا ذلك لا أنه يصير هالكا في وقت من الأوقات لأن كل ما سواه إذا اعتبرت ذاته من حيث ذاته فهو عدم صرف، وإذا اعتبرت من الوجه الذي يسري إليه الوجود من الأول فهو موجود لا من وجهه وذاته، بل من الوجه الذي يلي موجده فيكون الموجود هو وجه الله فقط وحينئذ فلكل شيء وجهان وجه إلى نفسه ووجه إلى ربه فهو باعتبار وجه نفسه عدم، وباعتبار وجه ربه موجود، فإذًا لا موجود إلا الله ووجهه كما قال: ﴿كُلُّ شيء هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] يعني فليس بهالك.

وهؤلاء يفتقروا لقيام القيامة ليسمعوا نداء الباري لمن الملك اليوم لله الواحد القهار، بل هذا النداء لا يفارق سمعهم أبدًا، ولم يفهموا من معنى قوله الله أكبر أنه أكبر من غيره حاش الله إذ ليس في الوجود معه غيره حتى يكون أكبر منه، بل ليس لغيره رتبة المعية، بل رتبة التبعية، بل ليس لغيره وجود إلا من الوجه الذي يليه، فالوجود وجهه فقط، فمحال أن يكون أكبر من وجهه، بل معناه أكبر من أن يقال له أكبر بمعنى الإضافة والمقايسة، وأكبر أن يدرك غيره كنه كبريائه نبيًا كان أو ملكًا بل لا يعرف كنهه إلا هو تعالى.

الثالثة: أهلها بعد ما عرجوا إلى سماء الحقيقة، ولم يروا في الوجود تحقيقا إلا الواحد الحق وأفعاله، لكن منهم من كان له هذا الحال عرفانا علميا، ومنهم من صار له ذلك ذوقًا حاليًا، وانتفت عنهم الكثرة بالكلية استغرقوا في الفردانية المحضة واستلبت فيها عقولهم، فصاروا كالمبهوتين فيها، ولم يبق فيهم متسع لذكر غير الله، ولا لذكر أنفسهم أيضًا ، فلم يكن عندهم إلا الله ، فسكروا سكرا وقع دون سلطان عقولهم، فقال أحدهم: أنا الحق.

وقال الآخر: سبحاني ما أعظم شاني.

وقال الآخر: ما في الجبة إلا الله.

=

=

وكـــلام العشاق في حال السكر يطوى ولا يحكى، فلما خف عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل الـــذي هو ميزان الله في الأرض عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد، بل يشبه الاتحاد مثل قول العاشق في حال فرط عشقه: أنا من أهوى، ومن أهوى أنا.

وهذه الحالة إذا غلبت سميت بالإضافة إلى صاحب الحالة فناء، بل فناء الفناء لأنه فني عن نفسه، وفني عن فنائه، فإنه ليس يشعر بنفسه في تلك الحال، ولا بعدم شعوره بنفسه، ولو شعر بعدم شعوره كان قد شعر بنفسه وتسمى هذه الحالة بالنسبة إلى المستغرق بها بلسان المجاز اتحادًا وبلسان الحقيقة توحيدًا وانظر: «مشكاة الأنوار» لأبي حامد الغزالي، و «شرح الإحياء» للشيخ مرتضى الزبيدي في أول نصفه الثاني وفي مبحث السماع.

وفي «لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام» للقاشاني بعد ما ذكر فيه الاتحاد وأنه يطلق ويراد به عدة معـــاني ما نصه: ومنها أن يراد بالاتحاد جميع الموجودات في الوجود الواحد من غير أن يلزم من ذلـــك ما يظن من انقلاب الحقائق أو حلول شيء في شيء، بل المراد من ذلك أن كل ما سوى الحق سبحانه لا حقيقة له إلا بالحق سبحانه بمعنى أن الوجود الذي صار به كل موجود موجودا إنمـــا هـــو الوجـــود الواجب، وهذا منكر عند أرباب العقول المحجوبة بظلمة الأكوان، فإنهم لا يشاهدون وجهه تعالى في الأشياء لوقوفهم معها، وإلى وحدة الوجود المشترك بين جميع الماهيات المتكـــثرة أشار الأكابر بقولهم الوحدة للوجود والكثرة للعلم أي للمعلومات فإنها هي التي كثرت الوجود الواحد المظهر لها بها انتهى منه بلفظه.

وفيها أيضًا ما نصه: وحدة الوجود، يعني به عدم انقسامه إلى الواجب والممكن وذلك أن الوجود عند هذه الطائفة ليس ما يفهمه أرباب العلوم النظرية من المتكلمين والفلاسفة، فإن أكثرهم يعتقد أن الوجود عرض، بل الوجود الذي ظنوا عرضيته هو ما به تحقق حقيقة كل موجود، وذلك لا يصح أن يكون أمره غير الحق عز شأنه انتهى المراد منه بلفظه أيضًا.

وقـــال السعد في شرح المقاصد بعد أن أبطل الحلول والاتحاد ما نصه: وها هنا مذهبان آخران يوهمان الحلول والاتحاد وليسا منه في شيء.

الأول: السالك إذا انتهى سلوكه إلى الله، وفي الله استغرق في بحر التوحيد والعرفان بحيث تضمحل ذاته في ذاتـــه وصـــفاته في صفاته ويغيب عن كل ما سواه ولا يرى في الوجود إلا الله، وهذا الذي يسمونه الفناء في التوحيد، وإليه يشير الحديث الإلهي:

«فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ».

وحينـــئذ فربما صدرت منه عبارات تشعر بالحلول والاتحاد لقصور العبارة عن بيان تلك الحال، وتعذر

=

أمَّا الوجود الواجبي: فما دلَّ عليه كلمة لا إله إلا الله، وإمَّا الوجود الإمكاني: فما دلَّ عليه كلمة محمد رسول الله، فإذا لم يكن في البين ما يُوهم الشركة؛ لم يحتج إلى التمييز؛ فإن التمييز إنما هو بين الشيئين، فشيء واحد لا يمكن تمييزه لبساطته، انصرف هذا عند المحققين.

وأمَّا عند غيرهم فلابد من النقاط، وتعدد الحروف، إمَّا حقيقة أو ضمنًا، فعالم الإمكان مملوء حروفه من النقاط؛ وهي الحروف الإضافية بخلاف الحروف الحقيقية، ولا يعرفها إلا الكُمَّل الغائصون في بحر الذات الأحدية.

فقولنا: لا إله إلا الله، كما أنه يفيد معنى قولنا: لا معبود بحق إلا الله، فكذا قولنا: محمد رسول الله يفيد معنى قولنا: لا رسول الله إلا محمد؛ فهذا الانحصار أهو حقيقي أم إضافي؟ مفوِّض علمه إلى أهله، فعليك بالتوحيد؛ فإن به يحصل إسقاط الإضافات والقيود.

وأمر بالقول في قوله:(**فليقل: لا إله إلا الله**)؛ لأن الحلف المذكور كان رشحة من رشحات الباطن خرجت من الباطن إلى الظاهر، فكان من حق القول مقابلته بالقول؛ ليدل الإسلام على الإيمان، كما دلَّ عدم الإيمان على عدم الإسلام، فاعرف جدًا، وفيه ترغيب في الحضور مع الله ولو في حال الفسق، فإنه يجر إلى الصلاح إن شاء الله تعالى.

وكان بعض العلماء يشرب الخمر، ويتوب بعد كل قدح، وكان يتعجب من حضوره بعض أهل الله حتى آلى أمره إلى التوبة الحقيقية، والنجاة الكلية، فكان من المقربين.

=

الكشف عنه بالمقال، ونحن على ساحل التمني نغترف من بحر التوحيد بقدر الإمكان، ونعترف بأن طريق غيرنا فيه العيان دون البرهان.

الثاني: إن الواجب هو الوجود المطلق وهو واحد لا كثرة فيه أصلاً وإنما الكثرة في الإضافات والتعينات التي هي بمنـــزلة الخيالات والسراب إذ الكل في الحقيقة واحد يتكرر على الظاهر لا بطريق المخالطة والانضمام ويتكثر في النواظر لا بطريق الانقسام ولا حلول هنا ولا اتحاد لعدم الاثنينية والغيرية انتهى على نقل شارح الإحياء والله أعلم. انتهى.

ومن هذا القبيل كان فضيل بن عياض؛ فإنه كان كلما قطع الطريق في أوائل حاله، يقيد مقدار المال في دفتر، واسم صاحبه وبلده حتى وفقه الله للتوبة، وخرج عن عهدة الحقوق كلها، فانظر إلى الربِّ الكريم بماذا يعامل العبد من القرب، وهو في بعده بُعد؟ ومنه الرشاد لجميع العباد.

واعلم أن مرتبة الأُلوهية المفهومة من لا إله إلا الله، ومرتبة العبودية الملحوظة من محمد رسول الله مرتبة واحدة في الحقيقة، وإنما تميَّزت إحداهما عن الأخرى بالتعينات والتنــــزلات.

ألا ترى أن هاء الجلالة هاء هوية غيبية بالنسبة إلى الله تعالى، فإذا مدَّ طرفه ظهر شكل الميم المحمَّدي الذي هو شكل مرتبة الشهادة؛ ولذا قارن الهاء الجلالي بالميم الجمالي، إشارة إلى الارتباط بينهما، وأنهما لا تمايز بينهما إلا المدّ المذكور وهو البسط الشهادي.

فمرتبة المحمَّدية: مرتبة الرسالة الشهادية.

ومرتبة الأحمدية: مرتبة النبوية الغيبية الإضافية، وفوقها مرتبة الأحدية الإطلاقية بطي الميم الإمكاني من البين، فمحمد أحمد، وأحمد أحد، فقد تنــزَّل الأحد إلى مرتبة العقل الأول، فكان أحمد، وإلى مرتبة الشهادة، فكان محمدًا.

فإذًا لا طريق إلى الله تعالى إلا محمدًا ﷺ بجميع تعيناته، وهو العلم في صورة العين، والجمع في صورة الفرق والغيب، والغيب في صورة الشهادة، ومنها يعلم أن كونه ﷺ طريقًا إلى الله تعالى إنما هو بالنسبة إلى المحجوب عن الجمع في الفرق، وأمَّا المكاشف الواجد فهو في عين الحقيقة.

ألا ترى أن داخل الحرم الإلهي لا يحتاج إلا آلة يعرف بها القبلة؛ لحضور القبلة عنده، فمعنى أن الطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق أن كل نفس من أنفاس السالك طريق موصل إلى الله.

وأمَّا الواصل فكل نفس منه؛ إنما هو الله فهو في كل نفس في عين الهُويَّة ولمَّا كان مقام الإطلاق الأحدي الذاتي الذي تفرَّد به السابقون لا ينال إليه أصحاب التقييد إلا بإثبات طرق شتى من الأسماء الإلهية الجزئية، تشعبت الطرق الحقة السالكة بالأسماء الاثنى عشر، وذلك لم يكن في الصدر الأول بحسب المعنى.

ثم لَمَّا كثر القاصرون عن إدراك الحقائق، وتأخَّروا عن الرياضات والمجاهدات التي عليها الصحابة والتابعون؛ توسلوا إلى البواطن، والحقائق بالأسماء، والظواهر؛ فكان الطريق الجلوتي بالجيم خاتمة الطرق على سرّ ﷺ:

«**نحن الآخرون السابقون**»(١)؛ فكان حال أهلها حال الصدر الأول في الاتِّباع النبوي في الرياضة، والمجاهدة من غير شغل كثير بالأسماء؛ لأن هذا الشغل يطوِّل الطريق إلى الله، ويبعد المطلوب، فيحتاج الطالب إلى أزمنه متطاولة إلى أن يخرج عن دوائر الأكوان؛ لأن الأسماء الإلهية ناظرة إلى الحقائق الكونية، ولا نهاية لفروع هذه الحقائق، وربما لا يجد إلى مَن يشير إليه بالترقِّي في المراتب الأسمائية، فيبقى في البرزخ واقفًا لا إلى وراء ولا إلى قُدَّام؛ بل ربما يستحلي مقامًا من المقامات الأسمائية، فيظن أنه لا غاية وراءه؛ فينقطع عليه الطريق.

ومن ثم قالوا: إن الآلام في هذه الطريقة أولى من اللذات، ومَن تقيَّد باللَّذَّة قبل الوصول إلى المطلوب؛ وقع في الألم في آخر الأمر، فليكن أول فتوحاتك كشف سر الحياة السارية في جميع العوالم، ثم الوصول، ثم الوصال في مرتبة أو أدنى الأحدية مع جميع مرتبة قاب قوسين الواحدية، وقد رأينا من معاصرينا مَن يدَّعي الأسرار في مراتبها، وقد استمر من أول عمره إلى آخره على حالة واحدة إلى أن مات على تلك الحال، والحكمة الإلهية لا تُقتضى في أربعين سنة إلا الاستكمال من جميع الوجوه.

إن كان السالك مستعدًا؛ فيرجع بعد تلك المدة التي هي النهاية إلى البداية، وإلا فلم يصلح حال العمر الكثير، إذ مَن لم يهدِ الله ما له من هاد، وربما يقع الفتنة بين الخلوتية بالخاء المعجمة، وبين الجلوتية بالجيم من عدم تسليم أحديهما الأخرى، وأمَّا نحن فنقول: إن الجلوة بالجيم لا تحصل إلا بعد الخلوة؛ فهي نهاية الخلوة.

فمَن وصل من الخلوتية بالخاء المعجمة إلى نهاية المراتب؛ فهو خلوتي بالاسم، جلوتي بالمعنى، ومَن لم يصل من الجلوتي بالجيم إلى غاية الغايات؛ فهو جلوتي بالاسم، خلوتي بالمعنى؛ إذ لم يظهر بعد بالأوصاف الإلهية في مرتبة البقاء فكيف يكون

(١) رواه البخاري (١/٩٤)، ومسلم (٢/٥٨٦).

جلوتيًا؟ فله شرف الاسم المجرد فقط، فليلازم الباب إلى أن يفتح الله عليه ما أراد. ويكون جامعًا بين الخلوة والجلوة، حافظًا لحقوق الأسماء الليلية، والتوحيد النهاري؛ فذلك تجلٍّ واستتار؛ بل تجلٍّ في عين الاستتار أبدًا.

١٨- في صحيح البخاري: «مَن رآني؛ فقد رأى الحق»[(١)]:

معناه الظاهري: مَن رآني في المنام؛ فقد رأى الرؤيا الحقة الصادقة[(٢)].

---

(١) رواه البخاري (٦/٢٥٦٨)، مسلم (٤/١٧٧٥).

(٢) أي: رأى الله على قول بعض أهل الإشارات حيث جعل رؤية العبد له ﷺ يقظة أو مناماً رؤية للحق سبحانه.

ولما كان قيامه بحق التجليين تجلي الذات وتجلي الصفات، وتوفيته بأدائهما عبَّر عن ذلك في الصلاة البكرية بقوله: (عبدك من حيث أنت كما هو عبدك من حيث أسماؤك وصفاتك) .

وقوله: بالحق: أي بذاته لا بشيءٍ دونها، بتجليه لَه كان عن الذات العلية لا عن غيرها. ذكره في الجواهر والرماح.

وما أخرجه الترمذي وقال حسن غريب عن جابر قال: دعا رسول الله ﷺ علياً يوم الطائف فانتجاه فقال الناس: لقد طال نجواه مع ابن عمه فقال رسول الله ﷺ : **«ما انتجيته ولكن الله انتجاه»**. حيث جعل انتجاءه ﷺ لعلي انتجاء منه تعالى له.

ولهذا نظائر في الكتاب والسنة ينــزل الحق تعالى فيها عبده حالة قيام بعض الأوصاف والحالات به منــزلة نفسه ويضيف أوصافه وحالاته إليه حتى كأنها حالة به وهو المنــزه عن اتحاده بغيره أو حلوله به أو قيام أوصاف خلقه به تعالى عن ذلك علوا كبيراً وإنما ذلك كله إشارة إلى مظهريته تعالى عن ذلك وتجليه في خلقه فيصير العبد مرآة لظهور ذاته تعالى وصفاته من غير اتحاد به ولا حلول فيه ولا تشبيه ولا تكييف ولا تغير لذاته العلية عما هي عليه من التنــزيه بل على حسب ما يليق به ويعلمه هو سبحانه، ومعلوم أن أكمل مظاهره تعالى وأعلاها على الإطلاق مظهريته ﷺ فهو المظهر الأتم والمجلى الأعظم ﷺ فلذا كان في مجاز القول هو هو وكانت ذاته من ذات الله وأوصافه من أوصافه وبيعته بيعة الله وطاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله وحكمه حكم الله وأمره كله أمر الله ومن انتجاه فقد انتجاه الله فأي تمليك أعلى من هذا وأي تحكيم أرفع منه وأي استخلاف يصل إليه، وقد عد في تحفة الأخيار من أسمائه ﷺ «المبايع» أخذا من هذه الآية ثم قال في تفسيره ما نصه: وأما المبايع فلقوله تعالى:

=

وقد جاء في بعض الأحاديث: «فإن الشيطان لا يتمثّل بي»(١)؛ وذلك لأن الشيطان مظهر الاسم المضل بالفعل، وهو ﷺ مظهر الاسم الهادي بالفعل، فلا يظهر أحدهما في صورة الآخرة صونًا للحقائق، وضبطًا للمراتب.

وأمَّا الله سبحانه وتعالى فهو وإن لم يكن له مثل، كما دلَّ عليه قوله تعالى:

=

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح:١٠] وقد أخذ الله تعالى العهد والميثاق على جميع النبيين لئن جاءهم ليؤمنن به ويتبعوه وينصروه، وأخذوا العهد بذلك على أممهم فقد بايعه الناس أجمعون من السابقين واللاحقين قال: و لم أر من ذكر هذا في الأسماء.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيرى في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح:١٠] أي عقدك عليهم هو عقد الله يعني المبايعة مفاعلة من البيع لأن ﴿اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١] ثم قال: وفي هذه الآية تصريح بعين الجمع كما قال ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧].

قال شيخ شيوخنا أبو محمد عبد الرحمن أي ابن محمد الفاسي يعني وكما في حديث: فإذا أحببته كنت سمعه ويديه وسائر قواه الذي هو سر الخلافة والبقاء بالله. والله أعلم. وقال الإمام الورتجيى في الآية المذكورة صرح تعالى بأنه ﷺ مرآة ظهور ذاته وصفاته كما أشرنا يعني في قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾ [الأحزاب:٤٥] وهو مقام الاتصاف والاتحاد بأنوار الذات والصفات في نور الفعل فصار هو هو إذ غاب الفعل في الصفة وغابت الصفة في الذات وإلى ذلك يشير الحلاج وغيره.

وقال الشيخ أبو طالب المكي في كتابه القوت هذه أن آية في كتاب الله عز وجل، وأبلغ فضيلة فيه لرسول الله ﷺ لأنه جعله في اللفظ بدلا عنه وفي الحكم مقامه، و لم يدخل بينه وبينه كاف التشبيه فيقول كأنما ولا لام الملك فيقول لله، وليس هذا المقام من الربوبية لخلاف رسول الله ﷺ ، انتهى كلام صاحب تحفة الأخيار بلفظه.

وفي الإلمام والإعلام بنقله من بحور علم ما تضمنته صلاة القطب مولانا عبد السلام للشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن زكرى الفاسي ما نصه: قال الورتجيى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ [الفتح:١٠] جعل نبيه مرآة لظهور ذاته وصفاته وقال في قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الفتح :٩] أي ليشاهدوا بأسرارهم الله ويدركوك في محل الجلال والجمال ويعرفوا قدرك في قدرى وقدرى في قدرك حيث صرت مرآتى أتجلى منك لهم لذلك قال عليه الصلاة والسلام من رآني فقد رأى الحق انتهى.

(١) رواه مسلم (١٧٧٥/٤)، والترمذي (٥٣٥/٤).

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وذلك في مرتبة ذاته الأحدية؛ لكن له مظاهر من حيث أسمائه المختلفة، وصفاته المتفاوتة، ومن ذلك الاسم المضل الذي ظهر الشيطان بحقيقته فدلَّ على أن الشيطان ظهر في صورة الحق من حيث اسمه المضلّ، كما أن النبي ﷺ ظهر في صورة الحق من حيث اسمه الهادي[١].

فلله تعالى أن يتجلّى بكل صورة من الصور الأسمائية من غير مزاحمة؛ لأن له الإحاطة التامة بالكل بالفعل.

وأمَّا الشيطان: فله الإحاطة بجزئيات الاسم المضلّ، بالفعل وبالاسم الهادي وجزئياته بالقوة.

وأمَّا النبي ﷺ: فله الإحاطة بجزئيات الاسم الهادي بالفعل، وبجزئيات الاسم المضل بالقوة؛ لأن له الاسم الجامع؛ لكن فرق بين القوة والفعل.

ولذا يُقال: إن النفس لأمَّارة بالسوء: أي بالفعل في المظاهر الجلالية، وبالقوة

---

(١) الهادي: هو الذي يوصل من يشاء من عباده إلى معرفة ذاته وصفاته، ويدل من يشاء منهم إلى حسن معاده، وإلى ما لا بد منه في قضاء حاجاته، والهداية الصادرة في الظاهر من الأنبياء وورثتهم الأولياء صادرة في الحقيقة منه سبحانه تعالى على ألسنتهم بوحيه وإلهامه إليهم؛ لكونهم مسخَّرين تحت قدره وتدبيره غير مستقلين في الإرشاد وتأثيره.

ألا ترى أنه إذا كان خطاب لا تهدي من أحببت مع المحبوب، فكيف حال غيره في الإيصال إلى المطلوب؟ فإن شئت تحقيق معنى الهداية وتدقيقه على النهج الغريب والأسلوب العجيب، فارجع إلى ما حققناه في شرح الحاشية الزاهدية على جلالية التهذيب، وها هنا في هذا القدر كفاية، وحظ العبد منه أن يهدي العباد إلى طريق الرشاد بقدر استطاعته ومقدار استعدادهم في الاسترشاد.

الخواص: هذا الاسم جمالي، فمن أكثر من ذكره كان موفقًا في أعماله، وأقواله، وأفعاله الظاهرة والباطنة، وتزايد نور قلبه وهداه الله تعالى إلى سرائره ومعرفته، ومن دخل في بيت مظلم، وقال: (يا هادي اهدني) إلى أن يغلب عليه منه حال، فإنه يرشد إلى مطلوبه، وإذا أكثر من ذكر مالك أطاعته البلاد، وانقادت إليه أمور العباد، ومن وضعه في خاتم فضة والقمر في شرفه، وتمتم به وفقًا للأعمال الصالحة، ومن اشتبه عليه أمر من الأمور، ولا يعرف خيره من شره، فليتوضأ وليصل ركعتين في كل منهما بعد الفاتحة آية الكرسي والإخلاص، وذكر هذا إلى أن ينقطع النفس أو عشرة آلاف مرة فيهتدي إلى ما هو الخير في دينه ودنياه، وفيه معنى بديع لمن أراد أن يرتقي بروحه إلى عالم البقاء من السالكين.

في المظاهر الجمالية، وإلا لما كانت الحقيقة الإنسانية أجمع الحقائق الكونية والإلهية، وكما أن الشيطان لا يتمثّل بصورة النبي ﷺ وأن مَن رآه بهيئته الأصلية، فقد رآه في الصورة الخيالية المتصلة بصورته الحقيقية، فافهم جدًّا.

فكذا لا يتمثّل في صور المظاهر الجمالية من أكامل الإنسان؛ لأنهم خلفاؤه ﷺ ونوابه، والخليفة لا يظهر إلا في صورة المستخلف، فمَن رأى واحدًا منهم بحليته الذاتية؛ فقد رآه تحقيقًا، وإن كان لا يدري المرء أنه ظهر للرائي؛ وذلك لأن ظهوره للرائي إنما هو بالواسطة: أي بالصورة الخيالية التي تحكم على الرائي في المنام أو الانسلاخ؛ لأنها هي الصورة البرزخية، وقلَّ مَن تفطّن لهذا المقام من العارفين.

وأمَّا المعنى الحقيقي للحديث فهو: إن مَن رآه ﷺ في المنام، أو في اليقظة؛ فقد رأى الحق سبحانه وتعالى؛ لأن الله تعالى خلق آدم على صورته؛ وهو ﷺ أكمل أفراد آدم، فقد خلقه على صورته الحقيقية الأسمائية والصفاتية، فمَن رآه، وهو مظهر تام الحقائق جميع الأسماء والصفات؛ فقد رأى الحقيقة الإلهية متجلية بجميع الحقائق.

وكذا مَن رأى خليفة من خلفائه ونوابه؛ فقد رآه؛ لأنه صورة من صورة الكلية؛ وبوساطة رؤيته رأى الله تعالى، فالله تعالى مرئي أبدًا في الصورة المحمَّدية الكلية الصورة الإنسانية؛ ولكن المحجوبين لا يرونه في عين رؤيتهم؛ لاحتجابهم بأنفسهم عنه، ولو كُوشفوا عن حقائقهم لرأوا أن حقائقهم عين الحقيقة المحمَّدية، ولو من وجه الجزئية، كما أن الحقيقة المحمَّدية عين الحقيقة الإلهية من وجه الكلية؛ لأن لم يكن في الإمكان أبدع مما كان، فالله تعالى ظاهر لأُولي الأبصار، باطن عن أعين الأغيار، وليس في البين إلا حجاب الغفلة.

١٩- **في حديث مسلم: «من سأل الناس أموالهم تكثُّرًا؛ فإنما هي جمر؛ فليستقل منه، أو ليستكثر»**(١):

اعلم أن سؤال الأموال عن الناس على أنحاء شتى كل منها حرام إذا كان على وجه التكثير لا للاحتياج في الحقيقة؛ لأن فيها إذلالاً للنفس، ورفعًا لجلباب الحياء،

---

(١) رواه مسلم (٢/٧٢٠)، وأحمد في المسند (٢/٣٢١).

وشكاية من الله ذي النوال، وإظهار للحرص والطمع، وتحريضًا للناس على المنكر الذي هو السؤال بلا ضرورة، وحملاً للمعطي على الحرام؛ فإنه إذا كان بطريق الصدقة لا بطريق الهبة؛ كان إعانة على المعصية، فمن تلك الأنحاء والوجوه السؤال؛ كسؤال السائلين.

ومنها: التعريض لا التصريح؛ فإنه أيضًا حرام، ومن ذلك التفقر عند الأكابر والأغنياء؛ فإنه في حكم السؤال.

ومنها: دور الأبواب، والمُدّروِزون ملعونون، كما يفعله كثير من الناس خصوصًا منهم مَن يدَّعي العلم أو الطريقة؛ فيدخل أبواب الأكابر، ورجال الدولة؛ وهو على هيئته جلبًا لأموالهم؛ بل ربما يسأل عنهم ولو بطريق المزاح.

ومنها: الإقدام على فعل في محضر الناس، ووجوه القوم لا يفعله في الخلوات؛ كالتواجد ليظن الخلق أنه من أرباب الأحوال، فيحسنوا الظن به ويعطوه الأموال.

ومنها: الرياء بصفرة الوجه والصوم ونحو ذلك، يسأل الزكاة والصدقات بسبب اعتقاد الناس كونه من الصلحاء، أو كونه من الفقراء، وعلى هذا فقس سائر الوجوه المستشعة، وإلحقها به، وتجنب عن أصحاها، واعتصم بالله، وتوكَّل على الله، واجتهد حتى لا يراك الله حيث نهاك.

ولقد كثر في زماننا هذا وجوه المنكرات بحيث لا تعد ولا تحصى، وربما تلاقي شخصًا ذا هيئة رفيعة وهو يفتخر بالانتساب إلى فلان وفلان، ويدَّعي محبته إليه، وهو غافل عن الله تعالى، وعن قوله: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [يونس:٥٨]: أي ما يجمعه الكفار، ومَن في حكمهم من الغافلين، فإن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، وإن رزق آل محمد إنما كان كفافًا، وإن الفقر أرجح عند الله من الغنى؛ ولذا لم يكن السلف إلا على التعفف والورع والقناعة والتوكل ونحو ذلك.

وقالوا للدنيا: حبلك على غاربك.

فكانوا أغنياء؛ بل ملوكًا تحت الأطمار؛ ولأن الغنى إنما هو بال،له فعليك به قبل يوم فقرك.

هذا إذا كان السؤال متعلّقًا بالأموال.

وأمَّا إذا كان متعلقًا بالعلوم والأحوال؛ فليستكثر منه.

قد ورد في الخبر: «**فإن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها**»(١).

وقيل: «**خذوا العلم من أفواه الرجال**»(٢).

وفي حديث: «**واطلبوا العلم من المهد إلى اللحد**»(٣).

فالحرص في هذا ليس كالحرص في طلب الأموال؛ لأن الأموال تبقى في هذا الموطن، وأمَّا العلوم النافعة، والأجوال الشريفة فتذهب معه، فهي خير وأبقى، وقلَّما يطلبها أهالي الزمان؛ بل جل قصودهم الخروج إلى السكك، والأسواق؛ لاختلاط الفسَّاق، وجلب أعراض الدنيا على الإطلاق، ففيه إسراف العمر الذي الخسارة فيه ليست كالخسارة في غيره، والنفس كالبضاعة تقلبها في الأوقات للطاعات لا للأوقات، فإنها لا تشبع إلا بالتراب، وقالﷺ: **﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾** [الشعراء:٢٢٧].

٢٠- في حديث مسلم: «مَن سأل عرَّافًا؛ لم يقبل له صلاة أربعين ليلة»(٤):

هذا محمولٌ إمَّا على التغليظ والتخويف، وإمَّا على الإخبار عن دعم القبول في نفس الأمر؛ فتضرب على وجه المصلّي كما تضرب سائر الصلوات الغير المقرنة بشروطها المشروعة، والعدد للتكثير فإن استمر على اعتقاده الباطل؛ لم نقبل له صلاة أبدًا؛ لأن الله تعالى غني عن العالمين، وعن العالمين بغير الوجه المشروع، فإذا لم تقبل؛ لزم الإنابة، والرجوع، وقضاء الصلوات التي أُديت على تلك الحال.

واعلم أن أحدًا، وإن كان أعرف في المعرفة، وأعرف من كل عارف، فقد ورد: «**وفوق كل ذي علم عليم**»(٥)؛ فالعليم والعلام المطلق؛ هو الله تعالى، فإن

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) حديث لا أصل له سندًا.

(٤) رواه أحمد (٤/٦٨).

(٥) رواه مسلم (١/٦)، والبيهقي في الشعب (٢/٢٦١).

علمه من ذاته لا من خارج، وبسببٍ جلي أو خفي؛ كما هو علم الناس.

فالناس لا يُعرفون إلا بتعريف الله تعالى؛ فينحصر علومهم في مرتبة التعريف، فادِّعاء علم الغيب إن كان من مرتبة التعريف الالهي؛ لم يضره، وإن كان ادِّعاه مطلقًا كان كافرًا؛ لأنه ادِّعاء المشاركة مع الله تعالى في صفته الخاصة به، فإذا كان هذا حاله في الكفر؛ كان حال مَن اعتقده كذلك، ومن هذا التقرير عُلم أن الإنسان محل التعريف الإلهي؛ ولذا مَن قال: إن نبي الله لا يعلم الغيب؛ فقد أخطأ فيما أصاب؛ لأن الله تعالى قال: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا*إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ**﴾ [الجن:٢٦، ٢٧] [(١)].

---

(١) قال ابن ناصر الكيلاني ﷺ: فعلم المحقّقون من خاصته، والمعتني بهم من أهل قربه وكرامته بما كشف لهم، وأطلعهم عليه من أسرار وجوده أولاً، وبما أخبر ثانيًا: أنَّ المراتب وإن كثرت فإنَّها ترجع إلى هاتين المرتبتين؛ وهما الغيب والشهادة والحقيقة جامعة بينهما، فكل شيء له ظاهر، فهو صورته وشهادته وباطن، وهو روحه وغيبه.

فنسبته جميع الصور على اختلاف أنواعها الخفيَّة والجليَّة إلى الاسم الظاهر المنعوت بالشهادة، ونسبة جميع المعاني والحقائق المجرَّدة؛ التي هي أصول لما ظهر من الصور الجزئيَّة المتعيِّنة، أو أسباب وشروط كيف شئت؟ قلت: إلى الغيب والاسم الباطن، فإذا عرفت هذا. فاعلم أنَّ العالم عالَمان ما ثم ثالث عالَمٌ يدركه الحس وهو: المعبَّر عنه بالشهادة، وعالَمٌ لا يدركه الحس وهو: المعبَّر عنه بعالم الغيب المطلق.

فإن كان مغيَّبًا في وقتٍ للحسِّ فلا يسمَّى ذلك غيبًا، وإنَّما الغيب ما لا يمكن أن يدركه الحس أصلاً؛ لكن يُعقل بالعقل؛ إمَّا بالدليل القاطع، وإمَّا بالخبر الصادق وهو إدراك الإيمان، فالشهادة مدركها الحس وهو طريق العلم ما هو عين العلم، وذلك يختص بكل ما سوى الله ممن له إدراكٌ حسّي، والغيب مُدرك العلم عينه فافهم.

فهذا الغيب الذي أثبتناه: هو الغيب المطلق الحقيقي الذي لا يظهر لأحد أصلاً ولا لمن ارتضى من رسولٍ؛ لأنه حضرة ذاته وهويته تعالَت وتقدَّست عن أن يحاط وأن يتعلّق بها بِها الإدراك أصلاً من حيث هي هي، فإنه من المتفق عليه أن حقيقته لا تُحاط بالعلم ولا تتقيَّد بالوصف، سبحانك! ما عرفناك حق معرفتك.

وهذا القدْرُ من المعرفة المتعلقة بهذا الغيب المطلق؛ إنما هي معرفة إجماليَّة حاصلة بالكشف الأجليِّ والتعريف الإلهيِّ الأعلى الذي لا واسطة فيه غير نفس التجلّي المتعيِّن من هذه الحضرة الغيبيَّة =

=

المطلقة الغير متعينة؛ فالغيب المتعلّق صار دليلاً على الغيب المطلق؛ لأنه الأصل، فالمتعين منه دليل عليه من حيث غير متعين، فكان هو الدليل والمدلول.

قال تعالى إشارةً إلى هذا المقام: أي الغيب المتعين المقيَّد عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا.

قال تعالى: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ [الجن:٢٦،٢٧].

وإنما قلنا بالغيب الحقيقي المطلق؛ لأنه ﷺ ذكره في الباب السابع والأربعين وأربعمائة من «**الفتوحات**»: إن له في نفسه ما لا يصح أن يُعلم أصلاً هو الذي له بنفسه المشار إليه بقوله: ﴿اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

فقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الحشر:٢٢] أراد الغيب بالنسبة إلينا وإلا لا غيب له، والذي هو غيبٌ بالنسبة إلينا يكون علم الشهادة له تعالى، أو نقول: إنه عالِم الغيب أو عالِم بأنه غيبٌ لا يصح أن يُعلم أصلاً.

قال ﷺ: وهذا الذي نبَّهناك عليه من العلم بالله ما أظهرناه اختبارًا؛ ولكن حُكم الخبر علينا، فتحفَّظ ولا تغفل عنه فإنه يعلّمك الأدب مع الله، انتهى كلامه ﷺ.

هذا هو الغيب الحقيقي وبقية الغيوب كلها إضافي، فافهم.

فإن الإنسان إذا أراد إدراك الغيب والشهادة الإضافيين اللذين نحن بصدد بيانهما، وأراد أن يتميَّز في عِلْمَيهِمَا، فينبغي ألا يقيِّد نفسه إلا بالله وحده؛ وهو التقييد الذاتي الذي لا يصح له الإنفكاك عنه جملةً واحدةً؛ وهي عبوديَّة صرفة محضة لا تقبل الحريَّة أبدًا.

فإذا قيَّده بالله الذي ﴿خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس:١٩،٢٠] فلا يقف إلا في البرزخ وهو المقام المتوهَّم بين عالم الشهادة والغيب مطّلعًا على الطرفين؛ كأصحاب الأعراف فلا يخرج منها شيء إلا وهو مطّلع عليه، فإذا وقف في هذا المقام وهو محل العثور على الطرفين، استشرف على الغيبين؛ الغيب الذي يوجد منه، واستشرف على عالم الشهادة؛ لأنه إذا وقف في المقام المتوهَّم على أنه معتنى به؛ حيث شغله الله تعالى بمطالعة الانفعالات عنه تعالى، وإيجاد الأعيان من قدرته تعالى، واتِّصافها بالوجود في حضرة إمكانها، وما أخرجها منها، ولا حال بينها وبين موطنها، ولكنه كساها خِلقةَ الوجود وحلّة الظهور، فاتَّصفت بهما بعد أن كانت موصوفة بالعدم مع ثبوت العين في الحالتين، وبقي الكلام في ذلك الوجود الذي كساه الحقُّ فيك الآمر؛ وهو كالصورة التي في المرآة ما هي عين الرائي ولا غير عينه، ولكنه المحلُّ المرئي مع الرائي، والمواجهة أعطت هذا الحكم الذي تراه، فعلمْتَ المرآة والرائي والصورة الحادثة بينهما، فأدركْتَ بالغيب الباطن

=

=

وبالشهادة الظاهر، وحصل المقصود.

وهنا مبحثٌ آخرٌ؛ وهو من لطائف الغلم بالله، فأذكره لك:

لا يفوتك علمًا فإنه ورد في الخبر: «**إن أفضل الهديَّة وأكمل العطيَّة الكلمة من كلام الحكمة يسمعها العبد ثم يعلمها أخاه خير له من عبادة سنة على نيَّتها**» رواه تمام، وابن عساكر ﷺ، ذكره في جمع الجوامع.

فاعلم أيَّدك الله وإيَّانا بروحٍ منه أن العالم ينقسم إلى: ظاهرٍ وإلى باطنٍ.

فـــ (**الظاهر**) هو عالم الشهادة، و(**الباطن**) هو عالم الغيب، وقد سُمَّى الله تعالى الباطن بالأمر والظاهر بالخلق، وقال: ﴿ **أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾ [الأعراف:٥٤].

وقال تعالى: ﴿**قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾ [الإسراء: ٨٥].

فـــ(**عالم الأمر**) هو عالم الغيب الذي هو الأسماء الذاتيَّة، ويليها أمهات أسماء الألوهيَّة وتوابعها، وكل واحدٍ منها حجابٌ عن الآخر، وصف نفسه تعالى باعتبار هاتين العالمين: أي الظاهر والباطن، أو الغيبِ والشهادة بأن له الْحُجُب النوريَّة التي هي الأرواح، والظلمانيَّة التي هي الأجسام، فكل واحدٌ منهما حجابٌ عن الآخر، فإذا اعتبرهما خلقًا وأمرًا، ولطيفًا وكثيفًا؛ إنما اعتبرهما من حيث الأسماء، وهي سلسلةُ الترتيب والوسائط المتكثِّرة.

فبهذا الوجه يكثر الوجود؛ وهو ظاهر الخلافة التي منه تكثر، وأمَّا إذا اعتبرهما؛ أي العالمين الخلق الأمر، وإن شئت قلت: عالم الغيب والشهادة حقًّا؛ أعني من الوجه الخاص زالت الكثرة وارتفعت الوسائط، وذلك باعتبار أن (الاسم) عين المسمَّى، و(الذات) هي السارية في الكل؛ كتعيُّن الأسماء من حيث عدم التَّغايُر، فاتَّحدّ الكل من حيث أن الساري في الكل هو الذات، فهذا باطنُ الخلافة، والتجلِّي منه تجلٍّ أقدس.

وعلى هذا صحَّ أن القرآن غير مخلوق من حيث ارتفاع الوسائط، ومن حيث الإضافة إلى الاسم الذي عين المسمَّى، فصحَّ له الوحدة مع تكثُّر الألفاظ والحروف والآيات والسور، وبذلك تكثر في وحدته ولم يوصف بالمخلوقيَّة مع التكثُّر؛ لأنه ظهور الذات في المراتب بلا كيف.

فالعالمان؛ الغيب والشهادة أو الخلق والأمر إذا أُضيفا إلى الذات بلا واسطة بطريق الوجه الخاص فهما واحد، وإذا أُضيفا إلى الأسماء؛ فالشهادة: الخلق، والغيب: الأمر، فبهذا الاعتبار قلنا: إن الإنسان الكامل له الأخذ من الله تعالى بواسطة؛ باعتبار الإضافة إلى الاسم، وبلا واسطة؛ باعتبار الأخذ من الوجه الخاص، وإنما قلنا: الوجه الخاص؛ لأنه مخصوصٌ بالإنسان الكامل من دون الموجودات؛ كالملك وغيره، فإن له الإطلاق في الأخذ وغيره لكل منهم مقامٌ معلومٌ لا يتعدُّون مقاماتهم؛ وذلك

=

فإذا سألت فسأل نبينا ذا وحي الإلهي، أو وليًا ذا كشف صحيح؛ فإنه رحماني دون الذي يقال له: عرَّاف؛ فإنه إمَّا نفساني، أو شيطاني، والنفس والشيطان كل منهما غافل عن الله تعالى، وقد ورد في الخبر: «**فإن مَن لا يعرف نفسه؛ لا يعرف ربه**»(١)، فكيف يعرف عنه؟.

٢١- في الأحاديث: «يا علي أنت مني بمنـــزلة هارون من موسى»(٢).

=

لأن الإنسان الكامل كل الوجود، فافهم.

(**لندرك الباطن بغيبنا، والظاهر بشهادتنا**) فلمَّا أراد تعالى ظهورنا بالصورة: أي بصورة الحق ولها الغيب والشهادة، فأوجدنا ذا غيبٍ وشهادةٍ؛ ذا جسمٍ وروحٍ؛ فعالم الجسوم شهادتنا، وعالم الأرواح غيبنا؛ فالكون كله جسمٌ وروحٌ وبهما قامت نشأة الوجود، فالعالم للحق؛ كالجسم للروح فلا يُعرف الحق إلا من العالم كما لا تُعرف الروح إلا من الجسم.

فإنًا لما نظرنا فيه، ورأينا صورته مع بقائها؛ تزول عنها أحكامٌ كنًّا نشاهدها من الجسم وصورته من إدراك المحسوسات والمعاني، فعلمنا أن وراء هذا الظاهر معنى آخر هو الذي أعطى أحكام الإدراكات معرفتنا غيبنا بشهادتنا، وسمَّيناه روحًا لهذا الجسم الظاهر، وكذلك ما علمنا أن لنا أمرًا يحرِّك أرواحنا كما كانت الأرواح تحرِّك أجسامنا؛ وهو روح الأرواح يحكم فيها بما يشاء حتى نظرنا في أنفسنا، وعرفنا منها وبها ربَّنا.

وبهذا أخبر الوحي النبوي: «**مَنْ عَرَف نفسه فقد عَرَف ربَّه**».

وقال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [فصلت:٥٣].

حتى عرفنا الغيب بالغيب، والشهادة بالشهادة، فمَن جمع هذين العِلْمين فظهر بالصورتين، وعَلِمَ علم الغيب والشهادة قال تعالى: ﴿**وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الحديد:٣].

قال تعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا*إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا**﴾ [الجـــن:٢٦،٢٧].

لتعلم أنه تعالى بالحكم الذي صحَّت به الربوبيَّة الموجبة للمكاسبة؛ الرابطة بينه وبين خلقه أثر في العالم من الأحوال، فيتَّصف تعالى عند ذلك بالرضا والسخط.

(١) ليس بحديث، و لم أقف له على أصل.

(٢) رواه البخاري (١٣٥٩/٣)، ومسلم (١٨٧٠/٤).

وقوله ﷺ: **«يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة»**[(١)].

٢٢- وقوله ﷺ: **«يا علي هي-** أي فاطمة **- أحبُّ إلي منك، وأنت أعزُّ علي منها»**[(٢)]:

كل من هذه الأحاديث الصحيحة يدلُّ على فضل علي كرم الله وجهه[(٣)].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٧/٣٤٣)، وذكره الهيثمي في الزوائد (٩/١٧٣).

(٣) وهو سيدنا ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ﷺ وكرَّم وجهه، يُكنَّى أبا الحسن، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، وهي أول هاشمية وُلدت هاشمية، وهو أوَّل ذَكر أسلم.

قال ابن إسحاق: أول من آمن بالله ورسوله من الذكور عليُّ بن أبي طالب، وهو قول ابن شهاب والزهري.

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: استنبِئ النبي يوم الاثنين وصلَّى عليٌّ يوم الثلاثاء، أسلم ﷺ وهو ابن ثمان سنين، أو عشر سنين، أو ثلاث عشرة سنة قال ﷺ:

سَبَقْتكمُوا إلى الإسلامِ طُرًّا غُلامًا مَا بلغتُ أوانَ حُلُمي

وهو أحد العلماء الربَّانيين، والشجعان المشهورين، والزهَّاد المعروفين، وأحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة، شهد بدرًا، وأحدًا، والخندق، والحديبية، وسائر مشاهد رسول الله ﷺ ما خلا تبوك؛ فإن رسول الله ﷺ خلَّفه على المدينة، وقال: **«أنت منِّي يا عليُّ بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي»**.

«وكانت بيعته في أول العشر من ذي الحجة، سنة خمس وثلاثين من الهجرة، واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار، وتخلَّف عن بيعته نفرٌ منهم فلم يهجهم، وسُئِل عنهم؟ فقال: أولئك قومٌ قعدوا عن الحق و لم يقوموا مع الباطل».

و لم يحجّ ﷺ في شيءٍ من خلافته لاشتغاله بالحرب، وكانت وفاته في شهر رمضان من سنة أربعين من الهجرة، ضربه ابن ملجم لعنه الله ليلة الجمعة، السابع عشر من شهر رمضان، وقُبض في أول ليلة من العشر الأواخر.

واختلفوا في سنِّه يوم وفاته فقيل: سبع وخمسون، وقيل: ثمان وخمسون، وقيل: ثلاث وستون، قاله أبو نعيم.

وكانت خلافته أربع سنين وسبعة أشهر وستة أيام. ودُفن في أرض النجف ﷺ وأرضاه.

=

=

وكان ﷺ وكرَّم وجهه ربعة من الرجال، إلى القصر ما هو أقرب، أدعج العينين، حسن الوجه، كأنه القمر ليلة البدر، حسنًا، ضخم البطن، عريض المنكبين، شثن الكف، أصلع ليس في رأسه شعرٌ إلا من خلفه، كبير اللحية، بمنكبه مشاش كمشاش السبع الضاري، لا يُعرف عضده من ساعده، إذا مشي تكفّى، وإذا أمسك بذراع رجل فكأنما أمسك بنفسه، وهو إلى السمن ما هو أقرب، شديد الساعد واليد، وإذا مشي إلى الحرب هرول، ثبت الجنان، قويٌّ، شجاع، منصورٌ على من لاقاه.

وسُئِلَ الإمام محمد الباقر عن صفة عليٍّ ﷺ؟ فقال: كان رجلا آدم، شديد الأدمة، ثقيل العينين، عظيمهما، ذا بطنٍ أصلع، ربعة إلى القصر، لا يخضب.

وكان ﷺ يقول: «**الدنيا جيفةٌ، فمن أراد منها شيئًا فليصبر على مخالطة الكلاب**».

قال العلماء: والمراد بالدنيا ما زاد على الحاجة الشرعية، بخلاف ما دعت الضرورة إليه.

وقال أبو عبيدة ﷺ: ارتجل الإمام عليٌّ ﷺ تسع كلمات قطع الأطماع عن اللحاق بها حدةً، منهن ثلاثٌ في المناجات، وثلاثٌ في العلم، وثلاثٌ في الأدب. فأما التي في المناجات فهي قوله:

«**كفاني عزًّا أن تكون لي ربًّا، وكفاني فخرًا أن أكون لك عبدًا، أنت لي كما أحب، فوفّقني لما تحبُّ**».

وأما التي في العلم فهي قوله: «**المرء مخبوءٌ تحت لسانه، تكلّموا تُعرفوا، ما ضاع امرؤٌ عرف قدره**».

وأما التي في الأدب فهي قوله: «**أنعمْ على من شئت تكنْ أميره، واستغنِ عمَّن شئت تكنْ نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره**».

وكان يقول: «**لا يحبُّني إلا مؤمنٌ، ولا يبغضني إلا منافقٌ**».

وكان آخر كلامه قبل موته: «**لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله**».

وكان يقول: «موتُ الإنسان بعد أن كبر وعرف ربه خيرٌ من موته طفلاً ولو دخل الجنة بغير حساب؛ لأن أقل ما هناك أن العبد يُجالس ربَّه في الجنة بقدر ما عمل من العبادات».

وكان يقول: «**أعظمُ الناس معرفةً بالله أشدُّهم حبًّا وتعظيمًا لأهل لا إله إلا الله**».

وقيل له مرةً: ألا نحرسك يا أمير المؤمنين؟! فقال: «**حارس كل امرئٍ أجله**».

وكان يقول: «**كونُوا لقَبول أعمالكم أشدَّ اهتمامًا منكم بالعمل؛ فإنه لم يقل عملٌ مع التقوى، وكيف يقلُّ عملٌ متقبَّلٌ**».

وكان يقول: «إذا كان يوم القيامة أتت الدنيا بأحسن زينتها».

=

ثم قالت: يا رب هبني لبعض أوليائك، فيقول الله تعالى لها: اذهبي بلا شيءٍ؛ فلأنتِ أهون من أن أهبك لبعض أوليائي، فتُطوى كما يُطوى الثوب الخَلِق، فتُلقى في النار».

وكان يقول: «لا يرجونَّ امرؤٌ إلا ربه ولا يخافنَّ إلا ذنبه».

وكان يقول: **«لا يستحي جاهلٌ أن يسأل عمَّا لا يعلم، ولا يستحي عالمٌ إذا سُئل عمَّا لا يعلم أن يقول: الله أعلم»**.

وكان يقول: **«إنَّ أخوفَ ما أخاف عليكم اتِّباع الهوى وطول الأمل، فأمَّا اتباع الهوى فيُضلُّ عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة»**.

وكان يقول: **«الفقيهُ كل الفقيه من لا يقنِّط الناس من رحمة الله، ولا يؤمِّنهم من عذاب الله، ولا يرخِّص لهم معاصي الله، ولا يدع القرآن رغبةً منه إلى غيره»**.

وكان يقول: **«لا خيرَ في عبادةٍ لا علم فيها، ولا خير في علمٍ لا فهم فيه، ولا خير في قراءةٍ لا تدبُّر فيها»**.

وكان يقول: **«كونوا ينابيع العلم ومصابيح الدُّجى، خُلقان الثياب، جُدد القلوب، تُعرفون به في ملكوت السموات، وتُذكرون به في ملكوت الأرض»**.

وكان يقول: **«لو حننتم حنين الوالد الثكلان، وجأرتم جؤار مبتلي الرهبان، ثم خرجتم عن أموالكم وأولادكم في طلب القرب من الله وابتغاء رضوانه وارتفاع درجة عنده أو غفران سيئة كان ذلك قليلاً فيما تطلبون»**.

وكان يقول: **«القلوبُ أوعيةٌ وخيرها أوعاها، ثم يقول: ها ها إنَّ ها هنا، وأشار إلى صدره علمًا لو أصبت له حملةً»**.

وأُتي بفالوذج فوُضع قدامه، فقال: **«إنَّك لطيبُ الريح، حسنُ اللون، طيبُ الطعم، لكنِّي أكره أن أعوِّد نفسي ما لم تعتد»**، ولم يأكل منه شيئًا.

ولم يأكل طعامًا منذ قُتل عثمان ونُهبت الدار إلا مختومًا حذرًا من الشبهة، وكان قوته وكسوته شيئًا يجيئه من المدينة، ولم يأكل من طعام العراق إلا قليلاً، وكان يرقِّع قميصه ويقول: **«لبسُ المرقَّع يخشِّع القلبَ ويقتدي به المؤمن»**. وكان يقطع من كمِّ قميصه ما زاد على رفس الأصابع.

وكذلك كان الإمام عمر رضي الله عنهما، وكان يبرد في الشتاء حتى ترتعد أعضاؤه من البرد، فقيل له: ألا نأخذ لك كساءً من بيت المال، فإنه أوسع؟! فقال: **«لا أُنقص المسلمين من بيت مالهم شيئًا»**.

وكان يقول: **«أشدُّ الأعمال ثلاثةٌ: إعطاء الحقِّ من نفسك، وذكر الله تعالى على كل حال،**

=

ومواساة الأخ بالمال».

وكان يقول: «**لا يرضى الحق تعالى من أهل القرآن الإدهان في دينه والسكوت على معاصيه**».

وكان يقول: «**ما نلتَ من دنياك فلا تكثر به فرحًا، وما فاتك منها فلا تيأس عليه حزنًا، وليكنْ همّك فيما بعد الموت**».

وكان يقول: «**إنَّ مع كلِّ إنسانٍ ملكين يحفظانه ما لم يقدر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، وإن الأجل جنّةٌ حصينةٌ**».

وكان ينشد ويقول:

حقيقٌ بالتواضعِ مَنْ يموتُ ... ويكفي المرء من دُنْياه قوتُ
فَمَا للمرءِ يصبحُ ذا هومٍ ... وحرصٍ ليس تُدْرِكه النعوتُ
فَيَا هَذَا سترحلُ عَنْ قريبٍ ... إلى قومٍ كلامُهم السكوتُ

ومناقبه ﷺ كثيرةٌ، أخرج البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لعليٍّ: «**أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبيَّ بعدي**».

وقال عليٌّ ﷺ: «**والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمي إلَيَّ ألا يحبني إلا مؤمنٌ، ولا يبغضني إلا منافقٌ**»، رواه مسلم.

وعن سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «**لأعطينَّ هذه الراية غدًا رجلاً يفتح الله على يديه، يحبُّ الله ورسوله، ويحبُّه الله ورسوله**، فلما أصبح غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجون أن يُعطاها، فقال: **أين عليُّ بن أبي طالب**؟ فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: **فأرسلوا إليه**. فأتي به، فبصق النبي ﷺ في عينيه فبرأ حتى كأن لم يكن به وجعٌ، فأعطاه الراية، فقال عليٌّ: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال: **أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من أن يكون حمر النعم**».

وعن البراء ﷺ أن النبي ﷺ قال لعليّ: «**أنت مني وأنا منك**».

وقال عمران بن حصين ﷺ: إن النبي ﷺ قال: «**إن عليًّا مني وأنا منه، وهو وليُّ كل مؤمنٍ**»، رواه الترمذي.

وعن زيد بن أرقم ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ كنت مولاه فعليّ مولاه**»، رواه الترمذي والإمام أحمد.

=

=

وعن حبشي بن جنادة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«علي مني وأنا من عليّ، ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي»**.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، فجاءه عليّ تدمع عيناه، فقال: آخيت بين أصحابك ولم تؤاخِ بيني وبين أحدٍ، فقال رسول الله ﷺ: **«أنت أخي في الدنيا والآخرة»**.

وعن أنس ﷺ قال: كان عند رسول الله ﷺ طيرٌ فقال: **«اللَّهُمَّ ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي هذا الطير، فجاء علي فأكل معه»**، رواه الترمذي.

وقال عليّ ﷺ وكرَّم وجهه:«كنت إذا سألت رسول الله ﷺ أجابني، وإذا سكتُّ ابتدأني»، رواه الترمذي.

وعنه أيضًا ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا دارُ الحكمةِ وعليّ بابها»**.

وعن جابر ﷺ قال: دعا رسول الله ﷺ عليًّا يوم الطائف فانتجاه، فقال الناس: لقد طال نجواه مع ابن عمه، فقال رسول الله ﷺ: **«ما انتجيته ولكنَّ الله انتجاه»**.

ومن كراماته الباهرة أن الشمس ردت عليه لما كان رأس النبي ﷺ في حجره، والوحي ينــزل عليه، وعليّ ﷺ لم يصلِّ العصر فما سرى عنه ﷺ إلا وقد غربت الشمس.

فقال ﷺ: **«اللَّهُمَّ إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك، فاردد عليه الشمس فطلعت بعدما غربت»**.

وحديث (ردّها) صححه الطحاوي والقاضي في الشفاء، وحسَّنه شيخ الإسلام أبو زرعة وتبعه غيره.

وأخرج البخاري ومسلم عن سهل ﷺ أن النبيَّ ﷺ وجد عليًّا مضطجعًا في المسجد وقد سقط رداؤه عن شقه فأصابه ترابٌ، فجعل يمسح عنه.

ويقول: **«يا أبا تراب»**، فلذلك كانت هذه الكنية أحب الكنى إليه.

قال بعضهم في ذلك وأحسن:

إذَا مــا رمــدتْ عيني فكحلي ... تــراب مِــنْ نَعْــلِ أبي تــرابِ

=

=

ووصفه ضرار بن حمزة ﷺ فقال:

كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، ينفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من لسانه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل ووحشته، وكان غزير الدمعة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قَصُر، ومن الطعام ما خشن، وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، ويأتينا إذا دعوناه، ونحن والله مع تقريبه إيَّانا وقربه منا، لا نكاد نكلمه هيبةً له، يعظِّم أهل الدين، ويقرب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، قابضًا على لحيته الكريمة، يتململ تململ السقيم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: «يا دنيا غري غيري، إلَيّ تعرضتِ، أو إلَيّ تشوقتِ، هيهات هيهات! قد بايعتك ثلاثًا لا رجعة لي فيك: فعمرك قصير، وخطرك كثير، آه آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق، رضي الله عن تلك النفس الزكيَّة».

ولما وصل إليه فخرٌ من بني أمية قال لغلامه: اكتب إليهم ثم املأ عليهم:

محمدٌ النبيُّ أخي وصِهْري — وحمزةُ سيدُ الشهداءِ عمِّي
وجعفرُ الذي يمسي ويضحى — يطيرُ مع الملائكةِ ابن أمي
وبنتُ محمدٍ سكني وعُرْسي — متشوبٌ لحمها بِدَمي ولحمي
وسبط أحمدَ ولداي منها — فمن منكم له سهمٌ كَسِهمي
سبقتكمُ إلى الإسلام طرًّا — غلامًا ما بلغت أوان حلمي
وأوجب لي ولايته عليكم — رسول الله يوم غدير خمٍّ
أنا البطلُ الذي لن تنكروه — ليومِ كريهة واليوم سلمِ
وأوصاني النبي على اختيارٍ — ببيعته غداة غد برحمِ
إلا من شاء فليؤمن بهذا — وإلا فليمت كمدًا بغمٍّ

قال البيهقي: إن هذا مما يجب على كل متوانٍ في عليّ ﷺ حفظه؛ ليعلم مفاخره في الإسلام، ومناقبه ومحاسنه ﷺ أكثر من أن تُحصى، قال فيه بعضهم:

مولى تلوت مديحه فوجدته — أحلى من الرشفات بالأفواهِ

=

أمَّا الأول: فلأن من اتصاليته: أي أنت متصل بي اتصال هارون بموسى، ونحن من جنس واحد، وأصل واحد، وصف واحد، وسر واحد، ولذا قيل له: سر الأنبياء والمرسلين؛ لأن نبينا ﷺ لمَّا كان سر جميع الأسماء الإلهية، كان المتصل به اتصالاً شديدًا، كذلك إلا أنه لمَّا لم يكن بعده نبي لا مشرع ولا متاح، كان المراد بالاتصال: اتصال الولاية، والنبوة التحقيقية، لا اتصال النبوة التشريعية، كاتصال هارون بموسى عليهما السلام، وعلى هذا سائر الأولياء أجمعين.

=

فطلبت مجتهدًا نهاية وصفه ... فوجدته ما ليس بالمتناهي

قال الإمام الشافعي ﷺ:

قالوا ترفّضت قلت كلاَّ ... ما الرّفض ديني ولا اعتقادي
لكن توليت غير شكٍّ ... خير إمامٍ خير هادِي
إن كان حب الولي رفضًا ... فإنني أترك أرفض العبادي

وقال أيضًا:

إذا نحن فضَّلنا عليًّا فإننا ... روافضٌ بالتفضيلِ عند ذوي الجهلِ
وفضلُ أبي بكر إذا ما ذكرته ... رميت بنصبٍ عِنْدَ ذكري المفضل
فَلاَ زلت ذا رفضٍ ونَصْبٍ كلاهما ... بحبّهما حتى أُوسد في الرَّملِ

ولما أُصيب ﷺ دعا الحسن والحسين -رضي الله عنهما- فقال لهما: أوصيكما بتقوى الله، ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على شيءٍ زوى منها عنكما، وقولا الحق، وارحما اليتيم، وأعينا الضعيف، واصنعا للآخرة، وكونا للظالم خصمًا، وللمظلوم أنصارًا، واعملا لله، ولا تأخذكما في دين الله لومة لائم، ثم نظر إلى ولده محمد ابن الحنفية ﷺ فقال له: هل حفظت ما أوصيت به أخويك، قال: نعم، قال: أوصيك بمثله، وأوصيك بتوقير أخويك لعظم حقهما عليك، ولا تؤثر أمرًا دونهما، ثم قال: أوصيكما به فإنه أخوكما، وابن أبيكما، وقد علمتما أن أباكما كان يحبه، ثم لم ينطق إلا بـ(لا إله إلا الله) إلى أن قُبض رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

قلت: أفرد كثير من أهل العلم تصانيف في فضائله، ولا يعول إلا على ما ثبت منها، وانظر: خصائص علي للنسائي، والأسد الغالب لابن الجزري، والاستيعاب (١٨٧٥)، والحلية (٢/٦١).

فادعاء نبوة بعضهم خرق الإجماع؛ بل ردٌّ للنص، وكفر بالتنزيل، عصمنا الله وإياكم من سوء الفهم، وقلة العقل، والكشف السفلي.

ثم إن معنى اتصال الولاية: ظهور نور الحقيقة في مرآة علي ﷺ أكثر من ظهوره في غيره، إذ لا يخفى أن كل واحد من الأولياء؛ بل من الكائنات محتمل نوره ﷺ؛ «لكن أين السهى من الزبرقان؛ وهو من يوح[1]».

وفيه إشارة بأن كل مَن هو أقوى اتصالاً به ﷺ في ولايته؛ كان أشد تأييدًا لدينه؛ لكمال الراجح، ودعائه البالغ، وندائه القاصي، وظهر من هذا التقرير أن قوله ﷺ: «**فاطمة بضعة مني**»[2]؛ إنما أراد به كونها قطعة من بشريته وجسمانيته، وإن كان مشعرًا بفضلها في الجملة إذ لا كلام في كمالها في نفسها على ما دلّ عليه بعض الأحاديث الصحيحة.

وأمَّا **الحديث الثاني**: فمعناه أنا أبو هذه الأمة كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿**وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**﴾ [الأحزاب:٦]، فإذا انتقلت أنا من هذا الموطن؛ فأنت أبو هذه الأمة بطريق الخلافة، والإرث الحقيقي، إذ لا يجتمع صديقان وقطبان في زمان واحد؛ لأن الله تعالى فرد في اسمه الأعظم.

وأشار بتخصيص أبوة علي بالذكر مع أنه الخلفاء الحقيقيين المتسلسلة كلهم آباء الأمة، كما أن أزواجهم أمهاتهم إلى أن أبويته أبوة كاملة؛ ولذا لم يكن طريق من الطرق الحقة إلا وقد كانت مغربة ومنتهية إليه، فهو ﷺ مصدر جميع الأسرار، ومنحة جملة الأطوار، ومطلع عموم الأنوار، وأول طالع يدًا بالإشراق من مطلع الولاية، وأول لامع أخذ بالإضاءة من شرق الهداية، وكان له نهاية إضافية هو الختم المكتوم، ونهاية حقيقية الختم المعلوم، والكل نور على نور، وسرٌّ مقسوم.

أمَّا **الحديث الثالث**: فمعناه: إن فاطمة رضي الله عنها، وإن كانت أحب إليه ﷺ من علي كرم الله وجهه؛ لكن حبه لها لا يستلزم عزّها في نفسها؛ لأن ذلك يرجع في الحقيقة إلى البشرية والطين، وإن كان لها كمال ظاهر في الدين، وأمَّا علي

(١) السهى: اسم نجم خفي، والزبرقان: القمر، ويوح: اسم من أسماء الشمس.

(٢) رواه البخاري (١٣٤٦/٣)، ومسلم (١٩٣/٤).

فدلَّ عزته على وحدته على قطبيته المثلى؛ لأن العزيز هو ما قلَّ وجوده؛ فهو الواحد كالشمس، وفيه رمزًا إلى أن كمال المرأة؛ إنما هو من حيث الصديقية، وهي في نفسها لا تقتضي الخلافة المستلزمة للظهور.

وإن كمال الرجل إنما هو من حيث الخلافة، ومن ههنا لم تظهر امرأة بالنبوة، ولو كانت مريم عليها السلام، كما دلَّ عليه قوله ﷺ: «**لن يفلح قوم تملكهم امرأة**»(١).

ومن عظمة الإمام علي رمز له بأن جعله ﷺ باب مدينة العلم، وإضافة إلى المعنى، وجعله متصلاً به اتصال الباب بالبيت؛ فهو معه كحلقة مفرغة فاعرف جدًا.

٢٣- **في الحديث الصحيح**: قال رسول الله ﷺ: «**مَن صام رمضان، ثم أتبعه ستًا من شوال؛ كان كصيام الدهر**»(٢).

الصيام: الإمساك، ومطلق الإمساك يشمل الإمساك الصوري؛ وهو إمساك الأعضاء والجوارح، وكل منها عمَّا لا ينبغي له، والإمساك المعنوي؛ وهو إمساك القوى الباطنة كل منها أيضًا عمَّا لا يليق له، ولا شك إن مَن قدر على هذا الإمساك؛ كان له مرتبة الصمدية، فله الإفطار عند الله تعالى بلقاء الله تعالى، ولم يقل: شهر رمضان مع أنه هو المراد مبالغة في الإمساك؛ لأن ما كان الله تعالى ينبغي أن يكون بجميع شروطه وقيوده حتى يقع في محل القبول عند الله تعالى(٣).

---

(١) رواه أحمد (٤٣/٥)، والحاكم في المستدرك (٥٧٠/٤).

(٢) رواه مسلم (٨٢٢/٢)، والترمذي (١٣٢/٣).

(٣) قال الحكيم الترمذي: أمَّا علّة الصوم، فإن النفس مطبوعة معدودة بهذا الغداء والعشاء، وكذلك هذا لهم في الجنة، قال – تعالى –: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ [مريم:٦٢]. ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال له رجلٌ: في الجنة ليل؟ قال: وما هيجك على هذا؟ قال: سمعت – الله – تعالى يقول: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦] فقال رسول الله ﷺ: «**إنما الغدو الرواح على المقادير، فالنفس مطبوعة على أن تتغدى وتتعشى، فأمره بفطمها عن هذا، فأمَّا الأمم الماضية، فحظر عليهم الغداء ونزل عليهم العشاء؛ فذلك صومهم، وأمَّا هذه الأمة، فعطف الله – سبحانه وتعالى – عليها، وأكرمها بأن ترك عليهم الغداء والعشاء في صومهم إلا أنه حظر عليهم الغداء في وقته، وأطلق لهم تقديمه سحرًا،** =

=

وسمَّاه رسول الله ﷺ: الغذاء المبارك فسُمِّي هذا صومًا»(.

والصوم هو: الكفُّ عن عادة تعتادها، فإذا مُنعت النفس تلك العادة، اشتد عليها، فكان في ذلك تسليم الجسد إلى الله – تعالى – لأن النفس إذ مالت إلى الشهوات فقد مالت بأركانها عن الله – تعالى – إلى دنياها، فعلى قدر الميل عن – الله – تعالى والتباعد عنه تنقص البركة، وتنـــزوي عنه، وإذا انحلت البركة عن شيء قلّت وذلّت، وصارت مدخولة، وإذا مالت إلى الله – سبحانه وتعالى – بمنعها عادتها وشهواتها ازدادت قربة إليه، وإذا ازدادت قربه إليه حلت بها البركة، فإذا حلت البركة زكَت وربَت، والزكاة: النمو، والاحتشاء من الخير والازدياد.

والآدمي خُلق أجوف، ووُضع في جوفه الإيمان، والعلم، والحكمة، والعقل، والفهم، والسكينة، والوقار؛ وهذه كلها جنود القلب، والرغبة، والرهبة، والشهوة، والغضب، والمكر، والحرص، والجبن، والبخل في ناحية؛ وهذه كلها جنود النفس، فإذا امتنع من عادة النفس، كان في ذلك بذل النفس لله – تعالى – والتسليم إليه، فإذا قبلها زكت بما أُعطيت من الإيمان، والعقل، والعمل، وما ذكرنا من الخيرات، ووفرت فصار هذا الصوم زكاة الجسد.

ألا ترى أن الصائمين كيف يجدون لذة العبادة، وكيف يجدون نفوسهم ساكنة هادئة، ومن هاهنا قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصيام».

فإذا صام؛ حلّت البركة ونَمَا فيه كلُّ شيء من الخير، واحتشى، وازداد فضلاً بحلول البركة، فإذا امتنعت البركة من هذه الأشياء؛ بقيت كلها معطّلة لا تعمل شيئًا وكأن الله – تعالى – جعل هذا الصوم سببًا لحلول البركة؛ فرَبَا وزَكَا ونَمَا كل خير فيه، واحتشت النفس من الخير، وقد عظّم ربنا – تعالى – فعل هذا العبد حيث منع نفسه هذه العادة.

فرُوي لنا في الخبر أن رسول ﷺ قال: «يقول – الله – تعالى: كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، عبدي يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحه حين يلقى الله تعالى».

فهذا موافق لقوله ﷻ: «إن تقرَّب إلَيَّ عبدي شِبرًا تقرَّبت منه ذراعًا» شكرًا له هذا القدر حيث مال إليه وترك طعامه وشرابه ساعات من النهار حتى يحكي فعله في الملإ الأعلى، فيقول: «عبدي ترك طعامه وشرابه من أجلي»، ثم يقول: «هذا لي وأنا أجزي به» أي: لا أكل ثوابه إلى غيري.

وإنما صارت الأعمال له، وهذا لله؛ لأن نيَّته وإضماره على أن يمنع نفسه عادة اعتادها، وليس هو بفعل الأركان.

ثم قال النبي: «للصائم فرحتان: فرحة عند فطره».

=

وفي قوله: (ثم): إشارة إلى تفاوت ما بين صيام رمضان، وست شوال؛ لأن الفرض: إشارة إلى الوجود الحقيقي الوجوبي القدمي، والنفل: إشارة على الوجود الخلقي الإمكاني الحدودي، وتخصيص شوال إشارة إلى ارتفاعه عن شهور السنة بمزيد فضل يختص به؛ وهو التجلّي الذاتي الذي وقع لنبينا ﷺ ليلة القدر، فاستمر إلى ست من ذلك الشهر.

فكان شهر رمضان الذي هو ثلاثون يومًا كل يوم منه ألف سنة عند الله تعالى بمنـــزلة ثلاثمائة ألف سنة، وست شوال بمنـــزلة ستين ألف سنة، فالمجموع ثلاثمائة، وستين ألف سنة؛ وهي من عمر الدنيا من أولها إلى آخرها، وعمر آدم منها جمعه من جمع الآخرة؛ وهي سبعة آلاف سنة، فكان الست منها إشارة إلى عمر الأمم المتقدمة، وجُعل تابعًا لعمر هذه الأمة المرحومة؛ لقوله ﷺ:

«**نحن الآخرون السابقون**»[1] فهم متأخرون صورة، متقدمون معنى؛ لتقدمهم في الأرواح، وفي دخول الجنة أيضًا؛ ليتطابق الأبد بالأزل.

وأمَّا الأمم الماضية فهم متقدمون صورة وشبحًا، متأخرون معنًى وروحًا؛ لتأخرهم في الأرواح، وفي دخول الجنة أيضًا؛ ليتوافق الأبد بالأزل أيضًا، فمدة هذه الأمة جامعة لمدد الأمم الخالية، ومَن قبلهم إلى أول الزمان؛ وهو زمان الكون والحدوث، فكان من عناية الله تعالى بهذه الأمة أن جعلهم أمة وسطًا، فكان من آثار

=

فتلك فرحة حلول البركة، وزكاة الجسد، وذلك بحلول البركة بفرحه؛ لأنه قد زال عنه ثقل النفس.

قال النبي ﷺ: «وفرحة عند لقاء ربه»حين يري ثوابه.

فأمر العبد أن يصوم شهرًا، ويصوم بعده ستة من شوال حتى يكون الدهر كله صائمًا؛ لأن الحسنة بعشر.

فثلاثون يوم بثلاثمائة سنة، وستة أيام بستين يومًا، فإذا كان محسوب عمره في الصوم على ما ذكرنا؛ كانت البركة حالة به جارية عليه، فمَن رغب في تلك السُّنة، فإنما طلب للنفس دوام هذه البركة؛ ليكون جسده بما فيه زاكيًا ناميًا. وانظر: إثبات العلل (ص٩٤) بتحقيقنا.

(١) تقدم تخريجه.

فضلهم أن جعل الله تعالى صوم ستة وثلاثين يومًا بمنـــزلة صوم الدهر؛ وهو الزمان المطلق الساري في ثلاثمائة وستين ألف؛ فكانوا كأنهم صاموا من أول الدهر إلى آخره، وإن لم يبلغ أعمارهم تلك المدة؛ لأن الفضل إنما هو بالحكم لا بالعمر، فهذا سر التضعيف في الحديث.

ومَن لم ينتبه له؛ جعل الدهر بمعنى السَّنة، وفيه أيضًا قوله تعالى: ﴿**مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾ [الأنعام:١٦٠] يستدعي أن يكون صوم كل يوم: أي يوم كان مجزيًا بالحسنات العشر فلا يبقى لتخصيص رمضان فائدة، ثم إن فضل الزمان ليس بذاتي؛ بل إنما هو لمّا وقع فيه من التجلّي الذاتي الساري سره إلى ما قبله وما بعده؛ لأنه كما أن للتجلي الذاتي أحديته، فكذا للدهر؛ لأنه في الحقيقة عبارة عن الآن الغير المنقسم.

٢٤- **في مسلم: «مَنّ صَامَ رَمَضَانَ».**

: أي شهر رمضان لما ورد في الأثر: «**لا تقولوا جاء رمضان؛ فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى**»[1]؛ والمراد بصيامه: الإمساك فيه بشروطه الظاهرة والباطنة حتى يكون صومًا كما يقتضيه الشريعة، والطريقة، فإن الأجر الموعود الآتي لا يترتَّب إلا على ذلك.

قال ﷺ: «**ثم أتبعه ستًا من شوال**»؛ في ثم: إشارة إلى فضل الاتِّباع المذكور، ووجه العدد: إن التجلّي الذاتي الذي وقع لنبينا ﷺ ليلة القدر استمر إلى الست من شوال؛ فكانت الست في حكم شهر رمضان، فإن ليلة القدر في الحقيقة، ويوم العيد عبارة عن: الزمان الذي يتشرَّف فيه العبد بألطاف الله الخفية.

فكل ليلة وقع فيها التجلّي الذاتي لباطن العبد فهي ليلة القدر، ثم الأفضل عند أهل الحقيقة وصل الإمساك بيوم الإفطار الذي هو يوم العيد، كما يقتضيه أيضًا، ثم إذا حُملت على التراخي وتنكير ست فاعرف؛ ففيه دليل لكل مَن ينتحي الاستدلال.

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى (٢٠١/٤)، والديلمي في الفردوس (٥٢/٥).

كان المذكور من الصيام والإتّباع كما في قوله ﷺ: «**كصيام الدهر**»[1]: أي السنة أو العمر، فإن الدهر هو الله تعالى، وصيامه إشارة إلى صمدانيته التي لا تقتضيه الأكل والشرب ونحوهما؛ يعني: كان ذلك اتصافًا بصفة الله تعالى، وهو التنـــزُّه في مدة العمر عن الأمور الطبيعية البشرية؛ ولذلك أورد الست على التأنيث؛ إشارة إلى الليالي، فإن الست مع ثلاثين.

وكذلك الست معها تبلغ إلى الاثنين وسبعين؛ وهي مدة العمر لهذه الأمة غالبًا، وعندها يُغلق باب التوبة الذي بين مصراعيه سبعون سنة، هذا من خواص شهر رمضان.

وأمَّا صوم غيره فليس بهذه المثابة؛ بل كل يوم عشرة على مُقتضى قوله تعالى: ﴿**مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾ [الأنعام: ١٦٠].

فالحديث المذكور يُخصِّص هذه الآية، ففرَّق بين عموم الحسنة وخصوصها، وربما يكون الحسنة الواحدة من واحد من المقرَّبين تملؤ ما بين السماء والأرض بخاصتها التي هي الإخلاص، فإن الإخلاص سرٌّ من أسرار الله أيضًا لا يودعه الله إلا في قلب مَن يشاء من عباده.

ولا شك أن السر أوسع من الروح، أوسع من الجسد، وذلك إن الجسد من عالم الملك، والروح من عالم الملكوت.

كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿**فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [يس: ٨٣]: أي روحه الذي يلي الحق؛ ولذا يقبضه الحق بيده.

وأمَّا السرُّ فمن عالم الجبروت، وسرُّ السرِّ من عالم اللاهوت، وربما يطلقون السرَّ ويريدون به سرَّ السرِّ؛ وهو السرُّ المطلق الساري في الأرواح الإنسانية، وهو مكشوف عند الإكليل، مُخفى عند غيرهم، وبه يظهر الفرق بين العارف والجاهل.

فطوبى لمَن صام الدهر كله؛ وهو مفطر.

فإن الصوم الحقيقي ليس بصوم الوصال صورة؛ بل بصومه معنى، كما قال

(١) رواه مسلم (٢/٨٢٢)، وأبو داود (٢/٣٢٤).

تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج:٢٣].

فعليك بإدامة العمل حتى يبقى ذكرك، وتكون أنت الحي الباقي إلى يوم التلاقي.

٢٥- في حديث مسلم: قال رسول الله ﷺ: «**مَن صلّى في يوم اثني عشرة سجدة تطوعًا؛ بني له بيت في الجنة**»(١):

المراد بالعدد المذكور عدد السنن المؤكدة التي يقال لها: سنن الهدى؛ وهي في اليوم والليلة ثنتا عشرة ركعة: أربعة قبل الظهر، واثنتان بعدها، واثنتان بعد المغرب، واثنتان بعد العشاء، واثنتان الفجر، وما عداها فغير مؤكدة؛ بل مستحبة، ويقال لها: سنن الزوائد؛ ولكن لا تنحصر سنن الهدى والزوائد فيما ذُكر؛ بل لهما جزئيات كثيرة.

والمستحبات أيضًا ثنتا عشرة ركعة وهي: سنة العصر، والسنة الأولى للعشاء، والشفعان المنضمان إلى شفع الظهر والعشاء؛ هذه كلها تطوُّع: أي زائدة على الفرض ألحقها النبي ﷺ بالفرض؛ ليدلَّ كل منهما على مرتبة مخصوصة من المراتب الحقية والخلقية.

فالفرائض: إشارة إلى الوجود الحقاني المنبسط في الأشياء الساري في المخلوقات كلها؛ فإقامتها شكر لله تعالى في مرتبة هذا الوجود الحقاني.

والواجبات: إشارة إلى الوجودات الخلقية الأخصية؛ فإقامتها شكر لله تعالى في مرتبة هذا الوجود الخلقي الأخصي.

والسنن: إشارة إلى الوجودات الخلقية الخاصية؛ فإقامتها شكر لله تعالى في مرتبة هذا الوجود الخلقي الخاصِّي.

والمستحبَّات: إشارة إلى الوجودات الخلقية العامية؛ فإقامتها شكر لله تعالى في مرتبة هذا الوجود العامي.

فأهل الفرائض والواجبات والسنن والمستحبات إنسان أكمل؛ ولذا لم يزل

---

(١) رواه النسائي (٤٦١/١)، والطبراني في الأوسط (٣٤٠/٧).

أهل الله الكُمَّل من المواظبة عليها كلها، فإن المستحبات طريق لتكميل السنن، وكذا السنن منهاج لتكميل الواجبات، وكذا الواجبات سبيل لتكميل الفرائض.

ومنه يعلم الفرق بين حال النبي ﷺ، وبين حال غيره من أمته؛ لأن من خاصته **عليه السلام أن يدخل على الله تعالى في كل عمل بما يليق بذلك المقام على الوجه الأكمل؛** ولذا كان يفعل شيئًا مرة، ويترك أخرى ما عدا الفرائض، والواجبات بخلاف حال غيره، فما فعل ﷺ مرة في عمره؛ ينبغي أن يفعله الأمة مرارًا متصلة بآخر أعمارهم، فإن به يتصل الفيض، ويقوم التوجه، ويدوم الصلاة.

وفي ذكر السجدة: إشارة إلى أن أفضل أحوال الصلاة حال السجدة؛ لأنها إشارة إلى الفناء عن التعينات، والبقاء بالمتعين المطلق المنـــزَّه عن التعين، واللام تعيُّن في الحقيقة، وأشار بالتطوُّع إلى المروءة الإنسانية، وإن رتبة الإنسان من أعلى رتب الوجود.

ولمَّا كانت الصلاة عماد الدين، والبيت لا يقوم إلا بالعماد؛ أشار بالبيت إلى الجزاء المجانس للعمل، الموافق للكسب، فمَن أقام الصلاة في الدنيا؛ أقام الله تعالى له بيتًا عظيمًا في الآخرة بحيث لا يوصف عظمته.

وقال: «في الجنة» إشارة إلى ما أعطاه تعالى من البيت، إنما هو بمقابلة الأفعال الظاهرة في الصلاة، وأمَّا ما أعطاه في مقابلة الحركات الباطنة فيها؛ فهو باطن عن العقول خفي عن الأذهان كما قال تعالى:

﴿هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلاَّ الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقال: **﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾**[السجدة:١٧]؛ لأن النفس لا تدرك إلا الظواهر المشهودة لا البواطن المخفاة في غيب الحق، جعلنا الله وإياكم من القائمين بأمره، الدائمين على صلواته آمين.

٢٦- في حديث البخاري: «مَن صوَّر صورة؛ فإن الله معذِّبه حتى ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ فيها أبدًا»[1]:

(١) رواه البخاري (٢/٧٧٥)، ومسلم (٣/١٦٧١).

اعلم أن الأشياء كلها حيها وجمادها حاملة للروح الإلهي؛ لكن لمَّا كان الحياة ظاهرة حسية في الأحياء؛ عبَّر عنها بالنفخ في القرآن، كما قال في الإنسان: «**ونفخت فيه من روحي**»(١)؛ فإن الأثر أظهر في النفخ من غيره، ولمَّا كانت باطنة معنوية في الجمادات؛ أُشير إليها بالتسبيح في قوله تعالى: **﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ﴾** [الإسراء:٤٤].

فإن المسبِّح لا بد وأن يكون حيًّا؛ فالمكاشفون أدركوا الحياة في الجمادات أيضًا دون غيرهم؛ ولذا لم يكونوا يصوُّرون صورة لا صورة ذي الروح، ولا صورة غيره إلا بإذن الله تعالى؛ كعيسى عليه السلام لمَّا صوَّر الخفاش من الطين بإذن الله تعالى نفخ فيه الروح؛ فصار يطير كسائر الطيور.

فإن المصوِّر - بالكسر - حينئذ إنما هو الحق تعالى في صورة عيسى، وكذا النافخ للروح؛ كالرامي في قوله تعالى: **﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى﴾** [الأنفال:١٧]، وذلك أن الهُويَّة إنما هي هوية الحق تعالى، وليس للعبد هوية غير التشخُّص، وليس التأثير من جانب التشخُّص؛ بل من طرف الهُويَّة.

فالمصوِّر إذا صوَّر شيئًا من طرف تشخُّصه من غير أن يأذن الله له من طرف هويته؛ عجُز عن نفخ الروح فيه، وصار عُرضة للعذاب؛ لأنه شبَّه نفسه بالخالق، والذي صوَّره بخلق الله تعالى.

وقد قال تعالى: **﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ﴾** [النحل:١٧] يعني أن العبد لا يقدر على الخلق مادام مخلوقًا، فإذا تجلَّى فيه سرَّ الخالقية على ما أشار إليه قوله تعالى: **﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾** [المؤمنون:١٤].

وأذن الله له في الخلق والنفخ، كان الأمر كما شاء الله تعالى بهويته المضافة إلى العبد.

وقد نفخ أبو يزيد البسطامي قُدِّس سرُّه في نملة ميتة؛ فحييت بإذن الله تعالى لا بنفخه المجرَّد؛ فإن نفخه المجرَّد ريح نفسانية لا تؤثِّر إلا بسريان الروح الإلهي فيها،

(١) رواه البيهقي في الشعب (١/١٧٢)، والديلمي في الفردوس (٣/٤٢١).

فالعبد يفعل ما يفعل بالحق لا بالنفس، فمَن فعل بالنفس؛ وقع في العذاب الجسماني؛ لأن النفس مضافة إلى الجسم الطبيعي، ومَن فعل بالنَفَس بالفتح؛ وقع في الرحمة، وفيه إشارة إلى ألا بد للعبد من معرفة حدِّه، فإنه إذا لم يعرف حدَّه؛ تجاوز إلى حده من قوله.

والكاذب لا يدخل مقام الصادق؛ بل كلّما أراد ذلك؛ ردَّه يد الغيرة الإلهية إلى حدِّه؛ بل إلى أسفل منه؛ لتركه الأدب مع الله تعالى.

قال تعالى: **﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾** [السجدة: ٢٠]؛ ولذا قال ﷺ: «**وليس بنافخ فيها أبدًا**»[1]: أي ما دام على حالته النفسانية.

إذ مَن كان في النار؛ فهو لا يحيا ولا يموت، فكيف يُحيي الغير ويُميت، وكذا مَن بقي في سجن الطبيعة؛ فإنه لا يخرج منها أبدًا إلا أن يخرجه الله منها كما قال: يخرجهم من الظلمات إلى النور، فالأشخاص ظلمات، والأرواح أنوار.

فإذا سَرت الأرواح في الأشخاص؛ كان كسريان الأنوار في الظلمات، إلا أن يكون في البين حائل؛ كالنفس الحائلة بين الأرواح والأشخاص، وكالجبال والجدران الحائلة بين الأنوار والظلمات، فليبكِ على نفسه مَن بقي في الظلمات النفسانية الجسمانية، وليضحك وليفرح بفضل الله تعالى مَن خرج منها إلى الأنوار الروحانية الإلهية.

٢٧- في حديث مسلم: «مَن فاتته صلاة العصر؛ فكأنما وترَ أهله وماله»[2]:

يقال: فاته الأمر: أي ذهب عنه، فمعنى فاتته الصلاة: فاتت عنه الصلاة بمعنى وقتها.

وفي رواية البخاري: «**مَن ترك صلاة العصر**»[3]:

فدلَّ على أن التفويت محمول على العمد، إذ لا يترتَّب الوعيد والخسارة على الخطأ والنسيان، وإن كان يرد الخطاب بالعقاب يعني: إن مَن ترك العصر متعمدًا؛

(١) ذكره ابن حجر (١٠/٣٩٤)، والزرقاني في شرحه (٤/٤٧٠).
(٢) رواه البخاري (١/٢٠٣)، ومسلم (١/٤٣٥).
(٣) رواه البخاري (١/٢٠٣)، والنسائي (١/١٥٣).

فكأنما كان موتور الأهل والمال: أي منقوصهما ومسلوبهما: أي كان كمَن بقى بلا أهل ولا مال؛ وهو خسارة عظيمة دنيوية، وأعظم منها الخسارة الدينية الأخروية.

وفيه إشارة بالعمر إلى زمان كل واحد من أفراد الإنسان؛ وهو أيام حياته المعدودة المقدَّرة، وبالصلاة إلى التوجه المعنوي، والحضور القلبي الحاصل في العمر، فمَن فاته هذا المعنى؛ كان كمَن بقى بلا أهل ولا مال: أي بلا قوى روحانية، وبلا أعضاء جسمانية؛ فكأنه في صورة وسيرة غير صورة الإنسان وسيرته.

لأن المقصود الأصلي من الآلات، والأسباب الخارجة، والداخلة؛ إنما تحصيل الكمال الإنساني المنوط بحال القلب، فإذا فقد التحصيل؛ فكأنما فقد الآلات، فليبكِ على نفسه مَن ضاع عمره وعصره، ولم يكن على طائل، وفائدة من الصلاة، والتوجُّه، والحضور الحاصلة لأهل الكمال الذين هم الإنسان الحقيقي.

أمَّا غيرهم فهم الإنسان والحيواني؛ بل هم أضلُّ من الأنعام؛ لأن الحيوان مهتدٍ إلى ربه بما جُبل عليه من التسبيح، وله رتبة الفطرة حيث لم يتدَّنس بشيء من المخالفة؛ لكونه خارجًا عن حدِّ التكليف، وحمل الأمانة، فالإنسان منهم أسفل وأعلى، فانظروا منهم الخاسر، والرابح فاعرف.

دلَّ على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ*إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١، ٢].

وقد أقسم الله تعالى بالعصر مطلقًا؛ لشرفه العظيم، وجعل مَن لم يعرف قدر العصر في خسارة، فلا ربح إلا لَمن آمن إيمانًا حقيقيًا عيانيًا، وعمل عملاً صالحًا يصلُح للتَّسبب للعروج إلى مواطن أهل الصلاح المطلق في علِّيين؛ بل إلى مَساعد يبقى عندها العلِّيون كأسفل درجات المرقَّات، وتواصى بالحق:

أي بشهوده في المشاهد، والثبات على ما أراد الله تعالى في المعاهد، وتواصى بالصبر على ستر الحال، وكتم سر الغيب، فإن ذلك الربح أيضًا.

ألا ترى أن كل مَن أظهر البطون؛ فقد أبطن الظهور؛ بجعل نفسه عُرضه للآفات والفناء[1] والهلاك.

---

(١) قال الشيخ أبو المواهب الشاذلي: قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦].
=

=

ويقول تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧].

منـــزع: حقيقة الفناء محو واضمحلال، وذهاب عنك وزوال.

وإن شئت قلت: فناء المريد طهارة النفس من التدنيس، وفناء المراد تخلُّقه بأوصاف التقديس.

وإن شئت قلت: فناء السالك عن السكون إلى الأنوار، وفناء العارف عن شهود لمحة الأغيَار.

وإن شئت قلت: الفناء محو النية، وذهاب الأنيَّة.

وإن شئت قلت: الفناء التخلي لنور التحلّي.

مشرع: فناء عوام الطريق بهجة أهل التحقيق، فإن حصلت لهم العناية، سلكتهم مسلك الهداية.

منـــزع: فنا المحب بمحبة الحبيب، وفناء المحبوب بالوصل عند غيبة الرقيب.

مشرع: اجتاز قوم ببعض طرق الفَنا، ولم يحصل لهم ما طلبوا من المنى، وإنما حرِموا الرشاد لعدم الاسترشاد.

منـــزع: أهل الصدق في الإرادة في باب الأعمال فَانون أدبًا مع قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات:٩٦].

وأهل المعرفة فناؤهم في حضرة الصفات والأسماء وذلك لهم أسْمىَ؛ تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧].

مشرع: فناء المريد بشهود التوحيد، وفناء المراد بالخروج عن المراد، وفناء العارف بشهود الأحدية في حضرة الواحدية، وفناء الفرد بتجلّي الأحد بالغيبة عن كل أحد.

منـــزع: كوْن مشهد الحسّ هو محلّ جريان الشمس، إذا استوت شمسك عند الزوال أفنت ما كان موجودًا من الظلال، فاحرص على استواء شمسك بذهاب ظل غمامة حسّك.

كـــان لي ظـــل رســـوم فاســـتوت شمـــسٌ فـــزالا
عشـــت بالمحـــبوبِ حقًّـــا بعـــد مـــا كانـــت خـــيالا

مشرع: أفْنىَ التائب المهلكات، وأفنى السالك العادات، وأفنى المسلك القواطع، وأفنى العارف المطامع، وأفنى الواصل الأكوان، وأفنى الموصّل ما سِوىَ حضرة الإحسان.

منـــزع: إذا غلب الفناء بشهود التجلّي، عند صدْق التخلّي، لا ترى الأكوان إلا كالخيال في حضرة هذا المثال.

إنمـــا الكـــون خـــيالٌ وهـــو في حـــقِ الحقـــيقةِ
كـــل مَـــن يشـــهد هـــذا حـــاز أســـرارَ الطـــريقةِ

=

كما وقع للحلاّج، والنسيمي، والسهروردي المقتول وغيرهم، وأيضًا وتواصى بالحق: أي بالأمر الثابت الذي هو الدين الباقي إلى آخر العمر؛ بل إلى ساعة القيام إذ لا ينتهي العبد، وإن كان حرًّا عمًّا سوى الله تعالى إلى حد يَسقط عنه التكاليف؛

=

مشرع: فناء الفناء أعلى من الفنا؛ لأنه دهليز البقا عند أهل التقى، فإياك أن تقف مع بداية الفنا؛ فتقع في الخلط والدعوى، وتخالف أهل الأدب والتقوى.

وانظر حال الحسين الحلاج لما قنع ووقف عند أوائل الفناء، كيف وقع في العناء[1].

بقوله: ها هو أنا ومَن أيْسر أقواله ما أعرب به عن بعض أقواله.

عجبت منك ومني ... أفنيتني بك عني

أدنيتني منك حتى ... ظننت أنك أني

قوله: (حتى ظننت أنك أني) فيه شعور بأدب فناء الفَنا، لكنه لم تكمل له حقيقة هذا المعنى؛ إذ لو كملت لتخلّص من غلظ البشرية، وتأدب بكمال الأدب مع الربوبية.

يا نزهتي في حياتي ... وراحتي بعد دفني

ما لي بغيرك أُنسٌ ... إذ كنت خوفي وأمني

منزع: الفاني المحقق عند المحققين؛ من شَعر بوجوده عند الغيبة والحضور، وعلمه وإن لم يشهد في ظلمة فناء ذلك الديجور.

ألا ترى أن من طلعت عليه الشمس فاشتغل بصره بنور شهودها لا ينكر بقاء نور الكواكب، وإن لم ينظر حقيقة وجودها، كذلك الفاني إذا غلب عليه شهود أنوار الحق، استشعر وجوده ووجود الخلق، فذلك سلوك الكُمَّل الأنبياء، والسادات الأتقياء.

مشرع: قال غير واحد في الفناء (أنا) وفي البقاء قالوا: (أنت)، فقيل: يا فاني في الأول ما كذبت، ولكن في الثاني أحسنت.

منزع: مقام الفناء به الوصول إلى المنى، كلما توالى على صاحبه دَنَا، واصطلمه السنا في المقام الأسنى.

ويَزيدني تلفًا فأشكرُ فعله ... كالمسكِ تسحقه الأكفُّ فيعبقُ

مشرع: الفناء هو أساس الطريق، وبه يتوَصَّل إلى مقام التحقيق، ومَن لم يجدْ بمَهر الفنَاء لم يستجْل طلعة الحَسْنَا، وليس له في غد واليوم نصيب مع القوم.

لبقاء مدار الأمر والنهي الذي هو النفس الإنسانية المختلفة المراتب.

وتواصي بالصبر في أوائل الأمر، وهو حال المبتدئ، وبالشكر في أواسطه، وهو حال المتوسط، وبالفناء عن كل منهما في أواخره، وهو حال المنتهي، فبالصبر يصير الحضرم حلوًا، والمرّ سكرًا، فاصبر كما صبروا؛ تظفر كما ظفروا، **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**: أي اليقين المطلق الذي لا يقين فوقه، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**اللّهم إني أسألك إيمانًا يباشر قلبي، ويقينًا ليس بعده كفر**»(١)، رحمنا الله تعالى وإياكم بذلك.

٢٨- في المتفق عليه بين البخاري ومسلم: «مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا؛ فهو في سبيل الله»(٢):

إرشادٌ عظيمٌ للسالكين إلى ما يحصل به الفتوح الإلهية، والوصول إلى مقام القرب والوصال، وحاصله إن مَن قاتل نفسه التي هي أعدى الأعداء؛ ليكون التوحيد الروحاني ساريًا في الطبيعة، وقواها؛ فيكون الدين القلبيُّ عاليًا على الدين الذي يدعوا إليه النفس والشيطان؛ فهو فقط في السبيل الموصل إلى سر الله تعالى.

وأمَّا مَن قاتل شيء من الأغراض السالفة، أو العالية دون الله تعالى؛ فهو في سبيل ما سوى الله، والطريق إذا أوصل إلى الكون؛ فهو ليس بطريق؛ بل الطريق هو ما يوصِّل إلى الله تعالى فوق الكون؛ بل فوق عالم العلم؛ لأن العلم من الإضافات أيضًا؛ فقد ظهر من هذا أن أهل الوقفة إنما وقفوا في الطريق، ولم ينته بهم ذلك إلى المقصد؛ لفتور عزائمهم، وقصور نيَّاهم وقصودهم، فلا بد لأهل الإخلاص من قطع الأماني أية أمنية كانت؛ بل من مطلق الطلب؛ لأنه من الإضافات؛ لكن لا يظهر حقيقة هذا المقام إلا لأهل النهاية.

وغاية ما في الباب أن ههنا أمرين:

أحدهما: ما يرجع إلى جانب الحق تعالى.

والآخر: إلى جانب العبد.

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٦/١١٨)، وذكره الهيثمي في الزوائد (١٠/١٨١).

(٢) رواه البخاري (١/٥٨)، ومسلم (٣/١٥١٢).

فما يرجع إلى جانب الحق ينبغي أن يكون هو الغرض لا ما يعود إلى جانب العبد، فالعبد إذا طلب الدنيا أو الآخرة والفتح أو نحو ذلك؛ فهو إنما يطلب حظ نفسه في الحقيقة لإرضائه تعالى في امتثال أمره، فعليه أن يرجع عن المطالب الفانية؛ بل المقاصد الباقية، ويقوم مع مراد الحق الباقي، فإن ذلك هو العبودية التي لا يشوبها شيء مما يخالفها ويغابرها، ومن الله الإمداد على ذلك.

٢٩- قال البخاري: «مَن قال حين يسمع النداء»[1]:

المراد بالنداء: الأذان[2] لأنه لا بد فيه من رفع الصوت؛ ليسمعه الدَّاني

---

(١) رواه البخاري (١/٢٢٢)، وأبو داود (٢/٣٠٤).

(٢) قال العلواني: فصل في أرواح وصل من أرواح الأذان الذي هو روح كبير من أرواح الإسلام فهو روح الفتح في أرواح الصلاة وهو روح جامع في أرواح الأذكار.

وروح المؤذن لها روح سبح في أرواح الملك والملكوت «**المؤذنون أطول الناس أعناقًا**» لأنهم أوسع إطلاقا من الأرواح الشيطانية والمطلق الحلول له طول ﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلاً ﴾ [المزمل: ٧] أيها المؤذنون في أرواح العناصر بأرواح الأذكار فاذكر آي ربك في روح الأذان وتبتل إليه تبتيلا بعد الفراغ منه بأرواح الدعوات وأرواح الصلوات على الروح المكرم برفع روح ذكره وشرح مدره على كل الأرواح ثم بروح سواك الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود ثم بروح النافلة من الصلاة.

ففي الروح المحمدي: بين كل أذان وإقامة صلاة فروح التكبير بروح الله أكبر روح فتح في الأذان وروح فتح في الصلاة، فهو مكرر في الأذان لأنه على روح الدعاية روح فكر في روح الفتح على سبيل الروح الركني كغيره من أرواحه فإنها كلها أرواح دعاية إلى روح الصلاة المكتوبة في أرواح الأوقات.

فأرواح الأذان أرواح دعاية من المؤذن وأرواح إجابة من السامع على نحو ما قرر في الأرواح المحمدية والأرواح الفقهية فإذا قال المؤذن في روح الوقت: الله أكبر الله أكبر كان ذلك طلبا لإقبال الأرواح على أرواح الطهارة والصلاة.

وكان روح المعنى لا شيء أكبر من الله عظمة ولا أوسع بركة ولا أكثر موهبة، فأقبلوا على أرواح المواصلات التي أمركم بها من أرواح الطهارة وأرواح التي هي أرواح وصلتكم بأرواح الرحمة وأرواح الرضوان برفع الأغطية من أرواح الشيطان ومفاتيح الجنان، بأرواح الأذان التي إن كان لك روح تأمل وجدتها أرواح الصلاة.

=

=

ومن أرواح الأذان أرواح الإجابة فإذا قال المجيب: الله أكبر الله أكبر فروح المعنى صدقت أيها المؤذن بأنه لا شيء أكبر من الله عظمة، ولا أوسع بركة ولا أكثر موهبة فإذا قال المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله فتلك روح هداية، فيها روح دعاية وروح المعنى روح اعتراف بأن أرواح العبادة لا يستحقها إلا الروح المالك لسائر أرواح الوجود المعروف بأرواح الكرم والجود الذي بسط روح الرحمة لكل مقرب ومبعود.

فيقول المجيب أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله وروح المعنى حق ما تقول أيها المؤذن فلا تكذيب، ولا رد بل أنا مقبل على روح ما تقول بأرواح الصدق والجد، فإذا قال المؤذن أشهد أن محمدًا رسول الله أشهد أن محمدًا رسول الله، فذلك روح دعاية.

وفيه روح هداية إن هذه الأرواح أرواح محمدية دلنا عليها، وهدانا إليها فدعايتنا من دعايته، وهدايتنا من هدايته فهو رسول الله بهذه الأرواح، وهو سيد أرواح الرسالة وسيد كل روح من أرواح الهداية، والدعاية، وهو المؤيد بأرواح التنزيل من الأرواح الفرقانية، والأرواح الكشفية والأرواح الإلهية الطاهرة في أرواح المعجزات فهي الأرواح الخارقة للعادات.

وكم جاءنا بأرواح من البركات حتى ملأ الوجود بأرواح الجود:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] بأرواح الهداية وأرواح الدعاية وأرواح المعروف وأرواح العفو، وأرواح التبشير مع أرواح الإنذار وما أنت إلا السراج المنير في الروح الأول والروح الآخر والروح الباطن والروح الظاهر بإرشاد بأرواح الإرشاد إلى أرواح السداد بأرواح الذكر وأرواح الفكر التي بها التعرف بالأرواح الإلهية.

فأنت باب الله ومفتاح خزائن المعرفة بالله وأنت الروح المحبوب المقرب في كل ملة وروح وطريق ومذهب فيقول المجيب: أشهد أن محمدًا رسول الله أشهد أن محمدًا رسول الله وروح المعنى أني معترف بأرواح ما ذكرت وشاكر بكل روح شكرت بها.

هذا الروح الأعظم في أرواح المرسلين، والروح الأكرم في أرواح الواصلين والروح المقدم في أرواح المقربين، فله روح الإجابة إلى ما دعانا إليه وروح الدخول إلى ما هدانا إليه، فإذا المؤذن قال: حي على الصلاة، حي على الصلاة فروح المعنى إذا كان لك روح إقرار.

أيها المجيب السامع فأقبل على هذه الأرواح إليها الروح الإلهي بالأرواح الفرقانية، والروح المحمدي بالسنن الزكية، وأرواح السنن من الأرواح الإلهية ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣] فالروح المحمدي، لا يكون منه روح نطق إلا بروح حق.

إما من أرواح الوحي وإما من أرواح الحال الفائض من أرواح الكمال الفائضة من أرواح الجمال،

=

=

فيقول المجيب السامع: لا حول ولا قوة إلا بالله، فلا روح إقبال على أرواح الأعمال التي وقعت بها أرواح المعرفة، وأرواح التصديق، وأرواح الإقرار بأنها أرواح وصله إلى أرواح إلى.

والأرواح التي هي مفاتيح الجنان وكلها أرواح رضوانية مخلصة من الأرواح الشيطانية وهي الأرواح الخذلانية فكل روح شيطاني روح خذلاني وغطاء ظلماني فلكثرة أرواح الشياطين المعيقة عن السرعة إلى أرواح الغفران المزيلة لأرواح العصيان للداعين بأرواح الأذان إلى أرواح التقريب من أرواح الحق.

وأرواح المجيب لا حول ولا قوة إلا بالله على الانسلاخ من الأرواح الشيطانية والدخول في الأرواح الرحمانية والأرواح المحمدية فروح الحق هو الروح الجامع في كل الأرواح فأرواح الحول له وأرواح القوة بأرواح من أرواحه الرحمانية.

وهذا روح كمال في روح التوحيد من هذا الروح المجيب فيستحق أن يدعى إلى روح الفلاح من أجل روح الصلاح بروح التبري من الحول والقوة فيقول المؤذن: حي على الفلاح حي على الفلاح.

روح المعنى أقبل إلى ما ادخر لك الروح الإلهي في أرواح الطهارة وأرواح الصلاة أرواح الفلاح الكاملة وأرواح الرحمة العميمة الشاملة.

فيقول المجيب السامع: لا حول ولا قوة إلا بالله، روح المعنى أن روح الطهارة وروح الصلاة، وإن كان فيهما من أرواح الفلاح فإن روح الصلاة فيها روح المناجاة وروح لقاء الرب وذلك روح عظيم لا يقوى عليه الروح البشري والجسد العنصري إلا بروح من الله بسلخ الأرواح الشيطانية.

والأرواح الخذلانية وهي أرواح الخيال مما يكون من أرواح الوساوس بأرواح الاشتغال بما يكون من أرواح المكاسب السفلية من صور المباحات وأرواح المكروهات.

فيقول المؤذن: الله أكبر الله أكبر روح المعنى أقبل فإنك لا مشقة عليك فإن هذا الملك الجليل له روح الكشف وأرواح التحويل، فيقول المجيب السامع: الله أكبر الله أكبر روح المعنى إني أذهبت بالروح الأعظم كل روح من الأرواح الشيطانية، وما يكون منها من الأرواح الخذلانية وأقبلت على هذا الروح بالروح.

فيقول المؤذن لا إله إلا الله روح المعنى إن هذا المقبل قد ذهبت روحه وغابت في الأرواح الإلهية من روح الطهارة، وأرواح الصلاة وفي الأرواح المحمدية وهي السنن المرضية والأرواح الذكية للأرواح المتحققة بها، والمقبلة عليها والداخل إلى أرواح معانيها بصور مبانيها.

فيقول المجيب السامع: لا إله إلا الله روح المعنى إن الأرواح كلها لله فليبين بكثير أن يذهب في أرواح طاعته التي فيها روح المألف للأرواح الإنسانية بأرواح التعظيم والإجلال وأرواح الحب الفائضة

=

=

من أرواح القرب بالصور الجمالية.

والأرواح الكمالية وإلى الله المصير بروح هذا التعيين روح أمان في روح الأذان من الروح الفرقاني: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ [الإسراء: ١١١].

روح بيان في هذا الروح الفرقاني تفسر الاتخاذ للولد ينفي أن يكون ولدا، وإنما يكون عبدًا لأنه إذا اتخذه فإنما يتخذه بروح من الإيجاد بأرواح من الإمداد فلا يكون ولد، وإنما هو كغيره من أرواح الوجود العنصرية والبشرية.

وكل روح من أرواح الحيوان في معنى روح هذا الإنسان فما روح الفصل، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ [الإسراء: ١١١] يخرج روحا من الأرواح الغيبية ويركبها في هذه الصور العنصرية والمساكن البشرية ولا في صورة يعوضه ولا في روح نملة أو نحلة أو ذبابة فهو المنفرد بإيجاد أرواح الموجودات وكل صورة من صور أرواح الكائنات و لم يكن له ولي من أرواح الوجود ينصره من الذل يكون في الصور والأرواح فلا ذلك إلا على الروح المقيد بالأرواح الإلهية لا على الأرواح الإلهية المطلقة.

فإنه أرواح القهر: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٨] فكيف يكون له روح ذل من الأرواح القهرية،وهو القاهر في كل روح وصورة ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء: ١١١] يليق بأرواح قدسه.

وكل أرواحه الذاتية واعلم أنه لا إله إلا الله وفي روح آخر محمد رسول الله، وفي روح من الفرقان: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤] ففي هذا الروح روح بيان في روح حي على الصلاة في روح حي على الفلاح، فإن روح حي على الصلاة روح دعاية لما يجيء من أرواح الغفلة.

ومن أرواح الحدث ومن أرواح الجنابة ومن أرواح القاذورات، وأرواح النجاسات بأرواح الطهارة المدعو إليها الروح الإنساني بأرواح الأذان في ضمن الدعاية إلى روح الصلاة وبالأرواح الفرقانية.

والأرواح المحمدية وما أرواح الأذان إلا من الأرواح المحمدية والأرواح الفرقانية وحي على الفلاح روح دعاية لما يجيي من أرواح المشي إلى الجماعات، ومن أرواح السعي إلى أرواح الذكر في أرواح الجماعات، من الخطبة ومن أرواح الصلوات والتسليمات ومن أرواح الدعوات بأرواح الإقبال على روح القبول في روح الجمعة. ومن أرواح الفرقان في أرواح الأذان أرواح نداء لأرواح الإيمان ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الجمعة: ٩] والنداء هو رفع المؤذن أرواح صوته بأرواح الأذان.

=

=

فأرواح الأذان كما هي أرواح دعاية فهي أرواح إعلام بأرواح الأوقات وأوائل الأرواح الوقتية وهي أرواح الرضوان وأرواح أواسط الأوقات أرواح عفو وأرواح الأواخر أرواح غفران وأرواح الأذان معينة على أرواح من الدين بأرواح من التذكير.

وروح المؤذن من أرواح الدعاة إلى الله، وفي الروح الفرقاني: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [فصلت: ٣٣] أي بأرواح التذكير والأذان فيه أرواح من التذكير بأعظم الأرواح، وأرواح الفلاح في أرواح الإجابة للأرواح الداعية إلى الله بأرواح من التذكير.

ومنها أرواح الأذان وأقسم بالروح الأعظم مالك الأرواح أن من لا يكون له أرواح تذكر بالأذان فما له من روح توصله إلى الله فلا روح وصلة إلا بأرواح من الإجابة بعد أرواح التذكير وعمل صالحا من المشي إلى أرواح الجمع والجماعات فكل من الأرواح الساعية بأرواح الوصلة إلى أرواح الفلاح.

وفي أرواح الفلاح أرواح الانشراح وفي الأرواح المحمدية روح بشارة بأرواح الشهادة على أرواح الأذان لروح المؤذن لا يسمع صوت المؤذن حجر ولا شجر ولا إنس ولا جن ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة.

فكل روح من أرواح الموجودات من أرواح الجماد وما كان من الأرواح العنصرية والأرواح البشرية من أرواح الجان من يعشق أرواح الأذكار.

وإذا كان الروح السامع من أرواح الشياطين فر من أرواح الأذان حتى لا يكون شاهدًا بأرواح الأذان لروح المؤذن فهي لا بد أن تسمع بعض أرواح الأذان فتشهد فإن أرواح الشهادة على الأرواح الخفية من أرواح الأذان وغيرها غير موقوفة على أرواح الإيمان وفي الروح المحمدي: «**إن الله يغفر للمؤذن مدى صوته**» في أرواح الفضاء ومن أرواح الأذان أن يكون على أرواح الطهارة فلو وقعت أرواحه على أرواح الحدث، أو على أرواح الجنابة كان على أرواح من الكراهة.

وكذلك أرواح الإقامة مع أرواح الصحة والروح الأعظم في أرواح الأذان روح الإيمان فلا يكون له روح من أرواح الكفران، وبقية أرواحه أرواح الكلمات الموجودة فيه من روح الشارع، وفيه من روح الترتيب، ومن روح الموالاة فلو أسقط روحا من أرواحه خرجت روحه من أرواح الصحة أن يكون في روح الوقت وروح الوقت، في روح الصبح يدخل من روح نصف الليل فاعرف الأرواح في المساء والصباح من أرواح الأوقات لإقامة أرواح الطاعات من أرواح الطهارة ومن أرواح الأذان، ومن أرواح المفروضات من أرواح الصلوات على أرواح العباد من الأرواح الإنسانية الساكنة في الصور البشرية.

=

والقاصي؛ فيتهيأ للصلاة؛ وليشهد له يوم القيامة كل مَن سمعه من ذَوي الروح وغيرهم، فإن الجمادات أيضًا لها حياة حقانية خفية عن إدراك المحجوبين، جليَّة عن المكاشفين؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ﴾ [الإسراء:٤٤]: أي ينـــزِّه الله عن العجز، ويحمد الله على نعمة الوجود.

وقوله ﷻ: **﴿وَلَـــكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾** فضلاً عن استماعه والإصغاء إليه؛ إنما يفقهه ويسمعه الخَواص المطَّلعون علَى ملكوت السماوات والأرض، وفيه إشارة إلى أن الأعمال لا تُقلَّد إلا لمَن استحقها واستأهلها؛ بأن يكون المؤذِّن مثلاً أرفع الناس صوتًا؛ لينتفع الخلق بصوته، وأن يكون الإمام أفقه الناس؛ ليتمَّ الاقتداء به ويصح، وعلى هذا.

في الحديث: «**مَن قلَّد إنسانًا عملاً، وفي رعيته مَن هو أولى منه؛ فقد خان**

=

والمساكن العنصرية فأرواح الطاعات أرواح وصلة بأرواح الرضوان والفتح بها من الأرواح الرحمانية.
والمواهب الإحسانية وبها يكون أرواح السرور للأرواح المؤمنة ففي الروح المحمدي «**المؤمن**» أي الذي على روح كمال في روح الإيمان «**من سرته حسنته**» لأنه يراها من إحسان الله «**وساءته سيئته**» لأنه يراها من أرواح البعد عن أرواح الرحمة.
وفيها أرواح ظلمانية من الأرواح الشيطانية وهي أرواح الأغطية التي تحول بين المرء وروحه فلا يرى روحا طيبا من أرواح الحق المبشرة بأرواح الرضوان فكل روح من أرواح الحسنات له روح رضواني، لأنه من الروح الإحساني.
وكل روح من أرواح السيئات له روح شيطاني لأنه من الروح الرضواني الظلماني ونهاية أرواح العصيان أرواح العذاب ولو بأرواح الخذلان فأرواح الأذان فيها أرواح الوصل وأرواح من الفصل وأرواح من الحركة، وأرواح من السكون فروح الوصل الله أكبر وفيه من روح الفصل لكل روح شيطاني، وأرواح الشهادات أرواح وصل بأرواح الفتح في أبواب الرحمة.
ومنها أبواب الجنة وحي على الصلاة حي على الفلاح أرواح وصل بأرواح طاعة والحركات بأرواح اللسان وفيه حركتان عند روح حي على الصلاة في روح اليمين.
وعند حي على الفلاح في روح الشمال وروح السكون في روح القبلة تكون في بقية الأذان وهذا روح السنة في هذا الروح المحمدي، وفي كل روح من أرواح الإحسان وروح سكون بالجنان إلى أرواح الرضوان.

الله ورسوله وجماعة المؤمنين»(١):

والمراد بسماع النداء هاهنا: السماع المطلق الكامل، وهو لا يحصل إلا عند تمامه.

فالدَّاعي إنما يدعو بالدعاء الآتي بعد تمام الآذان: اللّهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة.

أخَّر الربوبية؛ لأنها تلو الألوهية، فهي منها بمنــزلة الوزير من السلطان، والكرسي من العرش، والقمر من الشمس، والصدر من القلب فهي أن الربوبية محل صدور الآثار بالفعل؛ ولذا نقول: إن الاسم الله اسم إلهي باطن، والاسم الرب اسم إلهي ظاهر، وكل منهما أعظم.

كما أن العرش اسم باطن كوني، والكرسي اسم ظاهر كوني؛ لأنه محل انقسام الوحي إلى الأمر، والنهي للذين هما القدمان المتدليان من العرش، وأضاف الربوبية إلى الدعوة؛ لأن تشريع الدعوة من باب الربوبية لِما فيها من تربية العباد بسرٍّ الانفصال والترقّي إلى سر الاتصال، ووصف الدعوة بالتامة، كما وصف الصلاة القائمة؛ إشارة إلى أن كلاً منهما تتم وتقوم إلى قيام الساعة؛ لأنهما من الأحكام القرآنية، والقرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه.

فالأذان لكونه بين يدي الصلاة لا يعتريه النقصان، كما أن الصلاة التي خلفه لا يعتريها الانقطاع فإنه من شعارها؛ ولذا جاء في الشرع إن أهل بلدة لو اتفقوا على ترك الأذان؛ يحاربهم الإمام، فبقاء التوحيد في العالم؛ يقتضي بقاء الآذان والصلاة ونحوهما فيه، فالله تعالى متمّ نوره الذي هو الآذان والصلاة ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢] المنكرون لهما، ولأمثالهما من الأحكام الشرعية، وفيه معجزة نبوية؛ لبقاء شرعه مدَّ الدهر.

كما قال وأفاد: **«آت محمدًا الوسيلة والفضيلة»**(٢):

---

(١) ذكره ابن حجر في الدراية (١٦٥/٢)، والزيلعي في نصب الراية (٦٢/٤).

(٢) تقدم تخريجه.

عطف الفضيلة على الوسيلة التي هي المقام المحمَّدي المخصوص به في ذروة عالم الجنان؛ إشارة إلى تفضيله بذلك المقام على سائر أهل المقامات من الأنبياء والأولياء عليهم السلام؛ كتفضيله بمرقده اللطيف على سائر أهل المراقد، فمرقده عين الوسيلة، وصورتها في هذا الموطن؛ ولكن لا يعرفه إلا أهل المراقد العالي، فاعرف.

وقال ﷺ: **«وأبعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته»**[1]:

: أي بقولك في التنزيل: ﴿**عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾ [الإسراء: ٧٩].

: أي يقيمك فيه، وهو المقام الكلي الجامع لجميع مقامات الكمال.

ومنها مقام الشفاعة العظمى[2]، فعسى أطماع، والأطماع من الكريم:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال الرصاع: صاحب الشفاعة: اسم من أسمائه ﷺ، وردت به الآثار، ومشهور الأخبار.

وقد قدمنا أنَّ من أسمائه الشفيع المشفع، ولكل اسم منها معانٍ تخصه مما دل على أنه عند مولاه بالمحل الأرفع.

فصاحب الشفاعة: أي المنفرد يوم القيامة بالسيادة وقضاء الحاجة، وتنفيس الكربة، وإظهار الكرامة حيث يعظم الهول، ويشتد الأمر، وتكثر الندامة.

والألف واللام في الشفاعة: يحتمل أن تكون للعهد، أي صاحب الشفاعة المعهودة في الموقف العظيم، والخطب الجسيم، والهول الشديد في يوم الوعيد؛ يوم: ترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد.

فإذا جثت الخلائق على الركب، وتميزت في العالم الأخروي أهل المكانة والرتب، والتجأ أهل المحشر إلى سيد العجم والعرب، أبرز مالك الملوك مكانة حبيبه في أعين العالمين؛ وأبان قدرة وفضله وشفاعته على سائر الخلائق أجمعين.

ويحتمل أن تكون الألف واللام للجنس: أي صاحب كل شفاعة احتاج الخلق إلى الله تعالى فيها، فلا يجدون أقرب، ولا أعلى من حبيبه وصفيه وخليله ﷺ؛ الذي لا ينازعه أحد فيها.

وقد قدمنا حديث الشفاعة في اسميه الشفيع المشفع، وذكرنا شفاعته ﷺ، وبيَّنا أقسامها بكلام مختصر أجمع.

ومما يناسب ذكره في هذا الاسم الكريم ويزيد القلوب حبًّا وشوقًا إلى النبي العظيم، ما ذكره بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿**لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ**﴾ [الحجر: ٤٤].

=

=

قال أنس ﷺ لما نزلت: «جاء جبريل التَّلِيْكِلِّ إلى رسول الله ﷺ في ساعة لم يكن يأتيه فيها، متغير اللون.
فقال له النبي ﷺ: ما لي أراك متغير اللون؟
فقال له: يا محمد جئتك في الساعة التي أمر الله نافخ النار أن ينفخ فيها.
فقال النبي ﷺ لشفقته على أمته، ورحمته بهم: صفها لي يا جبريل.
فأخذ يصف له جهنم وأهلها، وما فيها من الأغلال، والأنكال، وشدة أهوالها، وحرارة نارها، ونتن رائحتها».
بكلام فيه طول لا يسعه هذا وقد أوجزنا من ذلك اللباب، ثم بين للنبي ﷺ صفة أبوابها وطبقاتها وسكانها حتى انتهى إلى الباب السابع الأعلى منها، فأمسك عن ذكر سكانه شفقة على قلب نبي الله وحبيبه.
فقال له النبي : «ألا تخبرني عن سكان الطبقة السابعة؟
فقال له: يا محمد لا تسألني عن ذلك. فقال له: بلى يا جبريل أخبرني عنه.
فقال له: يا محمد فيه أهل الكبائر من أمتك الذين ماتوا مُصرِّين على الذنوب، و لم يتوبوا منها.
فلمَّا سمع ذلك نبي الله بكى، ووضع وجهه بالأرض شفقةً، وحزنًا على أمته.
فأخذ جبريل برأسه، ووضعه في حجره، فما زال معه حتى سكن وأفاق.
فقال له: يا جبريل عظمت مصيبتي، واشتدَّ حزني على أمتي، أيدخل أحد من أمتي النار؟
قال: نعم أهل الكبائر منهم، فبكى ﷺ، وبكى معه جبريل بكاء شفقة ورحمة، ثم إن النبي ﷺ دخل منـــزله، واحتجب عن الناس، فكان لا يخرج إلا للصلاة، واشتغل بنفسه و لم يكلم أحدًا.
فلما كان في اليوم الثالث، أقبل أبو بكر الصديق حتى وقف بالباب.
فقال: السلام عليكم يا أهل بيت الرحمة، فهل إلى رسول الله ﷺ من سبيل؟ فلم يجبه أحد.
فتنحى وهو يبكي، فأقبل سلمان فوقف بالباب.
فقال: السلام عليكم يا أهل بيت الرحمة؛ فهل إلى مولاي رسول الله ﷺ من سبيل؟
فلم يجبه أحد، فذهب يبكي، يقع مرة ويقوم أخرى حتى أتى بيت فاطمة رضي الله عنها فوقف بالباب.
فقال: السلام عليكم يا أهل بيت المصطفى، وكان عليّ غائبًا.
فقال سلمان: يا بنت رسول الله إنَّ رسول الله ﷺ قد احتجب عن الناس، فلم يكلم أحدًا.
فاشتملت فاطمة بثوب لها، وذهبت حتى وقفتْ على الباب، باب رسول الله ﷺ، ثم سلمت، فقالت: يا رسول الله أنا فاطمة، ورسول الله ﷺ ساجد يبكي، ورفع رأسه، وسلَّم من الصلاة.

=

=

وقال: ما بال قرَّةُ عيني فاطمة حُجبت عني، واحتجبت عنها؟ افتحوا لها الباب، ففتحوا لها، فدخلت فكلّمها.

فلما نظرت إلى أبيها ﷺ بكت بكَاءً شديدًا لما رأت من حاله، ووجهه مصفر، ولونه متغيِّر، ولحمه مذاب من البكاء والحزن.

فقالت: يا رسول الله ما الذي نزل عليك من الوحي؟

فقال لها: إنَّ حبيبي جبريل، وصف لي جهنم، وما فيها وأبوابها، وطبقاتها، وأخبرني في أعلاها أهل الكبائر من أمتي فأبكاني وأحزنني.

فقالت: يا رسول الله أو لم تسأله كيف يدخلونها؟

فقال: قد سألته.

فقال: تسوقهم الملائكة إلى النار، ولا تسود وجوههم، ولا تزرق عيونهم، ولا يختم على أفواههم، ولا توضع عليهم السلاسل والأغلال إكرامًا لهم؛ لأنهم أمة لأبيك ﷺ.

قالت: يا رسول الله كيف تسوقهم الملائكة؟

فقال لها: أما الرجال فتقودهم باللحى، وأما النساء فبالذوائب والنواصي.

فيا فاطمة كم من ذي شيبة من أمتي قد قبض على شيبته يُقاد به إلى النار، وهو يقول: واشيبتاه، واضعفاه.

وكم من شاب من أمتي قد قُبض على لحيته يُقاد به إلى النار، وهو يقول: واشباباه، واحسن صورتاه.

وكم من امرأةٍ قبض على ناصيتها تقاد إلى النار، وهي تقول: وافضيحتاه.

حتى ينتهي بهم إلى مالك خازن النار، فإذا نظر إليهم تعجَّب منهم في كونهم لم تسود وجوههم، ولم توضع السلاسل في أعناقهم.

فيقول لهم: ما لكم يا معاشر الأشقياء، من أنتم؟

فيقولون: نحن من أمة نزل عليهم القرآن، ونسوا اسم محمد ﷺ من شدة الهول والدهشة.

فيقول لهم مالك: ما نزل القرآن إلا على محمدٍ ﷺ، فإذا سمعوا اسم محمد الحبيب صاحوا وضجوا بالبكاء والنحيب. وقالوا: نحن من أمة محمد.

فيقول لهم: أمَا كان لكم في القرآن زاجر عن معاصي الله ﷻ؟

فإذا أوقفهم على شفير جهنم، نظروا إلى النار وزبانية العذاب.

وقالوا: يا مالك! ائذن لنا أن نبكي على أنفسنا، فيبكون الدم حتى يفنى.

فيقال لهم: ما أحسن هذا البكاء، لو كان في الدنيا من خشية الله.

=

=

فيقول مالكٌ للزبانية: ألقوهم في النار، فإذا ألقوهم فيه نادوا بأجمعهم: لا إله إلا الله، فترجع عنهم النار.

فيقول مالك للنار: خذيهم يا نار، فتقول له: كيف وهم يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله؟

فيقول لها مالك: بذلك أمرنا ربنا جلَّ جلاله، فتأخذهم النار.

فمنهم مَن تأخذه إلى قدميه.

ومنهم مَن تأخذه إلى ركبتيه.

ومنهم مَن تأخذه إلى حلقه.

فإذا هوت النار إلى وجوههم يقول لها مالك: لا تحرقي وجوههم طال ما سجدوا لله في دار الدنيا، ولا تحرقي قلوبهم طال ما عطشوا في نهار رمضان، فيلبثون ما شاء الله ثم ينادون: يا أرحم الراحمين.

فإذا أنفذ الباري جلَّ جلاله حُكمه، نادى: يا جبريل ما فعل العاصون من أمة محمد؟ وهو سبحانه أعلم.

فيقول: يا رب أنت أعلم بهم.

فيقول له: انطلق، وانظر إلى حالهم، فينطلق جبريل فيدخل على مالك خازن النار، وهو على منبر من نار في وسط جهنم، فإذا نظر مالك إلى جبريل قام تعظيمًا له.

فقال له: ما أتى بك إلى هنا يا جبريل؟

فيقول له: ما فعل العاصون من أمة محمد؟

فيقول له: ما أسوأ حالهم، وأضيق مقامهم، وقد أحرقت النار أجسادهم، وأكلت لحومهم، وبقيت وجوههم يتلألأ فيها الإيمان.

فيقول له: ارفع الطبق عنهم حتى أنظر إلى حالهم، فإذا نظروا إلى جبريل وحسنه، علموا أنه من ملائكة الرحمة.

فيقولون: مَن هذا العبد الذي لم نرَ أحسن منه؟

فيقول لهم مالك: هذا جبريل الكريم على رب العالمين الذي كان يأتي محمدًا، فإذا سمعوا ذكر محمد صاحوا بأجمعهم.

وقالوا: يا جبريل: اقر محمدًا منا السلام، وأخبره أنَّ معاصينا فرَّقت بيننا وبينه، وأخبره بسوء حالنا.

فينطلق جبريل حتى يأتي إلى رب العالمين، فيخبره وهو أعلم، ثم يقول المولى جلَّ جلاله: انطلق فأخبر محمدًا بسلام أمته، فينطلق جبريل حتى يأتي محمدًا ﷺ، وهو في خيمة من درة بيضاء لها أربعة آلاف باب من زبرجد وذهب مرصعًا.

فيقول: يا محمد جئتك من عند أمتك الذين يعذبون في النار، وهم يقرؤونك السلام، ويقولون لك: ما

=

﴿وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

ووصف المقام المحمود؛ لأن محمدًا ﷺ محمود قربه، فمقامه أيضًا محمود[١].

=

أسوأ حالنا وأضيق مكاننا.

فيأتي رسول الله ﷺ إلى العرش، ويخر ساجدًا، ويثني على الله ثناءً لم يثنه أحد مثله.

فيقول له أرحم الراحمين: يا محمد ارفع رأسك، وسلْ تُعطَ، واشفع تشفع.

فيقول: يا رب إنَّ الأشقياء من أمتي قد أنفذت فيهم حكمك، وانتقمت منهم، فشفعِّني فيهم.

فيقول المولى جلَّ جلاله: قد شفعتك فيهم، فيأتي ﷺ إليهم؛ ليخرج من النار مَن قال: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

فيقبل ﷺ فإذا نظر إلى مالك قال: يا مالك ما حال الأشقياء من أمتي؟

فيقول: ما أسوأ حالهم، وأضيق مكانهم.

فيقول له نبي الله: افتح الباب، وارفع الطبق، فإذا نظر أهل النار إلى النور الساطع والقمر اللامع محمدًا ﷺ صاحوا بلسان واحد: وامحمداه قد أحرقت النار جلودنا، ووصلت إلى أكبادنا، فيتعلقون بنبي الله ورسوله، وحبيبه؛ فيخرجون معه، وقد صاروا حممًا، فينطلق بهم إلى نهر عند باب الجنة، فيغتسلون فيه، فيخرجون منه شُبَّانًا جُردًا مُردًا كأنَّ وجوههم القمر ليلة البدر».

ويجب على مَن علم أنَّ نبينا محمدًا ﷺ صاحب الشفاعة أنْ يتخذ عنده اليد العظمى والبضاعة، وعلى آله وصحبه في كل وقت وساعة، والصلاة عليه أفضل ما تجدون في قيام الساعة.

فأكثروا يا أمة محمد من الصلاة على نبيكم وحبيبكم، فإنها مناجاة لكم.

قال رسول الله ﷺ: «**رأيت رجلاً من أمتي يتعلق بالصراط المنصوب على جهنم فمرَّة يحبو حبوًا، ومرَّة يسحب سحبًا، ومرَّة يمشي على وجهه، فجاءته صلاته وسلامه عليّ، فأقامته على الصِّراط حتى اجتاز عليه**».

فمن أكثرَ من الصلاة عليه ﷺ أقامته صلاته على الصراط ونَحَّته مِن جهنم وصارت عليه بردًا وسلامًا، فضلاً من الله وإنعامًا.

فيا أيُّها العاصون توبوا إلى الله قبل الممات، وتشفَّعوا إليه بأفضل البريات، وخاطبوا مولانا جلَّ جلاله بالابتهال إليه في السر والعلانيات، قائلين بلسان حالكم ومقالكم، راغب على الله كل واحد منكم: وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه، وسلَّم تسليمًا، وزاده مولانا شرفًا وتعظيمًا.

(١) صاحب المقام المحمود: اسم من أسمائه ﷺ، ورد بمعناه الآثار، ومشهور الأخبار، وقد أشار إلى
=

ذلك مولانا جلّ جلاله في كتابه العزيز الذي أتى إليه بالخيرات ركوعًا وسجودًا.

فخطاب نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسرا: ٧٩].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: سُئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية، قال: «**هي الشفاعة**»(١).

وروى كعب بن مالك، عنه ﷺ أنه قال: «**يحشر الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تلّ، ويكسوني ربي حلة خضراء ثم يُؤْذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود**»(١).

وعن ابن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**المقام المحمود هو قيامه ﷺ عن يمين العرش مقامًا لا يقومه غيره، فيغبطه فيه الأولون والآخرون**».

وبالجملة فالمقام المحمود هو: كل مقام عظيم لا يناله أحد من مخلوقات الله، وإنما خصَّ الله تعالى به نبي الله، وحبيب الله ﷺ.

والأحاديث أكثرها دال على أن المقام المحمود هو: شفاعته العظمى لأهل المحشر في يوم لا مانع فيه ولا وزر.

وقد رُوي في بعض الآثار: إنَّه إذا كان يوم القيامة ينصب كرسي عن يمين العرش من نور، وينصب كرسي من نور عن يسار العرش، وينصب كرسي من نور أمام العرش، فيقعد نبينا وحبيبنا، ومولانا، محمد ﷺ عن يمين العرش، ويقعد إبراهيم الخليل عن يسار العرش، ويقعد أبو بكر أمام العرش، ويأذن الله ﷻ في النظر إليه، فينظرون إلى الله ﷻ وينظر إليهم.

ثم ينادي مناد: يا لك من صدِّيق بين خليل وحبيب.

فهذا أيها المحبون مقام نبينا المحمود، وهذه منـــزلته عند الملك الإله المعبود، وإياكم رحمكم الله أن يخطر ببالكم بما لا يليق بربي، وربكم من الجهة، والكيف، والمكان، والآن، والزمان؛ فإنه سبحانه قديم أزلي لا يشبهه شيء من المخلوقات، ولا يشبه شيئًا منها في جميع موجوداته.

فالعرش والكرسي: خلق من خلقه، كان الله ولا شيء معه في أزله فهو الأزلي على أزليَّته، لا يتبدَّل، ولا يتغير، ولا ينتقل من مكان، ولا يحلُّ في جهة ولا يتقدَّر.

ولكن لما كان العرش أعظم المخلوقات وحفَّت به ملائكة الله من جميع الجهات، ولا يصل إليه إلاَّ مَن اختاره الله من البريات، ولم يكن في الوجود عند الله أكرم، ولا أعظم من رسول الله، فذكر ذلك؛ لمنـــزلة العزيز القدر عند الله.

والنظر إلى مولانا، ورؤيته جائزة عند أهل الحق، كما يجب للكبير المتعال من نفي الجهة، والمكان، والعلو، واليمين، والشمال؛ بل يُرى سبحانه بالأبصار رؤيةً حقيقيَّةً يستحيل فيها المقابلة والجهة، يتعالى عن ذلك الملك القهَّار.

وإذا سمعتم شيئًا من ذلك فقولوا: آمنَّا بالله وبما جاء عن الله على لسان رسول الله ﷺ.

وهذا الأثر العظيم دلّ على علو منـــزلة أبي بكر الصديق المؤانس لنبينا في كل صحب ورفيق ﷺ، وحق له ذلك، فإنّ مَن أحبَّه أقام الدِّين، ومَن توالت محبته في قلبه تمكّن في اليقين.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: ذُكر ذات يومٍ أبو بكر عند رسول الله ﷺ.

فقال: «ما لكم في أبي بكر، والله الذي لا إله إلا هو لقد رأيت ليلة أُسريَ بي مكتوبًا حول العرش آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

إلى قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ثم رأيت مكتوبًا: محمد رسول الله، قبل أن يخلق الله الشمس والقمر بألفي عام، ورأيت أبا بكر الصديق مكتوبًا اسمه على أثري».

وفي رواية عنه ﷺ من طريق ابن عباس رضي الله عنهما: «إنّه كان في مناجاة حبيب الله ليلة الإسراء من قول الله تعالى: حبيبي محمد حب مَن أُحبُّ.

فقلت: يا إلهي وسيدي مَن تُحبُّ؟

قال لي: أحبُّ أبا بكر حبَّهُ فإني أُحبُّه، فلما هبطت عارضني جبريل عند سدرة المنتهى وهو مقامه، ولو جاز ذلك المكان لما أطاق لقوّة النور.

قال لي: يا محمد ماذا قال لك ربك؟

قلت: قال لي: حبَّ أبا بكر فإني أُحبُّه، فتبسَّم جبريل، ثم قال: يا محمد والذي بعثك بالحق لو أحبَّه أهلُ السموات والأرض لَما عذّب الله أحدًا منهم بالنار».

فاشكروا الله عباد الله على محبتكم، وتوسلوا إلى مولاكم بنبيكم.

ومن آداب مَن علم أنّ نبينا ﷺ صاحب المقام المحمود، وتحقق أنه حبيب الملك المعبود، وأن الله تعالى أعطاه هذه المنازل، وحبَاه أكرم الخُلُق، وخصَّه بِها وبجميع الفضائل، علم أن ذلك لسبقيته الخلائق في طاعة الله، وسعيه في مصالح عباد الله وبذل جهده في شفقته على خلق الله.

وتأمَّلوا رحمكم الله قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

كيف أمره المولى جلّ جلاله بدوامه على التهجد مع ما كان عليه ﷺ من الجد في قيام الليل، وأيُّ عبد يطيق من العبادة ما كان ﷺ يطيق؟ ثم رتب تعالى بعده المقام المحمود على جده وطاعته وتهجده.

فكيف تطمع أيها الكسلان في رفع الدرجات مع التواني، وتقليل الحسنات؟

فبادروا رحمكم الله بالجد في طاعته، وبالشفقة على خلق الله، خصوصًا بالضعفاء والفقراء فإنهم عيال الله.

رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «يُؤتى يوم القيامة بالعبد الفقير، فيعتذّر الله إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل في دار الدنيا.

وفيه إشارة إلى شرف الافتقار، وإظهار الرغبة في حصول الموعود، وإلا فالله تعالى يُخبر وعده دعا به العباد أولاً.

قال ﷺ: **«حلّت له شفاعتي يوم القيامة»**(١):

المراد بالحلول: الوجوب والثبوت، أو النـــزول، وبالشفاعة خصوصها لا عمومها؛ لأن عموم الشفاعة لا يحتاج إلى الدعاء بالدعوة المذكورة، ومعنى خصوص الشفاعة راجع إلى سرِّ الوسيلة، فإن مَن دعا في حق نبيه ﷺ بمقام لا أخص منه مقامًا؛ استجلب من صاحب المقام بخصوص عمله جزاء مناسبًا له؛ وهو المذكور من خصوص الشفاعة، وهو سرٌّ بينه وبين النبي ﷺ.

إذ الأحوال متباينة، والناس في الاستعدادت متفاوتة؛ ولذا نقول: إن استغفار

=

فيقول: وعزتي وجلالي ما زويتُ الدنيا عنك لهوانك عليّ، ولكن لِما أعددت إليك من الكرامة والفضيلة، اخْرج يا عبدي إلى هذه الصفوف، فمَن أطعمك فِيّ، أو كساك فِيّ يريد وجهي، فخذ بيده فهو لك، والناس يومئذ قد ألجمهم العرق، فيتخلل العبد الصفوف، وينظر مَن فعل ذلك به فيأخذه بيده ويدخله الجنة».

وقال ﷺ: «أكثروا من معرفة الفقراء، واتخذوا عندهم الأيادي، فإنّ لهم دولةً فقالوا: يا رسول الله وما دولتهم؟

قال: إذا كان يوم القيامة قيل لهم: انظروا من أطعمكم كِسرةً، أو سقاكم شربةً، أو كساكم ثوبًا، فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة».

فإذا أعطى مولانا جلّ جلاله هذه الفضيلة للفقراء مِن سائر خلْقه، وأمر باتّخاذ الأيادي عندهم، فكيف أيُّها المحبون في هذا النبي الشريف لا تتخذون الأيادي عند من أعطاه الله المقام المحمود، وخصه بمزايا الكرم والجود، وحباه بالمِنَن، وشرَّفه على سائر الوجود؟

فاجهدوا جهدكم في تعظيمه وتوقيره، وإكرامه وتبجيله، واقدروه قدره، وعظموا ذكره، فإنّه السيد الكامل الفاتح الخاتم، المسمّى في الجنة أبا القاسم.

فأكثروا من الصلاة عليه، وادَّخروا من الصلاة هذه الغنيمة لديه، تردوا يوم القيامة عليه متعلقين بلوائه، محشورين مع خاصة أصفيائه، مستنصرين بجنابه الرفيع، مستمسكين بحصنه المنيع، فهو الكريم على الله فلن يخيب طالبه، وهو العزيز القدر عند مولاه فلا يحرم سائله:

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وسلّم تسليمًا، وزاده مولانا شرفًا وتعظيمًا.

(١) تقدم تخريجه.

النبي ﷺ لنفسه ليس كاستغفار أحدًا منا لنفوسهم، فإن الزَّلات والتلوينات على مراتب، فالاستغفار مشترك فيه؛ لكن المغفرة إنما تجيء من الله تعالى بحسب حال المستغفر.

وكذا الشفاعة في الدَّارين[1].

(١) اختص ﷺ بأنه أول من تنشقّ عنه الأرض، وأول من يفيق من الصعقة، وبأنه يُحشر في سبعين ألف ملك، ويُحشر على البراق، ويؤذّن باسمه في الموقف، ويكسى فيه أعظم الحلل من الجنة، وبأنه يقوم عن يمين العرش وبالمقام المحمود، وأنه بيده لواء الحمد، وآدم فمن دونه تحت لوائه، وأنه إمام النبيين يومئذٍ وقائدهم وخطيبهم، وأول من يؤذن له في السجود، وأول من يرفع رأسه، وأول من ينظر إلى الله تعالى، وأول شافعٍ وأول مُشَفَّعٍ، ويسأل الله في غيره، وكل الناس يسألون في أنفسهم، وبالشفاعة العظمى في فصل القضاء، وبالشفاعة في إدخال قومٍ الجنة بغير حساب، وبالشفاعة فيمن استحق النار ألا يدخلها، وبالشفاعة في رفع الدرجات بأناس في الجنة، كما جوز النووي اختصاص هذه والتي قبلها به، وورد به الأحاديث في التي قبل، صرح به القاضي عياض وابن دحية، وبالشفاعة في إخراج عموم أمته من النار حتى لا يبقى منهم أحدٌ، ذكره السبكي، وبالشفاعة لجماعة من صلحاء المسلمين ليتجاوز عنهم في تقصيرهم في الطاعات، ذكره القزويني في العروة الوثقى، وبالشفاعة في الموقف تخفيفًا عمن يحاسب، وبالشفاعة فيمن خلد في النار من الكفار أن يخفف عنهم العذاب، وبالشفاعة في أطفال المشركين ألا يعذبوا، وسأل ربه ألا يدخل النار أحدٌ من أهل بيته فأعطاه بذلك، وأنه أول من يجيز على الصراط، وأنه أول من يقرع باب الجنة، وأول من يدخلها وبعده ابنته، وبالكوثر، زاد أوب سعد وابن سراقة: وبالحوض.

قلت: لكن ورد أن لكل نبيٍّ حوضًا، وفي إثر في خصائصه: «وحوضه أعرض الحياض وأكثرهم وارد»، وبالوسيلة وهي أعلى درجة في الجنة.

وقال عبد الجليل القصري في شعب الإيمان: الوسيلة التي اختص بها في التوسل وذلك أن النبي ﷺ يكون في الجنة بمنـــزلة الوزير من الملك بغير تمثيلٍ لا يصل إلى أحدٍ شيءٌ إلا بواسطته، وقوائم منبره رواتب في الجنة.

ومنبره على ترعة من ترع الجنة، وما بين قبره ومنبره روضة من رياض الجنة، ولا يطلب منه شهيدٌ على التبليغ، ويطلب من سائر الأنبياء، ويشهد لجميع الأنبياء بالبلاغ، وكل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببه ونسبه، فقيل معناه: أن أمته ينسبون إليه يوم القيامة، وأمم سائر الأنبياء لا ينسبون إليهم، وقيل: ينتفع يومئذٍ بالنسبة إليه، ولا ينتفع بسائر الأنساب، ويكنى به آدم عليه السلام في الجنة دون =

وأيضًا فإن حلول الشفاعة للداعي المذكور؛ إشارة إلى زيادة تعلُّقها به، وفرط اتصالها، إذ لا شك أن الأسباب الموجبة للمسبب إنما من بين قوية وضعيفة، ثم سر التحريض على الدعاء المذكور من باب الغيرة الإلهية، فإنه ﷺ وإن كان معدن جميع الكمالات، ومنبع جملة الفيوض والكرامات إلا أن الأمة من حيث وقوفهم في موقف التفصيل لتلك الجملة الشريفة؛ كان لهم حكم مخصوص من الله تعالى.

وإليه يشير أن السلطان إنما يجلس في السرير في ابتداء السلطنة باتفاق الرعية وإجلاسهم، وإن كان هو آمرًا لهم، وناهيًا، ومتصرِّفًا، وحاكمًا.

فالأفضلية من وجهٍ لا ينافي المفضولية من وجهٍ آخر، وعليه إطباق كُبراء الصوفية، ولله الحمد، ولرسوله وآله وصحبه الصلاة والسلام.

وفي الحديث: إشارة إلى أن الدعاء يستجاب عند الأذان؛ لأنه يُنفتح أبواب الملكوت عنده، ويفرُّ الشيطان منه، ويجذُّ النفس إلى الرحمن، وتخصيص الدعاء بالأذان لما فيه من الشهادتين، ورفع لذكر النبي كما قال تعالى: ﴿**وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾ [الشرح:٤]، فكان أنسب أن يُطلب له الدرجة الرفيعة في الآخرة أيضًا، فهو في الدنيا أرفع كل رفيع من حيث الكمال، وفي الآخرة أعلى كل عَلي من حيث المقام والحال، فله صورة العُلو ومعناه على التمام.

ولذا كان شجرة طوبى محمدية المقام، منه انقسمت الكمالات في الدنيا، ومنه

=

سائر ولده تكريمًا له، فيقال له: أبو محمد، ووردت أحاديث في أهل الفترة: أنهم يمتحنون يوم القيامة، فمن أطاع دخل الجنة، ومن عصى دخل النار.

قال بعضهم: والظن فيهم كلهم أن يطيعوا عند الامتحان لتقرهم عينه، وورد أن درجات الجنة بعدد أي القرآن، أو أنه يقال لصاحبه: اقرأ وارق، فآخر منـــزلة عند آخر آية يقرؤها، ولم يرد في سائر الكتب مثل ذلك، ويخرج من هذا خصيصةٌ أخرى، وهو أنه لا يُقرأ في الجنة إلا كتابه، ولا يتكلم أحدٌ في الجنة إلا بلسانه، وفي تفسير ابن أبي حاتم عن سعيد بن أبي هلال: أنه بلغه أن المقام المحمود أن رسول الله ﷺ يوم القيامة يكون بين الجنان وبين جبريل فيغبطه بمقامه ذلك أهل الجمع. وانظر: مرشد المختار لابن طولون الدمشقي (ص٢٤٧) بتحقيقنا.

تشعبت الراحات في الآخرة، وقد خلق الله الجنان على طبقات مختلفة؛ مراعاةً لمقامات أهاليها، ومحافظة على أحوال ساكنيها، فيا أعظم سعادة للأعالي، ويا أفضل سيادة للموالي، فمَن تحرَّكت نفسه؛ فلتتحرك إلى المعالي، فإن تلك الحركة من عُلو الهمة لا كامل الأهالي، والله العالي، وإليه رجوعي في مصعدي، وعليه اتِّكالي.

ثم لَّما كانت حال الآخرة على طبق حال الدنيا في بعض الصور؛ كالشفاعة كالترقيات الجليَّة، والعفو عن الجرائم العظيمة؛ كان مَن خصَّ الشفاعة النبوية في الآخرة بالترقيات، وزيادة الثوبات؛ **جاهلاً عن أسرار التنـــزُّلات والمنازلات؛ فقد يصعد العبد إلى ربه، وقد ينـــزل الرب إلى عبده.**

وقد قال: «**ألا تحبون أن يغفر الله لكم**»(١)، فقد علَّق مغفرته لمغفرة الناس بعضهم لبعض، وقد كانت الأسماء الجمالية أقتضت سعادات العباد دنيا وآخرة، فمن سعادة وقعت في الدنيا بالشفاعة العظمى، ومن سعادة وقعت في الآخرة بها، وآخر الشفعاء أرحم الراحمين ولا يعرفه إلا الكبراء من العارفين المحققين.

٣٠- **في الحديث**: قال رسول الله ﷺ: «**إن الشيطان إذا سمع النداء بالصلاة ذهب حتى يكون بالروحاء**»(٢):

الروحاء: موضع بينه وبين المدينة المنورة ستة وثلاثون ميلاً على أن يكون كل ميلين منها ساعة نجومية؛ فيكون المجموعة من الأميال ثماني عشرة ساعة؛ هي مدة السفر عند الإمام أبي حنيفة رحمه الله، يعني: إن الشيطان المأخوذ من البُعد إذا سمع الآذان بالمدينة أبعد إلى مدة السفر؛ ليستريح من الألم كما دلَّ عليه لفظ الروحاء.

وفيه إشارة إلى مَن خرج عن مجلس العلم، ولو خُطوة؛ ،فإنه كمَن سافر منه إلى مدة السفر، إذ لم يخرج إلا لراحته الطبيعية، وبين الراحة الطبيعية، والراحة القلبية بَوْن بعيد، فسحقا لأصحاب السعير، وبعدًا للقوم الظالمين؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بالبعد عن مجلس العلم؛ فأبعدهم الله تعالى عن المعلوم الحقيقي الذي هو ذاته تعالى،

---

(١) رواه البخاري (٢/٩٤٥)، ومسلم (٤/٢١٣٦).

(٢) رواه أحمد (٣/٣١٦)، والبيهقي في الكبرى (١/٤٣٢).

وكانوا من أصحاب السعير، إذ الجزاء من جنس العمل.

وذلك إنهم خرجوا عن مجلس العلم؛ ليبـــرِّدوا حراراتهم الطبيعية بالمأكولات والمشروبات، وبكلام الدنيا والمساوئ؛ فأدخلهم الله تعالى في سعير أشدّ من نارهم المسعورة في بواطنهم؛ لأنها تَطّلع على الأفئدة، والأفئدة هي قوام الأجساد، فإذا احترقت؛ احترقت الأجساد كلها.

فعُلم من هذا التقرير: إن الشيطان مُظهر البعد، فكل مَن كان مُظهرَ البعد؛ فهو شيطان أضلّه الله تعالى على قرب منه وعلم، فإن المحجوب الجاهل لا يرى إلا ما سواه تعالى، ولا يعرف إلا الأغيار، عصمنا الله وإياكم من نار البعد، والقطيعة، وعذاب السعير.

وإنما خصَّصنا مجلس العلم بالإشارة؛ لأن نداءه أعم من النداء الحسي والمعنوي.

أمَّا النداء الحسي: فكالدعوة إلى مرتبة الشريعة، وآثارها آثار حسِّية جنائية؛ هي نعيم حسِّي من مأكول، ومشروب، ومنكوح حسِّي، وفيه يدخل الآذان، والدعوة الصلواتية.

وأمَّا النداء المعنوي: فكالإرشاد إلى مرتبة الحقيقة، وآثارها آثار معنوية رحمانية روحانية؛ هي نعيم باطني من مأكول، ومشروب، ومنكوح حقيقي دلّ عليه قوله ﷺ «**إنكم مثلي إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني**»[1].

٣١- **في المتفق بين الصحيحين:** قال رسول الله ﷺ: «**مَن قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير عشر مرات؛ كان كمَن اعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل**»[2]:

المراد بالوحدة المطلقة التي هي مبدأ نفي الشركة لا الوحدة المقابلة للكثرة[3]:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٥/٢٣٥١)، ومسلم (٤/٢٠٧١).

(٣) قال السيد مصطفى البكري: وأمَّا قول أهل الحق القائلين بوحدة الوجود على الوجه الأحق، فإذا قالوا: ما في الوجود إلا الله مثلاً فمرادهم من حيث القيومية فإن به تعالى قيام كل شيء وهو =

=

القائم على كل نفسٍ بما كسبت ومن حيث تجلّيه وإمداده وتولّيه، لا أن هذه الصور الحادثة الفانية المقيَّدة المحدودة وجوده، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وتختلف أذواق أهل هذه المشاهد، فمنهم مَن يكون ذوقه صديقيًّا، فيقول: مَا رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله.

فأولاً رأى قيوميَّة الحق وتجلّيه على الشيء، ثم رأى الشيء ولم ينفهِ ولو نفاه؛ لكان سُكرًا، فكان مشهده كاملاً حيث جمع بين شهود الحق والخلق في آنٍ، لكنه غلب عليه شهود الحق، فرآه أولاً ثم رأى الخلق.

ومنهم: مَن يكون مشهده فاروقيًا، فيقول: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله فيه: أي متجلّيًا بقيوميته عليه، وهذا المشهد دون الأول من حيث الذوق.

ومنهم: مَن يكون مشهده مشهدًا عثمانيًا، فيقول: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله معه.

ومنهم: مَن يكون مشهده مشهدًا عَلويًّا، فيقول: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله بعده.

وثمَّ فوق هذه الأذواق أذواق كثيرة لا حدَّ لها ولا نهاية، قد ذاقها الأصحاب والأحباب، ساروا على منهج السنَّة والكتاب.

ولقد سألت شيخنا الهمام سيدي الشيخ عبد الغني حفظ الله وجوده للأنام عن مقام المعرفة الخاصة، هل يكون بدون جدٍّ واجتهاد.

فقال: لا، فقلت: ولا بد فيه من الذوق والوجدان، والقال لا يكفي دون الحال.

فقال: نعم، فقلت: وكيف السبيل إلى طريق الذوق والوجدان.

فقال: بملازمة الطاعات ونوافل الخيرات والاشتغال بالله والإقبال عليه، كما نصَّت عليه الأشياخ.

فبهذا يحصل الذوق لطالبه أو ما هذا معناه، وسألته عن أهل مقام الجمع.

فقال: أولئك قومٌ سُكارى، فالسكران لا يعول على قوله فإنه يقول: أرى كذا وكذا والصاحي ينكر قوله؛ لعلمه أن ما يدَّعيه غير صحيح في نفس الأمر، وإنما تخيَّل لفرط سكره، إن الأمر كما أخبر وليس كذلك؛ بل الأمر كما هو عند الصاحي فإن السكر حال مدهش يُذهب بعقل صاحبه فلا يعتد بكلامه) بما معناه.

فقول السكران: ما في الوجود إلا الله حق من وجه؛ لأن الوجود الحادث قائمٌ به تعالى، فالوجود على الحقيقة له؛ إذ قيام الكل به، لكنه لما أنكر وجود الخلقيَّة بالكليَّة.

قلنا: بسكره، ورددنا قوله: فإنها ثابتة حسًّا وشرعًا وعقلاً، وقد يقول الصاحي مثل قول السكران، لكنه يعني من وجه دون وجه، فمن حيث أن الكل هالك بالنظر لنفسه فإن الشيء لا يعطى لنفسه وجودًا، فإنه معدومٌ بالنظر لها أيضًا، وأمَّا بالنظر؛ لمفيض الوجود عليه فهو ثابتٌ به باقٍ بإبقائه.

فقول سيدي محي الدِّين قَدَّس الله سرَّه: (فلولاك ما كنَّا): أي من حيث ان وجودنا بك، ولولاي لم

=

فإنها مخلوقة لا بيوصف الله تعالى بها، وعلى هذا يدور الوجود المطلق، والوجود العام،

=

تكن: أي آثار أسمائك الحسنى، فإن الأسماء تطلب الآثار، فإن المانع يطلب من يمنعه، والمعطى كذلك ولا ظهور للآثار إلا بظهور المؤثرات.

ولهذا لم يكن ظهور الكون إلا عن الأسماء وطلبها، كما ذكره الشيخ في «إنشاء الدوائر»، وفي «عنقاء مغرب».

وأمَّا بالنظر إلى الذات العليَّة المتعزز درك كنهها بالكليَّة؛ فهي مُطلقة غنيَّة حتى عن الإطلاق والكل في قيد وفي وثاق، فلا تعلّق لها بشيء إلا من حيث الإمداد، ولا يتعلق بها شيء إلا من حيث الاستمداد، والأسماء الحسنى هي الوسائط التي لولاها كنَّا من البسائط.

ثم قال: «فكنت: أي كنـــزًا مخفيًّا» ولم تزل على ما كنت عليه إلى الأبد في الأزل وكنَّا بك أعيان ثابتة في العلم ثم أبرزت صورة ما في علمك لا الذي في علمك، فإنه قديمٌ لا تحلّه الحوادث، وهذا معنى قول الشيخ الأعيان الثابتة: أي في العلم ما شمت رائحة الوجود: أي في العين.

ثم قال: والحقيقة لا تدري إلا بمنحة منك وكشف عنها، فهناك يكون الإدراك بك وإذا كان بك فلا إدراك، أو يكون أراد بالحقيقة الحقيقة الإلهية.

وهي كما قال ﷺ: فالأنبياء والمرسلون لايدركون كنه الذات العلية؛ بل عمَّ بالنظر إلى الكنه في حيرة جليَّة، وأمَّا التجليات الواقعة في الدنيا والآخرة فلا تخرج عن رتبة التقييد والتجليات المطلقة، فلا حظٌ للعبد فيها إلا أن رتبة التقييد وإدراك التجلّي المطلق لا يتخلص للعبد على ما حققه الشعراني ﷺ في «ميزان الذرية» إلا عند فنائه لا في حال بقائه مع الحق، وحينئذٍ فما رأى إطلاق الحق إلا الحق فافهم.

قال: وإيَّاك والغلط، فإنه لا حلول ولا اتحاد ولا يلحق عبد رتبة الحق أبدًا ولو صار الحق سمعه وبصره وجميع قواه، فإن الحق تعالى قد أثبت عين العبد معه بالضمير في قوله في الحديث القدسي: «كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»، إلى آخر النسق، فإن قيل أن كلام الحق تعالى قديم.

وقد قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤].

وهذا يُشعر بأنَّا معه في الأزل، كما يقول بذلك الفلاسفة.

قلنا: التحقيق أن العالم قديم في العلم الإلهي، حادث في الظهور، فشهود الحق في رتبة التقييد، يخص الحق تعالى به أفراد العبيد، ولشهود الحق علامة فمن شهدها في نفسه كان في قوله صادقًا، وإلا كان مبطلاً لدعاويه الكاذبة موافقًا.

قال سيدي محيي الدين ﷺ في باب «الوصايا»: «اعلم أن علامة مَن يدَّعي أنه يشاهد الحق تعالى إذا عكس مرآة قلبه إلى الكون؛ يعرف ما في ضمائر جميع الخلق ويصدق الناس على ذلك الكشف».

فإن الله تعالى موجود بوجود حقيقي مطلق؛ وهو مبدأ الوجود العام الساري في الموجودات لا بوجود عام مقيَّد مأخوذًا في ضمن المشخَّصات، فلا يلزم ما يقوله الوجودية؛ ولكمال صعوبة هذا المعنى خاض فيه مَن خاض؛ فطعن على أهل الله تعالى في قولهم: بالوجود المطلق؛ وهم أهل الرسوم، وبعض المكاشفين القاصرين.

وإنما قُدِّم النفي على الإثبات كما في قوله: (**سبحان الله وبحمده**)؛ لأن النفي والتنزيه صفة الروح؛ ولذا كان من شأن الملائكة التسبيح؛ وهم أقدم وجودًا من البشر، كما أن الروح أسبق من الجسد الأشبة إلى الخواص، فكان البشر من الملائكة بمنزلة التحميد من التسبيح؛ لكن لمَّا كانت هذه الأمة المرحومة أكمل استعدادًا من الأمم السالفة؛ جمعوا بين كمالي التسبيح والتحميد؛ لأنهما لباسان جميلان للروح الذي طرفه الذي يلي الحق يقتضي التسبيح والتنزيه، وطرفه الذي يلي الحق يستدعي التحميد والتشبيه، فلم يتحقق، ولم يتلبَّس بهذين اللباسين على وجه الإحاطة[1] والكمال إلا هذه الأمة.

فكان من شأنهم: كمال التوحيد والتسبيح على ما يقتضيه نشأة أرواحهم الطيبة المجرَّدة المنسلخة عن الفواشي، وكمال التحميد والتشبيه على ما يقتضيه نشأة أجسادهم النظيفة المتعلّقة بالملابس، كما ينبئ عن كلا هذين الكمالين قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى:١١].

وإنما رتب ﷺ الجزاء المذكور وهو: إعتاق أربعة أنفس من ولد إسماعيل على القول المذكور عشر مرات؛ لأن العشرة هي العدد الكمال، كما قال تعالى: ﴿**تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ**﴾ [البقرة:١٩٦].

وسرُّ العدد هو أن الجزاء المذكور مكتوب في اللوح المحفوظ الذي هو المرتبة

---

(١) قال سيدي محمد وفا في الشعائر: الإحاطة هي تكثير الواحد بالتجلي في هيئات متنوعة، كالماء ينعقد بردًا.

وحقيقة الإحاطة أن يكون المحيط بالذات محاط به بالشخص في العين، وفي المعنى أن يكون المحيط بالعلم محاط به بالمعلوم الأول بالوجود والاستغراق، والثاني بالشهود والاستهلاك.

العاشرة من المراتب العلوية؛ وهي السموات السبع، والكرسي، والعرش، واللوح، والقلم، ولمّا كان اللوح المحمّدي الذي هو قلب الوسيع مقابلاً للوح الخارج؛ أخذ الجزاء المذكور عنه فرتّبه على القول المذكور، ومنه يعلم أن وضع الحديث باطل، إذ وضع الأجور مفوّض إلى الشارع؛ وهو الله تعالى، والأخذ من اللوح؛ وهم الأنبياء؛ لأنهم أصحاب الشرائع.

وأمّا كُمّل الأولياء فإنهم وإن كانوا آخذين منه أيضًا؛ لكن إنما يأخذون العلوم الحقيقية لا ما يتعلّق بالشرائع؛ إذ ليسوا بأنبياء مشرّعين؛ وإنما هم أولياء مبلغّون متابعون لحضرة النبوة.

ووجه العدد في الإعتاق: إن التهليل المذكور أربع جمل في الحقيقة؛ لأن قوله: «لا شريك له» بيان للحال قبله، فكان في مقابلة كل جملة إعتاق نفس، وسرُّ تخصيص الجزاء به؛ هو أن الروح يتخلّص من رقِّ الجهل بذلك التهليل؛ فيسري حاله إلى القلب، والنفس، والطبيعة؛ فيكون جملة الوجود حرَّة عن عبودية ما سوى الله تعالى شريعةً، وطريقةً، ومعرفةً، وحقيقةً.

فإذًا الجزاء المطابق لِما في الأنفس من الحال إعتاق الأنفس في الإنفاق من المال، فتفطّن لهذا السرِّ السري، وإنما قال: «**من ولد إسماعيل**» تقريبًا للقائل من جنابه ﷺ؛ فكأنه قال: كان كمَن أعتق كذا من قرابتي، فكان هذا المقال تقرُّبًا إلى الله تعالى من جهة العلم، وتقرُّبًا إلى الجناب النبوي من جهة العمل، فطوبىْ لمَن قال صدقًا وإخلاصًا، وعمل بما أرشده إليه الشارع رحمةً له ورأفةً، والله الهادي، ورسوله المرشد إلى طريق مستقيم.

٣٢- في حديث مسلم: قال رسول الله ﷺ: «**مَن قال: لا إله إلا الله**»(١):

لم يقل: محمد رسول الله؛ لأن الإيمان بالله إنما يتم بالإيمان برسول الله ﷺ، وبسائر الأنبياء عليهم السلام.

دلّ عليه قوله سبحانه وتعالى في سورة النساء:

---

(١) رواه مسلم (٥٣/١)، والطبراني في الكبير (٣١٨/٨).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً*أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

فإن المقصود من هذه الآية: إن الإيمان ببعض الأنبياء، والكفر ببعضهم؛ كالكفر بالأنبياء كلهم، والكفر بالأنبياء كفر بالله تعالى؛ لأن الأنبياء مبلّغون عن الله تعالى، ومساوون في النبوة والمعجزة، فمَن استهان بهم؛ فقد استهان بالذي أرسلهم إلى الناس.

ألا ترى أن مَن أزور واسطة السلطان في عرض الأمور؛ فقد أزور السلطان، فلا يغتر المؤمن بالله بإيمانه تعالى مع كفره برسولٍ من رسله؛ فإنه لا يقبله الله تعالى، فإن الإيمان أمر أَحدي لا يقبل التجزيء والتفرُّق.

فالأمر إمَّا إيمان، وإمَّا كفر، كما أن الإيمان بالأولياء أيضًا كذلك، وأعني بالأولياء الكُمَّل منهم؛ وهم أعلى المقرَّبين، وأمَّا مَن دونهم، فقد تختلف كشوفهم وكلماتهم(١) فيعرض المتعرِّض لهم، وذلك لا يقدح في إثبات ولايتهم في نفس الأمر،

(١) قال الشيخ ابن ناصر في سبب الاختلافات الواقعة في الكشوف والأذواق:

اعلم أن سبب الاختلافات التي وقعت في الكشوف والأذواق حتى طَعنوا فيهم وقالوا: لو كان كشفًا صريحًا وعلمًا صحيحًا لما وقع الاختلاف بينهم، فحملوا مسائلهم الكشفية على المسائل النظرية الفكرية التي هي تخطئ وتصيب، هو عدم الاستشراق على أمهات الحقائق وأصول المقامات، بل يتكلمون على تفاصيل منتقلين من بعض الفروع إلى بعض آخر، فلذلك يقع الخلاف بينهم ويرد النقض عليهم، ويبدوا حكم الحيرة فيهم عند المحاققة، كما يقع بين المتوسطين وأهل البدايات من أهل الله أصحاب المكاشفات الظاهرة، الذين تبرز لهم الحقائق والحضَرات وغيرهما، مما لا يدرك إلا كشفًا، ولكن بحكم الطبيعة فإن لها حكمًا عليهم ما داموا في ربقة الطبيعة، فتختلف الكشوف باختلاف الطبائع فيخطئ ويصيب، بل الكشف لا يخطئ أبدًا، فإن المتكلم في مدلوله يخطئ ويصيب كالرؤيا، فإن كشفه صحيح فما يقع من الغلط إلا في التعبير.

ذكره ﷺ في باب إحدى وثلاثمائة من «**الفتوحات**» بخلاف المتمكنين من أهل الله رضي الله عنهم في علمهم الموهوب، وكشفهم التام المطلوب، يعرفون غاية ما أدرك كل بفكره، واطَّلع بحسبه ونظره، ويعرفون سبب تخطِّيه الناظرين بعضهم بعضًا، وما الذي أدركوه وأصيبوا ما الذي فالذي
=

فافهم، ومن أي وجه أصابوا ومن أي وجه أخطأوا، وهكذا حالهم رضي الله عنهم مع أهل الأذواق والمكاشفين الذين لم يتحققوا بالذوق الجامع، ويعرفون أيضًا حال المتمكنين، ومن غلب عليهم من الأسماء والأحوال والمقامات، التي أوجب لهم تعشُّقهم وتقيدهم بما هم فيه، ومن الذي له أهلية الترقّي من ذلك، ومن ليس له ذلك فيقيّمون رضي الله عنهم أعذار الناس وهم لهم منكرون، وبمكانكم جاهلون، وعن مقامهم عمون.

ولهذا التحقق والإشراف لم يقع بين الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام خلاف في الأصول من أحكام الحضرات الأصلية الإلهية، وإن تفاضلوا في الإطلاع وما نقل من خلاف عنهم صلوات الله عليهم إنما ذلك في جزئيات الأمور والأحكام الفرعية الشرعية؛ لكونها تابعة لأحوال المكلفين وأزمانهم، وما تواطئوا عليه، وما اقتضته مصالحهم فتتعيّن الأحكام الإلهية في كل زمان بواسطة رسول ذلك الزمان، بما هو الأنفع لأهله، وأما هم صلوات الله عليهم مما عدا الأحكام المذكورون فمتفقون، وكل تال يقرر قول من تقدمه ويصدقه، لاتحاد أصل مآخذهم صلوات الله عليهم أجمعين وصفاء محلهم حال التلقي من الحق سبحانه عن أحكام العلوم المكتسبة، والعقائد المقيّدة، والتعلقات الطبيعية ونحو ذلك.

أما ترى قوله تعالى يشير إلى هذا المقام ﴿إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فليس بين القوم بحمد الله خلاف فيما يتحققون به، بل هم في شغلهم أحقّ وأصح منْ أهل الحسّ فيما يدركونه بحواسهم، بل ولا نقول أن الحق مع أحد القولين أو مع إحدى الطائفتين، بل نقول: إن الحق مع كل طائفة، وكلهم صادقون في قولهم ولكن باعتبار المواطن والمصارف، فإن كنت عارفًا بالمواطن وعرفت صدق كل من هذا، وعرفت أن كل مجتهد مصيب ما معناه فقم في كل موطن باستحقاقه تحمدك المواطن، والمواطن شهد أحق عدل عند الله، فإنها لا تشهد إلا بصدق فافهم.

فإني أدّيتك الأمانة مع السّلامة من البشاعة.

اعلم أنّ الحق سبحانه وتعالى ربط العوالم والموجودات جليلها وحقيرها، كبيرها وصغيرها بعضها ببعض، وجعل بعضها مرائي ومظاهر للبعض، فالعالم السفلي بما فيه مرآة للعالم العلوي، ومظهر لآثاره، وكذلك العالم العلوي مرآة تتعيّن فيه أرواح أفعال العالم السفلي تارة وصورها تارة أخرى، والمجموع تارة أخرى، وعالم المثال الكلي من حيث تقيده في بعض المراتب، ومن حيث عموم حكمه وإطلاقه أيضًا مرآة لكل فعل وموجود، ومرتبته وانفراد الحق سبحانه بإظهار كل

=

شيء على حد علمه به لا غير، وجعل ذلك الإظهار تابعًا لأحكام النكاحات الخمس التابعة للحضرات الخمس، فظهور الموجودات على اختلاف أنواعها وأشخاصها متوقف على سر الجميع النكاحي على اختلاف مراتبه المذكورة، وأحكامها المشار إليها، فإن قيل: ما الحضرات الخمس وما بيانها؟.

قلنا: اعلم أن الحضرات الكليَّة التي إليها الاستناد والمرجع هي الخمسة التي **أولها**:

الغيب الإلهي الذي هو معدن الحقائق والمعاني المجردة الإجمالية.

وثانيها: الغيب الإضافي وهو عالم الأرواح المجردة.

وثالثها: عالم المثال يتصور فيها الأرواح كالأشباح.

ورابعها: عالم الشهادة ولها الصور المركبة الطبيعية والبسيطة.

وخامسها: الأمر الجامع وكل موجود لابد أن يستند إلى أحد هذه المراتب الخمس، أو يكون مظهر الحكم الجميع كالإنسان الكامل.

ولها باعتبار آخر تفصيل آخر وهو هكذا عيب الغيب، وهو التعين الأول الإجمالي، والغيب الثاني هو التعين الثاني حضرة حقائق الأسماء والأعيان الثانية، والشهادة الإضافية وهي عالم الأرواح والشهادة الحقيقية، وهي عالم الأشباح وعالم المثال ما بين الشهادتين، وهي عالم تنـزل فيه الأرواح على صورة الأشباح، وتتروحن الأجسام إليه وتصير أجسادًا، فالأمر الجامع بهذا الاعتبار تصير المرتبة السادسة الجامعة للكل فافهم.

ثم اعلم ثانيًا أن أوَّل المراتب والاعتبارات العرفانية المحققة لغيب الهويَّة هو الاعتبار المسقط لسائر الاعتبارات، وهو الإطلاق الصرف عن القيد والإطلاق، وعن الحصر في أمر من الأمور الثبوتية والسلبية كالأسماء والصفات، وكلما يتصور ويعقل ويفرض بأي وجه تعقل وتصور وفرض فهو غير ذلك، وليس لهذا المقام لسان فغاية التنبيه عليه هذا، وأمثاله هذا هو حقيقة الحق التي لا تدرك ولا تعلم ولا يحكم عليها، لا بسلب ولا بإيجاب، وتسمى هذه المرتبة مرتبة لا تعين، وإنما سموها بهذا الاسم لضرورة البيان والتواصل إلى الإفهام، وإلا فهي منـزَّهة عن الإحاطة علمًا وشهودًا ووجودًا سيَّما عن التسمية، وكيف لا والمسمى مدرك، وقد قررنا أنها ما تدرك، فإن قيل فكيف اتَّصل علمنا بهذا المشهد الأنـزه الغريب والمقام الأنوه العجيب.

قلنا: ذكر صدر الدين القونوي قُدِّس سرُّه في شرح الفاتحة إن هذا القدر من المعرفة المتعلقة بهذا الغيب ولا غيب إنما هي معرفة إجمالية حاصلة بالتعريف الإلهي الأجلى الأعلى، أو بالكشف الأجلى الذي لا واسطة فيه غير نفس التجلي المتعين من هذه الحضرة الغير المتعيِّنة، وكوشف صاحب

=

الكشف الأوسع الأتم أن كل تعيّن مسبوق بلا تعيّن، ثم الاستدلال عليه ثانيًا بما ظهر منه وامتاز عنه من الأسماء والآثار الوجودية والتجليات النوريَّة فإنه أصل كل غيب فافهم .

واستخلص المقصود من الكلام غير متقيِّد بالألفاظ وأدوات التوصيل، فإن المقام ما هو مقام المحاققة فافهم فإذا فهمت هذا فلنرجع ونقول: أول الاعتبار اعتبار علمه نفسه بنفسه، وكونه هو بنفسه هو فحسب من غير تعقُّل تعلق، أو اعتبار حكم، أو تعين أمر ثبوتي أو سلبي كان ما كان مما يقبله غيره بوجه من الوجوه ما عدا هذا الاعتبار الواحد المنفي حكمه عن سواه، وهو مستند الغنى والكمال الوجودي الذاتي والوحدة الحقيقة الصرفة وقوله: «**كان الله ولا شيء معه**» ونحو ذلك وهو أول ما يصح أن يعلم المسمَّي بالتعين الأول، فعلّم نفسه بنفسه غنيٌّ عن العالمين فافهم.

والاعتبار الثاني: شهوده نفسه في مرتبته سواه من غير أن يدرك ذلك الغير نفسه؛ لقرب نسبته وعهده ممن امتاز عنه، ولغلبته حكم الغيب المطلق والتجلي الوحداني، ثم ظهر حكم تعلق الإرادة بنسبتي التفضيل والتدبير؛ لاتحادي عالم التدوين والتسطير، وإبراز الكلمات الإلهية التي هي مظاهر نوره وملابس نسب علمه ومرائي أسمائه وتعيناتها في رقٍّ مسطور.

فكانت ثمرته شهود الظاهر نفسه في مرتبة الغير والسوي الممتاز عنه في الشهادة الأولى المسمَّى بها خلقًا، وسوى هذا غاية الخلق وحكمه الإيجاد وهي قوله ﷺ: «**أحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف**».

وهذا معنى قوله ﷺ في أوّل الكتاب: إن رؤية الشيء نفسه بنفسه ليس مثل رؤية نفسه في أمر آخر يكون كالمرآة، فشاء أن يخلق الخلق حتى يكون مرآة يرى فيها فافهم.

ونص متم لأمر وحدة الوجود، والذي هو العين المقصود، واعلم أيّدك الله وإيّانا بروح منه أن كل ما ظهر في الوجود، وامتاز من الغيب على اختلاف الظهور، والامتياز في التحقيق الأتم، ليس إلا تجلٍّ واحدٍ يظهر له بحسب القوابل ومراتبها واستعداداتها تعينات، فيلحقه لذلك التعدد، والنعوت المختلفة والأسماء والصفات؛ لأن الأمر في نفسه متعدد، ووروده طارٍ ومتجدد، هذا حقيقة معنى مقول القوم لا تكرار في التجلّي.

ذكر الشيخ ﷺ في «**الفتوحات**» هذه الكلمة عن أبي طالب المكّي قُدِّس سرُّه: وإنما التقدم والتأخر وغيرهما من أحوال الممكنات يوهم التجدد والطريان والتقيُّد والتغيُّر ونحو ذلك كالحال في التعدد، وإلا فالأمر أجلّ أن ينحصر في إطلاق أو تقييد أو اسم أو صفة أو نقصان أو مزيد، وهذا التجلّي الأحدي المشار إليه ليس غير النور الوجودي، ولا يصل من الحق تعالى إلى الممكنات بعد الاتصاف بالوجود، ولا قبله غير ذلك، وما سوى ذلك فإنه أحكام الممكنات وآثارها تتصل من

=

بعضها بالبعض حال الظهور بالتجلي الوجودي الوحداني المذكور، ولما لم يكن الوجود ذاتيًّا لسوى الحق سبحانه؛ بل مستفاد من تجلّيه اقتضى العالم في بقائه إلى الإمداد الوجودي الأحدي مع الأنات دون فترة ولا انقطاع؛ إذ لو انقطع الإمداد المذكور طرفة عين لفني العالم دفعة واحدة، فإن الحكم العدمي أمر لازم للممكن، والوجود عارض له من موجده فافهم لتفهم سر وحدة الوجود، وهذا هو الأصل في كل موجود، فإذا أشرق نور التجلّي الوحداني على القلب الوحداني توحَّدت أحكام الأحديات، واختفت آثار الكثرات فيها، وشهد أن التجلّي هو التجلّي الذاتي والفيض فيض الأقدس دون المقدس، وأن ما في العالم سواه؛ بل هو المتجلى والمتجلّي له، والتجلّي هذا هو: المعتمد والمعتني والمعوَّل عليه وغير هذا الذوق لا تمل إليه ولا تحول لديه فافهم.

واشكر هذه النعم؛ حيث جعلك الله ممن قرع سمعك أسرار الله المخبوءة في خلقه، يخص الله بها من يشاء من عباده، وأثبت لما يلقى.

قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل:٥].

فتبتَّل إلى إصغائه وإذعانه تبتيلاً جميلاً، وكن له من القابلين المؤمنين القائلين بها ولا تحرم التصديق بها فتحرم مخيرها، وتجمع بين الحرمانين عدم الاتصاف وعدم الإيمان والإنصاف.

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة ١١].

ورد في الحديث الصحيح: «**إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله**» ذكره الديلمي عن أبي هريرة ﷺ وهو من العلم الذي يكون تحت النطق والبيان فما ظنك بما عندهم مما هو خارج عن حكم الدخول تحت النطق والبيان، فما كل علمٍ يدخل تحت السيارة وهو علوم الأذواق كلها، فإذا رأيت فيك شعرة من قابلية قبول كلامهم، فأبشر فإنك سعيد فإنهم قومٌ لا يشقى جليسهم فكيف من يجد في نفسه رائحة ذوقهم وبارقة فهم كلامه؟! وما ذلك إلا لمناسبة موجودة، وأنت ما تدري كما قيل أن المناسبة علة الضم.

قال الشيخ الإمام خواجة عبد الله الأنصاري قُدِّس سرُّه: إن أول علامة القبول قبول كلامهم وعدم الإنكار عليهم.

وقال ﷺ في «**الفتوحات**»: إذا حسن عندك كلامهم وقبلته، وآمنت به فأبشر فإنك على كشف منه ضرورة، وأنت لا تدري لا سبيل إلا هذا؛ إذ لا يثلج الصدور إلا بما يقطع بصحته وليس للعقل هنا مدخل؛ لأنه ليس من دركه إلا إن أتي بذلك معصوم حينئذٍ يثلج صدر العاقل، وأمَّا المعصوم فلا يلتذ بكلامه إلا صاحب ذوق.

فلهذا قال سيد الطائفة الجنيد قُدِّس سرُّه: «الإيمان بعلمنا ولاية».

=

ومعنى الإيمان بالأولياء: الإقرار بهم، والانقياد لهم، ولأحوالهم، والتسليم لمذاهبهم ومسالكهم.

ولمَّا كان القول بكلمة التوحيد لا يكفي في إيمان القائل: أروقه ﷺ بقوله: «**وكفر بما يعبد من دون الله**»(١): أي أنكره بقلبه، وصدَّق كلمته بالعبادة له تعالى بالإخلاص والإعراض عن المعبودات الباطلة؛ بل عمَّا سوى الله تعالى بالكلية، فإنه ما من شيء من الأشياء الموجودة الملكية والملكوتية إلا وهو معبود بوجه من الوجوه من حيث إن فيه تجلّي بعض الأسماء الإلهية.

ولذا قال تعالى: (قل الله): أي لا تتعلّق إلا بالله الذي له جميع الأسماء الجمالية اللطيفة والجلالية القهرية، فإن الحجاب إمَّا حجاب الكون والظلمة، وإمَّا حجاب

=

وقال ﷺ في «**الفتوحات**» في الباب الثالث والسبعين عن أبي يزيد البسطامي قُدِّس سره أنه قال لأبي موسى الديبلي: يا أبا موسى إذا رأيت مَنْ يؤمن بكلام هذه الطائفة، فقل له: يدعو لك فإنه مجاب الدعوة، وهو أبو يزيد من أحد النوَّاب، ثم قال ﷺ: وكيف لا والمسلم في بحبوحة الحضرة، ولكن لا يدري أنه فيها لجهله بها ولا يغرَّك أيُّها الناظر قول العموم أن كل علم لا يكون عن حال فليس بشيء كما يتخيله الجهَّال، والعوَّام فإنه ﷺ ذكر في الفصل الرابع في المنازل من «**الفتوحات**»: إن الرجولية ليست فيما يتخيله الجهَّال من عامة الطريق بطريق الله، فيتحجَّبون بالحال عمَّا يقتضيه العلم والمقام يقولون: كل علمٍ لا يكون بالحال، فليس بشيء فقل له: لا تقل ذلك يا أخي فإنه خلاف الأمر وإنما الصحيح أن تقول: كل علم لا يكون عن ذوق فليس بعلم أهل الله، فأراك لا تفرِّق بين الحال والذوق، وما تم علمٌ قط إلا عن ذوقٍ لا يكون غير هذا والمتمكّن في العبودية لا حال له البتة مخرجه عن عبوديته، فلو لم يكن في الأحوال من النقص إلا أن يخرج من مقامه إلى ما لا يستحقه، وهو لا حق له حتى أنه لو مات في حال الحن لما مات صاحب نقصٍ وحُشر صاحب نقص، فليست الأحوال من مطالب الرجال لكن الأذواق من مطالبهم، وهي لهم فيها من العلوم بمنـــزلة الأدلّة لأصحاب النظر فيها انتهى كلامه ﷺ.

فلا يصرفنكم صارف عما تلوته عليكم ولو شاء الله ما فعلته.

قال تعالى: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ [الكهف:٢٩].

قال تعالى: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ**﴾ [النحل:٩] .

(١) تقدم تخريجه.

حجاب الإله والنور، فكما أن عالم الحدوث يشتمل الحجب العائقة للسالك عن الترقّي إلى عالم الإله؛ فكذا عالم القدم يشتمل الحجب المانعة له عن الصعود إلى عالم إله الألهة، فقد يُحتجب بالظلمة، وقد يُحتجب بالنور، فمَن توقف في مرتبة من مراتب الكون أو مراتب الإله؛ كان ناقصًا غير واصل إلى أعلى المطالب.

ثم إن هذا الكفر وهو الكفر بما سوى الله تعالى؛ هو الإيمان الحقيقي دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة:٢٥٦]، وقدَّم الكفر بالطاغوت؛ لأنه من باب التخلية؛ وهو أساس الإيمان، فإن الإيمان بالله قبل الكفر بالطاغوت لا يعتدُّ به أصلاً، وقول مَن قال: إن جنة الفردوس للكافر إشارة إلى ما ذكرنا من الكافر الحقيقي، وهذا الكفر لا يناله إلا الكُمَّل من أولياء الله، و لم يكن إيمان مثل إيمانهم.

فيا أصحاب السلوك قوموا إلى منـــزل المنازل، ولا تحتجبوا بشيء مما سوى الله، فإنه عائق الطريق، ومانع التوفيق، حُرِّم ماله، ودمه ظاهره وباطنه على الخلق، وعلى النار، وعلى الأرض؛ فلا يتعرض له بسوء؛ بل يتبرَّك به، وبملابسته ولا يحرقه النار؛ لأنه النور، ولا تأكله الأرض؛ لأنه الروح.

وفيه إشارة إلى حُرمة الإيمان الذي يحصل بالقرآن، والقرآن إذ جعل في أَهاب ما مسَّته النار، وما في حكمها، وحسابه على الله: أي حساب سرِّه؛ وهو أن يُرزق بغير حساب، كما هو شأن أهل الجنة المعنوية؛ إذ هم السلاطين تحت الأطمار، ولا شك أن السلاطين أغنى الناس.

٣٣- في البخاري: «مَن قتل معاهدًا»[١]:

: أي بعدما قتله سيف الذمة والجزية،قال: «**لم يرح رائحة الجنة**»[٢]، كما لو قتل غير المعاهد، فإن القتل عند الله عظيم؛ ولذا كان هو نفسه ديَّة مَن قُتل فأعرف.

قال ﷺ: «**وإن ريحها**»[٣]: أي نسيمها الفاشي.

---

(١) رواه البخاري (٣/١٠٥٥)، والبيهقي في الكبرى (٨/١٣٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

قال ﷺ: «**توجد من مسيرة أربعين عامًا**»[1]؛ المراد التكثير بالاعتبار الظاهر في لا التحديد، فإن تجليَّات الله تعالى لا حائل لها، وإنما عدم ظهورها من جانب المحجوبين عن حقائق الحواس، وقد وقع للأنبياء والأصفياء إنهم كانوا يستشمُّون وهم في الأرض روائح الجنان؛ وهي في أعلى السموات السبع مع ما بينهما ألوف من السنين من جهة المسافات فاعرف هذا، واتَّهم نفسك المحجوبة في عدم الإدراك.

وقد كان ﷺ برهانًا من الله تعالى: أي كل جزء من أجزائه الداخلة والخارجة؛ لما فيه من الخوارق الخارجة عن غيره.

وفي الحديث: إشارة إلى أن النفس إذا أسلمت، وأصلحت حالها بما تعطيه من الطاعة والانقياد، وكالذّمي فلا تقتل مرة أخرى بإفنائها بالمرة، والألم يرح صاحبها، وريح الجنة المعنوية التي هي جنة القلب، فإن استشمام ريحتها إنما هو مع بقاء النفس في الجملة: أي بأصلها وذاتها لا بفرعها وصفاتها.

وريح هذه الجنة المغبوطة عند أهل التذكية توجد من مسيرة أربعين عامًا؛ لأنه لا يحصل كمال التزكية إلا في أربعين عامًا من أدلّ السلوك؛ بل من ابتداء الكشف، والدخول في حضرات الأسماء؛ بمعاينة حقائقها، ومشاهدة ملكوتها، فإذا تمّت الأربعون؛ فالرفق بالنفس؛ لأنها المطيَّة أبدًا، فمَن أراد الإنسلاخ الكلي؛ فالذوق لا يوجد في الفناء الكلي، ومنه الاستشمام بكذا ذاقوا، واستشموا في الكشَّاف.

٣٤- في آخـــر سورة البقرة: قال رسول الله ﷺ: «**أنزل الله آيتين هما: قوله ﷻ: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ [البقرة:٢٨٥] إلى آخر السورة**»[2]، **وأنزلهما ليلة المعراج بلا واسطة المَلك.**

وكل وحيٍّ يُعتبر فيه النـــزول من العُلو على الوجه العام إلا هاتان الآيتان ونحوهما؛ فإن نزولهما وإن كان يُعتبر فيه العُلو المعنوي؛ لكنه من الوجه الخاص لا من الوجه العام؛ والمراد بالوجه الخاص ما لم يكن بواسطة المَلك، كما أن الوجه العام هو ما كان بوساطته.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الترمذي (٥/٢٢١).

وكل وجه عام يستلزم الوجه الخاص دون العكس؛ ومعناه أن ما نزل به المَلك؛ فهو حاصل في قلبه ﷺ وقت نزوله؛ لأن علم الإنسان ليس بخارج من ذاته، وإنما ظهوره على التدريج، فالقلب حقيقة اللوح فما ينـــزل من اللوح فهو صورة ما في القلب، وإنما نزل الملك تشريفًا للمنـــزَّل عليه على ما هو عادة الملوك في الدنيا.

وأسند الإنزال إلى الاسم الجامع لِما أنه مما يقتضيه الأُلوهية كما يُعرف من محصول الآيتين من كنوز الجنة: أي من خَزانات العالم العُلوي بين العرش والكرسي؛ فكانتا من مكنونات الغيب التي لا يمسها العقول والعلوم.

وفيه إشارة إلى أنهما من نفائس الآيات القرآنية، وجوامعها؛ كالأموال النفيسة المدَّخرة لوقت الحاجة، وإلى أن لكل علم مخزنًا من مخازن الملكوت خزانة الله تعالى فيه إلى أن يظهر قابله في الأرض، وإلى أن جميع العلوم الإلهية مما يتنافس فيه المتنافسون، وإن اختلفت طباقاتها وطبقاتهم، إذ ليس كل قابل يقبل جميع العلوم؛ وإنما يقبله مَن هو أكمل استعدادًا من غيره، وربما يدَّعي إن المراد بالجنة الغيب؛ لأن الاجتنان الاستتار.

قال ﷺ: «**كتبهما الرحمن بيده**»(١): أي قدر كتابتهما بيده الجمالية؛ لأنهما من الآيات الجمالية، وأسند الكتب إلى الاسم الرحمن؛ لأنهما من الرحمة العامة للمؤمنين.

قال ﷺ: «**قبل أين يخلق الخلق بألفي سنة**»(٢)؛ المراد بالخلق العرش وما يحويه، وبالألفين اليومان؛ لأن كل يوم عن الله تعالى كألف سنة، فظاهره يوم ممدود مفصَّل، وباطنه يوم مقصور أتى كلمح بالبصر.

فإن أفعال الله تعالى لا تتوقف على الأمور العادية والأسباب، فالتأنِّي من قبيل التعليم والإرشاد على ما يقتضيه عالم الصفات، وأُشير باليومين إلى يومين: القلم واللوح، فإن كلاًّ منهما وضع إلهي قد اعتبر فيه تلك المدة ونظيره خلق الأرزاق قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة، فإن الكرسي متنـــزِّل المقدرات، وفوقه العرش، وفوقه

---

(١) رواه ابن عدي في الكامل (٧/٨٤)، وذكره الجرجاني في تاريخ جرجان (١/٢٦٥).

(٢) تقدم تخريجه.

اللوح، وفوقه القلم، وكما أن الله تعالى كتب الآيتين بيده: أي بلا توسُّط قلم وملك، فكذا أنزلهما على النبي ﷺ بلا توسُّط شيء أيًّا كان.

قال ﷺ: «**مَن قرأهما بعد العشاء الآخرة؛ أجزاتاه عن قيام الليل**»[1]؛ لأن نزولهما كان في الليل؛ فكان من فوائدهما الإجزاء المذكور، وأشار بالعشاء الآخرة إلى الفرق الثاني الذي يحصل بعد شهود الحق بلا خلق؛ وهو المقبول من الفريقين؛ لأن الفريق الأول؛ وهو شهود الخلق يلاحق من قبيل الحجاب، كما أن العشاء الأولى؛ وهي المغرب من قبيل النهار، والليل ظاهره الظلمة، وباطنه النور، كما أن النهار بالعكس.

فمَن قرأهما قراءة سرية بعد الفرق الثاني، وتحقق بحقائقهما، ووصل إلى ملكوتهما؛ كفتاه عن قيام الليل؛ لأن نوم العارف عبادة، ونفسه تسبيح، وحاله مناجاة، ووقته كليلة الإسراء، والله مشهود له على كل حال.

٣٥- **في المتفق بين البخاري ومسلم**: قال رسول الله ﷺ: «**مَن كانت له أرض ينتفع بها**؛ فليزرعها لينتفع بها» أي: نفسه، ومَن يتعلّق به- **أو ليمنحها أخاه**»[2]:

أي: ليعطها أخاه المؤمن إمَّا بالهبة، أو بالإجارة، أو بالعارية.

قوله ﷺ: «لينتفع بها» هو ومَن يتصل به، «فإن أبى»: أي صاحب الأرض.

قال ﷺ: «**من الزرع والمنحة**» ولم يكن له نصيب من الاسم النافع المعطي الجوَّاد- **فليمسك أرضه**».

وفيه توبيخ له، وتنبيه على أنه صار بخيل ممسك خسيس؛ لأن إمساكه إنما وقع على الأرض الخسيسة السفلية، فكان من شأنه أن يرفع له عمل عالٍ إلى السماء من الأرض؛ لكنه من حيث الخضار لنفسه، وضيقها الجنس في الأرض الضيقة؛ فكان سفليًا؛ كالأرض.

وفيه إشارة إلى حال السالك، فإنه ينبغي له أن يزرع أرض وجوده، وتراب نفسه بما يمكن له من الأعمال الصالحة الشرعية، ويسقيه بماء الصدق والخلوص؛

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٢/٨٢٥)، ومسلم (٣/١١٧٦).

لينتفع بها يوم لا ينفع مال من الصفات، ولا بنون من القوى، فإن لم يكن له معرفة بكيفية الإصلاح والزرع، و لم يقدر على ذلك؛ فليسلّم نفسه إلى مَن يقدر عليه من أرباب الإرشاد، فإنه يعرف كيفية الزرع من جهة أعمال الشريعة، ومن جهة أحوال الطريقة إلى أن ينبت نباتًا حسنًا بإذن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ**﴾ [الأعراف: ٥٨].

وذلك أن أكثر السُّلاّك قاصرون عن الاستفادة الروحانية، أو السرية من غير توسُّط واسطة، وأعني بالاستفادة الروحانية: أن يأخذ بالروح من روح بقدر الطاقة، وبالسرية: أن يأخذ بالسر من الله تعالى.

فالاستفادة الأولى بلا واسطة جسم من الأجسام وهو نادر، والثانية بلا واسطة روح من الأرواح، وهو أندر، وعليه أويس القرني رحمه الله، ومَن يتصل به في ذلك ونظيره في القرن الموسوي برخ الأسود؛ فإنه مثل أُويس في هذه الأمة.

ويُقال: لا مثال له الذاتيون، ولغيرهم الصفاتيون، ولكل منهم مشرب مخصوص، وما يقال: من أن أُويسًا، وبرخ الأسود كانا يأخذان من الأرواح بالقلوب، والأرواح بلا واسطة صحبه جسمانية، ومكالمة لسانية، فليس بمسلمٍ عند كُمَّل أرباب الحقائق، فانحصر السلوك في ثلاثة الأخذ بواسطة صحبة جسمانية، كما هو الغالب، والأخذ بواسطة صحبة روحانية كما هو النادر، والأخذ بلا واسطة شيء من روحاني وجسماني وهو الأندر.

ففي قوله ﷺ: (**فليزرعها**): إشارة إلى القسم الثالث كما كان حال النبي ﷺ؛ حيث كان يجتهد في جبل حراء إلى أن فاجأه الوحي والفيض.

وفي قوله: (**أو ليمنحها**): إشارة إلى القسم الأول، وفي التعبير عن الواسطة الجسمانية بالأخوة إشارة إلى حال النبي ﷺ مع المؤمنين الذي جاءوا بعده حيث عدَّهم من إخوانه، كما عدَّ معاصريه من أصحابه، وذلك أن المرشد إنما يأخذ في الحقيقة من مشكاة النبوة شريعة وحقيقة، فكما أن النبي أخو ذلك المرشد من حيث خلافته بعده؛ فكذا هو أخو مَن هو في تربية ذلك المرشد على أن الأخوة الدينية لا

بين المؤمنين، وإن كانوا متباينين في الطبقات حالاً، ومقامًا فاعرف(١).

---

(١) **فوائد:** قال الشيخ الأكبر قُدِّس سرَّه: (**الشَّيخُ من أخذك، وكشفَ عنك**) أيّ: شيخك المرشد لك هو الذي أخذك عن نفسك، وإرادتك، وأخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى، وكشف عنك الغطاء، وقال لك: ها أنت والمولى، وهذا هو الذي استنار بنور الحق سماء روحه وأرض نفسه، فطهر روحه بالرؤية والمشاهدة، وزكّى نفسه بالخدمة والطاعة، فصار مجلى للذات ومظهرًا للأسماء والصفات خصوصًا، والحق تعالى متجلي وظاهر في الأشياء عمومًا، نور قلبه من نور الله، وهو وارث علم رسول الله ﷺ، قال ﷺ:

«**العلماء ورثة الأنبياء**» أي: العلماء بالله؛ لأنهم بالإرث أقرب للزوم الخشية لعلمهم، والعلم الذي لا خشية معه ليس صاحبه أهلاً لأن يكون وارثًا لانتقال العلم المورث إليه على غير الصفة التي كان عليها عند المورث، وحقيقة الإرث انتقال المورث إلى الوارث على الصفة التي كان عليها عند المورث، ولا يستلزم الخشية إلا العلم بالله، فالعلماء بالله هم الوارثون حقًا، والبواقي تبعًا.

ثُمَّ قال قُدِّس سرَّه توضيحًا لفهم السالك، وتقريعًا لسامعه السامعين: (**الشيخ من حمل عنك المشقّات، وأشهدك منازل القربات**) أي: الشيخ الحقيقي الذي له تلقين الذكر للمريد هو الذي يحمل عنك جميع المشقات، ولهذا شرط بعضهم أن يكون الشيخ قادرًا على أن يخلع على المريد حال التلقين أي: حين أن يقول له قل: لا إله إلا الله جميع العلوم الشريعة المطهرة بحيث لا يجهل شيئًا من أحكامها، ولا يحتاج إلى سؤال العلماء، ومطالعة الكتب، كما وقع لعلي بن أبي طالب ﷺ لـمَّـا لقنه رسول الله ﷺ، وللحسن البصري ﷺ لَمَّا لقنه علي بن أبي طالب ﷺ، وكان عمره حقًا على ما صححه جلال السيوطي رحمه الله وغيره عشر سنين ذكره الشيخ علي الخوّاص للشيخ عبد الوهاب الشعراني قُدِّس سرّهما العزيز في بعض سؤلاته عنه، فلا يجوز التلقين لمشايخ هذا الزمان إلا بقصد التبرك حتى يدخل المريد في سلسلة سند القوم، ويدخل به في محبتهم فيكون مُسَلمًا لمقالاتهم، أو معتقدًا لها أي: يقطع بصدقهم فيها، وما عدا هذين المقامين فحرمان لكلّ أحدٍ مريدًا كان أو لا على ما قاله الشيخ الأكبر في الباب الثاني من الفتوحات ﷺ: «وأيضًا الشيخ المسلك الكامل المكمَّل أن يقدر على أن يشهدك جميع منازل القربات فيدور بك في معاطف الطريق يمينًا وشمالاً، كما هو عليه جميع السادات الصوفية إلا بعضهم مثل الشيخ أبي مدين المغربي ﷺ، فإنه كان يقصد اختصار طريق الوصول للمريد، وينقل إلى محل الفتح من غير المرور به على الملكوت خوفًا على استئناسه بعجائب، وهذا أولى لاختصاره وعدم علم المريد بالعوالم لا يضره؛ =

=

لأنه بعد الفتح يتدلى المريد بنفسه إلى العوالم فيكشفها ويشاهد ما فيها بالحق، فعلى هذا يكون للشيخ أثر في الفتح، وإن كان الفاتح حقيقة هو الله تعالى؛ لأنه [كالبدر] والدليل حيث يقول له: اسلك هذه الجهة فهي أقرب لك، ويدل على أن طريق الاختصار أحسن ما وقع لأبي يزيد البسطامي قُدِّس سرُّه لما وقف على العابدين فلم ير له قدمًا معهم، وكذلك وقف مع المجاهدين والزاهدين والصابرين والمتوكلين وسائر المقامات فلم ير لنفسه مع كلٍّ منهم قدمًا، فقال: يارب كيف الطريق إليك؟، فقال له تعالى: يا أبا يزيد اترك نفسك أي: حظوظ نفسك في الدنيا والآخرة، فالله تعالى اختصر له الطريق بأخصر كلمة وألطفها؛ لأن من يترك حظ نفسه يقوم معه ربه.

ومن صفات الشيخ أن يكون متخلقًا بأخلاق الله،كما قال الشيخ ﷺ: **(لا يصلح من يربي الخلق، إلا من كانت صفته من صفة الحق)** أي: لا يصلح لتربية الخلق، ولا يليق بها كل من يريد تربية الخلق إلا الرجل الذي كانت صفة ذلك الرجل من صفة الحق بأن يأخذ من كل صفة من صفات الله تعالى خطًا يليق به، كما وقع الأمر من النبي ﷺ إلينا بقوله: «**تخلقوا بأخلاق الله تعالى**»

أي: المرضية الكمالية، وهذا التخلق لا يكون إلا بعد التخلق بأخلاق الرسول ﷺ على ما ورد أيضًا: «تخلقوا بأخلاق الرسول».

فالشيخ لا يصلح للتربية ولا مربيًا للمريدين إلا إذا كان متخلقًا بأخلاق الرسول وأخلاق الله تعالى، أو المراد من كون صفة العبد صفة الحق أن يصير الحق تعالى عين قوى العبد الباطنة، وجوارحه الظاهرة.

وقال قدس سره:[**الشيخ من أزال عنك كل حجبك**] أي: شيخك أيها السالك الطالب للسلوك والمرشد المسلك لك في الطريق إلى الحق تعالى هو الذي أزال عنك ويرفع لك ما يحجبك عن الله والوصول إليه والاشتغال به، وهذه الإزالة لا تكون إلا بالله؛ لأنه لا يوصل إلى الله إلا الله لكن الشيخ لما كان بالله يوصل المريد إلى الله بإذن الله من الله، فعطف **(الشيخ)** ﷺ على الجملة المذكورة قوله: [**واستأذن الحق لقربك**) عطف السبب على المسبب فإن استئذان الحق سبب لإزالة المحجب عن المريد، وفيه أن السبب هو إذن الحق للشيخ بالإيصال للمريد لا استئذان الشيخ من الحق لإيصال المريد، وأجيب بأن الاستئذان سبب الإذن وسبب السبب سبب، فالشيخ المسلك للمريد يزيل الحجب عنه ويرفع الغطاء عن بصره وبصيرته بسبب أنه يستأذن من الحق تعالى؛ لأن يقربه إليه تعالى برفع الحجب والأستار، فالحق تعالى يأذن للشيخ في قربه إليه تعالى، وإذن الحق في قرب المريد إذن للشيخ في إزالة الحجب عن المريد، وكذا استئذان الشيخ الحق لقرب المريد استئذان الحق لرفع الحجب عنه فلا إشكال، فحاصل الكلام أن الموصل لا يكون إلا الحق أو من يكون بالحق، فالشيخ يجب أن يكون بالحق،

=

=

فالشيخ يجب أن يكون بالحق قائمًا به متحققًا بمقام كنت سمعه وبصره حتى يمكن منه الإيصال إذ لو كان بنفسه فلا يمكن منه ذلك، فثبت بهذا أن السالك بالله واجد له تعالى، والسالك بنفسه فاقد له، ولا يجده.

وبه يجمع بين قول الرسول ﷺ: «**من طلب الله وجده**[1]»، وبين قول أبي يزيد البسطامي قدس سره: «السالك مردود، والطريق مسدود».

فإن السلوك والطلب بمعنى واحد، فصار مآل قول الرسول ﷺ: إلى أن الطالب واجد لله.

ومآل قول أبي يزيد: إلى أن الطالب غير واجد له، وهما متناقضان ظاهر لكن المراد في الأول الطلب بالله، وفي الثاني الطلب بالنفس فلا تناقض؛ لأن شرطه اتفاق القضيتين في الوحدات الثمانية وهنا ليس كذلك فتأمل.

ثم أكده بقوله: (**الشيخ من نقلك من نار البعد والانفصال إلى جنة القرب والاتصال**) أي: شيخك المسلك لك أيها السالك هو الذي نقلك من نار هو البعد عن حضرة القدس والانفصال عنها بوقوفك مع السوى، وشركك الخفي والأخفى إلى جنة هي القرب إلى الله، والاتصال به اتصال الفرع بأصله من حيث الوصول إلى غاية المرام عاريًا عن الوصل، والفصل المشهودين بين العوام؛ لأنهما بالمعنى المشهود مُحال في حقه تعالى حيث لا وصل ولا فصل ولا قرب ولا بعد.

وفي لسان هذه الطائفة أن البعد هو المسمَّى بالنار وبجهنم، والقرب هو المسمَّى بالجنة، وإن البعد هو المتوهم والقرب هو المتحقق؛ لأن المقامات والمواطن كلها مراتب ظهوره تعالى، فلا بعد الإعلى سبيل التوهم فما ثَمَّ إلا قرب، فالمراد النقل من البعد المتوهم الذي يتوهمه المريد إلى القرب المتحقق الذي هو الأمر عليه في نفسه، وهذا لا يكون إلا برفع الحجاب له وكشف الأمور على ما هي عليه، فيخرج المريد عن الوهم والخيال، ويدخل في القرب والاتِّصال فنكشف له حقيقة الحال.

وبما ذكرناه تبين أنه تأكيد لما قبله ومعنى التأكيد على لسان الحقيقة أن يكون في اللاحق ما في السابق مع زيادة وفائدة جديدة؛ لأن التجلي لا يتكرر، ثم زاد الشيخ قدس سره في البيان اهتمامًا بهذا الشأن.

وقال قدس سره: (**الشيخ من أمات نفسك قبل أن تموت، وجال بروحك في عالم اللاهوت**) المراد بإماتة نفس المريد إخراجه عن الالتفات إلى الدنيا وتوابعها، وعن النفس وحظوظها كالميت لا شيء له مما ذكر، وهذه الإماتة إرادية كما أن الخروج مما مرَّ إرادي، والمراد بالموت الثاني الموت الطبيعي، وقد مرَّ معنى الموت بأقسامه (**جال**) في الحرب جولة بفتح الجيم، وجال في الطواف جولاً بفتح الجيم وضمها وبسكون الواو وجولاً بتحريك الواو، وجول بالتشديد تجوالاً واجتلال، والجال

=

=

بمعنى طاف كذا في القاموس.

و (**اللاهوت**) عالم أعلى كما أن الجبروت عالم أو سط، والملك عالم الشهادة والملكوت عالم الغيب الإضافي والحقيقي فهو يعم الجبروت والعظموت واللاهوت.

وقيل: إن الملكوت عالم الأرواح، والمعنى الشيخ المسلك لك أيها السالك الطالب للسلوك الموصل لك إلى القدسية الكاشف لك الحجب المانعة لك من الوصل والمقرب لك إلى جناب حضرة مولاك الناقل لك من نار البعد، والانفصال إلى جنة القرب، والاتصال هو الذي يميت نفسك وهواك عن السوى، ويقطعها عن حظوظها وشهواتها كالميت قبل أن تموت بالموت الطبيعي اللازم للطبيعة الحيوانية، فتكون أنت ميتًا ماشيًا على وجه الأرض كما هو حال أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وشهد له النبي ﷺ بهذا الحال حيث قال: «**من أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى أبي بكر** ﷺ».

وأيضًا الشيخ هو الذي جال وطاف بروحك لا ببدنك؛ لأن الجولان في عالم الغيب بالبدن من خواص خاتم الرسل عليه وعلى آله أفضل - الصلاة وأتم السلام - والكمَّل من ورثته يطوفون بأرواحهم لا بأبدانهم، فالشيخ يطوف بروحك في عالم اللاهوت ويعرج بك إلى العظموت، ويشهدك منازل الناسوت إلى أن يقول لك: ها أنت ومولاك، فتبلغ غاية الرضا وأقصى المنى، ولا يبقى في قلبك شيء من السوى.

وبالجملة إن لم يأخذ السالك الطريق ممن يكون من الرجال الموصوفين بأوصاف الكمال فلن يفلح.

وقوله: (**الشيخ من نقل أسمك ومحى رسمك**) أي: الشيخ الذي يسلك بك هو الذي نقل اسمك عنك بإفناء وجودك في وجود الحق تعالى، فلا يبقى لك اسم ومحى أيضًا رسمك بإفناء إرادتك في إرادة الله تعالى، فلا يبقى لك رسم، فبالأول يحصل لك الفناء في الله، وبالثاني يحصل لك الاتِّحاد مع الله تعالى بالمعنى الذي اصطلح عليه القوم فيهما وهو الخروج عن الوجود لغير الحق بأن يثبت الوجود له تعالى، ويتحقق بحديث:

«**كان الله ولا شيء معه**». والآن كما كان، وبقوله تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص: ٨٨]. ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾ [الرحمن:٢٦]، أو عن صفاته البشرية بأن يدخل في الصفات الحقيَّة، وهو مقام بي يسمع وبي يبصر هذا في الأول، وهو الفناء والخروج عن إرادته لإرادة الله تعالى في الثاني وهو الاتحاد، فمن صار وجوده وجود الله وإرادته إرادة الله فهو متحد مع الله في هاتين الصفتين لا في الذات؛ لأن عينية الأشياء للحق من حيث ظهوره فيها وانصباغه بصبغها.

وأمَّا من حيث الذات فالأشياء أشياء والله الله كما صرح به الشيخ قدس سره في «الفتوحات المكية».

=

٣٦- في صحيح مسلم: «مَن كان عنده شيء من هذه النساء اللآتي تتمتع؛ فليخل سبيلها»(١):

=

وقال بعضهم: الفناء نفي العبد لاختياره المغاير لاختيار الله تعالى؛ لأن الكمال أن يختار العبد ما اختاره الله له إن يختاره، وإلا فالإنسان لا يجوز أن يكون غير مختار؛ لأنه تعالى وإن نفاه فقد أثبته فقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧]، فأثبت في هذا القول الرمي وقد نفى. والبقاء أن يختار باختياره تعالى له الاختيار بعد ما نفى اختياره المغاير لاختيار الله تعالى، فالعبد في هذا المقام مختار من جهة البقاء غير مختار من جهة الفناء، وأمَّا العوام فلهم الاختيار مطلقًا لرؤيتهم الوجود لنفوسهم وأن يعملوا بإرادتهم، ويجوز أن يكون المراد (**بنقل الاسم**) غير ما قلنا: من رفعه بالإفناء، بل معناه الحقيقي، ويكون حقًا قوله:

(**ومحي رسمك**) من عطف السبب على المسبب، فإن الشيخ ينقل المريد من اسم إلى اسم من اسم العام إلى الخاص إلى أخص الخاص، أو من الجاهل إلى العالم إلى العراف بالله، أو من اسم المسلم إلى المؤمن إلى الصالح إلى المحسن إلى الشهيد إلى الصديق إلى المحقق إلى غير ذلك من الأسماء المصطلح عليها لهذه الطائفة بسبب محو العادات ورسوماته عنه فتبصر.

ثم قال الشيخ قُدِّس سرَّه: (**الشيخ من أطلعك على حالك، لا من أخذ مالك**) أي: الشيخ المسلك هو الذي جعلك مطلعًا على حالك من النقص والكمال، فيُذهب منك النقص، ويفيض عليك الكمال بالاستئذان لك من ربك بأن يكون الشيخ من خواص الخواص الكاملين المكمِّلين، الذين هم مع غلبة التسليم عليهم يأمرون المريد، ويرغبونه في الأشياء، ويرهبونه من أشياء، وينـــزلون من مقامهم لمقام المريد حتى يُقيِّم عوجه؛ لأن الشيخ هو الذي يأخذ مالك عنك كالمشايخ بعد قرن عاشر قعدوا على السجادة بدون إذن من الله تعالى، فيأخذون أموال الناس من غير استحقاق فيهم.

وهذا الشيخ كما أنه يأخذ مالك أيضًا يأخذ دينك؛ لأن المريد ناظر إلى شيخه، ويتأدب بآدابه وآدابه مذمومة.

ومن هنا قيل: إن العلماء السوء أشدّ من الشيطان؛ لأن الشيطان يضرك في دينك، وذاك يضرك في دنياك ودينك، فعلى هذا يجوز أن تكون (**ما**) في (**مالك**) موصولة أي: لا الشيخ الذي يأخذ منك ما حصل لك من أمور الدين والدنيا، ولا الشيخ الذي هو من خواص الأولياء الذي محقه التسليم لله تعالى في سائر الأحوال وما بقي له اختيار، فإن مثله لا يرى في الوجود محظورًا ينهاك عنه مع أن الصحبة تقتضي الميل إلى الصاحب، وهذا الرجل ما له ميل إلى أحد سوى الله تعالى حتى يُقيِّم عوجه ويُصلح فساده، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

(١) رواه مسلم (١٠٢٣/٢)، والنسائي (٣٢٨/٣).

المراد من هذه النساء بلسان العبارة: مَن كان نكاحهن مؤقتًا، ويُقال له: نكاح المتعة كان حلالاً إلى فتح مكة، ثم حُرِّم تحريمًا مؤبدًا بعد ثلاثة أيام منه؛ لأن أصل النكاح للوصلة والقرابة لا للفرقة والبعد، إلا إن مست الحاجة إلى الفراق، ووقعت للضرورة للافتراق، ولا ضرورة بعد فتح مكة؛ لكثرة النساء، ورخصة المهور، وسهولة التعيُّش، فكان نكاح المتعة نكاح ضرورة دفعًا للسفاح، ورفعًا للجناح.

وأمَّا المراد منهن بلسان الإشارة: فالنفوس الطبيعية، فإن ازدواج الأرواح العلوية بهن قبل فتح مكة القلب كان ضروريًا، فلم يبقَ لنكاحهن ضرورة بعد أن تيسَّر النكاح الروحاني بين الأرواح، والنفوس المطمئنة، وفي الغلبة حكم الوجوب على حكم الإمكان؛ فكان النكاح في الحقيقة هذا النكاح.

وأمَّا النكاح الطبيعي(١): فإنما هو لتذكير مذاق ذلك، لكن بعد الوصول؛ كثر

---

(١) فصل في روح وصل في أرواح النكاح، فإن روح الإرشاد يدخل في كل روح دل لذلك الأرواح الفرقانية ففي روح الإباحة: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء: ٣]

والأرواح على أقسام فأرواح الصالحين الكمل على أرواح النكاح ولهم من ذلك الذرية الطيبة وهي مطلوب أرواح النبوة لما تحرك في أرواحهم من أرواح الذرات المخزونة بروح الأمر إلى أرواح الأجل فإذا جاءت أرواح الآجال جرت أرواح الأسباب وتواصل الأرواح بأرواح المحبة والمودة حتى يكون وروح العقد فيجري أمر النكاح.

وفي الأرواح المحمدية «**لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل**» ليقع روح الفصل بين النكاح وبين السفاح فالسفاح ما كان بلا ولي ولا شاهدي عدل فالشهادة إنما شرعت للوثوق والروح الفاسق لا وثوق بروح شهادته فلهذا الروح قال: الروح المحمدي «**لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل**»(١) وفي روح الشاهد حفظ روح النسب فالشاهد على روح النكاح شاهد ينسب من ولد على فراش الرجل من روح تلك المرأة ويكون روح الشهادة على روح النكاح حفظ حقوق الزوجة وحفظ حقوق الولد وحفظ المواريث بين الزوجين وما ولد لهما.

وكل ذلك يحتاج إلى شاهد تثق به روح الأرواح ولا يكون ذلك إلا بروح العدل والعدل روح من أرواح الحق في بلاده بين أرواح عباده فلا قسم لأرواح الوجود إلا بأرواح العدول فحده أن لا يكون قد ارتكب كبيرة عمدا مع وجود العلم بالحرمة وأن لا يصر على صغيرة ولا يكون هذا الروح إلا في روح آمن بالله وكان بروح الإيمان له خوف من الله فلو قدم غريب إلى روح بلد =

ومعه حرمة وقال إنها زوجته صدقناه وقلت حكم الزوجية بعد ذلك إذا قالت الزوجة مثل ذلك ولا يجوز روحَ التجسس عليهما بل يتركان فإن ظهر ما هو خلاف الواقع فله حكمه وقد وقع مثل ذلك لروح الإمام عمر فإنه رأى رجلا في طريق يتكلم مع امرأة فقال مالك تكلم هذا المرأة في طريق الناس وضربه بالدرة على روح الظن أنها أجنبية فقال الرجل هي زوجتي يا أمير المؤمنين. فرمى الإمام إليه الدرة وقال اضربني على روح ما ضربتك أو تعفو فقال: عفوت يا أمير المؤمنين.

ولا يكون روح الفصل بين البهائم وبين الأرواح البشرية إلا بعقد النكاح بالولي وشاهدي العدل وبالمهر الذي هو الصداق حتى لو أسقطته البالغة العاقلة قبل العقد بأن قالت للولي اعقد علي لفلان بدون شيء فعقد صح العقد.

فإن دخل بها لزمه مهر المثل فإن أسقطته بعد ذلك كان أبرأ من حق مقدر لها شرعا فمهر المثل يدخل في ملك المستحقة له فهو كالإرث فإنه مقدار شرعا وكل حق ترتب بوجه الشخص على شخص علم ذلك الروح من البشر أم جهل كان ذلك الروح من الأمر من جملة حقوقه فيكون له المطالبة في روح الآخرة بحقه أو يكون من العفو وهيهات في تلك الدار مع وجود الحاجات ومقاسات الشدائد روح من الأمثلة في روح ما ذكرناه.

وذلك مثلان يذكر شخص بين يديك وهو غائب فتقع في عرضه في عرض زوجته في عرض ولده في عرض جده في عرض جيرانه دخلت كرما بستانا طاحونا بغير عرض دار إذا كان بغير إذن ولا علم من المالك ترتب عليك في ذلك حق بعد حق بعد حق فيكون أنت قد أفقرت نفسك وضيعت راحتك وصرت رهين أرباب فملك الحقوق حتى يكون الأخذ من حسناتك إلى روح فراغها ثم يكون الطرح عليك من أرباب المظالم حتى لا يبقى لك روح من الطاعة وتلقى في النار مع أرواح الفجار ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق: ٣٠] هل عندكم من زيادة ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق: ٣١] أي ذلك الموعود غير بعيد فهو قريب ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج: ٦-٧] بروح الإلزام لأرواح الاحترام.

فمن كان له روح احترام لمحارم الله تعالى كان له روح إكرام منه على ممر أرواح الدهور والجُمع والأيام والسنين والشهور فما هي إلا روح صبر ساعة وراحة أرواح الأمد فما روح التقوى إلا روح الصبر على أرواح مسمى المأمورات وروح الصبر عن ارتكاب ظلمات المنهيات وروح الأمر سهل على من سهله الله عليه ومن كان له روح تجريد بروح من أرواح الخيال وصور سراب المحال لا يكون عليه كلفة في أرواح المأمورات ولا في ترك أرواح المنهيات المحال لا لسلامة روحه بروح التجريد من أرواح العقابات وأرواح النفوس المقيمة على سواحل الطبع البشري.

والأصل الطبيعي العنصري فلم يكن في وجوده فلم تصله سر من أسرار التحويل فهو على روح الجهل

=

واقف وعلى سراب القطيعة عاكف وارد من الأسرار بروح من الاعتبار إذا وردت على الروح الإنساني روح الحياة بروح الولي الحميد وهو الرحمة المنشورة وأصل روحه تبرز من روح القلب وتنتشر في روح العالم على روح الإطلاق في سائر الأرواح وأرواحها العنصرية.

وما كان من كل روح ما كان فتكون كل أرواح الوجود تكوينا على روح التجديد بروح الحياة التي هي الرحمة المنشورة في أرواح العالم من روح قلب سر صاحب السر وهو الإنسان الكامل بروح لولي الولي الحميد فروح الولي الحميد لا ينشر الرحمة في أرواح الوجود إلا من روح قلب الإنسان الكامل صاحب سر الحياة.

وهذه هي عين الحضرة المطلوبة لأكابر ولا يعرضها إلا من شهدها وكل ما لم يكن مشهودا فهو في روح الجحود خصوصا إذا لم يقم عليه دليل كالجليل فروح هذا المشهد في الروح الإنساني روح قابض بأرواح التعمير لأرواح الوجود بأرواح الحياة التجديدية وفي الأرواح المحمدية أنه «**ما قرن إلا ويرسل على رأسه من يجدد لهذه الأمة أمر دينها**» وما هو إلا هذا التجديد بروح الحياة.

والمجدد هو الإنسان الكامل الذي أفاض الله من قلبه أرواح الحياة فانتشرت في أرواح الوجود من روح سره الممد من روح الولي الحميد فيكون التجديد في أرواح الوجود من هذا الكامل والإنسان الواصل فما يكون من السحاب والزروع والفروع ودوران الأفلاك إلا بروح الحياة الفائضة المنشورة في أرواح الوجود من روح المجدد المرسل على كل قرن قد درست أرواح حياته وبقي على أرواح من الإنارة من ذلك روح الجهل وأرواح الطغيان.

ومن هذا الروح المنصوب تمد أرواح الدين وأرواح الدنيا فيدوم روح الإسلام بمواصلات أرواح التجديد بالروح الجديد إلا أن روح التجديد الفائض من روح المجدد يكون على أرواح من الزيادة وأرواح من النقص وأرواح من الفترة كما كان يفتر الوحي عن الروح المحمدي.

وكذلك أرواح الولاية لها أرواح من الفترة ومن علامات تلك الفترة وقوع الخلل في أرواح الوجود عند روح الفترة فأول روح يقع من أرواح الخصب وأرواح الحياة إنما يقع في روح الإنسان الكامل ثم منه تنتشر الرحمة في أرواح الوجود وأول روح يقع من أرواح القحط إنما يقع في روح الإنسان الكامل ثم ينتشر في أرواح الوجود وذلك الولي عارف بأرواح هذه التصاريف لا يفوته دقيقة ولا رقيقة من أرواح الرضوان ولا من أرواح السخط ولا من أرواح الفتح ولا من أرواح الغلق فكل روح مسرة في الوجود فضلته فسائر ما يكون في أرواح الوجود على أرواح التفصيل وعلى أرواح الإجمال من كل روح موافق ومن كل روح مخالفة من أرواح فضلاته التي أمده بها الولي الحميد فالسر عند هذا الروح الكامل على روح العارية.

وإنما هو روح الحق على روح الصدق ولكن بذلك جرت الأسرار ووقع الإكرام لهذه الأرواح الطاهرة بأرواح هذه الحياة الفائضة في أرواح الوجود على روح الإكرام والولاية لا على أرواح القدرة بروح

=

الأصالة ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ١٥٠]، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، فما ذكرناه إنما هو روح من التعمير لأرواح الوجود بأرواح الحال الفائضة من أرواح الجمال على روح الإكرام فلا يكن منك روح من الغلط فإن أرواح الحق واسعة.

وطبقات أرواحه شاسعة ولسعة أرواح الحق شرعت أرواح النكاح لسعة أرواح التصريف في أرواح - أرواح مختلفة على أرواح مؤتلفة فروح النكاح يشرع فيه روح النظر فهي إلى الوجه وإلى روح الكفير.

وطار طائر الحب فوقع على روح القلب من روح تلك الروح المرئية.

وفصل بروح الوجه وروح القبول وبروح أرواح الوصول كان ذلك كروح الأساس للحبر المدراس العارف بقواعد التورية وما فيها من أرواح الآيات وأرواح الأنات إنما كانت من الأحرف مركبات فظهرت منها أرواح المعاني بالنظر في أرواح تلك المباني.

وكذلك الناظر في أرواح الوجه والكفين من روح امرأة على روح أن يتخذها زوجة وذلك بروح محمدي على روح من الندب لا على روح الوجوب ولا على روح الإباحة ولا على روح حرمة.

وذلك مثل روح النظر في روح المتاع لروح المشتري حتى يقع روح الشراء على روح الرضا وكل ما كان على روح الرضا كانت عاقبته العيشة الراضية، وما كان على روح الكراهة في البداية كان على روح الكراهة، فلا يصح البيع بدون أن ترى ويصح النكاح بدون أن ترى إلا أنه يكون على روح من الكراهة فلا يقع بعد ذلك أو روح من الموافقة لمخالفة الحكمة.

والأرواح المحمدية التي فصلت عندها أرواح الطبائع وكل أرض يليق بها من أرواح النبات ما يليق وليس السر في روح الأرواح الذاتية إلا لأن تتناهى أرواح النظر في أرواح المحاسن، وأرواح الجمال الظاهر في روح هذا العالم الظاهر فإذا تمت أرواح الأذواق من أرواح طعوم حلاوات كمالات أرواح المحاسن على سائر أرواح تفانينها ظهرت أرواح الذات بأرواح من الإطلاق في أرواح من التجلي لا يبقي معها صورة كمال ولا روح من أرواح الجمال.

فكذلك يكون في أرواح الآخرة للأرواح الإنسانية أرواح من السكر وأرواح من الغيبة ثم يكون لهم صحو وسكر وشرب وكمال في درجات أرواح شهودهم لإتيانها في روح ظاهر ذلك العالم الذي هو روح باطن هذا العالم فعلى مقدار ما تسلك وتذوق وتشهد في روح السر بغير روح من النهاية.

فكذلك في أرواح الآخرة يكون الأمر على روح الظاهر على غير حد ولا روح من أرواح النهاية أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وذلك من روح الإجلال لأرواح الكمل بأرواح المواهب على حسب روح أرواح إجلالهم إياه في أرواح

=

عوالم المكاسب فقدموا ما في أيديكم لما بين يديكم ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ [المزمل: ٢٠] فأرواح النكاح أرواح تقديم لما بين يدي أرواح الآخرة فإن من ذلك روح الولد الصالح والأخ الصالح والأخت الصالحة.

وفي ذلك من أرواح التعارف وأرواح القرابة وأرواح الأمومة وأرواح الأبوة وأرواح العمومة وأرواح الأخوال وأرواح الخالات، وأرواح الجدات وكم في ذلك من أرواح المواصلات بأرواح الرحمة بأرواح الدعوات بأرواح الصدقات بأرواح التربية بأرواح الحزن بأرواح البكاء على أرواح الأولاد وليس في ذلك من النقص.

وفي الأرواح المحمدية «**إن العين لتدمع وإن القلب ليخشع وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون**» فالحزن والبكاء المضحك والسرور من كمال الروح الإنساني وبذلك تميز على الروح الحيواني وله خواص تميز بها عن أرواح الملائكة وهي أرواح النكاح المتميز بأرواح عن أرواح نكاح الحيوانات على أرواح من الستر.

وذلك روح من الكمال في الروح الإنساني، وما كان مختصا بروح؟ حمن العلم على روح من الذوق كان أكثر عرفانًا بأرواح الحقائق فكمال الرحمة في الأرواح البشرية بأرواح النكاح فالفخر في الآخرة لأرواح الذرية الطيبة ولو بأرواح الإفراط، فالأرواح الطيبة يشفع بعضها لبعض ويرحم بعضها ويكرم البعض منهم من أجل روح البعض فسر التوالد روح مفصل في أرواح الرحمة ولا يفتر عن أرواح التفصيل في أرواح المواصلات في الأنفس الطيبة وغيرها والكل على ساحل الفقر في ساحة الكرم عند الملك الأكبر فما أرواح الذل في أرواح العز وما أرواح الفقر في أرواح الغنى وما أرواح العجز في أرواح القدرة فما وعزته شرع التوالد إلا لأرواح الرحمة بأرواح العطف وأرواح اللطف.

فيا أيها الروح الغافل تقرب إلى هذا السيد ولو بصلاة ركعتين في روح من ليل أو في روح من النهار فإنه سيدك وإليه مردك فلا تغتر ولو باليسير فإنه الغني يرضى منك ولو بالسير فيقول عبدي ذكرني على أرواح ضعفه عبدي ذكرني على أرواح شغله عبدي ذكرني على أرواح فقره عبدي ذكرني على أرواح حاجاته وعزتي وجلالي إنه العزيز عندي وإن أهنته وإن أذقته من مرارات الفقر ومن مرارات عسر الدنيا فله عندي ما يحب ويرضى فهو عبدي وأنا سيده.

فيأيها العبد لو سمعت صريح الخطاب لتفطرت منك أرواح الألباب لو رأيت المولود وقد قال له الملك الودود: اذهب وخد بيد أبيك وادخل به الجنة لاشتهيت الولد فذلك من رحمة الله بأرواح الوالدين وعزته وجلاله إنه بعباده رءوف رحيم لا يزال يسيرهم على أرواح الجود وعلى أرواح الكرم وعلى أرواح الفضل وعلى أرواح العفو ويا ليت شعري ما الروح الضعيف في أرواح العقوبات.

=

النكاح مطلقًا لِما أن ذلك كان خارجًا عن حكم الطبيعة حدًا؛ فكانت الشهوات

=

فيا رحمن أنت صاحب الرحمة الواسعة لا تكل البعض إلى البعض فيشقوا وكن أنت لهم ليبقوا.

فروح النكاح روح ستر وأرواح أجر وروح تعارف على أرواح البر والتقوى وروح السلامة في أرواح المتابعة فمن رغب عن السنة فهو الناقص بلا منة والتارك عجزًا أو لعذر ليس براغب عن أرواح السنة، ومما يكون من أرواح المعونة خفة أرواح الموعدة.

فلا يتزوج الروح الإنساني بروح شيطاني وهو الروح الكثير المؤنة وقد كانت أرواح جهاز فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين بعد مريم معلومة لأرواح الناس فلم يكن هناك مزركشا ولا مصاغا ولا فرشا وطية ولا شيء من أحوال المترفين.

وفي روح يوم حابسي فطلبت منه فاطمة جارية للخدمة فلم يسمح لها بذلك رسول الله ثم جاءها من الليل فقال لها ولعلي ألا أعلمكما ما هو خير لكما من خادم فعلمهما أن يسبحا ثلاثا وثلاثين ويحمدا ثلاثا وثلاثين ويكبرا ثلاثا وثلاثين ثم يكون الختام لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

فقد كان روح نظره الكريم إلى أرواح الآخرة لا إلى أرواح الدنيا فإن النازل فيها على حد الترحل عنها لا على حد الإقامة روح إشارة فيها كفاية عن أرواح العبارة في روح قوله ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء: ٣] لا تقربوا غير النساء فإن ذلك عليكم محرما كحرمة أن تقربوا النساء بغير حق ولا عقد بشرطه.

وفي الأرواح المحمدية «**يا معشر الشبان تزوجوا فمن لم يستطع فعليه بالصوم**» كل ذلك حرص من روحه الكريمة على هذه الأمة المرحومة حتى لا تكون على روح من أرواح النقص فتكون كاملة الاعتبار في الأسماع والأبصار بأرواح المشاهدة وأرواح الأخبار ووليمة العرس سنة وتجوز قبل الدخول وبعد الدخول على خلاف ما اعتاد الناس، ولا تفوت بمال فإن وقتها العمر كالعقيقة ففي أي وقت يمكن فعلها والذي يظهر أنها روح من الشكر على روح نعمة التأهل.

فإن التأهل من أرواح النعم الكبار ولذلك شرع أن يكون شكر هذه النعمة وليمة ولو بشاة وإن خير الولائم وليمة العرس التي يدعى إليها الفقراء ولذلك قال أرواح من أهل العلم يستحب أن يطعم الفقراء أولا ثم يشرع في بقايا الناس على أرواح طبقاتهم، وإذا كان النكاح نعمة فلا يكون لها مقابلة إلا بروح الشكر فكيف يصح أن يشكر النعم بالمحارم فلا ينبغي أن تفرش البيوت والحرير إلا أن يكون من فرش المرأة ولا يحل نصب صور الحيوان على أرواح الجدران ومن ترك شيئا لله عوضه خيرا منه وشر الطعام طعام الولائم الذين تأكل منه الأغنياء دون الفقراء فزن واحفظ على نفسك كما تحفظ لها، فإنك ملاق ما أنت له صانع.

حقائق قطعًا؛ ولذا كان ﷺ حُبب إليه النساء: أي ازدواج الصديقات الجامعة بين الكمال الظاهر والكمال الباطن.

كما قال: «**خذوا ثلثي دينكم من عائشة**»(١)، وشُهد بكمال آسية، ومريم، وخديجة، وفاطمة رضي الله عن كلهن بخلاف سائر الأنبياء، فإن بعضهم كنوح، ولوط لمْ يتيسَّر لهم الوفاق، والطباق مع زوجته.

وقد فُضِّل نبينا ﷺ على آدم عليه السلام بخصلتين أحدهما: أن حواء لم تكن معينة له في طاعة الله؛ بل كانت سببًا لزلّته بخلاف الأزواج المطهَّرة.

والثانية: أن شيطان آدم لم يسلم بخلاف نبينا مع قرينه؛ ولذا لم يأمره إلا بخير.

والحاصل: أن النكاح المبتدئ، والموسَّط من السالكين؛ كنكاح المتعة، فازدواجهما مع أزواجهما الصورية، والمعنوية ليس بازدواج حقيقي، إذ ليس عندهما ذوق القربة والوصلة بخلاف حال المنتهى، فإنه إذا حصل له الفتح المطلق الكلي الجامع لجميع الفتوح؛ كانت النساء الطبيعية عنده مُحلاَّة إذ لا سبيل للطبيعة، فإنه إنما يُجرى عليه أحكام الحقيقة في كل أمر من الأمور التي يزاولها ويباشرها.

فأين الباقي بنفسه عن الباقي بربه؟ وأين الفاني عن نفسه بأن يكون مغشيًا عليه بغلبة خط طبيعته عن الفاني عن نفسه بأن يكون مأخوذًا عن الحس بحكم تجلّي هويته؟ ففرق عظيم، والله بين الخطين.

فأحدهما: قاصر ناقص.

والآخر: تام كامل.

وقياس أحدهما على الآخر قياس فاسد ناشئ عن عدم إدراك الحقائق بتمامها، وعدم مطالعة التجليَّات بكمالها، والله الهادي، ولأهل البوادي.

٣٧- **في البخاري** قال رسول الله ﷺ: «**مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخرة؛ فليصل رحمه**»(٢):

---

(١) رواه الديلمي (٢/٢٦٥).

(٢) رواه البخاري (٥/٢٢٧٣)، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٢٤٩).

أشار بالإيمان بالله إلى الإيمان بالمبدأ الأول، وباليوم الآخر إلى الإيمان بالمعاد، وأشار بصلة الرحم إلى صلة الأرحام القريبة؛ كالعقل الأول، وما يليه، كما يقتضيه الإيمان بالمبدأ، وإلى صلة الأرحام البعيدة؛ كالطبائع والعناصر والمواليد، كما يستدعيه الإيمان بالمعاد؛ لأنه كما أن الله تعالى هو الأول؛ فكذا التجلّي الأول الذي هو العقل الأول.

فليس كمثله شيء؛ لأنه أول المخترعات التي توجهت إليها الأسماء الإلهية من كمون الغيب، فأبرزها في مبرز الشهادة؛ وهي الشهادة المطلقة الأولى للتي تلي غيب العلم، وغيب الأسماء، وغيب الذات، وأيضًا كما أن المعاد هو الأخر، فكذا التجلّي الثاني الذي ينتهي إلى المواليد، وإلى الإنسان.

فالإنسان من حيث إنه العقل الأول، وأول التجليّات الغيبية؛ هو المبدأ الأول الظاهر فيه سر الأولية الأولى، ومن حيث إنه الإنسان، والبشر، وآخر التجليّات الشهادية؛ هو الآخر الظاهر فيه سر الأخروية الثانية، فله حقيقة غيبية، وصورة شهادية.

والكل من الأول إلى الآخر مراتبه وأطواره، فهو عين نفسه من حيث أحديته، وغير نفسه من حيث تكثُّره في مراتب نزوله، واسترساله، فتلك الكثرة إن كانت كثرة روحانية؛ فهي أقاربه القريبة، وإن كانت جسمانية؛ فهي أقاربه البعيدة لا الأجانب، فإن سلسلة الكائنات متصلة به، إمَّا قريبًا، وإمَّا بعيدًا، فليس شيء منها يكون أجنبيًا عنها.

فلا بد للإنسان من صلة تلك الأقارب مطلقًا، وصلتها إعطاؤها حقها؛ وهي الأمانة التي عنده المأخوذة منها حين مروره عليها، فإذا أعطى كل واحد منها حقه بأن يتجرَّد من ملابسها؛ فقد وصلها؛ وهو التحليل الذي لا بد منه في السير عروجًا، ثم إن تلك الحقوق تعود إليه حين يتلبَّس بها حالة البقاء؛ وهو التعقيد الذي لا بد منه أيضًا في السير نزلاً.

فقد أخذ الله منه في السير الأول؛ لتجريده عن الملابس، والغواشي الكونية، وأخذ هو من الله في السير الثاني؛ لإلباس الذات الأكسية الحقّانية التي لا تُبلى أبدًا؛

لأن الفاني لا يعود إلى أوصافه، والباقي لا يكون له فناء كوني.

وأمَّا الموت الطبيعي فهو: انتقال لا فناء، ويظهر عدم كونه فناءً أن الإنسان الباقي بربه لا يُبلى من حيث هيكله أيضًا، ومن آثار الصلة الحقيقية: ألا يعطي من نفسه الاعتراض على شيء من الأشياء التي هي بمنـــزلة أجزائه بالنسبة إلى حقيقة الوحدانية؛ للتجلية بالصفات والقوى، فينظر إلى الأشياء بعين الحقيقة، ولا يكون عاقًا لإمامة العلوية، وانتهائه السفلية، وما تولّد منهما من الأولاد الكثيرة التي لا تُحصى عددًا؛ لأنها إخوانه وأقاربه.

ولمّا ذكرنا من السرِّ الإلهي؛ ذكر النبي ﷺ صلة الرحم في جنب الإيمان بالله واليوم الآخر، ثم لمّا كانت الأشياء أمورًا مضادة من حيث طبائعها مخالفة لحقائقها في أحوالها المختلفة؛ كان من الحكمة الإلهية إزالة الضد بالضد، ولم يعد ذلك من العقوق، كما أشار إليه قوله تعالى: **﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا﴾** [لقمان:١٥].

٣٨- **في صحيح مسلم:** قال رسول الله ﷺ: «**مَن لقي الله لا يُشرك به شيئًا؛ دخل الجنة، ومَن لقيه يُشرك به؛ دخل النار**»[(١)]:

الجملة الأخيرة تصريح بما علم من الجملة الأولى؛ لأنه إذا كان الموحِّد هو الذي يدخل الجنة؛ كان المشرك هو الذي يدخل النار، ولكل من الجنة والنار صورة ومعنى، فصورة الجنة: دار الثواب المشتملة على ثمرات الأعمال، ومعناها: القلب الإنساني المحتوي على نتائج الأحوال، وفي الكل تنعُّم؛ لكن التنعُّم في الجنة الأولى جسماني وروحاني، وفي الثانية روحاني فقط، وقد يشمل الروحاني في الدنيا الجسماني أيضًا؛ فيتنعَّم المكاشف بما يقرب من تنعُّم المحجوب في الجنان، وله أخبار وآثار كثيرة، ومن لم يذق؛ لم يعرف كيف هو؟.

وأمَّا صورة النار[(٢)]: فدار العقاب الجامعة لتبعات السيئات، ومعناها: الطبيعة

---

(١) رواه البخاري (١/٦٠)، ومسلم (١/٩٤).

(٢) قال السيوطي في البدور: أخرج الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما رأيت مثل النار نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالبها».

وأخرج أحمد في مسنده عن رسول الله ﷺ أنه قال لجبريل عليه السلام: «ما لي لا أرى ميكائيل ضاحكًا قط، قال: ما ضحك ميكائيل منذ خُلقت النار».

=

الشهوانية النفسانية الحاوية لأنواع الشهوات، والأهواء، والأخلاق السيئة، فلمَّا كان أصل الحسنات من الأنوار؛ أدَّى إلى الجنان التي خلقها الله من أنوار لطفه وجماله، ولَمَّا كان أصل السيئات من الظلمات؛ جرت إلى جهنم التي خلقها الله من ظلمات قهره وجلاله.

فأهل الجنة: أهل الوجود الحقيقي الذي يُضاف إلى الله تعالى، وأهل النار: أهل

=

وفي تحفة الإخوان والبدور أيضًا ما يفيد معناه قال: «جاءني جبريل عليه السلام يقول هذه الآية: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٤٣]، فقلت: يا جبريل صف لي النار وأهوالها؟ فقال لي: يا محمد، لمَا خلق الله النار أوقد عليها ألف عام حتى احمرت، وألف عام حتى ابيضت، وألف عام حتى اسودَّت، فهي سوداء مظلمة، وقودها الناس والحجارة، قعرها بعيد، وعذابها شديد، وشراب أهلها صديد، وسرابيلهم من القطران، لا يطفأ لهيبها، ولا يخمد جمرها، والذي بعثك بالحق نبيًّا لو أن مثل ثقب الإبرة فُتح من جهنم لاحترقت الدنيا ومن عليها، والذي بعثك بالحق نبيًّا لو أن ذراعًا من السلسلة التي ذكرها الله في سورة الحاقة وُضع على أعظم جبل في الدنيا لذاب حتى يبلغ الأرض السابعة، والذي بعثك بالحق نبيًّا لو أن ثوبًا من ثياب أهل النار عُلق ما بين السماء والأرض لمات أهل الدنيا من شدة نتنه، يا محمد والذي بعثك بالحق نبيًّا لو أن رجلاً يُعذَّب بالمغرب لاحترق أهل المشرق من شدة عذابه، يا محمد لها سبعة أبواب كما قاله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ*لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ*لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٧،٢٨،٢٩]: أي مغيرة للبشر، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ*نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة:١٠،١١]، وقال تعالى: ﴿كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ [الهمزة:٤،٥]».

ورد تفسيرها في الحديث المرفوع أن النار تأكل أهلها حتى إذا طلعت على أفئدتهم انتهت، ثم يعود كما كان، ثم تستقبله أيضًا فتطلع على فؤاده فهو كذلك أبدًا، وقال الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى* نَزَّاعَةً لِلشَّوَى﴾ [المعارج:١٥،١٦]، جمع شواة، وهي جلدة الرأس، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ [التكوير:١٢]: أي أوقدت وأضرمت.

وأما ما جاء في محلها:

قال في البدور: وأخرج أبو الشيخ في العظمة، والبيهقي من طريق أبي الزرعاء عن عبد الله قال: الجنة في السماء السابعة العليا، والنار في الأرض.

وأخرج أبو نعيم في تاريخ أصبهان عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن جهنم محيطة بالدنيا، وإن الجنة من ورائها، فلذلك كان الصراط على جهنم طريقًا إلى الجنة»، والله أعلم.

الوجود المجازي الذي يُنسب إلى الكون، والوجود الكوني: وجود مفروض متوهم، كما أن الوجود الواجبي: وجود معلوم متحقق، فلا بد من محو الوجود الموهوم؛ ليظهر سر الوجود المعلوم المحقق.

فالوجود الموهوم: اعتبار محض ولا وجود له حقيقة لما هو اعتباري؛ لكن مَن غلب حكم إمكانه على حكم وجوبه؛ أعطى للإمكان الموهوم وجودًا، فاحتاج إلى الخلاص عنه، وطريقه تحقيق التوحيد في أفعال الله تعالى، وصفاته، وذاته، فمَن احتجب عن التجليَّات برؤية وجوه الإمكاني، وآثاره؛ احتجب عن التوحيد، فبقي في الشرك في الدنيا، وفي العذاب في العقبى.

أمَّا الشرك الجلّي فأمره ظاهر، وأمَّا الشرك الخفي فأمره خفي، فإن العقل قاصر عن إدراك الشرك في الموحِّد، وفي كونه معذَّبًا بالعذاب المعنوي الروحاني في الدنيا وفي الآخرة، فكم من واصل وهو في عين الفراق، وكم من داخل وهو في حكم الخارج؛ ولذا كان الله تعالى لا ينظر إلى الصورة والأعمال؛ بل إلى القلوب والنيَّات، فإذا صلحت القلوب؛ صلح الحال مع الله في مرتبة جماله المطلق، وإذا فسدت؛ فسد الحال معه في تلك المرتبة، ففرق بين نعيم ونعيم، وجمال وجمال، وبصر وبصر، فليحذر المؤمن أن يدخل النار وهو في رياض الجنة.

والحاصل: إنه لا بد للسالك من الوصول إلى الفناء الكلي حتى ينجو من شر الوجود المجازي، ويغتنم بخير الوجود الحقيقي، فكل الوجود شر إلا الوجود الحقيقي كما قيل: ألا كل ما خلا الله باطل، ولا وجود للباطل مع الوجود الحق، فأين أنت من فهم هذا المعنى؟ فاخرج من الباطل، ومن اعتباره حتى تدخل في الحق، وفي حقيقته، والله المعين، وبه نستعين، وهو الحق اليقين.

٣٩- في صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «مَن مات، وهو يعلم أنه لا إله إلا الله؛ دخل الجنة»[1]، رواه عثمان رضي الله عنه.

اعلم أن هذا الحديث يدلُّ على أن الإيمان ليس بعبارة عن التصديق، والإقرار،

---

(١) رواه مسلم (١/٥٥)، والبيهقي في الشعب (١/١٠٨).

أو عنهما، وعن العمل؛ بل هو التصديق القلبي ليس إلا، وهو المراد بالعلم في هذا المقام، فالإقرار شرط لإجراء أحكام الإسلام حتى يتبيّن كونه مؤمنًا بينه وبين الخلق، وإن كان هو مؤمنًا بينه وبين الله تعالى، وإلى هذا: أي إلى أن الإيمان في الحقيقة هو التصديق القلبي، والإقرار اللساني.

فركن زائد ذهب المحققون؛ مثل أبي حيفة، وشيخ السُّنة: أبي منصور الماتريدي؛ وهو أصح الروايتين عن الأشعري، وكون الأعمال داخلة في ماهية الإيمان مذهب المعتزلة والخوارج؛ فالفاسق عندهم غير مؤمن؛ بل مخلّد في النار، وعند أهل السنة ليس كذلك؛ بل هو مؤمن ناقص، وإيمانه مُنج؛ لكنه ليس بكامل، فحيث قرنت الطاعات بالإيمان، وجعلت كالشرط له؛ فالمراد به الإيمان الكامل المنجّي(١).

---

(١) فوائد في مسألة الإيمان: قال الشمس السمرقندي: **الإيمان في اللغة: التصديق، وفي الشرع مختلف فيه.**

فقال المحققون: هو تصديق الرسول بكل ما علم بالضرورة مجيئه به، وإنما قيد بالضرورة لأن منكر الاجتهاديات لا يكفر إجماعاً، ويقرب منه ما نقل عن الإمام الأعظم أبي حنيفة رحمه الله: أن الإيمان هو: المعرفة والإقرار.

وقالت المعتزلة: الإيمان هو: الطاعات.

ونقل عن السلف: أنه التصديق بالجنان، والإقرار باللسان والعمل والأركان فمن أضل بالتصديق وإن شهد وعمل فهو منافق ومن أضل بالشهادة فهو كافر، ومن أخل بالعمل فهو فاسق وهذا قريب مما نقل عن علي -كرم الله وجهه- عن النبي ﷺ، وبه قال الشافعي رحمه الله أنه معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان.

وأما الإسلام فهو بمعنى الاستسلام لغة، وفي الشرع: الخضوع وقبول قول الرسول، فإن وجد معه اعتقاد، وتصديق بالقلب فهو الإيمان فالإيمان أخص من الإسلام، ولهذا قال الله تعالى: ﴿**قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ (الحجرات: من الآية١٤) بين أنه ليس في قلوبهم تصديق الرسول، ولكنهم قبلوا قوله، وأظهروا الخضوع مخافة.

وأما الكفر فهو في اللغة: الستر، وإنما سمي الكافر كافرًا لأنه يستر الحق.

وفي الشرع: إنكار ما علم بالضرورة مجيئ الرسول به.

ولا يكون بين الإيمان، والكفر واسطة إذا فسر الإيمان بالتصديق إما إذا فسر بمجموع الطاعات فتتحقق الواسطة، لأن من صدق الرسول في كل ما علم بالضرورة مجيئه به، ويترك شيئًا من العبادات لا =

=

يكون مؤمنًا حينئذ ولا كافرًا

وسمى المعتزلة القسم منـــزلة بين المنـــزلتين.

وقالت الخوارج: من ترك شيئا من العبادات فهو كافر فعلي هذا لا يكون بين الإيمان والكفر واسطة أيضًا.

والدليل علي أن الطاعات جزاء من حقيقة الإيمان: أنه لو كان كذلك لكان تقييد الإيمان بالطاعة تكريرًا وبالمعصية نقضاً لكنه باطل، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (الكهف: من الآية٣٠)، وبقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام: من الآية٨٢) ولما صح جعل القلب محلاً للإيمان إذ الطاعات ليست جميعها من أفعال القلوب لكنه باطل، لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ (المجادلة: من الآية٢٢)، ولأن من صدق بالله وبرسوله ومات قبل أن يشتغل بطاعة مات مؤمنًا إجماعًا، واحتج الخصم بوجوه:

فالأول فعل الواجبات هو الدين لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (البينة: ٥).

وذلك يرجع إلى كل ما تقدم، فكان كل ما تقدم هو الدين والدين هو الإسلام لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ (آل عمران: من الآية١٩)، والإسلام هو الإيمان إذ لو كان غيره لما كان الإيمان مقبولاً: لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ (آل عمران: من الآية٨٥) فلزم أن يكون فعل الواجبات هو الإيمان.

والجواب: أن بيان إتحاد الإسلام والإيمان معارض بقوله تعالى:

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ (الحجرات: من الآية١٤) ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ (الحجرات: من الآية١٤)، ولئن سلمنا ولكن دليكم إنما دل علي أن الطاعات يصدق عليها الإيمان ولا يلزم من ذلك كونها حقيقة الإيمان لجواز أن يكون صدق الإيمان عليها لكونها متضمنة للتصديق، والاعتقاد.

الثاني لو كان الإيمان عبارة عن التصديق لكان قاطع الطريق مؤمنًا لكونه مصدقًا لكنه ليس بمؤمن لأنه مخزي؛ لأن الله تعالى يدخله النار لقوله في حقهم ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ (الحشر: من الآية٣) وكل من يدخله النار فقد أخزاه لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ (آل عمران: من الآية١٩٢) والمؤمن لا يخزى؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا معه﴾ (التحريم: من الآية٨) وفيه نظر؛ لأن هذا إنما يصح أن لو كان الواو عاطفة، أما إذا كانت ابتدائية، فلا ولئن سلمنا لكن المراد: الصحابة، بدليل قوله تعالى: ﴿مَعَهُ﴾ (التحريم: من الآية٨).

الثالث — قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ (البقرة: من الآية١٤٣) أي صلاتكم إلى بيت القدس.

=

=

والجواب: لا نسلم أن كان الإيمان هاهنا: الصلاة لم لا يجوز أن يكون المراد التصديق بوجوب تلك الصلاة.

الرابع — لو كان الإيمان عبارة عن التصديق لما كان قابلاً للزيادة والنقصان، إذا التصديق معنى واحد لا يقبل ذلك لكنه باطل.

واختلفوا في أن الإيمان هل يزيد وينقص أم لا.

فقال بعض من ذهب إلى أن الإيمان هو التصديق: لا، لأن مسمى التصديق شيء واحد لا يتطرق إليه الزيادة، والنقصان.

وقال آخرون: لا يقبل النقصان، ولكن يقبل الزيادة لقوله تعالى: **﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾** (الأنفال: من الآية٢) **﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾** (الفتح: من الآية٤) **﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً﴾** (المدثر: من الآية٣١) **﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾** (الأحزاب: من الآية٢٢)، **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾** (التوبة: من الآية١٢٤).

وقال من زعم أن الطاعات داخلة في حقيقة الإيمان: أنه يقبلهما.

واستدل بالآيات المذكورة، وقال الإمام: هذا البحث لفظي، لأن المراد بالإيمان إن كان هو التصديق فلا يقبلهما، وإن كان الطاعات فيقبلهما ثم ذهب إلى التوفيق فقال: الطاعات مكملة للتصديق، وكل ما دل علي أن الإيمان لا يقبل الزيادة، والنقصان كان مصروفاً إلى أصل الإيمان، وما دل على كونه قابلاً لهما فهو مصروف إلى الإيمان الكامل هذا ما ذكروه.

والحق: أن الإيمان قابل لهما سواء كان بمعنى الطاعات، وهو ظاهر بمعنى التصديق، لأن التصديق بالقلب هو: الاعتقاد الجازم، وهو قابل للشدة والضعف، إذ يبتدئ من أجلى البديهيات نازلاً إلى أخفي النظريات.

وصاحب الكبيرة مؤمن مطيع بإيمانه عاص بفسقه وعند المعتزلة: ليس بمؤمن ولا كافر وعند جمهور الخوارج كافر لقوله تعالى: **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾** (المائدة: من الآية٤٤).

وفيه نظر؛ لأن ذلك يدل على أن من لم يحكم بما أنزل الله و لم يصدقه فهو كافر ولا نزاع فيه وإنما الكلام فيمن يرتكب معصيه.

وعند الأزارقة مشترك، لأنه يعمل عملاً لله، وعملاً لغيره فصار مشركاً لمخالفته لقوله تعالى: **﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾** (الكهف: من الآية١١٠)، وعند الزيدية كافر النعمة، وعند الحسن البصري منافق لقوله ﷺ: «**آية المنافق ثلاث إذا ائتمن خان، وإذا وعد أخلف وإذا حدث كذب**».

=

واختلفوا في الكبائر فروى ابن عمر عن أبيه عن النبي ﷺ أنها تسعة: الشرك بالله وقتل النفس عمداً، وعقوق الوالدين المسلمين والسحر، وأكل مال اليتيم، والقتال في الحرم والزنا والفرار من الغزاة عند قتالهم وقذف المحصنة.

وزاد علي كرم الله وجهه السرقة وشرب الخمر، وزاد أبو هريرة أكل الربا، وقيل: الكبيرة ما توعد الشارع عليه بخصوصه.

تتمة:

وعيد أصحاب الكبائر من أهل الإيمان منقطع أي يخرجهم الله تعالى من النار إلى الجنة خلافاً للمعتزلة.

لنا، قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ (النساء: الآية٤٨) واحتج الخصم بقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**﴾ (الانفطار:١٤).

والجواب: أن هذا لا يوجب دوام العذاب، وبقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا**﴾ (النساء: من الآية٩٣).

والجواب: أن قوله تعالى: «فجزاؤه» يوجب كونه مستحقاً لدوام العقاب والاستحقاق لا يوجب الوقوع).

وذهب أبو هاشم، وأتباعه: إلى أن الطارئ يزيل المتقدم بطريق الموازنة أي: تقابل أجزاء الثواب بأجزاء العقاب فيسقط المتساويان منهما ويبقي الزائد.

وقال أبو علي، وأتباعه: إنه بطريق الإحباط أي: يبقى الطارئ بحالة ويسقط من السابق بقدرة.

وأجمعوا علي أن وعيد الكافر المعاند دائم، وأما الكافر الذي بالغ في الاجتهاد و لم يصل إلى الحق فزعم الجاحظ، والعنبري أنه ينقطع لأنه معذور لقوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ (الحج: من الآية٧٨)، وأنكر الباقون، وادعوا فيه الإجماع.

والذين زعموا أن الطاعات داخلة في الإيمان فمنهم من جوز الاستثناء مطلقًا وهو قول عبد الله بن مسعود، وقوم من الصحابة، والتابعين، والشافعي رضي الله عنهم، ومنهم من جوز في الاستقبال دون الحال وهو قول جمهور المعتزلة والخوارج والكرامية.

والذين ذهبوا إلى أن الإيمان هو التصديق فمنهم من جوز الاستثناء، وهو قول أبي سهل الصعلوكي وابن فورك، ومنهم من أنكره وهو قول أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله، وقوم من المتكلمين.

حجة المجوز من وجوه:

فالأول – هذا للتبرك لا للشك كقوله تعالى: ﴿**لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ**﴾ (الفتح: ٢٧) وهذا للتبرك لامتناع الشك على الله تعالى.

ثم إن هذا العلم بالتوحيد هو التوحيد العقلي لا الإيمان الشرعي؛ لأن الإيمان إنما يتعلّق بالشارع، وأمره؛ فهذا العالم؛ ليشفع فيه العليم الخبير بحاله فلا يخلده في النار، ويكون آخر أمره الجنة إن لم يأتِ بما ينافي أصول الشرائع، وكان حاله على حال الفطرة الأصلية.

فأهل الفترات، والذين في شواهق الجبال، وأقطار الأرض وغيرهم مّمن لم يبلغه الدعوة، ولم يصدر منه ما يخالف أصول الشرائع؛ فكلهم من أهل التوحيد العلمي، والتصديق العقلي، يشفع فيهم الاسم الرحمن؛ فيدخلون الجنة، ولو بعد حين، وذلك فضل عظيم، وإحسان جسيم من الله تعالى؛ لكون رحمته واسعة شاملة لكل شيء خصوصًا الذين بقوا على نقاء سريرتهم، وصفاء فطرتهم، فلم يصدر منهم ما يخالف التوحيد، والأصول المتفق عليها في جميع الأديان والملل.

=

الثاني – إنه للشك لكن لا في الحال بل في العاقبة؛ لأن الإيمان المفيد هو الباقي عند الموت وكل شاك في ذلك.

الثالث – لما كان الإيمان عندهم بمجموع الاعتقاد والقول والعمل والشك في العمل الذي هو أحد أجزائه يوجب الشك فيه فصح الشك في حصول الإيمان.

وقال المانع: أنا مؤمن حقا لأن الشك في الحال والاستقبال يوجب ضعف الاعتقاد في الحال ولا نزاع إن كان للتبرك.

وقال أهل السنة: كل من اعتقد أركان الدين تقليداً فإن اعتقد مع ذلك جواز ورود شبهة عليها وقال: لا آمن ورود شبهة تفسدها فهو كافر ومن لم يعتقد جواز ذلك فقد اختلفوا فيه، فمنهم من قال: إنه مؤمن، وإن كان عاصيا بترك النظر، والاستدلال المؤدي إلى معرفة أدلة قواعد الدين وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد والأوزاعي والثوري وكثير من المتكلمين ومنهم من قال: إنه لا يستحق اسم المؤمن إلا بعد عرفان أدلة قواعد الدين سواء أحسن العبادة عن الأدلة أولا، وهو مذهب الأشعري وقوم من المتكلمين.

ومن لم تبلغه دعوة الإسلام فإن اعتقد وحدانية الله تعالى، وعدله فحكمه حكم المسلمين وهو معذور في جهله بأحكام الشرع وإن اعتقد الشرك والتعطيل فهو كافر، فإن لم تبلغه دعوة نبي آخر لم يكن مكلفاً ولا يكون له ثواب ولا عقاب وإن بلغته ولم يؤمن بها كان مستحقًا للوعيد على التأبيد وإن لم يعتقد شيئًا لا توحيدًا ولا كفرًا فليس بمؤمن ولا كافر. وانظر: الصحائف (ص١٥٨) بتحقيقنا.

وأمَّا اليهود والنصارى فقد بُيِّن في القرآن والحديث أنهم كفار لا اعتداد بإيمانهم بالله، وببعض الكتب والرسل، فلمَّا لم يؤمنوا بالشارع المبلِّغ إليهم؛ كانوا كفارًا في الشرع والحقيقة، وكذا المشركون فإن إقرارهم بأن خالق السماوات والأرض؛ هو الله يفيد إيمانًا لهم مع بقائهم على الشرك والعناد.

وكما أن الذين لم يهاجروا حين كانت الهجرة فرضًا؛ كانوا كفارًا بالنص في الحقيقة، وإن كانوا مؤمنين في الصورة، ومثلهم مَن يلقي المصحف في القاذورات، أو يفعل نحو ذلك مما جعله الشارع إمارة التكذيب، فلا يعتبر دعوى الإيمان في مثل هذا، فهم في الفراق في عين الوصل، فياليتهم أقاموا على الشرائط، والمسلمون عند شروطهم.

وهذا مقام هائل ينبغي أن يكون المرء على حذر منه، فإن الأمر ليس بالدعوى؛ بل بالمعنى، ولن يحصل المعنى إلا بمتابعة الشارع في أمره ونهيه إن كان من شأنه ذلك بأن بلِّغ إليه الدعوة، وأمَّا غيره فليس له دعوى، ولا معنى، وإنما هو مفوَّض إلى سعة رحمة الله تعالى.

٤٠- **في صحيح مسلم** قال رسول الله ﷺ: «**مَن منح منحة**»[١]:

: أي عطية، والمراد: منحة اللبن؛ كالناقة، والبقرة، والشاة مما ينتفع بلبنه.

وقوله ﷺ: «**عادت تلك المنحة له متلبسة بصدقة، وراحت الغدو أول النهار إلى الزوال، والروح من الزوال إلى الآخر**»[٢]، كما أكد ذلك بقوله: «**صبوحها وغبوقها**»[٣]، منصوبان على الظرفية: أي في أول النهار، وأول الليل.

والإشارة في الحديث: إن اللبن إنما هو لتربية الأجسام، كما أن العلم إنما هو لتربية الأرواح، ولا شك أن الصدقة تُطفئ غضب الرب؛ وهو نار جهنم التي أعدَّها الله تعالى لتعذيب أجساد الفُسَّاق، كما أن العلم يُطفئ غضب الرب أيضًا؛ وهو نار الجهل والقطيعة التي أعدَّها الله تعالى لتعذيب أرواح الجهلة والمحجوبين.

---

(١) رواه أحمد (٤/٢٨٥)، والروياني في مسنده (١/٢٤٤).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) رواه أحمد (٢/٧٠٧)، والبيهقي في الكبرى (٤/١٨٤).

ولما كان العذاب على نوعين: عذاب بنار وحَرور، وعذاب برد وزمهرير، أشار ﷺ بالصبوح إلى أن الصدقة تُدفع عن المتصدِّق عذاب الزمهرير وبالغبوق إلى أنها تدفع عنه عذاب الحَرور، فينجو المتصدِّق من كلا العذابين بحسب جسمانيته، ويبقى له التخلُّص عن العذاب الروحاني؛ فإنه عذاب أيضًا؛ بل هو أشدُّ من الجسماني؛ لتعلُّقه بالروح الذي هو ألطف الأشياء في الوجود الإنساني، وذلك بالكلمة الطيبة؛ فإنها صدقة أيضًا، ولها تعلُّق بمرتبة الروح، فإن الروح يستريح بما يسمعه من الكلمة الطيبة، ويتخلَّص عن تعب الغمِّ والكدورة، فلا بد للعاقل من تحصيل كلتا الصدقتين.

وإنما خصَّ منحة اللبن بالذكر؛ لأن اللبن أول ما يغتذي به بدن الإنسان، ويتربَّى، وله زيادة اختصاص بالفطرة الأصلية، وإلا فجميع المأكولات والمشروبات مما يتربَّى به الوجود الظاهرة من قبيل الصدقة والجسمانية، ومنه يعلم قرب العرب في الصدر الأول بالفطرة، إذ كان أغلب مطعوماتهم اللبن، ثم آل الأمر من تنوعات الأغذية إلى التنـــزُّلات؛ فصارت حال الفطرة بعيدة بعد ما كانت قريبة.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة:٢١]، وذلك إنما وقع في القرآن؛ فإنه يُنبئ عن النسيان، وهو إنما يُعرض بكثرة العوارض والحجب على وجه الفطرة، ومعظمها المطعومات المختلفة، والمباحات المتنوعة لاسيما المحرَّمات، والمشتبهات، فأنَّى يُنجر الإنسان من ذلك؛ فوجب عليه إصلاح ظاهر الوجود بالشريعة، وباطنه بالطريقة إلى أن يكشف الله عماه، ويبصره هداه؛ فيستسعد بعلم الفطرة، وبعلم الكسب، وبعلم الشكر، وبعلم الذوق والحقيقة، وإلى هذه العلوم الإشارة بالأنهار الأربعة المذكورة في القرآن الكريم.

ثم إن الغُدو والرواح لمَّا كانا مشتملين على الصدقة؛ سرى سرُّهما إلى جميع الأوقات، فإصلاح الأول والآخر إصلاح لِما بينهما أيضًا، كما أن إصلاح البدن والروح، وإن شئت قلت: القلب إصلاح لجميع الأعضاء والقوى، وبذلك ينجو الهيكل الإنساني بجميع أجزائه وأعضائه وقواه، وَمن تفطَّن لحكم العموم، ولم يُقصر عمله على الخصوص، والله شهيد على ما تعملون، وهو العليم الخبير، ومنه الفيض العزيز إلى كلٍّ من الصغير والكبير.

٤١- **في صحيح مسلم:** قال رسول الله ﷺ: «**مَن نام على حزبه**»(١):

: أي غفل عن ورده، أي وردٍ كان من قراءة قرآن، أو صلاة تهجُّد أو نحو ذلك من العبادات المقرَّبة إلى الله تعالى.

قوله ﷺ: «**من الليل**»: خصَّه بالذكر مع أن الورد لا يختص بوقت، ولا يتعيَّن بمكان لِما إنه زمان مناجاة العباد وقت انخراق السرادقات، وله اختصاص بسكون القلب، وهدوء الباطن، وفيه وقع المعراج الصوري والمعنوي؛ فكانت العبادة فيه أشد على القلب وأصفى، والتوجه أقوى، والانكشاف أزيد، والقربة أوفر، والوصلة أتمُّ، والواردات أكمل، ويلحق به أول النهار إلى وقت الضحوة لا ما بعده، وقد يحصل بعض التجليَّات فيما بين العصر والمغرب أيضًا، أو عن شيء منه: أي عن بعض حزبه بألا يسعه الوقت لإتمام كل الورد، فيبقى باقٍ على النهار، والقضاء فيه.

فإن الفيض الإلهي؛ كالماء فكما أن الماء إذا انقطع؛ هلك الإنسان والحيوان، فكذا الفيض الإلهي إذا انقطع هلك القلب والروح، ففي القضاء تدارك لِما فات، وفي تركه حرمان عن الماضي، وعمَّا هو آتٍ، فافهم الإشارة، ومن الله التوفيق والثبات.

قال ﷺ: «**فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر**»، لا لأنه وقت متسع كما ذهب إليه أهل الظاهر؛ بل لأنه مُلحق بآناء الليل؛ لقربه منها، فكما أن وِتر النهار وهو المغرب يُعدُّ من النهار؛ لاتصاله به حتى أوجب الإفطار للخواص بعد السلام لا وقت الغروب قبل القيام فافهم الكلام.

فكذا وِتر الليل يُعدُّ من الليل، وإن كان يُقام في السَّحر الأعلى قرب الانفجار جدًا، ونظيره الخميس والسبت؛ فإنهما لكونهما طرفي الجمعة أخذا حكمها، وشعبان وشوال؛ فإنهما وقعا بين شهر رمضان، فأُلحقا به في الحرمة؛ كصوم شعبان، وست شوال السارية إلى جميع أجزائه من الأول إلى الآخر، فإن التجلّي لا ينحصر، وإنما الانحصار يجيء من القائل.

---

(١) رواه مسلم (١/٥١٥)، وابن حبان في صحيحه (٦/٣٧٠).

ألا ترى إلى الشمس فإنها طالعة فاشية، وإنما جاءت الظلمات في بعض البِقاع والاقطار من حيلولة الجبال الشواهق ونحوها كُتب له كأنما قرأه من الليل.

أورد كلمة التشبيه؛ لأن وِرد الليل أقوى من وِرد النهار، وإن كان الله تعالى جعل الليل والنهار خلفةً لمَن أراد أن يذكر، أو أراد شكورًا.

ومنه: يعلم أنه كلّما بَعُد زمان القضاء بعد القرب، ففرّق بين القضاء في الوقت الذي عيَّنه النبي ﷺ؛ وهو ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر من ذلك اليوم، وهو اليوم الذي فات في ليلة الوِرد، وبيَّن القضاء في الأيام الآتية، ويُرشدك إلى ما قلنا: إن مَن فات عنه الفجر ؛فإنه يقضيها في يومها مع السنة والفرض جميعًا لا فيما بعده من الأيام، فإنه حينئذ إنما يقضي الفرض فقط، وهذا السرُّ قد غفل عنه أرباب الظواهر فقالوا ما قالوا في شرح الحديث، والله العليم الخبير، ثم إن النذر يدخل في مطلق الوِرد؛ فهو مُقضى بطريق الأَوْلى.

٤٢- وفي حديث البخاري: «مَن نذر أن يطيع الله؛ فليطعه، ومَن نذر أن يعصي الله؛ فلا يعصه»[١]:

فهذا الأمر والنهي؛ للوجوب، ومنه يعلم أن نذر المعصية لا ينعقد، وعن الإمام: إن مَن نذر صوم يوم العيد؛ يقضيه في يوم آخر، وكذا مَن نذر ذبح ولده؛ فإنه لا يذبحه؛ بل يتقرَّب إلى الله تعالى بقربان، والنذر وإن كان قربةً مشروعةً بالنسبة إلى العوام؛ لكن الخواص إنما يعلمون بالخواطر، والإيجاب ليس إلا الله تعالى هذا؛ فإنه ينفعك إن شاء الله تعالى[٢].

---

(١) رواه البخاري (٦/٢٤٦٣)، وابن حبان في صحيحه (١٠/٢٣٤).

(٢) فائدة: قال العلواني: فصل في روح وصل في أرواح النذر، وفي الروح الفرقاني قوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧] فروح الثناء على روح الوفاء بأرواح النذر فروح النذر من أرواح الإيمان إلا أنه روح مكروه على روح التنزيه لأنه روح زيادة على الأرواح الفرقانية في أرواح الإيجاب.

وذلك من روح قلة الأدب مع أرواح الحكمة في أرواح الواجبات بروح الوضع الإلهي وروح النذر من أرواح النفس الأمارة لأرواح قلق عند روحها.

وفي الأرواح المحمدية «**إنما يستخرج النذر من مال البخيل**» ولو كان على روح الكرم لكان على =

أرواح الإحسان في روح الوقت لأرواح مرضاة الله بدون روح تعليق على روح من الأرواح والبخيل لا يكون منه شيء إلا بروح شيء كأن يقول: إن شفى الله مريضي فلله علي روح من مال، فإذا حصل روح الشفاء لزم الروح الناذر ذلك الروح من المال فإن وفى كما التزم فهو الروح المثنى عليه وروح الأصل في روح الآية إن الأبرار أي الأرواح المحسنة مع أرواح الحق بأرواح الصلاة وغيرها على روح الإيمان ﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ [الإنسان: ٥] والكأس روح من أواني الشراب مملوء من أرواح الشراب والمزاج الروح المخالط والكافور هو ما ذكر الله بروح قوله ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ﴾ [الإنسان: ٦] أي: منها:

﴿ عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾ فتكون أرواح منازل عباد الله فوق منازل الأبرار لأن الأبرار ليس لهم من تلك العين إلا أرواح من المزاج وعباد الله يشربون من تلك العين على روح الإطلاق بدون كأس:

﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ كالروح الكامل في الأرواح الفرقانية والأرواح المحمدية بالأرواح النورانية المتنزلة من الأرواح الرضوانية على أرواح الحب لأرواح التقريب.

فالأرواح القريبة إنما تشرب من عين الكافور روح الإشارة من روح العبارة إن الروح الذي هو عبد الله على أرواح التحقيق هو الذي شرب من راوق الشراب الروحي والفتح السبوحي ما خلص روحه من الأرواح العنصرية والأرواح الظلمانية من الأرواح الشيطانية فكان روحًا خالصا سابحا سائحا في بحار الإطلاق في أرواح الكمال وأرواح الجمال كافرا بالأرواح الشيطانية بالكلية لا يدين لها ولا يلين لأرواح خيالها فكانت له العين المطلقة من أرواح المزج مع الروح الشيطاني فيكون مع أرواح الحق تارة ومع أرواح الباطل أخرى كأصحاب الممزوج بالكافور لوجود الكفران بأرواح الشيطان في بعض الأحيان.

وعباد الله على أرواح الكفران لأرواح الشيطان في كل روح من أرواح الزمان فما كان روح النذر إلا من روح المزج من روح الشيطان ومن روح الإيمان فإن روح النذر لله من روح الإيمان به وروح تعليق الوفاء على روح فعل من روح الشيطان.

ولذلك كان النذر على روح من الكراهة فكان شراب الأبرار ممزوجا بأرواح الكافور التي فيها فيضها من أرواح الكفران بأرواح الشيطان، فإن الروح الخبيثة لا تأمر إلا بأرواح الخبث ومن أرواح الخبث التقاعد عن أرواح الوفاء بأرواح النذر وهو من أرواح العهد، فالروح النادر معاهد لله على روح الوفاء ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ ﴾ [الإنسان: ٧] إكادة للروح الشيطاني ومرضاة لله تعالى ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان: ٧] والعمل على روح من أرواح العلل وكان لهذه الأرواح البارة روح المزج لأنها لم تكمل في أرواح التجريد من أرواح العلل.

=

وإن لم تكن على روح من أرواح الزلل وأرواح حسنات الأبرار سيئات المقربين على الروح اليقين عند أرواح المتقين للروح الشيطاني وأرواح التعلق بالفلك السفلاني من أرواح العناصر وأرواح الطبائع المعجونة بأرواح البعد من روح الإطلاق في الأرواح الجمالية الفائضة من الأرواح الذاتية على أرواح الوصلة بأرواح الخلوات والعزلة ومن أرواح النذر ما يسمى نذر لجاج كأن يقول الروح الإنساني لنـــزغ روح شيطاني إن كلمت فلان أو إن دخلت دار فلان فلله علي أن أصوم سنة أو أن أعتق رقبة.

وهذا الروح من النذر لا يلزم فيه الروح الإنساني ما التزم بل هو على روح من التخيير بين أن يفعل ما التزمه من الأرواح وبين ما يكفر به عن اليمين فهذا روح من اليسر على الأرواح الجاهلة بأرواح الأدب مع روح الشرع.

فما للروح المكلف والزيادة في أرواح التكليف وروح التكليف روح سخيف والروح الإنساني روح ضعيف ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] فالتكاليف الواقعة من روح الفرقان ومن الأرواح المحمدية على روح ما في الوسع لروح هذه الآية.

وما كان من روح النذر فهو من أرواح الزيادة في أرواح الواجبات من قبل روح الإنسان فلما أن كان الروح الإنساني متعديا بروح الزيادة في أرواح الواجبات أمر يوجب الوفاء عقوبة له فروح الوفاء بأرواح النذر مطلوب بالأرواح الفرقانية والأرواح المحمدية.

وفي الروح المحمدي أن روحًا من أرواح الصحابة مرض فزاره الروح المحمدي فلما عافاه الله بأرواح من القوة ورآه رسول الله ﷺ على روح من العافية قال: **أوف بنذرك** فقال: ما نذرت شيئا يا رسول الله فقال: **بلى- فإنه ما من عبد مرض إلا ويحدث ربه خيرا** أي يقول في روح نفسه إذا كان لي روح من الشفاء وروح من العافية أفعل الروح الفلاني من الخير كأرواح الصلاة وأرواح الصدقات وأرواح الصيام.

يريد أن يجعل ذلك روح من الشكر على أرواح العافية لروح الحق فإن الروح المخاطب بكل روح من أرواح القربات عند أرواح البلاء بذلك جرت عادات الأرواح البشرية ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ عند أرواح البلاء باختلاف الريح وخوف الغرق لروح من الأسباب.

ومثل ذلك أرواح المرض وسائر أرواح البلاء كأن يخاف الروح الإنساني من روح ظالم أو روح قاطع لأرواح الطريق أو روح سارق أو روح مزور فكل أرواح البلاء من الأرواح التي جرت العادة أن العبد يحدث فيها ربه بخير فلا يرجع الروح الإنساني بعد حصول الروح الإحساني بأرواح العافية

=

عن الروح الذي حدث ربه في حال البلاء بأرواح من المرض أو غيرها من أرواح الشدائد من الأرواح الفرقانية: ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ [آل عمران: ٣٥] أو المحرر المطلق من رق العبودية للأرواح البشرية.

وامرأة عمران تقربت إلى الله بتحرير ما في بطنها على أن يكون ذكر فما وضعت إلا روح أنثى لا تصلح لأرواح الخدمة فلما وقع روح الاختلاف أظهرت روحا من الاعتذار فكان روح الاعتذار أرواح كمال روح إكرام في روح مريم ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ على أرواح الإكرام فكانت روحا كاملا في أرواح القرب ومنازل الحب.

وشهد لها بذلك الروح المحمدي أنها سيدة نساء العالمين فإنها كانت على أرواح الكمال في أرواح الانقطاع إلى الله وعلى ذلك الروح الفرقاني في قولها ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٦] أي فصلا عن أرواح الوساوس وهي الأرواح الشيطانية فإن من أرواح أحكام الصيام رفع روح الكلام بما لا يعني الروح الإنساني فإنه روح عبادة.

وأرواح العبادة مبنية على أرواح الحذر من الوقوع في أرواح الكدر ولا يجلب أرواح الكدر مثل روح اللسان بأرواح الكلام في أرواح البعد عن أرواح الحق.

وقد يكون الروح المراد في روح ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٦] أنها لا تتكلم إلا بأرواح ذكر الله ولا يكون منها إلا أرواح مناجاة لله.

وذلك من كمال روح الصوم إما روح السكون في روح الصوم أو في روح الحج أو في غير ذلك من غير روح من أرواح ذكر فذلك روح من الكراهة فإن الأرواح العالمة قالت: يكره صمت يوم إلى الليل بدون ذكر الله وقد وقع من الصديق روح نهي لامرأة إلا حجت على روح من السكوت.

وقال في ذلك: « **الإسلام ينسخ ما قبله** » وأمر تلك المرأة بالتكلم فتكلمت وفي الأرواح المحمدية « **وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم** » فروح اللسان ما لم يفيد فهو روح ضرر على الإنسان الروحي فإنه يضعفه.

ويكشف أسراره ويهتك أستاره بكشف أسرار الروح الإنساني فيظهر لأرواح الناس ما في باطن الإنسان مما لا يطلع عليه أرواح البشر فإن كان على روح من أرواح الكمال تطرقت إليه أرواح الحسد وإن كان على روح من أرواح النقص وقع على تلك الروح روح الإزراء وروح التحقير من أرواح العقلاء.

فإن الروح العاقل يستخف بالروح الجاهل بأرواح الكمال في أرواح الدين، وفي أرواح الدنيا فروح الكمال وروح الجمال في روح الكامل وروح المريد القابل روح ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾

٤٣- في الصحيح قال رسول الله ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»:

قوله: «**شفاعتي**»(١): أي شفاعتي، وشفاعة الورثة من أمتي، فإن العبارة وإن كانت للنبي ﷺ؛ لكن الإشارة شاملة لوراثته أيضًا مع أن الأحاديث الصحيحة صريحة في شفاعة غيره ﷺ من خواص الأمة.

والكبائر أنواع منها: أذيَّة الورثة بالشتم، والنفي، والقتل؛ بل هي أعظم الكبائر؛ لأنها في الحقيقة أذيَّة للرسول، وهي أذيَّة لله تعالى، والله أرحم الراحمين.

قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ**﴾ [النحل:٦١].

وقد قال حضرة الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه الأطهر في الفتوحات المكية: إنه يشفع للمنكرين له، والطاعنين فيه؛ لقوله ﷺ: «**وأحسن إلى مَن أساء إليك**»(٢)، هذا إذا مات المنكر على الإيمان، وما يدريك لعلّه يموت على الكفر؛ لأن الله تعالى استعظم المؤذيين ولعنهم، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**﴾ [الأحزاب:٥٧].

=

على روح الإطلاق فلن أكلم اليوم إنسيا ولا بأس بأرواح الإشارة إذا كان الروح الإنساني على روح خلوة لله.

وروح تقرب إلى الله على أمر من الله ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أي: أشار، وذلك بعد ما أمر ألا يكلم الناس ثلاث ليال سويا فظهر من هذا الروح أن العزلة عن كلام الأرواح البشرية روح وصل بأرواح المواهب لأنه روح.

فصل عن أرواح المكاسب فعلى مقدار أرواح الفصل من أرواح المكاسب يقع روح الوصل بأرواح المواهب فالروح الكامل والمريد القابل من كان على روح ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴾ آمن أرواح السيئات وأرواح الحب فلا روح في باطني لغير أرواح مرضاتك فإن روح القصد حركات السر وأرواح حركات الغلانية.

ومن كان على غير هذا الروح فهو على روح من التخليط في أرواح السلوك وأرواح الوصول إلى أرواح الحب ومنازل القرب.

(١) رواه أبو داود (٢/١٦١)، والترمذي (٤/٦٢٥).

(٢) ذكره المناوي في فبض القدير (٤/١٩٦)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/٢١١).

وقال خطابًا لموسى عليه السلام: «**هل واليت لي وليًا، وهل عاديت لي عدوًّا؟**»(١)، فقد أشار الحق تعالى إلى أن موالاة الوليّ موالاة له، كما أن معاداته معادة له، والله تعالى غَيور، ذو البطش الشديد للأعداء.

وقد قال خطابًا للخليل عليه السلام: «**خِف مني يا إبراهيم؛ كما تخاف من السبع الضاري**»(٢)، فقد استبان منه إنه لا يفلح المنكر الطاعن أبدًا، فإنه قابل للرحمة بالغضب.

وقد قال النبي ﷺ: «**اشتدَّ غضب الله على مَن قتل نبيًا، أو قتله نبي**»(٣).

والطعن في حكم القتل؛ لأن عرض المؤمن كدَّمه، ولا شك عند أهل الله في كفر المنكرين؛ لأنهم استحلّوا الطعن في أولياء، وحملوا ما صدر منهم من الحقائق على الخيالات النفسانية؛ فكانوا كقريش في جعل القرآن من قبيل الأساطير، والسِّحر ونحو ذلك، وأيضًا جعلوا طاعتهم المتنوعة من قبيل المعاصي، ولا شك أن اعتقاد الطاعة معصية كفر كالعكس.

وقد قال المولى: لايكفر، وكيف يكفر أهل التأويلات الصحيحة، وقد جعلهم العلماء من أهل الدين الصحيح؟ كما ينطق به علم الكلام، فإن تأويلاتهم تأييدات للعبارات، وموافقات لها في الحقيقة، وإلا فكل حقيقة ردَّتها الشريعة؛ فهي ردٌّ؛ ولكن الحقيقة المردودة والمقبولة أي شيء هي لا يعرفها إلا الأكابر من العلماء.

وقد كان من أحوال أهل الرسوم في هذه الأعصار: أن مَن لم يعرف منهم الأحكام والشرائع؛ يطعن في المعارف والحقائق، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، ولا يُذلُّ إلا مَن عادى الله ورسوله، والورثة من أمته(٤).

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (٤/٨٤)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/٣١٧).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/٣٣)، والبيهقي في الزهد الكبير (٢/١٠٦) بنحوه.

(٣) رواه البيهقي في الشعب (٦/١٩٧)، والديلمي في الفردوس (١/٢١٧) بنحوه.

(٤) بيانٌ في ضرر معاداتهم والوقيعة فيهم والإنكار عليهم، وعلاج ذلك: قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا**﴾ [الأحزاب:٥٨].
قال مجاهد: يقعون فيهم، ويرموهم بغير جُرمٍ، ﴿**فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً**﴾.
=

قال تعالى: **﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾** [التوبة:٣٢]: أي كفّار الحقائق، نسأل الله أن يرحمنا بالاعتقاد الصحيح والثبات عليه.

٤٤– في الحديث القدسي: «الصوم لي وأنا أجزي به»[1]:

أسند الحق سبحانه الجزاء إلى نفسه مع أنه المجازي لكل عمل؛ لزيادة العناية

=

ورُوي عن نبيِّنا ﷺ أنه قال: «**المؤمنُ أفضلُ من الكعبةِ، والمؤمن طيِّبٌ طاهرٌ، والمؤمنُ أكرمُ على الله تعالى من الملائكة**».

وقال ﷺ: «إن الله تعالى يقول: مَنْ عادى لِي وليًّا فقد آذنته بالحرب: أي أعلمته أنّي محاربٌ له، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينَّه، وإن استعاذني (روي بالنون والباء) لأُعيذنَّه، وما ترددت في شيءٍ أنا فاعله تردُّدي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بدَّ منه» رواه البخاري.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر، فنادى بصوتٍ رفيعٍ فقال: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يُفضِ الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيِّروهم: أي لا تعيِّبوهم يعني: لا تنسبوهم إلى عيبٍ، ولا تَصفوهم بعيبٍ، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من تتبَّع عورة أخيه المسلم تتبَّع الله عورتَه، ومن تتبَّع الله عورتَه يفضحه ولو في جوف بيته» رواه الترمذي.

وقال ﷺ: «**لما عَرَجَ بِي ربِّي مررتُ بقومٍ لهم أظفارٌ من نحاسٍ يُخمِّشون وجوههم وصدورهم. فقلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحم الناس ويقعون في أعراضهم**» رواه أبو داود.

وفي الحديث الطويل لأنس ﷺ قال ﷺ: «إنَّ الله شرَّف الكعبة وعظَّمها، ولو أنَّ عبدًا هدمها حجرًا حجرًا ثم أحرقها ما بلغ جُرم مَنْ استخفَّ بوليٍّ من أولياء الله تعالى. قال الأعرابي: ومَنْ أولياء الله تعالى؟ قال: المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى.

أما سمعت قوله ﷻ: ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

(١) رواه البخاري (٢٧٢٣/٦)، ومسلم (٨٠٧/٢).

بالصوم؛ لأنه صفة صمدانية، وقد تخلَّق بها الملائكة جميعًا، وكذا بعض البشر؛ كإدريس الطَّيْلا؛ فإنه لم يأكل، ولم يشرب، ولم ينم ستة عشر عامًا حتى رفعه الله مكانًا عليًّا، وعلوَّه بحسب قطبية للأمكنة العُلوية والسفلية، فإن الرابع مقر الشمس ومدارها.

ومنه يعرف قطبية إدريس إلى هذا الآن؛ لأنه حيٌّ باقٍ، وأقطاب كل عصر إنما هم نوابه، وأيضًا قطبية الصوم بالنسبة إلى سائر الأخلاق، فإنه لتحسين الأخلاق؛ فهو مدار الأخلاق كلها، فإذا تمَّ التحقق به، وكَمُل؛ كان مبيت الصائم عند الله تعالى، فلا يفطر إلا على علوم لَدنية.

وقد وصل حضرة الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه الأطهر، وهو في درباء المغرب إلى تسعة أشهر.

وأمَّا عقال المغربي فمكث في مكة المكرَّمة أربعة أعوام لم يأكل ولم يشرب إلى أن مات عليه؛ لانسلاخه عن حال الطبيعة، وأمر البشرية بالكلية، ومنه يعلم أن مُثلَّثه لا يحتاج إلى بدل ما يتحلَّل؛ لأن عروقه مملوءة بالأنوار، والنور يفعل لصاحبه من القوة ما لا يفعله الدم.

وربما يعود الصائم إلى صورة الطبيعة؛ كحال النبي ﷺ، ومَن يُتابعه في هذا المعنى لكنه مُفطر صورة، وصائم معنى؛ لأنه دائم في صلاته، وإنما يترقَّى من طبقة إلى طبقة كما دلَّ عليه قوله ﷺ: «**أرحنا بلال**»[1]؛ فإنه أراد الإراحة بالصلاة والدخول فيها.

واعلم أن تقليل الغذاء في حكم الصوم أيضًا؛ لأن قدر ما يقوم به البدن لا يُعدُّ من التنعُّم؛ ولذا يُوصي به الحكماء الإلهية في كل عصر، ومَن لم يهتدِ إليه بقى في تيه طبيعته، حائرًا عن السداد، ومَن لم يَهدِ الله ما له من هادٍ، فأرباب الشريعة لهم أكلتان؛ لغلبة جسمانيتهم على روحانيتهم، وأرباب الحقيقة لهم أكلة واحدة في يوم وليلة؛ لغلبة روحانيتهم على جسمانيتهم.

---

(١) تقدم تخريجه.

ثم اعلم أنه أخذ من الحديث القدسي المذكور: إن الصوم له تعالى دون غيره من الأعمال؛ بل هي لنفس العامل؛ ولذا كان تعالى بنفسه جزاء للصائم، فإن قلت: قد ورد في المخاطبات موسى عليه السلام: إن الصلاة ونحوها إنما هي للعامل نفسه.

وأمَّا ما كان لله تعالى؛ فهو موالاة أوليائه، ومعادة أعدائه، فما التوافيق بينهما؟ قلت: إن الصوم عمل مخصوص لله تعالى واقع بينه وبين العبد، والموالاة والصلاة المذكورة، قلت: عمل مخصوص لله تعالى واقع بين العباد.

فالصائم: عمل لله تعالى فيما بينه وبينه، والموالي: عمل فيما بينه وبين غيره من العباد، فكل منهما مخصوص له تعالى في مرتبة، وفيه إشارة إلى فضيلة الموالاة والمعاداة المذكورتين؛ كفضيلة الصوم، وهذا لا ينافي أن يشهد المكاشف في كل مشهد أسماء الله تعالى وشئونه، فإن العبرة في الحقيقة للمتعيِّن لا للتعيُّن.

فلا ولي إلا لله، ولا عدو إلا ما سوى الله، كما قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٧٧].

وقال تعالى: ﴿قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾[الأنعام:٩١]: أي الأسماء، والتعيُّنات، وتعلُّق بالذات المسمَّاة بها فإنها هي الأحرى بذلك.

٤٥- **في الحديث** كما في الروضة لابن الخطيب: «**يعجب ربكم من شاب ليس له صبوة ظاهره**»[1]:

إن الصبوة، والميل إلى الهوى، والجهل: من شأن الشاب؛ لاستيلاء قواه البشرية على القلب، وزيادة حرارته الغريزية، فإذا ترك ذلك؛ كان محلُّ التعجب بالنسبة على الخلق، والتعجب بالنظر إلى الحق تعالى.

فإن التعجُّب في الأصل: صفة نفسانية يُمتنع اتِّصاف الحق تعالى بها، ويمكن أن يحمل على معنى الرضا ونحوه على ما هو شأن مثلها، وباطنه إن زمان الشباب زمان العشق والمحبة، ومن المعلوم إن المجاز قنطرة الحقيقة، فإذا فات الصبوة والميل إلى العشق عن الشباب؛ دلَّ ذلك على نقصانه في استعداده، إذ حركة الباطن مما يُنبئ عن

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٠)،وذكره العجلوني في كشف الخفا (٢/ ٥٢٨).

صلاح النشأة، واستقامة المزاج، حتى أن أهل بعض الديار كانوا يُجربون الصبيان بالملاهي، فإن أظهروا النشاط؛ دلّ ذلك على استعدادهم لِما طلب هو له؛ كالسلطنة، ففيه مدح للصبوة، وذمٌّ لعدمها.

والصبوة هاهنا: الصبوة المقبولة؛ وهي الميل عمَّا سوى الله تعالى إلى الله تعالى، وهي صبوة أرباب الحقائق، وهي عين الإيمان الحقيقي، ومَن لم يذق من طعم هذه الصبوة، ولو شيئًا قليلاً؛ لم يذق لذّة حقيقية أصلاً، فكان حيوانًا في صورة الإنسان؛ بل أضلُّ منه، فإن بعض الحيوان؛ كالأبل لها ميل إلى حد: أي لعرب وسكرة من ذلك حتى أنها تقطع بذلك مسافة ثلاثة أيام في يومٍ واحد.

وفي الكلمات المولوية: الصبوة إيماني: أي الإيمان الحقيقي؛ هو الميل من الزُّهد إلى العشق، ومن الحجاب إلى الكشف؛ فإن الإيمان ما لم يكن عيانيًا؛ فصاحبه مؤمن من وراء الحجاب، وأين هو من العيان؟ وهو عند صاحب الزُّهد مذموم؛ لأنه يقول للعاشق: قد صبا هذا، ومال من السُّنة إلى الإلحاد.

وفي الكلمات الأكبرية: جننًا مثل مجنون بليلى: أي ابتلينا بالجنون الحقيقي، كما ابتلى المجنون بالجنون المجازي حتى أدَّاه ذلك إلى الابتلاء بالجنون الحقيقي حتى ابتلى بليلى الحقيقة، وتجاوز عن الميل إلى ليلى المجازية[1].

---

(١) فائدة: أثبت الشيخ الجيلي قُدِّس سرَّه في كتاب «الإنسان الكامل»: «للإرادة تسعة مظاهر الأول: هو الميل أيٌّ: انجذاب القلب إلى المطلوب.

والثاني: الولع وهو إذا قوَّى ودام ذلك الميل.

والثالث: الصبابة وهي إذا اشتدَّ الميل، وأخذ القلب في الاسترسال فيمن يحب.

والرابع: الشغف وهو إذا تفرغ القلب للحبيب بالكلية، وتمكن ذلك منه.

والخامس: الهوى وهو إذا استحكم الحب في الفؤاد.

والسادس: الغرام وهو إذا استولى حُكم الحب على الجسد.

والسابع: الحب وهو إذا نما وزادت العللّ المقتضية للميل.

والثامن: الود وهو إذا هاج إلى أن ينفى المحب عن نفسه.

والتاسع: العشق وهو إذا طفح حتى أفنى المحب والمحبوب».

وقال الشيخ المذكور في هذا المقام: «يرى العاشق المعشوق فلا يعرفه، ولا يصغي إليه، كما رُوي عن =

فإن المشهور عند أهل الله أن قيس بن عامر مجنون حقيقي في الميل، فانظر إلى لطافة العشق مطلقًا.

قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام:١٢٢]، فالقلب ميت لا يحيى إلا بفيض العشق، ومن المقرَّر عند أرباب الحقائق: إن عالم الوجود عبارة عن: الحسن والعشق؛ فالحسن صفة المعشوق الحقيقي، والعشق صفة العاشق الحقيقي.

وأمَّا الحسن الصوري فمن آثار الحسن المعنوي الكمال الساري في جميع الأشياء، فالعاشق لا ينظر إلى صفات الحسن؛ وهي المظاهر الخَلقية؛ بل ينظر إلى حسن الصفات؛ وهو الظاهر الحقّي في كل شيء من الأشياء؛ لأن الأشياء الممكنة مَراء لحسن الذات القديمة، فمَن أراد التجلّي، وشهود الحسن؛ فلينظر إلى الأشياء، ثم أن ترقِى إلى التجريد؛ دخل في عالم الأنفس، وأن ترقى إلى التفريد؛ خلُص عن التعيّنات، وقيودها بالكلية، ولا غاية وراءه، والله المستعان.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام:٩١].

إنما أمر تعالى بتركهم مع أنهم مظاهر الأسماء، ومن شأن العارف النظر في كل شيء إلى الحق؛ لأنهم نظروا إلى النبي ﷺ بنظر البشرية، ولم يعرفوا إنه الحق في صورة الخلق؛ فعوملوا معاملة الأجنبي؛ وهي الترك، ولو إنهم أعطوا للنظر حقه؛ لكانوا من المكاشفين.

والمكاشف لا يهجر المكاشف؛ لأنه مرآته، فكما أن الله تعالى تركهم في احتجاهم؛ فكذا النبي؛ لأنه صورة الحق تعالى، فانظر إن الله تعالى واصل إلى الخلق، والخلق محجوبون عنه؛ فكذا مَن هو مظهره تعالى في أسمائه؟ فعلم إن المعلوم لا

مجنون ليلى أنها مرت عليه ذات يوم فدعته إليها لتحدثه، فقال: دعيني فإني مشغول بليلى عنك».
ثم قال: «وهذا آخر مقامات القرب والوصول فيها ينكر العارف معروفه، فلا يبقى عارف ولا معروف ولا عاشق ومعشوق، فلا يبقى إلا العشق فقط،، فهو الذات الصرف الذي لا اسم ولا رسم ولا وصف ولا نعت له فيظهر بالصورتين، ويوصف بالوصفين فتارة عاشق، وتارة معشوق» انتهى ملخصًا.

يُجهل، وإن المجهول لا يُعلم فاعرف.

ومعنى ثم ههنا: التوقف في الترك؛ لأنهم إمَّا على الإدبار، وإمَّا على الوقوف، وإمَّا على الإقبال، فكل من المدبِّر والواقف مردود، وكل من أهل الحركة والإقبال مقبول؛ لأن الحركة غايتها السكون، وليس السكون إلا عند الوصول، فبعض السكون ليس بشيء؛ كالسكون قبل الحركة؛ لأن فيه الفراق، ولذا قال تعالى حكاية: ﴿**وَإِنَّـــا إِلَيْهِ رَاجِعونَ**﴾ [البقرة:١٥٦]، إذ لا شك أن الرجوع لا يمكن إلا بالحركة.

وأمَّا السكون بعد الحركة: فسكون مقبول؛ ولذا قالوا: الصوفي مَن لا مذهب له؛ يعني: إن الصوفي الواصل لا مذهب له، فإنه أين يذهب، وهو عنده تعالى؟.

وأمَّا السير في الله: فلا نهاية له؛ لأنه تعالى متجلٌّ في كل آن، وقدير مطلق، فلا غاية لشؤونه، وهو الواسع العليم، جعلنا الله وإياكم ممَن لا ينفد شرابه، ولا ينقطع خطابه آمين.

قال تعالى: ﴿**ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ**﴾ [الحجر:٤٦].

يعني: إذا دخل السالك جنة القلب، ووصل على نهاية درجاتها؛ سلَم من آفات الظنون والشكوك؛ لأنها مرتبة عين اليقين، وحق اليقين، ولا غاية وراءها، فكلٌّ يرتقي بقدر حاله؛ ولذا يُقال للقارئ: اقرأ وارق إلى حيث ينتهي قراءتك.

فالقارئ الحقيقي هو: المتخلّق بأخلاق القرآن، والمتحقّق بحقائقه كما كان حال النبي ﷺ، فكما أنه لا نهاية لحقائق القرآن؛ فكذا لا نهاية لدرجات السير في الله.

وأمَّا درجات الجنان الصورية فمحصورة كسور القرآن اللفظي، وآياته، وكلماته وحروفه؛ وإنما قلنا: ووصل إلى نهاية درجاتها؛ لأنه ليس في كل يقين سلامة؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ [الحجر:٩٩]: أي اليقين المطلق الذي هو غاية اليقين، ولا تحصل إلا في نهاية الاطمئنان.

فرُبَّ سالكٍ مردودٍ إلى ورائه في بداية المطمئنة؛ بل في وسطها أيضًا؛ لأن البداية والوسط من مظان الاضطراب والتلوين، وهذا: أي التلوين لا يُمدح إلا بعد التمكين؛ لأنه تلوين التجلّي لا تلوين الاستتار، فمَن ادَّعى النهاية؛ فبرهانه وجود

الصفاء على كل حال، وأين هو من غير الكامل المكمِّل؟ وإذا عرفت هذا؛ فلا تقنع بقليل الكشف واليقين، فإنه قد يكون مسلوبًا، كما وقع لكثير من السُّلاَّك حيث رجعوا قهقري، واحتجبوا عن الحق احتجابًا كثيفًا؛ وهو احتجاب الرحمة بالرأي لا الرحمة.

٤٦- **في صحيح البخاري:** قال رسول الله ﷺ: «**إن الإيمان ليأرز إلى أهل المدينة ما تأرز الحيَّة إلى جحرها**»[1]:

الأُروز كالدخول بتقديم المهملة، الانقباض، والتَّجمع، والانضمام، والجُحر بالضم، وتقديم الجيم؛ كل شيء يحتفره الهوام والسباع لأنفسها؛ والمراد هنا ما يُعبَّر عنه بالفارسية: سوراخ.

اعلم أن المدينة هو: النبي ﷺ كما قال: «**أنا مدينة العلم وعليّ بابها**»[2]، وإيمان الناس ينضم إليه، والوفى أواخر أوقاتهم، وحين احتضارهم، كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ**﴾ [النساء:١٥٩].

وقد شُبِّه الإيمان الاضطراري بدخول الحيَّة في جُحرها دخولها فيه لا يخلو عن سبب ضروري، وشدة، وضيق، فالنفس الإنسانية أشدُّ من الحيَّة في الضرر، والاعوجاج، وإنما تستقيم وقت المعاينة للأحوال الأخروية، وذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها.

فالمراد بالإيمان: إيمان النفس، ودخولها في مقام القلب الذي لا يُقتضي إلا بالتصديق؛ فإنه مدينة العلم في الحقيقة؛ ولذا ورد: «**استفت قلبك**»[3]، وهو المُظهر للاسم العليم؛ كالمغني.

وفيه إشارة أخرى وهي: إن عليًّا كرَّم الله وجهه لمَّا كان باب مدينة العلم، والباب يُعدُّ من المدينة، ومن البيت؛ كانت الطرق المتفرِّقة الحقة، موصِّلة إليه، فليس طريق من الطرق الحقة إلا وسلوكها إلى ما كان عليه المرتضى من الاعتقاد، والعمل، والحقيقة.

---

(١) رواه البخاري (٢/٦٦٣)، وابن ماجه (٢/١٠٣٨).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٣/١٣٧)، والديلمي في الفردوس (١/٤٤).

(٣) تقدم تخريجه.

ولذا كان هو ﷺ أبا هذه الأمة، فقامت الأمة، وأخيارهم به؛ كما قام الولد بالأب.

ولِما في النفس شدة الشكيمة، ومشيها على الطريق الحقة صعبًا، ودخولها في الرياضات، والمجاهدات في الخلوات؛ كدخول الحيَّة في جُحرها؛ أفصح عن حالها بذلك.

وفيه إشارة إلى أن البدعة مردودة، وإن أهل البدعة ليس لهم أن ينتموا إلى المرتضى ﷺ؛ لأن الله تعالى ارتضاه لِما إنه لم يكن فيه إلا السنة.

ولذا كان وارث النبوي، وخَليفة الله في العالم، إمَّا في زمان تعيُّنه الخارجي، فبوجوده الظاهري والباطني، وإمَّا بعد انتقاله فبروحانيته؛ لكن لمَّا كان الحكم للظاهر؛ كان وزيرًا للمهدي الذي هو من أولاده، ولا ضَير فإن الوزير في حكم السلطان ظهورًا؛ فهو والسلطان سواء في الحكم.

وإنما لم يقل: إن التوحيد ليأرز إلى المدينة لما أن أدنى المراتب في هذا الباب: هو الإيمان والتصديق؛ وهو من شأن العامة.

وأمَّا التوحيد: وهو رؤية الموحِّد في الأنفس والآفاق متجليًّا على سرٍّ من الأسرار، ونور من الأنوار، ودائرًا مع اسم من الأسماء، وكذا التجريد الذي هو انقطاع الملاحظة من الآفاق، وكذا التفريد الذي هو استقطاعها من الأنفس أيضًا؛ فإنما يحصل لأهل الإحسان، وذلك بعد مرتبة الإيمان: أي الإحسان خصوص مرتبة في الإيمان.

فكل مؤمن ليس بموحِّد توحيدًا حقيقيًا أفعاليًا أو صفاتيًا أو ذاتيًا؛ إذ المشرك بالشرك الخفي مؤمن، وليس بموحِّد، وأين أهل الشرك من التوحيد؟ ولذا أن نقول أيضًا: إن الإيمان إنما يُوحَّد بمتابعة شرع من الشرائع، ودخول النفس في السلم؛ وهي صعبة جد الاعتياد النفس بالاسترسال والإطلاق.

وأمَّا التوحيد: فصفة القلب من حيث نفسه؛ ولذا لا يبقى موحِّد في النار، فعليك بالتوحيد، ومراعاة الأصول، وعليك بالإيمان أيضًا إن أردت أن تكون من أهل الوصول، فإن الطريق هو طريق المتابعة.

قال الله تعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]، وفيها قطع النفس عن المألوف.

٤٧- **في حديث مسلم**: قال رسول الله ﷺ: «**إن الكافر**»:

أي: الساتر لنعمة الوجود، وما يتصل بها بالجحود والكفران.

قوله ﷺ: «**إذا عمل حسنة من الحسنات**»؛ أيّة حسنة كانت من صلة الرحم، وقرى الضيف، وإكرام اليتيم، وإماطة الأذى من الطريق ونحو ذلك.

قوله ﷺ: «**أطعم بها طُعمة في الدنيا**»(١)، إذ لا خلاق في الآخرة، والله تعالى كما هو عدل؛ كذلك هو مُفضّل، فمن كونه مفضّلاً ورحمانًا على عباده، كلهم يفيض على الكافر أيضًا أجور حسناته، ولو كانت تلك الحسان قليلة كما ينبئ عنه الأفراد، والتنكير في حسنة إذ ليس من شأنه تكثير الحسنات؛ إذ الإيمان له بالله، وباليوم الآخر كما ينبغي.

وكذا الحال في إفراد طُعمة بالضم وتنكيرها؛ لأن أجور الدنيا في جنب أجور الآخرة مما لا قدر له أصلاً.

وفي قوله: (**أُطعم**): على بناء المجهول؛ تحقير لشأنه من حيث إنه كافر.

وقوله ﷺ: «**وأمّا المؤمن فإن الله تعالى يدّخر له حسناته في الآخرة**»(٢)، في إسناد الادّخار إلى الله تعالى حيث لم يقل: فإنه يدخل له على المجهول تعظيم لشأن المؤمن من حيث إنه مؤمن، وفي الحسنات دون الحسنة، كما في خلافه، إشارة إلى أن شأن المؤمن تكثير الحسنات، فإنه بحسب الأسماء الإلهية يُجرى، فله في مقابلة كل اسم خلق وفعل يعقبه رزقًا في الدنيا على طاعته، يعني: كما أن له أجرًا عظيمًا في الآخرة بحسب صدقه وإخلاصه؛ فله في الدنيا أجرًا أيضًا على طاعته وعبادته.

خُصص الرزق بالذكر؛ لأن أكثر ما يهتم به الإنسان هو الرزق، وفيه إشارة إلى الرزق المعنوي أيضًا؛ لأن الحسنات أعمال صالحة، ومَن عمل بما علم؛ ورّثه الله علم ما لم يعلم، فله رزق ظاهر وباطن جميعًا؛ لأن الله تعالى عنده ثواب الدنيا والآخرة، ونعيم الصورة والمعنى.

---

(١) رواه مسلم (٢١٦٢/٤)، والطبراني في الأوسط (١٨٩/٣).

(٢) تقدم تخريجه.

وفي الحديث إشارة إلى أن الفرق بين الزاهد والعاشق: إن الزاهد وإن كثر حسناته فلا يترقّى عن مقام الطبيعة، والنعيم الحسِّي، وأمَّا العاشق فله النعيم الحسِّي بحسب عمله الحسِّي، وله النعيم الروحاني بحسب حاله المعنوي؛ ولكن رزقه في الآخرة أكثر من رزقه في الدنيا صورةً ومعنى، إمَّا صورة، وإمَّا معنى.

فإن الإنسان في الترقِّي دائمًا، فما حصل له عند الاحتضار أكثر مما حصل له قبل ذلك، وكذا ما حصل له في البرزخ أكثر مما قبله، وقِس على ذلك ما حصل في المحشر، وفي الجنة، وفي مقام الكثيب؛ ولذا قالوا: الشوق دائم، والنقصان لا يزول.

وهذا مشرب مَن ليس له ري أبدًا، فإن كماله حقيقي بالنسبة إلى كمال مَن دونه، وإضافي بالنسبة إلى أن السير في الله لا ينقطع أبدًا، فالأمر إذًا لم يكن له انتهاء؛ فالسالك في السير أبدًا، وهذا لأن الله تعالى غير متناه بذاته، وأسمائه، وصفاته، وتجليَّاته، وهو الواسع، فكيف الوصول إليه حتى ينقطع السير؟

وقد قال تعالى: ﴿**فَاعلم أنهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ [محمد:١٩].

فجعل الأُلوهية منتهى العلم إذ ما وراءها حيرة وبهت؛ ولكن الأمر لمَّا كان بسيطًا؛ كان السير بسيطًا، فالإنسان على السفر دائمًا، ومَن استوى يوماه؛ فهو مغبون، وليس الاستواء إلا بالوقفة، أو بعدم المحرك من العشق والانجذاب ونحوهما.

ولذا فُضِّل العمل الروحاني على الجسماني بأضعاف، فأين العابدون من العاشقين؟ وأين العاشقون من الواصلين؟ وأين الواصلون من الحاصلين؟

فاجتهد أن تكون من أهل المكاشفة، ثم من أهل المشاهدة، ثم من أهل المعاينة، فأول الأمر الطلب، ثم السير، ثم الوصول والفناء، ثم الحصول والبقاء، فمَن بقى مع الله؛ فله بقاء بقاء الله، فاعرف(١).

---

(١) قال الشيخ أبو المواهب الشاذلي: قال الله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**﴾ [طه: ٧٣].

قاعدة: البقاء مقام يملك حقيقة الشهود على بساط الأدب مع الشهود.

فائدة: بقاء البقاء أكمل من البقا، وصاحبه هادٍ مهتدٍ بكمال التُّقى.

قاعدة: متى وجدَ البقاء وجدِ الصحو، وإذا ذهب جاء السكرُ لصاحب المحو.

فائدة: الباقي فاني، وليس كل فانٍ باقي.

=

قال الله تعالى: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦].

قال القاضي في تفسيره: فإذا قاله العارف الواصل عني بقوله: اهدنا، أرشدنا إلى طريق السير فيك؛ لتمحو عنا ظلمات أحوالنا، وغواشي أبداننا؛ فنستضيء بنور قدسك؛ فنراك بنورك، انتهى.

وهذا خطأ عند مَن له ذوق من علوم الأذواق، ومشرب من مشارب السلوك،

=

قاعدة: مقام البقاء جامع حيطة الجمع، ونقاء البقاء جامع حيطة جمع الجمع.

فائدة: الجمع غير الجمعية؛ الجمع شهود وحدانية النور، والجمعية غيبة مع الحضور.

فالجمعية غيبة عن الخلق مع الحضور بالحق، والجمع شهود الحق بلا خلقٍ، فمقام الجمعية أكمل من مقام الجمع.

قاعدة: القيام بحقيقة الجمع دون الشريعة زندقة، والقيام بمقام الفرق دون الجمع تفرقة.

فائدة: الحقيقة خفيّ الباطن، والباطن جليّ الظاهر؛ لهذا كان في المصطلح: الباطن حقيقة، والظاهر شريعة.

قاعدة: لا يصلح مقام البقاء إلا بعد فناء الفناء.

فائدة: في مقام البقاء يعطي المولى التمكين، وفي مقام بقاء البقاء ينصرف بالتمكين في التلوين.

قاعدة: وصف البقاء للباقي يختلف بحسب ما تقدم من الفناء؛ لذلك اختلفت المقامات، وتباينت الحالات.

فائدة: من الرجال من لا يجد البقاء، إلا بعد الفناء وهذا هو الأكثر، ومنهم من يجد البقاء لأول وهلة رقيقة يجدها أهَل الخصوصية من حقيقة الأنبياء، وهؤلاء هم الكُمَّل الورثة.

قاعدة: البقاء يقتضي وجود الفناء بعدم أوصاف البشرية التي يجب التقديس منها، والبُعد عنها.

فائدة: البقاء مرآة التجلّي، كما أن الفناء بساط التخلّي، كما أن الباقي على منصة التحلّي.

قاعدة: بقاء القديم غير بقاء الحادث، وإن حصل للسالك طريقة؛ فهو مجاز حقيقة.

فائدة: لا يحصل رفع البقاء إلا بخفض الفناء، فقم في باب نصب البدل، واترك حروف العلل تبلغ ما أملته من الأمل.

قاعدة: وصف البقاء في الأنبياء عصمة وهداية، وفي الأولياء حفظ ورعاية، وكل من حصل له وصف البقاء أمن من الشقاء.

فائدة: الراقي درجة الفناء يشاهد أول مقام البقاء، ويبشر هناك في بدايته بما سيكون له في نهايته؛ لأنها أول خلع القبول في مقام الوصول.

وذلك لأن السير إمَّا سير إلى الله؛ وهو بالفناء التام في عين الجمع، وليس لصاحبه عين، ولا أثر لا من الهيئات المظلمة السابقة على فتح باب القلب، ولا من التلوينات التي تظهر في الهيئات النورانية المتأخِّرة عنه؛ وهما الذنب المتقدِّم، والمتأخِّر في قوله تعالى: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾ [الفتح:٢].

فإنه عند الاستغراق، وظهور النور الأحدي الذي هو أصل الأنوار كلها؛ لا يبقى ظلمة، ولا تلوين أصلاً؛ بل كلاهما مستور مغفور بذلك النور الأحدي الذاتي في مقام السرِّ.

وإمَّا سير في الله وهو: كشف مقام الفرق بعد الجمع، والتعقيد بعد التحليل، واللذَّة الدائمة التي أشار إليها قوله ﷺ: «**وأسألك لذَّة النظر إلى وجهك الكريم أبدًا دائمًا سرمدًا، وقاب قوسين أو أدنى**»(١)؛ وهو الذات البرزخية التي تجمع بين الصفات كلها، ولصاحبه البقاء بالله في ذاته ونعوته.

قالوا: أحب في العبارة أن يقال، فإذا قاله العارف الغير الواصل عني بقوله: أرشدنا إلى كمال السير إليك؛ ليستضيء بنور قُدسك، وإذا قاله الواصل عني بقوله: أرشدنا إلى طريق السير فيك؛ لنفوز بمقام جمع الجمع الذي لا مستقر للكُمَّل دونه؛ إذ ليس دونه حجاب؛ بل هو رؤية الحق في الخلق، ورؤية الخلق في الحق، وهو سرُّ قوله: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**﴾ [الشرح:١].

فالعارف(٢) إذا عرف الله تعالى حق المعرفة؛ كان من الواصلين، والواصل مستضيء بنور القدس، فكيف يكون له ظلمة؟ بل هو ظل الوجود الحقيقي؛ بل هو

---

(١) رواه النسائي (٣٨٧/١)، وذكره المناوي في فيض القدير (٢٩٢/٤).

(٢) قال سيدي علي وفا: العارف عين معروفه، والمحقق حقيقة ما حققه، وعلى قدر شهود الكمال والتكميل تكون محبة الشاهد لمشهوده، وعلى قدر صدق المحبة يكون تحقق المحب بمحبوبه، وعلى قدر التحقق يكون ظهور المتحقق بحكم ما تحقق به عينًا وأثرًا، ولكل مقام مقال، ولكل مجال رجال، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١]، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤].

وهو هو بما هو هو سيدي وربي، وهو مولاي وحسبي ليس إلا هو، يا مولاي، يا واحد، يا مولاي، يا دائم، يا علي، يا حكيم.

عين الوجود الحقيقي، فالوصول والظلمة لا يجتمعان أبدًا، كما أن الحجاب والنور لا يجتمعان أبدًا، نعم إن الحجاب إذا كان حجاب رحمة بالمهملة لا حجاب زحمة بالمعجمة؛ فإن صاحبه على نور من ربه، وكشف: أي كشف، وهو كشف حجاب الوحدة عن وجوه الكثرة حتى يظهر الكثرات في عين الوحدة، وهو أن تجمع ما له تعالى عليه، وما لك أيضًا عليه.

وترد الكل إليه فما في الكون إلا أسماؤه ونعوته، وبه يظهر قوله: «**فبي يسمع وبي يبصر**»(١).

فإذًا جميع النعوت له تعالى، فلست أنت أنت، وهو هو؛ بل هو أنت، وليس في البين أنت؛ إذ العين واحدة في الحقيقة، والله هو الوكيل، وهو الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، كما أن الشمس هي المضيئة في السفر، وكذا هي الخليفة في إضاءة الأهل في البيت، والحضر، فليس لنورها غيبوبة أصلاً، فانظر ماذا ترى؛ فإنها مثال أجلى، وبالنظر أجرى.

ورد: «**والنظر في الأولى والأخرى؛ فإنك عند سِدرة المنتهى، وأنت عند قاب قوسين أو أدنى**»(٢).

فإذا أرددت النظر وكررت؛ وجدت في كل نظر لذّة؛ لأنه جديد، ولكل جديد لذّة، ولا تكرر في الوجود أصلاً؛ ولذا قيل للملوين الجديدان مع تكررهما، فالصورة واحدة، والمعنى متعدد.

قال تعالى: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة:٢٥]؛ يعني: إن التشابه لا ينافي الاختلاف في اللذّة، والله واسع عليم لا ضيق عنده في تجليّاته؛ ولذا وردت: «**زدني علمًا**»(٣): أي حيرة فيك، إذ في كل حيرة تلوين مقبول، وفي كل تلوين تمكين سرّي سَرى، فلك في كل نَفس من الأنفاس تلوين وتمكين على أنه لا سكون في العالم؛ بل الأمر حركة دائمة، فاسعوا؛ فإن في الحركات البركات، والله واهب العطيّات.

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (٢٣٦/٢).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

في الأعراف: قال الله ﷻ: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا**﴾ [الأعراف:٢٦].

اعلم أن هاهنا ستة ألبسة؛ اثنان منهما من ظاهر الدنيا، واثنان من ظاهر الدين، واثنان من باطن الدين.

أمَّا اللذان هما من ظاهر الدنيا: فلباس الضرورة الذي يستر السوءة.

ولباس الزينة الذي هو الريش.

وفي الزينة أيضًا غرض صحيح لقوله تعالى: لتركبوها وزينة، وفي التنـــزيل أيضًا: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ**﴾ [الأعراف:٣٢]، ومن الزينة اللحية، كما ورد من تسابيح الملائكة أنهم قالوا: (**سبحان مَن زيَّن الرجال باللحي، وزيَّن النساء بالذوائب**).

فإن كانت: أي اللحية مع توقيرها معتدلة بالوجه؛ تُترك على حالها، ولا يُؤخذ منها شيء، وإن كانت غير معتدلة؛ يُقصُّ ما دون القبضة من الذقن حتى تعتدلا، فإن الزينة في الاعتدال، فلا اعتبار بقول مَن ذهب إلى وجوب توقيرها، وبقول مَن قال بوجوب قَصِّها؛ فإنه لا معنى للإفراط والتفريط، وقد كان ﷺ يأخذ من طول لحيته لا من عرضها.

وأمَّا اللذان هما من ظاهر الدين: فلباس التقوى من محارم الله تعالى على سبيل الوجوب.

ولباس مكارم الأخلاق من العفو الصفح، والإصلاح ونحو ذلك على سبيل الندب؛ فإنه لا بد للمؤمن من هذين اللباسين في الدين.

وأمَّا اللذان هما من باطن الدين؛ فالأول منها: الخرقة المعروفة التي يلبسها الفقراء السالكون من أيدي المشايخ.

وقد صحَّ أن الشيخ الشبلي[1] ونحوه قَدَّس الله أسرارهم لبسوها وألبسوها،

(١) هو شيخ الطائفة أبو بكر الشبلي البغدادي قيل: اسمه دلف بن جحدر، وقيل: جعفر بن يونس، وقيل: جعفر بن دلف. أصله من الشبلية قرية، ومولده بسامراء، وكان أبوه من كبار حجاب الخلافة، وكان خاله أمير الأمراء بالإسكندرية، وولي هو حجابة أبي أحمد الموفق، ثم لما عزل أبو
=

أحمد من ولاية حضر الشبلي مجلس بعض الصالحين، فتاب، ثم صحب الجنيد وغيره، وصار من شأنه ما صار، وكان فقيهًا عارفًا بمذهب مالك، وكَتَب الحديث عن طائفة، وقال الشعر، وله ألفاظ وحكم، وحال وتمكن، وكان يحصل له استغراق وسُكْر.

من كلامه:

كان يقول: خلف أبي ستين ألف دينار سوى الضياع فأنفقت الكل وقعدت مع الفقراء.

وقال الشبلي: العارف سيار إلى الله عز وجل تعالى، غير واقف.

وسُئل أي شيءٍ أعجب؟ قال: قلب عرف ربه ثم عصاه.

وكان الشبلي ينوح يومًا ويقول: مكر بك في إحسانه، فتناسيت، وأمهلك في غيك فتماديت، وأسقطك من عينه، فما دريت ولا باليت.

وقال: ليت شعري ما اسمي عندك غدًا يا علاّم الغيوب، وما أنت صانع في ذنوبي، يا غفّار الذنوب، وبم تختم عملي، يا مقلب القلوب؟.

وكان الشبلي يقول في جوف الليل: قرة عيني وسرور قلبي ما الذي أسقطني من عينك؟ ثم يصرخ ويبكي.

وقال الشبلي: لاتأمنن على نفسك، وإن مشيت على الماء، حتى تخرج من دار الغرة إلى دار الأمل.

وقال الشبلي: إذا وجدت قلبك مع الله، فاحذر من نفسك، وإذا وجدت قلبك مع نفسك فاحذر من الله.

وقال أحمد الحلقاني: سمعت الشبلي يقول: من عرف الله عز وجل لايكون له غمّ.

وقال: أحبك الخلق لنعمائك، وأنا أحبك لبلائك.

وكان الشبلي يقول: إن أردت أن تنظر إلى الدنيا بحذافيرها، فانظر إلى مزبلة، فهي الدنيا، وإذا أردت أن تنظر إلى نفسك، فخذ كفًا من تراب، فإنك منه خلقت، وفيه تعود، ومنه تخرج، وإذا أردت أن تنظر ما أنت، فانظر ماذا يخرج منك في دخولك الخلاء؟ فمن كان حاله كذلك، فلا يجوز أن يتطاول أو يتكبّر على من هو مثله.

وعن الحسين بن أحمد الهروي قال: سمعت أبا بكر الشبلي يقول: ليس للأعمى من رؤية الجوهرة إلا مسّها، وليس للجاهل من الله إلا ذكره باللسان.

وسأل جعفر بن نصير بكران الدينوري وكان يخدم الشبلي ما الذي رأيت منه يعني عند وفاته؟ فقال: قال لي: علي درهم مظلمة، تصدقت عن صاحبه بألوف، فما على قلبي شغل أعظم منه، ثم قال: وضئني للصلاة، ففعلت، فنسيت تخليل لحيته، وقد أمسك علي لسانه، فقبض على يدي وأدخلها =

وإن بعض الواصلين إلى مرتبة الخلافة قد لبسها من يدِ الخضر عليه السلام، فلا اعتبار بقول المحدثين: من أن لبس الخرق من أيدي المشايخ مما لا أصل له في الشرع على أن نقول: إن ما فعله النبي ﷺ من إلقاء ردائه على كعب بن زهير حين أنشد قصيدته يكفي دليلاً في باب العمل[1].

والثاني منها: القلب الذي يشتمل على سرِّ الله الأعظم كما قال تعالى:

=

في لحيته، ثم مات، فبكى جعفر وقال: ما تقولون في رجل لم يفته في آخر عمره أدب من آداب الشريعة.

وعن بكير صاحب الشبلي قال: وجد الشبلي في يوم جمعة خفة من وجع كان به، فقال: تنشط تمضي إلى الجامع، قلت: نعم، فاتكأ على يدي حتى انتهينا إلى الوراقين من الجانب الشرقي، قال: فتلقانا رجل جاء من الرصافة، فقال بكير قلت: لبيك قال: غدًا يكون لنا مع هذا الشيخ شأن، ثم مضينا فصلينا، ثم عدنا، فتناول شيئًا من الغداء، فلما كان الليل، مات رحمه الله فقيل لي: في درب السقائين رجل شيخ صالح، يُغَسِّل الموتى، فدلوني عليه في سحر ذلك اليوم، فنقرت الباب خفيًا، فقلت: سلام عليكم فقال: مات الشبلي؟ قلت: نعم، فخرج إلي فإذا به الشيخ، فقلت: لا إله إلا الله، فقال: لاإله إلا الله تعجبًا، ثم قلت: قال لي الشبلي أمس لما التقينا بك في الوراقين غدا يكون لي مع هذا الشيخ شأن بحق معبودك من أين لك أن الشبلي قد مات؟ قال: يا أبله، فمن أين للشبلي أنه يكون له معي شأن من الشأن اليوم.

توفي الشبلي في ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاث مائة وهو ابن سبع وثمانين سنة، قدَّس الله سرَّه.
انظر في ترجمته: سير النبلاء (١٥/٣٦٧)، وتاريخ بغداد (١٤/٣٨٩)، والرسالة القشيرية (ص٤٣).

(١) فائدة: شرط إلباس الخرقة أن يكون الشيخ في قوة وعزم ينـــزع من المريد جميع الأخلاق الرديئة مع الذي يأمره بنـــزعه من القميص والقلنسوة، ويفرغ عليه جميع الأخلاق الحميدة مع إلباسه ما يلبسه من المذكور فلا يسري فيه خُلق رديء، ولا يحتاج إلى صلاح خُلق من الأخلاق.

وهكذا ألبس الشيخ إبراهيم المتبولي قدس سره من الرسول ﷺ يقظة، وألبسها الشيخ عليٌّ الخواص السيد إبراهيم المتبولي كذلك، ولَبَسَهَا الشيخ الأكبر من يد أبي العباس الخضر عليه السلام تجاه الحجر الأسود كذلك، وأيضًا الشيخ الأكبر ألبسها المريدين كذلك فما بقي في هذا الزمان لأحد إلباس الخرقة ولا إرخاء العذبة ولا التلقين لأحد لفقد شروطها، وإنما يقصد بها التبرك والدخول في سلسلة سند القول، ومع هذا التبرك بهم بالزهد والتوكل وغير ذلك من عدم النوم وخوف الله تعالى أولى، مع أن هذا لازم لذاك، والله يتولى هُدانا وهداك.

«**ما وسعني أرضي ولا سمائي؛ ولكن وسعني قلب عبدي**»[1]، وذلك إن اللباس لا بد أن يسع اللابس، فدلّ وسعة القلب على الله تعالى: إنه كاللباس على سرِّه قدر ما يسعه استعداده، وفيه بيان سعة القلب جدًا، وإلا فالله تعالى يُمتنع أن يكون مُحاطًا، ولمّا رأوا ان القلب كان كاللباس على سرِّ الله، وان باطن الإنسان اشتمل عليه، وضعوا في الظاهر علامة له؛ ليتوافق الظاهر والباطن؛ وهي الخرقة المذكورة.

فكل من أهل القباء، والعباء يخالف الآخر حيث إن أهل العباء مكاشفون عن الحقائق في الحقيقة، فلا بد لهم من رسم مخصوص يدلُّ على حالهم في الباطن بخلاف أهل القباء؛ فإنهم من حيث إنهم محجوبون عن السر الإلهي؛ لم يكن لهم زينة لهم هي من باطن الدين؛ بل اكتفوا بالزينة الظاهرة التي هي من الحياة الدنيا؛ فظهر أن مَن طعن في خرق الفقراء السالكين، فقد طعن في الدين الذي هو الدين المرضي عند أهل الله تعالى، نسأل الله تعالى أن يعصم ألسنتنا من الزلل وعقائدنا من الخلل، وأعمالنا من الفتور والكسل.

٤٨- **في الصحيحين**: «**إن الله يقول: يا أهل الجنة**»[2]: الحسِّية في الآخرة، وأهل الجنة المعنوية في الدنيا.

قوله ﷺ: (**يا أهل الجنة**): أي يا أهل النعيم مطلقًا؛ وهو النعيم الحسِّي المتعلّق بالأجسام، والنعيم المعنوي المتعلّق بالأرواح، وفي النداء، وإضافتهم إلى النعيم زيادة ترويح لهم، وتطييب.

وإشارة إلى أن أهل النار لا نعيم لهم من مطعوم، ومشروب، وملبوس، ومنكوح، فيقولون: أي كل واحد منهم؛ فإنهم لا حجاب هنالك بين السمع والكلام؛ للطافة الأبدان، والقلوب بخلاف حال الدنيا؛ فإن النداء وإن كان يتوارد فيها أيضًا؛ لكن لا يسمعه المحجوبون، وإنما يسمعه المراقبون المكاشفون.

---

(١) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/٣٦٥)، والقاري في المصنوع (١/١٤٦).

(٢) رواه البخاري (٥/٢٣٩٨)، ومسلم (٤/١٧٦٧).

قوله ﷺ: «فيقولون: **لبيك ربنا وسعديك**»؛ هذا من قبيل التحية المجرَّدة؛ كالسلام من غير ملاحظة المعنى اللغوي، وذلك أن السلام في الأصل؛ كان إشارة إلى سلامة المسلم عليه من أذى المسلم، ثم لمَّا ظهر حقائق الإيمان، والإسلام في قلوب المؤمنين وظواهرهم؛ حُمل على التحية المجرَّدة.

ونحوه قوله تعالى: ﴿**تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ**﴾ [الأحزاب:٤٥] فإنه مجرَّد تشريف لهم من الله تعالى، وكذلك قوله ﷺ: (**لبيك وسعديك**): إذ ليس المقام مقام الخدمة حتى يقولوا: نقيم لامتثال أمرك إقامةً كثيرةً، وكذا الإسعاد إذ ليس من شأن الله تعالى أن يسعده العبد، ويعيِّنه مرة بعد أخرى، ولا مساغ لحمله على إعانة دينه؛ إذ ليس هنالك تكليف، ودين شرعي كما في الدنيا.

حيث قال تعالى: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ**﴾ [محمد:٧]، وكذا لا يجوز حمله على معنى تطلب منك إسعادًا بعد إسعاد: أي إعانة بعد إعانة؛ إذ الإعانة إنما هي بظهور الحاجة، والعبد هنالك غنيٌّ بغنى سيِّده؛ لأن الملك الحي الذي لا يموت.

وقد قسَّموا الإلهية إلى ثلاثة أقسام:

قسمٌ: لا ينقطع حكمه من الأزل والأبد.

وقسمٌ: ينقطع حكمه أزلاً دون الأبد؛ كالأسماء الحاكمة على الآخرة، وخلودها وخلود أهلها ونعيمها.

وقسمٌ: ينقطع حكمه أزلاً وأبدًا؛ كالأسماء الحكمة على النشأة الدنيوية، فإنها ليست بأزلية ولا بأبدية، فظهر في هذا الموطن، ثم يختفي آثارها في الموطن البرزخي والحشري، وما يليهما، ومن ذلك الاسم المُعين.

وذلك ان كمال الإنسان تدريجي، فلمَّا هبط آدم عليه السلام إلى الأرض؛ ظهرت الأسماء الإلهية على التدريج مثلاً يَسِر له أسباب المعيشة، فناداه: يا لطيف حمٍّ قواه على ما اقتضاه منه فناداه: يا مُعين، وهكذا.

وليس في الجنة ما يطلبه الله تعالى من العبد حتى يعينه عليه، فظهر ان أمثال تلك العبارة من قبيل الصورة التي ورد عليها في الدنيا من غير ملاحظة المعنى المدلول، وإن كان موطن يحتمل تلك الملاحظة، فاعرف هذا، ودعْ التكلُّفات؛ فإنها من ضيق

الفهم، وعدم الفرق بين الأسماء، وبين النشأتين.

والخير كله في يديك: أي في قدرتك، وإنما لم يذكر الشر لأنه شر بالنسبة إلى الله تعالى في الدنيا والآخرة؛ بل جميع أفعاله تعالى مشتملة على الحكم والمصالح؛ فهو كقوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران:٢٧].

وقوله ﷺ: «**وكلتا يديه يمين مباركة**»[١].

فيقول: «**هل رضيتم؟**» بما أوتيتم من النعم الحسِّية والمعنوية، فيقولون: «**وما لنا لا نرضى يا رب**».

في قوله: (**يا رب**): إشارة إلى أن الكلام مع الكل، والقول من الكل، فإنه أدلُّ على حصول الرضا بخلاف ما لو سكت البعض.

وقوله ﷺ: «**وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك**»: أي ممَن يلي عالم الخلق؛ فإنهم ليس لهم النعيم الروحاني بخلاف من في عالم الأمر، فإنهم المستعدون بذلك إلا أن مَن بقى في عالم الأرواح لم يشرب من مَشرب الأذواق الخلقية بخلاف من جميع بين عالم الخالق، والأمر نزولاً وعروجًا، فافهم جدًّا، فإنه سرٌّ عزيزٌ.

والحاصل: أن أهل الحجاب بقوا وراء الباب، فلم يكن لهم نصيب إلا الحظ الجسماني، وأن أهل الأبداع والوقوف بقوا داخل الباب، فلم يكن لهم إلا الحظُّ الروحاني.

ومَن دخل، وخرج أحرز النصَّيبين، فله القدح المعلى.

فيقول: «**ألا أعطيكم أفضل من ذلك**»: فيه إشارة إلى أنهم بقوا مع النعيم المجرَّد المطلق منه غير ملاحظة للحكمة في ذلك، فإنه قد يتحوَّل النعيم جحيمًا بالنسبة إلى أهل الدنيا؛ لأن قلوبهم بين إصبعين من أصابع الرحمن، فيخاف عليهم من التقليب من حال إلى حال.

ولمَّا كانت الجنة ليست تُعطى ذلك بذاتها، قال تعالى: «**ألا أعطيكم؟... إلخ**»: إتمامًا للنعمة، وإكمالاً للمنَّة.

---

(١) رواه الترمذي (٥/٤٥٣)، والبيهقي في الكبرى (١٠/١٤٧) بنحوه.

وفي الخبر: «**فيقولون: يا ربِّ وأي شيء أفضل من ذلك؟**»: إذ ليس فوق نعيمهم نعيم بالنظر إلى تجليَّات الأفعال.

فيقول: «**أحلُّ عليكم رضواني**»: أي أُنزل عليكم قلوبًا، وأجسادًا برضاي الكثير؛ فإن الرضا الحاصل الآن رضا قليل يحتمل الزوال والدوام.

ولذا قال: «**فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**»[١]: وفيه دلالة على أن السعادات الروحانية أفضل من الجسمانية، وأن كلاً من السعادتين لا تُكمَّل إلا بالرضا؛ ولذا لم يعتبر نعيم الكفرة والفجرة، وكذا أذواق الرهابنة والفلاسفة، ومَن يتلوهم من أهل الرياضة، وأن آخر التجليَّات الصفاتية الذاتية تجلي صفة الرضا.

ومن آثاره: صفاء القلوب على كل حال.

وأمَّا الأبدان: فلا تزال تُبتلى إلى آخر الأجل، كما أن آخر التجليَّات الأفعالية تجلي التوكُّل.

ومن نتائجه: نزول المائدة من السماء وقت الضرورة إلى الغذاء، كما وقع لِمَن جال في البراري، والصحاري وقع في المغارات والكهوف سنين.

وفيه إشارة أيضًا إلى أن آخر شيء ناله الممكن: مرتبة السماع، فإنه ختم أمر أهل الجنة بالسماع، كما بُدئ أول الأمر أيضًا؛ لأنه تعالى قال: (كن) فسمعه الممكن، فكان كما ذهب إليه أهل الحقائق، وبعض من أهل الظاهر.

وكذا آخر الأمر في حقِّ الكفار، فإنه تعالى يقول: ﴿**اخْسَؤُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ**﴾ [المؤمنون:١٠٨]، وهذا بالنسبة إلى العباد.

وأمَّا بالنسبة إلى الله تعالى: فآخرًا لكمال الكلام، وبه ينختم أمر الأنام.

وأمَّا الرؤية[٢]: فليس من قبيل الكلام والسماع؛ بل هي من قبيل المشاهدات

---

(١) رواه البخاري (٦/٢٧٣٢)، ومسلم (٤/٢١٧٦).

(٢) اعلم أن الرؤية على ثلاثة أقسام: **أحدها**: الرؤية الذاتية وهي شهود الحق في كماله الذاتي وغناه الذاتي ذاته بذاته رؤية ذاتية غير زائدة على ذاته وشهود أسمائه وصفاته ونعوته وتجلياته في قبضة قهر الأحدية رؤية ذاتية أيضًا.

=

بالأبصار والبصائر، كما يقتضيه المعارف الحاصلة لأربابها؛ وهي المزيد الذي ليس في مقابلة الأعمال، وإنما هي من نتائج المنَّة الإلهية يرحم الله لنا ولكم بذلك.

٤٩- **في الصحيحين** قال رسول الله ﷺ: «**إن الهجرة قد مضت لأهلها**(١)»:

اعلم أن الهجرة: هجرتان: هجرة الأنبياء - عليهم السلام - وذلك أنهم إذا خرجوا عن عهدة التبليغ، فأطاع مَن أطاع، وعصى مَن عصى، فأُمروا أن يهاجروا إلى مكة المكرَّمة مع مَن تبعهم من المؤمنين؛ لئلا يروا العذاب الأليم الذي أرسله الله تعالى إلى عُصاة الأمة، ولمَّا كان عصر نبينا ﷺ، وعصى من عصى أمره، وهو أيضًا بالهجرة إلى المدينة، لئلا يرى عذاب قومه؛ لأن الله تعالى ما كان ليعذبهم وهو فيهم، أو وهم مستغفرون كما دلَّ عليه النص؛ بل لمتابعة الأنبياء، وتكميل مرتبتي الفناء والبقاء.

=

والرؤية الثانية: رؤية أسمائه، وهي التي وقعت بظهور الأسماء في العوالم التي هي مظاهرها، فهذه الرؤية موقوفة على إظهار أعيان الأسماء المستهلكة في الأحدية عوالمها ومظاهرها.

والرؤية الثالثة: الرؤية الواقعة في الكون الجامع، وهي جامعةٌ للرؤيتين الذاتية والأسمائية، فخلق الحق تعالى جميع العوالم من العقل الأول إلى النوع الإنساني الكمالى الجمعي وكل شيء من العوالم مظهرًا لاسم خاص من الأسماء الإلهية، ومجليًا لصفة من الصفات الجزئية أو الكليَّة، فظهر الحق في كل شيء بحسب استعداد ذلك الشيء وقابليته، ولم يظهر بصورته الجمعية الإلهية، فما حصل الظهور الكلي بالصورة الإلهية الأسمائية في شيء من أعيان الموجودات العلوية وأشخاص المخلوقات السفلية لعدم قابليته لها، ولذلك قال تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان**﴾ [الأحزاب:٧٢]، فخلق للظهور الكلي الأحدي الجمعي الكون الجامع، فأظهر فيه أعيان جميع أسمائه الحسنى، وظهر بالظهور الكلي الأحدي الجمعي، والتفصيلي فيه، فرأى جمال ذاته تعالى فيه كما قال الأستاذ قدس سره في فصوص الحكم: لما شاء الحق -حيث أسمائه الحسنى التي لا يبلغها الإحصاء- أن يرى أعيانها، وإن شئت قلت: أن يرى عينه في كون جامع يحضر الأمر، فإن رؤية الشيء نفسه بنفسه ما هي مثل رؤيته نفسه في أمر آخر يكون له كالمرآة، إلى آخر ما قال قدس سره، وآدم الحقيقي نبينا محمد ﷺ فهو أظهر المظاهر وفوقها.

(١) رواه البخاري (٣/١٢٨٠)، ومسلم (٣/١٤٨٧).

فكان عذاب الأمم السالفة بأنواع المثلات، وعذاب قوم نبينا ﷺ بالسيف، كما قال: «**بُعثت بالسيف، والسيف أدنى العقوبات شناعة**»[1]، فكان ذلك من جملة الرحمات التي بُعث بها النبي ﷺ.

فهذه هي صورة هجرة الأنبياء، وفيها إشارة إلى أن مُضي الهجرة للأنبياء؛ إنما هو بمعنى مُضي وقت النبوة؛ لأن هجرة الأنبياء إنما تمضي بمُضي أنفسهم، وعدم بقاء واحد منهم؛ فكأنه يقول: إن النبوة قد خُتمت بي فلا هجرة بعد هجرتي، فهذا يؤيد قوله تعالى: ﴿**وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾ [الأحزاب: ٤٠].

«**ولكن على الإسلام**»: أي ولكن أُبايعكم على الإسلام؛ بمعنى أن مرتبة الولاية باقية إلى يوم الدين؛ لأن الإسلام الحقيقي الذي هو الانقياد ظاهرًا وباطنًا؛ إنما هو في صفات الأولياء.

«**والجهاد**»: أي مع الأعداء الظاهرة والباطنة؛ بمعنى: إن مرتبة الطريقة باقية ببقاء الشرائع والأحكام؛ وهي المرتبة العثمانية ﷺ.

«**والخير**»: أي فعل الخيرات التي رغب فيها الشرع؛ بمعنى: ان مرتبة الشريعة باقية ببقاء الأمة فلا نسخ لها أبدًا.

فالإسلام: إشارة إلى مرتبة الحقيقة التي هي مرتبة الولاية؛ لأنها لا تحصل إلا بالفناء والبقاء، وليس ذلك إلا معنى الحقيقة في الحقيقة.

والجهاد: إشارة إلى مرتبة الطريقة التي هي مرتبة السلوك؛ لأنها لا تحصل ولا تقوم إلا بالرياضات والمجاهدات؛ وهي باقية ببقاء النفس.

والقوى الطبيعية، والخير: إشارة إلى مرتبة الشريعة التي هي مرتبة العمل؛ لأنها لا قوام لها إلا بأفعال الخير؛ فهذه مرتبة الصلاح.

فالعبد إذا تحقق بها؛ ترقّى إلى مرتبة السلوك بالعمل بحقيقة التقوى، ثم إذا تحقق بمرتبة السلوك؛ نال ما نال الصدِّيقون، وقوام الأمر هو الاعتقاد أولاً، فإنه أساس الخيرات، وهي أساس ما فوقها من الطبقات.

---

(١) رواه أحمد (٢/٥٠).

فانظر إلى الحديث كيف أدرج فيه مرتبة النبوة، ومرتبة الصدِّيقية، والشهادة، والصلاح، وتمعن فيه حتى يظهر لك حقائق ما قلنا، فالله الهادي.

والهجرة الثانية: هجرة الأولياء، ومَن يليهم من الصلحاء، وهي تابعة لهجرة الأنبياء؛ لأنهم تحت لوائهم، وتابعون لهم؛ فهي هجرة صورية لا هجرة الولاية، إذ هي كما قلنا: باقية أبدًا، فالنبوة بمنـــزلة السلطنة مخصوصة بأهلها، والولاية عامة ليس لها طريق مخصوص، ونهاية معلومة.

٥٠- في الصحيحين: قال رسول الله ﷺ: «**إن أمثل ما تداويتم به الحجامة والقُسط البحري**»[١]:

يُشير ﷺ إلى أن الله تعالى كما خلق أمراضًا في هذه الهياكل السفلية حسب العناصر، وامتزاج بعضها ببعض، وتسوية التركيب البشري بحيث يقبل الانحلالات والانحرافات؛ كذلك خلق للأمراض علاجًا وأدوية؛ لئلا يقهر بعض الأحوال والكيفيات بعضًا، ويبقى الإنسان صحيح البدن إلى أجل مُسمًّى، ويتحقق ما كُلِّف به من الأعمال.

فمن ذلك: الحجامة[٢] في جذوة القمحدوة: أي وسطها، وهي التي تمسُّ الأرض حين الاضطجاع، وذلك أن العروق حاملة للدم، فإذا أُجري الفاسد منه؛ سلم البدن من الآفة، وبسلامته يسلم الروح؛ لأنه كالمطيَّة له، فإنه إذا سلم، سلم المركب من العطب.

والقُسط[٣] بالضم: عود هندي، وعربي مُدر نافع للكبد جدًّا، وللمغص، والدود، وحُمى الربع شربًا، وللزُّكام، والنـــزلات، والوباء بخورًا، وللبهق، والكلف طلاء.

(١) رواه البخاري (٥/٢١٥٦)، ومسلم (٣/١٢٠٤).

(٢) وأما الحجامة فهي المداواة والمعالجة بالمحجم، وهو آلة الحجم وهي شيءٌ كالكأس يفرغ من الهواء ويوضع على الجلد فيحدث تهيجًا ويجذب الدم أو المادة بالقوة، انظر: المنجد في اللغة (ص ١٢٠، ٥٨٥).

(٣) القسط: عود يُجاء به من الهند، يجعل في البخور والدواء. انظر: لسان العرب (٥/٣٦٢٧).
وهو عشبة ارتفاعها نحو متر ونصف، يحتوي على مادة الهيلينين وهي من أقوى المطهرات، وهو يفيد في علاج الجرب وتطهير الجروح، وعلاج الالتهابات الشعبية والرئوية والسل الرئوي، ويفيد استعمال جذوره في تقوية الطمث وإدرار البول والاكتئاب النفسي.

والبحري منه: يكون أبيض مُرًّا؛ فإن المرَّ فيه الشفاء، ففيه ما لا يُخفى من المنافع التي لا تحصل بالحجامة.

وفي الحجامة: أي إزالة الشهوات من الطبائع والنفوس؛ لأنه كما أن الدم سائر في العروق، وبسريانه فيها يسري في أجزاء البدن كلها.

فكذا الشهوات سارية في الطبائع والنفوس وعلاجها إصلاح الطبيعة بالشريعة، ومنها الصوم، وتقليل الغذاء، وأكل الحلال، وترك الطيبات، والسهر ونحو ذلك.

وفي القُسط البحري: إشارة على التأوُّه، والزفرات، والشهقات الحاصلة للروح الذي هو من البدن؛ كالبحر من البر، وذلك أنه تُبخر به النفساء، والصبيان؛ فيحصل لهم من دخَّانه منافع ظاهرة وباطنة.

والروح إذا لم يتخلَّص من حكم البدن بالكلية، وقهره بعض الانفعالات الحاصلة من الأسباب الخارجة، أو السماوية لابد إذًا أن يتأوَّه دفعًا للانقباض، وجلبًا للانبساط، وفي التأوَّه بخارات نَفَسية لها آثار نفسية؛ ولذا كان إبراهيم الخليل عليه السلام أوَّابًا: أي كثير التأوُّه.

ولَمَّا كان التمكين التام غالبًا لحضرة نبينا ﷺ، كان حزنه الدائم الطويل في حكم التأوُّه، فإنه كان طويل الحزن دائم الفكر، وإن كان عند الخلق، ومحافل الناس بشوشًا مبتسمًا، فإن ذلك لا يقدح في حال باطنه، وحكم خلوته.

فالسالك إذا عالج طبعه بإزالة الشهوات التي هي في حكم الحجامة، وروحه بالتأوُّه، والصحيح العاري عن التعمُّل؛ كان مرضه النفساني الروحاني زائلاً بالكلية كما دلَّ عليه صيغة التفضيل في الحديث.

وتأخيره عن الحجامة إشارة إلى أنه مبني على إصلاح الطبع بناء الفرع على الأصل؛ لأنه إذا صلُح الطبع؛ صحَّ الروح، فكان ما صدر عنه سالمًا عن الأغراض.

وترى أهل الطبائع في هذا الزمان يتأوُّهون في مجالس الذكر، ويزفرون، ويشهقون، ثم هم كالحمير في زفراها وشهقاها؛ لأن كل ذلك مبني على الشهوة الطبيعية، والله تعالى يُحاسب عبده من حيث الاسم العدل على كل ما صدر عنه إذا كان غير حاضر مع سيده وربه؛ بل كان باقيًا بطبعه ونفسه.

فما كان من النفس؛ فهو راجع إلى النفس، وما كان من الروح؛ فهو راجع إلى الربِّ؛ لأن الروح منفوخ الربِّ، فكما أنه تعالى لا ينفخ إلا ما هو نافع؛ فكذا الروح لا ينفخ إلا ما أُخذ من النافخ، فالبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه؛ ولذا يكون نباته نباتًا حسنًا، والذي خبث لا يخرج إلا نكدًا قليلاً لا جدوى فيه ولا خير.

قال الله تعالى وسبحانه: ﴿**لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ**﴾ [الفتح:٢٩].

اعلم أن ما يفعلونه من تزيين السوق عند ظهور الفتوحات الصورية مأخوذ من هذه الآية الكريمة، فإنه سبب يغيظ الكفار، وما هو سبب له فهو المشروعات إلا أن مَن آمن في هذا الزمان؛ لم يزل من خلط عمله بالسيئ؛ لقوة النفس الأمَّارة، وشدة شكيمتها، فلا يقدر على كبح عنانها إلا أهل التقوى.

فالخير اليسير إذا أدَّى إلى ضرر كثير؛ وجب تركه، وفيه إشارة إلى أن القلب إذا كان مفتوحًا بتأييد الله تعالى؛ فلصاحب القلب أن يعمل بالرُّخص في بعض الأوقات من تزيين الظاهر بالألبسة المشروعة، وأكل الطيِّبات، وزيارة الأخوان في الله، ونحو ذلك، فإنه مُتدَارك بفضل الله تعالى وبرحمته؛ إذ لا يباشر أمرًا إلا بالحق؛ وهو النكاح الصحيح فلا يلد إلا ولدًا لرشده.

وقد قالوا: الفاني لا يُردُّ إلى أوصافه إلا مَن ذاب الكُمَّل أن يجددوا الشكر كلَّما تجدَّدت النعم الإلهية، وشكرهم هو القيام بأمر العبودية من غير نظر إلى الرُّخص إلا نادرًا، فزينتهم الظاهرة: الطاعات المشروعة، وزينتهم الباطنة: لباس التقوى، وما يرد من الله تعالى من الأسرار والحقائق؛ لأنه لباس لهم في الحقيقة.

ألا ترى إلى قوله تعالى: «**لا يسعني أرضي ولا سمائي؛ ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن**»[1]، فكما أن ظاهر المؤمن يسعه لباسه، وإلا لم يكن محاطًا به؛ فكذا باطنه يسع الحق وأسراره؛ فيكون كاللباس له.

ويلزم من ذلك: أن يكون الحق تعالى محاطًا، فإن المقصود من ذلك الكلام الإلهي: بيان سعة قلب المؤمن الكامل، وكونه عرش الرحمن، ومحل نزول مائدة المنان،

---

(١) تقدم تخريجه.

وإلا فالله تعالى كان محيطًا لا محاطًا.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥] وهو الذي يحصل لقلوبهم بالتجليّات الأفعالية والصفاتية والذاتية.

وقال الله أيضًا: ﴿فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا*إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦، ٢٧]. وكذا الولي الوارث تراه مُرتضى مصطفى من بين العباد، مختصًا بالرحمة الخاصة من عند الله تعالى، فمَن طلب الحق تعالى وأسراره؛ فليجده في قلب عبده المضاف إلى هويته المطلقة، فإنه يجده هنالك على وجه التمام والكمال، لزيادة قابلية المظهر، وسعة قلبه، فعلوم المعلومات التي تَجلّى بها الحق تعالى خلقًا وأمرًا؛ حاصلة لقلوب الكُمَّل إلا ما استأثر به في غيبه؛ وهي الممتنعات، وإلا لأبرزها الحق تعالى أيضًا، فهي بالنسبة إلينا ممتنعة، وما عداها ممكنة، ومن ثم قالوا: ليس في علم الله إلا الواجب والمستحيل.

وإنما الإمكان بالنسبة إلى الممكن، وفيه شائبة الإيجاب على ما ذهب إليه الفلاسفة؛ لكن ذلك لا ينافي الاختيار.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل:٩].

أي: لو شاء هدايتكم؛ لهداكم أجمعين؛ لكنه لو يشاء ذلك؛ بل إخبار عدم هداية البعض، وأوجبه على نفسه لِما يقتضيه استعداده الغير المجعول، كما كتب على نفسه الرحمة في حق مَن شاء من عباده لِما يستدعيه استعداده الغير المجعول أيضًا؛ فهو إيجاب ذاتي رحمة، أو غضبًا تابع للاستعدادات، والله تعالى هو الخلاّق، فإذا وقفت على هذا المعنى فقد أحطتَّ بعزيز الأسرار خبرًا، والله العليم.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥].

لأن ذلك من الغفلة الطارئة من حكم الطبع الحيواني، والله تعالى حيٌّ بحياة ذاتية أصلية ليست من جنس الحياة الطبيعية الملكية، ولا من جنس الحياة الطبيعية البشرية، ولا من جنس الحياة الطبيعية الحيوانية.

فإن هذه الحياة بأنواعها داخلة تحت الطبيعة مطلقًا، أمَّا حياة الملك فداخلة تحت الطبيعة الكلية؛ ولذا كانت حياته نورانية، و لم يطرأ على حياته موت حيواني؛

بل غشيان هو في حكم الموت له، ومن هنا لم يقبل نشأته الجزاء؛ لأنه مطبوع من النور، وتكليف من قبيل العبادة الذاتية، كما أن أهل الجنة في الجنة، فهو على حد سواء في النشأتين بحسب نورانيته فلا جسد له كشف حتى يتمتع بنعيم الجنة الصورية، ولا كمال له روحاني بحسب التكليف البشري حتى يتمتع بنعيم الجنة المعنوية، نعم له لقاء وشهود دون لقاء البشر وشهوده.

وأمَّا حياة البشر، وحياة الحيوان: فداخلة تحت الطبيعة الجزئية، والله تعالى خالق الكليَّات والجزئيات، ومتجمِّل بصورها من حيث إنه المصوِّر؛ لكنه ليس من جنس شيء من الأشياء، فلا نوم له، ولا سنة؛ لأنها من الأحوال العارضة لَمن يقبل ذلك.

ولَّما كان من الحكمة العليَّة والإلهية: أن يخلق مظهرًا تامًا من شأنه أن يظهر بكل صفة من الصفات الإلهية؛ خلق النور المحمَّدي، والجسد الأحمدي؛ فجعله بحيث إذا نام عيناه الظاهرتان؛ لم ينم عينا قلبه، كما هو أخبر به عن نفسه، فهو أيضًا لا تأخذه سنة ولا نوم في الحقيقة، وإنما أخذه النوم والسنة في الظاهر بحسب حسَّه وبشريته، فذلك النوم إنما هو نازل في الخيال لا في القلب.

أمَّا الأول: فليشهد بعين الخيال عالم المثال الذي هو من الحضرات الخمس، وهو عين الحق أيضًا في مرتبة الخيال والمثال.

وأمَّا الثاني: فلأن القلب في الحقيقة من المجرَّدات، وإنما جعله الله في الإنسان يشهد به الله تعالى في الحضرة المخصوصة الغيبية، وليشهد حقائق ملكوته في جميع الحضرات، فكان ﷺ حقًّا في جميع الحضرات، وخلقًا في حضرة الجبروت والملكوت، والشهادة المطلقة، والحضرة الناسوتية الإنسانية دون الحضرة اللاهوتية، فإنها من عالم الوجوب والحق، لا من عالم الحدوث والإمكان، والخلق.

فإن قلت: هل في العالم مَن هو على صفة فيما ذكر؟

قلت: لو كان لكان دونه لا مثله؛ لأنه (ليس كمثله شيء) فاعرف.

فإن الكاف ليست بزائدة على هذا التقدير، والله تعالى وإن لم يكن له مَثل في الحقيقة؛ لكنه لَّما خلق آدم على صورته؛ كان آدم مثلاً له صورة من حيث ظهوره

بالصفات الإلهية كما أن الوزير الأعظم كان مثلاً للسلطان في حكم الظهور، وإن كان السلطان لم يكن له مثل في الحقيقة؛ لأنه ظاهر بسرٍّ الوحدة، وفي صورة الوجوب الذاتي.

والمراد بآدم في قوله ﷺ: «**خلق الله آدم على صورته**»[1] آدم الأول الذي هو من عالم الجعل والإبداع؛ وهو الروح المحمَّدي؛ لكن لمَّا كانت الكمالات بأسرها منوطة بالوجود البشري؛ أنزله إلى مرتبة آدم الثاني الذي هو أبو البشر لا أبو الأرواح؛ فجعله على صورته في الجملة؛ لأنه جزء من جزئياته، فاعرف هذا المقام إن كنت إنسانًا[2].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **قال الشيخ الأكبر** ﷺ: كما أن الإنسان جسمٌ صغيرٌ، كذلك ملكٌ حقيرٌ من جهة الحدوث وصحَّ له التألُّه؛ لأنه خليفته في العالم، والعالم مسخَّر له مألوه كما أن الإنسان مألوه لله تعالى، وهو روح العالم.

واعلم أن الذاتي الحق لما ظهرت أعيان الممكنات في مرآة ذاته أدركها في نفسه بنوره، فلحقه المرئي بالرائي؛ حيث أدركه في ذاته، وهو واحدٌ في الوجود؛ لأن الممكنات المرئية في هذه الحالة منعوتة بالعدم، فلا وجود لها مع ظهورها للرائي، كما ذكرناه.

فسمِّي هذا الظهور توحيد إلحاق: أي الحق الممكن بالواجب، فأوجب للممكن ما هو عليه الواجب لنفسه من النسب الأسمائيَّة حتى الوجوب، ولا نقول بالغير؛ لأنه قلة الإيجاد على الإطلاق ما عدا نفسه تعالى، فالخيال موجد لله تعالى في حضرة الوجود والحق موجود للخيال في حضرة الانفعال الممثل، فإذا ثبت إلحاق الخيال في قوة الإيجاد بالحق ما عدا نفسه فهو على الحقيقة المعبر عنه بالإنسان الكامل الذي هو جلاء المرآة وروح تلك الصورة، فإنه ما ثَّم على الصورة الحقيقية مثله فإنه يوجد في نفسه كل معلوم ما عدا نفسه، ويسمى هذا توحيد الوصلة والاتصال وتوحيد الإلحاق، فإن توحيد الخيال مع كونه من الموجودات الحادثة صعب التصور إلا هذا الاختصاص الإلهي الذي أعطته حقيقته، فما قبل شيء من المحدثات صورة الحق سوى الخيال، فإذا تحققت ما قلناه علمت أنه في غاية الوصلة.

ومن هذا الذوق قال العارف:

فهذه أنوار مندرجة بعضها في بعض مثل اندراج المثل في المثل، واندراج الظل في الظل، والنور في النـــور، فافهم.

٥١- في صحيح مسلم: قال رسول الله ﷺ: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفًا»(١):

اعلم أن إضافة الفقراء إلى المهاجرين تقتضي أن يكون المهاجرون صنفين:

الأول: أغنياؤهم، ومَن في حكمهم؛ فإنهم كانوا يعدُّون مَن له امرأة، ومسكن، وخادم من الملوك، وإن لم يكن له مال آخر.

والثاني: فقراؤهم؛ وهم على ما جاء في الحديث الكوثر: «**الدنس الثياب، الشعَث الرؤوس، الذين لا يروجون المنعمات، ولا يُفتح لهم أبواب السدد، ويموت أحدهم وحاجته تتلجلج في صدره لو اقسم على الله لأبرَّه**»(٢)؛ فهم الذين يسبقون الأغنياء في دخول الجنة، وفي الورود على نهر الكوثر في الجنة.

وتحديده: «**بأربعين سنة**»: لا ينافي تحديده: «**بخمسمائة عام**»، على ما جاء في رواية أخرى.

فإن المراد بالأربعين: التكثير؛ فيكون مدة سبقهم الأشياء خمسمائة عام.

وسرُّه: ان لهذه الأمة يومًا واحدًا هو ألف سنة كما جاء في الحديث:

«**إن استقامت أمتي؛ فلها يوم ونصف هذا الألف هو خمسمائة عام تقدَّم بها الفقراء**»؛ لأن فتوح الدنيا إنما كمُلت بعد مُضي النصف الأول من الألف، فكان أكثر الأولين بالنسبة إلى الآخرين في عُسرة وضيق، فكانوا أحق بالتقدُّم بتلك المدة.

فإن قلت: المراد بالفقراء: الأغنياء وأغنياء المهاجرين؛ كانوا في الصدر الأول لم يمضِ عليهم عِقد من العقود، فكيف بخمسمائة؟ قلت: سرُّه كما أن فقراء المتأخِّرين ملحقون بفقراء المتقدِّمين، كذلك أغنياء المتقدِّمين ملحقون بأغنياء المتأخِّرين، فكان

=

فَكأنمـــا خَمـــر ولا قَـــدح وكأنمـــا قَـــدح وَلا خَمـــرُ

فهذه أنوار مندرجة بعضها في بعض مثل اندراج المثل في المثل، واندراج الظل في الظل، والنور في النـــور، فافهم.

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٢/٤٥٣).

(٢) رواه الترمذي (٤/٦٢٩)، وأحمد (٥/٢٧٥) بنحوه.

الفقراء كلهم قد جاءوا قبل خمسمائة من الألف، وكان الأغنياء كلهم قد جاءوا بعد خمسمائة.

وفي ذلك تعظيم لأهل الفقر(١)، وإلحاق لهم بأهل القرون المتأخرة، ومن ذلك

---

(١) قال الشيخ ابن سبعين: القول على الفقر من حيث الطريق:

وهو آخر الأقسام وهو مرادك: وهو الفقر الذي يشرحه عرف الفقراء في زماننا هذا، ومقصودنا شرحه وبثه على أكمل ما يمكن بحول الله تعالى.

فنبدأ فنقول: الفقر هو الصبر على المكروه، وشكر المنعم الحكيم، والفتوّة المحضة، ورفع الأذى كله، وفعل ما يجب كما يجب على ما يجب في الوقت الذي يجب، وتتفق دعوته التي داخل الذهن مع التي خارج الذهن، ويطلع بالتركيب إلى بده، ويهبط بالتحليل إليه، ويدور بجملته عليه، ويجعل الفقر الذي اتصف به نفسه وقصده ومقصوده دائرة وهمية، ويجمع الوجود المقيد كله في نقطتها والمطلق في محيطها وينظر إلى الخطوط الخارجة من النقطة المذكورة إلى المحيط المذكور في خلده ويراها متساوية وينسبها. وينظر إليها ثانية من المحيط ويحذف الوسائط ويبصر الواسع في الضيق وينظر الأشياء في نفسه ثم يقطع حبل النظر والمنظور فيه من حيث المجاز والشفع، ويصل حبل النظر والمنظور فيه من حيث الحقيقة والوتر، ويصل مع ذلك النقطة المتقدمة بالمحيط ويجعلها جزء ماهيتها، ثم يحقق الأمر ثانية ويجعلها ماهية واحدة ويقول:

«ليس إلا الأيس فقط» و «هو هو» ويتصفح قوله ويتأول ما يلزم عنه، ويقطع الإشارة كما قطع العبارة، ويسكن في شأنه ويهمل مهمله ومخصصه من كل الجهات ويقف في ثلاثة مواطن ويموت ويحيا في خمس مواطن، ويبعث من شأنه ويقذف في موضوع سره المشهور بالبرهان أن آنية الله هي أول الآنيات وآخر الهويات، وظاهر الكائنات وباطن الأبديات. ويحدث في نفسه بالإسلام فيخبر عنه على غير ما كان يخبر، ويحدث قبل ذلك ويشهد والمشهود والشهادة بشهادة الإنصاف، ويعكس الضمير الأول على المخاطب الثاني، ويتوب من اللواحق ومن الحروف التي تجر إلى الإضافة ويشعر بها ويقول: كل من في العالم بأسره لا يفعل شيئًا والله هو الفاعل خاصة ثم يمحص مدلول كلامه ويخلّص جميع ما ارتهن فيه وينطق بالحق ويحذف المجاز وجميع ما يجر إليه ويلزم منه وعنه، ويقول: العالم ميت بجميع ما فيه من مفارق للمادة وغير مفارق لها، فلا حي على الحقيقة إلا الله. ثم يتفقه في الإطلاقات باقترانها مع المضافات وارتباط بعضها ببعض ويقول: ما خالف الوحدة المطلقة والوجود الواجب هو عدم من جهة ووجود من أخرى، فلا موجود على الإطلاق ولا واحد على الحقيقة إلا الله إلا الحق إلا الكل إلا الهو هو إلا المنسوب إليه إلا الجامع إلا الأيس إلا الأصل إلا الواحد إلا الأصح أصح لا صح ص ح ح حم صمد حق، لا نتهمه ولا نتوهمه. وكذلك يفعل في كل نسبه متجانسة ثم يعلل جميع ما أطلقه، ويثبت ما ثبت بالبرهان وينتفي ما

=

انتفى بالبرهان. ويعلم كيف انصرام التوجه، وإلى أين يصل المتوجه وبأي وجه يعدم، وينسب مهمل الشريعة إلى مخصص الحقيقة ومهمل الحقيقة إلى مخصص الشريعة ويقول: من صحا وصحح أسراره محا الله إصراره.

حكمة ثانية: ويقال الفقر هو الذي لا يظهر به على الفقير إلا لسان مخزون، وقلب محزون، وفعل موزون، وفكرة تجول فيما هو كائن ومكون.

حكمة ثالثة: ويقال الفقر هو الخلافة الباطنة، كما أن الملك المشار إليه هو الخلافة الظاهرة.

حكمة رابعة: ويقال هو نوع من أنواع التصوف، وهو خيرها. ورب نوع أفضل من جنسه. كالإنسان مع الحيوان.

حكمة خامسة: ويقال الفقر هو الذي ترسم بدايته بالإرادة والعبادة والإسلام وعالم الشهادة والخروج من الشر المحض إلى الخير المشترك والمجاهدة والطريق المقيد والتوكل، والتسليم والتفويض والتوبة الأولى والخلوة المشوقة والدهليز الجامع والأربعينيات المحركة المهيئة.

ويرسم سلوكه بالرضا والإيمان والعبودية وعالم الملكوت والخروج من الخير المقيد إلى الخير المطلق والمكابدة والسفر في الطريق المذكور قبل في رسم البداية، والتوبة الثانية، والفكر التابع للسكينة، والذّكر المحرك للتخلي والتحلي والتجلي، وبُعد الأهل والوطن، وحذف العلائق بالجملة، والتزام السوابع الكاشفة للمقصود، ويرسم وصوله بالعبودية والمشاهدة وعالم الجبروت ومقام الإحسان والخروج من الخير المحض المقيد للكل بالمقصود والاشتراك، وصرف المحو إلى الصحو والتوبة الثالثة المصروفة في السبعين مقامًا الفاصلة بالتخلق بالأسماء الحسنى وتدبير العالم الأول بالصنائع العلمية والعملية وبالاسم المشترك فافهم!

حكمة سادسة: ويقال: الفقر هو الذي يجعل الفقير يجعل الشرع في يمينه والعقل في شماله وبينهما العلم، ويحرك الكل بالأدب والهمة والحقيقة، ثم يدفعها بالحقيقة مفردة، ثم يجذبها بالشريعة مركبة، ثم يستغفر الله ويقطع الموصول ويصل المقطوع حتى يثبت ما لا يمكن قطعه ولا اتصاله، ولا هو من هذا القبيل فافهم.

حكمة سابعة: ويقال: الفقر هو التجرد عن المواد والاتصال بالذوات المجردة المرسوم عليها في موضوعات الشرائع والمعبر عنها في اصطلاحهم: بالملائكة وعالم الأمر، ثم التجرد عنها والاتصال بالحكيم العليم الذي أمر، الحكيم العليم المبدع الأول الذي أمر الحكيم العليم الثاني، ثم التجرد عن الجملة والاتصال بالحكمة والكلمة، ثم التجرد عنها والاتصال بالحضرة السَّنية التي يظهر فيها الحكيم العليم الأول المذكور أنه من عباد الله، والله أعز من ذلك وهو عزيز؛ لأنه اعتز على العلماء به قبل هذه التي ليست من جنس ما يعلمه الفيلسوف ولا يفهمه بعض الصوفية. وهو علم التحقيق الغريب الذي لم يخبر قط جميع من دون الدواوين كلها عنه، ولا هو من قبيل السهو والعويص ولا

=

في قوة البطيء مع الحريص. فاسمع ما أقوله لك ولا تلتفت إلى ما تخبط فيه شيعة أرسطو، وكونهم يقولون: الحق عز وجل هو المحرك للجرم الأقصى بذاته.

والمتأخر منهم يقول: بل هو الذي فطر الأمر وهو الذي أمر بتحريكها، وهو ثالث رتبة فوق محرك الأطلس.

ومنهم من قال: هو ثاني رتبة، فانظر ذلك في آخر كتاب «المشكاة» للغزالي وفي كلام ابن سينا والفارابي. وتَحَيَّرَ ابن رشد في ذلك ثم اختار قول الحكيم، وقال به وزال عن الغير. وتخبط في ذلك ابن طفيل وانفصل عنه بِهَذَيَان لا فائدة فيه للحكيم النبيه. وكذلك مذهب أهل الرواق وشيعة فيثاغورس ومنْ قال بالمثل المعلقة والحياة السارية في الموجودات، والذي قال بالانتقال وبالأشياء المؤلفة من الفاني والباقي.

وكذلك جميع ما تسمع من بعض الصوفية الذين يقولون: مقام الإسلام والإيمان والإحسان والحق والمطلع والأفعال والصفات والذات.

والذي يقول: الأسماء والتخلق والأسماء التي تتصف ويتصف بها والاسم الفعال والأسماء المتحابة والاسم الذي يتصف، فذلك كله منه ما يصح بوجه ما، ومنه ما لا يصح.

وكذلك قائل: «والحق وراء ذلك كله» فإنه أراد المعلوم المضاف.

وبالجملة: ما عرفوا الله حق معرفته ولا علموه على ما ينبغي له، فعليك بالرجال.

واعلم أن العلم الإلهي منه ما يتعلم، ومنه ما يورث، ومنه ما يُتلقى من صدور الرجال، ومنه ما يوجد حالاً وذوقًا، ومنه ما يظفر به في الجميع.

فقل: أعوذ بالمقصود المعلوم عند معلمي حيث معلمي: من توقف أرسطو وتشتيت مسائله الإلهية خاصة، فإن غيرها من سائر العلوم أحكمها ولم يغلط فيها إلا في القليل، ومن شكوك المشائين، وحيرة أبي نصر، وتمويه ابن سينا في بعض الأمور، واضطراب الغزالي وضعفه، وتردد ابن الصائغ، وتنويع ابن رشد، وتلويحات السهروردى مؤلف «حكمة الإشراق» والتلقيحات بمذهب أفلاطون، وتشويش ابن خطيب الرّي، وتخليط الأقدمين، ورموز جعفر المحتملة معرج التصوف مع الحكمة من حيث أتباعه، ومن شطحات بعض الرجال في «الرسالة» الذين نطقوا من أحوالهم الأول ولم تحذقهم العلوم ولا الصنائع العلمية ولا حققوا المبادئ وجاوزوا المقدار بأقوالهم وأحوالهم بوجه ما يسلمه بعض الناس وينكره الأكثر ومن تصريف ابن مسرة الجبلي في الحروف والإطلاقات في النطق اللاحق للأشياء وإضافته الآيات وفهم أقسام بعض السور والإقدام على الأحكام واقتران بعض القرآن ببعض، ومن تهذيب بعض الأسماء والصفات والكون والوجود والموجود والشفع والوتر والتوحيد على مذهب ابن قسيّ صاحب «خلع النعلين» ومن الأجناس الجامعة المتقدمة والتآليف والمذاهب والذهاب والاعتبار المقدر المصرف في جملة الأسماء ومدلولها وفي الصفات

=

الدائرة الـتي تدور من مدلولها على صيغها، وبالعكس على مذهب ابن برجان، ومن الوصول المنسوب والوقوف عنده بحسب متعلق الأسماء والصفات والمقامات والأرواح والتلوين والتمكين والمحبة والوجود والواحد والوحدة والإضافة المحذوفة والمجردة والشائعة وغير الشائعة بحسب «المواقف» المنسوبة إلى النفرى المعلم الناقل عن المولد على زعمه وغيره.

فجميع ذلك كله لا خلاص فيه متمم ولا إخلاص مكمل، وهو مما يدخله الغلط من الصنائع عند طائفة، ومن الأحوال عند آخرين، ومن الاصطلاح عند قوم، ومن الفهم عند آخرين، ومن الرياسة ومن اللذة ومن سوء الفهم عند الأكثر.

وهؤلاء منهم من تلذذ بالأنوار والأحوال، وغفل عن الأصل، وفرح بنفسه و لم يكمل، ومنهم من علم المقصود و لم يتحرك إليه بالسلوك وغلبته الطبيعة والأمور الطبيعية والرياسة وحفظ الصيت عليه، ومنهم من بهره حال الاتصال فغلط.

ومنهم: من شك في الأصل ودفع تارة وجذب أخرى.

ومنهم: من كان أوله ضد آخره وبالعكس.

ومنهم: من وصف المقصود و لم يتصف به.

ومنهم: من ضر بكلامه ونفع وتنوع أمره وانتقل.

ومنهم: من ينفع من جهة ما ويضر من جهات. ولولا ما قصدت في هذا التقييد من الاختصار كنت أرسم لك مقاصدهم من حيث مواضعها والمسألة والجواب ونبين لك شأنهم كله وكيف الأمر فيهم على الإطلاق بالبرهان.

وبالجملة: عليك بالحق وفريقه وأهله وطريقه، فإن الرجال إذا تنوعوا دار الأمر بينهم وفيهم وعليهم. لا زوال للحق ولا شك فيه، ولا يأخذه النقص ولا يختلف ولا يتغير، وهو الذي به هو الشيء وما هو، وهو الشاهد المتفق من جميع جهاته، وهو هو كما تقدم، وكل حائر فمن أجله كانت حيرته وفيه وبه. فافهم. فإنه هو المطلوب وبه يطلب، ومنه الطالب وله ومنه وعنه الكل. وقد خرج بنا الكلام إلى غير الذي قصدناه فنرجع له بحول الله تعالى.

حكمة ثامنة: ويقال الفقر هو السلب المنسوب للسالب والمسلوب الذي دار على نقطة وقاره بشأنه وتقديره وقراره، وخرج عن قدره بمقداره، ثم أجبر وجبر وطمع في الإيجاب بعد فهم الجواب وكلم مقصوده بلسان ماهيته ومعه بإذن آنيته المكتسبة، وأبصره بجميع هويته. فافهم !

حكمة تاسعة: ويقال الفقر هو السكون عند عدم كل شئ يتعلق بمدلول العما، ويكون من لواحق الغيرية والحركة عند التقدير، ثم السلب المحض بالإلزام. فافهم !

حكمة عاشرة: ويقال الفقر هو الذي يحصل للفقير به العلم الذي يدبره ويدبر به ما بعده ومن قبله، والورع الذي يعصمه وينفعه ويحجزه، واليقين الذي يحمله، والذكر الذي يتأنس به.

=

=

حكمة حادية عشرة: ويقال الفقر هو الذي يكسب الفقير دوام الافتقار للجبان في كل الأحوال وملازمة السنة العربية والقديمة اللازمة عند العادة المشتركة.

حكمة ثانية عشر: ويقال الفقر هو الذي تجحد فيه قضية الزمان والمكان.

حكمة ثالثة عشر: ويقال الفقر هو المترادف مع الخيرات المطلوبة.

حكمة رابعة عشر: ويقال الفقر هو الذي يسبح به في بحر الشرف، وينسخ العادة بأحكام خرق العادة، وينسخ مقام الوحشة بالوحدة، وينسخ مقام الوحدة بالحرية وينسخ الحرية بالعبادة في حال الاتصال بالأدب المستولى، وينسخ التوكل بالتسليم والتسليم بالتفويض ويترك معقوله في معقوله متخيرًا، وينسخ التفويض بالرضا، وينسخ الرضا بالتوحيد، ويقوي التوحيد بالمحبة ويحفظ المحبة بالمعرفة، ويخلص المعرفة بالمشاهدة، والمشاهدة بالمقامات الفارطة كلها، والجميع بالتحقيق، ويركبها ويسلسلها بالتوجه والبحث والإنابة والأوبة، ويصرفها بالكلام المقيد بالعبارة والإشارة وبالبعض، ثم بالدقيقة وبالكل، ثم باللطيفة وبالمذكور، ثم بالحقيقة وبالمذكور في المذكور، فافهم.

ويعللها بالأحوال ويقيدها بالتصريف، ثم يجمع المتقدم والمتأخر في كسبه وفي كل شأنه، ويتصف بالجميع، ويخصها في محله ولا يهمله، ويثبت الناسخ والمنسوخ في ماهية شأنه كله، ثم يحذف مراتبها التي تعددت ويدير عليها دائرة نتيجة شأنه الآخر بمحرك شأنه الأول، ويسكنها بظاهر كنهه، ويجمعها بباطن كونه، ويجعل على الكل وفي الكل ومن الكل الأول الآخر الظاهر الباطن، وينظر إلى الأمر كله بعين التوحيد وكلمة السلب ويجدها قد اتحدت فيه وتوحدت من أجله فينسبها إليه ويديرها ثانية وثالثة ورابعة وخامسة وسادسة وسابعة عليه، ويعتبر جملة داخل الذهن كما اعتبرها خارج الذهن، وينسب بالاستعارة بعض الأشياء إلى بعض، ويجعل قلبه التوبة وكبده المجاهدة، ويده الصبر، ورجله الأدب، وعينه العلم، وسمعه الخلق، وشمه اللطايف، ولسانه الأحوال، ولذته المعرفة والرضى والمحبة، وحياته الوتر، وموته الشفع، وبالعكس، ونطقه الإسلام، وعقله الإيمان، وروحه الإحسان، ثم يسمى الجميع فقرًا وفقيرًا وقيًرا — و «قير» تأكيد للفقير كما تقدم وبالعكس كما لزم فافهم!

حكمة خامسة عشر: ويقال الفقر هو الحكمة التي ترسم أنها الفهم عن الله ﷻ، وهو الحكمة التي سماها الشرع سنة، وهو الحكمة التي تفيد معرفة الأشياء حسبما تعطيه وتقتضيه طبيعة البرهان، وهو الحكمة التي يعرف بها ترغيب القرآن وترهيبه، وجدله، وقصصه، ومثله، ووعده ووعيده، وأمره ونهيه وأحكامها كلها وكونها تنحل إلى الأسماء والصفات وفهم الحروف المتحابة، وحروف أوائل السور مثل: كهيعص، وسائرها ومقايسة بعض المتحابّة ببعض وتناسبها على وجه أكمل وأحكم وأنفع وألطف من الظاهر ومن جميع ما هم عليه بعض الناس ممن ينكر هذا الشأن العظيم فافهم!

=

وهذا الفقر الذي اختاره خير البشر. والمنصف به هو الغني الشاكر حقيقة فإنه غني بجوهره، والغنى فيه ماهية ذاته إذ هو فعال بجوهره وعليه يجب الشكر الكثير الممتد إلى غير نهاية؛ لأنه باق فيه فافهم! وأعط المعنى المعقول مع شرف ذاته في الدارين وسلامته ومناجاته وغيره من الأغنياء بضد ذلك، وإن كان يشبهه هذا في بعض شأنه فعنده من هذا الفقير بما يشبهه وإلا فلا سبيل إلى شيء من ذلك، فافهم.

والفقير الصابر المعروف عند العامة: هذا الفقير الغني خير منه على الوجه الذي ذكرناه، وهو خير من الغني من حيث العرف والعادة والجمهورية.

وبالجملة: الفقر من جميع الوجوه هو المطلوب الشريف وحده، وكل مطلوب شريف وحده لا شئ أفضل منه. فالفقر من جميع الجهات لا شئ أفضل منه.

حكمة سادسة عشر: يقال الفقر الضعيف هو حمل الأذى وترك الأذى ووجود الراحة، والقوي هو التصرف في الأشياء بالكتاب والسنة والإجماع والقياس والعقل وفعل ما ينبغي كما ينبغي على ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي وفهم الأسرار والأحوال الإلهية قبل وفروعها وأصولها وأسبابها. والفقر الشريف هو الذي إذا نظر الفقير به إلى نفسه لا غير نظر فيها جميع الأشياء المهملة والمخصصة، والمجملة والمفسرة، والمطلقة والمقيدة، والشريفة والخسيسة، والمرءوسة والرئيسة، ويجعل منها في ماهيته النورانية ما يجب وينسبها بحده وفي ماهيته المادية وينسبها لضده، ثم يحقق الشيء الثابت وحده وينظر إليه به ويغمض عين سريرته المكتسبة ويفتح عين بصيرته اللازمة، ويقول عند تصوره لذلك: كيف يظهر من به يظهر وكيف لاحقه وهو لا يرى إلا بنوره ولا يشهد إلا بحضوره.

حكمة سابعة عشر: ويقال الفقر هو الجامع المانع.

حكمة ثامنة عشر: ويقال الفقر هو المعنى الشامل للملك والنبي والصديق والأمثل لأمثل من حيث التخصيص والمخصوص ولكل ممكن على العموم من حيث العموم والعرف.

حكمة تاسعة عشر: ويقال الفقر ترك الرغبة إلا في السعادة وأسبابها، والعبادة وأحكامها، وتدبير العادة وأحوالها.

حكمة عشرون: يقال الفقر عدم خوف الفقر من المحل مع الامتحان الكلي، ولا يكون للفقير ما يقترب به إلى ربه ويظهر الغنى به مع الحاجة، والشبع مع الجوع، والفرح مع الحزن، والمحبة لعدوه مع وجود الجور، ويصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يظهر ضعفًا وكل ذلك بجد وصحة أصلية وخير محض.

حكمة حادية وعشرون: يقال الفقر هو الذي تعرف حقيقته اللفظية بما ذكر قبل، والفقهية بما ذكر قبل، والعقلية بما ذكر قبل، والصوفية بورودها على المحل إذ كانت جزء ماهيته ويتصف بأعراض

لاحقة لها، ويغلبه بذوقه، ويخبر عنه بعد ذلك بغير الذي كان يخبر عنه قبل - فافهم !

حكمة ثانية وعشرون: ويقال الفقر حفظ السر المكنون، والعلم المضنون به والمصون، وأداء ما افترض، وصيانة الدين والمقام.

حكمة ثالثة وعشرون: ويقال الفقر هو الكمال الأول مع العلم، وهو الكمال الآخر مع المعرفة، وهو الجميع مع خالص الإنسانية.

حكمة رابعة وعشرون: ويقال الفقر هو الذي لا يطلب به إلا الله وإن طلب لذاته أعني الفقر ن مطلقًا لا خير فيه.

حكمة خامسة وعشرون: ويقال الفقر إذا تُصُفِّح وتؤمل وتتبع على أكمل ما يمكن قيل للفقير المتصف به فقير كما سمي اللديغ سليمًا، ويعتبر شأنه ولفظه بالعكس.

وهذا الفقر أعزك الله وأعانك على تحصيله بحبيبك الأول الذي لا يكون متحركًا ولا ساكنًا وهو ليس بجسم ولا في جسم.

وهو واحد من كل الجهات ووحدته بالذات، وبحبيبك الثاني الذي لا يكون متحركًا ولا ساكنًا وليس بجسم ولا في جسم ولكنه يقال فيه: إنه مع غيره الفاسق لا مرتكزًا ولا مربوطًا ولا مستندًا ولا ملتحمًا ولا حالاً.

وهو بالجملة لا متصلاً معه ولا منفصلاً عنه غير أنه يلازمه ملازمة النوع للعنصر والفاعل للمفعول ويشار إليه معه صحبة المجموع الإنساني مع أنه مفارق ومن قبيل المفارق.

وخلصك الله من حبيب ضدك وموضوعك وروحك وأوحله وأكرمك الله بتحصيل أسباب السعادة بصلاح المادة والعبادة وحفظك في شأنك كله. حتى لا «ترفل في أثواب اللاهي ولا تغفل عن ثواب الله»، فطالعه واحفظه وحافظ عليه وحصِّل مدلوله بالقول والعقل والحال والمقدمة والنتيجة والمسألة والجواب، ولا تبخل به ولا تمنعه عن أهله ولا تسمح في ذم فرعه وأصله وخاصة فصله. ولولا أنك محسوب عليَّ ومنسوب بمعناه إلى ما أسعفتك به، ولا قيدت لك فيه إلا ما يجمل بك وبأمثالك وأهل وقتك.

وشرطي عليك ألا يقف عليه أحد إلا الطلبة النبهاء والفقراء الفضلاء المحبون الأولياء، ولا يقرأه من المذكورين إلا من يتصفحه إلى آخره.

وإن علم منه أنه ينكره يؤخذ من يده، وإن توقع الضرر من لسانه وقلبه ويده ومن صعب عليه منه شيء يرحل به إليّ. وإن عسرت حركته أو تعذرت يرجع به إلي، ونجيبه في الوقت بحول الله تعالى. والاستقامة هي رأس العمل مع العلم، وزوال الكسل والمَلَل. واعلم أن الشقي هو الذي ذهب شبابه بلذته، وارتهنه بتبعته، وخلف له التأسف عليه. والسعيد هو الذي علم أن أيام الحياة حلم، والموت يقظة، وفي الحساب تفسير أضغاثه. فجد واجتهد وكره دار الفواسق حيث الظل

=

والذل والأبعاد الثلاث واللهو واللعب ولواحق اللهب، وتوجه إلى الحضرة السنية التي تبت بجحودها يدا أبي لهب.

وإياك والغفلة والتغافل فإنهما يستلان الخير ويخصصان السر. والغافل والمتغافل واحد، لأن الغافل تؤديه غفلته إلى الفساد، والمغفل يؤديه تغفيله إلى الفساد، فقد اتفقا في المحصول الذي هو الفساد.

وليس ينفع المتغافل معرفته بما تغافل عنه إذا لم يستعمل فيه ما يجب، ولا يضر العاقل جهله بما لم يعلم إذا لم يعمل فيه ما يجب، لأنهما قد اتفقا في الإضاعة، وتباينا في العلم والجهل. وعليك بالهمة الجليلة التي هي سوق لا يتبدل إما العمر كله وإما في أكثر الزمان إلى الشيء الذي هو وكل الإنسان أن يفعله في حياته والخسيسة بضد ذلك. وبالجملة: إن كان الشيء الذي تطلبه الهمة جليلاً قيل في الهمة إنها جليلة، وإن كان خسيسًا قيل في الهمة إنها خسيسة. وعليك بالسيرة الجميلة التي هي الأفعال المحمودة التي يدور الإنسان عليها في حياته ويجعل وكده أن يفعلها ويتخلق بها ويعامل بها ذاته وغيره، ويجعلها مقدمته لمقاصده الكريمة. وعليك بالصناعة الرئيسة التي هي رئيسة على الإطلاق، وهي التي تعرف أي الصناعات والعلوم ينبغي أن تكون في المدن، وأي الصناعات والعلوم ينبغي أن يبلغ المتعلم [اكتسابها] باكتساب الشيء الذي يسمى خيرًا.

واعلم أنه لابد لكل متوجه ولكل سعيد أو شقي أو غافل أو متغافل أو عالم أو جاهل من خير ما يتشوق إليه في شأنه الذي هو فيه ويطلبه، ولكنه لا يطلق الخير حقيقة، ولا يعقل إلا في الخير الذي هو سبب السعادة توجد عنده أو به أو معه أو فيه أو منه، أو إليه، أو عليه، أو عنه، أو له، ويطلع على لزوم الشرط والمشروط، مثال ذلك: الحياة شرط في العقل، والعقل شرط في العلم، والعلم شرط في العمل الصالح، والعمل الصالح شرط في الفضل، والفضل شرط في السعادة، والسعادة شرط في الكمال، والكمال شرط في الخير، والخير شرطه وأصله التخصيص، ولواحقه كثيرة هيئية وطبيعية بل العناية الإلهية خاصة.

وأنواع الخير ثلاثة: أحدها: الشيء الذي يراد لأجل ذاته ولا يراد في وقت من الأوقات لأجل غيره.

الثاني: الذي يراد ويؤثر أبدًا لأجل غيره ولا يؤثر أصلاً ولا يُراد في وقت من الأوقات لأجل ذاته مثل الأشياء المؤذية المؤلمة كشرب الدواء المر الشنيع الطعم الكريه الرائحة، فإن هذه شرور بذواتها، وخير بالإضافة إلى الانتفاع بها.

والثالث: من هذه الأشياء هو الخير بالإطلاق، فعليك به وبما بعده.

والذي حملني على إفشاء هذا السر الذي لا يظفر به في كتاب ولا سمع في معتاد خطاب ما ظهر في زماننا هذا من آراء فاسدة وأحوال سيئة، وقلة استقامة في بعض الفقراء وعدم الإنصاف في بعض الطلبة وسوء ظن العامة في الجميع مع غيره من المشار إليه ويشاور ويشار إليه، ويعول على الله لا عليه.

=

تأخُّر سليمان عن الأنبياء - عليهم السلام - وتأخر الموالي عن المماليك؛ لأن صفة العبد هي الذلة، والعجز، والافتقار، والمملوكية، وبها تقدُّمه عند الله تعالى.

كما أن صفة الرب؛ هي العزَّة، والقدرة، والغنى، والمالكية، وبها تأخَّر العبد عند الله تعالى؛ لأنه تلبَّس بلباس الذات الإلهية، ومن ثم لم يكن لأحد من الكُمَّل سوى الله تعالى؛ فأخرجوا من مُلكهم كل جليل ودقيق، ولو كان قميصًا يلبسونه؛ فلبسوه بطريق العارية، ومَن له نصاب من الصوفيه؛ يبقى إلى آخر السنة، فليس له نصيب من أنصباء أهل الفقر؛ فيبقى مع الأغنياء المتأخِّرين عن درجات السابقين.

وكان من شأن الفقراء: فقراء الكفار يدخلون النار بعد أغنيائهم بخمسمائة عام على ما ذكره الشيخ المكي في «قوت القلوب»؛ وذلك لأن لهم مشاركة لفقراء المؤمنين في صورة الفقر، فإذا كان فقر المؤمن يستدعي تعجَّله إلى الجنة قبل الغني؛ كان فقر الكافر يقتضي تأخُّره عن الغني في دخول النار.

فكان المؤمن الفقير أرفع درجة من الغني، كما يوجبه سبقه إلى الجنة، لا كما

=

وأنا أسأل الله العظيم أن يعينني على الخير ويوفقني إلى قبوله، وأسأل الواقفين على هذا الكلام أن يقبلوا عذري فيما تساهلت في تبيينه، وتسامحت في تعليمه وتثبيته، لأنني أمليته في بعض يوم على بعض الأصحاب والخاطر منقسم بالداخل إلى الخارج عني، ولم يتسع الوقت لتصفحه وتبديله.

ومن زعم أن يصل إلي ويباحثني ويطالبني فيه فأهلاً وسهلاً به.

ومن غلبت دعوته عليّ استطاعته يمهل عليه وتدفع الفائدة برفق إليه، ولسان حالي يسلم للمنصف ويسلم عليه، ولسان مقالتي يحمد الجميع ويعظم الكل.

ولقد أطلقت على الرجال في الكلام الأول ما نعلم ونتحققه أنه غير جارٍ ولا جائز عند الأكثر.

ولكنى غلبت النصيحة على السياسة والحق أحق أن يتبع، والسلام على المُنكر والمسلِّم، والعالم والمتعلم، والغالط والمتغالط ورحمة الله وتعالى وبركاته.

وسميتها لأحد أولادي بالعرض ولكافة الفقراء ولجميع من انتسب إلي بالذات والصفات فيما بالقصد الأول، ولجميع من ذكر بالقصد الثاني.

ومُعادُ التحية عليكم معشر الفقراء حيث كنتم من البسيطة، ومن العوالم الثلاثة بحسب مراتبكم من عبد الله، عبد الحق، الكثير بالقول، الواحد بالموضوع، الواجب بآنيته، الممكن بهويته، ورحمة الله تعالى وبركاته. وانظر: الرسالة الفقيرية (ص٨٢) بتحقيقنا.

زعم بعض أهل الظاهر من أن السبق في الدخول لا يستلزِّم رفع الدرجات على مَن تأخَّر؛ بل قد يكون بعض مَن تأخَّر؛ كالذين أنفقوا مالهم في وجوه الخيرات أرفع درجة ممَن سبقه في الدخول هذا كلامه؛ وهو جهل بالحقائق، ومقتضيات الآثار.

فإن النبي ﷺ: فضَّل الفقير المسبِّح على الغني المتصدِّق؛ فالغني: إن خرج عن ماله بالكلية قبل موته؛ فهو من الفقراء، وإلا فمتأخِّر عنهم، وهذا إنما بالنسبة إلى مَن لم يكن نبيًا، فأمَّا مَن كان نبيًا؛ كسليمان ؑ فتأخُّره عن الأنبياء لا يقتضي تأخُّره عن الأولياء؛ لأن مقام النبوة أرفع من مقام الأولياء، نعم يجوز أن يكون فقراء المهاجرين فوق الكل؛ تعظيمًا لمتبوعهم، وإلحاقًا لهم بدرجته في جنة عدن على ما يقتضيه الحقائق.

هذا فكما أن المؤمن الفقير أرفع درجة من المؤمن الغني؛ فكذا الكافر الفقير أخفُّ عذابًا من الكافر الغني، فدَركة الكافر الفقير فوق دركة الكافر الغني؛ فيكون دركة الكافر الغني أنزل من دركة الكافر الفقير.

ولا شك أن الإنزال دركة أشدُّ عذابًا دلَّ عليه قوله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:١٤٥].

كما أن الأعلى درجة أقوى نعيمًا، فثبت أن أهل النعيم متفاوتون في درجاتهم بحسب أعمالهم وأحوالهم، وكذا أهل الجحيم فليس مَن كفر فقط مساويًا في الدركة بمَن كفر، وقتل، وزنى، وشرب، وفعل من المحرَّمات ما لم يفعله الأول.

وعلى هذا جاء به الشرع، ولا يخدشه ما في المذهب الحنفي: من أن الكفار غير مخاطبين بالفروع، فإن ذلك بالنسبة إلى الأوامر.

وما ذكرنا بالنسبة إلى المناهي على أن أهل الحقائق قائلون: بأن الكفار مخاطبون بالفروع على أن القول بكون الكفار غير مخاطبين بالفروع قول بعض الحنفية لا كلهم على ما تقرر في محلّه.

ويجوز أن يُقال وجه التحديد في الحديث بالأربعين: إن الفقر الحقيقي إنما يتم في الأربعين؛ وهو الخروج عن الوجود بالكلية، والخلو عما سوى الله تعالى بالمدة، ومدته بالنسبة إلى هذه الأمة المرحومة، وإن كانت أربعين سنة من سنين الدنيا؛

لكنها في حكم أربعين ألف سنة من سنين الآخرة.

كما كانت مدة تخمير الطينه الآدمية أربعين ألف سنة حتى جاءت الحياة الدنيوية الصورية؛ فحصلت الحياة الأخروية للفقراء المهاجرين قبل الأغنياء بأربعين ألف سنة، كما حصلت لغيرهم من الفقراء مطلقًا بخمسمائة عام من سنين الآخرة؛ وهي نصف يوم، وأين الخمسمائة من أربعين ألف سنة؟ وبه يحصل التوفيق بين الروايتين، ويظهر فضل فقراء المهاجرين على غيرهم.

وهاهنا كلامٌ آخر متعلّق بدوام سرِّ الصحبة يعرفه أهله.

ويمكن أن يقال أيضًا أن الأربعين لها عشرات أربع، وبالأحدية تكون خمسًا، وكل عشرة إجمالاً عقدًا من عقود المئات، فالمجموع خمسمائة، فالأربعون تدور بالخمسمائة، ولذلك خصَّهما النبي ﷺ بالذكر.

ولي وجه آخر في هذا المقام هو أن المراقب الأنفسية خمس، وهي: الطبيعة، والنفس، والقلب، والروح، والسرُّ، وهي في الحقيقة ثلاث هي: القلب، والروح، والسرُّ، وبالأحدية أربع، وذلك أن الإنسان الكامل إنما يدخل الجنة بمرتبة هذه الثلاث؛ فيطرح الطبيعة والنفس في جهنم، وهما: قدما الجبار كما جاء في الحديث، فكان الخمس مشتملاً على سرِّ الأربع، وكل من الخمس في مقابلة تامة مع اسم من الأسماء الإلهية جلالية وجمالية.

والقلب متوسط بين المرتبتين التحتيتين، والمرتبتين الفوقيتين كالشمس بين الأفلاك، وهو نصف الوجود، ونصفه الآخر القالب.

القالب من حيث إنه محلُّ معرفة الله كالنور أفضل من الظلمة، كان الوجود عبارة عن القلب، وبكماله يظهر فضل الناس بعضهم على بعض، فمَن أصلحه كان كمَن أصلح الجسد كله، وكان هذا الصلاح أكمل في فقراء المهاجرين، فاستدعى الحال تقدُّمهم على غيرهم لخمسمائة عام فافهم جدًّا.

وهم وإن كانوا سابقين في الدنيا؛ لكن لمّا كان هذا السبق إلى الجنة المعجَّلة القلبية لا إلى الجنة المؤجَّلة الحسية؛ قيَّده ﷺ بيوم القيامة؛ لأن أثر السبق إنما يظهر في ذلك اليوم، وفي ذكر الخريف إشارة إلى أن ذلك زمان اقتطاف عناقيد الجنان، ووقعت اجتناء ثمرات الفردوس.

٥٢- في صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «**إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن؛ كقلب واحد يصرفه كيف يشاء**»(١)(٢):

بنو آدم مائة وخمسة وعشرون جزءًا: مائة في بلاد الهند، والباقية فيما عداها من البلاد مطلقًا كلهم في النار إلا جزءًا واحدًا هم أهل السنة، والجماعة من المؤمنين

(١) رواه مسلم (٤/٢٠٤٥)، والنسائي (٤/٤٤٣) بنحوه.

(٢) قال سيدي علي وفا: اسمع: قال الناطق المحمدي: «قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن»، والأصابع هي مبادئ، ولذلك يُقال في لغة العرب: لفلان على رعيته إصبع حسنة: أي أثر، ويريدون مبدأ الأثر، وكل ما ظهوره من نتائج الظهور الآدمي ظهورًا تولديًا خلقيًّا، فهو ابن آدم في المعنى، وقال عن آدم: «**خُلقت بيدي**»، وهما النظام الجامع للأصابع.

فدائرة الوجوب اليمين الأقوى، ودائرة الإمكان اليمين اليسرى، وذلك بما لآدم من العين الذي هو في مرآة الإمكان مثال الواجب في إحاطية الخالق لآدم بذلك على صورته هو، فظهر بذلك عالم الأسماء، وسجد لَه ملك الأرض والسماء، ولما تحقق العين المحمَّدي بالحق الذي آدم على صورته ظهر بأنه روحه وسر حياته، فسمَّى حقَّه نور السماوات والأرض، وقال كليمه لسميعه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾ [الفتح: ١٠].

ومن تحجب عنه بمثاله الآدمي تسمَّى لَه بأسماء نزوله عينًا واسطةً في تعليمه أسماء عُلاه غيبًا، وهذا هو الاسم الأكبر، والروح هو الاسم الأعظم الأول حقيقة الثاني، والثاني حقه، والاسم عين المُسمَّى، والباء الداخلة عليه في قوله: ﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ [الفاتحة: ١]، إما زائدة يتم المعنى مع حذفها فيكون اسم خبر مبتدأ محذوفًا تقديره: أنا، أو نحو هذا، أو للسبب، فالتقدير: استفتح، أو ابتدئ، أو استفتاحي، أو ابتدائي، أو نحو هذا فكلٌّ صحيح، فهو عين.

(الله): وجوده الإحاطي بعلمه وحياته.

(الرحمن): وجوده العقلي الروحاني.

(الرحيم): وجوده الفعلي النفساني، ومن خزائن الأول أفاض خلع المعارف، ومن خزائن الثاني أفاض خلع الحكم، ومن خزائن الثالث أفاض خلع الأحكام وفيضه، بيديه كشفه وبيانه على القوابل الفهمية تبيينًا، وعلى القوابل الفعلية تكوينًا، فعلم فكوَّن، فعلم فردَّ الكون إلى أصله، فتأويل تكوينه في تنـزيل تبيينه، فمن نفر من حجابه الجاني سمعه وقال: ﴿**إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً**﴾ [الجن: ١، ٢].

وفيه إشارة إلى كثرة أفراد الجلال، وقلة أفراد الجمال؛ لكن لَمَّا كان المقصود الأعظم: ظهور الإنسان الكامل، وبروز الخلافة الإلهية؛ كان الواحد في كل عصر من الكُمَّل كألف من غيرهم، وذلك من باب الغيرة الإلهية؛ لأن الجمال الإلهي لا ينبغي أن يراه إلا أولو الأبصار.

والمراد بالأصابع: الصفات الإلهية؛ كالقدرة، والإرادة، والقدرة ونحو ذلك، وأُضيفت إلى الرحمن لا إلى الاسم الله؛ إمَّا لأنهما بمعنى واحد في الحقيقة كما دلَّ عليه قوله تعالى: **﴿قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾** [الإسراء:١١٠].

فالرحمة الظاهرة في الرحمن باطنة في الجلالة، والجلال الظاهر في الجلالة باطن في الرحمن.

وإمَّا لأن تقليب القلوب من باب الرحمة، وإن كان في صورة الغضب؛ لأن مآل الغضب إلى الرحمة، فكم من مبتلى ابتلاؤه عين الرحمة في حقه؛ لأنه به يعرف قدر العافية، وفي حق غيره؛ لأنهم يعتبرون به.

وكم من معافٍ عافيته عين الغضب في حقه؛ لأنها تكون استدراجًا له، وفي حق غيره إن كانوا من أهل الابتلاء؛ إذ به يردُّون الأقضية الإلهية، ويعترضون على الله تعالى في أحكامه الأزلية المبرمة.

والإصبعان: الصفتان المتضادتان من الهداية، والإضلال، والرحمة، والغضب، والإكرام، والإهانة، والإعزاز والإذلال، وغير ذلك.

وبذلك يتحوَّل العبد من حال إلى حال: مرة من الحالة الحسنة اعتقادًا وعملاً إلى الحالة السيئة اعتقادًا وعملاً, وأخرى بالعكس، وإليه الإشارة بقوله تعالى: **﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾** [الأنفال:٢٤].

فإنه إذا كان حائلاً بينه وبين قلبه؛ كان أقرب إليه منه، فيفعل ما يفعل من التصريفات على ما يقتضيه استعداده الأزلي، الغير المجعول التابع له الحكمة الإلهية، فتصريفه إياه من حال إلى حال: أي حال كان عدلاً محضًا من الله تعالى؛ فإن الله تعالى ليس بظلام للعبيد.

فمَن وجد خيرًا؛ فليحمد الله، ومَن وجد خلافه؛ فلا يلومن إلا نفسه، فالكل يجري على القضاء الأزلي، والسر القدري لا يقدر أن يخالف ذلك؛ ولكون فهمه من الغوامض؛ مُنع العامة من بحث القدر؛ بل الخواص أيضًا، وإن كانوا قد فهموا ذلك؛ لأن البحث عنه يفضي إلى تعطيلات فاسدة، ثم إنه تعالى شبَّه تقلب القلوب كلها مع كثرتها بتقليب قلب واحد، لِما يقتضيه سر الحقيقة، فإن العين واحدة، والكثرة إنما هي باعتبار التعينات الخارجية.

فكما أن أنوار الشمس وأشعتها لا تتجزَّأ إلا باعتبار الكُوى والمنافذ؛ فكذا نور الوحدة، ومنه يعلم سرَّ قوله تعالى: **﴿وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾** [البقرة:٢٥٥]، وقوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾** [فاطر:٤١] ونحوهما.

وإضافة المشيئة إلى نفسه كما في قوله تعالى: **﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾** [الإنسان:٣٠]؛ لأن الحقيقة الإلهية الظاهرة في كل فرد من أفراد الكائنات هي الفاعلة المؤثرة.

وأمَّا المشيئة من وجهة القوائل؛ فتابعة لتلك المشيئة الذاتية، فعليك بالفهم التام من غير زيغٍ وضلال.

٥٣- **في الصَّحيحين**: اتفقا على الرواية: عن أنس ﷺ قال:

«قدم قوم من أهل اليمن إلى رسول الله ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجلاً أمينًا حق أمين حق أمين يُعلِّمنا الإسلام والسنة، فأخذ ﷺ يد أبي عبيدة بن الجراح فقال: إن لكل نبي أمينًا»(١):

: أي في الدين والدنيا ميراثًا له من ذلك النبي؛ لأن النبي أمين في الوحي؛ كملك الوحي كما قال تعالى: **﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ*عَلَى قَلْبِكَ﴾** [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

والأمين لا ينـــزل إلا على الأمين، ولا بد لكل كمال من مظهر تام له، وهو واحد من أفراد الأمة والأمانة من كمالات الأنبياء عليهم السلام كغيرها من الصفات الجليلة.

---

(١) رواه البخاري (١٥٩٢/٤)، ومسلم (١٨٨٢/٤) بنحوه.

وقوله ﷺ: «**وإن أميننا**»: أي الثقة بين أظهُر هذه الأمة بحيث لا يُدانيه أحد من أحادها في هذا المعنى كما دلّ عليه قوله: «**أيتها الأمة**»[(١)]: أي متخصصًا من بين أفراد هذه الأمة؛ فنصبه على الاختصاص؛ والمراد به الأمين نفسه؛ وهو أبو عبيدة بن الجراح، كان ذلك اختصاصًا إلهيًا له زائدًا على أمانة غيره ؛كصدق الصدِّيق، وعدل عمر، وحياء عثمان، وشجاعة عليّ رضي الله عنهم.

فقول الترمذي: تخصيصه؛ لكون الأمانة غالبة فيه بالنسبة على سائر صفاته لا أن أمانته كانت غالبة على أمانة غيره فيه رمد وعلّة؛ بل الصحيح: ان الأمانة، وإن كانت مشتركة بينه وبين غيره من الصحابة؛ لكن تخصيصه بتوصيفه بها؛ لغلبتها فيه بالنسبة إلى غيرهم، دلّ عليه قوله: (**أمينًا**): فإن المراد به الأمين الكامل من بين أمناء الأمة؛ بل صرَّح به قوله: (**أيتها الأمة**)؛ فإن المراد: إن عبيدة بن الجراح بكمال مختص تلك الصفات من بين الأمة لا بالنسبة إلى سائر صفات نفسه.

نعم قد يكون الكمال إضافيًا بالنسبة إلى نفس الكامل أيضًا، كما قالوا: إن الصديق رضي الله عنه كان الغالب في نشأته هو المعرفة[(٢)] الإلهية مع وجود سائر الصفات

(١) رواه البخاري (١٣٦٩/٣)، ومسلم (١٨٨١/٤).

(٢) قال سيدي مصطفى البكري: المعرفة ثلاثة أقسام: معرفة عوام، وخواص، وخواص الخواص.
فالأولى: معرفة ما يجب وما يجوز وما يستحيل في حقه تعالى، وكذلك في حق رسله، وهذه واجبة على كل مكلفٍ؛ لئلا يشتبَّه عليه الحال فيقع في الخيال، وليسلم من ورطة التقليد في التوحيد.
قال صاحب الجوهرة: إذ كل من قلد في التوحيد إيمانه لم يخل عن ترديد، وكل من طلب الثانية و لم يحكم الأولى كان جاهلاً بالله؛ فإنها أولى وأولى، ويجب على صاحب هذه المعرفة أن يطلب العلم الواجب في حقّه؛ ليكون ممن يعبد الله على بصيرة، وإلا كان ما يهدم أكثر مما يبني.
ففي الحديث: «ركعتان من عالمٍ أفضل من سبعين ركعة من غير عالم».
والعالم العامل هو الورع المشار إليه بحديث: «ركعتان من رجلٍ وَرِعٍ أفضل من ألف ركعة من مخلطٍ». رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس. وإلا فمع الجهل أين الورع.
والثانية: معرفة آثار الأسماء والصفات، وظهور أنوار تلك الآثار في القلب؛ ليخلص صاحبه من الآفات، وطريقها تسير الأوقات بالعبادات، وتزكية النفس وترك المخالفات، والجلوس على بساط الفقر والانكسار، وشغل القلب بمراقبة العزيز الغفار، والاقتداء بأستاذٍ شهدت بصحة عقيدته وكماله =

العارفون، وأقرَّت بحسن منازلاته ومواجيده الواصلون، ليسلك به مقام التعلق، ويرقيه إلى التحقق، ويوصله إلى التخلق، وهناك يدرك الأسرار بطريق المنازلة والذوق، ويأكل لا من تحت الأرجل بل من فوق، وطريق التصوف عند السادة الصوفية، كله تخلق بالأخلاق المصطفوية، فمن زاد تخلقه زاد تصوفه، والتخلق يحتاج إلى السلوك، وهو يفتقر إلى المرشد العارف.

قال الشعراني ﷺ في الميزان: أما سلوكك بغير شيخٍ فلا يسلم غالبًا من الرياء والجدال والمزاحمة على الدنيا، ولو بالقلب من غير لفظٍ، فلا يوصلك إلى ذلك، ولو شهد لك جميع أقرانك بالقطبية فلا عبرة بها.

وقد أشار إلى ذلك الشيخ محيي الدين في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات فقال:

(من سلك الطريق بغير شيخٍ ولا ورعٍ عمَّا حرَّم الله فلا وصول له إلى معرفة الله تعالى المعرفة المطلوبة عند القوم ولو عبد الله تعالى عمر نوح ﷺ).

ثم إذا وصل العبد إلى معرفة الله تعالى فليس وراء الله مرمى ولا مرقى بعد ذلك، وهناك يطلع كشفًا ويقينًا على حضرات الأسماء الإلهية، ويرى اتصال جميع أقوال العلماء بحضرة الأسماء، ويرتفع الخلاف عنده في جميع مذاهب المجتهدين؛ لشهود اتصال جميع أقوالهم بحضرة الأسماء والصفات، لا يخرج عن حضرتها قول واحد من أقوالهم.

وهذه المعرفة نتيجة التخلي عن الأخلاق الذميمة، والتحلي بالأوصاف الكريمة، فأثمرت التجلي بالأسرار العظيمة، وفي الحديث: «الأخلاقُ مخزونةٌ عند الله تعالى، فإذا أراد الله تعالى بعبدٍ خيرًا منحه منها خلقًا».

وقال ﷺ: «إنما بُعثتُ لأُتمم مكارم الأخلاق».

قال صاحب عوارف المعارف: فالصوفية راضوا نفوسهم بالمكابدات والمجاهدات حتى أجابت إلى تحسين الأخلاق، فنفوس العباد أجابت إلى الأعمال وجمحت عن الأخلاق، ونفوس الزهَّاد أجابت إلى بعض الأخلاق دون البعض، ونفوس الصوفية أجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها).

والثالثة: معرفة كنوز أسرار الذات العليَّة، وهذه المعرفة خاصة بأكابر المحققين من الأولياء الراسخين، وقد أشرنا إلى طلب هاتين المعرفتين بقولنا في ورد السحر المُسمَّى بالفتح القدسي والكشف الأنسي، والمنهج القريب إلى لقاء الحبيب: إلهي عرفني حقائق أسمائك الحسنى، وأطلعني على رقائق دقائق معارفك الحسنى، وأشهدني خفي تجليات صفاتك، وكنوز أسرار ذاتك.

وتكلمنا على هذا التوسل في شرح الورد المُسمَّى بـــ (الضياء الشمسي على الفتح القدسي). وطريق هذه المعرفة لا يكون إلا عن محض المِنَّة، وكرامة صاحبها استقامته على نهج الكتاب والسُّنة.

=

قال أبو يزيد البسطامي قدَّس الله سرَّه: لو نظرتم إلى رجلٍ أُعطي من الكرامات حتى تربَّع في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة، ولما قصد زيارة ذلك الرجل المشهور بالزهد ودخل المسجد، رمى ببصاقه تجاه القبلة، فانصرف و لم يسلِّم عليه وقال: هذا غير مأمون على أدبٍ من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأمونًا على ما يدَّعيه، فاتِّباع القدم المحمدي نعمة وأي نعمة، والزيغ عنه نقمة لا يماثلها نقمة، فإن شؤم هلاك الدين لا يعادله شؤم، نعوذ من ذلك بالله الحي القيوم.

وإذا نظرت بعين التحقيق في هؤلاء الزنادقة المنابذين لأهل الطريق لم ترَ عندهم غير شقشقة اللسان الخالية عن الدليل والبرهان، وإذا بحثت مع أحدهم أسفر وجهه عن أخلاق البغال بكلام أبرد من برد العجوز؛ لتمثله في صف النعال، ويستدلون بأدلة، كبيت العنكبوت وحجه عادت بتوالي الأيام مقطوعة الثبوت كأنها ألعاب الشمس، وهي أبعد عن الحق من أمس يتمسكون بكلام السكارى، ويحتجُّون بأقوال الحيارى، مع أن الصحاة إذا خالفوا نص الشارع لا يعول على كلامهم، ولا يلتفت بعد وجود الحق الصراح لما يضاده من أفهامهم، اللهم إلا أن يكون فهمًا لا يعارض نصًّا، ولا يوجب في مقام قائله نقصًا.

هذا مع أن تلك الشطحات مؤولة، وعن مؤدي اللفظ الظاهري إلى ما يليق محولة، ولهم كتبٌ في الألفاظ المصطلح عليها كثيرة، فكيف يفهم من لم يدرِ رموزهم العسيرة، وضعوها غيرةً على الأسرار أن تُذاع لدى الأشرار.

قال سيدي الشيخ عبد الغني، حفظ الله وجوده، ورزقه العيش الهنيء في رسالته المُسمَّاة بـــ«إيضاح المقصود في معنى وحدة الوجود»:

والحاصل أن جميع علماء الظاهر لا حق معهم في الطعن على القائلين بوحدة الوجود من المحققين العارفين، القائلين بذلك على وجه الحق والصواب كما ذكرنا، أما القائلين بوحدة الوجود من الجهلة الغافلين والزنادقة الملحدين، الزاعمين بأن وجودهم المفروض المقدر هو بعينه وجود الله تعالى، وذواتهم المفروضة المقدرة هي بعينها ذات الله تعالى، وصفاتهم المفروضة المقدرة هي بعينها صفات الله تعالى، الذين يحتالون بذلك على إسقاط الأحكام الشرعية عنهم، وإبطال المِلَّة المحمدية، وإزالة التكليف عن نفوسهم، فالطعن عليهم بسبب القول بوحدة الوجود على هذا المعنى الفاسد طعن صحيح، وعلماء الظاهر مثابون بذلك كمال الثواب من الملك الوهَّاب، والعارفون المحققون في هذا الطعن من غير خلافٍ قد أشار إليهم الشيخ عبد الكريم الجيلي، قدَّس الله سرَّه، في كتابه المُسمَّى شرح الخلوة في أوائله من الوصايا حيث قال:

=

=

(يا أخي.. قد سافرت إلى أقصى البلاد، وعاشرت أصناف العباد، فما رأت عيني ولا سمعت أذني أشر ولا أقبح ولا أبعد عن جناب الحق تعالى من طائفة تدَّعي أنها من كُمَّل الصوفية، وتنسب نفسها إلى الكمَّل وتظهر بصورهم، ومع هذا لا تؤمن بالله ورسله ولا باليوم الآخر، ولا تتقيَّد بالتكاليف الشرعية، وتقرر أحوال الرسل وما جاءوا به بوجهٍ لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، فكيف من وصل إلى مراتب الكشف والعيان، ورأينا منهم جماعة كثيرة من أكابرهم في بلاد أذربيجان وشروان وجيلان وخراسان، لعن الله جميعهم.

فالله الله يا أخي.. لا تسكن في قرية فيها واحد من هذه الطائفة؛ لقوله تعالى:

﴿وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥]، وإن لم يتيسر لك فاجتهد ألا تراهم ولا تجاورهم، فكيف أن تعاشرهم وتخالطهم، وإن لم تفعل فما نصحت نفسك، والله الهادي).

وقال الجنيد ﷺ لرجلٍ ذكر المعرفة وقال: (أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرُّب إلى الله تعالى): إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندي عظيم، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها.

وقال ﷺ: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر رسول الله ﷺ.

وقال ﷺ: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الأمر؛ لأن علمنا هذا مقيَّدٌ بالكتاب والسُّنة.

وقال ﷺ: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات.

وقال ﷺ: رأيت في المنام أني أتكلم على الناس، فوقف عليَّ ملكٌ فقال: ما أقرب ما تقرَّب به المتقربون إلى الله تعالى؟ فقلت: بعملٍ خفيٍّ بميزان، وفي قولي وهو يقول: كلامٌ موفقٌ والله، وقيل له: من أين استفدت هذا العلم؟ فقال: من جلوسي بين يدي الله تعالى ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة، وأومأ إلى درجةٍ في داره.

ورُئي في يده سبحة فقيل له: أنت مع شرفك تأخذ في يدك سبحة، فقال: طريق وصلت به إلى الله تعالى لا أفارقه، وكان يدخل كل يومٍ حانوته ويسبل الستر، ويصلِّي أربعمائة ركعة ثم يعود إلى بيته، كذا في الرسالة القشيرية.

فانظر يا أخي بعين الإنصاف إلى حال هؤلاء الزنادقة، وما هم عليه من سوء الاعتقاد مع ادِّعائهم المعرفة بالله تعالى التي هي أعز منالاً من بيض الأنوق ومن مناط العيوق، وحال السلف الصالح تجد

=

أيضًا، كما شهد به النبي ﷺ.

وكان الغالب في نشأة الفاروق ﷺ هو الشريعة؛ ولذا اُشتهر بالعدل، ولم يزل يمشي مع الدرة، ومن المعلوم انه من أرباب الكرامات والحالات أيضًا، سمع كلامه سارية من مسافة شهر، وهو على المنبر النبوي يوم الجمعة.

وكذا كان الغالب في نشأة ذي النورين هو الطريقة؛ ولذا كان مشغولاً بالصيام والقيام وتلاوة القرآن إلى أن قبضه الله على المصحف؛ وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:١٣٧].

ومن المحال: أن يكون من عظماء الصحابة وخواصهم من غير أن يكون وجوده المحيط جامعًا للكمالات كلها.

وكذا الغالب في نشأة المرتضى كرَّم الله وجهه الحقيقة، وذلك يقتضي أن يكون كاملاً أيضًا في مرتبة الشريعة والطريقة والمعرفة، فإن باب الحقيقة لا يُفتح إلا

=

بينهم من البون كما بين النور والظلام، والعلم والجهل التام.

فإن القوم تخلّقوا وهؤلاء تشدَّقوا، وأولئك اتَّبعوا وهؤلاء ابتدعوا، وأولئك على الحق ائتلفوا وهؤلاء اختلفوا، والقوم ساروا وما وقفوا وهؤلاء وقفوا وتخلفوا، أجمع أهل الحق على اتِّباع الشريعة فخالفوهم، وعلى مخالفة الشيطان وجنوده فحالفوهم، وقد قلت سابقًا محذرًا من هذه الطائفة التي عليها دوائر السوء دائرة وبها طائفة.

ولا بدَّ من معرفة الأخلاق الحسنة كالتقوى والزهد والورع ونحو ذلك واستعمالها، ومعرفة الأخلاق السيئة كالحسد والحرص والرياء ونحوها واجتنابها، ثم الدوام على ذلك من غير تحولٍ عنه، ومطالعة مواجيد العارفين من أهل الكمال، والاقتباس من أنوارهم، والمشي على طريقتهم مع محبتهم، وتحسين الظن بهم وبكلامهم نثرًا ونظمًا، وإساءة الظن بنفسه إذا لم يفهم شيئًا من مواجيدهم الإيمانية لكمالهم ونقصانه، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم). وانظر: السيوف الحداد (ص ١٥) بتحقيقنا.

على أهل العمل الصالح، والسالك المتقّي الكامل في سيره؛ ولكن كان في باب الحقيقة أكمل، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾ [البقرة:١٥٣]؛ هي في صفات الكمال النوعي.

فميزان الوجود لا يخلو عن الترجُّح بوجه من الوجوه ما خلا وجود نبينا ﷺ، فإنه منبع الكمالات، ومصدر التجليَّات، وفي وجوده الظاهر، وقواه الباطنة، وحالاته المستورة من الاعتدال التام، والتسوية الكاملة ما لم لأحد غيره من العالمين، ولا يكون أبدًا؛ فإنه مركز العالم، ومداره ظاهرًا وباطنًا، وحكم وجوبه وإمكانه على الاعتدال في الغاية، كما يُنبئ عنه شرح صدره، فإنه كان مع الحق ومع الخلق جميعًا في حالة واحدة لم يترجَّح حاله بأحدهما على حاله بالاخر، فهو الجامع، وهو الأول الاخر، وهو الظاهر الباطن، وهو الحق الخلق، وهو الفاتح الخاتم، وهو المبدأ، وإليه المصير.

قال الله تعالى في آل عمران: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

٥٤- **في الصحيح**: قال رسول الله ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها**»(١):

أشار بالقبور إلى أبدان مَن مات بالاختيار قبل الموت بالاضطرار.

ما ورد أيضًا: «**إذا تحيَّرتم في الأمور، فاستعينوا من أهل القبور**»(٢).

فإن أغلب الأقوال فيه: هو ان أهل القبور أهل الفناء المعنوي شُبِّهت أبدانهم بالقبور، وأرواحهم بأهل القبور، والجامع الفناء.

---

(١) رواه مسلم (٦٧٢/٢)، وأبو داود (٢١٨/٣) بنحوه.

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفا (٨٨/١).

والموت المعنوي: أقوى من الموت الصوري، ولذا لا ينتقض الوضوء حال الفناء والانسلاخ بخلافه حال الموت الصوري؛ ولذا يتوضأ للموت، ويغتسل، وبخلافه حال المنام، فإنه أخرج الموت في انقطاع وضوء الروح عن ظاهر البدن، وهذا بالنسبة إلى عامة الورثة.

وأمَّا النبي ﷺ فقد قال: «**ينام عيناي ولا ينام قلبي**»(١)؛ ولذا كان يُصلِّي الفجر بعد الاضطجاع، والنوم بلا تجديد الوضوء فرقًا بين مقامه، ومقام غيره، وأمَّا غُسله بعد انتقاله، فمَن قبيل التشريع، وإلا فمنامه وموته من وادٍ واحد، فإن كلاً من روحه المطهَّر، وبدنه المنظَّف من عالم الأمر في الحقيقة لا من عالم الخلق؛ لكمال امتزاج أحدهما بالآخر.

على أن بعض أهل الإشارة قال: إن ترابه كان من تراب الجنة، فأين غيره من منـــزلته في القلب والقالب؟!

وإليه الإشارة بقوله: «**حُبب إليّ من دنياكم ثلاث**»(٢) حيث أضاف الدنيا إلى المخاطبين كأنه ليس هو من الدنيا بدنًا وروحًا؛ بل من الآخرة، فإنه لمَّا خلقه الله من نوره؛ ألبسه الهيئة المحمَّدية؛ فتلك الهيئة اللطيفة النورانية تعيَّنت بتعيُّن أخر لطيف روحاني؛ فصارت صورة محمَّدية.

ومن كمال نورانيته، وروحانيته، ونهاية لطافته وحسنه قال: «**أنا أملح**»(٣)؛ فصار هو الحسن كله تصوَّر بصورة أحمدية؛ وهو الحميد، كما أنه الجليل؛ وهو المليح، كما أنه الحسن، إذ ليس كل حسن مليحًا، فإن الملاحة أمر وراء الحسن يحصل من اجتماع الأسباب، والأسماء، ولا ينتبه له كل ناظر، ولبيب.

ثم الوجه في التصفِّي أولاً، والأذن ثانيًا، وهو أن المحجوب وأهل البداية لا سيما العوام لا يعرفون كيفية الاستعانة، ولا يهتدون إلى وجه الاستمداد، وإذا دخلوا على أهل القبور سواء كانوا أحياء في الدنيا، أو منتقلين إلى الآخرة فربما غلب عليهم

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) لم أقف عليه.

الإلحاد، وسوء الاعتقاد، فخلطوا الأمر؛ فظنوا العبد رب العبد، وهذا باطل في الحقيقة.

فإن الرب رب، والعبد عبد، وإنما التأثير من الله تعالى سواء كان في صورة العبد، أو بلا واسطة؛ فإن كل كمالٍ فهو إنما يرجع إلى الله تعالى لا إلى العبد، وإنما العبد مظهر ذلك، المظهر غير الظاهر، وإن كان حقًا بحسب حاله ومقامه، كما دلَّ عليه قول بعض الأكابر: إنما الكون خيال، وهو حق في الحقيقة؛ كالظل فإن له وجوداً حسيًا، وإن كان دون وجود ذي الظل؛ لأنه وجود حقيقي بالنسبة إليه.

وأمَّا المنتهى: فيرجع في الزيارة والدعاء إلى الحقيقة، فيراعي المراتب؛ فيكون في الدعاء، والزيارة فائدة له، وقوة لدينه، وزيادة وبركة لعمره ودنياه، ولأجل الصعوبة في زيارة قبور الأولياء، وتردُّد بمجالسهم ومحاضرهم على وجه السنة، والحقيقة أكبَّ علماء الظاهر على تنفير الناس من الزيارة؛ لكن الله تعالى قال: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، فالوجه الفرق بين الموحِّد، والمشرك، والعارف، والجاهل(١).

---

(١) قال الشيخ حسن العدوي: اعلم أن حكم الزيارة الأصل فيه الندب وذلك للرجال، ويُحرَّم للشواب من النساء، ويجوز للقواعد اللاتي لا أرب للرجال فيهن.

قال الأستاذ الشيخ عبد الباقي على خليل: وأخذ بعضهم اختصاص الزيارة بالرجال دون النساء من قوله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها» بناءً على الأصح عند الفقهاء والأصوليين من عدم دخولهن في خطابهم قال: انتهى.

قال: والأحسن الاستدلال على منعهن بخبر: «ارجعن مأزوات غير مأجورات»، قال: وهذا في الزمن القديم فكيف بهذا الزمن كما في المدخل انتهى.

لكن قال العلاّمة الأمير: قوله: والأحسن..إلخ فيه أن هذا الحديث في خروجهن خلف الميت، وقد قيل أنه منسوخ خاص بأول الزمن من حيث كن يخرجن يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى انتهى.

قال في المواهب اللدنية: قد أجمع المسلمون على استحباب زيارة القبور كما حكاه النووي قال: وأوجبها الظاهرية، قال: ومحل الإجماع على استحباب زيارة القبور للرجال، وفي النساء خلاف الأظهر في مذهب الشافعي الكراهة انتهى.

=

فعليك بما سمعته من التفصيل، ويؤيده رواية الإمام البخاري عن أبي يعلى قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة، فرأى نسوة فقال: أتحملنه؟ قلن: لا، قال: أتدفنه؟ قلن: لا، قال: فارجعن مأزورات غير مأجورات».

قال شارحه القسطلاني: واستفهامه ﷺ منهن إنكاري وتوبيخ على خروجهن انتهى.

وأما زيارتهن للقبور فمستحبة لغير الشواب منهن، ما لم يلزم على ذلك اجتماع على القبر لتعديدٍ أو نوحٍ وإلا حُرِّم.

ويدل لذلك ما أخرجه الإمام البخاري قال: «مرَّ النبي ﷺ بامرأةٍ تبكي عند قبرٍ، فقال: اتقي الله واصبري، قالت: إليك عني فإنك لم تصب مصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك يا رسول الله، فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى».

قال الإمام القسطلاني: زاد في رواية يحيى: «فسمع منها ما يكره» قال: أي من نوح أو غيره على القبر، وزاد في رواية مسلم: «قيل لها: هل تعرفينه؟ قالت: لا، فقيل لها: هو رسول الله ﷺ، فأخذها مثل الموت من شدة الكرب الذي أصابها لما عرفت أنه رسول الله ﷺ»، قال: وإنما اشتبه عليها ﷺ؛ لأنه من تواضعه لم يكن يستتبع الناس وراءه إذا مشى كعادة الملوك والكبراء انتهى.

فأنت تراه ﷺ إنما أمرها بالتصبّر والاحتساب، ونهاها عن البكاء، ولم ينهها عن الزيارة.

وقال العلاّمة المذكور: يندب لهن زيارة قبور الأنبياء والأولياء لرجاء الخير والبركة انتهى.

قلت: والأظهر تقييد هذا بغير الشواب اللاتي يخشين من خروجهن الفتنة، ويدل لهذا التقييد قول العلاّمة المذكور في شرحه على البخاري: أن ما ورد من الأمر بالزيارة محمول على الندب بالنسبة للرجال، وأما الشواب من النساء فالظاهر الحرمة.

قال: وعليه يحمل حديث الإمام الترمذي: «لعن الله زوّارات القبور».

قال: وقال القرطبي: يحتمل أن الحرمة منصبة على الكثرة أخذًا من قوله: زوارات للمبالغة، وحمل بعض الشُّراح ذلك على زيارتهن للتعديد والبكاء والنوح على ما جرت به عادتهن.

قال الشارح القسطلاني المذكور: ولو قيل بالحرمة في حقهن في هذا الزمان لا سيما نساء مصر لما في خروجهن من الفساد لم يبعد انتهى.

وقوله: البكاء: أي برفع صوت، وأما مجرد حزن وسيلان دمع فلا كراهة ولا منع؛ لما ذكره الإمام القسطلاني عن الإمام الترمذي: «دخل رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون وهو ميتٌ فأكبَّ وقبَّله وبكى حتى سالت دموعه على وجنتيه».

=

وفي روايةٍ عنه ﷺ: «إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا وأشار إلى لسانه أو يرحم، وإن الميت يُعذَّب ببكاء أهله عليه: أي إن أوصاهم بذلك» انتهى.

قال الإمام القرطبي: قال العلماء: ليس للقلوب أنفع من زيارة القبور لا سيما إن كانت قاسية، وذلك لما فيه من مزيد الاعتبار والتأمل فيما صار إليه أمرهم.

قال في كنــز الأسرار: وما زال على ذلك أهل الفضل واليقين.

وقد كان النبي ﷺ نهى عن زيارة القبور ثم نسخ النهي، وأمر بعد ذلك بالزيارة لقوله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تزهدكم في الدنيا وتذكركم الآخرة».

وفي روايةٍ للطبراني في التفسير عن زيد بن ثابت: «زوروا القبور ولا تقولوا هجرًا: أي قولاً باطلاً»، وكلاماً لا يعني بل المقصود الاشتغال بالاعتبار والتأمل والتدبر في أحوال الآخرة، ولا ينبغي الاشتغال بغير ذلك من أكلٍ وخلافه، كالضحك مما ينافي التدبر المطلوب.

وفي الحديث قال العَلاَّمة الأجهوري: رُوي من حديث أبي هريرة ﷺ: «أن النبيَّ ﷺ خرج إلى المقبرة وقال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، فنسأل الله لنا ولكم العافية».

قال: وعن ابن عبد البر بسندٍ صحيحٍ: «ما من أحدٍ يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام».

وورد أن النبيَّ ﷺ زار قبر أمه وقبر عثمان بن مظعون.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مرَّ النبي ﷺ بقبور المدينة فأقبل عليها وقال: السلام عليكم يا أهل القبور، يغفر الله لنا ولكم، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع، نسأل الله لنا ولكم العافية، أنتم سلفنا ونحن بالأثر» انتهى.

وفي الشيخ عبد الباقي: وأخرج بن أبي شيبة عن الحسن قال: من دخل المقابر فقال: اللهم رب هذه الأجساد البالية والعظام النخرة التي خرجت من الدنيا، وهي بك مؤمنة، أدخل عليها روحًا منك وسلامًا مني، استغفر له كل مؤمنٍ مات منذ خلق الله آدم»، وأخرجه ابن أبي الدنيا بلفظ: «كُتب له بعدد من مات من ولد آدم إلى أن تقوم الساعة حسنات» انتهى.

قال: وظاهر الأول استغفار من لم يدخل مقبرته أيضًا، وظاهر الثاني العموم في عددهم أيضًا.

قال العلاَّمة الأمير: قوله: ابن أبي شيبة هو من مشايخ البخاري، وقوله: روحًا منك بفتح الراء: أي رحمة، قال تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٩] انتهى.

=

وفي الحديث عنه ﷺ: «من زار قبري وُجبت له شفاعتي»، وفي رواية: «من زارني بالمدينة محتسبًا كنت له شفيعًا وشهيدًا يوم القيامة».

ومعنى وجوب الشفاعة للزائر ثبوت شفاعة خاصة منه ﷺ لذلك الزائر لا دخوله في العموم، وهذا يستلزم البُشرى بالموت على الإيمان، ولا يخفى ما في الإضافة من تمام التشريف، فإن الشفاعة تعظم بشرف الشافع.

وفي رواية للبيهقي: «من مات في أحد الحرمين بُعث مع الآمنين يوم القيامة، ومن زارني محتسبًا إلى المدينة كان في جواري يوم القيامة»، ويجب على الزائر تمام الأدب عند قبره الشريف ﷺ فإنه حيٌّ يشاهده.

قال العلاَّمة السبكي: حياة الأنبياء والشهداء في القبر كحياتهم في الدنيا، يشهد لذلك صلاتهم في قبورهم، فإن الصلاة تستدعي جسدًا حيًّا، وكذلك الصفات المذكورة للأنبياء ليلة الإسراء كلها صفات الأجسام، ولا يلزم من كونها حياة حقيقية أن تكون الأبدان معها كما كانت في الدنيا من الاحتياج للطعام والشراب، وأما الإدراكات كالعلم والسمع فلا شك أن ذلك ثابت لهم ولسائر الموتى انتهى.

وظاهر عبارة المحقق المذكور تقتضي مساواة الشهداء للأنبياء في حياتهم في البرزخ، والذي ذكره في الجواهر أن حياة الأنبياء في البرزخ أقوى وأكمل من الشهداء، ونصُّه لا شك أن حياة الأنبياء في البرزخ أكمل من حياة الشهداء مع اعتقادنا ثبوت نحو السمع والبصر لكل ميت، وعود الحياة له، كما ثبت نعيمُ القبر في السُّنة وعذابه، وإدراكهما مشروط بالحياة لكن يكفي حياة جزء يقع به الإدراك ولا يتوقف على الحياة البينة، نعم الظاهر من الأدلة أن حياة الشهداء أقوى من حياة الأولياء، وإذا علمت ذلك فيجب عليك حينئذ أن تكون في غاية الأدب عند زيارته ﷺ، خافضًا لصوتك، وجلا حزينًا على ذنوبك.

وفي الشفاء بسند جيد عن ابن حميد قال: ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين الإمام مالكًا ﷺ في مسجد رسول الله ﷺ فقال مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد؛ فإن الله تعالى أدَّب قومًا فقال: **﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾** [الحجرات:٢]، ومدح قومًا فقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾** [الحجرات:٣]، وذمَّ قومًا فقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾** [الحجرات:٤]، وإن حرمته ميتًا كحرمته حيًّا، فاستكان لها أبو جعفر وقال: يا أبا عبد الله أأستقبل القبلة وأدعو أم استقبل وجه رسول الله ﷺ؟ فقال: ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو

وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله تعالى، بل استقبل واستشفع به قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ [النساء:٦٤] انتهى.

وقوله: (وهو وسيلة أبيك آدم) ظاهر لما صحح الحاكم عنه ﷺ لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد ﷺ لما غفرت لي: أي ألا غفرت، فقال: يا آدم كيف عرفت محمدًا و لم أخلقه؟ قال: يا رب لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبًا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فعرفت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، قال تعالى: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إِلَيَّ إذ سألتني بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك، فهو ﷺ رحمة لكافة الخلق لا سيما لأمته في حياته وبعد مماته، كما في الحديث عنه ﷺ: «حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم، ومماتي خير لكم تُعرض عليَّ أعمالكم، فما رأيت من خيرٍ حمدت الله تعالى عليه، وما رأيت من شرٍّ استغفرت الله لكم».

والذي عليه الاعتماد والتحقيق أن الأنبياء أحياء في قبورهم، وأن النبيَّ ﷺ يسر بطاعة أمته، وينبغي للزائر مزيد التوسل به ﷺ في إقالة ذنوبه وعثراته، كما كان يتوسل به في حياته.

قال في المواهب اللدنية: اعلم أن زيارة قبره الشريف ﷺ من أعظم القربات وأرجى الطاعات والسبيل إلى أعلى الدرجات، إلى أن قال: وينبغي لمن قصد زيارة قبره الشريف أن ينوي مع ذلك زيارة مسجده الشريف والصلاة فيه؛ لأنه أحد المساجد الثلاثة التي لا تُشَد الرحال إلا إليها، وهو أفضلها عند مالك إلى أن قال: وينبغي لمن أراد الزيارة أن يكثر من الصلاة والتسليم عليه ﷺ في طريقه، فإذا وقع بصره على معالم المدينة الشريفة وما تعرف به فليردد الصلاة والتسليم عليه ﷺ، وليسأل الله أن ينفعه بزيارته ويسعده بها في الدارين، وليغتسل ويلبس النظيف من ثيابه ماشيًا باكيًا، قال: ولما رأى وفد عبد القيس رسول الله ﷺ ألقوا أنفسهم عن رواحلهم و لم ينيخوها، وسارعوا إليه فلم ينكر ذلك عليهم صلوات الله وسلامه عليه، قال: ولما وقع بصري على القبر الشريف والمسجد المنيف فاضت من الفرح سوابق العبرات حتى أصابت بعض الثرى والجدران، **قال:** ويستحب صلاة ركعتين قبل الزيارة.

قال: قيل: وهذا ما لم يكن مروره من جهة وجهه الشريف، وإلا استحبت الزيارة أولاً.

قال في تحقيق النصرة: هو استدراك حسن، قال: ورخص بعضهم تقديم الزيارة مطلقًا.

قال: قال ابن الحاج: وكل ذلك واسع، قال: وينبغي للزائر أن يستحضر من الخشوع ما أمكنه، وليكن مقتصدًا في سلامه بين الجهر والإسرار.

=

وفي البخاري أن عمر ﷺ قال لرجلين من أهل الطائف: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما ضربًا، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ، قال: فيجب الأدب معه ﷺ كما في حياته.

قال: وينبغي للزائر أن يتقدم إلى القبر الشريف من جهة القبلة، وإن جاء من جهة رجلي الصاحبين فهو أبلغ في الأدب من الإتيان من جهة رأسه المكرم، ويستدبر القبلة ويقف قبالة وجهه ﷺ بأن يقابل المسمار الفضة المضروب في الرخام الذي في الجدار.

قال شارحه الزرقاني: وهذا المسمار وقد أُزيل الآن وصار بدله شباك من نحاسٍ أصفر يقابله الزائر.

قال القسطلاني: وقد رُوي أن مالكًا لما سأله أبو جعفر المنصور العباسي: يا أبا عبد الله أستقبل رسول الله ﷺ وأدعو أم أستقبل القبلة وأدعو؟ فقال له مالك: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله ﷻ يوم القيامة.

قال: وينبغي للزائر أن يقف عند محاذاة أربعة أذرع، ويلازم الأدب والخشوع والتواضع، غاضًّا البصر في مقام الهيبة كما كان يفعل بين يديه في حياته، ويستحضر علمه بوقوفه بين يديه وسماعه لسلامه كما هو في حال حياته؛ إذ لا فرق بين موته وحياته في مشاهدته لأمته ومعرفته بأحوالهم، ونياتهم وعزائمهم وخواطرهم، وذلك عنده جلي لا خفاء به.

قال: وقد روى ابن المبارك عن سعيد بن المسيب: ليس من يومٍ إلا ويُعرض على النبي ﷺ أعمال أمته غدوةً وعشيةً، فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم، فلذلك يشهد عليهم.

قال: ويمثل الزائر وجهه الكريم ﷺ في ذهنه، ويحضر قلبه جلال رتبته، وعلو منـــزلته، وعظيم حرمته، وإن أكابر الصحابة ما كانوا يخاطبونه إلا كأخ السرار؛ تعظيمًا لما عظم الله من شأنه.

قال: ثم يقول الزائر بحضور قلب وغض طرف وصوت وسكون جوارح وأطراف: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا نبي الله، السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك يا خيرة الله، السلام عليك يا صفوة الله، السلام عليك يا سيد المرسلين وخاتم النبيين، السلام عليك يا قائد الغر المحجلين، السلام عليك وعلى أهل بيتك الطيبين الطاهرين، السلام عليك وعلى أزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين، السلام عليك وعلى أصحابك أجمعين، السلام عليك وعلى سائر الأنبياء وسائر عباد الله الصالحين، جزاك الله أفضل ما جازى نبيًّا ورسولاً عن أمته، وصلّى الله عليك كلما ذكرك الذاكرون، وغفل عن ذكرك الغافلون، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك عبده ورسوله وأمينه، وخيرته من خلقه، وأشهد أنك قد بلّغت الرسالة، وأدّيت الأمانة، ونصحت الأمة، وجاهدت في الله حق جهاده.

قال: ومن ضاق وقته عن ذلك فليقل ما تيسر منه.

=

=

قال: وعن نافع عن ابن عمر كان إذا قدم من سفرٍ دخل المسجد، قال شارحها: أي فصلّى ركعتين ثم أتى القبر المقدس فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه.

قال القسطلاني: وينبغي أن يدعو ولا يتكلف السجع.

قال: وعن الحسن البصري قال: وقف حاتم الأصم على قبره ﷺ فقال: يا رب إنا زرنا قبر نبيك فلا تردنا خائبين، فنودي: يا هذا ما أذنًا لك في زيارة قبر حبيبنا إلا وقد قبلناك، فارجع أنت ومن معك من الزوار مغفورًا لكم، قال: وقد بلغنا أن من وقف عند قبر النبي ﷺ فتلا هذه الآية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وقال: صلّى الله عليك يا محمد حتى يقولها سبعين مرة، ناداه ملكٌ: صلّى الله عليك يا فلان، ولم تسقط له حاجة.

قال: قال الشيخ زين الدين وغيره: والأولى أن ينادي: يا رسول الله، وإن كانت الرواية يا محمد، فإن أوصاه أحدٌ بإبلاغ السلام إلى النبي ﷺ فليقل: السلام عليك يا رسول الله من فلان، ثم ينتقل عن يمينه قدر ذراع، فيُسلم على أبي بكر ﷺ؛ لأن رأسه بحذاء منكب النبي ﷺ، فيقول: السلام عليك يا خليفة سيد المرسلين، السلام عليك يا من أيّد الله به يوم الردة الدين، جزاك الله عن الإسلام والمسلمين خير، اللهم ارضَ عنه وارضَ عنا به، ثم ينتقل عن يمينه قدر ذراع فيسلم على عمر بن الخطاب ﷺ فيقول: السلام عليك يا أمير المؤمنين، السلام عليك يا من أيّد الله به الدين، جزاك الله عن الإسلام والمسلمين خير، اللهم ارضَ عنه وارضَ عنا به.

قال الإمام المذكور: ثم يرجع إلى موقفه الأول قبالة وجه سيدنا محمد رسول الله ﷺ بعد السلام على سيدنا أبي بكر وعمر، فيحمد الله تعالى ويمجده، ويصلي على النبي ﷺ، ويكثر الدعاء والتضرع، ويجدد التوبة في حضرته الكريمة، ويسأل الله تعالى بجاهه أن يجعلها توبةً نصوحًا، ويكثر من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ بحضرته الشريفة حيث يسمعه ويرد عليه.

قال: وفي الشفاء للقاضي عياض قال: «رأيت النبي ﷺ في النوم، فقلت: يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك فيسلمون عليك أتفقه سلامهم؟ قال: نعم، وأرد عليهم».

قال: ولا شك أن حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ثابتة معلومة مشتهرة، ونبينا أفضلهم، قال: وإذا كان كذلك فينبغي أن تكون حياته ﷺ أكمل وأتم انتهى.

=

أسأل الله الكريم متوسلاً إليه بوجاهة نبيه العظيم أن يعطف علينا هذا القلب الرحيم، وأن يمن علينا بزيارته مع القبول والتكريم.

وفي الإمام الترمذي والنسائي وقال: حسنٌ صحيحٌ عن عثمان بن حنيف: «أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادعُ الله أن يعافيني، قال: إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خيرٌ لك فقال: يا رسول الله، إنه ليس لي قائد وقد شق عليَّ، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد ﷺ نبي الرحمة، يا سيدنا يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيقضي لي حاجتي، اللهم شفّعه فِيَّ».

وصححه البيهقي وزاد: «فقام فأبصر».

وقد ذكر الإمام ابن حجر في «الدر المنضود» أنه ينبغي لمن وقع في شدّةٍ أو حاجةٍ طالبًا قضاءها من ذي إمارة أن يفعل ذلك فيقضي الله حاجته.

وروى أبو سعيد السمعاني عن علي ﷺ قال: قدم علينا أعرابيٌّ بعدما دفنا رسول الله ﷺ بثلاثة أيام فرمى بنفسه على قبره، وحثى على رأسه من ترابه، وقال: يا رسول الله، قلت: فسمعنا قولك، ووعيت عن الله ما وعينا عنك، وكان فيما أُنـزل عليك: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً**﴾ [النساء:٦٤]، وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي، فنودي من القبر أنه قد غُفر لك.

ومن ذلك المعنى ما ذكره الإمام العتبي قال: كنت جالسًا عند قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً**﴾ [النساء:٦٤]، وقد جئتك مستغفرًا من ذنوبي متشفعًا إلى ربي.

قال: ثم انصرف، فحملتني عيناي فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: «يا عتبة ألحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له».

ولا شك أن الزيارة يحصل بها السرور لرسول الله ﷺ، وينشأ من ذلك النفع العميم للزائر، ومما يدل لذلك ما رواه ابن عساكر بسند جيد عن أبي الدرداء في قصة بلال بن رباح، وكان مقيمًا بالشام ببيت المقدس بعد وفاة رسول الله ﷺ، فرأى النبي ﷺ منامًا وهو يقول: ما هذه الجفوة يا بلال؟ أما آن لك أن تزورني، فبات حزينًا خائفًا، فركب راحلته وقصد المدينة، فحين وصل القبر الشريف صار يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه، فأقبل الحسن والحسين فجعل يضمهما ويقبّلهما، فقالا له: نشتهي نسمع أذانك الذي كنت تؤذن به لرسول الله ﷺ في المسجد، فعلا سطح المسجد

ووقف موقفه الذي كان يقف فيه، فلما أن قال: (الله أكبر) ارتجت المدينة، فلما قال: (أشهد أن لا إله إلا الله) زادت رجتها، فلما أن قال: (أشهد أن محمدًا رسول الله) خرجت العواتق من خدورهن، وقلن: بُعث رسول الله ﷺ، فما رأينا يومًا أكثر به باكيًا ولا باكيةً بالمدينة بعد رسول الله ﷺ من ذلك اليوم»، فإذا علمت ذلك أن الزيارة وصلة مع الحبيب.

وقد وقع لبعض العارفين مخاطبته له ﷺ ورده عليه، فمد يده الشريفة من الشباك فقبَّلها، والزيارة إما ماشيًا أو راكبًا على قدر الطاقة، والمشي أفضل عند الاستطاعة؛ لقوله ﷺ: «من اغبرت قدماه في سبيل الله غُفر له»، والمراد بسبيل الله: مطلق طاعة، كما ذكر الفقهاء في السعي للعيد والجمعة، والاغبرار عادةً إنما يكون بالمشي، فهو مجاز مرسل من إطلاق المسبب على السبب، وأما أفضلية الركوب في الحج فلفعله ﷺ، وإلا فقد ورد أن الملائكة تصافح ركاب الإبل وتعانق المشاة، والله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

خاتمة تتعلق بانتقاله ﷺ لدار البقاء والتكريم، وتشريفه بخصائص الزلفى في مشهد مشاهد الأنبياء والمرسلين، وتحميده بالشفاعة والمقام المحمود، وانفراده بالسؤدد في مجمع مجامع الأولين والآخرين، وترقيه في جنات عدن أرقى مدارج السعادة، وتعاليه في يوم المزيد أعلى معالي الحسنى وزيادة.

قال في المواهب اللدنية في فصل وفاته ﷺ: اعلم وصلني الله وإياك بحبل تأييده، وأوصلنا بلطفه إلى مقام توفيقه وتسديده، أن هذا الفصل مضمونه يسكب المدامع من الأجفان، ويجلب الفجائع لإثارة الأحزان.

قال: ولما كان الموت مكروهًا بالطبع؛ لما فيه من الشدة، لم يمت نبيٌّ من الأنبياء حتى يُخيَّر، وأول ما أُعلم النبي ﷺ باقتراب أجله بنـــزول سورة: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ*وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً*فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً**﴾ [النصر:١، ٢، ٣] ، فإن المراد من هذه السورة: إنك يا محمد إذا فتح الله عليك البلاد، ودخل الناس في دينك الذي دعوتهم إليه أفواجًا، فقد اقترب أجلك فتهيأ للقائنا بالتحميد والاستغفار، فإنه قد حصل منك مقصود ما أُمرت به من أداء الرسالة والتبليغ، وما عندنا خير لك من الدنيا، فاستعد للنقلة إلينا، وهذه آخر سورة نُـــزلت عليه يوم النحر بمنى في حجة الوداع، وعاش بعدها قيل: أحدًا وثمانين يومًا، وعن ابن عباس: تسع ليال.

قال: وفي الطبراني عن ابن عباس: لما نُـــزلت: «إذا جاء نصر الله والفتح» نعيت إلى رسول الله ﷺ نفسه، فأخذ بأشد ما كان قط في أمر الآخرة.

=

قال: وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر، قال الشارح: كان قبل وفاته بخمس ليال فقال: «إن عبدًا خيَّره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده فاختار ما عنده»، فبكى أبو بكر ﷺ وقال: يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا، قال: أي أبو سعيد: فعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خيَّره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، قال: أي أبو سعيد: فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا به، فقال النبي ﷺ: «إن أمن الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر فلو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام، لا تبقى في المسجد خوخة إلا سُدَّت إلا خوخة أبي بكر»، رواه البخاري ومسلم.

قال الحافظ ابن رجب: وكان ابتداء مرضه ﷺ في أواخر شهر صفر، وكانت مدة مرضه ثلاثة عشر يومًا في المشهور.

قال: وأول مرضه ﷺ كان صداع الرأس، قال: والظاهر أنه كان مع حُمَّى، فإن الحُمَّى اشتدَّت به في مرضه، فكان يجلس في مخضبٍ ويُصب عليه الماء من سبع قرب لم تُحلل أو كيتهن يتبرد بذلك.

وفي البخاري قالت عائشة رضي الله عنها: «لما دخل بيتي واشتد وجعه قال: أهريقوا عليَّ من سبع قرب لم تُحلل أو كيتهن لعلي أعهد إلى الناس، فأجلسناه في مخضب لحفصة زوج النبي ﷺ ثم طفقنا عليه من تلك القرب حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتن».

قال: ولعل الحكمة في هذا العدد أن له خاصية في دفع ضرر السم والسحر يدل عليه رواية عروة عنه ﷺ قال: «ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم»، والأبهر: عرق مستبطن بالصلب متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه، ولذلك كان ابن مسعود وغيره من أكابر الصحب يرون أنه ﷺ مات شهيدًا من السمِّ، فعلم من ذلك أنه ﷺ اشتد عليه مرض الموت من وجوهٍ ثلاثة: صداع، وحُمَّى، وأثر السم السابق، ولعل الحكمة في ذلك زيادة الكمال والدرجات يدل له حديث البخاري عن عبد الله قال: «دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك، فقلت: يا رسول الله إنك توعك وعكًا شديدًا، قال: أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم، قلت: ذلك أن لك أجرين، قال: أجل ذلك كذلك ما من مسلمٍ يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كَفَّر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها»، والوَعْك بفتح الواو وسكون العين: ألم الحُمَّى وقيل: الحُمَّى.

وقال أبو هريرة: ما من وجعٍ يصيبني أحب إليَّ من الحُمَّى؛ إنها تدخل في كل مفصلٍ من ابن آدم، وإن الله يعطي كل مفصلٍ قسطًا من الأجر.

=

=

وفي رواية الحاكم من حديث فاطمة بنت اليمان قالت: «أتيت النبي ﷺ في نساء تعوده، فإذا سقاء يقطر عليه من شدة الحُمَّى، فقال: إن أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

ويُروى أنه كان ﷺ عنده في مرضه سبعة دنانير، فكان يأمرهم بالصدقة بها، ثم يغمى عليه فيشتغلون بوجعه، فدعا بها فوضعها في كفه، وقال: «ما ظنَّ محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه، ثم تصدَّق بها كلها»، رواه البيهقي.

قال القسطلاني: انظرا إذا كان هذا سيد المرسلين، وحبيب رب العالمين، المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف حال من لقي الله وعنده دماء المسلمين وأموالهم المحرمة، وما ظنه بربه تعالى.

وفي البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: دعا النبي ﷺ فاطمة في شكواه الذي قُبض فيه فسارها بشيءٍ فبكت، ثم دعاها فسارها بشيءٍ فضحكت، فسألناها عن ذلك فقالت: سارني النبي ﷺ أنه يُقبض في وجعه الذي توفي فيه فبكيت، ثم سارني فأخبرني أني أول أهله يتبعه فضحكت.

وفي روايةٍ عن عائشة رضي الله عنها أيضًا قالت: ما رأيت أحدًا أشبه سمتًا وهديًا برسول الله ﷺ في قيامها وقعودها من فاطمة، وكانت إذا دخلت على النبي ﷺ قام إليها وقبَّلها وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها فعلت ذلك، فلما مرض دخلت عليه فأكبَّت عليه فقبلته.

واتفقت الروايتان على أن الذي سارها به أولاً فبكت هو إعلامه إياها بأنه ميتٌ من مرضه ذلك، واختلفتا فيما سارها به فضحكت، ففي رواية عروة: أنه إخباره إياها بأنها أول أهله لحوقًا به، وفي رواية مسروق: أنه إخباره إياها بأنها سيدة نساء أهل الجنة، وجعل كونها أول أهله لحوقًا به مضمومًا إلى الأول: أي الذي سارها به أولاً وهو إخباره ﷺ إياها بأنه ميتٌ من مرضه.

قال: وهو الراجح، فإن حديث مسروق يشتمل على زيادات ليست في حديث عروة، وهو من الثقات الضابطين، فمما زاده مسروق قول عائشة رضي الله عنها فقلت: ما رأيت كاليوم فرحًا أقرب من حزنٍ، فسألتها عن ذلك، فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ، حتى توفي النبي ﷺ فسألتها فقالت: أسرَّ إليَّ أن جبريل عليه السلام كان يعارضني بالقرآن كل سنةٍ مرة، وأنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحاقًا بي.

قال: وفي رواية للطبراني عن عائشة رضي الله عنها أنه قال لفاطمة: إن جبريل عليه السلام أخبرني أنه ليس امرأة من نساء المؤمنين أعظم رزية منكِ، فلا تكوني أدنى امرأة منهن صبرًا.

قال: وفي الحديث إخبارها ﷺ بما سيقع فوقع كما قال ﷺ، فإنهم اتفقوا على أن فاطمة رضي الله عنها كانت أول من مات من أهل بيت رسول الله ﷺ بعده حتى من أزواجه ﷺ.

=

قال: ولما اشتدَّ به وجعه ﷺ قال: «مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس، فقالت له عائشة: يا رسول الله، إن أبا بكر رجلٌ رقيقٌ، إذا قام مقامك لا يسمع الناس من البكاء، قال: مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس، فعاودته مثل مقالتها، فقال: إنكن صواحبات يوسف، مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس»، رواه الشيخان.

قال: و(صواحبات) جمع صاحبة، والمراد أنهن مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن، فإن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن أبيها لكونه لا يسمع الناس القراءة لبكائه، ومرادها زيادة على ذلك، وهو ألا يتشاءم الناس به، وقد صرَّحت هي بذلك كما عند وفاته ﷺ، فقالت: «لقد راجعته وما حملني على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلاً قام مقامه أبدًا».

وفي البخاري قال: «مرَّ أبو بكر والعباس بمجلسٍ من مجالس الأنصار وهم يبكون، فقال: ما يبكيكم؟ فقالوا: ذكرنا مجلس النبي ﷺ منا، فدخل أحدهما على النبي ﷺ فأخبره بذلك، فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية برد، فصعد المنبر ولم يصعد بعد ذلك، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أوصيكم بالأنصار فإنهم كَرِشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئتهم».

وقوله: (كرشي وعيبتي) قال الشارح: بفتح الكاف وكسر الراء والشين المعجمة، وعيبتي بفتح العين وفتح الموحدة، أراد بطانته: أي موضع سرّه وأمانته.

قال: وفي صحيح ابن حبان عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أغمي على رسول الله ﷺ ورأسه في حجري، فجعلت أمسحه وأدعو له بالشفاء، فلما أفاق قال: أسأل الله الرفيق الأعلى مع جبريل وميكائيل».

قال: وظاهره أن الرفيق: المكان الذي تحصل المرافقة فيه مع المذكورين.

قال ابن الأثير في النهاية: الرفيق: جماعة الأنبياء الذين يسكنون أعلى عليين.

وقيل: المراد به الله تعالى رفيق بعباده، وقيل: حظيرة القدس.

قال: «ولما احتضر ﷺ اشتدَّ به الأمر، قالت عائشة: ما رأيت الوجع على أحدٍ أشد منه على النبيِّ ﷺ، قالت: وكان عنده قدح من ماءٍ، فيدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ويقول: اللهم أعني على سكرات الموت».

وفي رواية: «فجعل يقول: لا إله إلا الله، إن للموت سكرات».

=

قال بعض العلماء: إن ذلك لشدة الآلام والأوجاع؛ لرفعة منـــزلته، وقيل: طربًا وفرحًا بلقاء ربه، ألا ترى إلى قول بلال حين قال له أهله وهو في السياق: واحزناه، ففتح عينيه وقال: واطرباه، غدًا ألقى الأحبَّة محمدًا وصحبه، فما بالك بلقاء النبي ﷺ ربه تعالى، فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون، وهذا موضع تقصر العبارة عن وصف بعضه، ويؤيد الأول رواية الإمام البخاري بقوله: «ولما تغشاه الكرب قالت فاطمة رضي الله عنها: واكرب أبتاه، فقال لها: لا كرب على أبيك بعد اليوم» انتهى.

قال الخطابي: والمراد بالكرب ما كان يجده ﷺ من شدة الموت، وكان ﷺ فيما يصيب جسده من الآلام كالبشر ليتضاعف له الأجر انتهى.

وفي البخاري من حديث أنس بن مالك: أن المسلمين بينما هم في صلاة الفجر من يوم الإثنين، وأبو بكر ﷺ يصلي بهم، لم يفاجئهم رسول الله ﷺ، قد كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، قال أنس: وهم المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم فرحًا برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده ﷺ أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر.

وفي رواية عند البخاري في الصلاة فتوفي من يومه ذلك، وفي رواية البخاري أيضًا عن أنس: «أنه لم يخرج إلينا ﷺ ثلاثًا، فأقيمت الصلاة، فذهب أبو بكر يتقدم، فقال نبي الله ﷺ بالحجاب فرفعه، فلما وضح له وجه رسول الله ﷺ فما نظرنا منظرًا قط كان أعجب إلينا من وجه رسول الله ﷺ حين وضح لنا، قال: فأومأ رسول الله ﷺ إلى أبي بكر أن يتقدم وأرخى الحجاب».

ورواه مسلم أيضًا قال: وقد جزم موسى بن عقبة عن ابن شهاب بأنه ﷺ مات حين زاغت الشمس.

وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: «لما بقي من أجل الرسول ﷺ ثلاث، نـــزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله قد أرسلني إليك إكرامًا لك وتفضيلاً لك، وخاصة لك، ليسألك عمَّا هو أعلم به منك، يقول: كيف تجدك؟ قال: أجدني يا جبريل مغمومًا، وأجدني يا جبريل مكروبًا، ثم أتاه في اليوم الثاني، فقال له مثل ذلك، ثم أتاه في اليوم الثالث، فقال له مثل ذلك، ثم استأذن فيه ملك الموت، قال الشارح: أي في اليوم الثالث، وجبريل عنده في الدخول فقال جبريل: يا أحمد هذا ملك الموت، يستأذن عليك، ولم يستأذن على نبيٍّ قبلك، ولا يستأذن على نبيٍّ بعدك، قال: ائذن له، فدخل ملك الموت فوقف بين يديه فقال: يا رسول الله، إن الله ﷻ أرسلني إليك، وأمرني أن أطيعك في كل ما تأمر، إن أمرتني أن أقبض روحك قبضتها، وإن أمرتني أن أتركها تركتها، فقال جبريل: يا محمد، إن الله قد اشتاق إلى لقائك، قال ﷺ: فامضِ يا ملك الموت لما أُمرت به، فقال

=

=

جبريل: يا رسول الله، هذا آخر موطئي من الأرض، إنما كنت حاجتي من الدنيا، فقبض روحه» انتهى.

فلما توفي رسول الله ﷺ وجاء من التعزية سمعوا صوتًا من ناحية البيت: «السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، كل نفسٍ ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، إن في الله عزاء من كل مصيبةٍ، وخلفًا من كل هالكٍ، ودركًا من كل فائتٍ، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإنما المصاب من حرِّم الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال علي ﷺ: أتدرون من هذا؟ هو الخضر ﷺ»، رواه البيهقي في دلائل النبوة، وذكره الإمام الغزالي في الإحياء عن ابن عمرو، رواه ابن أبي الدنيا عن أنس، ورواه الحاكم في المستدرك.

قال البيهقي: وقوله في الحديث السابق: «إن الله اشتاق إلى لقائك».

معناه: قد أراد لقائك بأن يردك من دنياك إلى معادك، زيادة في قربك وكرامتك.

قال: ولما توفي رسول الله ﷺ كان أبو بكر غائبًا بالسنح، يعني العالية عند زوجته بنت خارجة، وكان ﷺ قد أذن له في الذهاب إليها، فسل عمر بن الخطاب ﷺ سيفه وتوعد من يقول مات رسول الله ﷺ، وكان يقول: إنما أُرسل إليه كما أُرسل موسى ﷺ، فلبث عن قومه أربعين ليلة، والله إني لأرجو أن يقطع أيدي رجال وأرجلهم، فأقبل أبو بكر ﷺ من السنح حين بلغه الخبر إلى بيت عائشة رضي الله عنها، فدخل فكشف عن وجه رسول الله ﷺ فجثي يقبِّله ويبكي، ويقول: توفي والذي نفسي بيده، صلوات الله عليك يا رسول الله، ما أطيبك حيًّا وميتًا.

وفي حديث ابن عباس عند البخاري: «أن أبا بكر ﷺ خرج وعمر بن الخطاب ﷺ يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر ﷺ: أما بعد، من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت»، قال الله ﷻ: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ [آل عمران:١٤٤].

قال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنــزل الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها الناس منه كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها.

وفي حديث ابن عمر: «أن أبا بكر ﷺ مرَّ بعمر وهو يقول: ما مات رسول الله ﷺ ولا يموت حتى يقتل الله المنافقين، قال: وكانوا أظهروا الاستبشار ورفعوا رؤوسهم، فقال: يا أيها الرجل إن رسول الله ﷺ قد مات، ألم تسمع الله تعالى يقول: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**﴾ [الزمر:٣٠]، وقوله: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ**﴾ [الأنبياء:٣٤]، ثم أتى المنبر.

=

قال القرطبي الإمام المفسر: وفي هذا أدل دليل على شجاعة الصديق؛ فإن الشجاعة حدها ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي ﷺ، فظهرت عنده شجاعته وعلمه حين قال الناس: لم يمت رسول الله ﷺ واضطرب الأمر، فكشف الصدِّيق بهذه الآية ما نـــزل بهم، ولما صعد على المنبر تشهد وصلَّى على نبيه ثم قال: أما بعد إلى أن قال: ولكني كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يدبرنا: أي يكون آخرنا موتًا، أو كما قال: فاختار الله ﷻ لرسوله الذي عنده على الذي عندكم، وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسوله، فخذوا به تهتدوا لما هدي له رسول الله ﷺ.

وقال الإمام ابن المنير: لما مات ﷺ طاشت العقول، فمنهم من خبل، ومنهم من أقعد فلم يطق القيام، ومنهم من أخرس فلم يطق الكلام، وكان عمر ممن خبل، وعثمان من أخرس، وعلي ممن أقعد، وكان أثبتهم أبو بكر الصديق ﷺ، جاء وعيناه منهملاتان، وزفراته تردد، وغصصه تتصاعد وترتفع، فدخل على النبيِّ ﷺ فأكبَّ عليه وكشف الثوب عن وجهه وقال: طبت حيًّا وميتًا، انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء قبلك.

وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها: «إن أبا بكر دخل على النبيِّ ﷺ بعد وفاته فوضع فاه بين عينيه، ووضع يده على صدغيه، وقال: وانبياه، واصفياه، واخليلاه.

قال: وقالت فاطمة عند وفاته: يا أبتاه، أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه من إلي جبريل ننعاه».

قال الحافظ بن حجر: الصواب: «من إلي جبريل نعاه»

قال: وقد عاشت فاطمة رضي الله عنها بعده ستة أشهر، فما ضحكت تلك المدة، وحق لها ذلك.

قال: وأخرج أبو نعيم عن علي ﷺ قال: لما قُبض رسول الله ﷺ صعد ملك الموت باكيًا إلى السماء، والذي بعثه بالحق لقد سمعت صوتًا من السماء ينادي: وامحمداه، قال: وكان الرجل من أهل المدينة إذا أصابته مصيبة جاء أخوه فصافحه ويقول: يا عبد الله اتق الله، فإن في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

ورُوي أن بلالاً لما كان يؤذن بعد وفاته ﷺ وقبل دفنه، فإذا قال: (أشهد أن محمدًا رسول الله) ارتجَّ المسجد بالبكاء والنحيب، فلما دُفن ترك بلال الأذان.

قال: وقد كانت وفاته ﷺ يوم الإثنين بلا خلاف، وقت دخوله المدينة في هجرته حين اشتدَّ الضُّحى، ودُفن يوم الثلاثاء، وقيل: ليلة الأربعاء، وهو الذي عليه الجمهور، وقيل غير ذلك.

=

قال: والذي تولى غسله علي والعباس، وابنه الفضل يعينانه، وقثم وأسامة وشقران مولاه ﷺ يصبون الماء، وأعينهم معصوبة من وراء الستر؛ لحديث علي ﷺ: «لا يغسّلني إلا أنت، فإنه لا يرى أحد عورتي إلا طُمست عيناه»، رواه البزار والبيهقي.

وفي رواية للبيهقي: «غسَّل علي النبي ﷺ، فكان يقول وهو يغسّله: بأبي أنت وأمي طبت حيًّا وميتًا».

وفي رواية ابن سعد: «وسطعت ريح طيبة لم يجدوا مثلها قط».

قال الإمام القسطلاني: قيل: جعل علي على يده خرقة، وأدخلها تحت القميص ثم اعتصر قميصه، وحنطوا مساجده ومفاصله، ووضئوا منه ذراعيه ووجهه وكفيه وقدميه، وجمروه عودًا وندًا.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كُفّن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب سحولية بيض، ليس فيها قميص ولا عمامة»، وقوله: (سَحولية) بفتح السين نسبة إلى سحول: قرية من اليمن، وقوله: ليس فيها قميص ولا عمامة: أي ليس في الكفن ذلك أصلاً، وقيل: معناه في ثلاثة أثواب ما عدا القميص والعمامة، فيكون كُفّن في خمسة.

قال النووي مرجحًا للأول في شرح مسلم: والصواب أن القميص الذي غُسِّل فيه النبي ﷺ نُـزع عنه بعد تكفينه.

قال: لأنه لو أبقى مع رطوبته لأفسد الأكفان.

قال: وأما رواية: «كُفّن في ثلاثة أثواب وقميصه الذي تُوفي فيه» فحديث ضعيف.

وفي حديث ابن عباس: «لما فرغوا من جهازه ﷺ يوم الثلاثاء، وُضع على سريره في بيته، ثم دخل الناس عليه ﷺ إرسالاً يصلون عليه، حتى إذا فرغوا دخل النساء، حتى إذا فرغن دخل الصبيان، ولم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد لا يستطيع جواد بعد غايتهم» انتهى.

قال الشارح الزرقاني: أخرج الترمذي: «إن الناس قالوا لأبي بكر ﷺ: أنصلي على رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قالوا: وكيف نصلي؟ قال: يدخل قومٌ فيكبرون ويصلون ويدعون، ثم يدخل قومٌ فيصلون فيكبرون ويدعون فرادى».

قال: قال عياض في شرح مسلم: الذي عليه الجمهور أن الصلاة على النبي ﷺ كانت صلاة حقيقية لا مجرد الدعاء فقط، وما احتج به الأقلون من أن المقصود من الصلاة عليه عود التشريف على المسلمين، يرده أن الكامل يقبل زيادة التكميل.

قال: نعم لا خلاف أنه لم يؤمهم أحد عليه لقول علي ﷺ: «هو إمامكم حيًّا وميتًا» فلا يقوم عليه أحد انتهى.

=

=

قال الإمام القسطلاني: وفي رواية: «إن أول من صلّى عليه الملائكة أفواجًا، ثم أهل بيته، ثم الناس فوجًا فوجًا، ثم نسائه آخرًا».

قال: ورُوي أنه لما صلّى أهل بيته، قال الشارح: أي أرادوا الصلاة، فلم يدر الناس ما يقولون، فسألوا ابن مسعود، فأمرهم أن يسألوا عليًّا، فقال لهم: **﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾** [الأحزاب:٥٦]، لبيك اللهم ربنا وسعديك صلاة البر الرحيم، والملائكة المقربين، والنبيين والصديقين، والشهداء والصالحين، وما سبَّح لك من شيءٍ يا رب العالمين، على سيدنا محمد بن عبد الله خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين، الشاهد البشير، الداعي إليك بإذنك، السراج المنير.

قال: ذكره في كتاب تحقيق النصرة، قال الشارح الزرقاني: ولعل حكمة الأمر بهذه الآية تذكيرهم بالصلاة والسلام عليه في هذا الموطن، لبيك اللهم ربنا إجابة لك بعد إجابة فيما أمرتنا به من الصلاة والتسليم عليه، وسعديك: أي إسعادًا بعد إسعاد، ثم بعد الصلاة اختلفوا في موضع دفنه فقال قومٌ: في البقيع، وقال آخرون: في المسجد، وقال قومٌ: يُحمل إلى أبيه إبراهيم، حتى قال العالم الأكبر صدِّيق الأمة: سمعته ﷺ يقول: «ما دُفن نبي إلا حيث يموت»، كما في رواية الترمذي: «ما قبض الله نبيًّا إلا في الموضع الذي يحب أن يُدفن فيه، ادفنوه في موضع فراشه»، وفي رواية: «لا يُدفن إلا حيث تُقبض روحه»، فقال علي: وأنا أيضًا سمعته، فحفر أبو طلحة لحد رسول الله ﷺ في موضع فراشه حيث قُبض.

وقد اختُلف فيمن أدخله قبره:

قال: وأصح ما رُوي أنه نـــزل في قبره عمه العباس، وعلي، وقثم بن العباس، والفضل ابن العباس، وكان آخر الناس عهدًا برسول الله ﷺ قثم بن العباس.

قال الشارح: أي لأنه تأخر.

قال الإمام القسطلاني: ولما دُفن ﷺ جاءت فاطمة رضي الله عنها فقالت: «كيف طابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب، وأخذت من تراب القبر الشريف ووضعته على عينيها.

قال في المواهب: فإن قلت: أنه ﷺ تُوفي يوم الإثنين ودُفن يوم الأربعاء: أي قبيل الفجر، فَلِمَ أُخِّر دفنه ﷺ وقد قال لأهل بيت كانوا قد أخَّروا دفن ميتهم: «عجِّلوا دفن ميتكم ولا تؤخروه».

قال: والجواب أن التأخير إما لأنهم كانوا لا يعلمون حيث يُدفن، أو لأنهم اشتغلوا في أمر الخلافة، فنظروا فيها حتى استقر الأمر فيها لصدِّيق الأمة، فبايعه أول يوم طائفة من المهاجرين والأنصار، ثم بايعه الجميع بالغد بيعة أخرى على ملإٍ منهم، وكشف الله للصدِّيق الكربة من أهل الردة وغيرهم بعد المبايعة، ثم رجعوا بعد ذلك إلى النبي ﷺ فنظروا في دفنه، فغسِّلوه وكفَّنوه ودفنوه.

=

٥٥- في الصحيح قال رسول الله ﷺ: «المسلم مَن سلم المسلمون من لسانه ويده»(١):

اعلم أن تخصيص المسلم بالذكر حيث لم يقل: المؤمن...إلخ؛ إنما هو لأجل ذكر اللسان واليد، فإن الإسلام هو الانقياد والظاهر كما أن اللسان واليد من الأعضاء الظاهرة؛ فمَن له إسلام ظاهر؛ يجب عليه أن يكون بحيث يسلم ظاهر الخلق من أعضائه الظاهرة كلها.

=

قال أنس: ما رأيت يومًا كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله ﷺ المدينة، وما رأيت يومًا كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله ﷺ.

قال: وفي رواية للترمذي: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيءٍ»، قال الشارح: أي بسبب حلوله فيها.

ورواية البخاري: «ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيءٍ فرحهم برسول الله ﷺ» انتهى.

قال الترمذي: فلما كان اليوم مات فيه أظلم منها كُل شيءٍ، وما نفضنا أيدينا من التراب، وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا.

قال: ومن آياته ﷺ بعد موته ما ذكر من حزن حماره عليه، يعني يعفور حتى تردى في بئرٍ، وكذا ناقته فإنها لم تأكل و لم تشرب حتى ماتت.

قال: وفي حديث أبي موسى في رواية مسلم عنه أنه ﷺ قال: «إن الله إذا أراد بأمّة خيرًا قبض نبيها قبلها، فجعله لها فرطًا وسلفًا بين يديها، وإذا أراد هلكة أمة عذّبها ونبيها حي فأهلكها وهو ينظر، فأقر عينه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمره».

وإنما كان قبض النبي ﷺ قبل أمته خيرًا؛ لأنهم إذا قبضوا قبله انقطعت أعمالهم، وإذا أراد الله بهم خيرًا جعل خيرهم مستمرًا ببقائهم محافظين على ما أُمروا به من العبادات وحسن المعاملات، نسلاً بعد نسلٍ، وعقبًا بعد عقب.

قال: ولمّا قُبض ﷺ تزينت الجنان ليوم قدوم روحه الكريمة.

قال: إذا كان عرش الرحمن قد اهتزّ لموت بعض أتباعه فرحًا واستبشارًا لقدوم روحه، فكيف بقدوم روح الأرواح، أسأل الله العظيم متوسلاً إليه بهذا النبي الكريم وبنور وجهه الذي ملأ أركان عرشه، أن يزرع في قلوبنا معرفته ومحبته، وأن يجعل أرواحنا سابحات في عالم الملكوت مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

وصلّى الله على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم، كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

(١) رواه البخاري (١٣/١)، ومسلم (٦٥/١).

فإن اللسان واليد عبارة عن الأعضاء كلها، وإنما خُصَّا بالذكر؛ لأن الأقوال كلها تصدر من اللسان، وأكثر الأفعال من اليد، وقوله في بعض الحديث «**إنما هي حصائد ألسنتكم**[1]»؛ يشير إلى عظم جرائم اللسان؛ فكأنها كل الجرائم، وإنها لا تصدر إلا منه.

وإنما حملنا الإسلام على الانقياد والظاهر؛ لأنه هو الموافق لِما ذكره أهل اللغة، ولِما جاء في القرآن من قوله: ﴿**وَظِلالُهُم**﴾ [الرعد:١٥].

وقوله: ﴿**وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ..**﴾ الآية [آل عمران:٨٣].

فإن سجدة الظلال إنما هي سجدة الكره لا سجدة الطوع، فإن سجدة الطوع إنما تكون بالإيمان، وليس للكفار ذلك، وجاء في حق الحق تعالى الاسم السلام دون المسلم، وإن كان المعنى صحيحًا لقول أبي طالب في شأنه ﷺ: ما أطوعك ربك يا محمد؟ يعني: إنه ينقاد لك، ويطيعك فيما تقصده من الأمور الظاهرة.

بخلاف المؤمن فإنه من أسماء الحسنى، فكان المؤمن أقوى من المسلم؛ لأن كل انقياد باطن يستلزم الانقياد الظاهر دون العكس؛ ولذا قلّ المؤمنون بين المسلمين؛ لأن المؤمن هو الذي آمن الناس من قلبه ولسانه ويده جميعًا، فالمؤمن الحقيقي لا يقصد السوء لأحد، ولا يتعرَّض له بشيء من المكروه إلا بحق الشرع وحده.

ومَن قام بهذا المقام حضرة الشيخ: محيي الدين العربي قُدِّس سرُّه فإنه كان في أوائل حاله بحيث تركض دابته في الصحاري، ويمسُّ رأس سنانه بعض الوحش الراعية في المرعى، وهو لا يرفع رأسه أصلاً؛ لأنه يعلم بحسب فطرته: إن الشيخ آمنه من قلبه.

وحال القلب يؤثِّر في القالب، فيكون القالب سالمًا من الأذى، وصاحبه أمنًا في نفسه، ولا يصل العبد إلى مرتبة التسخير إلا بمثل هذا الوصف، فأنّى يكون مؤمنًا مَن يُخيف، وشر الناس مَن تبقّى الناس من شره، فكان من شأنه أن يبتليه الله بالفزع الأكبر يوم القيامة؛ لأن مَن لم يخف الله، وأخال عباده أيضًا؛ جُوزي بمثل عمله، فإن

(١) رواه الترمذي (١١/٥)، والنسائي (٤٢٨/٦) بنحوه.

الجزاء من جنس العمل، ثم من شأنه المؤمن الحقيقي أن يجعل المؤمن آمنًا من تصرُّفه القلبي، وتوجهه الروحاني، كما آمنه من لسانه ويده، فإن الأذى، والجرح، والقتل كما تكون بالتصرُّف مطلقًا؛ فإنه في التأثير؛ كالسحر، ولا شك أن السحر ممنوع مَنهي، وكذا ما في حكمه.

فويلٌ لَمن تشبَّه بالساحر في عمله، فعمل بظاهره، وقوَّاه في ظاهر الخلق وباطنه حتى يمرضهم، أو يقتلهم.

وقد قال ﷺ: «**فإن النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن، والجروح قصاص**»(١)، ولم يهتدِ إلى هذا المعنى إلا الألباء، فحافظوا على ظواهرهم وبواطنهم، وكانوا ممَن قيل فيه: سليم الصدر؛ فإن سليم الصدر هو الذي يدخل الجنة بلا حساب، ولا عذاب، ويقرع بابها مع أول مَن يقرعه.

والقلب عند العارفين: جنة معجَّلة لا بد لَمن قصد دخولها من الإسلام الحقيقي المشار إليه بقوله: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ**﴾ [آل عمران:١٩].

ومن الإيمان الحقيقي المشار إليه بقوله: ﴿**الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ**﴾ [الأنعام:٨٢].

ومن سلامة الصدر المشار إليها بقوله تعالى: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ**﴾ [الأعراف:٤٣]، [الحجر:٤٧].

- **في الصحيح: قال رسول الله ﷺ: «ما بين قبري ومنبري رَوضةٌ من رياض الجنة»**(٢)(٣):

(١) رواه ابن أبي عاصم في الديات (٢٧/١) بنحوه.

(٢) رواه أحمد (٦٤/٣)، وأبو نعيم في الحلية (٣٢٤/٩).

(٣) قال ابن أبي جمرة معناه: تنقل تلك البقعة بعينها في الجنة فتكون روضة من رياض الجنة ويحتمل أن تكون المراد بأن العمل فيها يوجب لصاحبه روضة الجنة قال: والأظهر الجمع بين الوجهين معًا بمعنى احتمال كونها تنقل إلى الجنة وكون العمل فيها يوجب لصاحبة روضة في الجنة.

قال: ولكل وجه منهما دليل يعضده ويقويه من جهة النظر والقياس، أما الدليل على أن العلم فيها يوجب لصاحبة روضة في الجنة فلأنه إذا كانت الصلاة في مسجده عليه الصلاة والسلام بألف =

=

فيما سواه من المساجد، فلهذه البقعة زيادة على باقي البقاع كما أن للمسجد زيادة على غيره، وأن الجذع في الجنة في البقعة نفسها، فالعلة التي أوجبت للجذع الجنة هي في البقعة سواء على ما أذكره بعد إن شاء الله والذي أخبر بهذا أخبر بهذا فينبغي الحمل على أكمل الوجوه وهو الجمع بينهما لأنه قد تقرر من قواعد الشرع أن البقع المباركة ما فائدة بركتها لنا والإخبار بها لنا إلا لتعميرها بالطاعات فإن الثواب فيها أكثر وكذلك الأيام المباركة أيضًا فعلى هذا يكون الموضع روضة من رياض الجنّة الآن ويعود روضة كما كان في موضعه ويكون للعامل بالعمل فيها روضة في الجنة وهو الأظهر لوجهين أحدهما لعلو مترلته عليه الصلاة والسلام ولما خص الخليل عليه السلام بالحجر من الجنة خص الحبيب عليه الصلاة والسلام بالروضة من الجنة وهنا بحث: لم جعلت هذه البقعة من بين سائر البقع روضة من رياض الجنة؟ فإن قلنا تعبد أو إن قلنا لحكمة فحينئذ يحتاج إلى البحث والأظهر أنها لحكمة وهي أنه قد سبق في العلم الرباني بما ظهر أن الله عزّ وجل فضله على جميع خلقه وأن كل ما كان منه بنية ما من جميع المخلوقات يكون له تفضيل على جنسه كما استقر في جميع أموره من بدء ظهوره عليه السلام إلى حين وفاته في الجاهلية والإسلام فمنها ما كان من شأن أمه وما نالها من بركات مع الجاهلية الجهلاء حسبما هو منكور ومعلوم ومثل ذلك حليمة السعدية وحتى الأتان وحتى البقعة التي تجعل أتانه يدها عليها تخضر من حينها وما كان هو من ذلك كله معلوم وكان مشيه عليه السلام حيث ما كان ظهرت إلى بركات مع ذلك كله وحيث وضع يده المباركة ظهر في ذلك كله من الخيرات والبركات حسًا ومعنى كما هو منقول معروف.

ولما شاءت القدرة أنه عليه السلام لابد له من بيت ولابد له من منبر وأنه بالضرورة يكثر تردداه عليه السلام بين المنبر والبيت فالحرمة التي أعطى غيرهما إذا كان بمشية واحدة بمباشرة أو بواسطة حيوان وغيره تظهر البركة والخير فكيف مع كثرة تردداه عليه السلام في البقعة الواحدة مرارًا في اليوم الواحد طول عمره من وقت هجرته إلى وقت وفاته فلم يسبق لها من الترفيع بالنية إلى عالمها أعلى مما وصفناه وهو أنها كانت من الجنة وتعود إليها وهي الآن منها وللعامل مثلها ولو كانت مرتبة يمكن أن تكون أرفع من هذه في هذه الدار لكان لهذه أعلى مرتبة مما ذكرناه فإن احتج محتج لا يفهم له بأن يقول ينبغي أن يكون ذلك للمدينة بكمالها لأنه ﷺ يطؤها بقدمه مرارًا، فالجواب أنه قد حصل للمدينة تفضيل لم يحصل لغيرها من ذلك أن ترابها شفاء كما أخبر به عليه السلام مع ما شاركت فيه البقعة المكرمة من منعها من الدجال وتلك الفتن العظام وأنه عليه السلام أول ما يشفع في أهلها يوم القيامة وإن كان بها من الوباء والحمى رفع عنها وأنه بورك في طعامها وشرابها

=

قبره هو: ضريحه الذي جعله الله أفضل من الكعبة بالاتفاق؛ لأن الكعبة مقام الفناء وحده؛ لأنها إشارة إلى الذات الأحدية، كما رمز بها المنارات السبع بمقابلة الأسماء السبعة الدالة على الفناء.

وأمّا الضريح النبوي: فمقام الفناء، والبقاء جميعًا؛ لأنه إشارة إلى الذات الواحدية المشار إليه بقاب قوسين النـــزول بعد أو أدنى العروجي، كما لوح بها المنارات الخمس بمقابلة الأسماء الخمسة الدالة على البقاء.

والجنة: إنما هي لأهل البقاء لا لأهل الفناء، إذ لا لذة لأهل الفناء أصلاً؛ لاستغراقهم في شهود الذات الأحدية، وإنما قلنا بفضل الجمع بين الفناء والبقاء لِما فيه من الفضيلة العظمى التي اتصف بها أهل التبليغ جميعًا، ولا يقوم الكون إلا بهذا الجمع، وعند فناء أهله يقوم الناس لرب العالمين، فإذا عرفت هذا؛ فاعلم أن القبر هو مقام الحقيقة الجامعة كما أومأنا إليه.

والمنبر هو: مقام الشريعة المحيطة بالأحكام والحقائق، كما أشار إليه درجاته الأربع المتفاوتة فعلم إن أركان العالم صورة ومعنى محصورة في الأربعة لا تتجاوز إلى ما فوقها؛ كالأمهات الأسمائية، وأركان العرش، والكعبة، والملائكة الأربعة، والخلفاء الأربعة، والنسوة، الأربع ونحو ذلك.

=

وأشياء كثيرة فكان التفضيل لها بنسبة ما أشرنا إليه أولاً بان تردده عليه السلام في المسجد نفسه أكـــثر مما سواه من سائر المساجد فالبحث تأكد من الاعتراض لأنه جاءت البركة مناسبة لتكرار تلك الخطوات المباركة والقرب من تلك النسبة المرتفعة لا خفاء فيه إلا على ملحد أعمى البصيرة فالمدينة أرفع المدن والمسجد أرفع المساجد والبقعة أرفع البقع قضية معلومة وحجة ظاهرة موجودة انتهى.

وقال الخطاب:ي المراد بهذا الحديث الترغيب في سكنى المدينة وأن من لازم ذكر الله في مسجدها آل به في روضة الجنة وسقى يوم القيامة من الحوض انتهى. وقد تقدم في الخصائص من مقصد المعجزات مـــزيد لذلك وعند مسلم من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام».

جعل الدخول في الروضة من أحد البابين: باب السلام، وباب جبريل؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة:١٨٩].

ولا شك أن الحقيقة إنما تؤتى من باب الشريعة، أمَّا باب السلام فلأن الداخل منه يمرُّ بجانب القدم، والقدم إشارة إلى مقام السعي والكسب، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٦].

ويمكن أن يقال: إن الداخل من باب السلام يمرُّ بالمواجهة، وجانب الرأس أولاً، وذلك إشارة إلى مقام المجذوب السالك؛ واسمه الجلالة وحدها.

والداخل من باب جبريل يمرُّ بجانب القدم أولاً، وهو إشارة إلى مقام السالك المجذوب؛ واسمه كلمة التوحيد.

ويجوز أن يُقال: إن الأول من حيث إنه يمرُّ بالمنبر يشير إلى الفرق والكسب، والثاني من حيث إنه باب جبريل يشير إلى الجمع والفيض؛ وذلك لأن جبريل كان يأتي من الفوق بالفيض الإلهي الجمعي، ثم يتنـزَّل الأمر إلى مرتبة التحت المنبري، فيبدأ السامعون بالكسب، وعلى كل من التقادير، فما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة؛ لأن دخول ظاهر الجنة، والوصول إلى درجاتها؛ مَنوط بقبول التوحيد، والشرائع، وكسب الأعمال، والأحكام، ودخول باطن الجنة، والوصول إلى حقائقها؛ مربوط بقبول الحق المطلق وحده، كما قال: ﴿قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام:٩١].

الترقّي إلى مقامات القرب، والوصال، فمَن دخل هاتين الجنتين؛ فقد دخل الروضتين، فتنكير روضة إنما يدلُّ على الشريعة الظاهرة؛ وهي لا تنافي الحقيقة الباطنة، وفيه إشارة إلى أن الصدر الإنساني بمرتبة المنبر، والقلب بمرتبة القبر، فما بينهما من مقامات الملك والملكوت يُعدُّ من الرياض المعنوية؛ لأن حال الصدر يُؤثّر في الأعضاء، والقوى الظاهرة، وحال القلب يُؤثّر في الروح، والقوى الباطنة؛ فيكون الكل كالروضة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران:٩٦]؛ هي الكعبة.

كما أن أول بيت وُضع للملائكة للذي في السماء السابعة؛ وهو البيت المعمور، فكل من الناس.

وبكة: أي مكة دلَّ على أن المراد: أول بيت وُضع في الأرض؛ لأن الناس وبكة في الأرض، فهذه الأولية؛ هي أولية البيوت، والمساجد الواقعة في الأرض؛ ولذا كانت مكة أم القرى، والكعبة أُم المساجد.

وظاهره: يقتضي أن تعيُّن البيت، وبكة؛ كان تعيُّن الناس، فإن ما وُضع لهم؛ إنما يكون بعدهم، إذ البيت إنما يُوضع للصلاة، ولا بيت، ولا صلاة إلا بعد المصلّى، وكون الضراح في موضع البيت قبل خلق آدم؛ لا يقتضي التقدُّم؛ لأنه كان للملائكة؛ ثم رُفع وتعيَّن في مكانه البيت لآدم وذريته، هذا هو الذي يقتضيه الكشف.

وأمَّا الروايات فيه فمختلفة، وفي هذه الأولية تشريف للكعبة جدًا؛ ولذا أُضيفت إلى الله، فقيل: بيت الله، وحرم الله، وضُوعفت فيه الحسنات المقبولة إلى مائة ألف؛ لأن الأسماء الإلهية مع أحديتها مائة، وكل من المائة ألف في التفصيل.

وجُعل الحرم النبوي ثاني هذا الحرم؛ لأنه حرم أول مَن خلقه الله مس الكائنات، وضُوعفت الحسنات فيه إلى ألف؛ نظرًا إلى الاسم الإلهي، والاسم الكوني؛ فإن الاسم الإلهي مائة كما مرَّ آنفًا، وكل من المائة مائة في الإجمال، والنبي ﷺ جملة من الكائنات، وله ألف اسم كوني، كما أن الأسماء الإلهية تفصيلها.

وجُعل الحرم السليماني ثالث الحرم الشريف الإلهي؛ لأن سليمان عليه السلام، وإن تقدَّم زمانه؛ لكن كان تعيُّن مسجده بعد تعيُّن المسجد النبوي، كما أن كان بعد تعيُّن المسجد الحرام بأربعين سنة، وضُوعفت فيه الحسنات إلى خمسمائة؛ لأن خلافته نصف خلافة نبينا ﷺ، وذلك لأن تصرُّفه كان في الملك وتسخيره، كان لظاهر العالم، وأمَّا التصرُّف النبوي وتسخيره فعام للملك، والملكوت، والظاهر، والباطن، كما شهد به أحواله ليلة المعراج، ولا حاجة إلى بيان ذلك.

ثم إن القبر النبوي من أرض الكعبة في الحقيقة؛ فهو والنبي ﷺ فيه أفضل من الكعبة؛ لأن الكعبة مع الرسول أفضل منها بدونه، وأمَّا الحرم مع قطع النظر عن

القبر، فحرم الكعبة أفضل منه؛ لأن ما أُضيف إلى الله أفضل مما أُضيف إلى غيره، والاختلاف في أن أي الحرمين أفضل مما لا ينبغي أن يقع؛ لأنه من الجهل بما ذكرنا، فإن قلت: فإذا كان القبر من الكعبة؛ فلِمَ لا يُطاف حوله، قلت: لأنه دُفن فيه المخلوق، وإن كان أعظم مخلوق في العالم، فلو رُخِّص في طوافه؛ لقيل في حق صاحبه كما قيل في حق عيسى.

وقد ورد: «**اللّهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد**»[1]؛ ولذا لا يُصلّي إلا من وراء حجاب، لكان التعظيم لله فقط، ففرَّق بين السرِّ الباطن، والخلق الظاهر، وصيانة اعتقاد العامة أوجب.

وفيه إشارة على بكة القالب، وأول بيت وُضع فيه؛ هو القلب، فإن تعيُّنه كان قبل تعيُّن سائر القوى، وكما أن الكعبة قِبلة للناس، وقُطب البيوت، وأول المساجد؛ فكذا القلب قِبلة القوى، ومدار الأحوال، وأقدام المشاهد، وهو مهبط الوحي، والإلهام، والملائكة، وموطئ أقدام الواردات؛ ولذا عظُم شأنه، وعظَّمه الله والملائكة، كما عظَّم شأن البيت مباركًا؛ لأنه يُترك به من حيث إنه بناء الله في الحقيقة؛ كالإنسان وقلبه، وإن أُضيف في الظاهر إلى الخليل ﷺ.

وقوله ﷻ: ﴿**وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران:٩٦]؛ لأن الحج هداية إلى الله ومرضاته، والقلب هداية إلى الله وقربه ووصاله.

فالمراد بالعالمين: المؤمنون، والقوى، والأعضاء؛ لأن كلاًّ منهم عَلم للحق، ومنار لوجوب الوجود، ووحدته، وسائر صفاته.

٥٦- في الصحيح: قال رسول الله ﷺ: «مَن سرَّه أن يُبسَط في رزقه، ويُنسأ في أثره؛ فليصل رحمه»[2]:

أشار بالرحم إلى الاسم الرحمن[3] فإنه مشتق منه؛ لإفاضة الرحمن الجسمانية؛

---

(١) رواه مالك في الموطأ (١/١٧٢)، وابن سعد في الطبقات (٢/٢٤١).

(٢) رواه البخاري (٥/٢٢٣٢)، ومسلم (٤/١٩٨٢).

(٣) وأمّا اسم (**الرحمن**) فله الهيمنة على جميع الأسماء كاسم (الله) لله الأسماء الحسنى، وللرحمن الأسماء الحسنى وهما مدعوان: ﴿ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** ﴾ =

=

[الإسراء:١١٠] لكنَّ الله ممنوع الحِمى مطلقًا أبدًا، وكذا الرحمن ما دامت معه ألف أنا، ولام المعرفة، وإذا زالا تقول: يا رحمن الدُّنيا والآخرة كما تقول: إلهنا وإلهكم أو إلهك و إلهي؛ لأنه حقًا تقع الكناية عنه بألا فالهاء هو الهوا والهوا هو الله والله هو الهوا والله اسم الذات المجازية التي تتنوع في الصور على البصائر والأبصار، وظهر هذا التنوع البصري في أعيان الأرواح كالصورة الدحيية ونحوها، والهوا من هذا الاسم هو اسم الذات الحقيقية التي تتنوع فيها الصور، وتتقدس في نفسها عن التنوع والانتقال.

قال الشيخ الأكبر قُدِّس سرَّه: «الرحمة تناقض التكيف دون الألوهية، ولهذا قيل لهم: اعبدوا الله ما قالوا: وما الله ؟ ولما قيل لهم: (اسجدوا للرحمن قالوا: وما الرحمن؟ فزادهم نفورًا) حيثما عرفوا الحقيقة وما عقلوها ولو عرفوها لعرفوا أن للرحمن الأسماء الحسنى كما لله، ولو عرفوا أن له الأسماء الحسنى أيضًا لعرفوا أن من أسمائه المكلف والمعبود وغير ذلك أيضًا».

وقال أيضًا: «لما كانت الهيمنة له على جميع الأسماء اختص بالاستواء، وبما في السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وبالعلم بالسر بما هو أخفى، فالرحمن جمع الجمع فإنه المعلم الجاعل العلامة في عين الجمع بالتمانع».

وقال بعضهم: «الرحمن شاهد غيب اللاهوت، والرحيم شهادة شاهد الرحمن، ومعلوله، والرحمن اشتق من الرحمة مبالغة، ولذا كان المراد إرادة الأنعام ونفس الأنعام على العبد، ثم صرف إلى الذاتي أيٍّ: الحقيقة الذاتية فصار مُختصًا بالذات بحيث لا يسمَّى به غيره تعالى لكونه الجامع للحقائق الذاتية».

وأمَّا (**الرحيم**) ففيه الميم المحمَّدي وجامع لأسماء الأفعال، وهي المائة التي نزلت واحدة منها لدار الدُّنيا وبقيت تسعة وتسعون لدار الآخرة، وهو من صفات الأفعال من جهة أنها مأخوذ من الرحمة التي هي نفس النعمة.

فقال بعض المشايخ: إن الهو، والله: سمِّيان الأول بالرحمة، والثاني بالرحيم، والرحيم مشترك مع الرحمن في الإحاطة على الوجه المذكور فهو دائرة الرحمن، والرحمن دائرة الدوائر ووجه الوجوه وجهة الوجهات.

وقال الشَّيخ قُدِّس سرِّه: «اسم من ثلاثة أسماء ظهرت في كلِّ منـــزلة، وهو اسم مشترك في التنكير، ومفرد في التعريب اسم مختص بالإيمان والتَّقوى والاتِّفاق والاتِّباع، وهو في الألوهية مطلق، وإذا اتبع لاسم آخر مثل قوله: ﴿**غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [البقرة:١٧٣]، ﴿**الْبَرُّ الرَّحِيمُ**﴾ [الطور:٢٨]، فليس لضعف فيه، وهو في الكون مؤيد بغيره، أو مختص مقيد بحضرةٍ قال الله تعالى: ﴿**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً**﴾ [الأحزاب: ٤٣].

=

وذلك أن رحم الغيب تولّد منه الروح المحمَّدي، ثم تسلسلت منه الأرواح، ورحم الشهادة؛ وهو رحم حواء تولّد منه أولاً آدم نسلاً بعد نسل، فكما كان الروح المحمَّدي مبدأ لسلسلة الأرواح؛ فكذا الرحم الحوائي كان مبدأ لسلسلة الأجسام، فكان كل من الرحمين من الرحمة الخاصة الرحمانية، ولولا ذلك ما كان، و لم يظهر آثار الأسماء والصفات في عالم الإمكان.

ولهذا السرُّ عظَّم الله الرحم، وأمر بالصلة أو بالصلة يتصل الفيض والجود، فإنها ليست للرحم حقيقة؛ بل للرحمن الذي اشتق الرحم من ذلك الاسم، فأشار بالرزق

=

وقال تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] فالرحمانية لها الوجود الإيجادي، ولها الصبغة، والرحيم لها الصبغة والنعت والصفة، والرحمن لإيجاد الأعيان، والرحيم لتعين المراتب انتهى».

والرحمن واسطة بين الله وبين الرحيم، ويوجد منها ما هو من خصائص الذات من اللطف والإيجاد والقهر والإفناء فخُص بالذات، ويوجد من الرحيم اللطف والإيجاد والإبقاء دون القهر والإفناء؛ لأن الله تعالى أخبر عن صفة الإفناء، والإيجاد، والإثبات بالرحمن حيث قال في كتابه العزيز:

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً﴾ [الفرقان:٢٥] ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان:٢٦].

وقال أيضًا: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان:٥٩].

وقد صَرَّحَ به الشيخ الجليل قدِّس سره العزيز وحكى «أنه لما خلق الله (الرحمة) تعلقت (بالرحمن)، فقال: مه قالت: لن أبرح».

فهذه إشارة أشارها المشير، وسر أسره اللطيف الخبير فكلٍ من الاسمين الشريفين فيهما رحمة متعلقة بالثقلين وغيرهما في هذه الدار بالعموم، وفي الدارين بالخصوص، فصار حرف الأول (راء) الرحمة، والثاني حائها، والثالث ميمها في الرحمن دون الرحيم فإن فيه صار رابعًا؛ لأنه ميم الحمد كما مرَّ ولإحاطتها وجدت الميم فيهما، وتوسطت في الرحمن؛ لأنها من عالم المثال المتوسط، و (الراء) مجرد معرفة بنفسها لا تحتاج إلى التعريف، و(الألف) حقيقة فيها من حيث المنطوق، ومنفصلة عنها، فكل حرف من حيث المنطوق توجد فيها الألف عينًا إن كان منطوقها ثُنائيًا، وإن كان ثُلاثيًا فقد تكون عينًا، وقد تكون غيبًا، وعلى تقدير أن تكون عينًا قد تكون متصلة، وقد تكون منفصلة.

إلى الفداء الروحاني، والفيض الرحماني، فإن الأغذية الجسمانية؛ إنما هي وسائل للتربية الروحانية، فالأغذية الروحانية أصل الأغذية، وفي نمائها نماء الأغذية الجسمانية؛ لأن نمائها؛ إنما هو من طهارة القلب والقالب.

وقد ورد: «**دُمْ على الطهارة؛ يُوَسِّع عليك الرزق**»(١): أي دُمْ على الطهارة الصورية، والنظافة الجسمانية من النجاسات الحقيقية يُوسِّع عليك الرزق الجسماني، وعلى الطهارة المعنوية، والنظافة الروحانية من النجاسات الحكمية؛ يُوسِّع عليك الرزق الروحاني، فمَن ضاق عليه الرزق مطلقًا، فليكن على الطهارة مطلقًا دائمًا.

وأشار بإنساء الأثر محركة: أي تأخيرًا لأجل الحياة الطيبة الباقية؛ فإنها العمر الثاني، وأهلها الموصول لا المقطوع؛ ولذا قال تعالى: ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**﴾ [الكوثر:٣]: أي المقطوع نسله، فإن البغض للروح يُورِّث الكسل، وفي الأعمال الصالحة الروحانية، والرواج للأعمال الفاسدة النفسانية.

ولا شك أن النفس وما يتعلّق بها من الأعمال السيئة أبتر لا نماء لها عند الله؛ كالروح وأعماله، فإن النماء، إنما يكون للطيب لا للخبيث؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا**﴾ [الأعراف:٥٨].

ومن آثار هذا المقام أن أهل الله لم يزالوا محبوبين إلى يوم القيامة، وآثارهم باقية معمولة مدّ الدهر، وإن الذين توغّلوا في إنكارهم؛ لم يزالوا مبغوضين إلى ساعة القيام، وآثارهم مندرسة مهجورة؛ لأن الحق يعلو، ولا يُعلى، والباطل يُعلى، ولا يعلو، فطوبى لأهل الحق، وويلٌ لأهل البطلان، والله تعالى متمُّ نوره.

٥٧- **في حديث القضاعي**: قال رسول الله ﷺ: «**المجالس بالأمانات**»(٢):

أورد المجالس بصيغة الجمع، وقابله بالجمع أيضًا إشارة إلى كثرة المجالس، وكثرة الأمانات، فلكل مجلس أمانة، ولكل أمانة محافظة ومراعاة، وقد صحَّ عن الصحابة أنهم أخذوا عن النبي ﷺ علمين: علم الشرائع والأحكام، وعلم الحقائق والأذواق.

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٢٧٣/٤).

(٢) رواه القضاعي في الشهاب (٣٧/١).

فنشروا العلم الأول حتى بلغ كل برٍ وفاجرٍ؛ كما هو شأن التبليغ في مرتبة الشريعة، وأمسكوا عن الثاني إلى أن يجدوا أهله، لا قد قيل: لا يُباع الإبل في سوق الدجاج؛ يعني: لكل مبيع سوق على حدة، ولمّا تصدَّى المنصور الحلاَّج لإفشاء سر الحقيقة؛ وهو كون العين واحدة وأن الإنسان مظهر الحق؛ لأنه تعالى لمّا خلق آدم؛ خلقه على صورته، وتجلّى فيه؛ كان من أمره ما كان؛ لأن السرّ إذا عرى عن لباسه؛ كان صاحبه أيضًا عريانًا، والعريان مجنون، ومقام المجنون السجن، والمارستان.

والسجن على أنواع: لأنه عبارة عن: المحلُّ الضيق، والصلب، والحق من ذلك الضيق، فلو كان ممَن يُضيِّق على نفسه في الكتم من حيث الباطن؛ لوجد الواسعة في الظاهر؛ لأن المتقيِّد بالشريعة مطلق عن الطعن، والوقوع فيه، وقِس عليه الشيخ المسمى بالمسلوخ، وشهاب المقتول، وكمال المصلوب، ونحوهم ممَن سار على سيرهم.

ثم إن المجلس الأعظم؛ هو المجلس الإلهي، وصورته مجالس أهل التصوف، كما قال مَن قال: مَن أراد أن يجلس مع الله تعالى؛ فليجلس مع أهل التصوُّف[1].

---

(١) يعرفنا الإمام الجنيد التصوف والصوفية بقوله: مبنى التصوف على أخلاق ثمانية من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: السخاء وهو لإبراهيم، والرضا وهو لإسحاق، والصبر وهو لأيوب، والإشارة وهي لزكريا، والغربة وهي ليحيى، ولبس الصوف وهو لموسى، والسياحة وهي لعيسى، والفقر وهو لمحمد ﷺ وعليهم أجمعين.

وقال: التصوف ذكرٌ مع اجتماعٍ، ووجدٌ مع استماعٍ، وعملٌ مع اتِّباعٍ.

وقال: إنما هذا الاسم (يعني التصوف) نعتٌ أقيم العبد فيه. فقال أبو بكر الملاعقي: يا سيدي، نعتٌ للعبد أم نعتٌ للحق؟ فقال الجنيد: نعتٌ للحق حقيقةً، ونعتٌ للعبد رسمًا.

وقال: الصوفي كالأرض، يُطرح عليها كل قبيحٍ، ولا يخرج منها إلا كل مليحٍ.

وقال: الصوفي كالأرض يطؤها البَرُّ والفاجر، وكالسحاب يظلُّ كل شيءٍ، وكالمطر يسقي كل شيءٍ.

وسُئل عن التصوف؟ فقال: هو أن يميتك الحق عنك، ويحييك به.

وسُئل عن التصوف؟ فقال: هو أن تكون مع الله تعالى بلا علاقةٍ.

وقال: التصوف هو عُنوةٌ لا صُلحَ فيها.

=

=

وقال: لا يكون العارف عارفًا حتى يكون كالأرض يطؤها البَرُّ والفاجر، وكالسحاب يُظلُّ كل شيءٍ، وكالمطر يسقي ما يحبُّ وما لا يحبُّ.

وقال: ما أخذنا التصوف عن القال والقيل، لكن عن الجوع، وترك الدنيا، وقطع المألوفات، والمستحسنات؛ لأن التصوف هو صفاء المعاملة مع الله، وأصله العزوف عن الدنيا، كما قال حارثة: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري.

وسُئل عن التصوف؟ فقال: تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى عن الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع الرسول ﷺ في الشريعة.

وقال: التصوف حفظ الأوقات، وهو ألا يطالع العبد غير حدِّه، ولا يوافق غير ربِّه، ولا يقارن غير وقته.

وسُئل ما التصوف؟ قال: لحوق السر بالحق، ولا ينال ذلك إلا بفناء النفس عن الأسباب؛ لقوة الروح والقيام مع الحق.

وقال: الصوفية هم أهل بيتٍ واحدٍ، لا يدخل فيهم غيرهم.

وقال: إذا رأيت الصوفيَّ يُعنَى بظاهره فاعلم أن باطنه خرابٌ.

وقال: لكل أمةٍ صفوةٌ، وصفوة هذه الأمة الصوفية.

وقيل للجنيد مرةً: ما بال أصحابك يأكلون كثيرًا؟ فقال: لأنهم يجوعون كثيرًا. قيل له: فما بالهم لا تهمهم قوة شهوةٍ؟ فقال: لأنهم لم يذوقوا طعم الزنا ويأكلون الحلال. قيل له: فما بالهم إذا سمعوا القرآن لا يطربون؟ قال: وأي شيءٍ في القرآن يُطرب في الدنيا، القرآن حقٌّ نزل من عند حقٍّ، لا يليق بصفات الخلق، كل حرفٍ منه على الخلق واجبٌ، لا يخرجهم منه إلا الوفاء لله ﷻ، فإذا سمعوه في الآخرة من قائله أطربهم. قيل له: فما بالهم يسمعون القصائد والأشعار والغناء فيطربون؟ فقال: لأنها مما عملت أيديهم، ولأنه كلام المحبين. قيل له: فما بالهم محرومون من أموال الناس؟ فقال: لأن الله تعالى يرضى لهم ما في أيدي الناس، لئلا يميلوا إلى الخلق، فيقطعوا عن الحق تعالى، فأفرد القصد منهم إليه؛ اعتناءً بهم.

وسُئل قدَّس الله سرَّه عن الصوفية: من هم؟ فقال: أثرة الله في خلقه، يخفيها إذا أحب، ويظهرها إذا أحب.

=

يعني: إن الصوفية المحققين مظاهر الحق في أسمائه وصفاته وأفعاله؛ فمجالسهم مجلس الحق؛ لأنه تعالى لم يرَه أحدٌ إلا في صورة إنسانية سواء كان في المنام؛ كما وقع لكثير من السلف، والخلف، وفي اليقظة كما صحَّ عن الأصفهاني في التفسير: أنه ﷺ لقى ربه في بعض سكك المدينة، وذلك أنه تعالى من حيث تجرُّد ذاته عن النسب، والإضافات، ليس من شأنه أن يعرف فضلاً عن الرؤية.

وفي قوله عن «**السلطان ظل الله**» إشارة إلى أن السلطان الظاهر ظل الحقيقة الإلهية التي كان القطب ونحوه مُظهرًا لها، فإذا لم يُرخَّص في إفشاء سرِّ السلطان الظاهر، ومجلسه أمانة صغرى، فكيف يُرخِّص في إفشاء سرِّ السلطان الباطن، ومجلسه أمانة كبرى.

فإن قلت: كيف لا يُرخِّص والكل عباد الله؟.

قلت: نعم؛ لكنهم متفاوتون في الأسماء والأحكام، فيخفي سرَّ اسمٍ عن اسمٍ من حيث إن كلاًّ منهما ظاهر بما لا يقتضيه الآخر، فلا معنى لكشف سرِّ العالم عند

=

وقال: إذا أراد الله تعالى بالعبد خيرًا أوقعه على الصوفية ومنعه صحبة القراء.

وسُئل الجنيد قدَّس الله سرَّه عن التصوف ما هو؟ فقال: اجتناب كل خلقٍ دنيٍّ، واستعمال كل خلق سَنِيٍّ، وأن تعمل لله، ثم لا ترى أنك عملت.

وقيل لبعض المتكلمين: قد ذكرت الطوائف، وعارضتهم، و لم تذكر الصوفية! فقال: لم أعرف لهم علمًا ولا قولاً، ولا ما راموه؟ قيل: بل هم السادة، وذكروا له الجنيد، ثم أتو الجنيد فسألوه عن التصوف؟ فقال: هو إفراد القديم عن الحدث، والخروج عن الوطن، وقطع المحاب، وترك ما علم أو جهل، وأن يكون المرء زاهدًا فيما عند الله، راغبًا فيما لله عنده، فإذا كان كذلك حَظاه إلى كشف العلوم، والعبارة عن الوجوه، وعلم السرائر، وفقه الأرواح. فقال المتكلم: هذا والله علمٌ حَسنٌ، فلو أعدته حتى نكتبه. قال: كلا، مر إلى المكان الذي منه بدأ النسيان، وذكر فصلاً طويلاً. فقال المتكلم: إن كان رجلٌ يهدم ما يثبت بالعقل بكلمة من كلامه فهذا؛ فإن كلامه لا يحتمل المعارضة.

قال الجنيد: الصوفية أهل غيب، لا يدخل فيهم غيرهم.
وانظر: كتابنا الإمام الجنيد سيد الطائفتين (ص٢٣٩) بتحقيقنا.

الجاهل، كما لا معنى للتكلُّم مع الحيوان بما يقتضيه نشأته دون الحيوان.

فالإنسان اسم، والحيوان اسم، وبينهما تباين جزئي، والمتباينان لا يأتلفان كل الائتلاف، وإن كان الأصل والمعدن واحدًا، فإذا عرفت هذا؛ وجب عليك أن تقوم بسرِّ النفاق الأكبر، فإن لك من حيث جمعيتك وجوهًا كثيرة، فبكل وجه لك يقابل عين من الأعيان، وسرٌّ من الأسرار بحيث لا يتعدَّى أحد السرَّين إلى الأخر، وبه يتم المراتب في حفظها، وبالحفظ يتم النظام لظاهر العالم، فكُن من الأمانات والآداب.

٥٨- في حديث الشهاب القضاعي: «مسألة الغنى نار»[١]:

اعلم أن الغنى إمَّا غنى المال، وإمَّا غنى الحال.

فالغنى بالغنى الأول إذا تفقّر، وستر ماله من النعمة مع أن التحديث بها واجب؛ كان ذلك سببًا لوقوعه في النار؛ لأنه سخَّن وجهه في الدنيا بالسؤال والطلب؛ فسخَّن الله عينه في الآخرة بالنار، والعذاب؛ لأن الجزاء من جنس العمل على أن كُفران النعمة من قبيل الكفر في الجملة، والكافر مآوه النار، وإنما قلنا: الكُفران من قبيل الكفر في الجملة؛ لأن الكافر جاهل حيث ستر الوحدة بالشرك، وغفل عن التوحيد، وكذا أهل الكفران حيث ستر النعمة بإظهار الفقر، وذهل عن المنعم وافترى على الله بأنه خلقه فقيرًا، كما افترى الكافر عليه بأن الآلهة شركاؤه.

وأمَّا الغنى بالغنى الثاني: فإنه فقير باب الله، وفقير هذا الباب لا يجوز له أن يسأل من الأبواب؛ لأن ذلك أمارة الحجاب، وعلامة الغفلة[٢].

---

(١) رواه القضاعي (١/ ٦٠).

(٢) فائدة: قال سيدي أبو المواهب الشاذلي قدس الله سره في قوانين الحكم: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥].

تحقيق: حقيقة الفقر في ظاهر الطريقة غير ما هو باطن الحقيقة، فالظاهر فقر الزهاد من الأعراض الدنيوية، والباطن فقر الأفراد من الأغراض الأخروية شغلاً بالله عما سواه لمن شهد ذلك ورآه.

تدقيق: تفاخَر الغنِي مع الفقير.

فقال الغني: أنا وصف الرب الكبير، فما أنت أيها الحقير.

فقال الفقير: لولا وصْفي لما تميَّزَ وصفك، ولولا تواضعي ما رفع قدرك، فأنا وصْفي وسِمَ بذلّ

العبودية، وأنت وصفك نازع الربوبية، ومن نازع قصِم، ومَن سَلَّم سَلِمَ.

تحقيق: التبس حال الفقير على غير النبيه، فقال: الفقير غير الفقيه، وما علم أن الراء هي الهاء.

إنَّ الفقـــيرَ هـــو الفقيـــهَ وإنمـــا راء الفقـــيرِ تجمعـــت أطرافهـــا

تدقيق: الفقير الفقيه من حَطَّ حمل الرحال على أعتاب الرجال، حتى أرضعته طريَّ لبن الصدور، وأغنتْه عن قديد ميت السطور.

فانتصح يا فقيه القال، واسمع يا فقير الحال، وافْن بالله عن الرسوم، واخرج عن كل معلوم.

يا فقيه الجدال، هذا الجدال أدخل حَانَ أحيارنا، نصيِّرك من أحْبَارنا، ونسقيك صافي الشراب بعد نقيع السراب.

يا فقيه النقل، يا عقول العقل، سَتَر عنك نور الكشف حجاب أنيّتك العقلية، والذوق غيّر طعمه عندك مرارة العلوم النقليه.

يا فقيه الاسم دون المسمَّى الغلط أوجبه تشابه الأسماء لو عرفت معنى الفقير والفقيه كنت الحاذق التنبيه.

الفقيه: من فقه عن الله، وفنى به عمن سواه، فلو كنت بهذا الوصف كنت الفقير صدقًا، والفقيه عند الله حقًا.

تحقيق: فضَّل قوم الغني على الفقر، وعكس آخرون الأمر، والحق أن غنى النفس بالأعراض البشرية لا يخرجها عن افتقار صفاتها الذاتية.

تدقيق: مَن ادَّعى الغنى وقع في العنا، بخلاف من أظهر الفقر؛ فإنه خلص من الأمر.

تحقيق: الفقير من اتَّصف بحقيقة الافتقار عن إرادة منه واختيار، لا عن ضرورة ردته لمركز الاضطرار.

تدقيق: من استكبر بوصف الغني على الفقير استوجب حكم العكس من القدير.

ألم ترَ أن الفقر يُرجَـــى لَـــه الغـــنى وأن الغنى يُخشى عليـــه مـــن الفقـــرِ

تحقيق: سمة الفقر سمة الأحباب، وحليته حلية العبد الأواب، من لبس اسمًا له كان ذلك وسمًا له في وجود أهل القبول، ولهم من الله نيل المسئول.

وجـــوه عليهـــا للقبـــولِ علامـــةٌ وليس علـــى كـــلِ الوجـــوهِ قبـــولُ

تدقيق: من افتخر على الفقراء بماله، أو تباهى عليهم بجماله؛ افتقر وعاد وقد انكسر.

لا تفخرن بمـــا أُوتيـــت مـــن نعـــم على سواك وخف من كـــسر جبـــارِ

وقد ورد: «**إن الفقر سواد الوجه في الدَّارين**»[(١)]: أي الفقر الحقيقي سبب سيادة صاحبه في الدنيا والآخرة، ومن هذا السواد: سواد الحجر الأسود؛ لأنه ساد الأحجار كلها بالتعظيم والتقبيل، فلو سأل الغني المذكور الناس أموالهم؛ كان ذلك من بعض الشهوات، وبيت الشهوة التي لا بد لكل طبع منها حار؛ ولذا غُلِّقت أبواب النار بدخول شهر رمضان: أي أبواب الشهوات، فأكلت المعدة بعضها بعضًا من فقدان المأكول؛ كما تأكل النار بعضها بعضًا من فقدان الحطب في الدنيا، ومن فقدان الناس في الآخرة.

فمَن تبع حرارة الشهوة، ولم يكتم حاله عن المحجوبين؛ بل سأل أموالهم؛ ليدفعها بالمرطِّبات، ويبرِّدها بالمشروبات؛ جُوزي بزيادة الحرارة؛ لأن الدنيا؛ كالماء

=

فأنــت في الأرض بالفحــار مشــتبه ... مــا أســرعُ الكسرِ في الدنيا لفخارِ

تحقيق: جواهر معاني الزمان أنفس من أن تضيعها في الهذيان، فيالله العجب ممن عمره انقضى وذهب في جمع الفضة والذهب، وهو بما جمع فقير ليس له نصير.

ومَــن يــنفق الســاعات في جمع ماله ... مخافــة فقــرٍ فَــالذي فَعَــل الفقــرَ

تدقيق: من أفقر إلى الله استغنى به عن كل شيء، ومن استغنى عنه افتقر إلى كل شيء، ومن افتقر إلى كل شيءٍ، فقد أوحشه كل شيء، ولم يتعوض عن الله بشيء من كل شيء.

لكــلِ شــيءٍ إذا فارقــته عــوضٌ ... ولــيس لله إنْ فارقــتَ مــن عوضِ

تحقيق: خاصية مغناطيس فقر الذات هي الجاذبة للعطايا والهبات، فمن كان وصف افتقاره أكثر كان نصيبه أجزل وأكبر.

تدقيق: اختصاص الفقراء بالسؤال خصوصية لهم في الحال والمآل، يعرفها من وجد ثمر المطالب، وقُضيت له الحاجات والمآرب.

تحقيق: اتِّصاف الرب سبحانه بوجود الغنى المطلق، هو الذي أوجب لنا الفقر المحقق، وبهذا الاتصاف حصلت الألطاف؛ لأن من رحمة الغني أن يجود على الفقير، ويجبر المسكين الكسير.

تدقيق: ما أتى باب الغني الكريم فقير فخاب، ولا قصد حماه فغلق دونه الأبواب.

(١) تقدم تخريجه.

المالح، فمَن شرب منه؛ ازداد عطشًا على أن السؤال عن الناس؛ كالسؤال عن نفسه، ولا شك أنهم متساوون في الدرجة، فعرض الحال على الله تعالى أوجب.

فإن قلت: إذا شاهد الحق في الحق؛ لم يكن ذلك سؤالاً عن الخلق، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر:١٥]: أي في كل وجهٍ من الوجوه سلطانًا أو رعيةً، قلت: فرَّق بين مَن وقف مع الوسائط، والأسماء الجزئية، وبين مَن خرق السور، وتجلَّى له النور بلا واسطة من مراتب الظهور، فإن قلت: فليجز السؤال الكسر النفس في مقام العار؛ قلت: ذلك لأهل البداية الذي لا غنى لهم، وليس كلامنا في ذلك.

فإن قلت: فقد سأل بعض أهل النهاية؛ كالحاجي بيرام الأنقروي ونحوه.

قلت: ذلك السؤال ليس لنفسه، وكلامنا فيه؛ بل لغيره، وهو السؤال عنه، فإنه إذا خلى وطبَّعه؛ لم يكن من شأنه التقرُّب إلى الله تعالى بصدقة، وقد جعلها الشارع سترًا من النار، فيعرض السالك للصدقة حملاً للمسئول عنه على التصدُّق، ليستتر بذلك عن النار، ويظهر في مقام الأبرار.

وذلك من كمال رحمته، وإن كان في الظاهر أمرًا شنيعًا، فإن الأمر إذا تضمَّن مصلحة حميدة، وجُعل ذريعة إلى أمر ممدوح؛ لم يُعتد بشنعة في الجملة، فمثله خارج عن قوله: «**اتقوا مواضع التهم**»[1].

فقد رُوي عن الملامية ما يستبشعه القول الظاهر، وليس في ذلك ضيرًا لهم، إذا كانوا على الحق المبين، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

٥٩- في الصحيحين قال رسول الله ﷺ: «إن هٰذه البهائم أوابد، كأوابد الوحش»[2]:

وأبد: جمع آبدة بمعنى المتوحِّشة المتنفِّرة.

رُوي: أنه شرد بعير؛ فرماه رجل بسهم، فسئل النبي ﷺ عن ذلك: «**هل يحلُّ**

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/٤٥).

(٢) رواه البخاري (٥/٢١٠٦)، ومسلم (٣/١٥٥٨)، وأبو داود (٣/١٠٢).

أكله أم لا؟ فأجاب ﷺ: بأن أوابد البهائم كأوابد الوحش».

فكما أن الوحش الأوابد كل أجزائها مذبح؛ فكذا الإلهية الأوابد بجامع الشرار والنفار؛ وفيه إشارة إلى النفوس النباتية الحيوانية.

فإن منها ما هي مطيعة منقادة حاملة للأمانات باختيارها فلا حاجة إلى قتلها بسيف الرياضات، وسكين المجاهدات الشاقة؛ فإنها سالكة على طريق الحق غير شاردة، ومنها ما هي على خلاف ذلك.

وسرُّ ذلك: ان النفس الحيوانية الأولى لها انجذاب إلى جانب الروح بحسب غلبة حكم الوجوب على حكم الإمكان؛ فهي مجذوبة إلى الله تعالى بتبعية النفس الإنسانية؛ إذ لا حكم للتركيب المزاجي في كل واحدة منهما بخلاف الحيوانية الثانية؛ فإن النفس الإنسانية لها انجذاب إليها بحسب غلبة حكم الإمكان، فإذًا الحيوانية جاذبة للإنسانية بحسب غلبة التركيب المزاجي، ولمّا كان هذا عكس الفطرة الأصلية؛ وحب تأديب النفس الحيوانية؛ لئلا يقع الضلال والإضلال في طريق الحق، وتأديبها وقتلها على أنواع، فإنْ غلب عليها المنام؛ فقتلها قطعها عنه بالسهر، وإن غلب عليها الأكل والشرب؛ وجب قطعهما عنها بتقليل الغداء، وإن غلب عليها الشهوات؛ وجب قطعها عنها، بترك اللذائذ والطيبات، وإن غلب عليها الهوى بحكم مجاورة النفس الأمَّارة؛ وجب قطعها عنه بالعمل بالهدى.

فالنفس الحيوانية التي غلب عليها حكم الإمكان والتركيب، لا شك أنها إشارة عن طريق الشرع فضلاً عن طريق المعرفة والحقيقة، وإصلاحها في قتلها بما ذُكر من المعالجات؛ فإنها كالسهام في قتلها، فبأي سهم قتلها؟ في أي موضع أصابها؟ فذلك مذبحها وسكينها، وإن أُهملت على حالها الطبيعية؛ ألفت الأمانات، وأثقال الشرع عن ظهرها، فالتحقت بالوحشيات؛ وهي نفوس الكفرة الفجرة الأبيَّة عن قبول الحق.

وقد قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢].

: أي قرناؤهم، والكل مسئولٌ عن قرينه، وله حكمه أيضًا بحسب الخير والشر؛ لأن الجنسية جاذبة البتَّة.

ومن ثم قال تعالى: ﴿**ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ*إِلاَّ الَّذِينَ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ [التين:٥، ٦].

يعني: إن المؤمنين إيمانًا رسميًّا أو عيانيًا، والعالمين بما يقتضيه من الشعب، فهم بعد نزولهم صاعدون، وبعد ردِّهم مقبولون؛ لأن ذلك من أسباب ترقياتهم في المقامات العالية، والدرجات السُّنية.

فقد عُرف من هذا التقرير: إن الشراد من شأن النفوس لا من شأن الأرواح، نفخ إلهي من شأنه قبول الأوامر، والعمل بالطاعات، نسأل الله تعالى ذلك القبول.

٦٠- في الحديث القدسي: «قدرت المقادير»[1]:

: أي الواقعة في العلم، فإن المقادير معدومات، وهي شيء في العلم، وليس بشيء في العين الخارجي؛ لعدم ظهورها بعد، وتقديرها إيجابه تعالى على ذاته إظهارها في الأوقات المعيِّنة لذلك، فهي ليست من قبيل ما استأثره الله في علمه.

قال ﷺ: «**ودبرت التدابير**»: أي الواقعة في عالم العين، وتدبيرها النظر إلى دبر الأمور، وليس إلا الله تعالى، فإنه الخبير بالعواقب.

قال ﷺ: «**وأحكمت الصنع**»: أي من سماء، وأرض، وما تحتويانه من الجواهر والأعراض، فإن ذلك كله صنع: أي إجادة فعل كما قال: ﴿**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ [النمل:٨٨].

فإحكام الصنع إتقانه، فلا يدخل فيه الأيدي بالفسخ، ولا العقول بالنسخ.

قال ﷺ: «**فمَن رضي**»: أي بما وقع من التقدير والتدبير والاحكام.

قال ﷺ: «**فله الرضا مني**»: أي جُوزي بما يُناسب رضاءه.

قال ﷺ: «**حتى يلقاني**»: أي فإذا لقيني على وجه الرضا؛ فله الرضاء الدائم الذي لا يعقبه سخط أصلاً.

قال ﷺ: «**ومَن سخط**»: أي بما ذكر.

قال ﷺ: «**فله السخط مني**»: أي جُوزي بما يُناسب سخطه.

---

(١) رواه الترمذي (٤٥٨/٤)، وأحمد (١٦٩/٢)، وابن حبان في صحيحه (٥٠٨/١٤).

قال ﷺ: «**حتى يلقاني**»(١): أي فإذا لقيني على وجه السخط؛ فله السخط الدائم الذي لا يعقبه رضى أصلاً.

وهذا في حق الكفار في مدة الأحقاب، وفي حق العصاة في بعض المُدد؛ كساعة، ويوم، وسنة، وألف سنة، وسبعة آلاف أعوام لا غير ذلك؛ وهم الذين إيمانهم كمثقال ذرة.

وفي الحديث: تشديد وتخويف عظيم، ولن يَكمُل للأولياء مقاماتهم إلا بهذا الرضا وهو أمر عظيم جدًّا؛ لأن الدنيا لا تصفو لشارب فعدَّ كدورتها صفوًا من حصائل الأصفياء.

٦٠- **في الحديث:«أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة»**(٢):

اعلم: أن الأمانة إمَّا أمانة صغرى، وإمَّا أمانة كبرى.

فالأمانة الصغرى: هي الأمور الشرعية التي أمر الله تعالى بها في كتابه.

والأمانة الكبرى: هي الخلافة المنوطة بالفيض من الله تعالى بلا واسطة، فهي كالنبوة في كونها حملاً ثقيلاً.

وقد قال ﷺ: «**شيِّبتني سورة هود**»(٣): أي لِما فيها من الأمر بالاستقامة الاعتدالية التي لا يقوم بها كل أحد، ومن هذا قال أيضًا: «**اللّهم اقضِ عنِّي ديني**»(٤).

فإن الدَّين: هو الأمانة مطلقًا؛ لكونها عُهدة في ذمَّة الإنسان لابد من قضائها إمَّا في أوقاتها المخصوصة كما في الأمانة، وإمَّا في كل آن من الآنات، وفي كل نَفس من الأنفاس كما في الأمانة الكبرى.

---

(١) رواه ابن ماجه (١٣٣٨/٢)، وأبو نعيم في الحلية (١١/٧).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٦٠/٧)، وعند البخاري (٣٣/١)، ومسلم (١٢٦/١) نحوه.

(٣) رواه الترمذي (٤٠٢/٥).

(٤) تقدم تخريجه.

وكل من هاتين الأمانتين كالأمانتين اللتين هما الأمانة الصغرى؛ كإمامة الصلاة، والإمامة الكبرى كإمامة السلطان؛ ولثقلهما قال ﷺ: **«الإمام ضامن»**[(١)]، فمَن ابتُلي بشيء من هاتين الإمامتين؛ فليحفظ نفسه، وكذا مَن اقتدى به، فإنه ورد: **«كلكم راعٍ، وكلكم مسئولٌ عن رعيته»**[(٢)].

والجماعة رعيته الإمام، والإمام والرعية واحد في الحقيقة، فإذا وقع من أحدهما ثلمة في الدين؛ فقد وقع من الآخر أيضًا؛ لتأثيره فيه تأثير بعض الأجزاء في البعض؛ كوجع السن، أو العين، أو البطن مثلاً، فإنه يُؤثِّر في غيرها أيضًا بحسب السريان.

وقد صحَّ أن بين الشيئين جهتين؛ جهة ما به الامتياز، وجه ما به حكم الجواز، ثم إني أقول: أراد ﷺ بفقدان الأمانة في الدين رجوع الفيض الإلهي من الظهور إلى البطون، وأول ما كان هذا الرجوع قبيل سبعمائة سنة من مدة هذه الأمة، فازداد الأمر ارتدادًا إلى الأصل إلى يومنا هذا، وهو ألف ومائة وثلاثون، وكلّما ارتدَّ هذا الأمر، ورجع قهقهري؛ قلَّ أهل الأمانة، فأكثر الناس الآن خونة ظاهر وباطنًا، وفسقة شريعة طريقة.

وأراد بفقدان الصلاة: إضاعة صورها؛ ومعناها وإن أُقيمت، وكذا إضاعة التوجه الكلي إلى الله تعالى إمَّا أنفسًا، وإمَّا آفاقًا.

وأردنا بالإضاعة النفسية: ما كان عند كل شخص من الغفلة عن الله تعالى، وبالإضاعة الأفقية: ما كان بالنسبة إلى مَن يحفظ الله به العالم بصورته ومعناه، فإنه إذا احتجب عن محافظة شيء من الأشياء الموجودة في الدنيا الداخلة تحت إحاطته؛ أسرع إليه الموت والفناء؛ لأن ذلك الحافظ؛ هو روح ذلك الشيء، فإذا قطع فيض نفسه الرحماني، ومدَّده الربَّاني عنه التحق بالعدم، وذلك بتقدير الله تعالى وقضائه.

إذ لولا ذلك؛ لامتدَّت الحياة، ولمَّا كان آخر الدنيا هو الفناء والهلاك؛ ناسبه فقدان الصلاة التي بها الحياة، فاعرف هذه الجملة، وتبتل إليه تبتيلاً، وكن حاضرًا

---

(١) رواه أبو داود (١/١٤٣)، والترمذي (١/٤٠٢).

(٢) رواه البخاري (١/٤٣١)، ومسلم (٣/١٤٥٩).

دائمًا، فإنك حين ما كنت غائبًا؛ مِتَّ عن عالم الحسِّ الحيواني، والتحقت بأهل البرزخ، واجتهد أن يتَّصل نفسك الجزئي بنفس حافظ من الحفاظ الكلي، فإنه إذا مات جسدك، حيَت روحك بالحياة الطيبة، الحمد الله بكماله.

٦١- **في الحديث: «نُصرت بالصبا، وأُهلكت عاد بالدَّبور»**[(١)]:

أشار ﷺ إلى أن الأصل في النصرة؛ هو المتبوع؛ ولذا لم يقل: نُصرت أمتي مع موافقته لمقابله، كما أنه الأصل في الأمر أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿**اتَّقِ اللَّهَ**﴾ [الأحزاب:١] من قبيل تأديب الصغير بالكبير، فإن الأمر بالاتِّقاء في معنى النهي عن المخالفات وكذا غيره، ويجوز أن يكون نحو قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ**﴾ [الأحزاب:١] من قبيل التثبيت: أي أثبت على عدم الإطاعة لهم، ثم إن الرياح واحدة في الأصل، وإنما اختلفت من حيث مهابتها، فجُعلت بعضها من قبيل الرياح النافعة، وبعضها من الضارة كالمياه، فإنها في الأصل على طبع واحد أيضًا، وإنما اختلفت من مجاريها، وكذا جوهر العالم واحد، فمنهم جواهر نفيسة، ومنها أحجار خسيسة.

وقد قال تعالى: ﴿**وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ**﴾ [الرعد:٤]: أي ومع تجاروها تختلف أحكامها.

ألا ترى إلى اللبن حيث يخرج من بين فرث ودم، ولا يتروَّح من الفرث، ولا يتلوَّن من الدم؛ كذا الابن بين الخبيثين، وكل ذلك راجع إلى أحكام الكون المضافة إلى الأسماء الجلالية، لا إلى حكم التجلِّي الأحدي الساري، فإنه على قُدسه وطهارته أزلاً وأبدًا.

ألا ترى إلى نور الشمس كيف يقع على القاذورات، وهو غير متدَّنس بها؛ لعدم حلوله فيها.

ثم إن النصرة بالصبا: إشارة إلى كمال هذه الأمة، ومحافظتهم التجلِّي الإلهي، فإن الصبا تهب من المشرق حين يستوي الليل والنهار، والاستواء اعتدال، تصبوا إليه

(١) رواه البخاري (٣/١١٧٠)، ومسلم (٢/٦١٧).

القلوب وتميل، وكذا المشرق محلُّ شروق النور وطلوعه، فإن الإنسان يتوَّحش من الظلمة، ويميل إلى النور؛ ولذا لا يخلو عن إيقاد السراج في الليل، كما أن الآفاق لا يخلو عن القمر فيه.

والشمس: إشارة إلى الروح الأمري الإضافي، وطلوعها من المشرق؛ إشارة إلى بقاء نور الروح في الوجود، واستمرار التجلّي في القلب؛ ولذا جعل الله طلوعها من المغرب من أشراط الساعة؛ لأن طلوعها منه؛ إشارة إلى زوال حكم الروح الإنساني، والتجلّي الإلهي، وظهور حكم الروح الحيواني، وإدبار أمر التجلّي، وارتداده إلى الأصل؛ ولذا قال: بالدَّبور، فإنه كما أن المشرق محلُّ الإقبال؛ فكذا المغرب محلُّ الإدبار، ومثل ذلك الروح الإنساني، والروح الحيواني، وكذا القالب والقلب.

وأشار قوله: (**نصرت**): إلى أنه ﷺ سبب النصرة بالأصالة؛ وإنما الصبا نَفس من أنفاسه الرحمانية.

وأمَّا ورثته فسبب النصرة بالتبعية، فكل جند ليس معهم أحد من الورثة، فهم مخذولون؛ لأن النفس الرحماني معهم أين ما كانوا من الآنيات المختلفة، وهذا قد غفل عنه سلاطين الزمان؛ لاحتجابهم عن الله تعالى بحجاب الكون، فكان أكثر حالهم الخذلان، ثم لا يكفي أن يكون معهم واحد منهم؛ بل لا بد من المبايعة، وحسن الاعتقاد، وإليه الإشارة بقوله: «**أنا عند حسن ظن عبدي بي**»[1]؛ وهو سرٌّ عظيم لم ينتبه له كثيرون، فبقوا حيارى، وليس محلُّ الحيرة بالنسبة إلى الخبير البصير، والله الغيور.

٦٢- **في الحديث: «سافروا؛ تصحُّوا وتغنموا»**[2]:

اعلم أن السفر إمَّا سفر صوري من مكان إلى مكان، وإمَّا سفر معنوي من مقام إلى مقام.

وأمَّا الصحة في السفر الصوري[1]: فقد يكون الإنسان مريضًا محتاجًا إلى

---

(١) رواه البيهقي في الشعب.(٥٤٦/٦)، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (١٣٦/٤).

(٢) رواه البيهقي في الكبرى (١٠٢/٧)، والديلمي في الفردوس (٣٠٦/٢).

تبديل الهواء، والبقاع مختلفة من حيث العفونة، والكثافة، والاعتدال، واللطافة، فإذا صادف الهواء المعتدل؛ اعتدل مزاجه، وسرى حكم الصحة إلى جميع أجزائه.

فقد حُكي: إن بعض الملوك خرج من بغداد إلى بعض النواحي فمرض هناك؛ فلم يصح حتى جيء إليه بماء بغداد، وهوائها في زقٍّ منفوخ؛ فظهر الاختلاف بين ماء وماء، وهواء وهواء، ومكان ومكان.

وأمَّا الغنيمة: فقد قيل: إن في الحركات البركات، فقد يكون المرء بحيث يربح في تجارته في الغربة ما لا يربح فيها في الوطن، لمَّا أن الله تعالى بثَّ النفع والضرَّ، والخير والشر في أقطار الأرض، والمرء لا يدري أي قطر هو خير له؟ وقد يكون بعض البلاد بحيث يغلب عليها حكم بعض الكواكب؛ كالثريَّا في الشام، وسهيل في اليمن، وقِس عليها ما هو نحس منها؛ كالمريخ، والزحل، ووقت السعد والنحس من الاقتران؛ فيصادفه في السفر، فهذه غنيمة متعلِّقة بالمال، والأولى صحة متعلِّقة بالبدن وقدمها؛ لأن الصحة أصل في انتفاع البدن بالمال إذ لا ينتفع المريض بماله؛ ولو كان قنطارًا.

ولذا ورد: «**العلم علمان: علم الأبدان، ثم علم الأديان**»[2]، إن الدين وقوامه تابع لصحة البدن واعتداله، فكان المال والانتفاع به.

وأمَّا الصحة في السفر المعنوي: فإن المسافر الخارج إلى الله تعالى من اسم له إلى اسم مريض من جهة أوصاف نفسه المضرَّة، وأخلاق قلبه الذميمة، فباطنه سقيم مجروح، وله قروح لا تُحصى، محتاج إلى طبيب وجرَّاح، وهذا السفر يعين على صحته المعنوية؛ لأن باليقين يزول الشك، وبالتمكين يذهب التلوين، وبالشهود يغيب

=

(١) السفر عند الصوفية: عبارة عن القلب عند أخذه في التوجه، بتصحيح معاملات وتعديل أحوال، تسفر عن النفس المرتقية في مناهج كمالاتها سفساف الأخلاق ويحليها بمعرفة مكامن القواطع، وموارد القطعيات من المراتب الكونية، و الحضرات الحقية إلى الحق تعالى بالذكر.

والذكر هنا: إحضار القلب مذكورة، ومواجهته إياه، واستمراره على ذلك إلى حد تنطمس فيه موارد الذهول والنسيان

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٩/١٤٢)، وذكره العجلوني في الخفا (٢/٢٨٠).

الاحتجاب، وبالعلم يضمحل الجهل، ولا يزال في كل نَفس من أنفاسه يسافر إلى حال من الأحوال، وإلى مقام من المقامات إلى أن ينتهي إلى آخرها بحسب استعداده.

فإن المنتهى وإن كان واحدًا كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم:٤٢]؛ لكن نقاط الدائرة مختلفة بالنسبة إلى المركز، فالتفاوت إنما هو في الكيفيات.

ألا ترى إلى الأبصار فإنها لا تدرك إلا بقدر قوتها وضعفها، وإن كان المرء قريبًا.

وأمَّا الغنيمة في هذا السفر: فالاستكثار من العلوم الإلهية، والمعارف الربَّانية، والحكم اللطيفة، والحقائق الرقيقة، والأذواق الشهية، ومعانقات العذارى المقصورة في خيام ومواصلات حور عين؛ كأمثال اللؤلؤ المكنون في أصداف البحر.

وأية غنيمة فوق هذه الغنيمة؟ فهذه غنائم الفقراء السالكين، فإنهم قلَّلوا الأغذية الجسمانية، واختاروا السهر، والصمت، والخُلوة حتى أغناهم الله من فضله الكثير، ومنه الوفيرة، وأراهم جماله حين قام الخلق، وكالمهم، وكان معهم حيث كانوا، نسأل الله سبحانه أن يسلك بنا مسالك أولئك الواصلين، ويرزقنا من نعيمهم، ومزيدهم في كل حين.

٦٣- في الحديث: «مَن أهان سلطان الله؛ أهانه الله، ومَن أكرم سلطان الله؛ أكرمه الله»(١):

الإهانة ضد الإكرام، كما يُعرف من المقابلة، وسلطان الله أعم من أن يكون القرآن، أو القائم بالقرآن بظاهره ومعناه، والإمام الظاهر بصورة السلطنة.

أمَّا الأول؛ فلأنه حُجة الله وبرهانه على المنكرين، فمَن أهانه بترك العمل به؛ أهانه الله بالعذاب المهين، وكان عمر ﷺ يُقبِّل المصحف كل صباح، ويقول: هذا كلام ربي؛ يعني: يُعظِّم ظاهره بالتقبيل، وباطنه بالعمل بموجبه.

ولا شك أن تعظيم الكلام تعظيم للمتكلِّم، وكذا الإهانة به، واستحقاره

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى (١٣٦/٨)، وأحمد (٤٨/٥).

إهانة، واستحقار للمتكلّم، واستحقار العظيم عظيم؛ ولذا كان جزاؤه الإهانة من الله تعالى على حدٍّ قوله تعالى: ﴿اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:١٥].

ومن إهانة القرآن؛ إهانة ما يدلُّ عليه من الآثار، ويُخبر عنه من أحوال الأخيار والأشرار.

وأمَّا الثاني؛ فلأن القائم بالقرآن بظاهره وباطنه؛ هو خليفة الله ووارث رسوله ﷺ، وكان خُلق رسول الله؛ هو القرآن؛ بل كان هو بنفسه عين القرآن؛ هو الكلام التنـــزيلي، والإنسان الكامل؛ هو الكلام التكويني.

فكما أن الكلام التنـــزيلي مشتمل على الحروف، والكلمات، والآيات، والسور؛ فكذا الكلام التكويني مشتمل على ذلك، فحروفه الشئون الذاتية، وكلماته الأعيان العلمية، وآياته الحقائق المجرَّدة الأرواحية، وسوره الآثار المثالية الجسمانية، فهذه هي حروف كتاب الوجود الظلّي، وكلماته، وآياته، وسوره.

وأمَّا كتاب الوجود الحقيقي؛ فحروفه الأسماء الذاتية الأحدية، وكلماته الأسماء الصفاتية الواحدية، وآياته الأسماء الأفعالية، وسوره الآثارية.

فظهر أن الإنسان الكامل؛ هو القرآن من حيث إنه كتاب جامع لحقائق الأشياء كلها، وله كلام يصدر عنه؛ فهو كلام الله أيضًا؛ لأنه مظهر الحق، ومظهر أسرار القرآن، فمَن أهانه بعدم الإصغاء إلى كلامه، وحُجته، وبرهانه؛ أهانه الله بتركه في الحجاب المانع عن سماع الخطاب الإلهي، ومَن أكرمه بأن يقبل كلامه لعلمه بأنه كلام الله حقيقة؛ أكرمه الله بكرامات المكمالة، والمناجاة، والتحقق بحقائق الكلام، وفيه إنذار عظيم للغافلين المحجوبين، وتبشير جسيم للمتيقّظين المكاشفين.

وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**اللّهم أرنا الحق حقًا، وأرزقنا اتّباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وأرزقنا اجتنابه**»[1]، فمن الحق أولياء الله، ومَن والاهم، ومن الباطل أعداء الله، ومَن والاهم.

فإن الأولين يلزم موالاتهم؛ لحقيَّتهم، والآخرين يجب مُعاداتهم؛ لبطلانهم.

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/٢٥٢).

وأمَّا الثالث فلأن السلطان سرُّ الله الرحمن؛ القيامة بوحدته مقام وحدة الحق، ووجوب وجوده، وشمول ظلّه على جميع الرعايا؛ كشمول رحمة الله على جملة البرايا، فهو ظاهر على صورة اسم الله الأعظم، فمَن أهانه بترك المبايعة له، والخروج عن حكمه، وسلطانه؛ أهانه الله بإقامته في دائرة المبتدعة الشاردة عن حكم الجماعة، ومَن أكرمه بالدخول تحت لوائه؛ أكرمه الله بالنصرة على الأعداء الظاهرة والباطنة.

فإن قلت: فكيف الإكرام إذا كان خارجًا عن حكم الله في أكثر أحواله؟ قلت: قد ثبت أن الطاعة اليسيرة من السلطان بمنـــزلة الطاعة الكثيرة من غيره؛ فهو مظهر اسم الذات، ولذا كان قائد الخلق.

كما أن الاسم الأعظم يقود جميع الإلهية، وكذا مَن هو رجال السلطنة تحت يده، فإنهم أيضًا مظاهر الأسماء الذاتية الكلية؛ لكليتهم بالنسبة إلى سائر الأسماء الجزئية ومظاهرها، ولهم ملائكة متعيِّنة في السماوات تلهمهم الحق ليعملوا به.

ومنه قولهم: أرباب الدول ملهمون، فربما يوجد عندهم من العلم ما لم يكن هو عند العلماء؛ بل منهم أمي لا يعلمون الكتاب؛ لكن ما باشر به من الأفعال؛ يكون موافقًا له بتوفيق الله تعالى، هذا إذا كان صحيح النية في سلطانه، وإلا فيعسر الوقوف عند الحق، والوصول إليه؛ لغلبة حجاب الكون.

ألا ترى أن السمع إذا كان مسدودًا، أو كان القائل وراء حجاب غليظ؛ فإن السامع محروم عن السماع، فكذا إذا كان القلب محجوبًا بحجب العوائق، والتعلُّقات الكونية، والخواطر الفاسدة؛ فإنه عين العمى، والأعمى لا يُبصر شيئًا، وكذا أعمى القلب لا يدرك شيئًا مع أجود الإلهام، والإلقاء، والتجلّي على حاله، إذ ليس عند الله بخل وإمساك؛ بل جود وفيض.

فالمانع من طرف العبد؛ فهو محجوب لا من طرف الحق تعالى؛ إذ هو محتجب بصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وذلك بحجاب له في الحقيقة؛ لأنه كقناع العروس؛ فهو حجاب للغير لإلهام، ولا غير هنا بالنسبة إلى أحدية التجلّي، فإن الغيرية الحاصلة في مرتبة الواحدية إنما هي باعتبار التعينُّات، وصور الحقائق، واختلاف التجليَّات، وذلك لا يضرُّ بالعينية في المرتبة الأولى.

واعلم أن وجود الإنسان الكامل؛ هو حرم الله تعالى، ويمينه بمنـزلة الحجر الأسود، فكما أن مَن استلم الحجر الأسود؛ فقد بايع الله ورسوله في مرتبة الشريعة؛ فكذا مَن استلم يمين الإنسان الكامل؛ فقد بايع الله ورسوله في مرتبة الحقيقة، ولمَّا كان السلطان الأعظم ظلّ الله: أي صورة الحقيقة الإلهية الجامعة للحقائق كلها؛ كان استلام يده، والمبايعة له بمنـزلة استلام يمين الإنسان الكامل، والمبايعة له، ومنه يظهر إن المراد الاستلام بحقائق الإيمان، والإسلام، والتوحيد لا بمجرَّد التقليد.

فرُبَّ كافرٍ يستلم الحجر الأسود، ولا ينفعه ذلك في الباطن، وإن نفعه في الظاهر، وكذا رُبَّ منكرٍ يستلم اليمين مطلقًا سواء كانت يمين باطن الحقيقة الإلهية؛ وهو يمين الإنسان الكامل، أو يمين ظاهر تلك الحقيقة؛ وهي يمين السلطان الأعظم، وقد يكون السلطان خليفة الله تعالى؛ فيكون له يمينان؛ يمين ظاهر السلطنة، ويمين بطانها، فيكون استلام يمينه بمنـزلة استلام اليمنين؛ كالخلفاء الأربعة، ومَن تبعهم في طريقتهم، وسيرهم.

وأمَّا إذا كان ظاهرًا في صورة الظلّ؛ فلا بد له أيضًا من مبايعة مَن هو في مرتبة الخلافة الكاملة، ومتابعته؛ كمتابعة الظلّ للمظلول، وإلا لم يكن متصورًا؛ بل مخذولاً هذا، فإنه مطابق لنفس الأمر، ومن لُباب المعرفة الحاصلة في أواخر العمر.

٦٤- في الحديث الصحيح: «الرؤيا الصالحة يراها الرجل، أو تُرى له[(١)]»:

الرؤيا الصالحة هي الصادقة التي توافق الوقع، وهي ما لم تكن من غلبة الخيال، ولا من مداخلة وسوسة الشيطان، فإنها إذًا تكون كاذبة خيالية أو شيطانية، ومنها الاحتلام وقد تكون للسالك حين سلوكه، وقد تكون من ضعف المزاج والقوى، ولذا قد تقع من الكُمَّل، ولا تقدح في مرتبهم.

ومنها: ما رُوي: «إن آدم أبا البشر احتلم، فخلق الله من نطفته يأجوج ومأجوج[(٢)]»، إن صحَّ فإن بعض العلماء ذهب إلى عدم صحته بناءً على أن ساحة

---

(١) رواه مسلم (٣٤٨/١)، وأبو داود (٢٣٢/١).

(٢) لم أقف عليه.

أعراض الأنبياء - عليهم السلام - مصونة عن مثل ذلك التلوث، وليس بذاك على أن الله تعالى إن كان قد قدر خلق يأجوج ومأجوج من نطفة آدم.

لم يلزم أن يكون ذلك عن شهوة خيالية، بل على وجه غير ذلك، فكان من حكمته الخفية أن خلق حواء من ضلعه، ويأجوج ومأجوج من نطفته من غير علوق في الرحم، إشارة إلى خساستهم في نفوسهم، وسائر الذرية بعلوق الرحم، إشارة إلى شرفهم في نفوسهم؛ لكونه طريق التناسل، حتى إن أفضل الأنبياء جاء على هذا الطريق.

ثم إن قوله: (**يراها الرجل**): إشارة إلى الرؤيا الأنفسية.

وقوله: (**أو تُرى له**) على المجهول: إشارة إلى الرؤيا الأفارقية، والرجل عالم لكل رجلٍ معهود في الذهن: أي رجلٍ كان، والتخصيص مبني على الغالب، أو على أن المرأة تابعة له في الأحكام، وذلك أنه إذا صفا الوقت كالأسحار، أو ارتفع الموانع، واعتدل المزاج، فإن المرآة الإنسانية مطلقًا تقبل الصور المثالية.

٦٥- في الحديث: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك[1]»:

اعلم أن الإنسان إما أن يكون مع الحق فقط، بأن يكون غائبًا عن الخلق رأسًا، وهو حال الجمع والفناء التام، والمحفوظ منهم من يعود إلى الحس وقت أداء الفرائض، فلا يجري عليه لسان ذنب بخلاف غيره، وإما أن يكون مع الخلق فقط، بأن يكون غائبًا عن الحق وشهوده، وهو حال أهل الفرق الأُول، والمحفوظ منهم من تداركه الله تعالى في حال الصلاة بالشهود في الجملة، ولو خياليًّا.

وإمَّا أن يكون مع الحق والخلق جميعًا، وهو حال أهل جمع الجمع والبقاء، والفرق الثاني، والمشروح الصدر، فمن كان حضوره دائمًا مع الله تعالى سواء كان من أهل الفناء، أو من أهل البقاء، فهو مصون عن النفس والشيطان، وعن كل ما سوى الله؛ لأن الحضور والغيبة لا يجتمعان، ومن كان غائبًا عن الله تعالى، كأهل

---

(١) رواه أحمد (٤٢/٥)، والبيهقي في الشعب (٤٧٦/١).

الفرق الأُول، فهو موكول إلى النفس والخلق؛ لما ذكرنا للنبي ﷺ من كمال رحمته على أمته، دعا بما ذكر من الدعاء، فهو إما تشريع لهم بأن يدعوا الله تعالى.

هكذا حذرًا عن الغفلة والحجاب، وإما أن التقدير: اللهم لا تكل أمتي إلى نفوسهم، فإن النبي نفسه معصومٌ مع بقاء الإمكان الذاتي؛ لأن العصمة امتناع بالغير، وهو لا ينافي في ذلك والله العاصم الحافظ.

٦٦- في أحاديث الجامع الصغير: «**عليك بالهجرة فإنه لا مثل لها**»(١):

إن قلت: قد ثبت في الجامع الصغير أن الصوم لا مثل له أيضًا، فكيف التوفيق؟

قلت: فيه جوابان:

الأول: إن ما لا مثل له من الأعمال كثير، **فمنه**: الصوم، **ومنه**: الهجرة.

والثاني: إن الصوم من باب الهجرة في المعنى، فإن الهجرة ترك الوطن والمألوف، فالهجرة من دار إلى دار من باب ترك الوطن والمألوف جميعًا، والصوم من باب ترك المألوف فقط؛ لأن عادة الطبع الأكل والشرب بحيث لا يكاد يصير عنهما، فإذا صام؛ فكأنه ذبح الطبع، وأحي القلب، وأتى بعمل لا مثل له، وكذا الهجرة من دار إلى دار، فإن فيها مهاجرة المألوف، وقطع السكون إليه.

ولا شك أن الاستئناس والائتلاف بالمخلوق؛ بل بما سوى الله تعالى انقطع عن الله، كما أن قطع العلامة عنه اتصال بالله، وقد أمر ﷺ بذلك، كما قال تعالى: ﴿**قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ**﴾ [الأنعام:٩١]، فإنه إذا وجب مقاطعة صحبة الإنسان؛ وهو صورة الحق في الحقيقة؛ فما بالك بغيره من الأشياء، وقال تعالى﴿**وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً**﴾ [المزمل:٨].

٦٧- وفي أحاديث الجامع الصغير: «**لا تذهب الدنيا حتى تصير إلى لكع ابن لكع**»(٢).

---

(١) رواه النسائي (٥/٢١٣)، والديلمي في الفردوس (٣/٣٢).

(٢) رواه أحمد (٢/٣٥٨)، والطبراني في الكبير (٢٢/١٩٥).

أراد باللكع؛ اللئيم؛ وهو ضد الكريم.

فإن الدنيا تقوم بكرم الكرماء، فإذا صارت إلى اللئيم البخيل؛ كان ذلك من أشراط الساعة على أن اللئيم يُخطئ غالبًا؛ إذ ليس بأصل بخلاف الأصل، فإنه لا يُخطئ كما ورد في الأثر.

والحاصل: إن الكرم من شأن الأصل غالبًا، كما أن البخل من شأن غير الأصيل غالبًا، وقد جُرِّب كل منهما مرارًا في كل عصر، فوجِّد كذلك، وصيرورة الدنيا إلى اللئيم؛ بمعنى انتقال الدولة والمناصب إليه، كما نشاهد في زماننا هذا.

فإن الأصيل مُبعد، والداعي الدخيل مُقرَّب، وذلك مبغوض عند القلوب، والبغض من علامات التفرقة؛ ولذا قلَّما اتفق نصرة اللئام، ولو اتفق تحت راياتهم ألوف، ثم إن اللئيم في الحقيقة؛ هو البخيل بذكر الله، كما دلَّ عليه قوله ﷺ:

«**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله**»(١)، حتى ينقرض أهل الذكر المتَّصل؛ وهو ذكر أهل الله الاستغراق.

فاتصال أهل الذكر في جميع الأوقات يُعدُّ من الكرم، كما ورد أنه ﷺ كأنه يذكر الله على كل أحيانه؛ ولذا وُصف بالجود والعطاء بحيث لا غاية له، وأمَّا انقطاعه في بعض الأوقات؛ فيُعدُّ من البخل، كما عليه أهل الغفلة والنسيان.

ومن أعظم النسيان: منع مَن ذكر الله تعالى عن الذكر، وفي مثله ورد: ﴿**نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ**﴾ [التوبة:٦٧]؛ يعني: نسوا الله في أنفسهم حق لم يرضوا في حق غيرهم إلا النسيان؛ ولذا مُنعوا من الذكر، وحملوا الذكر على الترك، والنسيان؛ فنسيهم الله حيث لم يذكرهم في ملأ خير منهم؛ وهم أهل النور أصحاب المكانة المثلى.

اللّهم إني أسألك الذكر الكثير، والخير الوفير، والحضور الدائم، والوِرد القائم، والوارد الملائم.

٦٨- في المرفوع: «عليكم بالشام»(٢):

لم يُرد ﷺ بالشام دمشق فقط؛ بل أعمُّ منها، ومن غيرها من الشامات إلى آخر الأرض المقدَّسة.

---

(١) رواه مسلم (١/١٣١)، والترمذي (٤/٤٩٢).

(٢) رواه الترمذي (٤/٤٩٨)

وفي الحديث أيضًا: «**صفوة الله من بلاده يجيء إليها صفوته من خلقه**»[1]، وفيه من التحريض على الإقامة في الشام.

ما في الحديث الأول: فإنه إذا كان المجتبي إليها والمجموع صفوة الخلق؛ فليرغب العاقل في الهجرة إليها، والإقامة فيها؛ ليكون من صفوة الخالق، ومختار الناس، فإن قلت: إن الشام لا تخلط من أجلاف العرب والترك ونحوهم.

فكيف يكونون من صفوة الخلق؟ قلت: قد ورد في بعض الأحاديث: «إن الله ملكًا ينقل الأموات، فمَن استأهل بالشام؛ فهو فيها حيًّا وميّتًا، ومَن لم يستأهل لها؛ فهو في الشام حيًّا، وفي غيرها ميّتًا، فإن الله يضم كل مجانس إلى مجانسه؛ كما يضم من عمل عمل قوم لوط إليهم»[2].

كما ورد في الحديث الصحيح.

وقوله ﷺ: «**ادفنوا أمواتكم وسط قوم صالحين**»[3]، فإن ذلك إنما هو بالمستأهل في الجملة.

فإن الأرض المقدَّسة لا تُقدِّس أحدًا بلا عمل، واعتقاد الصالح لا يشفع في الطالح إلا إذا كانظظو فمَن أذن له في الشفاعة، وهو المؤمن الغير المتعمِّد المعظِّم للشريعة في الجملة، فإن قلت: لِم حرَّض على الإقامة بالشام مع فضل الحرمين الشريفين عليها.

قلت: الأمور **الأول**: إنها نهاية مقام الصفات، وفيها يطيب عيش الناس.

فإن المدينة أول مقام من مقاماتها، وفيها عيش الناس؛ لقربها من مقام الذات الذي هو حرم الله تعالى.

والثاني: إن من الفتنة الكبرى في آخر الزمان؛ فتنة بني الأصفر؛ وهم لا يدخلون الشام، وحلب، فهما مأمنان للخلق في ذلك الزمان؛ لكن الشام أفضل من حلب؛ لقرب حلب من أرض الروم بالنسبة إلى الشام.

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى (١٧٩/٩)، والطبراني في الكبير (٥٥/٢٢) بنحوه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٥٤/٦)، والديلمي في الفردوس (١٠٢/١).

والثالث: إن الشام والقدس أرض المحشر، فالأمر بالهجرة إليها رحمة من الله تعالى لخلقه؛ حتى يكونوا يوم القيامة محشورين من محلّ الشفاعة؛ لأنها محفوفة بالأرواح الطيبة من الأنبياء، وكُمَّل الأولياء.

فمن الأول: الجد النبوي؛ وهو الخليل، وابنه إسحاق، وابنه يعقوب، وموسى، وزكريا، ويحيى، ويوسف وغيرهم عليهم السلام.

ومن الثانية: حضرة الشيخ محيي الدين العربي -قُدِّس سرُّه- فإنه كان يُسمَّى عليه السلام من اسم أبيه زكريا، وفي الدنيا ذبح كبش الموت في الآخرة، ولذا بحضرة الشيخ وبعلومه وحقائقه حُيِيت القلوب، وبإرشاده وتربيته ماتت النفوس، وكانت آثاره باقية إلى قيام الساعة، وبها حَيِي اسمه كما قال هو نفسه في الفتوحات: ولكل عصر واحد يسمو به، وأنا الباقي العصر ذاك الواحد.

ولا شك أن الإقامة في بلدة كانت الكُمَّل فيها بأجسامهم وأرواحهم أقوى من الإقامة في بلدة كانوا فيها بأرواحهم فقط، ومن هذا رغب في زيارهم أينما كانوا؛ كأنها لزيارة الأحياء.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ [آل عمران:١٦٩].

فإنه إذا كانت الشهداء الصورية أحياء عند ربهم؛ كانت الشهداء الحقيقية أَوْلى بذلك؛ لأنهم فانون في الله، باقون بالله، والله هو الحيُّ القيُّوم؛ فكذا نفوسهم في أبدانهم، فكانت محفوظة عن التفسُّخ والانحلال، والله يقول الحق على لسان الحقي بلا وهم ولا خيال.

٦٩- قوله ﷺ: «**إن الله في قبلة أحدكم**»(١).

اعلم أن جميع الإنسيات قبلة عند العارفين على ما أفاده قوله تعالى: ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ**﴾ [البقرة:١١٥]؛ لكن الأدب؛ هو التوجه إلى أين الكعبة كما أفاده قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ [البقرة:١٤٩].

---

(١) حديث ذكره بعض صوفية التحقيق في كتبهم.

ثم إن الله تعالى نصَّ على المعيَّة الذاتية في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، وقد حملها العارفون على معنى معيَّة الشيء إلى نفسه، ونصَّ رسول الله ﷺ إلى أن الله في جهة قِبلة المصلِّي، وبينهما تدافع.

والتوفيق هو أن كون الله تعالى مع عبده؛ إشارة إلى التجلِّي الوجودي، والنفس الرحماني، فهو مظهر نوره تعالى، وعامل سرِّه، وكونه في قِبلته؛ إشارة إلى القلبي من باطن الغيب إلى ظاهره في العلماء التفضُّلي، فإنه تعالى متين في تلك المرتبة بين الفاعل، والقابل، والمؤثِّر، والمتأخِّر، والمفيض، والمستفيض، فكانت الحقيقة الواحدة حقيقة فاعلية من حيث باطنها وقُدسها، وحقيقة قابلية من حيث ظاهرها وتعيُّنها.

وهذه نسبة معتبرة بين الحقائق الإلهية، والحقائق الكونية؛ لتمييز المراتب على ما يستدعيه الأسماء المختلفة الحقائق، فكان الله تعالى ساجدًا ومسجودًا في الحقيقة من حيث أحدية الوجود، والفيض الأقدس، ومسجودًا فقط من حيث اعتبار الوحدة، والفيض المقدَّس.

فالعبد ساجد في هذه المرتبة الذاتية، فلا تحصل: أي المناجاة، ولا تتحقق إلا بينهما، ومن مقتضياها الفهوانية والمشافهة على ما يستدعيه الخطابات القرآنية لاسيما ما وقع في الفاتحة؛ ولذا اقتضى الحال المحاذاة والمقابلة؛ ليصحَّ الخطاب والمناجاة، وهي بكون العبد متوجهًا إلى القبلة.

وكون الرب متوجهًا إلى العبد؛ فيكون الحق هو القبلة في الحقيقة، كما أنه هو المجيب لمكالم غيره منه تعالى حتى لا يكون توجه العبد إلى ما سواه تعالى لا صورة ولا معنى، أمَّا المعنى فلا بحث عنه؛ لكونه مما لا يدرك إلا بالذوق بعد الدخول في دائرة البساطة، وأمَّا الصورة؛ فلأن الله تعالى في حالة المناجاة والمكالمة يتجلَّى في صورة مثالية يحصل فيها الكلام والخطاب، وأمَّا باعتبار تجرُّد ذاته، وغناه عن العالمين؛ فلا صورة له أصلاً، وكذا لا يكون في جهة ونحوها على ما أفاده الحقائق، فاعرف، فإنه من لُباب المعرفة.

٧٠- وأمَّا قوله: «**مَن ثبت نبت**»[(١)]؛ فإنما هو في حال التلوينات أو غيرها.

واعلم أن أحسن الأخلاق بين الله وبين عبده؛ هو الرضا والتسليم، وأحسنها بين العباد؛ السخاء وحُسن الخلق.

كما ورد: «**إن لله ثلاثمائة وستين خُلقًا**»[(٢)]؛ أحسنها السخاء؛ لأن فيه تخلُّقًا بسرِّ الوجود والفيض الذي هو من عين المنَّة، فمَن كان جوَّادًا في ماله؛ كان في نفسه، كذلك كحال الخليل عليه السلام.

ولا شك إن كلاًّ من المال والولد والنفس حجب كونية لا بد للسالك من خرقها، والولوج في عالم الجبروت والمعاني، أيَّدنا الله تعالى وإياكم في طريقه، وأذاقنا حلاوة فيضه وتوفيقه، آمين بجاه النبي الأمين.

ظهر لي ليلة الخميس التاسع من شهر المولد النبوي من سنة ثلاثين ومائة وألف: إن كتب الهداية لا تُباع وأعظمها القرآن، ثم الحديث، ثم التفسير، ثم ما يتوسَّل إلى ذلك من العلوم النافعة، ومن ثم ذهب العلماء إلى كراهة بيع المصحف، والتلاوة بالأجرة ونحو ذلك؛ لأن ما كان من الأمور الأخروية؛ فله قدر عند الله تعالى، وما له قدر عنده كيف يُباع بثمن بخس دراهم معدودة؟ فما رفعه الميزان الإلهي لا يُخفض ولا يُوضع.

ثم إن المراد من كتب الهداية من طريق الإشارة؛ هي كلمات الله التامات؛ وهي الأرواح الخيِّرة؛ كالأنبياء، وكُمَّل الأولياء، فإن وجوداتهم كتب إلهية مشتملة على الحروف، والكلمات، والآيات، والسور الإلهية الحقيقية، وكلها لدعوة الناس، وهدايتهم إلى الله تعالى كما قال تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الشورى: ٥٢].

ولا شك أن هذه الكتب؛ هي سرُّ الله الأعظم؛ ولعظمها لو بيعت؛ لبيعت بالله تعالى، والله لا يُباع بالله، فليس هذه الكتب ما يقابلها من الثمن، فمَن وجدها؛ فقد

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

اهتدى؛ ولذا وصَّى الكُمَّل بمبايعة الكُمَّل، وبذل المال والوجود لهم؛ حتى يكون لهم قدر عند الله تعالى مثلهم، وأين هذه المعرفة الكاملة من عقول العوام وقلوبهم؟ فإنما يهتدي إلى الخواص مَن يهتدي بالله، لا بالنفس، فإن كان دين صحيح؛ فلا بد لك من الكتاب مطلقًا، فإن الدين لا ينفك عنه قطعًا.

٧١- **في الحديث:** قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: «**لاَ هِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ**»[1].

أشار ﷺ إلى فتح مكة الوجود بحصول المشاهدة للقلب، فليس بعد ذلك هجرة: أي تعب ومحنة، وإن كان فبالإضافة.

ألا ترى أن أهل الله مبتلون بأنواع البلاء بعد الوصول إلى مقام، وكشف حجاب الحسِّ، والخيال بتجليَّات نور الأفعال والصفات، فإن ذلك من باب التتمَّة، والتكميل، والتهيؤ إلى تجلِّي نور الذات بإزالة حجاب الوهم، فللسالك هجر مرة بعد مرة لكن بعض ذلك من قبيل الفرائض، وبعضها من قبيل النوافل، وأكثر غير الملائم في الدنيا متوجه إلى الأماثل والأفاضل؛ ليتسع القلب لظهور التجليَّات المتنوعة.

فمَن عرف هذا السرَّ؛ لم يبك من البلاء، فإنه إنما أُبتلي به؛ لأجل الترقِّي والإعراض عن الأسباب، الترقِّي تنـــزُّل جدًا، والسفر من بواعث الإقبال إدبارًا قطعًا، ثم إن الله تعالى يبتلي عبده بما شاء، كيف شاء، متى شاء.

ولا ينـــبغي للعـــبد أن يسأل ذلك، فربما لا يتحمله؛ بل الواجب عليه عند جريان القضـــاء طلب الصبر والسكون والرضا؛ حتى يُهوَّن عليه ذلك، ولا يشقى به كما شقى الكفار، ومَن يليهم من المحجوبين.

نعوذ بالله من الجهل والغرور والمكابرة، ونسأله العفو والعافية والمصابرة.

---

(١) رواه البخاري (٢/٦٥١)، وأبو داود (٣/٣)، والنسائي (٤/٤٢٦).

بعض الواردات

وارد المرشد والمريد(١)

اعلم أن المرشد الكامل كالملك الذي ينفخ الروح في الجنين؛ فإنه ينفخ روح الفيض في الجنين الذي يشتمله رحم استعداد المريد، والمراد بالنفخ، صورة اشتعال حطب الجسد بنار الروح، ولمّا كان ظهور تلك النار في المحلّ من تربية النافخ؛ جُعل المرشد كالنافخ، وليس إلا المظهر، ففيه سرُّ الخلافة؛ ولذا قال تعالى: ﴿**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾ [المؤمنون:١]، وإنما كان الله أحسنهم؛ لأنهم إنما يُخلقون على صورة ما خلق الله؛ فهم الفرع في ذلك، والله هو الأصل والمبدأ.

---

(١) أعلم رجال الطريق هم الذين وصلوا إلى مقام القرب، والتمكين وله خمسة أركان، وعشرون صفة:

أمّا الأركان فهي: عبدية الحضرة، واستعداد قبول الحقائق الحضرة بلا واسطة، ووجود الرحمة الخاصة من المقام العندية، وشرف تعلم العلوم من الحضرة، وكون التعلم منها بلا واسطة قال الله تعالى: ﴿**فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً**﴾ [الكهف:٦٥]، فاندرج فيه جميع ما ذكر من الأركان كما هو الظاهر، وأمّا الصفات: فهو أن يكون عالمًا بالشريعة على قدر الحاجة، وأن يكون على اعتقاد أهل السنة والجماعة، وعاقلاً بالعقل الديني والمعاشي، وسخيًّا وشُجاعًا، وعفيفًا من جهة النفس، وعالي الهمَّة مشفقًا على المريد، وحليمًا وعفوًا، وحسن الخلق، وصاحب الإيثار، وكريمًا ومتوكلاً، ومسلّمًا وراضيًا بالقضاء، وذات وقار وساكنًا في الحركات، وثابت القدم في الإرادات، وذات هيبة، فالموصوف بهذه الأوصاف متخلق بأخلاق الله يوصل المريد إلى الحق تعالى بإذنه تعالى في مدة قصيرة بشرط أن يكون المريد أيضًا موصوفًا؛ لأنه ينبغي أن يكون موصوفًا بعشرين وصفًا كالشيخ، وهي التوجه والزهد والتجريد واعتقاد أهل الحق والتقوى والصبر والمجاهدة والشجاعة والبذل والفتوت والصدق والعلم والطلب والحيلة مع الأعداء.

والملامتية هي أن يكون المدح والذم، والرد والقبول عنده سواء والعقل والأدب وحسن الخلق والتسليم والتفويض، فإذا وجد المريد كذا، وأخذ عن رجل كذا في مدة يسيرة يحصل ذا، وإلا فمتعسر أو متعذر كما عرفت، فإذا لم يأخذ الطريق من الرجال فالانتقال محال، وإذا لم يحصل الانتقال لم يتحقق بحقائق الحروف والأسماء، ومن لم يتحقق بها يكون مصروفًا عن كشف غوامض الأشياء.

فظهر أن المريد ولد المرشد وفرعه: أي في الظهور؛ لأنه لولا ظهور المرشد قبل ظهور المريد، كما أنه لولا ظهور الحق بذاته لذاته في ذاته؛ لما ظهر الخلق أبدًا ، فكان ظهور الحق؛ هو المبدأ في جميع الظهورات؛ ولذا وصف نفسه بالأولية والظاهرية، ولمّا كان ظهور الإنسان بالمعنى أَوْلى من ظهوره بالصورة؛ لأن المعنى حق، والصورة خلق؛ كان الأستاذ أحق بالتعظيم من الأب ،والمرشد أولى بالتقديم من الوالد.

ومن العجائب أنه كما أن للمرشد والوالد فضلاً على المريد والابن من حيث التربية والوالدية؛ فكذا للمريد والابن فضلاً على المرشد والأب؛ لأن كلاًّ منهما في حكم المعين لهما؛ فالمرشد مثلاً كالأنثى الحاملة، والمريد المستعد كالقابلة، فإن ما يلد منه إنما يلد بمباشرة المريد، ولولا المريد لما وُلد مولود من المرشد، ففيهما سرٌّ قول مَن قال من بعض الأكابر: فلولاه ولولانا؛ لما كان الذي كان.

فظهر أن مرتبة الأُلوهية من الإضافات؛ فإنها نسبة بين الإله والمألوه، والنسبة لا ترتفع مادامت المرتبة باقية، ومنه يعلم سرَّ قوله تعالى: ﴿**فَاعلم أنهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ [محمد:١٩]؛ يعني: إن علمك إنما يتعلّق بمرتبة الأُلوهية.

وأمّا ما فوقها من مرتبة الغنى عن العالمين؛ وهي مرتبة الذات البحث؛ فلا يدخلها علم؛ لأنه لا اسم، ولا وصف، ولا رسم هنالك؛ ولذا يُقال: إن الله هو المحيط بكنهه.

ومما قررنا يُعرف سر طلب مقام الوسيلة لنبينا ﷺ؛ فإن ذلك من باب الغَيرة الإلهية؛ فهو كنصب السلطان من قِبل الرعية مع أن السلطان؛ هو الحاكم الآمر الناهي، فليس الكمال المطلق إلا لله تعالى؛ ولذا كان أعلم مطلقًا.

وأمّا النبي ﷺ فقد قال: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**»(١).

وقال تعالى: ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [الإسراء:٨٥].

وإن كان علم الكائنات بجنب علمه ﷺ قطرة من سبعة أبحر، و لم يزل الإنسان

---

(١) ذكره السيوطي في شرح سنن ابن ماجه (٢/١)، وابن حزم في الاحكام (١٢٨/٥).

الكامل في الدنيا يطلب مرآة لكماله، فإن بتلك المرآة يظهر لكماله في المريد، وأيضًا يحصل صورة كمال من المريد ينتفع به المرشد، وقد جُرِّب إنه كلّما كان المريد أكمل استعدادًا، وقرر عند الشيخ أمرًا من أموره؛ فإن للشيخ ترقيًا بحصول معارف زائدة من تقريراته.

وإن كانَ المريد لا يعرف ذلك، ونظيره علم الكيمياء فقد يدخل المتحيِّر في العلم من تقرير بعض مَن لا يقدر على علمه، وبيد الله الحل، والعقد، والقبض، والبسط، والعطاء، والمنع، ونحن نستفيد إلى الآن من الأرواح الطيبة، ولهم الاستفادة منّا أيضًا بما شاء الله تعالى.

وارد الداخل والخارج

اعلم أن الإنسان صورة العالم وبالعكس؛ لكن الأول من قبيل الإجمال، والثاني من قبيل التفصيل.

فكما أن للإنسان ظاهرًا؛ هو قالبه، وباطنًا؛ هو قلبه؛ فكذا للعالم ظاهر؛ هو عالم الكون والفساد؛ وهو من مقعر السماء السابعة إلى تحت الأرضين، وباطن؛ وهو عالم الكرسي والعرش، وما فوقهما من عالم اللوح، والأرواح[1].

---

(١) قال سيدي محمد وفا في المعاريج: وأما الأرواح فإنها مخلوقة من النور الإفاضي العرشي، ولها التقدُّم في الخلق على الأجساد بألفي عام بما شهد به الخبر النبوي، وأما الأرواح النورانية السعيدة فإنها تعرج إلى مقامها العلي، ومحلها البهي، ضمنها لطيف الجسم النوراني، والهيكل الإنساني، فأرواح السعداء ظاهرة أنوارها، باطنة نفوسها، مستهلكة الأجسام ضمن الأرواح، فالأجسام باطن الأرواح في دار البرزخ، ودار المحشر، وفي دار الدنيا جسم ظاهر، والروح باطن، فالأرواح النورانية في داري الدنيا والبرزخ، يكشف بعضها بعضًا، ويشهد بعضها لبعضٍ لما بينهن من المناسبة والتعارف، وقد نبَّه رسول الله ﷺ على ذلك بقوله: «خلق الله الأرواح أجنادًا مجندةً، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

وكذلك النفوس في مجانستها ومناسبتها، فالأرواح أنوارٌ للسعداء، وظلمٌ للأشقياء، وأجسام السعداء منعمة بتنعيم نفوسها، وأجسام الأشقياء والعذاب مشترك بين النفوس والأجسام، وهذا ظهر لهذا، وهذا بطن لهذا، فانتشار البشرية ظهور صفات النفس الطبيعية، التي لا انفكاك للصفة الآدمية الإنسانية منها، ولا خروج لها عنها، ولهذا أمر الله تبارك وتعالى نبيه =

والقلب من كل منهما لا يُبلى ولا يغنى أبدًا؛ لأنه مما يلي عالم الأمر والملكوت، وأمَّا القالب فيبلى ويفنى؛ لأنه مما يلي عالم الخلق والملك.

ولا شك إن عالم الخلق والملك عالم الكثافة، وعالم الأمر والملكوت من عالم اللطافة، فكما أن من شأن الكثيف الفناء؛ فكذا من شأن اللطيف البقاء؛ فالجواهر والمواد باقية من كل من العالمين، والصورة والأشكال فانية؛ ولذا تُطوى السماوات السبع يوم القيامة، وتنشق على ما نطق به النص.

فإذا عرفت هذا؛ اعلم أن ظاهر الإنسان لا يدركه إلا الحسّ، كما أن باطنه لا يدركه إلا العقل، فكما أن الحسَّ لا يدخل عالم العقل؛ فكذا العقل والخيال لا يدخل عالم الملكوت، فمَن نظر إلى ظاهر الإنسان؛ فليس له دعوى الدخول في باطنه، فإن النظر الحسِّي ليس من طرق الدخول في الباطن.

وكذا مَن نظر إلى ظاهر العالم؛ فليس له الدعوى المذكور؛ فإن الحس إنما يدرك الصور، والأشكال، والخيال، والعقل المعاني الجزئية المتعلّقة بالسبع الطباق،

=

محمـــدًا ﷺ أن يقول: قل: إنما أنا بشر مثلكم فامتثل أمر ربه ﷻ وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّـــثْلُكُمْ يُوحَـــى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦] كما أمر، قال ﷺ ولم يقل: (إنما أنا بشرٌ مثلكم)، فهو مأمور ببلاغ ما ينـــزل إليه من ربِّه كما أُنزل، من غير زيادة ولا نقصان، قال الله تبارك وتعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

فأجسام الأصفياء والمرسلين والأنبياء والصديقين والصالحين نورانية، ونفوس الأشقياء وأرواحهم وأجسامهم مظلمة، فإنها هابطة في الدركات إلى أسفل سافلين، عكس نفوس السعداء؛ فإنها عارجة إلى عليين، فالطبيعة أثر الترابية، والبشرية أثر الطبيعة، فهي سماء الطبيعة، ولها النشور من الحشر بالخروج إلى فضاء البسط، فالحشر صفة قبض، والنشر صفة بسط، والله يقبض ويبســـط، فالنفوس بالتزكية تخرج من حشرها إلى نشرها البسطي النوري، والنفس الشقية ترد على عقبها، فتدس من نشرها، وتحشر في عوالم طبيعتها. قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

وأمَّا عالم الملكوت فلا يدخله إلا القلب السليم من تعلُّقات الكونين، والروح المحلَّى بزينة المعرفة، المكحَّل بنور الشهود.

ولذا أعييَ الفلاسفة وأهل النجوم إدراك حقائق عالم الملكوت، بل صوره النورانية أيضًا؛ لأنه ليس لهم إلا التصرُّف الحسِّي؛ كأهل الرصد، والتصرُّف العقلي الفكري الخيالي القياسي، كما لعامة الفلاسفة، وهم في ذلك ملحقون بأهل الكشف الخيالي، فإن أهل هذا الكشف ليس سيرهم إلا في ظاهر الكون وخارجه لا في باطنه وداخله، وإن كانوا يَدَّعون إنهم دخلوا عالم العرش والأرواح؛ خُوطبوا بالخطابات الإلهية، وورد عليهم الواردات الغيبية، فإن ذلك كشف من ظاهر العالم، ومعارف ظنية؛ بعضها مطابق للواقع الذي عليه أهل الكشف الصحيح القلبي، وبعضها مخالف له.

وكم في بعض كتب التصوُّف من السقطات؛ كواردات الشيخ بدر الدين المصلوب، وكتاب إخوان الصفا وغيرهما من كتب أهل الضعف والتلوين، وما يُعقل ما فيها إلا العالمون، فإن أردت الكشف الصحيح؛ فعليك بكتب الشيخين محيي الدين، وابنه الشيخ صدر الدين قُدِّس سرُّهما، ويلي تلك الكتب الجليلة تأويلات الشيخ نجم الدين الكبرى، وكتب الشيخ الحكيم الترمذي، وكتب شيخي وسندي الشيخ السيد عثمان الفضلي الإلهي، كشرح تفسير الفاتحة لصدر الدين، وكتاب «اللائحات البرقيات» وغير ذلك.

فعليك بنحو ذلك الكتب السماوية، وإياك والكتب الأرضية، فإن كنت دخلت في عالم الكتب السماوية: أي من طريق الذوق لا من طرق التصرُّف، والتَّتبع العقلي؛ فقد عرفت الحق، وميَّزته من الباطل، ودَرَيتَ الغثَّ والسمين، وتخلَّصت عن الخيال والظن والتخمين، ونجوت من أوهام البرانيين العشريين(١).

---

(١) للقوم رضي الله عنهم في الكلام على تقاسيم وأنواع العلوم، وبيان الدليل من الكتاب والسنة المطهرة على العلم اللدني- أو السمائي كما سماه المصنف قدس سره - أقوال جمَّة، أحسن سيدي جعفر الكتاني قدس سره في جمعها في بحث من مقدمة كتابه العظيم (جلاء القلوب من الأصداء =

=

الغينـــية في بيان إحاطته – الطَّيِّلاً–بالعلوم الكونية) وإليك قبسًا من هذا الجمع، قال – قدس الله سره– في بيان جملة العلوم وأنها بالاعتبار ثلاثة عند أرباب الإدراكات والفهوم:

اعلم أن العلوم على ما قاله غير واحد ثلاثة:

الأول منها: علم الشريعة الظاهرة، وهو قسمان:

أحدهمـــا: علم الشريعة المتعلق بالأعمال البدنية، أعني به علم الحلال والحرام، والأمر والنهي والوعد والوعـــيد، ونحوهـــا ممـــا هو متعلق ومرتبط بتكميل ظاهر الذوات من أقوالها وأفعالها ولوازمها، وتحســـين هيئاتها مثل الصلاة والزكاة، والصوم والحج والجهاد، وأنواع الأذكار والأدعية وتلاوة القرآن، واستكمال خصال الفطرة، وغير ذلك من كل ما له تعلق وارتباط بالسير الجسماني المتعلق بالأعمال البدنية الظاهرة.

والـــثاني: علم الشريعة المتعلق بالأعمال القلبية وأدوائها وعلاجاتها، وما تصلح به وما لا أعني به علم كيفـــية الرجوع إلى الله وإلى طريقه، ومعرفة الآفات الطارئة على سائر هذا الطريق من دسائس النفوس وغوائلها وشهواتها، وما تصلح به تلك الآفات، وتـــزال به الانحرافات والأخلاق، ويتبدل بـــه مذمومهـــا لمحمودهـــا، وتتخطى به المقامات من التوبة والزهد، والمحاسبة والمراقبة، والتوكل والرضـــا، والتســـليم والخوف، والرجاء والصبر، والشكر والمحبة، وغير ذلك من كل ماله تعلق وارتباط بالسير النفساني والروحاني المتعلق بالقلوب.

وهذا هو علم الظاهر المنقول، الذي هو علم الحكمة والعبودية، ويسمى أيضاً بعلم الكتب والأوراق، ومـــنها كما ذكرناه العلم الثاني وهو المسمى عندهم بعلم الطريقة، الذي هو العلم المتعلق بكيفية تعديل الهيئات النفسانية والروحانية، وهو وإن كان متعلقاً بالقلوب، والقلوب باطنية لكنه يؤدَّى بالعبارة، والعبارة تظهره وتوضحه، فصار من قبيل علم الظاهر، وهو التصوف، وقد احتوت عليه كتـــب كثيرة قديمة كالرسالة للقشيري و«القوت» و«الإحياء»، وحادثة ككتب ابن عطاء الله و«شـــرح الحكـــم» لابن عباد، وكتب الشيخ زروق في التصوف، والشعراني، وهذه الكتب بها يحصل السلوك في طريق القوم لنهجها للعبيد، وبيانها للطريق التي بها يصل المريد، مع خلوها من الحقائق التي قد تكون سبباً في قطعه، وهو أيضاً باطن علم الشريعة المتعلق بالأعمال البدنية ولُبه، وعـــلم الشـــريعة المذكـــور ظاهره وقشره، لأنه الذي يصونه، كما أن علم الطريقة قشر لعلم الحقـــيقة[1]، لأنه هو الذي يصونها، فإن من رام الوصول إلى علم الحقيقة و لم يطرق إليه من علم الطـــريقة فســـد حاله، فصارت حقيقته زندقة، ولذا قالوا: لا وصول إلى حقيقة إلا بعد تحصيل الطريقة.

=

=

وقال أبو سليمان الداراني ﷺ: وإنما حرموا الوصول – يعني إلى الحقيقة – بتضييعهم الأصول – يعني الطريقة –، وكذا صاحب الطريقة إذا لم يؤت الشريعة حقها فسد حاله، وصارت طريقته هوسًا ووسوسة.

العلم الثاني منها: علم الحقيقة الباطنة الذي هو علم التوحيد الخاص وأسرار الشريعة وحكمها، وما ينشأ عن العمل بها من الكشوفات والأذواق والمعارف والأسرار ونحو ذلك، وهو علم الباطن الموهوب الذي هو علم القدرة والربوبية، ويسمى أيضاً بعلم الأذواق، وهو علم وهبي ذوقي لا ينال بتعلم، وإنما يهبه الله لمن يشاء من خلقه، ولا يؤديه من وصل إليه بالعبارة، وإنما يرمز له بالإشارة، وهو تصوف أهل الباطن، ومثال العلم الظاهر كجسم فيه روح كامن، فالجسد لا يقوم بغير روح، والروح لا تظهر من غير جسد، وإذا خلا الجسد عن الروح كان ميتاً ولا عبرة به، ولذلك كانت الشريعة بدون الحقيقة عاطلة، وإذا خلت الروح عن الجسد بطنت و لم يظهر لها، ولذا كانت الحقيقة بدون شريعة باطلة.

وقد نقل الشيخ عبد الرءوف المناوي في «إرغام أولياء الشيطان بذكر مناقب أولياء الرحمن» في الباب الخامس في أصول علم التصوف عن إمامنا مالك ﷺ قال: «من تصوف و لم يتفقه فقد تزندق» أي: لأن حقيقته تصير عارية بدون كسوة فيقتل عليها، فإن كان محقاً وغلبه السكر كان شهيداً، وإن كان مدعياً مبطلاً كان بعيداً، وعن الحضرة طريداً.

«ومن تفقه و لم يتصوف فقد تفسق» أي: لأن أعماله أشباح بلا أرواح، «ومن جمع بينهما فقد تحقق».

والعالم بهذا العلم الثاني هو المسمى عارفاً، ومن يصل إليه وكان من أهل العلم الأول سمي عالماً، والفرق بينهما أن العالم دون ما يقول، والعارف فوق ما يقول، والعالم يصف الطريق بالنعت، والعارف يصفها بالعين، لأنه سار معها وعرفها، والعالم محجوب والعارف محبوب، والعالم يَدلُّك على العمل، والعارف يخرجك عن شهود العمل، والعالم يعرفك بأحكام الله، والعارف يعرفك بذات الله، إلى غير ذلك، ومن لم يسعده الله تعالى بملاقاة عارف لا يشك أنه في مهاد نفسه تالف.

ولذا قال أبو الحسن الشاذلي ﷺ: وكم يتغلغل في علمنا هذا –يعني علم القلوب– وما يعرف به علام الغيوب بات مصراً على الكبائر وهو لا يشعر.

قال الشيخ شهاب الدين أحمد بن علان الصديقي البكري المكي الشافعي في «شرح حكم أبي مدين»: ولقد صدق فيما قال، فأي شخص يا أخي يصوم ولا يعجب بصومه؟ وأي شخص يصلي ولا يعجب بصلاته؟ وهكذا سائر الطاعات إلا ارتحل عليه عناية مولاه بمعرفة آداب الخدمة من مجالسة

=

=

أطـــباء القلـــوب وحلول عنايتهم عليه حتى تمحق العجب الذي حل به من تلك الطاعات، ولا يعجب بعد ذلك إلا بفضل مولاه، كما قال في «الحكم العطائية»: لا تفرحك الطاعة من حيث أنها برزت منك، وافرح بها لأنها برزت من الله إليك ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُـــوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨] فلا تفرح يا أخي ولا تعجب إلا بنواله، ولا تصحب إلا من يعلمك العلوم التي تقربك إلى حضرة كماله.

انتهى نقله في الحديقة الندية في شرح الطريقة المحمدية.

وقال بعض العارفين كما في «القوت» و«الإحياء»: من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة، وأدنى النصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله.

وقال أبو علي الثقفي ﷺ: لو أن رجلاً جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس لم يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح، ومن لم يأخذ أدبه من أستاذ يريه عيوب أعماله، ورعونات نفسه لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات.

وقـــال الشيخ أبو العباس المرسي: والله ما صار الأبدال أبدالاً حتى يلقوا مثلنا، فإن لقوه كان بغيتهم، وقـــالوا: مـــا أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح، وكيف يفلح من لم يصاحب مفلحاً، ولله در صاحب نظم بداية السلوك إذ يقول فيه:

إن لم تـــلاق عارفـــا في مدتـــك لا عـــاش عمـــر عيشـــه كعيشـــك

ومن هنا كان الصحيح المختار عند العلماء الموفقين الأبرار أن العارفين بالله أفضل بكثير، وأعلى بمقدار كبير من العلماء بأحكام الله، وهكذا قال الشيخ عز الدين ابن عبد السلام وغيره.

وقال ابن دقيق العيد بعد أن ذكر بعض الأولياء ممن رآه وكان يعتقده ويخضع له: هو عندي خير من مائة فقيه، أو من ألف فقيه.

ونقل اليافعي في «روض الرياحين» عن القاضي نجم الدين الطبري: أنه جاء خبر إلى مكة بوفاة العارف بالله إسماعيل بن محمد الحضرمي فقال العارف بالله أحمد بن موسى بن عجيل، وكان حينئذ بمكة: أرجو أن يفديه الله بمائة فقيه. ثم جاء الخبر الصحيح أنه حي و لم يمت إلا بعد مدة طويلة.

وفي «الإحـــياء» للغـــزالي في الباب الخامس من كتاب العلم: إن الرتبة العليا في معرفة الله والعلم به الأنبياء، ثم الأولياء العارفين، ثم العلماء الراسخين، ثم الصالحين على تفاوت درجاتهم. راجعه.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري قدس الله سره في أول «رسالته»: أما بعد، فقد جعل الله تعالى هذه الطائفـــة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه، ثم جعل قلوبهم معادن

=

=

أســـراره، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغياث للخلق والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق انتهى.

وقـــال الشـــيخ عـــز الدين ابن عبد السلام في جواب له: لا يشك عاقل أن العارفين بما يجب لله من أوصـــاف الجـــلال ونعوت الكمال، وما يستحيل عليه من العيب والنقصان أفضل من العارفين بالأحكـــام، بـــل العارفون بالله أفضل من أهل الفروع والأصول. راجع كلامه برمته في «تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية» للسيوطي.

ولهذين العلمين يشير أبو القاسم الجنيد ﷺ بقوله: العلم علمان: علم العبودية، وعلم الربوبية، والبواقي حدس النفس.

وفي «الروضات العرشية في الكلام على الصلوات المشيشية» للشيخ سيدي مصطفى بن كمال البكري لـــدى قولها: وتنـــزلت علوم آدم ما نصه: واعلم أن أصول العلوم على ما قاله بعض أهل الفهوم مائـــة ألف علم أو أكثر، وأما الفروع فلا تحصر، وهي من حيث هي منقسمة إلى قسمين: علم درسي وعلم نفسي.

والأول عـــلم الطروس، والثاني علم الصدور المحروس، والأول سفيره الإفهام، والثاني الإلهام، والأول كســـبي والثاني وهبي والأول طريقه الجد والعناء، والثاني الغبطة والفناء ، والأول حجة، والثاني محجة لقوله ﷺ: «**العلم علمان: علم في القلب، فذلك العلم النافع، وعلم في اللسان، فذلك حجة الله على ابن آدم** ». كذا في «الجامع الصغير».

والأول لا يستغنى فيه عن الوسائط الجمة، والثاني ربما يستغني فيه عنها آخراً عند رفع الحجب المدلهمة، أو ثمل فيقول الذي قلت وسائطه: حدثني قلبي عن ربي، ويقول: من استغني عنها حدثني ربي، أي: بطريق الإلهام.

قال أبو يزيد قدس الله سره: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت.

وأنشد سيدي عمر بن الفارض قدس الله سره:

ولا تـــك ممـــن طيشـــته دُرُوسُـــــهُ بحيـــث اســـتقلّتْ عقلـــه واســـتقرتِ

فـــثَمّ وراء الـــنقل، عـــلم يـــدق عـــن مـــدارك غايـــات العقـــول الســـليمةِ

تلقيـــته مـــني، وعـــــني أخذتُـــــهُ ونفســـي كانـــت مـــن عطائي ممدتي[1]

قال: ثم العلم على قسمين من حيث أصل تقسيمه: قديم وحادث، فالقديم هو الصفة الكاشفة القديمة المـــتعلقة بالواجبات والجائزات والمستحيلات، والحادث هو ما أفاض به الحق وجاد به على عباده متنوعاً متكثراً مجملاً ومفصلاً، وما يفيضه عليهم دنيا وأخرى فإن فيض الحق لا ينقطع أبداً، وهذا

=

=

العلم وإن حصل منه ما حصل فنسبته إلينا مجازية، وإليه حقيقية، لأنا بالنظر إلى أنفسنا لا علم لنا، وبالنظر لتعليمه كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾[النساء: ١١٣] ولما كان الأمر كذلك قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢١٦].

وهذه العلوم منها ما هو من العلوم الشهودية، ومنها ما هو من العلوم الوجودية، ومنها حسية ومعنوية، وشرعية وعقلية، وعرشية وفرشية، وجلالية وجمالية، ودنيوية وبرزخية، ونشرية وحشرية، وأخروية وكثيفية، وفعلية وأسمائية، وصفاتية وذاتية، وغيبية وعينية، وملكية وملكوتية، وجبروتية ولاهوتية، وغير ذلك من العلوم التي لا تتناهي وكل واحد من هذه العلوم له مراتب في ظهوره وبدو نوره.

ففي أول الظهور قبل المعاينة يسمى علم يقين، وبعدها علم عين اليقين، وبعد التحقق فيه والاطلاع على ظواهره وخوافيه يسمى علم حق اليقين، ومع كثرة العلوم وتشعب الفهوم عند أهل الكشف وأهل الرسوم قال الله الحي القيوم ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[الإسراء:٨٥] فانظر هذا الخطاب الذي عم نظراً جميلاً، وقول الخضر عليه السلام لموسي الكليم عليه الصلاة والسلام: «ما أخذت أنا وأنت من علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور بمنقاره من البحر»، أو ما معناه تنمحق دعاويك الباطلة وتنسحق مساويك الهاطلة.

قال: واعلم أن العلوم الربانية والأسرار الرحمانية فيضها عجيب، وسرها غريب، لا تدرك إلا من طريق الذوق والوجدان، ولا تعرف إلا بعد المشاهدة والعيان، فقد يفتح على العبد المعتني به في لحظة واحدة ما لو جلس يقرر فيه مدة عمره ما وفي به، إذ فيض الحق سبحانه وتعالي لا يقاس بغيره، فإنه فيض واسع من واسع عم الأنام ببره وخيره. انتهى المراد منه بلفظه.

قال بعض أهل الأنوار الغارقين في بحار الأسرار: والعجب من أرباب العلوم الظاهرة المحصلين من الاصطلاحات ما يقتبسون به من أنوار الكتاب والسنة الباهرة، كيف لا يشتغلون بعد تحصيلها بذكر الله ومراقبته، والإعراض عن كل ما سواه ومجانيته، على يد من هو أهل لذلك، ممن أقامه الله لإرشاد الخلق هنالك، حتى تنصب إلى قلوهم مياه العلوم اللدنية، والأسرار الوهبية القدسية، التي لو عاش أحدهم ألف سنة فما فوقها في تدريس الاصطلاحات وتصنيفها لا يشم منها رائحة، ولا يشاهد من آثارها وأنوارها لامعة ولا لائحة، ولكن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

=

ولـــذا قال أبو محمد سهل بن عبد الله التستري ﷺ: خرج العلماء والعباد والزهاد من الدنيا وقلوبهم مقفلـــة و لم تفـــتح إلا قلوب الصديقين والشهداء، ثم تلا ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ**﴾[الأنعام:٥٩].

وقـــد وقع لغير واحد ممن فعل ما ذكرناه، واقتفى سبل ما أرشدنا إليه وبيناه، أنهم كانوا إذا سئلوا عن مســـألة دقيقة غامضة أتاهم الجواب من فيض الكريم الوهاب قبل تمام السؤال، فيجيبون من غير روية ولا فكر ولا إشغال بال بجواب سديد، محرر مفيد، فأين الفهم والأوراق من هذه الأذواق، ومن كان معلمه الحق، واستمداده من حضرة خير الخلق تضاءلت له الفهوم، وطافت بكعبة قلبه غرائب العلوم، كما جرى ذلك لغير واحد، ممن امتن عليه الكريم الوهاب الواحد.

ومن المعلوم لدى أهل السلوك والعلوم أنه لا تنفتح للسالك طرق المشاهدة إلا بعد الكد والمجاهدة، ولا تشـــرق أنوار العلوم اللدنية في جنانه، وتنفجر ينابيع الحكمة منه إلى لسانه إلا بالذكر والمراقبة، والإعراض عن السوء والمجانبة، وإن كتب التعليم لا تفي بذلك، ولا ترشد السالك إلى ما هنالك، والسلوك إليه تعالى من غير ملاحظة أحد من أرباب القلوب، لا يسلم صاحبه غالباً من الدسائس والآفات والعيوب، ولا يوصله إلى معرفة الله المعرفة المطلوبة عند العارفين، ولو عبد الله عمر نوح عليه السلام أو مـــا زاد عليه من السنين، بل أجمعوا على أن من لم يصح له نسب في طريق القوم كان لقيطاً، وفعله وقوله تخليطاً وتخبيطاً، والسير إليه تعالى بغير دليل يوقع السائر غالباً في التيه والعطب والتهاويل.

والدليل: هو الشيخ المربي يعرفك بحقائق الكائنات، ويوقفك على معاني التجليات، فلا يضرك شيء من الأشـــياء، ولا تحجبك الظلالات والأفياء، ثم إنه تارة يربي بالإلقاء الإلهامي من القلب إلى القلب، وتارة بتقرير العبادات وتبيين الإشارات، وبيان ما في السلوك إلى ملك الملوك، وتارة بإلباس خرقة الصـــوفية المشـــهورة، وما يناسبها من الخلوة وغيرها، وتارة بنظره وهمته وحاله، فيسري الحال الصادق منه إلى المريد الصادق، وتارة التربية بنظر المريد إليه وذلك أنه إذا رأى الشيخ ذكرَ الله، فيصل بذلك وينجذب به إلى الله، ويختلف ذلك سرعة وبطءًا باختلاف الاستعدادات، وبالإخلاص في الخدمات والأدب مع المشايخ وحفظ حرمتهم غيبة وحضوراً.

وطريق من أراد السلوك و لم يجد بحسب الظاهر مُسلِّكاً ولا مستجمعاً للشروط متفانياً في الله هالكاً أن يلتجئ إلى الله تعالى ويرفع إليه أمره، ويشكو له حاله وضره، ويتشفع إليه بالرسول الأعظم سيدنا محمد ﷺ ويتوسل إليه بأسمائه وصفاته ورفعة ذاته، في أن يدله على من يدله عليه، ويوصله إلى من يوصله إليه، ويبالغ في اللجأ والسؤال في كل وقت وكل حال.

=

ولـيحذر أن يلقـي نفسـه إلى كل من يلقاه من المتمشيخين في هذا الزمان، الذي ظهرت فيه أهل الدعـاوي واختفـت فيه أرباب العرفان، وليكثر من زيارة الصالحين الأموات لذلك، فإنها مجوبة لقضـاء وطره هنالك، وليكثر أيضاً من الاستخارة بعد استعمال ما يمكن من الاستشارة، فإنه ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، كما في الحديث، إلى أن ينشرح صدره الانشراح التام، ويبتهج قلبه وقالبه بأحد من مشيخة الأنام، إما بمرائي منامية تـزيل الريب، وإما بدلالة أحد من رجال الغيب، ولذا استحب أهل الطريق الخلوتية وغيرهم من بعض أهل الطرق الجلية أمر المريد بالاستخارة التي بالمراد ناطقة، ليدخل الطريق بهمة عالية صادقة، وإذا صدق المريد في الطلب أوقعه الله لا محالة على شيخ يزيل العطب.

وقـد قـال القوم رضوان الله عليهم: وجدان الشيخ الكامل المربي لازم من صدق المريد، فمتى صدق المـريد في إرادة الله تعالى وجد الشيخ الكامل المرشد إلى الله، لأنه حجة الله تعالى على خلقه في الأرض، لا يـنقطع ولا يـبرح عنها إلى يوم القيامة، ومتى كذب المريد في طلبه لم يجد له مرشداً أصلاً، قال تعالى: ﴿**مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِياً مُّرْشِداً**﴾[الكهف:١٧] بل إذا كان المريد صحيح النية والاعتقاد ووقع على متمشيخ من أهل الدعاوي والبعاد، أوقع الله في نفـس ذلك المتمشيخ ما يفتح به على هذا المريد، وأوصله بصدق نيته إلى كل ما يريد، فعاد الـنفع على المتمشيخ بذلك، وربما كان المريد سبباً في رجوعه وتوبته عما هو فيه هنالك، فالمدار على الصدق، فيه ينال من الله تعالى كل خير ورفق، فإن تعزر عليه بكل وجه وجوده، وتعسرت عليه بالكلية رؤيته وشهوده، فليتعرف عيوب نفسه وعلاجاتها من كتب القوم العارفين والنصحاء الواصفين، وليشتغل بما ينشر له من أخلاقهم وشمائلهم وآثارهم، وليستروح إلى ما يجده من سيرهم ومأثور حكاياتهم وأخبارهم، كما أنه إذا لم يجد المتطهر ماء يتيمم بالصعيد إلى أن يجد الماء الطاهر النقي المغد، والله الهادي وبه التوفيق إلى سلوك أسلم طريق.

العلم الثالث منها: علم الغيب الذي هو كل ما غاب عن الخلق و لم تنصب عليه علامة ولا دليل، و لم تمكن معرفته إلا بإعلام الملك الجليل، والغيب الحقيقي هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أحداً * إلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ**﴾[الجن:٢٦-٢٧] والولي التابع للرسول منه يغترف وعنه يأخذ، وبإمداده يستمد، وإليه في كل حالة يستند.

فالأول: وهو علم الشريعة للخاص والعام.

والثاني: وهو علم الحقيقة لخواص الأولياء والصالحين.

=

=

والثالـــث: وهو علم الغيب للأنبياء والمرسلين، ومن كان على قدمهم، وهم متفاوتون في هذه العلوم بحسب أذواقهم ومشاربهم، وقابليتهم واستعدادهم، وربما اختص بعضهم بشيء منها دون الآخر، كما اختص رسول الله ﷺ بأشياء منها لا تليق إلا به، وبكونه الممد بها كلها والقاسم لأعطيتها، والمانح لكل ذي قسط قسطه منها، لأنه الواسطة في كل شيء، وعلى يده الهبة من الله تعالى لكل شيء، ولا يخرج عنه شيء ﷺ.

وبعبارة أخرى: العلوم ثلاثة: علم ضروري، أو نقول: بديهي، وهو: ما يدركه العقل بالبداهة، أعني بمجرد الالتفات إليه من غير احتياج إلى ناقل، ولا إعمال فكر ولا إلى استدلال.

وعلم نظري، أو نقول: كسبي، وهو: ما يحتاج العقل في إدراكه إلى تعلم واكتساب أو نظر واستدلال، وهو المشار إليه بحديث: «**إنما العلم بالتعلم**» أخرجه ابن أبي عاصم والطبراني من حديث معاوية.

قال في «فتح الباري»: وإسناده حسن، لأن فيه مبهماً اعتضد بمجيئه من وجه آخر انتهى.

وعلم وهبي أو نقول: لدني وهو ما يهجم على القلب ويفيض على الصدر، لا بالدراسة والتعلم، ولا بالـــنظر في الكتب والتفهم، بل بالاستقامة على قدم المصطفى والتخلق بأخلاقه الكريمة وحسن الاقـــتفاء، والزهد في الدنيا والتبرؤ من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها، والإقبال بكنه الهمة على الله، عرف سببه الذي ألقي منه أم لا، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**من زهد في الدنيا علمه الله بـــلا تعـــلم، وهـــداه بـــلا هداية، وجعله بصيرا، وكشف عنه العمى**». أخرجه أبو نعيم في«الحلية»، والديلمي في «مسند الفردوس».

وقوله: «**من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم**». أخرجه في «الحلية» من حديث أنس وضعفه.

وبقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ [العنكبوت:٦٩] أي: الطريق الموصلة إلينا.

وبقوله: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**﴾[البقرة:٢٨٢].

وقوله: ﴿**إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً**﴾ [الأنفال:٢٩] أي: هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل، وتخرجون بها من الشبهات.

وقوله: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ**﴾ [الطلاق:٢-٣] قيل في تأويله: يجعل له مخرجاً من الإشكالات والشبه، ويعلمه علماً من غير تعلم.

وقولـــه: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾[آل عمران:٣١] ومن أحبه الله فتح له الـــباب، وأدخله حضرة الاقتراب، وأجلسه مع الأحباب، فرأى الغيب شهادة، وصار له من الله الكشف عادة، وأفيضت على قلبه مياه الحقائق، وانكشفت له البراقع عن وجوه الدقائق، وعلمه الله من لدنه علماً وعرفه بنفسه، وأدرك السر الأسمى.

=

=

ويقـــال أيضاً: العلوم ثلاثة: علم جهر وعلانية، أو نقول شهادة، وهو كل ما ظهر للحس، أو أمكن عادة إدراك الحس له ولو في وقت ما، ويدخل فيه كل ما أبرزه الحق تعالى من المخلوقات، وأظهره من العوالم وسائر المصنوعات.

وعلم سر، أو نقول: غيب، وهو كل ما غاب عن الحس و لم يمكن بحسب العادة إدراك الحس له، وإنما يـــدرك بـــالعقل إما بالدليل القاطع أو بالخبر الصادق، وهو إدراك الإيمان، ويدخل فيه كل ما لم يوجده تعالى من الممكنات أو كان بينه وبين خلقه من الأسرار المبهمات.

وعـــلم ما هو أخفي من السر، وهو ما لا يعلمه إلا الله تعالى ولا يمكن أن يعلمه غيره، كعلمه تعالى بنفسه.

وإلي هـــذه الـــثلاثة على أحد التأويلات الإشارة بقوله تعالى: **﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَـــى﴾**[طه: ٧] وقيل أيضاً: العلوم ثلاثة: علم يتعلق بكل ما سوى الحق تعالى ويسمى بعلم الحوادث والأكوان.

وعـــلم يتعلق به تعالى من حيث تجليه في حقائق العالم، أو نقول من حيث ارتباط العالم به، وارتباطه تعالى بالعالم ارتباط الإله بمألوه والمألوه بالإله، ويسمى عند أهل الله تعالى بعلم التجلي الظاهر في أعيان الممكنات.

وعـــلم يتعلق به من حيث باطنه وهويته، أو نقول من حيث هو هو، مع قطع النظر عن تعلق العالم به وتعلقه بالعالم، ويسمى عندهم بعلم الهوية الباطنة، يعنون بها ذات الحق سبحانه.

وذكر ابن العربي الحاتمي والشعراني وغيرهما أن العلوم على ثلاث مراتب، أو نقول منازل:

عـــلم العقـــل: وهو كل علم يحصل لك ضرورة، أو عقب نظر في دليل، وعلامته أنه كلما بسطت عبارته حسن وعذب.

وعـــلم الأحـــوال: ولا سبيل إليه إلا بالذوق، ولا يقدر عاقل على حده ولا على أن يقيم دليلاً على معرفـــته البـــتة، كالعلم بحلاوة العسل ومرارة الصبر ولذة الجماع، والعشق والوجد والشوق وما شاكل ذلك، ولا يلتذ به إذا جاء عن غير معصوم إلا أصحاب الأذواق السليمة.

وعلم الأسرار: وهو العلم الذي فوق طور العقل، وليس للعقل فيه دخول بفكر، ولذلك يتسارع إلى صـــاحبه الإنكار لأنه حاصل من طريق الإلهام الصادق، الذي هو نفث في الروع وفيض إلهي لا يخطـــئ، ويختص به النبي والولي وعلامته أنه إذا أخذته العبارة سمج وبعد عن الأفهام دركه، وربما رمت به العقول الضعيفة أو المتعصبة التي لم توت النظر والبحث حقه.

=

وادي المكر

هذا وادٍ في دمشق معنوي لا يُشار إليه بالإشارة الحسِّية إلا بمحلّه الذي هو دمشق عرَّفنيه الله تعالى ليلة الخميس العشرين من صفر الخير من سنة ثلاثين ومائة وألف، وذلك الوادي يقوم بشخصين ماكرين.

أحدهما: مظهر الاسم الظاهر من أهل الرئاسة الشامية.

والثاني مظهر الاسم الباطن من أهل السلوك الانحرافي في تلك البلدة.

وكلاهما معلوم لي باسميهما؛ لكن لا أفشيهما لِما لا يقتضي الحال والموطن،

=

وأكثر علوم الكُمَّلُ من الأنبياء والأولياء من هذا القبيل، راجع «اليواقيت» وكذا «الفتوحات المكية» في أول مقدمتها.

وقال بعضهم: العلوم ثلاثة:

علم القول: وصاحبه يستند في قوله إلى غيره حاكياً عنه.

وعلم الفهم: وصاحبه يستند في تصوره إلى ذهنه حاكياً عنه.

وعلم الشهود: وصاحبه يستند في شهوده إلى حقيقة ما شاهده حاكياً عنه.

فَمُعَلِمُ الأول آخر مثله، والثاني فكره وذهنه، والثالث ربه كما قال بعض العارفين، وهو أبو يزيد البسطامي قدس سره يخاطب علماء زمانه: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت حين جهلتم أنه عن ربكم، وأخذنا نحن علمنا عن الحي الذي لا يموت بلا واسطة، بل قلبنا يحدثنا عن ربنا، وشتان بين من ينطق عن غيره أو عن فكره وبين من ينطق عن ربه.

وقد انقسم الإيمان إلى هذه الأقسام الثلاثة:

فبالقول: إيمان المقلدين مع طمأنينة قلوبهم إليه من غير فهم أي: استدلال، وقد اعتبره الشارع وسماه إيمانًا.

وبالفهم: إيمان المستدلين، وقد دعا الله تعالى إليه في كتابه في أكثر من آية كقوله: **﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾** [الذاريات:٢١]، وقوله: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾** [آل عمران:١٩٠]، وقوله: **﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾**[الغاشية:١٧]. وبالشهود: إيمان العارفين، وهو أعلى مراتب الإيمان.

ذلك لِما فيه من المفاسد الكثيرة؛ فهو كوادي محشر في طريق عرفات الذي ظهر فيه تصرُّف الشيطان؛ ولذا أقول: أقول: إن الشخصين المذكورين شيطانيًا نفسانيًا صورة ومعنى؛ لكون تصرُّفهما من حيث الظاهر والباطن شيطانيًا ونفسانيًا.

وحول ذلك الوادي جنود مجنَّدة تحفظه: أي تحفظ الصالحين من الوقوع في دائرة، ومكر الماكرين.

ولولا العسكر الأرواحي هناك؛ لكان ما كان من المفاضح.

وذلك الوادي صورة النفس الأمَّارة مع الشيطان، والهوى، والأرواح العالية الحافظة من القوى الخيِّرة فاعرفه جدًا، فإن المكر لا يجئ من الخارج؛ وإنما الخارج هو صورة الداخل، ثم في قرب ذلك الوادي جبل صالح يلتجئ إليه الصالحون لِما فيه من روح علي محمَّدي واحد.

وهوَ بمنـــزلة آلاف الأرواح العالية.

بل أقول: إن ذلك الجبل عين ذلك الروح العلوي، فإن رجال الله على صورة الجبال حيث إنهم كهوف الله تعالى.

ولولا ذلك الجبل في قرب ذلك الوادي، والالتجاء إليه حين ما أُريد لأهل الله بسوء؛ ما نجا أحد منهم؛ ولكن الله ذو فضل على المؤمنين حيث لا يكلهم إلى أهل المكر الممكورين؛ بل يحفظهم عن المكر بردِّه على نحور الماكرين، وهذا بسبب ذلك الجبل.

ولذلك صور كثيرة في كل زمان؛ لكن زمام الكل، وعرقه بيده.

ولو شئت لصرَّحت به لكن استره حتى لا يقع فيه الماكرون والممكرون.

وإذا عرفت هذا وقفت على البلاد وما فيها من الصلاح والفساد وأنها لا تقوم إلا بالمحافظة المعنوية إلى أن يأتي الله بأمره.

ولذا يُقال: الأبدال السبعة للأقاليم السبعة[1]، والأوتاد الأربعة للجهات

---

(١) الأبدال: وهم سبعةٌ لا يزيدون ولا ينقصون، يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة لكل إقليمٍ واحدٌ.

=

=

أحدهم: على قدم الخليل.

والثاني: على قدم الكليم.

والثالث: على قدم هارون.

والرابع: على قدم إدريس.

والخامس: على قدم يوسف.

والسادس: على قدم عيسى.

والسابع: على قدم آدم، على الكل السلام، وهم عارفون بما أودع الله تعالى في الكواكب السيّارة من الأمور والأسرار.

ولهم من الأسماء أسماء الصفات، فمنهم عبد الحي، وعبد العليم، وعبد المريد، وعبد القادر، وهذه أسماء أربعة الأوتاد، وباقيهم عبد الشكور، وعبد السميع، وعبد البصير، لكل صفة إلهية رجلٌ من هؤلاء الأبدال، بها ينظر الحق إليه وهي الغالبة عليه.

فما من رجلٍ إلا وله نسبةٌ إلى اسمٍ إلهيٍّ منه يتلقى ما يرد عليه من الحضرة الإلهية. وسُمِيَ هؤلاء أبدالاً؛ لأن أحدهم إذا فارق موضعًا وأراد أن يخلف به رجلاً آخر بدلاً منه لأمر يريده في مصلحة وقربة كان له القدرة على ذلك، فيترك شخصًا على صورته لا يشكُّ من رآه أنه عين ذلك الرجل، وليس كذلك بل هو شخصٌ روحانيٌّ أقامه مقامه، فكل من له هذه القوة فهو من الأبدال.

أما من يقيم الله بدله شخصًا لأمرٍ ما ولا علم له به فليس منهم، ومعنى قولهم: (فلانٌ على قدم فلان) أنه مثله في علومه ومعارفه التي ترد على قلبه، فإن المعارف الإلهية إنما ترد على القلوب، وكل علمٍ يرد على قلب الشخص الكبير من ملكٍ أو رسولٍ فإنه يرد على قلب من ورثه في مقامه.

وقد يقولون: (فلانٌ على قلب فلان)، ومعناه: ما ذُكِر: أي يتقلب في علومه ومعارفه.

وقد تُطلق الأبدال على أربعين رجلاً يُسمُّون أيضًا الرجبيين، وهم رجالٌ لهم القيامة بعظمة الله تعالى، وهم الأفراد وأرباب القول الثقيل المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل: ٥]، سُمُّوا رجبيين؛ لأن حالهم لا يكون لهم إلا في شهر رجب من أوله إلى انفصاله، ثم يفقد ذلك الحال من أنفسهم إلى دخول رجب من السنة الآتية، ومنهم من يبق عليه أمر من ذلك في سائر السنة، وقليل من يعرفهم من أهل هذه الطريق، وهم متفرقون في البلاد ويعرف بعضهم بعضًا، فمنهم باليمن وبالشام وبديار بكر.

الأربع. هذا ما أظهره الله تلك الليلة للفقير حقي.

وارد في وجود الخضر عليه السلام(١)

(١) قال وهب بن منبه: الخضر اسمه يلياء بن ملكان بن فالغ بن عابر بن سالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام.

واختلف في نبوَّته فقال الثعلبي في تفسيره: الخضر نبي معمر محجوب عن الأبصار، قيل له: إنك لا تموت إلا في آخر الزمان حين يُرفع القرآن.

واختلف في حياته أيضًا، والصحيح أنه حي.

قال ابن الصلاح: الخضر حي عند جمهور العلماء، وإنما شذَّ بإنكاره بعض المحدثين، وفي شرح مسلم عن الجمهور أنه حيٌّ موجود بين أظهرنا، وذلك متفق عليه عند السَّادة الصوفية، وأهل الصلاح والمعرفة، وحكاياتهم في رؤيته والاجتماع به، والأخذ عنه، ووجوده في المواضع الشريفة أكثر من أن تُحصر، وأشهر من أن تُذكر.

وعن كعب الأحبار رضي الله عنه «أربعة من الأنبياء أحياء أمان لأهل الأرض: اثنان في الأرض: الخضر وإلياس، واثنان في السماء: إدريس وعيسى»، عليهم السلام أجمعين.

قال وهب: ولما قال الله تعالى لموسى عليه السلام: إن لي عبدًا من عبادي الذين لم أجعل للشيطان عليهم سبيلا، وأن مسكنه في جزيرة من جزائر البحر، فانطلق نحو البحر فإنِّي أرشدك إليه، «فسار موسى ومعه فتاه يوشع بن نون عليهما السلام حتى وصلا إلى عين الحيَّات، وأحيا الله السمكة التي كانت مع يوشع؛ لأجل غدائهم، ونسي يوشع أن يخبر موسى، فسارا طويلاً حتى طلب موسى الغداء، فذكر يوشع حياة السمكة، فأخبره بها، فارتدا على آثارهما قصصًا، فوجداه يعبد الله، فسأله موسى عليه السلام المصاحبة، وكان منه ما قصَّه الله تعالى».

وكذا الخضر عليه السلام اجتمع بنبينا ﷺ اجتماعًا متعارفًا فهو صحابيٌّ أيضًا، ومن اجتمع به كذلك فهو تابعيٌّ.

وإنما لُقِّب بالخضر لأنه ما جلس على أرضٍ إلا اخضرَّت.

وقيل عن مقامه الشريف: إنه في الجانب الأيمن من منبر الجامع النوري مقام الخضر عليه السلام: يعني كثيرًا ما يراه الصالحون هناك والله أعلم.

وقيل: إن مقامه بين المحراب والمنبر في الجامع الموسوم بالأحمر حتى قيل: إن مَنْ صلَّى الصبح فيه أربعين صباحًا يجتمع فيه به والله اعلم.

وأنا أسأل الله الكريم أن ينفعني ببركاته، ويفيض عليّ من نفحاته، ويمن عليَّ بملاقاته، وأنِّي لم أكن أهلاً لذلك المجد العظيم، والشرف، الجسيم ولو رؤيا منام، والله ذو الفضل العظيم.

اختلف في حياته الدنيوية: هل هو باقٍ إلى هذا الآن، وإلى قيام الساعة؛ كإلياس، وإدريس، وعيسى أم لا؟ فذهب إلى نفيه وحمله على الصفة الغالبة على الرأي حضرة الشيخ صدر الدين القونوي، وذهب إلى إثباته وحمله على الحقيقة حضرة الشيخ محيي الدين العربي قَدَّس الله سرَّهما، وكثير من أهل السلوك، ومَن يدَّعي المعرفة الإلهية لم يقفوا على مرادهما، وإنهما على الاتفاق في الحقيقة.

وذلك أن حمله على الصفة الغالبة لا ينافي وجوده الحسِّي في نفس الأمر؛ فهو حي الآن؛ كالأنبياء المذكورين؛ لكنه لَمَّا كان المتروحنين يتمثل للرأي على حسب صفته الغالبة، فالذي يراه؛ فإنما يراه على الصفة الغالبة عليه غالبًا كما يرى ملك الملوك حين الموت، فملك الموت هو عزرائيل على الحقيقة، ولا ينافيه كونه مرئيًا على صفة العمل الغالب على المحتضر[1].

ألا ترى أن جبريل عليه السلام كان يتمثَّل في صورة البشر مع كون الحقيقة حقيقة الملك، فكونه على صورتين لا يقدح في وحدة حقيقته، وكذا كون الشيء على صورته الحقيقية في مواضع مختلفة في وقت واحد؛ كالأبدال فإنهم يتمثَّلون في أمكنة شتَّى زمان مع وحدة صورهم الأصلية، ومن قبيل التمثُّل على صورتين مختلفتين نحو التمثُّل الجبرائيلي تمثل إدريس المرفوع إلى السماء.

فإنه على ما ذهب إليه حضرة الشيخ محيي الدين قُدِّس سرُّه تمثَّل في الصورة الإلياسية، وأرسله الله تعالى إلى قرية بعلبك من نواحي الشام، ثم لَمَّا تمَّ الأمر؛ ركب على فرس من نار؛ فغاب عن أعين الناس، وصحب الملائكة بحسب نشأته الروحانية، فهو عند تمثُّله بصورة إلياس؛ هو إدريس الذي بُعث قبل نوح عليه السلام.

---

(١) الخضر: كناية عن البسط وإلياس عن القبض، وأما كون الخضر عليه السلام شخصًا إنسانيًا باقيًا من زمان موسى عليه السلام إلى هذا العهد، أو روحانياً يتمثل بصورته، فلم يرشد إليه نقل وغير محقق عقلاً، بل قد يتمثل معناه له بالصفة الغالبة عليه، ثم يضمحل، وهو روح أو روح لك أو روح القدس هذا عند العامة، وأما عند المحققين وجوده ثابت.

فصور المفاتيح الأول التي هي صور الأصول: آدم، وشيث، وإدريس، ونوح، يجمع هؤلاء سيدنا الخضر على نبينا وعليهم السلام.

فإذًا كون الصورة متعدِّدة ومختلفة لا يقدح في وحدة الحقيقة.

ألا ترى أن النبي ﷺ يُرى في وقت واحد لكثير من أمته؛ وهو هو إذا كان مرئيًا على حليته الأصلية مع أنه دفين في روضة لا ينتقل منها إلى قيام الساعة، وإن روحانيته في أعلى علّيين، وإن كان له السير في العوالم كلها؛ لكن تعدُّد صوره؛ إنما كان بطريق التمثُّل المتصل إلى حقيقته، فكما إن مَن رآه؛ فقد رآه على الحقيقة في صورة المثال المتجسَّد؛ فكذا مَن رأى الخضر ونحوه؛ فإنما رآه على الحقيقة، وإن كان في صورة المثال المتجسِّد بحسب عمله، وقد رأيته مرارًا، ولقيته كرارًا مرتين في اليقظة؛ كالمنى، وكشف عمًّا في قلبي، وأعانني على ما قصدته.

ومرة سمعت صوته بتعريف منه، ولم أرَ شخصه، ودعا لي بالخير، ومرتين بين النوم واليقظة، وفي كل ذلك على صورة واحدة عليه عباء أبيض، وعلى سجاية العرب، فما شككت في أنه هو، وإن كان بطريق المثال لِما ورد: عليّ من التعريف الإلهي الذي لا يكذّبه النفس بوجه من الوجوه، فكُن على الإيمان حتى تصل إلى الإحسان، فإنك أنت الإنسان الذي ظهر على صورة الحسان.

جهنم لها سبعة أبواب[١]

(١) ورد في عدد أبوابها وطبقاتها:

قال الله تعالى : ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٤].

ورُوي: «أن النبي ﷺ كان يصلي في مسجده وحده، فمرَّت به أعرابية فصلَّت خلفه ولم يعلم بها، فقرأ ﷺ هذه الآية: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ*لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٤]، فخرَّت الأعرابية مغشيًا عليها، فسمع رسول الله ﷺ ضجيجًا، فانصرف ودعا بماءٍ فصب على وجهها، فأفاقت وجلست، فقال النبي ﷺ: يا هذه ما لكِ؟ فقالت: أهذا شيء من كتاب الله تعالى، أو من تلقاء نفسك؟ فقال: يا أعرابية هو من كتاب الله المُنــزَّل، فقالت: كل عضوٍ من الأعضاء يُعذَّب على محل باب منها، قال: يا أعرابية لكل بابٍ منهم جزء مقسوم، يُعذَّب كل أهل ملة على قدر أعمالهم، فقالت: والله إني امرأة مسكينة، ما لي مال، وما لي إلا سبعة أعبد أشهدك يا رسول الله، إن كل عبدٍ منهم عن كل بابٍ من أبواب جهنم حر لوجه الله تعالى، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا رسول الله، بشِّر الأعرابية أن الله قد حرم عليها أبواب جهنم، وفتح لها أبواب الجنة كلها».

وقد قيل في معنى هذه الآية: لكل بابٍ منهم جزء مقسوم: أي من الكفار والمنافقين والشياطين، بين الباب والباب خمسة آلاف عام.

فالباب الأول: يُسمَّى جهنم؛ لأنه ينجهم في وجوه الرجال والنساء فتُأكل لحومهم، وهو أهون عذابًا من غيره، والباب الثاني: لظى.

والباب الثالث: سقر.

والباب الرابع: الحطمة.

والباب الخامس: الجحيم، وإنما سُمِّي الجحيم لأنه عظيم الجمر، الجمرة الواحدة أعظم من الدنيا.

والباب السادس: السعير، وسُمِّي السعير لأنه يسعر لم يطفأ منذ خلقه الله، فيه ثلاثمائة قصر، في كل قصرٍ ثلاثمائة بيت، في كل بيتٍ ثلاثمائة لون من العذاب، وفيه الحيات والعقارب والقيود والسلاسل والأغلال والأنكال، وفيه جب الحزن ليس في النار أشد منه، إذا فُتح حزن أهل النار حزنًا شديدًا.

والباب السابع: يُقال له الهاوية، من وقع فيه لم يخرج أبدًا، وفيه بئر الهباب، إذا فُتح يخرج منه نار تستعيذ منه النار، فيه صعود المذكور في القرآن، وهو جبلٌ من نارٍ، تُوضع وجوه أعداء الله عليه، =

=

مغلولة أيديهم إلى أعناقهم، مجموعة أعناقهم إلى أقدامهم، والزبانية واقفون على رؤوسهم، بأيديهم مقامع من حديد، إذا ضُرب أحدهم بالمقمعة ضربة يسمع ضربها الثقلان، وأبواب النار حديد، وغشاؤها الظلمة، أرضها نحاس ورصاص وزجاج، النار من فوقهم، والنار من تحتهم، لهم من فوقهم ظلل من النار، ومن تحتهم ظلل قد مُزجت بغضب، وقد ورد في جبالها وأوديتها وزقومها وحميمها وعذابها أخبار كثيرة، نسأل الله العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة

وأما طبقاتها:

قال العلاَّمة الأمير: ففي حاشية شيخنا العدوي على الشيخ عبد السلام: إن أعلاها جهنم، وفيها من يُعذَّب على قدر عمله من عصاة المؤمنين ثم يخرج، وتحتها لظى وفيها اليهود، ثم الحطمة وفيها النصارى، ثم السعير وفيها الصابئون، ثم سقر وفيها المجوس، ثم الجحيم وفيها عبدة الأوثان والأصنام، ثم الهاوية وفيها المنافقون انتهى.

وفي تذكرة القرطبي قال العلماء: وأعلى الدرجات جهنم، وهي مختصة بالعصاة من أمة محمد ﷺ، وهي تخلى من أهلها فتصفق الرياح أبوابها، وفي رواية: «وهي التي ينبت على شفيرها الجرجير»، وفيها أيضًا: وملائكتها كما وصفهم الله تعالى ﴿**مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم:٦] .

قال رسول الله ﷺ في خزنة جهنم: «في منكبي أحدهم المشرق والمغرب».

وقال ابن عباس: ما بين منكبي الواحد منهم مسيرة سنة، وقوة الواحد منهم أن يضرب بالمقمع فيقع بتلك الضربة سبعون ألف إنسان في قعر جهنم.

وأما قوله تعالى: ﴿**عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ**﴾ [المدثر:٣٠]، فالمراد رؤساؤهم، وأما جملتهم فما يعلم جنود ربك إلا هو انتهى.

وأما مالك عليه السلام فهو رئيس جميع خزنة النار، والمتكلم عليهم والآمر لهم.

وفي التذكرة عن العباس أن حجارتها حجارة الكبريت، خلقها الله تعالى كيف شاء أو كما يشاء، وقيل: المراد بالحجارة: الأصنام، وعليه فتكون الناس والحجارة وقود النار انتهى.

وفي الخازن في تفسير قوله تعالى: ﴿**شَجَرَةُ الزَّقُّومِ**﴾ [الصافات:٦٢]: أي التي هي نـزل أهل النار، والزقوم: شجرة خبيثة مُرَّة كريهة الطعم، يُكره أهل النار على تناولها، فهم يتجرعونه على أشد

=

=

كراهة، حتى يملأون بطونهم، وإذا عطشوا جيء لهم بالحميم، وهو ماءٌ شديد الحرارة، فيشربونه فيمزق أقدامهم من شدة حرارته، قال تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص:٥٧].

قال ابن عباس: هو أي الغساق الزمهرير يحرقهم ببرده، كما تحرقهم النار بحرِّها، نعوذ بالله من النار ومن عذاب النار، ومن كل عملٍ يقربنا إلى النار ، والله أعلم.

وآخر من يخرج منها، ومن يموت فيها من عصاة الأمة المحمدية:

أخرج الطبراني عن ابن مسعود قال: «إن آخر أهل الجنة دخولاً رجلٌ قال له ربه: قم، فادخل الجنة، فأقبل عليه عابسًا، قال: وهل أبقيت لي شيئًا؟ قال: لك مثل ما طلعت عليه الشمس وغربت».

وأخرج الدارقطني في غرائب مالك في رواية عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن آخر من يدخل الجنة رجلٌ من جهينة، يقال له: جهينة، فيقول أهل الجنة: عند جهينة الخبر اليقين، سلوه هل بقي من الخلائق أحدٌ».

وأخرج عن المغيرة بن شعبة رفعه قال: «سأل موسى ربه فقال: يا رب أخبرني بأدنى أهل الجنة منـــزلة، قال: هو رجلٌ يجيء بعدما أدخل أهل الجنة، فيُقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب كيف وقد نـــزل الناس منازلهم! وقد أخذوا خزائنهم! فيُقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت، فيقول: لك ذلك، ومثله ومثله ومثله ومثله، فقال في الخامسة: رضيت، فيقول الرب: لك هذا وعشر أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذت عينك، قال: رب فمن أعظمهم منـــزلة؟ قال: أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيدي، وختمت عليها فلم ترَ عين، و لم تسمع أذن، و لم يخطر على قلب بشر مثلها».

وأما بيان موت العصاة فيها من الأمة المحمدية، فقد أخرج مسلم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها، ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم، فأماتتهم إماتة حتى إذا كانوا فحمًا أُذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر، فبُثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة في حميل السيل».

قال القرطبي: هذه الموتة للعصاة موتة حقيقية؛ لأنه أكّدها بالمصدر، وذلك تكريمًا لهم حتى لا يحسّوا بألم العذاب.

قال: فإن قيل: فأي فائدة حينئذ في إدخالهم النار، وهم لا يحسون بالعذاب؟!

قلنا: يجوز أن يدخلهم النار تأديبًا وإن لم يذوقوا فيها العذاب، ويكون صرف نعيم الجنة عنهم مدة كونهم فيها عقوبة لهم، كالمحبوسين في السجن، فإن الحبس عقوبة لهم وإن لم يكن غل ولا قيد.

=

وقال في سورة الحجر: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٣-٤٤].

- **الباب الأول: باب الكبر**: وقد أبى إبليس واستكبر، وسنّ الشرك فكان أول مشركين وأول من يدخل النار، ورئيس أهل السجن، فإن جهنم سجن الله في الآخرة، فاحذر من مشاركة إبليس في الكبر وكن مع أهل الحق في التواضع.
- **الباب الثاني: باب الحسد**، وهو صفة ثانية لإبليس وأهلها، كافر في الحقيقة لأن الحسد مكابرة الحق ومعاندته في علمه وحكمته، والله يفعل ما يشاء ويصنع ما يشاء، وكيفما شاء، فاعرف جدًا.
- **الباب الثالث: باب الغضب**: وهو صفة إبليسية أيضًا لأنه لم يرض بقضاء الله الذي هو الخلافة، فغضب على ربه في ذلك، وخرج عن باب الرحمة مغضوبًا ملعونًا، فكل فاسد رديفه وتابعه حين رفع الكتاب، وذلك في يوم القيامة.
- **الباب الرابع: باب الحقد**: وهو إرادة الانتقام، وهو صفة إبليسية أيضًا، حيث لمّا طرد عن باب الرحمة نصّب نفسه الإغواء بني آدم، إرادة الانتقام لكن الله

=

قال: ويحتمل أنهم يُعذّبون أولاً، وبعد ذلك يموتون.

ويختلف حالهم في طول التعذيب بحسب جرائمهم وآثامهم، ويجوز أن يكونوا متألمين حالة موتهم، غير أن آلامهم تكون أخف من آلام الكفار؛ لأن آلام المعذبين وهم موتى أخف من عذابهم وهم أحياء، دليله: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ*النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٥،٤٦]، فأخبر أن عذابهم إذا بُعثوا أشد من عذابهم وهم موتى، ويؤيد الأول من موتهم حقيقة أنهم يُعذبون لحظة بعد الدخول فيها، كما ذكره بعض المحققين.

قال العلاّمة الأمير: ولا يستخف بهذه اللحظة، بل لا ينسى عذاب القبر.

وقيل: الموت هنا حالة تشبه النوم.

قال: فبالجملة لا يستمر عليهم الإحساس انتهى.

وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم وشرف وكرم وعظم.

لَمّا طرد عن باب الرحمة نصَّب نفسه لإغواء بني آدم، إرادة الانتقام لكن الله عزيز ذو انتقام، ينتقم لأولياء من أعدائه في الدنيا والآخرة.

- **الباب الخامس: باب العجب**: وهو رؤية العمل والاحتجاب عن التوفيق كما رأى إبليس عمله الذي وقع منه في المدة المتطاولة، وجعله من أسباب حيرته، ولم يعرف أن الكمال إنما هو في الفناء أو رؤية التأثير من الله، وهو التوحيد الحقيقي، جعلنا الله وإياكم من أهل التوفيق.
- **الباب السادس: باب حب المال**: لأن الإنسان به يميل عن الحق فهو من أقوى الحجب الكونية، وأعظم حجب المال التعبد له، ولذا قال تعالى حكاية **﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾** [إبراهيم:٣٥] قال بعض أهل العرفان: أي الحجرين: الغفلة والذهب.
- **الباب السابع: باب حب الجاه**: وهو أن يكون وجيهًا بين الناس يلتفت إليه ويسمع قوله، ويطاع له من كل الجهات والوجوه، سواء كان من أرباب الأموال - وهو أكثر = أو لا ، كما كان شأن أبو طالب في مكة، وكان من فقراء قريش ولابد من الفناء عن هذا الحب، كما لابد من بذله، فإن المراد من التحقق بالاسم الظاهر العمل بمقتضاه.

الجنة لها ثمانية أبواب[1]

(١) **فوائد في أمر الجنة**: أخرج الشيخان عن سهل ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة ثمانية أبواب، فيها باب يُسمَّى الريان، لا يدخله إلا الصائمون»، وفي لفظ: «إن في الجنة بابًا يُقال له الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحدٌ غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيدخلون منه فإذا دخلوا أُغلق، فلم يدخل منه أحدٌ غيرهم».

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دُعي من أبواب الجنة، وللجنة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله، ما على أحدٍ من ضرورة من أيها دُعي، فهل يُدعى منها أحد كلها؟ قال: نعم وأرجو أن تكون منهم».

=

=

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة بابًا يُقال له الضُّحى، فإذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الذين كانوا يديمون على صلاة الضُّحى؟ هذا بابكم ادخلوا برحمة الله».

قال القرطبي: قيل الدعاء من جميعها دعاء تنــزيه وإكرام، ثم يدخل الجنة من الباب الذي غلب عليه العمل.

وأما سعة أبوابها:

أخرج مسلم عن عتبة بن غزوان قال: «ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصارع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام».

وأخرج الطبراني عن عبد الله بن سلاّم قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ما بين المصراعين في الجنة أربعين عامًا، وليأتين عليه يوم يزاحم عليه كازدحام الإبل، وردت الخمس ظمأ».

وأخرج الشيخان عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «ليدخلنَّ الجنة من أمتي سبعون ألفًا، أو سبعمائة ألف، متماسكين، آخذ بعضهم بيد بعض، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر».

وفي المواهب اللدنية: من حديث مسلم عنه ﷺ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة».

قال: وروى ابن أبي شيبة من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل فأخذ بيدي فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي، فقال أبو بكر: وددت إن كنت معك حتى أنظر إليه، فقال ﷺ: أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل من أمتي».

قال: فقد دلَّ الحديث على أن لهذه الأمة بابًا مختصًّا يدخلون منه الجنة دون سائر الأمم.

قال: فإن قلت: من أي أبواب الجنة يدخل النبي ﷺ؟

قال: فالجواب أنه قد ذكر الترمذي الحكيم أبواب الجنة كما نقله عنه القرطبي في التذكرة، فذكر باب محمد ﷺ قال: وهو باب الرحمة، وهو باب التوبة.

فإن قلت: كم عدد أبواب الجنة؟

قال: فاعلم أن في حديث أبي هريرة عند الشيخين مرفوعًا: «من أنفق زوجين في سبيل الله دُعي من أبواب الجنة، يا عبد الله هذه خير، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريان».

=

=

وروى الترمذي من حديث عمر بن الخطاب ﷺ مرفوعًا: «ما منكم من أحدٍ يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده وسوله إلا فُتحت له مَن أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء».

قال: بزيادة من في الحديث.

قال القرطبي: وهو يدل على أن أبواب الجنة أكثر من ثمانية.

قال: وانتهى عددها إلى ثلاثة عشر بابًا، كذا قال انتهى.

أقول: والأظهر أن (من) ليست للتبعيض، يدل عليه رواية مسلم من غير (من) وهو حديثٌ واحد.

قال في المواهب: فإن قلت: فما تقول في الحديث الذي صحَّحه الترمذي من حديث بريدة؟ قال: «أصبح رسول الله ﷺ فدعا بلالاً، فقال: يا بلال بِمَ سبقتني إلى الجنة، فما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي».

فأجاب عنه ابن القيم بأن تقدم بلال إنما هو بين يدي النبي ﷺ؛ لأنه كان يدعو إلى الله أولاً بالأذان، ويتقدم أذانه بين يدي النبي ﷺ، فيقدم دخوله بين يديه ﷺكالحاجب والخادم، كما أنه يُبعث يوم القيامة ﷺ وبلال بين يديه بالأذان، فتقدمه حينئذٍ كرامةً له ﷺ، وإظهارًا لشرق الحبيب ﷺ، لا سبقًا من بلال له.

وأما ما رواه أبو هريرة مرفوعًا: «أنا أول من يُفتح له باب الجنة، إلا أن امرأة تبادرني فأقول لها: ما لكِ؟ أو من أنتِ؟ فتقول: أنا امرأة قعدت على يتامى». رواه أبو يعلى، قال: وإسناده حسن، وقوله: تبادرني: أي لتدخل معي، أو تدخل في أثري، ويشهد له حديث: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وقال: أي أشار بإصبعيه السبابة والوسطى[1]». رواه الإمام البخاري من حديث سهل.

قال شارحه: حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به؛ ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة، ولا منــزلة في الجنة أفضل من ذلك.

قال: ويحتمل أن يكون المراد قرب المنــزلة حال دخول الجنة انتهى.

جعلنا الله من أهلها ومن رفقائه، وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

=

=

ذكر حائطها وأرضها: أخرج أحمد والترمذي وابن حبان والبيهقي وعبد الله بن حميد عن أبي هريرة قال: «قلنا: يا رسول الله، حدِّثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وملاطها المسك، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم لا ييأس، ويخلد ولا يموت، ولا تُبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه».

والملاط بكسر الميم: الطين الذي يُجعل بين اللبن في البناء.

وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني، وابن أبي الدنيا بسندٍ حسنٍ عن ابن عمر قال: «سُئل رسول الله ﷺ عن الجنة، كيف هي؟ قال: من يدخل الجنة يحيا ولا يموت، وينعم ولا ييأس، ولا تُبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، قيل: يا رسول الله، كيف بناؤها؟ قال: لبنة من ذهبٍ، ولبنة من فضةٍ، ملاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران».

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أرض الجنة بيضاء، عرصتها صخور الكافور، وقد أحاط به المسك مثل كثبان الرمل، فيها أنهار مطردة، فيجتمع فيها أهل الجنة أولهم وآخرهم، فيتعارفون، فيبعث الله ريح الرحمة فتفيح عليهم المسك، فيرجع الرجل إلى زوجته وقد ازداد حسنًا وطيبًا، فتقول: لقد خرجت من عندي وأنا بك معجبة، وأنا بك الآن أشد إعجابًا».

وأما الكلام على غرفها:

فقد أخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليرون أهل الغرف فوقهم، كما ترون الكوكب النائر في الأفق من المشرق أو المغرب، يتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله، ذلك منازل الأنبياء لا يدركها غيرهم، قال رسول الله ﷺ: بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين».

وأخرج أحمد والحاكم وصحَّحه، والبيهقي عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة غرفًا يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وبات قائمًا والناس نيام».

وأخرج البيهقي وأبو نعيم عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بغرف الجنة، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: في الجنة غرفًا من أصناف الجوهر، يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، فيها من النعيم المقيم، واللذات والشرف ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قلنا: يا رسول الله، لمن هذه الغرف؟ قال: لمن أفشى السلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام، قلنا: يا رسول الله، ومن يطيق ذلك؟ قال: أمتي تطيق ذلك، وسأخبركم عن ذلك، من لقي أخاه فسلم عليه أو رد عليه فقد أفشى السلام،

=

ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام، ومن صام رمضان، ومن كل شهرٍ ثلاثة أيام فقد أدام الصيام، ومن صلّى العشاء الأخيرة، وصلّى الغداة في جماعةٍ فقد صلّى بالليل والناس نيام، واليهود والنصارى والمجوس نيام».

وأخرج الطبراني في الأوسط عن بريدة عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة غرفًا يُرى ظواهرها من بواطنها، وبواطنها من ظواهرها، أعدَّها الله للمتحابين فيه، والمتزاورين فيه، والمتباذلين فيه».

وأما قصورها:

فأخرج ابن المبارك والطبراني، وأبو الشيخ والبيهقي عن عمران بن حصين، وأبي هريرة قالا: «سُئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة:٧٢]، قال: قصرٌ من لؤلؤة، في ذلك القصر سبعون دارًا من ياقوتة حمراء، وفي كل دارٍ سبعون بيتًا من زمردةٍ خضراء، في كل بيتٍ سرير، على كل سريرٍ سبعون فراشًا من كل لونٍ، على كل فراشٍ زوجة من الحور العين، على كل بيتٍ سبعون مائدة، على كل مائدةٍ سبعون لونًا من الطعام، في كل بيتٍ سبعون وصيفًا ووصيفة، ويُعطى المؤمن في كل غداةٍ من القوة ما يأتي على ذلك كله أجمع».

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «في الجنة قصر له أربعة آلاف مصراع، على كل باب خمس وعشرون من الحور العين، لا يدخله إلا نبيٌّ أو صديقٌ أو شهيدٌ».

وأما ما ورد من الأعمال الموجبة لبناء البيوت فمنها السخاء، ولذلك أخرج الطبراني في الأوسط عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قال رسول الله ﷺ: إن في الجنة بيتًا يُقال له بيت السخاء».

وأخرج الشيخان عن عثمان بن عفان ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من بنى لله مسجدًا يبتغي به وجه الله تعالى بنى الله له بيتًا في الجنة».

وأخرج الترمذي وابن ماجه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى الضُّحى اثنتي عشرة ركعة بنى الله له قصرًا في الجنة من ذهبٍ».

وأخرج البزار عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «أيكم أصبح صائمًا؟ قال أبو بكر: أنا، قال: أيكم شيع جنازة؟ قال أبو بكر: أنا، قال: أيكم عاد مريضًا؟ قال أبو بكر: أنا، قال: أيكم تصدق بصدقةٍ؟ قال أبو بكر: أنا، قال: من كانت له هذه الأربع بُني له بيت في الجنة»، يعني وفق لجمعها في يومٍ واحدٍ.

وأخرج الطبراني في كتاب آداب النفوس بسنده عن حكيم بن حكيم بن محمد الأحمس قال: بلغني أن الجنة تُبنى بالذكر، فإذا حبسوا الذكر كفوا عن البنيان.

=

=

وأخرج الترمذي عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته: قبضتم روح ولد عبدي، فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجعك، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة، وسمّوه بيت الحمد».

وأخرج الدرامي في مسنده عن سعيد بن المسيب أن النبي ﷺ قال: «من قرأ: قل هو الله أحد، إحدى عشرة مرة، بنى الله له قصرًا في الجنة، ومن قالها عشرين مرة بُني له قصران، ومن قالها ثلاثين مرة بُني له ثلاثة قصور في الجنة، فقال عمر بن الخطاب ﷺ: إذًا تكثر قصورنا، فقال رسول الله ﷺ: رحمة ربك أوسع من ذلك».

وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وأزواجه وذريته وآل بيته، كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

وما جاء في ظلها وأنه لا حر فيها ولا شمس ولا قمر، ورائحتها وعدم النوم فيها:

قال الله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ [الواقعة:٣٠]، ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾ [النساء:٥٧].

وأخرج البيهقي عن عمر بن ميمون في قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ قال: مسيرة سبعين ألف عام.

وأخرج البيهقي عن شعيب بن الحجاب قال: خرجت أنا وأبو العالية الرياحي قبل طلوع الشمس، فقال: إن الجنة هكذا، ثم تلا: (وظلّ مَمْدُود) انتهى. من البدور.

والمشار إليه بهكذا زمن قبل طلوع الشمس، وأما دليل عدم الحر والبرد فيها فهو قوله تعالى: ﴿لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً﴾ [الإنسان:١٣].

وأخرج ابن المبارك، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن ابن مسعود قال: الجنة لا حر فيها ولا برد.

وأما رائحتها: فقد أخرج الطبراني وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تراح رائحة الجنة من مسيرة خمسمائة عام، ولا يجد ريحها منان بعمله، ولا عاق، ولا مدمن خمر».

وأخرج الطبراني في الأوسط عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «ريح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام، والله لا يجدها عاق، ولا قاطع رحم، ولا شيخ زان، ولا جار إزاره خيلاء»، بضم الخاء وفتح الياء.

وأخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من قتل معاهدًا له ذمة من الله ورسوله لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا»، وقوله: (لم يرح) قال الكسائي: هو بضم الياء من قولك: أرحت الشيء فأنا أريحه إذا وجدت ريحه.

=

=

وقال أبو عمر : وهو بكسر الراء وفتح أوله، من رحت أريح إذا وجدت الريح.
وقال غيرهما : هو بفتح الياء والراء معًا، وهو شم الرائحة انتهى.
ثم لا يخفى أنه يختلف باختلاف أهل الجنة، فلا تنافي حينئذٍ بين هذه الروايات من كون بعضها ألف عام وبعضها أربعين وبعضها خمسمائة.
وأما ما جاء في عدم نومهم: أخرج البزار والطبراني في الأوسط والبيهقي بسندٍ صحيحٍ عن جابر بن عبد الله قال : «قيل : يا رسول الله، أينام أهل الجنة؟ قال : النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا يموتون».
وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي عن عبد الله بن أبي أوفى قال : «قال رجلٌ : يا رسول الله، إن النوم مما يقر الله به أعيننا في الدنيا، فهل في الجنة من نومٍ؟ قال : إن النوم شريك الموت، وليس في الجنة موت، قال : فبم راحتهم؟ فأعظم ذلك النبي ﷺ وقال: ليس فيها لغوب، كل أمرهم راحة»، فنــزلت : ﴿لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر:٣٥].
وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم وشرف وكرم وعظم.
وأما شجرها والأعمال الموجبة لغرس ذلك فيها، وثمارها وطعام أهلها:
قال الله تعالى: ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد:٢٩]، وقال تعالى : ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ [الواقعة:٢٨].
وأخرج الشيخان عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام، ما يقطعها، اقرءوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾».
وأخرج الترمذي وصححه عن أسماء بنت أبي بكر: «سمعت النبي ﷺ يذكر سدرة المنتهى قال : يسير الراكب في ظل الفنن منها مائة سنة، أو يستظل بظلها مائة سنة، فيها فرش الذهب كأن ثمرها القلال».
وأخرج الترمذي وحسّنه، وابن حبان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: «ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهبٍ»، وقوله في الحديث : (في ظل الفنن) الفنن بفتح الفاء والنون: الغصن.
وأما ما جاء في الأعمال الموجبة لغرس ذلك، أخرج الترمذي والحاكم وصححه عن جابر أن النبي ﷺ قال: «من قال: سبحان الله العظيم غُرست له شجرة في الجنة».
وأخرج البزار عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: سبحان الله، والحمد لله، غُرست له نخلة في الجنة».

=

=

وأخرج الحاكم أيضًا وصحَّحه وابن ماجه: «ألا أدلك على غرس خير لك منه؟ قال: قلت: ما هو؟ قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، يُغرس لك بكل واحدة شجرة».

وأما ثمراتها: فقال تعالى: **﴿لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾** [البقرة:٢٦٦]، **﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** [البقرة:٢٥].

وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر في تفسيرهما عن ابن عباس: **﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾** قال: ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة، حتى الحنظل، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ومسعود في مسنده، وهناد في الزهد، والبيهقي عن ابن عباس قال: ليس في الدنيا مما في الجنة شيء إلا الأسماء.

وأخرج البزار والطبراني عن ثوبان سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا ينــزع الرجل من أهل الجنة من ثمرها إلا أُعيد في مكانها مثلها».

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن مسعود أنه كان بالشام فتذاكروا الجنة، فقال: إن العنقود من عناقيدها من ها هنا إلى صنعاء.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري عن النبي قال: «نظرت إلى الجنة فإذا بالرمانة من رمانها كمثل البعير المقتب».

وأخرج البزار عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «إن الله لما أخرج آدم من الجنة زوَّده من ثمار الجنة، وعلَّمه صنعة كل شيءٍ، فثماركم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير».

وأما طعام أهلها: فأخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما مؤمن أطعم مؤمنًا على جوعٍ أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة، وأيما مؤمن سقى مؤمنًا على ظمإٍ سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم، وأيما مؤمن كسا مؤمنًا على عري كساه الله يوم القيامة من خضر الجنة».

وأخرج ابن المبارك والطبراني في الأوسط، وابن أبي الدنيا بسند رجاله ثقات عن أنس: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أسفل أهل الجنة أجمعين درجة لمن يقوم على رأسه عشرة آلاف، بيد كل واحدٍ صفحتان، واحدة من ذهبٍ، والأخرى من فضةٍ، في كل واحدةٍ لون ليس في الأخرى، يأكل من آخرها مثل ما يأكل من أولها، يجد لآخرها من الطيب واللذة مثل الذي يجد من أولها، ثم تكون مثل ريح المسك الأذفر، لا يبولون ولا يتغوطون، إخوانًا على سررٍ متقابلين».

=

=

وأخرج البزار وابن ابي الدنيا والبيهقي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويًا».

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي أمامة: «إن الرجل من أهل الجنة ليشتهي الطير من طير الجنة، فيقع في يديه مقليًا نضيجًا»: أي بحسب الشهوة، فلا ينافي ما قبله.

وأخرج أيضًا عن ميمونة أن النبي ﷺ قال: «إن الرجل يشتهي الطير في الجنة فيخرج مثل البخت، حتى يقع على خوانه: أي ما يضع عليه طعامه، لم يصبه دخان، ولم تمسه نار، فيأكل منه حتى يشبع ثم يطير».

وأخرج ابن المنذر عن الوليد بن مسلم قال: سألت زهير بن محمد عن قوله تعالى: ﴿**وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً**﴾ [مريم:٦٢]، قال: ليس في الجنة ليل هم في نورٍ أبدًا، لهم مقدار النهار برفع الحجب، ومقدار الليل بإرخاء الحجب.

وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت؛ لما أخرجه مسلم عن ثوبان: أن حبرًا من اليهود سأل رسول الله ﷺ: «أين يكون الناس يوم تُبدَّل الأرض غير الأرض؟ فقال رسول الله ﷺ: هم في الظلمة دون الجسر، قال: فمن أول الناس إجازة على الصراط؟ قال: فقراء المهاجرين، قال: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: زيادة كبد الحوت، قال: فما غذاؤهم على أثر ذلك؟ قال: ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها، قال: فما شرابهم عليها؟ قال: من عينٍ تُسمَّى سلسبيلاً، قال: صدقت».

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وأزواجه وذريته وآل بيته، كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

الفصل الخامس

في أنهار الجنة وعيونها ولباس أهلها والأعمال الموجبة لذلك

وحلية أهل الجنة وفرشهم وأرائكهم وأسرتهم وخيامهم

أما أنهارها وعيونها: قال الله تعالى: ﴿**فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ**﴾ [محمد:١٥]، ﴿**عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً**﴾ [الإنسان:٦].

أخرج ابن حبان والحاكم والبيهقي وابن أبي حاتم والطبراني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنهار الجنة تفجر من جبال المسك».

=

=

وأخرج أبو نعيم وابن مردويه والضياء عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لعلكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود في الأرض، لا والله إنها السابحة على وجه الأرض، حافتاها خيام اللؤلؤ، وطينها المسك الأذفر، قلت: يا رسول الله، ما الأذفر؟ قال: الذي لا خلط معه».

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس قال: «الكوثر نهر في الجنة، عمقه سبعون ألف فرسخ، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، شاطئاه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت، خص الله به نبيه قبل الأنبياء».

وأخرج الترمذي، وصحَّحه البيهقي عن معاوية بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن في الجنة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تتشقق الأنهار منها».

وأخرج البيهقي عن كعب قال: «نهر النيل: نهر العسل في الجنة، ونهر دجلة: نهر اللبن في الجنة، ونهر الفرات: نهر الخمر في الجنة، ونهر سيحان: نهر الماء في الجنة».

وأخرج الإمام أحمد في الزهد، والدارقطني في كتاب المديح عن المعتمر بن سليمان قال: «إن في الجنة نهرًا يُنبت الجواري الأبكار».

وأخرج ابن عساكر عن أنس مرفوعًا: «في الجنة نهرٌ يُقال له الريان، عليه مدينة من مرجان، لها سبعون ألف باب من ذهبٍ وفضةٍ لحامل القرآن».

وأما عيونها: فأخرج سعيد بن منصور، وهناد والبيهقي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿**عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً**﴾ [الإنسان:١٨]: أي شديدة الجرية: أي شدة الجري.

وأخرج البيهقي عن عطاء قال: التسنيم: اسم العين التي يمزج بها الخمر.

وأخرج ابن أبي حاتم عن البراء بن عازب في قوله: ﴿**فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ**﴾ [الرحمن:٥٠]، قال: هما خيرٌ من النضاختين، والنضاختان قال ابن عباس: الفائضتان بالماء.

وعن أنس: نضاختان بالمسك والعنبر.

وعن سعيد ابن جبير: ينضخان بألوان الفاكهة.

وأخرج الحاكم في النوادر عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع عيون في الجنة: عينان تجريان من تحت العرش، إحداهما التي ذكر الله فيها: ﴿**يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً**﴾ [الإنسان:٦]والأخرى: الزنجبيل، وعينان نضاختان من فوق، إحداهما التي ذكر الله: ﴿**تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً**﴾ [الإنسان:١٨]، والأخرى: التسنيم[1]».

وأما لباس أهلها: فقال الله تعالى: ﴿**وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ**﴾ [فاطر:٣٢]، ﴿**وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ**﴾ [الكهف:٣١].

=

=

وأخرج النسائي والطيالسي والبزار والبيهقي بسندٍ جيدٍ عن ابن عمر قال: «يا رسول الله، أخبرنا عن ثياب أهل الجنة، أخلق تخلق أو نسج فتنسج؟ فضحك بعض القوم، فقال رسول الله ﷺ: تضحكون من جاهلٍ يسأل عالمًا! قال: بل تتشقق عنها ثمار الجنة مرتين».

وأخرج البزار وأبو يعلى والطبراني من حديث جابر مثله بسندٍ صحيحٍ، وأخرج البيهقي عن أبي الخير بن عبد الله قال: «في الجنة شجرة تنبت السندس، منه يكون ثياب أهل الجنة».

وأخرج ابن المبارك عن أبي هريرة قال: «إن دار المؤمن درة مجوّفة، فيها أربعون بيتًا، في وسطها شجرة تنبت الحلل، فيذهب فيأخذ بإصبعيه سبعين حلة، منظمة باللؤلؤ والزبرجد والمرجان».

وأخرج الشيخان عن أنس قال: «أُهدي لرسول الله ﷺ جبة من سندس، وكان ينهى عن الحرير، فعجب الناس منها: أي من حسنها، فقال: والذي نفس محمد بيده إن مناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذه».

وأخرج الشيخان عن عمر قال النبي ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة».

قال بعضهم: أي مع السابقين؛ لتأخره مجازاةً له بلبسه في الدنيا، فهو حرمان تقدم لا حرمان تأبيد.

وقال بعضهم: بإبقاء الحديث على ظاهره، وإنه ينعم بغير الحرير بعد الدخول، وهو بعيد، والأول أقرب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر:٣٣] .

وأما الأعمال الموجبة لذلك فقد أخرج الحاكم وصححه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كفَّن ميتًا كساه الله من سندس وإستبرق من الجنة».

وأخرج الترمذي وحسَّنه، والحاكم عن معاذ بن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من ترك اللباس تواضعًا لله وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق، حتى يُخير من أي حلل الإيمان شاء يلبسها».

وأخرج الطبراني في الأوسط عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من عزى مصابًا كساه الله حلتين من حلل الجنة لا تقوم بهما الدنيا»: أي بضم التاء وتشديد الواو .

وأما حلية أهل الجنة: قال الله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [الكهف:٣١]، ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الإنسان:٢١].

قال القرطبي: قال المفسرون: ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاث أسورة: سوار من ذهبٍ، وسوار من فضةٍ، وسوار من لؤلؤٍ، قال: ولما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان جعل الله ذلك لأهل الجنة إذ هم الملوك.

=

=

وأخرج الترمذي والبيهقي عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ تلا قول الله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً﴾ [فاطر:٣٣]، فقال: «إن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب».

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن كعب الأحبار قال: «إن لله ملكًا يصوغ على أهل الجنة من يوم خُلق إلى أن تقوم الساعة، ولو أن حليًا أُخرج من حلي أهل الجنة لذهب بضوء الشمس».

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء».

وأما فراشها: فقال الله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٤]، ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن:٥٤].

وأخرج الإمام أحمد والترمذي وحسَّنه، وابن حبان والبيهقي وابن أبي الدنيا عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ قال: «ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض».

قال الترمذي: قال بعض أهل العلم في تفسيره: معناه أن الفرش في الدرجات كما بين السماء والأرض.

وأخرج أبو نعيم عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن:٥٤]، وقال: ظواهرها من نورٍ جامدٍ.

وأما أرائكهم وسررهم: قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ [الإنسان:١٣]، وقال تعالى: ﴿سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾.

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي من طريق مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ قال: «مرمولة بالذهب».

وأخرج البيهقي عن مجاهد قال: الأرائك من لؤلؤ وياقوت.

وأخرج البيهقي من طريق أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ [الواقعة:١٥]، قال: مصفوفة، وفي قوله تعالى: ﴿رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ [الرحمن:٧٦]، قال: المجالس، ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾.

قال الزرقاني: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ [الغاشية:١٥]، قال: المرافق.

وأخرج هناد والبيهقي عن سعيد بن جبير قال: «الرفرف: رياض الجنة، والعبقري: عتاق الزرابي».

وأما خيامهم: فقال تعالى: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن:٧٢].

=

وأخرج الشيخان والترمذي عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «الخيمة درة مجوّفة، طولها في السماء ستون ميلاً، في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون، يطوف عليهم المؤمن».

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن ابن عباس قال: «**الخيمة درة مجوّفة، فرسخ في فرسخ، لها أربعة آلاف مصراع من ذهب**».

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «الخيام درة مجوّفة».

وأخرجا مثله عن عمر بن الخطاب موقوفًا، وابن جرير مثله عن أبي مجاز مرفوعًا مرسلاً، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء قال: «الخيمة لؤلؤة واحدة، فيها سبعون بابًا من در».

وأخرج هناد عن عمرو بن ميمون ﷺ قال: الخيمة درة مجوفة، وأخرج مثله عن مجاهد، وأبي الأحوص.

وأخرج هناد عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿**مُتَقَابِلِينَ**﴾ [الصافات:٤٤]، قال: لا يرى بعضهم قفا بعض.

وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وأزواجه وذريته وآل بيته، كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون .

في أزواج أهل الجنة وعددهم، والأعمال الموجبة لذلك وغنائهم:

أما الأزواج: فقال تعالى: ﴿**أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ**﴾ [البقرة:٢٥].

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة أنهم تذاكروا: الرجال أكثر في الجنة أم النساء؟ فقال: ألم يقل رسول الله ﷺ: «ما في الجنة رجلٌ إلا وله زوجتان، إنه ليرى مخ ساقها من وراء سبعين حلة ما فيها عذب».

وأخرج الترمذي وصححه والبزار عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**يزوّج العبد في الجنة سبعين زوجة، قالوا: يا رسول الله أيطيقها؟! قال: يُعطى قوة مائة**».

وأخرج أحمد والترمذي عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «**إن أدنى أهل الجنة منـــزلة الذي له ثمانون ألف خادم، واثنتان وسبعون زوجة، وتُنصب له قبة من لؤلؤ وياقوت وزبرجد، كما بين الجابية وصنعاء**».

وأما الأعمال الموجبة لذلك فدليله ما أخرج أبو داود والترمذي وحسَّنه وابن ماجه عن معاذ بن أنس أن النبي ﷺ قال: «من كظم غيظًا وهو يقدر على أن ينفذه دعاه الله على رءوس الخلائق يوم القيامة، حتى يخيره في أي الحور شاء».

وأخرج أنس أن النبي ﷺ قال: «**كنس المساجد مهور الحور العين**».

وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال: «إن في الجنة حوراء يُقال لها العيناء، إذا مشت مشى حولها سبعون ألف وصيفة عن يمينها وعن يسارها، كذلك وهي تقول: أين الأمَّارون بالمعروف، والناهون عن المنكر».

وأخرج أيضًا عن ابن عباس قال: «إن في الجنة حوراء يُقال لها لعبة، لو بزقت في البحر لعذب ماء البحر كله، مكتوب على نحرها: من أحب أن يكون له مثلي فليعمل بطاعة ربي».

وأخرج الترمذي وحسَّنه وابن ماجه عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلكِ الله، فإنما هو عندك رحيل، يوشك أن يفارقك إلينا».

وأما جماع أهل الجنة: فقال تعالى: ﴿**إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ**﴾ [يس:٥٥].

وأخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ**﴾ [يس:٥٥]، قال: «في افتضاض الأبكار».

وأخرج أبو يعلى والطبراني والبيهقي عن أبي أمامة: «أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ هل يتناكح أهل الجنة؟ فقال: دحامًا دحامًا، لا مني ولا منية».

وأخرج البزار والطبراني في «الصغير» وأبو الشيخ في «العظمة» عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عُدن أبكارًا».

ثم إنه اختلف هل في الجنة توالد ونسل؟

فقال بعضهم بوجوده، واستدل بما أخرجه الترمذي وحسَّنه، وأبو الشيخ عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة كما يشتهي».

قال الترمذي: اختلف أهل العلم في هذا، فقال بعضهم: في الجنة جماع ولا يكون ولد، هكذا يُروى عن طاوس وعن مجاهد والنخعي.

وقال إسحاق بن إبراهيم في هذا الحديث: إذا اشتهى ولكن لا يشتهي. انتهى من الترمذي.

قال في البدور: وقال جماعة: بل فيها الولد إذا اشتهاه الإنسان، ورجَّحه الأستاذ أبو سهل الصعلوكي، قلت: ويؤيده أن أول حديث أبي سعيد عن هناد في الزهد: «قلنا: يا رسول الله إن الولد من قرة العين، وتمام السرور، فهل يُولد لأهل الجنة؟ فقال: إذا اشتهى».

وأخرج الأصبهاني في الترغيب عن أبي سعيد الخدري و لم يرفعه قال: «**إن الرجل من أهل الجنة يتمنى الولد، فيكون حمله ورضاعه وفطامه وشبابه في ساعة واحدة**».

=

وأما غناؤهم وسماعهم: قال الله تعالى: ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم:١٥].

قال البيهقي عن يحيى بن كثير: الحبر: السماع في الجنة.

وأخرج الطبراني والبيهقي عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «ما من عبدٍ يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه اثنتان من الحور العين، يغنيان بأحسن صوت سمعه الإنس والجن، وليس بمزمار الشياطين، ولكن بتحميد الله وتقديسه».

وأخرج الطبراني في «الأوسط» والبيهقي وابن أبي الدنيا بسندٍ جيدٍ عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الحور في الجنة ليغنين يقلن: نحن الحور الحسان، هدينا لأزواجٍ كرام».

وأخرج أحمد في «الزهد» والبيهقي عن مالك بن دينار قال: «يُقام داود عليه السلام عند ساق العرش فيقول الرب: يا داود مجِّدني بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في الدنيا، فيقول: يا رب وكيف وقد سلبتنيه، فيقول: إني سأرده عليك اليوم، فيندفع داود بصوتٍ يستفرغ نعيم أهل الجنة».

وأخرج ابن عساكر عن الأوزاعي في قوله تعالى: ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم:١٥]، قال: «هو السماع، إذا أراد أهل الجنة أن يطربوا أوحى الله إلى الرياح يُقال لها: الهفافة، فدخلت في آجام قصب اللؤلؤ الرطب، فحركته فضرب بعضه بعضًا، فتطرب الجنة فإذا طربت لم يبقَ في الجنة شجرة إلا وردت».

وأخرج الأصبهاني في الترغيب عن أبي هريرة قال: «قال رجلٌ: يا رسول الله، هل في الجنة سماع؛ فإني أحب السماع؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده إن الله ليوحي إلى شجرةٍ: أن أسمعي عبادي الذين شغلوا أنفسهم عن المعازف والمزامير بذكري، فتسمعهم بأصواتٍ ما سمع الخلائق مثلها قط بالتسبيح والتقديس».

وأخرج الحاكم في «نوادر الأصول» عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «من استمع إلى صوت غناء لم يُؤذن له أن يسمع الروحانيين في الجنة، قيل: ومن الروحانيون يا رسول الله؟ قال: قُرَّاء أهل الجنة».

وأخرج الديلمي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة قال الله: أين الذين كانوا ينـــزهون أسماعهم عن مزامير الشيطان، ميزوهم فيمرون في كثبان المسك والعنبر، ثم يقول للملائكة: أسمعوهم من تحميدي وتسبيحي وتهليلي، قال: يسبحون بأصواتٍ لم يسمع السامعون مثلها قط».

في أوانيها وريحانها وزرعها وخيلها وطيرها ودوابها:

أما أوانيها: قال الله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا*قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الإنسان:١٥،١٦]، ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف:٧١].

=

– **الباب الأول: باب القلب**: إنما كان أول الأبواب لأنه محل الإيمان

=

قال: يُطاف عليهم بسبعين صحفة من ذهب، كل صحفة فيها لونٌ ليس في الأخرى.
وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: «الأكواب: الجرار من الفضة».
وأخرج هناد عن مجاهد قال: الانية: الأقداح، والأكواب: المكوكبات، وتقديرها: أي في الآية أنها ليست بالملأى التي تفيض».
وعن مجاهد قال: الأكواب التي ليس لها آذان.
وأما ريحانها: فأخرج ابن المبارك عن ابن عمر قال: «الحناء سيد ريحان الجنة، وإن فيها من عتاق الخيل وكرائم النجائب يركبها أهلها».
وأما زرعها: أخرج البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع، فقال له: ألست فيما شئت؟ فقال: بلى، ولكني أحب الزرع، قال: فبذر فبادر الطرف نباته، واستواؤه واستحصاده، فكان أمثال الجبال، فيقول الله: دونك يا ابن آدم؛ فإنه لا يشبعك شيء».
وأخرج الطبراني في «الأوسط»، وأبو الشيخ عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قام رجلٌ فقال: يا رب، ائذن لي في الزرع، فأذن فبذر حبه، فلا يلتفت حتى يكون طول كل سنبلة اثنتي عشر ذراعًا، لا يبرح مكانه حتى يكون منه ركام أمثال الجبال».
وأما خيلها وطيرها ودوابها: فقد أخرج الطبراني والبيهقي بسند جيد عن عبد الرحمن بن ساعدة قال: «كنت أحب الخيل، فقلت: يا رسول الله، هل في الجنة خيل؟ قال: إذا أدخلك الله الجنة كان لك فيها فرسٌ من ياقوت، لها جناحان تطير بك حيث شئت».
وأخرج الترمذي والبيهقي عن بريدة: «أن رجلاً قال: يا رسول الله، هل في الجنة خيل؟ قال: إن أدخلك الله الجنة، فلا تشاء أن تركب على فرس من ياقوتة حمراء، تطير بك في الجنة حيث شئت إلا ركبت، فقال آخر: يا رسول الله، هل في الجنة إبل؟ فلم يقل له مثل الذي قال لصاحبه، قال: إن يدخلك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتهت نفسك ولذت عينك».
وأخرج البيهقي عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة طيرًا أمثال البخاتي، قال أبو بكر: إنها لناعمة يا رسول الله، قال: من يأكلها أنعم منها، وأنت ممن يأكل منها يا أبا بكر».
وأخرج هناد عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة طيرًا أمثال البخت تأتي الرجل فيصيب منها، ثم تذهب كأن لم ينقص منها شيء».
وأخرج ابن ماجه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الشاة من دواب الجنة».
وأخرج البزار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أحسنوا إلى المعز، وأميطوا عنها الأذى؛ فإنها من دواب الجنة».
وأخرج عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «عليكم بالغنم؛ فإنها من دواب الجنة».

والاعتقاد اللذين هما أول الأمر في باب الدين، فإذا تحقق القلب بالدين فقد فتح باب الجنة الأول ودخله مع الداخلين، ومآله ربض الجنة، لأن علو الصورة إنما هو بكثرة الأعمال وهي مفقودة الآن.

- **الباب الثاني: باب السمع:** لأن القلب إذا تهيأ للإيمان والاعتقاد انتفع بسماع أهل الوحي والتبليغ، ولم يكن ممن ذمهم الله تعالى بأن لهم آذانًا يسمعون بها، فإنهم صمٌّ في الحقيقة.
- **الباب الثالث: باب البصر:** لأن البصر من أسباب الرؤية والشهود، وهي محاضرة القلب، ولا يتحقق ذلك إلا بعد سماع الإذن والخطاب الغيبي، لأنه طريق المعاينة، وقد لزم الله من لا يبصر بعد النظر كما قال الله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾[الأعراف: ١٩٨].
- الباب الرابع: باب حفظ اللسان، لأن اللسان محل الكلام، وهو آخر الصفات السبع، التي هي الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام(١)، كما النشأة الإنسانية هي آخر المراتب والأطوار الكونية؛

---

(١) قال سيدي علي وفا: تعين الوجود الذاتي المطلق بالوجود الإلهي، فأوجب العلم والحياة، وتعين الله بالوجود الرحماني ذي الصفات الثبوتية التي هي وجود العلم والحياة فأوجد العقول والأرواح، وتعين الرحمن بالوجود الرحيمي ذي الصفات الفعلية التي هي مبدئيات الصفات الثبوتية لمتعلقاتها العينية فعلاً وإدراكًا فأحدث النفوس والطبائع، وتعين الكل بالوجود الحق المبين المتكلم الناطق فرتب وولد كيانًا وبيانًا، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤]، وتعين الحق بآدم، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، للعوالم والمراتب، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

والاسم عين المُسمَّى، وقولهم للشيء وجود في اللفظ وفي الكتابة، كما له وجود في الذهن والحس، الأول وهمٌ، والثاني حقٌّ، ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً﴾ [يوسف:١٠٠]: أي حسية، ولأن الحيز باطل فعكسه حقٌّ، إما واجب لذاته، أو ممكن موجود، فواجب بغيره والوهمي عدمي، فثَمَّ أسماء عدمية كالأسماء التي لا عين لها إلا في الوهم، كالحدوث والتكيف والتحيز، وسائر الأمور التي ترجع إلى نسب وإضافات لا حاصل لها سوى ذلك، فبهذه العدمية تميز الوجود الحق المحض المجرد الذي لا يقبلها عمن قبلها، فيحتجب بها عن حقيقته وحقه الذي هو هو من حيث هو هو، ويشعر به =

فعليك بحفظ اللسان تكن حقًّا إنسانًا(١).

- **الباب الخامس**: باب حفظ البطن لأنه بعد اللسان في الترتيب الوجودي وهو محل الشهوات الطبيعية التي لابد من إصلاحها من مرتبة الشريعة.
- **الباب السادس**: باب حفظ الفرج لأنه مرتب على حفظ البطن ولذا كان أهل الرياضة مصونًا عن آفات الفرج بخلاف غيرهم من أهل الأكل حرامًا أو حلالاً.
- باب حفظ اليدين: لأنها في الأزل تتجاوز عن حد البطن وأكثر الكذب بهما ولذا قال تعالى: ﴿**فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾ [الشورى:٣٠] وهم كالجناحين للطائر فلابد من الطير بهما إلى المقامات الجنانية.

=

مغايرًا له بها، فبها ينكره في عين معرفته وعكسه، ويجده في عين فقده وعكسه، ويشهده في عين حجبه وعكسه، فهو جامعٌ بين الضدين، فاتح عن عيون عدمية، وهم عن مثله، وحيث الكل مراتب العلم والحياة تحقيقًا، أو تقديرًا، أو إدراكًا، أو فعلاً، كانت كلها مراتب حقية لتصريفات خلقية، ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ**﴾ [المائدة:١].

انظر كيف بعلمك الناقص عرفت علمه الكامل، وبعجزك عرفت نفوذ قدرته، وبفقرك عرفت غناه، وبحياتك الناقصة عرفت كمال حياته، فما دلّ فيك بالولائية فأصله هو نفس مدلوله، ومميزه أمر عدمي، وما دلّ منك بالمخالفة فأمر عدمي، كله قدر ليدل فيكون لمدلوله كالوجود اللفظي أو الكتْبي، فالعلم والحياة واحد لواحد في جميع المراتب التي هي آحاده، والنقص كالعجز والفقر أمور عدمية، وقسْ على هذا، فسبحان من جعل لا شيء مظهرًا كالمرآة لما هو شيء، ﴿**فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [يس: ٨٣].

(١) انظر: الصفات للدارقطني ، والصفات للخطيب البغدادي، والأسماء والصفات للبيهقي، واللمع (ص٢٤)، والإبانة (ص٤١)، والتوحيد (ص٤٤)، والتمهيد (ص١٩٧)، والشامل (ص٦٢١) والإرشاد (ص٧٩)، ولمع الأدلة (ص٨٢)، والاقتصاد في الاعتقاد (ص٣٥)، وتبصرة الأدلة للمصنف (١/٢١٤)، وشرح المواقف (٨/٤٤)، وأصول الدين للبغدادي (ص٩٠)، وديوان الأصول لأبي رشيد (ص٤٥٧)، ونهاية الأقدام (ص١٨٠)، وشرح العقائد النسفية (١/١٠٤)، وشرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص١٨٢)، والمغني (٤/٣٤١)، والمحيط بالتكليف (ص١٠٤).

- **الباب الثامن:** باب حفظ الرجلين لأنهما تابعان لليدين، وبهما يكون السعي من محل إلى محل كالسعي من البيت إلى المسجد وإلى مجلس العلم ونحو ذلك.

وقد قال تعالى: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى**﴾ [النجم:٣٩].

وقال تعالى: ﴿**لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم**﴾ [المائدة:٦٦] فإنهم إشارتان إلى الفيض بواسطة وبغير واسطة.

***

وارد في الوصل

المراد بالوصل؛ ضد الفراق وهو الأصل، فإن الفراق إنما هو بأمر عارض، كالبعد الحاصل من السفر من بلد إلى بلد، ومن عالم إلى عالم، ومن اسم إلى اسم، وذلك كالوصل في القرآن، فإنه لولا العارض الذي هو انقطاع النفس، كان الأصل في التلاوة؛ هو الوصل.

وإنما قلنا: من عالم إلى عالم؛ لأن عالم الأزل ليس فيه وصل ولا فصل، فلمَّا فارق الأعيان من العلم إلى العين، وذلك بصورها وظلالها لا بحقائقها وماهياتها، جاء أن يُقال: عالم العلم وعالم العين.

ولا شك أنه فرق بين عالم وعالم، وإن كان بصورهما، فإن الجوهر واحد في الأصل، وكذا فرق بين عين وعين، كعالم الأرواح، وعالم المثال، وعالم الأجسام، فإن تعيُّن الأرواح غير تعيُّن المثال، وكذا تعيُّن المثال غير تعيُّن الأجسام، وكذا تعيُّن كل جسم وجسم سواء كان من نوع واحد، أو من أنواع مختلفة.

ولولا اختلاف التعينات، لم يظهر حقائق الأشياء.

ولولا حقائق الأشياء، لم يظهر هويَّات الأسماء.

ولولا هويَّات الأسماء؛ كان المُسمَّى مجرَّدًا عن النعوت والإضافات.

وظاهر العالم لا يقتضيه، فإنه وحدة صرفة؛ بل يقتضي الكثرة، وإن كانت الكثرات مغلوبة في الوحدات، والوحدات مستغرقة في وحدة واحدة؛ هي وحدة

الهُويَّة الذاتية التي هي أول التعينات، ومَن استجمع الأسماء، وجعل بحر الإمكان والوجوب بحرًا واحدًا؛ لم يكن عنده وصل ولا فراق، كما لم يكن عنده ليل ولا نهار؛ لأن نوره من أنوار ليلة القدر التي هي أنوار الذات الأحدية التي ليست في مقابلة الكثرة، فإن الوحدة المقابلة لها، هي الوحدة المقيَّدة الإضافية المخلوقة، وتعالى الله الخالق أن يكون وحدته وحدة مجعولة مخلوقة.

وأمَّا الذي بقي في تفرُّق الأسماء، ولم يحصل على ساحل عين الجمع، فإنه على الفراق ما دام باقيًا في ذلك التفرُّق، فهذه الدنيا صورة التفرُّق لأهل الحجاب والأسماء، وصورة الوصل لأهل الكشف والمسمَّى.

فإن الواصل إلى المسمَّى لا يحول بينه وبينه عالم من العوالم أصلاً، فإن كل عالم من العوالم شواهد التوحيد، ومجالي الموحد الحقيقي، فالمسمى لا يغيب عنه في عالم الأرواح والأجسام؛ بل الأرواح والأجسام كالمرائي، وكذا وجوده الذي هو رداء الكبرياء.

فطوبى لمن كان في عين الجمع وهو في الفرق صورة، فمَن وصل إلى هذه العين فلا حجاب عنده، كما لا كفر ولا معصية عند الأرواح.

ألا ترى أن مَن كان على قوة الإيمان، وغاية التمكين؛ فإنه أينما كان لا يتحوَّل عنه، فإن كفر الكافر، ومعصية العاصي لا يحوله عن حاله، والحال ظاهر على أرباب الكشف، فكُن على يقين من ربك، واحمد الله على التوفيق والهداية الخاصة.

* * *

وارد في شرب الدخان والقهوة

كان مرجع الطريقة الجلوتية – بالجيم – الشيخ الشهير بإفتائه، المدفون في بلدة «بروسة» أوصاني في المنام بألا أتعرض في مجلس الوعظ وغيره لَمن شرب الدخان[١]، ولأهل القهوة، وللطائفة الشهيرة بالمولى، بناء على أنهم مصرُّون على أفعالهم، وأنه لا يجتمع فيهم الوعظ.

فالتعرض لهم ولأفعالهم ليس من مقتضيات الزمان، وإن الحكمة الإلهية لا تُعطينا ذلك، وقد كان من أحفاده بعض مَن يشرب الدخان، ويظن بعض الناس فيه الظنَّ الحسن.

فرأيت في المنام أن الشيخ أفتاه -قُدِّس سرُّه- بشرب الدخان، مع أنه ليس من شأنه تجويز ذلك فضلاً عن شربه، فأدليت ذلك بأمرين:

الأول: أن الشيخ إشارة إلى الروحانية، واشتعال الروح بملاحظة الدخان وشربه؛ بل هو من المباحات.

قلت: لا إنما هو من المساوئ، ولغو الأفكار، فإنه لا شك في كونه من الخبائث، وأن مَن شربه كان مشاركًا لأراذل العوام؛ بل للكفرة الفجرة في أرذل الأمور الخسيسة الطبيعية، ومشاركتهم في ذلك مما يوجب التنــزُّل والانحطاط عن

(١) قلت: في المسألة خلاف عند أهل العلم، فممن أباحه: الشيخ عبد الغني النابلسي في كتابه: الصلح بين الإخوان في حكم إباحة الدخان، ورسالة في التـدخين والقهوة، ونور الدين الأجهوري في غاية البيان لحل شرب الدخان، والشيخ سلامة الراضي في الإعلان بعدم تحريم الدخان، وابنه الشيخ محمود بن سلامة في تأييد الإعلان، والشيخ محمد الصادق في كف اللسان وشل البنان عن ذم وأذية شارب الدخان، والشيخ الزبيدي في هداية الإخوان في شجرة الدخان، وابن حافي في رسالة في الدخان، والكركوكي في رسالة في مص الدخان، ومحمد بن إسماعيل بن الأمير في الإدراك لضعف أدلة تحريم التنباك، والأقحصاري الرومي في الرسالة الدخانية، وأحمد المقري صاحب نفح الطيب في أجوبة اجتناب الدخان، وكوكب زاده في رسالة الرد على من حرم الدخان، والشوكاني في رسالة ضمن الرسائل السلفية.

قلت: والجمهور على الكراهة، والبعض قال بالتحريم، البعض بالإباحة مع التقييد بشروط والله أعلم.

المنازل العالية، ومن ذلك أجاز أهل الرياضة إفطارهم إلى قرب العشاء؛ حذرًا عن المشاركة مع أهل الطبيعة في الطعام بعد المغرب.

والثاني: إنه من قبيل الاستبعاد، فإن مثل القدوة لا يجوز له أن يشرب الدخان، مما يستبعد في حق غيره من الأولياء؛ لأنهم على سنن واحد في الأذواق والحالات، وقد كان في الشام رجل أعور يدَّعي المعارف الإلهية، ويشرب الدخان.

وسمعت من شيخي الإلهي الفضلي: إن شاربه، وشارب القهوة من أهل الطريقة نفساني وشيطاني، ومعارفه معارف شيطانية نفسانية؛ لأن المعارف الإلهية ما كان من طريق التقوى، والعمل الصالح، والتقوى على ما نصَّ عليه حضرة الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه الأطهر في الفتوحات المكية، ومع أني على يقين من ذلك، خطر ببالي أمر ذلك الرجل حين هاجرت إلى الشام، فرأيت في المنام أيضًا حضرة الشيخ الهدائي المدفون في الإسكدار من سواحل القسطنطينية أنه يشرب الدخان.

وأنا أقول: إن مثل سير ذلك خيال لأنه يشرب الدخان، فسيره إنما هو في ظاهره العلم لا في باطنه هكذا.

يعني أن بعض السائرين يسير في ظاهر العالم ومسلكه؛ وهو السير الخيالي، فيظن أنه يدخل في باطن العالم وملكوته؛ وهو السرُّ القلبي الروحاني، فيغلط في ذلك، ويقع في الدعوى، ويحسب أنه قد عرج في المعارج العُلى من طريق القلبي العيني، وأنَّى له ذلك وقلبه وروحه متلوِّث بالألوات الكونية، والأدناس الخيالية، ومثل ذلك خيال ومضل يُحشر مع الزناة يوم القيامة؛ لكونه من الهالكين المهلكين.

وقد قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات:٥٦].

فما كان وسيلة إلى العبادة الواجبة؛ فهو الحلال الواجب، وما كان وسيلة إلى تركها واستثقالها؛ فهو الحرام المحظور.

ولا شك أن الدخان وأمثاله من القبيل الثاني، ولا يشك فيه أحد من العقلاء، هذا ما يعطيه الحقائق، فعليك به، وإياك والأوهام والخيالات؛ فإنها طريق البدع والضلال.

رأيت بعض الهنود من أهل الرياضة يشرب الدخان، ويقول: وجدته أنه لا

يعوقني عن المعارج العُلى، وإني أدخل كل ليل في الملكوت، وأسير في العرش، وإلى كلمات جليلة أسمعها في ذلك السير، فسألته عن بعض أحواله، وعن صيامه وقيامه، كيف كان هو؟ فأقرَّ بأنه كان يترك الفرائض لاسيما الصلاة، ولا يشتغل بها بناء على أن الاشتغال بها من القيود الكونية، ولا حاجة لها للأرواح العُلوية.

فعرفت من ذلك أنه نفساني شيطاني وأن سيره إنما هو في ظاهره الكُمُون من طريق السير الخيالي.

وخطر ببالي ما قاله حضرة الشيخ محيي الدين العربي قُدِّس سرُّه في الفتوحات المكية من أنه أكثر أولياء بغداد ماتوا على المكر والاستدراك، وذلك أنهم كانوا يتوارد عليهم الفيض الإلهي مع إصرارهم على الإخلال ببعض الشرائع، فكانوا يظنون أن ذلك لا يضرُّهم، وما عرفوا أن ذلك من قبيل المكر الإلهي، والاستدراك القهاري، نعوذ بالله من ذلك.

ونِعْمَ قول مَنْ قال: المجاهدات تُوَرِّث المشاهدات، فكل فرض وواجب وسنة من الفرائض والواجبات والسنن، فهو داخل في المجاهدات.

ولا شك أن الاشتغال به مما يورث المشاهدات الصحيحة القلبية الروحانية التي عليها أهل الله تعالى من أهل الكشف.

وارد في السفر

خرجنا من بلدة بروسة بطريق الهجرة إلى الشام يوم الإثنين الخامس والعشرين من شهر رجب الأصم من سنة تسع وعشرين ومائة وألف، ودخلنا الشام يوم الأحد الخامس عشر من شهر رمضان، فرجع العود إلى البدء، كما قيل: إن النهاية هي الرجوع إلى البداية، وذلك أن يوم الأحد الذي هو نهاية السفر متصل بيوم الإثنين الذي هو بدايته، والخمسة المفهومة من الخامس، والخميس التي هي مدة السفر إشارة إلى الحضرات الخمس التي لا يتم سير الموجودات الخارجية إلا بالوصول إلى نهايتها طورًا بعد طور.

وقد كان مدة مكثي في القسطنطينية في سفر الحج خمسين، وكذا مدة الوصول إلى مصر، وكذا وقع لي في السفر الأول للحج في الألفات الأربعة أنه ظهر

لي، وأنا واقفٌ في عرفات شكلان.

فقلت: ما هذا؟ فقيل: إنه خمسون، فقد غفر الله لك ما تقدَّم منك منذ خمسين سنة، وقد كنت إذ ذاك ابن خمسين، ووقع الهجرة إلى الشام بالإذن السماوي العيني، وأنا ابن سبع وستين، فلله الحمد على سير الحضرات صورة ومعنى، والوصول إلى المقامات العالية ظاهرًا وباطنًا.

وكان قائدي وسائقي في هذا السفر الشامي: حضرة الشيخ الأكبر، والمسك الأزفر، والكبريت الأحمر قُدِّس سرُّه الأظهر، ولمَّا زرت قبره المنيف، قلت: يا حق، فقيل لي: أنت الحق، وسرُّ سرِّي، والحمد لله على أن جعلني من أولاده المعنوية، وساقني إلى جواره في الأرض المقدَّسة الشامية.

وحين زرتُ قبر حضرة الشيخ صدر الدين -قُدِّس سرُّه- في بلدة قونية، وهو ربيب حضرة الشيخ محيي الدين، ووارث علومه، وناقله في كلماته، ظهر لي في لوح قبره نقش: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:١،٢]؛ إشارة إلى سرِّ الأحدية في الفناء الذاتي، وسرِّ الواحدية في البقاء الصفاتي وهو الذي يليق بمقام الكُمَّل؛ لأنهم أهل التبليغ والإرشاد، ولن يقوم ذلك لهم إلا بما ذُكر من الفناء والبقاء؛ وهو الإرشاد من الحق إلى الحق، ومن اسم إلى اسم، كما يقتضيه السفر المعنوي، وإلا فالمبدأ والمنتهى واحد.

ولذا قيل: لا موجود إلا الله، وليس في الدار سوى الله؛ وهي إشارة إلى وحدة الوجود، وقلَّ مَن نال إلى معرفتها وذوقها وشهودها، حتى طعنوا في القائل بها، ونسبوه إلى مذهب الوجودية.

وفرق بين الوجود بشرط لا شيء، والوجود لا بشرط شيء فهو الله تعالى مطلق بالإطلاق الذاتي الحقيقي الذي ليس في مقابلة شيء من التقييدات لا بالإطلاق العارضي إلا أنها في الذي في مقابلة التقييد، فإنه جاءت اعتبارية تنـزَّهه تعالى عن مثل ذلك الإطلاق، وجلة الوجود وجود ظلّي ناظر إلى الوجود الحقيقي؛ كوجود الأنوار النيِّرة المستفادة من نور الشمس، فإنه ناظر إليه، ومنعكس منه؛ ولذا قيل: لم يُنقل الأحيان الثابتة، والوجود الحقيقي على حاله الآن، فسبحان من ظاهر وباطن، لم يره أحد بهذه العيون؛ وإنما رآه البصائر من مرائي شواهده.

وارد في الاسم المطلق

أيها الاسم المطلق سجد وجهي لوجهك الحق، لقوله عن سلطانه:
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر:١٥].

وهو السرُّ في قوله ﷺ: «**اللّهم اغنني بالافتقار إليك**»[١]: أي إلى ذاتك من جميع وجوه الأسماء الإلهية خصوصًا من وجه الاسم الأعظم، ثم إني رأيت حضرة الوزير أيّده الله القدير في مشهد لي لا أشكُّ فيه ؛كأنه يسألني عن الفرق بين هو وأنت.

فقلت: أمَّا هو فأشار إلى غيب الهُويَّة نحو لا إله إلا هو، وأمَّا أنت فرمز إلى شهادة الصفات نحو لا إله إلا أنت، فصاحب القوس أو أدنى يشهده في الحضرتين بلا فرق.

كما ورد: «**وأسألك لذّة النظر إلى وجهك الكريم أبدًا دائمًا سرمدًا**»[٢]؛ وهذا مقام الخلافة المثلى؛ كحال حضرة الوزير مع السلطان، والرغبة، وإليه التلويح بقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١].

فطوبى لمن اختار اليقظة الدائمة؛ وهي التي لا مستقرَّ للكُمَّل دونها، هذا ما جرى بين حضرة الوزير على الله شأنه، وبين الفقير حقي صانه الله عمَّا شانه.

وارد

لمَّا شارفت دخول الشام، وأنا على الدابة؛ رأيت أنه استقبلني أربعون رجلاً على ألبتَّة؛ بيضٌ في صورة الفقراء السالكين، فقبَّل كل واحدٍ منهم يدي، فعرفت، والحمد لله المتعال.

وارد

من أحسن ما يُحكى عن أبي الفرج ابن الجوزي أنه وقع النــزاع ببغداد بين أهل السنة والشيعة في المفاضلة بين أبي بكر وعلي رضي الله عنهما فرضي الكل بما يجيب به الشيخ أبو الفرج، فأقام شخصًا يسأله، وهو على الكرسي، فلمَّا سأله قال:

---

(١) ذكره أبو الطيب في عون المعبود (٢٨٣/٤).

(٢) تقدم تخريجه.

أفضلهما مَن كانت ابنته تحته، ونزل في الحال حتى لا يراجع في ذلك، فقال السنية: هو أبو بكر، وقال الشيعية: هو علي، وهذا من لطائف الأحمدية، ولو حصل هذا بعد التأنّي، وإمعان النظر، كان في غاية الحسن فضلاً عن البداهة من عيون الأبناء القضاء مجير الدين أبي اليمن عبد الرحمن العمري الحنبلي.

وارد

دخول - طاغ تكوري - عشر من جُمادى الآخرة يوم الإثنين، والخروج من بروسة يوم الخميس الثامن من الشهر المذكور سنة ١١٢٩ هـ.

لمّا طَعن برهان الدين البقاعي في الشيخ عمر بن الفارض[١] نفاه السلطان إلى

(١) هو العارف بالله تعالى سلطان العاشقين سيدي عمر بن أبي علي بن مرشد بن علي، الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، ولد سنة ستٍّ وخمسين أو ستين وخمسمائة، نشأ تحت كنف أبيه، في عفافٍ وصيانةٍ وعبادةٍ وديانة، بل زهدٍ وقناعةٍ وورع، فلمّا شبَّ وترعرع اشتغل بفقه الشافعية، وأخذ الحديثَ عن الحافظ ابن عساكر وعن الحافظ المنذري وغيره، ثم حُبِبَ إليه الخلاء، وسلوك طريق القوم، فتزهَّد وتجرَّد، وصار يأوي إلى الجبل الثاني من المقطم، والمساجد المهجورة مرة، ثم يعود إلى والده، فيقيم عنده مرة، فيشتاق للتجرد فيعود إلى الجبل، وهكذا حتى ألف الوحش وألفه الوحش، فكان لا يفرُّ منه، ومع ذلك لم يُفتح عليه بشيءٍ، حتى أخبره شيخه الشيخ أبو الحسن على البقال أنه إنما يفتح عليه في مكة شرَّفها الله، فخرج فورًا في غير أشهر الحج، ولم تزل الكعبة أمامه حتى دخلها، وانقطع بوادٍ بينه وبين مكة عشر ليالٍ، ففُتح عليه فصار يذهب من ذلك الوادي إلى مكة، فيصلّي بها الخمس ويعود إلى محله من يومه، وأنشأ غالب نظمه حالتئذ، وأقام على ذلك نحو خمسة عشر عامًا، ثم رجع إلى مصر، فأقام بقاعة الخطابة بالجامع الأزهر، وعكف عليه الأئمة، وقُصِدَ من العام والخاصِّ، حتى أن الملك الكامل كان ينـزل لزيارته، وسأله أن يعمل له ضريحًا عند قبره، بالقبة التي بناها على ضريح الإمام الشافعي، فأبى، وكـان ﷺ جميلاً نبيلاً حسن الهيئة والملبس، فصيح العبارة، حسن الصحبة والعشرة، وذكر أنه رأى المصطفى ﷺ في نومه، فقال: (إلى من تُنسب؟) فقال: يا رسول الله إلى بني سعد، قبيلة حليمة. فقال له ﷺ: (بل نسبك متصلٌ بي). وكان له أحوالٌ كريمةٌ وكراماتٌ عظيمةٌ، ومن أجلّها ديوانه الذي اعترف بحسنه الموافق والمخالف، سيَّما القصيدة التائية المسماة بـ«نظم السلوك».

روى ابن بنته عنه: أنه لما أتمَّها رأى النبيَّ- عليه الصلاة والسلام - في المنام، فقال: يا عمر، ما سميت قصيدتك؟ قال: سميتها: «لوائح الجنان وروائح الجنان»، فقال له ﷺ: لا، بل سمها: «نظم

=

السلوك» وقد اعتنى بشرحها جمعٌ من الأعيان: كالسراج الحنفي الهندي قاضي الحنفية بمصر، وكان كثير المحبة للشيخ، حتى أنه عزَّر ابن أبي حجلة؛ لتكلُّمه في الشيخ بما لا يرضي الله، والشمس البسطامي، والجلال القزويني الشافعي، غير متعقّبين ولا مبالين بكلام المنكرين الحسَّاد.

وكذا شرحها الشيخ الفرغاني، وهو الشارح الأول لها، وأقدم المؤيدين له حكى: أن الشيخ صدر الدين القوني عرض لشيخه الشيخ محيي الدين بن العربي. فقال له: لهذه العروس بكر من أولادك، فشرحها الشيخ الفرغاني، وهو من تلامذة الشيخ القوني، وكذلك شرحها الشيخ القاشاني والشيخ القيصري وغيرهم، وعلى القصيدة الخمرية عدة شروحٍ، أحدها لابن كمال باشا، وكذلك اليائية، وقد شرحها الإمام السيوطي، وقد شرح الديوان كله بعض العارفين: كالشيخ النابلسي ﷺ.

قال الذهبي: كان سيِّد شعراء زمانه. وقال ابن العماد في «شذراته»: أفضل الشعراء على الإطلاق، و لم يزل الشيخ على حاله، راقيا في سماء كماله ﷺ حتى احتضر، فسأل الله أن يحضره في ذلك الهول العظيم جماعةٌ من الأولياء، فحضره جماعةٌ: منهم البرهان الجعبري، فقال كما حكاه سبط الشيخ: رأيت الجنة لما مثلت له، بكى وتغيَّر لونه، ثم قال:

إن كان منـــزلتي في الحب عندكم مـــا رأيتُ فقـــد ضيَّـــعتُ أيامـــي

قال: فقلت له: يا سيدي هذا مقامٌ كريمٌ. فقال: يا إبراهيم رابعةٌ وهي امرأةٌ تقول: (وعزَّتك ما عبدتك رغبةً في جنتك، بل لمحبَّتك)، وليس هذا ما قطعت عمري في السلوك إليه، فسمعتُ قائلاً يقول له: ما تروم؟ قال: أروم وقد طال المدى منك نظرة... البيت، فتهلل وجهه، وقضى نحبه، فقلت: إنه أُعطي مرامه انتهى.

وقد افترى على الشيخ ﷺ من يدعى بالبقاعي، الذى ظهر أنه يعمل بعمل أهل الجنة، ولكن غلبت عليه شقوته، وسبق عليه الكتاب، فصار من أهل العذاب، المنسوب إليه التفسير المشهور، المسمَّى بنظم الدرر، والحق أنه ليس له، كما هو معلوم عند أهل العلم، فألف رسالةً، وإن شئت قلت ضلالةً في تكفير الشيخ، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الصف:٨]، ولكن هيهات هيهات: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، فقيَّد الله لهذا البقاعي الجاهل الشيخ العالم الكامل أبو عبد الله محمد بن جمعه الحصكفي ﷺ -توفي سنة ٨٩٥هـــ- من جعله سيفًا لدينه، يذبُّ عنه سفاهة ذوى الأحلام، فألّف هذا الشيخ الجليل الصالح كتابًا في الرد على ذاك الشقي أسمَّاه «**ترياق الأفاعي في الرد على الخارجي البقاعي**»، وهو كتابٌ حافلٌ في الرد على ذاك الغافل، و«الانتصار» للشيخ ابن الفارض منبع الفضائل، وإن شاء الله سينشر هذا الكتاب قريبًا، وكذلك أيضًا الشيخ السيوطي فألف مقامةً أسماها «**قمع المعارض في نصرة ابن الفارض**»، وقد دافع عن الشيخ وغيره من أكابر أئمة الأولياء الكثير من العلماء، وقد وقفنا على الكثير من تلك الكتب، والتي لا يزال أكثرها مخطوطٌ، والتي لو نشرت لما كان لهذا الجهل والتجرؤ على أولياء الله وجود

=

=

ولعلمنا حقيقة أن تلك العلوم والمعارف التي أظهرها القوم هي غاية هذا الدين الخاتم، وأنها مقصود الشرع الشريف، ولَعَلِمَ من أنكرها أو من لم يعرفها أنه ما عرف عن الدين وعن رسول الله ﷺ إلا اسمه، لا غير.

وإن شاء الله سنقوم بتحقيقها وإخراجها للناس، وذلك لما رأينا أن معظم كتابات اليوم عن علم التصوف الإسلامي خالية تمامًا مما استند إليه القوم من الدليل الشرعي، فصار الكلام في الفلسفات والنظريات والنقل من المستشرقين وكأن الكاتب ليس مسلمًا، ولم يقف على كتاب اسمه القرآن، ولم يؤمن بنبيٍّ خاتمٍ اسمه محمَّدٌ ﷺ، وكأنه يتكلم عن غير مسلم ـ معاذ الله ـ في موضوعٍ لا يمسُّ الدين، فبالله عليك يا أخي هل ترى علوم التصوف إلا قسمين: قسمًا: أمرك باتِّباع الشرع المطهَّر من عبادة: كذكرٍ أو صلاةٍ على رسول الله أو قراءة قرآنٍ أو حسن معاملةٍ مع الخالق والخلق؟

وقال في ذلك الإمام الجنيد سيِّد الطائفة قُدِّس سرُّه: علمنا هذا مشيَّدٌ بالكتاب والسنة.

وفي ذلك القسم ألفوا «الإحياء»، و«قوت القلوب»، و«الرسالة القشيرية».

والقسم الآخر: وهو أسرار الدين والعقيدة العظمى في الله وفي رسوله ﷺ، وهو العلم المسمَّى بعلم الحقائق: «كالفتوحات المكيَّة»، و«الإنسان الكامل»، وتلك الكتب ما تكلَّمت إلا بأنَّها مستمدةٌ من السيد الأعظم ﷺ، وأن الصحابة رضوان الله عليهم كان عندهم تلك العلوم وأعظم،

﴿إِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، وأقاموا الدليل الشرعي على ذلك، وإن شئت فراجع «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر»، وبالله عليك هل سمعت ولو ممن ينكر على السادات الصوفية أن واحدًا منهم كان محبًا للدنيا أو طلب من آخر ترك أمرٍ في الشريعة أو كان يجبر أحدًا على تعظيمه؟! لا، والله.

وانظر كل كتب التراجم ولو المنكرين عليهم كما ذكرت فإنك لن تجد مثل هذا، ولن تسمع إلا أنه كان زاهدًا عابدًا ورعًا، لا يقيم لنفسه على أحدٍ وزنًا، فأنصف الحق من نفسك، واستبرئ لدينك.

وصار باحثينا القارئون لتلك الكتابات يتجرأون على الشريعة وعلمائها بدون أدنى تعبٍ في البحث عن الأدلة الشرعية، ولو وقف أحدهم على قوله: (إنَّ الله عِنْدَ لسانِ كلِّ قائلٍ وقلبه) لما تجرأ بالطعن على ما يجهل، ولأفتاه قلبه: إياك والإنكار على ما تجهل، فإنك لم تُحط بعلم الله، فلا تحكم على الله، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١]، ولذكره بقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥].

=

دمشق، وقال فيه بعض الفضلاء: مُصران البقاعي بها، قد قاله مطالب لا تحسبوه سالمًا، فقلبه يُعاقب.

وارد عن الشام

محلّ الكون: أي الوجود والكثرة بالفعل؛ ولذا كانت السريًا شامية؛ لكثرتها، وشهيد يمنيًا؛ لوحدته، كما أشار إليه قوله ﷺ: «**إني لأجد نفس الرحمن من قبل**

=

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧]. والحاصل: كما ذكره الإمام عبد الرؤوف المناوي في «الكواكب الدُّرية»: أن قد اختلف في شأن صاحب الترجمة ـ ويقصد الشيخ ابن الفارض وابن العربي والعفيف التلمساني والقونوي وابن هود وابن سبعين وتلميذه الششتري والصفار وابن المظفر رضي الله عنهم- من الكفر إلى القطبانية، وقد كثرت التصانيف من الفريقين في هذة القضية، ولا أقول كما قال بعض الأعلام: سلِّم تسلمْ، والسلام، بل أذهب إلى ما ذهب إليه بعضهم من أنه يجب اعتقادهم وتعظيمهم، ويحرم النظر في كتبهم على من لم يتأهّل لتنـزيل ما فيها من الشطحات على قوانين الشريعة، وقول بعض جبهذة الفقه والأثر: (أنه لا يؤول إلا كلام المعصوم) غير معتبرٍ، وإن جلّ قائله؛ كيف وهو قد ملأ كغيره كتبه الفقهية والحديثية بتأويل النصوص والوجوه؟! واعتنى عليه بالجمع بين الكلامين المتناقضين، وتنـزيل الخلاف على حالين.

وقد وقع لجماعةٍ من الكبار الرجوع عن الإنكار، وكان العزُّ بن جماعة ينكر، فرأى في منامه جماعةً قد أوقفوا بين يدي الشيخ، وقيل له: هؤلاء منكرون. فقطع ألسنتهم؛ فانتبه مذعورًا، ورجع.

وقال لي شيخنا الرملي: إن بعض المنكرين رأى أن القيامة قد قامت، ونصبت أواني في غاية الكبر، وأغلي فيها الماء حتى تطاير منها الشرار، وجيء بجماعةٍ ضبائر ضبائر، فسلقوا فيه حتى تهرى العظم واللحم، فقال: من هؤلاء؟ فقيل: الذين ينكرون على ابن العربي وابن الفارض اهـ.

مات ﷺ سنة اثنين وثلاثين وستمائة، ودفن بالقرافة بمصر، ورُئيَ في النوم، فقيل له: لِمَ لا مدحت المصطفى ﷺ في ديوانك؟ فقال:

أرى كلَّ مدحٍ في النبيِّ مقصِّرًا ... وإن بالغ المثنـي عليه وكثَّرا
إذا اللـه أثنى بالذي هو أهــله ... عليه فما مقدار ما يمدح الورا

وقد قال أحد العلماء بالله: إن الشيخ ابن الفارض يأتي يوم القيامة يمدح الله على رؤوس الأشهاد، ويقال له: امدحنا كما كنت تمدح في الدنيا.

ولنختم تلك الترجمة بعد ما نوّهت لك على حقيقة الإنكار على السادة الصوفية بقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:١١٨]، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧].

اليمن»[١]؛ لأن النفس الرحماني؛ هو التجلّي الساري في جميع الموجودات، وهو أحدي لا كثرة فيه بالفعل؛ لأن الأحد الواحد الصمد يأبى أن يكون تجلّيه على حدٍّ الكثرة، والكثرة في التجلّي اعتبارية بحسب المجالي والقوابل، لا حقيقة، وإلا يلزم أن يكون الحق تعالى محلَّ الكثرة سبحانه هو هو على وحدته ووجوبه، والأشياء أشياء على كثرتها وإمكانها.

فإن قلت: قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأنفال:٦٢].

يدلُّ على الكثرة في النفس الرحماني والتجلّي الإلهي، فإن المراد بالمؤمنين؛ هم الأنصار اليمنيون، وقد أيّد الله تعالى بهم حبيبه ﷺ.

ولا شك أن التأييد بالجموع إنما هو من شأن الواحدية التي مبدأ الكثرة.

قلت: جوابه مفهوم مما ذُكر آنفًا، وهو أنهم وإن كانوا أكثرين، فالتجلّي لهم واحد فظهر أن التجلّي الواحد ينبسط في مراءٍ مختلفة حقيقة، ويتفضَّل في مكان واحد؛ هو اليمن باعتبار المتمكنين، فإن قلت: إن المدينة المنورة لدلالتها على مقام البقاء؛ هي محلُّ الكون لا الشام؛ قلت: نعم؛ لكن لمّا كان اتصالها بمكة المكرمة أشدَّ؛ جُعلت في حكمها؛ كأنها أيضًا وادٍ غير ذي زرع، وأرض قفر لا ماء فيها ولا كلأ نحو مقام الأحدية الذاتية.

ولذا قلنا: إن الشام محلُّ الكثرات، وكذا ما دونها من بلاد العرب والروم ونحوها، وفيها سرُّ المحفل الحنفي في حرم الله تعالى، فلينظر العارف لنفسه حرمًا آمنًا، وذلك بنظر الله تعالى لا بنظر نفسه، فمَن كان من أهل البقاء، وأهل الدعوة والتبليغ؛ فالأداني والأقاصي له سواء، هذا والله يفعل ما يشاء.

(١) رواه الطبراني في مسند الشاميين (١٤٩/٢)، وذكره العجلوني في الخفا (٢٥١/١).

وارد في الجامع الأموي

بدا في الجامع الأموي في صباح العيد الفطري سرُّ قوله ﷺ: «**مَن صام رمضان، ثم اتبعه ستًّا من شوال كان كصيام الدَّهر**»(١).

وهو أن الدهر هو الآن الغير المنقسم الساري سرُّه في جميع الأوقات والآنات.

منه: قيل أن الدهر هو الله، يعني: أن المتجلّي بذلك الدَّهر هو الله وهو التجلّي البرقي الذي نوره مبدأ الأنوار العالية.

ومنه: نور ليلة القدر؛ فإنه ليس من أنوار الدنيا، فإنها في مقابلة الظلمات، وكل منهما مخلوق بل هو من جنس النور الشعشعاني الذي يختطف البصر وإنما يستره الظلالات الكونية، كما يستر الشمس العماء وهو الحجاب الأبيض، والسحاب الرقيق.

ومنه: يُعلم سرُّ قوله: «**فإن الله تجلّى في عماء؛ ما فوقه هواء، ولا تحته هواء**»(٢)(٣): أي لا تعينات إلهية، ولا تعينات كونية بل هو التعيُّن الأول الذي استتر

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه أحمد (١٢/٤)، والديلمي في الفردوس (٢٦٨/٣).

(٣) هو في اللغة بمعنى: السحاب الرقيق، على الأول بمعنى: الحضرة الأحدية، وعلى الثاني: بمعنى الحضرة العلمية، فالمشترك مستعمل في كلا معنييه على تقدير التعميم، أو يجعل من باب عموم المجاز.

ووجه المناسبة بين المنقول منه، والمنقول إليه: أن السحاب بين السماء والأرض، والأحدية بين الغيب المطلق والواحدية، والعلم بين العالم والمعلوم، وفي كلامه -قُدِّس سره- إشارةً إلى أن الإفاضة على طبق العلم، والعلم تابعٌ للمعلوم، فكل ما في الخارج محتذى على طبق عينه ﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك:٣].

وكون العلم تابعًا للمعلوم بالنظر إلى حضرة الأعيان القديمة التي أعطت الحق العلم التفصيلي بها، وأما بالنظر إلى رتبة العلم الإجمالي الكلي، فالمعلوم تابع للعلم؛ لأن الحق لما تجلّى من ذاته لذاته بالفيض الأقدس حصلت الأعيان واستعداداتها، فلم تحصل عن جهل تعالى الله عن ذلك.

ويوصف العماء بالرباني نظرًا للفيض المقدَّس في صورة التعميم، أو لأن صفة التربية كانت كامنة في الحضرة الأحدية، وآخر عطف على أول التنـــزلات الظهورات الأكملية؛ إذ هو ﷺ غاية =

=

الغايات، وأكمل كمال النهايات التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه، كيف وهو الظهور التام، والمظهر العام، وليس في الإمكان أبدع مما كان، ولوكان لكان، فإنه لأشرف من الوجود، وقد تجلّى به كمال التجلي في الحقيقة والشهود.

وهو مرتبة الأحدية، كما صرَّح به الشريف الجرجاني في تعريفاته.

وهذا بناء على ما قررناه من حملنا التعينات على قيودات الذات الأوليَّة، التي في مقابلتها الصور العلمية كما ذكرناه، هذا وإن كان صحيحًا في نفسه؛ لأنه من اصطلاحاتهم، فهو غير مراد هنا لحضرة الشيخ، وإنما ذكرناه تتميمًا للفائدة.

وقيل: إنما يراد بالعماء النفس الرحماني الذي يعبر عنه بالوجود الحق المتعين بالتعينات، وهو أول غيب ظهر، وبه وفيه ظهرت صور الأشياء، والربَّاني نسبة للرب تعالى؛ لأن الحق فيه من اسمه الرب.

كما أنه على العرش باسم الرحمن، وهذا العماء أين الحق، وهويته: أي أول ما ظهر فيه تعالى.

وشاهد ذلك حديث: أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض؟ فقال ﷺ: «كان في عماء ما تحته هواء ولا فوقه هواء».

دفعًا لتوهم أن يراد بالعماء معناه اللغوي، الذي فوقه هواء وتحته هواء؛ لأنه عبارة عن الغيم الرقيق، وإذا كان أين الرب تعالى كان عينه؛ لأنه لا يكون هوية له تعالى إلا عينه، وعلى هذا يكون المراد بالتعينات ما يعين النفس الرحماني حتى يكون بذلك التعين أعيانًا وجودية علمية، سواء كانت غيبًا كالأرواح والعقول والنفوس، أم شهادات كالجسم والفلك، الكل فما تنازل عنه من عالم الشهادة، ولا شك أن أول التعينات: أي أول ما تعين به هذا النفس الذي هو العماء، وكان عينًا وجودية هو الصورة المحمدية المعبر عنها بالعقل الأول، والقلم الأعلى، والنور المحمدي، والحق المخلوق به، وقد يعبر عنها بالإنسان الكامل؛ إذ الظاهر مطابق للباطن، يعني كما أنه ﷺ أول التعينات في عالم المعاني كما ذكرنا، كان أول التعينات في الظاهر.

ولوكان غيبا فيكون مبدأ في كل عالم، ومنه تتفرع الأشياء؛ إذ هو الأب الأكبر.

قال العارف ابن الفارض مُترجمًا عن لسان الحضرة:

وإنِّي، وإن كنتُ ابن آدم صورةً فلي فيه معنًى شاهدٌ بأُبوتي

شاهد ذلك قوله ﷺ: **«أول ما خلق الله نوري»**.

وقوله ﷺ: **«وإني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وكنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين»**.

وحديث الكوكب عند سؤاله ﷺ جبريل عن عمره فقال: **«إن كوكبًا يظهر في كل سبعين ألف سنة**

=

شمس الذات البرقية في ظلّها، وتلك الشمس بجليَّة إلى الآن من المجالي والمرائي؛ ولكن لا يراها الخفاش؛ لِما على بصره من حجاب الكون؛ وهو الضعف والعمش، وكذا حجاب القلب؛ وهو حجاب الكون، ولولا الكون لظهر المكوِن بالكسر على بصر كل بصير في الظاهر؛ ولكن لا يراه إلا مَن كشف الحجاب مطلقًا جسمانيه وروحانيه.

=

مرة، وإني شاهدته سبعين ألف سنة فقال ﷺ: أنا ذلك الكوكب».

فإن قلت: كيف ذلك العدد والمبالغة فيه؟

قلت: إذا صحَّ الحديث فلا إشكال؛ إذ ذلك كان في عالم الأرواح، وهي قديمة عندهم قدمًا غير ما يقوله الحكماء.

فإن قلت: كيف تكون قديمة وهي مخلوقة؟

قلت: لا منافاة كما تقدَّم قبل هذا.

وقد ذكر حضرة الشيخ ﷺ في الفتوحات في الباب الحادي والسبعين بعد الثلاثمائة مسائل تتعلق بهذا البحث.

ولنذكر نبذة منها تبركًا بأنفاس الشيخ، قال ﷺ:

ثم أوجد في هذا العماء جميع صور العالم، الذي قال تعالى فيه أنه: ﴿هَالِكٌ﴾ [القصص:٨٨]، يعني من حيث صوره لا وجهه، يعني إلا من حقيقته، فإنه غير هالك، ولا يمكن أن يهلك.

أقول: قد جعل حضرته ﷺ في غير هذا الموضع وجه الشيء عبارة عن الحق تعالى.

قال البيضاوي: في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]: أي إلا الجهة التي تلي جهته تعالى.

ثم قال الشيخ: فصورة العالم بجملته صورة دائرة فلكية، ثم اختلفت فيها صور الأشكال إلى ما لا يتناهى، حكمًا لا وجودًا.

أقول: عنى بقوله: (حكمًا لا وجودًا) أن وجود العالم متناه بتناهي الدنيا دون حكمه، فإن له حكمًا في البرزخ غير هذا الحكم، وكذا في الدار الآخرة.

ثم قال: والملائكة الحافون حول العرش ما لهم سياحة إلا في هذا العماء المستدير، الذي ظهر فيه عين العرش على التربيع، وحملته من صور المعاني، وصور أجسامها الحروف الدالة عليها، وهي: أ ب ج د هـ و ز...إلخ.

وفيه ظهرت الملائكة المهيمة، والعقل والنفس، والطبيعة الذاتية، التي هي عين هذا النفس الرحماني بما فيه، وهي غير الطبيعة التي رتبتها دون النفس التي قال بها الحكماء، فإن حضرة المولى لا يقول بها أصلاً.

فالأولى: حجب ظلمانية؛ وهي من المواليد إلى نهاية العالم الطبيعية الذي هو عالم الملكوت العرشية، وهو إلى غاية الغايات التي لا يجوز كشفها من قبيل الحجب النورانية.

والوجود الإنساني معدن لكل نور، ومنبع لكل ظلمة؛ وهو اللوح الأصلي الذي كان اللوح المحفوظ صورته، فإذا عرفت هذا فاعلم أن الله تعالى تجلّى بالنور البرقي الشعشعاني ليلة القدر لنبينا ﷺ، واستمرت تلك الحالة في وجوده إلى ست شوال، فألحق صومها بصوم رمضان، فلمَّا كان ظهور تلك الليلة في ما قبلها وما بعدها، والمجموع ست وثلاثون؛ كان صومها؛ كصيام الدهر؛ وهو صيام العمر كله؛ لسرِّ السرِّ البائن المذكور.

فإن قلت: بالسريان والمستقبل لم يوجد بعد، والماضي قد مضى؛ قلت: لاتصال أجزاء الحال بأجزاء المستقبل والماضي؛ فكان الكل بمنــزلة زمان واحد، ونظيره قوله: «**مَن مات؛ فقد قامت قيامته**»(١).

فإن أجزاء زمان الموت لمَّا كانت متصلة بأجزاء زمان البرزخ، وهي بأجزاء زمان الحشر؛ كان الميت كأنه قامت قيامته على أن الماضي والحال والاستقبال اعتبارية عند العارفين، فإنهم لا يدرون الليل والنهار؛ بل هم الآن في عالم الأزل الذي لا نور هناك، ولا ظلمة؛ لأن النور من خواص الأجسام الكونية؛ وهم خارجون عن هذا العلم؛ بل عن عالم الأرواح، داخلون في عالم غيب الغيب الذي لا ليل فيه ولا نهار.

فإن قلت: هَب إن مَن كان من أهل ذلك التجلّي؛ كان صيامه كصيام الدهر، وأمَّا مَن لم يكن من أهله؛ فكان أمره التقليد، والتقليد لا يوصله إلى ما شاء والتحقيق، قلت: إن فيه سرَّ المتابعة والتشبُّه، وقد ورد إن: «**مَن تشبَّه بقومٍ؛ فهو منهم**»(٢)، فهذا من طريق الإلحاق لا بالأصالة.

وقد قال تعالى: ﴿**أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**﴾ [الطور:٢١].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه أبو داود (٤/٤٤)، وأحمد (٢/٥٠).

ومما قررنا يُعرف أن الأفضل الاكتفاء بإفطار اليوم الأول من شوال، وإلحاق صوم الست بصوم رمضان؛ لمراعاة الموافقة في الوقت فرع أقوال الفقهاء في ذلك، واعمل بالأفضل؛ فإنه عمل الكل.

فطوبى لَمن كان من أهل الأنوار والأسرار، وحافظ على أوقات الليل والنهار، وكان شاهد القربة في الليالي والأسحار مشهودًا للملائكة المقرَّبين الأخيار، فكان حافًا محفوفًا، لطيفًا ملطوفًا، والله تعالى على كل فيض قدير، وهو العليم الخبير يعلم حيث يجعل كرامته، ويفيض عليه رحمته.

وارد في شأن المرض

المرض نوعان:

مرض ظاهري: يُخرج المزاج عن الاعتدال، ويُهلك ظاهر الوجود.

ومرض باطني: يُوجب الميل والانحراف، ويُفسد باطن الوجود.

وكل ذلك بطريق الجبر والقهر من الأسماء الجلالية، وضده الصحة والعافية، وذلك بطريق الجذب واللطف من الأسماء الجمالية ولكن كما أن في الجلال جمالاً وهو جمال الجلال، فكذا في الجمال جلال؛ وهو جلال الجمال.

فجمال الجلال باطن الجلال، وكذا جلال الجمال باطن الجمال، فكل من الجمال والجلال ظاهر وباطن.

والجمال الظاهر؛ هو جمال المؤمنين، كما أن جلال الظاهر؛ هو جلال الكافرين، وكل ذلك بالفعل.

وأمَّا الجلال الباطن في المؤمنين، وكذا الجمال الباطني في الكافرين؛ فهو بالقوة، فالأول لا يُضرُّ بالمؤمن، والثاني لا ينفع للكافر؛ لأن الاعتبار بالظاهر لا الباطن، كما أن التأثير للباطن لا للظاهر، والجمع بين الجمال الظاهر، والجلال الباطن كمال، وليس ذلك في الملك؛ فإن ظاهره وباطنه جمال من حيث إنه مخلوق من النور؛ ولذا كان البشر أقوى إحاطة وجمعية، وإن كان الملك أعلى مكانة ومرتبة، وسرُّ الكمال هو ظهور التجليَّات كلها من مرآة الإنسان الكامل.

ولذا قالوا: إن المتروحن أنقص حالاً من غير المتروحن؛ لأن المتروحن بسبب

غلبة الروحانية ملتحق بالملك، فالكامل هو الذي يرى في مرآته جميع الصور بحسب التجليّات الإلهية المختلفة، ثم الهلاك إمَّا بالاضطرار؛ فذلك إهلاك الباقي بالطبع؛ وهو الموت الطبيعي، وصاحبه مقهور مردود إلى الله تعالى بالقهر الجلالي كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٨] بضم التاء: أي تُردُّون ردًّا عنيفًا.

وإمَّا بالاختيار؛ فذلك هلاك الفانين عن الطبع؛ وهو الموت الفنائي، وصاحبه مجذوب إلى الله تعالى بالجذب الجمالي كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تَرْجَعُونَ﴾ [البقرة :٢٤٥]. بفتح التاء: أي رجوعًا خفيفًا، وكل منهما مقبوض من الكثرة إلى الوحدة، ومن الفرع إلى الأصل، ومن الواحدية إلى الأحدية، ومن التفصيل إلى الإجمال؛ وهو السرُّ في قيام الساعة؛ لأن كل شيء يرجع إلى أصله.

فالهالك الاضطراري؛ كالعبد الآبق يرجع إلى مالكه، وهو مغلول، والهالك الاختياري؛ كالقادم من الحج مثلاً يرجع إلى أحبابه، وهو ملتفت منظور، فعليك بعلاج المرض الباطني؛ ليصحَّ روحك بالانقطاع من التعلُّقات، والانفصال عن الميل إلى الكائنات؛ حتى يكون قدومك إلى الله تعالى قدوم الغائب إلى أحبِّ أهله.

وذلك ان العافية من التعلُّقات تُصحِّح المناسبة الذاتية؛ لأن التجلّي الإلهي الساري في الموجودات صاف خالص عن الكدورات، وإذا اتحدَّ بالمحلِّ في تلك الصفوة لم يبقَ له سوى الجمال؛ إذ الجلال إنما ينشأ من الكدورات الحاصلة من التعلُّقات، وغلبة الجمال تُقابل الجلال الذي يحصل بالموت؛ لأن العبد يكره الموت بالطبع، فإذًا ليس للإنسان الحقيقي الأنوار الجمال، وسرُّ الكمال، وليس له نار القهر والجلال؛ ولذا كان حاله أيسر من حال غيره في الانتقال من موطن إلى موطن، وإن كان أشدَّ البلاء على الأصفياء في النشأة الأولى، فذلك لا يؤثِّر في بواطنهم؛ لكونهم مع الله تعالى معلوبين، والله المعين.

وارد في المرسلين(١)

(١) انظر: التمهيد (ص١٠٤)، وشرح الأصول الخمسة (ص٥٦٣، ٦٠٠)، وتثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار، والتوحيد (ص١٧٦)، وأصول الدين للبغدادي (ص١٥٣، ١٨٣)، والإرشاد للجويني (ص٣٠٢، ٣٥٧)، ولمع الأدلة (ص١٠٩، ١١٢)، والعقيدة النظامية (ص٦٣، ٧٦)، والاقتصاد في الاعتقاد (ص١٦٣، ١٧٥)، وتبصرة الأدلة لأبي المعين النسفي (٢/٤٨٣، ٥٨٥)، =

اعلم أن المرسلين على أنواع:

فمنهم: مَن أرسله الله تعالى إلى الخلق لإخراجهم من الظلمات إلى النور؛ إذ فيه سلامتهم في الدَّارين، فيسري سلامة المرسلين إلى المرسل إليهم؛ فالكل سالمون داخلون تحت الاسم السلام؛ لأن المطيع لَمن أرسله السلام سالم، وهؤلاء المرسلون هم الأنبياء عليهم السلام، وإرسالهم إرسال حقيقي من الوجهين الخاص والعام؛ وهم مؤيدون منصورون، إمَّا بالحُجة والسيف جميعًا، وإمَّا بالحجة فقط.

قال تعالى: ﴿**قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ**﴾ [الأنعام:١٤٩]، ومنه يُعلم إن المقصود الأصلي: إلزام الدين بالبرهان.

وإمَّا السيف: فإنما هو لدفع شر الأعداء، ولولاه ما ظهر السيف في العالم أبدًا؛ لأن الإنسان بُنيان الله، فلا يُهدم إلا بناء على ضرورة قوية.

ومنهم: مَن أرسله الله تعالى إليهم أيضًا لذلك المعنى؛ وهم أيضًا سالمون بفضل الله تعالى، وهم ورثة الأنبياء، والعلماء بالله، وإرسالهم إنما هو من الوجه الخاص فقط؛ لأن المَلك لا يُرسل من الوجه العام إلا إلى النبي، فدعوهم كدعوة الأنبياء كما قال: ﴿**أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ [يوسف:١٠٨].

ودعوهم إلى التوحيد الأفعال، والصفات، والذات، وإن كانوا لا يجابون إلى جميع هذه المراتب في كل زمان بحسب اختلاف المشارب، وضعف الاستعدادات إلا ورثته هذه الأمة المرحومة؛ فإنهم أهل المراتب جميعًا، ولهم دعوة مطلقة، وإجابة مطلقة إلى آخر الزمان لقوة استعداد الأمة، وكمال قابليتها، ولله درهم في كل عصر

= وبحر الكلام له (ص٥٩)، ونهاية الأقدام في علم الكلام (ص٤١٧، ٤٧٧)، ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين (ص٢٢١)، والأربعين في أصول الدين للرازي (ص٣٠٢، ٣٨٤)، وأصول الدين للرازي أيضاً (ص٩١، ١٠٥)، وغاية المرام في علم الكلام للآمدي (ص٣١٥، ٦٣٠)، والمسامرة بشرح المسايـــرة للكمال (ص١٧٨، ٢١٢)، وشرح المقاصد (١٢٨/٢، ١٥٣)، ونشر الطوالع (ص٣٣٠، ٣٤٥)، وشرح الفقه الأكبر (ص٦٩، ٧٠، ٧٩)، ومختصر شرح العقيد الطحاوية (ص٣٧، ٤٣)، والأساس لعقائد الأكياس (ص١٢٥، ٢٤٣)، ورسالة التوحيد (١١٤، ٢٠١).

كثّرهم الله تعالى، وإن كانوا تحت القباب مستورين، فهؤلاء المرسلون داخلون في المرسلين من طريق الإشارة، والعبارة، والإشارة واحدة عند أهل الإشارة.

وإنما جعلوا كلماتهم من طريق الإشارة صيانةً لأنفسهم، وكلماتهم من الأعداء؛ وهم أهل الرسوم الطاعنون الخارجون عن حدود الله، وحدود العقول أصلحهم الله تعالى.

ومنهم: مَن أرسله الله تعالى من نومه الحسي؛ لإحياء الليل، فلهم في ذلك سلامة؛ لأن الروح يتخلّص به من الأمراض المعنوية، إذ المناجاة، وما يفيض من الله تعالى من العلوم والآثار تُحيي النفوس؛ فيكون اليقظة الحسِّية مؤيِّدة إلى اليقظة المعنوية، فويلٌ للغافلين النائمين، وطوبى للمتيقّظين في الأسحار من العارفين العابدين.

ومنهم: مَن أرسله الله، وبعثه من نومه المعنوي؛ وهم أهل الحياة الباقية، والتجليّات العالية، فوصلوا إلى صباح التجلّي، وإشراق النور في ليل البشرية، وظلمة الطبيعة؛ فكانوا في الدنيا كأنهم في الآخرة؛ لأنهم في مقام صدق عند مليك مقتدر، فكان كل من المتيقّظين سواء كانوا متيقّظين من النوم، أو من الغفلة، سالمين من شرور النفوس، وكدورات الطبيعة.

والثاني أقوى من الأول؛ إذ ليس كل متيقّظ صورة من أهل المناجاة، ومن أهل النجاة مطلقًا بخلاف المتيقّظ معنى، ولكل من هؤلاء المتيقّظين آثار وعلامات يُعرفون بها كما قال تعالى: ﴿**سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم**﴾ [الفتح:٢٩]، فالوجه واحد، والنظر متعدد؛ لأن الفراسة الحقيقية لم تُعطَ الكثير من الناس، وإنما لهم الفراسة الطبيعية؛ بل ليس لكثير منهم فراسة ونور أصلاً؛ ولذا لا يُبصرون أهل النور، والسرور، والحبور.

وارد في الأذكار المقبولة

استغفر الله[1]: هذا طلب المغفرة، والستر للمعصية إن كان المستغفر من أهل

(١) الاستغفار: هو طلب المغفرة من الله تعالى للذنوب فإن العبد إذا أذنب ذنبا فقال: رب اغفر لي يقول الله تعالى قد علم عبدي أن له ربا يغفر الذنوب أشهدكم يا ملائكتي أني قد غفرت له وأحسن أوقات الاستغفار الأسحار فإن الرب يتنزل كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر إلى سماء الدنيا فيقول: «**هل من تائب فأتوب عليه هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟**»
=

الشريعة. وطلب المغفرة والستر للتلوين إن كان المستغفر من أهل الطريقة.

وطلب المغفرة والستر للهيئات المظلمة إن كان المستغفر من أهل المغفرة.

وطلب المغفرة والستر للوجود الخلقي الفرقي إن كان المستغفر من أهل الحقيقة.

ومنه ما في سورة النصر من قوله تعالى: (واستغفره): أي اطلب من ربك ستر

=

ولا يزال يقول ذلك حتى يطلع الفجر.

فيا من رفع السماء بروح قدرته وفتح أبواب المغفرة بأرواح رحمته أسلك المغفرة العامة والستر الجميل وكيفية الاستغفار اللهم اغفر لي وارحمني برحمتك الواسعة يا أرحم الراحمين أستغفر الله أستغفر الله أستغفر الله الذي لا إله إلا إلا هوالحي القيوم وأتوب إليه ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

ومن الأرواح المحمدية روح فرقاني في أرواح الاستغفار: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح: ١٠] من عادته الغفر فإذا استغفرتموه والاكم بأرواح الغفران وعمكم بأنواع الإحسان فروح الاستغفار فيها روح وصل بذكر الله، وروح فصل عن محارم الله فإن الاستغفار فيه روح كراهة لأرواح الذنوب.

وذلك بروح فصل يفصل الأرواح الظلمانية من الأرواح الشيطانية المتعلقة بالفلك السفلاني وهو فلك المخالفات بأرواح المحرمات والمكروهات.

فانظر ما في الاستغفار من أرواح الأنوار التي يرفع الله بها أرواح العذاب عن أرواح الأحباب؛ فإن أرواح المستغفرين من أرواح المتطهرين والله لا يضيع أرواح المحسنين ولو بالاستغفار في روح من ليل أو نهار، وفي روح الثلث الآخر من الليل له روح طلب من الله ففي الروح المحمدي، والفضل الأوحدي: «**ينــزل ربكم كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه**».

روح نعيم بعد روح تخصيص فإن روح التائب على روح القبول طالب فهو سائل من الرب الرحيم الخلاص من روح الجحيم والمستغفر طالب لروح الغفران لأن روح الجناية من أرواح العصيان والسؤال أعم فهو من الأرواح العامة في أرواح الحاجات وأرواح الأعظم قد تكفل بأرواح القبول لأرواح الدعوات.

ففي روح الاستغفار روح وصل بروح العطف، وروح فصل من الأرواح الظلمانية، وروح حركة باللسان وروح سكون بالجنان إلى روح الغفران.

الوجود الخلقي الفرقي، فإنه قد تمَّ أمر التبليغ، وانقطعت العلاقة بينك وبين الخلق، ولو كان الخلق سبّحك الشريف اللطيف النوراني الروحاني، فكن بعد ذا معي بالوجود الحقي الجمعي؛ لدنو انتقالك من عالم الملك، ورجوعك من الصورة إلى المعنى، ومن الجسد إلى الروح.

وهكذا حكم الكُمَّل من الورثة، إذ انتقالهم من هذه الدار إلى الدار الآخرة، ولما كان السين للطلب، والطلب قد يكون باللسان، وهو لا يتم إلا بالرجوع القلبي حقيقةً أُضيف إلى الاستغفار التوبة.

فقيل: استغفر الله وأتوب إليه على ما نطق به القرآن، حيث قال تعالى في سورة المائدة: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة: ٧٤]، وعلم ما قرَّرنا أن الاستغفار، ورد لا ينقطع، ولا يسقط إلى آخر العمر، لا عن نبيٍّ، ولا عن وليٍّ، فإنه أمر جارٍ في كل مقامٍ بحسب كل حالٍ.

سبحان الله[1]: تنــزيه لله تعالى عن ملابسته للكون، وملابسة الكون له، وهو

(١) فصل بروح وصل في روح سبحان الله وبحمده: ففي الروح المحمدي من قالها في يوم مائة مرة غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر أي في التتابع والكثرة التي لا يقدر على أرواح إحصائها البشر روح بيان في هذا الروح المحمدي المسبح لما ذكر الله بأرواح التنــزيه عن الإحاطة بأرواح عظمته فمعنى سبحان الله أن الله لا تحاط عظمته وأثني عليه بكل حمده.

فإن معنى وبحمده وأقدسه بكل حمده الذي يستحقه على كل حال وهذا تعميم في أرواح التعظيم التي لا تحد فكان روح هذا الذاكر يستحق روح نعيم من الغفران لذنوب لا تحد من أرواح العمل فاعرف مقدار ذكرك يعظم روح شكرك في المائة مرة في روح من الكثرة فتوافقت الأرواح في التفكير والله على كل شيء قدير.

ففي سبحان الله وبحمده روح فصل لأرواح الخيال بصور الإحاطة بعظمة الله وأرواح مواهبه، وروح وصل بأرواح التفكير وحركة باللسان بعظم هذا الشأن وسكون عن التعلق بغير هذا الميزان الثابت الرجحان.

ففي الروح المحمدي: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم».

=

في تجلياته غنيٌّ عن العالمين، فالله هو هو، الأشياء أشياء، فالله لا يكون عبدًا، كما أن العبد لا يكون ربًّا.

ولذا قال بعض الأكامل: كُنْ عبد رب، ولا تكنْ رب عبد، إشارة إلى التنفير عن الظهور بالصفات الإلهية بين الخلق، كما عليه أهل المكر، ولا يعرفه إلا أهله: فقد اختار الكُمَّل الستر، وترك التصرف، والظهور بالعجز والضعف والافتقار.

والحمد لله: أي على إظهار كماله في تجلّي ألوهيته؛ إذ به يظهر المراتب لكل متقدمٍ ومتأخرٍ ومسخرٍ ومسخرٍ له، وبه ينتظم أمر العالم، ويتم النعمة.

ولله الحمد على ذلك، فإن كل ما أظهره وأوصله فنعمةٌ محمودةٌ محبوبةٌ، وليس فيه أمر مكروه إلا بحسب الطباع، وذلك لا يستلزم كراهته في نفسه، وكونه مكروهًا بحسب الطباع من الحكمة الإلهية؛ إذ به يظهر مقام الصبر، كما أنه بالمحبوب يظهر مقام الشكر.

ولا إله إلا الله: أي في كل مقام التسبيح والتحميد والتنـــزيه والتشبيه، والخلق والحق، فمن كان محققًا أخذ بالتوحيد والتجريد والتفريد، ومن كان خلافه وقع في الإلحاد والتقليد، وما نجا إلا المحقق، فعليك بطريقه، والأخذ من ثمرات تحقيقه، فقد كنت واصلاً إلى سر وحدة الوجود، وأدمت الشهود، وأقمت السجود.

والله أكبر: أي له الكبرياء الزائدة البالغة، وله العظمة الكاملة الجامعة، ومنه قول المصلّي: الله أكبر في جميع الأفعال والانتقالات؛ إشارة إلى تنـــزهه تعالى عن التقيد بالقيام والقعود، ونحو ذلك، فإن التقيد يوهم التغيُّر، ولا تغير على الله في ذاته وصفاته. ولا حول: أي عما سوى الله، ولا قوة: أي على الإقبال إلى الله. إلا بالله(١).

=

وما كان محبوبا إلى الرحمن عمته رحمته وفازت بأرواحه أرواح الذاكرين والله يحب المحسنين بكل الأذكار فلا يبقي عليهم روحا من الأوزار.

(١) قال سيدي ابن سبعين: اعلم أن لا حول ولا قوة إلا بالله. يجب عليها الأدب والاستغفار عند الخواص إذا تمت على سدادها، فيكف قول أنت أنت لمن إذا أطلق القول عليه مع العدم بترادف =

فإن أعانك فلك التحول والإدبار، ولك القوة على الإقبال، فإن كل كمال إنما هو بالله، كما قال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ﴾ [النحل:١٢٧]، العلي ناظر إلى ظرف التنــزيه، وجانب الكبرياء العظيم ناظر إلى ظرف التحميد والألوهية، فاعرف.

لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله، الجلالة مع الاسم محمد، كقوله تعالى: رسل الله، الله، وإن كان الاسم (محمد) مقدمًا على الرسول، فإن المعنى واحد في صورة التقدُّم والتأخُّر.

فإن قلتَ: ما ذكره لمساعدة الإعراب.

قلتُ: هذا الذي ذكرته من قبيل الإشارة الخارجة عن اعتبار الإعراب، لا من قبيل العبارة المقتضية لذلك، نحو قول صاحب القصيدة البردية: أمن تذكره، فإنه في صورة آمنت الذي هو المطلوب؛ لكون الناظم مقلّدها، فمثل هذه الصورة يعتد بها عند أرباب الإشارة، وأهل النقول.

وسرٌّ هذا دقيق لا ينتهِي إليه إلا الأولياء، وذلك أن أصل محمد أحمد: وأصل

=

يسأل عنه المتكلم؛ لأنه أضاف بعض المعلومات على رأي بعض الناس إلى شيء لا ينسب لشيء من هذا كله عند كل الناس! فإن كلمة: «لا حول ولا قوة إلا بالله» إن كان قالها وهو لم يعلمها إلا وقت همّه وامتحانه، فهذا فيه ما فيه، وإن كانت المحنة هي التي ذكرته فأنحس وأخس، وإن كان استعان بالله على بعض أفعاله فهو من الأمور المضحكة، وإن كان قالها عبادة، فأمره يتحمل وينحط عن رتبه الخواص. وإن كان قالها دون شيء ولا لها معتبر إلا مفهوم الذكر، فذاته أولاً.

وبالجملة: هي كنــز من كنوز الجنة، وكنوز الجنة هي من بعض أسباب بعض منّه.

واعلم أن الذي يطلب الجنة ولا يعتقد أنها سبب القرب إلى رؤية الله، فأهل النار أحسن منه بالنظر إلى همته ومن جهة تعظيم المطلوب لا بالنظر إلى سخط الله.

والجنة من جملة الخيرات التي تراد لغيرها، هذا عند الضعفاء وفي سلوك الأرواح وهم بعض المجردين.
وبوجه آخر لا يهمل الوجود على أي وجه كان وفي أي مظهر تصور، ولا يتنوع في ذاته الموجودة، والتقديم والتأخير لا يغتبط به السعداء من نصح، وأجاب، فهم من الضعفاء، وإلا أن تكون النصيحة من بعض أخباره المهملة، والناصح ضد ذلك الناصح.

أحمد أحد، فما فرق بينهما إلا ميم الإمكان، وبهذا الميم الإمكاني كان أحد أحمد، وأيضًا أحمد محمد، فمحمد رسول الله، وأحمد هو ولايته، ونبي الله، فإنه انباء الله ووحدته، وأيضًا من كمالات نفسه، وذلك في عالم الأرواح.

كما قال: «**كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين**»(١)، فإن كل نبوة لا يستلزم الرسالات، بخلاف العكس.

أمَّا أحد: فهو الله لا رسول الله، ولا يكون أحد رسول نفسه، إلا بالاعتبار، والجهتين المختلفتين كما ينبئ عنه قوله ﷺ: «**السلام عليك أيها النبي**»(٢)، فإنه يسلم من جانبِ ولايته على جانب نبوته، ومن ملكيته على بشريته، ومن جمعه على فرقه، ومن أصله على فرعه، فلا يلزم منه التعدُّد إلا بالاعتبار.

فإذا عرفت هذا السرَّ العظيم، والمعرفة الجليلة، فاعلم أنه كما أن الله تعالى واحد بالوجود والأُلوهية، فكذا محمد ﷺ واحد بالوجود والرسالة، فإن وجودات الأنبياء عليهم السلام قبله، إنما هي صور وجوده الشريف، وهممهم في حكم أمته لا حقيقة لتقدم زمانهم، وكذا نبواتهم ورسالاتهم صور نبوته ورسالته؛ لأنه ما من شريعةٍ من الشرائع الأول، إلا وسرها موجود في القرآن الذي هو معدن هذه الشريعة الناسخة.

فكما أنه لا إله إلا الله، فكذا لا رسول إلا محمد، وكما أن صور الكُمَّل مظاهر الحق فكذا صور الأنبياء مظاهر محمد الرسول، وإنما ظهرت نبوته ورسالته فيهم بحسب استعداداتهم ومراتبهم، كما أن نور الشمس إنما يتجلَّى في القمر بحسب جلائه، وكذا نور القمر إنما تجلَّى في سائر النجوم بحسب مراتبها.

ومنه يُعرف سر قوله ﷺ: «**أنا من الله، والمؤمنون من فيض نوري**»(٣)، فالقمر شمس، لكن قيل له: قمر، باعتبار خصوص التجلِّي والإشراق، وهو أيضًا سراج؛ لأن نوره ممدود من نور الشمس، كامتداد نور الفتيل من الزيت.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه البيهقي في الكبرى (٢/١٤٤)، وذكره الهيثمي في الزوائد (٢/١٤١).

(٣) تقدم تخريجه.

وكذا الشمس، فإن نورها مستفاض من نور الله تعالى، فالأصل إذًا واحد، والفروع متعددة، والنظر إنما هو للأصل في صورة الفرع.

ولذا ورد: «**طوبى لمن رآني، ولمن رأى من رآني، ولمن رأى من رآني**»(١).

فإذا وقفت على هذا عرفت أن لله ألف اسم كوني أيضًا هي الأسماء المحمَّدية، وأن جميع الموجودات الخارجية راجعة إلى وحدة كونية، هي وحدة الوجود المحمَّدية، كما أن جميع الأسماء راجعة إلى اسم واحد وحدة حقيقية، هي وحدة المسمَّى، فانظر فإنه ليس في الوجود الحقيقي إلا الله، وليس في الوجود الكوني إلا محمد رسول الله.

وارد في كلمة التوحيد
لا إله إلا الله(٢)

نفى أُلوهية الغير مع أنه لا تحقق لها في نفس الأمر، إنما هو بالنسبة إلى الأوهام نحو قوله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص:١]، فإن إثبات الأحدية إنما هو نفي لزعم المشركين من الشركاء، وإلا فقوله: (**هُوَ اللَّهُ**) بل لفظ (**هُوَ**) منفردًا يكفي في إثبات المقصود، ولذا قالوا: إنه ليس في العالم إلا سر الوحدة، سواء علمه الخلق وأثبتوه، أو جهلوا به، فإن من جهله لا يتغير الأمر عما هو عليه، ولما خلق الله النور الأحمدي.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٩٦/٤)، والديلمي في الفردوس (٤٤٥/٢).

(٢) أول وظيفة من وظائف الشريعة: هي كلمة لا اله إلا الله، وتتضمن أن لا فاعل إلا الله، فكل موجود في الكون الله أوجده من حيث هو فاعله، والفاعل لا يفارق مفعوله، وهو معه بالإيجاد والإبقاء، ولا وجود للشيء إلا به، فهو الأصل الضروري في وجود كل شيء، ولكل شيء حقيقة، وهو وجوده الذي هو به ما هو ووجود كل شيء، الذي هو به ما هو هو به، ومنه وعنه وإليه، هو حقيقة كل شيء وماهيته ووجوده؛ فالله: هو الحقيقة الجامعة، كما تقدم من قول سيدنا ﷺ.

فإذا كان هو حقيقة كل شيء، فالأشياء كلها هي به على ما هي عليه، فهو الحقيقة الموجودة في كل حقيقة، وهو الذات المستحقة بذاتها لكل ذات، فهو مع كل شيء بوجوده؛ فلا غيبة ولا حجاب، والغيبة والحجاب: هو الجهل بهذا الاتصال والاستحقاق الذي ذكرناه، والغفلة عن ملاحظته وشهوده في كل شيء بل شهوده ولا شيء معه.

فإن أول ما قال: لا إله إلا الله، شرَّفه الله تعالى بأن يقول: محمدٌ رسول الله، فظهر أن الرسالة إنما هي تعيينٌ من الله تعالى، ونحوها الخلافة المتوارثة بين أهل الطريقة، فإنها إنما تتعيَّن من الله تعالى، إما بلا واسطة وذلك نادرٌ، وإما بواسطة وهو الشيخ؛ لأنه صورة النبي ﷺ، فأمره أمرٌ من الله، ومن الرسولﷺ، فإنه تعالى قال: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، فإن الرسول يدخل فيه ورثته من طريق الإشارة، ثم إن إثبات الأُلوهية ماض من أول دور السنبلة إلى آخره، وهي جمعة من جميع الآخرة.

وأما إثبات الرسالة المحمَّديَّة بخصوصها، فلا يجري إلا في الألف الأخير من السبعة، وقد يتحقَّق واحد من هذه الأمة المرحومة ببعض الأسرار، فيكون في حكم من عاش من أول الزمان إلى آخره، فيكون ورده في تلك المدة: لا إله إلا الله، وفي الألف الأخير: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله.

فانظر ما أشرف هذا المقام، فالعمر القصير قد يمدُّه الله ويبسطه، بحيث يستوعب الدهر، والله على ما يشاء قدير، فالآخر يحيط بالأول، والآخر دون الأول، وإن بعض الأولية سارية في الأزمنة كلها، ولذا عمل الشافعي بقوله أول الوقت: رضوان الله، فبكر بالصلوات غير المغرب، فاعرف هذا الشيء الجليل.

لا إله إلا الله

نفي الأُلوهية عن الغير يستلزم وحدة الوجود؛ لأنه إذا كان الإله متعددًا كان الوجود أيضًا كذلك، فصحَّ أن المعبود بالحق إله واحد، لا إله غيره، ولا وجود سوى وجوده، وهو سرٌّ قول مَن قال: ليس في الدار غيره ديار.

ومَن ألحق هذا القائل بالنصارى فقد تنصَّر في المعنى؛ لأن من رضى لأخيه المؤمن ما رضي فقد اشترك فيه، وعلى ما ذكرنا يدور سرُّ قول مَن قال من الأكامل: (عقد الناس في الإله عقائد)، وأنا اعتقدت لجميع ما اعتقدوا.

فإن مراده ليس إثبات الشريك لله تعالى، بل إثبات أن الأشياء مظاهر الأسماء، فالأُلوهية ثابتة لله تعالى، وليست هذه النسبة لغيره، ومن نسبها إلى غيره ألحد وأشرك، ولم يعرف أن المسمَّى إذا كان واحدًا كانت الأسماء كلها خدامه، ومن

مظاهره بحسب المراتب، فالوزير اسمٌ من أسماء السلطان، ولا يلزم منه أن يكون السلطان متعددًا، فإن الوزارة مرتبة من مراتب السلطنة، وكذا الفتوى والقضاء.

فإن الاسم العليم الذي اتصف به المفتي، والقاضي الذي اتصف به الحاكم، كل واحدٍ منهما من أسماء السلطان في الحقيقة، وإنما ظهر حكمهما في ملخصين مختلفين؛ إظهارًا للمراتب التي يقتضيها مرتبة السلطنة الجامعة، فكثرة الوجودات لا تغرنك، فإن تحتها وحدة إمَّا إضافية، وإمَّا حقيقية، وأردنا بالوحدة الإضافية التي تقتضيها كل كثرة، وبالحقيقة الوحدة التي تجمع الوحدات كلها، فالوزير مثلاً واحد بالنسبة إلى سائر المراتب، لكن مرتبة السلطنة التي وحدها وحدة حقيقية، تجمع وحدته ووحدة غيره، ونظيره أيضًا النواة، فإنها نواة واحدة حقيقية، وبدن الشجرة واحد إضافية، وكذا الأغصان كلها، وقد آل هذا التكثر إلى وجود الوحدة التي هي النواة في كل ثمرةٍ.

فظهر أن كل ثمرةٍ مثمرة تحوي نواة نواة على حدة، ووحدة النواة الأولى هي وحدة كل نواة متفرعة على ذلك، فمن رأى بالنظر الظاهري ما رأى في ظاهر الشجرة إلا الكثرة، ومن نظر بالنظر الباطني ما رأى في باطن الشجرة إلا الوحدة، فإذا الوجود وجود واحد ظاهر في صورة الكثرة، كما إذا قام إنسان في بيتٍ من زجاجٍ، فإنه يرى من كل جانبٍ، مع أنه لا يقدح في وحدته، وعلى هذا سرٍّ التمثلات الواقعة من الروحانيين، فتلك التمثلات بمنـــزلة الظل لذي الظل، فالظل مع أنه يُرى اثنين، وليس الظل معه إلا في صورة الخيال.

وإنما قلنا في صورة الخيال؛ لأن الكون خيال، وهو حقٌّ في الحقيقة، يعني في مرتبته؛ لأنه من التجليات، ولا باطل في التجليات إلا الباطل الإضافي؛ إذ الباطل الحقيقي هو عدم الحض.

ومن هنا قال الحلاَّج: أنا الحق؛ لأنه رأى الحق في صورة الخلق، وذلك الظل في صورة الظل، فسجد، ومن آثار سجدته أنه أثبت إلهًا واحدًا، هو إلهية الظاهر، فهو: أي المتصور خارج من البين، وإنما الظاهر صورة العين، كشف الله عن بصائرنا وبصائركم الغبن، وحفظنا وإيَّاكم عن الرَّين.

وارد

الورقة النشافة غير مقبولة؛ لأن الكلمات الواقعة تُبطل، وتؤدي إلى بطلان المعاني المقصودة، فلا بُدَّ من النجابة؛ ليتطابق الإنسان وأجزاؤه في الخارج، وذلك أن نور التجلي في الأصل نور شعشعاني، فلا يضبطه الروح الإنساني إلا بكثافة الجسد، ولذا خلقه الله تعالى من العناصر الكثيفة.

فالجسد كالظل الذي على ظهر المرآة، فإنه لولاه لم تقبل المرآة صورة للطافتها، وهكذا الأوراق ونحوها، فهذا من أسرار الله تعالى في العالم، قل من اهتدى إليه من بني آدم، والله اللطيف الخبير الأعلم بما يشاء وأعلم.

وارد قبل صلاة عيد الفطر

ورد قبل صلاة العيد الفطر، وأنا في الجامع الأموي في الشام:

«**إن مَن لم يشهد الله، خسر الدنيا والآخرة**»(١)؛ والمراد الشهود المعنوي بالبصيرة.

أمَّا خُسران الدنيا: فلأن الشهود مبني على المعرفة الإلهية؛ إذ لا شهود للجاهل، ولو شهد لم يُعتدَّ به؛ لأنه غافل عن المشهود، كما إذا رأى أحد السلطان، وهو متنكر، فإنه لا يعرف أنه السلطان، فلا يزال يطلبه، ويشتهي رؤيته، ثم المعرفة الإلهية إنما تحصل في الدنيا إذ ما لم يحصل من الكمال في الدنيا لم يحصل في الآخرة.

فظهر أن مَن لا بصيرة له؛ لا معرفة له، ومَن لا معرفة له؛ فقد خسر الدنيا؛ لأن [التحصيلات] الأخروية مبنية على تحصيل تلك المعرفة، فمَن لا معرفة له؛ لا تجارة له ولا فائدة من عمره؛ وهو عين الخُسران.

كما قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ**﴾ [الأنعام:١٢].

أي: بالكفر والمعصية والحجاب.

وأمَّا خُسران الآخرة: فلأنه إذا لم يكن له معرفة في الدنيا؛ لم يكن له شهود في الآخرة.

---

(١) لم أقف عليه.

فظهر أن الشهود: شهود في الدنيا بالبصيرة، وشهود في الآخرة بالبصر، والثاني مبني على الأول، وكذا الأول مبني على المعرفة الإلهية(١).

ولذا قالوا: ألذُّ الأشياء؛ معرفة الله تعالى مع أن ألذَّ الأشياء هو مشاهدة الجمال، وحالة الوصال لِما ان ذلك موقوف على المعرفة(٢).

---

(١) اعلم أن المشهود المحقق يقضي على المشاهد بالشهادة على المشهود؛ أنه من كونه مشهودًا بشهود محقق واحدٍ؛ لكن هذه الشهادة شهادة حالية لا تعقلية؛ إذ لا تعقُّل في الشهود ولا تميز، وحصول هذا المشهودُ المحقَّق مشروطٌ بتوحُّدِ المشاهد من حيث توجُّهه، واستهلاك كثرته في وحدته الأولى، فإن الأولية في كل شيء هي الوحدة، والكثرة متعلِّقة في الرتبة الثانية.

ثم إن للمشاهد المحقق بعد التحقق بالمشهود المذكور والاتصال بالوحدة المشار إليها عودة ثانية من تلك الوحدة على مرتبة العلم الذي هو ثمرة ذلك المشهود من وجه، وفي هذه المرتبة العلمية تذكر نفسه، والتمييز المحكوم بثبوته في نفس الأمر القاضي بالتعدُّد؛ إذ المشهود لا يقضي بتعدُّد ولا يبقى للمشاهد ما يدرك نفسه أو غيره.

وإذا عرفت هذا وفهمته عرفت معنى قولي: التوحيد صفة الشهود، والتمييز من حكم العلم، وعرفت أن الحق سبحانه بأي اعتبار يُقال فيه أن علمه عين ذاته، وبأي اعتبار يُضاف عليه العلم في المرتبة الثانية من الذات الموصوفة بالأحدية، فافهم والمرشد الله.

(٢) قال الشيخ الأكبر قُدِّس سرَّه: (المعرفة محض الإيمان، ومشاهدة الإحسان) أي: المعرفة التي هي صفة للعارف باسم الله أحدية جمع الأسماء كلها الذي هو صاحب القلب الحاصل من رحمة الله ورأفته ولطفه في اصطلاح هذه الطائفة؛ لأن تعينات الأشياء في العلم بالفيض الأقدس ووجوداتها بالفيض المقدس وكلاهما من الأسماء اللطفية الجمالية، فهي محض الإيمان الكامل بالله وصفاته وأفعاله، ومشاهدة الإحسان الوارد في الحديث النبوي حيث قال ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، ومشاهدة أن يكون هذا عيانًا له لا علمًا واعتقادًا، أو محض الإيمان بمعنى الإيمان المحض أي الخالص المنـزه عن الشرك الخفي بأن لا يكون داخلاً في الذين تصدق عليهم الآية: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾ [يوسف:١٦٠]، وهو إيمان أهل القلوب الذين يعرفون بتقلب الحق في الصور بالتحول إليها، فلا ينكرونه في صورة من الصور، وأهل القلوب هم الذين يؤمنون بالله وحده؛ لأنه الغيب عندهم والبواقي من أركان الإيمان من الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره ليست مما أمنوا به؛ لأن المؤمن به يجب أن يكون غائبًا والمذكورات غير غائبة عنهم؛ لأنهم يشاهدونها عيانًا فافهم، المؤمنون حقًا =

فظهر أن المعرفة في الأصل معرفة واحدة وهي معرفة الله تعالى المؤدِّيَة إلى الشهود في الدنيا؛ وهو الشهود الحجابي الباطني القلبي المؤدِّي إلى الشهود الكشفي الظاهري القالبي؛ لأن القلب يتصوَّر في الآخرة بصورة القالب، فيكون الشهود بالقلب والقالب جميعًا، وذلك للطافة الأبدان بلطافة العناصر والأركان بخلاف الأبدان الدنيوية، فإن العناصر فيها لا تخلو عن الكثافة، والحجاب.

ومصداقه أن الغيب إذا انكشف، وورد الموارد منه، فقد لا يسع القلب، ويرجع بعضه إلى ما بدأ منه، ولا يعرفه إلا أهل الذوق، ومن الله تلطيف العناصر، وترقيق الباطن والظاهر(١).

=

يؤمنون بكلّ شيءٍ، ولا ينكرون عن شيءٍ، والمعرفة هي العلم بالله الذي لا غاية له في العارفين يقفون عندها، فلا يزيد عليها بل شأن العارف في كلّ زمان يطلب الزيادة؛ لأنه كلما زاد علمه يستعد لعلم آخر فيقول: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه:١١٤]، فإذا حصل له ما يستعده يستعد لآخر أيضًا فيقول: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ وهكذا إلى ما لا يتناهى.

ولهذا قال قُدِّس سرَّه: (**المعرفة علم ألي، وكشف كلّي**) أي: المعرفة المذكورة عِلم أليّ أي: إلهي من تجلّي الحق تعالى ولا نهاية للتجلّي فلا نهاية للعلم، وأيضًا المعرفة كشف كلّي لا كشف فوقه؛ لأنه لا كشف فوق كشف العرفان، وقد مرَّ بحث الكشف تفصيلاً وتوضيحا ثم عَرَّف الشيخ بغير ما عرَّفه به سابقًا اعتناء بشأنه، وتنهيضًا للسالك الطالب القاصد للمسلك التام.

(١) قال الحكيم الترمذي: في تفاوت المعرفة والإيمان والتوحيد وما يشبه ذلك.

المعرفة إذا عرف الله بقلبه واطمأن إليه فاستقر قلبه، فهي معرفة، ومبدؤها من الله- تبارك اسمه والموحِّدون استوجبوا اسم العارف، إلا أنهم تفاوتوا في تصديقه بالعمل والخدمة، فأكثر وفاء بها أوفرهم حظًّا منها، وأخلصهم في ذلك أصدقهم.

وأمَّا كمال المعرفة، فإذا زالت المعرفة لم يبقَ معه شيء والخائف علي نفسه محمود؛ لأن النفاق عزل الإيمان.

ورد: «**والغيلان سحرة الجن**»، فكما أن الغيلان يسحرون الآدميين حتى يضلوهم عن الطريق في المفاوز، فكذلك النفاق يدخل من حيث بصائر الهدى حتى يضله، والسرور للمذنب والمطيع غرور؛ لأن المذنب لم ينكشف له الغطاء عن حكم الله ﷻ فيه، والمطيع لم ينكشف له عاقبته، فالسرور علي ماذا؟ هذا علي الأغلب، وقد يكون أن يعتريه في بعض الحالات ما يرى من تدبير الله فيُسرُّ به، وإن

=

خاتمة الكتاب

حرَّره الفقير المذنب العبد الضعيف المحتاج إلى رحمة ربه، الغفور الحاج حافظ محمد منيب من تلاميذ الشيخ علي المصري -غفر لهما ذنوبهما ولجميع المؤمنين والمؤمنات- سنة إحدى وأربعين ومائتين وألف من الهجرة مَن له العزّ والسعادة والشرف[١].

=

كانت نفسه معه فقيرٌ مأمون في السرور.

وأمَّا ما ذكرت من حقائق الخصال التي ذكرت من الإيمان والتوحيد والاستغفار والحمد وما أشبه ذلك، فإنما يعرف حقائق هذه الأشياء أهلها، فإذا وصلوا إليها شهدت العقول لهم بتلك الحقائق، وعلامة حسن الاستماع أن يُفرغ فؤاده لقول القائل، وأن الله- تبارك وتعالي اسمه- صنع للموحِّدين صنعًا جميلاً أن قيَّد نفوسهم بحسن تخوُّف العقوبة وخوف العاقبة، فالمدبِّر والمطيع لن يخلو من ذنب واحدٍ قد اقترفاه، فاستوجبا بذلك الذنب الواحد عقوبة، فطوي عنه خبر العقوبة في هذه الدار.

هذا قيَّدوا بهم عليهم العاقبة، حتى إذا أرادت النفس أن تنفسح في الأمل والرجاء للموحِّدين قيَّدها باهّام العاقبة، فالخوف أصلح للنفس، فإذا جمع الله لعبد الخوف والآخرين؛ فقد صانه وربط الأسد الذي في جوفه، فالصادقون في هذا المحل منه، والصدِّيقون كذلك خَوفهم أشد وأحزانهم أدوم، ثم إن لله خاصة من عبيده أعلى من الصدِّيقين، وهم أقل في أرضه من عدد الأصابع، قد احتشمت قلوبهم منه وبه، فهم أُسارى في قبضته، ولولا ذلك لهاموا، فهو يعللهم في قبضته بقصر الأمل.

وهو قول رسول الله ﷺ: «**إني لأرفع، فما أظن أن شفري يلتقيان حتى أُقبض**».

فهذا إنما يقصر أمله في القبضة، ولا يقدر علي هذا إلا هذه الطبقة، فهم أهل السرور بالله، وأهل تربية القبضة، يغدوهم بلطفه.

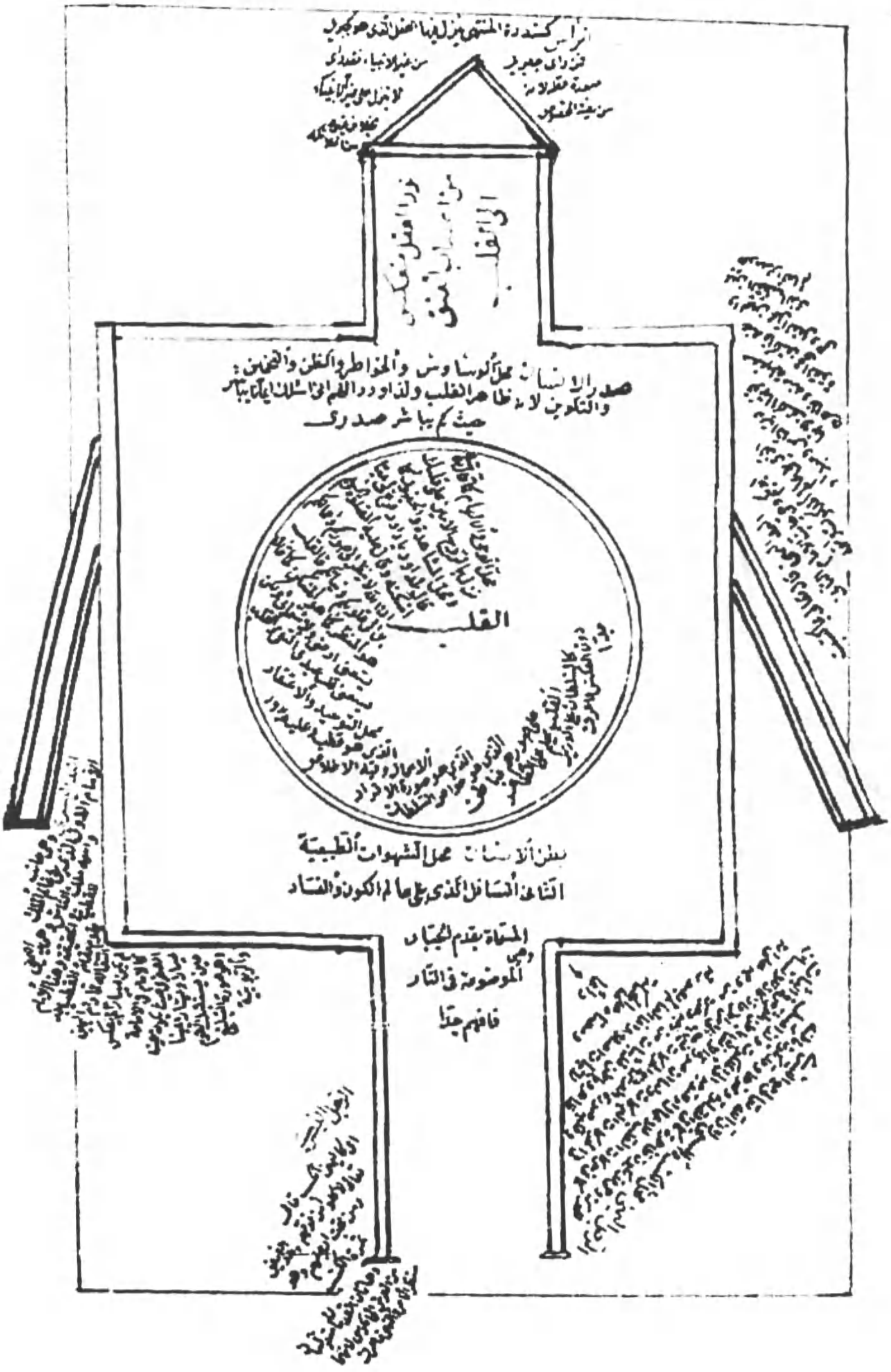
وهو قول رسول الله ﷺ: «إن لله عبادًا تحسبهم في عافية، وتمسيهم في عافية، وتغدوهم رحمته، نصرهم عن الأسقام والأمراض، وينأى بهم عن الذبح، كما ينأى أحدكم بكريمة إبله عن الذبح، يقبضهم علي فراشه، ويقسم لهم أجور الشهداء».

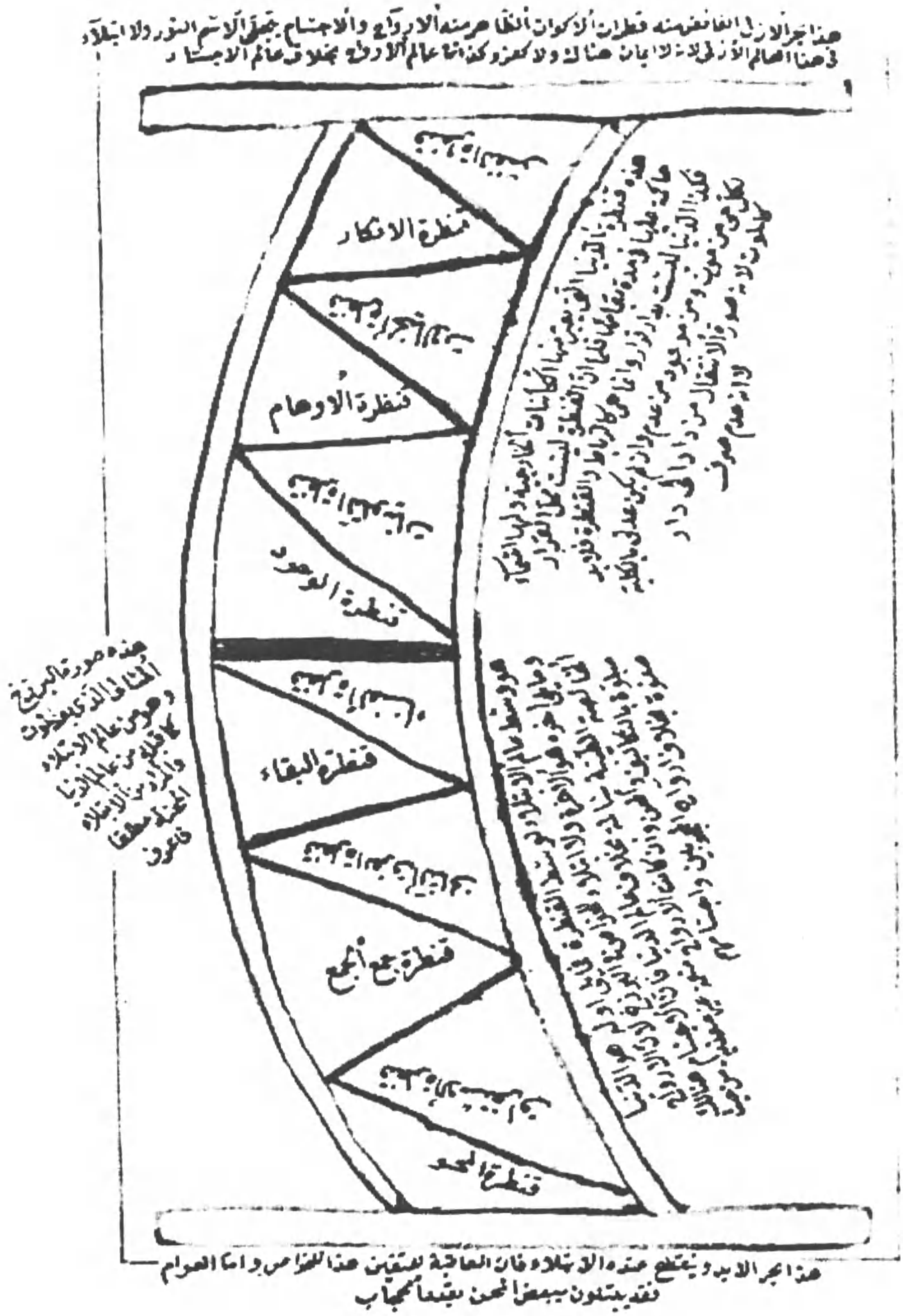
(١) قلت: تم بحمد الله وتوفيقه هذا العمل المبارك في الخامس عشر من شهر جمادى الأول من سنة ١٤٢٧ هـ، بدارنا الحقيقة المحمدية لتحقيق تراث السادات الصوفية، وكتبه: أحمد فريد المزيدي الأكبري المصطفوي، القاهري (٠١٠١٤٦٣٠٢٧).

الصور النُّورانية الدَّقائق
المشاهدة بمرآة الحقائق

لشيخ الإسلام العلامة المفسر سيدي إسماعيل حقي البرسوي
المتوفى ١١٣٧ هـ

- صورة الإنسان الكامل.
- صورة البرزخ المثالي الذي بعد الموت وهو من عالم الابتلاء .
- صورة التجلي للنور الأحمدي.


صدر الإنسان محل الوسواس والخواطر والظن والتخمين
القلب
بطن الإنسان محل الشهوات الطبيعية
المسماة بقدم الجبار وهي الموضوعة في النار
فافهم جدا


قنطرة الانكار
قنطرة الاوهام
قنطرة الوجود
قنطرة البقاء
قنطرة جمع الجمع

ظهرت هذه الصورة ليلة الجمعة الاولى من صفر
من سنة تسع وعشرين ومائة والف



الانسان الكامل

جل جلاله

لانه جليل باجلال الله تعالى
لانه تعالى واجلة بجعله مظهر الاسماء
والصفات والتأثير عليه رداء
الكبرياء والجلالة فهو حق

بسم الله الرحمن الرحيم

اللطائف فيما جرى على لسان الشيخ عثمان من المعارف

بعض الكلمات الواقعة بين المصنف سيدي إسماعيل حقي وبين حضرة شيخه سيدي عثمان الفَضْلي الجلوتي

قال المصنف: اعلم أن لي زيارات كثيرة لحضرة الشيخ سأذكرها من الكلمات في هذا الفصل[1]، وهي كلمات الزيارات السبع الواقعة في أواخر عمره.

بعضها في بلدة «أدرنة».

وبعضها في القسطنطينية.

وبعضها في جزيرة قبرص حين كان منفيًّا في قلعة «ماغوسة» المشتملة هي عليها، فجاءت عدد الأسماء السبعة.

* * *

(١) أي: الفصل الأخير من مخطوط «تمام الفيض» للمصنف، وقد اقتطعت هذه اللطائف منه لتمام الفائدة والمعرفة، مع التهذيب اليسير ليحصل التيسير بفيض من الله العزيز القدير.

الزيارة الأولى

وقعت هذه الزيارة في بلدة «أدرنه»، وكان حضرة الشيخ مدعو من طرف السلطان محمد الرابع للوعظ والتذكير، وكنت وقتئذ في قصبة «استروبجة» من القصبات الرومية كما سبق تفصيلها فأرسل إليّ ورقةً فاستدعاني إلى أدرنه فلما قدست مرضت من الحمى أيامًا لكثافة الهواء، فلم يتفق لي الصحبة على المراد لما أشير إليه بنقلي وهجرتي إلى بلدة «بروسة» أشار بالعود إلى القصبة، ونقل البيت منها إليها؛ ففعلت وحين مجتازي بـــ «أدرنه» أقمت عند حضرة الشيخ نحوًا من ثلاثة أشهر أقرأ عليه «الفصوص» كل يوم، وجرى بيننا كلمات من المراتب فما كان منها للسر سترته، وما كان بخلافه أبرزته وأظهرته كما قال في «المثنوي»: [....][1].

قال حضرة الشيخ: الحياة طبعها الحار، والعلم طبعه الرطب، الإرادة طبعها البارد، والقدرة طبعها اليابس فهذه الطبائع الأربع لها حكم وأثر في هذه الصفات والأسماء الإلهية عند أهل الحقائق، لكن الصفة التي طبعها الحرارة مثلها تشتمل على باقي الطبائع ولو بالقوة؛ فالحرارة في الحياة الظاهرة غالبة، والباقية باطنة مغلوبة، وكذا التي طبعها الرطوبة بالنسبة إلى باقي الطبائع، وعلى هذا قياس الآخرين، ولكون هذه التعينات مظاهر هذه الطبائع والصفات بحسب الغلبة، والعقل، والمغلوبية، والقوة جاءت مختلفة الآثار.

ألا ترى أن بعض الأولاد صورية أو معنوية جاء قابلاً مستعدًا لغلبة الحرارة والرطوبة في منشئه، وبعضهم بخلافه لغلبة البرودة واليبوسة فيها، وعين ما اقتضاه عينه الثانية، ولذا أظهر الله في هذه النشأة على ما هو عينه من الحال في عالم العلم، ﴿**وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّه وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [البقرة:١١٧].

قال حضرة الشيخ: الألسنة ثلاثة: لسان ظاهر، ولسان حال، ولسان استعداد؛ فلسان الظاهر في الفم، وسؤاله السؤال اللفظي، ولسان الحال في الروح وسؤاله السؤال الروحي، ولسان الاستعدد في أعيان الثابتة وسؤاله السؤال الاستعدادي، فهذه مراتب الألسن، ومراتب الأسئلة، فلكل سؤال مقال.

قال الله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ**﴾ [الحجر:٢١] وهي الأعيان الثابتة فلا يفيض شيء إلا منها، فارجع في سؤالك إلى عينك الثابتة؛ فإن

(١) كلام تركي.

كنت ممن وقف على سر القدر، وما سألت إلا ما اقتضيته، وإلا فما بعثك على السؤال إلا استعمال الطبيعي.

والمراد بالقدر هو القضاء الإلهي، والشأن الغيبي، ويسره ما اقتضته العين الثابتة.

قال حضرة الشيخ: إن الصور الحسية مظاهر الصور المثالية، وهى مظاهر المجردات، وهى مظاهر الصور العلمية، وهى مظاهر الأعيان الثابتة، وهى مظاهر الأسماء، وهى مظاهر الصفات، وهى مظاهر تجليات الذات الأحدية؛ فالحقيقة كانت جمعًا قبل هذه الآثار، وصارت فرقًا بعدها ثم كانت جمعًا في آدم عليه السلام؛ لأنه المظهر الكامل الجامع بين الجمال والجلال.

ثم كانت فرقًا في أولاده ألا ترى أن قابيل كان مظهر الجلال، وهابيل مظهر الجمال، ثم ظهرت الجمعية الأولى في شيث عليه السلام، ولذا جعله آدم عليه السلام وصيًّا.

فسنة الله مذ تجليه بأسمائه وصفاته إظهار الباطن، وإبطان الظاهر، إلى انتهاء العالم، فآدم هو الكون الجامع، وهو بمرتبة الذات الأحدية، وحواء بمرتبة الصفات، والأولاد بمرتبة الآثار، فالأثر يقع مرة جامعًا بين سوء الأبوين، ومرة فارقًا بعينه بأن تكون الغلبة في نشأته للذات أو الصفة، والجمال، والجلال، والذات الأحدية لها المرتبة العليا، والصفة لها الفضيلة العظمى، ومرتبة الجمع لها الجمعية الكبرى؛ فلآدم عليه السلام المرتبة العليا؛ لأنه بمنـــزلة الحمد لله، ولحواء الفضيلة العظمى؛ لأنها بمنـــزلة رب العالمين لتربية رحمها، وشرف الصفة أيضًا لا يخفى.

ولذا ذهب أهل الحقائق إلى أن المرأة وإن كانت عند أهل الشريعة ناقصة لا يصح الاقتداء بها لكنها عند أهل الحقيقة كاملة وإلى كمالها يشير قوله تعالى في قصة حفصة وعائشة -رضي الله عنهما: **﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾** [التحريم: ٤] حيث جعل الله تعالى نصرته، ونصرة جبريل، وصالح المؤمنين، والمقابلة تظاهر امرأتين، وهو من شواهد كمالها، وقدمها في الغاية.

قال حضرة الشيخ في قوله تعالى: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾** [الشورى:١١] المثل عند أهل الظاهر زائد لئلا يستلزم وجود المثل له تعالى، وليس بزائد عند أهل الحقيقة، فإن الهاء إشارة إلى الهوية الذاتية، والمثل إشارة إلى التجلي الأول أي: تجلي حضرة الاسم الجامع جميع الأسماء والصفات؛ فإن أول مثال من هذه التمثلات آفاقية

ونفسية فالمعنى ليس كالتجلي الإلهي الذي هو أول التجليات شيء إذ هو محيط بكل التجليات الباقية المرتبة، وهي كلها تحت حيطه.

واعلم أن تعين التجلي الذاتي من الحضرة الإلهية لا من الذات الأحدية؛ فإنه لا رسم ولا اسم فيها.

قال حضرة الشيخ: ورد في القرآن: ﴿**خلقت**﴾، و﴿**خلقنا**﴾، و﴿**جعلت**﴾، و﴿**جعلنا**﴾ بالإفراد والجمع.

وسرُّه: أن الإفراد بالنظر إلى الذات، والجمع بالنظر إلى الأسماء والصفات.

وقال حضرة الشيخ: الولاية المطلقة تختم بعيسى عليه السلام وعند ذلك يتسارع الفساد إلى عالم الكون لكن بقاء الكفار أيامًا بعد عيسى عليه السلام إنما هو لقرب مفارقة الكون من الروح الذي هو الإنسان الكامل.

ألا ترى أن الجسم يبقى أيامًا في القبر بعد مفارقة الروح لقرب عهد المفارقة، فالبقاء من تأثير الروح، ثم يتسارع إليه الفساد فيبلى يومًا فيومًا، وتنحل أجزاؤه إلى أن يصير كأن لم يكن شيئًا مذكورا، وأمرًا موجودًا معلومًا.

قال حضرة الشيخ: إن أبا بكر رضي الله عنه لما تصدق بجميع ماله في غزوة تبوك حين حث النبي عليه السلام الأصحاب على الصدقة، وتجهيز الجيش، وجاء النبي عليه السلام وليس عليه إلا سترة خَلقَة من السرة إلى الركبة، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك يا أبا بكر؟ فقال: الله ورسوله**»، ثم جاء عمر وقد تصدق بنصف ماله، فقال له النبي ﷺ ما قال لأبي بكر، فقال عمر: أبقيت نصفه، فقال عليه السلام: «**ما بينكما كما بين كلاميكما**»[(١)].

ومنه يُعرف فضل أبي بكر رضي الله عنه على عمر رضي الله عنه لكن الفاضلية من وجه آخر ألا ترى أن أسارى بدر رأى أبو بكر فيهم أخذُ الفدية منهم والإطلاق، ورأي عمر فيهم ضرب رقابهم فأنـــزل الله الآية موافقة لرأي عمر وهو قوله تعالى: ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ** ﴾ [الأنفال:٦٧] فظهر من هذا الوجه فضل عمر على أبي بكر، ومن هذا الباب قصة تأبير النخل، فانظر التقدم والتأخر في رتب العلم بالله لا في الكشف والكرامات الكونية، وإصابة الرأي في

---

(١) رواه أبو داود (١٤٢٩)، والترمذي (٣٦٠٨)، والدارمي (١٦٠١).

الأمور، وظهور الفراسات.

أقول: العلم بالله أعلى من كل كشف وكرامة، ويكفيه شرفًا للولي سواء صدر منه خارقا للعادة أم لا؛ فإن صدوره ليس من وظائف الولاية، وأكثر ما يصدر من أهل البرازخ، ومن هنا يقع لهم اليقين من جهة العامة لمكان المناسبة بينهم ولو في الجملة بخلاف العلماء بالله أهل الفناء؛ فإنهم لما انقطعوا عن علاقة كل اسم ووصف، وتجاوزوا عن حد الجمهور، ومجانستهم انقطعت العلاقة بينهم وبين العامة، فإن اتفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال.

قال الشيخ: رأيت رسول الله ﷺ في المنام فأخذت أمص من فيه عليه السلام حتى شبعت، قال: فبينما أنا أمشي مع رسول الله ﷺ إذ طائفة من الهرات وبجنبها طائفة من الكلاب فأخذت الهرات تشير بأيديها إلى كلمة الشهادة، والكلاب ساكتة، فعرفت منه سر قوله عليه السلام: «**حُب الهرة من الإيمان**»[(١)] وسر إخراج الكلب من البيت، وعدم الاعتناء به؛ لأنه ظهر منه أن الهرة مؤمنة بالله وبرسوله ﷺ ولذا كان حبها من الإيمان؛ لأن حب المؤمن من الإيمان، وأن الكلب خلاف ذلك، ولذا أمر بالكراهة، وعدم الحب؛ لأن بعض أهل البدعة والكفر أيضًا.

قال حضرة الشيخ: أهل الدعوى وهم المتشيخون سوف يغشيهم الحياء يوم تُبلى السرائر، ويرهق وجوههم قترٌ وذلة؛ فإنه لا معنى لادعاء التحقيق بما ليس له.

قال: انظر إلى كلمات حضرة الشيخ الهدائي -قدس سره: حيث لا دعوى أصلاً، ولا رائحة إلا نية قطعًا، وقد كفي الله مؤنة الإظهار في حق الأخيار من غير دعوى وإقرار.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاما**﴾ [البقرة:١٢٤] ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ**﴾ [ص:٢٦] فما عرف من عرف إلا إظهار الله وعلائمه.

قلت: ما معنى قول الهدائي في بعض إلهياته التركية:[...][(٢)].

قال: هو ليس بدعوى بل هو كالشرط والجزاء، والمراد هو الجسد فكما أن الميت المقبور في لحده قد فنى ذاته وأفعاله وصفاته فلا يصدر منه لفظ ولا ينبئ عن

(١) ذكره علي القاري في «المصنوع» (٩١/١)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٤١٥/١).

(٢) كلام تركي.

شيء فكذا الحي المقبور في جسده، وهو الذي مات بالاختيار قبل الموت الاضطراري ولم يبق له أثر من ذاته وصفاته وأفعاله، بل وصل إلى عالم المحو والمحق، لكن لما أخذ الله منه الفناء أعطى بدله البقاء، فذهبت الحياة الحيوانية، وجاءت الحياة الحقانية، وفي اعتبار الوجود، وبقي الوجود عين الجود، وانطمس آثار الصفات البشرية النفسانية، وتجلت أنوار الكمالات [الربانية].

قال حضرة الشيخ: ينبغي للعارف أن ينظر إلى الخلق بنظر الجمع والتوحيد، وإلى نفسه بنظر الفرق والشريعة، فإذا فعل ذلك سلم من المكر، والأذى؛ فإن هذا النظر يمنعه عن الإطالة، فيسلم الناس من لسانه ويده، وينظرون أيضًا إلى فرقته وشريعه فيسلمون من الاعتراض، فيحصل النفع لكلا الجانبين، هذا مما ينبغي أن يحفظ بين أرباب الطريقة.

قال حضرة الشيخ في قول حضرة الشيخ الشهير بـ اقتادة - قدس سره- في بعض إلهياته التركية: [أهل عرفان ديديلرسن جقما ينجه اره دن بلمزسن كيمدد كندنى ينهان ايلين][(1)].

المراد بقوله: «سن» الإضافة إلى الكون، والمراد من قوله: «جقما ينجه» إسقاط تلك الإضافة؛ لأن التوحيد إسقاط الإضافات مطلقًا وجودًا وذاتًا، وصفةً وفعلاً، فافهم.

وأيضًا المراد بقوله: «سن» هو النسيان كما هو مذكور فيه بطريق التضمن، وهو برزخ بينك وبين المعرفة، فإذا خرج من البين ظهر العين وانفتح العين وارتفع العين، وليس للعبد حجاب غير الغفلة والنسيان.

قال حضرة الشيخ: الجمع في قوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٥٤] هم مظاهر الأسماء الجزئية، وجملة هذه تحت حيط اسم الله؛ فمكر الله غالب؛ لأنه يحيط ويحير؛ لأنه يمكر من حيث لا يدري الممكور، والممكور يمكر ولا يدري أنه يأخذ ذلك المكر من الماكر الحقيقي فأين هذا من ذلك!

قال حضرة الشيخ: التوحيد جحود في الحقيقة وإنكار؛ لأن توحيده سبحانه يوهم أن يكون له شريك ونظير وليس الأمر كذلك، فالنفي في كلمة:(لا إله إلاَّ الله) نفي الموجود المتوهم من الكثرات، أما في نفس الأمر فلا نفي ولا إثبات، ورأى

---

(١) كلام تركي.

بعض أحباب حضرة الشيخ في المنام حضرة الهدائي فقال له: إن قولنا (لا) بالنسبة إلى عالم الفرق، فليس له أي: لـ«لا» وجود في الحقيقة؛ لأن النفي متوهم.

قال حضرة الشيخ: النفس مطية كل سالك، وحق المطية أن يُعطي علفها في الليل والنهار بعد قطع الطريق في النهار، وكذا النفس يُعطي حظها من الغذاء على الاعتدال في الليل والنهار بعد الإمساك في النهار.

فالمطية الأولى تقطع الطريق الصوري على أقدام الصورة فتصل إلى المنزل.

والمطية الثانية تقطع الطريق المعنوي على أقدام المعنوي فتصل إلى المطلوب، فلا بدَّ من الحركة؛ فإن الفرق في السكون.

كنت عند حضرة الشيخ في ساحل النهر في دار السلطان محمد الرابع قبيل المغرب، وكان مدعوًا للوعظ والتذكير، فقلت: الحمد لله على أنه ليس لي رائحة لدعوى أصلاً وإنما بضاعتي الآن العجز والافتقار.

فقال حضرة الشيخ: نعوذ بالله من النفس ودعواها الجلية والخفية، فتفطنت على الفور أن في كلامه هذا نوعًا من التأديب لي خفيًّا، وذلك لأن مكر النفس وحيلها أخفى من دبيب النمل على الصخرة الصماء، فالدعوى عدم الدعوى، و«القول ما قالت حذام»[1].

قال حضرة الشيخ: من عرف نفسه من حيث إنه إجمال لتفصيل العالم، وفيه ما فيه، وعرف أن الأكوان صور الأسماء الإلهية عبارة عن الذات المطلقة عرف ربه عرفانًا لا يتداخله وهم ولا خيال، ولا يعتريه شرك ولا ضلال.

وقال حضرة الشيخ: التلوين تلوينان: تلوين قبل التحقيق وهو تلوين أهل الحجاب، وتلوين بعد التحقيق وهو تلوين أهل الكشف.

والتمكين أيضًا تمكينان: تمكين في التحقيق بعد التلوين وهو تمكين أهل الفناء، وتمكين في التلوين بعد التحقيق وهو تمكين أهل البقاء.

قال حضرة الشيخ: إن المريد في الشريعة من لا إرادة له؛ لأن الشريعة تثبت الإرادة لغير الله تعالى، والمريد في الحقيقة من لا إرادة له لأن الحقيقة في الباطن، وأثبت ما أثبتته الشريعة في الظاهر، ونفي ما نفته الحقيقة في الباطن حتى يكون عبدًا معتدلاً متوسطًا على مشرب الأنبياء العظام، ومذهب الأولياء الكرام من السابقين

---

(١) انظر: جمهرة الأمثال (١١٣١)، والمستقصي (٤٧٣).

المقربين، لكن اجتهد في أن تكون مريدًا في الحقيقة فانيًّا عن إرادة الدنيا والعقبى مطلقًا حتى تكون عبدًا مخلصًا وفانيًا عن إرادة المولى حتى تكون عبدا مخلَصًا بالفتح، فإذا كنت كذلك كنت عبدًا حقًّا مطلقًا حرًّا عن الرق جميعًا معدومًا بنفسه، موجودًا بربه، وكيلاً له ربه في الإرادة مطلقًا، يريد له ربه الدنيا والعقبى والمولى ،ويحصل له الكل بلا احتمال هلاك، ولا خطر، ومن كان كذا فأولئك هم المفلحون الفائزون الناجون مطلقًا، وهم الخالصون المخلصون ﴿أَلاَ للَّه الدِّينُ الخَالِصُ﴾ [الزمر:٣] ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٥] وهم الذين ورد فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٢].

قال حضرة الشيخ: إن إبراهيم عليه السلام له التحقق بجميع مراتب التوحيد من الأفعال، والصفات، والذات، وذلك؛ لأن الحجب الكلية ثلاث هي: المال والولد والبدن، فتوحيد الأفعال إنما يحصل بالفناء عن المال، وتوحيد الصفات بالفناء عن الولد، وتوحيد الذات بالفناء عن الجسم والروح، فتلك الحجب على الترتيب بمقابلة هذه المقامات عن التوحيد، فأخذ الله عن إبراهيم المال تحقيقا للتوحيد الأول، وابتلاه بذبح الولد تحقيقًا للتوحيد الثاني، وبجسم الروحي حين رمى به في نار نمرود تحقيقًا للتوحيد الثالث؛ فظهر من هذا كله فناؤه في الله، وبقاؤه بالله.

قال: واستلام الغنم أقوى من استلام سائر الحيوانات، وكذا كان الكبش فداء إسماعيل عليه السلام، ولذا أيضًا من رأى في المنام شاة من أرباب النهاية والوصول فرؤياه تدل على كمال الانقياد والتسليم، ومن رآها من أرباب البداية، فذلك يدل على حال الطبيعة والشهوة؛ لأن الطبيعة غالبة في الشاة، ومن رآها من أرباب التوسط؛ فإن أردت أن يحصل له الترقي والانجذاب إلى ما فوق مرتبته فعبرها بالاستلام، وإن أردت أن يحصل له الطهارة والتزكية فعبرها بالطبيعة.

ومثل هذا من اللطائف الجارية بين المريد والمرشد فشاء المريد الاستلام التام لشيخه كاستلام الشاة للذبح حتى ينال الفيض والحياة الحقانية.

قال حضرة الشيخ: جميع الأطعمة والأشربة يعبر بما هو كثيف ولطيف، فالكثيف إشارة إلى العلم الظاهر؛ لأنه مكون كالقشر من اللب كثيف، واللطيف والألطف إشارة إلى العلم الباطن؛ لأنه كاللب من القشر لطيف، ووجه التعبير بذلك هو أن الأغذية الجسمانية تقوي البدن على الأعمال والطاعات.

والأغذية الروحانية تقوى القلب والروح على التوجه إلى حضرة الذات.

والعلم الصوري كالغذاء الجسماني من حيث إن نفعه في ظواهر الأحكام.

والعلم الحقيقي كالغذاء الروحاني من أن نفعه في بواطن الأمور، فشرب اللبن في المنام بالنسبة إلى علماء الرسوم يعبر بزيادة العلم من حيث الظاهر، وبالنسبة إلى علماء الحقيقة يعبر بزيادة من حيث الباطن، ويعبر النفس اللبن بالنسبة إلى الطائفة الأولى، والزائد المشتمل هو عليه بالنسبة إلى الثانية.

قال حضرة الشيخ في قوله تعالى: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا**﴾ [الحديد:٢٧]: إن السنن النبوية مستنبطة عن الكتاب، وسنن أهل الولاية من السنة، والمقصود من الكل استكمال النفس علمًا وعملاً.

فإن قلت: ما وجه الزيادات الصادرة من مشايخ الطريقة؟

قلت: لأنه لما تباعد العهد منه ﷺ بعدت الأفهام عن درك الحق، وتضاعفت الحجب، وقست القلوب، وضعفت الاستعدادات، فزادوا هذه الزيادات عونًا للضعفاء على تحصيل مطالبهم، وإرشادا إلى ابتغاء الوسيلة بحسب المراتب، وما فعلوها من عند أنفسهم بل بإلهام الله تعالى، ولذا قال بعض الكبار: ما يصدر عن الواصل من الأفعال شريعة، وكذا الباقي فاعتبروا حفظ الإجمال لتنقل منه إلى تفصيل الحال.

قال حضرة الشيخ: المرئي في المرآة هو الوجود الظلي، والمرآة مجلاة، لكن الوجود الظلي أيضًا مرآة لحال المرآة من الاستدارة والاستطالة وغيرهما، فكما أن الوجود الظلي لا يدرى إلا في المرآة، فكذا لا يشاهد حال المرآة إلا في الوجود الظلي، ومن هنا قال العلماء بالله: إن الأكوان مرائي للوجود الظلي للأعيان الثابتة، فلا يشاهد فيها إلا ظل تلك الأعيان.

وكذا الموجودات الظلية مرائي للأكوان فلا تعطي إلا حالها وصورها، والوجود واحد في كل مظهر، لكن بحسب الرائي تختلف الأحوال فاختلافها لا يستلزم اختلاف الوجود، فكل من الوجود الظلي ومرائي خيال معدوم في حد ذاته كالمرآة والمرآة فيها، وإنما الوجود الحقيقي للأعيان بل للذات الأحدية فافهم.

ولا يتوهم أن الوجود قد انتقل من الأعيان إلى الأكوان والمرائي هو الوجود

الحقيقي؛ فإن الأعيان على ما كانت عليه، وليس في البين إلا الظل والخيال.

وقال حضرة الشيخ: أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، وكانت مدتها ستة أشهر على ما هو أدنى مدة الحمل، ثم جاء الملك فعبر عن المثال المقيد إلى المثال المطلق، ولذا نقول: إن تعبير الرؤيا إنما هو في النفس الأمارة واللوامة، فإذا وصل السالك إلى المهمة قل احتياجه إلى التعبير؛ لأنه حينئذ يكون ملهمًا من عند الله كما هو صريح قوله تعالى: ﴿**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ [الشمس:٨] فمرتبة الإلهام له كرتبة مجيء الملك للرسول ﷺ.

ويقال لعالم الرؤيا: عالم المثال المقيد بالنوم لتمثل الأشياء فيه، ويطلق على عالم الأرواح أيضًا لكنه لطيف بالنسبة إليه، كما أنه لطيف بالإضافة إلى عالم الأجسام.

واعلم أن الخيال هو في لسان القوم هو الحقيقة، فالخيال المطلق، والمثال المطلق شيء واحد، وهو ما تراه في اليقظة بالبصر، وهو العرش وما دونه من العناصر والمواليد، وكذا الخيال المقيد والمثال أمر واحد وهو عالم المنام وعالم الانسلاخ وعالم البرزخ، والانسلاخ قرن المنام في الرتبة؛ فإنه حال الكُمَّل.

ثم كان رسول الله ﷺ لا يأخذ الوحي إلا في حضرة الخيال المطلق أو المقيد بالانسلاخ، إلا أنه لا يبقى لأهل الانسلاخ إحساس لمعنى عنده أصلاً، ويعرض لجسده فتور، فإذا تم الأمر رجع إلى حاله وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ**﴾ [البقرة:٢٤٥] فالقبض إشارة إلى الانسلاخ، والبسط إلى العود إلى الحياة الأولى، فإذا قبضه بالانسلاخ بسط في حضرة المثال القيد، وإذا بسط بالرجوع قبضه في حضرة المثال المطلق، أو نقول: يقبضه من المثال المطلق، ويبسط في القيد، ويقبض في القيد، ويبسط في المطلق.

سألت حضرة الشيخ عن التوفيق بين قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [هود:٥٦] وبين قوله: ﴿**أَفَمَن يَمْشِي مُكِباً عَلَى وَجْهِهِ**﴾ [الملك: ٢٢] الآية.

فأفاد أن الأول إطلاقي حقيقي، والثاني تقييدي إضافي بالماشي مكبًا على وجهه على صراط مستقيم في الحقيقة، يمشي به ربه إلى غاية ما، وإن كان في الصورة على الضالية دون الاستقامة.

والحاصل أن الفرق يعتبر الضلال، والجمع يرفع الإشكال، والأول بحسب البداية، والثاني بحسب النهاية، ولا يلزم من الضلالة في البداية عدم الهداية في النهاية، فإن البداية والنهاية واحدة، كما أشار إليه قوله:«**سبقت رحمتي غضبي**»(١).

وقول حضرة الشيخ الهدائي في بعض الإلهيات التركية: [...](٢) وفيه تفصيل عجيب يحال على الذوق، فافهم، واثبت على الصراط المستقيم، ولا تكن من المكبين على وجوههم، واعتبروا الضلال ضلالاً، والهدى هدى؛ فإن الشريعة هادية إلى كل منهما، وإياك وسوء الظن في حق الصوفية؛ فإن مقالاتهم تحصيل معاني لا تدرك بالعقول، وإن كانت مستنبطة من النقول، والله الهادي، وعليه اعتمادي واستنادي.

قال حضرة الشيخ في قوله ﷺ: «**إن الله فرد يحب الفرد**»(٣): إن مقام الفردية يقتضي التثليث، فهو ذات وصفة وفعل، وأمر الإيجاد يبتني على ذلك، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [النحل: ٤٠] إرادة وقولاً، والقول بعد الإعلان باللقاء، فليس عند الحقيقة هناك قول، وإنما هو لقاء الموجِد -اسم فاعل- بالموجَد -اسم مفعول- وسريان هويته إليه، وظهور صفته وفعله فيه، فافهم هذه الدقة، فإنها إرادة عن مقام الحقيقة.

قال حضرة الشيخ: إذا قلت: **لا إله إلا الله**، فشاهد بالشهود الحقاني فناء أفعال الخلق، وصفاتهم، وذواتهم في أفعال الحق سبحانه، وصفاته، وذاته وهذا مقتضى الجمع والأحدية، وتلك الكلمة في الحقيقة إشارة إلى هذه المرتبة.

وإذا قلت: **محمد رسول الله** فشاهد بالشهود الحقاني أيضًا بقاء بأفعالهم وصفاتهم وذواتهم بأفعاله تعالى وصفاته وذاته، وهذا مقتضى الفرق والواحدية، وتلك الكلمة أيضًا في الحقيقة إشارة إلى هذه المرتبة، فإذا كان توحيد العبد على هذه المشاهدة فلا جرم أن توحيده يكون توحيدًا حقيقيًّا حقانيًّا لا رسميًّا نفسانيًّا، وفي تحت هذه العبارة من الإشارات الخفية ما لا تعد ولا تحصى، هدانا الله وإياكم إلى فتحها وذوقها.

وقال حضرة الشيخ في قول الهدائي- قدس سره - في بعض إلهياته التركية:

---

(١) رواه البخاري (٦٩٩٨)، ومسلم (٤٩٤٠).

(٢) كلام تركي.

(٣) ذكره المصنف في تفسيره (٢٥/٧)، (٤٢١/١١).

[غالب اولوب حب وطن، وحدت ديارنه كيدن، صيغمز ارايه جان وتن سريله سيرايتمك كرك] [1] المراد بلفظ «جان»: عالم الأرواح، وبلفظ «تن»: عالم الأشباح، وبلفظ «السر»: عالم الأمر الإلهي الذي يقابل الخلق المشار إليه بقوله تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ [الأعراف:٥٤] أشباح من الأجسام لكثافتهما بالنسبة إليه فلا يمكن سيره والدخول فيه إلا بعين السر أو القدم، فلا يصل إلى اللطيف إلا الألطف.

قال حضرة الشيخ: الليل إشارة إلى النفس الأمارة، والصبح الصادق إلى اللوامة، والإسفار جدًّا إلى الملهمة، وطلوع الشمس إلى المطمئنة.

وآية الأولى قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ﴾ [يوسف:٥٣].

وآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:٢].

وآية الثالثة قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا﴾ [الشمس:٨].

وآية الرابعة قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر:٢٧].

ولا يصل السالك إلى مرتبة النفس المطمئنة إلا بعد التجلي اليقيني الذي هو كطلوع الشمس، فكما عند طلوعها لا يبقى أثر من ظلمة الليل أصلاً فكذا عند التجلي العيني لا يبقى أثر من ظلمة النفس جدًّا بل تنكشف الحقيقة كما هي، وتطمئن النفس اطمئنانًا تامًّا كما قال عليّ -كرم الله وجهه: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا» [2] وذلك؛ لأن غطاء الكثرة لا يحجب الواصل عن مشاهدة الواحدة؛ لأنه قيامه دائمًا، وأنه يرى عرش الرحمن بارزًا، والنعيم والجحيم ظاهرًا، فالتجلي العيني يعطى هذا الكشف والشهود بخلاف التجلي العلمي؛ فإن له برازخ كثيرة، وصاحبه لا يأمن العاقبة؛ لأنه لم يتخلص من ظلمة ليل النفس قطعًا فله بقية النفس مطلقًا، وإذا تيقنت هذا، فاعلم أن سلوك الأنبياء -عليهم السلام- النفس المطمئنة إذ آخر مراتب الولاية أول مقامات النبوة، ولا يكون الولي وليًّا إلا بعد التجلي العيني، وهو مرتبة النفس المطمئنة، وهذا لا ينافي أن تكون نفوسهم أمارة بالقوة.

ألا ترى إلى قول يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]،

---

(١) كلام تركي.

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢٠٣/١٠)، وذكره علي القاري في «المصنوع» (١٤٩/١).

وقول نبينا عليه السلام: «**فإن شيطاني قد أسلم**»(١) وكل منهما قرين الآخر.

أقول: زلت في هذا أقدام أكثر السلاك، ويؤيد ما ذكرنا ما في «التأويلات النجمية» عند قوله تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ**﴾ [آل عمران:١٥٩] وهو أن النفس أمارة بالسوء، وإن كانت نفس الأنبياء -عليهم السلام- انتهى.

وكذا قول المولى الجامي في قوله تعالى:﴿**إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾ [الفرقان:٧٠] يعني: في الحكم؛ فإن الأعيان أنفسها لا تتبدل، ولكن تنقلب أحكامها، انتهى.

أي: كما ينقلب النحاس عن النحاسية إلى الفضية، والفضة منها إلى الذهبية بعلم الإكسير والعين واحدة، ومن فهم هنا رزق علمًا كثيرًا، هذا، ولا مراء مع أهل المرية، وليس وراء عبادته قربة.

قال حضرة الشيخ: الكامل الواصل إلى الله الفاني والباقي به مجرد عن كل لباس ومع ذلك فهو عند أهل لباس جسمانيين أو روحانيين، وهو التفاوت الحقيقي الذي صاحبه في الدرجة العليا من الجنة، كما أن صاحب النفاق الأصغر الحجازي في الدرك الأسفل من النار، وبين رفيع الدرجات وخفيض الدركات تقابل تام.

فإن قلت: ما معنى النفاق الحقيقي؟

قلت: إظهار الوجود المختلفة للتعينات المتكثرة بحسب نشأته، وإحاطة أسمائه وصفاته كما أن النفاق الشرعي إظهار الإيمان بوجه آخر.

قال حضرة الشيخ في قوله تعالى: ﴿**فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً**﴾: إن الله تعالى كان عنده، وهو وكيله، وخليفته في جميع أموره مما يأتي به ويذر، ومقتضى آداب العبودية أن يترك التصرف لله تعالى، ولا يتحرك بهمته إلى شيء لا إلى جانب وجوده، ولا إلى جانب عدمه، فاشتغال بعض الرجال بالاسم القهار مثلاً لحصول بعض آثار القهر كهلاك شخص ومرضه ونحو ذلك من الأغراض الفاسدة، والمطالب النفسانية ذهول عن حقيقة الأمر، ونزاع الملك، والعياذ بالله تعالى.

أقول: اتفق لي مرة في دار السلطنة القسطنطينية أن أجلس مجلس الوعظ في مجمع عظيم من مشايخ وفيهم حضرة الشيخ فصدر مني كلمات زاجرة تكلم منها النفوس والقلوب القاسية، فتألم منها بعض أهل الدعوى من الشيوخ الذين هم

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/٣٣١).

الشهرة التامة الكاذبة.

وقال: أما يخاف هذا الواعظ الشاب وله شيبة من توجهنا المستأصل له، فبلغني ذلك منه.

فقلت: ما أخاف؛ فإن المحيي والمميت هو الله، ودمر الله الباطل منا، فلم يلبث الخبيث كثيرًا حتى نفاه السلطان محمد الرابع بعد أن أراد قتله لكلمات كفرية صدرت منه ثم اهلكه الله، ودفع ابتلاء الناس به فإنه كان قد أفسد قلوب كثير من المسلمين.

قال حضرة الشيخ في القول الشهير: «من لم يؤدبه الأبوان أدبه الملوان»: الليل بمثابة الأم كما قيل: الليلة حبلى، والنهار بمنــزلة الأب، فالليلة كأنها حاملة، فإذا أصبحنا فكأنها ولدتنا، وسلمنا إلى تربية النهار، فلا يزال المرء يتقلب في نهاره على أنواع من التربية إلى مجيء الليل، فمن لم يؤدبه أبواه في الليل والنهار يؤدبه الحق فيما يقتضي الجمال والجلال.

سأل المولى خليل الشهير بـــ«عرب زاده» من علماء بلدة «أدرنة»: لم كان الكمال الملكي حضوريًا، وحصوله وقعيًا خلقيًا لا مكتسبًا والكمال الإنساني تدريجيًا اكتسابيًا؟

فأجاب حضرة الشيخ: بأن كمال الإنسان بجميع الجمال والجلال، دون كمال غيره، وأسماء الله تعالى إما جمالية متعلقة باللطف، وإما جلالية متعلقة بالقهر، وظهور أحكام الأسماء في الإنسان الكامل تدريجي لا دفعي ألا ترى أن الله تعالى لما تعرف لآدم بالإيجاد ناداه: «يا قدير» ثم تعرف له بتخصيص الإرادة، فناداه:«يا مريد»، وهكذا فكمال الإنسان كمال تدريجي يعني بالنسبة إلى النشأة العنصرية دفعي بالاعتبار إلى النشأة الروحانية، ومنه يعرف كون العلم حضوريًا وحصوليًّا؛ فإن كونه حضوريًا بالنسبة إلى مرتبة الروح، وكونه حصوليًّا بالنسبة إلى مرتبة الجسم، وإلى الأول يشير قوله تعالى حكاية عن إقرار العبودية: ﴿**قَالُوا بَلَى**﴾.

قوله تعالى: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾ [البقرة :٣١]؛ فإن هذا التعليم تذكير لما نسبه بعد تعلق الروح ببدنه ونـــزوله من عالم الأمر إلى عالم الخلق، فالعلم والكمال موجود بالفعل في الروح بالنسبة الأولى، وبالقوة بالنسبة الثانية، وبالكسب يتوصل إلى إخراجه بالقوة إلى الفعل.

ثم سأل: لماذا يطلق على النطفة الملقاة في الرحم نفسها جنينًا؟

فأجاب حضرة الشيخ: بأن من أسمائه حينئذ الأحد الجامع، والظاهر، والخالق، والباري وغيرها مما يناسب لتعينها، ونعني بالنطفة ما فيها من المادة الإنسانية قدر خردلة؛ فإن تلك الحبة هي التي يحصل منها العلوق، ولولا ذلك في أجزاء النطفة ما تكون الولد، وكذا عجب الذنب، وهو جزء من الأجزاء الإنسانية قدر خردلة بل أصغر لا يبلى ولا يفنى، وإن فنى سائر الأجزاء، ومنه يبدأ التركيب في النشأة الآخرة؛ فسبحان القادر القوي أنشأ الإنسان في النشأتين من جزء لا يتجزأ إشارة إلى أحديته، وتطبيقًا للآخر بالأول.

وإلى هذه الحبة إشارة في قوله تعالى:«**كنت كنـزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف**»(١) فإن لفظ «**حببت**» مشتمل على الحبة، ونفي بالحبة ذلك الجزء قدر أصغر خردلة.

قال حضرة الشيخ: المعرفة والمحبة يتفاضل أحدهما على الآخر بالاعتبار، فبينهما فرق، وذلك أن المعرفة بحسب التنـزل الرحماني كما يشير إليه قوله:«**كنت كنـزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف**»(٢) «قوله» تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات:٥٦] «لي» تفسيره بـ «يعرفون»؛ فكونه تعالى معروفًا باعثًا للمحبة، وعلة غائبة للخلق، والمحبة باعتبار الترقي الإنساني، وكون المرء عبدًا حقًا، ولذا كان رسول الله ﷺ حبيب الله فلا رتبة فوق كون العبد محبوبًا لأن المحبة باعتبار الفناء، والمحبوب باعتبار البقاء، وللبقاء فضيلة عظمى.

قال حضرة الشيخ: الفرق والجمع على مراتب، فأهل الغفلة والحجاب في الفرق الأول، وهو شهود الخلق بلا حق بعد الجمع والفناء الأول، وهو شهود الحق بلا حق، ثم بعده الفرق الثاني والبقاء الأول ثم بعده جمع الجمع والفناء، والبقاء الثاني وهو شهود الخلق في الخلق، وشهود الخلق في الحق من غير احتجاب بأكثر عن الوحدة وبالعكس، وعنده يظهر سر قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**﴾ [الشرح:١] وهذه - أي: مرتبة جمع الجمع- مرتبة جمع الذات والصفات، والأفعال بالفعل، والتحقق بأسرارها.

قال حضرة الشيخ: إن إسرافيل مظهر الحيـاة، وجبرائيـل مظهـر العلـم، وميكائيل مظهر الإرادة، وعزرائيل مظهر القدرة، وكذا الحرارة والرطوبة والـبرودة

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١٧٣/٢)، والمناوي في «التعاريف» (٥٦٨/١).

(٢) سبق تخريجه.

واليبوسة على الترتيب والحياة بمنـــزلة الذات بالنسبة إلى سائر الــصفات؛ لأنـــه لا واسطة بينها وبين الذات، والباقي تابع لها.

واعلم أن أكثر الأسماء إضافية، فالأول باعتبار الآخر، وبالعكس، وعلى المظاهر باعتبار الباطن وبالعكس، والمنتقم باعتبار العفو والغفور وبالعكس، وعلى هذا، وفي الحقيقة لا اسم ولا رسم ولا نعت، ومن هنا يقال: البحت والمجهول المطلق، وغير ذلك.

فإذا حصل للسالك الكمال التام، ووصل إلى مرتبة المخلصية بالفتح تجرد عن جميع الألبسة المعادية، وتعرى عن جميع الأسماء، ولكن المجازية فذاته إذ غنية عن العالمين لأنه عبد من كان غنيًا عن العالمين، ومن كان عبد الغني فلا جرم يكسب من غناه غنى يستغني به عما سواه، وإذا ارتفع الكثرات اتحد الحضرات، وإذا اتحد الحضرات ارتفع الظهور والخفاء فكان في عماء ما فوقه هواء ولاً تحته هواء، وصلنا الله وإياكم من العلم والغنى، وجعلنا وإياكم مجمع البحرين، وكشف عنا وعنكم غطاء الوجود، وحققنا وإياكم بحقيقة الشهود، فإنه مفيض الخير والجود.

وقال حضرة الشيخ في قوله تعالى: ﴿**لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ**﴾ [البقرة:٢٨٥]: إن كل ما دخل تحت الوجود من الجماد والنبات والحيوان والملك والجن والإنس وغيرها فهو مرسل من الله تعالى، أرسله بالفيض الأقدس الأقدم أي: عالم المعاني ثم بالفيض المقدس المقدم إلى عالم الأرواح والمثال والأجسام، فأهل التوحيد والشهود لا يفرقون في الحقيقة بين أحد من هذه الرسل؛ لأنها آثار، والآثار تستند إلى الأفعال، وهي إلى الصفات، وهي إلى الذات المرشد، فلم يبق إلا الهوية السارية في جميع الموجودات سريان المطلق في المقيد، لا على جهة الحلول والاتحاد، فلا موجود إلا هو.

قال حضرة الشيخ: في قول الهدائي - قدس سره - في بعض إلهياته التركية: «ايتمزسنك عاشقلرك ملك سليمانه تظروا» [1]: إنما لا يتعلق نظر العاشق الصادق إلى مُلك سليمان لأنه لا يليق بشأنه أن يؤثر المفضول على الفاضل، والسوى على المولى؛ فإن آثر فقد زاغ بصره وطغى، فلم يتحقق بالمعراج الحقيقي الأعلى في مقام: ﴿**قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾ [النجم:٩].

---

(١) كلام تركي.

أقول: وداود عليه السلام لم ينظر إلى ملك سليمان، ولذا رجح التسبيحة على ملكه العظيم، فهو في ملكه في عين التجرد، وأما التلبس بحسب الظاهر، فقد كان بإرادة الله تعالى، ومن دخل في أمر الحق فهو بالحق دائمًا فلا يشغله شأن عن شأن.

وأما صاحب المحمدية: [دانه كيم يدى كركوهرا ولسه ياتميم، ايتميم هركز نظر كوررايسم زرين جبال] (١) فلا يقدح في شأن آدم عليه السلام كما يزعمه بعض العامة.

والمقصود من هذا الكلام بيان همته العالية، وكذا قول الحافظ: «يدرم روضة جثت بدوكندم بفروحت ناحلف باشم لكز من بجوى نغروشم» (٢)، فإنه يشير إلى أن المطلب الأعلى هو الوصول إلى الله تعالى، فمن كان مطمح نظره ذلك فهو لا يلتفت إلى الجنة ونعيمها، فضلاً عن الدنيا ونسيمها؛ فإن ما سوى الله لا قدر له عند الله إلا قدر ما أذن الله، فافهم. ومنه يعرف معنى قول الشيخ الشهير بـ«يونس أمره»: [جنت جنت ديدكلرى برقاج اوله، برماج حورى اسنينه وبرسون إلى بكاسنى كرك سنى] (٣). فإن مراده تعظيم المولى الذي أنشأ ما شاء، لا تحقير الجنة، فمن قنع بالدنيا خسرت تجارته، ومن قنع بالآخرة ربحت صفقته، ومن قنع بالله عظمت بضاعته، واتسعت دولته، واستغنى غناء يستصغر عنده الدهر وقيمته، وإياك والطعن في أولياء الله؛ فإن تحت عباراتهم معاني مقصودة، وإن كان تنبئ بعض العبارات على غير ما ينبغي بالاعتبار الظاهر.

قال حضرة الشيخ: كان السلف يعدون سوء أخلاق نسائهم من سوء أخلاق أنفسهم، وذلك لأن المرأة إشارة إلى الطبيعة، والنفس والرجل إلى القلب والروح، والقلب قطع الوجود الإنساني، فمتى صلح، صلح الجسد بجميع قواه، ومتى فسد فسد الجسد كله بجميع قواه أيضًا، فسوء الأدب من طرف المرأة إشارة إلى بقية الوجود في طرف الرجل، فيحتاج إلى المجاهدة القوية إلى أن تحصل التزكية المعنوية والموافقة الأنفسية والآفاقية، ألا ترى أن النبي عليه السلام لما قوي توجهه بروحه إلى التسبيح والتحميد، سرى ذلك إلى أعضائه وقواه في الخارج، فلا جرم كانت تسبح تسبيحه عليه السلام.

---

(١) كلام تركي.

(٢) كلام تركي.

(٣) كلام تركي.

قال حضرة الشيخ الأكبر - قدس الله سره الأطهر: قد يظهر من الخليفة الأخذ لحكم من الله ما يخالف حديثًا ما في الحكم فيخيل أنه من الاجتهاد وليس كذلك، وإنما هذا الإمام لم يثبت عنده من جهة الكشف ذلك الخبر عن النبي، ولو ثبت الحكم به، وإن كان طريق الإسناد العدل بمقصوم الوهم مبدأ السهو والنسيان، ولا من النقل على المعنى الذي هو مبدأ التأويلات والتحريفات، فمثل هذا يقع من الخليفة اليوم، انتهى كلامه.

قال حضرة الشيخ في هذا المقام من كلام الفصوص: إن المريد الحقيقي لا يتخلص عن حقيقة الاعتراض إلا بعد إيمانه الكامل بأن مرشده هذه الخلافة والكشف؛ فانه يجوز أن يكون المرشد ممن له حظ أوفى من هذا المقام، فما يأتي ويذر إلا بما أعطاه الكشف الصحيح.

أقول: ذكر أن حضرة الشيخ المدعو بـــ «وفا القسطنطينة» - قدس سره- كان يصلي الظهر في آخر وقتها، وكان يجهر بالبسملة في الجهرية مع كونه حنفي المذهب لكن شأنه العالي يأبى أن يخالف الظواهر، فإنما فعل ما فعل بحسب الكشف الإلهي لا من عند نفسه، وكان فوق الكل في زمانه، فالطعن لمثله لا يثمر إلا التعب في الدنيا، والتنـــزيل في العقبى، عفا الله المولى.

قال حضرة الشيخ: الكلام مقلوب الكمال فآخر الكمال الكلام، كما أن أول الكلام الكمال؛ لأن أول التعينات الإلهية هو الهوية الذاتية، وآخرها الكلام، ولذا يقال الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام على الترتيب إلا أن أول ما يبدو في الجنين حسن السمع، ولذا منع في الشرع من وطئ الحامل المطلقة أو المتوفى عنها زوجها إلى أن تلد؛ لأن بالوطئ يزداد حس الجنين، فيكون كالسقي لحرث الغير، ثم بعد أن ولد يظهر حس البصر والكلام فآخر ما يظهر بعد الولادة هو البيان [...][1] يجرى في عالم الغيب، ومن فقد حسًّا فقد علمًا، ومن فقد علمًا فقد عيانًا، ومن لا عيان له لا حضور له، ومن لا حضور له لا حلاوة لطاعته.

قال حضرة الشيخ: النور والنار حقيقة واحدة إلا أن النور إذا اشتد ظهوره يسمى نارًا، فالنار مؤنث، والنور مذكر، وكما أن في آدم وحواء -عليهما السلام- سر البطون والظهور، وإن اختلف التشخص، فكذا في النور والنار، وإن تنوعت

(١) بياض بالأصل.

الصور، يعني أن حواء بطنت في آدم ثم ظهرت بزيادة صفة، والنار بطنت في النور ثم ظهرت كذلك، واختلاف صورهما لا يقدح في كون أحدهما عين الآخر في الحقيقة، وهنا سر عظيم في حق أهل النار ينفهم من قوله: «**سبقت رحمتي غضبي**»(١) ففي النار والغضب بطن النور والرحمة؛ لأنه في الفرع ما في الأصل، فافهم.

قال حضرة الشيخ: إن سهل بن عبد الله التستري - قدس سره- تمّ له أمر السلوك في صباوته لكمال لطافة حجابه، فلم يحتج إلى مدة طويلة بمجاهدة ورياضة عريضة، فإنه يختلف السلاك في الوصول إلى الله سرعةً وبطئًا بحسب لطافة الحجاب وكثافته، فروح الكامل سريعة التعلق ببدنه في التنــزيل الرحماني، فلا يمكث في العوالم مكث أرواح الناقصين ثم إذا تعلق ببدنه لا يسرع له الانتقال إلى المقصود من غير تعب، كما قال حضرة الشيخ الأكبر -قدس سره-: المجذوب من اختار الله له في الأزل البلوغ إليه بلا كسب ولا تعمل فوقع مفطور مع الفطر إليه بلا اجتهاد بدفع غيره عن مقتضى قصده، والمجذوب بعد السلوك هو من شغلته الأغيار عن الله زمانًا فلم يزل في علاج وجودها بتوفيق الله حتى أفناها، ولم يبق له سواه سبحانه، انتهى الكلام الأكبري في كتاب «تلقيح الأذهان».

قال حضرة الشيخ: الحلال عند الصوفية ما جاء من حيث لا يحتسب، بحيث لم يكن في حصوله حركة لا صوريه ولا فكرية، ولا يشترط فيه أن يكون من صالح أو غيره، وإليه الإشارة بقول حضرة الهدائي: [كله بريسنه كيم من غير طلب انى حقدن بيلور ارباب ادب](٢).

قال حضرة الشيخ في قول الهدائي في بعض إلهياته التركية: [كحوب فرما نيله بونجه عوالم كنوركن عالم انسانه كلدك](٣): إن الإنسان يعبر إلى المنازل حين نــزوله إلى هذا العالم، ويتعين بتعينها، ولا يقدح هذا التعين في حقيقته، ومثاله الأصلي، وآخر ما يصير إليه بعد عبوره من المولدات النطفية، والمتعين بتعينها، ثم يسوية الله بتركيب خاص في رحم الأم.

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) كلام تركي.
(٣) كلام تركي.

قال حضرة الشيخ الأكبر - قدس سره الأطهر: قرأ بعض أصحابه «إحياء العلوم» في مكة المكرمة، وأنه خطأ الإمام الغزالي في موضع من الإحياء مما يتعلق بالاعتقاديات، لكن يدل هذا التدريس والقرآن على عظم شأن ذلك الكتاب ومؤلفه، ولا يقدح فيه القدح المذكور بناء على تفاوت مقامات العارفين، وقد شهد له في بعض كتبه بأنه من رؤساء هذه الطريقة.

قال حضرة الشيخ: الاسم الثاني مجازي من حيث كونه ملفوظًا ومكتوبًا، وحقيقة الأطعمة والأشربة والمعاجين المتخذة للمريض من العقاقير المختلفة، كما أن قطب الوجود نفسه هو الاسم الأعظم في الحقيقة؛ فإن الاسم في الحقيقة هو التعين، والله تعالى مبجل في كل تعين بما يناسبه من الأسماء والصفات.

أقول: من أعجب ما قيل في هذا الباب قول «يونس أمره» الذي شهد له الرجال بالكمال في بعض كلماته التركية: [بتوردم يوسفي كنعان ايلنده بولندى يوسفم كنعان بولنمز][1].

فإنه يريد بهذا الكلام أنه قبل أن ينكشف عنه الغطاء كان محجوبًا عن إدراك جمال يوسف الحقيقي في أرض كنعان الكثرة، فلما ارتد بصيرًا بإلقاء قميص تجلى أنوار الجمال على وجه يوسف، ورأي جماله المنير، وغابت عنه كنعان يعني لم ير بعد هذا التجلي في المظاهر إلاَّ الهوية السارية في جميع الموجودات، ففقد ما وجده، ووجد ما فقده، بل كان المفقود عين الموجود، والموجود عين المفقود، وما ثم إلا كشف الغطاء، وإزالة الحجاب.

أقول: ضرب لهذا مثل، وهو أن الحيتان قال بعضها لبعض: سمعنا أن في المحل الفلاني حوتًا رأى الماء، فاجتمعت عنده، وسألت عنه: إنه قيل في حقك أنك رأيت الماء؟ فقال: أروني أن في هذا المحل غير الماء حتى أُريكم، فافهم الإشارة؛ فإنه ليس وراء عبادان قرية.

واشتكيتُ إلى حضرة الشيخ يومًا عن كثافة الحجاب فقال - من وجه العتاب: هذا ليس من كلام أهل الطريقة، وإنما اللائق بك أن تنظر إلى قوله تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف:٢٩] فتعبده وأنت عبدٌ حق لا أن تعبده لإزالة الحجاب، وظهور الحرارة للقلب، وحصول الكشف والعلوم والأذواق؛ فإن دنيا أهل

---

(١) كلام تركي.

الطريقة العلم الظاهر من القوانين والرسوم، وآخرهم العلم الباطن من الأذواق والكشف والتقيد بكليهما.

حجاب الأول: حجاب ظلماني.

وحجاب الثاني: حجاب نوراني، وأهل كل منهما محجوبون عن الحق، فإن الدنيا والآخرة حرامان على أهل الله، وإنما المنع والعطاء بيد الله، وينبغي لعبد الحق أن يكون المنع والعطاء سواء عنده، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ [الحديد:٢٣] فإن جذب المحبوب، ودفع المكروه من الشهوات عند أهل الله، فاترك التصرف بتصرف الحق فيك بما أراد، اللهم اجعلنا عبيدًا مطلقين، وبحقيقة العبودية متحققين.

قال حضرة الشيخ - بطريقة التوجه: عليك بالصوم كل يوم؛ فإنه طريقة أهل الحق، وحافظ على أوقاتك لا سيما الغدو والرواح فلا تغفل عن التوجه الإلهي عند الصباح إلى وقت الضحى، ومن العصر إلى وقت المغرب بمقتضى ظاهر قوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾ [الإنسان:٢٥].

فإذا جاء زمان الإفطار افطر بما تيسر لك من الحلال الطيب، ثم صلِّ المغرب صلاة الأوابين، ثم لا تشتغل بعدها إلاَّ بالذكر والفكر بالقلب الهيولاني الوجداني، وأخِّر الأكل إلى أن يقوم أهل الغفلة عن مائدهم، وعنده كُلْ قَدر ما يعتدل به مزاجك، ويسكن قلبك، ويقوى بدنك عن الطاعة إلى المساء الآتي، وما بين العشائين وقت شريف وزمان فتح وفيض ينبغي أن يصرف إلى المعاد لا إلى المعاش، وأن مخالفة الجمهور في وقت الطعام فهي مفيدة لنا إذ لا بدَّ من مخالفتهم في عاداتهم وأحوالهم؛ فإن طريقنا طريق الأصحاب ﷺ لا طريق أهل العرف.

قال حضرة الشيخ: إني إذا وصلت إلى مدينة «بروسة» فالزم مكانك ثلاث سنين وأخِّر الزيارة إلى تمام هذه المدة؛ فإن في التثليث سر الفردية ومن ثبت نبت.

أقول: كان يوصى بهذا جميع الخلفاء رعاية لهذا السر، وربما نسخ هذا بحسب المصلحة كما سيجيء، ووصَّى أن يكون وردي كل يوم جزءًا كاملاً من القرآن على ما هو عادته الشريفة، وهذا ما عدا الأوراد التي عينها لي حين المبايعة، وسمعت منه قبل وفاته بشهور أنه قال: لم أترك إلى الآن الورد الذي ألزمنيه شيخي، وأنا الآن كما كنت في خدمته قبل ولا أعرف لنفسي رتبة وفضلاً، وإن طال الأمد وكان ما

كان.

أقول: انظر إلى هذا الكامل كيف نظر إلى نفسه بالنظر الأول، وكيف حافظ على العهد المأخوذ إلى آخر العمر، فإن الطريق طريق النفس، وملازمة العلم والعمل واتباع الشيوخ وفي مدة العمر.

وفي الحديث: «**أفضل الأعمال أدومها وإن قل**»[١].

قال حضرة الشيخ: إذا تمَّ الحركات يحصل السكون، وعنده يعد السالك كاملاً؛ لأن أول الأمر كان سكونًا محضًا، وإلى أوله يرجع آخره قال تعالى في الحديث القدسي: «**كنت كنــزًا مخفيًّا، فأحببت أن أعرف؛ فخلقت الخلق**»[٢] فالخلق إنما يكون بحركة معنوية، فمنه يعتبر الحركة، وأما ما قيل لم يصل إلى سرٍّ المبدأ.

واعلم أن عبارة السكون والحركة إنما هي للتفهيم وإلا فليس هناك شيء منها.

* * *

(١) رواه البخاري (٥٩٨٣)، ومسلم (١٣٠٥).

(٢) سبق تخريجه.

الزيارة الثانية

هذه الزيارة وكذا ما بعدها وقعت بعد استيطاني في بلدة «بروسة»؛ فإن حضرة الشيخ استخلفني منها، وحدد الزيارة ثلاث سنين، ثم لما مضى سنة ونصف نسخ ذلك وأشار إليّ بالقدوم، فسرت إلى جانب القسطنطينية فلما وصلت إليها لم أجده - قدس سره - في داره، وصادفتُه في ساحل القلعة المعروفة بـ«حصار روم إيلي» وهو يتهيأ لدخول السفينة لحضور دعوة في بعض السواحل؛ فلما رآني تبسم واستبشر ورحب ودعا لي بالخير هنا؛ فقبَّلت يده الشريفة، ودخلت معه في السفينة، ثم سرنا إلى المقام المعروف بـ«يوشع» والحديقة المعروفة بـ «توقات» وسأل عن أحوالي وأحوال أهالي بروسة؛ فشكرت الله في ذلك، فقال: لا تكن زمانيًا ولا مكانيًا ثم تلا قوله تعالى: ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾ [البقرة:١١٥]، وسأل عن كيفية الوعظ، فقلت: تبعثني نفسي في بعض الأحيان على مقابلة بعض الوعاظ في مقالاتهم الفاسدة، قال: لا تفعل؛ فإن الله هو الذي يتولى الرفع، فادفع العمل باختيارك، وفوض أمرك إلى الله تعالى، ولا يصح إليهم ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**﴾ [الأنعام:١١٢]، فإذا جاء الوقت يرتفع الكدر بالكلية بأمر الله، دخلت مع حضرة الشيخ والمخاديم الكرام، وبعض الخواص في السفينة بعد العصر لزيارة بعض المقامات الساحلية فلمّا غربت الشمس، قال: هذا الوقت إشارة إلى التنـزل من المطمئنة إلى مرتبة الملهمة، وما بين العشائين إشارة إلى التنـزل إلى مرتبة اللوامة، ثم ما بعده إشارة إلى التنـزل إلى مرتبة الأمارة، ووقت الشافعي إشارة إلى الترقي من الأمارة إلى اللوامة، ووقت الحنفي إشارة إلى الترقي إلى الملهمة، ووقت الطلوع إشارة إلى الترقي إلى المطمئنة بحسب مراتبها إلى أول الغروب، ثم يعود الأمر على ما كان عليه، قال: آخر الليل إشارة إلى السكون الذاتي، والنهار إلى الحركة الصفاتية؛ فعند الليل يحصل التنـزل الجمال الذاتي، وعند النهار يحصل الترقي الصفاتي؛ لأن كل شيء يترقى من السكون إلى الحركة.

قال حضرة الشيخ: اعلم أن الخلق في إثبات ما سوى الله ونفيه على أربعة

أقسام:قسم يثبتونه مطلقًا اعتبارًا وحقيقةً على أنه غير الحق مطلقًا أي: على أنه ليس الموجود أصلاً لا حقيقةً ولا اعتبارًا، وهم العارفون المكاشفون، وقسم ينفونه حقيقةً، ويثبتونه اعتبارًا على أنه أصل الحق سبحانه، وهم المشاهدون والمعاينون، وقسم ينفونه حقيقةً، ويثبتونه اعتبارًا أيضًا لكن على أنه عين الحق سبحانه، وهم المحققون الواحدون، وهذا من مزالق الأقدام قبل التحقق بحقيقة هذا المقام هدانا الله وإياكم إلى قوم سبيل السلام، وبيده أزمة الأمور والأحكام.

قال الشيخ: كن هيولانيًا ووحدانيًا ثم انتظر الفيض الإلهي، ولا تنظر إلى شيءٍ أصلاً حتى مقامات الأنبياء والأولياء؛ فإنها تجليات بحقيقة، بل توجه إلى عالم الإطلاق، وصف باطنك عن علاقات الأنفس والآفاق؛ ليحصل تجلي الجزيل بحسب استعدادك، وأفض من الظاهر قدر مبلغ علمك كالبحر المالح، وأفض من الباطن حسبما يساعده عرفانك كالبحر العذب، ولكن كُن غنيًا عن الجملة غير الله تعالى ألا ترى أن الله تعالى أفاض على كلّ شيءٍ من الأشياء الموجودات ما هو مستعد له بحسب مرتبة مع أنه غني مطلق.

قال حضرة الشيخ: المرشد الكامل كتاب ناطق فما دام أمكن الوصول إليه وإلى صحبته ينبغي أن يكتفي بالكتاب الساكت؛ فإن تأثير الناطق أبلغ، وشكوت عن سوء الحال، فقال: لا تقل فإني تفكرت مرة في أحوال الكُمَّل فهان عليّ نفسي، واستولى عليّ الخوف العظيم، واستمر مقدار شهرين، وقيل لي وأنا في سُنة الجمعة: لا تخف؛ فإن الله تعالى لو لم يرد بك الخير لما وفقك لرؤية جمال وليه، وقد كنت خادم نعله زمانًا، وصحبت به أعوامًا، واعتقدته اعتقادًا تاما فذلك من العناية الأزلية في حقك يا حقي، فزال عني ما بي من الخوف الغالب، واعتدل حالي، والحمد لله تعالى، وأراد بالولي من هو مستغن عن التعريف – أعني: حضرة الشيخ قدس سره.

قال حضرة الشيخ: هذا الزمان زمان سكوت؛ فإنه قلمًا يوجد من يصلح للمكالمة من الفناء والصرف، ونظر إلى الأشجار في حول البحر؛ فقال: إن هذه الأشياء على ما كانت عليه في القدرة العلمية لا يجوز أن يكون على خلاف ما هي

عليه فيها، لكن كان ظاهر الحق باطنًا في الحضرة العينية، وباطنه ظاهرًا فظاهر الخلق باطن الحق، وباطن الخلق ظاهر الحق، ثم قال: انظر إلى هذه الأشجار؛ فإنها ثابتة في مكانها منذ ما خلقت، وهي على هذه الحالة إلى وقت فنائها، فلا بدَّ من ترك الحركة الإرادية في طريق الحق، ذكر حضرة الشيخ مراتب النفوس ومثّل لها بالأوقات المخصوصة من الليل والنهار ثم تلا قوله تعالى: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾** [آل عمران:١٩٠-١٩١]، فقال: المراد بالذكر القيامي توحيد الأفعال، وبالقعودي توحيد الصفات، وبالجنوبي توحيد الذات وتحقيقه أن القيام المستلزم الحركة إشارة إلى ما أشار إليه النهار، والقعود والاضطجاع المستلزمين للسكوت إشارة إلى ما أشار إليه الليل وقد سبق.

وسرنا إلى حصار روم أيلّي في القسطنطينة، فأمرني حضرة الشيخ بالوعظ والتذكير في جامع في السواحل فامتثلت، ثم لما تمّ المجلس وكان حاضرًا فقبّلت يده الشريفة فدعا لي بالخير ثم دخلنا السفينة، فجاء وقت المغرب فخرجنا إلى بعض السواحل فأشار إلي الإمام، ولما فرغنا من الصلاة أخذ يتكلم من المعارف، وأنجز الكلام إلى ذكر السلطان، واختلال الزمان بالظلم والعدوان والفساد والطغيان، وقرب زمان المهدي، وانقراض السلاطين العثمانية، فصلينا في جامع الحصار الذي بناه السلطان محمد الفاتح على شكل اسمه محمد، وأمر حضرة الشيخ خليفة الشيخ حسين أن يعظ الناس في ذلك الجامع ففعل فلمَّا جئنا إلى المنـــزل أحضر الشيخ جملة الإخوان، وقرأ عليهم رسالتي التي ألفتها في حق حضرة مخدومه السيد محمد الجودي -أبقاه الله تعالى - فسرَّ واستبشر، ودعا لجملة الإخوان بالخير والسعادة، ثم قال مخاطبًا الخليفة المذكور: أنتما كعيني هاتين، وأشار بيده إلى عينيه المباركتين، ثم أمرني بقراءة القرآن ثم بقراءة بعض الإلهيات الهدائي، ثم بالتلاوة ثانيًا ففعلنا فلمَّا جاء وقت الدعاء توقفت فيا، وعرضت ذلك على جنابه حتى يكون هو الداعي والباقي هو المؤمن، فقال: لا تفعل. فإني استخلفتك، ومن مواضع الخلافة مثل هذا الدعاء؛

فقبلت، وكان له في ذلك اليوم زيادة انبساط، فكان يوم عيد لنا أعطاني حضرة الشيخ ريحانة، وقال: فكن روحًا وريحانًا إلى أن قال: تكن بالله إنسانًا، ورمى حضرة الشيخ إلى بعض الوادي حصاة، وذلك بعد الإياب من بعد السير، فرميت أيضًا حصاة تحقيقًا للمتابعة والاقتداء جعلني الله تعالى وإياكم من السابقين في عبادة الاتباع، وساقني وإياكم إلى منازل الاتفاق والاجتماع.

واعلم أني لم أكتب في هذه الزيارة إلا قدرًا يسيرًا لقصر المدة؛ فإن حضرة الشيخ إنما استدعاني للملاقاة المحضة ثم أشار بالعود بعد ثلاثة أيام مع أن الكلمات ما هو مطوي عن البين لله الحمد [كده جان من معتكف حضرة....][1].

* * *

(١) كلام تركي.

الزيارة الثالثة

وقت هذه الزيارة في أوائل شوال من سنة ثمان وتسعين وألف، ووجدت حضرة الشيخ في البيت الفوقاني من مسكنه الجناني، فقال ما قال من المعارف، والنصائح الجليلة بعد سؤال الخاطر، وأفاد أن السلطان محمد رغب له وهو رغب عنه، وإن التعزز والتمدح بالملوك وصحبتهم لا يغني شيء؛ فإن العزة لله ولرسوله، ولن تمسك بما أمر به لا للمعرضين عن الحق والقاصرين نظرهم إلى ما سواه أقول كان أكثر علماء القسطنطينية المنتسبين إلى السلطان مفتخرين به غافلين عن الله حتى ألقوا على التزين بالزِّي المتلونة في مراكبهم وملابسهم ومساكنهم، ورأيت منهم من يقيم في داره ليلاً ونهارًا؛ ليجدوه عند الطلب من قبل السلطان ولوزرائه أحد يقول مفتخرًا: هذا البساط اللطيف مثلاً أعطانيه السلطان أو الوزير، والحمد لله على تجرد حضرة الشيخ؛ فإنه لم يقبل من أحد شيء ولو حصيرًا فإنه بلى حصير البيت الخارج فأراد بعض الزوار أن يجدده فلم يقبل فبقي إلى أن مات -روح الله روحه- وإنَّ السلطان محمد أراد أن يبني له خانقاها فلم يقبل، فقال: يكفيني ما أنا فيه من المسكن، وإن بعض أمراء البحر كلفه مرة بأن يدخله في سفينته الصغيرة المخصوصة به فلم يدخل لكونها مزخرفة منقشة بماء الذهب، وأنواع الأصباغ، وقال: يدخل فيها مَن كان حظه من الاسم الظاهر أوفر كالأمراء والأعيان، ولم أره قد ركب مركبًا وحوله جمع من الصوفية احترز عن الاحتشام واحتقار الدنيا، ولا قدر لها ولأهلها عند الله تعالى.

قال حضرة الشيخ: اكتب ما لاح ببالك، ولكن احترز شهرة الكلام والكتاب؛ فإن الخاطر بالبال يقتضي الظهور في وقت من الأوقات كالمطر سواء وقع في بلدة طيبة أو لا فلك إظهاره فقط.

قال حضرة الشيخ: إنَّ الكدر لا يرتفع عن الدنيا، وإنما يرتفع الكدر من قلوب أهل الحضور والصفاء. مثلاً: إن النار لا يرتفع إحراقها، وكذا الماء وإغراقه كما في حق إبراهيم وموسى - عليهما السلام - ثم تلا قوله تعالى: ﴿**يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ**﴾ [البقرة: ٣٥] المراد بآدم وحواء - بطريق الإشارة- هو آدم: الروح، وحواء: الطبيعة، وقد نهاهما الله عن التقرب من شجرة تدبير النفس في قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ**﴾ [الأعراف:١٩] فإنه ظلم، فظلمه كما قال تعالى:

﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢] فإن تدبير النفس تدبير سيئ وتدبير حسن فلا بد للسالك من أن يخرج عن تدبيره، ويكل الأمر إلى الله فيعرض عن المعاش، ويقبل إلى المعاد تمسكًا بالشريعة، وإلا فالعارف مجرد عن الأدبار في نفس الأمر.

وقال: إذا وقع القحط والغلاء؛ فإن الله تعالى يفتح من خزائن غيبه قدر ما يكفيه كما كان يفتح له حال الرخص؛ فإن المنة لله تعالى، ولا ينبغي للعبد أن يتوكل في فكر المعاش، ويغتم له؛ فإنه من الفضلة.

قال حضرة الشيخ: إنه محيط بالعوالم كلها، وهو أول ما ينكشف للسالك، قال: إنَّ سورة الإخلاص إشارة إلى حال النـــزول، وهو حال المجذوب فأولاً بقول: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ...﴾ [الإخلاص:١-٤] إلى آخر السورة، وحال الصعود يعتبر من الأُخراني، جانب، «هو» فيقول أولاً: ﴿لَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤] ثم يترقى إلى أن يقول: «هو» لكن لا ينبغي للسالك أن يكتفي بوجدان هو في القرآن بل ينبغي له أن يترقى إلى القرآن الفعلي فيشاهد هو في القرآن.

عرضت على حضرة الشيخ بعض اللوائح فدعا لي، وقال: جعل الله خيالك ولسانك مورد الكلام الإلهي، ولكن احترز أنت عن شهوة الكلام، قرأ القوال عند حضرة الشيخ الهدائي في بعض الإلهيات التركية: [كجوب صحراى عالمدن كذر قيل عرش اعظمدن خلاص أول درد ايله غمدن دكل ياهو وبامن هو] (١)

فقال: المراد من العبور من صحراء العالم هو التجاوز عن عالم الملك وسيره، وهو العالم الظلماني، ومن المرور من العرش الأعظم هو التجاوز عن عالم الملكوت وسيره، وهو العالم الروحاني، والكل من الكون في التعبد بكل منها كدر وغم لكونه ما سوى الله، والحضور في الوصول إلى المولى، والتجاوز إلى حضرة اللاهوت، ولذا قال: [خلاص أول دردله غمدن] (٢) ثم مدح حضرة الشيخ الهدائي، وأقواله الجامعة، وأثنى عليه بما يليق بمقامه، ثم أنجز الكلام إلى أن قال: إن النفس الإمارة نفس النفس الكافرة، والمؤمنون من أهل العموم ترقوا منها بإيمانهم إلى اللوامة، وعلماء الظاهر من أهل النظر والاستدلال عمومًا بقوا في اللوامة والملهمة، ولم ينحطوا إلى المطمئنة؛ لأنها

(١) ألفاظ باللغة التركية.

(٢) العبارة باللغة التركية.

نفس الأنبياء وكمل الأولياء، فإنهم تشرفوا بالوصول إليها، وإلى الراضية المرضية والصافية والفانية والباقية ثم تلا قوله تعالى:

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:٢٩-٣٠]، وقال: المراد من دخول الجنة: هو بقاء نفوس الكُمَّل لكونها فانية في الله باقية بالله هي النفوس الباقية، ولا أقول شموسهم في الدارين.

وقرأ البعض قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة:١١٥]؛ فقال: أي: المشرق الروحاني والمفرد الجسماني فأينما تولوا وتوجهوا وجوهكم من تنسمك بالجهتين مشمة ذاته المتجلية بجماله وجلاله.

قال حضرة الشيخ: من ولد في الليل يكون مظهر الذات الأحدية؛ لأن الليل محل الفناء والسكون، ومن ولد في النهار يكون مظهر الصفات؛ لأن النهار محل الظهور والحركة، وقد اختلف في أن رسول الله ﷺ ولد في الليل أم في النهار.

ثم قال: اليمين مظهر سر النهار؛ لأن أكثر البطش والأخذ بها، واليسار مظهر سر الليل، ولذا قل عملها وكفا الجنة مع النار والبدن مع الروح حيث إن الجنة والبدن مظهر الظهور في النار، والروح مظهر خلافه؛ فافهم جدًّا.

قال حضرة الشيخ: لا تحصل هذه الطريقة بالفنون بل بالجنون، ولا بد للسالك من الموت قبل الموت، والدخول في البرزخ والحشر والجنة حتى يحصل البقاء، ثم قال باللسان التركي: [بيلمك بولمق، والمق] (١).

الأول: علم اليقين، والثاني: عين اليقين، والثالث: حق اليقين.

سأل بعض الجلساء عن أحوال السفر؟

فقال حضرة الشيخ: النصر بيد الله ثم تلا قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران:٢٥]، وقال: إن لفظ «من» عام يتناول المؤمن والكافر، فتارة يمتحن المؤمنين، وتارة يشدد البلاء على الكافرين، وفي كل ذلك حكمة ومصلحة كما قال الله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران:٢٦]؛ فإنه لا شر بالنسبة إلى الله تعالى إنما هو بالنسبة إلى العباد، وجاء رجل يدعي تكميل الفنون؛ فسأل عن قوله ﷺ في دعاء الاستخارة: «**إن كنت تعلم**»(٢).

---

(١) ألفاظ باللغة التركية.

(٢) رواه البخاري (٣٩١/١).

فقال حضرة الشيخ: إن هذا الشك بالنسبة إلينا لا بالنسبة إلى الله؛ فإن العلم بالنسبة إليه وجد إذ لا رابط لا يطرأ عليه النسيان والشك.

ومعنى العبارة المذكورة: إن تعلق علمك وإرادتك، فلمَّا كان تعلق هذا العلم مشكوكًا بالنسبة إلى العبد عبر بكلمة الشك فسكت المدعي المنصف كأن القمر الحجر الصلد(١)، وفي فتح الباري: قوله: «**اللهم إن كنت تعلم**»(٢) فيه إشكال؛ لأن المؤمن يعلم قطعًا أن الله تعالى يعلم واجبه بأنه تردد في عمله ذلك أهل له اعتبار عند الله تعالى أولاً فكأنه قال إن كان عمل ذلك مقبولاً فأجب دعائي انتهى.

فما فضلوكم بهما من الغدوة تلا حضرة الشيخ قوله تعالى: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ**﴾ [الحجر:٩٩].

وقوله تعالى: ﴿**يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً**﴾ [الأنفال:٢٩].

وقوله تعالى: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً**﴾ [الإسراء:٧٩] فقال: إن الله تعالى أشار في هذه الآيات إلى ما يعود إلى جانب العبد حيث أسند إليه العبادة والتقوى والتهجد، وإلى ما يعود إلى جنابه تعالى، وهو إتيان اليقين منه والجعل والبعث؛ فلا بد للسالك من التقيد بما أمر به سواء حصل الموعود وهو مضمون الجزاء، ولم يحصل، مثلاً لو فرض أن عمره ألف سنة وأمر بالعبادة خمسمائة سنة ولم يحصل في هذه المدة اليقين في قوله تعالى: ﴿**حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ**﴾ [الحجر:٩٩] ينبغي ألا يجد لذلك في قلبه كدرًا أصلاً لمقتضى قوله تعالى: ﴿**لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ**﴾ [الحديد:٢٣].

ولو حصل له ذلك في الخمسمائة الأخرى إلى تمام الألف ينبغي ألا يجد لذلك صفاء قطعًا، بوفق قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ [الحديد:٢٣] فالمنع والعطاء بيد الله، وليس للعبد إلا العبودية المحضة، ثم قال: ولقوله: ﴿**حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ**﴾ [الحجر:٩٩]، وأمثاله فائدة، وهي التشريف.

قال حضرة الشيخ: علم الظاهر دنيا أهل السلوك، وعلم الباطن عقباهم، فلا بُد من الفناء عن الكل؛ لأن مطمح نظر أهل الله هو الله بل لا مطمح هناك؛ فإنه القيود، ثم قال: أهل الدنيا كثير وأهل العقبى قليل، وأهل المولى أقل من القليل وذلك

(١) هكذا في الأصل.

(٢) تقدم تخريجه.

كالسلاطين والملوك فإنهم أقل بالنسبة إلى الوزراء، وهم أقل بالنسبة إلى الأمراء، وهم أقل بالنسبة لسائر أرباب الجاه، وهم أقل بالنسبة إلى الرعايا.

جاء حضرة الشيخ إلى حجرتي التي عينها لي مدة إقامتي في داره العالية في هذه الزيارة وذلك يوم الخميس بعد العصر، فجلس إلى قريب من المغرب، وقال ما قال من المعارف العربية، ثم قال في آخر المجلس: قلت محبة مني إليك، ولذا جئت هناك يشدني بإرشاده يكفيني في الدنيا والآخرة، ودعا لي بالخير، ورأى حضرة الشيخ عندي مجموعة فيها بعض منظومة لي فقال لي: ما هذا؟ قلت: إنه لا مضايقة لي للكلام المنظوم والمنثور إلا أنه مزخرف؛ فقال: لا تقل هكذا؛ فإنه كفران للنعمة التي أنعم الله بها عليك، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، وقال: كل ما خطر ببالك من علم(١) فاكتبه منظومًا أو منثورًا، ولكن لا تلتفت إليه، فإن المطلب غيره: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى:٥] وتخلص من مصائب الطلب.

قال حضرة الشيخ: لا علي إلى صحبة أحد إلا أن يكون الإقبال من جانبه فاصحب به حينئذ لكن دع في الصحبة ما يليق بمقامه من الكلام وغيره؛ فإن الحضور فيه، قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

جلس حضرة الشيخ مجلس الوعظ والتذكير في جامع السلطان سليم الأول يوم الجمعة من شوال لسنة ثمان وتسعين وألف؛ ففسر قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]؛ فقال: أمر الله تعالى حبيبه ببيان عدم مساواة الخبيث، وهو المال الحرام بالطيب، وهو الحلال؛ لأن الحرام مردود، والحلال مقبول فهما لا يستويان أبدًا فكما أنهما كذلك فكذا طالبهما إذ طالب الخبيث خبيث، وطالب الطيب طيب، والله تعالى يسوق الطيب إلى الطيب، والخبيث إلى الخبيث كما قال: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦] والله تعالى لا ينظر إلى قلة الخبيث والطيب، ولا إلى كثرتهما، وإنما ينظر إلى الجودة فالطيب جيد وإن كان قليلاً، والخبيث رديء وإن كان كثيرًا.

ثم قال: والإشارة أن من العلوم والأخلاق والأعمال ما كان خبيثًا وما كان

---

(١) في الأصل: من غير تعمل، وبآثار المخطوط كشط.

طيبًا فلا يستوي ما كان منها خبيثًا بما كان طيبًا كالعلم الغير النافع والنافع، والأخلاق الحسنة وغير الحسنة والأعمال الصحيحة والفاسدة.

ثم قال بعد كلام طويل: إن الطيب في عرف أهل التصوف ما كان بلا فكر ولا حركة نفسانية سواء سبق من طرف صالح أو من طرف طالح لأنه ذَوق من حيث لا يحتسب وهو مقبول وخلافه مردود، ولا يعد في هذا الآن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

ثم قال: رائحة الجنة تُشم من مسيرة خمسمائة عام، ولكن مجرد الشم لا يستلزم دخول الجنة، وكذا جنة الحقيقة تُشم رائحتها من بعيد وبمجرده لا يلزم الوصول إلى الله تعالى؛ فإن بداية هذا الأمر ترى نهايته مع عدم التحقق بحقيقة بعد، والخلاص من النفس والشيطان على الحقيقة إنما يحصل في الدائرة السابقة وهي النفس الفانية، وهذا إنما يحصل في أربعين سنة، فلا تظنوا أيها الصوفية أن الأمر سهل.

أقول: كان المجلس روضة من رياض الجنة وأرجو من الله ألا يحرقني بنار الجلال، فإن داخل رياض الجنة ينبغي أن يكون أمينًا على كل حال.

قال حضرة الشيخ في قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ**﴾ [يوسف:٣٩]: هذا ترتيب أنيق؛ فإن الذات الأحدية تدفع بوحدها الكَثرة، وبقهرها الآثار فيضمحل الكل فلا يبقى سوى الألوهية.

قال حضرة الشيخ: أفعال الله تعالى ليست معللة بالأغراض، وإنه يفعل من قبيل لا علة ويرد لا لعلة ويتوهم القاصرون من ترتب بعض الأمور على بعض من حيث الظاهر كونها معللة لكن الأسباب لا تعتبر عند الحقيقة؛ لأن الأمور أسبابها مقدرة أزلاً فلا تأثير للأسباب الاستقلال.

قال عند ذكر بعض الحاضرين امرأة محبوسة في السجن: فأفاد أولاً أن كونها محبوسة مقدر أزلاً وإن لم يكن لها جرم، والحبس وإن كان له سبب صوري عند العوام لكن لا علة له عند الخواص.

ثم قال ما قال حضرة الشيخ في قوله: إذا أراد الله شيئا هيأ أسبابه مثلاً إذا أراد الله نصرة قوم يجعل لهم وزيرًا له قابلية الغالبية وكذا أتباعه، وإذا أراد هزيمتهم يجعل لهم واليًا له قابلية المغلوبية.

ثم قال: إذا وقع الفتح والنصرة ترى الناس فرحين مستبشرين، وإذا وقع خلافه

تراهم مغمومين منقصين وليس لهم في الحقيقة إلا الشكر عند ظهور اللطف والجمال والصبر والاستغفار عند ظهور القهر والجلال؛ فإنهم مأمورون بهذا لا بالفرح والغم على خلاف غيرها.

ثم قال: هذا آخر الزمان الذي يغلب الجلال فيه على الجمال، ولا حضور فيه إلا للمجرد رأى لصاحب تجريد وتفريد وهو الكامل المنتهي في المراتب؛ فإنه ينظر إلى القضاء الأزلي، وإن الله تعالى يحكم في ملكه دون ملك غيره وأنه لا يجري في ملكه إلا ما يشاء، ويقول الناس: إن مرادنا لم يحصل من جهة الفتح، وينقبضون من وقوع خلاف مرادهم مع أن الدافع من الكون مطلقًا هو ما تتعلق به الإرادة الإلهية فيلزم الاتباع بمراد الله تعالى فإنه خير محض كما قال تعالى: ﴿**تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنـــزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ**﴾ [آل عمران: ٢٦] أراد بالخير ما سبق من الإيتاء والنـــزع والإعزاز والإذلال فالكل بالنسبة إليه تعالى خير محض وإن كان الإيتاء والإعزاز خيرًا بالنسبة إلى الناس والنـــزع والإذلال شرًا.

قال حضرة الشيخ في قوله تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ (١)

---

(١) قال الشيخ المصنف: أي: بالقتل والصلب وقطع الأعراق كما فعل بابن منصور، قالوا: وكان قد جرى من الحلاج -قدس سره- كلام في مجلس حامد بن عباس وزير المقتدر بحضرة القاضي أبي عمر فأفتى بحل دمه، وكتب خطة بذلك وكتب معه من حضر المجلس من الفقهاء، وقال له الحلاج: ظهري حمى ودمى حرام، وما يحل لكم أن تتأولوا عليّ بما يبيحه وإنما اعتقادي الإسلام ومذهبي السنة وتفضيل الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين وبقية العشرة من الصحابة -رضى الله عنهم- ولي كتب فى السنة موجودة فى الوراقين، فالله الله فى دمى، ولم يزل يردد هذا القول وهم يكتبون خطوطهم إلى أن استكملوا ما احتاجوا إليه وانفضوا من المجلس وحمل الحلاج إلى السجن وكتب الوزير إلى المقتدر يخبره بما جرى فى المجلس، فعاد جواب المقتدر بأن القضاة إذا كانوا قد أفتوا بقتله، فليسلم إلى صاحب الشرطة وليتقدم بضربه ألف سوط، فإن مات وإلا فيضرب ألف سوط آخر، ثم ليضرب عنقه فسلمه الوزير إلى الشرطى، وقال له ما رسم به المقتدر. وقال أيضًا: إن لم يتلف بالضرب يقطع يده، ثم رجله ثم يحز رأسه وتحرق جثته، وإن خدعك، وقال لك: أنا أجري لك الفرات ودجلة ذهبًا وفضة، فلا تقبل منه ذلك ولا ترفع العقوبة عنه فتسلمه الشرطى ليلاً، وأصبح يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذي الحجة من سنة تسع وثلاثمائة، فأخرجه إلى باب الطاق وهو يتبختر فى قيوده واجتمع من العامة خلق لا يحصى عددهم وضربه الجلاد ألف سوط ولم يتأوه، ولما فرغ من ضربه قطع أطرافه الأربعة، ثم جزَّ رأسه، ثم أُحرقت جثته، ولما صار رمادًا =

[الأنعام: ٦٥]: لم يقل ليذيق الكافرين بأس المؤمنين، أو ليذيق المؤمنين بأس الكافرين، أو ليذيق الكافرين بعضهم بأس بعض أو ليذيق المؤمنين بأس بعض، بل أطلق في النظم ليتناول كل فريق، فإن الكل في ملكه، وهو يحيي ويميت أيًّا من كان في أي بلدة كان، فالمؤمنون والكافرون كاليدين لا ترجيح لإحداهما على الأخرى، ولا تأثير في الغلبة إلا بمرجح، فالله تعالى تارة يشدد المحنة على المؤمنين، وأخرى على الكافرين لحكمة ومصلحة كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤١] أي: ليميز المؤمنين من الكافرين والمخلصين من المنافقين على حسب أحوال بمقتضى علمه الأزلي القديم.

ثم قال حضرة الشيخ ليلة بعد الطعام: هذا الطعام ينبغي أن يراه العين وقت الأكل، ولا يخطر بالبال قبل الحضور إلا لكان شركًا خفيًّا، وربما رأى في المنام ما يتعلق بالمعاش، ولا يظهر أثره لكون مبناها الحركة الفكرية، وهي خفية جدًّا فربما ينكرها لخفائها، ذكر بعض الخلفاء بلدة صوفية وكون بعض النفوس الشرر متسلطًا على أهاليها؛ فقال حضرة الشيخ: إن التسخير مكر لأهل الشر خير لأهل الخير أقول في عبارته الوجيزة لطافة؛ لأن المكر قلب الكرم.

قال حضرة الشيخ: حروف التهجي بمرتبة الوجود في الشأن الغيبي، والحروف المركبة إلى أبجد بمرتبة الوجود العلمي، وأبجد بمرتبة الوجود في عالم الأرواح، وسائر المركبات بمرتبة الوجود في عالم الأجسام.

=

ألقاه فى دجلة ونصب الرأس ببغداد على الجسر وادعى بعض أصحابه أنه لم يقتل ولكن ألقى شبهه على عدو من أعداء الله تعالى، كما وقع فى حق عيسى -عليه السلام- والأولياء ورثة للأنبياء. يقول الفقير: لهذا التشبيه والتخييل نظائر فى حكايات المشايخ يجدها من تتبع قصدي ومرادي: بيان جوازه لا اعتقاد أنه كان كذلك، فإن قلت من حق ولاية الحلاج ألا يحترق ولا يكون رمادًا.

قلت: ذلك غير لازم فإن الأجساد مشتركة فى قبول العوارض والآفات، ألا ترى إلى حال أيوب ويحيى وغيرهما من الأنبياء- عليهم السلام- وقد ذكر أهل التفسير في أصحاب الرسِّ أنهم قتلوا الأنبياء المبعوثين إليهم وأكلوا لحومهم تمردًا وعنادًا ورسوا بئرهم بعظامهم، نعم قد يكون فى هذه النشأة أمور خارجة عن العادة خارقة كأحوال بعض الأنبياء والأولياء الذين قتلوا مثلاً، ثم أحياهم الله تعالى واما فى القبر فقد ثبت: أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ومن يليهم. وانظر: تفسير روح البيان (٣/٤٥٥).

قال حضرة الشيخ: سلوك بعض السالك مرتب كما في بعض الرسائل للشيخ الأكبر وسلوك بعضهم غير مرتب فالانفتاح أولاً على تقدير الترتيب يبدأ من عالم الكون والفساد واستماع كلام الجماد والنبات والحيوان وحركات الأفلاك والملائكة ثم يظهر عالم الغيب، والمعاني والمعتبر هو هذا الظهور الثاني؛ لأن ما عداه يتعلق بكون، فلا لطف في الكثافة بل هو قيد للأكثر.

ثم قال: وقد وقع سلوكي على غير ترتيب حيث انفتح أولاً حقائق الأفعال والصفات والذات وسر الحياة السارية في جميع الأكوان.

قال حضرة الشيخ: النار ترق في صورة التنـــزل؛ لأن باطن الجلال جمال فأهل النار أحديون، والجنة تنـــزل في صورة الترقي لأن باطن الجمال جلال، فأهل الجنة صفاتيون؛ لأن التنعم من مرتبة الصفات، وهي دون مرتبة الذات.

قال حضرة الشيخ في شرح بعض أهل الذوق جَفْر سيدنا علي رضي الله عنه وكرم وجهه- وقع الاتفاق على أن الله تعالى «**يبعث في رأس كل مائه سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها**»[1] كما في الحديث، وهم أهل الخير والتقى، وصاحب السيف، قال: إذا ظهر صاحب السيف يدفع فتنة القوم أولاً ثم الكفار، وأراد بالقوم السلطان وأتباعه السفهاء الأشقياء الظالمين المصادرين.

قال الشيخ: إن آدم كاشف عن شأنه الذاتي فسلك طريق الأدب حيث قال: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا**﴾ [الأعراف:٢٣]؛ فأسند الظلم إلى نفسه.

وأمَّا إبليس فلم يكن له ذلك، ولذلك قال الله تعالى: ﴿**فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي**﴾ [الأعراف:١٦] حيث أسند الإغواء إلى الله مع أن تلك العداوة كانت تأتيه في عينه العلمي وشأنه العيني فاقتضت فلذا أظهرها الله، ومن المحال أن يظهر الله ما ليس بثابت ولا مقدر.وقولهم: السعادة الأزلية والعناية الرحمانية قولُ من طريق الأدب، وجاء على طريق التفهيم وإلا فالاقتضاء أن تظهر لا محالة من الأزل إلى الأبد يعمل على شاكلته.

قال حضرة الشيخ: لا يصح الاقتداء بالجُنب، ويكره بالأعمى لعدم شرائطه وإنما يصح بالجنب الباطني، والأعمى بصيرته لوجود الشرائط في الظاهر، وقد ورد:

---

(١) تقدم تخريجه.

«صلوا خلف كل برٍّ وفاجر»[(١)].

قال حضرة الشيخ: الجيش جيشان؛ جيش في الظاهر، وجيش في الباطن، فجيش الظاهر صنفان؛ مؤمن وكافر فهما على التقابل والمقاتلة دائمًا.

وكذا جيش الباطن نوعان: ملك، وشيطان، ونفس فهما أيضًا على التضاد مهما يجد أحدهما الفرصة في ميدان القلب يستولى عليه.

قال حضرة الشيخ: سرُّ الإنسان يلزم من طور إلى طور إلهيا كان أو كونيًا إلى أن يتعين سويًا ويأخذ من جميع الأطوار خواصها وكيفياتها، وينصبغ بانصباغها فهذا هو النـــزول الأول، وفيه غفلة لغلبة الأحكام إلى الصبغ بها في مردوده على الأطوار ثم السالك الموفق يترقى من طور إلى طور، ويؤدي في كل طور ما أخذ منه قبل؛ لأن الله تعالى قال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا**﴾ [النساء:٥٨] ويصل إلى الفناء في الله وهو الخلوة مع الله، ومنه طريق الخلوتية فمن واقف هناك كأبي يزيد البسطامي، ومن نازل، والنازل أعلى من الواقف وبالعكس فعند نـــزوله يسير الأطوار كلها لكن بالوجود الحقاني فيحرز في مرتبة فنائه مرتبة الله أحد، وهي في بقائه مرتبة الله الصمد، فالفناء هو الجمع والبقاء هو الفرق الثاني، ويقال للمرور الأول على الأطوار: التحصيل؛ لأنه ينحل عن وجوده جميع ما عقد عليه قبل من الخواص، وللنـــزول الثاني: التقييد؛ لأنه يعقد عليه جميع ما حل عنه قبل، ثم مَثّل مثالاً بالهلال؛ فإن أول ما يبدو إشارة إلى الفناء، وكذا البدر إلى البقاء، ولا يزال في كل شهر من كونه هلالاً وبدرًا، وكذا لا يزال الكامل من الفناء والبقاء والصدر والنـــزول فحاله عين مظهر التجليات فيه حال الجلال حيث ينمحق عنه آثار الخلق وحين أفاقته وعوده منها حال البدر.

وقال: إن الكامل ينـــزل من الفناء إلى البقاء، ويقال له: الخلق الحقي، ثم قال بطريق اللطف: فاجتهد أنت يا حقي حتى تكون هكذا، ثم تبسم، وقال: إن شاء الله لا يضيع مخلصك الخفي، وفي كونك متلقبًا به حكمة ومصلحة.

وقد كنت قرأت عليه شيئًا من المعارف فأخذ يقرر الأسرار من العصر إلى صلاة المغرب حتى امتلأت القلوب والصدور بالذوق الروحاني والحمد لله تعالى.

قال حضرة الشيخ: أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام أن يا إبراهيم، خف مني

---

(١) رواه مسلم (١/١٦٨).

كما تخاف من السبع الضاري- وذلك أن السبع الضاري يفترس من غير تفرقة بين نفاع وضرار، ومن غير مبالاة، والله تعالى إذا قدر شيء وأمضاه في الأزل؛ فإنه يجريه في عالم التدبير من غير مبالاة، ولو علي ولي أو نبي عند تنفيذ قضائه يستوي الكل، ثم تلا حضرة الشيخ قوله تعالى: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً**﴾ [الإنسان: ١].

فقال: الحين حينان: أزلي وأبدي فهو لم يكن شيئًا مذكورًا في الحين الأزلي إلا أنه لا ينافي كونه شيئًا غير مذكور، يعني أنه وإن كان مذكورًا إلا أنه كان شيئًا ولذا أرسله الله تعالى إلى حين الأبد ليكون شيئًا مذكورًا.

قال حضرة الشيخ: عبد الله فوق عبد الرحمن، وهو فوق عبد الرحيم، وهو فوق عبد الكريم، ولذا جعل رسول الله ﷺ عبد الله، وكذا عبد الحي وعبد الحق أفضل الأسماء؛ لأن بعض الأسماء الإلهية يدل على الذات، وبعضها على الصفات، وبعضها على الأفعال، والأول أشرف من الثاني، وهو من الثالث.

قال حضرة الشيخ: بعضهم يسكر من الشرب من بيت الخمر، وبعضهم من رائحة الخمر، وفرق بين من يسكر من الخمر عينها، وبين من يسكر من رائحتها؛ فأهل البداية من أهل المكاشفة لم يسكر من الرائحة، وكذا كثير فيهم المدعون.

قال: الأفعال حجب ظلمانية، والصفات نورانية، والمتجاوز عن كلها واصل إلى الذات.

قال: ولا سلامة إلا في علم الصوفية؛ فإنه حق كله، بخلاف ما عداه؛ فإنه مشوب بالصواب والخطأ، وأكثر من ضلَّ من الفرق الضالة فهم أبعد من الحق خصوصًا المعتزلة، وأقرب من الحق هم المتكلمون.

قال حضرة الشيخ: ليس كل من رأى رسول الله ﷺ وكان مخاطبًا عرف حقيقة المراد منه، وإنما عرفه الخواص فكيف من بعد من القرون الأولى فجاء في آخر الزمان وأواخر القرون فاستشمامه رائحة الحق، ووصوله إلى السر المطلق بعيد إلا من ساعدتُه العناية الأزلية.

قال حضرة الشيخ الأكبر: إن حضرة القرآن قد بقي بكرًا ومراده بالنسبة إلى علماء الظاهر؛ فإن الذي فهموه من القرآن إنما هو ظاهره ومفهومه الأول وأما علماء الباطن فانتقلوا من المعاني الأول إلى الثواني ثم إلى الثوالث ثُمَّ وثُمَّ إلى أن وصلوا إلى الباطن السبعين، وعلماء الرسوم يحتاجون إلى ترتيب المقدمات فعلمهم تفكري،

وعلماء الحقيقة لا احتياج لهم إليه فعلمهم تذكري، ثم مثّل مثالاً بأن الطالب للماء، فإما أن يصل إلى الماء أو لا، فإن وصل فإما أن يكون ذلك الماء مالحًا أو عذبًا، فعلى تقدير كونه عذبًا فليس كالمطر بلا أسباب؛ فإنه طيب خالص فالأنبياء والأولياء ملهمون من عند الله تعالى ولا خطأ في الوحي والإلهام، ولذا نقول: إن علم التصوف هو العلم الصواب الحق كله ثم وصّى بخلوص المحل وألا يكون العبد أجيرًا بل عبدًا محضًا كما قال تعالى: ﴿**إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الشعراء:١٠٩] فالعبد الحق لا يرجو الأجر من عمله ولا يترقبه، بل من ربه، والأجير يرجوه من عمله ولو علم الأجير أنه لا يعطي لترك العمل ولو علم العبد ذلك لا يترك فهو من الخدمة والعبودية سواء أعطي أو منع.

قال: ومن السالك من يأخذه الله في أوائل عمره، وبعضهم يجذبه في أواسطه، قلت لحضرة الشيخ: ذهب العلماء إلى صدور بعض السهو عن النبي ﷺ كما نقل تلك الغرانيق الأولى، وأن شفاعتهن لترتجي ونحو ذلك، فقال: يفعل الله بهم ما يفعل: ﴿**لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [الأنبياء:٢٣]، ولم يقع سهو منه ﷺ في الحقيقة، وكونه سهوًا بالنظر إلى أرباب النظر لا يستدعي كونه سهوًا بالنظر إلى أصحاب الأعيان.

جاء حضرة الشيخ إلى حجرتي في داره العالية، وكنت مفطرًا بعذر الضيافة فجاء بعض المسافرين، ووضع كوز الماء في جنبي، فثقل ذلك علي، وأحسَّ الشيخ منه كوني مفطرًا، ثم لما حضر الطعام بعد المغرب وجلست جنب حضرة الشيخ على الوجه المعتاد، قال في أثناء الطعام مخاطبًا لهذا الفقير: كُلْ من الطعام على نية الصوم، والصلاة، وإحياء الليلة فعرفت أن فيه تأديبًا لي وتنبيهًا لطيفًا.

قال المولى الجامي: [....][١].

قال الشيخ: الآخرة قلب الدنيا، فالبصيرة الباطنة ظاهرة، وسألت عن قولهم في قوله تعالى: ﴿**لَن تَرَانِي**﴾ [الأعراف:١٤٣] أي: ببشريتك ووجودك؛ فقال: إن البشرية تنافي الرؤية، وموسى عليه السلام سأل الرؤية بالنظر إلى ظاهر البشرية والوجود وهي لا يمكن أبدًا بل لو تعلقت الرؤية بذات الله تعالى لتعلقت حالة الفناء في الله، واضمحلال الوجود والبشرية.

---

(١) عبارة تركية.

فقلت: يرد عليه ما وقع ليلة المعراج؛ فقال: إن حبيب الله عليه السلام رأى ربه في تلك الليلة بالسر والروح في صورة الجسم هناك؛ لأنه تجاوز في سيره من عالم الأجسام كلها بل من عالم الأرواح حتى وصل إلى عالم الأمر، فقلت: يرد أن الأنبياء والأولياء مشتركون في الرؤية بالبصيرة حالة الفناء فلا فرق إذًا بين موسى عليه السلام ومحمد عليه السلام فأي فائدة في قوله تعالى: ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣].

وأيضًا في عروجه عليه السلام إلى ما فوق العرش؛ فإن تلك الرؤية تحصل في مقام العينية والقلبية لا في الغيرية والقالبية؛ فقال: إن أمر الرؤية وإن كان محتاجًا إلى الانسلاخ التام عن الأكوان مطلقًا إلا أن الانسلاخ بالقلب والقالب مختص بنبينا عليه السلام؛ لأن موسى عليه السلام لو رأى ربه بالانسلاخ رأى وقالبه في عالم العناصر، وأمَّا محمد عليه السلام فقد تجاوز بالقلب والقالب عن عالم العناصر، ثم من عالم الطبيعة فأنى يكون هذا الخيرة، وفي هذا المقام تحقيق آخر جرى بيني وبين حضرة الشيخ، وذلك أن حضرة الهدائي - قدس سره - قال في مجلسه الشريف: استدل المعتزلة على مذهبهم بما ورد في الصحيحين عن أبي موسى: «جنتان من فضة لبنتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه[(١)]».

قالوا: إن الرداء حجاب بين المرتدي والناظرين فلا يمكن الرؤية، ولكنهم حجبوا من أن المرتدي لا يحتجب عن الحجاب إذ المراد بالوجه الذات، وبرداء الكبرياء هو العبد الكامل المخلوق على الصورة الجامعة للخلائق الإمكانية والإلهية والرداء هو الكبرياء وإضافته للبيان والكبرياء رداؤه الذي يلبسه عقول العلماء بالله فافهم انتهى كلام الهدائي في نفائس المجالس.

وحله على ما تلقفت من حضرة الشيخ أن قوله: ولكنهم حجبوا من أن المرتدي يحتجب عن الحجاب معناه أن المرآة لا تكون حجابًا للناظر، كما أن اللباس كذلك بالنسبة إلى البدن نفسه إذ لا واسطة بينهما، فالرداء من المرتدي بمنزلة المرآة من الناظر، وكذا المرتدي من الرداء بمنزلة الناظر من المرآة، إذا المراد بالوجه الذات بطريق إطلاق اسم الجزء على الكل كما في علي - كرم الله وجهه - ونحوه فالمرتدي هو الذات لا يحتجب عن حجابه عن الغير كالقناع للعروس، فإنه كشف

(١) رواه البخاري (٢٧١٠/٦)، ومسلم (١٦٣/١).

بالإضافة إليها إذ لا حائل في البين وحجاب بالنسبة إلى غيرها لكونه مانعًا عن رؤية وجهها وبرداء الكبرياء هو العبد، وهي الحقيقة المحمدية التي هي حقيقة الحقائق، ولكل موجود حصة من تلك الحقيقة بقدر قابليته لكنها في نفسها حقيقة واحدة إذ الواحد لا يصد عنه إلا واحد، وهي الوجود العام الشامل والهوية السارية في جميع الموجودات كالحيوان الناطق؛ فإنه معنى واحد عام شامل لجميع أفراد الإنسان، وكثرته بالنسبة إلى الأفراد لا تنافي وحدته الحقيقية وبالاستثناء في قوله عليه السلام:

«وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء على وجهه» صورة إنتاج تفيض المقدم على تقدير استثناء نقيض التالي؛ فمعناه إلا رداء: الكبرياء إن كان ذلك حجابًا لكنه ليس بحجاب فما بينهم وبين النظر حجاب أصلاً أي: لا حقيقة كل منهم التي تجلى الذات فيها بحسب صفاء مرآتها ومعرفتها وتلك حقيقة ليست بحجاب بين القوم وبين الذات الأحدية إذ ما وراء تلك الحقيقة مع قطع النظر عن التجلي فيها وكونها مرآة له إطلاق صرف لا يتعلق به رؤية راء أيًّا كان فكل ناظر ينكشف له جمال الذات من حقيقة ينظر إليه من تلك الحقيقة، وهي ليست بحجاب للنظر ولا للذات إذ هي كالمرآة للناظر فالنظر الظاهري قيد تام، وما وراء تلك الحقيقة من الذات إطلاق بحت فلا مناسبة بينهما بوجه من الوجوه، وتلك الحقيقة بين التقييد والإطلاق برزخ جامع لها كما قال عليه السلام:

«**من عرف نفسه فقد عرف ربه**»(١) فالعارف إذا لم يتعلق عرفانه بنفسه الكلية وحقيقته الجامعة لا يتأتى منه عرفان ربه؛ لأن ربه مطلق عن القيود والنسب، والإضافات، وهو بهذا الاعتبار لا تتعلق به المعرفة.

وأمَّا نفسه المتجلي فيها الرب بحقائق أسمائه فيتعلق بها تلك الرؤية من حيثية التجلي، فيكون حقيقة نفسه ومعرفتها مرآة ربه ومعرفته هذا، وإنما غلط من غلط بقياس الغائب على الشاهد، وهو ممنوع باطل إذ فرق بين الملك والملكوت، وكذا بين الملكوت والجبروت واللاهوت والكبرياء رداؤه الذي يلهمه عقول العلماء بالله أي للتفهيم لا لمعنى آخر، فلا رداء هناك حقيقةً، والعجب أن مثل هذا الإطلاق التشبيهي كثير في القرآن والحديث، وقد فهمه العرب بسليقتهم و لم يترددوا في ذلك أصلاً، ثم إن أهل الاعتزال قالوا لعمي بصيرتهم وسوء فهمهم ما قالوا، فأولئك هم المحرومون من الجمال الحقيقي إلا أنهم في مرية من لقاء ربهم.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٢٠٨/١٠).

الزيارة الرابعة

الزيارة في شوال من سنة تسع وتسعين لما دخلت السفينة من قصبة «مدانية» غلبني القيء، فعرفت أن زيارة حضرة الشيخ كما أنها سبب لزوال الأمراض الباطنة، كذلك سبب لزوال الأمراض الظاهرة؛ لأنه يحصل لي من قيء الصفراء المجتمعة على خفة بدن واعتدال مزاج.

ولما دخلت على حضرة الشيخ وذلك وقت تهيئة للجمعة قبيل الزوال عامل معاملة جميلة وذهبت معه إلى جامع السلطان سليم، فلما خلع نعليه عند باب الجامع أخذهما بيديه ورفعهما ووضعهما تحت الكرسي، وذلك من دأبه في أكثر الأيام فأشار به إلى أمور.

الأول: أنه فعل ذلك توصفًا كما فعل مثل هذا رسول الله ﷺ على ما هو اللائق بخلقه العظيم.

والثاني: إرشاد في رفع الكبر.

الثالث: تربية لمن خلفه من الصوفية فكان ذلك صورة غضب لما أن بعضهم تحادثوا خلفه و لم يك ذلك من الآداب، ولما جلس مجلس الوعظ قال عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:١٥]: إن المراد هو الإيمان المطلق سواء كان رسميًا بيانيًا أو شهوديًا عيانيًا.

فالأول: إيمان أهل الشريعة.

والثاني: إيمان أهل الحقيقة، وكلاهما معتبر مقبول يمنع لصاحبه عن الهالك.

وقال أيضًا: القيام الصلاتي إشارة إلى التقدير الأزلي، وهو التفويض والركوع إشارة إلى التدبير الأبدي، وهو التسليم والسجدة إشارة إلى الفناء الكلي عنهما إذ كما لابد من التخلق بمثل هذه الصفات لا بد من الفناء عنها.

دعاني حضرة الشيخ يوم السبت قبل الظهر إلى بيته الفوقاني، فسأل عن أحوالي فأظهرت الشكاية عن ضعف البدن وبعض الموانع الصورية؛ فقال: إن هذا حكم الوقت، والشيء إذا ثبت ثبت بلوازمه، وكل ذلك من لوازم ذلك.

ثم قال: اجتهد في طريق الحق حق الاجتهاد، وقُلْ كما قال يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣].

وكُنْ يوسف ثانيًا؛ فإن تفرقك سبب لانتظامك وجمعيتك، وما دبَّر الله لك

من الاضطراب فيعود إن شاء الله إلى السكون ويكون عاقبتك خيرًا.

عرضت على حضرة الشيخ بعد طعام العشاء قدومه الشريف إلى مدينة بروسة؛ فقال: لا، لا والنفس، وإن كانت تأمل ذلك وتحتظ منه إلا أنه ليس من حظ الروح وإلى الآن لا يقدم لي إلا الإقامة في داري وقد حصل لي ملال من الخروج؛ فقلت: أحبابكم منتظرون، فتبسم، وقال: من الأحباب فاهم؛ لأنه واحد لا اعتبار لهم، ثم قرأ قول حضرة الهدائي في بعض الإلهيات التركية [...] فقلت: كلامهم حق، فإن أهالي بروسة وإن كانوا على محبة في الظاهر لكن ليس في هذا الزمان قابل الألفة والاختلاط، فقال: منتقلاً إلى أسلوب أخر: لا نرجو الألفة والأنس من الخارج؛ فإنها لا تفني شيء بل تضمحل جميعًا، واجتهد أن تجد ذلك في نفسك؛ فإن من وجد ذاته واستأنس به لم يبق له حاجة إلى الخارج أصلاً بل يفنى عن السموات والأرض وما فيها ألا ترى إلى قوله عليه السلام: «**إن الله اتخذني خليلاً**»(1) وهو في الحقيقة اتخاذ ذاته في ذاته خليلاً ووجد أن ذلك الحضور في باطنه.

سأل حضرة الشيخ عن الأولاد، وقال: لِمَ لَمْ تجيء بولدك إسحاق؟

فقلت: إن والدته تمنعني من ذلك لصغره ولأنها لها علاقة به، ولقد كان لي علاقة بابنة لي، وكان يخطر ببالي إلى أن رأيت الانكسار من كل وجه، ووجدت كل ألم في الدنيا غير ألم موت الأولاد وانكساره، فماتت تلك البنت أيام هذه الخاطرة، فوجدت منه ما وجدت، فقال: تلك الخاطرة كانت من الرحمن؛ فإنه يحرك القلب ويفيض إليه أشياء، ويصدقه بعد ذلك وله الحكم في كل أمر.

قال حضرة الشيخ: الطريق الأسلم هو أن تحسن الظن إلى كل أحد، فإن كنت صادقًا فهو صادق، وإن كان كاذبًا فقد نجوت أيضًا وهلك هو.

قال حضرة الشيخ: الوصول في هذه الطريق لا يحصل إلا بالإخلاص ثم قرأ قوله تعالى: ﴿**أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ**﴾ [الزمر:٣]، قال: ابن الوقت لا بدَّ له أن يلازم وقته ولا ينظر إلى ما بين يديه وما خلفه، والسالك وإن كان يلاحظ التحرز عن كل شيء ولكن لابد له من وقت في المستقبل فما دام لم يجئ وأنه لا يتخلص عن الاضطراب فالاضطراب واقع، ولكن السكون مرهون بوقته لا يحصل قبله وإن قاسى كل شدة فإذا كان بالوقت فله التصرف في كل شيء والزمان تابع له حينئذٍ،

(١) رواه مسلم (١/٣٧٧).

وشكوت عن تعنت أهل البيت، فقال: إن الله يحملك على الصبر، والتحمل، فإذا تزكى نفسك عن الرذائل، واتصفت بالفضائل يرتفع الموانع مطلقًا.

سألت حضرة الشيخ أحوال أولاد المشايخ الكرام وأحفادهم حيث إنهم يقولون: إنَّا أولاد فلان العزيز فهل لهم فائدة في الافتخار بمجرد كونهم ذوي القربى من غير أن أحسابهم كأنسابهم؟ فقال: أما تعرف قوله تعالى في حق كنعان بن نوح: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:٤٦].

وفي المثنوي في حقه: [....][١].

قلت لحضرة الشيخ: هل يكون خليفتان في محل واحد؟

قال: ليس هذا من دأب السلف؛ لأنه كنفخ روحين في جسد واحد.

أقول: هذا إذا كان الخليفتان لشيخ واحد، وإذا كان لشيخين فلا بأس.

قلت لحضرة الشيخ: يجب الهجرة في رأس المائتين؛ لأنه يقرب فناء العالم حينئذ.

قال: الأصح أنها في رأس المائة الثالثة بعد الألف.

وقال: إن أمر الدنيا كالبدر وكالهلال من آدم إلى نبينا ﷺ ثم امتلأ الهلال فصار بدرًا، ثم عاد إلى مرتبة الهلالية قليلاً قليلاً، ولهذا ترى العالم على الاضطراب والفناء والزوال.

وأظهر حضرة الشيخ وجع السنّ والنــزلة؛ فقال: إن الله ابتلاني به منذ ثلاثين سنة، وذلك من تجلي الجلال.

فقلت: إن حضرة الشيخ الشهير باقتادة - قدس سره - ابتلي بوجع الكعب إلى آخر العمر، فقال: إن الله تعالى مرة يتجلى بالجمال، وأخرى بالجلال، وكلٌّ من بديع صنعه محبوب بكل وجه.

قال حضرة الشيخ: الكامل لا يخرج عن حكم الطبيعة والقلب والروح كسائر الناس لكن لا تلذذ بالنسبة إليه، ولا تألم بل هو مجرد عن القيود مستقر في مقام السر المحيط بالكل، قال: أول الأمر تجريد وآخره تجريد بل تفريد، ولا تخلق شيء أصلاً إلا أن يكون أهل برزخ وحجاب فيعلق.

قلت لحضرة الشيخ: أريد أن أقرأ عليكم «مفتاح الغيب» للصدر القونوي -

---

(١) كلام تركي.

قدس سره- فقال: لا حاجة فإنه للتشريف، وقد أعطاك الله الفهم والذوق فعليك بمطالعته.

قلت لحضرة الشيخ: إن الجلوتية في بروسة خلطوا الدور والرقص بطريقتهم فغيروها عن أصلها، فهل يكون دور الصوفية في هذا الزمان ورقصهم توحيدًا على الصفة التي كانوا عليها؟ فقال: لا فإن من لا أهلية له للدور مثل المرد وأهل الهوى كيف يكون فعلهم توحيدًا؟ وقد خلطوا الهوى بالهوى فاسد منه الحال.

أقول: كان حضرة الشيخ يرى الدور، ولكن ينكره في هذا الزمان، ويقول: قلَّ الأهل من القوال، وأهل التوحيد. ولذا ترك الكل في أواخر عمره، فلم يلتفت لا إلى الأقوال، ولا إلى عقد مجلس الذكر والتوحيد.

قال حضرة الشيخ: إن التمكن والسكون بعد اليقظة والوصول، فأهل الغفلة والدعوى يضربون الحديد البارد وتلذذهم مشوب بحكم الطبيعة والنفس، وهو حرام ولا اعتبار للعلم والعرفان القالي بل للحالي، وتقليد أهل الحقيقة في حكم الطبيعة مقبول؛ لأنه لدين مستحسن مجرد عن الحظوظ بخلاف تقليد أهل الطبيعة في حكم الحقيقة، فإنه مردود؛ لأنه تلوين مستقبح مشوب بالحظوظ، والتلوين غير جائز.

قال حضرة الشيخ: من كان متوجهًا إلى الله فالإمامة والخطابة ونحوها قيد له مانع عن توجهه، ومن استأنس بالحق تعالى لم يحتج إلى الاستئناس بالخلق؛ فالواعظ المعرض عن الحق يطلب كثرة الخلق في مجلس الوعظ، وكذا المدرس في حلقة درسه وكذا غيرهما، وأمَّا المقبل إلى الحق فليس له حاجة إلى الخلق أصلاً سواء قبلوا أو لم يقبلوا.

أعاد حضرة الشيخ وجع سنه، وقال: إن الله تعالى حفظني عن الأمراض مطلقًا إلا وجع السن فابتلاني؛ لأن به وفيه حكمة بالغة له فانظر من أين يجئ هذا الوجع؟ وكيف يجئ؟ وكيف ظهوره في أسنان الإنسان؟ فقد أسهرني ثلاث ليالٍ بحيث ما نمت قط إلى الصباح.

قال حضرة الشيخ في حق خليفة الشيخ حسين الفرائضي: وقد كان هاجر مع أهل بيته وقت استيلاء الكفار على [البلاد الرومية][1] فاستخلفه في قصبة إزميدان الآن في علم المجاهدة وحكمة التجلي بالقبض، فإذا جاء وقت البسط يبسط الله بحيث

---

(١) في الأصل باللغة التركية، وتم ترجمته.

يسخر الروح، والنفس إذا كانت مغصوبة بقي فيها أثر غصب لا يخلوها عن الانقباض، وإذا كانت مرحومة بتوسع رزقها من الاسم الرحمن.

قال حضرة الشيخ في وعظه عند قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [المائدة:١١]: لما أن الله تعالى كف شر الأعداء عند همتهم على الأنبياء، كذلك كف عن الأولياء فلكل ولي حصة من هذه الآية، وهو داخل في حكمها.

أقول: قرر حضرة الشيخ المقام بحيث أنفسهم منه أن ظلمة الزمان لا يقدح دون أن يهموا إليه بالقتل وكان كذلك؛ فإن الله عصمه من كيد الأعداء إلى آخر عمره مع زيادة جسارته على الكلام الحق من غير تفرقة بين وزير وسلطان وقاض وأعيان، ولذا كان يمدحه بعض الوزراء في خلواتهم بالشجاعة.

فإن قلت: كيف عصمه الله، وقد نُفِيَ في آخر عمره ومات منفيًا؟.

قلت: حفظُ البدنِ كاف في العصمة، وقد اضطر النبي ﷺ الهجرة مع العصمة والورثة كالرسل في أكثر الأحوال.

قال حضرة الشيخ بعد الطعام والدعاء ليلة الجمعة: مرضت مرة في سالف أيامي فرأيت كأن الروح تخرج من الجسد، فكان هو في محل والجسد في محل، ورأيت أن العلاقات جميعًا انقطعت عني وأن القوانين والعلوم الرسمية، فارقتني فلم يبق في دائرة الوجود شيء يشار إليه، وهكذا يكون وقت الاحتضار؛ فإن الرسوم تفنى وقتئذ بالكلية، وما يقال: حسن الخاتمة وسوء الخاتمة؛ فهو إشارة إلى الأُنس والوحشة عن الله فلا بدَّ من التجرد عما سوى الله بالكلية، وهو ما كان غير الذات مطلقًا سواء كان من التعينات الإلهية والكونية، فإن التعينات الإلهية يقال لها أيضًا ما سوى ولو بالنسبة فكل ما يطلق عليه ذلك قيد في نفس الأمر، ويظهر كونه قيدًا ولو بعد حين.

قال: وأنا نرى أكثر أهل الطريق في هذا الزمان ممكورين بحسب الأتباع والكراسي والوظائف والخانقاهات [......][1] ولم يتخلص إلا الذين جازوا الأوهام إلى العلوم، ومن المعلوم إلى العرفان، ومن العرفان إلى العيان، ومن العيان إلى العين، ومن العين إلى الحق؛ فما دام لم يصل السالك إلى الحق اليقين فهو ناقص، وإن كان

(١) بياض في الأصل.

كاملاً بالإضافة إلى غيره، والكامل والأكمل الذاتي هو أهل الهناء والبقاء فلا خوف عليهم، ولا هم يحزنون فتح العلم والعرفان الغير الحالي ثم تبسم، وقال قول الهدائي في بعض إلهياته[....][1] .

وقال: فأنت يا إسماعيل حقي تسمى نفسك سمي الذبيح، فهل كنت كذلك؟ ثم تبسم، وقال: تكون كذلك إن شاء الله تعالى.

قرأ حضرة الشيخ قوله تعالى: **﴿مَن يَرْتَدَّ منكُمْ عَن دينه فَسَوْفَ يَأْتي اللَّهُ بقَوْمٍ يُحبُّهُمْ وَيُحبُّونَهُ أَذلَّة عَلَى الْمُؤْمنينَ أَعزَّة عَلَى الكَافرينَ يُجَاهدُونَ في سَبيل اللَّه وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئمٍ﴾** [المائدة:٥٤] ثم قال: انظر كيف ذكر الله الموصوف وهو القوم فوصفه بالمحبة المطلقة وبغيرها من الأوصاف الجميلة وتخصيصها يستدعي أن أهل الحق هو من اتصف بها وخلافه من تخطاها.

ذكر حضرة الشيخ كرامات بعض الأولياء حتى قال: يحكي أنه في مرقد إبراهيم بن أدهم – قدس سره – ثقبة يخرج منها نحل، ويدخل غيره، فإذا أراد بعض ظلمة البلدة بسوء يتسلط ذلك النحل عليه إلى أن يتوب ويرجع عمَّا كان نوى وضع الله عجيب.

قال حضرة الشيخ بعد تلاوة قوله تعالى: **﴿لكَيْلا يَعْلَمَ منْ بَعْد علْمٍ شَيْئاً﴾** [الحج: ٥]: إن السالك إذا وصل إلى الحق لا يبقى له سوى الحق ويصير علمه جهلاً فيضمحل عنه اعتبار ما سوى الله تعالى وهو أرذل العمر في الحقيقة، فما دام لم يفن السالك عن القيود والاعتبارات، فهو ليس بهالك ولا يرى له كل شيء هالك، ثم قرأ قول الهدائي في بعض إلهياته التركية [......].

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالكٌ إلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨].

قال: المراد بالملك ملك الذات وملك الوصلة؛ فإنه لا يقدر أحد خذه عن يد صاحبه، ثم قرأ قوله أيضًا [..............].

وذكر حضرة الشيخ وفاة أبيه وحاله عند الاحتضار؛ فقال: بلغ إلي حيث لم يحس من نفسه أصلاً، وكانت والدتي تقطر في فيه بقطن مبلول ففتح والدي عينيه، وقال: يكفي يكفي مرتين؛ فإن الأنفاس قد نفدت، ثم قال: يا الله، وقبض تلك الساعة، قال: في الوجود الإنساني بذل خفي من الشهوات يظهر الشيطان عند

---

(١) كلام باللغة التركية.

الاحتضار ويمنيه نعوذ بالله من ذلك إلا أن يكون قد قطع عرق كل هوى وشهوة فلم يبق له ثمن أصلاً.

قال حضرة الشيخ: جاءني بائع من مدينة إزمير يحكي أنه وقع فيها في هذه السنة زلزلة عظيمة وإحراق كثير، وانهدام الأبنية بحيث بقى الخمس منها تحتها عشرون ألفًا من الرجال والنساء، قال: هذا من آثار قوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً**﴾ [الإسراء: ٥٨]، والقهر الإلهي لابد منه إذا قدر مضيه ونفاذه، وأهل التسليم لا يرون إلا القضاء والقدر.

وقال حضرة الشيخ: أحب لجميع الناس ما أحب لنفسي حتى أني أرضى لنفسي ولم ينبغي من الأهل والعيال الجوع والفقر، ولا أرضى لسائر الناس، فقد امتلأ بهذا المعنى صدري، ولا أقول إلا حقًا.

قال حضرة الشيخ: ففوض أمرك يا بُنيّ إلى الله تعالى لكن على حقيقة الإسلام والإيمان لا على مجرد العلم والعرفان؛ فإن الشيطان قادر على أن يفسر القرآن سبعين مرة مع أنه لا يغني عنه ذلك شيء ثم تلا قوله سبحانه وتعالى:

﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾ [آل عمران:١٩] عين حضرة الشيخ خليفة هو عثمان الجانيقي للقصبة التي يقال لها- بكى شهر- في نواحي بروسة، وقال لي بطريق المزاح: اذهب به إلى بروسة، وطهره تطهيرًا، وقد فوضت أمره إليك فاكسر أنف نفسه بالتربية.

قال حضرة الشيخ لبعض خدامه من الصوفية: قد يجيء إلى هنا بطريق الزيارة، بعض الناس المتعممين بالسواد، فلا تردوهم على أعقابهم خائبين، وكانوا كالبحر في التحمل ولا يضرنا مجيئهم.

أقول: وجه هذا أن بعض المتعممين بالأسود ممن له شهرة كاذبة كان يجيء حضرة الشيخ أحيانًا فدفعه بعض الصوفية مرة أو مرتين فشكا هو إلى الشيخ من معاملة الخدام فقال ذلك.

قال حضرة الشيخ: حادث كل شخص مبني على قديم فلا انقباض أصلاً، قال: الكامل من الإنسان يحيط بجميع المراتب فتارة يدخل في الظلمات وتارة يخرج إلى النور مع أنه لا يتقيد بشيء من ذلك أصلاً.

مثلاً: ينـــزل إلى مرتبة الطبيعة والنفس، وهي ظلمة ويترقى إلى مرتبة القلب

والروح، وهي نور مع أنه مطلق من الكل؛ لأن الله تعالى مطلق بالإطلاق الذاتي الحقيقي فلو تجلى على هذا الإطلاق لم يظهر وجود بل هو يتجلى على حسب حال المتجلي له.

وقال: الكامل لو لم يدخل في مراتب أهل القيود بل جلس في مرتبة الإطلاق لم يظهر تربية وتكميل أصلاً.

وقال: لو أن الله تعالى أدخل الليل في النهار، فجعل كل زمان نهارًا وكذا لو أدخل النهار في الليل فجعل كل وقت ليلاً لم يحصل للإنسان الكامل تلذذ ولا تكدر أصلاً؛ فإنه مطلق عن الكل قاعد في مقام التسليم.

قال حضرة الشيخ: قوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢] إن جعل التنوين للعوض يكون المعنى: ورضاء العبد من الله تعالى أكبر.

* * *

الزيارة الخامسة

سببها أن حضرة الشيخ دعاني على العجلة إلى جنابه، وذلك في أوائل جمادى الآخرة لسنة مائة وألف؛ فلما قدمت وجدته قد ذهب إلى جامع السلطان سليم للوعظ والتذكير فوقفت عند الباب حتى جاء؛ فقبَّلت يده التي هي يمين الله، ثم صلى العصر وسألني عن الشيخ إبراهيم خليفة في قصبة بوداينه، فقلت: إنه مات مقتولاً في محاربة حسين باشا مع كدك باشا في الجبل الذي وراء بروسة، فأشار بيده إلى أن كونه مقتولاً قد كنت رأيت على اللوح الأزلي، ثم قال: قد حملني على دعوتك الاشتياق إليك، ولكن إنما أحبك حقيقة إن كسرت صنمك ثم كسر الله صنمك ثم تبسم، وقال: هلا تدعوني بهذا الدعاء أيضًا، قرأ قوله تعالى: ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾ [إبراهيم: ٣٥].

قال حضرة الشيخ: لا ينبغي في ديارنا أكل السخلة قبل إدراك الموسم الذي يقال له: روز خضر؛ لأن لها مع أمها علاقة كلية فذبحها قبل وقتها قبيح.

وسئل عن حضرة الشيخ هل يحل أكل حرام يتبدل وصفه؟.

قال: إن تبدل الوصف وإن كان في تبدل العين في الفتوى، فإذًا يحل أكله لكن عند التقوى خبيث؛ لأن تبدل الخبيث خبيث.

وسُئل أيضًا: إن التكاليف السلطانية التي يأخذونها من الناس هل تقع موقع الزكاة إذا نواها أصحابها؟ قال: إن كان بطريق الكره والغصب كما في زماننا يصرفون إلى من ليس بمستحق له.

قال حضرة الشيخ: هل لك علاقة من بروسة أم أنت بائن منها؟

قلت: أسعى في البينونة والفراق عن كل شيء سوى الله تعالى، قال: كن هكذا وليكن علاقتك صوري بحسب الاقتضاء.

قرأ حضرة الشيخ قوله تعالى: ﴿**فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ**﴾ [النحل: ١١٣] ونرجو منه تعالى أن ينـــزعه، ويلبس لباس الأمر.

أقول: وجهه، وقع القحط في القسطنطينية سنين ثم رفعه الله، ووقع استيلاء الكفار على البلاد الرومية فلم يندفع إلى هذا الجمع.

قال حضرة الشيخ: أنا راض عنك أشد الرضا منذ قدمت إلى بلدة بروسة؛ لأنك اخترت طريق الفقر وتركت الترفه والتنعم، وطريقتنا هذه ليست طريقة الزينة

والشهرة والعيش والعشرة؛ فإن بقيت على هذه الحالة فسترى ما ترى.

أقول: لما أراد الشيخ أن يستخلفني في بلدة الإسكوب من الديار الرومية، وهي بلدة كبيرة كما سبق، دعاني، ودعا لي ووصى لي بوصايا غريبة حتى تلا قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] فقال: أنا أوصيك بالحق والصبر كما أوصى بها السلف، ولا أَقول لك: اذهب إلى الإسكوب واطلب المعاش، واتخذ الضيعة والحديقة والرحى، وابني خانقاها، وأكثر الأتباع، وكن إمامًا أو خطيبًا أو نحوهما؛ فإنه ليس بطريق الأصحاب – رضي الله عنهم – بل أقول لك: كُنْ على الحق واصبر كما صبر واظفر كما ظفروا؛ فإن انسدت طرق المعاش فاخدم للناس بالأجرة قدر ما يندفع به الضرر، وكن مستغنيًا عما في أيدي الناس، وعليك بالإبكار في كل مادة، فإن وسع الله عليك الدنيا فالبس من الحلال ما شئت بعد أن كان لباس الطريقة التجريد، واجعل زينتك لباس التقوى، وإني أرجو منك خدمة في باب الدين عظيمة.

ولما قدمت بلدة الإسكوب ساق الله إليّ أرزاقًا كثيرة من حيث لا احتسب، وكنت وقتئذ ابن ثلاث وعشرين فأخذت ألبس لباس الرخصة على ما رخص لي حضرة الشيخ بمقتضى الحداثة والشبيبة، وصبوة الشبيبة، واستمر ذلك عشر سنين إلى أن زرت حضرة شيخي في بلدة أدرنه، وعليَّ ثياب جُدد وألبسة فاخرة، فأراني يومًا شرحه على مفتاح الغيب للقونوي، وقال: طالع هذا إلى آخره؛ فانكشف لي أثناء المطالعة بعض المعاني الغيبية، وأخذني مرض مجهول، فكنت لا أقدر على الحركة أيامًا، وأراني الله وقتئذ رؤيا غريبة متعلقة بسر الخلافة، فكتبتها كتابة غريبة على ورقة، وعرضتها على حضرة من بيده بعد الخلفاء إذ كنت في بيت آخر بسبب المرض، فاستحسنها غاية الاستحسان، وتعجب من حسن الاستعداد، ومدحني عند الحاضرين لطفًا وكرمًا، وقال: ما أشغلته بها عن الله إلا أنه له حب الزينة الآن، فبلغني ذلك؛ فقلت: قد كان أجاز لي قبل عشر سنين من لباس الرخصة، فأخذت بقوله، فإن هو أمر بالترك و لم يرض بالزينة، فأنا عامل بإشارته قائل بوصيته، فنويت إن عافاني الله من مرضي إذ أستبدل بما علي الذي هو خير منه، فلما شفاني الله وعدت إلى مهاجري ومراعي قصبة «استروجة» خلعت ما علي كله، واخترت العباء ثم لما هاجرت إلى مدينة «بروسة» ووقعت الزيارة القبرصية كما سبق.

قال حضرة الشيخ: لا يخرج من هذه العباء على آخر العمر، وكان عليٌّ عباء أسود أكاسني بالكسوة البالية، وتحت عبائتي همم عالية، وإن ثيابي صوف من المثال، وهمته كالدرة الغالية.

ونقل حضرة الشيخ حسد الأعداء له حين كان بمدينة (فلبه) حتى اجتمعوا له مرارًا فلم يغن ذلك منهم شيء، ثم بين ما أضره من الفقر مع مجيء النقود والهدايا من الأطراف وأنه لم يقبل من الدنيا غير عباءة بالية.

قال حضرة الشيخ: ترك أبناء الزمان خصوصًا منهم المشايخ العمل بالكتاب والسنة وجعلوا قراءة الإلهي بدلاً من تلاوة القرآن وإلى الأمر على أن كل شاعر أخدان ينشئ إلهيًا، فاقتضى الحال أن نترك السنن التي كانت شعارًا لأهل البدعة والهوى والعرف والعادة، قال: ولذا تركت الرسوم.

قال حضرة الشيخ: الفرق بين الولي وغيره هو أن الولي كالمتيقظ الذي يحفظ متاعه من السارق فكذا أهل الغفلة.

قال حضرة الشيخ: الإنسان الكامل كالبحر فمن أذاه واغتابه أو قصد إليه بسوء فإنه تحمله، ولا يكون مراعاة خاطره مغيرًا منه، ألا ترى أن البول إذا وقع في البحر فالبحر لا يتنجس منه، وكذا من أجنب إذا دخل واغتسل فيه؛ فإنه يطهر ولا يتغير البحر فهو حاله في الطهارة.

قال: قد شابت لحيتنا فلا يليق بنا أن نتألم من شيء أصلاً، قال: ليكن مطمح نظرك الحشر؛ فإنك ترجع إليه ثم ليكن الصراط لأنك تعبر عنه، ثم ليكن الجنة لأنك تدخلها، ثم ليكن الكثيب الذي يكون عنده الزيارة الكبرى فهو الغاية ثم اجتهد أن تكون في دائرة الفناء التام فإن المقصود هو المعية مع الله لا بالجنة وغيرها.

قال: من أخذ السلوك يكون غريبًا في العالم كما قال ﷺ:

«كنت يتيمًا في الصغر، وغريبًا في الكبر فطوبى للغرباء»[1].

وقد انتخب النبي ﷺ الخلفاء الأربعة، ثم انتخب منهم الوزيرين، ثم أعرض عن الكل؛ لأن الله تعالى اتخذه خليلاً فلم يبق إلا الله.

قلت لحضرة الشيخ: أنا قد رأيتكم لكن رؤية اعتقاد، لا رؤية عمل وحال، قال: هذه الرؤية باب لرؤية العمل والحال والمقام؛ فإن العمدة هي الاعتقاد التام، فإذا حصل للمرء فقد وصل.

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

قلت: أنا لا أطلب الاستقلال في الدنيا والآخرة، ويكفي لي شرفًا أن أكون تحت لوائكم، قال: إن الاستقلال مخصوص بالله تعالى، والشرف في الاتباع، ولا زمان بدايتي اشتغل به الآن، وأنا الآن كما كنت في خدمته قبل، قال: الاعتقاد أمر عظيم حتى أن المرء يعرف الله ولا يعرف البشر، ومن سبَّ الله تعالى ربما تقبل توبته ولا يقبل توبة من سبَّ النبي ﷺ، والله تعالى يعرف بوساطة دلالة الأنبياء والأولياء، وحقيقتهم لا تعرف إلا بعد الوصول إلى الله، ثم قال: من عرف نفسه فقد عرف ربه، ناظر إلى الصورة والظاهر، وأمَّا في الحقيقة فمن عرف ربه عرف نفسه إذ لا يعرف النفس إلا بعد معرفة الله.

قال: إن الله إنما ستر الأولياء وحجبهم عن أبصار الخلق رحمة منه لهم، إذ لو عرفوهم لوجب عليهم الاعتقاد والإقرار والاتباع بهم، وعلى تقدير عدم القبول يلزم الهلاك ففي كونهم محجوبين عنهم رحمة لهم.

قال حضرة الشيخ: هل لك حضور في بروسة وأُنس بأهلها؟.

قلت: كان في اعتقادي أن أموت فيها، ولا يقع هجرة أخرى، وقد أذنتم في المهاجرة إلى المدينة أو مكة -شرفها الله تعالى- قال: ليكن القسطنطينة وبروسة وغيرها للخلائق، واجتهد ألا يكون لك أُنس بغير الله، وليكن نظرك إلى هنا، وأشار إلى صدره المنشرح؛ فإن ألهمك الله الإقامة فأقم وإلا فهاجر؛ فإن العمل في الطريقة بالإلهام والاستخارة لا بوساوس النفس الأمَّارة.

قلت لحضرة الشيخ: لم يبق لي ابتلاء غير المرأة وسُوء خُلقها، وأنا لا أريد أن أخلو عن الابتلاء بالمرأة؛ فإنه من باب التربية، قال: نعم فاصبر؛ فإن الصبر مفتاح الفرج.

قلت: فقد انقطع عني داعية التأهل منذ ما قلتم في السنة الماضية اختر التجرد أن تحب أهلك.

قال: ذلك من فضل الله حيث وفقك الله لقطع التعلقات، وجذبك بجذبات العناية، فأنت غالب على شهوتك، وهو مُراد الله تعالى.

قال حضرة الشيخ: إنكار العوام للأولياء كالشرك الجلي، وإنكار الخواص - يعني: أتباع المشايخ - كالشرك الخفي والاجتناب واجب عن كل منها، ولا يصدر مني إلا ما يتعلق بمرتبة كل أحد؛ فإن بعضه من بعض في صدر أتباعنا، غلب عليه إنكار لنا، فلذا وجب السر.

قلت: حفظني الله تعالى من عنفوان عمري عن إنكار شيء من أقوالكم وأفعالكم؛ فإنه قيل: كل ما يصدر عن الواصل فهو شريعة، فاعتقادي على أن كل ما يصدر منكم فهو شريعة جديدة، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ [المائدة:٤٩] وكيف لا نقبل هذه الشريعة الجديدة؟ وقد فضّلنا الله بإرسالكم إلينا، فتبسم حضرة الشيخ، وقال: أنت من هذه الطريقة على حقيقة فلا نكتم منك شيئًا.

قلت: كلامكم معي من تربيتي فيجوز أن تكتموا ما فوقها، وهو مرتبتكم، فتبسم أيضًا، وقال: الواصل هو الحاصل عند الله، وهو حقيقة الوصول وكل سالك إنما يتصور مرتبة الوصلة بقدر معرفته وحاله واستعداده، وأمن له فوت ذلك؛ فإن معنى الحصول لا يعرفه إلا من تحقق بهذه الرتبة، وكثير من السلاك يحل له العلم والعرفان، ولكن التحقق بالمقامات أمر آخر لا يتيسر إلا لواحد بعد واحد والمقصود هو المعرفة لا مجرد المعرفة.

قال حضرة الشيخ: الإيمان هو الله تعالى؛ لأنه اسم، وقد أعلم الله في هذا الشتاء كفري على الحقيقة.

قلت: هذا الكفر مما يغبط به أهل الإيمان قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ [البقرة:٢٥٦] فتبسم، وقال: إن مرتبة الصلاح مرتبة عظمى ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦].

قال حضرة الشيخ: لا يزول الابتلاء ما دام الإنسان في عالم الإمكان قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف:١٦٨] فكما أن الإمكان لا يزول فكذا الابتلاء لكن محله الدنيا فالإمكان لا يزول عن الممكن ولو كان في الجنة إلا أنه لا ابتلاء فيها، فباطن الإنسان الكامل وإن كان على سير غير سير العوام لكنه في الظاهر دائرهم، فلذا يبتلى بما ابتلوا به من الأمراض والأوجاع والموت والحشر.

جاء حضرة الشيخ إلى حجرتي التي عينها لي في داره العالية، فجرى ما جرى من الصحبة، ثم قال: هل لك مسواك؟ قلت: نعم، قال: إن لم يكن لك مسواك أعطيتك مسواكًا رقيقًا لطيفًا يناسب ظرافتك ولطافتك؛ فإني أستعمل غليظًا.

قلت: أعطوني فإني أتبرك به بل أوصى بأن يجعل في كفني بعد وفاتي تبركًا؛

فإنه قد مس يدكم المباركة التي حرمها الله على النار؛ فقال ما قال، والحمد لله الملك المتعال أقول: ذلك المسواك الشريف النظيف عندي الآن جعلت عليه علامة ليجعل في كفني، قال في «الأسرار المحمدية»: لو وضع شعر رسول الله ﷺ أو عصاه أو سوطه على قبر عاصٍ لنجا ذلك المذنب ببركات تلك الزخيرة من العذاب، وإن كان في دار إنسان أو بلدة لا يصيب سكانها بلاء ببركاتها، وإن لم يشعروا به ومن هذا القبيل ماء زمزم والكفن المبلول به وبطانة أستار الكعبة والتكفن فيها.

قال الإمام الغزالي: إذا أردت مثالاً في الخارجِ؛ فاعلم أن كل من أطاع سلطانًا وعظم، فإذا دخل بلدته ورأى فيها سهمًا أو سوطًا له، فإنه يعظم تلك البلدة وأهلها فالملائكة يعظمون النبي عليه السلام فإذا رأوا زخائره في دار أو بلدة أو قرية عظموا صاحبه، وخفضوا عنه العذاب، ولذلك السبب ينفعِ الموتى بوضع المصاحف على قُبورهم، ويُتلى عليهم القرآن ويكتب القرآن على القراطيس، وتوضع في أيدي الموتى انتهى.

قال حضرة الشيخ: العلم في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر:٢٨].

وفي قوله عليه السلام: «**العلماء ورثة الأنبياء**»[1] مصروف إلى الفرد الكامل، وهو علم الشريعة والحقيقة معًا؛ فإن حقيقة الخشية وحقيقة الوراثة إنما تحصل من جمع بين العلمين فهو العالم حقيقة ومن سواه من علوم الرسوم عالم صورة، والعالم الحقيقي يرى جميع ما في الكون كأعضاء بدنه فلا يقصده بسوء ولا يحسده؛ لأن المرء لا يرضى أن يعرضه آفة على عضو من أعضائه، وأن يزول نعمته، والعالم الصوري ليس كذلك.

وعظ حضرة الشيخ في جامع السلطان بايزيد الواقع في القسطنطينية فحقق قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم**﴾ [التوبة:١١]، ورغَّب الناس إلى الجهاد ترغيبًا بليغًا، وقال: إن الله تعالى جعل ذاته مشتريًا، وعباده المؤمنين لا الكافرين بائعين، والأنفس والأموال سلعة بيعه والجنة ثمنًا، ووعد وهو لا يخلف وعده كما قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ**﴾ [التوبة:١١١] ولا كلام فيه، وإنما الكلام في وفاء العباد؛ فإنهم قبلوا هذا العقد في عالم الأزل والأرواح ثم نقض من نقضه.

---

(١) رواه أبو داود (٣/٣١٧)، والترمذي (٥/٤٨)، وابن ماجه (١/٨١).

قال: لا يكفي للمرء أن يقول: أصف بالله تعالى بدون أن يحقق إيمانه بما أمر به من قبل الله تعالى من الجهاد وغيره؛ فإذا امتثل إلى الأمر، وخرج إلى الجهاد، ووفى بعهده فقد خرج عن عهده الذي ألزم عليه فحاسب نفسه قبل أن يحاسبه، فلذا لا حساب على الشهيد ولا سؤال؛ لأن الملكين أنما يسألان الشخص عن دينه وما يتعلق به، فإذا كمل دينه لم يبق للسؤال وجه أصلاً.

قال حضرة الشيخ: العرش وما حواه من العوالم كلها تعينات جسمانية، وما فوقه تعينات روحانية وكل منها حادث، وما فوقها مرتبة الأعيان الثابتة، وما وراءها عالم الغيب والشئون، قال: الهوية المنفهمة من قوله تعالى «هو» في:

﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص:١]، وهو الله محيط بالكل إحاطة لا يحيط بها إلا أهل المكاشفة والمشاهدة والمعاينة، لكن لا تعين ولا تعين في الحقيقة؛ فإن الله تعالى منـــزه عن كليهما كما قال حضرة الشيخ الهدائي في بعض إلهيات التركية[...].

قال المولى الكبير الشيخ محمد الجودي ابن حضرة الشيخ مخاطبًا له: يا أبي إن إسماعيل حقي يُشير إلى هذا الفقير قد وعظ اليوم في جامع سلطان سليم مقامكم كما أمرتم، قال داعيًا: جعله الله مباركًا وأيده وقواه وجعله من أهل عنايته، ثم التفت إليّ فقال: كنت قبل الهجرة إلى بروسة في طرف يمني والآن في سويداء قلبي، يعني: كملت العلاقة والمحبة بسبب تلك الهجرة، وأخذك بطريق الفقر والفناء، والمأمول منك هو الخير يعني: الإيمان والإسلام الحقيقي، فاجتهد حتى تتخلص عن القيود الظاهرة والباطنة، وكُنْ فانيًا عن جميع ما سوى الله، ثم دعا لي مرارًا، وقال: إن شيخي قد دعا لي، وقال مرة: يجيء منك أنفاس الشيخ الأكبر - قدس سره - والحمد لله تعالى قد يسر الله لسان الشيخ، وأسلكني مسلكه، ثم قال مخاطبًا لي: جعل الله حالك وقولك فوق هذه وأشار إلى حاشية في يده المباركة، وهي حاشية تفسير الفاتحة للقونوي كما سبق.

قال حضرة الشيخ: راع المراتب مما سماه الله تعالى غيرًا، وعلى التعينات والظهورات فسمِّه أنت أيضًا غيرًا، وما سماه الله تعالى عينًا، فسمه أنت أيضًا عينًا، ولا يخلو أحدهما بالآخر، وراع الجمع والفرق حتى لا تقع في ورطة الإلحاد والزندقة، ثم قال: أيدني الله تعالى من أول سلوكي إلى الآن بالكتاب والسنة؛ فعلمي هو العلم الظاهر والباطن لا غير، ولم يقع مني بفضل الله إلحاد غير أنه وقع لي مرة محو الفرق

في الجمع، وكان مقدار طرفة عين، ثم أُيدت من عند الله، فجئت إلى الفرق، ثم قال: فإن كنت تسأل عن شيخك وحقيقته، فإن له كرامات علمية لا مكاشفات كونية فليس لي اطلاع على أحوال أهل القبور، ولا على الضمائر ونحوها، ولا أعرف مني بعزل السلطان أو الوزير أو غيرهما ومتى يموت، ولا أعرف ماذا يكون غدًا؟ قال: إن واحدًا من السادات أراد أن يعلمني علم الجفر فلم أرد؛ لأنه لا بفائدة في معرفة ما سيقع بعد أربعين سنة، وكان حضرة الشيخ الأكبر جفارًا وفاقًا جدًّا لو كان حيا، وأراد أن يعلمني الجَفْر والوِفْق ما طلبت؛ لأنهما وأمثالهما لا يتعلقان بالعلم الإلهي، ولم يخلق الله في قلبي ميلاً إلى مثل هذا أصلاً.

قال حضرة الشيخ: إني لا أرى رؤيا حسنة إلا قليلاً، رأيت النبي ﷺ مرة، ورأيت حضرة الشيخ الهدائي مرتين، قال في الأولى: أنا راضٍ عنك يا بني؛ لأنك أحببت طريقي ومسح يده بظهري، سألت في الثانية عن قوله في بعض إلهياته التركية: [............].

قال حضرة الشيخ: إذا أراد الله أن يُخلّص عبدًا من الأغيار يؤيده ويفتح له الطريق وإن لم يكن له مرشد، وإنما بغى من بغي في وسط الطريق وفي الحيرة لعدم الاستعداد للأخذ من الله بلا واسطة، قال: اختر الفناء التام؛ فإني الآن كالذي كنت زمن شيخي في بابه، إني معترف بعجزي وقصوري فمن وفق لهذا العجز فسيهديه الله وإلا فلا، ثم قال: هذه الحاشية، وأشار إلى حاشية على تفسير الفاتحة في يده، ليست عندي كجناح بعوضة، وإنما أذن الله لي في ذلك، فكيف ثم لا يخطر ببالي أصلاً؟

قال: إن الشيخ الأكبر وابنه صدر الدين القونوي - قدس سرهما - لا يجيء مثلهما أبدًا، وإن كان الله قادرًا على مثلهما، وتفسير الفاتحة بديع جدًّا في أسلوبه وترتيبه ومعانيه وحقائقه، وإنما علقت عليه الحاشية بحسب مرتبتي لا بحسب مرتبته.

قال حضرة الشيخ: الأولياء متفاوتون بعد الوصلة كالسلاطين بعد الجلوس؛ فإن منهم من له سطوة غالبة وقدرة كاملة ومعرفة كلية مثل السلطان محمد الفاتح والسلطان سليم الأول والسلطان سليمان الثاني من الخواقين العثمانية، ومنهم من ليس له ذلك كسلطاننا، وأشار إلى السلطان سليمان؛ فإنه كان على الفتور والضعف في ضبط الممالك، وحفظ الأقطار، وتفتيش الأمور، وتمييز الخير والشر؛ لقلة عقله ورشده.

طلب الابن الكبير لحضرة الشيخ جرموقًا جديدًا وألح؛ فقال حضرة الشيخ: إن هذا الإلحاح باطل، فقال ابنه مشيرًا إلى الفقير: إن الحقي يشفع في هذا، فقال حضرة الشيخ: الحقي منسوب إلى الحق لا إلى الباطل، فقاموا إلى صلاة العصر.

قال حضرة الشيخ: نسبة الخلوتية إلى «لا إله» ويندرج فيه الإثبات، ونسبة الجلوتية إلى «إلا الله» ويندرج فيه النفي.

ومعنى الخلوة: ترك ما سوى الله، ونفيه، واندرج في النفي الصفات السلبية.

ومعنى الجلوة: التنور بنور الله، واندرج في إثبات الصفات الثبوتية.

قال حضرة الشيخ مخاطبًا لهذا الفقير: قد كتبت حاشية تفسير الفاتحة بخط خفي، فكيف تقرؤه إذا صرت إلى الشيخوخة؟ قلت: لا احتياج حينئذ إلى القراءة من الكتاب، قال: تكون أنت كتابًا إن شاء الله تعالى، قال: صلى بنا حضرة الشيخ صلاة المغرب، وبعد الفراغ منها ومن صلاة الأوابين دعا، ثم تأوه فقام وخاطبني، وتلا قوله تعالى: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ**﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال: فليكن نظرك إلى هاهنا، وأشار إلى الصدر، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ**﴾ [الشرح: ١-٢] ثم ذهب إلى جانب الحرم.

أقول: قول الهدائي عامة وخاصة؛ فالعامة هداية الكافر إلى الإيمان، والعاصي إلى التوبة، وهو الإيمان والإسلام الصوري، والخاصة هداية المؤمن المطيع إلى الإيقان والمشاهدة والعيان، وهو الإسلام الحقيقي، يعني: أن الله إذا أراد أن يهدي عبدًا من عباده إلى جنابه؛ يشرح صدره للقبول والتسليم، ويجعله على صراط مستقيم، فبذلك الشرح يرتفع عند الانقباض والاعتراض، فيقبل على الحق بالقبول، ولا يطرأ له إنكار أصلاً فيكمل انقطاعه، فيتصل بالله تعالى.

قال حضرة الشيخ: الجلوتية - بالجيم: ثمرة الخلوتية بالخاء المعجمة؛ لأن التجلية بعد التخلية، وكلا الطريقين واحد في الحقيقة إلا أن المقلد كثير، والمحقق قليل، قال: لا إلحاد ولا زندقة في طريق حضرة الهدائي - قدس سره- وقال: إن الوصول إلى الله لا يحصل إلا بالتقلد لمذهب إمام من الأئمة الأربعة فكل ولي لا بد له من التقلد، قال: إن الشيخ الأكبر وابنه صدر الدين القونوي - قدس سرهما - أفضل الأولياء، وكتبهما أدق الكتب، وقد عرفني الله لسانهما بعد ثلاث وثلاثين سنة.

قال: إن محبتي إنما هي إلى القرآن والحديث، وإرشادي أيضًا بهما، فعلمنا هذا أي علم حقائق القرآن لا يحصل لكل سالك ولا اعتبار بالكرامات الكونية، وعدم الاحتراق، والغرق في النار والماء، والمشي في الهواء ونحوها ليس بشيء عند أهل الله تعالى؛ لأنه يقدر عليه الشيطان والكافر.

قال حضرة الشيخ: إن لنا ميراثين من أبينا آدم عليه السلام؛ العصيان والاستغفار، فإذا عصينا يلزم علينا التوبة والاستغفار، وأكثر الناس يعصون ولا يستغفرون، نسأل الله الطهارة الكبرى والعناية العظمى.

***

الزيارة السادسة

وقعت هذه الزيارة في جمادى الآخر من سنة إحدى ومائة وألف.

خرجت من السفينة يوم الأربعاء بعد العصر، فوصلت إلى دار حضرة الشيخ قريبًا من المغرب فلما صليت المغرب في الغرفة التحتانية أقبل حضرة الشيخ، وجامل في المعاملة، وسأل عن السفر وحال البحر؛ فقلت: بهمتكم العلية دخلت السفينة وقت الضحى، وخرجت بعد العصر من هذا اليوم، فاستبشر ثم سأل عن التنور الذي كان قد أرسله من صوفيا في دفع تكاليف داري في بروسة، فقلت: قد وصل، فقال: هل كان معمولاً به؟ فقلت: نعم، استبشر به أهل المدينة كلهم فضلاً عن أهالي المحلة، ثم أقبل إلى خليفة بودانية المسمى بـ «قُرة مصطفى أفندي» وكان رفيقي في هذا السفر، فسألت عن حاله ثم ذهب إلى حرمه.

ولما كان يوم الخميس دعاني بعد الإشراق إلى غرفته، فقبلت ركبته، فأشار إلى بالجلوس إلى جنبه، فكان أول كلامه: دينك غالب أم دنياك؟ فقلت: بل دنياي؛ فقال: جعل الله دينك غالبًا على دنياك، وسأل عن صيامي وقيامي؛ فقلت: صومي صوم الدهر إلا أن يقع الإفطار بعذر، وقيامي دائم إلا إذا ضعف البدن يمنعني من طول السهر، فقال: «**أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها**[1]».

فإذا كنت أدمت هذا، فقد حصل المقصود، ثم سأل عن أحوال الدرس والوعظ.

فقلت: قد رفعت الدرس من قدومي إلى بروسة فهو من عنايتكم الكبرى؛ لأنه غسل التعلق بالعلم الظاهر عن لوح الخاطر، وازداد التوجه إلى تلاوة آيات التوحيد مع أن الوجود ليس الوجود الأول، فقد ضعفت الأركان والقوى.

وأما الوعظ فقد تركته مقدار شهرين لأختبر تعلق نفسي به، فلم أجد الميل إليه والحمد لله، فاستبشر حضرة الشيخ وحمد الله، ثم قال: كيف تجدك؟

فقلت: أجد نفسي ألا تعلق لها لا بالخانقاه ولا بالوظائف ولا بالصوفية والأحباب، ولكني أبكي دمًا من أخلاق النفس، فقال: إصلاح الأخلاق مما يتعلق بالباطن وهو صعب جدًّا، ثم أنجز الكلام إلى ذكر أهل البيت.

فقلت: شكايتي منهما كلية عظيمة، وإنما أشتكي إليكم لا إلى الغير، فقال:

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٦/٢٦٧)، وأبو نعيم في المسند المستخرج على مسلم (٢/٣٧٥).

اصبر قليلاً؛ فإن الله تعالى سيجعل لك فرجًا ومخرجًا، فإن هذا الوقت وقت الصبر، فإن من ذهب بغير صبر يكون بعده متأسفًا على فواته، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ [النساء:١٩].

وقال: إن الله تعالى لم يرد بك إلا خيرًا فلو رفع هذا الابتلاء لابتلى بنوع آخر، وإني الآن تزوجت سبع عشرة وثماني عشرة فلم أجدهن عليَّ إلا ابتلاء، ثم دعا فقال: ليجعل الله بلاءك مباركًا، ومعنى المبارك: أن يكون موفقًا لصبره؛ فإن البلاء الغير المبارك هو البلاء الفارغ لصبره.

ثم قال: مات الشيخ السيد عبد الباقي في أدرنة، وهو أول خلفائه.

فقلت: كيف وجدتموه عند مجتازكم إلى أدرنة من صوفيا؟

قال: كان قد نحل جسمه، وضعف من وجع الصدر، وظني أن له حسن الخاتمة لبعض الأمارات من الانقطاع والاستسلام.

فقلت: قد كان بيني وبينه تباغض قديم مع أنه كان أستاذي سبع سنين.

قال: إني أعرف ذلك أنه لم يكن من جهة نفسك بل من جهة الغيرة الإلهية؛ فإنه كان له بعض أمور متفرقة.

قال: كُنْ شاهدًا أني وهبت له جميع الحقوق من حيث أني أستاذه وشيخه، وإني لا أريد أن يكون معذبًا أو مسئولاً لأجلي؛ فإني أريد أن أدخل الجنة بفضل الله لا بأخذ الحق من الناس، وقد شاب رأسي ولحيتي فلا يليق بمن في هذا السنِّ أن يكون بصدد طلب الحقوق.

قال: وأشهد أيضًا أني وهبت لك ما كان قديمًا وحديثًا من الحقوق بل إلى آخر العمر، فلا تكن مسئولاً من جانبي أصلاً، فقبَّلت ركبته.

وقلت: أرجو شفاعتكم، وقد قام ديني ودنياي لكم.

قال: شفاعتي الدعاء بالخير، والمتصرف في الكل هو الله، وما أنا إلا واسطة من الوسائط، وحقيقة الأمر أنك إن شئت كن مقرًا أو إن شئت منكرًا، فلا احتياج لي إلى الإقرار والإنكار، واللائق أن يكون المرء بريئًا مما سوى الله لكنك أشكر الله على نعمة الوفرة في حقك، فقد هداك إلى الإيمان بطريقة أهل السلوك، وكشف القناع في هذا، والإيمان أمر عظيم.

قلت: أجد الانسلاخ من الكون صعبًا.

قال: إذا كان الله جعلك طالبًا له فهو يتولى الصالحين، وسينتهي الطلب والبرهان إلى المطلوب والعيان، لكن الأمور مرهونة بأوقاتها والمزيد في الشكر فكن شاكرًا راضيًا.

قلت: إني أظن أن يقع لي الهجرة خامسة؛ فإن هجرتي إلى بروسة رابعة.

قال أيضًا: إني كذلك قد هاجرت أربع مرات لكني الآن لست بمأذون إلى الخروج إلى أرض الحجاز أو غيرها؛ فإن أذن الله في ذلك بشيء جريت عليه فكن أنت أيضًا على ذلك، وأخرج من الباطن فكر الغير؛ فإنك الآن في أرض السلامة، ومن فعل أمرًا بنفسه لا بإذن من الله وجد عقيبه ابتلاءً عظيمًا.

قال حضرة الشيخ: العلم قيد، والحكمة إطلاق.

أعنى بالعلم: علم الشريعة والأدب، فإذا نظرت إلى اللغو والعبث أي: بنظر العلم كنت منكرًا، وإذا نظرت بالحكمة كنت سالمًا، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً**﴾ [الفرقان:٧٢]، ذكر حضرة الشيخ شيخه عبد الله أفندي الشهير بذاكر زاده، ومدح تقريره وتفسيره عند الوعظ والتذكير، وقال: إنه كان غالبًا في ذلك على الشيخين أعني: محمد باقتادة، ومحمود الهدائي – قدس سرهما، قال: ولكنه لم يوفق للتحرير.

وقال: إن الله يعامل بعض عباده بالفضل فيبسط له التقرير والتحرير، وبعض عباده بالعدل فيقبض له ذلك، والمعتبر هو العلم بالله؛ فإن علم الظاهر وسيلة لعلم الحقيقة، وهو مقصود بالفرض كالإيمان، وعلم الحقيقة مقصود بالذات كالسلف ولا يعلم الذات حقيقة إلا الذات الأحدية فمن عرف أن نسبة العلم له عرضة سَلِمَ، ومن ظن أصالتها هلك، فإذا سلّم السالك الذات إلى الذات، والصفات والأفعال إلى الأفعال كان فانيًا عن الكل ومؤديًا أمانته إلى صاحبها، فإذا جاء الموت الصوري لم يبق له سؤال ولا حساب ولا أخذ ولا إعطاء؛ فإنه دخل في دنياه في الجنة المعنوية، واستراح من كمد المكاليب.

قال: إن السالك لا يصل إلى الله حقيقةً إلا بعد أربعين سنة؛ فإن الخلاص عن الأكدار مطلقًا، إنما يحصل بعد هذه المدة كما أن كمال العقل وتحصيل الصوري أيضًا إنما هو بعدها، ثم وصى بالمجاهدة إلى أن يأتي اليقين، وهو الموت ثم تلا قوله

تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ...﴾ [النساء:١٠٠] الآية.

قال حضرة الشيخ: إن إبليس لما أبى عن السجود، قال الله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥]، قال إبليس: قضاؤك، قال الله: لو شاهدت سر القضاء قبل الوقوع لقبلتك، ولما كان قولك هذا بعده.

قال حضرة الشيخ: انظر إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠] كيف أثبت الشركة في البشرية، وجمع ثم فرق بالوحي، فالإلهام جبريل الأولياء وتميزهم غيرهم من الأغيار، وعن أحكام أهل البشرية الغالبة.

قال حضرة الشيخ: إن الواصل إلى الله تعالى لا يتكدر من شيء أصلاً، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠] كيف علل عدم الحزن بالمعية فهي دافعة للحزن أينما كان المرء من سهل أو إلى جبل أو بر أو بحر أو حديقة أو شوك فعلى المرء ألا يطمع في شيء سوى الحضور مع الله؛ فإنه لو لم يكن مع الله لم يحصل له مطلبه.

قال حضرة الشيخ: إن الموجود موجود، والمفقود مفقود؛ فمن فرق بينهما فرقًا تامًا و لم يثبت للموجود فقدًا ولا للمفقود وجودًا واصل إلى الصفا والحضور، وتخلص عن الكدر والشرور.

قال حضرة الشيخ: سمعت مرة من أقول ابن الأشرف الأزنيقي: [ينم أول دائم وباقي كورندم صورتا إنسان[1]] وكنت وقتئذٍ في بلغراد، وكان الحال غالبة علي فكوشف لي بسر قوله:

«قال الله تعالى على لسان عبده: سمع الله لمن حمده[2]».

وهو قرب الفرائض بحيث امتلأ وجودي من نور ذلك التجلي ثم غلبني البكاء الشديد بحيث تحير الحاضرون في المجلس، قال: ولعل ابن الأشرف قال القول المذكور عند غلبة الحال، ومثله لا يبحث عنه إلا في الخلوة وعند أهل الحضور والقبول؛ فإني أتنفر عن كلام الحقيقة مع الأغيار أشد من تنفر من النجاسة.

---

(١) كلام تركي.

(٢) رواه مسلم (٥٨٨/٢) بنحوه، وأبو داود (٢٧٦/١).

قال: وكان شيخي يتكلم من المعارف عند الوعظ بقدر ما يقبله العقول، ولا يذكر شيء في مجلس في بيته، سألت حضرة الشيخ عن النوافل التي يشتغل بها الصوفية؛ فقال: المعتبر عند كبار السلف كما رأيت في وصايا الفتوحات أن صلاة التهجد اثنتا عشرة ركعة، وصلاة الإشراق أربع، والضحى ثمان، وصلاة الأوابين ست، لكن مع سنة المغرب على الاختلاف الواقع فيها، قال: إن أهل الأدب يشتغل بالعمل إلى الموت؛ فإن طريق العمل الأنبياء والأولياء، وليكن بشرط حضور القلب، وأدنى الحضور في الصلاة أن يعرف ما يقرأ، قال: إن بعض السلف كان لا يخطر خاطر كوني أصلاً لغلبة الخاطر الإلهي فاللازم على المتوجه عند وجود الوسوسة رفعها من طريقه؛ فإن الحضور روح العمل، ولا خير في جسد لا روح فيه.

قال حضرة الشيخ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥]: هي الأبديات، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥]: هي الأزليات.

قال حضرة الشيخ: هذا زمان الاضطرار؛ فادع الله بالاضطرار خصوصًا في أمر ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢]، ودعاء الاضطرار إنما هو بالذلة والافتقار، ودعاؤنا مشوب بالعزة، ولذا لا يظهر أثر الإجابة.

ثم حكى قصة الجنيد مع امرأة حيث جاءت إليه، فقالت: يا شيخ، قد أسر ولدي، فماذا ترى؟ فقال: اذهبي واصبري [فمضت، ثم عادت فقالت له مثل ذلك] إلى أن جاءت مرة، وقالت: يا شيخ، لم يبق لي طاقة بعد هذا، فقال: إن صدقت فقد جاء ولدك؛ فذهبت فوجدت ابنها في البيت(١).

أقول: وفيه تعريض لهذا الفقير؛ فإني كنت قد اشتكيت إلى حضرة الشيخ قبل أيام سُوء خلق أهل بيتي، وادعيت أنه قد بلغت القصوى في المحنة، فأمر حضرة الشيخ بالصبر، قال: اصبر؛ فإن هذا زمان فسيجيء زمان متأسف فيه على عدم صبرك حين يذهب الله بليتك.

قال حضرة الشيخ: كل كلمة تخرج من فَي الواعظ تحفظ وتنشر صحيفتها بين يديه يوم القيامة، وأقسم بالله أنه لو عرفت قبل عشر أو عشرين أن الأمر هكذا،

---

(١) انظر: الرسالة القشيرية (٢/٥٢٦)، وروضة الحبور (ص١١٠) بتحقيقنا، وكتابنا الإمام الجنيد سيد الطائفتين (ص٢٠٠).

وأن أمر الآخرة فوق ما يعرفه عامة الناس لما قبلت الوعظ، ولا الشيخوخة، وقد عزلت نفسي منها إنما أدري إذا يطلب الناس مني، وأنا من أفراد الناس عاجز.

أقول: شدد في الأمر حتى تبرد في قلبي من الموعظة والتذكير، وعزمت على الانقطاع التام، وكان حضرة الشيخ قال ما قال من إرشاد إلا أنه خائف من البرازخ.

قال حضرة الشيخ: إن الله تعالى سلب من قلبي الميل إلى اللسان الفارسي منذ أربعين سنة، وملأه بالعربية، فأنا الآن لا أدعيه أصلاً.

قال: إن المكروه طبعًا بداية يكون محمودًا حقيقة نهاية؛ فعلى المرء أن يتقيد بالصبر والهضم ولا يجري على مقتضى طبعه.

قال: بلغني عنك قول مستحسن هو أنه واحد من أتباع خليفتنا في صوفيا أراد أن يكون عندنا فلم يرض الخليفة، فقلت له أنت: إنك يا شيخ لا ترضى أن يكون مرادك مريدًا لشيخك، فمتى تكن أنت مريدًا له، ثم قل هذا القول منك إلهام من الله وكلهم حق والأمر كذلك، ثم خاطب ابنه الكبير محمد الجودي بأن تعلم الفارسية أنت، وكن معمورًا من كل جانب، ثم استأذنه ابنه أن يذهب إلى بروسة ويقيم هناك شهرًا بطريق التفرج والزيارة فلم يرض حضرة الشيخ.

وقال: ليس هذا أوانه؛ فإنه زمانه الطلب لا زمان السير فإذا جاء أوان السير فلتفعل.

قال حضرة الشيخ: لا راحة قبل الموت، فإذا جاء الموت ارتفع الكدر، ألا ترى إلى حال أهل القبور ليس لهم انقباض ولا انبساط، ولو كان العالم مملوء منهما.

سألت حضرة الشيخ عن غاية الأمر أن اختلاف الزمان بالظلم والهزيمة إلى ماذا ينجر، هل كَتَبَ علماء الحقيقة شيئًا يفصح عنه غاية الأمر ولو تقريبًا؟

قال: يا ولدي سلب الله من قلبي الميل إلى مراجعة الكتب في مثل هذا، فالله يفعل ما يشاء وإنَّا نفرٌ من قهره إلى لطفه، فإن كان القضاء هو القضاء المطلق فيدفعه الله عنا، وإن كان هو المبرم فلا دافع له ألا ترى إلى أهل الابتلاء من الأنبياء والأولياء كزكريا ويحيى والحسن والحسين وأمثالهم –عليهم السلام– لكن الاحتياط لازم في مرتبة الشريعة، وقد فقد الناس السلطان في هذا الزمان ونصبه واجب عليهم جعلوا السلطنة ميراثًا مع أن لها شرائط ولوازم، ولفقدانها وقع ما وقع من كل بلاء.

قال: وقد رأيت المكتوب المرسل إلى السلطان من جانب أمير الكفار المسمى بقرال، وفيه: أيها السلطان، إن كان لكم عسكر كثير، فحسبنا الله ولا اعتماد لنا على عسكرنا، ثم تلا قوله تعالى: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

ولا شك أن هذا إنطاقٌ من الله تعالى؛ فإن الكفار، وإن كانوا مردودين في مرتبة الشريعة لكن محركهم في الحقيقة هو الله.

قال: إذا أراد الله شيئًا لا يحول بينه وبين مراده شيء فيجري قضاؤه على الأنبياء والأولياء فلا يمنعه عزيمة أولى العزم، ولا رسالة الرسل، ولا معرفة العرفاء، ولا إيمان المؤمنين اليوم، وهو يوم الإثنين آخر جمادى الآخرة من سنة ألف ومائة وواحد.

ونكح حضرة الشيخ عندي وعند خليفة إزميد الفرائضي وابنيه محمد ومصطفى من زوجته المطلقة، وهي الوالدة الكبيرة والدة ابنه الكبير محمد الجودي، وكان طلقها قبل أربعة أشهر لسبب يطول شرحه، وجعل المهر اثنا عشر ألفًا.

قال حضرة الشيخ: ظهور النبي ﷺ وانشقاق القمر من الأشراط الأولى، وهذه الأشراط التي ظهرت في زماننا هي الأشراط الوسطى، لكنها قريبة من الآيات الكبرى، وكان الناس قبل هذا اليوم بقدر، والقسطنطينية، وإرامة سلامة، فلهذا كانت المهاجرون من الأقطار إليها، وأما الآن فيرتحلون عنها إلى الأطراف.

قال: وفتنة هذه البلدة لا يقاس عليه فتنة أخرى؛ فإنها تشابه الحشر والنشر، فقال خليفة الشيخ حسين الفرائضي: كنا نرى حين الهجرة من [أينة بختي] أن كثيرًا من الناس طرحوا أولادهم علي الطرق لاشتغالهم بنفوسهم، فقلت: لعل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير:٨]؛ لأن هاهنا خطرين، وهلاك الأولاد ليس بأهون من هلاك نفسه، فقال حضرة الشيخ: نعم ينبغي للآباء والأمهات أن يسعوا في إخراج الأولاد من المهلكة بأي وجه كان، وإني لرعاية جانب الأولاد أقيم الآن في هذه البلدة، ولولا ذاك ما أقمت ساعة، لكني إلى أين أذهب مع الأولاد والجم الغفير؛ فنسأل الله العفو والعافية.

قال حضرة الشيخ: ما وقع في هذه السنين من القتل والهزيمة في جانب المسلمين قصاص لما فعلوه سنة الخروج إلى طرف قلعة «بج» فإنهم أسرفوا وقتئذٍ في القتل بغير موجب شرعي.

وقد قال تعالى: في سورة بني إسرائيل:

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً﴾ [الإسراء: ٣٣]، فلا يسرف في القتل أنه كان منصورًا.

قال حضرة الشيخ: رأيت في بعض كتب الشيخ الأكبر - قدس سره - أنه قال: لكل نبي دعاء مخصوص به، والدعاء المخصوص بنبينا ﷺ قوله تعالى في آخر البقرة: **﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾** [البقرة:٢٨٦].

قال حضرة الشيخ: ما يقال في ألسنة القوم مرتبة الإنسان هي عدم وقد تجلى الله للإنسان في تلك المرتبة بالوجود فكما أنه ليس مثله تعالى في القوة والبطش، فكذلك مثل الإنسان في العجز والضعف، فوجوده ظلي، فكما بسط الظل كذلك يقبض، فأهل الشهود يرى الحركة في القبض والبسط من الله؛ فإنه هو الفعال فلو أراد أيضًا يكون كل ذرة مظهر اسم القهار، ولا يمنعه شيء.

قال: وقد أمر الله بالصبر حيث قال: **﴿وَاصْبِرْ﴾** [النحل:١٢٧]، ولكن قال بعده: **﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ﴾** [النحل: ١٢٧].

فأشار بالأول إلى الوجود الظلي الذي يرى منه الحول والقوة.

وأشار بالثاني إلى أن الصابر في الحقيقة هو الله تعالى، فتارة يجذب عبده إلى عالم القدس فيخلع عنه كل صورة.

وتارة يرسل إلى أسفل السافلين وهو عالم الحس والدنس فيبتليه بأدنى حيوان ذلك العالم كالبعوض الداخل أنف نمرود فعلى العاقل ألا يستند إلا إلى الله.

ويقول دائمًا لا ملجأ ولا منجى إلا منك.

قال: قوله تعالى: **﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾** [البقرة:١٣١]: هو أمر بالصفة والحقيقة، وكذا قوله تعالى في الجواب: **﴿قَالَ أَسْلَمْتُ﴾** [البقرة:١٣١] فوجد المجازات الكاملة بين الصفتين في الظاهر والباطن، ولذلك رُمي بالمنجنيق، ولم ينفعل أصلاً فلو أراد العبد دفع القضاء المبرم لا يجد إليه سبيلاً فلا سبيل إلا الاستسلام.

قال حضرة الشيخ: تجلى الله في آدم بالولاية، والنبوة تعين خاص، وكان لبعض عباده سمعًا وبصرًا، فشاهد العوالم بعد مرتبة علم بتلك السمع والبصر، ولكن

كذلك لا يدفع القضاء المبرم ألا ترى أن حبيب الله لم يكن له عديل في مرتبة الحقيقة مع أن ذلك لم يدفع عنه إشقاق العقب، وكسر السن في غزوة أحد.

قال: ﴿مَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ﴾ [الأحقاف:٩]، وإنما أعرف الآن، قال: ورد إذا جاء القضاء عمي البصر، فإذا جاء القضاء يفعل الله بعبده فلا ينفعه نبوته ولا ولايته إذ كل مقضي لا بد أن يكون، ثم أنشد قول الهدائي في بعض إلهياتة التركية [.....][1].

قال: إن أهل البصيرة والشهود يرتعدون عند ميدان القضاء كالأوراق وقت الخريف لمّا يعلمون كمال بطشه وقوته، وأما أهل الغفلة فلا قدرة لهم على مشاهدة الجلال في صورة الجمال اليوم وهو اليوم الثاني من رجب سنة إحدى ومائة وألف.

دعا حضرة الشيخ كاتبًا من طرف نائب محكمة أخي جلبى الواقع في القسطنطينية ليكتب حجة متعلقة بابنته الصغيرة السيدة خيفة، وذلك أن حضرة الشيخ كان زوجها الحاج صالح من أتباعه، ثم صدر منه قبل الدخول خيانة عظيمة فأراد الشيخ تطليقه لابنته فاختفى ولم يفعل، فشهد خليفة الشيخ عبد الله الساكن في القسطنطينة وهو أعلم خلفائه وأزهدهم، وكذا الابن الكبير لحضرة الشيخ أن الحاج صالح كان قد صدر عنه ما يوجب تجديد النكاح قبل أيام، فراجعنا في تجديد النكاح، فلم يتفق لنا ذلك بحسب الموانع، فبقي الأمر على حاله إلى الآن، فلا ضرر في اختفائه، فإن زوجته كانت مطلقة قبل مجيء الكاتب، فادعى حضرة الشيخ ذلك، وشهد شاهدان بذلك فكتب حجة بالأخبار؛ فقلت للشيخ عبد الله: ما فائدة هذه الحجة الإخبارية؟ قال: فيها ثلاث فوائد:

الأولى: أن فيها حفظًا للمقال أي مقال الحاج صالح بأنه قد صدر مني ما يوجب تجديد النكاح.

والثانية: أنها حل لها التزوج إلى آخر.

والثالثة: أن فيها إلقاء الرعب في قلب الخصم.

قلت: أهم حضرة الشيخ في باب البيت المذكور حتى أرسل مكتوبًا من جزيرة قبرص حين نفى إليها في آخر عمره، وفيه عدم رضائه بإنكاحها إلى الحاج المذكور بحيث إنه فعل ذلك حضرة الشيخ في حبيبه يوم القيامة.

---

(١) كلام تركي.

قال حضرة الشيخ: هل لك مرض جسماني؟ قلت: نعم، قال: إن الصحة الكاملة تسقط المرء إلى المرتبة الطبيعية والنفس، وأنا مبتلي من قديم بريح البواسير، قال: العبد عبد ليس فيه شوب من الربوبية، والرب رب ليس فيه شوب من العبودية؛ فالكامل الأكمل الذي فرق بينهما فرقانًا ما ولم يخلط بين المراتب، ولذا كان الأكمل أعجز العاجزين صورة فكما كان بصيرته وروحانيته في غاية العلو هكذا كانت جسمانيته في غاية السفل، فهو لا يدري أوضع من نفسه وعجز في الخلائق؛ فالفيض الكامل يعطي التعبير بالشريعة والأدب بحيث يجد صاحبه لذة كاملة في العبادة لا يشبهها شيء من اللذات، ثم مَثّلَ الفيض؛ فقال: كما أن صاحب الزراعة ينبغي له التقيد بكِراب الأرض، وهو لا يدري حتى ينـزل المطر فكذلك صاحب المجاهدة ينبغي له التقيد بالأعمال والأخلاق، وهو لا يدري حتى ينـزل الفيض؛ فإذا نـزل يصيب محزَّة، فمن تجل في آن غير منقسم لكنه يعطى علومًا غير متناهية، ومن تجل في يوم وأسبوع وفي شهر وفي أزيد يعني يمتد، وكل ذلك ليس في يد العبد، فكما أن في المطر الصوري رعدًا وبرقًا، فكذا في الفيض المعنوي ما يشبهها، والتجلي على أنواع؛ فتارة ينكشف أسرار النسخة الإلهية، وتارة أسرار النسخة اللفظية المكتوبة المنقولة عنها بالقرآن اللفظي، فهذه أربعة مصاحف غايتها الرابعة، فلذا ترى الكُمَّل لا يشتغلون في أواخر أعمارهم إلا بالقرآن، وليس شيء يصلح أن يكون مورد فيضهم وعلومهم سُوى القرآن.

ثم قال: وقد أعطاني الله في هذا الكتاب إيمانًا كاملاً بحيث لو اتفق الملأ الأعلى والأسفل على خلافه ما زاغ قلبي ما دام التثبيت من الله، ثم تلا قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا من لَّدُنكَ رَحْمَةً**﴾ [آل عمران:٨].

قال: إن شيخي كان رجلاً ساكنًا متأدبًا لا يغره بما يغر به أرباب الدعوى في هذا الزمان، وهو المقبول عندي أيضًا.

قال حضرة الشيخ: إن بعض الناس يطلب مني خارق العادة، وليس عندي غير الكرامات العلمية الباطنية وبعض من الخواص يعطي له الطرفان لكن المقبول هو ما يتعلق بالباطن والإله، لا بالظاهر والكون، فمن أراد أن يكون مريدًا إلي فليقبلني بهذه المرتبة، ومن أراد الخوارق والكشوف فليطلب من غيري، فإني لست بشيخ، ثم تلا قوله تعالى: ﴿**مَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ**﴾ [الأحقاف:٩].

قال: ما أدري ما يتعلق بالكون إلا أن يشاء الله، وأنا في ذلك كسائر الناس.

قال حضرة الشيخ: المريد والمرشد لا يتفقان في المشرب غالبًا، وإن كان بينهما نوع مشابهة كما أن الابن لا يكون عين الأب من جهة الصورة، وإن كان بينهما نوع مماثلة فكل شخص لا يعطى إلا بقدر حاله واستعداده الأزلي والمرشد واسطة في البين وله التربية والعقول.

قال حضرة الشيخ: فرق بين الحضور والاستحضار، فالحضور لأهل النهاية والاستحضار لأهل البداية؛ فإنه لا نسيان للفرقة الأولى أصلاً فلهم الجمعية الكبرى، وأما الثانية فإذا طرأ عليهم النسيان يستحضرون، وعلامة الحضور مطلقًا الانجذاب من طرف الخلق والكون إلى طرف الحق والإله ومصداقه بالعبودية الكاملة فمن لا تعبد له فهو نسيان كامل لا حضور معه أصلاً فله سوء الخاتمة وهو فكر الغير، وخروج الروح معه، ومن له تعبد ناقص فهو في حضور ناقص وأهله على خطرٍ أيضًا، ومن له تعبد كامل بلا تكلف فله حضور تام، وكيف لا يكون له الحضور الباطني يعطى ذلك التعبد بالأعمال والأخلاق في الظاهر ثم وصى بالعبودية إلى أن يخرج الروح من الحلقوم.

وأمرني حضرة الشيخ بالإمامة في صلاة الرغائب ليلة الجمعة الأولى من رجب لسنة إحدى ومائة وألف، فلما صلينا المغرب، قال مخاطبًا للحضَّار من الخلفاء أو غيرهم: ما تقولون في حق القرآن؟ فقلت: تخفيفًا لبعض الضعفاء، فقرأ في الأولى الفاتحة وسورة القدر، والثانية بسورة الإخلاص مرة، وهكذا إلى أن تم اثنتا عشرة ركعة.

وقال بعض الخلفاء مخاطبًا لحضرة الشيخ: رأيته يعلمكم سورة القدر ثلاث مرات، وسورة الإخلاص اثنتي عشرة مرة، وذلك في كل ركعة منها.

فقال حضرة الشيخ: هذا على وجوه لكن المختار الأولى والأقوى الذي هو العزيمة والتقوى فأمر بما كتبه؛ فقال بعضهم: هل يلزم المنذر؟ قال: لا، بل هو لإسكات العوام لكن لا بأس بالنذر فصلوا بأي وجه شئتم، فصليت على هذا الوجه إمامًا لمن تبعني ممن حضر في دار حضرة الشيخ من الخلفاء وغيرهم، فلما تمَّ الصلاة والدعاء، قال حضرة الشيخ: تقبل الله ووصَّى أيضًا لوكيله في جامعه قبل أن يصلي هذا الصلاة هناك.

ثم قال حضرة الشيخ: صلّ بنا بعد العشاء صلاة التسبيح.

فقلت: نعم، فصلينا بالحمد لله، والرجاء الواثق على أن هذه الليلة كانت ليلة المغفرة والرحمة لأنا قد وجدنا ببركة حضور الشيخ خفة في الأبدان، وتوجهًا في الأرواح، ورقة في القلوب، وطمعًا في عفو الذنوب، واعلم أن صلاة الرغائب والبراءة والقدر صلاها العلماء الكرام والمشايخ العظام إلى هذا الآن، وحكم الإمام الغزالي باستحبابها، وأمر السلاطين في منشور أوقافهم أن يصليها أئمة جوامعهم بعد الإجماع من علماء زمانهم، والأمة لا تجتمع على الضلالة، و«**ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن**[1]»، فلا يضر بك الألفاظ المموهة لأهل الإنكار؛ فإنهم يزيدون في طنبورهم في كل عصر نغمة وصوت الطبل، وإن كان يبلغ بعيد الكنه مجوف خال.

قال حضرة الشيخ: أصل السماع حق، ولكن هذا الوقت ليس وقت السماع. قال: هلا نكتب شرحًا على الطريقة المحمدية لمحمد البركوي، ثم قال: لا حاجة في هذا الزمان، فسكت من كان عنده، وقال: الحق ظاهر لأهله، قال: أهل الحق لا يرى الباطل، والدنيا عند أهل الحقيقة تبقى في مقام الاعتبار لا مقام الحقيقة.

أرسل حضرة الشيخ دراهم إلى الفقير في محلته، فقال: إن هذا وقع في قلبي هذه الليلة، فهذا الرزق لها من الوجه الذي لا يحتسب، فهو حلال طيب.

ورأيت هذا الصباح يوم الإثنين كأني صليت الترويح في جامع كبير على رأس جسر عظيم، فخرج حضرة الشيخ من الجامع فتبعته، فلما أخذنا نجرُّ إلى الجسر التفت إليّ، وقال: أنا أريد منك أن يكون خدمتك لي كخدمة الأولياء للأنبياء فتفكرت أن الخدمة أشق فوجدتها متابعة الشيخ، وذلك؛ لأنه كان من دأب الشيخ أن يصلي التهجد فيه ثم يخرج عابرًا الجسر إلى البلدة العظيمة التي كانت مقره، وهي في الرأس الأخير من الجسر، فعزمت على أن أتابع حضرة الشيخ في الصلاة والقيام ثم الخروج معه إلى تلك البلدة من ذلك من الجسر، فلما قرب انتهاء الجسر ورؤى البلدة التي وراءه استيقظت، والحمد لله على ما في هذه الرؤيا من بشارة المتابعة التي هي دين الأنبياء والأولياء أجمعين.

قال حضرة الشيخ: من عرف نفسه فقد عرف ربه: صعود.

---

(١) تقدم تخريجه.

وقولنا في العكس: من عرف ربه فقد عرف نفسه: نـــزول.

فالأول إشارة إلى حال الفناء، والثاني إلى حال البقاء.

قال حضرة الشيخ: للمريد أن يتزوج بنت شيخه شريعة وطريقة، وأما نكاح زوجته مطلقة أو متوفٍّ عنها زوجها؛ فهو وإن كان له مساغ شرعي لكن ليس له مساغ طريقي، ولا يجد الناكح ميمنة في ذلك النكاح أصلاً في الدنيا والآخرة ومثله الأستاذ في الصناعة؛ فإن الأستاذ والشيخ هو الأب المعنوي، وقد قال تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

قال حضرة الشيخ الأكبر - قدس سره- في أواخر «مواقع النجوم»: احترام الشيوخ واجب، ومن احترامهم ألا يلبس ثيابهم، ولا يقعد في مكانهم، ولا ينكح المريد امرأة شيخه إن طلقها أو مات عنها، ولا يرد في وجوههم كلامًا، ويبادر لامتثال ما يقولون، ومن احترامهم تعظيم من عظموه، فعظم من عظم شيخك، وتلمذ له إن قدم عليك، وإن كنت أعلم منه؛ فإن الشيخ أعرف بالمصلحة لك منك، ولا يحجبك ما ترى من بعضهم عن تقديم الشيخ له عليك وتهذيبه انتهى.

قال حضرة الشيخ: يا إسماعيل، إنك ذبيح، ولا بد في الذبيح من التسليم، وليس لنا حقيقة التسليم لكنا نجتهد إلى الموت، ومن مات في الطريق؛ فقد وصل.

قال حضرة الشيخ: في هذا الباب شيخ وخادم؛ أما الشيخ فحقه التربية، وأما الخادم فشأنه الخدمة بالصدق والخلوص، ثم قال: إن شيخي أراد مرة أن يرسل واحدًا من المريدين إلى الكرم فاختفى كل واحد منهم كراهة للخدمة، فخرجت من الحجرة؛ فقلت: أرسلوني، فقال شيخي: يا سيدي، إن لك درسًا فيضيع وقتك، فقلت: لو علمت أن جميع العلوم تنكشف لي اليوم ما اخترت إلا الخدمة، فاستبشر ودعا لي واستخدمني، فكان ما كان بمقابلة هذا الخلوص والصدق.

قال: والرضا لا يدركه إلا من حصل له ثمرته، ثم قال: إن محمد دده كان رجلاً معتمدًا عليه في أوائل حاله فاستصحبه الشيخ حين خرج إلى الغزو، فلما وصل إلى بلدة صوفية وقع محمد دده في الطمع، فأخذ ليلة سرق دراهم من كيس حضرة الشيخ.

قال حضرة الشيخ: فاطلعت عليه وهو قد ظنَّ أني نائم فأمسك بيده، فخجل، ثم انقطع عن الشيخ، وتغير حاله، وذلك أن بعض الأمراء كان قد أسرت له

بنت، فوعد لمحمد دده حين كان في خدمة الشيخ أن يزوجه بنته أن خلصها الله من الأسر فخلصها الله تعالى وأنجز الأمير وعده لكن ماتت البنت قبل الدخول؛ فلحق محمد دده ببعض القرى، وتغير دينه ودنياه نعوذ بالله، وقد سبق نظيره.

قال حضرة الشيخ: رأيت في بعض الكتب أن حضرة شيث -عليه السلام- مرض مرة، فأرسل إليه حُورية بطبق من مأكولات الجنة، وزوجها إياه؛ فوُلِدَ، فكان أصل العرب جميعهم.

فقلت: هل يقع الازدواج بين أهل الدنيا وأهل الجنة في هذه النشأة كما يقع بين الإنس والجن؟ قال: نعم.

أقول: الملائكة والحور والجن أرواح لطيفة بينها وبين الكثيفة نوع تباعد؛ فالازدواج بين الإنس والجن والحور يحتمل أن يكون بعد التلبس بملابس هذه النشأة كما أن حكومة الملكين هاروت وماروت كذلك.

وأما آدم عليه السلام كان يأتي حواء في الجنة، وأن قابيل كان من أولاد الجنة؛ فليس بصحيح عندي إلا أن يحمل الجنة، على الجنة الأرضية كما عليه أهل التحقيق إذ الأولاد إنما كانوا بعد الهبوط والعلوق للتعارف الذي لا يحتمل النشأة الجنانية، ويدل عليه أن حواء كانت لا تعرف ما المنكر قبل الهبوط كما في روضة الخطبية.

كلف حضرة الشيخ خليفته الشيخ حسين الأزميدي أن يقرأ في محضر شريف ابنه الكبير السيد محمد الجودي الفارسي فتوقف ولم يجسر عليه، وزعم أن النسخة مختبطة، فجرى ما جرى من الكلمات بيننا حتى قال الشيخ متبسمًا: إنكم أشغلتمونا، وكان السيد المذكور يقرأ: «يندعطار» فبدلوا بالنسخة السقيمة المستقيمة، أو «يندعطار بوستان، أو كلدستان» أو غيرهما؛ فقال بعضهم: إن في «يندعطار» يمنًا وبركةً؛ فإنه تواتر على أن حضرة الشيخ ابن العطار - قدس سره - دعا لمن ابتدأ الفارسية بكتابة ذلك: أن يكون عارفًا في ذلك اللسان.

فقال حضرة الشيخ: بخٍ، بخٍ؛ فقام إلى الحرم.

فقال حضرة الشيخ: بعض الناس وقع لي الهيبة فاستولى عليه الخوف، وبعضهم في الأنفس فاستولى عليه الرجاء والاعتدال إلى أن يكون المرء بين الخوف والرجاء لكن الله تعالى يفعل ما يشاء، استأذن بعض الفقراء في الذهاب إلى مكة المكرمة فدعا له بالرشد، وقال له: قل حين خروجك:

﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

وحين النـزول: **﴿رَّبِّ أَنـزِلْنِي مُنـزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنـزِلِينَ﴾** [المؤمنون:٢٩]، وهكذا في كل مرحلة، ثم قال ممثلاً: إن أهل التجريد الصوري كالذباب يليق بفمه من غير تلطيخ رجليه فتسليم فإذا لطخ رجليه منع الطيران؛ فأهل التجرد يطير إلى حيث شاء كالذباب، قال: قيل للحطاط أرجل؟ فوضع أبرمة على رأسه فرجل، ولو حيل بلا جواب الذي علق بلباس بدنه اخلع لباسك، هان عليه ذلك؛ فإنه تعلق به كالغير.

قال: التجرد الصوري مدار للتجرد المعنوي، وأما قوله: لا يضر التعلق الصوري إذا وجد تعلق المعنوي فسقط من وجه.

ثم قال: أنت من أهل الهداية حيث كنت وراء البحر، ونحن من أهل الخبرة حيث كنا هاهنا، والخوف غالب علينا؛ لأن هذه البلدة محل الخطر الآن.

أقول: هذا الكلام صدر منه بحسب المقام فليس له خوف عمَّا سوى الله.

قال حضرة الشيخ بعد صلاة العصر مخاطبًا لابنه الكبير السيد محمد الجودي: إن الأب أصل، والابن فرع، والأب فرد، والابن جمع، والأب مظهر يد الله، والأبناء مظاهر الأبد والأيدي، وإن كانت في غاية القوة بحسب التظاهر والتجمع لكنها إنما يستفيض القوة كأغصان الشجرة من الأصل كما قال الله تعالى: **﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾** [الفتح: ١٠]؛ فخافوا من الأب، فإن الحل والعقد والرد والقبول في يده بالنسبة إلى الأبناء لا في أيديهم أقول هذه الكلمات، وإن جرت بحسب الملاطفة لكنها في نهاية المعنى.

قال حضرة الشيخ: إن الدنيا دار ناز يعني: من طرف الله، ودار نياز يعني من جانبك والجنة دار ناز، فلك ناز، ومن الله نياز يعني: الإنعام والإحسان، والمتوجه إلى جنابك هكذا قال: ناز باللسان الفارسية.

قال حضرة الشيخ: رأيت في بعض الكتب المعتبرة أن الغزو فرض والحج فرض إذا اجتمعا يرجح الأول، ثم تلا قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

قال حضرة الشيخ: ذلة الأنبياء -عليهم السلام- وافتقارهم أشد من غيرهم،

فهم الكُمَّل الظاهر في الباب والأعز منهم وأقدرهم أشد خوفًا من الله من غيرهم ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤]؛ فقال: إنما ينهى عن الخشية من الناس؛ لأنهم صور وأشكال ولا ينبغي الخوف من الصور، وأما الله سبحانه فهو المحرك بتلك الصور فينبغي الخشية منه؛ فإنه إذا أراد أن يوصل البلاء من وجه ذرة وبعوضة، وهو على ما يشاء قدير.

قال حضرة الشيخ: دعاء العبد إنما هو لإظهار العبودية والذل والافتقار والامتثال لأمر الملك الغفار لا لحكم على أحكام الله ومداخلة أمر من أموره؛ فإن الله لا معقب لحكمه، ويفعل ما يريد.

قال حضرة الشيخ مخاطبًا لخليفة الشيخ حسين الإزميدي: إن اللسان شريعة، والجنان حقيقة، والنظر إلى الظاهر في مرتبة الشريعة؛ فمن ادَّعى من أهل بيتك محبة الله ومحبة رسوله وأجرى كلمتي الشهادة على لسانه فاحببه أنت، سواء أحبك أو لا، ومن لم يحب الله ورسوله بل أبغضهما فابغض إليه أنت، سواء أبغضك أم لا؛ فالأول: هو الحب في الله، والثاني: هو البغض لله؛ فمن أحببته لحبك، فهذا هو الحب للنفس لا لله، ومن أبغضته لبغضه لك؛ فهو البغض للنفس لا لله، وكلاهما مذموم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]؛ فالخالص هو الأولان، والمشوب هو الأخيران ثم فرق بين الخالص، والمخلِص بكسر اللام، والمخلَص بفتح اللام ورجح الأول؛ لأنه خالص أصلي بالنظر إلى أنه ثلاثي، والمجرد مقدم على المزيد، وهو المتخلص والمخلص.

ثم قال: صبيان الحقيقة كالخنثى فله ذكورة وأُنوثة، واللائق أن يكون المرء من الرجال لا الخناثي والإناث ثم تلا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾ [آل عمران: ٣٦]، وقوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤].

وقوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء:٣٢]، وبعد بسط كثير الكلام[1].

---

(١) قال الشيخ المصنف في تفسير هذه الآية ما نصه: «فإنه صريح في جريان التمني بين فريقي الرجال والنساء، والمعنى لكل من الفريقين في الميراث نصيب معين المقدار مما أصابه بحسب استعداده، وقد عبر عنه بالاكتساب على طريقة الاستعارة التبعية المبنية على تشبيه اقتضاء حاله لنصيبه باكتسابه إياه تأكيدا لاستحقاق كل منهما لنصيبه وتقوية لاختصاصه به بحيث لا يتخطاه إلى غيره، فإن =

قال حضرة الشيخ: هذه الكلمات ببالي وقت السلام الصلاتي، فأردت أن أخاطبك بها يعني هذا الفقير ثم صرفت العنان إلى الشيخ حسين، أقول ذلك؛ لأن الشيخ حسين كان ضجورًا متنفرًا من أهل بلدته إزميد، فأراد حضرة الشيخ تربيته بهذه الكلمات فخاطبه، وكان الشيخ حسين مهمومًا من حيث إن واحدًا من أتباعه كان ذهب إلى مدينة أدرنه لمصلحة له مهمة فعند تكلم الكلمات ورد البشير والورق بأن المصلحة قد تمت، فاستبشر حضرة الشيخ والحاضرون، فقرأ حُسين أفندي قوله تعالى: **﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾** [النمل: ٤٠].

وقوله: **﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾**

= ذلك مما يوجب الانتهاء عن التمني المذكور ﴿واسألوا الله من فضله﴾ أي: لا تتمنوا ما يختص بغيركم ﴿إن الله كان بكل شيء عليمًا﴾ فهو يعلم ما يستحقه كل إنسان، ففضله عن علم وحكمة وتبيان، وفي الحديث «لن يزال الناس بخير ما تباينوا» أي: تفاوتوا «فإذا تساووا هلكوا» وذلك لاختلال النظام المرتبط بذلك. وقد يقال معناه أنه لا يغتم لتفاوت الناس في المراتب والصنائع بأن يكون مثلاً بعضهم أميرًا وبعضهم سلطانًا وبعضهم وزيرًا وبعضهم رئيسًا وبعضهم أهل الصنائع لتوقف النظام عليه. واعلم أن مراتب السعادات إما نفسانية كالذكاء التام والحدس الكامل والمعارف الزائدة على معارف الغير بالكمية والكيفية كالعفة والشجاعة وغير ذلك، وإما بدنية كالصحة والجمال والعمر الطويل في ذلك مع اللذة والبهجة، وإما خارجية ككثرة الأولاد الصلحاء وكثرة العشائر وكثرة الأصدقاء والأعوان والرياسة التامة ونفاذ القول وكونه محبوبًا لقلوب الناس حسن الذكر فيهم فهي مجامع السعادات، والإنسان إذا شاهد أنواع الفضائل -حاصلة لإنسان ووجد نفسه خاليًا عن جملتها أو عن أكثرها، فحينئذ يتألم قلبه ويتشوش خاطره، ثم يعرض هاهنا حالتان إحداهما أن يتمنى زوال تلك السعادات عن ذلك الإنسان، والأخرى ألا يتمنى ذلك بل يتمنى حصول مثلها له والأول هو الحسد المذموم، لأن المقصود الأول لمدبر العالم وخالقه، والإحسان إلى عبيده والجود إليهم وإفاضة أنواع الكرم عليهم فمن تمنى زوال ذلك فكأنه اعترض على الله فيما هو المقصود بالقصد الأول من خلق العالم وإيجاد المكلفين وأيضًا ربما اعتقد في نفسه أنه أحق بتلك النعم من ذلك الإنسان فيكون هذا اعتراضا على الله وقدحا في حكمته وكل ذلك مما يلقيه في الكفر وظلمات البدعة ويزيل عن قلبه نور الإيمان وكما أن الحسد سبب الفساد في الدين فكذلك هو سبب الفساد في الدنيا، فإنه يقطع المودة والمحبة والموالاة وينقلب كل ذلك إلى أضدادها فلهذا السبب نهى الله عباده عنه بقوله ﴿ولا تتمنوا﴾ الآية فلا بد لكل عاقل من الرضا بقضاء الله تعالى. كما في روح البيان (٢/٤٥٣).

[يونس:٥٨]. قال: تمّت مصلحتك ولو لم تكن مهمومًا لها تجده خيرًا لك؛ فإن الأمر بيد الله، وتدبير النفس لا يغني شيئًا وما تعده عسيًرا فهو يسر بالنسبة إلى الله تعالى، بل العسر واليسر بالنسبة إلى العبد واللازم على العبد تفويض الأمر إلى الله تعالى فلو أدخله في الجحيم ينبغي أن يعدها نعمة؛ لأنه بصنع الله الذي هو المبتلي لا بصنع الغير.

قال حضرة الشيخ في قوله تعالى: ﴿**لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ**﴾ [النساء: ١١]: من جهة المال في مرتبة الشريعة كذلك من جهة العلم في مرتبة الحقيقة؛ لأن الذكر الحقيقي هو أهل الحقيقة الوارثون لعلم الظاهر والباطن والأنثى الحقيقية هي الشريعة الوارثون لعلم الظاهر فقط فالرجال حقيقتهم الذكورة وإن كانوا في صورة الإناث كمريم وآسيه وفاطمة وخديجة - رضي الله عنهن - ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ**﴾ [التحريم:١٢] حيث لم يقل: من القانتات إشارة إلى بلوغ مريم مبلغ الرجال.

ثم قال: إن الله يفتح لبعض الأولياء من العلم اللدني ما لم يفتحه للأنبياء، ولكن لا يلزم من ذلك كون الولي أفضل من النبي؛ لأن كماله كمال من وجه دون جميع الوجوه، ولا يوجب إلى ذكر عائشة - رضي الله عنها، وكلام الشيخ الأكبر - قدس سره - في حقها، وفي حق سائر الصحابة - رضي الله عنهم — فقال: إن الشيخ مأذون في الكلام في حق الكُمَّل أنبياء أو أولياء، وليس لغيره ذلك الإذن.

قال حضرة الشيخ: عالم الدنيا خيال بالنسبة إلى عالم الآخرة، وهو أيضًا خيال بالنسبة إلى عالم الأمر؛ فاليقظة في الدنيا نسبية وكذلك في العقبى واليقظة الحقيقية وراء ذلك، وإنما قيل: لعالم العقبى عالم اليقظة من حيث إنه ناظر إلى عالم الأبد باق كبقاء الأرواح وإلا فالإمكان لا يزول، وإن كان المرء في الجنة.

قال حضرة الشيخ: ليس لله تعالى ند ونظير إذ هو عين واحدة وشيء واحد، ولا وجود للأعيان والأشياء والأعيان، وإن كانت متضادة من حيث التعينات لكن ليس بين التعين والتعيين ضدية كالموصوف له أوصاف يضاد بعضها بعضًا لكن لا

تضاد بينها وبين الموصوف فإذا لم يكن في الوجود سواه تعالى فيكف يوجد له نظير وند، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ [فصلت:٥٤] أي: لقاء العين بالمتعين وغافلين عن ذلك، ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ﴾ [البروج:٢٠] لأن صور الموجودات تعيناته تعالى لا تعينات الغير نسأل الله اليقظة والشهود والوصول إلى معرفة وحدة الوجود، أقول: هذا المعنى قد انكشف لي سابقًا فعرفت به بطلان قول من قال: إن الله عالم بالكليات لا بالجزئيات، وذلك لأن الآثار المختلفة مستندة إلى التعينات، وهي ملاقية بالتعين الذي هو الفاعل الحقيقي فلا يعزب عن دائرة علمه وإحاطته تعالى مثقال ذرة في السماوات والأرض، فكما أن الله يعلم ذاته فكذا صفاته المتجلية بها في صور الموجودات مطلقًا وأفعاله الصادرة عنها في كل زمان وهو كل يوم في شأن، وهذا مذاق معنوي عياني لا مدرك عقلي برهاني، ومن هنا يعرف وجه كمال هيبة الأنبياء والأولياء وخشيتهم من جلال الله تعالى ولو في صورة الفطرة والذرة إذ هي كالبحر وكالشمس مجلي ومظهر لسانه من الشئون الإلهية، فلذا كانت مراقبتهم دائمة باقية، ثم إنه لا بد للسالك من الله بين هذا الموجود الساري فيه لئلا يرد وما هو أخص المظاهر الكونية مع أنه قيل لا تنكر البال في طوره؛ فإنه بعض ظهوراته فافهم؛ فإنه من مزالق الأقدام.

فرق حضرة الشيخ بين الكسب وبين أكل الوظيفة المتعينة، فرجح الأول على الثاني؛ لأن الأول يقول حين تعوده في حانوته مثلاً: يا رب أرسل إليّ من يشتري متاعي، فيذكر الله دون غيره.

وأما أهل الوظيفة فيعدون الأيام، ويعمدون على ما عين لهم من المال، ولا يتكلمون على فضل الله الملك المتعال.

قال: رأيت في «شرح المناسك» للشيخ على الفناري أنه قال: ارتحل أهل الله من الحرمين منذ ظهرت صلاة السلاطين للفقراء السالكين حينما صلى حضرة الشيخ صلاة المغرب والأوابين ليلة المعراج من سنة إحدى ومائة وألف؛ فقال مقبلاً على الأتباع: ليجعل الله ليلتكم هذه مباركة عليكم فرددناه بما قال.

وقال: أوصلنا الله إلى سرِّ المعراج، وهل تدرون ما سره؟ مثلاً قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٨-٩].

وقال: قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ إشارة إلى العروج والوصول ليلة المعراج، وقوله: ﴿فَتَدَلَّى﴾ إشارة إلى النــزول والرجوع.

وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ بمنــزلة النتيجة إشارة إلى الوصول إلى العالم المشار إليه بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:٢].

وقوله: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ إشارة إلى الوصول إلى عالم الذات المشار إليها بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، وذلك في سورة الإخلاص.

ثم قال: هذا المعراج كان في الليلة دون النهار؛ لأن الليل سر الفناء كما أن النهار سر البقاء، وكان أيضًا في صورة الصعود والهبوط؛ لأنه وقع بالجسم والروح معًا، ثم فصَّل وقال: المعراج إما بالجسم والروح معًا، أو بالروح والعلم، والأول مخصوص بالنبي ﷺ؛ فإنه عرج بروحه ثلاثًا وثلاثين مرة، وبجسمه وروحه مرة، والثاني يوجد في الأولياء أيضًا إلا الضعفاء؛ فإنهم يعرجون في المنام والأقوياء في اليقظة حال الانسلاخ التام، ومنهم من لا ينفك عن المعراج كل لحظة، وذلك بالعلم الإلهي الكلي؛ فإنه تعالى يكاشف عن أسرار آياته الأنفسية والآفاقية؛ فيريها له كما قال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:٥٣]، والرائي في المعراج الروحاني عين البصيرة لا عين البصر فإن للكاملين عينين ظاهرة وباطنة فيرى بالظاهرة عالم الملك والشهادة ويعطي بها ما يستحقه ويرى بالباطنة عالم الملكوت والغيب ويعطى بها حقه أيضًا مثلاً ينظر إلى أهل الظاهر بالعين الظاهرة ويعاملهم بما يناسب حالهم، وينظر إلى أهل الباطن بالعين الباطنة ويجاملهم بما يناسب بحالهم فلا يحجب بواحدة منها عن الأخرى كما احتجب أهل الظاهر عن رؤية أهل الحقيقة؛ لأنه ليس له العين الباطنة، وأهل الباطن احتجوا عن رؤية أهل الظاهر؛ لأنه ليس له العين الظاهرة أي: النظر الكامل بمرتبتها والكمال فإن صاحبه ينفق على كل واحد من الفريقين حقه.

ثم قال: المرء إما واصل، وإما غير واصل إلى هذه الأسرار.

أما الواصل فلا كلام فيه.

وأما غير الواصل؛ فإن كانت عزيمته على عدم الانقطاع من المجاهدة إلى الموت فذلك كالواصل؛ لأنه في طريق الوصول.

ثم قال: الصلاة إما لأجل الثواب أو لله تعالى فما كان للثواب لا يكون لله تعالى، وصاحبه أجير، وما كان لله فصاحبه عبد حق وأجره أوفر وأكثر.

ثم قال: أيكم يؤم لنا ويصلي بنا صلاة التسابيح بعد العشاء، وقد قال قبل يوم: أيكم يصلي بنا ليلة المعراج صلاة التسابيح؟ وكنت قد اعتذرت بالزكام فاختاروا هذا الفقير فصليت بهم تلك الصلاة على الرواية الراجحة، وهي التي ليست فيها جلسة الاستراحة بعد السجدة الثانية من الركعة الأولى، والحمد لله تعالى.

ذكر حضرة الشيخ خليفة الشيخ حسين الإزميدي؛ فقال: إنه قد دخله الشك في أمر الرزق والتردد والإنكار في الاعتقاد، ولكن يلزم للمريد الطاعة لأمر الشيخ والثبات في الأرض التي استخلفه فيها؛ فإن الشيخ من أولى الأمر للمريد، ولا بد من المتابعة للقضاء والاقتفاء والتسليم ولا يكون القضاء تابعًا له، والمريد من لا إرادة له والمؤيد من عند الله تعالى، وإن وقع اضطراب من جهة النفس في بعض الأحيان كما يقع لأرباب النفوس البشري لكنه لا يستقر عليه بل يتحول إلى السكون والأنس وهذا غير مضطر في طريقه لقبوله الزوال، وإنما ذلك تربية له، ثم تلا قوله تعالى على هذا التأويل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا**﴾ أي: بالله عما سوى الله ﴿**إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ**﴾ [الأعراف:٢٠١] إما بحسب الدنيا أو بحسب العقبى، والشيطان، والنفس، والحلال أمر واحد في الحقيقة، لكن الأول بحسب الشريعة.

والثاني بحسب الطريقة.

والثالث بحسب الحقيقة إذ لكل مقام عبادة مخصوصة به ولابد من الاعتبار، فنصوا بحسب الظاهر إذ لا تردد في اعتقاده فقد تمسك ما تمسك باعتبار أنه حق

وصدق واقع بخلاف التردد؛ فإنه مذبذب وليس ذلك إلا بمقتضى استعداده، ثم أخبر عن نفسه فقال: إني كنت ابن سبع عشرة حين دخولي في الطريق، ومنذ قد دخلت انحل العقد الأول بالتقوى لأمر الله تعالى، وأن الله إذا أراد بعبده خيرًا وجذبه إلى جانبه زاد في تجرده وانقطاعه إلى آخر العمر، قال: لا نفع له من إقرار واحد كما لا ضر من إنكاره.

وقال: المريد لا يعرف حال شيخه ولا يعتقده حق الاعتقاد ما دام لم يصل إلى مرتبته إلا أن يعرفه الله قبله، وهذا الشأن لا يكون من خارج بل من داخل فلا بد للعبد من الافتقار ورد التردد والإنكار من العلم والعرفان والشهود والعيان والتذكير والبيان وكثرة الصوفية والإخوان قيد لأهل الحق ولا بد من التجرد من القيود، قال: من وصل إلى الله فهو قائم بالحق، دائر بأمره مستمر، فلو أدخل الله كل الخلائق الجنة دونه لم يتألم منه أصلاً؛ لأن الأنس بالله لا يتفاوت بالدخول والخروج والمقصود هو الأنس.

قال حضرة الشيخ: الابتلاء لا يزول إلى آخر العمر، وإني إلى الآن مرة ابتليت بالبسط ومرة بالقبض والانقباض؛ لأن الكل قضاء الله تعالى، قال في حق موسى عليه السلام: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾ [طه: ٤٠].

قال أحد العلماء: أي: وطحناك طحنًا، قال: إن يونس عليه السلام كان له إذن في أمر الخروج بحسب الحقيقة لكنه لما لم يكن مقارنًا بالإذن الصوري ابتلاه الله بالحوت فالاحتياط لازم.

قال: إن بعض المريدين بل الخلفاء لو أظهرت لهم ما أنعم الله به عليَّ من الأسرار والحقائق لفروا مني كما يفرون من الأصنام لعدم ثباتهم في أمر الاعتقاد، ولا بد من الفرار إلى الله تعالى من كل قيد وعلاقة وترك الحق خلفه كما قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ [المدثر: ١١] فإن الحضور في ذلك.

قال حضرة الشيخ: إن بعضهم يتسارع انكشافه وبعضهم يحصل له على

التأني ثم أنشد قول الهدائي في بعض مفرداته التركية [....].

قال حضرة الشيخ: رأيت شيخي الصغير في المنام، وقلت: هل أنت راضٍ عني؟ قال: نعم، فكررت اطمئنانًا فلم يزل يشير بالرضا ثم أمرني باجتناء من بعض ثمرات حديقة، فاستيقظت.

قال حضرة الشيخ: أولاد العرب أشد كبرًا وفخرًا من غيرهم فمن قابلهم بالتقدم أخروه، ومن قابلهم بالتأخر قدموه، وفيه سر «من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله».

فقلت: هذه المعاملة تحتاج إلى سعة الأخلاق؛ فإنه لا يتحمل أوضاعهم إلا القليل من أفراد الرجال، قال: نعم، وجاملناهم غاية المجاملة حين مررنا بمصر في طريق الحج فعظمونا، وبجلونا وشيعنا حين الخروج منها قريب من أربعمائة من شيوخهم وعلمائهم، خصوصًا إبراهيم اللقاني شيخ الحديث، وصاحب السلسلة، ومختار الكل، وبكوا علينا بكاء شديدًا.

وتلا حضرة الشيخ قوله تعالى: ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقال: إن أهل الإسلام كثيرون بالنسبة إلى الجانبين كما ترى أن كفار «نمجة» وهم كثيرون بالنسبة إلى كفار فرانسز، فأسوته تشير إلى الجانبين كما ترى، وكما أن كفار نمجة محاربون مع فرانسز، كما كانوا محاربين مع أهل الإسلام، وقد هزموا أهل الإسلام مرات وهزمهم - أي: نمجة - كفار فرانسز مررًا، والكل بيد الله.

قال حضرة الشيخ: ليس الوصلة بيني وبين خلفائي إلا من الوصية؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ [العصر: ٣] فالوصية بالحق والصبر لا بد لي منها في حق الكل خصوصًا في حقهم.

قلت لحضرة الشيخ: أصعب شيء عندي أمر إصلاح الأخلاق.

قال: أين نحن من ذلك؛ فإن المصلح هو الله ألا ترى إلى قوله سبحانه وتعالى:

﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩]، ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدا﴾ [النور: ٢١] فالكل من عند الله.

كان حضرة الشيخ قد أشار إلي بالمكث إلى آخر رجب فلما تمت المدة عين يوم السبت للخروج، وهو الرابع من شعبان فقبلت يده الشريفة بعد صلاة الفجر من ذلك اليوم فدعا لي دعاء جامعًا دنياويًّا وأخراويًّا، وقال في آخره: هذه العبارة التركية [.........].

* * *

الزيارة السابعة

هذه الزيارة آخر الزيارات وهي قبرصية، وقعت في هلال سنة اثنتين ومائة وألف، وقد سبق سببها، وبعض كلماتها على التفصيل فلا نعيده ولا علينا أن نشير إلى البعض الآخر منها.

قال حضرة الشيخ: إن استناد الكفار إلى الأحجار ألا ترى على القلاع والحصون، واستناد المؤمنين إلى لا إله إلا الله ألا ترى أنهم لا يتحصنون بحصن سوى التوكل عليه تعالى وهو يكفيهم، قال: «**لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي**»[1].

قال حضرة الشيخ: إن حسام أفندي المدفون في «استانكوي» من أجلة مشايخ الطريقة، وقد مضى منذ مات قريبًا من المائة، وهو أستاذي المعنوي؛ لأنه قد قرأت منه في المنام.

قال حضرة الشيخ: قوله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ**﴾ [آل عمران: ١٤] الآية إشارة إلى أصحاب الشمال، وقوله تعالى بعده: ﴿**وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾ [آل عمران:١٤] إشارة إلى المقربين من أصحاب الميمنة.

وقوله تعالى: ﴿**قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ**﴾ [آل عمران:١٥].

الآية إشارة إلى الأبرار من أصحاب الميمنة، ومقام العندية المأخوذة من قوله تعالى، والله عنده أفضل وأعلى كأنه تعالى أشار بتعقيب الجنة بذلك أنكم أن كان لكم ميل إلى ما سوى المولى فليكن ذلك إلى الجنة لا إلى متاع الحياة الدنيا.

قال حضرة الشيخ: لا ينفخ الروح ما لم يكمل الجسد والجسد هو الشريعة والطريقة والروح هو المعرفة والحقيقة فإذا كمل شريعة السالك وطريقته فليرتقب نفخ روح المعرفة والحقيقة وإلا فلا.

قال حضرة الشيخ: أستاذ المرء وشيخه أعلى وأفضل من الأب الطيني؛ لأن الأب الطيني موجود للكفار وأهل الإسلام مشتركون فيه، ويمتاز المسلمون منهم بالأب الديني، وهو المعلم والمرشد، ثم قال: خير الآباء من علمك، ووصى حضرة الشيخ بأن يقرأ المؤذن بعد إحدى وأربعين الصلوات على النبي ﷺ في أعقاب المكتوبة

(١) رواه القضاعي في الشهاب (٢/٣٢٣)، والديلمي في الفردوس (٥/٢٥١).

على ما في وصايا حضرة الهدائي فاتحة الكتاب، وآية الكرسي، و﴿**شَهِدَ اللَّهُ** ...﴾ إلى قوله: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عندَ اللَّه الإِسْلامُ**﴾ [آل عمران: ١٨– ١٩].

و﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنــزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦ – ٢٧] ثم يسبح ويحمد ويكبر، وذلك في دُبر كل صلاة على ما في معالم التنــزيل.

قال المشايخ: اتخذوا الخانقاهات لأجل أن يشتغلوا فيها بإتباعهم بإحياء مثل هذه الأمور، ومعنى الإحياء: ترك الإهمال، والأخذ بالاستعمال، ثم وصى بترك القيل والقال، وترك أسباب الاشتهار، وبأخذ الخمول والمجاهدة مع النفس والطبيعة.

وقال: إن القوى الطبيعية والنفسانية ككفار الإنس والجن، والقوى القلبية والروحانية كمسلميهم، والملك فكما أن الجهاد في الظاهر بين المسلم والكافر ماضٍ إلى يوم القيامة، فكذا الجهاد في الباطن بين القوى، وإن الله لا يجرد العبد من كلِّ علاقة في كل زمان، بل يسلبه في بعض الأحيان، وإن كان إنسانًا كاملاً يبقى على المجاهدة؛ فإن الإنسان لم يترك سدى.

قال حضرة الشيخ: معنى نداء المؤذن: صلوا على النبي عليه السلام إحدى عشرة صلاة، أن الأفلاك سبعة وبالعرش والكرسي واللوح والقلم، يصير المجموع أحد عشر، والصلوات بعدها إشارة إلى نــزول الفيض من هذا المذكور، ولا تعين فوق هذا روحانيًا أو جسمانيًا، ولهذا انحصرت الصلوات عند البعض في العدد المذكور، ثم حضرة الهدائي اختار إحدى وأربعين مرة فنحن على الامتثال، ولا شغل لنا غير الطاعات والأعمال؛ فاجتهدوا أنتم حتى تكونوا متبعين لنا في هذا الباب، وحتى يقول الرسول ﷺ يوم القيامة: [خوش كلدك]؛ والله تعالى [خوش كلدك خاصة قوله] فإن المراد بإحياء ما أهمله الناس من السنن والمستحبات أن يكون المرء عبدًا خاصًا صاحب عزيمة وتقوى، والله تعالى قال: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ [التغابن: ١٦] إشارة إلى أرباب الرخصة من المؤمنين.

وقال أيضًا: ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِه**﴾ [آل عمران:١٠٢] إشارة إلى أصحاب العزيمة منهم فكل ضرر في الدنيا والآخرة إنما يأتي من الإهمال، ثم دعا مرتين دعاءً جامعًا.

وجاء إلى حضرة الشيخ واحد من الأطفال بخبرين فلاطفه، وقال: إن الطفل قريب العهد إلى عالم الذات، وفيه رائحة ذلك العالم، ولذلك يستأنس به الشيوخ، وينـــزلون إلى مرتبته في التكلم وغيره.

جمع حضرة الشيخ الصوفية، وهم أربعة أنفار غير ولده السيد مصطفى والفقير؛ فقال: اعلموا أن أول من ابتلى بالاحتلام أبونا آدم عليه السلام فإذا وقع لأحد منكم فاغتسلوا تحت هذه الغرفة في المحل المهيأ للوضوء والاغتسال، ولا تستحيوا، وارفعوا التكلف من البين في الدخول والخروج؛ فإني لا أرضى بغير ذلك، أقول: إن روح الله روحه تنـــزل نفسه في أواخر عمره منـــزلة واحد من الناس - يعني: عند أتباعه - فلذا رفع الكلفة بل الخدمة؛ فإنه كان لا يستعين أحدًا في وضوئه أصلاً.

قال حضرة الشيخ: إن عالم الفناء عالم القدس، والتجرد بخلاف الرد إلى البقاء؛ فإن الله تعالى يبتلي صاحبه بما يبتلي به أصحاب الطبيعة، والنفس لكنه على اليقظة والعرفان وأصحابهما على الغفلة والجهل يعني: أن المردود إلى البقاء وإن كان مبتلى بأنواع البلايا لكنه على الله مع الله، فلا يعتريه جزع ونحوه بل يحمد على النعمة والمحنة ويستغفر عند الذلة بخلاف غيره من الباقين في الفرق الأول، ثم قال: كما أن الوجود لله تعالى حال الفناء فكذا حال البقاء، وإن كان مضافًا إلى العبد صورة ألا ترى أن من ركب دابة، فقد يقال: إن له دابة لكن ليس له دابة فكما أنه مسلوب عنه تلك الإضافة حال عدم الركوب، فكذا في حال الركوب وهذا من مزالق الأقدام، قلت: هل ترفع الانقباض من أخلاق النفس؟ قال: لا ولو كان نبيًّا؛ فإن الله تعالى لا يدع العبد في الدنيا على يد واحدة وهي الجمال الصرف، وإنما يكون ذلك في الجنة إذ الابتلاء يرتفع هناك، وكل ورد التزم يحتمل السقوط إلا ورد الاستغفار؛ فإنه باق إلى آخر العمر بمكان الابتلاء بالمجاهدة ما دام حيًا ولو عين رسول الله ﷺ الاستغفار كل يوم مرة وعرف أنه يستغفر ربه كل يوم هذا العدد، قال: ومن هذا ظهر أن الاستغفار ليس في ترتيب الأسماء السبعة لعدم خلو كل مقام عنه ولو كان فيه بخلاف نفسه عن بعض المقامات وليس كذلك.

قال حضرة الشيخ: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة:٦] إشارة إلى أهل اليقظة حسناهم غالبة على سيئاهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة:٨] إشارة إلى أهل الغفلة لما

أن سيئاتهم غالبة على حسناتهم والحكم للغالب في الفريقين فظهر أنهم مشتركون في فعل السيئة ولو بحسب مراتبهم، ولا يرتفع ذلك الابتلاء عنهم، ولذا قال رسول الله ﷺ لعليٍّ ﷺ:

«**يا عليُّ، إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة**»[1] لما أنه مقتضى اسم الغفور.

وقد كان الطَّيِّلاً يعلم أنه يعمل السيئة، ولو في بعض الأحيان، ولو بحسب الفكر، ولذا وصى بالحسنة، وإنما قلنا بحسب الفكر؛ لأن ما يدور في جنان أرباب العزيمة مأخوذ به.

ثم قال: والحاصل أن توارد الليل والنهار إشارة إلى توارد السيئة والحسنة فكما أن الدنيا لا تبقى على الليل وحده أو النهار وحده بل هما على التعاقب دائمًا فكذا العبد المؤمن لا يخلو من نور العمل الصالح وظلمة العمل الفاسد والفكر الفاسد فإذا كان يوم القيامة يلقي الله الليل في جهنم والنهار في الجنة، فلا يكون في الجنة ليل كما لا يكون في النار نهار. يعني أن النهار في الجنة هو نور إيمان المؤمن ونور عمله الصالح بحسب مرتبته، والليل في النار هو ظلمة كفر الكافر وظلمة عمله الفاسد فكما أن الكفر لا يكون إيمانًا فكذا الليل لا يكون نهارًا، والنار لا تكون نورًا فيبقى كلٌّ من أهل النور، والنار على صفته الغالبة عليه، وأما القلب وحاله بحسب التجلي فهو على عكس الحال الغالب؛ فإن نهاره المعنوي لا يتعاقب عليه الليل، وإن كان يطرأ عليه استناد في بعض الأوقات.

قال حضرة الشيخ: في قوله تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**﴾ [الأنفال:٢٤]: إن من حيلولته تعالى بين المرء وقلبه أن يحب بعض العباد الشغل بالعلم والمعرفة وغيرهما وبعضهم الشغل بخلاف ذلك ولو عرض على أحدهما شغل الآخر لتنفر وأعرض، وقلب المرء بين أصبع من أصابع الرحمن.

قال حضرة الشيخ: أنا في عالم الغربة عند ست سنين، قلت: ورد فطوبى للغرباء، قال: من هو في عالم الغربة كمن بقي وحده في البحر المحيط، وإلى هذه المرتبة أشار الطَّيِّلاً: «**كنت يتيمًا في الصغر، وغريبًا في الكبر**»[2].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٧٥/٢٠)، بنحوه عن معاذ.

(٢) لم أقف عليه.

قال: ومعنى الغربة أن ينسلخ عن كل صورة ومعنى وينقبض عن جميع الاستهالات والتنـــزلات ليبقى وحده.

قلت: هل شيء وراءها يكون مطمحًا للعارف؟ قال: هي غاية الغايات، ولا مطمح وراءها.

قلت: الغربة كحال النقطة حيث يضمحل عندها تفاصيل تعينات الحروف والكمالات والسطور، قال: نعم وإنما يحصل ذلك فوق التعينات علمية أو عينية، قال: وفقني الله من أسرار الحروف المقطعة على ما لا يوصف، قال: إني ما وجدت علم الظاهر والباطن إلا بخدمة الشيخ، وحسن الاعتقاد؛ فإن تأثير الخدمة وحسن الاعتقاد فوق تأثير المطالعة والاجتهاد.

قال حضرة الشيخ: فسَّر ابن عباس ﷺ قوله تعالى: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه:١١٤] أي: إيمانًا ويقينًا بك[(١)]، وهو أجل التفاسير وأدقها، وذلك لأن علو الإيمان واليقين به دون غيره، وهو أصعب الأمور.

قال حضرة الشيخ مخاطبًا لهذا الفقير: كيف حالك؟ قلت: طيب.

قال: في السكون أو في الحركة؟ قلت: في الحركة.

قال: البركة مع الحركة، وكنت عند هذه المقاولة أكتب كلماته الشريفة التي سمعتها منه في ذلك اليوم وذلك وراء سبحات الذي كان عينه لي في بيته المنيف توضأ حضرة الشيخ فمسح ذراعيه لأمن إسالة الماء الجديد عليها فخطر ببالي منع الفقهاء من ذلك وأن المناسب بحال حضرة الشيخ وصَّى التقيد بأحكام الشريعة غاية التقيد أن يكون على خلاف ما رأيت منه وهذا قد مر على خاطري من غير اعتراض؛ لأنه لم يكن من شأني الاعتراض قديمًا لكنه لما كان في صورة الاعتراض أراني الله في المنام تأديبًا وتربية كأني مشرف من محل مرتفع، وإذا مدرس مذموم بين الناس استقبلني من الطريق، وأرى أن لحية حضرة الشيخ كأنها مصفرة وكذا لونه، وقد كان أبيض فانتبهت فعرفت الحال، وأستغفر الله الملك المتعال؛ فالمدرس إشارة إلى المسألة الشرعية التي خطرت ببالي، واصفرار اللون إشارة إلى النظر بالنقصان وعلى الله التكلان، ونعوذ به من الخذلان.

---

(١) رواه الطبراني (١٠/١٨٥).

طالع حضرة الشيخ حاشية على تفسير الفاتحة التي نسختها من نسخته المباركة، ثم قال بطريق الملاطفة: شددوني وضربوني مائة سوط؛ فإن الله تعالى أنعم عليَّ بمثل هذه النعمة الجليلة، وأنا على كفران نعمة.

قلت: إن وقع ذلك فقد ذكركم الله نعمة السابقة، فقال: أستغفر الله من الكفران والعصيان.

قال: إن السالك لا يخلو من إجمال وتفصيل إلى آخر عمره، وحقيقة التفصيل تظهر عند احتضاره ثم هذا التفصيل إجمال بالنسبة إلى التفصيل البرزخي وهو إجمال بالنسبة إلى التفسير البرزخي وهو إجمال بالنسبة إلى التفصيل الكشفي الذي يظهر عند الرؤية ثم لا نهاية للتفصيل.

شكوت إلى حضرة الشيخ من أخلاق النفس، قال: لا يتخلص العبد من الانقباض من أخلاق النفس إلا في مرتبة الأحدية الذاتية؛ فإن فلكها واسع وإحاطتها كاملة وعندها ينجلي قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة:٢٤٧]، وكلٌّ خيرٍ وشرٌّ تعين في جميع التعينات إلى أن ينـــزل إلى تعين جنانه أو لسانه أو أعضائه فيظهر الفكر والذكر والفعل فأصحاب تلك الرتبة الأحدية بدون ذلك ولا يتأذون في صورة الشر؛ لأنه أمر فاشٍ من استعداده خارج من كيس تعينه، والله تعالى لا يتأذى أصلاً، وهو أصبر على أذى يسمعه فكذا من ذاق من مشرب المرتبة المذكورة، وأما مرتبة الواحدية الصفاتية فليست في الإحاطة كالأولى.

قال: إن حقيقة الإسلام أمر مشكل صعب لا يتحقق به إلا الأفراد فلا تعجل إذا كان إيمان بأرباب هذا الشأن؛ فإن الله تعالى لما عجل في إظهار وجودك في هذا النشأة وكل أمره تدريجي فترقب المقصود ولو بعد حين ويلزم عليك الآن حسن الاعتقاد في الباطن والقيام والصيام في الظاهر فوظيفة الظاهر التعبد بأحكام الشريعة ووظيفة الباطن قطع الميل إلى ما سوى الله، وعند وقوع زيغ أو ذلة يلزم الاستغفار.

قال حضرة الشيخ: إن الله أيدني فلم يصدر مني ما يخالف ظاهر الشرع مع غلبة الحال المحرقة سنين، ثم قرأ قوله عليه السلام: «**إن الله أدبني فأحسن تأديبي**»[١].

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٧٢/١).

قال: إني أحب سماع تلاوة بعض السور كسورة والضحى والانشراح والنصر؛ فإنها جاءت على حسب حالي، والله تعالى وفقني لمطابقة القرآن أنفسًا وآفاقًا، وأعطاني ما أعطاني من جهة القرآن.

قال حضرة الشيخ: إن الملك والشيطان كالقلمين اللذين يرسم أحدهما بالمداد الأبيض، والآخر بالمداد الأسود وحركتهما مستندة إلى الكاتب، ولا صنع لهما في الحقيقة؛ فالله تعالى يحول بين المرء وقلبه وقلم الخير وقلم الشر بيده والملك والشيطان من قبيل الوسائط لكن الأدب إسناد الشر إلى النفس والشيطان والخير إسناده إلى الله الملك المنان وهذا الفرق لا ينافي ذلك الجمع بل هو عين التوحيد والمراتب متفاوتة فمن مشى على المراتب أمن من العثور.

أقول: رأيت في المنام حضرة الشيخ، وهو يقول: إنه من لم يقاسي مشاق هذه الطريقة فهو يموت بلا دين ولا إيمان.

فقال خادمه القديم علي دده مثالاً لذلك: الحمار يتحمل مشقة الحمل الثقيل مع كونه حيوانًا كذلك الإنسان إذا لم يتحمل المشقة مع كونه إنسانًا يكون أنـــزل درجة منه.

قال حضرة الشيخ: رأيت في المنام حضرة الشيخ الأكبر مع ابنه صدر الدين القونوي - قدست أسرارهما - واعتذرت إليهما بأني أريد أن أزوركما لكن لا أعرف مكانكما فأشار أن اثبت في مقامك ومكانك أننا لا نفارقك أين كنت فقلت: رأيت حضرة الشيخ الأكبر بقلنسوة (ناتازيه)، يقال لها بالتركي: [قلياق].

قال: لا ضير إنه مجرد عن كل لباس، وظاهر في كل صورة، وصى حضرة الشيخ الصوفية الحاضرين بالاستغفار قبل الغروب؛ لأن المرء لا يخلو يومًا مما يخالف رضاء الله تعالى، وذلك اليوم شاهد على ما فعل.

قال حضرة الشيخ: حالة النوم وحالة الانتباه إشارة إلى الغفلة ويقظة البصيرة فوقت الانتباه كوقت انتباه القلب في أول الأمر، ثم قال: الحركة إلى الوضوء إشارة إلى التوبة والإنابة ثم التكبيرة الأولى إشارة إلى التوجه الإلهي فحاله ومدة الانتباه إلى هنا إشارة إلى عبوره عن عالم الملك، وهو الناسوت ودخوله في عالم الملكوت، ثم الانتقال إلى الركوع إشارة إلى تجاوزه إلى الجبروت، ثم الانتقال إلى السجدة إشارة إلى وصوله إلى عالم اللاهوت، وهو مقام الفناء الكلي، وعند ذلك يحصل الصعود

الكلي إلى وطنه الأصلي ثم القيام إلى السجدة إشارة إلى البقاء؛ فإنه رجوع الولاء ففي صورة النـــزول عروج وبالعكس فافهم، والركوع مقام قاب قوسين وهو مقام الصفات أي: الذات الواحدية، والسجدة مقام أو أدنى، وهو مقام الذات الأحدية، والحركات الست هي حركة القيام إلى الركوع ثم منه إلى السجدة الأولى ثم منها إلى الجلسة ثم منها إلى السجدة الثانية ثم إلى القيام إشارة إلى خلق الله السماوات والأرضين في ستة أيام فالركعة الواحدة من الصلاة محتوية على أول السلوك وآخره وغيره من الصور والحقائق الدنيوية والأخروية والعلمية والعينية والكونية الإلهية.

قال حضرة الشيخ: أمهات الأسماء سبع وهي: الحي والعليم والقدير والمريد والسميع والبصير والمتكلم، وكل منها ينقسم إلى سبعة باعتبار أنه الحي يؤخذ فيه الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والتكلم لكن لما كان الصفة الغالبة هي الحياة أخذت هي لكونها بالفعل ولم يعتبر المقلوب وبالقوة فإذا كان الحي سبعة بهذا الاعتبار فقس البواقي عليه.

فالسبعة بسبع مرات يبلغ إلى تسعة وأربعين ثم باعتبار الظهور والبطون يكون المجموع ثمانية وتسعين ثم باعتبار المجموع والإفراد يصير تسعة وتسعين ثم باعتبار أحدية المجموع والإفراد يصير مائة؛ فالأول إفراد حقيقة وعدد حقيقي، والثاني والثالث فرد وعدد اعتباريان.

ثم قال: والسماوات السبع بإزاء هذه السبع، وهي ما ذكر في قوله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ**﴾ [آل عمران:١٤].

فهذه الشهوات السبع المفصلة قد جعلها خمسًا في آية أخرى، وهي قوله تعالى: في أواسط سورة الحديد: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ**﴾ [الحديد:٢٠].

ثم جعل هذه الخمس في أمرين وأدرجها في آية أخرى، قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى**﴾ [النازعات:٤٠] جامع لأنواع الشبهات، فمن تخلص عن الهوى فقد تخلص عن كل قيد مانع للسالك من الوصول إلى المطلب الأعلى.

خاطب حضرة الشيخ هذا الفقير بلسانه أن حاشيتي على تفسير الفاتحة

للقونوي، قد أعجبتني فإني منذ صنفتها لم أطالعها إلى الآن، وإنما جاءت بحمد الله كدرر منظومة بحيث لا تُوصف، وإنما من فضل الله وقد صنفتها في مائة وعشرين يومًا، وبقي ورق من أوراق من آخر التفسير غير محشي؛ لأنه وقع لقلبي الأستار هناك فأمسكت عن التحرير، وكان فيض الله عليَّ حين التحرير بحيث لا يوصف فلم ينقطع عن تلك المدة ولو لحظة.

قال: إني أُحب خطك لتعليقي، لكن هذه النسخة التي بخطي.

قلت: الكل لكم، ثم قلت: قد استغرب حضرة الشيخ الشهير باقتادة – قدس سره – فهم تفسير الفاتحة فضلاً عن تعليق الحاشية عليه، وهذا التفسير من قد صنف، وهو أكثر من أربعمائة سنة بقى بكرًا إلى الآن، وإن الله فتح على يديكم.

ثم قال: إن خلفائي كثيرون بعضهم في الحياة، وبعضهم قد مات، وإن هذه النفَس والتأثير يصل بعدي إليك لا إلى غيرك؛ فإن لك إحاطة بهذا العلم، ولك تحريرًا لطيفًا، قال: وإني وجدت ما وجدت بنفس شيخي ودعائه وقد أعطيتك هذا النفَس والدعاء بإذن الله تعالى، فسارعت إلى تقبيل طرف ذيله وأخذت دعاءه ونفسه النفيس ويكفيني شرفًا وسعادة في الدنيا والآخرة، وقد كرر حضرة الشيخ المقال المذكور في مجالس مختلفة في أواخر عمره وعد زياراتي له في جزيرة قبرص من الوراثة.

وقال: إنك لم تبلغ الآن إلى نصف من السلوك ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾ [الضحى:٥]، والحمد لله حمدًا كثيرًا يستوعب الأوقات ويستغرق جميع الحالات.

قال حضرة الشيخ: المجاهدة طريقة مسلوكة لأهل البداية والنهاية، أما أهل البداية فيجتهدون تربية، وأصلاً، وأما أهل النهاية فشكرًا، ولذا قال عليه السلام:

«**أفلا أكون عبدًا شكورًا**» (١) فالفتور في المجاهدة يؤدي إلى تقوية القوى الحيوانية، وتضعيف القوى الروحانية مع أن السالك مأمور بالإمداد إلى طرف الروح؛ فإنه كالإمداد إلى عسكر الإسلام في الظاهر، منهي عن الإمداد إلى طرف الجسم، فإنه كالإمداد إلى جيش الكفار في الظاهر، وكل منها مذموم، وإنما الممدوح إلى ظاهر الدين الحق وباطنه إلى أن يغلب أهله عدوه في الظاهر والباطن، والنشاط

---

(١) رواه البخاري (٣٨٠/١)، ومسلم (١٨٥/١).

ليس بشرط في المجاهدة، ألا ترى قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً﴾ [التوبة: ٤١].

قال: وأرى بشرتك غير ما رأيتك قبل.

قلت: وقع الفتور في المجاهدة منذ سنة بسبب أني أفرطت فيها؛ فقيل لي: [هداي أو ليحق تقدير كار ايلمز اكاندبير] (١)؛ فقال: كن على الاعتدال في كل حال من غير إفراط وتفريط وليكن همتك في العبودية التذلل المحض دون ظهور فيض أو غيره؛ فإن العمل الصالح هو ما ابتغى به وجه الله تعالى دون غيره من العلوم والمعارف والأسرار والحقائق وغيرها، وكل نشأة فهو بذر ما يليها كالدنيا؛ فإن من حرث فيها يحصد في الآخرة ومحصول هذا البذر الدنيوي ظهر في النشأة الأخروية، قال: إن كل نشأة فهي بذر ما يليها كالدنيا تخالف ما قبلها وما بعدها؛ فإن الله لا ينشئ شيئًا مرتين في صورة واحدة، فإنه عبث، وهو منـــزه عنه؛ فهذا الظهور الدنيوي إذا ذهب إلى البطون فلا يعود أبدًا بل ينتقل على المثال البرزخي وهو تخيل آخر ثم المثال البرزخي ينتقل يوم النشر إلى الوجود العيني الحشري، وهو غير البرزخي باعتبار إذ اتحاد الحقيقة في كل نشأة كحقيقة الإنسان لا ينقلب إلى حقيقة أخرى لا ينافي الغيرية، ولو من وجه فحقيقة الوجود متحدة، والظهور مختلف فافهم؛ فإنه من مزالق الأقدام، قلت: لم أدرك كيفية الوجود البرزخي هل هو كما في الدنيا؟ قال: نعم؛ وإنما الفرق أن البطون في هذه النشأة يكون ظهور هناك فيكون الغيب شهادة، والشهادة غيبًا.

قال حضرة الشيخ: أصل كل شيء هو الحرف، فإذا انضم إليه خاصتان له يصير كلمة إما اسمًا أو فعلاً أو حرفًا، وهذا التركيب جارٍ في العوالم.

قال حضرة الشيخ: إن الله تعالى ألقاني هنا، ومن قلعة ماغوسة كلمة بديعة له أني كنت أرجو أن يظهر من السلطان أو الوزير أو غيرهما واحد فتنصح بكلامي ويصلحني ويكون سببًا لنظام العالم فالآن عرفني الله أن ليس في سلطان الزمان وأتباعه استعداد لقبول النصح ومداراته لحياة العالم، فجردني عن القسطنطينية وأهلها تجريدًا لا يوصف غير أن الأطفال في البيت يمرون على الخاطر في بعض الأوقات التي لست بمغلوب، وإنما يجيء الخاطر، ويذهب من غير توقف.

قال حضرة الشيخ: بأن الله تعالى رآك لا بقاء بلدة بروسة فاشكر الله؛ فإن

(١) كلام تركي.

العزيز الكبير مدفون هناك، وهو حضرة الشيخ الشهير باقتادة - قدس سره - والعزيز الكبير وهو خليفة حضرة محمود الهدائي الإسكداري القوجحصاري نشأ فيها وقد ورثك الله تحريره ثم دعا دعاء جامعًا حلوًا يجي من أتباع الفقير رأس حضرة الشيخ يوم الجمعة.

قلت: احتجم[(١)] النبي ﷺ مرة فشرب بعض الأصحاب - رضي الله عنهم - ما خرج من الدم، وهو ممنوع من حيث ظاهر الشريعة، ولذا حمله بعض العلماء على الإفراط، قال: إن سكت النبي ﷺ بعد شرب الدم؛ فهو إذن له وإلا فإن كان من أهل الفرق ففعل ذلك محظور، وإن كان من أهل الجمع ففعله مباح.

وقد ذكر العلماء أيضًا أن من خصائص النبي عليه السلام طهارة ما هو غير طاهر من غيره ولو كان فضلاته.

وأيضًا إن الله طيب، والرسول أيضًا طيب بجميع أجزائه من غير تفرقة بين جزء وجزء، وظهر من رأس حضرة الشيخ بعض دم من الموسي[(٢)] فمسحه، وقال: يجيء يوم يبلى هذا الرأس وجميع أجزاء الوجود، فقلت: لا تبلى إن شاء الله، قال: بأي دليل تقول؟.

قلت: لأن التوحيد الحقاني يزيل العفونة البدنية الموجبة للتفسخ، فتبسم، فخطر ببالي أن حضرة الشيخ لو قال: ما علامة الوصول إلى التوحيد الحقاني؟

فإذًا أقول له: فخطر من تلعثم أن نور وجهك المبارك وكمال تعبده بالأحكام الظاهرة وتخلقه بالأخلاق الحميدة الباطنة وكراماته العلمية التي عجز عنها مشايخ الزمان ومشاهيرهم فضلاً عن إتيان مثلها أهل الرسوم فكل ذلك علامة للمقصود، والحمد لله تعالى.

دعا حضرة الشيخ لهذا الفقير بعد رؤية بعض آثاري؛ فقال: جعل الله قلبك واسعًا ولسانك جامعًا، وجاء في هذا اليوم - أي: يوم الجمعة - درويش من الفقراء القادرية بطريق الزيارة، فسأله الشيخ عن أحواله وسياحته، ثم قال: [اكر تلرار لره ايرمش اوتوراتلرار لرايمش] [(٣)] وكون المرء رجلاً كاملاً أولى من كونه واصلاً إلى الرجل الكامل.

---

(١) أي: تداوى بالحجامة، وهي تشريط موضع الألم وتسخينه لإخراج الدم الفاسد منه.
(٢) هو الآلة الحادّة المعروفة بالموس.
(٣) كلام تركي.

ثم قال حضرة الشيخ: الحدث أصغر وأكبر، وهما في الشريعة ظاهران، وأما في الطريقة فالحدث الأصغر هو حب العقبى، والحدث الأكبر هو حب الدنيا، وأيضًا الأصغر حب العلوم الباطنة والتقيد بمرتبتها، والأكبر هو حب العلوم الظاهرة، وأيضًا الأصغر الشرك الخفي، والأكبر الشرك الجلي.

وأيضًا الأصغر الميل إلى التعينات الباطنية الروحانية.

والأكبر الميل إلى التعينات الظاهرة الجسمانية.

وأما في مرتبة الحقيقة فالأصغر الارتباط بالشئونات الغيبية التي هي مرتبة الأحدية، والأكبر التعلق بالتعينات العملية التي هي مرتبة الواحدية كما قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ**﴾ [الواقعة:٧٧- ٧٨] فالكتاب هي مرتبة الواحدية التي ترتسم في مصحفها نقوش مرتبة الأحدية التي هي القرآن الإجمالي فأهل الميل إلى شيء مما ذكر كونية أو إلهية عينية أو علمية أهل الركون إلى ما سوى الله يلزم ترك صحبة؛ لأنه جنب في مقامه المطلق عن رق كل قيد هو أهل الحق وهم المخلصون بفتح اللام، وهم أعلى من المخلصين بكسر اللام قيد الإخلاص ونسبه إلى نفسه بخلاف المخلص بالفتح بل هو حر عن جميع القيود، فيكون الحق إذا طاب للحق في مرتبة العبد، وعابدًا له في مرتبة فيضمحل جميع النسب فلا يبقى إلا الحق ومجملاً.

ولذا قال حضرة الشيخ الهدائي في بعض إلهياته التركية: [حقي حقله شهودايت أي كوكل] (١) فإن الوجود والشهود قيد بالنسبة إلى العبد؛ فإذا فنى عن إضافة الكون كان الشاهد والمشهود هو الله لا غير كما كان هو لا غير، قال تعالى: ﴿**لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ**﴾ [الواقعة: ٧٩] أي: لا يمس الهوية إلا المطهر عن جنابة التعلق بكل من المقامات المذكورة، والمطهر بالفتح لا بد له من المطهر بالكسر، وهو الله تعالى فالعبد لا يطهر نفسه ولا يزكيه، وإنما يطهره الله تعالى ويزكيه، قال: قطع الله عن قلبي كل علاقة حتى أني صاحبت السلطان سنين، وكان انقطاعي في تلك المدة أشد من الانقطاع قبل الصحبة فلله تعالى الحمد على ذلك، وقد غير مثل هذه الصحبة حال كثير ممن تزيًّا بهذا الزِّي.

قال حضرة الشيخ: أعجبني حاشيتي على تفسير الفاتحة للقونوي أنها من النوادر.

---

(١) كلام باللغة التركية.

قال: وهذا الفيض فضل الله العظيم عليَّ حيث أنعم بمثل هذا على مثل هذا الفقير، قال: قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنـزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٢٨٥] بالنسبة إلى الوحي الظاهر، وأما بالنسبة إلى الإلهام؛ فنقول: صدق وارث الرسول ما أُلهم عليه من ربه، والمؤمنون به.

قال حضرة الشيخ: النظر الصحيح يؤدي إلى معرفة الحق وذلك بالانتقال من معلوم إلى أن ينتهي إلى الحق لكنه طريق التصور والفكر لا يتخلص من الاثنينية، وأما المكاشفة فليس منها الانتقال المذكور وطريقها المذكور، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران:٩١] كيف قدَّم فيه الذكر على الفكر؛ فطريقة الإشراقيين تخالف هذا؟ قلت: إن صاحب الكشاف خاتمة أهل العربية حيث لم يأت بعده بمثل عربيته، قال: نعم، ولكن القشر المجرد لا يفيد كثيرًا؛ فإن العلم هو الذي أخذ من الداخل؛ لأن الخارج علم علماء الرسوم مأخوذ من الخارج، وعلم علماء الحقيقة مأخوذ من الباطن، والمرء إذا لم يأخذ البيان من الله كيف يفسر القرآن ويؤوله بل هو في حجاب وخجل يوم القيامة من مقاله، ولو نجا برأسه لكفى، قال: مثل أبي السعود وغيره، له عين واحده لا عينان والمعنى في الحقيقة هو الذي له عينان، قال: علماء الرسوم كالعميان يستند بعضهم ببعض.

قال حضرة الشيخ: الابتلاء جار في زمان آدم عليه السلام إلى هذا الآن، وإن النبوة عينها معه من الابتلاء، ولا تحول بينه وبين النبي عليه السلام، وكذا الولاية ألا ترى إلى حال الحسن والحسين - رضي الله عنهما، قال: إن الشبلي - قدس سره - بكى مرة لوفاة ولده فتنبه أن مثل هذا البكاء إنما يصدر من النساء، فحلق لحيته حياء من الله تعالى، قال: إن الله تعالى إذا أراد لعبده الترقي يتجلى له في يوم واحد بألف صورة ويبتليه بأنواع البلايا، وإذا أراد له التنـــزل يبقيه أربعين سنة على حالة واحده.

قال حضرة الشيخ: علم الشريعة يبقى هناك لأن متعلقه على الفناء، وإنما يذهب إلى الآخرة ثوابه بحسب العمل بالإخلاص.

وأما علم الحقيقة فيذهب إلى الآخرة؛ لأنه على البقاء، وهو أزلي أبدي لا زوال له في كل موطن ومقام.

قال حضرة الشيخ: إن الله تعالى الحق هذه الدار أهل اليقظة الواصلين بأهل

الغفلة المحجوبين في التعبد والتقيد بالأحكام والآداب، ولذا وجب الاغتسال من غير تفرقة بين أهل الجمع والفرق.

وأما في الدار الآخرة فعكس الأمر بأن ألحق أهل الحجاب بأهل الكشف في دفع القيد، ولذا لم يُوجب الاغتسال في الجنة، ولو جامع كل يوم ألف مرة.

أقول: هذا من لطائف الأسرار وفَيضه عن الأغيار.

قال حضرة الشيخ: وراء الجسم روح مجرد فوقه عين مجردة، وفوقها سر مجرد، ومنه يظهر قول الهدائي في بعض إلهياته التركية [...].

قال حضرة الشيخ: من قال في حقنا قولاً فاحشًا أو إذا آذنا بفعله أو تركه فهو في حل؛ فإن إرادة الانتقام له أو وقوعه في أمر مكروه من باب الشرك في طريقنا فنحن لا نلتفت إليه أصلاً بل إلى ما دبر الله لنا في علمه، وكل تدبيره خير ومحبوب، وإن كان في صورة المكروه؛ فإنه قد أخفى جماله في جلاله، ولطفه في قهره، ونوره في ناره، ألا ترى إلى حال إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾ [آل عمران: ١٩] أي: التسليم في جميع المراتب بالقلب والقالب واللسان كما قال تعالى: في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ**﴾ [البقرة: ١٣١]؛ فهذا القول بالإسلام إنما كان بالإسلام بالقالب والقلب والروح والسر، وإلا فالإسلام القولي لا يفيد، ألا ترى أن كثيرًا من الناس يقول: إني أسلمت لله تعالى، ولكن عند الامتحان يكرم الرجل أو يهان؛ فجميع الابتلاءات إما لإظهار الغل والفش، وهو لأرباب التسليم الصوري، وإما لإظهار الخلوص والانقياد، وهو لأصحاب التسليم الصوري والمعنوي؛ فإن بالابتلاء يظهر من معادن نفوسهم جواهر هي عند الله على الجواهر كما أن من معادن نفوس غيرهم يظهر ما ليس عند الله بشيء بل موجب لسخطه وغضبه كالغضب والاضطراب والقول الفاحش بالدعاء لسوء وغيرها.

قال حضرة الشيخ: إذا ما مت فافعل ما بدا لك؛ فإن الأمر إذًا بينك وبين الله، وقد انقطع القيد الصوري، وهو الاستعداد.

أقول: ظهر من هذا أن الشيخ ما دام حيًّا، فالرجوع إليه في المهمات فنفسه النفيس كالوحي الظاهر بالنسبة إلى المريد؛ فإن الأنبياء – عليهم السلام – يبلغون الوحي في الباطن من الوجه الخاص أولاً، ثم يجيء جبرائيل عليه السلام من الوجه العام ثانيًا،

وهم ينتظرون ذلك المجيء فالشيخ كجبرائيل للمريد وجبرائيل عليه السلام مرشد لرسول الله ﷺ، ألا ترى أنه أرشده إلى أن انتهى إلى سدرة المنتهى، ثم انقطع ذلك وكان الأمر بينه وبين الله صورة ومعنى؛ فإن سر العبد لا حكم عليه لأحد إلا لله، ولهذا جاء في أدب أهل الطريقة أن المريد إذا أراد أن يذهب لحاجة ولم يجد الشيخ في مكانه يتوجه إلى روحانيته ويستأذن من الباطن، فإن ما لا يدرك كله لا يترك كله ولمقصود المتابعة، وهي حاصلة في كلتا الصورتين أي: في صورة وجود الشيخ وعدمه؛ فإن انعدام وجوده في مكانه في الظاهر لا يستلزم عدم وجوده في الخارج، والحاصل أنه فرق ما بين الحياة والممات، وإن كان الأنبياء والأولياء أحياء عند الله في جميع النشئات.

قال حضرة الشيخ: العلم يسوق إلى العرفان، وهو إلى المحبة، وهي إلى التعبد؛ لأن من له محبة الله يجهد في خدمته ويعبده لا لغرض، والمجاهدون في سبيل الله أفضل من القاعدين بالنص، قال: صاحب شيخي بعد ظهور هذا العلم - أي: علم الطريقة والمعرفة لقلبي ثلاث ثم استخلفني فصرت غريبًا وبقيت يتيمًا لكن الله ألبس وأنعم وأغنى وله الحمد، ألا ترى أن أحوال اليتامى في الخارج متفاوتة؛ فمنهم من يبقى على الغداء والجوع، ومنهم من يخلف له من يحتضنه فيراعيه كما يراعى الأبوان أولادهما، وإن الله حفظني عن الرخصة إلى الآن، وذلك في المطعم والملبس وغيرهما، وحبب إليّ الزهد وبغض التجمل، ومع هذا فأين نحن من كبار السلف في المجاهدة من تقليل الطعام والكلام والمنام والتكثير في الصيام والقيام.

قال حضرة الشيخ: إن الله تعالى يبتلي بعض العباد بالطلب من تحصيل المطلوب، وبعضهم يبتلي به مع حصول المطلوب المشروط به إما مقارنًا بطلبه، وإما بعده؛ لأن وقت الدعاء قد يفارق حصول المطلوب فيستجاب الدعاء في وقت ويحصل المطلوب في وقت آخر، وبعضهم لا يبتلي به بل يرسل فيضه بلا طلب ما لا شيء، والثاني طلب وشيء، والثالث شيء لا طلب.

قال حضرة الشيخ: كما أن الرزق الصوري ينقطع عند الموت الصوري وليس بعده إلا الحياة الأبدية كذلك الرزق المعنوي ينقطع عند الموت وليس بعده إلا الحياة الباقية، يعني: أن السالك إذا وصل إلى الفناء الكلي يستكمل حظه من جميع المقامات، ويأخذ نصيبه من جميع التعينات، وهي تجري مجرى الغذاء لروحه؛ فإذا

استوفى من كل مقام حظه كان كأن قد مات وآل إلى صورة أخرى لا تشبه حاله الأولى أصلاً، وذلك إنما يكون بعد أربعين سنة من أول سلوكه حين تسخير قواه الطبيعية والنقصانية بالكلية ومجيء الإمداد الملكوتي فليس المراد من هذا الفناء هو الذي يحصل قبل الفناء بل بعده فافهم.

قال: وهذا كما أن أهل الجنة يصلون لمقتضى الاستثناء الذي هو فعله إلا ما شاء ربك إلى مقام لا يشبه بالذي قبله أصلاً وذلك بعد طول العهد من دخول الجنة وعنده يظهر سر الأزل في مرآة الأبد، فكما أن مبدأ التعينات وهي الشئونات الغيبية هو أزل الأزلين كذلك ما بعد هذا المقام الذي وصلوا إليه بالتجلي المخصوص هو أبد الآبدين فالأبد المضاف هو ما بعد هذا التجلي والمضاف إليه ما كان قبله مذ دخولهم الجنة، وكذا الأزل فإن ما فوق هذا المبدأ هو الأزل المضاف وما تحته هو الأزل المضاف إليه، وهذا السر جار على أهل النار لكنهم أهل الجلال ومقام الفردية، ولذا تزوج لهم ولا تنعم بنعم أهل الجنة أهل الجمال ومقامهم مقام الصفة مقتضاها التنعم والتلذذ؛ فالفرق بين أهل الجنة وأهل النار أن لأهل الجنة ظهورًا بالصفات، وفي الظهور بطون، وهو سر الذات، وأن لأهل النار بطونًا، وليس في البطن ظهر.

قال حضرة الشيخ: إن الله تعالى يُشاهد الأشياء بعين الإنسان الكامل، وإن الإنسان الكامل إذا انتقل إلى البرزخ بالموت الصوري يزداد حظه من مقامه فهو في الترقي أبدًا في كل موطن.

قلت: تأخر ظهور المهدي إلى رأس المائة الثالثة.

قال: أكثر العلماء على هذا؛ فالظاهر أن الله يريح عباده قرنًا وهو إلى ثلاثين سنة ثم يضعف الحال بعد الخمسين إلى أن يظهر ما يظهر إلى ظهور المهدي.

قال حضرة الشيخ: إن أهل الجمال يتنفرون عن أهل الجلال بما اختصوا به من عنايته وبالعكس فكل منهما محجوب عن صاحبه في هذه الدار، وكذا في الدار الآخرة، وأما أهل الكمال فلهم إحاطة وسعة في الدارين ليست لغيرهم، فالمقربون واقفون على أحوال الأبرار ومكاشفون عن مقاماتهم ومواطنهم وهم محجوبون عن حال المقربين وكذا الأبرار واقفون على أحوال أصحاب المشأمة، وهم محجوبون عنهم وعن كل واحد من الأبرار وصاحب المشأمة متنفر عن صاحبه بخصوص مقامه، محجوب عنه بما اختص به.

قال حضرة الشيخ: إن الشيخ في هذا الزمان يرشد المريد إلى طريق العلم والعمل ثم يستخلفه من غير استحكام الحال إذ ليس لأبناء الزمان ملازمة باب المرشد أربعين سنة لعسرها فينتفعون بأقل قليل لكن الخليفة إذا ثبت في طريق الاجتهاد وصل إلى المراد ولو بعد حين، ومعنى زيارة الخليفة لشيخه النصح القولي والفعلي وتجديد النشاط لا تفرج البلدان ونحوه كما يفعله عامة الخلفاء في هذا الزمان، قال: هل وجدت مذ ما قدمت إلى الإسكوب وهو خمس عشرة سنة من يصاحبك على الحق؟ قلت: لا، قال: فعليك نفسك واستر حالك عن الأعيان ولا تكن من الخلفاء الذي يقبل الناس أيديهم، ويطمع لهم في الدنيا فينسون الحال التي كانوا عليه قبل فيردون إلى أسفل السافلين ولا يبقى عندهم من العلوم التي حصلت لهم في البداية إلا الخيال.

قال حضرة الشيخ: إن حاشيتي على تفسير الفاتحة للقونوي لا يضيعها الله وسوف تكون مددًا لأصحاب هذا الشأن إن شاء الله المنان، وإن الله الأكبر أنعم على مثل هذا العبد الأقل الأفقر بمثل هذه النعم الجليلة(١).

قال: وإن أقل وأفقر إلى الله الغنى الكبير؛ فالإضافة إليه لا إلى غيره، قال الإمام عليّ ﷺ: كفاني شرفًا أن تكون لي عزًا أو أن أكون لك عبدًا كما قال تعالى هو خالق العبد، فكذا جاعل للعبد عبدًا، وذلك يرفع هواه لا هو وهذا وقت الأصل، وهو وقت مبارك نسأل الله أن يجعل كل خاطر في المجلس عبدًا له حقيقيًا، ثم قال الفاتحة ثم بكى، وقال: لا تقنطوا من رحمة الله ألا ترون أن الصبي إذا لوث ثوبه وأرادت أمه وأبوه ضربه فإنه يلتجئ إليه لا إلى غيره فيرحمه ويغسل ثوبه ودرنه فنحن نلتجئ إلى الله بالتوبة والاستغفار كل حين وهما طهارة لنا عن كل دنس من الذنوب، ثم بكى شديدًا حتى قام إلى سنة العصر، وكان ذلك المجلس روضة من رياض الجنة، وقد شرف الله الحاضرين بدعائه المستجاب فلله الحمد.

دعا حضرة الشيخ من عنده للإفطار فجلسنا له، وبين أيدينا ماء وكعك مبلول؛ فقال بعد الإفطار: لهذا الخبز روح حقاني فظاهره يرجع إلى الجسد وروحه يرجع إلى الروح فيتقوى به الجسم والروح جميعًا، ولكل موجود روح إما حقاني أو

---

(١) قلت: نعم، فسيأذن الله بفضله ومنته الانتهاء من تحقيقها، وإخراجها إلى عالم النشر والطباعة على يدي العبد الفقير إن شاء الله تعالى، وهو الموفق والمعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

حيواني؛ فجسد الميت له روح حقاني أي: غير روحه الحيواني الذي فارقه ألا ترى أن الله تعالى لو أنطقه لنطق بإنطاق الله تعالى إنما هو روح حقاني، وقد جاء أن كل شيء يسبح بحمده، وما هو ألا لكونه ذا روح سواء كان حجرًا أو شجرًا أو غير ذلك.

قال حضرة الشيخ عند قوله تعالى: ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ [الإنسان:٣٠]: إن مشيئة الله وحدة، ومشيئة العباد كثيرة، والوحدة مبدأ الكثرة فكل مشيئتهم من مشيئة الله وتحريك قلة ليس بأهون عليه من تحريك جبل بل الكل عنده سواء.

قال حضرة الشيخ: ميقات الحج إشارة إلى الحد الفاصل بين عالم الملك والملكوت فمنه إلى الحرم ملكوت أفعالي، ومن الحرم إلى الكعبة صفاتي، والكعبة إشارة إلى الذات والحجر الأسود إلى النقطة، والمراتب الكونية مرتبة على ترتيب المراتب الإلهية فهذه الرسوم والآثار موافقة لتلك المعاني والأطوار فالتعين الأول الذي هو تعين بالقوة وهو مرتبة الشأن الغيبي لا غاية وراءه في الإلهيات كما لا غاية للكعبة في الكونيات والتوجه إلى القبلة رعاية للأدب الشرعي، وإلا فالحق مطلق عن الجهات والعارف متوجه بظاهره إلى الكعبة وبباطنه إلى الله تعالى فهو مطلق عن كل قيد في الحقيقة وفات عن إضافة كل مرتبة حتى عن التعين الأول فلا يبقى بالنسبة إليه إلا الله.

قال حضرة الشيخ: الظاهر والمظهر وجود الفارق، وهو الشريعة والعمل ولا فرق في الحقيقة والعلم الشريعة والعمل يصعد إلى جميع الحقيقة والعلم ولا جمعها ينـــزل إلى فرقها وبه يتخلص السالك عن الإلحاد والزندقة ثم ساق كلامًا آخر لا أذكره للعهد المأخوذ.

قال حضرة الشيخ: الشريعة فرقت بين الطيب والخبيث؛ فإن أكل الخبيث عائق من العروج إلى المبدأ، ولذا اختار السلطان التقوى والتزهد في المطعم؛ فإن له نفعًا لأنفسهم ولما ولد من أصلابهم.

قال الشيخ: لا بد للسالك من أن يكون في التجرد كتجرد الجنين في الرحم، وأما الكُمَّل فظهر بعضهم بالاسم الظاهر، وهو بإذن الله، ألا ترى أن حضرة الهدائي – قدس سره – كان في الظهور التام بالنسبة إلى شيخه الشهير باقتادة – قدس سره

- وهو في الخمول، وإنما جاءت الشهرة له من شهرة خليفته وهو الهدائي وظهورهم وتحملهم ليس لحظ النفس إذ ليس فيهم النفس الأمَّارة حتى يكون لها حظ بل الذات الأمارة فافهم، وقوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص:٣٥] حكاية عن سليمان الطَّيِّلا مبني على هذا؛ فإن الله تعالى خلق الداعية في قلب سليمان الطَّيِّلا لهذا الدعاء فدعا به فاستجاب الله تعالى دعاءه وأعطاه الملك والسلطنة كما أعطاه الخلافة والنبوة، وهو قد امتثل لأمر الله تعالى في ذلك؛ فقيل: في الدنيا، وقيل: دخول الجنة بعد خمسمائة سنة من دخول الفقراء، ولم يطمع في الدخول معهم وامتثل في ذلك لأمر الله.

قال: وأما أنا فقد سلب الله عن قلبي التجلي بالكلية حتى أني لو ركبت دابة ومعي جمع من الصوفية كان ذلك أشد عليَّ من عذاب جهنم؛ لأن الله تعالى لم يخلق الداعية له.

قال حضرة الشيخ تحديثًا لنعم الله تعالى عليه: إن الله تعالى لم يعط لحضرة الهدائي ما أعطاني من الآثار؛ فإن الله تعالى وفقني لتصنيفات في علم الشريعة والحقيقة وبث مني خلفاء يزيدون على مائة كلهم قادرون على الوعظ والتدريس، وإحياء الدين بحسب ظاهره وباطنه بقدر الإمكان وذلك لطف عظيم من الله تعالى إذ كان العلم قد مات في هذا الزمان في أكثر البلدان فأحياه الله تعالى بي؛ فالحمد لله على ذلك.

قال: إن مثلك لم يظهر بين خلفاء الهدائي أقول هذا الكلام إظهارًا للطف في حقي، وأنا بفضل الله أفتخر لا بغيره، وأسأل الله ألا يوقعني في ورطة الكبر والعُجب.

قال تعالى: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب:٨] أي: عنده لا عندهم كذا فسره الجنيد، وهو معنى لطيف؛ فإن الصدق والإسلام عند الخلق سهل، ولكن عند الحق صعب؛ فنسأل الله أن يجعل إسلامنا وصدقنا حقيقيًا مثل حضرة الشيخ التعينات بقوله: إذا قلنا الكلام إما خبرًا وإنشاءً، كان أصل الخبر الكلام، فله تعين بالكلامية لكن الكلام في نفس الأمر مجرد عن هذا التعين في صورة الخبر فقس عليه حال التعين الأول مع التعينات الأُخر.

قال حضرة الشيخ: إن السالك حين صعوده إلى المبدأ الأعلى ينحل عن كل عقد وقع له في المراتب والأطوار، وهو عقد التعين بتلك المرتبة إلى أن ينتهي إلى

التعين الأول ثم ينسلخ عنه فيحصل له الفناء التام؛ فإن أعيد إلى حيث ما ابتدأ منه يتلبس بلباس البقاء ثم يمر على تلك المراتب جميعها فلا يبقى له غير وجود الحي ولكونه عين الحق فيبصر به وسمعه يسمع به وهكذا فالعابد والمعبود والشاهد والمشهود إذا هو الله لا غير.

أقول: ظهر من هذا سر قولهم: الفقير لا يحتاج إلى الله، وذلك لأن مثل هذا الفقير كان غنيًا بالله أو لا وجود له سوى وجود الله فلا غناء له إلا غناء الله فيرتفع إضافة الاحتياج كما أن من كان خزانة السلطان بيده كيف يحتاج إلى شيء بل إلى السلطان غناهما غناء واحد، والشيء لا يحتاج إلى نفسه فافهم؛ فإنه مزالق الأقدام.

قال حضرة الشيخ: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾ [الرحمن:٢٦] فإذا كان «من» فانيًا فكل ما يتبع «من» فهو فان أيضًا.

ثم قال: [.....] قال: من خدم، أي: خدم في الدنيا والآخرة؛ فإن الله تعالى لا يضيع الخدمة، استأذن يعقوب دده الاسكوبي من أتباع هذا الفقير للذهاب إلى حضرة الكعبة من البحر وقد جاء معي من بروسة إلى زيارة حضرة الشيخ في ماغوسة، فقال حضرة الشيخ: هل لك مائة دينار؟ قال: لا، قال: فاسمع، إن الشيطان إذا لم يقدر على إضلال الإنسان وإذلاله من طريق الباطل؛ فإنه يجيء من طريق الخير مثلاً يعلم لو كلفك بالقتل وشرب الخمر ونحوهما أنك ما تساعده في ذلك فيوسوس في الحج ليقطعك عن طريق العلم والعمل؛ فإنك قبل أن تصل إلى مصر يحصل لك ملال من الطريق فيتشوش البدن والخاطر، ثم يزداد ذلك يومًا فيومًا فيحصل الفتور في العبادات بل تترك بعض الأوراد المعتادة فلو أقمت في حجرتك وكنت على العلم والعمل مواظبًا لكان خيرًا لك؛ فإن ما أردت من ثواب الحج يحصل في تلك الحجرة أيضًا والمقصود العبودية والاشتغال بالعلم والعمل والحضور أعون شيء لذلك.

ثم قال: جاء إلى شيخي مرة واحد من العلماء من أتباعه، يقال له: مصطفى أفندي فاستأذن للخروج إلى مكة كما استأذنت أنت، فقال له: يا مصطفى أفندي ما دامت هذه النفس وصفاتها فيك لا يفيد لك الكعبة، ولو اتخذتها حجرة تسكن فيها صباحًا ومساءً، فالمرء بإصلاح النفس يستريح لا بغيره، ولها مكر خفي لا يقف عليه إلا من وفقه الله تعالى.

قال: احمد الله تعالى يا يعقوب دده على أن وفقك لتلاوة كتابه، وجعل

مشيئتك إلى مثل هذا، وأشار إلى الفقير وجردك عن علاقة الأهل والأولاد في هذا الزمان الهائل.

ثم قال: هل قبلت؟ قال: قبلت، واستسلمت؛ فإن المقصود هو الرضا.

قال حضرة الشيخ: إن الله تعالى إذا أراد إظهار شيء يجعله من جهة المظاهر أي: إن القلم لا يكتب بنفسه، وإنما يكتب به الكاتب فالقلم آلة لظهور فعل الكتابة، فإذا أراد الكاتب تبديل الكتابة بكتابة أخرى يأخذ قلمًا آخر ويترك القلم الأول أو لا يترك بل كتب به غير ما كتب في المرة الأولى.

أقول: أراد أن الله تعالى أرسلني إلى هنا لا لوزير وهو بمنـــزلة القلم في ذلك؛ فإذا أراد نقلي من هنا يجدد الوزير فيكون الجديد بمنـــزلة القلم في الآخر ويليهم إليه من غير تجديد فيجدد الكتابة في حقي بأن يكتب الإثبات بدل النفي.

تلا حضرة الشيخ قوله تعالى: **﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً﴾** [الحديد:٢٠] فدعاني فأراني نباتًا مصفرًا في محل مرتفع؛ فقال: كان هذا قبل قدومك إلى هنا أخضر غضًّا يعجب الرائين الناظرين، فآل أمره إلى ما ترى.

أقول: إن قلت: ما فائدة البيان وهو معلوم؟

قلت: إن الرؤية ليست كالإراءة، وفي الإراءة سر قوله تعالى: **﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ﴾** [فصلت:٥٣] فافرق بين الخبر والنشأة هذه الإراءة.

قال حضرة الشيخ: إن أهل النار يدخلون النار بقدر طاقتهم أي: عذابهم فيها؛ فإن الله تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وليس الأمر كما يزعمه أهل الرسوم.

قال حضرة الشيخ: لا تدعو على أحد؛ فإنك إن تجاوزت الحدَّ فيه فأنت ظالم والمدعو عليه مظلوم، وإن عدلت وساويت؛ فهو رخصة كما قال تعالى: **﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾** [الشورى:٤٠]، وإن عفوت؛ فهو أولى ألا ترى إلى قوله تعالى: **﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾** [الشورى:٤٠]، ولا يجوز الشكاية من الحق إلى الحق ولا من الخلق إلى الخلق واللازم مشاهدة المؤثر الحقيقي؛ فإنه هو الفاعل لا غير.

قال حضرة الشيخ: إن للإنسان أفكارًا مختلفة؛ فإن فكرًا غلب عليه، فهو على صورته يموت ويغلب عليه في حال احتضاره، والإنسان الكامل يختم له بالأُنس بالله

إذ ليس له فكر غير الله، وهو الذي يُراد بحسن العاقبة وحسن الخاتمة.

وهذا آخر كلمات الشيخ روح الله روحه في الزيارة القبرصية، وقد اختصرت في كل زيارة على إنشاء بعض كلماته دون كلها إذ لا نصية الأوراق، وقبل هذه الزيارة أُخر لم أكتب كلماتها أصلاً، وإذا أردت أن أكتب ما هو أُنموذج الكلمات وثمرات معارف الشيخ والقطرة تدل على الغدير، وقد كتب قبلي حضرة الهدائي الكلمات الواقعة بينه وبين شيخه باقتادة البرسوي، لكنها تشتمل على حشو وتكرار كثير، والحمد لله على ما أنعم به عليَّ في الباب؛ فإن كتابي هذا جاء مشتملاً على قواعد كثيرة من أنواع، فإن افتخر الأماثل بشيوخهم وكلماتهم، فأنا أفتخر بفضل الله تعالى، وقد أراني من الأولياء، ولو كان الهدائي وباقتادة في الحياة لكانا أول المبايعين له -فرضي الله عنهم، وعمن سلك مسلكهم، وتابعهم في طريقتهم- وشم رائحة من بساتين معرفتهم وحقيقتهم، وجعلني وإياكم من الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر، وأراني وإياكم آياته الآفاقية والأنفسية بالبصيرة والبصر؛ إنه الهادي ومنه التوفيق الخاص، والالتحاق بأهل الاختصاص[1].

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلم كثيرًا

* * *

(١) قلت: تم بحمد الله وتوفيقه جمع وترتيب وتحقيق وتعليق وتخريج هذا الكتاب «مـرآة الحقـائق» للشيخ إسماعيل حقي -قدس سره- في الثالث من شهر شعبان المبارك سنة ١٤٢٧ هـ، على يد العبد الحقير الفقير: أبو الحسن والحسين أحمد فريد المزيدي، وذلك بدارنا الحقيقة المحمدية لتحقيق وبحث تراث السادة الصوفية والله الهادي سواء السبيل (جوال ٠١٠١٤٦٣٠٢٧) القاهرة.

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث

فهرس الواردات واللطائف

فهرس الواردات